



# نَفْحَاتُ الرَّحْمَنِ

فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

تأليف الشيخ محمد بن عبد الرحيم النماوندي

تحقيق قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة

المجلد الخامس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ





**نفحات الرحمن**

**في**

**تفسير القرآن**

تأليف

الشيخ محمد بن عبد الرحيم النهاوندي

(١٢٩١-١٣٧١هـ)

الجزء الخامس

تحقيق

قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة - قم

نهاوندى، محمد ۱۲۵۲ - ۱۳۳۰

نفحات الرحمن فى تفسير القرآن/تأليف محمد بن عبدالرحيم النهاوندى؛

تحقيق

قم: موسسه البعثة، مركز الطباعة و النشر ۱۳۸۶

ج.

دوره: X-۷۶۵-۳۰۹-۹۶۴، ج. ۱: ۵-۷۵۹-۳۰۹-۹۶۴، ج. ۲: ۹-۷۶۶-۳۰۹-۹۶۴، ج. ۳: ۷-۷۶۱-۳۰۹-۹۶۴، ج. ۴: ۵-۷۶۲-۳۰۹-۹۶۴، ج. ۵: ۳-۷۶۳-۳۰۹-۹۶۴، ج. ۶: ۱-۷۶۴-۳۰۹-۹۶۴، ج. ۷: ۳-۷۶۴-۳۰۹-۹۶۴

۹۶۴-۳۰۹

فيما

عربى.

كتابنامه.

تفسير شيعه - قرن ۱۴.

بنياد بعثت. واحد تحقيقات اسلامى

بنياد بعثت. مركز چاپ و نشر

BP۹۸/ن۹۷

۲۹۷/۱۷۹

م ۸۴/۳۷۴۹۰



## مركز الطباعة و النشر فى مؤسسة البعثة

نفحات الرحمن فى تفسير القرآن ج ۵

الشيخ محمد بن عبدالرحيم النهاوندى

تحقيق: قسم الدراسات الاسلامية - مؤسسة البعثة - قم

الطبعة الاولى ۱۴۲۹ق.

الكمية: ۲۰۰۰ نسخة

التوزيع: مؤسسة البعثة

طهران - شارع سميه - بين شارعى الشهيد مفتاح و فرصت - الرقم ۱۰۹

هاتف: ۸۸۸۲۲۳۷۴ فاكس: ۸۸۳۲۵۴۶۴

جميع الحقوق محفوظة و مسجلة لمؤسسة البعثة

شابک ج. ۵: ۳-۷۶۳-۳۰۹-۹۶۴

شابک دوره: X-۷۶۵-۳۰۹-۹۶۴

## في تفسير سورة القصص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طس \* تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ \* تَتْلُوا عَلَيْهِ مِنْ نَبَاِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ  
بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ \* إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعاً  
يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذِخُّ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ  
الْمُفْسِدِينَ \* وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ  
أُئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ \* وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ  
وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ [١-٦]

لما ختم سبحانه سورة النمل المفتحة بذكر فضيلة القرآن المتضمنة لبيان تفضلاته على الأنبياء، وحججه على التوحيد والمعاد، وإنعامه على المؤمنين في الآخرة، وحرمة مكة، وترغيبه في تلاوة القرآن المختمة بأمر النبي بالحمد على تفضله عليه بالحكمة والنبوة، وتهديد مكذبيه بإراءتهم العذاب في الآخرة، اردفها في النظم بسورة القصص المفتحة بذكر عظمة القرآن المتضمنة لتفضلاته على موسى، ومثته على المؤمنين به باهلاك أعدائهم وأخلافهم في الأرض، وإثبات التوحيد والمعاد، وبيان حرمة الحرم، وفضل نبينا، وصدق كتابه، ورجوع أمر النبوة إلى اختيار الله، واختصاص الحمد في الدنيا والآخرة به، وغير ذلك من المطالب المناسبة لما في السورة السابقة، فابتدأها على حسب دأبه في كتابه بذكر أسمائه المباركات تعليماً للعباد بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ثم افتتحها بالحروف المقطعة بقوله: ﴿طس﴾. وقد مر تأويلها، وما ذكره كثير من العامة في تأويلها تخرض بالغيب واتباع للمتشابه.

ثم عظم سبحانه السورة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ السورة أو الآيات ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ والقرآن الموضح للحق وطريق الرشاد، أو الموضح لكونه من الله باشماله على المعجزات، أو لصدق نبوة محمد ﷺ. أو المبين للحلال والحرام وكيفية التخلص من شبهات الضالين وقصص الأولين.

ثم شرع في قصة موسى بقوله: ﴿تَتْلُوا﴾ ونقرأ ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد بواسطة جبرئيل بعضاً ﴿مِنْ نَبَاِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ﴾ وجملته من خبرهما الذي له شأن حال كوننا ملتبسين ﴿بِالْحَقِّ﴾ والصدق ليكون

نافعاً ﴿لَقَوْمٌ يُؤْمِنُونَ﴾ وإن كانت التلاوة لهم ولغيرهم إتماماً للحنة.

ثم كأنه قيل: ما كان نبأهما؟ فأجاب بقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا﴾ واستكبر ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وادعى ما ليس له ﴿وَجَعَلَ﴾ بترفعه ﴿أَهْلَهَا﴾ وشكأنها ﴿شِيعاً﴾ وفرقاً يتبعونه، أو أصنافاً معدة في الاستخدام بتعيين كل صنفٍ لعملٍ من بناءٍ وحرثٍ وحفرٍ وغيرها، أو أحزاباً متعادية بعضهم مع بعض، ليكونوا متفقين على طاعته، أو مختلفة في الاعزاز والإذلال والراحة والمشقة، كالقبطيين المتنعمين في الراحة، والاسرائيليين الذليلين المستعبدين، ويرجح هذا الوجه قوله: ﴿يَسْتَضِيفُ﴾ ويقهر ﴿طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ يقال لهم بنو إسرائيل حيث إنه ﴿يُذْبِغُ أَسْنَاءَهُمْ﴾ ويكثر القتل فيهم ﴿وَيَسْتَحْيِي﴾ ويستبقي في الحياة ﴿نِسَاءَهُمْ﴾ لخدمة نسانه ونساء القبط ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ لجرأته على قتل تسعين ألف على ما قيل<sup>٢</sup> من صغار أولاد الأنبياء بتوهم فاسد، واستخدام نسانهم. عن ابن عباس: لما كثر العصيان في بني إسرائيل، وترك العلماء والعباد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، سَلَطَ الله عليهم القبط، فاستعبدوهم، وحملوا عليهم المشاق<sup>٣</sup>.

وروي أن فرعون رأى في المنام أنه ظهرت نارٌ من أحد جوانب بيت المقدس، فأحاطت بمصر وبيوته<sup>٤</sup>، فأحرق القبط جميعاً، ولم تعرض لبني إسرائيل، فسأل العلماء عن تعبيره، فقالوا: سيظهر في بني إسرائيل رجلٌ يكون هلاكك وهلاك مُلكك بيده، فأمر بقتل أبناء بني إسرائيل<sup>٥</sup>. وقيل: إن الأنبياء السابقين بشروا بمجيئه، وسمع فرعون ذلك<sup>٦</sup>.

﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى﴾ بني إسرائيل ﴿الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ﴾ بتخليصهم من الظلم والعبودية ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً﴾ وقادة في الدين ﴿وَنَجْعَلَهُمْ آلَؤَارِثِينَ﴾ لأرض مصر وأمتعة آل فرعون وأموالهم، وإنما قدم إمامتهم في الدين على وراثتهم الأموال في الذكر مع تأخرها عنها في الوجود لانحطاط رتبها عنها ﴿وَتُمْكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ التي يسكنها أعداؤهم من مصر والشام وتسلطهم عليها، وتُسكنهم ونفذ أوامرهم، ونبسط أيديهم فيها ﴿وَتُورِي فِرْعَوْنَ وَ﴾ وزيره ﴿هَامَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾ وعساكرهما ﴿مِنْهُمْ مَا كَانُوا﴾ منه ﴿يَخْذَرُونَ﴾ ويجتنبون خوفاً من هلاكهم وذهاب ملكهم على يد مولودٍ من بني إسرائيل.

عن الصادق عليه السلام: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَظَرَ إِلَى [عَلِيٍّ] وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ فَبَكَى وَقَالَ: أَنْتُمْ

٢. تفسير الرازي ٢٤: ٢٢٥، تفسير روح البيان ٦: ٣٨١.

١. تفسير روح البيان ٦: ٣٨٠.

٥. تفسير الرازي ٢٤: ٢٢٥.

٤. في تفسير الرازي: واشتملت على مصر.

٦. تفسير الرازي ٢٤: ٢٢٥.

المستضعفون بعدي» فقيل للصادق عليه السلام ما معنى ذلك يا بن رسول الله؟ قال: «معناه أنتم الأنمة بعدي، إن الله عز وجل يقول: ﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾» ثم قال: «فهذه الآية جارية فينا إلى يوم القيامة»<sup>١</sup>.

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام «هي لنا» أو «فيها»<sup>٢</sup>.

وفي رواية: نظر أبو جعفر إلى أبي عبد الله عليه السلام يمشي فقال: «أترى هذا من الذين قال الله عز وجل: ﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا﴾» الآية<sup>٣</sup>.

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ \* فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ \* وَقَالَتْ أَمْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنَ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ \* وَأَصْبَحَ قُودًا لِّمُوسَىٰ فَارْغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهِ لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ \* وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ [٧-١١]

ثم ذكر سبحانه أول مته على موسى بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ وقذفنا في قلبها، أو أريناها في المنام ﴿أَنَّ﴾ يا أم موسى ﴿أَرْضِعِيهِ﴾ ما لم تخفي عليه الطلب ﴿فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ﴾ الطلب بأن يجس به الجيران عند بكانه ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ والنيل.

وقيل: يعني إذا خفت حفظه وعجزت عن تديره فسلميه إلينا ودعيه في حفظنا ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ عليه ضيقاً وشدّة، ولا ضياعاً ولا هلاكاً ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ على فراقه ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ﴾ عن قريب بأحسن وجه وأطف تدبير ﴿وَجَاعِلُوهُ﴾ مرسلًا ﴿مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

عن ابن عباس: أن أم موسى لما تقارب ولادتها، كانت قابلة من القوابل التي وكلهن فرعون بالحبال مصافية لأم موسى، فلما أحست بالطلق أرسلت إليها وقالت لها: قد نزل بي ما نزل، ولينفني اليوم حبك إني، فجلست القابلة، فلما وقع موسى على الأرض هالها نور بين عينيه، فارتعدت مفاصلها، ودخل حب موسى في قلبها، فقالت: يا هذه ما جئتك إلا لقتل مولودك، ولكني

٢. أمالي الصدوق: ٧٦٩/٥٦٦، تفسير الصافي: ٤: ٨١.

٤. تفسير روح البيان: ٦: ٣٨٣.

١. معاني الأخبار: ١/٧٩، تفسير الصافي: ٤: ٨٠.

٣. مجمع البيان: ٧: ٣٧٥، تفسير الصافي: ٤: ٨٠.

وجدت لابنك هذا حباً شديداً، فاحتفظي بابنك، فأني أراه عدونا، فلما خرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العيون، فجاء إلى بابها ليدخل عليها، فقالت أخته: يا أمّاه، هذا الحرس، فلفته ووضعت في ثوبٍ مسجورٍ، فطاش عقلها فلم تعقل ما تصنع، فدخلوا فاذا الثوب مسجورٌ، ورأوا أم موسى لم يتغير لها لون، ولم يظهر لها لبنٌ، فقالوا: لِمَ دخلت القابلة عليك؟ قالت: إنها حبيبة لي دخلت للزيارة، فخرجوا من عندها، ورجع إليها عقلها، فقالت لأخت موسى: أين الصبي؟ قالت: لا أدري، فسمعت بكاءً في الثوب، فانطلقت إليه، وقد جعل الله النار عليه برداً وسلاماً، فأخذته.

ثم لما رأت أم موسى فرعون مُجدّداً في طلب الولدان، خافت على ابنها، فكدف الله في قلبها أن تتخذ لها تابوتاً، ثم تقدف التابوت في النيل، فذهبت إلى نجارٍ من أهل مصر، فاشتريت منه تابوتاً، فقال لها: ما تصنعين به؟ فقالت: ابنٌ لي أخشى عليه كيد فرعون، أريد أن أخبئته فيه، وما عرفت أنه يُنفي ذلك الخبر، فلما انصرفت ذهب النجار إلى فرعون ليُخبر به الذباحين، فلما جاءهم أمسك الله لسانه، وجعل يشير بيده، فضربوه وطرده، فلما عاد إلى موضعه ردّ الله عليه نطقه، فذهب مرة أخرى ليُخبرهم به، فضربوه وطرده، فلما عاد إلى موضعه ردّ الله عليه نطقه، فذهب مرة أخرى ليُخبرهم به، فضربوه وطرده، فأخذ الله بصره ولسانه، فجعل الله تعالى إن ردّ عليه بصره ولسانه لا يدّ لهم عليه، فعلم الله منه الصدق، فردّ عليه بصره ولسانه، وانطلقت أم موسى وألقته في النيل، وكان لفرعون بنتٌ، لم يكن له ولدٌ غيرها، وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها إلى أبيها، وكان بها برّصٌ شديدٌ، وكان فرعون شاور الأطباء والسحرة في أمرها، فقالوا: أيها المليك، لا تبرا هذه إلا من قِبل البحر، يوجد منه شبه الإنسان فيؤخذ من ريقه، فيُلطّح به برّصها فتبرأ من ذلك، وذلك في يوم كذا في شهر كذا حين تشرق الشمس.

فلما كان ذلك اليوم غدا فرعون إلى مجلسٍ كان له على شفير النيل، ومعه أسيّة بنت مزارحم، وأقبلت بنت فرعون في جواربها حتى جلست على الشاطئ، إذ أقبل بتابوتٍ تضربه الأمواج، وتعلّق بشجرة، فقال فرعون: خذوه. **﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾** وصانوه من الضياع **﴿لِيَكُونُ لَهُمْ﴾** في العاقبة **﴿عَدُوًّا﴾** يغرّقهم في البحر **﴿وَ﴾** لئسناهم **﴿حَزَنًا﴾** على هلاك رجالهنّ وصيُورتهنّ إماء لهم، فشبه سبحانه العداوة والحزن بالعلّة لفعلهم لتربيتهما عليه **﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا﴾** في عقاندهم وأعمالهم **﴿خَاطِئِينَ﴾** ولذا قتلوا ألوفاً لأجل موسى، ثم أخذوه يربّونه ليكبّر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون منه.

فلما رأى فرعون التابوت المظلي بالخير، أمر بفتح بابه فلم يقدر، ثم عالجوا كسره فلم يقدر،



فَنظَرْتُ أَسِيَةً فَرَأَتْ نُورًا فِي جُوفِ الثَّابُوتِ لَمْ يَرِهِ غَيْرُهَا، فَعَالَجَتْهُ وَفَتَحَتْهُ، فَادَّاهَا بِبَصْبِي صَغِيرًا يَتَلَأَلُ النُّورُ مِنْ بَيْنِ عَيْنَيْهِ، فَالْقَى اللَّهُ مُحِبَّتَهُ فِي قُلُوبِ الْقَوْمِ، وَعَمَدَتْ ابْنَةُ فِرْعَوْنَ إِلَى رِيقِهِ فَطَلَخَتْ بِهِ بَرَصَهَا فَبُرِنَتْ، فَضَمَّتْهُ إِلَى صَدْرِهَا<sup>١</sup>.

وقيل: إِنَّهَا لَمَّا رَأَتْهُ بُرِنَتْ، فَقَالَ الْعَوَادَةُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ: إِنَّا نَظُنُّ أَنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي تَحْذَرُ مِنْهُ، فَرَمَيْ فِي الْبَحْرِ خَوْفًا مِنْكَ، فَهَمَّ فِرْعَوْنَ بِقَتْلِهِ<sup>٢</sup>.

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُهُ فِرْعَوْنُ﴾ - وكانت من خيار نساء بني إسرائيل من سبط لاوي على ما قيل<sup>٣</sup>. وقيل: كانت عَمَهُ مُوسَى، لَمَّا أَخْرَجَتْهُ مِنَ الثَّابُوتِ، وَأَحْبَبَتْهُ لِلنُّورِ الَّذِي بَيْنَ عَيْنَيْهِ<sup>٤</sup>، أَوْ لِمَلَاخَةِ وَجْهِهِ، أَوْ لِبَرِّهِ بَنَتَهُ بِرِيقِهِ، أَوْ لِأَنَّهُ يَمْتَصُّ إصْبَعَهُ، أَوْ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ذَكَورٌ<sup>٥</sup> -: يَا فِرْعَوْنَ هَذَا الطِّفْلُ ﴿قُرِئَتْ عَيْنِي﴾ وَسُرُورُ قَلْبِي ﴿لِي وَلَكَ﴾ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَالَ فِرْعَوْنَ قَرَّةَ عَيْنٍ لَكَ، وَأَمَّا أَنَا فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهِ. فَقَالَ ﷺ: «وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ لَوْ أَقْرَ فِرْعَوْنَ بِأَنَّهُ قَرَّةَ عَيْنٍ لَهُ كَمَا أَقْرَتْ، لَهْدَاهُ اللَّهُ كَمَا هَدَاهَا»<sup>٦</sup>. ثُمَّ لَمَّا اطَّلَعَتْ عَلَى أَنَّ فِرْعَوْنَ هَمَّ بِقَتْلِهِ اسْتَوْهَبَتْهُ مِنْهُ وَقَالَتْ: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ وَإِنَّمَا خَاطَبَتْهُ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ تَعْظِيمًا لَهُ، لِتُسَاعِدَهَا عَلَى مَسْأَلَتِهَا، ثُمَّ ذَكَرَتْ مَا يُرْغِبُهُ فِي إِجَابَتِهَا بِقَوْلِهَا: ﴿عَسَى﴾ وَنَرَجُو ﴿أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ وَيَصِلَ إِلَيْنَا مِنْ خَيْرٍ كَثِيرٍ لَمَّا فِيهِ مِنْ أَمَارَةِ الْيَمْنِ وَالْبَرَكَةِ، مِنْ لِمَعَانِ النُّورِ مِنْ وَجْهِهِ، وَارْتِضَاعِهِ مِنْ إصْبَعِهِ، وَشِفَاءِ الْبَنَتِ بِرِيقِهِ ﴿أَوْ تَنْجِذَهُ﴾ لِأَنفُسِنَا ﴿وَلَدًا﴾ لِكُونِهِ أَهْلًا لِلتَّبَنِي لِلْمَلُوكِ، فَأَجَابَ فِرْعَوْنَ مَسْأَلَتَهَا وَوَهَبَ لَهَا، فَاشْتَغَلَ فِرْعَوْنَ وَأَسِيَةً وَخَدَمَهَا بِتَرْبِيَتِهِ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بِخَطَأِهِمُ الْعَظِيمِ فِي رَجَاءِ النِّفْعِ مِنْهُ وَالتَّبَنِي لَهُ وَتَرْبِيَتِهِ، لِكُونِ هَلَاكِهِمْ وَذَهَابِ مُلْكِهِمْ بِيَدِهِ ﴿وَأَصْبَحَ﴾ وَصَارَ ﴿قَوَادُّمَ مُوسَى﴾ لَمَّا سَمِعَتْ أَنَّ وَلَدَهَا فِي يَدِ فِرْعَوْنَ ﴿فَارِغًا﴾ وَخَالِيًا مِنَ الْعَقْلِ وَالصَّبْرِ مِنْ فَرَطِ الْخَوْفِ، أَوْ خَالِيًا مِنْ كُلِّ هَمٍّ إِلَّا هَمَّ مُوسَى، أَوْ خَائِفًا وَمُشْفِقًا عَلَيْهِ، أَوْ فَارِغًا مِنَ الْوَحْيِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْهَا قَبْلَ وَنَاسِيًا لَهُ.

قيل: إِنَّ الشَّيْطَانَ جَاءَهَا، فَقَالَ لَهَا: كَرِهْتَ أَنْ يَقْتَلَ وَلَدُكَ وَيَكُونَ لَكَ الْأَجْرُ، فَتَوَلَّيْتَ إِهْلَاكَه وَابْتَلَيْتِ بِالْعُقُوبَةِ، فَلَمَّا اطَّلَعْتَ أَنَّ وَلَدَهَا وَقَعَ فِي يَدِ فِرْعَوْنَ أَنْسَاهَا عِظَمَ الْبَلَاءِ عَهْدَ اللَّهِ إِلَيْهَا<sup>٧</sup> ﴿إِنْ الشَّأْنُ أَنَّهُ﴾ كَادَتْ ﴿وَقُرِئَتْ﴾ تَلْبِئِي بِمُوسَى وَتَظْهَرُ ﴿بِهِ﴾ مِنْ ضَعْفِ الْبَشَرِيَّةِ وَفَرَطِ الْاضْطِرَابِ. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَادَتْ تُخْبِرُ بَأْنَ مَا وَجَدْتُمُوهُ ابْنِي<sup>٨</sup>.

١. تفسير الرازي ٢٤: ٢٢٧.

٢. تفسير الرازي ٢٤: ٢٢٨.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٨٤.

٤. تفسير روح البيان ٦: ٣٨٤.

٥. تفسير الرازي ٢٤: ٢٢٨.

٦. تفسير الرازي ٢٤: ٢٢٨.

٧. تفسير الرازي ٢٤: ٢٢٩.

٨. تفسير الرازي ٢٤: ٢٣٠.

١٠ ..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٥

وعن الباقري عليه السلام: «كادت تخبر بخبره أو تموت»<sup>١</sup> «لَوْلَا أَنْ رَئَيْنَا» وَشَدَدْنَا «عَلَى قَلْبِهَا» بالصبر والنيات بتذكرها ما وعدناه من رده إليها سالماً وجعله رسلاً.

وقيل: إن المراد صار فؤادها فارغاً من كل غم وخوف لما سمعت أن امرأة فرعون عطف عليه، وكادت تبدي أنه ولدها، ولم تملك نفسها فرحاً لولا أن سكنا ما بها من شدة الفرح<sup>٢</sup>، وعلى أي تقدير كان ذلك الربط «لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» والمصدقين بقدرتنا وصدق وعدنا «وَقَالَتْ» أم موسى «لِأُخْتِي» لأبيه وأمه اسمها مريم أو كلثوم: «قُصِيْهِ» وفُتْشِي خبره، واتبعت أثره، وانظري كيف حاله، فجاءت إلى باب فرعون «فَبَصُرَتْ بِهِ» ورأته «عَنْ جُنُبٍ» وناحية بعيدة عند فرعون وأهله «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» ولا يلتفتون إلى أنها أختها جاءت لتعرف حاله وتفتش كيفية تعيشه.

وَحَرَّسْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ \* فَزَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [١٢ و ١٣]

ثم بين الله تعالى تدبيره في رد موسى عليه السلام إلى أمه حسب وعده إياها بقوله: «وَحَرَّسْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ» ومنعنا عنه لبن المرضعات، أو ثديات<sup>٣</sup> النساء بالثأر عنها. قيل: إن أمه أرضعته ثلاثة أشهر حتى عرّف ربحها<sup>٤</sup>.

قيل: لم يقبل ثدي أحد ثمانية أيام، وكان يرتضع من لبن يخرج من إصبعه، فاضطربت آسية وقومها من ذلك، «فَقَالَتْ» أخت موسى لفرعون وأهله بعد أن رأت عدم قبول موسى ثدي أحد، واعتناء فرعون بشأنه، وطلبهم امرأة يقبل ثديها: «هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ» وَيَضْمَنُونَ إرضاعه وتربيته «وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ» وكل لنفعه وخيره طالبون، وبخضاته مجدون؟ قيل: إن هامان قال: إنها تعرفه وتعرف أهله. قالت: إنما أردت إن هم للملك ناصحون<sup>٥</sup>.

رؤي أنهم قالوا لها: من يكفله؟ قالت: أمي. قالوا: ألامك لبن؟ قالت: نعم، لبن هارون، وكان هارون ولد في سنة لا يقتل فيها صبي، فقالوا: صدقت<sup>٦</sup>.

وقيل: إنها قالت: هي امرأة قد قُتِل ولدها، فأحببت أن تتخذ صغيراً ترضعه. قالوا: اذهبي وأتيننا بها، فرجعت إلى أمها فأخبرتها بالقصة، فجاءت مع ابنتها إلى فرعون، فرأت موسى عنده وهو يبكي،

٢. تفسير الرازي ٢٤: ٢٢٩.

٤. تفسير الرازي ٢٤: ٢٣٠.

٦. ايضاً.

١. تفسير القمي ٢: ١٣٦، تفسير الصافي ٤: ٨٢.

٣. كذا، وجمع الثدي: أثد أو ثدي.

٥. تفسير روح البيان ٦: ٣٨٧.

وفرعون يُسَلِّيه ويلعب معه، لشدة حبه إياه، فلما رأى أم موسى أعطاها موسى، فاحتضته وألصقته ثديها، فلما شَمَّ موسى رائحة أمه أخذ ثديها، فقال فرعون: مَنْ أنت منه، فقد أبى كلَّ ثدي إلا ذلك؟ قالت: أنا امرأة حسنة الخلق، طيبه الريح واللبن، لا أوتى بصبي إلا ثديي، فدفعه إليها وأجرى عليها أجرها كلَّ يوم دينار، وقال: آتيني بها كلَّ أسبوع مرة، فرجعت به إلى بيتها من يومها مسرورة<sup>١</sup>، فأخبر الله تعالى بانجاز وعده بقوله: ﴿فَرَدَدْنَاهُ﴾ وأرجعناه ﴿إِلَىٰ أُمِّهِ﴾ حسب وعدنا ﴿كَئِی تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بوصال ولدها ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ برفاقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ جميعه في حق موسى ﴿حَقٌّ﴾ وصدق لا يمكن الخلف فيه ﴿وَلِكِنَّ﴾ الناس أو آل فرعون ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بصدق مواعيده.

ثم قيل: إنَّ موسى مكث عند أمه إلى إطامه، ثم رَدَّته إلى فرعون وآسية، فنشأ في حجرهما يربّياه بأيديهما واتّخذاه ولداً، فبينما هو يلعب يوماً بين يدي فرعون ويده قضيب له يلعب به، إذ رفع القضيب فضربه على رأس فرعون، فغضب اللعين، وتطير من ضربه، وهم بقتله، فقالت آسية: أيتها الملك لا تشقن عليك ولا تغضب، فإنه صبي صغير لا عقل له، وإن شئت اجعل في الطشت جمرأ وذهبأ، فانظر إلى أيهما يقبض، فأمر فرعون بذلك، فلما مدَّ موسى يده إلى الذهب قبض الملك المؤكل به على يده، فردها إلى الجمر، فقبض موسى عليها، فالتقاها في فيه، ثم قذفها حين وجد حرارتها، فقالت آسية: ألم أقل لك إنه لا يعقل شيئاً، فصدّقها وكف عنه<sup>٢</sup>.

ثم روي عن الباقر عليه السلام: «أنه لم يزل موسى عند فرعون في أكرم كرامة حتى بلغ مبلغ الرجال» الخبر<sup>٣</sup>.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ \*  
وَدَخَلَ الْمَدْيَنَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفَلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ  
شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَنَافَتْهُ الَّتِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّتِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَّرَهُ  
مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ \* قَالَ رَبِّ  
إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [١٤-١٦]

ثم أخبر الله بنبوته بقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ وكمال قوّته في جسده، وهو على ما قيل ما بين ثماني عشر الى ثلاثين<sup>٤</sup>. وعن ابن عباس: إلى أربعين<sup>٥</sup> ﴿وَاسْتَوَىٰ﴾ واعتدل وكمل عقله.

٢. تفسير روح البيان ٦: ٣٨٨.

٤. تفسير الرازي ٢٤: ٢٣٢، تفسير روح البيان ٦: ٣٨٨.

١. تفسير روح البيان ٦: ٣٨٧.

٣. تفسير القمي ٢: ١٣٧، تفسير الصافي ٤: ٨٣.

٥. تفسير الرازي ٢٤: ٢٣٢.

قيل: هو عند بلوغ أربعين سنة<sup>١</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: «أشدّه ثمانى عشر، واستوى أي التحى»<sup>٢</sup> «آتَيْنَاهُ» وأعطيناه «حُكْمًا» ونبوة، أو حكمة «وَعِلْمًا» بالدين «وَكَذَلِكَ» الجزاء الجزيل الذي أعطيناه موسى على إحسانه في العمل «نَجَزَى الْمُحْسِنِينَ».

روي عن الباقر عليه السلام: «أن فرعون كان يُنكر ما يتكلّم به موسى من التوحيد [حتى هم به] فخرج موسى من عنده»<sup>٣</sup>.

وعنه عليه السلام قال: «كانت بنو إسرائيل تطلّب وتسال عنه عليه السلام، فُعِمِّي عليهم خبره، فبلغ فرعون أنهم يطّلبونه ويسألونه، فأرسل إليهم، وزاد عليهم في العذاب، وفرّق بينهم ونهاهم عن الأخبار به والسؤال عنه، فخرجت بنو إسرائيل ذات ليلة متعمّرة إلى شيخ لهم عنده علم، فقالوا: كنّا نستريح إلى الأحاديث، فحتى متى نحن في هذا البلاء؟ قال: إنكم لا تزالون فيه حتى يُحيي الله من ولد لاوي بن يعقوب اسمه موسى بن عمران غلام طوال جعد، فبينما هم كذلك إذ أقبل موسى عليه السلام على بغلة حتى وقف عليهم، فرفع الشيخ رأسه فعرفه بالصفة، فقال ما أسمك؟ قال: موسى. قال: ابن من؟ قال: عمران؟ فوثب إليه الشيخ فأخذ بيده فقبلها، وثاروا إلى رجله فقبلوها، فعرفهم وعرفوه واتّخذ شيعه»<sup>٤</sup>.

وقيل: إنّه لما كبر كان يلبس الثياب الفاخرة، ويركب المراكب الفارهة الخاصة لفرعون، وكان يقال له موسى فرعون، فركب فرعون يوماً وموسى غائب، فلما جاء موسى عليه السلام سأل عن فرعون، فقالوا: ذهب إلى موضع كذا، فذهب في طلب فرعون<sup>٥</sup> «وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ» التي يقال لها مدين، أو منف<sup>٦</sup> من أرض مصر، وهي مدينة فرعون التي كان ينزلها، وفيها كانت الأنهار تجري من تحت سريره، وكانت في غربي النيل على مسافة اثني عشر ميلاً من مدينه قسّاط مصر المعروفة يومئذ بمصر القديمة، ومنف أول مدينة عمّرت بأرض مصر بعد الطوفان، أو المراد مدينة مصر، وكان قصر فرعون على طرّف منها.

وعن الرضا عليه السلام: «هي مدينة من مدائن فرعون»<sup>٨</sup>.

١. تفسير روح البيان ٦: ٣٨٨.

٢. معاني الأخبار: ١/٢٢٦، تفسير الصافي ٤: ٨٣.

٣. تفسير الفمي ٢: ١٣٧، تفسير الصافي ٤: ٨٣.

٤. جعد الشعر: اجتمع وتقبض والتوى، فهو جعد، ووجه جعد: مستدير قليل اللحم.

٥. كمال الدين: ١٣/١٤٩، تفسير الصافي ٤: ٨٣.

٦. تفسير الرازي ٢٤: ٢٣٣.

٧. في النسخة: صنف، وكذا التي بعدها، تصحيف، انظر معجم البلدان ٥: ٢٤٧، وتفسير روح البيان ٦: ٣٩٠.

٨. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/١٩٨، تفسير الصافي ٤: ٨٣.

وكان دخول موسى ﷺ فيها ﴿عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ وفي وقت لا يعتاد دخولها فيه. عن ابن عباس: دخلها في الظهيرة عند المقييل<sup>١</sup>.

وفي رواية أخرى عنه: كان بين العشاءين، كما عن الرضا ﷺ<sup>٢</sup>.

وعن أمير المؤمنين: «دخلها في يوم عيد كان أهلها مشغولين باللهو واللعب، وكانت المسالك خالية من المارة»<sup>٣</sup> ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ ويتنازعان إذا نظر أحدهما إلى الآخر قال ﴿هَذَا﴾ الرجل الذي اسمه السامري على قول<sup>٤</sup>، أو ندمي على آخر من بني إسرائيل الذين هم ﴿مِنْ شِيعَتِهِ﴾ وأتباعه في دينه ﴿وَهَذَا﴾ الرجل الآخر من القبط الذين هم ﴿مِنْ عَدُوِّهِ﴾ ومبغضيه ومخالفيه في دينه. قيل: كان خباز فرعون. وقيل: طبّاخه، اسمه فاتون على قول<sup>٥</sup>، أو فلبقون على آخر، كان يريد أن يسخر الاسرائيلي لحمل الحطب إلى مطبخ فرعون<sup>٦</sup>.

فلما جاء موسى ﴿فَاسْتَعَاثَ﴾ واستنصره الرجل ﴿الَّذِي﴾ كان ﴿مِنْ شِيعَتِهِ﴾ وتابعه، واستعان به ﴿عَلَى﴾ دفع ﴿الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ القبطي، فقال: موسى: يا قبطي، خلّ الاسرائيلي، ولا تتعرض له، فلم يعتن به ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى﴾ وضربه بالكفّ المقبوض ضربة واحدة ﴿فَقُضِيَ﴾ الله لشدة قوة موسى ﴿عَلَيْهِ﴾ بالموت فمات، فندّم موسى من فعله الذي كان خلاف الأولى، و﴿قَالَ هَذَا﴾ القتل ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ من يعمل باغواء ﴿الشَّيْطَانِ﴾ وسوسته لا من عمل مثلي ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ﴾ لابن آدم ﴿مُضِلٌّ﴾ له عن طريق صلاحه ﴿مُبِينٌ﴾ ومتظاهر في عداوته وإضلاله.

وأما كان عمله خلاف الأولى؛ لأنه لم يؤمر بقتل الكفار، أو لكونه مأموناً فيهم، فلم يكن له اغتيالهم، ولذا استغفر ربه و﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بقتل القبطي الذي كان تركه أولى لي<sup>٧</sup> ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ ما صدر مني من العمل الذي هو بمنزلة الذنب في حقّي ﴿فَغَفَرَ﴾ الله ﴿لَهُ﴾ ذلك برحمته ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿هُوَ الْغَفُورُ﴾ للذنوب العظام فضلاً عن ترك الأولى ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالتائبين خصوصاً موسى ﷺ.

قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ [١٧]

١. تفسير روح البيان ٦: ٣٩٠.

٢. عيون أخبار الرضا ﷺ ١: ١٩٨، تفسير الصافي ٤: ٨٣، وفيهما: بين المغرب والعشاء.

٣. مجمع البيان ٧: ٣٨١ عن ابن عباس.

٤. تفسير روح البيان ٦: ٣٩٠.

٥. تفسير روح البيان ٦: ٣٩٠.

٦. تفسير روح البيان ٦: ٣٩٠.

٧. في النسخة: مني.

﴿قَالَ﴾ موسى ﷺ: ﴿رَبِّ أَقْسَمْ عَلَيْكَ﴾ بِمَا أُنْعَمْتُ عَلَيْكَ ﴿مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعِرْفَانِ وَالْقُوَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ لِأَتُوبَ﴾ ﴿فَلَنْ أَكُونَ﴾ بعد ذلك أبداً ﴿ظَهيراً﴾ ومُعِيناً ﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾ والخاطئين.

روي عن علي بن الجهم، قال: كنت في مجلس المأمون، وكان عنده الرضا ﷺ فسأله المأمون، وقال: يا ابن رسول الله، أليس من قولك: إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَعْصُومُونَ؟ قال: «بلى هم ﷺ معصومون من الكبار والصغار» قال: ما تقول في قوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾؟ قال ﷺ: «لَمَّا دَخَلَ مُوسَى فِي مَدِينَةِ مَدَائِنَ فَرَعُونَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا، وَكَانَ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ، رَأَى رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ، كَانَ أَحَدُهُمَا مِنْ قَوْمِهِ وَالْآخَرُ مِنْ قَوْمِ فَرَعُونَ، فَوَكَزَهُ مُوسَى بِحُكْمِ اللَّهِ، فَمَاتَ الْقِبْطِيُّ، فَقَالَ مُوسَى: هَذَا الْقِتَالُ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ لَا مَا فَعَلَ مُوسَى ﷺ مِنْ قَتْلِ الْقِبْطِيِّ بِوَكْرِهِ».

قال المأمون: فما معنى قول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾؟ قال ﷺ: «كان مراد موسى مناجاته: رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُ نَفْسِي فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا، حَيْثُ دَخَلْتُ هَذِهِ الْمَدِينَةَ، فَاسْتُرْنِي رَبِّي مِنْ أَعْدَائِي حَتَّى لَا يَنْظُرُوا بِي فَيَقْتُلُونِي، فَسْتَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُمْ، ثُمَّ قَالَ: رَبِّ بِمَا أُنْعَمْتُ عَلَيْكَ مِنْ كَمَالِ الْقُوَّةِ بِحَيْثُ قَتَلْتُ الرَّجُلَ بِوَكْرَةٍ، فَلَنْ أَكُونَ ظَهيراً لِلْمُجْرِمِينَ، بَلْ أَجَاهِدُهُمْ فِي سَبِيلِكَ بِقُوَّتِي حَتَّى تَرْضَى»<sup>١</sup>.

أقول: بعد ثبوت عصمة الأنبياء بحكم العقل ودلالة الآيات وتظافر الروايات، فلا بد من حمل أمثال الآيات على غير ظاهرها، ولو كان في غاية البعد لعدم إمكان رفع اليد عن الأدلة القاطعة بالظهورات والظنون، وقيل: إِنَّ الْمَعْنَى بِحَقِّ إِنْعَامِكَ عَلَيَّ وَإِحْسَانِكَ إِلَيَّ اعْصِمْنِي فَلَنْ أَكُونَ مُعِيناً لِمَنْ تُوَدِّي مُعَاوَنَتَهُ إِلَى الْجُرْمِ وَالْقَطِيعَةِ<sup>٢</sup>.

عن ابن عباس: أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَسْتَنْ، فَابْتُلِيَ بِالْعَوْنِ مَرَّةً أُخْرَى كَمَا سَيَأْتِي<sup>٣</sup>.  
أقول: في الآية دلالة واضحة على حرمة إعانة المجرمين والعصاة والظالمين بما تصدق عليه الإعانة، ولو بالكتابة وبِري القلم، وحسن إعانة المؤمنين في أداء التكاليف وسائر حوائجهم، كما يدل عليه قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ﴾<sup>٤</sup>.

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ

١. عيون أخبار الرضا ﷺ: ١/١٩٥ و١٩٨ و١/١٩٩، الاحتجاج: ٤٢٦ و٤٢٨، بحار الأنوار: ١٣/٣٢٢.

٤. المائدة: ٢/٥.

٣ و٢. تفسير روح البيان: ٦/٣٩١.



### قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ [١٨]

﴿فَأُصْبِحَ﴾ موسى تلك الليلة التي قُتِلَ فيها القبطي ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ وبلدة مصر حال كونه ﴿خَائِفًا﴾ من آل فرعون على نفسه و﴿يَتَرَقَّبُ﴾ ويترصّد منهم طلب قوّده، ويتنظر القصاص منه، أو الخبر من قِبَل فرعون في حقّه، فخرج من آل فرعون مستتراً ويمشي في المسلك ﴿فَإِذَا﴾ الرجل الاسرائيلي ﴿الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ﴾ واستعان منه على دفع القبطي ﴿بِالْأَمْسِ﴾ وفي اليوم السابق ﴿يَسْتَصْرِحُهُ﴾ وينادي به لينصره على دفع قبطي آخر يُنازعه، فلما سمع موسى ﷺ نداء الإسرائيلي ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى﴾ تَصَجَّرًا منه ﴿إِنَّكَ﴾ يا إسرائيلي والله ﴿لَغَوِيٌّ﴾ وموقع لي بسبب كثرة نزاعك فيما هو خلاف صلاح الوقت، أو إنك لكثير المخاصمة التي هي خلاف صلاحك ﴿مُبِينٌ﴾ وظاهر منك هذا العمل.

فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي  
كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ  
تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ \* وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى  
إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ \* فَخَرَجَ مِنْهَا  
خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ \* وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ  
قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ [١٩-٢٢]

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ﴾ موسى ﴿أَنْ يَنْطِشَ﴾ ويأخذ ﴿بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ بقوة ويضربه بشدة، ورأى القبطي استعانة السبطي وإرادة موسى بطشه، وقد علم أن رجلاً أعانه بالأمس على قبطي فقتله المعين، فحدّس أن الرجل هو موسى، أو سمع ذلك من أحد ﴿قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي﴾ بسبب نزاعي مع السبطي ﴿كَمَا قَتَلْتَ﴾ من القبط ﴿نَفْسًا﴾ لأجل ذلك ﴿بِالْأَمْسِ﴾. وقيل: إن السبطي لما رأى غصبة موسى عليه قال ذلك بتوهم أن موسى أراد أن يَنْطِشَ به كما في (العيون) حيث قال قال «وهو من شيعته».

ثم لامه القاتل على المبادرة في القتل وترك الإصلاح بقوله: ﴿إِنْ تُرِيدُ﴾ وما تقصّد ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا﴾ وظالماً للناس ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وقتالاً للنفس ﴿وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ بين الناس بالقول والفعل، ودافعي الخصومة من بين المتنازعين بالتّي هي أحسن، فلما قال القبطي أو

الاسرائيلي ذلك، انتشر الحديث في المدينة، وانتهى إلى فرعون، فهَمَّوا بقتله ﴿و﴾ إذن ﴿جَاءَ رَجُلٌ﴾ مؤمن من آل فرعون وطائفة القبط يقال له حزقيل أو حزنيل ﴿مِنْ﴾ قصر فرعون الذي كان في ﴿أَفْصَى الْمَدِينَةِ﴾ وأخرها.

قيل: كان ابن عم فرعون<sup>١</sup>، أو موسى<sup>٢</sup>، وهو ﴿يَسْعَى﴾ ويسير سريعاً إشفافاً على موسى حتى وصل إليه. ثم ﴿قَالَ﴾ نصحاً وتخويفاً له: ﴿يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ﴾ والأشراف من القبط ﴿يَأْتُمِرُونَ بِكَ﴾ ويتشاورون بسببك ﴿لِيَقْتُلُوكَ﴾ قصاصاً وعناداً ﴿فَاخْرُجْ﴾ عاجلاً من هذه المدينة تحفظاً على نفسك ﴿إِنِّي لَكَ﴾ فيما أمرك به من الخروج والفرار من القوم ﴿مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ والطالبيين لخيرك وصلاحك.

القمي قال: وبلغ فرعون خبر قتل موسى الرجل، فطلبه ليقتله، فبعث المؤمن إلى موسى أن الملاء يأتمرون بك ليقتلوك<sup>٣</sup> ﴿فَخَرَجَ﴾ موسى ﴿مِنْهَا﴾ فوراً بلا زاد وراحلة حال كونه ﴿خَائِفاً﴾ على نفسه من القبط وخدم فرعون و ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ ويترصد لحوق الطالبيين له وتعرضهم إياه في الطريق. ثم التجأ إلى الله تعالى، لعلمه بأنه لا ملجأ له سواه و ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي﴾ وخلصني ﴿مِنْ﴾ ظلم ﴿الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ واحفظني من لحوقهم إياي، وسلمني من شرهم. وفي الحديث: يلتفت يمنة ويسرة، ويقول: رب نجني إلى آخره<sup>٤</sup>.

قيل: ومَرَّ نحو مدين، وكان بينه وبين مدين مسيرة ثلاثة أيام<sup>٥</sup>، ولم تكن في سلطان فرعون ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ وأقبل نحوها، وسلك في طريقها غير قاصد لها<sup>٦</sup>، وأخذ يمشي على غير معرفته مسلماً نفسه إلى الله، أعلن بتوكله عليه و ﴿قَالَ عَسَى﴾ وأرجو من ﴿رَبِّي﴾ اللطيف بي ﴿أَنْ يَهْدِيَنِي﴾ ويُرشدني ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ووسطه الموصل إلى المقصود والمأمَن.

قيل: إنه ﷺ قصد التوجه إلى بلدة مدين، لأنه وقع في نفسه أن بينه وبين أهل مدين قرابة، لأنهم كانوا من أولاد مدين بن إبراهيم، وكان هو ﷺ من بني إسرائيل، ولم يكن له علم بالطريق، بل اعتمد على فضل الله وتوكل عليه في إيصاله إليه<sup>٧</sup>.

وقيل: إن جبرئيل جاءه وعلمه الطريق<sup>٨</sup>.

وقيل: لما أخذ موسى في السير جاءه ملك على فرس فسجد له موسى ﷺ من الفرح، فقال

٢. تفسير الصافي ٤: ٨٥.

١. تفسير البيضاوي ٢: ١٨٩، تفسير روح البيان ٦: ٣٩٢.

٤. تفسير القمي ٢: ١٣٧، تفسير الصافي ٤: ٨٥.

٣. تفسير القمي ٢: ١٣٧، تفسير الصافي ٤: ٨٥.

٦. في النسخة: نحوه، وسلك في طريقه غير قاصد له.

٥. تفسير القمي ٢: ١٣٧، تفسير الصافي ٤: ٨٥.

٧. تفسير الرازي ٢٤: ٢٣٨.

الْمَلِكُ: لَا تَفْعَلْ وَاتَّبِعْنِي، فَاتَّبِعَهُ نَحْوَ مَدِينٍ<sup>١</sup>.

وقيل: إنه ذهب نحو مدين حتى وصل إلى ثلاث طرق، فاختار الطريق الوسط، وهو المراد من سواء السبيل، فانه وسطه ومعظمه، ثم جاء طالوه فذهبوا إلى الطريقين الآخرين، فلم يجدوه<sup>٢</sup>.

وقيل: كان حافياً، ولم يكن له طعام إلا الورق<sup>٣</sup>.

قيل: إنه مشى ثمانية أيام، وجرحت قدماه من المشي، ولم يأكل في الثمانية إلا من حشيش الأرض وورق الأشجار<sup>٤</sup>.

وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ  
أَمْرًا تَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا  
شَيْخٌ كَبِيرٌ \* فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ  
خَيْرٍ فَقِيرٌ \* فَجَاءَهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ  
لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ  
نَجُوتُ مِنَ الظَّالِمِينَ [٢٣-٢٥]

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ ووصل إلى البئر التي كانت على ثلاثة أميال منها وأهلها يسقون منها  
﴿وَجَدَ﴾ موسى ﴿عَلَيْهِ أُمَّةٌ﴾ وجماعة ﴿مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ منه مواشيهم ﴿وَوَجَدَ﴾ أيضاً ﴿مِنْ  
دُونِهِمْ﴾ وفي مكان أسفل منهم ﴿أَمْرًا تَيْنِ﴾ إحداهما صفورا، والأخرى لبنا، بنتا يثرون، ويثرون هو  
شعيب على ما قيل<sup>٥</sup>، وهما ﴿تَذُودَانِ﴾ وتمنعان أغنامهما من التقدم إلى البئر، أو من التفرق، أو من  
الاختلاط بأغنام الغير، أو تمنعان أنفسهما من الاختلاط بالرجال، أو وجوههما من نظر الأجانب  
﴿قَالَ﴾ موسى لهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ وما شأنكما فيما أنتما عليه من التأخر، وما لكما لا تسقيان  
أغنامكما؟ ﴿قَالَتَا﴾ دأبنا أن ﴿لَا نَسْقِي﴾ أغنامنا ﴿حَتَّى يُصْدِرَ﴾ ويصرف ﴿الرِّعَاءَ﴾ وحفاظ  
المواشي مواشيهم بعد ربيها تعففاً وحذراً من مخالطة الرجال، فاذا انصرفوا سقينا أغنامنا من فضل  
مواشيهم ﴿وَأَبُونَا﴾ شعيب لا يستطيع أن يباشر سقيها؛ لأنه ﴿شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ في السن، أو في القدر  
والشرف، لذا يرسلنا معها للسقي اضطراراً.

١. تفسير الرازي ٢٤: ٢٣٨.

٢. تفسير البياضوي ٢: ١٩٠، تفسير أبي السعود ٧: ٨، تفسير روح البيان ٦: ٣٩٣.

٣. تفسير أبي السعود ٧: ٨.

٤. تفسير روح البيان ٦: ٣٩٥.

٥. تفسير الرازي ٢٤: ٢٣٨.

١٨ ..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٥

روي أَنَّ الرجال كانوا يضعون على رأس البئر حجراً لا يرفعه إلا سبعة رجال أو عشرة أو أربعون، فقام موسى فرفعه وحده<sup>١</sup>، وسألهم دُلُوا فأعطوه دُلُوا لا يَنْزَحُهَا إلا عشرة، فاستسقى بها وحده ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ أغنامهما وأصدرهما.

القمي: فلما بلغ ماء مدين رأى نبأ يستسقي الناس منها لأغنامهم ودوابهم، فقعده ناحية ولم يكن أكل منذ ثلاثة أيام شيئاً، فنظر إلى جاريتين في ناحية ومعهما غنمات لا تدنوان من البئر، فقال لهما: ما لكما لا تسقيان؟ فقالتا ما حكى الله، فَرَجِمَهُمَا موسى ﷺ ودنا من البئر، فقال لمن على البئر: أسقي لي دُلُوا ولكم دُلُوا، وكان الدلو يَمُدُّه عشرة رجال، فاستسقى وحده دُلُوا لمن على البئر، ودلوا لبنتي شعيب وسقى أغنامهما<sup>٢</sup> ﴿ثُمَّ تَوَلَّى﴾ وانصرف ﴿إِلَى الظِّلِّ﴾ من شدة الحرِّ وَضَغَفَ الجوع ﴿فَقَالَ﴾ يا رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ ولو كان قليلاً ﴿فَقِيْرٌ﴾ ومحتاج. عن الصادق ﷺ: «سأل الطعام»<sup>٣</sup>.

وفي (النهج): «والله ما سأل الله عزَّ وجلَّ إلا خبزاً يأكله: لأنَّه كان يأكل بَقْلَةَ الأرض، ولقد كانت خُضْرَةُ البقل تُرى من شَفِيفِ صِفَاقِ بَطْنَةِ لَهْزَالِهِ وَتَشَدَّبَ لحمه»<sup>٤</sup>. وروي أَنَّهُ قال ذلك وهو محتاج إلى شِقِّ تمرٍ<sup>٥</sup>.

وعن العامة: لَمَّا كَانَ موسى جانعاً سأل من الله ما يأكل، ولم يسأل من الناس، فَطَئِنَتِ الجاريتان، فلَمَّا رَجَعَتَا إلى أبيهما قَبِلَ الناس وأغنامهما قفلت، قال لهما: ما أعجلكما؟ قالتا وجدنا رجلاً صالحاً رحماً فسقى لنا، ثُمَّ تَوَلَّى إلى الظِّلِّ. فقال: ﴿رَبِّ﴾ إلى آخره. فقال أبوهما: هذا رجلٌ جانعٌ. فقال لواحدة منهما: اذهبي فادعيه لنا<sup>٦</sup>.

القمي قال: فلَمَّا رَجَعْتَ ابنتا شعيب إلى شعيب قال لهما: اسرعتما الرجوع؟ فأخبرتاه بقصة موسى ولم تعرفاه، فقال شعيب لواحدة منهما: اذهبي إليه فادعيه لنجزيه أجر ما سقى لنا<sup>٧</sup>. ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا﴾ وهي الكبرى منهما اسمها صفورا، أو صفورة، أو صفرى، واسم الصغرى صفيرا، حال كونها ﴿تَنْشِي عَلَى أَشْتِيَاءٍ﴾ كما هو عادة الأبقار، أو لكمال إيمانها وشرف عنصرها وكرامة نسبها، ثُمَّ ﴿قَالَتْ﴾: أَيُّهَا الرجل ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ﴾ ويطلبُ حضورك عنده ﴿لِيَجْزِيَكَ﴾ ويُعطيك ﴿أَجْرَ مَا

١. تفسير أبي السعود ٧: ٨، تفسير روح البيان ٦: ٣٩٥.

٢. تفسير القمي ٢: ١٣٧، تفسير الصافي ٤: ٨٦. ٣. الكافي ٦: ٢٨٧/٥، تفسير الصافي ٤: ٨٦.

٤. نهج البلاغة: ٢٢٦ الخطبة ١٦٠، تفسير الصافي ٤: ٨٦.

٥. كمال الدين: ١٣/١٥٠، تفسير الصافي ٤: ٨٦. ٦. تفسير الرازي ٢٤: ٢٤٠، تفسير أبي السعود ٧: ٩.

٧. تفسير القمي ٢: ١٣٨، تفسير الصافي ٤: ٨٦.

سَقَيْتَ لَنَا فَأَجَابَ مُوسَى الدَّعْوَةَ شَوْقًا إِلَى زِيَارَةِ شَعِيبَ، وَطَلِبًا لخدمته، لَا طَمَعًا فِي طَعَامِهِ وَأَجْرِهِ، فقام وانطلقا وهي أمامه، فالزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته، أو كشفت عن ساقها، فقال لها: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، فتأخّرت وكانت تقول: عن يمينك، أو عن شمالك، أو عن قدامك.

القمي: فقام موسى معها، ومشت أمامه، فصفتها الريح، فبان عجزها، فقال لها موسى تأخّري ودلّيني على الطريق بحصاة تليقها أمامي اتّبعتها، فأنا من قوم لا ننظر في أدبار النساء، الخبر<sup>١</sup>.

فمشيا حتى اتيا دار شعيب، فبادرت المرأة إلى ابنيها فأخبرته، فأذن له في الدخول، وشعيب يومئذ شيخ كبير، وقد كفّ بصره ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ﴾ موسى سلّم عليه فردّ عليه السلام وعانقه. ثم أجلسه بين يديه، وقدم إليه الطعام فامتنع منه، وقال: أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيته، وأنا أهل بيت لا نبيع ديننا بدنينا. فقال شعيب لا والله يا شاب، ولكن هذه عادتنا مع كلّ من ينزل بنا، فأكل منه ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ وأخبره بما جرى عليه من ولادته إلى فراره من فرعون وقومه ومجيئه إلى مدين ﴿قَالَ﴾ له شعيب: ﴿لَا تَخَفْ﴾ هنا من فرعون وقومه، فأنك ﴿تَجَوّزُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فإنه لا سلطان لهم بأرضنا، ولسنا في مملكة فرعون.

قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ \* قَالَ  
إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ وَنَكُونَ لَكَ عِبَادًا مَنًّا وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَفِي سَكْرَةٍ وَلَئِنْ لَمْ يَنْجِبْكَ مِنَّا لَأَكِيدُنَّ  
أَنَّمُمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ [٢٦ و ٢٧]

فبينما كانا يتكلمان ويتواصلا وكانت بنتا شعيب حاضرتين إذ ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ وهي الكبرى التي جاءت في طلب موسى: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ لرعي أغنامك والقيام بأمرها، فإن للرجل قوة على العمل والأمانة في العرض والمال ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ﴾ رقيتهم وأفضلهم الأجير ﴿الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾.

روي أن شعيباً قال لها: ما أعلمك بقوته وأمانته؟ فذكرت له ما شاهدت منه من إقلال الحجر عن رأس البئر، ونزح<sup>٢</sup> الدلو الكبير، وأنه خفّض رأسه عند الدعوة ولم ينظر إليها تورعاً حتى بلغت رسالتها، وأنه أمرها بالمشي خلفه<sup>٣</sup>.

والقمي - في حديث - «فقال لها شعيب: أما قوته فقد عرفتها بأنه يسقي الدلو وحده، فبما عرفت

١. تفسير القمي ٢: ١٣٨، تفسير الصافي ٤: ٨٦.

٢. في تفسير أبي السعود وتفسير روح البيان: نزع.

٣. تفسير البضاوي ٢: ١٩١، تفسير أبي السعود ٧: ١٠، تفسير روح البيان ٦: ٣٩٧.

٢٠ ..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٥

أمانته؟ فقالت: إِنَّهُ لَمَّا قَالَ لِي تَأْخِزِي عَنِّي وَدَلِّبِي عَلَى الطَّرِيقِ فَأَنَا مِنْ قَوْمٍ لَا نَنْظُرُ فِي أَدْبَارِ النَّسَاءِ، عَرَفْتُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ فِي أَعْجَازِ النَّسَاءِ، فَهَذِهِ أَمَانَتِي.<sup>١</sup>

وعن الكاظم عليه السلام قال «قال لها شعيب: يا بنية هذا قَوْي قد عَرَفْتَهُ برفع الصخرة، من أين عَرَفْتَهُ أَنَّهُ أَمِين؟ قالت: يا أبتِ إِنِّي مَشَيْتُ قَدَّامَهُ فَقَالَ: امْشِي خَلْفِي، فَإِنْ ضَلَلْتُ فَارْشِدْنِي إِلَى الطَّرِيقِ، فَأَنَا قَوْمٌ لَا نَنْظُرُ فِي أَدْبَارِ النَّسَاءِ»<sup>٢</sup> إِذْنُ «قَالَ» شعيب: يا موسى «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنَكِّحَكَ» وَأَزْوَجَكَ «إِخْدَى أَبْنَتِي هَاتَيْنِ» اللتين عندك «عَلَيَّ» شرط، وهو «أَنْ تَأْجُرَنِي» وتعمل لي بالأجر «ثَمَانِي حِجَجٍ» وسنين «فَإِنْ أَتَمَمْتَ» السنين «عَشْرًا» في الخدمة والعمل «فَمِنْ عِنْدِكَ» إتمامها وبتفضلتك إكمالها، لا الزَّام من عندي عليك «وَمَا أُرِيدُ» من استنجارك «أَنْ أَشُقَّ» وأصعب الأمر «عَلَيْكَ» وتحميلك ما تتعب فيه، بل أريد أن أسأهلك وأسامحك.

قيل: رأى شعيب بنور النبوة أن موسى يبلغ إلى درجة النبوة في ثمانين سنين، وفي الأزيد إلى العشر كمال الكمال.<sup>٣</sup>

سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ \* قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيُّمَا الْأَجْلَيْنِ  
قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ \* فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ  
وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي  
آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ [٢٧- ٢٩]

ثم رَغِبَ في القبول بقوله: «سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ» والطالبن لخيرك، والمحسنين إليك في هذه المعاملة بلبين الجانب، والوفاء بالعهد، والمداواة في القول والعمل، وغير ذلك مما يوجب راحتك وتيسير العمل عليك «قَالَ» موسى: «ذَلِكَ» العهد الذي عاهدتني عليه ثابت «بَيْنِي وَبَيْنَكَ» جميعاً لا أخالفه ولا تخالفه «أَيُّمَا الْأَجْلَيْنِ» الذين ذكرت من القصير والطويل «قَضَيْتُ» وفيت بأداء الخدمة فيه «فَلَا عُدْوَانَ» وتجاوز «عَلَيَّ» من قبلك بمطالبة الزيادة، أو لا إثم علي في قضاء الأقصر، ولا إلزام علي بالعمل بالأكثر «وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ» من الشرط المقرر فينا «وَكِيلٌ» وشاهد وحفيظ.

قيل: فجمع شعيب مؤمني مدين وزوجه ابنته صفورا، ودخل موسى بيت شعيب، وأقام برعي

٢. من لا يحضره الفقيه ٤: ١٢/٧، تفسير الصافي ٤: ٨٧.

١. تفسير القمي ٢: ١٣٨، تفسير الصافي ٤: ٨٧.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٣٩٨.



أغنامهم عشر سنين<sup>١</sup>.

عن النبي ﷺ أنه سُئِلَ: أي الأجلين قضى؟ قال: «أوفاهما وأبطأهما»<sup>٢</sup>.

وفي رواية: «وإن سألت أي الابنتين تزوّج؟ فقل الصغرى منهما، وهي التي جاءت وقالت: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾»<sup>٣</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: أنه سُئِلَ أَيْتُهُمَا التي قالت: ﴿إِنْ أَبِي يَدْعُوكَ﴾؟ قال: «التي تزوّج بها» قيل: فأَيِ الأجلين قضى؟ قال: «أوفاهما وأبعدهما عشر سنين» قيل: فدخل بها قبل أن ينقضى الشرط أو بعد انقضائه؟ قال: «قبل أن ينقضى» قيل: فالرجل يتزوّج المرأة ويشترط لأبيها إجارة شهرين، أيجوز ذلك؟ قال: «إن موسى عَلِمَ أنه سيُتِمَّ شرطه» قيل: كيف؟ قال: «عَلِمَ أنه سيبقى حتى يفي»<sup>٤</sup>.

وفي (الكافي) و(الفقيه) عن الصادق عليه السلام: «أَنْ عَلِيّاً قال: لَا يَحِلُّ النِّكَاحُ الْيَوْمَ فِي الْإِسْلَامِ بِإِجَارَةِ بَأْنٍ يَقُولُ أَعْمَلُ عِنْدَكَ كَذَا وَكَذَا سَنَةً عَلَى أَنْ تَزَوِّجَنِي اخْتِكَ أَوْ ابْتِكَ. قال: هُوَ حَرَامٌ لِأَنَّهُ ثَمَنُ رَقَبَتِهَا، وَهِيَ أَحَقُّ بِمَهْرِهَا»<sup>٥</sup>.

قال في (الفقيه): وفي حديث آخر: «إِنَّمَا كَانَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَجَارَةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَتْ قَبْلَ الْوَفَاءِ أَمْ لَا، فَوَفَى بِأَتَمِّ الْأَجَلِينَ»<sup>٦</sup>.

أقول: لا إشكال في بطلان المهر إذا كان العمل لغير المرأة، وظاهر الآية أن إجارة موسى عليه السلام كانت بأجرة على ذمة شعيب، وإنما كان قبول موسى لهذه الإجارة من شرط شعيب عليه السلام على موسى عليه السلام في إنكاحه ابنته بمهر معين، ولم يكن عمل موسى عليه السلام لشعيب عليه السلام مهراً لابنته نعم هو من الشروط الابتدائية التي لم يجب الوفاء به على المشهور.

وفي (الاكمال): أَنَّ يَوْشَعَ بْنَ نُونٍ وَصِيَّ مُوسَى عَاشَ بَعْدَ مُوسَى ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَخَرَجَتْ عَلَيْهِ صَفْرَاءُ بِنْتُ شُعَيْبٍ زَوْجَةً مُوسَى، فَقَالَتْ: أَنَا أَحَقُّ بِالْأَمْرِ مِنْكَ، فَقَاتَلَهَا وَقَتْلَ مَقَاتِلِهَا، وَأَحْسَنَ أَسْرَهَا»<sup>٧</sup>.

وروي أَنَّهُ لَمَّا أَتَمَّ الْعَقْدَ قَالَ شُعَيْبٌ لِمُوسَى: ادْخُلْ ذَلِكَ الْبَيْتَ، فَخَذَ عَصاً مِنْ تِلْكَ الْعِصِيِّ، وَكَانَتْ عِنْدَهُ عِصْيُ الْأَنْبِيَاءِ، فَأَخَذَ عَصاً هَبَطَ بِهَا آدَمُ مِنَ الْجَنَّةِ وَلَمْ يَزَلِ الْأَنْبِيَاءُ يَتَوَارَثُونَهَا حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى

٢ و٣. مجمع البيان ٧: ٨٧، تفسير الصافي ٤: ٣٩١.

١. تفسير روح البيان ٦: ٣٩٩.

٤. مجمع البيان ٧: ٣٩٠، تفسير الصافي ٤: ٨٧.

٥. الكافي ٥: ٢/٤١٤، من لا يحضره الفقيه ٣: ٢٩٨/١٢٧١.

٦. من لا يحضره الفقيه ٣: ٢٩٨/١٢٧٢، تفسير الصافي ٤: ٨٨.

٧. كمال الدين: ٢٧، تفسير الصافي ٤: ٨٨.

شعيب عليه السلام فمسها وكان مكفوفاً، فلم يَرُضْها له خوفاً من أن لا يكون أهلاً لها<sup>١</sup>، وقال: غيرها، فلا يقع في يده إلا هي سبع مرات، فعَلِمَ أن لموسى شأنًا، وحين خرج للرعي قال له شعيب: إذا بلغت مَفْرَقِ الطُّرُق فلا تأخذ عن يمينك، فإن الكلاب بها أكثر، إلا أن فيها تيناً<sup>٢</sup> أخشى منه عليك وعلى الغنم، فأخذت الغنم ذات اليمين، ولم يقدر على كفها، ومشى على أثرها، فاذا عشبَ ورَيْقَ لم ير مثله، فنام فاذا بالتَّيْنِ قد أقبل، فحاربه العصا حتى قتله، وعادت إلى جنب موسى داميةً، فلَمَّا أبصرها داميةً والتَّيْنِ مقتولاً سرّاً<sup>٣</sup>، ولَمَّا رجع إلى شعيب أخبره بالشأن، ففرح شعيب وعَلِمَ أن لموسى شأنًا، وقال: إني وهبت [لك] من نتاج غَنَمِي هذا العام كل أدرع<sup>٤</sup> ودرعاء، فأوحى الله إليه في المنام: أن اضرب بعصاك الماء الذي هو في مستقى الأغنام ففعل، ثم سقى، فما أخطأت واحدة إلا وضعت أدرع ودرعاء، فعَلِمَ شعيب أن ذلك رزق ساقه الله إلى موسى وامراته، فوفى له بالشرط، وسَلِمَ إليه الأغنام<sup>٥</sup>.

﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ وأتم ﴿مُوسَى﴾ ذلك ﴿الْأَجَلَ﴾ المشروط بينهما، وفرغ من خدمة عشر سنين عزم على الرجوع إلى مصر.

قيل: فبكى شعيب، وقال: يا موسى، كيف تخرج عني وقد صَغَفْتُ وكَبَّرْتُ؟ فقال له: قد طالعت غيبتي عن أُمِّي وخالتي وأخي هارون وأختي في مملكة فرعون. فقام شعيب وبسط يده وقال: يا رب بخرمة إبراهيم الخليل، وإسماعيل الذبيح، وإسحاق الصفي، ويعقوب الكظيم، ويوسف الصديق، رُدَّ قُوَّتِي وبصري، فأَمَنَ موسى على دُعائه، فردَّ الله عليه بصره وقُوَّتَه. ثم أوصاه بابهتة<sup>٦</sup>.

وفي حديث القمي: أنه قال لشعيب: لا بد لي أن أرجع إلى وطني وأُمِّي، فما لي عندك؟ فقال شعيب: ما وَضَعْتَ أغنامي في هذه السنة من غنم أبلق فهو لك فَعَمَدَ موسى عندما أراد أن يُرْسِلَ الفحل على الغنم إلى عصاه فقشر منه بعضه وترك بعضه، وغرزه في وسط مَرَبِضِ الغنم، وألقى عليه كساءً أبلق، ثم أرسل الفحل على الغنم، فلم تضع الغنم في تلك السنة إلا بُلُقًا، فلَمَّا جاء عليه الحول حمل موسى امرأته، وزوَّده شعيب من عنده، وساق غنمه، فلَمَّا أراد الخروج قال لشعيب: آتني عصاً تكون معي، وكانت عِصْيُ الأنبياء عنده قد ورثها مجموعة في بيت، فقال له شعيب: ادخل هذا البيت وخذ عصاً من بين العِصْيِ، فدخل فوثبت إليه عصا نوح وإبراهيم، وصارت في كَفِّه، فأخرجها، فنظر

١. في النسخة: أهلها.

٢. التَّيْنِ: حيوان أسطوري يجمع بين الزواحف والطير، ويقال: له مخالب أسد وأجنحة نسر، وذنب أفعى.

٣. في النسخة: شكر. ٤. الأدرع: ما سود رأسه وبيض سائر.

٦. تفسير روح البيان ٦: ٤٠٠.

٥. تفسير روح البيان ٦: ٣٩٩.

إليها شعيب، فقال: ردّها وخذ غيرها، فوثبت إليه تلك بعينها فردّها، حتى فعل ذلك ثلاث مرات، فلمّا رأى شعيب ذلك، قال له: اذهب، فقد خصّك الله عزّ وجلّ بها<sup>١</sup>. فأخذ العصا ﴿وَسَارَ﴾ موسى ﴿بِأَهْلِيهِ﴾ وزوجته صفوراء وولده بإذن شعيب إلى مصر، فانحرف من خوف ملوك الشام عن الطريق، وأخذ في السير بالبادية حتى جنّهم الليل، واشتدّ البرد، وانقلب الهواء، وأخطأ الطريق<sup>٢</sup>، وجاءت الرياح العاصفة، وتفرّقت أغنامه، وأخذ زوجته الطلق وهي حامل، إذن ﴿ءَانَسَ﴾ ورأى ﴿مِنْ جَانِبِ﴾ جبل ﴿الطُّورِ﴾ ومن الجهة التي تليه ﴿نَارًا﴾ ذات اشتغال ﴿قَالَ لِأَهْلِيهِ﴾ والمتعلّقين به: ﴿أَمْكُثُوا﴾ وقفوا هنا ﴿إِنِّي ءَانَسْتُ﴾ ورأيت من البعيد ﴿نَارًا﴾ وأنا أذهب وحدي إليها ﴿لَعَلِّي ءَاتِيكُمْ مِنْهَا﴾ وممنّ حولها ﴿بِخَيْرٍ﴾ ودلالة على الطريق ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ وقطعة أوعود غليظ في رأسه شيء ﴿مِنْ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ وبحرارته تدفأون.

وعن الباقر عليه السلام: «سار بأهله نحو بيت المقدس فأخطأ الطريق ليلاً، فرأى ناراً قال لأهله: ﴿أَمْكُثُوا﴾ الآية»<sup>٣</sup>.

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ  
يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ \* وَأَنْ أَلْتِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَنَّرُ كَأَنَّهُ جَانٌّ  
وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ [٣٠-٣١]

فترك أهله في البرية وذهب في طلب النار ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ وبلغ عندها ﴿نُودِيَ﴾ وخوطب بصوت عالٍ ﴿مِنْ شَاطِئِ﴾ وشفير ﴿الْوَادِ﴾ الذي في الجانب ﴿الْأَيْمَنِ﴾ من موسى ﴿فِي﴾ البقعة والقطعة ﴿الْمُبَارَكَةِ﴾ الكثيرة الخير من الأرض، وكان النداء ﴿مِنْ الشَّجَرَةِ﴾ الزيتون، أو السدر، أو الشجرة، أو العنّاب، أو العوسج.

وفي الحديث: «أنها شجرة اليهود ولا تنطق»<sup>٤</sup>.

قيل في تفسيره: إذا نزل عيسى وقتل اليهود، فلا يختفي أحد منهم تحت شجرة إلا نطقت، وقالت يا مسلم، هذا يهودي فاقطله إلا شجر العرقد<sup>٥</sup>، فإنه لا ينطق<sup>٦</sup>.

وكان أول كلامه تعالى: ﴿أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ الذي أناديك وأدعوك باسمك، وأنا ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ \* وَأَنْ أَلْتِ عَصَاكَ من يدك على الأرض، فالتقاها بلا ريث، فصارت ثعباناً ﴿فَلَمَّا رَآهَا

٢. في النسخة: عن الطريق.

٤. تفسير روح البيان ٦: ٤٠١.

٦. تفسير روح البيان ٦: ٤٠١.

١. تفسير القمي ٢: ١٣٩، تفسير الصافي ٤: ٨٨.

٣. مجمع البيان ٧: ٣٩١، تفسير الصافي ٤: ٨٩.

٥. العرقد: شجر عظام، وقيل هي العوسج إذا عظم.

تَهْتَزُّ» وتتحرك بسرعة ﴿كَأَنَّهُا جَانٌّ﴾ وحية صغيرة في سرعة السير ﴿وَلَىٰ﴾ ورجع ﴿مُذْبِرًا﴾ له من شدة الخوف، وفز إلى الجهة التي جاء منها ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ولم يلو رأسه إلى خلفه.  
 قيل: إنها لم تدع شجرة ولا صخرة إلا ابتلعها حتى سمع موسى صرير أسنانها، وسمع قعقة الصخر في جوفها، فحينئذ ولّى مديراً، فنودي: ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ﴾ وارجع إلى مكانك الذي كنت فيه من الطور ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ من هذا الثعبان ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ من جميع المخاوف فاطمأن قلبه الشريف، ومدّ يده إلى الثعبان، فأخذه وجرّه إلى نفسه، فصار عصاً.

أَسْلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ  
 الرَّهْبِ فَذَايِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ \*  
 قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ \* وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ  
 مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ \* قَالَ سَشِدْ  
 عُصْدَكَ بِأَخِيكَ وَتَجْعَلْ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ  
 اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ [٣٢-٣٥]

ثم نودي أن ﴿أَسْلُكَ﴾ وادخل ﴿يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ﴾ منه حال كونها ﴿بَيْضَاءَ﴾ مشرقة ﴿مِنْ  
 غَيْرِ سُوءٍ﴾ وعيبٍ وبَرَصٍ ﴿وَأَضْمُمُ﴾ واجمع ﴿إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ ويديك بإدخال إحداهما تحت  
 الأخرى، أو بادخالهما في جيبك، أو بوضعهما إلى صدرك حتى تسكن ﴿مِنَ الرَّهْبِ﴾ والخوف.  
 قيل: إنه من معاينة الثعبان فزع واضطرب، فائقاه بيده، كما يفعل الخائف من الشيء، فقال تعالى له:  
 ما فعلته فيه غصاصة عند العدو، فاذا رأيت الثعبان أدخل يدك<sup>٢</sup> تحت إبطيك<sup>٣</sup>، ثم أخرجها بيضاء،  
 لتظهر لك معجزتان ﴿فَذَايِكَ﴾ الأمران من انقلاب العصا ثعباناً واليد البيضاء ﴿بُرْهَانَانِ﴾ وَحُجَّتَانِ  
 نيرتان ﴿مِنْ﴾ قبل ﴿وَرُبَّكَ﴾ على صدق رسالتك ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ﴾ أو مرسلان أو متهمان إليهم  
 ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ وخارجين عن الحد في الظلم والطغيان ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ  
 مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ قصاصاً ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ﴾ وأطلق ﴿مِنِّي لِسَانًا﴾ وأبين  
 منطقاً ﴿فَأَرْسَلْهُ﴾ وأشركه ﴿مَعِيَ﴾ في الدعوة ليكون ﴿رِدْءًا﴾ وعوناً لي ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ ويساعدني  
 في تقرير الحجة وإبطال شبهه القوم ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ في دعوى رسالتي، ولا يطاقوا عني

لساني في الزامهم بحجتي. **﴿قَالَ﴾** تعالى إجابة له: **﴿سَنَشُدُّهُ وَسَنَحْكُمُ عَصَدَكَ﴾** ونقوي قلبك **﴿بِأَخِيكَ﴾** هارون **﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾** واستيلاء على معارضيكما.

عن الصادق عليه السلام «هيته في قلوب الأعداء، وحجته في قلوب الأولياء»<sup>١</sup>.

**﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾** بقتل وإساءة، أو باستيلاء ومُحاجة، وتكون سلطتكمما، وعدم وصوله إليكما **﴿بِآيَاتِنَا﴾** والمعجزات التي أعطيناكما **﴿أَنْتُمَا وَمَنْ آمَنَ بِكُمَا﴾** **﴿أَتَّبَعَكُمَا﴾** في دينكما هم **﴿الْغَالِبُونَ﴾** على فرعون وقومه بالحجة أولاً وبالذلة آخراً.

قيل: لما تمت مناجات موسى ربه ذهب من مكانه إلى مصر، ولم يرجع إلى أهله، فبقي أهله وأولاده وأغنائه في الوادي بين مصر ومدين ثلاثين يوماً حتى مر بهم راعٍ من أهل مدين، فعرف بنت شعيب، وهي باكية حزينة من الوحدة وفراق موسى فسألها عن حالها، فردهم إلى مدين<sup>٢</sup>.

وقيل: إنه رجع إليهم في تلك الليلة فسألته امراته، وقالت: هل أتيت بالنار؟ قال: جئت بالنور حيث أعطاني الله الرسالة. ثم توجه هو بأهله إلى مصر، فوصلوا إلى باب البلد أول الليل، وجاء إلى باب بيت أبيه، وفيه أمه وأخته وأخوه هارون، وكانوا يأكلون العشاء فقال: يا أهل البيت، أنا غريب لا مأوى لي في بلدكم، فهل تأذنون لي أن أبيت في داركم هذه الليلة؟ فقالت أمه لهارون: انذن له حتى يستريح هذه الليلة، لعل الله أن يرحم بذلك ابني<sup>٣</sup> موسى، فأدخله هارون، ووضع عنده الطعام، وكانوا لا يعرفونه، فلما اشتغل معهم بالكلام عرفته أمه، وضمتها إلى صدرها وبكت، ثم قال لهارون: إن الله اصطفاني بالرسالة، وجعلك لي رداءً، وأمرنا أن نذهب إلى فرعون وندعوه إلى طاعة الله، فقال هارون: سمعاً وطاعة، فقالت أمهما: أخاف أن يقتلكما، فإنه طاغ جبار. قال موسى: إن الله أمرنا بذلك، وهو يحفظنا، فجاء في تلك الساعة، أو في اليوم الثاني إلى باب فرعون، وقالا للبوابين: استاذنوا لنا بالدخول على فرعون، فإنا رسول الله إليه وإلى قومه، فاستأذنوا، فلم يأذن إلى سنة<sup>٤</sup>.

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا  
بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ \* وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ  
وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ \* وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ  
مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي [٣٨-٣٦]

٢. تفسير روح البيان ٦: ٤٠٥.

٤. تفسير روح البيان ٦: ٤٠٥.

١. تفسير روح البيان ٦: ٤٠٤.

٣. في النسخة: على ابني.

ثم أذن لهما بالدخول، وهو جالس على سريره، وحوله أشراف مملكته ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ ومعجزاتنا حال كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ وواضحة الدلالات على صدقهما في الرسالة ﴿قَالُوا﴾ يا موسى ﴿مَا هَذَا﴾ الذي جئت به من العصا واليد البيضاء وغيرهما من خوارق العادات ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّقْتَرَنٌ﴾ على الله، وكذب نسبته إليه من أنه معجزة أجراها الله بيدك ﴿وَمَا سَوْفَنَّا﴾ بهذا السحر، أو ﴿بِهَذَا﴾ الذي تقول من التوحيد والرسالة ﴿فِي آيَاتِنَا الْأُولَى﴾ وأسلافنا الأقدمين ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ لما رأى منهم العناد واللجاج: ﴿رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهَدَى﴾ ودين الحق، وأرشد إلى الطريق إليه ﴿مِنْ عِنْدِهِ﴾ ومن قبله، ومن قال بالضللال والباطل منا ومنكم فيعامل كلأ بما يستحقه ﴿وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ﴾ هذه ﴿الدَّارِ﴾ الغانية، وهي الجنة والتعم الدائمة والراحة الأبدية التي هي أحسن العواقب وأحمدها.

ثم بالغ سبحانه في تهديدهم بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ على أنفسهم بإهلاكها بالكفر والعناد للحق وتكذيب الرسل، ولا يفوزون بخير، ولا ينجون من عذاب. ثم قيل: إنه لما آل الأمر إلى إحضار السحرة ومعارضتهم موسى عليه السلام بالسحر، جمع السحرة<sup>١</sup> ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ بعد حضورهم واجتماع الناس في الموعد: ﴿يَا أَيُّهَا الظَّالِمُونَ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ﴾ ومعبود ﴿غَيْرِ﴾ في الأرض، فمن يدعي ذلك فعليه إثباته بالحجة القاطعة والبراهين الواضحة.

روي أنه كان بين هذه الكلمة وبين قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ أربعين سنة<sup>٢</sup>.

فَأَوْفِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطَّيْنِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى  
وَأُنْصِرَ لِأُظْهِرَ مِنَ الْكَافِرِينَ \* وَأَسْتَكْبِرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ  
وَيُظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يَرْجِعُونَ \* فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي آلِيمٍ [٣٨-٤٠]

ثم لما كان نقي الحجة العقلية على إثبات صانع للعالم غير تأثيرات الأفلاك والكواكب ملازمًا لحصر طريق العلم بالمشاهدة، قال تمويهًا على الناس، أو حُقمًا وجهالة، أو تهكمًا لوزيره ﴿فَأَوْفِدْ لِي﴾ واشعل النار ﴿يَا هَامَانَ عَلَى الطَّيْنِ﴾ واطبخ الأجر قيل: إنه أول من عمل<sup>٣</sup> ﴿فَاجْعَلْ لِي﴾ وابن منه ﴿صَرْحًا﴾ وقصرًا رفيعًا أعلو عليه ﴿لَعَلِّي أَطْلُعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ وأشاهده، إنه كما يقول ﴿وَأُنْصِرَ لِأُظْهِرَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ في ادعائه أن له إلهًا في السماء.

قيل: إنه لما أمر ببناء الصرح، جمع هامان العمال حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الأنبايع

٣. تفسير البيضاوي ٢: ١٩٣، تفسير روح البيان ٦: ٤٠٦.

٢٠١. تفسير روح البيان ٦: ٤٠٦.



والأجرا، وأمر بطيخ الأجرّ والجِصّ ونَجّر الخشب وضرب المسامير، فشيدوه حتى بلغ مالم يبلغه بُنيان أحدٍ من الخلق<sup>١</sup>.

قيل: كان مِلَاط القصر خَبَث<sup>٢</sup> القوارير، وكان الرجل لا يستطيع القيام عليه من طوله مخافة أن تنسِفَه الريح، وكان طوله خمسة آلاف ذراع، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع<sup>٣</sup>.

فلَمَّا تَمَّ بناء الصَّرح علاه فرعون ظاناً أَنَّهُ يصير أقرب إلى السماء بحيث يُمكنه رؤية ما فيها، فلَمَّا نظر بعد ارتقائه فوقه إلى السماء رآها كما رآها من فوق الأرض، فانفعل ورمى بِشَبابَةٍ نحو السماء، فأراد الله أن يقتلهم فَرُدَّتْ إليه وهي ملطوخةٌ بالدم، فقال: قد قتلت إله موسى، فعند ذلك بعث الله جِبْرِيلَ لهدمه وقت غروب الشمس، فضربه بجناحه فقطعه ثلاثة قطع: قطعة وقعت على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل، وقطعة وقعت في البحر، وقطعة في المغرب، فلم يبقَ أحدٌ من عَمَاله إلَّا وقد هلك<sup>٤</sup>.

وروى القمي - في حديث - «فبني له هامان في الهواء صرحاً حتى بلغ في الهواء مكاناً لا يتمكن الانسان أن يقوم عليه من الرياح العاصفة، فقال لفرعون: لا تقدّر أن تزيد على هذا، فبعث الله عز وجل رياحاً فرمت به، فاتخذ فرعون وهامان عند ذلك التابوت، وعَمَدًا إلى أربعة أنشُرٍ، فأخذوا افراخها وربّياها: حتى إذا بلغت القوّة وكثرت، عَمَدًا إلى جوانب التابوت الأربعة، فغرزوا في كلّ جانبٍ منه خشبةً، وجعلوا على رأس كلّ خشبةٍ لحماً، وجوَعوا الأنشُر، وشدّوا أرجلها بأصل الخشبة، فنظرت الأنشُر إلى اللحم، فأهوت إليه، فصفقت بأجنحتها، وارتفعت بها في الهواء، وأقبلت تطير يومها. فقال فرعون لهامان: انظر إلى السماء هل بلغناها؟ فنظر هامان فقال: أرى السماء كما كنت أراها من الأرض في البعد. فقال: انظر إلى الأرض. فقال: لا أرى الأرض، ولكن أرى البحار والماء.

قال: فلم تزل الأنشُر<sup>٥</sup> ترتفع حتى غابت الشمس، وغابت عنهما البحار والماء، فقال فرعون: يا هامان انظر إلى السماء، فنظر إليها، فقال: أراها كما كنت أراها من الأرض، فلَمَّا جَنَّهُم الليل نظر هامان إلى السماء، فقال فرعون: هل بلغناها؟ قال: أرى الكواكب كما كنت أراها في الأرض، ولست أرى من الأرض إلَّا ظُلُمَةً.

ثمّ حالت الرياح العائمة في الهواء، فانقلب<sup>٦</sup> التابوت بهما، فلم يَزَلْ يَهْوِي بهما حتى وقع على

١. تفسير الرازي ٢٤: ٢٥٣.

٢. الخَبَث: ما ينفيه الكبير من الحديد ونحوه عند إحماؤه وطرقه.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٤٠٦. ٤. تفسير الرازي ٢٤: ٢٥٣.

٥. في النسخة: النسر. ٦. في النسخة وتفسير القمي والصافي: فاقبلت.

الأرض، وكان فرعون أشد ما كان غتوأ في ذلك الوقت<sup>١</sup>.

وقيل: إنه لم يُنَّ الصُّرْح، لغاية البعد من العاقل أن يتوهم أن بصعود الصُّرْح يقرب إلى السماء مع وضوح أن من علا على الجبال الشامخة يرى السماء كما كان يراها من الأرض، وهكذا الكلام فيما نُقِلَ من رمي السُّهم إلى السماء ورجوعه متلطّخاً بالدم، فإن العاقل يعلم أنه لا يمكنه إيصال السُّهم إلى السماء، ومن اعتقد ذلك عُذَّ من المجانين<sup>٢</sup>.

فلا بد من حمل أمره ببناء الصُّرْح على إرادة إيهام البناء، ولم يُنَّ، أو على إرادة التهكم كأنه قال: لا سبيل إلى إثبات وجود إله السماء إلا بالدليل أو بالحس، ولا دليل عليه، فإن التغير في العالم يمكن أن يكون بحركات الأفلاك والكواكب، ولا يمكن الإحساس إلا بالصعود إلى السماء، وذلك لا سبيل إليه، ثم قال لهامان تهكماً: ابن لي صرحاً، ثم رَّبَّ على المقدمتين قوله: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

﴿وَأَشْتَكِبَرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ﴾ وتعظّموا عن الإيمان بموسى والالتقياد للحق في المصر وما يليه ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وبلا استحقاق، ولم يخافوا عذابه وتكالاً حيث توفّموا ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ﴾ بعد الموت ﴿إِلَيْنَا﴾ وإلى حكمنا ﴿لَا يُرْجَعُونَ﴾ لجزاء أعمالهم وتكبرهم وعنادهم ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾ بالعذاب بعد ما بلغوا من الكفر والطغيان النهاية أخذ عزيز مقتدر ﴿فَتَبَدَّلْنَاهُمْ﴾ وألقيناهم ﴿فِي آثِمٍ﴾ وبحر القلزم<sup>٣</sup>، وعاقبناهم بالإغراق، وفي تشبيههم بالحصاة المقبوضة بالكف المنبوضة في الماء غاية تعظيم الأخذ وتحقير المأخوذ بعد الاخبار بتكبرهم وتعظّمهم.

فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ \* وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ  
الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ \* وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ  
الْمَقْبُوحِينَ [٤٠-٤٢]

ثم أمر الله سبحانه بالاعتبار بحالهم وبالغ في بيان عاقبتهم بقوله: ﴿فَانظُرْ﴾ يا محمد بعين قلبك، أو أيها العاقل ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ ومآل كفرهم وطغيانهم في الدنيا ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ بالحرمان من الطافنا وإيكالهم إلى أنفسهم ﴿أُمَمَةً﴾ وقُدوة لأهل الضلال حيث إنهم كانوا ﴿يَدْعُونَ﴾ الناس إلى الكفر وتكذيب الرسل المؤدّي ﴿إِلَى النَّارِ﴾ وعذاب دار القرار ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ينزل عليهم العذاب الشديد، وهم لا يستطيعون نصر أنفسهم و ﴿لَا﴾ هم ﴿يُنصَرُونَ﴾ من قِبَل غيرهم بدفع العذاب

٢. تفسير الرازي ٢٤: ٢٥٣.

١. تفسير القمي ٢: ١٤٠، تفسير الصافي ٤: ٩٠.

٣. أي البحر الأحمر.

عنهم بالشفاعة والعناية، كما يُنْصَر الأئمة الدعاة إلى الجنة.

عن الصادق عليه السلام: «أَنَّ الْأَئِمَّةَ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِمَامَانِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾<sup>١</sup>، لَا بِأَمْرِ النَّاسِ: يُقَدِّمُونَ أَمْرَ اللَّهِ قَبْلَ أَمْرِهِمْ، وَحُكْمَ اللَّهِ قَبْلَ حُكْمِهِمْ. قَالَ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ يَقْدِمُونَ أَمْرَهُمْ قَبْلَ أَمْرِ اللَّهِ، وَحُكْمَهُمْ قَبْلَ حُكْمِ اللَّهِ، وَيَأْخُذُونَ بِأَهْوَاءِهِمْ خِلَافَ مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ»<sup>٢</sup>.

﴿وَأَتَّبَعْنَاهُمْ﴾، وَالْحَقَنَاهُمْ ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿لَعَنَةً﴾ مِنْ سَاحَةِ الرَّحْمَةِ وَبَعْدًا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، أَوْ الدَّعَاءَ بِاللَّعْنِ وَالطَّرْدِ مِنَ النَّاسِ وَالْمَلَائِكَةِ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ﴾ بِالْخُصُوصِ ﴿مِنَ الْمُتَّبِعِينَ﴾ وَالْمُبْعَدِينَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّعْمِ الدَّائِمَةِ.

وعن ابن عباس: من المشوَّهين<sup>٣</sup> لسواد الوجه وزُرقة العين<sup>٤</sup>.

قيل: إِنَّ اللَّهَ يَقْبَحُ صُورَهُمْ وَيَتَّبِعُ عَمَلَهُمْ، وَيَجْمَعُ لَهُمْ بَيْنَ الْفُضِيحَتَيْنِ<sup>٥</sup>، فَصَارَتْ قَبَاحَةُ عِقَادِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ مُؤَدِيَةً إِلَى هَذِهِ الْقَبَاحَةِ الَّتِي لَا قَبَاحَةَ فَوْقَهَا.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بِصَافِرٍ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ \* وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ [٤٣ و ٤٤]

ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ كَمَالَ تَفَضُّلِهِ عَلَى مُوسَى مُضَافاً إِلَى مَا سَبَقَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ الْمَعْمُودِ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ وَالْأَمَمَ الْمَاضِيَةَ بِالْعَذَابِ، كَقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودٍ وَأَصْرَاهِيمَ، حَالُ كَوْنِهِ أَوْ لِيَكُونَ ﴿بَصَافِرٍ لِلنَّاسِ﴾ وَأَنْوَاراً يُبَصِّرُ بِهَا الدِّينَ وَطَرِيقَ الْخَيْرِ ﴿وَهُدًى﴾ وَرِشَاداً إِلَى الْحَقِّ وَالشَّرَائِعِ ﴿وَرَحْمَةً﴾ وَنِعْمَةً عَلَى مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَالتَّزَمَ بِالْعَمَلِ بِمَا فِيهِ بِتَكْمِيلِ النُّفُوسِ وَإِعْدَادِهِمْ لِلْفَيُوضَاتِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ وَيَتَعَطَّوْنَ بِمَا فِيهِ.

ثُمَّ نَبَّهَ سَبْحَانَهُ عَلَى أَنَّ الْإِخْبَارَ بِمَنَاجَاةِ مُوسَى وَسَائِرِ قَضَايَاهُ إِنَّمَا هُوَ بِالْوَحْيِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنْتَ حَاضِراً﴾ ﴿بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ مِنْ جَبَلِ طُورِ الَّذِي كَانَ فِيهِ مَنَاجَاةُ مُوسَى رَبَّهُ ﴿إِذْ قَضَيْنَا﴾ وَعَهْدُنَا ﴿إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ الْعَظِيمِ الشَّأْنِ، وَهُوَ الرِّسَالَةُ ﴿وَقَدْ﴾ فِي فَرْضِهِ ﴿مَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لِلْوَحْيِ وَالْمَنَاجَاةِ حَتَّى تُخَبِّرَ النَّاسَ بِهَا عَنْ حُضُورِ وَمَشَاهِدَةِ، وَمَا كُنْتَ تَالِيّاً لِلْكَتَبِ، وَمَتَعَلِّماً مِنَ الْعُلَمَاءِ،

١. الأنبياء: ٧٣/٢١. ٢. الكافي: ١/١٦٨، تفسير الصافي: ٤/٩١.

٣. في تفسير الرازي: المشوَّهين. ٤ و ٥. تفسير الرازي: ٢٤/٢٥٥.

فلا بد من كون إخبارك بها عن الوحي.

وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُزِيلِينَ \* وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [٤٥، ٤٦]

ثم قرر ذلك بقوله: ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا﴾ وخلقنا ﴿قُرُونًا﴾ كثيرة بعد موسى إلى زمانك ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ وتمادت عليهم مدد حياتهم، فتغيرت الشرائع، وحرقت الكتب، واندرست العلوم، وعامت الأنباء ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا﴾ ومقيماً ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ كما كان شعيب وموسى مقيمين فيهم ﴿تَتْلُوا﴾ وتقرأ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وتعلم منهم، أو أنت تتلو على أهل مكة ﴿آيَاتِنَا﴾ الدالة على قصصهم وما جرى بين موسى وشعيب ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُزِيلِينَ﴾ إياك وموحين إليك تلك الآيات ونظائرهما لتكون معجزة لك وعبرة لقومك ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ﴾ الايمن ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى إني أنا الله رب العالمين ﴿وَلَكِنْ﴾ أرسلناك بالقرآن الذي فيه جميع العلوم وكثير من المغيبات ليكون ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ وتفضلاً عليك وعلى أمتك و ﴿لِتُنْذِرَ﴾ به ﴿قَوْمًا﴾ وأمين ﴿مِمَّا أَتَاهُمْ﴾ وما أرسل فيهم أحد ﴿مِنْ نَذِيرٍ﴾ ورسول منهم ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ مع تمامية الحجة عليهم ببعث الأنبياء الكثيرة في بني إسرائيل وغيرهم من الأمم.

قيل: إنه كانت حجج الأنبياء قائمة عليهم، ولكن ما بعث إليهم من تجدد تلك الحجج عليهم، فبعث نبينا فيهم لذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ويتنبهون ويتعظون، أو يهتدون إلى الحق. عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ قال: «كتب الله كتاباً قبل أن يخلق الخلق بألفي عام، ثم وضعه على العرش ثم نادى: يا أمة محمد، إن رحمتي سبقت غضبي، أعطيتكم قبل أن تسألوني، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني، من يلقيني منكم بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، أدخلته الجنة»<sup>١</sup>.

وعن ابن عباس: يعني إذ نادينا أمتك في اصلااب آبائهم: يا أمة محمد، أجبتمكم قبل أن تدعوني، وأعطيتكم قبل أن تسألوني، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني، وإنما قال الله ذلك حين اختيار موسى

سبعين رجلاً لميقات ربه<sup>١</sup>.

وعن وهب، قال: لما ذكر الله لموسى فضل أمة محمد قال: ربّ أرينهم. قال: إنك لن تدركهم، وإن شئت أسمعك أصواتهم؟ قال: بلى يا رب. فقال سبحانه: يا أمة محمد، فأجابه من أصلاب آبائهم، فأسمعه الله أصواتهم، ثم قال: أحببتكم قبل أن تدعوني... إلى آخر ما قال ابن عباس<sup>٢</sup>.

وفي (العيون) عن النبي ﷺ: «لما بعث الله عزّ وجلّ موسى بن عمران، واصطفاه نبياً، وفلق له البحر، ونجّى بني إسرائيل، وأعطاه التوراة والألواح، رأى مكانه من ربه عزّ وجلّ، فقال: ربّ لقد أكرمتني بكرامة لم تُكرم بها أحداً من قبلي. فقال الله جلّ جلاله: يا موسى، أما علمت أن محمداً أكرم عندي من جميع خلقي؟

فقال موسى: يا ربّ، إن كان محمداً أكرم عندك من جميع خلقك، فهل آل نبي أكرم عندك من آلي؟ فقال الله: يا موسى، أما علمت أن فضل آل محمد آل النبيين كفضل محمد على جميع المرسلين؟ فقال موسى: يا رب، فإن كان آل محمد كذلك، فهل في أمم الأنبياء أفضل عندك من أمتي؛ ظلّلت عليهم الغمام، وأنزلت عليهم المَنّ والسّلو، وفلّقت لهم البحر؟ فقال الله جلّ جلاله: يا موسى، أما علمت أن فضل أمة محمد على جميع الأمم، كفضله على جميع خلقي.

قال موسى: يا ربّ، ليتني كنت أراهم. فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: يا موسى، لن تراهم، وليس هذا أوّان ظهورهم، ولكن تراهم في الجنّ والفِرْدَوْس بحضرة محمد في نعيمها يتقلّبون، وفي خيراتها يتبحّجون، أفتحبّ أن أسمعك كلامهم؟ قال: نعم إلهي. قال جلّ جلاله قم بين يدي، واشدّد مِنزرك، قيام العبد الذليل بين يدي المَلِكِ الجليل. ففعل ذلك فنأدى ربّنا عزّ وجلّ: يا أمة محمد، فأجابه كلّهم وهم في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم: لبيك اللهمّ لبيك، لا شريك لك لبيك، إنّ الحمد والشّعمة والمُلْك لك، لا شريك لك. قال: فجعل الله عزّ وجلّ تلك الإجابة شعار الحاجّ.

ثمّ نادى ربّنا عزّ وجلّ: يا أمة محمد، إنّ قضائي عليكم إنّ رحمتي سبقت غضبي، وعفوي قبل عقابي، فقد استجبت لكم قبل أن تدعوني، وأعطيتكم قبل أن تسألوني، من يلقيني بشهادة أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، صادق في أقواله، محقّ في أفعاله، وأنّ علي بن أبي طالب أخوه ووصيه من بعده ووليه، يلتزم طاعته كما يلتزم طاعة محمد، وأنّ أولاده المُصْطَفَيْن الطاهرين المطهّرين المعانين بعجائب آيات الله ودلائل حُجج الله من بعدهما أولياءه، أدخله جنتي وإن كانت ذنوبه مثل زبد البحر.

قال: فلما بعث الله عز وجل محمداً قال: يا محمد، وما كنت بجانب الطور إذ نادينا أمتك بهذه الكرامة<sup>١</sup> الخبر.

قيل: إن الله ذكر عدم حضور النبي ﷺ في الجانب الغربي إذ قضى إلى موسى الأمر، وهو إنزال التوراة، حتى تكامل دينه، وكونه في أول الأمر في أهل مدين، وكونه في الطور ليلة المناجاة؛ لأن كلها أحوال عظيمة وإنما عرفها النبي ﷺ للرحمة، [ثم] فسر الرحمة بقوله: ﴿لَتُنْذِرَ﴾ إلى آخره<sup>٢</sup>.

وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ \* فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى [٤٧ و ٤٨]

ثم بين سبحانه حكمة بعثه في المشركين بقوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ﴾ وعقوبة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿فَيَقُولُوا﴾ اعتراضاً واحتجاجاً علينا يوم القيامة ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا﴾ ولم لم تبعث فينا ﴿رَسُولًا﴾ من قبلك يتلو علينا آياتك، ويؤمّر علينا حجتك، ويهدينا سبيلك؟ ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ ونهتدي بهدائك ﴿وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بتوحيده وبما أنزلت من الآيات والأحكام، ما أرسلناك إليهم، فلم تكن حكمة إرسالك فيهم إلا قطع حجتهم، وسد باب اعتذارهم، وإتمام الحجة عليهم.

ثم بين سبحانه غاية شقاوتهم بأنهم قوم إذا لم نبعث إليهم الرسول اعترضوا علينا، وإذا بعثنا الرسول اعترضوا عليه بأنه لم يأت بمعجزة اقترحوها عليه بقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ محمد بالرسالة التي هي ﴿الْحَقُّ﴾ وعين الصدق ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾ وبأمرنا بالمعجزات الباهرات ﴿قَالُوا﴾ تعتاً واقتراحاً عليه وعلينا: ﴿لَوْلَا أُوتِيَ﴾ محمد من المعجزات ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ بن عمران من الآيات التسع والكتاب المنزل جملة واحدة مع أن الواجب على الله أن يعطي الرسول معجزة تدل على صدقه، ولا يجب أن تكون معجزات الأنبياء واحدة، بل لا يجوز ذلك للحكمة البالغة.

أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ \* قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْكَ الْإِنْسَانُ شَيْئًا وَلَهُ الْعِزَّةُ الْأُولَى [٤٨ - ٥٠]

ثم يبين سبحانه أنه مع بطلان اعتراضهم ليس غرضهم إلا التعنت واللجاج بقوله: ﴿أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا﴾ وأضراب هؤلاء المتعنتين من اليهود، أو اليهود الأمرين لهؤلاء المشركين بالسؤال ﴿بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ وفي الزمان الذي أظهر موسى معجزاته و ﴿قَالُوا﴾ في شأن موسى وهارون، أو في شأن موسى ومحمد ﷺ ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ وساحران تعاونوا على السحر، أو يعضد كل منهما الآخر في ترويح الباطل.

قيل: إن قريشاً بعثوا رَهْطاً إلى رؤساء اليهود في عيد لهم فسألوهم عن شأن النبي ﷺ، فقالوا: إنا نجده في التوراة بنعته وصفته، فلما رجع الرَهْط وأخبروهم بما قالت اليهود قالوا ذلك<sup>١</sup>. وقيل: إن اليهود أمروا قريشاً أن سألوا محمداً ﷺ أن يأتي مثل ما أوتي موسى، والمراد: أو لم يكفر هؤلاء اليهود الذين أمروا قريشاً بهذا السؤال<sup>٢</sup>.

وقيل: إن المعنى: أو لم يكفر أبائهم بأن قالوا في شأن موسى وهارون: ساحران<sup>٣</sup> تظاهرا و ﴿إِنَّا بِكُلِّ﴾ منهما؛ أو بكل الأنبياء ﴿كَافِرُونَ﴾.

وقيل: إن المراد أو لم يكفر اليهود بما أوتي موسى ﷺ من قبل من البشارة بعيسى وبمحمد ﷺ فقالوا: إنهما ساحران<sup>٤</sup> تظاهرا.

وقيل: إن المراد بالحق هو القرآن<sup>٥</sup>، والمراد من قوله: ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ لولا نزل القرآن جملة واحدة كما نزل التوراة كذلك، والمراد من قوله ﴿ساحران تظاهرا﴾ أن الكتابين تظاهرا وتوافقا في المطالب، ويصدق أحدهما الآخر، ومعنى قوله: ﴿إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾ بكل الكتابين، ويؤيده قوله في ردهم: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين القائلين بهذا القول: ﴿فَأُتُوا﴾ أنتم ﴿بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يكون ﴿هُوَ أَهْدَى﴾ إلى الحق من كتاب موسى وكتابي [أو] أرشد إلى طريق السعادة الأبدية ﴿مِنْهُمْ﴾ بأي وسيلة تمكثون، إذن أنا ﴿أَتَّبِعُهُ﴾ وأعمل به وإن خالفتموه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنهما ساحران مختلفان، وفيه نوع تحدي وتهكم ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ لك المسألة، ولم يعملوا بما أمرتهم به من إتيان كتاب آخر أهدى، ولم يمكنهم ذلك ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُشِيعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الزائغة في قولهم بأن الكتابين ساحران من غير أن يكون لهم دليل يعتمد عليه.

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

## الظَّالِمِينَ \* وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [٥٠ و ٥١]

ثم أعلن سبحانه بغاية ضلالهم بقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ على نفسه ﴿وَمَنْ أَتَّبَعِ هَؤُلَاءِ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ﴾ وقال قولاً أو عمل عملاً بشهوة نفسه من دون أن يكون على صحته حجة واضحة شرعية أو عقلية.

عن الكاظم عليه السلام - في هذه الآية - قال: «يعني من أتخذ دينه ورأيه بغير إمام من ائمة الهدى»<sup>١</sup>. ثم إنه تعالى بعد ذنهم بغاية الضلال هددهم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ إلى دين الحق، ولا يوفق للالتزام به ﴿الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بالكفر والإصرار على العناد، بل يشملهم الخذلان الذي هو أشد العذاب في الدنيا لاستتباعه أشد العذاب في الآخرة.

ثم بين الله سبحانه حكمة نزول القرآن نجوماً بقوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا﴾ لقريش، وأكثرنا ﴿لَهُمُ الْقَوْلُ﴾ بانزال آيات القرآن العظيم واحدة بعد واحدة وقطعة بعد قطعة حسبما تقتضيه الحكمة ليصل التذكير - عن الكاظم عليه السلام: «إمام إلى إمام»<sup>٢</sup> - ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ويتغطون فيؤمنوا وينقادوا للحق، أو المراد: تابعنا لهم المواعظ والزواجر، وبيننا لهم قصص المهلكين قرناً بعد قرن بالعذاب على الكفر وتكذيب الأنبياء لعلهم يتعظون ويخافون أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم من الأمم الظالمة المكذبة للرسل كقوم نوح وأضرابهم.

## الَّذِينَ آمَنَّاهُمْ أَلَكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ \* وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ [٥٢ و ٥٣]

ثم استدلل سبحانه على صحة النبوة وصدق القرآن بعجز البشر عن إتيان مثل هذا الكتاب، أكد ذلك بالاستدلال عليهما بايمان علماء أهل الكتاب به بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنَّاهُمْ أَلَكِتابَ﴾ السماوي كالطوراة والانجيل، وأنزلنا عليهم في الزمان السابق على نزول القرآن و ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ وآمنوا به حق الايمان ﴿هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ وبكونه كلام الله يصدقون.

قيل: نزلت في أناس من أهل الكتاب، كانوا على شريعة حقة، فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله آمنوا به منهم سلمان وعبد الله بن سلام<sup>٣</sup>.

وحاصل الاستدلال: أن المطلعين على الكتب السماوية لمعرفة صفات القرآن وعلائمه

١. الكافي ١: ١٨/٣٤٣، تفسير الصافي ٤: ٩٤.

٢. الكافي ١: ١٨/٣٠٦، تفسير الصافي ٤: ٩٤.

٣. تفسير الرازي ٢٤: ٢٦٢.



المكتوبة في الكتب، آمنوا به، فعليكم أيها المشركون الأميون أن تقتدوا بهم، بل أنتم أولى بالآيمان به. وقيل: نزلت في أربعين رجلاً من أهل الانجيل، وهم أصحاب السفينة، جاءوا مع جعفر من الحبشة<sup>١</sup>.

وعن رفاعه بن قُرْطَة: نزلت في عشرة أنا منهم<sup>٢</sup>.

ثم بين الله سبب إيمانهم بالقرآن بقوله: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرآن واطَّلَعُوا على فضائله وعلائمه المذكورة في الكتب ﴿قَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ ثم أكدوا إيمانهم به بقولهم: ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ﴾ النازل ﴿مِنْ﴾ قبل ﴿رَبِّنَا﴾ ثم بينوا أن إيمانهم به ليس حادثاً باستماع تلاوته، بل كان متقدماً قبل نزوله بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ له، ومنقادين لما فيه، لما وجدنا البشارة بنزوله في كتب الأنبياء السابقين.

أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ الْسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ \* وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ [٥٤ و ٥٥]

ثم إنه تعالى بعد مدحهم بالآيمان القديم والحادث بشرهم بالأجر بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المؤمنون من أهل الكتاب ﴿يُؤْتَوْنَ﴾ ويُعْطَوْنَ ﴿أَجْرَهُمْ﴾ وثواب إيمانهم بمحمد وكتابه ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ مرة بإيمانهم بمحمد قبل بعثته وبالقرآن قبل نزوله، ومرة بإيمانهم بعد بعثته ونزوله.

وقيل: مرة بإيمانهم بالانبياء قبل محمد، ومرة بإيمانهم به<sup>٣</sup>.

وفي الحديث: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين - إلى أن قال - ورجل آمن بالكتاب الأول، ثم آمن بالقرآن»<sup>٤</sup>.

وقيل: إنهم لما آمنوا بمحمد شتمهم المشركون فصَفَحُوا عنهم، فلهم أجران: أجر على إيمانهم، وأجر ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ وَصَفَحُوا<sup>٥</sup>، أو ثبتوا على الآيمان والعمل بشريعة الاسلام. عن الصادق عليه السلام: «بما صبروا على التقية»<sup>٦</sup>.

ثم وصفهم الله بالالتزام بلوازم الآيمان من العبادات البدنية بقوله ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ ويدفعون ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾ والطاعة البدنية، أو التوبة ﴿السَّيِّئَةِ﴾ والمعصية السابقة، أو بالعفو والصَّحِّح الأذى. وعن الصادق عليه السلام: «الحسنة التقية، والسيئة الإذاعة»<sup>٧</sup>.

١ و ٢. تفسير الرازي ٢٤: ٢٦٢.

٣. تفسير الرازي ٢٤: ٢٦٢.

٤. تفسير روح البیان ٦: ٤١٤.

٥. تفسير الرازي ٢٤: ٢٦٢.

٦. الكافي ٢: ١٧٢، تفسير الصافي ٤: ٩٥.

٧. الكافي ٢: ١٧٢ و ٦/١٧٣، تفسير الصافي ٤: ٩٥.

وعن النبي ﷺ: «اتبع السيئة الحسنة تَمْحُهَا»<sup>١</sup>.

ومن الطاعة المالية بقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ وأعطيناهم من الاموال ﴿يُنْفِقُونَ﴾ في سبيل الله ومن الأخلاق الحميدة بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا﴾ من الأعداء والجهال الكلام ﴿الْفُتُورَ﴾ والباطل ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ وسكتوا ومزوا.

قيل: لما أسلموا عنهم أبو جهل، وشتمهم المشركون، فسكتوا ولم يخوضوا فيه<sup>٢</sup>.

والقمي قال: اللغو الكذب<sup>٣</sup>.

﴿وَقَالُوا﴾ إن تكلموا في جوابهم: يا قوم ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا﴾ من الإيمان والجلم والصنع ونحوها ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ من الكفر والطغيان والعناد مع الحق، والتكلم باللغو والسفاهة ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ ونودعكم ونترككم ﴿لَا تَبْتَغِي أَلْجَاهِلِينَ﴾ ولا نطلب صحبتهم ومخالطتهم، أو لا نجازي<sup>٤</sup> جهلهم بالجهل وباطلهم بالباطل.

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ

بِالْمُهْتَدِينَ [٥٦]

ثم لما ذكر سبحانه هداية جمع من أهل الكتاب، نبه على أن الهداية لا تكون إلا بتوفيقه بقوله: ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَا تَهْدِي﴾ هداية موصلة إلى الجنة والخير أبداً أحداً حتى ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هدايته من الناس، وأشتقت إلى إيمانه غاية الاشتياق، وبذلت في إدخاله في الاسلام نهاية الجهد ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي﴾ بتوفيقه وعناياته الخاصة إلى الحق وقبول الاسلام ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته بمقتضى استعداده وطيب طيبته وقوة عقله ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ وأخبر بحال المستبشرين لنيل فيوضاته، أو هو المختص بعلم الغيب، فيعلم من يهدي بعدد ومن لا يهدي.

قال بعض العامة: الجمهور على أن الآية نزلت في أبي طالب عم الرسول<sup>٥</sup>، ونقل الفخر عن الزجاج إجماع المسلمين على ذلك، قال: وذلك أن أبا طالب قال عند موته: يا معشر بني عبد مناف، أطيعوا محمداً وصدقوه فليحوا وترشدوا. فقال النبي ﷺ: يا عم، تأمرهم بالصّح لأفْسهم وتُدعه لنفسك؟ قال: فما تريد يا ابن أخي؟ قال: أريد منك كلمة واحدة، فإنك في آخر يومٍ من أيام الدنيا؛ أن تقول لا إله إلا الله، أشهد لك بها عند الله تعالى قال: يا ابن أخي، قد عَلِمْتُ أَنَّكَ صادق، ولكنني أكره أن

١. تفسير البضاوي ٢: ١٩٦، تفسير أبي السعود ٧: ١٩، وفي النسخة: اتبع الحسنة السيئة تمحها.

٢. تفسير الرازي ٢٤: ٦٦٢. ٣. تفسير القمي ٢: ١٤٢، تفسير الصافي ٤: ٩٥.

٥. تفسير روح البيان ٦: ٤١٥.

٤. في النسخة: لا نجازهم.

يَقَالُ جَزَعٌ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ عَلَيْكَ وَعَلَى بَنِي عَمِّكَ غَضَاضَةٌ وَمَسَبَةٌ بَعْدِي لَقُلْتُهَا، وَلَافْتَرْتُ بِهَا عَيْنَيْكَ عِنْدَ الْفِرَاقِ، لَمَّا أَرَى مِنْ شِدَّةِ وَجْدِكَ وَتُصْحَكِ، وَلَكِنِّي سَوْفَ أَمُوتُ عَلَى مِلَّةِ الْأَشْيَاحِ: عَبْدِ الْمَطْلَبِ، وَهَاشِمٍ، وَعَبْدِ مَنْفٍ<sup>١</sup>.

أقول: الرواية من صدرها إلى ذيلها صريحة في إسلام أبي طالب وتصديقه رسالة النبي ﷺ في ما جاء به من التوحيد والدين خصوصاً قوله: وَلَكِنِّي أَمُوتُ عَلَى مِلَّةِ الْأَشْيَاحِ.

وقد روى الأصمعي بن ثبابة عن أمير المؤمنين أنه قال: «والله ما عبد أبي وجدي عبد المطلب ولا هاشم ولا عبد مناف صنماً قط»<sup>٢</sup>، وإنما لن يعلن أبو طالب بالشهادة لما رأى من المفسدة في الإعلان بها، لوضوح أن العذر المذكور مانع من الإجهار لا من الإسرار، مع أنه لا يمكن للعاقل أن يكف نفسه عن الإيمان للوجه الذي نقلوه عنه مع العلم بصدق النبي ﷺ فيما أخبر به من العذاب الشديد الأبدي على الشرك، وغاية شوقه إلى سرور قلب النبي ﷺ، وقد تواترت الأخبار عن الأئمة الأطهار عليهم السلام بإيمانه وإسلامه قبل كل أحد.

القمي قال: نزلت في أبي طالب، قال: كان رسول الله ﷺ يقول: يا عم قل لا إله إلا الله أنفعك بها يوم القيامة. فيقول: يا بن أخي، أنا أعلم بنفسي، فلما مات شهد العباس بن عبد المطلب عند رسول الله أنه تكلم بها عند الموت. فقال رسول الله: «أما أنا فلم أسمعها منه، وأرجو أن أنفعه يوم القيامة». وقال: «لو قمت المقام المحمود لشفعت في أمي وأبي وعمي وأخ كان لي في الجاهلية»<sup>٣</sup>.

أقول: هذه الرواية أيضاً مخالفة لما عندنا من أن آباء الأئمة عليهم السلام كانوا آباء النبي ﷺ موحدين مسلمين من أول بلوغهم، مع أن إقراره في ابتداء النبوة بالتوحيد سراً عند النبي ﷺ لم يكن فيه مفسدة، فكيف يقول النبي ﷺ: «أنا لم أسمعها منه؟».

عن الصادق عليه السلام: أن مثل أبي طالب مثل أصحاب الكهف، أسروا الإيمان، وأظهروا الشرك، فأتاهم الله أجراً مرتين<sup>٤</sup>.

وعنه عليه السلام: قيل له: إنهم يزعمون أن أبا طالب كان كافراً؟ فقال: «كذبوا، كيف يكون كافراً وهو يقول:

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَا وَجَدْنَا مُحَمَّدًا نَبِيًّا كَتَبَ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ

وفي رواية أخرى، قال: «كيف يكون أبو طالب كافراً وهو يقول:

١. تفسير الرازي ٢: ٢٥. ٢. كمال الدين: ٣٢/١٧٤.

٣. تفسير القمي ١٤٢: ٤. ٤. الكافي ١: ٣٧٣/٢٨، تفسير الصافي ٤: ٩٥.

لقد عَلِمُوا أَنْ ابْتِنَا لَا مُكَذَّبَ لَدِينَا، وَلَا يَغْتَبَا<sup>١</sup> بقول الأباطل  
وأبيض يُشْتَشَقَى الْعَمَامُ بِوَجْهِهِ ثَجَالٌ<sup>٢</sup> الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَزَابِلِ<sup>٣</sup>  
وعن الصادق عليه السلام: «قال النبي صلى الله عليه وآله: إن جبرئيل أخبرني أن الله حرّم على النار صلباً حَمَلَك، وَبَطْناً  
حَمَلَك، وَتُدْيَا أَرْضَعَك، وَحِجْرًا كَفَلَك»<sup>٥</sup>.

أقول: المراد بالحجر الكافل له أبو طالب، مع أن المُشْرِكَ لَا يُمَكِّن أَنْ يُغْفَرَ لَهُ.  
وروي أن أمير المؤمنين كان جالساً في الرُّحْبَةِ يوماً، فقال رجل: يا أمير المؤمنين، أنت بالمكان  
الذي أنت به، وأبوك يعدّب بالنار!

قال عليه السلام: «فَضَّ الله فَاك، والذي بعث بالحقّ محمداً بشيراً، لو شَفَعَ أَبِي فِي كُلِّ مُذْنِبٍ عَلَى وَجْهِ  
الْأَرْضِ لَشَفَعَهُ اللهُ فِيهِمْ، أَبِي يُعَذَّبُ بِالنَّارِ وَابْنُهُ قَسِيمُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ؟!»<sup>٦</sup>.

وعن رفاعة، عن أبائه: كان نقش خاتم أبي طالب: «رضيت بالله رباً، وبابن أخيه محمداً نبياً، وبابني  
عليّ له وصياً».

وعن الصادق عليه السلام: «أول صلاة صلاها رسول الله أنه عليه السلام قام في الصلاة، وقام على الجانب الأيمن  
منه، فجاء أبو طالب ومعه جعفر، فرأهما يُصَلِّيَانِ، فقال لابنه جعفر: صَلِّ جَنَاحَ ابْنِ عَمَلِك. فقام جعفر  
إلى يسار رسول الله، فلمّا جاء وقت وفاة أبي طالب أوصى إلى ولده واقربائه أن يَنْصُرُوا  
رسول الله صلى الله عليه وآله»<sup>٧</sup>.

وعن الكاظم عليه السلام: أنه سُئِلَ أَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُحَجَّجاً بِأَبِي طَالِبٍ؟ فقال: «لا ولكنه كان  
مستودعاً للوصايا، فدفعها إليه».

قيل: فدفع إليه الوصايا على أنه محجج به؟ فقال: «لو كان محججاً به ما دفع إليه الوصية».  
قيل: فما كان حال أبي طالب؟ قال: «أقرّ بالنبي وما جاء به، فدفع إليه الوصايا، ومات من يومه»<sup>٨</sup>.  
أقول: معنى كون النبي ﷺ مُحَجَّجاً بِهِ أَنَّ أَبَا طَالِبٍ كَانَ حُجَّةً عَلَيْهِ قَبْلَ الْبَعْثَةِ، والمراد بالوصايا  
وصايا الأنبياء.

وفي رواية، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «والذي بعث محمداً بالحقّ إن نور أبي طالب يوم القيامة ليُطْفِئُ

١. في الكافي وشعر أبي طالب: يعني.  
٢. الثَّمَال: الغياث، والذي يقوم بأمر قومه.  
٣. الكافي ١: ٢٩/٣٧٣، تفسير الصافي ٤: ٩٦، شعر أبي طالب وأخباره: ٢٦ و ٣٣. ٤. في النسخة: الباقر عليه السلام.  
٥. نحوه في الكافي ١: ٢١/٣٧١ ومعاني الأخبار: ١/١٣٦ وأمالى الصدوق: ٩٦٤/٧٠٣ وتفسير الصافي ٤: ٩٦.  
٦. بشارة المصطفى: ٢٠٢، تفسير الصافي ٤: ٩٧. ٧. الغدير ٧: ٣٦٦ و ٣٦٧.  
٨. الكافي ١: ١٨/٣٧٠، تفسير الصافي ٤: ٩٧.

أنوار الخلق إلا خمسة أنوار: نور محمد، ونوري، ونور فاطمة، ونور الحسن والحسين ومن ولده من الأنمة، لأن نوره من نورنا الذي خلقه الله من قبل خلق آدم بألفي عام<sup>١</sup> إلى غير ذلك من الروايات. وأما الآية فلا دلالة لها على كفره، كما اعترف به الفخر<sup>٢</sup>، بل دالة على إيمانه، للدلالة أن النبي ﷺ كان يحبّه، وهو ﷺ ما كان يحبّ كافراً لحرمة حبّه عليه بقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾<sup>٣</sup> ويدلّ عليه قوله: «أوثق عرى الإيمان: الحبّ في الله، والبغض في الله»<sup>٤</sup> وأظهر مصاديقه بغض المشركين الذين هم أبغض الخلق عند الله، فكيف يجتمع ذلك مع حبّ أبي طالب لو كان مشركاً؟ وكذا ما روي عن السجّاد عليه السلام: «أن النبي ﷺ قال: الحمد لله الذي لم يجعل للفاجر عليّ يداً، لكيلا يروونه تحصل في قلبي منه مودة، فإن مودة الفجار تجرّ إلى النار».

وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ تَخْطُفُ مِنَّا أَرْضَنَا أَوْ لَمْ تُنَمِّكُنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا  
يُجِبْنِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [٥٧]

ثم لما بين سبحانه أن الهداية الحقيقية إنما هي بتوفيقه، بين أن من لم يشمله التوفيق يعتذر عن عدم قبوله الدعوة بما ليس بعذر بقوله: ﴿وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ﴾ ونسب دين الاسلام ﴿مَعَكَ﴾ ونقدي بك في القول بالتوحيد ﴿تَخْطُفُ﴾ ونُخْرِجُ بسرعة ﴿مِنَّا أَرْضَنَا﴾ ووطننا، روي أنها نزلت في الحرث، أو الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف حيث أتى النبي ﷺ فقال: نحن نعلم أنك على الحق، وما كذبت كذبة قط فتنهك اليوم، ولكننا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب أن يتخطفونا من مكة والحرم، لاجتماعهم على خلافنا، وهم كثيرون ونحن أكلة رأس<sup>٥</sup> لا نستطيع مقاومتهم، فنزلت<sup>٦</sup>.

والقمي: نزلت في قريش حين دعاهم رسول الله ﷺ إلى الاسلام والهجرة<sup>٧</sup>. وعن السجّاد عليه السلام، عن النبي ﷺ أنه قال «والذي نفسي بيده لأدعون إلى هذا الأمر الأبيض والأسود، ومن على رؤس الجبال، ومن في لجج البحار، ولأدعون إليه فارس والروم. فتجبرت قريش واستكبرت، وقالت لأبي طالب: أما تسمع لابن أخيك ما يقول: والله لو سمعت بهذا فارس والروم لا ختطفتنا من أرضنا، ولقلعت الكعبة حجراً حجراً، فأنزل الله هذه الآية»<sup>٨</sup>.

١. بشارة المصطفى: ٢٠٢، تفسير الصافي ٤: ٩٧. ٢. تفسير الرازي ٢٥: ٢. ٣. الممتحنة: ١٦٠/١.

٤. المحاسن: ١٢١/١٦٥. ٥. أي يكفيهم رأس واحد لقتلهم.

٦. تفسير روح البيان ٦: ٤١٧. ٧. تفسير القمي ٢: ١٤٢، تفسير الصافي ٤: ٩٧.

٨. روضة الواعظين: ٥٤، مناقب ابن شهر آشوب ١: ٥٩، تفسير الصافي ٤: ٩٧.

ثُمَّ رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بَقُولَهُ: ﴿أَوَلَمْ تُمْكِنُوا لَهُمْ﴾ ولم نجعل مقرهم ومسكنهم ﴿حَرَمًا آيِنًا﴾ وأرضاً مأمونة من القتال وتعديات العرب لحرمتها، ومع ذلك يُحْمَلُ إلى ذلك الحرَمِ و ﴿يُجْبِئِي إِلَيْهِ﴾ وَيُجْمَعُ فِيهِ ﴿تَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ومنافع جميع النباتات من الفواكه والحبوب والخضراوات، بحيث لا يرى شرقياً وغريبياً ألا وهو فيه، هؤلاء يَرْزُقُونَ منها ﴿وِرْقًا﴾ كانوا ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ لا من لَدُنْ أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ، فإذا كان هذا حالهم وهم عبدة الأصنام، فكيف نعرضهم للتخوف والتخطف إذا صاروا موحدين؟ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ جَهْلَةٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن هذه النعم من قِبلنا، وإلا لم يخافوا غيرنا، ولا يعلمون أن إلههم الله، وإلا لم يَعْبُدُوا غيره، أو لا يعلمون أن ما قالوا ليس بعذر مقبول، وإلا لم يعتذروا به.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ \* وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٨﴾ و ﴿٥٩﴾

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَىٰ بَعْدَ بَيَانِ أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يوجب زوال نعمهم بل موجب لدوامها لهم، بَيَّنَّ أَنَّ الْإِصْرَارَ عَلَى الْكُفْرِ وَتَكْذِيبِ الرُّسُلِ، هو الموجب لزوال النعم بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ بالعذاب ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ وبلدة ﴿بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ وأطغت النعم الكثيرة أهلها فخرَّبنا بعد إهلاكهم ديارهم ﴿فَتِلْكَ﴾ المساكن الخربة التي ترونها في أسفاركم إلى الشام ذهاباً وإياباً ﴿مَسَاكِنُهُمْ﴾ التي كانوا يَسْكُنُونَهَا، فإنها من شدة خرابها ﴿لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ووراء إهلاكهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ من الناس أو من الزمان، حيث إنها لا يَسْكُنُهَا إِلَّا المارة يوماً أو بعض يوم، كما عن ابن عباس<sup>١</sup>. أو من أعقابهم، فإنهم لم يبقوا فيها إِلَّا قَلِيلًا من شؤم كفرهم ومعاصيهم<sup>٢</sup>، وقليلاً من الحيوانات كالهوام والطيور<sup>٣</sup> ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ منهم تلك المساكن، إذ لم يَخْلُفْهُمْ أَحَدٌ من أعقابهم.

ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ سبحانه إهلاك كثير من القرى لبَطَرِ أهلها وكفرهم، بَيَّنَّ أَنَّ نزول العذاب لا يكون إِلَّا بعد إتمام الحجّة على المعذبيين، وَأَنَّ عِلَّةَ عدم نزوله على الكفار الذين كانوا قبل بعثة النبي ﷺ مع بَطَرِهِمْ وشدة كفرهم وعنادهم، عدم بعث الرسول فيهم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ﴾ التي في الأرض بسبب كفرهم وطغيانهم ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا﴾ وعظيما التي تكون تلك القرى أتباعها

١. تفسير الرازي ٢٥: ٥. ٢. تفسير الرازي ٢٥: ٥، تفسير روح البيان ٦: ٤١٨.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٤١٨، والهام: طائر صغير من طيور الليل يألف المقابر.

وَيُسْكِنُهَا الْأَشْرَافَ الَّذِينَ هُمْ مَرْجِعُ أَهَالِي غَيْرِهَا ﴿رَسُولًا﴾ تَتِمُّ بِهِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ، وَيَقْطَعُ بِهِ مَعْذَرَتَهُمْ بِأَن يَدْعُوهُمْ إِلَى تَوْحِيدِنَا وَ ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ وَحُجَجُنَا الدَّالَّةُ عَلَى الْعُقَايِدِ الْحَقَّةِ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَالتَّرْغِيبِ فِي الطَّاعَةِ، وَالتَّرْهيبِ عَنِ الْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ، حَتَّى لَا يَقُولُوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَنْتَعِجَ آيَاتُكَ وَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>١</sup> فَلِذَا لَمْ تَهْلِكِ الْكُفَّارَ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ الْبَعْثَةِ. ثُمَّ نَبَّهَ سَبْحَانَهُ عَلَى عِلَّةِ عَدَمِ تَعْذِيبِ الْكُفَّارَ بَعْدَ الْبَعْثَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنَّا﴾ وَلَيْسَ مِنْ دَابْنًا أَنْ نَكُونَ ﴿مُهْلِكِي أَقْرَى﴾ الْكَافِرَةَ بَعْدَ بَعْثَةِ الرَّسُولِ وَالزَّامِ الْحُجَّةَ ﴿إِلَّا وَأَهْلُهَا﴾ وَسَكَانَهَا ﴿ظَالِمُونَ﴾ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِتَكْذِيبِ الرَّسُولِ وَالْآيَاتِ، وَلَيْسَ أَهْلُ مَكَّةَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ بَعْضُهُمْ آمَنُوا وَبَعْضُهُمْ يُرْجَى مِنْهُمْ الْإِيمَانُ.

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى  
أَفَلَا تَعْقِلُونَ \* أَفَمَنْ أَعَدَّاهُ وَعَدَّاءَ حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ [٦٠ و ٦١]

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى أَجَابَ عَنْ عُذْرِهِمْ ثَالِثًا بَعْدَ الْجَوَابَيْنِ السَّابِقَيْنِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ﴾ أَيُّهَا الْمَعْتَذِرُونَ وَأَعْطَيْتُمْ ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ مِنَ التَّمَكُّنِ فِي الْحَرَمِ وَسَعَةِ الرِّزْقِ وَسَائِرِ النِّعَمِ ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وَاتِّفَاعٌ قَلِيلٌ فِي مَدَّةِ الْعُمُرِ فِيهَا ﴿وَزِينَتُهَا﴾ الَّتِي تَزِينُونَهَا بِهَا مِنَ الْأَلْبَسَةِ الْفَاخِرَةِ وَالْمَرَاقِبِ الْفَاخِرَةِ فِي أَيَّامِ يَسِيرَةٍ، ثُمَّ تَزُولُ وَتَقْنَى بِسُرْعَةٍ ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ مِنَ الْأَجْرِ الْجَزِيلِ الْآخِرِيِّ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ وَطَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ ﴿خَيْرٌ﴾ لَكُمْ مِنْ جَمِيعِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، لَخُلُوصِهِ مِنْ شَوَائِبِ الْمَكَارِهِ وَالْآلَامِ ﴿وَأَبْقَى﴾ وَأَدْوَمُ لِكَوْنِهِ أَبَدِيًّا ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وَلَا تُدْرِكُونَ هَذَا الْأَمْرَ الْوَاضِحَ، وَلَا تَتَفَكَّرُونَ فِيهِ، فَانْكُمْ إِذَا عَقَلْتُمْ ذَلِكَ لَا تَرْضَوْنَ بِاسْتِدْالِ الْأَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَمَا هُوَ فِي مَعْرِضِ الزَّوَالِ بِالَّذِي لَا زَوَالَ لَهُ.

ثُمَّ بَيَّنَّ عَدَمَ تَسَاوِيِ النِّعَمِ الدِّينِيَّةِ الْمُتَّصِلَةِ بِالنِّعَمِ الْآخِرِيَّةِ وَالْمُتَّصِلَةِ بِالْعَذَابِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ﴾ عَلَى إِيْمَانِهِ وَطَاعَتِهِ ﴿وَعَدًّا﴾ يَكُونُ مَوْعُودُهُ ﴿حَسَنًا﴾ كَالْحِجَّةِ وَنَعِيمِهَا ﴿فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ وَنُصْبِيهِ لَا مُحَالَةَ، لِامْتِنَاعِ الْخُلْفِ فِي وَعْدِنَا ﴿كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ﴾ وَنَفْعِنَا ﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وَاتِّفَاعِ أَيَّامِ الْعُمُرِ السَّرِيعِ الْانْقِطَاعِ ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يَكُونُ ﴿مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ فِي مَحْضَرِ عَدْلِنَا لِلْحِسَابِ وَجَزَاءِ الْأَعْمَالِ، فَيُحْكَمُ عَلَيْهِ بِاسْتِحْقَاقِهِ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ الْأَبَدِيَّ، لَا يُمْكِنُ التَّسَاوِيُ بِيَدِيهِ

العقل بين من اتصل نعمة الدنيوية بالنعم الأخروية الأبدية، ومن اتصل نعمة الدنيوية بالعقوبة الأخروية الدائمة.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ \* قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ \* وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ \* وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ \* فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ [٦٦-٦٢]

ثم شرع سبحانه في تهديد المشركين بأحوال القيامة وعدم نفع أصنامهم فيها بقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ والتقدير وذكرهم يا محمد يوم يناديهم ربهم نداء غضبان ﴿فَيَقُولُ﴾ لهم تقيعاً وتوبيخاً: قولوا ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ وتوهمون أنهم شركائي في الألوهية والعبادة، وكنتم تعبدونهم كما تعبدوني، وترجون منهم نجاتكم من الشدائد؟ والغرض من هذا السؤال غايه تفضيهم الذي هو نوع من العذاب ﴿قَالَ﴾ الشياطين والرؤساء ﴿الَّذِينَ﴾ اتخذوهم أرباباً و﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ وثبت عليهم الوعيد بقوله: ﴿لَامِلْنِ جَهَنَّمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾<sup>١</sup>: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءُ الَّذِينَ اتَّبَعُونَا فِي الْعَقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ هُمْ﴾ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا وَأَضَلَّلْنَاهُمْ عَنْ التَّوْحِيدِ مِنْ غَيْرِ إِكْرَاهٍ وَإِجْبَارٍ بَلْ ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ﴾ باختيارهم وميل أنفسهم ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾ وَضَلَّلْنَا عَنْ الْحَقِّ كَذَلِكَ، وَلَمْ يَفْعَلْنَا وَإِيَّاهُمْ الدَّلَالُ الْعَقْلِيَّةُ وَنَصَانِجُ الرِّسَالِ وَبَيِّنَاتُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ الْمُشْحُونَةُ بِالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ فِي الصَّرْفِ عَمَّا كُنَّا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعَصْيَانِ، فَالْيَوْمَ ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ مِنْهُمْ وَمِمَّا اخْتَارُوهُ لِأَنفُسِهِمْ مِنَ الشَّرِكِ ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ هَوَى أَنْفُسِهِمْ وَيَتَّبِعُونَ شَهْوَاهَتِهِمْ.

﴿وَقِيلَ﴾ إِذَنْ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ لِلرُّؤَسَاءِ وَالْأَتْبَاعِ تَهْكُماً وَتَقْرِيعاً: ﴿ادْعُوا﴾ الْيَوْمَ ﴿شُرَكَاءَكُمْ﴾ وَأَلْهَيْتُمْ الَّتِي تَدْعُونَ مِنْ دُونِي، كَيْ يَشْفَعُوا لَكُمْ<sup>٢</sup> وَيَكْفُوا عَنْكُمُ الْعَذَابَ وَيَنْجُوَكُمْ مِنْ شِدَائِدِ هَذَا الْيَوْمِ ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ لَفَرْطِ الْحَيْرَةِ، أَوْ بَرَجَاءِ الثُّصَرَةِ جَمْعاً ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ لِلْعَجْزِ عَنْ إِجَابَتِهِمْ وَتُصَرَّتْهُمْ ﴿وَرَأَوْا﴾ جَمِيعَهُمُ التَّابِعِ وَالتَّابِعِ ﴿الْعَذَابَ﴾ الَّذِي أَعَدَّ لَهُمْ حَسَبَ اسْتِحْقَاقِهِمْ أَنَّهُ قَدْ غَشِيَهُمْ ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ إِلَى وَجْهِهِ مِنَ الْهَيْدَلِ فِي دَفْعِهِ، أَوْ إِلَى الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا لَمَا لَقُوا مَا لَقُوا.



وقيل: إن المراد تمنوا أنهم كانوا مهتدين إلى الحق لا ضالين عنه<sup>١</sup>.

﴿وَذَكَرَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ ربه نداء تفرغ وتوبخ ﴿فَيَقُولُ﴾ لهم أيها الكفار الغواة ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ الذين أرسلتهم إليكم حين دعوكم إلى التوحيد وإلى عبادتي، ونهوكم عن الشرك والضلال ﴿فَعَمِيَتْ﴾ وشثرت ﴿عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ﴾ والأخبار ونسوها فلا يدرون ما يقولون لفراط الدهشة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وفي ذلك الوقت العظيم الهول ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ولا يرجع بعضهم إلى بعض في الجواب، لعلمهم باشتراك جميعهم في الخيرة والوحشة والعجز عنه.

### فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَقَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ [٦٧]

ثم إنَّ تعالى بعد بيان سوء حال المصيرين على الشرك، بين حال التائبين منه بقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ﴾ من الشرك والعصيان ﴿وَآمَنَ﴾ بالتوحيد ورسالة الرسول وصدق كتابه ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾ ومرضياً عند الله ﴿فَقَسَىٰ أَنْ يَكُونَ﴾ ذلك التائب المؤمن الصالح ﴿مِنْ﴾ جملة ﴿الْمُفْلِحِينَ﴾ والفائزين بأعلى المقاصد من الأمن من الأهوال، والنجاة من العذاب، ونيل الجنة<sup>٢</sup> والنعم الدائمة والراحة الأبدية في ذلك اليوم العظيم.

قيل: إن ذكر (عسى) في وعد الكرام للتحقيق، وقيل: إن المقصود إيجاد الرجاء في قلب التائب<sup>٣</sup>، فكأنه قال: فليطمع التائب في الفلاح، ولا يغتر بإيمانه وعمله، لاحتمال انقلاب حاله وابتلائه بما يوجب هلاكه.

### وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ \* وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ [٦٨ و ٦٩]

ثم إنَّ تعالى بعد الجواب عن اعتذار المشركين في ترك الايمان، ذكر الجواب عن اعتراضهم على رسالة الرسول بأنه لا بد أن يكون من الأغنياء والرؤساء، ومحمد فقير لا نفوذ لكلامه في العرب بقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ خلقه ﴿وَيَخْتَارُ﴾ من خلقه من يشاء أن يختاره ويصطفيه للرسالة وغيرها، فكما أن الخلق إليه يكون الاختيار إليه في جميع الأمور، وإن كان مختاره مخالفاً لاختيار الناس، لأنه ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ في أمر من الأمور التكوينية، كالفقر والغنى، والصحة والمرض، والعز والذل،

٢. في النسخة: والنيل بالجنة.

١. تفسير روح البيان ٦: ٤٢١.

٣. تفسير أبي السعود ٢٢: ٢٢، تفسير روح البيان ٦: ٤٢٢.

والرسالة والإمامة وغيرها ﴿سُبْحَانَ أَفٍّ﴾ وتنزه بذاته من أن يزاحم اختياره اختيار خلقه ﴿وَتَعَالَى﴾ وترفع بكمال ذاته ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به من الآلهة التي يدعون من دونه في التصرف في أمر خلقه، أو عن إشراكهم.

ثم هدّد سبحانه الطاعنين في رسالة رسوله بقوله: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ وتُضمِّر قلوبهم من عداوة الرسول والحسد عليه ﴿وَمَا يُغْلِبُونَ﴾ ويظهرون من الطعن فيه والاعتراض عليه بقولهم ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾<sup>١</sup> فيجأز بهم على مضمراتهم ومعلناتهم أسوأ الجزاء.

وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ  
 \* قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ \* قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَمْ لَا تُبْصِرُونَ \*  
 وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [٧٠-٧٣]

ثم إنه تعالى بعد تخصيص أمر الخلق واختيار الأمور والعلم بالمضمرات والمعلنات بذاته المقدسة، خصّ الألوهية والحمد بنفسه بقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ المستحق للعبودية والمنفرد بالألوهية ﴿لَا إِلَهَ﴾ ولا معبود بالاستحقاق ﴿إِلَّا هُوَ﴾ تعالى شأنه و ﴿لَهُ﴾ وحده ﴿الْحُكْمُ﴾ والثناء الجميل ﴿فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ والدنيا والعقبى، لاختصاص النعم العاجلة والآجلة به ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ النافذ فيهما، لا يزاحمه غيره في الخلق والاختيار.

عن ابن عباس حكم لأهل طاعته بالمغفرة، ولأهل معصيته بالشقاء والويل<sup>٢</sup>.

﴿وَالْيَهُ﴾ بالبعث ﴿تُرْجَعُونَ﴾ لا إلى غيره، فيجأزي كلاً على حسب استحقاقه.

ثم إنه تعالى بعد تخصيص الحمد بذاته نبه على بعض مهمات نعمة بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لقومك ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ وأخبروني ﴿إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ والظلمة دائمة وباقية ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ لانهار معه ولا ضياء معها ﴿مَنْ إِلَهٌ﴾ قادر ﴿غَيْرُ اللَّهِ﴾ القدير الحكيم ﴿يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ﴾ يمكنكم فيه تحصيل معاشكم وتنظيم أموركم وتفريح قلوبكم ﴿أَمْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ دلانل توحيد

رَبِّكُمْ، واستحقاقه لشكركم، وتخصيصه بمحامدكم ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا﴾ ودانمًا ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ﴾ بقدرته ﴿بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ﴾ وتستريحون ﴿فِيهِ﴾ من تعب مشاغل النهار ﴿أَفَلَا تَبْصِرُونَ؟﴾

وإنما ختم الآية الأولى بالتوبيخ على ترك الاستماع، والثانية بالتوبيخ على ترك الإبصار؛ لأن الليل يناسب الاستماع، ولأن منافع السمع تعم المحسوس والمعقول، وبعض منافع البصيرة لا تدرك إلا بالعقل، ولذا لم يقرن به جملة (تصصفون فيه). والنهار مناسب للإبصار، ومنفعة الظلمة - وهي الراحة والسكون - قابلة للإبصار ومنحصرة فيها، ولذا وصف الليل بكونه ﴿تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾.

ثم اعلم أن فلك الشمس يدور في بعض قطعات الأرض رحوياً لا غروب لها فيه، فصار النهار سرمداً، ولا يعيش فيه الحيوان، ولا ينبت فيه النبات من شدة حرارة الشمس، وفي بعض القطعات تدور تحت الأرض كذلك فلا طلوع لها فيه، فصار ليلة سرمدياً، فلا يعيش [فيه] الحيوان، ولا ينبت النبات فيه أيضاً.

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ﴾ تعالى أنه ﴿جَعَلَ لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ مزدوجين متعاقبين الليل ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ والنهار ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ فيه مقداراً ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ ونعمه بأنواع المكاسب ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ربكم على كلتي النعمتين معاً.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ \* وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ [٧٥ و ٧٤]

ثم لما أثبت سبحانه التوحيد وأبطل الشرك، هدد المشركين بذكر أهوال القيامة بقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ تقريباً وتبكيئاً ﴿فَيَقُولُ﴾ يا أيها المشركون ﴿أَيْنَ﴾ الأصنام الذين تدعون أنهم ﴿شُرَكَائِيَ﴾ في الألوهية والعبادة، والآلهة ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنهم شفعاؤكم ومُنَجِّيكم من الشدائد والمهالك؟ لم لا يغيبونكم ولا يخلصونكم اليوم من العذاب؟ ﴿وَنَزَعْنَا﴾ وأخرجنا ﴿مِنْ﴾ بين ﴿كُلِّ أُمَّةٍ﴾ وأهل عصر رجلاً معصوماً من العصيان والخطأ ليكون ﴿شَهِيداً﴾ يشهد على تلك الأمة بقبولهم دعوة رسولهم أوردّها، وطاعتهم له أو عصيانهم إيّاه، فإذا شهدوا عليهم بالشرك والتكذيب ﴿فَقُلْنَا﴾ لهم: يا معشر المشركين ﴿هَاتُوا﴾ وأقيموا ﴿بُرْهَانَكُمْ﴾ على صحة ما كنتم عليه من الاشتراك ﴿فَعَلِمُوا﴾ يومئذٍ ﴿أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الألوهية والنزّه من الشريك واستحقاق العبادة

﴿وَضَلَّ﴾ وغاب ﴿عَنْهُمْ﴾ غيبة الضائع ﴿مَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَقْتُزُونَ﴾ على الله من أنه اتخذ لنفسه شريكاً، أو المراد ما كانوا يكذبون من ألوهية الأصنام.

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ  
لَتَنْتُوا بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ [٧٦]

ثم استشهد سبحانه على سرعة زوال نعم الدنيا بسبب الكفر والطغيان بقصة قارون بقوله: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ قيل: كان عم موسى، لأنه وعمران كانا ابني بصهر<sup>١</sup>. وقيل: كان ابن عمه لأن بصهر كان أخي عمران<sup>٢</sup>، وعن ابن عباس: أنه كان ابن خالة موسى<sup>٣</sup>، وقيل: إنه كان لقبه المنور لحسن صورته، وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة<sup>٤</sup>.

وعن النبي ﷺ: «أنه كان من السبعين المختارة الذين سمِعوا كلام الله تعالى»<sup>٥</sup>.

﴿فَبَغَى﴾ وطلب الفضل والرياسة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وكونهم تحت حكمه. وقيل: كان يستخف بالفقراء<sup>٦</sup> المؤمنين منهم، وقيل: إنه ظلمهم لأن فرعون سلطه عليهم<sup>٧</sup>. وعن ابن عباس: أنه تجبر وتكبر وسخط عليهم<sup>٨</sup>. وقيل: إنه حسد هارون على الخبورة<sup>٩</sup>.

روي أن موسى ﷺ لما قطع البحر وأغرق الله فرعون، جعل الخبورة لهارون، فحصلت له النبوة والخبورة، وكان صاحب القربان والذبح، فوجد قارون من ذلك في نفسه فقال لموسى، لك الرسالة، ولهارون الخبورة، ولست في شيء، ولا أصبر أنا على هذا. فقال موسى ﷺ: والله ما صنعت ذلك لهارون، ولكن الله جعله له. فقال: والله لا أصدقك أبداً حتى تأتين بآية أعرف بها أن الله جعل ذلك لهارون، فأمر موسى رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كل منهم بعضاه، فجاءوا بها، فلقاها موسى ﷺ في قبة له، وكان ذلك بأمر الله، فدعا ربه أن يريهم بيان ذلك، فباتوا يخرسون عصيهم، فأصبحت عصا هارون تهتز لها ورق أخضر، وكانت من شجر اللوز، فقال موسى ﷺ: يا قارون، أما ترى ما صنع الله لهارون؟ فقال: والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر، فاعتزل قارون ومعه ناش كثير، وولي هارون الخبورة والذبح والقربان، فكان بنو إسرائيل يأتون هداياهم إلى هارون، فيضعها في المذبح،

٢. تفسير الرازي ٢٥: ١٣، تفسير أبي السعود ٧: ٢٤.

٥. تفسير الرازي ٢٥: ١٤.

٧. تفسير الرازي ٢٥: ١٣.

٦. تفسير الرازي ٢٥: ١٣، تفسير روح البيان ٦: ٤٢٩.

٨. تفسير الرازي ٢٥: ١٤.

٩. تفسير الرازي ٢٥: ١٤، والخبورة: الإمامة، مأخوذ من الحبر، بمعنى الرئيس في الدين.

١. تفسير الرازي ٢٥: ١٣.

٣ و٤. تفسير الرازي ٢٥: ١٣.

وتنزل النار من السماء فتأكلها<sup>١</sup>.

ثم حكى الله كثرة مال قارون بقوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ وأعطيناه من الأموال الكثيرة المذخورة ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾ والمقدار الذي مفاتيح صناديقه ﴿لَتَشْتَوُوا﴾ وتنهض، أو تميل لنقلها ﴿بِالْعَصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ والجماعة الكثيرة من الرجال الأقوياء إذا حملوها.

عن ابن عباس: العصبه في هذا الموضع أربعون رجلاً، وخزائنه كانت أربعمائة ألف، يحمل كل رجل منهم عشر آلاف مفتاح<sup>٢</sup>.

والقمي: العصبه ما بين العشرة إلى التسعة عشر<sup>٣</sup>.

قيل: كان في الانجيل أن مفاتيح خزائن قارون وقرء ستين بغلاً ما يزيد منها مفتاح على إصبع، لكل مفتاح كنز<sup>٤</sup>.

وقيل: كان قارون أينما يذهب يحمل معه مفاتيح كنوزه، وكانت من حديد، فلما نُقِلت عليه جعلها من خشب، فتقلت فجعلها من جلود البقر على طول الأصابع<sup>٥</sup>.

وقيل: كانت من جلود الإبل<sup>٦</sup>.

وقيل: إن المراد من المفاتيح نفس الكنوز<sup>٧</sup>.

وقيل: إن المراد بها العلم والاحاطة<sup>٨</sup>، كما قال تعالى: ﴿وعنده مفاتيح الغيب﴾<sup>٩</sup> فالمعنى آتيانه من العلوم ما إن حفظها والإطلاع عليها ليتقل على العصبه أولي القوة والهداية.

إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ \* وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ  
الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ  
الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ [٧٦ و ٧٧]

ثم حكى سبحانه وعظ موسى أو بعض المؤمنين من بني إسرائيل له بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ﴾ والتقدير اذكر إذ قال له ﴿قَوْمُهُ﴾ وعظاً ونصحاً: يا قارون ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ ولا تبطر بالخزاف الدنيوية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ بالدنيا ومتاعها، لأنها مبعوضة عند الله، لأن جمها<sup>١١</sup> مانع عن حبه، وصارف عن

٢. تفسير روح البيان ٦: ٤٣٠.

٤. الوقر: الجمل.

٧. تفسير الرازي ٢٥: ١٤.

٩. تفسير الرازي ٢٥: ١٥.

١١. الجم: الكثير، وجم الشيء: معظمه.

١. تفسير الرازي ٢٥: ١٤.

٣. تفسير القمي ٢: ١٤٤، تفسير الصافي ٤: ١٠٢.

٥ و ٦. تفسير روح البيان ٦: ٤٣٠.

٨. تفسير الرازي ٢٥: ١٥.

١٠. الأنعام: ٥٩/٦.

ذِكْرَهُ وَالتَّوَجَّهَ إِلَيْهِ ﴿وَأَتَّبِعْ﴾ يَا قَارُونَ واطْلُبْ ﴿فَيَمَّا أَتَاكَ آتَةٌ﴾ وفي تَمَلَّكَ هذه الأموال التي أعطاكها الله أو بسببها ﴿الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ ونعمها التي وعداها الله المؤمنين فيها، يَصْرِفُ في تلك الأموال في الوجوه البرية والمصارف الخيرية كمواساة الفقراء، وفك الأسراء، وصلة الأرحام ونحوها ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ﴾ ولا تترك حظك ﴿مِنَ الدُّنْيَا﴾ فَإِنْ حَظَّ الْمُؤْمِنُ مِنَ الدُّنْيَا تحصيل الآخرة بها.

عن أمير المؤمنين: «صَحَّتْ وَقَوَّتْ وَشَبَّابَكَ وَغَنَّاكَ»<sup>١</sup>.

وقيل: يعني لا تترك أخذ ما يكفيك من الدنيا<sup>٢</sup>. وقيل: يعني لا تنس نصيبك من الدنيا حين رحلتك منها، وهو ليس إِلَّا الكَفَنَ، فلا تَغَرَّرَ بها<sup>٣</sup>.

ثم إنه الأمر بالاحسان بالمال، أمره بمطلق الاحسان بقوله: ﴿وَأُحْسِنْ﴾ إلى عباد الله بالمال والجاه والبشر وحسن اللّقاء والذكر ونظائرها ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ بتوفير المال والنعم، فنبه على أن إحسان العباد شكراً لِحسان الله ﴿وَلَا تَنِيْغْ﴾ ولا تطلب ﴿الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالظلم والتكبر والتجبر والعِصيان ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ بل يَبْغِضُهُمْ.

عن الصادق عليه السلام: «فساد الظاهر من فساد الباطن، ومن أصلح سريره أصلح الله علانيته، ومن خان الله في السر هتك الله سريه في العلانية، وأعظم الفساد أن يرضى العبد بالغفلة عن الله تعالى، وهذا الفساد يتولد من طول الأمل والحرص والكبر، كما أخبر الله تعالى في قصة قارون في قوله: ﴿وَلَا تَنِيْغْ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ وكانت هذه الخصال من صنع قارون واعتقاده، وأصلها من حب الدنيا وجمعها ومتابعة النفس وهواها، وإقامة شهواتها، وحب المحمدة، وموافقة الشيطان، واتباع خطواته، وكل ذلك مجتمع تحت الغفلة عن الله ونسيان مته»<sup>٤</sup>.

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ  
الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَنْ دُثُوْبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ \*  
فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالِئْتِ لَنَا مِثْلَ مَا  
أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ \* وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ  
خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ [٧٨-٨٠]

١. معاني الأخيار: ١/٣٢٥، تفسير الصافي ٤: ١٠٣، وفيهما: ونشاطك، بدل: وغناك، تفسير روح البيان ٦: ٤٣١.

٢. تفسير أبي السعود ٧: ٢٥، تفسير روح البيان ٦: ٤٣١.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٤٣١.

٤. مصباح الشريعة: ١٠٧، تفسير الصافي ٤: ١٠٣، وفي النسخة: سنته.

ثم إن قارون بعد استماع تلك المواعظ ازداد في الكفر والطغيان و ﴿قَالَ﴾ في جواب الناصح: المال الذي اجتمع لي ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾ ووجدته حال كوني ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ كثير كائن ﴿عِنْدِي﴾ بالتوراة، فإنه كان أعلم بني إسرائيل بها، أو بالكسب والتجارة والزراعة.

وقيل: إن المراد بعلمه علم الكيمياء، فإنه أنزل على موسى من السماء، فعلم قارون ثلثه ويوشع ثلثه، وكالب بن يوحنا ثلثه فخدعهما قارون حتى انضاف علمهما إلى علمه، فكان يأخذ الرصاص فيجعله فضة، ويأخذ النحاس فيجعله ذهباً<sup>١</sup>.

وقيل: علم موسى أخته الكيمياء، ثم هي علمته قارون<sup>٢</sup>.

وقيل: إن المعنى إن الله أعطاني هذا المال مع كونه عالماً بي وبأحوالي، فلو لم يكن ذلك مصلحة لما أعطاني<sup>٣</sup>، ومعنى قوله: ﴿عِنْدِي﴾ أن الأمر عندي وفي اعتقادي كذلك.

ثم رده الله بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ قارون مع ادعائه وقُور علمه، أو أولم يكن في علمه أو فيما عنده من العلم ﴿أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ﴾ بالعذاب ﴿مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ﴾ الكافرة الطاغية ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ من جهة العدة والعدد ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعاً﴾ للمال كمنرود وأضرابه، أو أكثر جمعاً للعلم والعبادة حتى لا يغير بما اغتر به من القوة وكثرة المال أو العلم ﴿وَلَا يُسْأَلُ﴾ حين نزول العذاب ﴿عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ والعاصون لعلم الله بحدود ذنوبهم من حيث الكثرة والعظمة، فلا يحتاج إلى السؤال عنهم حتى يشتغلوا بالاعتذار، وإن يسألهم في بعض المواقف توبيخاً وتقريعاً في القيامة ﴿فَخَرَجَ﴾ قارون يوماً من منزله متجبراً ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ وهو مستغرق ﴿فِي زِينَتِهِ﴾ الظاهرة.

قيل: خرج يوم السبت الذي كان آخر يوم من عمره على بغلة شهباء مُسرَّجة يسرج من ذهب، وعليه قطيفة أرغوانية<sup>٤</sup>، ومعه أربعة آلاف فارس على زِيه، وثلاثمائة جارية بيض عليهن الحلبي والثياب الحمر على البغال الشَّهب<sup>٥</sup>، فلما رآه الناس في تلك الزينة ﴿قَالَ﴾ الجَهِال ﴿الَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾ وَيَطْلُبُونَ ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ويرغبون في متاعها وزينتها من بني إسرائيل: ﴿يَأْتِيَتْ﴾ كان ﴿لَنَا﴾ وأوتينا ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ من المال والجاه والخدم ﴿إِنَّهُ لَكُوْهُوَ عَظِيمٌ﴾ ونصيب وافر من الدنيا ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بالدين وبأحوال الآخرة وفوائد الزهد في الدنيا للمتممين ﴿وَيُلَكِّمُ﴾ أيها الطالبون للدنيا ﴿قُتُوبَ اللَّهِ﴾ وأجره العظيم في الآخرة من الجنة ونعيمها الدائمة

١. تفسير الرازي ٢٥: ١٦، تفسير روح البيان ٦: ٤٣٢. ٢. تفسير روح البيان ٦: ٤٣٢.

٣. تفسير الرازي ٢٥: ١٦.

٤. في تفسير روح البيان: عليه الأرجوان، يعني قطيفة ارغواني.

٥. تفسير الرازي ٢٥: ١٧، تفسير روح البيان ٦: ٤٣٣.

﴿خَيْرٌ مِّمَّا تَمْتَنُونَ﴾ ﴿لِمَنْ أَمَنَ﴾ بالله ورُسله واليوم الآخر ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ والكرامة عنده أعظم من الكرامة عند الناس، وهذه الكلمة التي قالها العلماء بالله، أو هذه المثوبة التي وعدها الأنبياء لا يستقبلها ﴿وَلَا يُلْقَاهَا﴾ أو لا ينالها ﴿إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ على الطاعات وترك المحرمات وشدائد الدنيا ومصائبها.

فَحَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْصَرِّينَ \* وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآئُ اللَّهُ يُبْسِطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَآئُهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ [٨١ و ٨٢]

ثم إن قارون أشر وبطر وعتا ﴿فَحَسَفْنَا﴾ أو غيبنا، أو ذهبنا ﴿بِهِ وَبِدَارِهِ﴾ وكُنُوزِهِ ﴿الْأَرْضِ﴾.

عن ابن عباس: أن قارون كان يؤذي موسى كل وقت وهو يداريه للقرابة التي كانت بينهما، حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار، وعن كل ألف درهم على درهم، فحسبه فاستكثره، فشحت نفسه، فجمع بني إسرائيل وقال: إن موسى يريد أن يأخذ أموالكم. فقالوا: أنت سيدنا وكبيرنا، فثرنا بما شئت. قال: تُبرطل فلانة البغية حتى تشبه إلى نفسها فيرفضه بنو إسرائيل، فجعل لها طشتاً من ذهب مملوئاً ذهباً، فلما كان يوم عيد قام موسى فقال: يا بني إسرائيل، من سرق قطعناه، ومن زنى وهو غير مُحصن جلدناه، وإن أحصن رجمناه.

فقال قارون: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا، قال: فإن بني إسرائيل يقولون: إنك فَجَرْتَ بفلانة! فأحضرت فناشدها موسى بالله الذي فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق، فتداركها الله تعالى. فقالت: كذبوا، بل جعل لي قارون جعلاً على أن أقذفك بنفسي، فخر موسى ساجداً يبيكي. وقال: يا رب، إن كنت رسولك فاغضب لي، فأوحى الله إليه أن مَرِ الْأَرْضَ بما شئت. فأنها مُطِيعَةٌ لك. فقال: يا بني إسرائيل، إن الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون، فمن كان معه فليَلْزَمْ مكانه، ومن كان معي فليعتزل، فاعتزلوا جميعاً غير رجلين. ثم قال: يا أرض خُذِيهم، فأخذتهم إلى الرُّكَب، ثم قال: خُذِيهم، فأخذتهم إلى الأوساط، ثم قال: خُذِيهم، فأخذتهم إلى الأعناق، وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى، ويناشدونه بالله والرَّحِم، وموسى لا يلتفت إليهم من شدة الغضب. ثم قال: خُذِيهم، فأنطبقت عليهم الأرض، فأوحى الله إلى موسى: ما أَفْظَلَكَ! استغاثوا بك مراراً فلم ترحمهم، أما وعزتي لو دعوني مرةً واحدةً لوجدوني قريباً مجيباً. فاصبحت بنو إسرائيل يتناجون بينهم. إنما دعا موسى على



قارون ليستبدّ بداره وكنوزه، فدعا الله حتى خسف بداره وكنوزه.<sup>١</sup>

القمي، قال: كان سبب هلاك قارون أنه لما أخرج موسى ﷺ بني إسرائيل من مصر، وأنزلهم البادية، أنزل الله عليهم المنّ والسلوى... إلى أن قال: ففرض الله عليهم دخول مصر، وحرّمها عليهم أربعين سنة، وكانوا يقومون من أول الليل ويأخذون في قراءة التوراة والدعاء والبكاء، وكان قارون منهم، وكان يقرأ التوراة، ولم يكن فيهم أحسن صوتاً منه، وكان يسمّى المنور لحسن قراءته<sup>٢</sup> وكان يعمل الكيمياء.

فلما طال الأمر على بني إسرائيل في التيه، وأمروا بالتوبة، وكان قارون امتنع من الدخول معهم في التوبة، وكان موسى يُحبّه، فدخل موسى عليه وقال له: يا قارون، قومك في التوبة وأنت قاعدٌ هنا ادخل معهم، وإلا ينزل بك العذاب فاستهان به واستهزأ بقوله، فخرج موسى من عنده مغتماً، فجلس في فناء قصره، وعليه جبة شعر، وفي رجله نعلان من جلد حمار شراكهما من خيوط شعر، بيده العصا، فأمر قارون أن يصبّ رماداً قد خلط بالماء، فصبّ عليه، فغضب موسى غضباً شديداً، وكان في كفه شعرات، كان إذا غضب خرجت من ثيابه وقطر منها الدم، فقال موسى: يا رب، إن لم تغضب لي فلست لك بنبي. فأوحى الله عز وجل: قد أمرت الأرض أن تطيعك فمرها بما شئت.

وقد كان قارون قد أمر أن يُغلق باب القصر، فأقبل موسى فأوحى إلى الأبواب فانفجرت، فدخل عليه، فلما نظر إليه قارون عليم أنه قد أتى بالعذاب، فقال: يا موسى، أسألك بالرحم الذي بيني وبينك. فقال له: يا بن لاوي، لا تزدني من كلامك، يا أرض خذيه، فابتلعت به قصره وخزانته. الخبر<sup>٣</sup>.

﴿فَمَا كَانَ لَهُ﴾ في ذلك اليوم ﴿مِنْ فَتَى﴾ وجماعة متعاضدين ﴿يَنْصُرُونَهُ﴾ بدفع عذاب الخسف ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وبغير نصرتة تعالى ﴿وَمَا كَانَ﴾ قارون بنفسه ﴿مِنْ الْمُنتَصِرِينَ﴾ والمدافعين للعذاب عن نفسه بوجه ﴿وَأَصْبَحَ﴾ وصار ﴿الَّذِينَ تَمَنَّوْا﴾ لأنفسهم ﴿مَكَانَهُ﴾ ومنزلته ﴿بِالْأَمْسِ﴾ وفي الزمان القريب من هلاكه ﴿يَقُولُونَ﴾ تندماً من تميتهم، أو إظهاراً لخطئهم، أو تعجباً من الواقعة: ﴿وَيَكُنَّ﴾ وما أشبه أن ﴿اللَّهُ﴾.

وقيل: إن (وي) كان مركّب من (ويك) بمعنى ويلك وإن، والمعنى ويلك اعلم أن الله<sup>٤</sup> ﴿يُبْسِطُ﴾ ويوسع ﴿الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ على مقتضى حكمته، لا لكرامة الميسوط عليه ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ويضيّق الرزق على من يشاء كذلك، لا لهوان المضيق عليه ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ﴾ وأنعم ﴿عَلَيْنَا﴾ بمنع

١. تفسير الرازي ٢٥: ١٨، ونسبه إلى القليل، تفسير روح البيان ٦: ٤٣٥.

٢. في النسخة: صورته.

٣. تفسير القمي ٢: ١٤٤، تفسير الصافي ٤: ١٠٤.

٤. تفسير أبي السعود ٧: ٢٧، تفسير روح البيان ٦: ٤٣٦.

إعطاء ما تمنّياه من حظّ قارون ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ أيضاً في الأرض، كما خَسَفَ بقارون، لتوليد الغنى فيما مثل ما ولدّه فيه من الكبر والتجبر والبغي والفساد ونحوها من المهلكات ﴿وَيَكَاثَهُ لَا تَفْلِحُ﴾ ولا ينجو من العذاب ﴿الْكَافِرُونَ﴾ لِنِعَمِ الله المُكذِّبون لرسله.

أقول: في الآيات دلالة واضحة على ذمّ الغنى وحبّ الدنيا وتمنّي حُطامها إلّا للتوصل إلى مرضاة الله ودرجات الآخرة.

عن كبشة الأنماري: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث أقسم عليهنّ، وأحدنكم بحديث فاحفظوه، فأما التي أقسم عليهنّ، فأنّه ما نقص مالٌ عبدٍ من صدقة، ولا ظلم عبدٌ مظلمة صبر عليها إلّا زاده الله عزّاً، ولا فتح عبدٌ باب مسألة إلّا فتح الله عليه باب فقر، وأما الذي أحدنكم فاحفظوه، إنّما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله علماً ومالاً فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعمل لله فيه بحقّه، فهذا بأفضل المنازل. وعبد رزقه الله علماً، ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالاً لعلّمت بعمل فلان، فهو بينته، وأجرهما سواء. وعبد رزقه الله مالا، ولم يرزقه علماً، فهو لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعمل لله فيه بحقّه. وعبد لم يرزقه الله علماً ولا مالاً، فهو يقول: لو أن لي مالاً لعلّمت فيه بعمل فلان، فهو بينته، ووّرهما سواء»<sup>١</sup>.

القمي: أنه سأل بعض اليهود أمير المؤمنين عليه السلام عن سجن طاف أقطار الأرض بصاحبه، فقال: «يا يهودي، أمّا السجن الذي طاف أقطار الأرض بصاحبه، فأنّه الحوت الذي حُسِرَ يونس في بطنه، فدخل في بحر القلزم، ثم خرج إلى بحر مصر، ثم دخل بحر طبرستان، ثم خرج في دجلة العوراء<sup>٢</sup> ثم مرّ به تحت الأرض حتى لحق بقارون... إلى أن قال: وكان يونس يسبح الله ويستغفره، فسمع قارون صوته. فقال للملك الموكل به: انظرنّي فأني أسمع كلاماً، فأوحى إلى الملك: انظروه فأنظروه، فقال قارون: من أنت؟ قال يونس: أنا المذنب الخاطي يونس بن متى. قال: فما فعل شديد الغضب لله موسى بن عمران؟ قال: هيهات هلك. قال: فما فعل الرؤوف الرحيم على قومه هارون بن عمران؟ قال: هلك. قال: فما فعلت كلّم بنت عمران التي كانت سمّيت لي؟ قال: هيهات ما بقي من آل عمران أحد. فقال قارون: وأسفاً على آل عمران! فشكر الله تعالى له ذلك، فأمر الملك الموكل به أن يرفع العذاب عنه إيام الدنيا»<sup>٣</sup>.

١. تفسير روح البيان ٦: ٤٣٧.

٢. في النسخة: العور، وفي تفسير القمي: العوراء، وفي تفسير الصافي: الغور، وما أثبتناه من معجم البلدان، ودجلة العوراء: اسم لدجلة البصرة علم لها. معجم البلدان ٢: ٥٠٣.

٣. تفسير القمي ١: ٣٦٨، تفسير الصافي ٤: ١٠٥.

وعن الباقر عليه السلام - في حديث ذكر فيه حُوت يونس - قال: «فطاف به البحار السبعة حتى صار إلى البحر المَشْجُور، وبه يُعَذَّب قارون، فسمِع قارون دويًّا، فسأل المَلَك عن ذلك، فأخبره أَنَّهُ يونس، وأنَّ الله حبسه في بطن الحُوت، فقال له قارون: تأذَن لي أن أَكَلَمَكَ؟ فأذن له، فسأله عن موسى، فأخبره أَنَّهُ مات فبكى ثُمَّ سألَه عن هارون، فأخبره أَنَّهُ مات فبكى وَجَزِعَ جَزَعاً شديداً، ثُمَّ سألَه عن أُخته كلثَم، وكانت مسمَّاة له، فأخبره أَنَّهُ مات، فبكى وَجَزِعَ جَزَعاً شديداً، فأوحى الله إلى المَلَك الموكَّل به أَن ارفع عنه العذاب بقِيَّة أيام الدنيا لِرَقَّتِه على قِرابته»<sup>١</sup>.

أقول: في الروايات إشكالات، والذي يهَوِّنُ الخَطْب أَنَّهُ أخبار آحاد لا تزيد علماً ولا عملاً.

### تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ [٨٣]

ثُمَّ بَشَّرَ سبحانه المتَّقِينَ بالعاقبة المحمودة معظماً لأمر الآخرة وثوابها بقوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ التي سَمِعْتَ خبرها، وبلغك وصفها دار ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا﴾ وارتفاع مقامٍ وعَلْبَةً وسلطاناً ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ كما أراد فرعون وقارون ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ بالظلم والعدوان على الناس كما أراداه ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ المحمودة من الجَنَّة ونعيمها ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ والمحتريين عن العلوِّ والفساد وما لا يرضاه الله.

روى بعض العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام أَنَّهُ كان يمشي في الأسواق وهو والٍ يرشُد الضالَّ، ويُعِينُ الضعيف، ويَمُرُّ بالبائع والبَّال، فيفتح عليه القرآن ويقرأ هذه الآية، ويقول: «نزلت في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل المقدرة من سائر الناس»<sup>٢</sup>.

وعنه بطَرُقهم: «أَنَّ الرجلَ لَيُعْجِبُه أن يكون شِراك<sup>٣</sup> نعله أجود من شِراك نعل صاحبه، فيدخل تحتها»<sup>٤</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: «العلوُّ الشَّرَف، والفساد: النساء»<sup>٥</sup>.

وعنه عليه السلام أَنَّهُ قال لحفص بن غياث: «يا حَفْص، ما منزلة الدنيا من نفسي إِلا منزلة المَيْتَةِ، إِذا

١. تفسير العياشي ٢: ١٩٨١/٢٩٥، تفسير الصافي ٤: ١٠٦.

٢. مجمع البيان ٧: ٤٢٠، تفسير الصافي ٤: ١٠٦، تفسير روح البيان ٦: ٤٣٨.

٣. الشُّراك: سير النعل على ظهر القدم.

٤. مجمع البيان ٧: ٤٢٠، تفسير الصافي ٤: ١٠٦، تفسير الرازي ٢٥: ٢٠، تفسير روح البيان ٦: ٤٣٨.

٥. تفسير القمي ٢: ١٤٧، تفسير الصافي ٤: ١٠٦.

اضطرت إليها أكلت منها. يا حَفْص، إِنَّ الله تبارك وتعالى عَلِمَ ما العباد عاملون، وإلى ما هم صانرون، فَحَلَمَ عنهم عند أعمالهم السيئة لعلهم السابق فيهم، فلا تَغَرَّكَ حَسَنُ الطلب مِمَّنْ لا يخاف القَوْتَ» ثم تلا الآية، وجعل يبكي، ويقول: «ذهب والله الأمانى عند هذه الآية، فاز والله الأبرار، أتدري من هم؟ هم الذين لا يُؤذُونَ الذَّرَّ، كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً»<sup>١</sup>.

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا  
السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ \* إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ  
قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ [٨٤ و ٨٥]

ثم بيّن سبحانه ما به تحصل الدار الآخرة والعاقبة المحمودة بقوله: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ» وقد مرّ تفسيرها في آخر سورة النمل<sup>٢</sup> «فَلَهُ» بمقتضى التفضل شيء أفضل من تلك الحسنة و«خَيْرٌ مِنْهَا» ذاتاً ووصفاً في القيامة «وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ» وعَمِلَ ما يسوء ربّه كالشُّرك والعِصيان «فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا» مثل «مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» بمقتضى العدل، لا يزدادون عليه ولا ينقصون.

وفي تكرير إسناد السيئة إليهم مبالغة في الزجر عنها، وفي تهجين حالهم، وزيادة تبغيض لها في قلوب السامعين، وفيه تنبيه على عِظَم كلمة الكُفْرِ بحيث إنّ العذاب الدائم مثلها. ثم بشّر نبيه بأنّ عاقبته أحمد العواقب بقوله: «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ» وأوجب عليك تلاوته وتعظيمه وتبليغه والعمل به «لَرَادُّكَ» بعد خروجك من الدنيا «إِلَىٰ مَعَادٍ» ومرجع عظيم الشأن بحيث يَغِيظُك به الأولون والآخرون، وهو المقام المحمود، ثواباً على إحسانك في العمل، وتحملك المشاق التي لا تتحملها الجبال.

وقيل: إنّ المراد بالمعاد مكة، وإنّما تُكرّر للتنبيه على عِظَم شأنه، فإنّ استيلاءه ﷺ عليها، وقهره أهلها، وظهور عزّ الاسلام وذلّ الكفر<sup>٣</sup> بعد كونه مهزوماً ومغلوباً، من خوارق العادات الدالة على رسالته، والإخبار به قبل ظهور أماراته، بل وجود أمارات خلافه من الأخبار الغيبية. روي أنّه ﷺ خرج من الغار، وسار في غير الطريق مخافة الطُّلَب، فلما أُمِن رَجَعَ إلى الطريق، ونزل بالجحفة بين مكة والمدينة، وعَرَف الطريق إلى مكة، واشتاق إليها، وذكر مولده ومولد أبيه،

فَنَزَلَ جِبْرِيلُ وَقَالَ: تَشْتَاقُ إِلَى بِلَدِكَ وَمَوْلَدِكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ». فَقَالَ جِبْرِيلُ: إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿إِنَّ أَلَدِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدِكَ إِلَيَّ مَعَادٍ﴾ يَعْنِي إِلَى مَكَّةَ ظَاهِرًا عَلَى أَهْلِهَا.<sup>١</sup>  
أَقُولُ: يُمَكِّنُ كَوْنَ الْمَرَادِ بِالْمَعَادِ الدُّنْيَوِيِّ وَالْآخِرِيِّ.

وَعَنِ السَّجَّادِ: «يَرْجِعُ إِلَيْكُمْ نَبِيُّكُمْ ﷺ وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْأَمَّةُ عَلَيْهِ السَّلَامُ».<sup>٢</sup>  
وَعَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَنَّهُ ذَكَرَ عِنْدَهُ<sup>٣</sup> جَابِرٌ فَقَالَ: رَحِمَ اللَّهُ جَابِرًا، لَقَدْ بَلَغَ مِنْ عِلْمِهِ أَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ تَأْوِيلَ هَذِهِ الْآيَةِ» يَعْنِي الرَّجْعَةَ.<sup>٤</sup>

ثُمَّ أَمَرَهُ سُبْحَانَهُ بِبَيَانِ عِلَّةِ اسْتِحْقَاقِهِ الرَّدَّ إِلَى مَعَادٍ عَظِيمٍ الشَّانَ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى﴾، وَالتَّزَمَ بِالْدِّينِ الْحَقِّ، وَمَا يَسْتَحَقُّهُ مِنَ الثَّوَابِ فِي الدَّارَيْنِ ﴿وَمَنْ هُوَ﴾ مَثْنَهُمْ ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، وَانْحَرَفَ وَاضِحٌ عَنِ الْحَقِّ وَمَا يَسْتَحَقُّهُ مِنَ الْهَوَانِ وَالْعَذَابِ فِي النَّشَاتَيْنِ.

وَمَا كُنْتُ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا  
لِلْكَافِرِينَ \* وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا  
تُكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ \* وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ  
إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [٨٨-٨٦]

ثُمَّ اسْتَشْهَدَ سُبْحَانَهُ عَلَى تَخْصِيصِهِ بِأَفْضَلِ الْكَرَامَةِ بِتَخْصِيصِهِ بِنَزُولِ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ أَفْضَلُ الْكُتُبِ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنْتُ تَرْجُوا﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿أَنْ يُلْقَى﴾ وَيَنْزِلُ ﴿إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ الَّذِي هُوَ أَفْضَلُ الْكُتُبِ، وَمَا كَانَ ذَلِكَ إِلَّا رَحْمَةً عَظِيمَةً عَلَيْكَ خَاصَّةً بِكَ ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ الطَّيِّفُ بِكَ لَمْ يَشْرَكَكَ فِيهَا غَيْرُكَ مِنَ الرُّسُلِ، فَإِذَا عَلِمْتَ غَايَةَ لُطْفِهِ بِكَ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾ وَعَوْنَا ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ الَّذِينَ هُمْ أَعْدَاؤُهُ بِالْمُدَارَاةِ مَعَهُمْ، وَالتَّحَمُّلِ عَنْهُمْ، وَالْإِجَابَةِ إِلَى طَلِبَتِهِمْ، بَلْ كُنْ عَدُوَّهُمْ وَعَوْنَا لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ أَحِبَاؤُهُ ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ الْمَشْرُكُونَ وَلَا يَصْرِفَنَّكَ عَنْ﴾ تِلَاوَةِ ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾ الْقُرْآنِيَةِ، وَتَبْلِيغِهَا، وَالْعَمَلِ بِهَا ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ﴾ تِلْكَ الْآيَاتِ ﴿إِلَيْكَ﴾ وَتَلَيْتُ عَلَيْكَ ﴿وَأَدْعُ﴾ النَّاسَ ﴿إِلَى﴾ تَوْحِيدِ ﴿رَبِّكَ﴾ وَعِبَادَتِهِ ﴿وَلَا تُكُونَنَّ﴾ الْبَتَّةَ أَبَدًا ﴿مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ فِي الْإِلَوهِيَةِ، أَوْ فِي الدَّعْوَةِ ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾.

لَعَلَّ النُّكْتَةَ فِي هَذِهِ الْخُطَابَاتِ قَطَعَ أَطْمَاعَ الْمُشْرِكِينَ مِنْهُ ﷺ، فَأَنَّهُمْ كَانُوا يَدْعُونَهُ إِلَى دِينِهِمْ، أَوْ

١. تفسير الرازي ٢٥: ٢١.

٢. تفسير القمي ٢: ١٤٧، تفسير الصافي ٤: ١٠٧.

٣. في تفسير القمي: سئل عن.

٤. تفسير القمي ٢: ١٤٧، تفسير الصافي ٤: ١٠٧.

المبالغة في قبح هذه الأمور بحيث ينهى عنها من يحتنع صدورها منه، فكيف بغيره، أو نهى أمته بطريق إياك أعني واسمعي يا جارة.

وقيل: يعني لا تعتمد على غير الله، ولا تتخذ وكيلاً في أمورك سواء<sup>١</sup>، لأنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ يلتجأ إليه في دفع المضار وجلب المنافع ﴿إِلَّا هُوَ﴾ تعالى وحده، فإنه القادر القاهر الغالب على كل شيء و ﴿كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الروحانيات والجسمانيات ﴿هَالِكٌ﴾ وفانٍ ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ وذاته، لأنه الواجب الوجود الذي يمتنع عليه الفناء.

وقيل: يعني إلا ما أريد به وجهه من الأعمال<sup>٢</sup>.

وفي الأثر: يُجاء بالدينا يوم القيامة فيقال: مَيِّزُوا ما كان منها لله، ثم يُؤمر بسائرهما فيلقى في النار<sup>٣</sup>.

وقيل: يعني سلطانه ومملكه الذي لا يزال.

وعن الصادق عليه السلام، قال: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا مَنْ أَخَذَ طَرِيقَ الْحَقِّ»<sup>٤</sup>.

وعنه عليه السلام: «مَنْ أَتَى اللَّهَ بِمَا أَمَرَهُ مِنْ طَاعَةِ مُحَمَّدٍ وَالْإِمَّةِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مِنْ بَعْدِهِ، فَهُوَ الْوَجْهَ الَّذِي لَا يَهْلِكُ»

ثم قرأ ﴿مَنْ يَطْعِ الرَّسُولَ فَقَدْ اطَاعَ اللَّهَ﴾<sup>٥</sup>.

أقول: المراد أن كل مطيع لله ولرسوله، فهو وجه الله الذي يواجه به خلقه، وهو باقي في الجنان مرزوق عند ربه أبداً، ومن هو عاص لله ولرسوله، فهو من الهالكين، وعنه عليه السلام: «إِنَّمَا عَنِ بَذَلِكْ وَجْهَ اللَّهِ الَّذِي يُؤْتِي مِنْهُ»<sup>٦</sup>.

وعن الباقر عليه السلام: «أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَعْظَمُ مَنْ أَنْ يُوصَفَ بِالْوَجْهِ، لَكِنْ مَعْنَاهُ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا دِينَهُ، وَالْوَجْهَ الَّذِي يُؤْتِي مِنْهُ»<sup>٧</sup>.

أقول: الظاهر أن الجملة الأخيرة تفسير الدين، والمراد بالوجه فيها الجهة التي يؤتى منها، ويَحْتَمَلُ أن يكون المراد الهداة إلى الله، فإنهم السبب الذي يقبل الله ويتوجه بهم إلى خلقه، بل لا فرق بين المعنيين، فإنهم عليهم السلام لشدة التزامهم بالدين كأنهم صاروا مجسمته.

عن الصادق عليه السلام: ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قال: «دينه، وكان رسول الله وأمير المؤمنين عليهما السلام دين الله ووجهه، وعينه في عبادته، ولسانه الذي ينطق به، ويده على خلقه، ونحن وجه الله الذي يؤتى منه، لن نزل في

١. تفسير الرازي ٢٥: ٢١.

٢. تفسير روح البيان ٦: ٤٤٣، مجمع البيان ٧: ٤٢١.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٤٤٣.

٤. التوحيد: ٣/١٤٩، تفسير الصافي ٤: ١٠٨.

٥. التوحيد: ٣/١٤٩، تفسير الصافي ٤: ١٠٨، والآية من سورة النساء: ٨٠/٤.

٦. الكافي ١: ١١١، تفسير الصافي ٤: ١٠٨.

٧. التوحيد: ١/١٤٩، تفسير الصافي ٤: ١٠٨، المحاسن: ١١٦/٢١٨.

عباده ما دام لله فيهم رَوِيَّةٌ قيل: ما الرَوِيَّةُ؟ قال: «الحاجة» وإذا لم تكن لله فيهم حاجة رَفَعْنَا إليه وصنع بنا ما أَحَبُّ<sup>١</sup>.

وعن الباقر عليه السلام - في هذه الآية - قال: «أفبني كل شيءٍ ويبقى الوجه؟» ثم قال: «الله أعظم من أن يُوصَفَ» ثم فسره بالتفسير السابق<sup>٢</sup>.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام بعد تفسير الوجه بالدين قال: «لأنَّ من المحال أن يهلك منه كل شيءٍ ويبقى الوجه، وهو أجلُّ وأعظم من ذلك، وإنما يهلك ما ليس منه، ألا ترى أنَّه تعالى قال: ﴿كل من عليها فان﴾ ويبقى وجه ربك»<sup>٣</sup> فَفَصَّلَ بين خَلْقِهِ ووجهِه<sup>٤</sup>.

أقول: حاصل المراد أنَّ الوجه هو الجهة التي بها يُقْبَلُ الشيء إلى غيره، والله منزَّه عن الجهة والعضو، فالمراد منه ما هو سبب إقباله إلى خلقه وهو دينه وحُجَّجه الذين ببركتهُم تنزل الرحمة.

قيل: إنَّ مرجع ضمير وجهه هو الشيء، ووجه الشيء هو الذي يلي جهته تعالى، فإنَّ كل شيءٍ مركَّب من الوجود والماهية والثاني اعتباري لا خارج له<sup>٥</sup>، اتصافه بالوجود بالعرض والمجاز، فإنَّ العدم لا يصير في الحقيقة معروضاً للوجود الذي هو نقيضه، كما لا يصير الوجود معروضاً للعدم، ولا يقال: انعدم الوجود، بل يحصل بينهما إضافة اعتبارية يقال بها الماهية موجودة، وصار الموجود معدوماً، والوجود المطلق وجه الله، وهو باقٍ أبداً، والماهية باعتبار إضافتها إلى الوجود هالكة.

قيل: إنَّه ورد في حديث: أنَّ الضمير راجع إلى الشيء، ثم فسره بأنَّ وجه الشيء لا يهلك ما يقابل منه إلى الله، وهو رُوحه وحقيقته ومَلَكُوتُه، ومحلُّ معرفة الله منه التي تبقى بعد فناء جسمه وشخصه<sup>٦</sup>.

ثم إنه تعالى بعد بيان ثبوت ذاته، بيَّن ثبوت الحكم لنفسه في عالم الوجود بقوله: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ والقضاء النافذ في كل شيءٍ، وفي جميع العوالم ﴿وَلِئِلَهِ﴾ وحده ﴿تَرْجِعُونَ﴾ عند البعث للجزاء بالحق والعدل، وقد استدلت المَجَسِّمة بهذه الآية حيث أثبت سبحانه لنفسه الوجه<sup>٧</sup>، وبطلانه ظاهرٌ بحكم العقل والروايات السابقة.

الحمد لله على ما أنعم عليَّ من التوفيق لإتمام تفسير السورة المباركة، وأسأله التوفيق لتفسير ما بقي من السور المباركات بمحمد وآله الطاهرين.

٢. تفسير القمي ٢: ١٤٧، تفسير الصافي ٤: ١٠٩.

٤. الاحتجاج: ٢٥٣، تفسير الصافي ٤: ١٠٩.

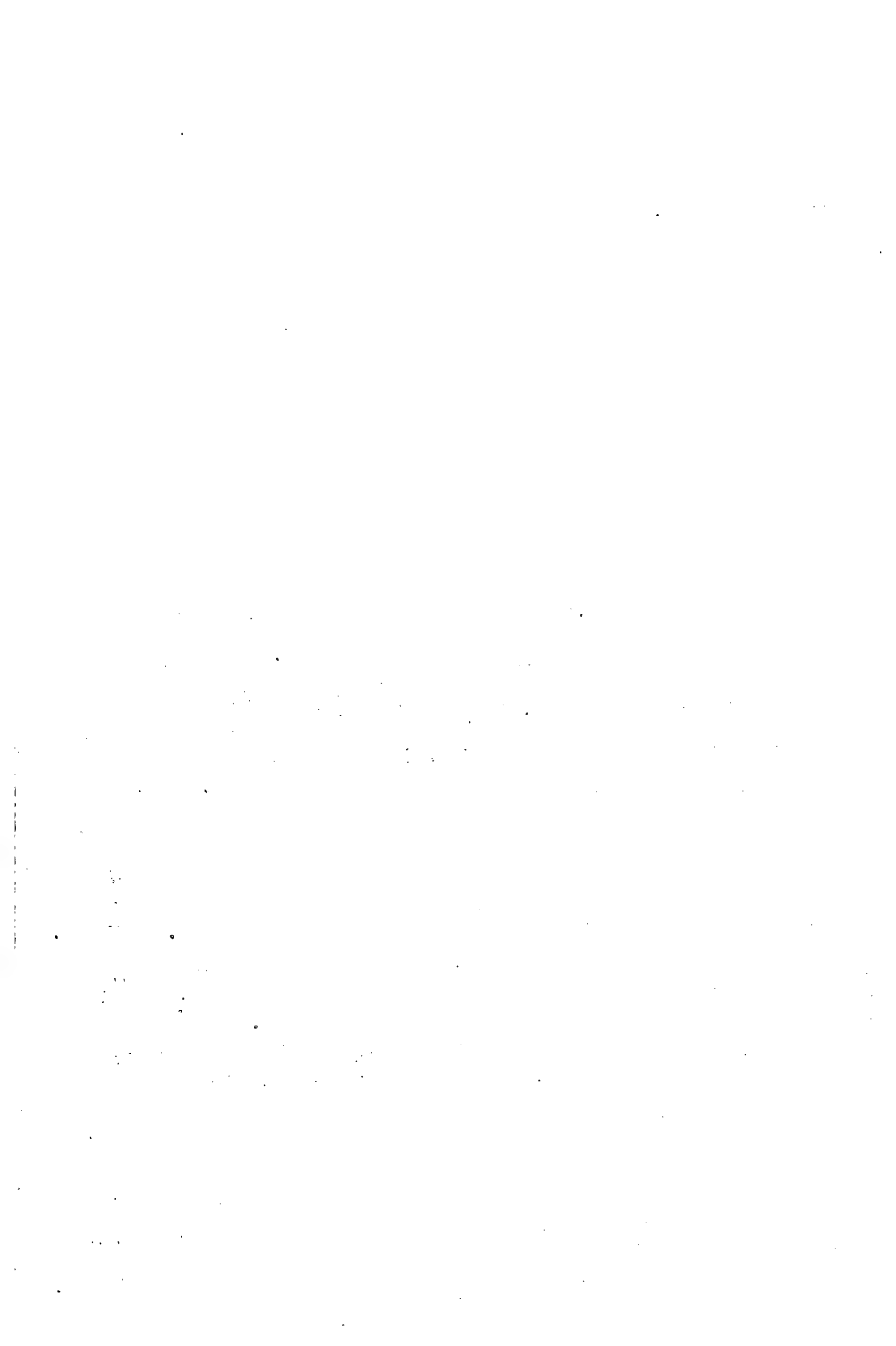
٦. تفسير الصافي ٤: ١٠٩.

١. التوحيد: ٧/١٥١، تفسير الصافي ٤: ١٠٨.

٣. الرحمن: ٢٦/٥٥.

٥. تفسير روح البيان ٦: ٤٤٣.

٧. تفسير الرازي ٢٥: ٢٤.





## في تفسير سورة العنكبوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم \* أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ [١ و ٢]

ثم لما ختمت سورة القصص المتضمنة لبيان افتتان قارون بالدنيا وخطامها حتى عارض موسى ولقربه [منه] حتى خسف الله به وبيده الأرض مع كونه أقرأ بني إسرائيل للتوراة وأقرب جلهم من موسى، وبيان نهى النبي الذي كان معصوماً من الخطأ والزلل عن الافتتان بالمشركين ومواعيدهم مبالغة في زجر أتباعه منه، نظمت سورة العنكبوت المبدوءة بإنكار حُسبان قبول دعوى الإيمان من المؤمنين بغير افتتانهم بحب الدنيا وامتحانهم بالبلايا والشدائد حتى يتميز المخلص من المنافق والصادق في دعوته من الكاذب، والإخبار بأن دأبه تعالى من أول الدنيا امتحان المدعين للإيمان بالتكاليف والمِحن وعدم قبول دعوتهم بلا ظهور آثار الإيمان فيهم من الصبر في طاعة الله وتحمل المشاق في جنب الله فابتدأ بذكر أسمائه بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثم لما كان لزوم اختبار حال المؤمنين في الخُلوص والتَّفَاق من المطالب المهمة النافعة، ذكر الحروف المقطعات لتوجيه القلوب إلى استماعه بقوله: ﴿الْم﴾ وقد مرَّ تأويلها في الطُّرفة، ثم شرع سبحانه في بيان لزوم كون الإيمان عن صميم القلب لا بظاهر القول بقوله: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ﴾ وتوهموا ﴿أَنْ يُتْرَكُوا﴾ ويهملوا ولا يؤاخذوا على عدم الإيمان بمجرد ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ بألستهم ﴿آمَنًا﴾ بالله ﴿وَو﴾ برسوله وبيدار الآخرة، والحال أن ﴿هُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ولا يُتَبَلَّون بأنواع البلاء، ولا يَمْتَنَحُونَ في إيمانهم بالشدائد ومشاق التكاليف حتى يظهر ثباتهم في الإيمان وخُلوصهم في التوحيد.

وقيل: في وجه تعلّق السورة بما قبلها أنّه لما قال سبحانه في السورة السابقة: ﴿الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادِّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾<sup>١</sup> وكان المراد أن يَزِدّه إلى مَكَّة ظاهراً غالباً على الكفار، ظافراً طالباً

٦٠..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٥

للنار، وكان فيه احتمال مشاق القتال، وصُغِبَ على البعض ذلك، فقال سبحانه: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾ ولا يُؤْمَرُوا بالجهاد<sup>١</sup>.

وقيل: إنه لما قال في أواخر السابقة ﴿ادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾<sup>٢</sup> وكان في الدعاء إليه الطُّعَانُ والحِرابُ، لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ وأصحابه كانوا مأمورين بالجهاد إن لم يُؤْمِنِ الْكُفَّارُ، فَشَقَّ على البعض ذلك، فقال سبحانه: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ﴾<sup>٣</sup>.

وقيل: إنه لما قال في آخر السورة السابقة: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾<sup>٤</sup> ذَكَرَ بعده ما يُبْطِلُ قول المنكرين للحشر من قوله: ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾<sup>٥</sup> يعني ليس كل شيء هالكاً من غير رجوع، بل كل هالك وله رجوعٌ إلى الله، وكان من قول منكري الحشر إنه لا فائدة في التكليف إذا لم يكن رُجُوعٌ ومعادٌ، فلما أثبت الله الرجوع، بَيَّنَّ حُسْنَ التكليف بقوله: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ﴾ إلى آخره<sup>٦</sup>، وما ذكرنا أحسن الوجوه، ويمكن أن يكون وجه التَّظْمِ جميع الوجوه.

قيل: نزلت في قومٍ من المؤمنين كانوا بمكة، وكان كفَّار قريش يُؤذَنُهُمْ ويُعَذِّبُونَهُمْ على الإسلام، وكانت صدورهم تضيق لذلك، وَيَجْزَعُونَ فتداركهم الله بالتسليّة بهذه الآية<sup>٧</sup>.

وقيل: إنها نزلت في عَمَّار بن ياسر، وعياش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام<sup>٨</sup>، وكانوا يُعَذِّبُونَ بِمَكَّةَ<sup>٩</sup>.

أقول: هذان الوجهان يُوافقان القول بأن جميع السورة أو الآيات العشر من أولها مكية، كما عليه جمعٌ من المفسرين<sup>١٠</sup>. وأما على القول بأن جميعها أو عشر آيات من أولها مدنية، كما عليه آخرون فلا [يوافق الوجهين]<sup>١١</sup>.

وقيل: الآية نزلت في أقوامٍ بمكة هاجروا، فتبعهم الكفَّار، فاستشهد بعضٌ ونجا الباقون<sup>١٢</sup>.

وقيل: نزلت في مُهْجَع بن عبد الله، قُتِلَ يوم بدر، وكان أبواه وأقاربه يَجْزَعُونَ عليه<sup>١٣</sup>.

عن الصادق عليه السلام: «مَعْنَى يُفْتَنُونَ يُتَّبَلُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ»<sup>١٤</sup>.

وعن الكاظم عليه السلام أنه قرأ هذه الآية، ثم قال: «ما الفتنة؟» قيل: الفتنة في الدين. فقال: «يُفْتَنُونَ كما

١. تفسير الرازي ٢٥: ٢٥. ٢. القصص: ٨٧/٢٨. ٣. تفسير الرازي ٢٥: ٢٥.

٤. القصص: ٨٨/٢٨. ٥. القصص: ٨٨/٢٨. ٦. تفسير الرازي ٢٥: ٢٥.

٧. تفسير روح البيان ٦: ٤٤٤.

٨. في النسخة: سلمة بن هشام، تصحيف انظر أسد الغابة ٢: ٣٤١. ٩. تفسير الرازي ٢٥: ٢٧.

١٠. مجمع البيان ٨: ٤٢٥، تفسير القرطبي ١٣: ٣٢٣. ١١. مجمع البيان ٨: ٤٢٥، تفسير القرطبي ١٣: ٣٢٣.

١٢. تفسير الرازي ٢٥: ٢٨. ١٣. تفسير البضاوي ٢: ٢٠٣.

١٤. مجمع البيان ٨: ٤٢٧، تفسير الصافي ٤: ١١٠.

يُفْتَنَ الذَّهَبُ» ثُمَّ قَالَ: «يُخْلَصُونَ كَمَا يُخْلَصُ الذَّهَبُ»<sup>١</sup>.

عن النبي ﷺ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ قَالَ: «لَا بَدْءَ مِنْ فِتْنَةٍ تُبْتَلَى بِهَا الْأُمَّةُ بَعْدَ نَبِيِّهَا، لِيَتَعَيَّنَ<sup>٢</sup> الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ، لِأَنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ وَبَقِيَ السِّيفُ وَافْتَرَقَ<sup>٣</sup> الْكَلِمَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»<sup>٤</sup>.

وفي (نهج البلاغة): قام رجل فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن الفتنة، وهل سألت رسول الله ﷺ عنها؟ فقال علي عليه السلام: «لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿أَحْسِبِ النَّاسَ﴾ آيَةُ، عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لَا تَنْزِلُ بِنَا وَرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهَرِنَا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللَّهُ بِهَا؟ فَقَالَ: يَا عَلِي، إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ مِنْ بَعْدِي. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ لَيْسَ قُلْتُ لِي يَوْمَ أَحَدٍ حَيْثُ اسْتَشْهَدُ مِنْ اسْتَشْهَدِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَحِيزَتْ<sup>٥</sup> عَنِّي الشَّهَادَةُ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ؟ ابْتَهِرَ فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ؟ فَقَالَ لِي: إِنَّ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذْنُ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، وَلَكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَى وَالشُّكْرِ. فَقَالَ: يَا عَلِي، سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ، وَيَتَمَنَّوْنَ بِدِينِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ، وَيَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ، وَيَأْمَنُونَ سَخَطَهُ، وَيَسْتَحِلُّونَ حُرَامَهُ بِالشَّهَادَةِ الْكَاذِبَةِ وَالْأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ فَيَسْتَحِلُّونَ الْخَمْرَ بِالنَّبِيذِ، وَالسُّحْتَ بِالْهَدِيَةِ، وَالرِّبَا بِالْبَيْعِ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَيُّ الْمَنَازِلِ أَنْزَلَهُمْ [عِنْدَ ذَلِكَ]، أَيْمَنْزَلَةُ رَذَّةٍ أَمْ بَيْمَنْزَلَةُ فِتْنَةٍ؟ فَقَالَ: بَيْمَنْزَلَةُ فِتْنَةٍ<sup>٦</sup>.

وعن الكاظم عليه السلام قال: «جاء العباس إلى أمير المؤمنين، فقال: انطلق يبايع<sup>٧</sup> لك الناس. فقال له أمير المؤمنين: أتراهم فاعلين؟ قال: نعم. قال: فأين قوله عز وجل ﴿الْم \* أَحْسِبِ النَّاسَ﴾ الآية<sup>٨</sup>.

### وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ [٣]

ثُمَّ إِنَّهُ بَعْدَ انْكَارِ ذَلِكَ الْحُسْبَانِ الْفَاسِدِ، بَيَّنَّ عَدَمَ جَوَازِهِ بَيِّانَ أَنَّ تَفْتِنَ مَدْعَى الْإِيمَانِ وَعَدَمَ قَبُولِ دَعْوَاهُ مَالِمَ يَقْتَرِنُ بِالصَّبْرِ عَلَى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ، دَابَّةُ الْقَدِيمِ الَّذِي لَا يَجُوزُ تَخَلُّفُهُ مِنْ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ﴾ لَقَدْ فَتَنَّا وَامْتَحَنَّا بِالصَّبْرِ عَلَى الشَّدَائِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿الَّذِينَ﴾ كَانُوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وَفِي الْأَعْصَارِ السَّابِقَةِ عَلَى عَصَرِهِمْ ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ﴾ وَلَيُمَيِّزَنَّ ﴿اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ فِي دَعْوَاهِمُ الْإِيمَانَ ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ﴾ وَلَيُمَيِّزَنَّ ﴿الْكَاذِبِينَ﴾ فِيهِ، فَتَزَلُ سُبْحَانَهُ نَفْسُهُ فِي إِيجَادِ مُوجِبَاتٍ تَمَيِّزُهُمْ فِي الظَّاهِرِ وَفِي نَظَرِهِمْ مَنْزِلَةَ الْجَاهِلِ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَعْلَمَ حَالَ قَلْبِهِمْ وَوَاقِعَ إِيْمَانِهِمْ مَعَ كَوْنِهِ بِالذَّاتِ عَالِمًا

١. الكافي ١: ٤/٣٠٢، تفسير الصافي ٤: ١١١. ٢. في النسخة: لتعين. ٣. في النسخة: لافتراق.

٤. تفسير الصافي ٤: ١١٠. ٥. في النسخة: وخيرت.

٦. نهج البلاغة: ٢٢٠ الخطبة ١٥٦، تفسير الصافي ٤: ١١٠.

٧. في تفسير القمي: انطلق بنا نبايع. ٨. تفسير القمي ٢: ١٤٨، تفسير الصافي ٤: ١١١.

بسرانئهم وضمانهم.

وقيل: إن المعنى فليرين الله<sup>١</sup>. وقيل: يعني فليظهرن الله<sup>٢</sup>. وقيل: يعني فليجازين الله، والكَلَّ على ذكر الشَّيْب وإرادة السبب<sup>٣</sup>. وقيل: إن ﴿يَعْلَمُونَ﴾ محمولٌ على ظاهره<sup>٤</sup>، والمراد أن بالامتحان يتعلّق علمه بالواقع تعلّقاً حالياً بعد ما كان تعلّقه تعلّقاً استقبالياً.

وفيه أنّه مبني على كون المعلومات عنده ﷺ حالياً واستقبالياً، ولا يكون ذلك إلا على فرض كونه تعالى محاطاً بالزمان، وهو باطل قطعاً، فالموجودات في علمه تعالى كلّها في عرض واحد، والتقدّم والتأخر فيها إنّما يكون في نظرنا مع أنّ الظاهر أنّه بالامتحان يستكشف ما هو موجود في الحال من صدق الايمان وكذبه، لا ما يتحقّق بعد الامتحان. ويمكن أن يكون المعنى أن فتنة المؤمنين ليس لأجل عمله تعالى بواقع إيمان المدّعي له، فإن الله تعالى ليعلم البتة صدق الصادق وكذب الكاذب. قيل: لما كان المراد من الكاذبين المستديمين للكفر والمستمرين عليه، عبّر عنهم بصيغة الفاعل الدالّ على الثبوت، بخلاف الصادقين<sup>٥</sup> فإن المراد منهم المؤمنون الذين كانوا قريبي العهد بالايمان. وفيه: أن عنوان الكذب أيضاً كان حادثاً في ذلك الزمان، وإن كان كفرهم قديماً ومستمرّاً فيهم.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ \* مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [٤ و ٥]

ثم أنكر على الكفار حُسابهم الأقبح من حُسابهم الأول بقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾.

قيل: إن المعنى: بل<sup>٦</sup> أَظَنَّ الكفار ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ بجوانحهم<sup>٧</sup> وجوارحهم ﴿أَنْ يَسْبِقُونَا﴾ ويؤثّونا إن لم تُعذبهم في الحال على سيئاتهم، ليس الأمر كما يُخشّون، بل إن لم تُعذبهم في الحال تُعذبهم فيما بعد بحكم الإيعاد، فإن الإمهال لا يستلزم الإهمال، فإن التعجيل في المجازاة شغل من يخاف الموت ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ به من أن عُصيانهم لا يستتبع عقوبة، ومخالفتهم لأحكام الله لا يستتبع عذاباً ونكالاً، فإن الحكم الحسن ما يحكم به العقل، من أن الله الحكيم لا يهمل الناس، بل يجعل لهم أحكاماً وتكاليف يتنظم بها معاشهم ومعادهم، ومخالفتها موجبة لاستحقاق العقاب، والحكيم يُعطي كلّ ذي حقّ حقّه، ولولا العقوبة على مخالفة الأحكام لكان جعلها بلا فائدة،

١. تفسير الرازي ٢٥: ٢٩.

٢. تفسير الرازي ٢٥: ٢٩.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٤٤٦.

٤. تفسير الرازي ٢٥: ٢٩.

٥. تفسير الرازي ٢٥: ٢٩.

٦. تفسير أبي السعود ٧: ٣٠.

٧. في النسخة: بجوانحهم.

ولولا جعلها لكان خلق الناس عبثاً.

ثم حث سبحانه الناس على ترك السيئات والعمل بالطاعات بتخويفهم من إتيان يوم القيامة ودار الجزاء بقوله: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا﴾ ويتوقع ﴿لِقَاءَ اللَّهِ﴾ وملاقاة دار جزائه، فليجتهد في ترك السيئات والقيام بالعبادات، وليسارع إلى موجبات غفران الله وثوابه، وليحذر مما يسوقه إلى عقاب الله ونكاله، وليستعد لإتيان أجل الله ويوم جزائه ﴿فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ﴾ وغاية زمان انقضاء الدنيا الذي عينه الله لفنائها والله ﴿لَآتٍ﴾ وكاثر.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «من كان يؤمن بأنه مبعوث، فإن وعد الله لآتٍ من الثواب والعقاب»<sup>١</sup>. ولا يخفى على الله شيء من أقوال الناس وأعمالهم ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأعمالهم وأحوالهم، فيجازيهم حسبما يستحقون، ولا يفوته شيء، فبادروا العمل قبل الفوت.

وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ \* وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ [٦ و ٧]

ثم بالغ في الحث على الطاعة بقوله: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ﴾ نفسه بترك الشهوات، والصبر على الطاعات، وجاهد الكفار بالسيف، والشيطان بدفع وساوسه ﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ﴾ جهاداً نافعاً ﴿لِنَفْسِهِ﴾ وفائدته الدنيوية والأخروية عائدة له لا تتمدها إلى الله ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الخالق للموجودات ﴿لَغَنِيٌّ﴾ بالذات ﴿عَنِ﴾ الموجودات في ﴿الْعَالَمِينَ﴾ ومنافعها، وإنما الموجودات في وجودها وبقائها وكمالها محتاجة إلى فضله وإحسانه وفيضه.

ثم إنه تعالى بعد بيان عود فوائد مجاهدته وأعماله إلى نفسه إجمالاً، نبه على أهم فوائدها العائدة إليه تفصيلاً بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدانية الله ورسالة رسوله والدار الآخرة ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ المرضيات عند الله المآتبات لوجهه ﴿لَنُكَفِّرَنَّ﴾ ونسئرن عن الناس بل ﴿عَنْهُمْ﴾ أنفسهم ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ وقبائح أعمالهم التي صدرت في الدنيا عنهم بالغاً ما بلغ بمحوها عن دفاتر أعمالهم، لئلا يطلع عليها أحد حتى نفسه ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ على إيمانهم وأعمالهم ﴿أَحْسَنَ﴾ وأفضل جزاء ﴿الَّذِي كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ من الإقرار بالتوحيد، والقيام بالطاعات، ومما هو لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب أحد.

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ  
فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [٨]

ثم لما كان أقوى الموانع من الايمان وطاعة الله رعاية ميل الأقارب والأرحام خصوصاً الوالدين الذين كان الاحسان إليهم من أهم الواجبات والمحسنات العقلية والشرعية، نهى سبحانه عن جعل نهيهما عن الايمان بالتوحيد مانعاً عنه بقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾ وأوجبنا عليه أكيداً أن يفعل ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾ ما يُعَدُّ من غاية كونه ذا حسن ﴿حُسْنًا﴾ وعين صلاح فضلاً عن الإطاعة والانقياد لهما ﴿وَقُلْنَا لَهُ﴾: ﴿إِنْ جَاهَدَاكَ﴾ وجادلناك مع ذلك ﴿لِتُشْرِكَ بِي﴾ من الموجودات والأصنام ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ﴾ وبإلهيته ﴿عِلْمٌ﴾ وبرهان يفيدته ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك، ولا تعين بأمرهما به فضلاً عن أمر غيرهما، فإنه لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق.

ثم هدّد سبحانه المشركين والضالين والمضلين بقوله: ﴿إِلَيَّ﴾ بعد الموت ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ أيها الناس المطيعين والعصاة والموحدين والمشركين والضالين والمضلين لا إلى غيري ﴿فَأُنَبِّئُكُمْ﴾ وأخبركم بعد الرجوع إليّ والحضور عندي ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من التوحيد والاشراك والاضلال والتعيب جزائكم، وما يترتب على أعمالكم.

روي أنه لما آمن سعد بن أبي وقاص الزهري، قالت له أمه حمزة بنت أبي سفيان بنت أمية بن عبد شمس: يا بني، ما هذا الدين الذي أحدثت؟ لتدعن دينك، أو أذهب من الظل إلى الشمس، ولا أكل ولا أشرب من شيء حتى ترجع من دين محمد أو أموت فتعير بي، فيقال لك: يا قاتل أمه فلم تأكل ولم تشرب ثلاثة أيام حتى جهدت، فقال لها: يا أم، لو كان لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما كفرت، فكلني وإن شئت فلا تأكلي، فلما رأت ذلك أكلت، فأمره الله في الآية أن يُحسِن إليها، ويقوم بأمرها، ويسترضيها فيما ليس بشر ومعصية<sup>١</sup>، فنبه سبحانه على حُكْمين:

أحدهما: وجوب البرِّ والاحسان بالوالدين وحرمة عقوقهما.

روي عن النبي ﷺ أنه قال: «الجنة تحت أقدام الأمهات»<sup>٢</sup>.

وفي الحديث القدسي: «من رضي عنه والده، فأنا عنه راضٍ».

والثاني، حرمة إطاعتها في معصية الله.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ \* وَمِنَ النَّاسِ مَن

يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ الْفِتْنَةَ لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ  
مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ \*  
وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ [٩-١١]

ثم بين سبحانه حال الموحدين الذين فارقوا الأقارب والأرحام حفظاً للدين، وطلباً لرضا رب العالمين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما جاء به النبي ﷺ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من رفض الشرك ومفارقة الأرحام لوجه الله ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ﴾ في الآخرة ﴿فِي﴾ زمرة ﴿الصَّالِحِينَ﴾ والموحدين المقربين والمؤمنين الكاملين ولنعلينهم في درجاتهم، وثنيم عليهم بمصاحبتهم. قيل: إن نكتة ذكر المؤمنين الصالحين مرتين أن النظر في الآية الأولى إلى بيان حال المهتدين بعد بيان حال الضالين، وفي الآية الثانية إلى بيان حال الهادين بعد ذكر المضلين، كالوالدين اللذين أمرا<sup>١</sup> ولدهما بالشرك<sup>٢</sup>.

ثم لما ذكر سبحانه لزوم امتحان المؤمنين بالبلاء ومشاق التكليف، لتمييز الصادق في دعوى الايمان عن الكاذب، بين حال الكاذب في دعوى الايمان عند ابتلائه بالفتن بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ وبعضهم ﴿مَنْ يَقُولُ﴾ بلسانه ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ عن صميم القلب، كايان المؤمنين الحقيقي ﴿فَإِذَا أُوذِيَ﴾ من قِتل الكفار ﴿فِي﴾ سبيل ﴿اللَّهِ﴾ ولأجل الايمان به ﴿جَعَلَ﴾ وعد الأذية التي كانت ﴿فِتْنَةً﴾ للناس. وامتحاناً له من قبلهم صارفة لنفسه عن الايمان مع ضعفها وانقطاعها ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ الشديد الدائم، الذي هو صارف المؤمنين الخُلصين من الكفر به، وجزعوا منها، ولذا يُنصَرِفون من الايمان كما يُنصَرِفُ الخُلصون من الكفر للخوف منه ﴿وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ﴾ لجيش المؤمنين على الكفار ﴿مِّن﴾ قبل ﴿رَبِّكَ﴾ وبرحمته ليقولن للمؤمنين تليساً عليهم وطمعاً في الغنيمة: ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ موافقين ﴿مَعَكُمْ﴾ في الايمان، وتابعين لكم في الدين، فاشركونا في الغنائم.

ثم ردهم الله بقوله: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ﴾ الخالق لكل شيء ﴿بِأَعْلَمَ﴾ منكم ومن كل أحد ﴿بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ وقلوبهم من الايمان الخالص والنفاق حتى يقولوا ما يقولون من إظهار الايمان، ويفعلوا ما يفعلون من إبطان الكفر والنفاق، نعم ﴿وَاللَّهُ﴾ هو أعلم، وكذا ﴿لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ البتة إيمان ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عن صميم القلب والاخلاص ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ﴾ نفاق ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾ ولا يلتبس عليه حالهم، وإن سكت المؤمن وتكلم المنافق.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِخَاطِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ \* وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ [١٢ و ١٣]

ثم لما بين الله معاملة الكفار مع المؤمنين في ردِّهم إلى الكفر، بين مكالمتهم معهم في ضلالهم بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة مخاطبين ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ردعاً لهم من الايمان، واستمالة لقلوبهم إلى الكفر ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ واسلكوا في الدين مسلكنا، وإن كان بعث وحشر ومواخذة، وفرض لكم خطيئة وذنوب من جهة التدين بديننا، فلنرفع عنكم أثامكم وذنوبكم ﴿وَلْنَحْمِلْ﴾ عنكم ﴿خَطَايَاكُمْ﴾.

فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِخَاطِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ وليسوا برافعين أثامهم من ظهورهم ﴿إِنَّهُمْ﴾ والله ﴿لَكَاذِبُونَ﴾ في وعدهم ذلك، لعدم قدرتهم على إنجازه. ﴿وَالْبَتَّةَ لَيَحْمِلُنَّ﴾ هؤلاء القائلون يوم القيامة ﴿أَثْقَالَهُمْ﴾ وأوزارهم التي عملوها في الدنيا ﴿وَأَنْقَالًا﴾ آخر ﴿مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ من جهة إضلالهم الناس، فيعدِّون بضلال أنفسهم وإضلالهم غيرهم من غير أن ينقص من عذاب الضالين شيء، كما ورد في الحديث: «من سرَّ سئةً سيئةً فعلية وزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزره شيء»<sup>١</sup>. ﴿وَاللَّيْسَالُ﴾ هؤلاء الكفار المضلين ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ سؤال تقريع وتبكيث ﴿عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ويختلفونه في الدنيا.

قيل: يقال لهم يوم القيامة: احمِلوا خطايا الذين أضللتهم، فلا يحملون، فيسألون ويقال: لم افتربتم وكذبتم؟<sup>٢</sup>

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ \* فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ [١٤ و ١٥]

ثم لما ذكر الله سبحانه سعي الكفار في إضلال المؤمنين وإيذانهم لهم على الايمان، ودعوتهم إياهم إلى الكفر، وكان ذلك ثقیلاً على قلب حبيبه، سلَّاه بذكر دعوة أولي العزم من الرسل، ومخالفة أمهم لهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ للدعوة إلى التوحيد والدين الحق ﴿نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ وهم أهل الدنيا.



قيل: إِنَّهُ ﷺ أول نبي بُعث إلى عبدة الأصنام، لأنها حدثت في قوم<sup>١</sup> «قَلْبَتْ» وَمَكَثَ نوح ﴿فِيهِمْ﴾ بعد الارسال، وهو يدعوهم إلى التوحيد «أَلَفَ سَنَةً إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا» وهم لا يقبلون قوله، ولا يَلْتَفِتُونَ إلى دعوته، بل كانوا يَشْتُمُونَهُ وَيَضْرِبُونَهُ، وهو لا يَقْتَرِعُ عن الدعوة، ولا يَنْكُلُ على تَحْمِلِ أعباء الرسالة حتى ينس من إيمانهم، فدعا عليهم «فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ» فغرق من في الدنيا كلها من الكفار «وَهُمْ ظَالِمُونَ» ومُصْرُونَ على إهانة الله ورسوله، مبالغون في معاندة الحق ولو كانوا غير مصرين على الكفر ومعاندة الحق لم يَغْرَقُوا ولم يُعَذِّبُوا، لكونه تعالى تَوَّابًا رَحِيمًا وَأَمَّا نوحاً «فَأَنْجَيْنَاهُ» من الطوفان والغرق والابتلاء بمشاق الكفرة رحمةً منا ﴿وَنَجَّيْنَا أَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ أيضاً وأهلها الراكبين فيها معه من المؤمنين به من أولاده وأهله وغيرهم بواسطة السفينة التي صنعها بأمرنا ووحينا «وَجَعَلْنَاهَا آيَةً» ودلالة على التوحيد «لِلْعَالَمِينَ» حيث إنها أول سفينة في الدنيا، وسائر السفن التي استدَلَّ بها سبحانه على توحيده علامة من تلك السفينة، أو المراد جعلنا نجاة نوح وأصحابه، أو قضيتِهِ وواقعة عبْرَةٍ وَعِظَةٌ للخلق إلى يوم القيامة يَتَعَطَّوْنَ بها، ويعتبرون منها. روي أَنَّ نوحاً بُعث على رأس الأربعين، ودعا قومه تسعمائة وخمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كَثُرَ الناس وفُشُوا، وذلك من أولاده حام وسام ويافث، لأنَّ غيرهم لما خرجوا من السفينة ماتوا كلَّهم، وكان عمره ﷺ ألفاً وخمسين عاماً، وهو أطول الأنبياء عمراً، وهو أول من تنشَقُّ الأرض عنه بعد نبيِّنا ﷺ<sup>٢</sup>.

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ \*  
إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ  
لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ  
تَرْجَعُونَ \* وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبْتُمْ عَلَيَّ وَمَا عَلَيَّ الرُّسُولُ إِلَّا الْبَلَاغُ

الْمُؤْمِنِينَ [١٦-١٨]

ثم سلَّاه سبحانه بذكر إبلاغ إبراهيم في نُصح قومه وعدم قبولهم دعوته بقوله: «وَإِبْرَاهِيمَ» قيل: إِنَّ التقدير وأرسلنا إبراهيم، أو أذكره<sup>٣</sup> «إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ» وهي أهل بلدة بابل: يا قوم «اعْبُدُوا اللَّهَ» وحده، ولا تشركوا به شيئاً «وَاتَّقُوهُ» وخافوا عذابه على الشرك «ذَلِكُمْ» الذي قلت من التمحُّص لعبادته

٢. تفسير روح البيان ٦: ٥٦٦.

١. تفسير روح البيان ٦: ٥٥٥.

٣. تفسير الرازي ٢٥: ٤٣.

والافتاء منه ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، وانفع مما أنتم عليه من الاشراك به وعبادة الأصنام ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من الخير والشر، وتميزون أحدهما من الآخر.

ثم أخذ في توبيخهم بقوله: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، ومما سواه لجهلكم ونقص عقولكم ﴿أَوْثَانًا﴾ وأحجاراً منحوتة لا عقل لها ولا قدرة، ولا نفعاً ولا ضرراً ﴿وَتَخْلُقُونَ﴾ وتخترعون من عند أنفسكم ﴿إِفْكَأ﴾ وكذباً فضيعاً شنيعاً حيث تسمونها إله وشفعاء عند الله، مع أن الإله لا بد أن يكون منبعاً على خلقه و ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ﴾ ولا يقدرُونَ على إعطائكم ﴿رِزْقًا﴾ قليلاً ﴿فَاتَّبِعُوا﴾ واطلبوا ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ القادر على كل شيء ﴿الرَّزْقُ﴾ كله بعرفانه والتوجه إليه ﴿وَأَعْبُدُوهُ﴾ وحده ﴿وَأَشْكُرُوهُ لَهُ﴾ على نعمائه حتى يزيدكم النعم واعلموا أنكم بعد الموت ﴿إِلَيْهِ﴾ وإلى حكمه ﴿تُرْجَعُونَ﴾ فيتيبكم على طاعته وعبادته، ويعذبكم على عصيانه ومخالفته، فعليكم أن تصدقوني فيما أمرتكم مما فيه خيركم في الحياة وبعد المماتة ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا﴾ نبي فيما أخيركم به، فليس تكذيبكم إني بأمرٍ بديع، وما هو بضارٍ علي ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ﴾ وجماعات كانوا ﴿مِّن قَبْلِكُمْ﴾ أنبياءهم كيث وإدريس ونوح، فما أضروهم شيئاً، وإنما أضروا أنفسهم بتعريضها للعذاب والهلاك ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ﴾ المرسل من قبل الله ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وإرشاد الخلق إلى الحق ببيان واضح لا يبقى معه الشك، وما عليه أن يصدق ولا يكذب، وقد خرجوا وخرجت عن عهدة ما أمرنا به بما لا مزيد عليه، فليس علينا مجال مسئولية ومؤاخذه، وإنما المسئولية والمؤاخذه لكم.

أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ \* قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ \* يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ \* وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ [١٩-٢٢]

ثم لما ذكر إبراهيم عليه السلام لقومه التوحيد والمعاد، وكان كفار مكة منكرين للبعث، استدلل سبحانه لهم عليه بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ولم يعلموا علماً جارياً مجرى العيان في الجلاء والظهور ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ﴾ ويوجد ﴿اللَّهُ﴾ بلا سابقة ﴿الْخَلْقَ﴾ ثم اعلما أنه ﴿يُعِيدُهُ﴾ بعد كونه رميمًا قياساً على الإبداء ﴿إِنَّ﴾ ذلك المذكور من الإعادة ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وسهل لا نصيب فيه بوجه.

ثم أكد سبحانه ذلك الدليل بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لمنكري البعث: ﴿سِيرُوا﴾ وسافروا ﴿فِي﴾

أقطار ﴿الْأَرْضِ﴾ وجوانبها ﴿فَانظُرُوا﴾ بَنَظَرَ التَّفَكَّرِ والاعتبار ﴿كَيْفَ بَدَأَ﴾ الله وأوجد ﴿الْخَلْقَ﴾ ابتداءً على كَثْرَتِهِم واختلاف أشكالهم وأحوالهم وأخلاقهم ﴿ثُمَّ﴾ إذا عَلِمْتُمْ بدء الخلق عَلِمْتُمْ أَنَّ القادر الذي هو ﴿الله﴾ بقدرته ﴿يُنشِئُ﴾ ويوجد هؤلاء فينشئون ﴿النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ ويحيون حياة ثانية ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الابداء والإعادة وغيرهما ﴿قَدِيرٌ﴾.

وإنما قَدَمَ ذِكْرَ العذاب لأنَّ المقصود ترهيب مُنْكَرِي البعث، وكان ذِكْرَ الرحمة تبعاً، ثُمَّ سَدَّ باب غُرُورِهِم بتأخير عذابهم بقوله: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ تعذيبه، وهم المشركون المنكرون للبعث ﴿وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ رحمته، وهم الموحدون الْمُقَرَّبُونَ بالبعث ﴿وَاللَّيْلِ﴾ وحده إلى حُكْمِهِ ﴿تَقْلُبُونَ﴾ وتُردُّونَ فيفعل بكم ما يريد ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ له وخارجين من سلطانه وإن هَرَبْتُمْ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ الواسعة وتواريتُم فيها ﴿وَلَا﴾ بالتحصن ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ التي هي أوسع منها، فإنه يُدْرِكُكم لا محالة، ويُجرى عليكم حُكْمُهُ وقضائه ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ ومُحِبٍّ يفدي لكم في دفع العذاب عنكم نفسه وماله، ويشفع لكم عند الله ﴿وَلَا نَصِيرٌ﴾ ومُعِين يُخْرِسُكم بقوته ممَّا يُصِيبُكم من البلاء. قيل: إِنَّ الْوَلِيَّ هو الذي يدفع المكروه، والنصير هو الذي يأمر بدفعه<sup>١</sup>.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ \* فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنْ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [٢٣ و ٢٤]

ثمَّ إِنَّه تعالى بعد تهديد الكفَّار إجمالاً بالعذاب المُبْهِم، هدَّدَ خصوص المشركين المنكرين للمحشر بالعذاب مفصلاً بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ﴾ توحيد ﴿الله﴾ ودلَّاهُ، ﴿وَكُفَرُوا بِـ﴾ لِقَائِهِ والحضور عنده في المحشر لجزاء الأعمال ﴿أُولَئِكَ﴾ الكافرون بالخصوص ﴿يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾ وفضلي، وانقطع رجاءُهم من الطَّافِي بِشْرِكِهِم ﴿وَأُولَئِكَ﴾ بالخصوص ﴿لَهُمْ﴾ بالاستحقاق ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بإنكارهم المعاد.

ثمَّ إِنَّه تعالى بعد دعوة كَفَّار مَكَّةَ إلى الإيمان بالمعاد والاستدلال عليه، وتهديدهم على الكفر به، عاد إلى بيان قصَّة إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ له ومقالهم بعد استماع دعوته ونُصْحِهِ ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ الرؤساء لِأَتْبَاعِهِم، أو بعضهم لبعض تجمَّعوا على إبراهيم و ﴿اقْتُلُوهُ﴾ بالسيف، أو الحجارة ﴿أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ بالنار، وانصروا ألَهْتَكُمْ، فاخْتاروا إحراقه، فألقوه في النار ﴿فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنْ﴾

أذى «النَّارِ» بأن جعلها برداً وسلاماً وروحاً وريحاناً «إِنَّ فِي ذَلِكَ» الإنجاء الخارق للعادة بحفظه من حرّها وإخمادها مع غاية عظمتها بالفوز عقيب إحراق الحبل الذي أوثقوه به وإنشاء الرّوض مكانها «لآيَاتٍ» عجيبة ودلائل واضحة على توحيد الله وألطافه بأوليائه ونصرتهم لهم على أعدائهم «لِقَوْمٍ» يلتفتون إلى الآيات، ويتفكّرون فيها، ويتنفعون بها، وهم الذين «يُؤْمِنُونَ» بالله وبآياته، لا الكافرون الذين لا يعلمون إلّا ظاهر الحياة الدنيا.

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ \* فَأَمَّنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ \* وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ [٢٥-٢٧]

ثم إنه تعالى بعد النجاة من النار اخذ في نصيح قومه «وَقَالَ» يا قوم «إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ» واخترثتم العبادة «مِن دُونِ اللَّهِ» ومما سواه «أَوْثَانًا» وأحجاراً منحوتة لتخفظوا «مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ» والتحابب والتواصل فيكم باجتماعكم على عبادتها، أو المراد مودتكم للأوثان أو لأبائكم الذين كانوا يعبدون، لا لقيام برهان عندكم على جوازها، واعلموا أن تلك المودة باقية فيكم «فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» ومدة أعماركم فيها «ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» يتبدل التوادّ بالتباغض، والتواصل بالتباعد، حيث «يَكْفُرُ بَعْضُكُم» وهم الأنبياء أو العبد «بِبَعْضٍ» وهم الرؤساء والمُتَّبِعُونَ، أو الأوثان، ويتبرأ كل من كل. عن الصادق (عليه السلام): «يعني يتبرأ بعضكم من بعض»<sup>١</sup> «وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم» من الاتباع أو العبد «بَعْضًا» الآخر من المتبوعين، أو الأوثان.

عن الصادق (عليه السلام): «ليس قوم ائتموا بإمام في الدنيا إلّا جاء يوم القيامة يلعنهم ويلعنونه إلّا أنتم ومن كان على مثل حالكم»<sup>٢</sup>.

«وَمَا وَآكُمُ» ومنزل لكم جميعاً العابدون والمعبودون، والتابعون والمتبوعون «النَّارُ» فإنها مقرّكم الذي تأوون إليه، ولا ترجعون منه أبداً «وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ» يُخَلِّصُونَكُمْ منها، كما خلّصني ربي من النار التي أقيمتوني فيها «فَأَمَّنْ لَهُ لُوطٌ» بعد رؤية معجزاته. قيل: هو ابن أخيه<sup>٣</sup>. وقيل: ابن

٢. الكافي ٨: ١٢٢/١٤٦، تفسير الصافي ٤: ١١٥.

١. الكافي ٢: ٢٨٨/١، تفسير الصافي ٤: ١١٤.

٣. تفسير البياضاي ٢: ٢٠٧، تفسير أبي السعود ٧: ٣٧.

اخته<sup>١</sup>. وقيل: ابن خالته<sup>٢</sup>. فلما يأس من إيمان القوم عَزَمَ على الخروج من ذلك البلد **﴿وَقَالَ﴾** للوط وزوجته سارة **﴿إِنِّي﴾** تارك لقومي و**﴿مُهَاجِرٌ﴾** من هذه البلدة **﴿إِلَى رُبِّي﴾** وذهب إلى حيث امرني إلهي اللطيف بي **﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾** الغالب على أمره، فَيَحْفَظُنِي من أعدائي **﴿الْحَكِيمُ﴾** الذي لا يأمرني إلا بالذهاب إلى مكان فيه صلاح.

روي أن إبراهيم أول من هاجر، ولكل نبي هجرة، ولإبراهيم هجرتان؛ فأنه هاجر من كوثى - وهي قرية من سواد الكوفة - مع لوط وسارة إلى حران، ثم منها إلى الشام فنزل فلسطين ونزل لوط سدوم<sup>٣</sup>. قيل: إنه كان له حين هجرته خمس وسبعون سنة<sup>٤</sup>.

**﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾** من سارة وهي عجوز عاقر **﴿إِسْحَاقَ﴾** من صلبه **﴿وَيَعْقُوبَ﴾** من إسحاق حين أيس إبراهيم من الولادة من نفسه، فأنه كان له حينئذ عشرون ومائة سنة، ومن زوجته العجوزة العاقر، ولذا لم يذكر إسماعيل، لأن ولادته لم تكن على خلاف العادة. وقيل: إنه ولد قبل هجرته، وكان سنه **﴿عَلَيْهِ﴾** حين ولادته خمساً وسبعين سنة.

وقيل: إن إسماعيل كان داخلياً في ذريته المذكورة في الآية، حيث قال: **﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾** وإنما لم يُصَرَّح باسمه لأن الغرض بيان التفضل عليه بالأولاد والأحفاد، فذكر من أولاده واحداً، ومن أحفاده واحداً من باب ذكر الواحد وإرادة الجنس، لا لخصوصية فيه، ولو ذكر غيره لفهم منه التعدد واستيعاب الكل، فيُظَنُّ أنه ليس له غير المذكورين<sup>٥</sup>، مع أنه كان له **﴿عَلَيْهِ﴾** على ما روي أربع بنين: إسماعيل من هاجر، وإسحاق من سارة، ومدين ومداين من غيرهما<sup>٦</sup>.

**﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ﴾** ونسله من بني إسماعيل وبني إسرائيل **﴿النُّبُوَّةَ﴾** إلى يوم القيامة **﴿وَالْكِتَابَ﴾** السماوي من التوراة والإنجيل والقرآن والصحف **﴿وَأَتَيْنَاهُ﴾** وأعطيناه **﴿أَجْرَهُ﴾** على هجرته إلينا **﴿فِي الدُّنْيَا﴾** وهو إعطاؤه الولد في غير أوانه، والمال الكثير، والذرية الطيبة التي من جملتهم خاتم الأنبياء وسيد الأوصياء وعترتهما الطاهرة، وإنتماء أهل الليل إليه، والثناء والصلاة عليه إلى آخر الدهر.

قيل: إن الله قَسَمَ الزمان قسمين؛ فجعل في القسم الأول، وهو أكثر من أربعة آلاف سنة النبوة في أولاده من إسحاق، وبعث منهم أنبياء كثيرة لهم فضائل جمّة، وجعل في القسم الثاني النبوة في ذريته

١. جوامع الجامع: ٣٥٢، تفسير روح البيان ٦: ٤٦٣. ٢. علل الشرائع: ٤/٥٤٩، تفسير الصافي ٤: ١١٥.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٤٦٣، وسدوم: مدينة من مدائن قوم لوط كان قاضيا يقال له: سدوم.

٤. الكشف ٣: ٤٥١، تفسير روح البيان ٦: ٤٦٣. ٥. تفسير الرازي ٢٥: ٥٦ و٥٧.

٦. تفسير روح البيان ٦: ٤٦٣.

من إسماعيل، وهو محمد، فجمع فيه ما كان في جميع الأنبياء، وختم به النبوة، وأرسله إلى كافة الناس إلى يوم القيامة<sup>١</sup>.

وقيل: إن من أجره بقاء ضيافته حيث إنه كان يحب الضيافة، فجعل الله الخلق أضيافه إلى آخر الدهر<sup>٢</sup>.

﴿وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ والراقين في أعلى مراتب العبودية، وأكمل درجات الإنسانية.

وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَتَّوُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ \* أَأَنتُمْ لَأَتَّوُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ \* قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ \* وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ \* قَالَ إِنْ فِيهَا لَوْطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّه وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تَكُنْ مِنْ الْغَائِبِينَ \* وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَ بِهِمْ وَصَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكُنْ مِنَ الْغَائِبِينَ [٢٨-٣٣]

ثم ذكر سبحانه قصة لوط وكيفية دعوته ونصحه لقومه وجوابهم إياه بقوله: ﴿وَلُوطًا﴾ قيل: إنه معطوف على ﴿أرسلنا﴾<sup>٣</sup>. وقيل: إن التقدير واذكر يا محمد لوطًا ﴿إِذْ قَالَ﴾ نصحا ﴿لِقَوْمِهِ﴾ وانكاراً عليهم القبائح الدائرة بينهم بعد دعوتهم إلى التوحيد: يا قوم ﴿إِنَّكُمْ لَأَتَّوُونَ﴾ وترتكبون الخصلة ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ والفعلة المتناهية في الفج مع أنها لإنهاية قبحها ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا﴾ وما أرتكبها من قبلكم ﴿مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ وأنتم ارتكبتموها لخبائث طيبتكم ورذالة طيبتكم.

قيل: لم يَنْزُ دَكَرٌ على دَكَرٍ قبل قوم لوط قط<sup>٤</sup>.

وقيل: إن المراد من سَبَقَهُمْ على أهل العالم فيها إكثارهم منها، كما يقال سبق فلان البخلاء في البخل إذا زاد عليهم<sup>٥</sup>.

ثم بين الفاحشة بقوله: ﴿أَنتُمْ لَأَتَّوُونَ الرِّجَالَ﴾ وتكبحونهم ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ والطريق

٢. تفسير روح البيان ٦: ٤٦٤.

٤. تفسير روح البيان ٦: ٤٦٤.

١. تفسير الرازي ٢٥: ٥٧.

٣. مجمع البيان ٨: ٤٤٠.

٥. تفسير الرازي ٢٥: ٥٨.

المعتاد السلوك للناس، وتعرضون للمادة بالفاحشة. روي أنهم كانوا كثيراً ما يفعلونها بالغرباء، ويَجْبُرُونهم عليها، أو تقطعونها بالقتل وأخذ المال<sup>١</sup>.

قيل: كانوا يفعلون ذلك، لأن لا يدخلوا بلدهم، ولا يتناولوا من ثمارهم<sup>٢</sup>.  
وقيل: يعني تقطعون سبيل النسل بالإعراض عن النساء اللاتي هنَّ حَرْتٌ، وقضاء الشهوة بالرجال الذين ليسوا بحرث<sup>٣</sup>.

﴿وَتَأْتُونَ﴾ وتفعلون ﴿فِي نَادِيكُمْ﴾ ومجلسكم الذي تجتمعون فيه من غير مبالاة ﴿الْمُنْكَرَ﴾ وما يحكم العقول بقبحه من اللواط أو الصراط، كما عن الرضا عليه السلام، قال: «كانوا يتضارطون في مجالسهم من غير حشمة ولا حياء»<sup>٤</sup> أو ضرب الأوتار والمزامير والبُخيرية بمن يُمَرِّ بهم<sup>٥</sup>، أو الحذف<sup>٦</sup> بالحصى، كما عن النبي صلى الله عليه وآله.

قيل: كانوا يجلسون على الطريق، وعند كل واحد قِصْعَةٌ فيها حصى، فمن مرَّ بهم حَدَفُوهُ، فمن أصابه منهم فهو أحقَّ به، فيأخذ ما معه وَيَنْكِحُهِ وَيُغَرِّمُهُ ثلاثة دراهم<sup>٧</sup>.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ إياه ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ ما نترك عملنا ﴿إِنَّا نَعْتَدُكَ﴾ الذي نعدنا ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعوى رسالتك ووعدك، فلما يش لوط من إيمانهم وقبولهم نصحه، ناجى ربه و﴿قَالَ﴾ متضرعاً إليه: ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي﴾، بإنزال العذاب ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض بأعمالهم وعقائدهم، وأنت لا تحب الفساد. فاستجاب الله دعاءه، فأرسل جبرئيل مع عذرة من الملائكة لإهلاكهم، وأمرهم بأن يحيثوا إلى إبراهيم عليه السلام ويُشْرَهُ بإسحاق.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا﴾ له في تضاعيف كلامهم: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ التي يقال لها سَدُوم ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ على أنفسهم بالكفر والطغيان. ﴿قَالَ﴾ إبراهيم إشفاقاً على الخلق ومجادلة عنهم: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ ولا يُعَذَّبُ أهل بلد وفيهم مؤمن، فكيف تُهْلِكُون أهل سَدُوم؟ ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ من كل أحد ﴿بِمَنْ فِيهَا﴾ ولسنا بغافلين عن لوط، والله ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ وأتباعه المؤمنين، ولنُخرجَنَّهُم منها ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ الكافرة، فانها ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ والباقيين في القرية والعذاب ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ المذكورون بعد مفارقة إبراهيم عليه السلام ﴿لُوطًا﴾ في قرية سَدُوم على صورة شَبَانٍ مُرْدٍ حِسَانٍ الوجوه، عليهم ثياب حَسَنَةٌ

٤. مجمع البيان ٨: ٤٤٠، تفسير الصافي ٤: ١١٦.

٦. عوالي اللآلي ١: ٣٢٧، ٧٢، تفسير الصافي ٤: ١١٦.

١. ٣. تفسير روح البيان ٦: ٤٦٥.

٥. تفسير روح البيان ٦: ٤٦٥.

٧. تفسير روح البيان ٦: ٤٦٥.

فاخرة، ولهم ريح طيبة، ظنّ أنهم من الإنس، وكان يعلم من حال قومه أنهم يتعرضون له بالفاحشة، ولذا ﴿سِئَـةٌ يَـهْمُ﴾ واعتراه اضطرابٌ وخوفٌ بسببهم، وتخيّر في شأنهم وتديبر أمرهم ﴿وَصَاقٍ يَـهْمُ دُزْعًا﴾ ورأى نفسه عاجزة عن الدفاع عنهم، وعن حفظهم من تعدي القوم.

فلما رأى الملائكة فيه أثر التلال والصُّجرة سلَّوه ﴿وَقَالُوا﴾ له: يا لوط ﴿لَا تَخَفْ﴾ علينا، ولا على أحدٍ من أهلِكَ ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ لورودنا عليك وابتلائك بشأننا، إنا رسل ربِّك لإهلاك قومك و﴿إِنَّا مُتَجَبِّحُونَ أَهْلَكَ﴾ وخاصتك ممّا يصيب قومك من العذاب ﴿إِلَّا أَنْزَلْنَاكَ﴾ الكافرة، فإنها ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَافِرِينَ﴾ والباقيين في العذاب، أو في القرية، أو من المهلكين.

إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ \* وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [٣٥ و ٣٤]

ثمّ إنهم بعد بشارته بنجاة نفسه وأهله، أخبروه بنزول العذاب على قومه بقوله: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ﴾ البتة ﴿عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ والبلدة، وكانت عدّتهم على ما قيل سبعمائة ألف رجل<sup>١</sup> ﴿رِجْزًا﴾ وعذاباً شديداً ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ بأمر الله ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ويفعلون المنكرات، ثمّ أمروه بالخروج من البلد وإخراج بناته منها، فلما خرجوا رفع جبرئيل المدينة وما فيها بأحد جناحية، وجعل عاليها سافلها، وانصبت الحجارة عليها، أو على من كان من أهلها غائباً عنها، فصارت القرية المخروبة عبرة لأهل العالم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا﴾ أثرها الباقي ﴿مِنْهَا﴾ وهو الجُدُد الخربة والعمارات المنهدمة ﴿آيَةً بَيِّنَةً﴾ وعبرة واضحة نافعة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ويذركون العبر، ويتأملون فيها.

قيل: إن العبرة الباقية من القرية هي الحجارة الممطرة التي كان على كلّ واحدٍ منها اسم من أصابه، فإنها كانت باقية مدةً مديدة، وأدركها أوائل هذه الأمة<sup>٢</sup>.

وقيل: كانت ظهور الماء الأسود على وجه الأرض حين خسف بهم، وكان مثبناً بحيث يتأذى الناس برانحته من المسافة البعيدة<sup>٣</sup>.

وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوُوا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ \* فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ \* وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّن مَّسَاجِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ



أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُشْتَبِهِينَ \* وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ  
وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا  
سَابِقِينَ [٣٦-٣٩]

ثم ذكر سبحانه قصة شعيب ودعوته قومه وتكذيبهم إياه بقوله: ﴿وَالِإِيَّاهُ أَهْلُ بَلَدٍ مُّذَيَّنٌ﴾ أرسلنا  
﴿أَخَاهُمْ﴾ ومن هو من نسبهم، كان اسمه ﴿شُعَيْبًا﴾ ليدعوهم إلى التوحيد والطاعة ﴿فَقَالَ﴾ لهم  
بطريق الدعوة ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده، ولا تشركوا به شيئاً ﴿وَأَزْجُوا﴾ وتوقعوا ﴿الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾  
الذي لا يوم بعده، لأنه لا ليل بعده، وهو يوم القيامة ويوم الجزاء، وانتظروا ما يقع فيه من فنون  
الأحوال والأهوال، واعملوا الأعمال التي تنتفعون بها فيه، وتأمنون بها من العذاب ﴿وَلَا تَفْتَنُوا﴾ ولا  
تفسدوا ﴿فِي﴾ هذه ﴿الْأَرْضِ﴾ التي تَسْكُنُونَهَا بتنقيص المكيال والميزان، وتضييع الحقوق حال  
كونكم ﴿مُفْسِدِينَ﴾ ومبالغين في الفساد، وقيل: إِنَّ (مفسدين) بمعنى الفساد، والمعنى: لا تفسدوا  
فساداً، ويحتمل أن يكون العثر بمعنى الحركة بالتجريد عن الفساد.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في إخباره بتوحيد الله، وقيام الحشر، وقبح الفساد ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ والزلزلة  
الحاصلة من صيحة جبرئيل عقوبة على تكذيبهم، حتى تقطعت قلوبهم، وتهدمت عليهم دورهم  
﴿فَأَصْبَحُوا﴾ وصاروا ﴿فِي دَارِهِمْ﴾ وبيوتهم، أو بلدتهم ﴿جَائِشِينَ﴾ وميتين غير متحركين.  
﴿وَهُ﴾ أهلكناهم ﴿عَادًا﴾ قوم هود ﴿وَتَمُودَ﴾ قوم صالح ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ﴾ وظهر ﴿لَكُمْ﴾ يا أهل مكة  
إهلاكنا إياهم ﴿مِنْ﴾ بقية آثار ﴿مَسَاكِينِهِمْ﴾ الخربة في اليمن والحجر بالنظر إليها في أسفاركم  
﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ بتسويلاته ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ القبيحة من فنون الكفر والمعاصي، وحسنها في  
أعينهم ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ وصرفهم ﴿عَنِ﴾ سلوك ﴿السَّبِيلِ﴾ الذي أمروا بسلوكه. وهو التوحيد الموصل  
إلى كُلِّ خير ﴿وَكَانُوا مُشْتَبِهِينَ﴾ وتممكين من النظر والتفكير في آيات التوحيد، ولم يفعلوا  
﴿وَقَارُونَ﴾ الذي كان له شرف السب وكثور من الأموال ﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ الذي كان له سُلْطَنُ مصر  
﴿وَهَامَانَ﴾ الذي كان وزيره وأخص خواصه.

ثم بين سبحانه علّة إهلاكهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَى﴾ رسولاً من قبلنا متلبساً ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾  
والمعجزات الباهرات، فدعاهم إلى الإقرار بتوحيدنا، والانقياد لأوامرنا ونواهيها ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾  
وتعظموا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وتأنقوا عن قبول الحق والايان به في مملكة مصر، فعذبناهم أشد العذاب

﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ وفانتين منا ومعجزين لنا عن عذابهم.

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ  
وَمِنْهُمْ مَّنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ  
كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ \* مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ  
الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَرَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا  
يَعْلَمُونَ [٤٠ و ٤١]

ثم فصل وشرح كيفية إهلاك الأمم المذكورين بقوله: ﴿فَكُلًّا﴾ منهم ﴿أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ وعاقبناه  
بجنايته ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ وريحا شديدا حاملا للحصى كقوم عاد ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ  
أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ كقوم ثمود وأهل مدين ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ كفارون وأتباعه ﴿وَمِنْهُمْ  
مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ في الماء كقوم نوح وفرعون وأتباعه ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾ بما فعل بهم، بل كان  
يعديل فيهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر والطغيان وتكذيب الرُّسل.

ثم لما كان المهلكون من المشركين، بين بطلان مذهبهم بقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ واختاروا  
لأنفسهم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ وأحباء، أو انصاراً، وآلهة، وصفتهم العجبية ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ﴾  
وحالها العجبية فإنها ﴿اتَّخَذَتْ﴾ لنفسها وسجّت من لُعاها ﴿بَيْتًا﴾ لا جدار له ولا سقف، ولا يدفع  
الحرّ ولا البرد ولا المطر، فكَذلك الأصنام لا تملك لعابديها نفعاً ولا ضرراً، ولا [خيراً ولا شراً، فمن  
اعتمد عليها كان كمن أعتد على بيت لا أساس له ﴿وَإِنَّ أَوْهَرَ الْبُيُوتِ﴾ وأضعفها ﴿لَبَيْتُ  
الْعَنْكَبُوتِ﴾ فإنه أقرب إلى الانهدام من غيره، لأنه ينهدم بأخف الأرياح، كما أن مذهب الشرك يبطل  
بأدنى التفكير، إنهم ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً لعلموا ذلك، أو لعلموا مطابقة المثل للممثل له وغاية  
حسنه وفائدته.

قيل: إن العنكبوت كلما نسجت حولها بنت لنفسها محبساً، ولأرجلها قيوداً، كما أن المشركين كلما  
عبدوا غير الله سوا لا أيديهم وأرجلهم سلاسل وأغلالاً، وجعلوا الدنيا والآخرة لأنفسهم محبساً.

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ \* وَتِلْكَ  
الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ \* خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ

## وَالْأَرْضُ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ [٤٢-٤٤]

ثم أكد سبحانه عدم فائدة الأصنام، وهدهم على عبادتها بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وحقيقته وكُنْهه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على الانتقام من أعدائه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في فعالة من عقوبتهم وإمهالهم.

ثم لما كان المشركون يعترضون على القرآن باشتماله على المثل بالعنكبوت والذباب، ردَّهم الله بقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنُفِّسِنَا﴾ تنبيهاً ﴿لِّلنَّاسِ﴾ وتوضيحاً لهم المطالب العالية وتقريباً لما بُعد عن أفهامهم، وما يفهم حسن تلك الأمثال وفائدتها ﴿وَمَا يَفْقَهُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ والمُدركون لحسن الأشياء والمتدبرون فيها.

ثم استدلَّ سبحانه على توحيده بقوله: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وأبدعهما ملتبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ والغرض الصحيح والحكمة البالغة، لا عبثاً، ولا لعباً، فإنهما مع اشتمالهما على المنافع الدنيوية المربوطة بمعاش الخلق، شواهد دالة على وحدانيته، وكمال قدرته، وحكمته، وسائر صفاته، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الخلق العظيم المعجب ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة، ودلالة واضحة على شؤونه الجلية، وإِنَّمَا هي نافعة ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم المتدبرون فيها، المدركون لدلالاتها، الناظرون بنور الله في عجائبها ووجوه حكمها.

أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ  
وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ [٤٥]

ثم إنَّه تعالى بعد إثبات توحيده للمؤمنين، أمرهم بأهم الأعمال وأنفعها، بأمر نبيه المعظم بها، إظهاراً لعظم شأنها بقوله: ﴿أَتْلُ﴾ يا محمد ﴿مَا أُوْحِيَ﴾ وأنزل ﴿إِلَيْكَ﴾ بتوسط جبرئيل ﴿مِّنَ الْكِتَابِ﴾ السماويِّ والقرآن العظيم، وأقرأ لنفسك متحفظاً لنظمه، ومتدبراً في معانيه وحقائقه ودقائقه ورقائقه وجهات إعجازه، ليزيدك نوراً على نور، وعلى الناس لتهديهم به إلى الحقِّ وصراط مستقيم، وتحملهم على العمل بما فيه من الأحكام والآداب ومحاسن الاخلاق.

روي أنَّ عمر أتى بسارق فأمر بقطع يده، فقال: لم تقطع يدي؟ قال: بما أمر الله في كتابه. فقال: أتل علي. فقال: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم﴾<sup>١</sup> فقال السارق: والله ما سمعتها، ولو سمعتها ما سرقت<sup>٢</sup>.

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «من قرأ القرآن وهو قائم في الصلاة، كان له بكل حرف مائة حسنة، ومن قرأ وهو جالس في الصلاة، فله بكل حرف خمسون حسنة، ومن قرأ وهو في غير الصلاة وهو على وضوء، فخمسة وعشرون حسنة، ومن قرأ على غير وضوء فعشر حسنات»<sup>١</sup>.

وإنما قدّم تلاوة الكتاب لما فيه من المعارف والعلوم، وازدياد اليقين بصحة دين الاسلام، وإحياء القلب ونورانيته، ثم أردفها بالأمر بأهم الواجبات بقوله: «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ» ودأوم عليها متحفظاً لأركانها وأجزائها وشرائطها وآدابها.

ثم بيّن سبحانه علّة الأمر بقوله: «إِنَّ الصَّلَاةَ» بالخاصية وبتأثيرها في نورانية القلب وزيادة القرب من الله «تَنْهَى» وتمنع المصلي «عَنِ» ارتكاب «الْفَحْشَاءِ» والمعاصي الكبيرة «وَالْمُنْكَرِ» والصغيرة، فإن من تنوّز قلبه بالمعرفة، وعلم أنه يحضر في مقام إظهار العبودية لخالقه وربّه في كلّ يوم خمس مرات، ويكالمه يتكلّم<sup>٢</sup> ربّه معه، استحيى من ارتكاب ما يوجب غضبه تعالى عليه وإعراضه تعالى عنه.

وفي الحديث: «من لم تنته صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم يزدد من الله إلاّ بعداً»<sup>٣</sup>.  
روي أن فتى من الأنصار كان يصلي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصلوات الخمس، ثم لا يدع شيئاً من الفواحش إلاّ زكّيه، فوصف للرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «إنّ صلاته ستناه» فلم يلبث أن تاب، وحسّن حاله، وصار من زهاد الصحابة<sup>٤</sup>.

وقيل: إنّ المراد أنّها تنهاه حال الاشتغال بها<sup>٥</sup>.

عن الصادق عليه السلام، أنه قال: «الصلاة حُجْزة الله، وذلك أنّها تحجز المصلي عن المعاصي ما دام في صلاته»<sup>٦</sup> ثم تلا الآية.

﴿وَبِاللهِ لَذِكْرُ اللهِ﴾ والتوجّه إليه بالقلب، وتحميده وتسيحه والثناء عليه باللسان «أَكْبَرُ» وأفضل من سائر العبادات، فإنّه رُوحها، أو لكون ثواب<sup>٧</sup> ذكر الله لذاكره، أو من ذكر غير الله، فإن ذكر الله يوجب الدّخول في رحمته، وذكر غيره يوجب البعد عنها، أو من ذكر آبائكم، فإنكم إذا ذكرتموهم تُشَلُّونَ بذِكْرهم أفواهكم وقلوبكم، لعظمتهم في نظركم، ومن الواضح أن ذكر الله أعظم منه.

وقيل: إنّ المراد من الأكبر هو الكبير، لعدم الكبير لغيره حتى يكون هو أكبر منه<sup>٨</sup>. أو المراد أكبر من

١. تفسير روح البيان ٦: ٤٧٤. ٢. في النسخة: ويكلم.

٣. مجمع البيان ٨: ٤٤٧، جوامع الجامع: ٣٥٤، تفسير روح البيان ٦: ٤٧٤.

٤. تفسير روح البيان ٦: ٤٧٤. ٥. تفسير الرازي ٢٥: ٧٢.

٦. التوحيد: ٤/١٦٦، تفسير الصافي ٤: ١١٨. ٧. في النسخة: ثوابه. ٨. تفسير الرازي ٢٥: ٧٤.

أن تذكر فضائله وثوابه<sup>١</sup>.

وقيل: إن المراد من ذكر الله هو الصلاة، لاشتغالها على الذكر، وإتقانها عنها به للإشعار بأن فضلها على غيرها من العبادات لتضمنها ذكر الله<sup>٢</sup>.

وقيل: إن المراد ذكر الله للعبد أكبر من ذكره إياه، كما روي عن الباقر عليه السلام، قال: «ذكر الله لأهل الصلاة أكبر من ذكرهم إياه، ألا ترى أنه يقول: ﴿اذكروني اذكركم﴾»<sup>٣</sup>.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ فيجازيكم بأفضل الجزاء وأعظم الأجر.

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا  
أَمَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ [٤٦]

ثم إنه تعالى بعد ذم الشرك والاستدلال على التوحيد، أمر بمدارة أهل الكتاب في إرشادهم بقوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا﴾ ولا تخاصموا ﴿أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ من اليهود والنصارى بالحجة على صحة دين الاسلام وصدق النبي ﷺ ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الحجج، أو بالخصلة التي هي أحسن الخصال، كمقابلة الخشن باللين، والشرارة بالنصح، والعجلة بالتأني، حتى يتقربوا إلى الإيمان.

وقيل: يعني لا تجادلوهم بالسيف<sup>٤</sup> ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أنفسهم بالإصرار على معاندة الحق واللجاج في الباطل، فلا بأس أن تخاصنوهم في الكلام، وتغالطوهم في القول، وتعارضوهم بالسيف، فإن لين الكلام والمدارة لا ينفعهم شيئاً.

ثم علم سبحانه المؤمنين كيفية المدارة في الكلام معهم بقوله: ﴿وَقُولُوا﴾ أيها المؤمنون لأهل الكتاب: نحن ﴿أَمَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ من القرآن ﴿و﴾ الذي ﴿أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من التوراة والانجيل وغيرهما من الكتب، ولا نكر صحة شيء منها حتى تعاندونا ﴿وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ لا نخالفكم في اعتقاد الألوهية حتى تكفرونا، وإنما كان إيماننا بالقرآن وبالنبي ﷺ الذي جاءنا به لقيام الحجة عندنا بكونهما من قبل ربنا ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ومقادون، ولا تطع غيره من الأخبار والرهبان، ولا نتخذهم أرباباً.

وَكَذَلِكَ أُنزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ  
مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ [٤٧]

٢. تفسير أبي السعود ٧: ٤٢، تفسير روح البيان ٦: ٤٧٥.

٤. تفسير الرازي ٢٥: ٧٥.

١. مجمع البيان ٧: ٤٤٧.

٣. تفسير الفمي ٢: ١٥٠، تفسير الصافي ٤: ١١٨.

ثم استدلّ سبحانه على صدق القرآن بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الإنزال البديع لتلك الكتب السماوية ﴿أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿الْكِتَابَ﴾ العظيم والقرآن الكريم الموافق لسانر الكتب في المعارف والعلوم والأحكام ﴿فَالَّذِينَ آمَنَّاهُمْ﴾ الْكِتَابَ ﴿كعبده بن سلام وأضرابه، لعلهم بما فيه من البشارة بنزول القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ويصدقونه ﴿و﴾ بعض ﴿مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ المشركين من العرب ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أيضاً لفهمهم جهات الإعجاز فيه.

وقيل: إن المراد من الذين آتيناهم الكتاب الأنبياء، ومن قوله: ﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ﴾ سائر أهل الكتاب.<sup>١</sup>  
وقيل: إن المراد من الأول أهل الكتاب الذين آمنوا به قبل نزوله وقبل بعثة النبي ﷺ كقُس بن ساعدة، وبحيرا، ونسطورا، وورقة ونظارهم، لما شاهدوا البشارة بنزوله في الكتب السماوية، ومن الثاني الموجودون في عصر النبي ﷺ<sup>٢</sup> ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة ولا ينكرها ﴿إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ المصرون على الكفر والعناد.

وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَازَتْكَ الْمُبْتَطِّلُونَ \*  
بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُورٍ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا  
الظَّالِمُونَ [٤٨ و ٤٩]

ثم استدلّ سبحانه على كون القرآن معجزة باهرة بأمية النبي ﷺ بقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ يا محمد ﴿تَتْلُوا﴾ وتقرأ ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ شيئا ﴿مِنْ كِتَابٍ﴾ من الكتب المنزلة وغيرها حتى تطلع على ما فيه من المعارف والعلوم والتواريخ ﴿وَلَا تَخُطُّهُ﴾ ولا تكتبه ﴿بِيَمِينِكَ﴾ المعتاد أن يكتب الخط بها، وذكرها لرفع احتمال التجويز في الاسناد، ولو كنت قارئاً كاتباً ﴿إِذَا لَازَتْكَ﴾ إذا لاحت عليك كتابك ﴿الْمُبْتَطِّلُونَ﴾ والمسارعون في إفساد أمرك، أو القائلون بما لا حقيقة له، فإنهم كانوا يقولون: لعله تعلم مطالب القرآن والتقطها من كتب الأولين ودفاتر السابقين، مع أن الكلام أيضاً في غاية البطلان، لأنه من الواضح أنه لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله.  
وقيل: يعني لا ارتاب المبطلون من أهل الكتاب، وقالوا: إنا قرأنا في الكتب أن النبي الموعود أُمي لا يقرأ ولا يكتب، وهذا المدعي قارئ وكاتب.<sup>٣</sup>  
عن الرضا عليه السلام - في حديث -: «ومن آياته أنه كان يتيماً فقيراً راعياً أجيراً، لم يتعلم كتاباً، ولم

٢. تفسير روح البيان ٦: ٤٧٧.

١. تفسير الرازي ٢٥: ٧٦.

٣. تفسير روح البيان ٦: ٤٨٠.

يختلف إلى معلّم، ثم جاء بالقرآن الذي فيه قصص الأنبياء وأخبارهم حرفاً حرفاً، وأخبار من مضى ومن بقي إلى يوم القيامة<sup>١</sup>.

﴿بَلِّغْ الْقُرْآنَ هُوَ آيَاتُ بَيِّنَاتٍ﴾ ومعجزات محفوظات في القلوب التي ﴿فِي صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>٢</sup> ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ قيل: يعني من أهل الكتاب<sup>٣</sup>. وقيل: من علماء الأئمة<sup>٤</sup>.

عن الباقر عليه السلام: أنه تلاها فقال: «ما قال بين دفّتي المصحف» قيل: من هم؟ قال: عسى أن يكون غيرنا؟<sup>٥</sup>. وعنه عليه السلام: أنه تلا هذه الآية فأوماً بيده إلى صدره<sup>٦</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: قال: «هم الأئمة»<sup>٧</sup>. وقال: «نحن، وإيانا عني»<sup>٨</sup>.

قال بعض: إنّ من خصائص القرآن أنه معجزة باهرة دون سائر الكتب السماوية، وإنه يكون محفوظاً في الصدور، وغيره من الكتب لا تُقرأ إلا بالنظر فيها، فإذا أطبقوها لم يقدر أحد سوى الأنبياء أن يقرؤوا منه شيئاً<sup>٩</sup>، وإنه باقٍ إلى يوم القيامة محفوظاً من التغيير والتحريف ﴿وَمَا يَجْعَلُ بَيِّنَاتٍ﴾ مع ظهور دلالة صدقها، وكونها نازلةً من قبلنا ﴿إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ على أنفسهم بالخروج عن حدود العقل في اللجاج والفساد.

وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتُ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا آيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ  
\* أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً  
وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ \* قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ  
الْخَاسِرُونَ [٥٠-٥٢]

ثم إنه تعالى بعد إثبات صدق القرآن بكونه مثل سائر الكتب السماوية، وبشهادة أهل الكتاب بصدقه، وبكون الجاني به أمياً، مع اشتغاله على علوم وفيرة، حكى سبحانه بعض شبهات الكفار في صحة نبوة النبي صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿وَقَالُوا﴾: إنّ الأنبياء الذين جاءوا بالكتب السماوية كانت لهم معجزات، ولو فرض أن القرآن الذي جاء به محمد من قبل الله ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتُ﴾ ومعجزة ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ كما

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٦٧، تفسير الصافي ٤: ١١٩.

٢. مجمع البيان ٧: ٤٥٠.

٣. الكافي ١: ٣/١٦٧، تفسير الصافي ٤: ١٢٠.

٤. الكافي ١: ١/١٦٧، تفسير الصافي ٤: ١٢٠.

٥. بصائر الدرجات: ١٦/٢٢٧، تفسير الصافي ٤: ١٢٠.

٦. تفسير روح البيان ٦: ٤٨١.

أنزل على غيره من الأنبياء كالعصا، واليد البيضاء، وإحياء الموتى ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ﴾ والمعجزات ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وبقدرته وإرادته، لا عندي وبقدرتي وإرادتي ﴿وَأَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ورسولٌ مبلّغٌ عنه ببيان واضح، ولما لم تكن كتب الأنبياء السابقة مثبتة لنبوتهم<sup>١</sup> كان اللازم على مرسلهم أن ينزل عليهم الآيات المثبتة لنبوتهم بمقدار كافٍ لاثباتها، والعجب من هؤلاء الناس أنهم مع كون القرآن من أعظم المعجزات، يتوقعون منك معجزة أخرى!

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ الذي يعجز عن إتيان سورة منه جميع الخلق من الجن والإنس ﴿يَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بلغتهم في كل زمان ومكان ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الكتاب العظيم الشأن ﴿لَرَحْمَةً﴾ عظيمة ونعمة جليلة، أو معجزة واضحة ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ وعظة، أو دوام إرشاد ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به، ويصدقون أنه من الله و﴿قُلْ﴾ لهؤلاء: إن الله شهيد بصدق نبوتي في كتابه و﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ﴾ المطلع على دعوي ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً﴾ على صدقي، أو إن تكذبوني وتؤذوني كفى بالله بيني وبينكم بما صدر مني من دعوتكم إلى الحق وتكذيبكم إياي ﴿شَهِيداً﴾ ومطلعاً، وكيف يخفى عليه ما صدر مني ومنكم، وهو ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الأمور التي من جملتها شأني وشأنكم؟ وما ينكر علمه إلا من أنكر ألوهيته وربوبيته ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ وأنكروا ألوهيته وربوبيته ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الكافرون ﴿هُم﴾ بالخصوص ﴿الْخَاسِرُونَ﴾ والمتضررون أشد الخسران والصّر، لا أخسر منهم.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْثَةٌ  
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ \* يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ \*  
يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُقُوا مَا كُنتُمْ

تَعْمَلُونَ [٥٥-٥٥]

ومن شبهاتهم أن النبي ﷺ لما وعدهم بالعذاب على الكفر بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ولم يأتهم، فقالوا: يا محمد، لم لم يأتنا ما وعدتنا من العذاب؟ فأنت كذبت في وعدك! فحكي سبحانه ذلك بقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ ويتوقعون منك سرعه نزوله، ولم يعلموا أن حكمته تعالى اقتضت إمهالهم إلى القيامة وجعل له أجلاً ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ووقت معين بمقتضى الحكمة ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ المستأصل في الدنيا لاستحقاقهم إياه ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ﴾ ذلك العذاب ﴿بَغْثَةً﴾ وبلا



مقدمة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه، ولا يحتملونه، أو لا يشعرون بأن تأخيرهم لا ينافي صدق الوعد به، والعجب أنهم ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ الشديد الذي يفر منه العاقل، ﴿وَالْحَالُ إِنَّ جَهَنَّمَ﴾ عن قريب ﴿لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ في القيامة لإحاطة موجبات استحقاقها بهم في الدنيا من الكفر والطغيان، وأو بصورتها المعنوية، وإن لم تُدرِكها الحواس الظاهرية في هذا العالم. ثم عَيِّنَ الأجل أو وقت الاحاطة وكيفيتها بقوله: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ﴾ ويُسْثَرهم ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ بحيث لا يقدرون على دَفْعِهِ بأيديهم ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ ولا يقدرون على دَسِّهِ بأقدامهم ﴿وَيَقُولُ﴾ الله، أو الْمَلَكُ تنكيلاً وإهانة لهم ﴿ذُوقُوا﴾ وأطعموا طعم ﴿مَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والطغيان والعصيان، فإن هذا العذاب عين أعمالكم المجسمة في هذا العالم.

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ \* كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ \* وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ \* الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ \* وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [٥٦-٦٠]

ثم لما كان تحديد الكفار بالعذاب موجباً لشدة عداوتهم للمؤمنين، وتهيبهم على إيذائهم، أمرهم الله بالهجرة من مكة بقوله: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بي وبرسولي: لستم مضطرين في الإقامة بمكة ﴿إِنَّ أَرْضِي﴾ التي خلقتها ليست ضيقة ومنحصرة في أرض مكة، بل هي ﴿واسعة﴾ فخرجوا من مكة، وهاجروا إلى غيرها من البلاد التي لا يمنعكم الكفار فيها من القيام بوظائف دينكم ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ وحدي فيها، وإن كان كبر عليكم الإعراض عن وطنكم المألوف، فاعلموا أنكم مفارقونه لا محالة ولو بالموت والخروج من الدنيا، لوضح أنه ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ ومُدركة طعمه ﴿ثُمَّ﴾ أنتم بعد الموت ﴿إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ من الدنيا، فتسألون عن أداء ما حملتم من التكليف والعمل بما جُعل عليكم من الأحكام، وتجاوزون على ما صدر عنكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فليكن همكم في تحصيل الراحة في دار لا انقضاء لها، فإن لم يتيسر لكم في القرية منزل وماوى تطيب به نفوسكم وتستريحون فيه، فلا يغمكم، فإن الدنيا سريعة الانقضاء، والآخرة التي لا انقضاء لها سريعة اللحاق ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إذا وردوا فيها والله ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ ولنزلهم ﴿مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ وقصوراً عالية ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ وفي المنظر منها ﴿الْأَنْهَارُ﴾ الأربعة، يلتذون بالنظر إليها

حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ومقيمين ﴿فِيهَا﴾ أبداً ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ لله تلك القصور، كما أن الجحيم المحيط بالكافرين بنس الجرا، والعاملون هم ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أذى الكفار، ومخر الأوطان، وفرقه الأقارب والإخوان، وترك الديار والعقار، بل العمران، وتحمل المحن في رضا الملك الديان ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ﴾ اللطيف بهم ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ ويعتمدون في حفظهم من شر الأعداء، وانتظام أمور معاشهم ومعادهم، فإن الله حافظهم ورازقهم.

﴿وَكَايَ مَن ذَا بَءٍ﴾ وكم من حيوان من الوحوش والطيور من خصائصها أنها ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ ولا تقدر على رفعه من الأرض ونقله وإخاره ﴿اللَّهُ يَزُزُّهَا﴾ ويوصل إليها ما تعيش به وتحتاج إليه يوماً فيوماً حيث يوجهه ﴿وَهُوَ يَرْزُقُ﴾ يرزق ﴿إِيَّاكُمْ﴾ فهم مع ضعفهم وأنتم مع قوتكم سواء في كون رزقكم بيد الله ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقول لكم في أمر الرزق ﴿أَلَعَلِّمُ﴾ بضمانكم وما يخطر ببالكم من أنا لو خرجنا من ديارنا فمن أين نرتزق؟ وبمقدار حاجتكم، ومحل رزقكم.

روي عن ابن عمر أنه قال: خرجت يوماً مع الرسول ﷺ من المدينة حتى دخلنا في حائط أحد من الأنصار، فأخذ ﷺ يأكل من تحت النخيل تمراً، فقال لي: «ألا تأكل؟» قلت: لا أشتهي. قال: «لكني أشتيه»، وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر، ولكن أحب أن أشبع يوماً وأجوع يوماً، فكيف بك يا بن عمر لو بقيت مع قوم يخبئون رزق ستمهم لضعف يقينهم» قال: فوالله ما برحنا حتى نزلت<sup>١</sup>.

وَلَّيْنِ سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ  
اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ \* اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ  
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ \* وَلَّيْنِ سَأَلْتَهُم مِّنْ نَّزْلِ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ  
بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ [٦١-٦٣]

ثم لما زيف<sup>٢</sup> سبحانه مذهب الشرك، ودعا العباد إلى عبادته، أظهر التعجب من عبادة المشركين غيره مع قولهم بأنه تعالى خالق كل شيء. بقوله: ﴿وَلَّيْنِ سَأَلْتَهُم﴾ يا محمد ﴿مِّنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما فيهما بقدرته ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ وقهرهما تحت إرادته، ويسرهما على وفق حكمته ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ بالفطرة والوجدان: إن ﴿اللَّهُ﴾ خالقهما ومسخرهما، فاذا اعترفوا بذلك ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ وكيف عن عبادته ينصرفون؟

ثم إنه تعالى بعد بيان عظمته وقدرته بخلق العالم وتسخير النّيرين، بيّن ميته عليهم بالرزق بقوله: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ ويوسعهُ ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ توسعته ﴿مِنَ عِبَادِهِ﴾ المؤمنين والكافرين ﴿وَيَقْدِرُ﴾ لم يشاء ويضيّق ﴿لَهُ﴾ وهو يعلم مقدار الحاجات والأرزاق، وطرق إيصالها، ومصالح العباد، ونظام العالم بمقتضى ألوهيته ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عن علمه خافية.

في الحديث القدسي «أن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى، ولو افقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك»<sup>١</sup>.

ثم بيّن سبحانه اعترافهم بأن الرزق كلّ منه، باعترافهم بأنّه منزل الأمطار التي هي سبب الرزق بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ يا محمد ﴿مَن نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ الْمَطَّلَ، أَوْ مِنْ جِهَةِ الْعُلُوِّ مَاءً﴾ نافعاً ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ وأنبت منها الأشجار والزرع والحشائش من بعد يبسها؟ ﴿يَقُولُونَ﴾ بقولهم الفطرية: ﴿اللَّهُ﴾ منزل الماء ومحيي الأرض ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على نعمه، وهم لا يَحْمَدُونَهُ مع اعترافهم بنعمه، أو الحمد لله على ظهور الحجة ووضوح الحق بحيث لا يمكن لهم جحوده ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولا يدركون أن مقتضى اعترافهم حمده وعبادته لا عبادة غيره.

وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ \* فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَاُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ \* لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ [٦٤-٦٦]

ثم لما كان باعنتهم على عبادة الأصنام حب الدنيا وشهواتها، ذم سبحانه الدنيا بقوله: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ وشهواتها التي تحبونها<sup>٢</sup> وتشاقون إليها بحيث شغلتكم عن الله وعن الآخرة ﴿إِلَّا لَهْوٌ﴾ وعمل غير عقلاني ﴿وَلَعِبٌ﴾ وشغل لا فائدة فيه، وإعراض عن الله، وهذان بعيدان عن العاقل، لكونهما سريعي<sup>٣</sup> الانقضاء بالموت، وموجبين للبعد عن الله ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ والله ﴿لَهِیَ﴾ الجنة التي يكون فيها ﴿الْحَيَوَانُ﴾ الحقيقي والحياة الدائمة التي لا ينغصها الموت والفناء، بل جميع ما فيها ذو حياة لا زوال لها ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وذلك لما آثروا عليها الدنيا التي هي الموتان وأهلها أموات. ثم قرّر سبحانه كون باعنتهم على عبادة الأصنام حب الدنيا بأنهم لو انقطعوا عن الدنيا، وضمّغ رجاءهم في الحياة، نسوا آلهم وأخلصوا دينهم لله بقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ وتوسطوا البحر، وأشرفوا على الهلاك، نسوا آلهم و﴿دَعَاُ اللَّهِ﴾ لنجاتهم حال كونهم ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾

موحدين إياه ﴿فَلَمَّا﴾ استجاب دعاءهم و﴿نَجَّاهُمْ﴾ من البحر وأخرجهم منه سالمين<sup>١</sup> ﴿إِلَى الْبَرِّ﴾ وأمنوا من الفرق ﴿إِذَا هُمْ﴾ يعودون إلى مذهبهم الباطل، و﴿يُشْرِكُونَ﴾ به غيره ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ وكي يكونوا باشتراكهم كافرين ﴿بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ وأنعمنا عليهم من النجاة ﴿وَلِيَسْتَمْتَعُوا﴾ وكي يستمتعوا به لكونه سبب الفتهم وتوادمهم.

وقيل: إن اللّامين للأمر على سبيل التهديد، كما في ﴿اعملوا ما شئتم﴾<sup>٢</sup> ﴿فَسَوْفَ يَغْلَبُونَ﴾ وخامة عاقبة الشرك حين يرون العذاب<sup>٣</sup>.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ \* وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ \* وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ [٦٧-٦٩]

ثم نبههم على أنه كما تكون أمنيته من الفرق من الله، تكون أمنيته في بيوتهم منه أيضاً بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ولم يشاهدوا ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ بلدهم ﴿حَرَمًا﴾ ومحترماً ﴿آمِنًا﴾ وأمناً من القتل ﴿وَالنَّهْبَ﴾ يُتَخَطَّفُ النَّاسُ، ويؤخذون ﴿مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ قتلاً وسيياً، إذا كانت العرب حولهم في تغاور وتناهب ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ﴾ والأصنام الجامدة مع تلك النعم التي يشاهدونها وظهور الدلائل على الحق الذي لا مجال للامتراء فيه ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ هؤلاء الكفار ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ التي يجب على كل أحد شكرها، هم ﴿يَكْفُرُونَ﴾ بأسدها إلى غيره، أو بالاشتراك به وصرفها في معصيته.

ثم إنه تعالى بعد إثبات التوحيد بالأدلة المتقنة والبراهين الواضحة، وإثبات كون القرآن كلامه نازلاً من قبله بالدلائل القاطعة وتهديد منكريهما بعذاب الآخرة الذي هو أشد العذاب، نبه سبحانه على أن من لا يؤمن بهما مع ذلك هو أظلم الناس على نفسه بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ وأضرَّ على نفسه ﴿مِمَّنِ افْتَرَى﴾ وبهت ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ الأحاد القرد بادعاء الشريك له في الألوهية والعبادة ﴿كَذِبًا﴾ مع شهادة جميع أجزاء العالم وأجزاء وجوده على توحيده، وكون وجود الشريك من المحالات ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾ وأنكر نبوة محمد ﷺ أو صدق كتابه أو صحة شريعته ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾ وحين استماعه من غير توقف وتدبر عناداً ولجاجاً، أو المراد أنهم كذبوا بالله في إخباره بأن محمداً رسولي، وكتابه كلامي، وشريعته ديني المرضي عندي مع وضوح صدق كل من الأمور المذكورة.

ثم بين كمال استحقاقهم للعذاب بقوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة ﴿مَثْوًى﴾ ومقام دائم ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ المكذبين بالله وبرسوله وكتابه؟! ولا يستوجبون الخلود فيها وقد فعلوا ما فعلوا من الافتراء والتكذيب الشنيع بالحق الصريح.

وقيل: إن الاستفهام الانكاري لاستبعاد اجترانهم على مثل هذا الافتراء والتكذيب<sup>١</sup>، والمعنى ألم يعلموا أن في جهنم مثوى لهم حتى اجترأوا هذه الجرأة.

ثم إنه تعالى بعد بيان كون الكافرين الجاحدين لتوحيده ورسالة رسوله أظلم الناس، وتوعيدهم بالخلود في النار، وعد المؤمنين المجاهدين في طاعته بألطافه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ وبذلوا وسعهم في النظر في أدلة توحيدنا والتفكر فيها، وجدوا في طاعتنا، واجتهدوا في جهاد أعدائنا بألستهم وأيديهم وأموالهم، والله ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾ بالإلهام والتوفيق والتأييد ﴿سُبُلَنَا﴾ وطرق القرب منا، ولنوصلهم إلى كل خير وسعادة من الكمالات النفسانية وأعلى مراتب الانسانية في الدنيا، ومن الدرجات العالية في الجنة والنعم الدائمة في الآخرة.

وعن ابن عباس: يريد المهاجرين والأنصار، أي والذين جاهدوا المشركين وقتلواهم في نصرة ديننا لنهديهم سبل الشهادة والمغفرة والرضوان<sup>٢</sup>.

وقيل: يعني لَنُثَبِّتَهُمْ<sup>٣</sup> على الهداية والايمان، كما عن القمي.

ثم وعدهم سبحانه بأعلى منه بقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ الْقَادِرُ الْعَظِيمُ بِالْعَوْنِ وَالنَّصْرِ وَالْإِنْسِ وَاللَّهِ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ العاملين برضاه في الدنيا والآخرة.

عن الباقر عليه السلام: «هذه الآية لآل محمد ولأشيعاهم»<sup>٤</sup>.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «ألا وإني مخصوص في القرآن بأسماء احذروا أن تغلبوا عليها فتضلوا في دينكم، أنا المحسن يقول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾»<sup>٥</sup>.

عن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة العنكبوت والروم في شهر رمضان ليلة ثلاث وعشرين، فهو والله من أهل الجنة، ولا استثنى فيه أبداً، ولا أخاف أن يكتب الله عليّ في يميني إثماً، وإن لهاتين السورتين من الله لمكاناً»<sup>٦</sup>.

الحمد لله على التوفيق لختتم تفسيرها.

١. تفسير أبي السعود ٧: ٤٨، تفسير روح البيان ٦: ٩٥.

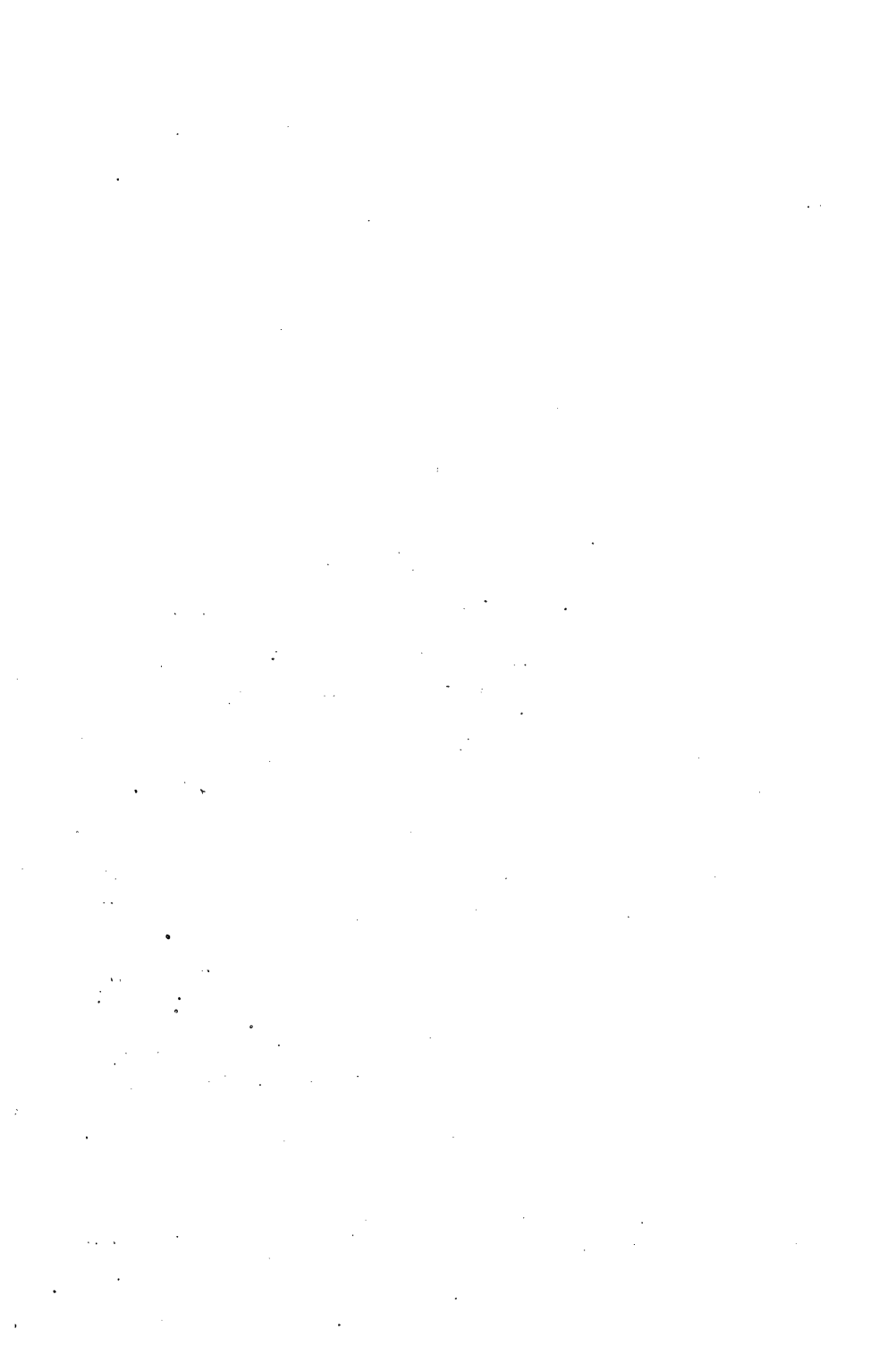
٢. تفسير روح البيان ٦: ٩٧.

٣. تفسير القمي ٢: ١٥١، تفسير الصافي ٤: ١٢٣.

٤. تفسير القمي ٢: ١٥١، تفسير الصافي ٤: ١٢٣.

٥. معاني الأخبار: ٩/٥٩، تفسير الصافي ٤: ١٢٣.

٦. نواب الاعمال: ١٠٩، تفسير الصافي ٤: ١٢٤.



## في تفسير سورة الروم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم \* غَلَبَتِ الرُّومُ \* فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّئَاتُومَن \* فِي  
بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ \* بِنَصْرِ اللَّهِ  
يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ \* وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ  
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [١-٦]

ثم لما أمر سبحانه في السورة السابقة بمداواة أهل الكتاب، وأخبر بإيمان كثير منهم بالقرآن،  
أبغضهم المشركون، فلما قاتل أهل الروم - وكانوا أهل الكتاب - الفرس المجوس، وغلبوا عليهم،  
فرح المشركون بذلك، فأنزل الله سورة الروم، ولذا نظمت بعد العنكبوت فابتدأت بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ  
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ولما كان في أولها الإخبار بالغيب، وكان معجزة باهرة، افتتح السورة بالحروف المقطعة من قوله:  
﴿الْم﴾ جلباً لتوجه القلوب إلى استماعها، ثم بشر النبي ﷺ والمؤمنين بقوله: ﴿غَلَبَتِ الرُّومُ﴾  
وانكسروا من جيش الفرس ﴿فِي أَذْنَى الْأَرْضِ﴾ وأقربها من ملك الروم، وهي جزيرة كانت بين  
دجلة والفرات، أو أقرب أرض الروم من الحجاز، وهي أذرعات وبصرى ﴿وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ﴾  
وانكسارهم من الفرس غاية ضعفهم ﴿سَيِّئَاتُومَن﴾ على الفرس ويكسروهم ﴿فِي﴾ مدة ﴿بِضْعِ  
سِنِينَ﴾ وما بين ثلاثة وتسع أعوام، واعلموا أنه ليس هذه الغلبة بقدرتهم بل ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ﴾ والقضاء في  
كونهم غالبين أو مغلوبين ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وفي زمان لم يكن لأحدهما الغلبة، أو قبل بضْعِ سنين ﴿وَمِنْ  
بَعْدُ﴾ وفي زمان حصل لأحدهما الغلبة على الآخر، أو بعد بضْعِ سنين ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ وحين حصول  
غلبة الروم على الفرس ﴿يَفْرَحُ﴾ ويسر ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ بحصول الغلبة لأهل الكتاب ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ﴾  
وبعونه إياهم.

قيل: بلغ خبر الغلبة يوم الحديبية<sup>١</sup>.

وقيل: أخبر جبرئيل النبي ﷺ بها، وكان يوم الغلبة يوم بدر<sup>٢</sup>. وعليه يمكن أن يكون المراد بفرح المؤمنين بنصر الله فرحهم بغلبتهم على المشركين في بدر.

وقيل: يعني يفرح المؤمنون بقتل الكفار بعضهم بعضاً، لما فيه من تقليل عددهم وكسر شوكتهم<sup>٣</sup>. فإن الله تعالى ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ نصره من ضعيف أو قوي أو أهل كتاب أو مؤمن أو غيرهم ﴿وَهُوَ الْقَويُّ﴾ الغالب على كل شيء لا يعجزه شيء، وهو ﴿الَرْحِيمُ﴾ المبالغ في العطفة على من يشاء نصره، واعلموا أن غلبة الروم على الفرس يكون ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ الحتمي الانجاز، لأنه ﴿لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ لمانافته لأكوهيته ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ وهم المشركون ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ وعده ووجوب إنجازه.

ثُمَّ قَالَ أَنُ پرويز سلطان الفرس صَمَّ على أن يقاتل هِرَقل قيصر الروم، فأرسل إلى الروم عسكرياً عظيماً، وأمر عليهم شهربار وفرخان، وكانا رجلين شجاعين، فاطَّلَعَ هِرَقل على توجُّه عسكر الفرس إليه، فأرسل إليهم جيشاً، وأمر عليهم رجلاً يقال له خنيس<sup>٤</sup>، فتلاقي العسكران بأذرعات وبصرى، وهي أدنى الشام إلى أرض العرب والعجم، فغلب الفرس على الروم، وأخذوا بعض بلادهم، وخزبوا بعضها، فبلغ الخبر مكة، ففرح المشركون، وسَمِعُوا المسلمين، وقالوا: أنتم والنصارى من أهل الكتاب، ونحن وفارس أميون، لأن فارس كانوا مجوساً، وقد ظهر إخواننا عليهم، وهم إخوانكم، فنرجو أن نظهر عليكم. فسَقَّ ذلك على المسلمين واغتموا، فأنزل الله الآيات، وأخبر أنه لا يكون الأمر كما زعموا، فقال أبو بكر للمشركين: لَا يَقْرَنَ اللَّهُ أَغْنِيَكُمْ، والله ليظهر الروم على فارس في بضع سنين. فقال أبي بن خلف: كذبت يا أبا الفضل<sup>٥</sup>. قال أبو بكر: بل أنت كذبت يا عدو الله. قال أبي: اجعل بيننا أجلاً أنا حيك<sup>٦</sup> عليه، فناحبه على عشر نوق<sup>٧</sup> شابة من كل واحدٍ منهما، وجعلنا الأجل ثلاث سنين، فأخبر أبو بكر رسول الله ﷺ، فقال ﷺ له: «أخطأت، فإن البضع ما بين الثلاث إلى التسع» فزايدة في الخطر، ومآذ في الأجل، فجعلاهما مائة ناقة إلى تسع سنين، فلما خشي أبي أن يخرج أبو بكر مهاجراً إلى المدينة أتاها فلزمه، فكفل له عبدالرحمن بن أبي بكر، فلما أراد أبي أن يخرج إلى أحد، أتاها محمد بن أبي بكر ولزمه، فأعطاه كفيلاً، ثُمَّ خرج إلى أحد، ثُمَّ مات أبي من جرح

١. تفسير أبي السعود ٧: ٤٩، تفسير روح البيان ٧: ٥.

٢. تفسير روح البيان ٧: ٦ و٧.

٣. في النسخة: الفضل.

٤. ناخبة: راهنه وخاطره.

٥. في النسخة وتفسير روح البيان: عشرة ناقة.

٦. تفسير روح البيان ٧: ٥.

٧. في تفسير روح البيان: خنس.



برمح رسول الله ﷺ بعد رجوعه من أحد.

ثم إن پرويز غضب على شهریار وأخيه فرخان لسعاية السعاة، فأراد قتل كل منهما بيد الآخر، فلما وقفنا على الحال سالاً من هرقل أن يلقياه في وقت الخلوة، فأذن لهما، فلما دخلا عليه قبلاً دين النصرانية وعهدا إليه أن يُطيعاه ولا يُخالفاه، فجهز جيشاً كثيفاً، وأمرهما عليه، وأرسلهما إلى فارس، فذهبا وغلبا على جند پرويز، وأخذوا بلاده حتى وصلوا إلى المدائن، وبنوا بلدة رومية هناك<sup>١</sup>.

وقيل: هرب پرويز، وملكوها ملكه، فلما وصل خبر فتح الروم بلاد الفرس إلى العرب، أخذ أبوبكر مائة ناقة شابة من ورثة أبي، فجاء بها إلى رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «تصدق بها» فتصدق أبوبكر بها<sup>٢</sup>. قيل: إن هرقل أول من ضرب الدينار، وأحدث البيعة<sup>٣</sup>.

روي أن النبي ﷺ كتب إلى هرقل ملك الروم كتاباً، ودعاه إلى الاسلام، فلما وصل إليه كتاب النبي ﷺ قرأه ووضع على عينيه ورأسه، وختمه بخاتمه، ثم أوثقه على صدره، ثم كتب جواب كتابه: إنا نشهد أنك نبي، ولكننا نستطيع أن نترك الدين القديم الذي اصطفاه الله لعيسى عليه السلام. فعجب النبي ﷺ، فقال: «لقد ثبت ملكهم إلى يوم القيامة».

وكتب إلى كسرى ملك فارس - وهو خسرو پرويز - يدعوهُ إلى الاسلام، فلما قرأه مزقه، وأراد قتل الرسول ﷺ فرجع الرسول إلى النبي ﷺ وأخبره، فدعا عليه عليه السلام أن يُمزق كل مُمزق، فمزق الله ملكهم، فلا ملك لهم أبداً، كما قال عليه السلام: «نطحه أو نطحتان، ثم لا فارس بعدها»<sup>٤</sup>.

وعن الباقر عليه السلام أنه شغل عن هذه الآية فقال: «إن لها تأويلاً لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم من آل محمد، إن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة وأظهر الاسلام، كتب إلى ملك الروم كتاباً، وبعث به مع رسول يدعوهُ إلى الاسلام، وكتب إلى ملك فارس كتاباً يدعوهُ إلى الاسلام، وبعثه إليه مع رسوله، فأما ملك الروم فعظم كتاب رسول الله ﷺ وأكرم رسوله، وأما ملك فارس فإنه استخف بكتاب رسول الله ﷺ ومزقه، واستخف برسوله، وكان ملك فارس يومئذ يقاتل ملك الروم، وكان المسلمون يهونون أن يغلب ملك الروم ملك الفارس، وكانوا الناحيته أرجا منهم لملك فارس، فلما غلب ملك فارس ملك الروم كره ذلك المسلمون واغتموا به، فأنزل الله عز وجل بذلك كتاباً: ﴿أَلَمْ يَغْلِبَ أَلْرُّومُ﴾ في أدنى الأرض، يعني غلبتها فارس في أدنى الأرض، وهي الشامات وما حولها ﴿وَهُمْ﴾ يعني فارس ﴿مَنْ بَغَدَ عَلَيْهِمْ﴾ الروم ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ يعني يغلبهم المسلمون ﴿فِي بَضْعِ

١. تفسير روح البيان ٧: ٥.

٢. تفسير روح البيان ٧: ٥.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٤.

٤. تفسير روح البيان ٧: ٤.

سِنِينَ **لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ \* بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ** .

قال: فلما غزا المسلمون فارس وافتتحوها فراح المؤمنون بنصر الله.

قيل: أليس الله يقول: ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ وقد مضى للمؤمنين سنون كثيرة مع رسول الله ﷺ وفي إمامة أبي بكر، وإنما غلبت المؤمنون فارس في إمامة عمر؟

فقال: «ألم أقل لك إن لهذا تأويلاً وتفسيراً، والقرآن ناسخ ومنسوخ، أما تسمع لقول الله عز وجل: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ يعني إليه المشيئة في القول أن يؤخر ما قدّم ويقدم ما أخر في القول إلى يوم تحتم القضاء بنزول النصر فيه على المؤمنين، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ \* بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ أي يوم يحتم القضاء [بالنصر]»<sup>١</sup>.

أقول: هذه الرواية توافق قراءة «سَيُفْلِتُونَ» بالبناء للمفعول.

يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ \* أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ [٧ و ٨]

ثم ذمهم سبحانه بقصر علمهم بشهوات الدنيا بقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وزينتها وشهواتها، ولا يعلمون باطنها الذي هو المضار والمتاعب ﴿وَهُمْ عَنِ﴾ عالم ﴿الْآخِرَةِ﴾ ودار الجزاء ﴿هُمْ غَافِلُونَ﴾ لا تتوجه قلوبهم إليها.

عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فقال: «منه الزجر والنجوم»<sup>٢</sup>.

ثم لامهم سبحانه على ترك التفكير في آيات التوحيد والبعث بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ ولم يتأملوا في قلوبهم حتى يعلموا أنه يجب على الله حشر الخلق لمجازاتهم على أعمالهم بمقتضى الحكمة البالغة، لأنه ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات بغرض من الأغراض ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ والحكمة البالغة والمصلحة التامة، وعمدتها هو<sup>٣</sup> استدلالهم بها على وجوده وكمال صفاته، وارتقائهم بالنظر فيها من حضيض البشرية إلى أعلى درجة الانسانية، واستحقاقهم لفيوضاته الأبدية، ولا يكون ذلك إلا بانتقالهم إلى دار الآخرة الأبدية، وإلا كان خلقها عبثاً ولعباً.

١. الكافي ٨: ٣٩٧/٢٦٩، تفسير الصافي ٤: ١٢٦. ٢. مجمع البيان ٨: ٤٦١، تفسير الصافي ٤: ١٢٧.

٣. في النسخة: وهو.

وجعل بقاء الموجودات في العالم متلبساً بوقت معين ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مقدّر لا بد من أن ينتهي إليه، وهو قيام الساعة ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ لأعراضهم عن التفكير ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ والحضور في محكمة عدله في الآخرة والله ﴿لَكَافِرُونَ﴾ وبالحشر لجاحدون.

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ \* ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءِ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ [١٠ و ٩]

ثم هددهم سبحانه بالعذاب الذي نزل على الأمم الماضية بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ ولم يسافروا ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ بنظر الاعتبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ الأمم ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كعاد وثمرود، وإلى ما صار مآل كفرهم وإنكارهم الحشر، فإنهم أهلكوا بأنواع العذاب، مع أنهم كانوا أكثر من كفار مكة تمتعاً بالدنيا و﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وأعظم منهم جسماً ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ وقلبوها للزراعة وغرس الأشجار، واستنباط المياه، واستخراج المعادن ﴿وَعَمَرُوهَا﴾ بفنون العمارات من الزراعة والغرس والبناء ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ لأن أهل مكة أهل وادٍ غير زرع، ولقد أتم الله عليهم الحجة بأن أعطاهم العقل ﴿وَجَاءَتْهُمْ﴾ من قبل الله ﴿رُسُلُهُمْ﴾ لتبليغ الحق إليهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات الباهرات، وفكذبوه فأهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ﴾ بإنزال العذاب عليهم وإهلاكهم ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ ويُعَذِّبَهُمْ بلا حجة عليهم ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بكفرهم وطغيانهم الموجبين لاستحقاقهم العذاب ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ بعد خروجهم من الدنيا ﴿عَاقِبَةُ﴾ أمر ﴿الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾ واستمروا على إتيان المنكرات، وأصرّوا على الكفر ومعارضة الأنبياء العقوبة ﴿السُّوءِ﴾ في الآخرة - كما أن للذين أحسنوا المثوبة الحسنى - لأجل ﴿أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ودلائل توحيده ومعجزات أنبيائه ﴿وَكَانُوا بِهَا﴾ في الدنيا ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ دائماً.

اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ \* وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ \* وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفْعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ \* وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَخُونَ \* فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ \* وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ

## فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ [١٦-١١]

ثم استدل سبحانه على المعاد بقدرته على الخلق الأول بقوله: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ ويوجد أولاً في الدنيا ﴿ثُمَّ﴾ بعد إمامته ﴿يُعِيدُهُ﴾ ويوجد ثانياً كما بدأه ﴿ثُمَّ﴾ بعد الخروج من القبور ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وفي محكمة عدله تحضرون، فيجازيكم على حسب أعمالكم.

ثم عين سبحانه وقت الرجوع إليه بقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ وتحضر القيامة ﴿يُنْبِلُسُ﴾ ويسكن ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ متحيرين آيسين من الاهتداء إلى الحجة، أو من شفاعة الأصنام ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ﴾ وآلهتهم ﴿شَفَعَاءُ﴾ عند الله حتى يدفعوا عنهم العذاب ﴿وَوَ﴾ لذا ﴿كَانُوا﴾ في ذلك اليوم ﴿بِشُرَكَائِهِمْ﴾ وأصنامهم ﴿كَافِرِينَ﴾ ولألوهيتها وشفاعتها منكرين.

ثم كرر ذكر قيام الساعة ازيداً للارعاب بقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ التي يجازى فيها الناس ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ فرقتين: فرقة منهم المؤمنون، وفرقة منهم الكافرون ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ﴾ متمكنون ﴿فِي رَوْضَةٍ﴾ عظيمة وجنة واسعة ﴿يُحْبَبُونَ﴾ ويسرون سروراً تهللت به وجوههم، أو يكرمون كما عن ابن عباس<sup>١</sup>، أو يتمتعون كما عن قتادة، أو يتوجون كما عن آخر<sup>٢</sup>. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ والبعث بعد الموت ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الكافرون المكذبون ﴿فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ وفي النار مدخلون لا يغيبون عنها أبداً.

فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ \* وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ \* يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ  
مِنَ الْحَيِّ وَيُخَيِّبُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ [١٧-١٩]

ثم إنه تعالى بعد بيان صيرورة الناس في القيامة فرقتين، أمر الناس بتسبيحه وتنزيهه من الظلم والنقص، وبحمده على كل حال بقوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ ونزه في زمان ظهور قدرته وتجدد نعمته وهو ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ وتدخلون في الليل ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ وتدخلون في النهار ﴿وَلَهُ﴾ خاصة ﴿الْحَمْدُ﴾ على نعمه كلها، والثناء الجميل على منته من الموجودات الملكوتية، ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ وعالم الملكوت، ومن الموجودات الملكية في السفلى ﴿وَالْأَرْضِ﴾ فاحمدوه أنتم ﴿وَوَ﴾ سبحانه ﴿عَشِيًّا﴾ وآخر النهار، وإنما ذكر الحمد في البين للتنبيه على استحباب الجمع بين التسبيح والتحميد

١. تفسير أبي السعود ٥٣: ٧، تفسير روح البيان ١٣: ٧.

٢. تفسير أبي السعود ٥٤: ٧، تفسير روح البيان ١٣: ٧.

﴿وَسَبِّحْهُ﴾ «جَيْنَ تَظْهَرُونَ» وَتَصَلُّونَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ.

وقيل: إنَّ عِشَاءً وَحِينَ تَظْهَرُونَ وَتَقَاتَ لِلتَّحْمِيدِ؛ لِأَنَّهُمَا وَقْتُ ظَهْوَرِ نِعْمَةِ اللَّهِ، وَانْتِظَامِ أَمْرِ الْمَعَاشِ، وَأَخْذِ نَتَائِجِ الْأَعْمَالِ، وَالْوَقَاتِ الْأَوَّلَانِ وَقْتُ الْحَاجَةِ إِلَى النَّوْمِ وَالِاتِّبَاعِ مِنْهُ، وَالْحَاجَةُ إِلَى تَحْصِيلِ الْمَعَاشِ وَالْإِقْدَامِ فِي رَفْعِ الْحَوَائِجِ، فَيُنَاسِبَانِ لَتَنْزِيهِ اللَّهِ عَنِ النَّقَائِصِ الْإِمْكَانِيَّةِ.

وعن ابن عباس: أنَّ الْمَرَادَ مِنَ التَّسْبِيحِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ الْيَوْمِيَّةُ، فَالْمَرَادُ مِنَ التَّسْبِيحِ فِي الْمَسَاءِ صَلَاةُ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ، وَفِي الصُّبْحِ صَلَاةُ الْفَجْرِ، وَفِي الْعِشَاءِ صَلَاةُ الْعَصْرِ، وَفِي الظُّهْرِ صَلَاةُ الظُّهْرِ<sup>١</sup>.

وَكَمَا أَنَّهُ تَعَالَى يُخْرِجُ الْإِنْسَانَ فِي الْمَسَاءِ مِنَ الْبَقْعَةِ إِلَى النَّوْمِ، وَفِي الصُّبْحِ يُخْرِجُهُ مِنَ النَّوْمِ إِلَى الْبَقْعَةِ ﴿يُخْرِجُ﴾ الْإِنْسَانَ وَالْحَيَوَانَ ﴿الْحَيَّ مِنْ﴾ التُّرَابِ وَالطُّفَةِ وَالْبَيْضِ ﴿الْمَيِّتَ﴾ وَقِيلَ: يَعْنِي يُخْرِجُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ، وَالْعَالَمَ مِنَ الْجَاهِلِ<sup>٢</sup> ﴿وَيُخْرِجُ﴾ التُّرَابَ وَالطُّفَةَ وَالْبَيْضَ ﴿الْمَيِّتَ﴾ أَوْ الْكَافِرَ وَالْجَاهِلَ ﴿مِنْ﴾ الْإِنْسَانَ وَالْحَيَوَانَ ﴿الْحَيَّ﴾ أَوْ مِنَ الْمُؤْمِنِ وَالْعَالَمِ ﴿وَيُخْرِجُ﴾ بِالْأَمْطَارِ ﴿الْأَرْضَ﴾ وَيُنَبِّتُ فِيهَا أَنْوَاعَ النَّبَاتَاتِ ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وَيُسَيِّسُهَا وَعَدَمَ النَّبَاتِ فِيهَا ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الْإِحْيَاءُ وَالْإِخْرَاجُ تَحْيَوْنَ بِمَطَرِ شَبِّهِ الْمَنِيِّ وَالطُّفَةِ وَ﴿تُخْرِجُونَ﴾ مِنَ الْقُبُورِ أَحْيَاءً.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّ خَلْقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ تَنْشِيرُونَ \* وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَكِرُونَ \* وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاجْتَنَابَ السَّمَكِ وَأَلْوَانَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ \* وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ \* وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ \* وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ [٢٥-٢٠]

ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ الدَّلِيلَ الْمُتَقَنَّ أَنَّهُ مُخْرِجُ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ وَدَلَالَتِهِ﴾ «أَنَّ خَلْقَكُمْ» يَا بَنِي آدَمَ «مِنْ تُرَابٍ» بَعِيدٍ مِنَ الْحَيَاةِ غَايَتَهُ<sup>٣</sup> يَخْلُقُ أَبْيَكُمْ آدَمَ مِنْهُ «ثُمَّ

٢. تفسير روح البيان ٧: ١٧.

١. تفسير أبي السعود ٧: ٥٥، تفسير روح البيان ٧: ١٧.

٣. أي غاية البعد.

إِذَا أَنْتُمْ» بارادته وقدرته في الحال «بَشَرٌ» سوي وإنسان عاقل قوي «تَنْشِيزُونَ» وتنفزون في وجه الأرض لتحصيل معاشكم وحوانجكم، كيف يتصور في هذا الخالق الذي خلقكم من تراب أن يكون عاجزاً من خلقكم ثانياً من تراب «وَمِنْ آيَاتِهِ» ودلائل قدرته «أَنْ خَلَقَ» الله «لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ» ومن جنسكم، أو من عضو منكم «أَزْوَاجاً» ونسواناً «لَتَسْكُنُوا» وتكملوا «إِلَيْهَا» وتساكنوا بها «وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ» وفي قلوب كل منكم بالنسبة إلى الآخر «مَوَدَّةً» ومحبة «وَرَحْمَةً» وعُطوفة وشفقة. قيل: إن المودة كناية عن الجماع، والرحمة كناية عن الولد<sup>١</sup>.

«إِنَّ فِي ذَلِكَ» المذكور من خلقكم من تراب، وخلق أزواجكم منكم، وإلقاء المودة والرحمة بينكم «آيَاتٍ» وحُجج ظاهرة «لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» أدنى التفكير في أصل وجودها، والجماع الكامنة فيها.

ثم إنه تعالى بعد الاستدلال بالآيات الأنفسية استدلاً بالآيات الآفاقية بقوله: «وَمِنْ» جملة «آيَاتِهِ» والأدلة الدالة على قدرته على الإعادة «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» مع عظمهما وكثرة أجزائهما بلا مادة ومدة، لوضوح أنه أقدر على إعادة ما كان حياً وخلقه ثانياً من المادة.

ثم عاد سبحانه إلى ذكر بعض الآيات الأنفسية بقوله: «وَاخْتَلَفَ أَلْسِنَتِكُمْ» ولغاتكم من العربية والفارسية والتركية والرومية والهندية «وَوَ» اختلاف «أَلْوَانِكُمْ» بالبياض والسواد والحمرة والأدمة والصفرة على اختلاف مراتبها بحيث قلما يتفق توافق شخصين في اللون مع كثرة عددهم.

عن ابن عباس: كان آدم مؤلفاً من أنواع تراب الأرض، ولذلك كان بنوه مختلفين منهم الأحمر والأسود والأبيض كل ظهر على لون تراه<sup>٢</sup>.

«إِنَّ فِي ذَلِكَ» المذكور من الخلق والاختلاف «آيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ» بالحكم ومصالح الأشياء دون الجَهِال المنغمسين في الشهوات.

عن الصادق عليه السلام قال: «الامام إذا أبصر الرجل عَرَفَهُ وَعَرَفَ لونه، وإذا سَمِعَ كلامه من خلف حائط عَرَفَهُ وَعَرَفَ ما هو، إن الله يقول: «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» الآية. قال: وهم العلماء فليس يسمع شيئاً من الأمر ينطق به إلا عَرَفَهُ نَاجٍ أو هَالِك، فلذا يُجِيبُهُم بالذي يُجِيبُهُمْ»<sup>٣</sup>.

«وَمِنْ آيَاتِهِ» وأدلة قدرته «مَتَّاعَكُمْ بِاللَّيْلِ» على حسب العادة «وَالنَّهَارِ» على حسب الحاجة كالقيلولة لاستراحة أبدانكم «وَابْتِغَاؤَكُمْ» وطلبكم الرزق فيهما بالتجارة وغيرها الحاصل لكم «مِنْ

١. تفسير الرازي ٢٥: ١١٠، تفسير أبي السعود ٧: ٥٦، تفسير روح البيان ٧: ١٩.

٢. تفسير روح البيان ٧: ٢٠.

٣. بصائر الدرجات: ١/٣٨١، الكافي ١: ٣/٣٦٤، تفسير الصافي ٤: ١٢٩.

فَضْلِهِ» وإحسانه، ليدوم لكم البقاء إلى آجالكم المُقَدَّرَة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من الأمرين ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الآيات سَماع القبول، ويتدبرون فيها.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أنه تعالى ﴿يُرِيكُمْ﴾ ويظهر لكم ﴿الْبَرْقَ﴾ والضياء الحاصل من السحاب ليوجد في قلوبكم ﴿خَوْفًا﴾ من نزول الصاعقة المَهْلِكَة ﴿وَوَطْئًا﴾ ورجاءً بنزول المطر النافع ﴿وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ نافعاً بطريق الأمطار ﴿فَيُخْضِى بِهِ الْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ويُسبِها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من البرق والمطر وإحياء الأرض ﴿لآيَاتٍ﴾ نافعة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ عن الله حُجْجَه، ويفهمون أدلة قدرته وحكمته.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ﴾ مع ثقلها ﴿وَأَنْ﴾ ارتفاعها في مكانها بغير عَمَدٍ وتستقر ﴿الْأَرْضُ﴾ فوق الماء ولا تُرْسِب فيه ﴿بِأَمْرِهِ﴾ تعالى وإرادته، وتستمران على ما هما عليه من الهيئة إلى الأجل المُسَمَّى بمشيئته ﴿ثُمَّ﴾ بعد وضوح كمال قدرته على كل شيء اعلموا أنه تعالى ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ بعد انقضاء أجل الدنيا ﴿دَعْوَةً﴾ واحدة، وقال لكم: أيها الموتى اخرجوا ﴿مِنْ﴾ القبور التي تكون لكم في ﴿الْأَرْضِ﴾ بالنفخة الثانية في الصور ﴿إِذَا أَنْتُمْ﴾ تحيون ثانياً وبلا رَيْث ﴿تَخْرُجُونَ﴾ منها سراعاً، وتُحْشَرُونَ إلى العَرْصَةِ حُشْعاً.

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ \* وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ

يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ [٢٦ و ٢٧]

ثم لما ذكر سبحانه مطاعيته للأموات نَبَه على مطاعيته لجميع أهل الملك والملكوت بقوله: ﴿وَلَهُ﴾ بالملكية الإشرافية ﴿مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الملائكة والأرواح القدسية ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ ومن الثقلين إيجاباً وإعداداً وتصرفاً وتدبيراً، ولذا ﴿كُلُّ﴾ منهم ﴿لَهُ﴾ تعالى ﴿قَانِتُونَ﴾ ومطيعون طوعاً أو كرهاً، لا يَقْدِرُونَ على التخلف عن أمره وإرادته.

ثم إنه تعالى لما ذكر قبل الاستدلال دعوتي التوحيد والمعاد بقوله: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ذكرهما بعد الأدلة المذكورة بعنوان النتيجة بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ في الدنيا، ويُشْنِهُم أولاً رجالاً ونساءً، ثم يُمَيِّتُهُم عند انقضاء آجالهم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ويَخْلُقُهُ ثانياً للحساب والجزاء في الآخرة، ولا استبعاد في عودهم ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ﴾ وأسهل وأيسر ﴿عَلَيْهِ﴾ من بدئهم في نظركم

وبالإضافة إليكم، وإن كانا بالإضافة إليه تعالى سيان؛ لأنه إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون.  
ثم بين كمال صفاته بقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ والصفات العليا التي ليست لشيء من المملكات  
﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقيل: إن الصفة العليا هو لا إله إلا الله، أي الوجدانية.<sup>١</sup>  
وقيل: يعني هذا مثل مضروب لكم، وله المثل الأعلى من هذا المثل ومن كل مثل يضرب في  
السموات والأرض.<sup>٢</sup>

وقيل: إن المراد أن ذاته ليس كمثله شيء، وله المثل الأعلى<sup>٣</sup> ﴿وَهُوَ أَلْعَزِيزُ﴾ والغالب على مراده  
من البدء والإعادة ﴿الْحَكِيمُ﴾ العالم بصلاح الأمور الفاعل على وفق الحكمة والصواب.

صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا  
رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ  
لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [٢٨]

ثم إنه تعالى بعد إقامة الحجج على التوحيد والمعاد وتمثيل الإعادة بإعادة الناس فعلهم الأول،  
ضرب مثلاً لتوضيح شناعة القول بالشرك بقوله: ﴿صَرَبَ﴾ الله ﴿لَكُمْ مَثَلًا﴾ بديعاً مستزاعاً ﴿مِنْ﴾  
أحوال ﴿أَنْفُسِكُمْ﴾ التي هي أقرب الأشياء منكم وأعرفها لديكم، ليصير بطلان مذهب الشرك  
كالمحسوس لكم، وهو أنه افترضني مع غاية عظمتي وقدرتي مثل أنفسكم مع نهاية حقارتها  
وعجزها ﴿هَلْ﴾ تتصورون أو ترضون أن يكون ﴿لَكُمْ﴾ بعضاً ﴿مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من العبيد  
والإماء ﴿مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا﴾ تملكونه في الظاهر مع أنه في الواقع نحن ﴿رَزَقْنَاكُمْ﴾ إياه وأعطيناكم  
وجعلناه في قبضتكم وتصرفكم ﴿فَأَنْتُمْ﴾ وهم ﴿فِيهِ سَوَاءٌ﴾ يتصرفون فيه كتصرفكم فيه، بلا فرق  
بينكم وبينهم، وأنتم ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ في التصرف فيه بغير إذنهم ﴿كَخِيفَتِكُمْ﴾ من التصرف فيه  
﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ والأحرار الذين يكونون مثلكم في المالكية لذلك المال، لا يتصور ذلك، ولا ترضون به،  
فكيف ترضون أن تجعلوا الله شريكاً من مخلوقاته ومملوكاته؟! ﴿كَذَلِكَ﴾ التفصيل والبيان الواضح  
﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ ونبين ﴿الْآيَاتِ﴾ والدلائل على توحيدنا ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عن الله حجبهم، ويفهمون  
دلئلته.

قال أبو الليث: نزلت في كفار قريش كانوا يعبدون الآلهة، ويقولون في إحرامهم: لبيك لا شريك



لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك<sup>١</sup>.

وقال القمي رحمه الله: سبب نزولها أن قريشاً والعرب كانوا إذا حجوا يلبون، وكانت تلبيتهم: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك. وهي تلبية إبراهيم والأنبياء فجاءهم إبليس في صورة شيخ، وقال لهم: ليست هذه تلبية أسلافكم. قالوا: وما كانت تلبيتهم؟ قال: كانوا يقولون: لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك إلا شريكاً هو لك. ففترق قريش من هذا القول، فقال لهم إبليس: على رسلكم حتى آتي على آخر كلامي. فقالوا: ما هو؟ فقال: إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. ألا ترون أنه يملك الشريك وما ملكه؟ فرضوا بذلك، فكانوا يلبون بهذا قريش خاصة، فلما بعث الله عز وجل رسوله أنكر ذلك عليهم، وقال: هذا شرك، فأنزل الله الآية<sup>٢</sup>.

بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ \* فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَرِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ \* مُبِيِّنٍ إِلَيْهِ وَآتَقَوْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ \* مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلٌّ جَزَبَ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرَخُونُ [٢٩-٣٢]

ثم أعرض سبحانه عن مخاطبتهم، وبين استحالة تبعيتهم للحق بقوله: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ المشركون ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ وشهوات أنفسهم ﴿بِغَيْرِ﴾ دليل يكون سبب ﴿عِلْمٍ﴾ فضلوا عن طريق الحق ﴿فَمَنْ يَهْدِي﴾ إلى الحق ﴿مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ عنه لسوء اختياره ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يخلصونهم في الدنيا من الضلالة، وفي الآخرة من النار.

ثم لما لم يهتد المشركون، وأصرّوا على الشرك، أمر نبيه بالإعراض عنهم وعدم الاعتناء بهم بقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ ووجه قلبك يا محمد واصرف شراشر وجودك ﴿لِلدِّينِ﴾ القيم الذي أنت عليه حال كونك ﴿حَنِيفاً﴾ ومانئاً إليه عن سائر الأديان. ويحتمل أن يكون حالاً للدين، فإنه يكون ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ وخلقته ﴿الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ﴾ وخلقهم ﴿عَلَيْهَا﴾ أو المراد الزموا فطرة الله، فإن هذا الدين ما يحكم به العقل الفطري، وأخذ الله عليه العهد في الذر، وأرتكز في القلوب [فلا يحيد] الانسان عنه إلا بالصوارف الخارجية، ولو خلوا وأنفسهم وعقولهم ما اختاروا عليها غيره ﴿لَا تَبْدِيلَ﴾ ولا تغيير ﴿لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ فإنه غير ممكن.

﴿ذَلِكَ﴾ الدين الذي أمرتم باقامة وجوهكم له هو ﴿الَّذِينَ الْفَتِيمُ﴾ السوي الذي لا عوج له ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فتتحرفون عنه، فوجهوا له حال كونكم ﴿مُتَّبِعِينَ﴾ وراجعين ﴿إِلَيْهِ﴾ تعالى في جميع مدة عمركم بحوائجكم، ومقبلين عليه بطاعتكم ﴿وَأَتَّقُوا﴾ في مخالفته ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ التي هي أهم الفرائض ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ بتركها ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين لا يسجدون لربهم بعد الايمان بالتوحيد، أو من المشركين لغيره في عبادته جلياً أو خفياً، أعني ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ واختلغوا فيما يعبدون على اختلاف أهوائهم ﴿وَكَانُوا﴾ في عبادة غير الله ﴿شُعَبًا﴾ وأحزاباً، كل يشايح ويتابع إمامه الذي هو الأصل والمؤسس لدينه، والكل متفقون على الضلال و﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ وبما اختاره من الدين ﴿فَرِحُونَ﴾ ومسرون لاعتقادهم أنه الحق وما سواه هو الباطل.

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُمْ مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ \* لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ \* أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُمْ يَنْكُرُونَ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ [٣٥-٣٣]

ثم بين سبحانه أن فطرة المشركين أيضاً على التوحيد، وأنهم متبیین إلى الله عند الشدائد بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ﴾ وأصابهم ﴿ضُرٌّ﴾ كال فقر والخط والمرض وغيرها من الشدائد ﴿دَعَا رَبَّهُمْ﴾ لرفعه وكشفه حال كونهم ﴿مُتَّبِعِينَ﴾. وراجعين ﴿إِلَيْهِ﴾ تعالى عن غيره، لعلمهم بعدم قدرة غيره على كشفه و﴿ثُمَّ إِذَا﴾ استجاب دعاءهم وكشف عنهم ضرهم و﴿أَذَاهُمْ مِنْهُ﴾ ومن فضله ﴿رَحْمَةً﴾ ونعمة من صحة وعافية وخلاص وسعة وغيرها ﴿إِذَا فَرِيقٌ﴾ وفي الحين جمع ﴿مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ﴾ اللطيف بهم المان عليهم بنعمه ﴿يُشْرِكُونَ﴾ كأننا آتيناهم تلك النعمة ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ ويضيعوا حقه بعبادة غيرنا.

ثم التفت من الغيبة إلى الخطاب<sup>١</sup> تهديداً لهم بقوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أيها الكافرون وانتفعوا بكمركم، وبالنعمة التي أعطيناكم في الدنيا الفانية والمدة القليلة ﴿فَسَوْفَ﴾ وعن قريب ﴿تَعْلَمُونَ﴾ وخامة عاقبة كفركم وتمتعكم في الآخرة، وهي العذاب والنكال.

ثم لامهم سبحانه على التزامهم بعبادة الأصنام بلا حجة وبرهان بقوله: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ كتاباً أو نبياً أو ملكاً ليكون قوله ﴿سُلْطَانًا﴾ وحجة لهم ﴿فَهُوَ يَنْكُرُ﴾ ويخبر بأمرنا إياهم ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ قيل: يعني باشراكهم أو بعبادة ما كانوا به يشركون<sup>٢</sup>.

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ \* أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [٣٦ و ٣٧]

ثم لما كان من لطفه على العباد أن يختبرهم بالنعم والبلايا لينبئوا إليه في أحد الحالين، لام المشركين على أن الحالين لا يزيدهم إلا كفرًا بقوله: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ وأنعمنا عليهم ﴿رَحْمَةً﴾ ونعمة ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾ أشراً وبطراً، وزادهم طغياناً وكُفراً ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ وشدة من ضيق وبلاء ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وبشوم معاصيهم ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ ويأسون ويَجْزَعُونَ وَيَفْرَعُونَ، فلا عند النعمة إلى الله يرجعون ويشكرون ولا عند البلاء إليه ينيبون وَيَزْجَعُونَ ويسألون ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ولم يعلموا أن الشدة والرخاء كلاهما من الله حيث يرون ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ﴾ وَيُوسِعُ ﴿الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وسعة رزقه لعلمه بصلاحه فيها ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ويضيق الرزق لمن يشاء ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من القبض والبسط ﴿لَآيَاتٍ﴾ نافعة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم يستدلون بها على كمال قدرة الله وحكمته. قيل لبعض العلماء: ما الدليل على وحدة صانع العالم؟ قال: ثلاثة أشياء ذل اللبيب، وفقر الأديب، وشقم الطبيب<sup>١</sup>.

فَاتِذَا الْقَرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [٣٨]

ثم خاطب سبحانه من بسط له الرزق، وأمره بانفاق ما زاد عن كفافه لمن قدر عليه رزقه بقوله: ﴿فَاتِذَا الْقَرْبَىٰ﴾ وصاحب النسب إليك إذا احتاج في نفقته وما يعيش به ﴿حَقَّهُ﴾ من مالك صدقة أو صلة وإعانة مقدماً له على غيره ﴿وَالْمِسْكِينَ﴾ والفقير ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ حَقَّهُما من مالك صدقة وإعانة.

قيل: إن المخاطب هو النبي ﷺ والمراد بذِي الْقَرْبَىٰ قرابته<sup>٢</sup>.

عن أبي سعيد الخدري: لما نزلت الآية على النبي ﷺ أعطى فاطمة ؓ فداكاً وسلّمه إليها<sup>٣</sup>.

وقيل: إن الخطاب لعموم الأمة، والمراد بذِي الْقَرْبَىٰ فقراء ذرية النبي ﷺ، والمراد بالحق الخمس، كما عن مجاهد والسدي<sup>٤</sup>.

٢. مجمع البيان ٨: ٤٧٨.

١. تفسير روح البيان ٧: ٣٩.

٣. مجمع البيان ٨: ٤٧٨، تفسير الصافي ٤: ١٣٣.

٤. في النسخة: بعموم. ٥. مجمع البيان ٨: ٤٧٨.

ثُمَّ حَتَّمْ فِي ذَلِكَ بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ الايتاء والعطاء من المال ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه، أو من الامساك، ولكن لا لكل الناس، وإن كانوا مشركين أو مرانين، بل ﴿لَلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾ باعطائهم ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾ ويطلبون به رضا والقرب إليه، فإن ذلك المال يبقى ويدوم نفعه إلى الأبد ﴿وَأُولَئِكَ﴾ المنفقون لوجه الله ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والفائزون.

وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبٍّ لِيَرْبُتُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ \* اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ [٤٠ و ٣٩]

ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ سبحانه فائدة إنفاق المال لوجه الله، ذكر عدم الفائدة الأخروية في بذله للاغراض الدنيوية بقوله: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ﴾ وأعطيتهم شيئاً ﴿مِنْ رَبٍّ﴾ وزيادة من هدية وهبة، لا لوجه الله، بل ﴿لِيَرْبُتُوا﴾ ويزيد ﴿فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ حتى يعطوكم أكثر وأفضل منه، فهذا المال وإن صار سبباً لزيادة أموالكم في الدنيا، ولكن لما لم يكن بذله لوجه الله ﴿فَلَا يَرْبُوا﴾ ولا يزيد ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ ولا يبارك له فيه، ولا يثاب عليه.

عن الصادق عليه السلام قال: «الربا رباءان: ربا يؤكل، وربا لا يؤكل، فأما الذي يؤكل فهديتك إلى الرجل تطلب منه الثواب أفضل منها، فذلك الربا الذي يؤكل، وهو قول الله عز وجل: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبٍّ لِيَرْبُتُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾ وأما الذي لا يؤكل فهو الذي نهى الله عنه [وأوعده عليه النار]»<sup>١</sup>. وعن الباقر عليه السلام: «هو أن يعطي الرجل العطية، أو يهدي الهدية ليثاب أكثر منها، فليس فيه أجر ولا وزر»<sup>٢</sup>. وقيل: إن المراد به إعطاء الزيادة في المعاملة أو القرض<sup>٣</sup>. ﴿وَمَا آتَيْتُمْ﴾ شيئاً ﴿مِنْ زَكَاةٍ﴾ مشروعة في الأموال الزكوية أو صدقة ﴿تُرِيدُونَ﴾ به ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾ وتطلبون رضا والتقرب إليه، فإنه يزيد عند الله.

عن الصادق عليه السلام قال: «مكتوب على باب الجنة: القرض بشمانية عشر، والصدقة بعشر»<sup>٤</sup>. ثُمَّ لَتَعْمِيمِ الحكم لجميع الأمة إلى يوم القيامة، التفت من الخطاب إلى الغيبة بقوله: ﴿فَأُولَئِكَ﴾

١. الكافي ٥: ٦١٤٥، التهذيب ٧: ١٧/٧٣، تفسير الصافي ٤: ١٣٤.

٢. مجمع البيان ٨: ٤٧٩، تفسير الصافي ٤: ١٣٤. ٣. تفسير الصافي ٤: ١٣٤، تفسير روح البيان ٧: ٤١.

٤. تفسير القمي ٢: ١٥٩، تفسير الصافي ٤: ١٣٤.

الْمَرْكُوزَ ﴿هُمُ الْمَضْعُوفُونَ﴾ وذوو الأضعاف من الثواب في الأجل والمال في العاجل.  
ثم أكد ما أدعاه سبحانه من التوحيد ونفي الشريك له بقوله: ﴿الله﴾ هو القادر ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ في الدنيا ولم تكونوا شيئاً مذكوراً ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ بجوده ما تعيشون به وتبقون إلى منتهى آجالكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بقدرته ﴿ثُمَّ يُخْيِيكُم﴾ في الآخرة ليجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فهذه الأعمال من شؤون الألوهية فانظروا ﴿هَلْ﴾ أحد ﴿مِنَ شُرَكَائِكُمْ﴾ وألهتكم ﴿مَنْ يَفْعَلُ مِنْ دَلِيقُمُ﴾ الخلق والرزق والإماتة والإحياء ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾؟ لا يفعلون شيئاً منها أبداً إذن ﴿سُبْحَانَهُ﴾ ونزّهه تنزيهاً بليغاً ﴿وَتَعَالَى﴾ تعالياً كبيراً ﴿عَن﴾ شرك ﴿مَا يَشْرِكُونَ﴾ به أو عن إشراكهم.

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ \* قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ \* فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَاسِمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ [٤١-٤٣]

ثم نبه سبحانه على ضرر شرك بني آدم على كافة الموجودات بقوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ﴾ من الفحط والغلاء، والطاعون والوباء، وموت الفجأة، وكساد التجارات، والرفع في الزراعات، والقتل والغارات، والزلازل والحريق والفتن ﴿فِي الْبَرِّ﴾ من البلدان والقرى والجبال والأودية ﴿وَفِي الْبَحْرِ﴾ من الأمواج والعرق وكسر السفن وموت الدواب وغيرها.

قيل: البحر يطلق على البلدان<sup>١</sup>. وقيل: هو البلاد التي في السواحل<sup>٢</sup>.

﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ من الشرّ والظلم والعصيان، وإنما كان ذلك ﴿لِيُذِيقَهُمْ﴾ ونُطْعِمَهُمْ ﴿بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ من المعاصي قليلاً ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن الشرك إلى التوحيد، ويتوبون من سيئاتهم.

في الأخبار أنَّ ظهور الفواحش سبب لفشو الطاعون والأوجاع، ونقص المكيال والميزان سبب للقيط وشدة المؤنة، وجور السلطان ومنع الزكاة سبب لانقطاع المطر، ونقض عهد الله ورسوله سبب لتسلط العدو، وجور الحكام في الحكم سبب لوقوع القتال، وأكل الربا سبب للزلزلة<sup>٣</sup>.  
ثم هددهم سبحانه بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين ﴿سِيرُوا﴾ وسافروا ﴿فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾

٢. مجمع البيان ٨: ٤٨٠، تفسير أبي السعود ٧: ٦٢.

١. تفسير الرازي ٢٥: ١٢٧.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٤٦.

١٠٤ ..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٥

بنظر الاعتبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ وإلى ما صار مآل كفرانهم ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ فإذا كان الأمر كذلك ﴿فَاقِمْ﴾ يا محمد ﴿وَجْهَكَ﴾ وأقبل بقلبك الشريف ﴿لِلَّذِينَ أَقَامُوا﴾ البالغ في الاستقامة ﴿مِن قَبْلُ أَن يَأْتِي﴾ يوم القيامة، وهو ﴿يَوْمٌ لَا مَرَدُّ لَهُ﴾ ولا مانع عن إتيانه ﴿مِنَ آفَةٍ﴾. وقيل: إن الظرف متعلق بفعل يأتي، والمعنى أن اليوم يأتي من الله، ولا يمكن لأحد أن يمنع من إتيانه<sup>١</sup>. فالخلق ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ﴾ ويتفرقون فريق في الجنة وفريق في السعير.

مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسِهِمْ يُمְهِدُونَ \* لِيَجْزِيَ الَّذِينَ  
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ [٤٤ و ٤٥]

ثم بين سبحانه الفرقتين بقوله: ﴿مَنْ كَفَرَ﴾ بالله ورسله واليوم الآخر ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ وضرر ترك إيمانه من العقوبة والنكال لا على غيره ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ و﴿عَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾ مرضياً عند الله، ويجوز أن يكون المراد هنا من العمل الصالح الإيمان، فإنه عمل القلب واللسان ﴿فَلَا نَفْسِهِمْ﴾ وحدها منزل الراحة الأبدية ﴿يُمְهِدُونَ﴾ ويهيئون، أو يفرشون حتى يستريحون فيه إلى الأبد، وقيل: يعني لأنفسهم يشفقون<sup>٢</sup>.

وعن الصادق عليه السلام قال: «إن العمل الصالح ليسبق صاحبه إلى الجنة، فيمهد له كما يمهد لأحدكم خادمة فراشه»<sup>٣</sup>.

وإنما كان تفرقهم بتفريق الله تعالى فرقتين ﴿لِيَجْزِيَ﴾ الله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ الجنة والنعم العظيمة الأبدية ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وجوده، لا من عدله، وإنما قدم ذكر جزاء المؤمنين إشعاراً بسبق رحمته غضبه، وبأنه المقصود الأول.

ثم كنى سبحانه من عذاب المشركين بقوله: ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ فإن لازم عدم حبه لهم بغضه إياهم، ولازمة العذاب الشديد الدائم، وفيه إشارة إلى أنه يحب المؤمنين، وهو أفضل الجزاء، كما أن عدم حبه أشد العذاب عند العارفين.

روي أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: «ما خلقت النار بخلأ مني، ولكن أكره أن أجمع أعدائي وأوليائي في دار واحدة»<sup>٤</sup>.

وَمِنَ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيحَ مَبْشُرَاتٍ وَلِيَذِّقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْزِيَ الْفُلُكُ

٢. جوامع الجامع: ٣٦٠.

١. تفسير أبي السعود ٧: ٦٣، تفسير روح البيان ٧: ٤٧.

٤. تفسير روح البيان ٧: ٤٨.

٣. مجمع البيان ٨: ٤٨١، تفسير الصافي ٤: ١٣٥.

## بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [٤٦]

ثم إنه لما ذكر سبحانه أن الشُّرك سبب لظهور الفساد في العالم، نبه على أن التوحيد سبب لصلاحه بقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ وعلائم توحيده وقدرته وحكمته ﴿أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ﴾ الشَّمال والجنوب والصَّبَا، فإنها رياح الرحمة، لأنها من رُوح الله، حال كونها أو لتكون ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ للخلق بالمطر، ولطافة الهواء، وصحة الأبدان، ووفور النعم ﴿وَلِيَذِيقَكُمْ﴾ ويُطعمكم طعم السَّعة والسلامة والراحة الكائنة ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ وإحسانه، فإنه لو لم تهب الرياح لظهر الوَبَاءُ والفساد.

وهذا في مقابل قوله: ﴿ظهر الفساد... ليذيقهم بعض الذي عملوا﴾<sup>١</sup> ولما كان المشركون بعيدين عنه تعالى، كُنِيَ عنهم بضمير الغائب، وكان المؤمنون قريبين منه أتى بضمير الخطاب، وإنما علل ما أصابهم من الشر ببعض أعمالهم، وأسند ما أصابهم من الخير إلى رحمته تقريراً لقوله: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾<sup>٢</sup>.

﴿وَلِتَجْرِيَ﴾ وتسير ﴿أَفْلُكُ﴾ في البحر يسوق الرياح الهائلة<sup>٣</sup> ﴿بِأَمْرِهِ﴾ وتعالى لوضوح أن الريح لا تتحرك بنفسها، بل لها محرك، إلى أن ينتهي إلى محرك لا محرك له ولا يتحرك، وهو الله الموجد لكل شيء، ومن حركة الرياح ﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾ وتطلبوا بركوبها وحمل الأمتعة فيها للتجارة ربحاً وفائدة كثيرة ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ تعالى وجوده لا من كسبكم، ولما كان توفيق الشكر من نعمة عطفه على النعم بقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾ بتوفيقه تعالى ﴿تَشْكُرُونَ﴾ نعمه وأفضاله.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاتَّقَمْنَا مِنْ

الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ [٤٧]

ثم إنه تعالى بعد إثبات التوحيد والمعاد، ذكر أمر الرسالة، وأظهر المنة بارسال الرسل، وفيه تحذير من أحل بالشكر بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ وفي أعصار قبل عصرك ﴿رُسُلًا﴾ كثيرة عظيمة الشأن ﴿إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ لهدايتهم إلى توحيدنا ومعرفتنا وشكر نعمتنا ﴿فَجَاءَهُمْ﴾ مستدلين على صدقهم في دعوى الرسالة من الله ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات الباهرات كالعصا وإحياء الموتى، فكفر كل قوم بنعمة إرسال رسولهم وكذبوه وعارضوه واستهزؤا به ﴿فَاتَّقَمْنَا﴾ بإنزال العذاب ﴿مِنْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ وكذبوا رسولهم، وأصروا على شرهم وكفرهم، وتكذيب رسولهم، وحفظنا المؤمنين من شرهم والعذاب النازل عليهم، ونصرناهم على أعدائهم ﴿وَكَانَ حَقًّا﴾ واجباً

٤. في النسخة: بنفسه، بل له.

٣. في النسخة: المهبة.

٢. النساء: ٧٩/٤.

١. الروم: ٤١/٣٠.

﴿عَلَيْنَا﴾ بمقتضى حكمتنا ورحمتنا ﴿نَضْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في الدنيا يحفظ إيمانهم، ودفع شر أعدائهم، وإنجاءهم مما أصاب الكافرين، وفي الآخرة بإنجائهم من أهوال يوم القيامة، وخلاصهم من النار، وإدخالهم الجنة، وإنعامهم بالنعيم الدائمة والراحة الأبدية، وفيه إشعار بأن الانتقام لهم واطهار لكرامتهم، حيث جعلهم مستحقين على الله أن ينصرهم.

عن النبي ﷺ: «ما من أمرئ مسلم يَزِدُّ عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يَزِدَّ عنه نار جهنم يوم القيامة<sup>١</sup>. ثم قرأ ﴿كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَضْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾».

وعن الصادق عليه السلام قال: «حَسِبَ الْمُؤْمِنُ نَصْرَةَ أَنْ يَرَى عَدُوَّهُ يَعْمَلُ بِمَعَاصِي اللَّهِ»<sup>٢</sup>. وفي الآية تبشير للنبي ﷺ بالطُّفَرِ في العاقبة على أعدائه، والنصر على من كذبه، وتسلياً لقلبه الشريف حيث لم يؤمنوا به فقال: حالك كحال من تقدّمك من الأنبياء العظام، فإنهم مع معجزاتهم الباهرات كُذِّبُوا وصبروا حتى نصرهم الله على تكذيبهم.

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ \* وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْتَليينَ [٤٨ و ٤٩]

ثم إنّه تعالى بعد بيان إرساله الرسل في السابقين، وتسلياً نبيه بذكر حالهم وظفرهم على أعدائهم، عاد إلى الاستدلال على توحيده الذي هو أهم المقاصد بذكر كيفية بشاره الرياح بالمطر بقوله: ﴿اللَّهُ﴾ هو القادر بالذات ﴿الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ﴾ المبشرات برحمته من الشمال والجنوب والصبا ﴿فَتُثِيرُ﴾ وتنتشر بهبوبها ﴿سَحَابًا﴾ واحداً أو أكثر بارادة الله وأمره ﴿فَيَبْسُطُهُ﴾ ويجعل بعضه متصلاً ببعض تارة، كي يصير قطعة واحدة ﴿فِي﴾ سمت ﴿السَّمَاءِ﴾ وجهة العلو ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ الله تعالى سائراً وواقفاً، مطبقاً مسيرة يوم أو يومين أو أقل أو أكثر، أو غير مطبق من جانب دون جانب ﴿وَيَجْعَلُهُ﴾ تارة أخرى ﴿كِسْفًا﴾ وقطعاً كل قطعة في طرف، أو يجعل بعضه فوق بعض، كما عن القمي<sup>٣</sup> ﴿فَتَرَى﴾ يا محمد، أو أيها الرائي ﴿الْوَدْقَ﴾ والمطر ﴿يَخْرُجُ﴾ بأمر الله ﴿مِنْ خِلَالِهِ﴾ وفُرجه وشقوقه في التارتين وإلأ أو هطلاً أو رذاذاً.

عن وهب: أن الأرض شكت إلى الله عز وجل أيام الطوفان، فقالت: يا رب، إن الماء خدّني

١. مجمع البيان ٨: ٤٨٤، تفسير الصافي ٤: ١٣٦، تفسير روح البيان ٧: ٥٠.

٢. ما لا يحضره الفقيه ٤: ٨٤٧/٢٨٤ و ٨٨٤/٢٩٣، تفسير الصافي ٤: ١٣٦.

٣. تفسير القمي ٢: ١٦٠، تفسير الصافي ٤: ١٣٦.



وخذشني، لأن الماء خرج بغير وزن ولا كيل غضباً لله تعالى فخذش الأرض وخذدها، فقال الله تعالى: إني سأجعل للماء غربالاً لا يخذدك ولا يخذشك، فجعل السحاب غربال المطر<sup>١</sup>.

﴿فَإِذَا أَصَابَ﴾ الله ﴿بِهِ﴾ وأنزله على أراضي ومزارع ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أو بلادهم ﴿إِذَا هُمْ﴾ بمجيء الخصب والأمن من القحط ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ويفرحون ﴿وَأَنَّ﴾ الشأن أن الذين أصابهم المطر ﴿كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يُمْزَلَ﴾ المطر ﴿عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾ وإنما كرر كلمة ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ تأكيداً ودلالة على تطاول عهدهم به ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ وآيسين من نزوله.

وقيل: إن ضمير (من قبله) راجع إلى إرسال الرياح<sup>٢</sup>، لأن الخبير بعد الريح وبسط السحاب يعرف أن فيه المطر.

فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي  
الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ \* وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَظَلُّوا مِنْ  
بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ \* فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا  
مُدْبِرِينَ \* وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُوْمِنُ بِآيَاتِنَا  
فَهُمْ مُسْلِمُونَ [٥٣-٥٠]

ثم إنه تعالى بعد إثبات التوحيد بالتفصيل المذكور، أمر الناس بالاعتبار بآثار المطر وإحياء الأرض بقوله: ﴿فَانْظُرْ﴾ أيها الناظر بنظر الاعتبار ﴿إِلَى آثَارِ﴾ المطر الذي هو من ﴿رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ من النبات والأزهار والأشجار والثمار، وتفكر في أنه تعالى ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ﴾ بتلك الآثار ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وييسرها وعدم ظهور فائدة فيها، وتنبه على عظم شأنه وكمال قدرته واعلم ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الرب العظيم المحيي للأرض الميتة ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتِ﴾ البتة بعد صيرورتهم تراباً في الآخرة للحساب وجزاء الأعمال ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من إحياء الموتى وغيره مما يمكن أن يوجد ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يتصور فيه العجز، فإن نسبة قدرته إلى جميع الممكنات سواء.

ثم ذم سبحانه الكفار بقوله: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً﴾ مضرّة حارة أو باردة، فافسدت زرع الكفار ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً﴾ من أثر الريح بعد كونه مخضراً، فياسوا من نفعه ﴿لَظَلُّوا﴾ وصاروا ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ يكفرون ﴿جميع نعم الله عليهم، ولم يلجئوا إليه بالاستغفار، بخلاف المؤمن الشاكر الصابر، فإنه يحمّد الله على كلّ حال، ولا يحزنون على ما فاتهم من المنافع، ولا يفرحون بما آتاهم الله، وإنما يكون فرحهم بطاعة الله، وحزنهم على معصيته، فأولئك الكفار كالموتى لسلب المشاعر عنهم، فلا

تطمع يا محمد في قبولهم دعوتك وإيمانهم بك ﴿فَأِنَّكَ لَا تَسْمَعُ﴾ دعوتك ومواعظك ﴿الْمَوْتَى﴾ لعدم قابليتهم للاستماع، وهم كالصُم الذين لا يسمعون ﴿وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ﴾ والدعاء خصوصاً ﴿إِذَا وَلَّوْا﴾ وأعرضوا عنك حال كونهم ﴿مُذْبِرِينَ﴾ وجاعلين ظهورهم نحوك، فإنهم إذن لا يزّون إشاراتك وحركات شفيتك حتى يفهموا بفراسطهم أنك تكلمهم وتخطبهم وهم لفقدهم البصيرة كالعمي ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى﴾ ومدلّهم إلى الطريق بلسانك، وصارفهم ﴿عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ وسلوكهم في غير الطريق ﴿إِنْ تَسْمَعُ﴾ دعوتك ﴿إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ﴾ ويصدق ﴿بِآيَاتِنَا﴾ القرآنية، ويتدبر فيها، ويتلقّاها بالقبول.

ويجوز أن يكون المراد بالمؤمن المشارف للإيمان والمقبل على الآيات بقلبه ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ومنقادين لإجابة دعوتك وإطاعة أوامرك.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ \* وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُثْبِتَا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ \* وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ \* فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ [٥٤-٥٧]

ثم بالغ سبحانه في الاستدلال على توحيده وقدرته بقوله: ﴿اللَّهُ﴾ تعالى هو القادر ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ﴾ مبدأ ضعيف يصح أن يقال من غاية ضعفه أنه عين ﴿ضَعْفٍ﴾ كالتراب والنفطة، ثم ربّاكم في الأرحام ﴿ثُمَّ جَعَلَ﴾ لكم ﴿مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ﴾ كان فيكم وأنتم أجنته ﴿قُوَّةً﴾ على الحركة، وأمتصاص الصرع وشرب اللبن منه، ودفع الأذى عنكم بالكاء، ثم ربّاكم حتى بلغت سنّ الشباب وأكمل قواكم ﴿ثُمَّ جَعَلَ﴾ لكم ﴿مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ كانت لكم في الشباب ﴿ضَعْفًا﴾ آخر حين الشيخوخة والكبر ﴿وَشَيْبَةً﴾ وهرماً ومن المعلوم أن هذه الأطوار والأحوال للخلق لا تكون بالطبيعة بل الله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من الضعف والقوة والشباب والشيب والهرم ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بأحوال خلقه ﴿الْقَدِيرُ﴾ على نقله من حال إلى حال.

ثم إنّه بعد ذكر أحوال خلقه في الدنيا وأطوارهم، ذكر بعض أحوال الكفار في الآخرة بقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ وتجيء وقت جزاء الأعمال، يُسأل الكفار عن مدّة لبثهم في الدنيا، فيجيبون ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾

والعاصون المنكرون للحشر بالله على أنهم ﴿مَا لَيْتُوا﴾ وما مكثوا فيها ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ ومدة في غاية القلة. وقيل: إن المراد مدة لبثهم في القبور، أو بعد فناء الدنيا إلى النشور<sup>١</sup>. وعلى كل تقدير كان جوابهم إفكاً وكذباً و﴿كَذَلِكَ﴾ الإفك والكذب ﴿كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ ويصرفون من الحق إلى الباطل، ومن الصدق إلى الكذب ﴿وَقَالَ﴾ الملائكة أو الأنبياء والمؤمنون ﴿الَّذِينَ أُوتُوا﴾ من قبل الله ﴿الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ رداً عليهم وإنكاراً لكذبهم: والله ﴿لَقَدْ﴾ كذبتهم بل ﴿لَيْسَتْ﴾ في المدة التي كانت مكتوبة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ واللوح المحفوظ، وهي المدة المديدة ﴿إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ لا الساعة الحقيقية ﴿فَهَذَا﴾ اليوم ﴿يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ الذي وعدكم به الأنبياء ﴿وَلَكِنَّكُمْ﴾ لفرط جهلكم وتفريط النظر ﴿كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ في الدنيا أنه الوعد الحق، وتستعجلون به استهزاء ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بإنكار التوحيد والمعاد ﴿مَغْذِرَتُهُمْ﴾ وكلمات تُمحى بها ذنوبهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ويؤمرون بما يرضون به ربهم وبه يمحون ذنوبهم من التوبة والطاعة، لعدم قبولها منهم، كما يؤمرون به في الدنيا ويتقبل منهم فيها.

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولُنَّ  
الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ \* كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا  
يَعْلَمُونَ \* فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ [٥٨-٦٠]

ثم بين سبحانه قطع عذرهم في الدنيا بقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ والله قد بينا ﴿لِلنَّاسِ﴾ عموماً ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ الكريم بأوضح بيان ﴿مِنْ كُلِّ﴾ ما يحتاجون إليه من العقائد الصحيحة والأحكام الحقة والأدب والحكم بحيث يكون في الغرابة ﴿مَثَلٌ﴾ فلا يبقى لهم العذر في ترك أخذها وعدم العمل بها من قبلنا، وأما من قبلك في رسالتك فقد أتيت لهم ما ثبت به برسالتك ﴿وَاللَّيْنِ جِئْتَهُمْ﴾ وأتيت لهم ﴿بِآيَةٍ﴾ من القرآن الذي هو أعظم المعجزات ﴿لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصرروا على العناد لك وللمؤمنين بك ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ وكاذبون فيما تدعون ﴿كَذَلِكَ﴾ الطبع الفضيع والختم الشنيع ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ﴾ ويختم ﴿عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سوء عاقبة العقائد الفاسدة، ولا يدركون الحق ودلائله، فيضرون على خرافات اعتقدوها وشرها تابتدعوها.

﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد على أذاهم ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بنصرك عليهم وتعذيبهم ﴿حَقٌّ﴾ لا خلف فيه ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ ولا يغيضك، أو لا تحيلنك على القلق والخفة جزعاً القوم ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾

١١٠ ..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٥

بصدقك وبآيات التي نزلها عليك، فتكف عن الدعوة وتتهاون في القيام بوظيفة النبوة، فإنهم شاكون ظالون ولا يستبعد منهم التكذيب والإيذاء.

الحمد لله على نعمه العظام التي منها إتمام تفسير السورة المباركة.

## في تفسير سورة لقمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم \* تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ \* هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ \* الَّذِينَ  
يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ \* أُولَئِكَ عَلَى هُدًى  
مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [١-٥]

ثم لما ختمت سورة الروم ببيان عظمة القرآن وإعجازه بقوله: ﴿ولقد ضلينا﴾ إلى آخره، وتكذيب الكفار له، وأمره تعالى نبيه بالصبر على تكذيبهم واستهزائهم به، أردفت بسورة لقمان المبدوءة بذكر عظمة القرآن وكونه هدى ورحمة، وإعراض المشركين عنه وتكذيبهم إياه، وذكر وصايا لقمان الحكيم وأمره بالصبر، فابتدأها بذكر أسمائه المباركة بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثم افتتحها بالحروف المقطعة بقوله: ﴿الْم﴾ جلباً لتوجه الناس إلى ما بعدها من ذكر عظمة القرآن وإعجازه بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ السورة والآيات ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ والقرآن المتضمن للعلوم الكثيرة والحكم الوفيرة، أو المحكم المصنوع من التغيير والتبديل، والمحروس من الفساد والبطلان، حال كون الآيات ﴿هُدًى﴾ ورشاداً من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ وسبباً للارتقاء بالمراتب العالية من الكمالات الانسانية، والدرجات الرفيعة من الجنة ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ إلى أنفسهم باختيار العقائد الصحيحة، وارتكاب الأعمال الصالحة، وهم ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ التي هي عمود دينهم ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ التي هو ركن الاسلام ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ﴾ ودار جزاء الأعمال ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ولا يشكون فيها ﴿أُولَئِكَ﴾ المحسنون المتصفون بالصفات الجليلة مستولون ﴿عَلَى هُدًى﴾ ورشاد حاصل ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ اللطيف بهم وطريق بيّنه الله لهم ووقفهم لسلوكه.

ثم وعدهم بأفضل الجزاء بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والفائزون بأعلى المقاصد، والناجون من جميع المهالك والمكاره، لاستجماعهم العقيدة الحقّة والأعمال الصالحة.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا

هَؤُلَاءِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ \* وَإِذَا تَنَلَّيْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَئِنِ مُسْتَكْبِرًا كَانُوا  
لَم يَسْمَعُهَا كَأَن فِي أُدُنِهِ وَقَرَأَ فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [٦ و ٧]

ثم شرع في ذم المشركين الصّادقين عن سبيل الله بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ وبعضهم ﴿مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ  
الْحَدِيثِ﴾. ويتّرك استماع القرآن وقراءته اللتين<sup>١</sup> فيهما كلّ خير، ويستبدلها باستماع ما لا خير فيه  
من الكلام كاساطير الأولين وقصص رستم وإسفنديار.

قيل: نزلت في النّضر بن الحارث بن كلّدة الذي قتله النبي ﷺ صبراً بعد وقعة بدر<sup>٢</sup>.

رُوي أنّه ذهب إلى فارس للتجارة، فاشترى كتاب (كليلة ودمنة) و(أخبار رستم وإسفنديار)  
و(أحاديث الأكاسرة) فجعل يحدث بها قريشاً في أُنديتهم ويقول: إنّ محمداً يُحدثكم بعاد وثمود،  
وأنا أحدثكم بحديث رستم وإسفنديار، فيستملحون حديثه، ويتّركون استماع القرآن<sup>٣</sup>، وكان عمله  
ذلك ﴿لِيُضِلَّ﴾ الناس ويصرفهم ﴿عَنْ﴾ سُلُوكِ ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾، والدخول في دينه الحقّ، ويمنعهم  
بتلك الخرافات عن قراءة كتابه الهادي إلى المصالح الدنيوية والأخروية ﴿يَغْتَرِ عِلْمٌ﴾ بضرر ما  
يشتره وبالمعاملة الرابحة، ومع ذلك يَسْخَرُ بسبيل الله ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾.

وعن الصادق عليه السلام في تفسير لهو الحديث قال: «هو الطعن في الحقّ، والاستهزاء به، وما كان أبو  
جهل وأصحابه يجيئون به» إلى أن قال: «ومنه الغناء»<sup>٤</sup>.

وعن الباقر عليه السلام: «الغناء ممّا أوعده الله عليه النار» وتلا هذه الآية<sup>٥</sup>.

وعنه أنّه سُئل عن كسب المغنيات فقال: «التي يدخُل عليها الرجال حرام، والتي تُدعى إلى  
الأعراس ليس به بأس، وهو قول الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ الآية<sup>٦</sup> وعليه جمع المفسرين، كابن  
عباس وابن مسعود وغيرهما<sup>٧</sup>.

وعن مجاهد: أنّ الآية نزلت في الذين يشترون المغنيات ويصرفون الناس عن استماع القرآن  
بالحانهن<sup>٨</sup>.

وعن الزمخشري: أنّ بعض قريش يشترون المغنيات، فاذا أطلّعو أن أحداً أراد قبول الاسلام  
طلبوه وأطعموه الطعام، وسقوه الشراب، وأمرؤا المغنيات يغتنين له، ثم قالوا: هذا خير ممّا يدعوك إليه  
محمد من الصلاة والصيام والقتال بين يديه<sup>٩</sup>.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٦٥.

١. في النسخة: التي. ٢. تفسير روح البيان ٧: ٦٥.

٥. الكافي ٦: ٤٣٦/٤، تفسير الصافي ٤: ١٤٠.

٤. مجمع البيان ٨: ٩٠، تفسير الصافي ٤: ١٤٠.

٧. مجمع البيان ٨: ٤٩٠.

٦. الكافي ٥: ١١٩/١، تفسير الصافي ٤: ١٤٠.

٨. الدر المنثور ٦: ٥٠٧. ٩. الكشف ٣: ٤٩٠.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ مَذَلْ لاهانتهم بالقرآن وبدين الله ﴿وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ القرآنية ﴿وَلَّىٰ﴾ وأعرض عنه حال كونه ﴿مُستَكْبِرًا﴾ ومبالغاً في الترفع عن استماعها وعن إطاعة أحكامها والايمان بها، ومن المعلوم أنه لا يتصور التولي عن مَن سَمِعَهَا لما فيها من الفصاحة والبلاغة وحسن الأسلوب وطلاقة البيان بحيث عجز الإنس والجن من الاتيان بمثله، وهذه الأمور موجبات الاقبال عليها والخضوع لها، فالتولى عنها<sup>١</sup> يكون ﴿كَأَنَّهُمْ يَسْمَعُونَهَا﴾ ولم يكن عدم سماعه لها من باب الاتفاق مع كثرة تلاوتها عنده، بل ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ حب الجاه والحسد والأخلاق الرذيلة أحدث ﴿فِي أذُنَيْهِ وَقُرْءًا﴾ وثقلًا مانعاً من سماعها، ولو ثلثت عليه ألف مرة، فكأنه مشتاق إلى الكفر وما يترتب عليه من العذاب ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ يا محمد ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يُبْتَلَىٰ به في الآخرة، كما يُبَشِّرُ بما يُحِبُّه من شهوات الدنيا.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ \* خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ \* خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ \* هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ [٨-١١]

ثم أنه تعالى بعد ما هدّد الكفار بعاقبة كفرهم واستكبارهم عن سماع الآيات القرآنية، بشر المؤمنين بخسن مآل إيمانهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحداية الله ورسالة رسوله والدار الآخرة ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ المرضيات عند ربّه ﴿لَهُمْ﴾ بالاستحقاق في الآخرة ﴿جَنَّاتُ﴾ فيها ﴿النَّعِيمِ﴾ الدائم - قيل: يعني نعيم جنّاتٍ فعكس<sup>٢</sup>. وقيل: جنّات النعيم إحدى الجنّات الثمان، كما عن ابن عباس<sup>٣</sup> - حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ومقيمين ﴿فِيهَا﴾ يكون هذا الوعد ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ وقيل: يعني وعد الله وعداً، وحقّ ذلك الوعد ﴿حَقًّا﴾ لا يمكن الخلف له، لأنّه تعالى هو الغني بالذات، ولا يكذب أحدٌ إلّا للحاجة ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ والغالب على كلّ شيء، فلا يقدر أحدٌ على أن يمنعه من إنجاز وعده و﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يصدر منه إلّا ما هو مقتضى الحكمة والصلاح.

ثم لما هدّد سبحانه المشركين بأشدّ العذاب، ووعد المؤمنين بأعظم الثواب، ووصف ذاته المقدّسة

٣. تفسير روح البيان ٧: ٦٦.

٢. في النسخة: عنه. ٧. تفسير أبي السعود ٧: ٧٠.

٤. تفسير روح البيان ٧: ٦٧.

بالعزة والغلبة على جميع الموجودات والحكمة البالغة، استدل على كمال قدرته على الوفاء بالوعد وعلى غلبته وحكمته بقوله: ﴿خَلَقَ﴾ الله ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ السبع معلقات في الجوّ ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ وأسطوانات تمنعها من السقوط كما ﴿تَرَوْنَهَا﴾ كذلك، أو المراد بغير عمَد مرئية، وإن كان لها عمَد غير مرئية، وهي قدرة الله تعالى.

عن الرضا عليه السلام: «ثُمَّ عَمَدٌ، وَلَكِنْ لَا تَرَوْنَهَا»<sup>١</sup>.

﴿وَالْقَمَى﴾ وطرح سبحانه ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ كما تلقى الحصاة من اليد فيها جبلاً ﴿زَوَاسِي﴾ وثابات تثبت وتستقر بها الأرض كراهة ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ من جانب إلى جانب وتحرككم بحركتها. عن الضحاک: أن الله خلق تسعة عشر جبلاً في الأرض ليثبتها كالإسمار، منها جبل قاف، وجبل أبي قبيس، وجبل جودي، وجبل لبنان، وجبل سينين، وطور سيناء، وجبل فاران. وقيل: إن الجبال عظام الأرض وعروقه<sup>٢</sup>.

﴿وَبَشَّ﴾ ونشر ﴿فِيهَا﴾ بقدرته ﴿مِنْ كُلِّ﴾ نوع من الأنواع و﴿دَابَّةٍ﴾ وحيوان مع كثرتها واختلاف أجناسها وأصنافها ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ وجهة الغلو ﴿مَاءً﴾ نافعاً بالأمطار ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ بسبب الأمطار ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ وصف ﴿كَرِيمٍ﴾ وكثير النفع للإنسان والدواب إبقاءً لهما، فمن نظر إلى النباتات والأشجار، وتفكر في عجائب صنعها فيها وغرائب قدرته، حار عقله، وكل فكره، كيف لا وأنت ترى اختلاف أشكالها، وتباين ألوانها، وكثرة خواصها، وصور أوراقها، وروائح أزهارها، وعجائب أنواع أثمارها وحبوبها، فإن لكل من النباتات ورق ولون وريح وزهر وثمر وحب وخاصة لا تشبه الأخرى، ولا يعلم الحكم في خلقها إلا الله، وما يعرفه الإنسان بالنسبة إلى ما لا يعرفه كقطرة من البحر.

﴿هَذَا﴾ الذي ذكر من السماوات والأرض والجبال والحيوان والماء والنبات ﴿خَلَقَ﴾ الله ﴿القادر الحكيم﴾ ﴿فَأَرْوَيْنِي﴾ أيها المشركون ﴿مَادًّا خَلَقَ﴾ الآلهة ﴿الَّذِينَ﴾ تعبّدونها ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ ومما سواه، وتدعون أنهم شركاؤه في استحقاق العبادة، والله لم يخلقوا شيئاً، ولا يملكون نفعاً ولا ضرراً ﴿بَلِ﴾ المشركون ﴿الظَّالِمُونَ﴾ على أنفسهم باتخاذهم آلهة، وإشراكهم له في العبادة ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ وانحراف ﴿مُبِينٍ﴾ ظاهر عن الصراط المستقيم بحيث لا يخفى على من كان له أدنى مرتبة من الشعور وأقل درجة من البصيرة، فأعرض سبحانه عن المشركين وكفار قريش وغيرهم، وأضرب عن إزاهم إلى التسجيل عليهم بالبعد عن الحق بعداً واضحاً لا يخفى على ناظر.



وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ  
فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ [١٢]

ثمَّ أنه تعالى بعد ذكر أدله التوحيد، حكى توحيد لقمان الذي كانت حكمته ووصاياه على ما قيل مشهورة في اليهود وغيرهم من أهل الكتاب، بحيث إذا اعترى للعرب هم<sup>١</sup> رجعوا فيه إلى اليهود، فضربوا لهم الأمثال بما قاله لقمان من الحكم<sup>٢</sup>، بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ وأعطينا ﴿لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ ومعرفة حقائق الأشياء ومصالح الأمور ومفاسدها، وتوفيق العمل بعلمه، وتهذيب الأخلاق، وتكميل النفس، وطول الفكر، وإصابة النظر في المعارف الالهية.

وعن الكاظم عليه السلام قال: «الفهم والعقل»<sup>٣</sup>.

وعن الصادق عليه السلام قال: «أوتى معرفة إمام زمانه»<sup>٤</sup>.

قيل: إنه كان ابن باعور بن ياجور بن تارخ أبي إبراهيم الخليل<sup>٥</sup>. وقيل: اسم أبيه أذر<sup>٦</sup>. وقيل: إنه ابن عتقاء بن سرون<sup>٧</sup>. وقيل: إنه كان من بني إسرائيل، وكان ابن أخت أيوب<sup>٨</sup>. وقيل: كان ابن خالته<sup>٩</sup>. وقيل: إنه كان عبداً نوبياً من أهل أيله<sup>١٠</sup>. وعن المسيب: هو أسود من سودان مصر<sup>١١</sup>. وقيل: إنه كان حبشياً ونما في بني إسرائيل<sup>١٢</sup>. قيل: إنه كان عبداً أسود اللون، غليظ الشفتين، منشق القدمين<sup>١٣</sup>. وعن ابن عباس: أن لقمان لم يكن نبياً ولا ملكاً، ولكن كان راعياً أسود، فوزقه الله العتق، ورضي قوله ووصيته<sup>١٤</sup>.

وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «حقاً أقول لم يكن لقمان نبياً، ولكن كان عبداً كثير التفكير، حسن اليقين، أحب الله فأحبه ومنَّ عليه بالحكمة»<sup>١٥</sup>.

[رؤي أن لقمان] كان نائماً نصف النهار إذ جاءه نداء: يا لقمان، هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس بالحق؟ فأجاب الصوت: إن خيرني ربِّي قبلت العافية ولم أقبل البلاء، وإن هو عزم عليّ فسمعاً وطاعة، فأنى أعلم أنه إن فعل بي ذلك أعانني وعصمني.

فقال الملائكة بصوت لا يراه: لم يا لقمان؟ قال: لأن الحكم أشد المنازل وأكدرها، يغشاها الظلم

١. كذا، والظاهر مهم. ٢. تفسير روح البيان ٧: ٧٣.

٣. الكافي ١: ١٠/١٢، تفسير الصافي ٤: ١٤١.

٤. تفسير روح البيان ٧: ٧٣.

٥. تفسير أبي السعود ٧: ٧١، تفسير روح البيان ٧: ٧٣.

٦. مجمع البيان ٨: ٩٤، جوامع الجامع: ٣٦٢.

٧. تفسير روح البيان ٧: ٧٣.

٨. جوامع الجامع: ٣٦٢.

٩. تفسير الكشاف ٣: ٤٩٣.

١٠. مجمع البيان ٨: ٩٣.

١١. تفسير روح البيان ٧: ٧٣، مرسلاً.

من كل مكان، إن أصاب فبالحرى أن ينجو، وإن أخطأ طريق الجنة، ومن يكن في الدنيا ذليلاً خيراً من أن يكون شريفاً - وفي رواية: ومن يكن في الدنيا ذليلاً، وفي الآخرة شريفاً، خيراً من أن يكون في الدنيا شريفاً، وفي الآخرة ذليلاً - ومن يختار الدنيا على الآخرة ثقتُه الدنيا ولا يُصيب الآخرة. فعجبت الملائكة من حُسن منطق، فنام نومة فأعطي الحكمة، فانتبه وهو يتكلم بها<sup>١</sup>.

وقيل: ثم تودي داود فقبلها، وقال له داود: طوبى لك يا لقمان أعطيت الحكمة، وضرفت عنك البلوى. وكان لقمان يؤازره بحكمته<sup>٢</sup>.

وقيل: إنه ولد في السنة العاشرة من سلطنة داود، وعاش إلى زمان يونس النبي<sup>٣</sup>.

وقيل: عمر ألف سنة، وتعلم من ألف نبي، وكان راعياً أو نجاراً<sup>٤</sup>. ويُقال عنه عشرة آلاف كلمة حكمة، كل كلمة تسوى بجميع العالم<sup>٥</sup>.

قيل: إن أول ما ظهرت من حكمته أنه قال له مولاه وهو يرفع أغنامه: يا لقمان، اذبح شاة، وأتني منها بأطيب مُضغتين. فأناه باللسان والقلب، ثم قال له: اذبح شاة، وأتني بأخبث مُضغتين منها. فأناه باللسان والقلب، فسأله عن ذلك، فقال لقمان: ليس شيء أطيب منهما إن طابا ولا أخبث منهما إن خبثا، فاستحسن كلامه فاعتقه<sup>٦</sup>.

وروي من حكمته الطيبة أنه بينما هو مع مولاه، إذ دخل المخرج<sup>٧</sup>، فأطال الجلوس، فناداه لقمان: إن الجلوس على الحاجة يتجزع منه الكبد، ويورث الناسور، ويصعد الحرارة إلى الرأس، فاجلس هويناً وقم هويناً. فخرج وكتب حكمته على باب الحش<sup>٨</sup>.

وقيل: بينما هو يعظ الناس يوماً وهم مجتمعون عليه لاستماع كلمة الحكمة، إذ مر به عظيم من عظماء بني إسرائيل، فقال: ما هذه الجماعة؟ قيل له: هذه جماعة اجتمعت على لقمان الحكيم. فأقبل إليه فقال له: ألسنت العبد الأسود الذي كنت ترعى بموضع كذا وكذا؟ قال: نعم. فقال: فما الذي بلغ بك ما أرى؟ قال: صدق الحديث، وأداء الأمانة وترك ما لا يعني<sup>٩</sup>.

وحكي أنه قال: خدمت أربعة آلاف نبي، واخترت من كلماتهم ثمانى كلمات: إن كنت في الصلاة فاحفظ قلبك. وإن كنت في الطعام فاحفظ حلقك، وإن كنت في بيت الغير فاحفظ عينيك، وإن كنت

١. مجمع البيان ٨: ٤٩٤، تفسير الصافي ٤: ١٤١، تفسير روح البيان ٧: ٧٥.

٢. مجمع البيان ٨: ٤٩٤، تفسير الصافي ٤: ١٤٢، تفسير روح البيان ٧: ٧٥.

٣. تفسير الكشاف ٣: ٤٩٣. ٤. لم نثر عليه.

٥. لم نثر عليه.

٦. المخرج: الحش أو الكنيف، وهو موضع قضاء الحاجة.

٧. تفسير روح البيان ٧: ٧٦.

٨. مروج الذهب ١: ٧٠.

٩. تفسير روح البيان ٧: ٧٦.

١٠. تفسير روح البيان ٧: ٧٦.

بين الناس فاحفظ لسانك، واذكر اثنين، وأنت اثنين، أما اللذان تذكّرهما فإله والموت، وأما اللذان تنساهما إحسانك في حق الغير، وإساءة الغير في حقك<sup>١</sup>.

وقيل: إنه كان مع داود ثلاثين سنة، وكان عنده يوماً، فرآه يسرد الدرع<sup>٢</sup>، فجعل لقمان يتعجب مما يرى، ويريد أن يسأله وتمنعه حكمته عن السؤال، فلما أتمها لبسها، وقال: نعم لبوس الحرب هذه. فقال لقمان: إن من الحكمة الصمت، وقليل فاعله. فقال داود: بحق سميت حكيماً<sup>٣</sup>.

وقيل: إن داود قال له يوماً: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت بيد غيري. فتفكر داود فيه، فصعق صعقة، وخر مغشياً عليه<sup>٤</sup>.

وقيل له: أي الناس شر؟ قال: الذي لا يبالى أن يراه الناس مُسيئاً<sup>٥</sup>.

وقال: الدنيا بحر عميق، هلك فيه خلق كثير، فاجعل الايمان بالله سفينةك، والتقوى زاد الآخرة، فمن نجا فبرحمة الله، ومن هلك فبذنوبه<sup>٦</sup>.

وقال: ليس مالٌ كالصحة، ولا نعيم كطيب النفس.

وقيل: إنه قديم من سفر، فلقي غلامه في الطريق، فقال: ما فعل أبي؟ قال: مات. قال: الحمد لله ملكت أمري. قال: ما فعلت أمي؟ قال: ماتت. قال: ذهب همي. قال: ما فعلت أختي؟ قال: ماتت. قال: شئت عورتني. قال: ما فعلت زوجتي؟ قال: ماتت. قال: جُدد فراشي. قال: ما فعل أخي؟ قال: مات. قال: انقطع ظهري، وكثير جناحي. قال: ما فعل ابني؟ قال: مات. قال: تصدّع قلبي<sup>٧</sup>.

وقال يوماً لداود: احفظ مني خمس كلمات فيها علم الأولين والآخرين: أولها: ليكن عملك للدنيا بقدر لبثك فيها، وثانيها: ليكن عملك للآخرة بقدر لبثك فيها. ثالثها: ليكن همك أن يُعتقك مولاك من النار. رابعها: ليكن جزاؤك على المعصية بقدر صبرك على النار. خامسها: إذا أردت العصيان فاطلب مكاناً لا يراك فيه ربك.

عن الصادق عليه السلام أنه سُئل عن لقمان وحكمته التي ذكرها الله عز وجل [فقال]: «أما والله ما أوتي لقمان الحكمة بحسب، ولا مال، ولا أهل، ولا بسط في الجسم، ولا جمال، ولكنه كان رجلاً قوياً في أمر الله، متورعاً في الله، ساكناً سكيناً، عميق النظر، طويل الفكر، حديد النظر، مستعبراً بالعبر<sup>٨</sup>، لم يتم

١. تفسير روح البيان ٧: ٧٣.

٢. سرد الدرع: نسجها فشك طرفي كل حلقتين وسمرهما.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٧٦.

٤. من لا يحضره الفقيه ٢: ٨٣٣/١٨٥، مجمع البيان ٨: ٤٩٦.

٥. مجمع البيان ٨: ٤٩٦.

٦. تفسير روح البيان ٧: ٧٧.

٨. في النسخة: مستغن بالغير.

نهاره قط، ولم يره أحد على بول ولا غائط ولا اغتسال، لشدة تسرُّه، وعمق نظره، وتحفُّظ في أمره، ولم يضحك من شيء قط مخافة الإثم، ولم يغضب قط، ولم يمازح إنساناً قط، ولم يفرح بشيء إذا أتاه من أمر الدنيا، ولا حزن منها على شيء قط، وقد نكح من النساء وولد له الأولاد الكثير، وقدّم أكثرهم أفرأطاً<sup>٢</sup> فما بكى على موت أحد منهم، ولم يمرّ برجلين يختصمان أو يقتتلان إلا أصلح بينهما، ولم يمض عنهما حتى تحابا، ولم يسمع قولاً قط من أحد استحسنة إلا سأل عن تفسيره وعمن أخذه، وكان يكثر مجالسة الفقهاء والحكماء، وكان يغشى القضاة والملوك والصلّطين، فيرثي القضاة ممّا ابتلوا به، ويرحم الملوك والصلّطين لعزّتهم بالله وطمأنينتهم في ذلك، ويعتبر ويتعلّم ما يغلب به نفسه، ويُجاهد به هواه ويحتريز به من الشيطان، وكان يدّوي قلبه بالتفكير، ويدّوي نفسه بالعبر، ولا يَضَعْنَ إلا فيما يعينه، فبذلك أوتي الحكمة ومُنِح العَصْمة<sup>٣</sup>.

ثم ذكر قصّة تخييره بين الخلافة والحكمة قريباً ممّا حكيت عن العامة، إلى أن قال: «فلما أمسى وأخذ مضجعه من الليل، أنزل الله عليه الحكمة، فغشي بها من قرّنه إلى قدمه»<sup>٤</sup> الخبر. وقال الله له: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ﴾ على ما أنعم عليك من الحكمة وغيرها من النعم ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ﴾ نعم الله ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرْ﴾ ونفع شكره عائد ﴿لِنَفْسِهِ﴾ لا يتعدّاه إلى غيره، وهو دأوم النعمة واستحقاق المزيد.

وعن الصادق عليه السلام: «شكر كلّ نعمة وإن عظمت أن يحمّد الله عليها<sup>٥</sup>، وإن كان فيما أنعم عليه حقّ أدّاه»<sup>٦</sup> وفي رواية أخرى عنه عليه السلام: «من أنعم الله عليه بنعمة فعرّفها بقلبه، فقد أدّى شكرها»<sup>٧</sup>. ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ نعمة الله، وخالف أحكامه وأوامره، وأنكر توحيدَه وحقّ نعمه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عنه، ولا يحتاج إلى شكره وعبادته ﴿حَمِيدٌ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله، محمود في أرضه وسمائه، سواء حمده خلّقه أو شكره عباده، أو لم يحمدوه وكفّروه.

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ \*  
وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّالَةٌ فِي عَمَلَيْنِ أَنْ  
أَشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ \* وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ

١. في النسخة: وعموق. ٢. أي ماتوا صغاراً قبل أن يبلغوا الحلم.

٣. تفسير القمي ٢: ١٦٢، مجمع البيان ٨: ٩٧، تفسير الصافي ٤: ١٤٢.

٤. تفسير القمي ٢: ١٦٣، تفسير الصافي ٤: ١٤٣.

٥. الكافي ٢: ١١/٧٨، تفسير الصافي ٤: ١٤١.

٦. الكافي ٢: ١٢/٧٨، تفسير الصافي ٤: ١٤١.

٧. الكافي ٢: ١٥/٧٩، تفسير الصافي ٤: ١٤١.

لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْغِهِمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ  
إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [١٣-١٥]

ثم أنه تعالى بعد ذكر حكمة لقمان ذكر وعظه لابنه الذي كان أعز الناس عنده ونهيه عن الشرك بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ قيل: إن التقدير واذكر يا محمد لقومك وغيرهم من المشركين حين قال ﴿لَقَمَانُ لِابْنِي هُوَ يُعِظُّهُ﴾<sup>١</sup> قيل: إن اسمه أنعم ترحماً وعطوفة<sup>٢</sup>: ﴿يَا بَنِي لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ شيئاً في الألوهية والعبادة ﴿إِنَّ الشِّرْكَ بِاللَّهِ وَاللَّهُ ﴿ظَلَمَ عَظِيمٌ﴾ فَانَّهُ تَسْوِيَةٌ بَيْنَ الْخَالِقِ الْقَادِرِ الْمُتَعَمِّعِ بِجَمِيعِ الشَّعْمِ وَالْمَخْلُوقِ الْعَاجِزِ الَّذِي لَا نِعْمَةَ لَهُ عَلَى أَحَدٍ.

عن الباقر عليه السلام: «الظلم ثلاثة: ظلم يغيره الله، وظلم لا يغيره الله، وظلم لا يدعه الله، وأما الظلم الذي لا يغيره الله فالشرك» الخبر<sup>٣</sup>.

ثم أكد سبحانه النهي عن الشرك ببيان حق الوالدين على الولد ووجوب برهما وشكرهما، ومع ذلك لا يجوز إطاعة أمرهما بالشرك وإن أصراً بقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾ وأوجبنا عليه أكيداً أن يبرّ بوالديه، ويحسن إليهما لأنه ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾ في بطنها وحملت<sup>٤</sup> به، فتجد في نفسها بسبب حملها ﴿وَهَنَّا عَلَى وَهْنٍ﴾ وضعفاً في الخلق والخلق فوق ضعف يوماً بعد يوم حتى تضع حملها، ثم ترضعه إلى حين فصاله ﴿وَفَصَالُهُ﴾ وقطعه من الرضاع كائن ﴿فِي﴾ آخر ﴿عَامَتَيْنِ﴾ من ولادته.

وقلنا له: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي﴾ أيها الإنسان بالقيام بوظائف عبوديتي ﴿وَوَ﴾ اشكر ﴿لِوَالِدَيْكَ﴾ بالبر والإحسان والاشفاق والتوفيق، لكونهما سببين لوجودك، وريايك في الظاهر.

عن الرضا عليه السلام في حديث «وأمر بالشكر له وللوالدين، فمن لم يشكر والديه لم يشكر الله»<sup>٥</sup>.

وعنه عليه السلام: «من لم يشكر المنعم من المخلوقين، لم يشكر الله عز وجل»<sup>٦</sup>.

واعلم أنه بعد الخروج من الدنيا ﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾ والمرجع، فأجازي الشاكر بالثواب العظيم، والكفور بالعذاب الأليم.

وعن الصادق عليه السلام: «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، من أبر؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك»<sup>٧</sup>.

٢. تفسير روح البيان ٧: ٧٧.

٤. في النسخة: وأحببت.

٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٣/٢٥٨، تفسير الصافي ٤: ١٤٣.

٦. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢/٢٤، تفسير الصافي ٤: ١٤٤.

٧. الكافي ٢: ٩/١٢٧، تفسير الصافي ٤: ١٤٤.

١. تفسير روح البيان ٧: ٧٧.

٣. الكافي ١/٢٤٨، تفسير الصافي ٤: ١٤٣.

١٢٠ ..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٥

وعن الرضا عليه السلام: قيل: له: أَدْعُو لَوَالِدَيْكَ إِنْ كَانَا لَا يَعْرِفَانِ الْحَقَّ؟ قال: «أَدْعُ لِهَمَا، وَتَصَدَّقْ عَنْهُمَا، وَإِنْ كَانَا حَيَيْنِ لَا يَعْرِفَانِ الْحَقَّ فَدَارِهِمَا، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَبْغِي بِالرَّحْمَةِ لَا بِالْعُقُوبِ»<sup>١</sup>. ومع ذلك ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ﴾ ونازعاك وأصرّا ﴿عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي﴾ في الألوهية والعبادة ما تعلم بعدم تأهله للألوهية وعدم استحقاقه للعبادة، بل ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ ولم يَتَمَّ على استحقاقه برهان ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك، فإنه لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق، ﴿وَلَكِنْ صَاحِبَهُمَا﴾ وعائير معهما ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ صحاباً ﴿مُتَرَفِّقاً﴾ ومعاشرة جميلة يرتضيها الشرع، ويقتضيه الكرم من الاتفاق والتكريم والخدمة.

عن الصادق عليه السلام: «بَرِّ الْوَالِدَيْنِ وَاجِبٌ، وَإِنْ كَانَا مُشْرِكِينَ، وَلَا طَاعَةَ لِهَمَا فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ، وَلَا لغيرهما»<sup>٢</sup> الخبر.

وعنه عليه السلام: «بَرِّ الْوَالِدَيْنِ مِنْ حُسْنِ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ، إِذْ لَا عِبَادَةَ أُسْرِعَ بِلَوْغاً بِصَاحِبِهَا إِلَى رِضَا اللَّهِ تَعَالَى مِنْ خُرْمَةِ الْوَالِدَيْنِ الْمُسْلِمِينَ لَوَجْهِ اللَّهِ، لِأَنَّ حَقَّ الْوَالِدَيْنِ مُشْتَقٌّ مِنْ حَقِّ اللَّهِ إِذَا كَانَا عَلَى مِثَاجِ الدِّينِ وَالسُّنَّةِ، وَلَا يَكُونَانِ يَمْنَعَانِ الْوَلَدَ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ إِلَى مَعْصِيَتِهِ، وَمَنْ الْيَقِينُ إِلَى الشُّكِّ، وَمَنْ الزُّهْدُ إِلَى الدُّنْيَا، وَلَا يَدْعُوَانِهِ إِلَى خِلَافِ ذَلِكَ، فَإِذَا كَانَا كَذَلِكَ فَمَعْصِيَتُهُمَا طَاعَةٌ، وَطَاعَتُهُمَا مَعْصِيَةٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ﴾ الآية.

وأما في باب العشرة فدارهما وأرقق بهما، واحتمل أذاهما نحو ما احتملا منك حال صغرك، ولا تُضَيِّقْ عليهما بما قد وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْكَ مِنَ الْمَأْكُولِ وَالْمَلْبُوسِ، وَلَا تَحُولْ وَجْهَكَ عَنْهُمَا، وَلَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ فَوْقَ صَوْتِهِمَا، فَإِنَّ تَعْظِيمَهُمَا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَوْلُ لِهَمَا بِأَحْسَنِ الْقَوْلِ وَالطَّفْقِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ»<sup>٣</sup> ﴿وَأَتَّبِعْ﴾ في جميع أعمالك خصوصاً السُّلُوكَ مع الْوَالِدَيْنِ ﴿سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾ وَرَجَعَ ﴿إِلَيَّْ﴾ بالتوحيد والطاعة واقتد به.

عن الباقر عليه السلام يقول: «سَبِيلَ مُحَمَّدٍ»<sup>٤</sup>.

﴿ثُمَّ﴾ بعد الخروج من الدنيا ﴿إِلَيَّْ﴾ يكون ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ أيها الأولاد والآباء والأمهات ﴿فَأَنْبِئُكُمْ﴾ إذن ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من الشُّرْكِ والتوحيد والرحمة والعقوب والطاعة والعصيان بالإثابة والعقوبة.

١. الكافي ٢: ١٢٧/٨، تفسير الصافي ٤: ١٤٤.

٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٢٤/١، وتفسير الصافي ٤: ١٤٤، عن الرضا عليه السلام.

٣. مصباح الشريعة: ٧٠، تفسير الصافي ٤: ١٤٤. ٤. تفسير القمي ٢: ١٦٥، تفسير الصافي ٤: ١٤٥.

يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ  
أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ [١٦]

ثم أن لقمان بعد نهى ولده عن الشُّرك هدَّه على الشُّرك الخفي والمعاصي السَّرية بعلم الله تعالى بخفيات الأمور بقوله: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ أخبرك بالقصة العجيبة ﴿إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ ومقدارها في الصَّغر والقَلَّة ﴿فَتَكُنْ﴾ مع كونها في نهاية الصَّغر ﴿فِي﴾ وسط ﴿صَخْرَةٍ﴾ وحجر صلب، أي صخرة كانت صغيرة أو كبيرة. قيل: هي كناية عن أخفى مكان وأحرزه<sup>١</sup>. وعن ابن عباس: هي الصخرة التي عليها المَلِك الحامل للأرض، وهي ليست في السماوات والأرض<sup>٢</sup>.

﴿أَوْ﴾ كانت ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ مع غاية بُعدها، وقيل: إن المراد منها العالم العلوي ﴿أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾ والعالم السفلي<sup>٣</sup>. وقيل: إن المراد بطن الأرض، وهو أظلم مكان ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ ويحضرها ويحاسب عليها، ويحضرها للاغتذاء بها. وقيل: إن كلامه ذلك لتربية التوكل في قلب ابنه، لتلا يميل إلى الشُّرك بطَمَع الرِّزْق<sup>٤</sup>.

القمي، قال: إن الرزق يأتيك به الله<sup>٥</sup>.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ وعالم بخفيات الأمور، أو نافذ القدرة في كل شيء، أو ذو العطفة بالعباد ﴿خَبِيرٌ﴾ ومُطَّلِع على كُنه الأشياء وقيل: يعني قدير على استخراج الحبة من بطن الصخرة، وخبير بمستقرها<sup>٦</sup>.

العباسي، عن الصادق عليه السلام: «اتقوا المحقرات من الذنوب، فإن لها طالباً، لا يقول أحدكم: أذنبت واستغفر الله، إن الله يقول: ﴿إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾» الآية<sup>٧</sup>.

قيل: إن هذه الكلمة آخر كلمة تكلم بها لقمان، فانشقت مرارته من هيبتها فمات<sup>٨</sup>.

يَا بُنَيَّ أَمِمِ الصَّلَاةَ وَأَمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ  
إِنْ ذَلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ \* وَلَا تَصْغُرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً  
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ \* وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَعْصِصْ مِنْ صَوْتِكَ

١. تفسير روح البيان ٧: ٨١.

٢. تفسير أبي السعود ٧: ٧٢، تفسير روح البيان ٧: ٨١.

٣. تفسير جوامع الجامع: ٣٦٢.

٤. مجمع البيان ٨: ٤٩٩.

٥. تفسير روح البيان ٧: ٨٢.

٦. تفسير روح البيان ٧: ٨١.

٧. تفسير القمي ٢: ١٦٥، تفسير الصافي ٤: ١٤٥.

٨. مجمع البيان ٨: ٤٩٩، تفسير الصافي ٤: ١٤٥.

## إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ [١٧-١٩]

ثم أنه بعد نهى ابنه عن الشُّرك الملازم لأمره بالتوحيد، أمره بلوازمه من العبادات المهمة بقوله: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ التي هي أفضل العبادات لله تكميلاً لنفسك وواظب عليها ﴿وَأْمُرْ﴾ غيرك ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ والمستحسن عند الشرع والعقل ﴿وَأَنَّهُ عَنِ الْفُكْرِ﴾ والمستحب عندهما تكميلاً لغيرك ﴿وَأَاضِرٍ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ من المشاق والشدائد كالْفَقْرِ وَالْمَرَضِ وغيرهما.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «من المشقة والأذى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»<sup>١</sup>.

﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ المذكور من الوصايا ﴿مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ﴾ وحمياتها وواجباتها التي لا يجوز التواني فيها ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ﴾ ولا تُمل وجهك تحقيراً ﴿لِلنَّاسِ﴾ وتكبراً عليهم. وعن الصادق عليه السلام: «لا تعرض عمن يكلمك استخفافاً به»<sup>٢</sup>.

والقمي: لا تدل للناس طمعاً فيما عندهم<sup>٣</sup>.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ وبطراً. قيل: يعني حال كونك ذا فرح شديد<sup>٤</sup>. وعن الباقر عليه السلام، يقول: «بالعظمة»<sup>٥</sup>.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ ومُتَكَبِّرٍ ﴿فَخُورٍ﴾ ومباهٍ بالمال والجاه والنسب وغيرها من النعم الدنيوية. وعن بعض الحكماء: إن افتخرت بفركك فالحسن والقراءة له دونك، وإن افتخرت بثيابك فالجمال لها دونك، وإن افتخرت بأبائك فالفضل فيهم لا فيك، فإن افتخرت فافتخر بما فيك<sup>٦</sup>.

عن النبي صلى الله عليه وآله أنه نهى أن يختال الرجل في مشيه، وقال: «من لبس ثوباً فاختال فيه، خسف الله به من شفير جهنم، وكان قرين قارون؛ لأنه أول من اختال فحسف به وبداره الأرض، ومن اختال فقد نازع الله في جبروته»<sup>٧</sup>.

﴿وَأَقْصِدْ﴾ وتوسط ﴿فِي مَشْيِكَ﴾ بعد الاجتناب عن المَرَح بعد الدبيب والإسراع، وعليك بالسكينة والوقار والتواضع فيه، في الحديث: «سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن»<sup>٨</sup>. وروى العامة: أن عمر كان إذا مشى أسرع<sup>٩</sup>، والقمي قال: أي لا تعجل<sup>١٠</sup>.

٢. مجمع البيان ٨: ٥٠٠، تفسير الصافي ٤: ١٤٥.

١. مجمع البيان ٨: ٥٠٠، تفسير الصافي ٤: ١٤٥.

٤. تفسير روح البيان ٧: ٨٥.

٣. تفسير القمي ٢: ١٦٥، تفسير الصافي ٤: ١٤٥.

٦. تفسير روح البيان ٧: ٨٥.

٥. تفسير القمي ٢: ١٦٥، تفسير الصافي ٤: ١٤٥.

٩. تفسير روح البيان ٧: ٨٥.

٧. من لا يحضره الفقيه ٤: ١٧٧، أمالي الصدوق: ٧٠٧/٥١٤، تفسير الصافي ٤: ١٤٦.

٨. تفسير روح البيان ٧: ٨٥.

١٠. تفسير القمي ٢: ١٦٥، تفسير الصافي ٤: ١٤٦.



ثم لما كان من وسائل النبل إلى المقصود للبعد عنه المشي والصوت، أردف ذكر الأدب في المشي بذكر الأدب في الصوت بقوله: ﴿وَأَغْضَضْ﴾ وانقَضَ ﴿مِنْ صَوْتِكَ﴾ في التكلّم والتخاطب، فإن رفع الصوت ليس فيه فضيلة، بل هو مما يَنكِرُه الطبع ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ وأقبحها وأوحشها والله ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ عند أغلب الناس سيما العرب، قيل: إن المشركين كانوا يفتخرون برفع الصوت، فردّهم الله بتشبيه الصوت الرفيع بصوت الحمارِ مبالغة في الذم. قيل: إن صوت كلّ حيوان تسبيح إلا صوت الحمير، فإنها تصيح لرؤية الشيطان<sup>١</sup>. وفي الحديث: «إذا سمعتم نُهاق الحمير فتعدّوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطاناً»<sup>٢</sup>، وإما حكى سبحانه تلك الوصايا من لقمان لشيوخ الشُّرك وما يليه من الصفات القبيحة المنهي عنها في العرب<sup>٣</sup>.

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ \* وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْنَا آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ [٢٠ و ٢١]

ثم أنه تعالى بعد الاستدلال على توحيده بخلق السماوات بغير عمدٍ، وبيعض نعمه كانزال المطر وإلقاء الجبال في الأرض وإنبات النباتات النافعة، عاد إلى الاستدلال عليه بتسخير ما في السماوات والأرض وعموم نعمه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ ولم تعلموا يا بني آدم ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ بقدرته ﴿سَخَّرَ﴾ وساق بالقهر إلى المنافع التي تكون ﴿لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الملائكة والكواكب، وجعلها مدبرات العالم السفلي من الزماني كالفصول الأربعة والليل والنهار والشهور، ومن الجسماني كالمعادن والنباتات وغيرهما ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ كالجبال والأنهار والبحار وغيرها بأن مكنكم من الانتفاع بها بواسطة وبلا واسطة ﴿وَأَسْبَغَ﴾ وأكمل ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بلطفه ﴿نِعَمَهُ﴾ والأمور النافعة في حياتكم وتربيتكم وكما لكم كانت ﴿ظَاهِرَةً﴾ ومحسوسة كحسن الصورة، واستواء القامة، وكمال الأعضاء والحواس الظاهرة ﴿وَبَاطِنَةً﴾ وغير محسوسة كالروح والعقل والفهم والفكر والمعرفة، ودين الاسلام، وإرسال الرسول، وإنزال الكتاب.

عن ابن عباس قال: سألت رسول الله ﷺ ما هذه النعمة [الظاهرة] والباطنة؟ قال: «أما الظاهرة: فالاسلام وما حسن من خلقك وما أفضل عليك من الرزق، وأما الباطنة: فما ستر من سوء عملك

١٢٤ ..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٥

ولم يفضحك به. يا ابن عباس، يقول الله تعالى: إِنِّي جَعَلْتُ لِلْمُؤْمِنِ ثَلَاثَ صَلَاةٍ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ بَعْدَ انْقِطَاعِ عَمَلِهِ أَكْثَرَ بِرِهِ عَنْهُ خَطَايَاهُ، وَجَعَلْتُ لَهُ ثَلَاثَ مَالَةٍ لِيُكَفِّرَ بِهِ عَنْهُ خَطَايَاهُ، وَسُتِرَتْ عَلَيْهِ شُؤْ عَمَلِهِ الَّذِي لَوْ قَدْ أُرِيَتْهُ لِلنَّاسِ لَنَبَذَهُ أَهْلُهُ وَمَنْ سِوَاهُمْ»<sup>١</sup>.

وقيل: إن الظاهرة: سهولة الأحكام، والباطنة: الشفاعة. وقيل: الظاهرة: النعم الدينية، والباطنة: النعم الأخروية. وقيل: الظاهرة: القرآن، والباطنة: العلم بتأويلاته وحقائقه<sup>٢</sup>.

وعن الباقر (عليه السلام): «أما النعمة الظاهرة فالنبي (صلى الله عليه وآله) وما جاء به من معرفة الله وتوحيده، وأما النعمة الباطنة فولایتنا أهل البيت وعقد مودتنا»<sup>٣</sup>.

وعن الكاظم (عليه السلام): «النعمة الظاهرة الإمام الظاهر، والباطنة الإمام الغائب»<sup>٤</sup>.

﴿وَمَعَ ذَلِكَ مِنْ النَّاسِ﴾ وبعضهم ﴿مَنْ يُجَادِلُ﴾ ويخاصم ﴿فِي﴾ ذات ﴿الله﴾ أو توحيده، أو كتابه ﴿يُغَيِّرُ عِلْمَ﴾ حاصل من برهان قاطع ﴿وَلَا هُدًى﴾ من بيان الرسول وعالم رباني ﴿وَلَا كِتَابٍ﴾ سماوي ﴿مُنِيرٍ﴾ وموضح للحق، ومضيء للطريق القويم، بل يجادل بمجرد التقليد والظن الحاصل من الهوى.

وقيل: إن المجادل في كتاب الله هو النضر بن الحارث، حيث قال: إنه أساطير الأولين<sup>٥</sup>.

﴿وَمَعَ الشَّاهِدِ عَلَى أَنَّ مَجَادِلَتَهُمْ لَا تَكُونُ إِلَّا عَنْ تَقْلِيدِ آبَائِهِمْ هُوَ أَنَّهُ﴾ إِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴿بَطَرِيقِ النَّصْحِ﴾ أَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ اللهُ ﴿عَلَى نَبِيِّهِ مِنَ الْقُرْآنِ النَّاطِقِ بِالتَّوْحِيدِ﴾ قَالُوا: ﴿لَا نَتَّبِعُهُ﴾ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴿الْمَاضِينَ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ﴾.

عن الباقر (عليه السلام): «هو النضر بن الحارث، قال له رسول الله (صلى الله عليه وآله): اتَّبِعْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ. قال: بل أَتَّبِعْ مَا وَجَدْتُ عَلَيْهِ آبَائِي»<sup>٦</sup>.

ثم ردَّهم الله بقوله: ﴿أَوَلَوْ﴾ قيل: إن التقدير أَتَّبِعُونَ آبَاءَكُمْ<sup>٧</sup> ولو ﴿كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ﴾ بما هم عليه مِنَ الشَّرِّ ﴿إِلَى﴾ الْوُرُودِ فِي ﴿عَذَابِ﴾ النَّارِ ﴿السَّعِيرِ﴾ وَالْمُلْتَهَبِ فَيَجِئُونَ إِلَيْهِ.

وَمَنْ يَسْلَمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ \* وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ

١. مجمع البيان ٨: ٥٠١، تفسير روح البيان ٧: ٩٠. ٢. مجمع البيان ٨: ٥٠١.

٣. تفسير القمي ٢: ١٦٥، مجمع البيان ٨: ٥٠١، تفسير الصافي ٤: ١٤٨.

٤. كمال الدين ٦/٣٦٨، مناقب ابن شهر آشوب ٤: ١٨٠، تفسير الصافي ٤: ١٤٨. ٥. تفسير روح البيان ٧: ٩٠.

٦. تفسير القمي ٢: ١٦٦، تفسير الصافي ٤: ١٤٩. ٧. تفسير أبي السعود ٧: ٧٤، تفسير روح البيان ٧: ٩١.

اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ \* ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ [٢٢-٢٤]

ثم أنه تعالى بعد ذم الكفار المجادلين في الله مدح المؤمنين المستسلمين له بقوله: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ﴾ ونفسه ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ تسليم المتاع لملكه، وأقبل بشرائره عليه وفوص أموره له ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في أعماله مجد في القيام بوظائف عبوديته ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ﴾ وتعلق ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ والحبل المحكم الذي لا انقطاع له، ولا يخاف معه من التردّي في مهاوي الهلاك والضلال في الدنيا، ومن السقوط في الجحيم في الآخرة، وتكون عاقبته أحمد العواقب؛ لأنّ إلى الله يكون مآل جميع الأشياء ﴿وَالِلَّهِ اللَّهُ﴾ تنتهي ﴿عَاقِبَةُ﴾ جميع ﴿الْأُمُورِ﴾ فيُجازي الموحد المستسلم إليه أحسن الجزاء، ويثيبه أفضل الثواب.

ثم لما ذكر لجأ الكفار وجدالهم في التوحيد وتكذيبهم للرسول، سآله سبحانه بقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ بالتوحيد وكذبك فيه ﴿فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُ﴾ وتكذيبه، فإنه سيظهر لهم صدقك، لأنه بعد خروجهم من الدنيا يكون ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ وإلى محكمتنا مآبهم ﴿فَنُنَبِّئُهُمْ﴾ ونعلمهم بعد رجوعهم إلينا ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا من الكفر بالتوحيد وتكذيبك، ولا يخفى علينا شيء من أعمالهم ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الخالق لجميع أجزاء الخلق بقدرته ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وما في قلوبهم من الضمائر والنيات، ولا تنظر إلى النعم التي أنعمنا عليهم في الدنيا من الصحة والجاه والمال والأولاد، فإنّا ﴿نُمتّعُهُمْ﴾ ونفعمهم بنعمنا في الدنيا زماناً ﴿قَلِيلاً﴾ وإن طال عمرهم فإنه بالنسبة إلى عمرهم في الآخرة في غاية القصر.

ثم يموتون ويُعدّون في البرزخ، ثم يُبعثون من قبورهم إلى المحشر ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ ونُلجئهم ﴿إِلَى﴾ الورد في ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وعقاب دائم شديد غايته، فعند ذلك يتبين لهم صدقك وكذبهم.

وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ \* اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ

الْحَمِيدُ [٢٥ و ٢٦]

ثم نبه سبحانه نبيه ﷺ على أن ظهور صدقه لهم لا يتوقف على البراهين المذكورة، ولا على مجيء الحشر، بل هو ظاهر لهم في الدنيا بالفطرة بقوله: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ يا محمد ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ بقدرته والله ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ في جوابك ﴿اللَّهُ﴾ وحده خلقهما، لغاية وضوح الأمر بحيث اضطروا إلى الإقرار به ﴿قُلْ﴾ إذن ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ظهور صدقك، أو على جعله دلائل

التوحيد بحيث لا يمكن للمكابر إنكارها، فليس شركهم لإنكاره ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن مقتضى اعترافهم تصديقك، أو لازمه ترك الشرك وعبادة الله وحده.

ثم لما اعترفوا بأن الله خالق السماوات والأرض، فعليهم أن يعترفوا بأن ﴿الله﴾ وحده ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الملائكة الذين يقول بعضهم: إنهم بنات الله، ومن الكواكب التي يعبدها كثير من المشركين ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الأصنام وغيرها من الأشياء، ولا يحتاج إلى شيء من الموجودات وعبادتهم وحمدهم، بل ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ بذاته ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عما سواه ﴿الْحَمِيدُ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله، وإن لم يحمده شيء.

### وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفَذْتُ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [٢٧]

ثم لما ذكر مالكيته لما في العالم العلوي والسفلي، وكان محالاً توهم حصر سلطانه في العالمين المحدودين، بين أن له مخلوقات لا نهاية لها بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ﴾ كل ﴿شَجَرَةٍ﴾ بالفرض ﴿أَقْلَامٌ﴾ كثيرة ﴿وَالْبَحْرُ﴾ المحيط بالعالم الذي لا ساحل له ولا يعلم عمقه إلا الله، ويتصل به سائر البحار مداد ﴿يَمُدُّهُ﴾ ويزيده عند نقاده و﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ بالانصباب فيه ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ بوجودها، قيل: إن السبعة هنا كناية عن العدد الكثير<sup>١</sup>، والمعنى البحار الكثيرة علاوة على ما هو الموجود الآن، وقيل: إن المراد بحر الصين، وبحر التبت وبحر الهند، وبحر السند، وبحر فارس، وبحر المشرق، وبحر المغرب<sup>٢</sup>، وإنما جعلها ممدّة للبحر المحيط، وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله، ونفذت وفيت تلك الأقلام والمداد و﴿مَا نَفَذْتُ﴾ وما فئت ﴿كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ وعجائب صنعه، أو الكلمات الدالة على علمه وحكمته. قيل: إن إثارة جمع القلة في (كلمات) للدلالة على أن ما ذكر لا يفي بالقليل منها، فكيف بالكثير<sup>٣</sup>.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ وقادر على كل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ ومحيط علمه بكل شيء. قيل: نزلت رداً على اليهود حين سألو رسول الله ﷺ أو أمروا وفد قريش أن يسألوه عن قوله تعالى: ﴿وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾<sup>٤</sup> وقد أنزل الله التوراة وفيها علم كل شيء، والمراد أن العلم الذي في التوراة و[سائر ما] أوتي الإنسان [من الحكمة والمعرفة] وإن كان كثيراً بالنسبة إليهم، لكنه بالنسبة إلى علم الله

٢. تفسير روح البيان ٧: ٩٤.

١. تفسير روح البيان ٧: ٩٥.

٤. الإسراء: ٨٥/١٧.

٣. تفسير أبي السعود ٧: ٧٥، تفسير روح البيان ٧: ٩٥.

كالقطرة بالنسبة إلى البحار كلها<sup>١</sup>.

وقيل: إنها نزلت ردّاً على المشركين حيث قالوا: إن القرآن يُوشِك أن يَنْفَدَ ويتقطع<sup>٢</sup>.

مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَبْعَثُكُمْ إِلَّا كَنْفُسٌ وَاحِدَةٌ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ \* أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ \* ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ [٢٨ - ٣٠]

ثم أنه تعالى بعد إثبات توحيده بكمال علمه وقدرته وحكمته، وكان المعاد مقتضى قدرته وحكمته، استدلل عليه بكمال قدرته بقوله: ﴿مَا خَلَقَكُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا يَبْعَثُكُمْ﴾ وإحياءكم ثانياً في الآخرة، وإخراجكم من القبور مع كثرتم في السهولة ﴿إِلَّا كَنْفُسٌ وَاحِدَةٌ﴾ خلقاً وبعثاً، فكما أن إيجاد نفس واحدة لا يحتاج إلا إلى إرادته، كذلك إيجاد النفوس الكثيرة لا يتوقف إلا عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لكل مسموع، فيسمع مقالات الناس في أمر البعث ﴿بَصِيرٌ﴾ لكل مبصر فيبصر الأحياء والأموات. قيل: إن الآية نزلت في ردّ مشركي قريش حيث قالوا: إن الله خلقنا أطواراً نُطْفَةٌ وَعَلَقَةٌ وَمُضْغَةٌ وَلَحْمًا، فكيف يبعثنا خلقاً جديداً في ساعة واحدة؟<sup>٣</sup>

ثم استدلل سبحانه على قدرته على الخلق الجديد وإيلاج الروح فيه ببعض آثار تسخير ما في السماوات بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ولم تعلم علماً نازلاً منزلة الرؤية يا محمد أو يا من شأنه الرؤية ﴿أَنَّ اللَّهَ بِقُدْرَتِهِ يُولِجُ﴾ ويدخل ﴿اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ ويجعلهما متعاقبين، أو يجعل بعض ساعات الليل في النهار، ولا نقص من الأول والزيادة في الثاني ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ﴾ ويدخله ﴿فِي اللَّيْلِ﴾ بإذهاب الثاني وإتيان الأول مكانه، أو بتقصيص الأول والزيادة في الثاني.

القمي يقول: ما ينقُص من الليل يدخل في النهار، وما ينقُص من النهار يدخل في الليل<sup>٤</sup>. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ وساقهما بالقهر وسيّرهما على وفق الحكمة ﴿كُلٌّ مِنْهُمَا يَجْرِي﴾ في فلكه بحركته القسرية حركةً مستمرةً ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وانقضاء وقت معين قدرة الله بحكمته، وهو مجيئ يوم القيامة. وقيل: هو منتهى دورتهما، ففي الشمس سنة، وفي القمر شهر<sup>٥</sup>. ﴿و﴾ ألم تعلم

١. تفسير روح البيان ٧: ٩٤.

٢. تفسير روح البيان ٧: ٩٤.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٩٦.

٤. تفسير القمي ٢: ١٦٧، تفسير الصافي ٤: ١٥٠.

٥. تفسير أبي السعود ٧: ٧٦، تفسير روح البيان ٧: ٩٧.

﴿أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ في الليل والنهار ﴿خَبِيرٌ﴾ وعالم، فإن من شاهد هذا الصنع الرائق والتدبير الفائق، يعلم أن صانعه ومدبره لا يمكن في حق الغفلة عن جلائل أعمال عباده ودقائقها ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من القدرة الكاملة والحكمة البالغة والصنائع العجيبة لا يكون بسبب إلا ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ تعالى ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ الثابت في ألوهيته، الواجب لذاته، المتفرد في كمال صفاته، وبسبب أنه لا شريك له في ربوبيته ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ ويعبدون ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ ومما سواه هو ﴿الْبَاطِلُ﴾ الفاني العاجز عن جلب نفع لنفسه فضلاً عن أن ينفع من يعبد ﴿وَهُوَ﴾ بسبب ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ والمرتفع عن أن يشبهه غيره ﴿الْكَبِيرُ﴾ الذي يَخْتَفِرُ كل شيء في جنب كبريائه. وقيل: يعني العلي في صفاته، الكبير في ذاته<sup>١</sup>.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ  
لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ \* وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ دَعَاُ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ  
الدِّينَ فَلَمَّْا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ  
كُفُورٍ [٣١ و ٣٢]

ثم استدل سبحانه ببعض آثار تسخيره ما في الأرض بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد، أو أيها الرائي ﴿أَنَّ الْفُلُكَ﴾ والسفينة ﴿تَجْرَى﴾ وتسير سريعاً ﴿فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ وبرحمته وإحسانه حيث خلق آلائها، وعلم صنعها، وأرسل الرياح لتسييرها ﴿لِيُرِيَكُمْ﴾ أيها الناس بعضاً ﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾ ودلائل توحيده وقدرته ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الإجراء للفلك ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمة ودلالات واضحة كثيرة على توحيد الله وصحة المعاد، نافعة ﴿لِكُلِّ﴾ مؤمن ﴿صَبَّارٍ﴾ ومبالغ في إعتاب نفسه في طاعة الله والتفكير في آياته ﴿شَكُورٍ﴾ ومجد في القيام بأداء حقوق نعمه.

ثم بين سبحانه أن المشركين فطرتهم على التوحيد، ومقرون به، عند يأسهم من الحياة، وغفلتهم عن الشهوات، فاذا أطمأنوا بالحياة، وزُفِع عنهم الاضطراب، عادوا إلى الشرك، وجحدوا آيات التوحيد بقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ﴾ وأحاط بهم في البحر ﴿مَوْجٌ﴾ وماء مرتفع ﴿كَالظَّلِيلِ﴾ والجبال، أو قطع السحاب، أو الأشياء التي تظلل الإنسان من الشمس في كثرتها وارتفاعها، وأشرفوا على الغرق ﴿دَعَاُ﴾ الله واستغااثوا به تعالى وحده لنجاتهم حال كونهم ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ﴾ تعالى ﴿الدِّينَ﴾ والعبادة، تاركين لدعاء غيره، غير متوجهين إلى ما سواه، بعلمهم باختصاصه بالقدرة على تحقيق مَنَاهِم وإنجاح مقاصدهم ﴿فَلَمَّا﴾ استجاب دعاءهم لخلوصهم في دعائه و﴿نَجَّاهُمْ﴾ من الغرق،

وأوصلهم ﴿إِلَى الْبَرِّ﴾ سالمين ﴿فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ ومتوسط في الإخلاص والكفر، ولم يبق على التوحيد الخالص، ولم يرجع إلى لجأه في الشرك، لانزحاره منه في الجملة.  
ثم لما خصَّ سبحانه نفع آيات التوحيد بالمؤمن الصَّابِر الشكور، خصَّ جُحودها بالذين عادتهم الغدر والكفران بقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ﴾ ولا يَلِجُ في الكفر ﴿يَايَاتِنَا﴾ وأثار توحيدنا ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ وغَدَارٍ ومُصَرٍّ في نقص العهد و﴿كُفُورٍ﴾ لنعم الله.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْفُرُورُ [٣٣]

ثم أنه تعالى بعد إثباته التوحيد والمعاد، هدّد منكريهما بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ واحترزوا من غضبه عليكم بالاجتناب من الكفر والعصيان ﴿وَأَخْشَوْا يَوْمًا﴾ عظيماً يجازي الله فيه و﴿لَا يَجْزِي﴾ ولا يُغْنِي ﴿وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ بأن يقضي عنه شيئاً من الحقوق، أو يتحمّل شيئاً من سيئاته، أو يعطيه شيئاً من طاعته، أو يدفع عنه شيئاً من العذاب بالشفاعة وبذل المال ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ﴾ ومعنى أو مؤدٍّ ﴿عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ من الحقوق، ودافع عنه شيئاً من العذاب، مع كون كلٍّ منهما في الدنيا أشفق الناس وأرافهم بالآخر، وأقرب إليه، فكيف بالأبعد الذين لا شَفَقَةَ لهم ولا مودة، وبالأصنام الذين لا شعور لهم ولا قدرة!

وعن كعب الأحبار: تقول امرأة من هذه الأمة لولدها يوم القيامة: يا ولدي، أما كان لك بطني وعاء، وججري وطاء، وثديي سقاء، فاحمل عني واحداً من ذنوبي، فقد أثقلتني فيقول: هيهات يا أمّاه ﴿كل نفيس بما كسبت رهينة﴾ فإذا حملت عنك فمن يحمل عني؟<sup>١</sup>

فمن كان سبب عدم خوفه رجاء الانتفاع بصلاح الأقارب وشفاعة الأصنام، فقد أخطأ أو عدم يقينه بمجيء ذلك اليوم، فإن الله وعد به و﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ لا خُلف فيه ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ ولا يَخْدَعَنَّكُمْ ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ ولا يَشْغَلَنَّكُمْ عن التفكير في الآيات متاعها وشهواتها ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ﴾ وبكرمه وقبول توبتكم بعد عصيانه الشيطان ﴿الْفُرُورُ﴾ الخُدُوع لبني آدم، فإنه لا نجاة إلا بالآيمان وصالح الأعمال.

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ  
مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ [٣٤]

ثم لما كان مجال أن يقال: متى يكون ذلك اليوم؟ قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ يثبت ﴿عِنْدَهُ﴾ وحده ﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ ووقت قيام القيامة. ثم أردفه بسائر ما يختص علمه به بقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ والمطر الذي به رزق الخلق وبقاؤهم في الزمان الذي قدره إلى محله الذي عينه في علمه لا يعلمه غيره ﴿و﴾ هو ﴿يَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ من ذكر وأنثى، حي أو ميت، جميل أو قبيح، تام أو ناقص، سعيد، أو شقي إلى غير ذلك من الصفات، وهو يعلم عواقب أمور كل أحد ﴿وَمَا تَدْرِي﴾ وتعلم ﴿نَفْسٌ﴾ من النفوس ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ﴾ وتحصل من المنافع الدنيوية والأخروية ﴿غَدًا﴾ وفي اليوم الذي يكون بعد يومه ﴿وَمَا تَدْرِي﴾ وتعلم ﴿نَفْسٌ﴾ من النفوس أنها ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ﴾ وأي مكان ﴿تَمُوتُ﴾ من بر أو بحر، أو سهل أو جبل، كما لا تدري في أي وقت تموت.

زوي أن ملك الموت مر على سليمان عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه، فقال الرجل: من هذا؟ قال: ملك الموت. فقال: كأنه يريد بي، فمر الريح أن تحملني وتلقيني في بلاد الهند، ففعل فقال الملك: كان دوام نظري إليه تعجباً منه، إذ أمرت أن أقبض روحه بالهند، وهو عندك<sup>١</sup>.  
عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مفاتيح الغيب خمس، وتلا هذه الآية، ثم قال: «من ادعى علم شيء من هذه المغيبات الخمس، فهو كافر بالله تعالى»<sup>٢</sup>.

ثم عمم سبحانه علمه بجميع الأشياء بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ بذاته ﴿عَلِيمٌ﴾ بالأشياء كلها ﴿خَبِيرٌ﴾ ومطلع بكنهها وحقائقها وبواطنها، وإنما عد هذه الخمس لما زوي من سبب النزول من أن الحارث بن عمرو من أهل البادية أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الساعة ووقتها، وقال: إن أرضنا أجذبت، وإني أليت حياتي في الأرض، فمتى ينزل المطر؟ وتركت امرأتي حبلية فحملها ذكر أم أنثى؟ وإني أعلم ما عملت أمس، فما أعمل غداً؟ وإني علمت أين ولدت، فبأي أرض أموت؟ فنزلت<sup>٣</sup>. وقد كان المنجمون والكهنة يدعون علمها.

وأنما أخفى الله وقت الساعة، ليكون الناس على حذر وأبهة، كما روي أن أعرابياً قال للنبي صلى الله عليه وسلم: متى الساعة؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «ما أعددت لها» قال: لا شيء إلا أنني أحب الله ورسوله. فقال: «أنت مع من

١. تفسير أبي السعود ٧: ٧٨، تفسير روح البيان ٧: ١٠٤.

٢. تفسير روح البيان ٧: ١٠٤.

٣. تفسير روح البيان ٧: ١٠٣.



أحببت»<sup>١</sup>.

وأخفى علم الأربعة الأخرى ليسألوا الله، ويتضرعوا إليه، ويتوكلوا عليه. وقيل: إن المقصود بيان اختصاص العلم بالساعة بذاته، وإنما ذكر إنزاله الغيث وعلمه بما في الأرحام استدلالاً عليه، ثم كأنه قال لطالب العلم بالساعة: لا تسأل عنها فإنك لا تعلم ما هو أهم منها، وهو معاشك وموتك<sup>٢</sup>. والحق المشهور هو التفسير الأول، لما روى عن الصادق عليه السلام: «هذه الخمسة أشياء لم يطلع عليها ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهي من صفات الله»<sup>٣</sup>.

وفي (نهج البلاغة): «فهذا هو علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلا الله»<sup>٤</sup>. وفي (المجمع): روي عن أئمة الهدى عليهم السلام: «أن هذه الأشياء الخمسة لا يعلمها على التفصيل والتحقيق غيره تعالى»<sup>٥</sup>. ولا ينافي ذلك علم النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام بها في بعض الأوقات، لأنه بتعليم الله لا بالأسباب.

عن الباقر عليه السلام: «من قرأ سورة لقمان في ليلة، وكلَّ الله به في ليلته ملائكة يحفظونه من إبليس وجنوده حتى يصبح، وإذا قرأها بالنهار، لم يزالوا يحفظونه من إبليس وجنوده حتى يمسي»<sup>٦</sup>. الحمد لله على التوفيق لاتمام تفسير السورة.

٢. تفسير الرازي ٢٥: ١٦٥.

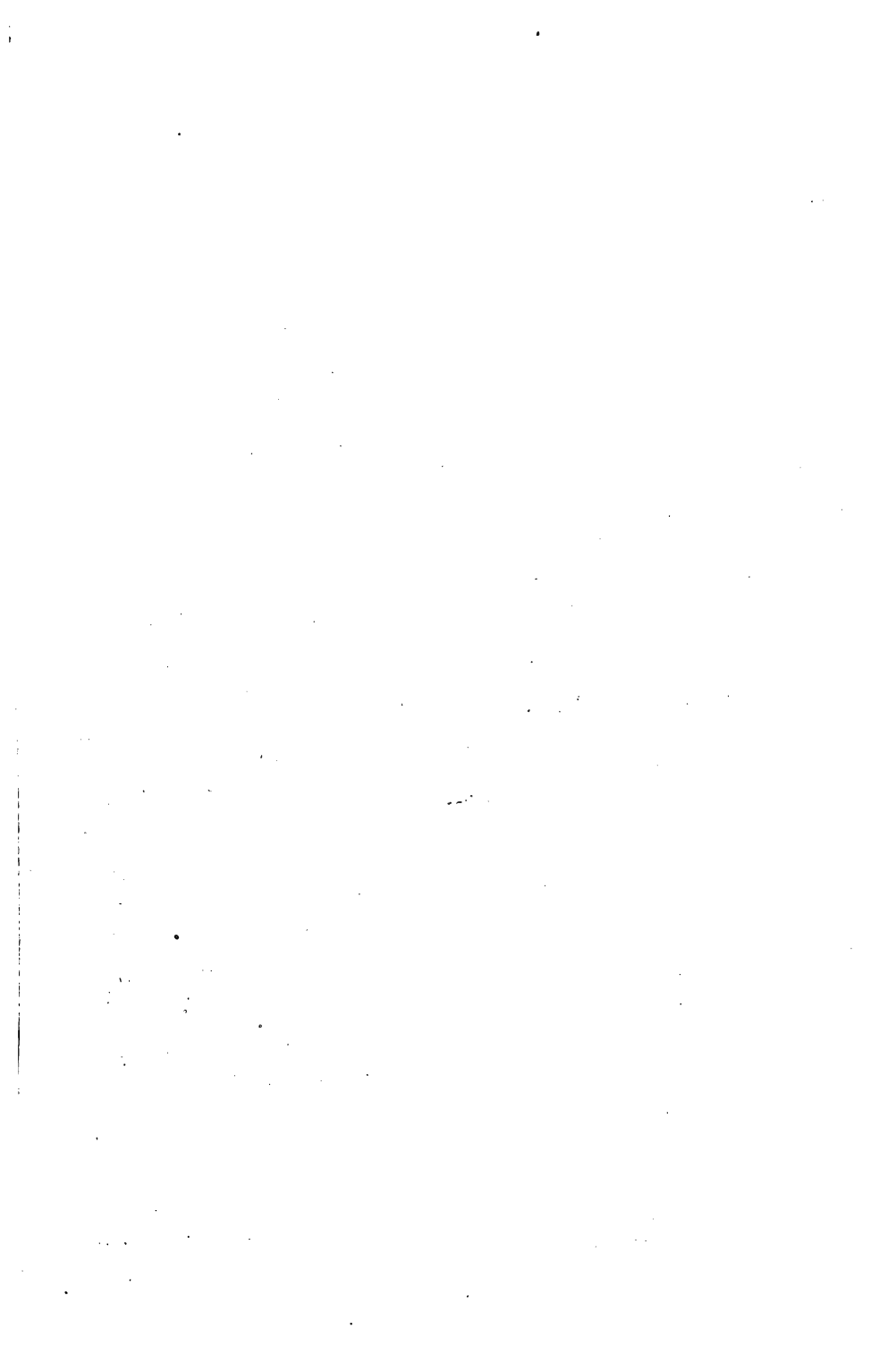
١. تفسير روح البيان ٧: ١٠٣.

٣. تفسير القمي ٢: ١٦٧، تفسير الصافي ٤: ١٥٢.

٤. نهج البلاغة: ١٨٦ - الخطبة ١٢٨، تفسير الصافي ٤: ١٥٢.

٥. مجمع البيان ٨: ٥٠٧، تفسير الصافي ٤: ١٥٢.

٦. نواب الأعمال: ١١٠، مجمع البيان ٨: ٤٨٨، تفسير الصافي ٤: ١٥٢.



## في تفسير سورة السجدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم \* تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ  
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ [١-٣]

ثم لما ختمت سورة [لقمان] المباركة المتضمنة لإثبات التوحيد والمعاد، والتهديد على إنكارهما، أردفت بسورة السجدة المتضمنة لإثبات النبوة وعظمة القرآن والتوحيد والمعاد، فابتدأها بذكر الأسماء المباركات تيمناً وتعليماً للعباد بقوله: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ».

ثم افتتحها بذكر الحروف المقطعة بقوله: «الْم» توجيهاً للقلوب إلى المطالب المهمة التي تذكر بعدها، منها بيان عظم القرآن بقوله: «تَنْزِيلُ» هذا «الْكِتَابِ» المسمى بالقرآن، المتضمن للعلوم والأحكام والآداب التي بها تربية نفوس أهل العالم وتكملها «لَا رَيْبَ» ولا شك «فِيهِ» أنه «مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» ومع ذلك أتعرف قريش به «أَمْ يَقُولُونَ» عناداً ولجاجاً: إن محمداً اختلقه من نفسه مع كونه أمياً «افْتَرَاهُ» على الله ونسبه إليه كذباً، ألا ليس نزوله من الله كذباً «بَلْ هُوَ الْحَقُّ» النازل «مِنْ رَبِّكَ» اللطيف بك، وإنما كان إنزاله «لِتُنذِرَ» وتخوف به من العذاب على الشرك والكفر والعصيان «قَوْمًا» وجماعة «مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ» ورسول من الله «مِنْ قَبْلِكَ» وقبل بعثتك، ولذا يكونون أضل الناس وأجهلهم وأحوجهم إلى الإنذار «لَعَلَّهُمْ» بهدایتك وإنذارك ينجون من ظلمة الجهل ووادي الضلال و«يَهْتَدُونَ» إلى دين الحق، ويرشدون إلى الخيرات الدنيوية والأخروية.

والظاهر أن المراد من القوم جميع أهل عصر النبي ﷺ، فإنهم كانوا في غاية الضلال، ولم يأتهم نبي قبل خاتم الأنبياء، وكان واجباً على الله من باب اللطف أن يبعث فيهم رسولاً يهديهم إلى الحق لئلا يكون لهم على الله الحجة بعد بعثته.

وقيل: إن المراد خصوص العرب، والمراد بعدم إتيانهم النذير عدم إتيان آبائهم نبي من العرب، فإن إسماعيل كان مبعوثاً إلى قومه خاصة، وعيسى ومن بعده من الأنبياء لم يكونوا من العرب، وخالد بن

سنان وإن كان نبياً عربياً، ولكن لم يعيش في العرب بحيث تبلغ دعوته<sup>١</sup>، والأظهر هو الوجه الأول.  
 قيل: إن كلمة الترجي باعتبار حال النبي ﷺ، والمعنى لتذيرهم راجياً لهدايتهم<sup>٢</sup> إلى التوحيد  
 والمعارف والدين الحق، فإن الغرض من بعث الرسول الهداية إلى الدين، وتكميل النفوس، وتربية  
 الذات المستعدة للترقيات المعنوية، القابلة للنيل إلى الفيوضات الأبدية.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى  
 الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مَن وَّلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ \* يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَن  
 السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يُعْرِجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا  
 تَعُدُّونَ [٤ و ٥]

ثم شرع في هدايتهم ببيان أدلة توحيده بقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ  
 وَالْأَرْضَ﴾ والعوالم العلوية والسفلية ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات ﴿فِي﴾ مقدار ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من  
 أيام الدنيا من الزمان، وإنما خلقها في تلك المدة مع قدرته على خلقها في أقل من طرفة عين، ليتعلم  
 العباد التأني في الأمور وترك العجلة فيها ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ﴾ وأستولى بالعلم والقدرة ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾  
 وقد مرت الوجه في تلك القضية، فاذا كان الأمر كذلك، فأنبيوا إليه، وتوكلوا عليه، واجتهدوا في  
 عبادته، وخافوا عذابه، فإنه ﴿مَا لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿مِّنْ دُونِهِ﴾ ومما سواه ﴿مِنَ وَلِيِّ﴾ وحافظ  
 لصالحكم، وناصر عند ابتلائكم ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ يدفع عنكم عذابه بشفاعته، ويحيركم من بأسه ﴿أَفَلَا  
 تَتَذَكَّرُونَ﴾ قيل: يعني ألا تسمعون هذه المواعظ، فلا تتذكرون<sup>٣</sup> بها ما طبعه الله في فطرتكم من  
 التوحيد ومعارفه؟

ثم بالغ سبحانه في بيان قدرته وحكمته بقوله: ﴿يُدَبِّرُ﴾ وَيُنْظِمُ ﴿الْأَمْرَ﴾ الكائن في عالم الوجود،  
 ويُنْزِلُ أسبابه ﴿مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ ويستمر ذلك التدبير إلى انقضاء الدنيا ﴿ثُمَّ يُعْرِجُ﴾ ويصعد  
 ﴿إِلَيْهِ﴾ ذلك التدبير وأسبابه، أو الأمر وينقضي ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ﴾ وطول امتداده ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا  
 تَعُدُّونَ﴾ في الدنيا من السنين لانقضاء الدنيا بمجيء يوم القيامة.  
 القمي: يعني الأمور التي يدبرها، والأمر والنهي الذي أمر به، وأعمال العباد، كل هذا يظهر يوم

٢. تفسير أبي السعود ٧: ٨٠، تفسير روح البيان ٧: ١٠٧.

١. تفسير روح البيان ٧: ١٠٧.

٣. تفسير أبي السعود ٧: ٨٠، تفسير روح البيان ٧: ١٠٨.

القيامة، فيكون مقدار ذلك اليوم ألف سنة من سني الدنيا<sup>١</sup>. وقد سبقت أخبار في هذا المعنى<sup>٢</sup>.

وقيل: يعني ينزل أمره من السماء إلى الأرض على عباده، ثم تعرج إليه أعمالهم الصالحة الصادرة على موافقة ذلك الأمر<sup>٣</sup>، وإنما أسند العروج إلى الأمر، لأن العمل أثره، والمراد من اليوم امتداد زمان نزول الأمر وصعود العمل، فإن مسافة ما بين السماء والأرض خمسمائة سنة بسير أهل الأرض، فيكون مسافة النزول والصعود ألف سنة.

وقيل: إن المراد أنه تعالى يرسل ملكاً لتدبير أمر الأرض، ثم تعرج إلى مكانه في السماء، فينزل الملك من السماء ويعرج إلى مكانه في مدة لو سار أحد من الناس تلك المسافة لسارها في زمان يكون مقداره ألف سنة<sup>٤</sup>.

وقيل: إن المراد من السماوات والأرض عالم الأجسام، والمراد من الأمر عالم الأرواح الذي يقال له عالم الأمر<sup>٥</sup>، والمراد من اليوم الذي مقداره ألف.

ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ \* الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ  
وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ \* ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ \* ثُمَّ  
سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا  
تَشْكُرُونَ [٦-٩]

ثم أنه تعالى بعد بيان عظمة ملكه ونفوذ أمره، بين سعة علمه بجزئيات مملكته، وإحاطته بخفاياها بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المدبر لأمور الخلق ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ وما يخفى عن الحواس، أو الأشياء التي لم توجد بعد، أو الآخرة، أو عالم الأمر ﴿وَ﴾ عالم ﴿الشَّهَادَةِ﴾ والمحسوس، أو الموجودات الفعلية، أو عالم الدنيا، أو عالم الأجسام ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب القاهر على كل شيء، أو على الانتقام من الكفرة والعصاة ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده في تدبير أمورهم، أو البررة منه بتوفيقهم للخيرات وإنجائهم يوم القيامة من الأهوال والعذاب.

ثم أنه تعالى بعد بيان الآيات الأفاقية، بين الأدلة الأنفسية بقوله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ من السماوات والأرض وما بينهما من الموجودات، بأن أوجده على ما ينبغي ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ﴾ الذي هو أعجب المخلوقات، وأنموذج ما في العالم بخلق آدم ﷺ ﴿مِن طِينٍ﴾ مأخوذ من وجه

١. تفسير القمي ٢: ١٦٨، تفسير الصافي ٤: ١٥٣.

٢. في سورة الحج.

٣. تفسير الرازي ٢٥: ١٧٢.

٤. تفسير الرازي ٢٥: ١٧٢.

٥. تفسير روح البيان ٧: ١٠٨ و ١٠٩.

الأرض المخمر بيد القدرة، وبعد خلق آدم ﷺ ﴿ثُمَّ جَعَلَ﴾ الله ﴿نَسْلَهُ﴾ وذريته بطناً بعد بطن إلى يوم القيامة متكوناً ﴿مِنْ سُلَالَةٍ﴾ وخلاصة متزعة من صلب الرجل، أعني ﴿مِنْ مَاءٍ مَّهِينٍ﴾ مستقذر غير معتز به، يقال له المني ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ وعدل أعضائه، وصوره في الرحم ﴿وَبَعْدَ تَكْمِيلِ خَلْقِ جَسَدِهِ﴾ ونفخ ﴿وَنَفَخَ﴾ وأولج ﴿فِيهِ﴾ روحاً طيباً شريفاً، يصح إضافته إلى نفسه لكمال شرفه، ويقول: أدخل فيه ﴿مِنْ رُوحِي﴾ مع أنه تعالى لا روح له، بل هو خالق الروح فجعله حياً سوياً ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ يا بني آدم ﴿السَّمْعَ﴾ لتسمعوا الأصوات والكلمات التي أهمها كلمات الله ومواعظه ومواعظ رسله ﴿وَالْأَبْصَارَ﴾ لتبصروا المبصرات التي أهمها آيات التوحيد ومعاجز الأنبياء ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لتفهموا معاني الكلمات وحقائق الآيات ودقائقها، ومع ذلك ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ نعم ربكم. قيل: إن القليل هنا بمعنى النفي<sup>١</sup>، والمعنى لا تشكرون. وقيل: إن المراد قليلاً منكم يشكرون<sup>٢</sup>.

وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ  
\* قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ [١٠ و ١١]

ثم لما ذكر سبحانه آيات قدرته وحكمته من خلق السماوات والأرض، واستيلانه على الموجودات، وتدبيره في عوالم الملك والملوك إلى قيام الساعة، وإيدائه خلق الإنسان الذي هو أتم الموجودات وأجمعها وأعجبها، من الطين، ثم خلق ذريته من النقطة المسلوقة من الصلب، وإعطائه نعمة السمع والبصر والفؤاد، حكى قول منكري الحشر من كفار قريش بقوله: ﴿وَقَالُوا﴾ إنكاراً للمعاد واستبعاداً له: ﴿إِذَا ضَلَلْنَا﴾ وغيبنا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ بأن صيرنا ثراباً وعظاماً مخلوطاً بأجزائها بحيث لا يتميز ثرابنا، كما لا يتميز الماء المخلوط بالحليب منه ﴿أَوْثَانًا﴾ مع ذلك ﴿لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وحياة ثانية واقعون أو كائنون؟! لا يمكن ذلك، وهم يقولهم هذا لم يكونوا منكبين لمجرد الخلق ثانياً ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ وحسابه وجزائه للأعمال ﴿كَافِرُونَ﴾ أيضاً، ولداد الآخرة والمصير إلى الله منكرون ﴿قُلْ﴾ يا محمد ردأ عليهم: أعلموا أنها الكفرة أنكم لا تموتون بالطبيعة، ولا تنعدم أرواحكم بل ﴿يَتَوَفَّاكُم﴾ ويقبض أرواحكم ﴿مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ وقابض الأرواح ﴿الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ وفوض إليه من الله قبض أرواحكم ﴿ثُمَّ﴾ بعد موتكم ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ ومليكم يوم القيامة ﴿تُرْجَعُونَ﴾ وفي محكمة عدله تحضرون، فيجازيكم على كفركم بالتوحيد والمعاد أسوأ الجزاء.

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا  
فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ \* وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ  
الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [١٢ و ١٣]

ثم ذكر سبحانه حال حضورهم عنده بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ يا من شأنه الرؤية ﴿إِذِ الْمُجْرِمُونَ﴾ المنكرون للمعاد ﴿نَاكِسُوا﴾ ومطرقو ﴿رُؤُوسِهِمْ﴾ ومطأطئوها حين الحضور ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ خوفاً وحياءً وحزنًا ترى عجباً. ويمكن أن يكون: لولا نشاء التمني، إظهاراً لكمال الفضاة، وهم يقولون: يا ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا﴾ ما وعدتنا بوقوعه من الحشر للحساب وجزاء الأعمال ﴿وَسَمِعْنَا﴾ نصح رسولك ومواعظه في الدنيا، فلم نعتنِ بوعدك، وكذبنا رسولك، أو المراد صرنا الآن بصيرين وسميعين بعد ما كنا في الدنيا غمياً وضماً ﴿فَارْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ورَدِّنا إليها ﴿نَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾ مرضياً عندك، نافعاً لنا في هذا اليوم ﴿إِنَّا﴾ الآن ﴿مُوقِنُونَ﴾ بتوحيده، ورسالة رسولك، وصدق وعدك، كاملون في الايمان بجميع ما يجب الايمان به، فاذا رجعنا إلى دار التكليف لا نُقْصِر في امتثال تكاليفك.

ثم رَدَّهم الله بالاشارة إلى امتناع الرجوع إلى الدنيا، لعدم الفائدة في الايمان الضَّروري القهري بقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ الهداية القهرية، والايمان الضروري لبني آدم في الدنيا، والله ﴿لَآتَيْنَا﴾ وأعطينا ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾ من النفوس البرّة والفاجرة ما يكون به ﴿هُدَاهَا﴾ وإيمانها بما يجب الايمان به وانبعائها إلى الأعمال الصالحة ﴿وَلَكِنْ﴾ جعلنا الدنيا دار التكليف والامتحان، وبعثنا إليهم الرسول، وأنزلنا عليهم الكتاب، وسلطنا عليهم الشيطان المغوي والمُهوي المُردّي، وأعطيناهم العقل وقوة تميّز الخير والشرّ، وأوكلناهم إلى اختيارهم، لتميّز الخبيث من الطيب، والناجي من المطيع، والقابل للفيوضات من غير القابل، و﴿حَقَّ الْقَوْلُ﴾ وسبق الوعيد الصادر مِنِّي، وهو قولي: وعزتي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة ﴿مِنْ﴾ كَفَرَةٍ ﴿الْجِنَّةِ﴾ والشياطين ﴿و﴾ كَفَرَةٍ ﴿النَّاسِ﴾ وذرية آدم، والعصاة منهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ حيث قال بعد قول إبليس ﴿لَاغوينهم أجمعين﴾<sup>١</sup>: الحقّ والحقّ أقول لأملئن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين.

عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اليعتذرون الله إلى آدم ثلاث معاذير يقول الله: يا آدم، لولا أني لعنت الكذابين وأبغضت الكذب والخلف وأعذب عليه، لرحمت اليوم ولدك أجمعين من شدة ما أعددت لهم من العذاب، ولكن حقّ القول مِنِّي لئن كذّب رُسلي وعصي أمري لأملئن

جهنم من الجنة والناس أجمعين. ويقول الله: يا آدم، أعلم أنني لا أدخل من ذريتك النار أحداً ولا أعذب منهم بالنار أحداً، إلا من علمت أنني لو رددته إلى الدنيا لعاد إلى أشر مما كان فيه، ولم يرجع ولم يثب «الخير».

فَذُقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ \* إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ \* تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ \* فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١٤-١٧]

ثم كانه تعالى قال: إذا علمتم أنه لا يمكن رجوعكم إلى الدنيا ﴿فَذُقُوا﴾ وأطعموا طعم نار جهنم ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ﴾ الله في ﴿يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ اليوم العظيم الهائل، وتركتكم النظر والتفكير في أدلة المعاد، وانهمكم في الشهوات ولذائد الدنيا، وغفلتم عن الدار الآخرة ﴿إِنَّا﴾ أيضاً لا ننظر إليكم اليوم نظراً الرحمة، كأننا ﴿نَسِينَاكُمْ﴾ وغفلنا عنكم وتركناكم فيما أنتم فيه من العذاب ﴿وَذُقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ والدائم الذي لازم نسيانكم، لا بسبب نسيانكم اليوم فقط، بل به و﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من القبائح والمعاصي، كتكذيب الرسول وإيذائه، وإيذاء المؤمنين به، ونظائرهما من فنون الكبائر.

ثم أنه تعالى بعد بيان إنكار المشركين آيات التوحيد والمعاد وسوء حالهم في الآخرة، بين تعظيم المؤمنين لأدلة التوحيد والمعاد، وإظهار خضوعهم وانقيادهم عند سماعهم الآيات الدالات عليها وحسن حالهم في الآخرة بقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على التوحيد والمعاد ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا﴾ ووعظوا ﴿بِهَا﴾ وسَمِعُوا من الرسول، أو المؤمنين ﴿خَرُّوا﴾ وسقطوا إلى الأرض حال كونهم ﴿سُجَّدًا﴾ وخضعوا وأظهروا الانقياد لها ﴿وَسَبَّحُوا﴾ لله ونزهوه عن الشرك، والولد، وخلق العالم عبثاً، والعجز عن إعادة الخلق لجزاء الأعمال، وغير ذلك مما لا يليق به، مقرنين تسبيحهم ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ على نعمة التي أعظمها التوفيق للإيمان به وبآياته، والتسليم لأحكامه وأوامره، والرغبة والشوق إلى طاعته، والعمل بمرضاته ﴿وَهُمْ﴾ لمعرفة أنفسهم بذلة العبودية ومعرفة ربهم بعظمة الألوهية والربوبية ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ولا يتعظمون ولا يترفعون عن السجود والانقياد له، والتذلل والخضوع عنده، وبذل الجهد في طاعته وعبادته، بل يهتمون في القيام بوظائف العبودية



غاية الاهتمام بحيث ﴿تَتَجَافَى﴾ وترفع ﴿جُنُوبَهُمْ﴾ وتتحنّى أضلاعهم في تمام الليل أو نصفه أو ثلثه، أو في ساعة منه ﴿عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ وفرش النوم حال كونهم ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ ويُنَاجُونَهُ ويتضرعون إليه، أو يصلّون ﴿خَوْفًا﴾ من سَخَطِهِ وعذابه على معاصيهم، أو من البعد عنه، لتقصيرهم في طاعته، أو من اشتغال أعمالهم بما يُوجِبُ عدم قبولها ﴿وَطَمَعًا﴾ ورغبة في رحمته وفيوضاته الدنيوية والأخروية.

﴿وَمِمَّا زَوَّجْنَاهُمْ﴾ وأنعمنا عليهم من المال، أو من جميع ما لهم منه، ومن العلم والجاه وغيرها ﴿يُنْفِقُونَ﴾ ويَبْذُلُونَ للمحتاجين وإخوانهم المؤمنين، تقرباً إلى الله، وطلباً لمرضاته.

رُوي أَنَّ الآية نزلت في الذين صلّوا صلاة العشاء والصُّبح جماعة<sup>١</sup>.

وعن الصادق عليه السلام - في هذه الآية - قال: «لا ينامون حتى يُصلّوا العَتَمَةَ»<sup>٢</sup>.

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «أنها قيام العبد من الليل»<sup>٣</sup>.

وعن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، عن النبي صلى الله عليه وآله - في حديث - قال: «ألا أخبركم بأبواب الخير؟» قال: نعم.

قال صلى الله عليه وآله: «الصوم جَنَّةٌ من النار، والصدقة تُكَفِّرُ الخطيئة، وقيام الرجل في جوف الليل يتبغى وجه

الله»<sup>٤</sup>. وفي رواية: «يذكر الله»<sup>٥</sup> وفي أخرى: «يناجى ربه» ثم قرأ هذه الآية ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ﴾<sup>٦</sup>.

وعن الباقر والصادق عليه السلام: ما يقرَّب منه<sup>٧</sup>.

وعن الباقر عليه السلام - في هذه الآية - قال: «لعلك ترى أَنَّ القوم لم يكونوا ينامون، لا بدَّ لهذا البدن أن

ثريحه حتى تخرُج نفسه، فإذا خرج النفس استراح البدن، ورجع للروح قوَّة على العمل» قال: نزلت

في أمير المؤمنين عليه السلام وأتباعه من شيعةنا، ينامون في أول الليل، فإذا ذهب ثلثا الليل، أو ما شاء الله،

فزعوا إلى ربهم راغبين مرهبين، طامعين فيما عنده، فذكرهم الله في كتابه، فأخبركم بما أعطاهم

الخبر<sup>٨</sup> بقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ من النفوس حتى الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين ﴿مَا

أُخْفِيَ﴾ وسُتِرَ ﴿لَهُمْ﴾ عن إدراك المدركين ﴿مِنْ﴾ ما به ﴿قُوَّةٌ أَعْيُنٍ﴾ وسرور القلوب.

عن ابن مسعود: أَنَّهُ مكتوب في التوراة: لقد أعدَّ الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لا عين

١. تفسير أبي السعود ٧: ٨٥، مجمع البيان ٨: ٥١٨، نسبه إلى القليل.

٢. أمالي الطوسي: ٥٧٦/٢٩٤، تفسير الصافي ٤: ١٥٦.

٣. تفسير أبي السعود ٧: ٨٥، تفسير روح البيان ٧: ١١٩.

٤. مجمع البيان ٨: ٥١٨، تفسير الصافي ٤: ١٥٦.

٥. المحاسن: ٣٥٨/٢٨٩، الكافي ٢: ١٥/٢٠، وفيهما: بذكر الله، تفسير الصافي ٤: ١٥٦.

٦. المحاسن: ٣٤٤/٢٨٩، تفسير الصافي ٤: ١٥٦. ٧. تفسير الصافي ٤: ١٥٦.

٨. علل الشرائع: ٤/٣٦٥، من لا يحضره الفقيه ١: ١٣٩٤/٣٠٥، تفسير الصافي ٤: ١٥٦.

رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولا يعلمه ملك مقرَّب<sup>١</sup> ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ من الإيمان والخُضوع، والتسبيح والتحميد، والقيام عن المضاجع إلى الصلاة والدعاء، وغير ذلك من الصالحات بإخلاص النية وصدق الطوية.

عن الصادق عليه السلام: «ما من عملٍ يحسن عمله العبد إلا وله ثوابٌ في القرآن إلا صلاة الليل، فإن الله عز وجل لم يبين ثوابها لعظم خطره عنده، قال جل ذكره: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾». ثم قال عليه السلام: «إن الله كرامة في عباده المؤمنين في كل يوم جمعة، فإذا كان يوم جمعة بعث الله إلى المؤمن ملكاً معه حُتَّان، فينتهي إلى باب الجنة فيقول: استأذنوا على فلان فيقال له: هذا رسول ربك على الباب، فيقول لأزواجه: أي شيء تريد علي أحسن؟ فيقلن: يا سيدنا والذي آتاك الجنة ما رأينا عليك شيئاً أحسن من هذا الذي بعث إليك ربك. فيتزور بواحدة<sup>٢</sup> ويتعطف بالأخرى، فلا يمر بشيء إلا أضاء له حتى ينتهي إلى الموعد، فإذا اجتمعوا تجلَّى لهم الرب تبارك وتعالى، فإذا نظروا إليه خرّوا له سجداً، فيقول: عبادي ارفعوا رؤوسكم، ليس هذا يوم سُجُودٍ ولا يوم عبادة، قد رُفعت عنكم المؤنة. فيقولون: يا رب، أي شيء أفضل ممّا أعطيتنا! أعطيتنا الجنة. فيقول: لكم مثل ما في أيديكم سبعين ضعفاً، فيرجع المؤمن في كل جمعة بسبعين ضعفاً مثل ما في يديه، وهو قوله: (ولدينا مزيد) وهو يوم الجمعة، ليلتها ليلة غراء، ويومها يوم أزهر، فأكثرُوا فيها من التسبيح والتكبير والتهليل، والثناء على الله، والصلاة على محمد ﷺ».

قال: «فلا يمر المؤمن بشيء إلا أضاء له، حتى ينتهي إلى أزواجه، فيقلن: والذي أباحك الجنة يا سيدنا ما رأيناك قط أحسن منك الساعة. فيقول: إنني قد نظرتُ إلى نور ربّي».

إلى أن قال عليه السلام: «إن الله خلق جنّة بيده لم ترها عين، ولم يُطلع عليها مخلوق، يفتحها الرب كل صباح فيقول: ازدادي ريحاً، ازدادي طيباً، وهو قول الله: ﴿فَلَا تَقْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾»<sup>٣</sup>.

وعنهما عليه السلام، قالوا: «قال رسول الله ﷺ: لَمَّا أُسْرِي بي رأيت في الجنة نهراً أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، وأشد استقامةً من السهم، فيه أباريق عدد النجوم، على شاطئه قباب الباقوت الأحمر والدُر الأبيض، فضرب جبرئيل بجناحيه، فإذا هو مسك أذفر».

ثم قال: والذي نفس محمد بيده، إن في الجنة لشجراً يتصفق بالتسبيح بصوتٍ لم يسمع الأولون والآخرون [مثله] يُسمَر ثمرأ كالرُّمان، يلقى ثمره إلى الرجل، فيشقّها عن سبعين حلّة، والمؤمنون على

الكراسي<sup>١</sup>، وهم الغرّ المُحجّلون، [على الرجل منهم نعلان شراكهما من نورٍ، يضيء أمامهم] حيث شاءوا من الجنة، فبينما هم كذلك إذ أشرفت عليه امرأة من فوقه، فتقول: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا عَبْدَ اللَّهِ، أما لنا منك دولة؟ فيقول: من أنت؟ فتقول: أنا من اللواتي قال الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾<sup>٢</sup>.

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ \* أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ \* وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ [١٨ - ٢٠]

ثمَّ أنه تعالى بعد ذكر حال المؤمن والمُجرِم وعاقبتهما، وجَّه الخطاب إلى الغلاء، وأنكر احتمال التساوي بين الفريقين بقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ﴾ في الدنيا ﴿مُؤْمِنًا﴾ يمكن أن يحدث أن يكون في الشرف والمنزلة عند الله ﴿كَمَن كَانَ﴾ في الدنيا ﴿فَاسِقًا﴾؟ لا يمكن ذلك و﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ أبدأً في شيءٍ من الشرف والقرب والثبوتية.

ثمَّ أنه تعالى بعد إنكار احتمال التساوي والتصريح بعدمه، والبيان الإجمالي لحسن عاقبة المؤمن ومثوبته، وسوء عاقبة المُجرِم وعقوبته، فصل ثواب الأول وكيفية عذاب الثاني بقوله: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما يجب الإيمان به ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ في الدنيا ﴿فَلَهُمْ﴾ في الآخرة بالاستحقاق ﴿جَنَّاتُ﴾ اللاتي تكون لهم ﴿الْمَأْوَى﴾ والمسكن الدائم. وعن ابن عباس: أن جنة المأوى اسم إحدى الجنَّات الثمان<sup>٣</sup> التي خلقها في الآخرة كلها من الذهب، حال كون تلك الجنَّات ﴿نُزُلًا﴾ وتشريعاً لورودهم على الله، وصلة لهم ﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ من الإيمان والسجود عند تذكُّر الآيات، وتجاوفي جنوبيهم عن المضاجع، ودعاء ربهم، وإنفاقهم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ وخرجوا عن طاعة الله وكفروا به ﴿فَمَأْوَاهُمُ﴾ ومسكنهم ﴿النَّارُ﴾ سواء عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أو السيئات، لا يخرجون منها أبداً ﴿كُلَّمَا﴾ وفي أي وقتٍ ضربهم لهيب النار وارتفعوا إلى طبقاتها وقربوا من بابها و﴿أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ ضربهم لهيب النار أو تتلقاهم

٢. المحاسن: ١٧٢/١٨٠، تفسير الصافي ٤: ١٥٧.

١. في المحاسن: على كراسي من نور.

٣. في النسخة: الجنَّات المأوى اسم إحدى الجنَّات الثمانية.

٤. تفسير روح البيان ٧: ١٢٢.

الْخَزَنَةَ بِمَقَامٍ مِنْ نَارٍ أَوْ حَدِيدٍ ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ وَيَهْوُونَ إِلَى قَعْرِهَا سَبْعِينَ خَرَفًا عَلَى مَا رَوَى، وَهَكَذَا يَفْعَلُ بِهِمْ أَبَدًا<sup>١</sup> ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ إِهَانَةٌ وَتَشْدِيدٌ عَلَيْهِمْ وَزِيَادَةٌ فِي غِيظِهِمْ ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ﴾ بِأَخْبَارِ الْأَنْبِيَاءِ ﴿بِهِ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ وَتَقُولُونَ: لَا جَنَّةَ وَلَا نَارَ.

وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ \* وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ [٢١، ٢٢]

ثُمَّ هَدَدَهُم بِالْعَذَابِ الدُّنْيَوِيِّ الَّذِي يَكُونُ لَطْفًا بِهِمْ وَتَنْبِيهًا لَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ﴾ بَعْضًا ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ الدُّنْيَوِيِّ الَّذِي يَكُونُ هُوَ ﴿الْأَذْنَى﴾ وَالْأَقْرَبُ إِلَيْهِمْ كَالْمَرَضِ وَالْفَقْرِ وَالْجَلَاءِ [مِنْ] الْوَطَنِ ﴿دُونَ الْعَذَابِ﴾ الْآخِرِيِّ ﴿الْأَكْبَرِ﴾ وَالْأَشَدَّ وَالْأَدْوَمَ وَقَبْلَهُ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عَنِ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ، وَيَتَوَبُّونَ مِنَ الشُّرْكِ وَالْمَعَاصِي.

القلمي: العذاب الأدنى عذاب الرجعة بالسيف<sup>٢</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: «هو عذاب القبر». وعنهما عليه السلام: «هو الدابة والدجال»<sup>٣</sup> ولا يرجعون وهم من الظالمين على أنفسهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ عَلَى نَفْسِهِ ﴿مِمَّنْ ذُكِّرَ﴾ وَوُعِظَ ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ وَدَلَّائِلُ تَوْحِيدِهِ وَقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَصَدَّقَ رَسَلَهُ وَدَارَ جَزَائِهِ ﴿ثُمَّ﴾ لَمْ يَعْتَنِ بِهَا وَ﴿أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ عَلَى خِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَاضَعُوا لَهَا وَخَرُّوا سُجَّدًا ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ الظالمين على أنفسهم، وَإِنْ هَانَتْ جَرِيمَتُهُ وَقَلَّ ظُلْمُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿مُنتَقِمُونَ﴾ بِتَعْذِيبِهِ، فَكَيْفَ بِمَنْ هُوَ أَشَدَّ جُرْمًا مِنْ كُلِّ مُجْرِمٍ وَأَظْلَمُ مِنْ كُلِّ ظَالِمٍ!

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ \* وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَّوْا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ \* إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ \* أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ

٢. تفسير القلمي ٢: ١٧٠، تفسير الصافي ٤: ١٥٨.

١. تفسير روح البيان ٧: ١٢٣.

٣. مجمع البيان ٨: ٥٢٠، تفسير الصافي ٤: ١٥٨.

أَفَلَا يَسْمَعُونَ \* أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ  
زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُنْصَرُونَ [٢٣-٢٧]

ثم لما ذكر إعراض الكفار عن الآيات، وكان يتألم به قلب نبيه ﷺ، سلاه سبحانه بذكر نزول التوراة على موسى ﷺ وعدم إيمان كثير من قومه بها، وصبر أنبياء بني إسرائيل على أذى قومهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ وأعطينا ﴿مُوسَى﴾ بن عمران ﴿الْكِتَابَ﴾ الميعود ﴿فَلَا تَكُنْ﴾ يا محمد ﴿فِي مِزَّةٍ﴾ وشك ﴿مِنْ﴾ أخذ موسى ﷺ ذلك الكتاب ﴿وَلَقَاهُ﴾ أو من لقائك موسى ﷺ ورؤيته في زمان حياتك، كما رأيته ليلة المعراج مرتين في السماء السادسة حين صعوده ونزوله، أو في الآخرة، أو من تلقاك القرآن من لدن عليهما حكيم، كما تلقى موسى ﷺ ذلك الكتاب الذي أنزلناه عليه ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ سبب ﴿هُدًى﴾ ورشاد من الضلال ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الذين اهتدوا به، كما جعلنا القرآن سبب الهداية لأمتك المؤمنين به.

﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ بعد موسى ﷺ في بني إسرائيل جماعة ﴿مِنْهُمْ﴾ أنبياء ليكونوا ﴿أُتَمَّةً﴾ وقادة لهم يقتدون بهم قولاً وعملاً ﴿يَهْدُونَ﴾ ويُرشدون الخلق إلى الحق ﴿بِأَشْرَانَا﴾ إياهم به، أو بوحينا إليهم، أو بتوفيقنا لهم ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ على مشاق الطاعات وشدائد الأمور وأذى قومهم ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على معارفنا وأحكامنا، لإمعان النظر فيها ﴿يُوقِنُونَ﴾ كما جعلنا في أمتك أئمة هداة مهتدين يهدونهم إلى ما في كتابك من المعارف والأحكام والعلوم، ومع ذلك لم يؤمن بكتاب موسى أئمة، بل اختلفوا فيه، فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر به ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ اللطيف بعباده ﴿هُوَ﴾ بذاته المُقَدَّسة يتصدى للحكومة و﴿يَفْصِلُ﴾ ويقضي ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بإثابة المؤمنين وتعذيب الكافرين ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وفصل القضاء ﴿فِيمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من صدق الأنبياء في إخبارهم بالتوحيد والمعاد وغيرهما من العقائد الحقَّة والأحكام الإلهية، بل حكم في الدنيا بينهم بمعاملته مع الأنبياء والمؤمنين بهم والكفار والمكذِّبين لهم.

﴿أَفَعَلُوا﴾ ولم يَهْدُوا ولم يظهر ﴿لَهُمْ﴾ بمطالعهم الكتب وسماعهم بالتواتر كيف أكرمنا الأنبياء والمؤمنين، ونصرناهم على أعدائهم و﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ بعذاب الاستنصال ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ جماعة ﴿مِنْ أَقْزَوِينَ﴾ وأهل الأعصار السابقة، كعاد وثمود والمؤتفكات وغيرهم وقومك ﴿يَمْشُونَ فِي﴾ أسفارهم وتجاراتهم في منازل أولئك الأمم المهلكة و﴿مَسَاكِينِهِمْ﴾ الخربة، ويشاهدون آثار نزول العذاب عليهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الإهلاك والله ﴿لآيَاتٍ﴾ كثيرة، ودلالات واضحة على حكم الله بحَقَانِيَةِ الموحِّدين ومُصْداقِي الأنبياء، ومُدْعِي المعاد، وطلان القول بالشرك وإنكار المعاد، أهم صُـمُّ

﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ تلك المواعظ والعيّر، هبوا أنهم لا يسمعون تلك الأخبار ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ بأعينهم ﴿أَنَّا نَسُوقُ﴾ ونجري ﴿الْمَاءَ﴾ النازل من السماء ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ واليابسة المتقطعة عن الماء والنبات ﴿فَنُخْرِجُ﴾ بذلك الماء، وثبت ﴿بِهِ﴾ فيها ﴿زَرْعاً﴾ نافعا ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَهُمْ غَمِي﴾ فلا يُبْصِرُونَ ﴿آيات الله الدالة على توحيده وقدرته على إعادة خلقهم في الحشر للحساب وجزاء الأعمال.

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ \* فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِلَهُهُمْ مُنْتَظَرُونَ [٢٨ - ٣٠]

ثم أنه تعالى بعدما هدّد الكفار بحكمته عليهم يوم القيامة، حكى استهزاءهم بهذا الوعيد واستعجالهم له بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ استهزاء للمؤمنين ﴿مَتَى﴾ يكون ﴿هَذَا الْفَتْحُ﴾ والحكومة؟ عینوا وقته ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿صَادِقِينَ﴾ في إخباركم به. قيل: إن المؤمنين قالوا لكفار مكة: إن لنا يوماً يفتح الله فيه بيننا - يعني يحكم بيننا - يُريدون يوم القيامة<sup>١</sup>.

وقيل: إن المؤمنين قالوا لهم: سيفتح لنا على المشركين<sup>٢</sup>، ويُصْرنا عليهم، فأمر سبحانه نبيه ﷺ بجوابهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: إن تريدوا باستعجالكم له وتعيين وقته أن تؤمنوا عند مجيئه، فاعلموا أن ﴿يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ وهو يوم القيامة والشهود ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في نجاتهم من العذاب واستحقاقهم الثواب ﴿إِيمَانُهُمْ﴾ بالله وباليوم الآخر لغوات وقته، فإن الإيمان النافع لا يكون إلا في الدنيا، وإن تظمّنوا بخلاصكم فيه من العذاب، فاعلموا أن الكفار لا يخلصون منه ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ولا يمهّلون ساعة لعدم المقضى لإمهالهم مع كمال استحقاقهم له، أو لا ينفع يوم غلبة المسلمين عليهم إيمانهم، لأنه إيمان عند رؤية البأس، كإيمان فرعون حين الغرق، ولا يمهّلهم المسلمون، بل يقتلونهم.

والقمي قال: لما أخبرهم رسول الله ﷺ بخبر الرجعة، قالوا: متى هذا الفتح؟ وهذه معطوفة على قوله: ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى﴾<sup>٣</sup> الآية.

١. تفسير روح البيان ٧: ١٢٩.

٢. تفسير القمي ٢: ١٧١، تفسير الصافي ٤: ١٦٠، والآية من سورة السجدة: ٢١/٣٢.

ثُمَّ سَلَىٰ سَبْحَانَهُ نَبِيِّهِ ﷺ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وَلَا تَعْنِ بِهِمْ وَلَا تُبَالِ بِتَكْذِيبِهِمْ ﴿وَأَنْتَظِرُ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ النَّظَرَةُ عَلَيْهِمْ وَهَلَاكِهِمْ، أَوْ ابْتِلَاءُهُمْ بِالْعَذَابِ فِي الْقِيَامَةِ.

في الحديث: «من قرأ (الم تنزيل) و(تبارك الذي بيده الملك) أُعطي من الأجر كأنما أحيا ليلة القدر»<sup>١</sup>.

وفي حديث آخر: «من قرأ (الم تنزيل) في بيته لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام»<sup>٢</sup>.

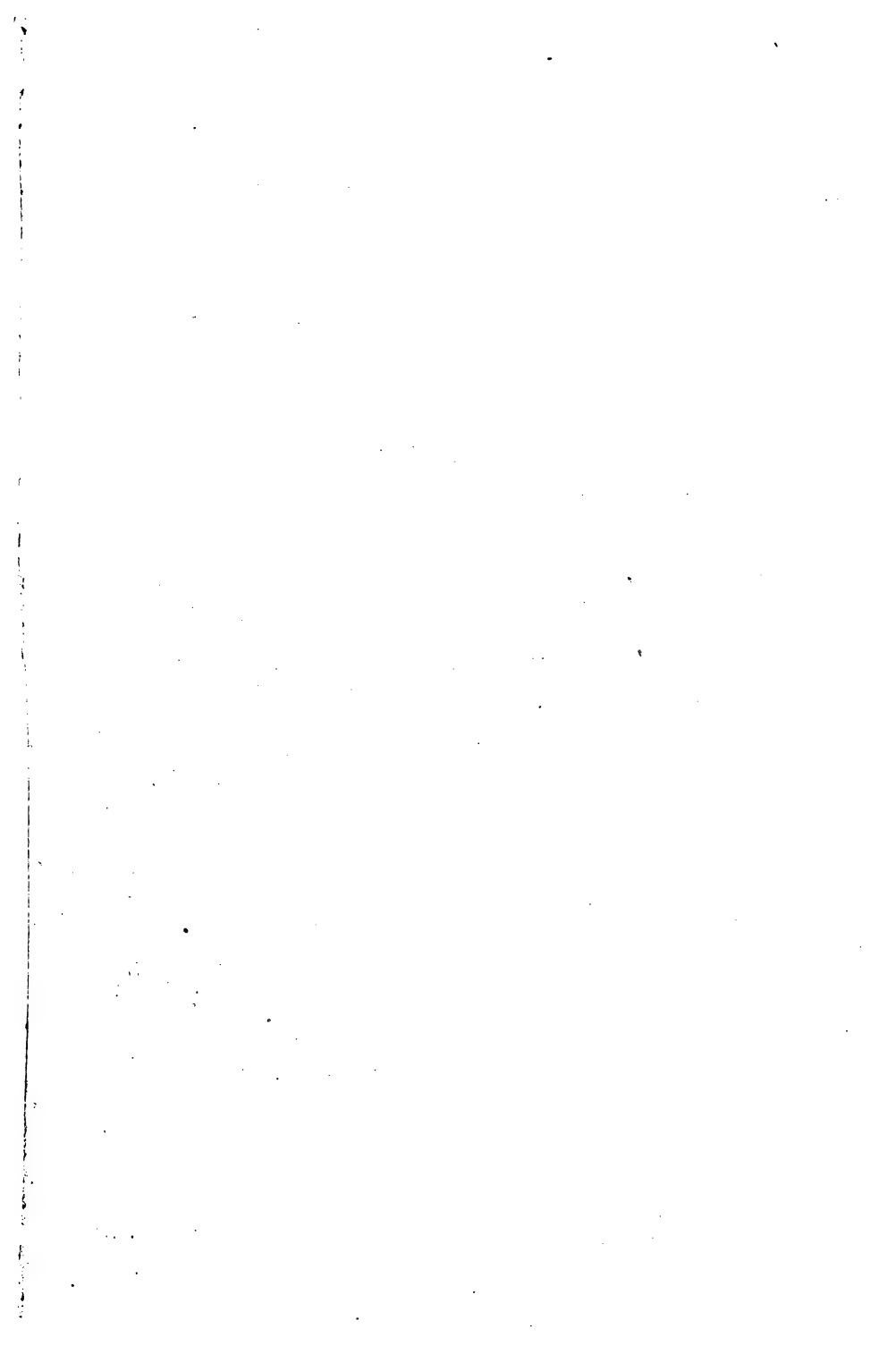
وفي ثالث: «تجيء (الم تنزيل) السجدة يوم القيامة ولها جناحان تطاير صاحبهما وتقول: لا سبيل عليك»<sup>٣</sup>.

وعن جابر: أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ (الم) السجدة و(تبارك الذي بيده الملك) ويقول: «هما تَفْضُلَانِ كُلَّ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ بِسَبْعِينَ حَسَنَةً، فَمَنْ قَرَأَهُمَا كُتِبَ لَهُ سَبْعُونَ حَسَنَةً، وَمُحِي عَنْهُ سَبْعُونَ سَيِّئَةً وَرُفِعَ لَهُ سَبْعُونَ دَرَجَةً»<sup>٤</sup>.

وروي أن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر يوم الجمعة (الم تنزيل) و(هل أتى على الإنسان)»<sup>٥</sup>. وعن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة السجدة في كل ليلة جمعة، أعطاه الله كتابه بيمينه، ولم يُحاسبه بما كان منه، وكان من رُفقاء محمد ﷺ وأهل بيته»<sup>٦</sup>.

١ - ٥. تفسير روح البيان ٧: ١٣٠.

٦. ثواب الأعمال: ١١٠، مجمع البيان ٨: ٥٠٨، تفسير الصافي ٤: ١٦٠.





## في تفسير سورة الأحزاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ أَتَقِي اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا  
حَكِيمًا [١]

ثُمَّ لَمَّا خُتِمَتْ سُورَةُ ﴿الْم﴾ السَّجْدَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا إِثْبَاتُ النُّبُوَّةِ، وَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْأَعْرَاضِ عَنِ الْكُفَّارِ وَاسْتَهْزَاءِ الْكُفَّارِ بِالْمُؤْمِنِينَ فِي إِخْبَارِهِمْ بِغَلِبَتِهِمْ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، أُرْدِفَتْ بِسُورَةِ الْأَحْزَابِ الَّتِي بَدَأَ فِيهَا بِالْإِعْلَانِ بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَشَرَحَ الْإِعْرَاضَ عَنِ الْكُفَّارِ بِالنَّبِيِّ عَنْ طَاعَتِهِمْ، وَالْأَمْرَ بِاتِّبَاعِ الْقُرْآنِ، وَالْاعْتِمَادَ عَلَى اللَّهِ فِي دَفْعِ شَرِّ الْأَعْدَاءِ، وَالْإِخْبَارَ بِفَتْحِ الْمُؤْمِنِينَ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ، وَنَهَى النَّبِيَّ ﷺ عَنْ خَشْيَتِهِ مِنَ النَّاسِ فِي تَزْوِيجِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَطَالِبِ الْمُنَاسِبَةِ لِمَا فِي السُّورَةِ السَّابِقَةِ، فَابْتَدَأَ سُبْحَانَهُ عَلَى حَسَبِ دَابِهِ فِي كِتَابِهِ بِذِكْرِ أَسْمَائِهِ الْمُبَارَكَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تَبَرَّكاً وَتَيْمَنًا وَتَعْلِيمًا لِلْعِبَادِ.

ثُمَّ وَجَّهَ الْخُطَابَ إِلَى نَبِيِّهِ الْمَعْصُومِ الَّذِي كَانَ مَجَسِّمَةَ التَّقْوَى، وَلَا يَتَوَهَّمُ فِي حَقِّهِ طَاعَةَ غَيْرِ اللَّهِ، إِظْهَارًا لِكَمَالِ الْإِهْتِمَامِ بِالتَّكَالِيفِ الْمَوْجَّهَةِ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ وَالشَّخْصَ الْجَلِيلَ الْمُخْبِرَ عَنِ اللَّهِ بِأَخْبَارِ عَظِيمَةِ الْفَائِدَةِ، أَوِ الشَّخْصَ الرَّفِيعَ الْمَنْزِلَةَ عِنْدَ اللَّهِ ﴿أَتَقِي اللَّهَ﴾ وَاحْتَرِزَ غَضَبَهُ وَسَخَطَهُ ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ﴾ وَالْمُتَجَاهِرِينَ بِالْكُفْرِ ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الْمُسْرِينَ لَهُ الْمَظْهَرِينَ لِلْإِسْلَامِ، وَلَا تَعْمَلْ بِأَرَائِهِمْ وَإِنْ اتَّفَقَ النَّاسُ عَلَى كَوْنِهَا عَيْنَ الصَّلَاحِ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ﴾ فِي الْأَزْلِ بِذَاتِهِ ﴿عَلِيمًا﴾ بِالْأَشْيَاءِ وَمُصَالِحِ الْعِبَادِ، وَمُحِيطًا بِمَفَاسِدِ أُمُورِهِمْ وَ﴿حَكِيمًا﴾ فَلَا يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وَفِيهِ الْمَفْسَدَةُ، وَلَا يَأْمُرُ بِشَيْءٍ إِلَّا وَفِيهِ الْمَصْلَحَةُ التَّامَّةُ وَالْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ.

قِيلَ: إِنَّ أَبَا سَفْيَانَ وَعِكْرَمَةَ وَأَبَا الْأَعْوَرِ جَاءُوا بَعْدَ وَقْعِهِ أَحَدًا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَنَزَلُوا فِي دَارِ ابْنِ أَبِي رَأْسٍ الْمُنَافِقِينَ، ثُمَّ طَلَبُوا يَوْمًا مِنَ الرَّسُولِ الْأَمَانَ حَتَّى يَخْضَعُوا عِنْدَهُ وَيُكَلِّمُوهُ، فَأَعْطَاهُمُ الرَّسُولُ الْأَمَانَ، فَحَضَرُوا مَعَ جَمْعٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ عِنْدَهُ، وَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، ارْفُضْ ذِكْرَ آلِهَتِنَا، وَقُلْ إِنَّهَا تَشْفَعُ يَوْمَ

القيامة، وتنفع لمن عبدها، ونحن ندعوك وربك، فبان الغضب من كلامهم في وجه الرسول ﷺ فقال ابن أبي وجمع من المنافقين: يا رسول الله، هؤلاء أشرف العرب، أعطهم سؤلهم، فإن فيه صلاحك. فهم عمر بقتلهم، فنهاه رسول الله، وقال: «أعطيتهم الأمان، فلا تنقض عهدي» فأخرجهم عمر من المدينة، فنزلت<sup>١</sup>.

وقيل: جاء جماعة من ثقيف إلى النبي ﷺ وقالوا: دعنا على عبادة الأصنام سنة، لتظهر مزية لنا عندك على قريش<sup>٢</sup> ثم نؤمن بك، فنزلت<sup>٣</sup>.

وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا \* وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا \* مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ [٢-٤]

ثم أنه تعالى بعد نهيهِ عن متابعة الكفار، أمره باتِّباع القرآن بقوله: ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ في جميع ما تأتي وتذكر، واعمل بأحكام الله المنزل في القرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الطاعة والمخالفة ﴿خَبِيرًا﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأحوالكم، ويجازيكم على حسب استحقاقكم، ولا تخش من أحد في مخالفتي، ولا ترج من أحد أن يحسن إليك، ولا تخف أحداً من ضره وشره ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ واعتمد ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ في حفظك، وفوض إليه جميع أمورك ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ﴾ الذي خلقك ودبر أمورك، وشرَّفك بمنصب الرسالة ﴿وَكِيلًا﴾ وحافظاً لصلاح أمورك، وحسبك ربك ولياً وناصراً.

قيل: من خاف ريحاً أو صاعقة أو غيرهما من المضار والمهلكات، فليكثر من ذكر: يا وكيل، فإنه يصرف منه كل شر وضر، ويُفتح له أبواب كل خير<sup>٤</sup>.

ثم لما كان طاعة الكفار الذين هم أعداء الله لا تكون إلا حبة لهم أو طمعاً ما عندهم من الزخارف، أو خوفاً من ضرهم، بين سبحانه أن حبه وخوفهم لا يجامع حب الله في قلب واحد بقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ﴾ من الرجال وشخص من الأشخاص نبياً كان أو غيره ﴿مِنْ قَلْبَيْنِ﴾ ومضغتين صغيرتين في هيئة الصنوبرة ﴿فِي جَوْفِهِ﴾ وداخل صدره، يكون في أحدهما الإيمان وحب الله والخوف منه، وفي الآخر الكفر وحب أعداء الله والخوف منهم.

عن الباقر عليه السلام: قال: «قال علي بن أبي طالب عليه السلام: لا يجتمع حبنا وحب عدونا في جوف إنسان، إن

٢. في مجمع البيان: قالوا لتعلم قريش منزلتنا منك.

٤. تفسير روح البيان ٧: ١٣٢.

١. تفسير روح البيان ٧: ١٣١.

٣. مجمع البيان ٨: ٥٢٥.

الله لم يجعل لرجلٍ قلبين في جوفه، فيُحِبُّ بهذا وَيُبْغِضُ بهذا، فأما مُحِبُّنا فيُخْلِصُ الحَبَّ لنا كما يَخْلُصُ الذهب بالنار، لا كَدَّرَ فيه، فمن أراد أن يعلم حَبَّنَا فليمتحن قلبه، فإن شارك في حَبَّنَا حَبَّ عدونا فليس منا ولنسامنه، والله عدوهم وجبرئيل وميكائيل، والله عدو للكافرين<sup>١</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: «ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه، يُحِبُّ بهذا قوماً، وَيُحِبُّ بهذا أعداءهم»<sup>٢</sup>.

وعنه عليه السلام: «فمن كان قلبه متعلقاً في صلاته بشيءٍ دون الله، فهو قريبٌ من ذلك الشيء، بعيدٌ عن حقيقة ما أراد الله منه في صلاته» ثم تلا هذه الآية<sup>٣</sup>.

وعن ابن عباس: كان المنافقون يقولون: إن لمحمد قلبين: قلباً معنا، وقلباً مع أصحابه، فأكذبهم الله<sup>٤</sup>.

وعن جمعٍ من مفسري العامة: أنها نزلت في أبي مَعْمَرٍ جميل<sup>٥</sup> بن مَعْمَرٍ الفهري، أو جميل بن أسد، وكان ليبياً حافظاً لما يسمع، وكان يقول: إن في جوفي قلبين، أعقل بكلٍ منهما أفضل مما يعقل محمداً! وكانت قريش تسمي ذا القلبين، فلما كان يوم بدر وهُزِمَ المشركون، وفيهم أبو مَعْمَرٍ تلقاه أبو سفيان وهو أخذ بإحدى نعليه بيده، والأخرى في رجله، وهو يعدو في الرَّمضاء، ويقول: أين نعلي، أين نعلي؟ فقال أبو سفيان له: إحدى نعليك في يدك<sup>٦</sup>. فحَجَلَ.

وفي رواية، قال له: فما بالك إحدى نعليك في يدك؟ قال أبو مَعْمَرٍ: ما شَعَرْتُ إلا أنهما في رجلي، فعلموا يومئذٍ أنه ليس له إلا قلبٌ واحدٌ، وإلا مانسي نعله في يده<sup>٧</sup>.

وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ  
أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَم قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ \*  
أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ  
وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ  
وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً [٥ و ٤]

١. تفسير القمي ٢: ١٧١، تفسير الصافي ٤: ١٦٢.  
٢. مجمع البيان ٨: ٥٢٧، تفسير الصافي ٤: ١٦٢.  
٣. مصباح الشريعة: ٩٢، تفسير الصافي ٤: ١٦٢.  
٤. تفسير روح البيان ٧: ١٣٤.  
٥. في النسخة: حميد.  
٦. تفسير القرطبي ١٤: ١١٦، تفسير أبي السعود ٧: ٩٠، تفسير روح البيان ٧: ١٣٤.  
٧. تفسير الصافي ٤: ١٦٢.

ثم أنه تعالى بعد إبطال هذا القول أبطل قولهم بأن الزوجة تصير في حكم الأم بالظهار بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ﴾ الله تكويناً أو تشريعاً نساءكم اللاتي يكنّ ﴿أَزْوَاجَكُمْ﴾ وحلائلكم ﴿اللاتي تظاهرونَ مِنْهُنَّ﴾ وتقولون لهنّ: أنتنّ علينا كظهور أمهاتنا ﴿أُمَّهَاتِكُمْ﴾ حقيقة أو حكماً، أما حقيقة فبالداهة، وأما حكماً فلعدم الملاك، فلا وجه لحسانهنّ مطلقات، كما تخيلهنّ العرب في الجاهلية مطلقات، ثم أبطل قولهم بأن من قال لأحد: أنت ابني يكون ابناً له بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ﴾ الله ﴿أَدْعِيَاءَكُمْ﴾ والذين تبنتهم ودعوتهم باسم الابن ﴿أَبْنَاءَكُمْ﴾ الحقيقة أو الحكمية، كما جعلتهم العرب في الجاهلية أبناء للداعي والمتبني، وحرّموا نكاح أزواجهم عليه، وورثهم أمواله، ولذا كانت تقول لزيد بن حارثة الكلبي: عتيق رسول الله ابن محمد ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من أمومة المظاهرة وبنة الدعي ﴿قَوْلُكُمْ﴾ الذي تقولونه ﴿بِأَفْوَهِكُمْ﴾ وألستكم، لا توافقه قلوبكم وعقولكم، وكذب اخترعتموه بأهوائكم ﴿وَأَنَّهُ﴾ المطلع على حقائق الأشياء وواقعات الأمور ﴿يَقُولُ الْحَقُّ﴾ والكلام الصدق المطابق للواقع ﴿وَهُوَ﴾ بلفظه ﴿يَهْدِي﴾ عباده ﴿السَّبِيلَ﴾ الحق في جميع الأمور، فدعوا أقوالكم وخذوا بقوله.

ثم هدى الناس وعلمهم الكلام الحق بقوله: ﴿أَدْعَوْهُمْ﴾ وانسبّوهم ﴿لِأَبَائِهِمْ﴾ الذين ولدوهم، فإن الدعاء لأبائهم ﴿هُوَ أَقْسَطُ﴾ وأعدل وأقرب للصواب ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وفي حكمه من دعائهم لغير آبائهم، وأصدق من نسبتهم إلى من تبناهم ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا﴾ ولم تعرفوا ﴿أَبَاءَهُمْ﴾ حتى تنسبهم إليهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ إذا كانوا مسلمين ﴿وَمَوَالِيَكُمْ﴾ وعقباؤكم إذا اعتنقتموهم، أو أحباؤكم، فقولوا لهم: يا إخواننا، أو يا أوليائنا ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ عند الله ﴿جُنَاحٌ﴾ وإثم ﴿فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ وعدلتكم عن طريق الصواب فيه بالسهر أو بسبق اللسان ﴿وَلَكِنْ﴾ الجناح ﴿مَا تَعَمَّدَتْ﴾ وقصدت ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ بعد النهي، وفي الحديث: (من دعي لغير أبيه، وهو يعلم أنه غير أبيه، فالجنة عليه حرام)<sup>١</sup> ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ مع التعمد أيضاً ﴿عَفُورًا﴾ وستار العصاة<sup>٢</sup> التائبين ﴿رَحِيمًا﴾ بالمؤمنين.

النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ  
بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا  
إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا [٦]

ثم أنه تعالى بعد ما نفى الأمومة عن المظاهرة، والبنوة عن الدعي، أثبت الأبوة والألوية في جميع الأمور بالمؤمنين لنبيه ﷺ بقوله: ﴿الَّذِينَ أُولَى﴾ وأجدر ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ في جميع الأمور الدينية والدنيوية ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ لكونه أعلم بمصالحهم ومفاسدهم، وأشفق عليهم منها، فيجب أن يتدولها دونه، ويتبعوه في كل ما يذعوهم إليه، ولا يذعوهم إلا إلى ما فيه نجاتهم وفلاحهم ورشدهم وفوزهم، كما جاء في الحديث «متلي ومثلكم، كمثل رجل أوقد ناراً، فجعل القراش والجنادب<sup>١</sup> يقعن فيها، وهو يذب عنها، وأنا أخذ بحجزكم<sup>٢</sup> عن النار، وأنتم تغفلون من يدي، وتطلبون الوقوع في النار بترك ما أمرت به، وارتكاب ما نهيت عنه»<sup>٣</sup>.

وفي الحديث: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة من أنفسهم ومن آبائهم»<sup>٤</sup>. وفي آخر: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وماله والناس أجمعين»<sup>٥</sup>. عن الصادق عليه السلام: «أنا رسول الله ﷺ قال: أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، وعليّ أولى به من بعدي». فقيل له: ما معنى ذلك؟ فقال: «قول النبي ﷺ: من ترك ديناً أو ضياعاً فعلي، ومن ترك مالا فلورثته. فالرجل ليست له على نفسه ولاية إذا لم يكن له مال، وليس له على عياله أمر ولا نهى إذا لم يجز عليهم النفقة، والنبي وأمير المؤمنين ومن بعدهما ألزمهم هذا، فمن هناك صاروا أولى بهم من أنفسهم، وما كان سبب إسلام عامة اليهود إلا من بعد هذا القول من رسول الله ﷺ وإنهم آمنوا على أنفسهم وعيالاتهم»<sup>٦</sup>.

عن بعض العامة: أن النبي ﷺ لما أراد غزوة تبوك، فأمر الناس بالخروج، فقال ناس: نساو آباءنا وأمهاتنا، فنزلت الآية<sup>٧</sup>.

وروا عنه ﷺ أنه قال لعلي عليه السلام: «أنا وأنت أبوا هذه الأمة»<sup>٨</sup>.

ثم أثبت أمومة المؤمنين لأزواجه ﷺ بقوله: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ وبمنزلة اللاتي ولدنهم في وجوب التعظيم، وحرمة النكاح دون النظر والخلوة والميراث، فانهن في جميع ما ذكر بمنزلة الأجنيات.

١. الجنادب: جمع جُنْدَب - بفتح الدال وضمها - نوع من الجراد.

٢. الحُجْز: جمع حُجْزَة، وهي موضع شد الإزار من الوسط، وموضع النكّة من السراويل.

٣. تفسير روح البيان ٧: ١٣٨.

٤. تفسير روح البيان ٧: ١٣٩.

٥. تفسير روح البيان ٧: ١٣٩.

٦. الكافي ١: ٦/٣٣٥، تفسير الصافي ٤: ١٦٧.

٧. تفسير روح البيان ٧: ١٤٠.

٨. تفسير روح البيان ٧: ١٣٨.

عن الباقر عليه السلام في حديث: «وأزواج رسول الله ﷺ في الحرمة مثل أمهاتهم»<sup>١</sup>. وعن القائم عليه السلام قال: «إن الله تقدس اسمه عظم شأن نساء النبي فخصهن بشرف الأمهات، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا الحسن، إن هذا الشرف باقٍ مادُم على الطاعة فآيتهن عصت الله بعدي بالخروج عليك، فأطلقها في الأزواج، وأسقطها من تشرف الأمهات ومن<sup>٢</sup> شرف أمومة المؤمنين»<sup>٣</sup>.

ثم لما بين سبحانه أبوة النبي ﷺ للمؤمنين وأولوته بهم من أنفسهم، وأمومة أزواجه لهم، وأخوتهم في الدين، وكان في بدو الهجرة التوارث بينهم بتلك الأخوة، نسخ الله حكم التوارث بينهم بعد قوة الاسلام بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ وذوو القربات النسبية ﴿بِغَضُّهُمْ أَوْلَى﴾ وأحرى ﴿بِغَضِّهِمْ﴾ آخر منهم في التوارث ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ وفرضه، أو اللوح المحفوظ، أو القرآن المنزل منه ﴿مِنْ الْأَنْصَارِ﴾ ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ منهم. وقيل: هذا بيان لأولى الأرحام<sup>٤</sup>.

وعلى أي تقدير، فلا يرث غير القربات النسبية من أموالكم أيها المؤمنون شيئاً، ولا يجوز لهم أن يأخذوا منها بعد موتكم ﴿إِلَّا﴾ في صورة ﴿أَنْ تَقْعَلُوا﴾ أنتم، وتحسينوا في حياتكم ﴿إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ﴾ وأحبائكم من الأقارب أو الأجانب بالإيصاء ﴿مَعْرُوفًا﴾ وشيئاً حسناً عند العقل والشرع، فإنهم يأخذون ما أوصى لهم من الأموال إذا لم يكن زائداً على الثلث.

عن الصادق عليه السلام أنه سئل: أي شيء للموالي؟ فقال: «ليس لهم من الميراث إلا ما قال الله: ﴿إِلَّا أَنْ تَقْعَلُوا إِلَيَّ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾»<sup>٥</sup>.

﴿كَانَ ذَلِكَ﴾ المذكور من أولوية النبي ﷺ بأمته، وأمومة أزواجه للمؤمنين، وتوارث ذوي الأرحام ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ واللوح المحفوظ، أو القرآن ﴿مَنْشُورًا﴾ ومكتوباً.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى  
أَبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظًا \* لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ  
لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً [٧٧ و ٨]

ثم لما أمر سبحانه نبيه ﷺ بالتقوى منه، وعدم الاعتناء بالكفار، والتوكل عليه، والتوجه بقلبه إليه، وجعل له الولاية العامة، ووجوب الإطاعة، والأمومة لأزواجه، بين نيوته الموجبة لجميع ذلك، وعظم

١. الكافي ٥: ٤٢١/٤، تفسير الصافي ٤: ١٦٧.

٢. كمال الدين: ٢١/٤٥٩، تفسير الصافي ٤: ١٦٧.

٣. تفسير أبي السموذ ٧: ٩١، تفسير روح البيان ٧: ١٤٠.

٤. الكافي ٧: ٣/١٣٥، تفسير الصافي ٤: ١٦٨.

شأنه المقتضية لاعطائه الولاية المطلقة بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾. قيل: إن التقدير واذكر يا محمد وقت أخذنا ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ كافة حين تحميلهم الرسالة في الذر، أو في هذا العالم ﴿مِيثَاقَهُمْ﴾ وعهودهم بتبليغ الرسالة وتحمل أعبائها.

ثم خص أولي العزم منهم بالذكر مع دخولهم في النبيين، تعظيماً لهم، مقدماً لذكر حبيبهم إعلاناً بشرفه عليهم بقوله: ﴿وَمِنْكَ﴾ يا حبيبي ﴿وَمِنْ نُوحٍ﴾ الذي هو أول أولي العزم، وأصل بني آدم بعد الطوفان ﴿وِإِبْرَاهِيمَ﴾ الذي يفتخر به العرب ﴿وَمُوسَى﴾ الذي يتدينون بدينه اليهود ﴿وَعِيسَى﴾ الذي تنسب النصرى دينهم إليه، ولم يكن له أب، ولذا يكنى بـ ﴿أَبْنِ مَرْيَمَ﴾.

ثم أكد سبحانه أخذ الميثاق بقوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ وعهداً أكيداً نعتبه المسؤولية الشديدة ﴿لِيَسْأَلَ﴾ الله هؤلاء ﴿الْصَّادِقِينَ﴾ في دعوة النبوة، والإخبار عن الله ﴿عَنَ﴾ علة ﴿صِدْقِهِمْ﴾. كان لوجه الله، أو للرياء وطلب الدنيا ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ والمكذبين لهم في الآخرة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا \* إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا \* هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا \* وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا \* وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا [٩-١٣]

ثم حث المؤمنين على تخلص الايمان بذكر معجزة النبي ﷺ التي كانت دليلاً على صدقه، ونعمة عليهم، ولطفاً من الله بهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ واشكروها ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ وأحزاب من قريش وعطفان وكنانة وبني سليم وأشجع واليهود وغيرهم، ليستأصلوكم، فدعا الرسول والمؤمنون ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ إجابة لدعانكم وإنجازاً لما وعدكم رسولكم ﴿رِيحًا﴾ باردة يقال لها الصُّبَا في ليلة شاتية، فأحصرتهم، ولم يجاوز معسكرهم، وسفت التراب في وجوههم ﴿وَجُنُودًا﴾ من الملائكة، وأنتم ﴿لَمْ تَرَوْهَا﴾ فقلعت أوتار خيامهم، وقطعت

أطناها، وأطفا نيرانهم، وأكفأت قدورهم، ونفتت الرُّعب في قلوبهم، وكَبُرَتْ في جوانب معسكرهم حتى سَمِعُوا التكبير وقعقة السلاح، واضطربت خيولهم حتى قال رؤسأهم: **الْجَا النُّجَا**، فانهزموا ليلاً من غير قتال، وتركوا ما استقلوا من أمتعتهم **﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾** من حفر الخندق، وتدبير أمر الحرب، وترتيب أسبابه، والثبات على الإيمان، والجِدِّ في الصالحات **﴿بَصِيرًا﴾** وشاهدًا، فيجازيكم عليه أفضل الجزاء. واعلم أن الآية وما بعدها نزلت في غزوة الأحزاب.

**قصة غزوة الأحزاب** رُوي أنه كان في المدينة ونواحيها بطنان من اليهود: أحدهما بنو قُريظة، والآخر بنو النضير، فلَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المدينة صالحهم على أن يكونوا معه، ولا يكونوا عليه، فذهب الرسول ﷺ يوماً مع بعض أصحابه إلى قرية بني النضير يقال لها زهرة لحاجة، فجلس إلى جنب جدارٍ من بيوتهم، فعزموا على قتله ﷺ، وصَعِدَ بعضهم على سطح بيتٍ لِيُلْقِي عليه صخرةً، فأخبره جَبْرِئِيلُ بما أرادوا، فقام ورجع إلى المدينة، فلَمَّا رَأَى منهم نقض العهد، أرسل إليهم محمد بن مَسْلَمَةَ أن اخرجوا من أرض المدينة. فامتنعوا، فخرج الرسول ﷺ مع أصحابه لمحاربتهم، فحاصروهم سِتَّ لَيَالٍ، وقذف الله في قلوبهم الرُّعب. فسألوا الرسول ﷺ أن يُجْلِيَهُمْ وَيَكْفَ عَنْ دِمَائِهِمْ، فَقَبِلَ ﷺ مَسْأَلَتَهُمْ وَأَجْلَاهُمْ، فسار سيدهم حُيَّي بن أخطب وجمع من كبرائهم إلى قريش، وحرَّضوهم على حرب رسول الله ﷺ فوافقهم قريش.

ثُمَّ سَارُوا إِلَى غُظْفَانَ وَقِبَائِلَ أُخَرَ، وحرَّضوهم على ذلك، فتجهَّزَت قريش ومن اتَّبَعَهُمْ مِنَ الْقِبَائِلِ، وعقدوا اللِّوَاءَ فِي دَارِ الدُّوَّةِ، وكان مجموع الأحزاب من قريش، وغُظْفَانَ، وبَنِي مُرَّةَ، وبَنِي أَشْجَع، وبَنِي أَسَدَ، وبَنِي سُلَيْمٍ، وَكِنَانَةَ، ويهود بني قُريظة، وبني النضير، وغيرهم قدر اثني عشر ألفاً، وقائد الكل أبو سفيان.

فَاتَى رَكْبٌ مِنْ خِزَاعَةَ فِي أَرْبَعِ لَيَالٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَخْبَرُوا بِهِ، فاستشار ﷺ أصحابه في أمر العدو هل يَبْرُزُونَ مِنَ الْمَدِينَةِ، أَوْ يَقِيمُونَ فِيهَا.

**قصة حفر الخندق** فقال سلمان: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا إِذَا تَخَوَّفْنَا لَعَدُوَّ بَارِضٍ فَارِسَ، حَفَرْنَا عَلَيْنَا خَنْدَقًا، وذكر إعجاز النبي ﷺ يكون بيننا وبينهم حِجَابٌ، وتكون الحرب في مواضع معروفة، ولا يمكنهم أن يأتونا من كُلِّ وَجْهِ، فنزل جَبْرِئِيلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وقال: أَشَارَ سَلْمَانُ بِصَوَابٍ، فسار ﷺ مع أصحابه - وهم ثلاثة آلاف<sup>١</sup>، أو سبعمائة<sup>٢</sup> - إِلَى أَحَدَ، أَوْ إِلَى جَبَلِ سَلْعَ، وجعل أسفله المعسكر.



وفي رواية: أمر بمسجد في ناحية أحد إلى راتج<sup>١</sup>، وجعل على كل عشرين أو ثلاثين خطوة قوماً من الأصحاب يحفرونه، وبدأ بنفسه، فأخذ مِعْوَلًا، فحفر في موضع المهاجرين بنفسه، وعليه عليه السلام ينقل التراب، حتى عَرِقَ النبي ﷺ وعيي، وقال: «لا عيش إلا عيش الآخرة، اللهم اغفر للأتصار والمهاجرين». فلَمَّا نظر الناس إليه اجتهدوا في الحفر<sup>٢</sup>، وكلَّمَا عرض لهم جبل شكَّوا إلى رسول الله ﷺ فيجئ ويضرب المِعْوَل، فيصير كثيباً مهيلًا، قال سلمان: ضربت في ناحية من الخندق فَمَلَّظْتُ عليّ، فأخذ المِعْوَل من يدي وقال: «بسم الله»<sup>٣</sup>.

وفي رواية: دعا بماء فغسل وجهه وذراعيه، ومسح على رأسه ورجليه، ثم شَرِبَ ومَجَّ من ذلك الماء في فيه، ثم صَبَّه على ذلك الحَجَر، ثم أخذ مِعْوَلًا فَبَرَقَتْ بَرَقَةٌ، وكسر ثلث الحجارة، فخرج منها نورٌ من قِبَل اليمن كالصباح في جوف الليلة المظلمة، فكَبَّرَ رسول الله ﷺ وقال: «أُعْطِيت مفاتيح اليمن، والله إِنِّي لأُبْصِرُ أبواب صنعاء من مكاني الساعة كأنها أبواب الكلاب»<sup>٤</sup>. ثم وفي رواية: «فَبَرَقَتْ بَرَقَةٌ نظرنا فيها إلى قصور المدائن»<sup>٥</sup>، ثم ضرب أخرى قطع ثلثاً آخر، وَبَرَقَ منها بَرَقَةٌ، فخرج نورٌ من قِبَل الرُّوم، فكَبَّرَ رسول الله ﷺ وقال: «أُعْطِيت مفاتيح الشام، والله لأُبْصِرُ قُصُورها»<sup>٦</sup>. وفي رواية نظرنا فيها إلى قصور الشام<sup>٧</sup>، ثم ضرب الثالثة قطع بقية الحجر، وَبَرَقَ منها بَرَقَةٌ، فخرج نورٌ من قِبَل فارس، فكَبَّرَ رسول الله ﷺ وقال: «أُعْطِيت مفاتيح فارس، والله إِنِّي لأُبْصِرُ قصور الجيرة ومدائن كسرى، كأنها أبواب كلاب، وجعل يصف لسلمان أماكن فارس، ويقول سلمان: صدقت. ثم قال: هذه فتوح يفتحها الله بعدي يا سلمان»<sup>٨</sup>.

وفي رواية جابر: نظرنا فيها إلى قصور المدائن، فقال رسول الله: «أما إِنَّه سيفتح الله عليكم هذه المواضع التي برق فيها البرق، ثم انهال علينا الجبل كما ينهال الرمل، فقال جابر: فعلمت أن رسول الله ﷺ جئنا لَمَّا رأيت على بطنه الحَجَر، فقلت: يا رسول الله، هل لك في الغذاء؟ قال: «ما عندك؟» قلت: عَنَّا<sup>٩</sup> وصَاعٌ من شعير. فقال: تقدَّم وأصلح ما عندك.

قال جابر: فجئتُ إلى أهلي، فأمرتها فطحنت الشعير، وذبحت المَعز وسلختها، وأمرتها أن تخبز

١. راتج: أطمه (حصن) من أطام المدينة. «الروض المعطار: ٢٦٦»، وفي النسخة: رابح.

٢. تفسير القمي ٢: ١٧٧.

٣. تفسير روح البيان ٧: ١٤٤.

٤. تفسير القمي ٢: ١٧٨.

٥. تفسير القمي ٢: ١٧٨.

٦. تفسير القمي ٢: ١٧٨.

٧. تفسير روح البيان ٧: ١٤٥.

٨. تفسير روح البيان ٧: ١٤٥.

٩. العَنَّا: الأتني من المعز.

وتطبخ وتشوي، فلما فرغت جثث إلى رسول الله ﷺ فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، قد فرغنا، فاحضر مع من أحببت. فقام ﷺ إلى شفير الخندق، وقال: يا معاصر المهاجرين والأنصار، أجيئوا جابر. قال جابر: وكان في الخندق سبععمائة رجل، فخرجوا كلهم، ثم لم يَمَرَّ بأحدٍ من المهاجرين والأنصار إلا قال: «أجيئوا جابرًا»<sup>١</sup>. وفي رواية: كان على الخندق ثلاثة آلاف رجل<sup>٢</sup>.

قال جابر: فتقدمت وقلت لأهلي: قد أتاك رسول الله بما لا يقبل لك به. فقالت: أعلمته أنت بما عندك؟ قلت: نعم قالت: فهو أعلم بما أتى. فدخل رسول الله ﷺ، فنظر في القدر، ثم قال: «أغرني وأبقي» ثم نظر في التور، ثم قال: «أخرجني - أو أخيزي - وأبقي» ثم دعا بصحفة فثرد فيها وتمرق، وقال: «يا جابر، أدخل علي عشرة عشرة» فأدخلت عشرة فأكلوا حتى نهلوا، وما يرى في القصة إلا آثار أصابعهم. ثم قال: «علي بالذراع» فأتيته به، فأكلوه. ثم قال: «أدخل عشرة» فأدخلت، فأكلوا حتى نهلوا، وما يرى في القصة إلا آثار أصابعهم، ثم قال: «علي بالذراع» فأكلوا وخرجوا، ثم قال: «علي بعشرة» فأدخلتهم فأكلوا حتى نهلوا، وما يرى في القصة إلا آثار أصابعهم، ثم قال: «علي بالذراع» فأتيته، فقلت: يا رسول الله، كم للشاة من ذراع؟ قال: «ذراعان». فقلت: والذي بعثك بالحق، لقد أتيتك بثلاثة. فقال: «أما لو سكت - يا جابر - لأكل الناس كلهم من الذراع» قال جابر: فأقبلت أدخل عشرة عشرة حتى أكلوا كلهم، وبقي لنا من ذلك الطعام ما عشنا به أيامًا<sup>٣</sup>.

وفي رواية، قال ﷺ لأهلي: «كُلِّي وأهدي» فأهديت منه إلى أقربائي<sup>٤</sup> فأكلوا منه حتى شبعوا. فلما فرغ رسول الله ﷺ من حفر الخندق في ستة أيام، أقبلت قريش ومن معهم من الأحزاب يوم فراغهم أو بعد ثلاثة أيام، فلما نزلوا العقيق، جاء حُيَيُّ بن أخطب إلى بني قريظة، وكانوا في حصنهم قد تمسكوا بعهد رسول الله ﷺ، فأغواهم وحملهم على نقض العهد، فتجهزوا لقتال رسول الله ﷺ وأرادوا الإغارة على المدينة بمعاونة طائفة من قريش، فبلغ النبي ﷺ فعظم البلاء، وصار الخوف على النساء والذراري أشد مما على أهل الخندق، فبعث ﷺ ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة<sup>٥</sup>، ويأمنون أهلها.

فأقبلت قريش والأحزاب كما حكاها سبحانه بقوله: ﴿إِذْ جَاءَهُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿مِنْ﴾ الوادي الذي كان من ﴿فَوْقَهُمْ﴾ وأعلى معسكرهم وجهة شرقية، وهم عطفان ومن معهم من أهل نجد

٢. تفسير أبي السعود ٧: ٩٢، تفسير روح البيان ٧: ١٤٤.

٤. مجمع البيان ٨: ٥٣٥.

١. تفسير القمي ٢: ١٧٨.

٣. تفسير القمي ٢: ١٧٨.

٥. تفسير روح البيان ٧: ١٤٥.

واليهود ﴿وَمِنَ الْوَادِي الَّذِي كَانَ فِي «أَسْفَلٍ» وَأَنْزَلَ «مِنْكُمْ» وَمِن مَعْسَكْرَم وَجْهَةً غَرْبِيَّةً، وَهُمْ قَرِيشٌ وَمِنْ مَعَهُم مِّنَ الْقَبَائِلِ «وَوَ» اذْكُرْ «إِذْ زَاغَتْ» وَتَحَيَّرَتْ «الْأَبْصَارُ» شَخَصَتْ «بِلَغَتِ الْقُلُوبِ الْحَنَاجِرَ» مِنَ الرُّعْبِ وَالْخَوْفِ.

قيل: إن الرنة تنتفخ من شدة الرعب، فيرتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة<sup>١</sup> ومتهى الخلقوم، ولولا ضيقه بها لخرجت من الجوف. والمراد أنه كادت أن تبُلغ القلوب الحناجر خوفاً على أنفسهم من الأحزاب الذين كانوا أضعافهم، وعلى ذراريهم في المدينة من اليهود الذين نقضوا عهد الرسول ﷺ وأرادوا الإغارة عليهم فيها.

﴿وَتَظُنُّونَ﴾ أَيُّهَا الْمَظْهَرُونَ لِلإِيمَانِ «بِالله» الَّذِي وَعَدَكُمْ النِّصْرَ «الظُّنُونَا» الْمُخْتَلِفَةَ، فَإِنَّ الْمُخْلَصِينَ ظَنُّوا إِنْجَازَ وَعْدِهِ وَامْتَحَانَهُمْ، وَظَنَّ الضَّعَافُ الْقُلُوبِ وَالْإِيمَانَ وَالْمُنَافِقُونَ الْقَتْلَ وَالْأَسْرَ وَالْغَارَةَ وَخَلَفَ اللَّهُ وَعْدَهُ أَوْ كَذَبَهُ «هَذَاكَ» وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتُ، أَوْ الْمَوْطِنُ «أَبْتَلَيْ» وَاخْتَبَرِ «الْمُؤْمِنُونَ» بِالْحَصْرِ وَالرُّعْبِ، وَظَهَرَ الْمُخْلَصُ مِنَ الْمُنَافِقِ، وَالثَّابِتُ مِنَ الْمَتَزَلِّزِ «وَوُزِّلُوا» وَاضْطُرُّوا «وَزُلْزَلُوا» وَاضْطُرَاباً «شَدِيداً» وَأَزْجُوا وَحَرَّكَوا إِزْجَاجاً قَوِيّاً مِنْ شِدَّةِ الْفَرْعِ.

﴿وَوَ» اذْكُرْ «إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ» وَمَسَّرُوا الْكُفْرَ كَمُعْتَبٍ بِن قُشَيْرٍ وَأَتْبَاعِهِ، «وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ» ضَعُفَ الْإِيمَانِ، أَوْ الشُّكُّ لَمَّا رَأَوْا قُوَّةَ الْعَدُوِّ وَشَوْكَتَهُمْ، أَوْ حَفَرَ الْخَنْدَقَ مَعَ وَعْدِهِ ﷺ بَفَتْحِ الْمَمَالِكِ «مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ» بِالنِّصْرِ وَالْغَلْبَةِ وَإِعْلَاءِ الدِّينِ «إِلَّا عُرُوراً» وَوَعْداً بَاطِلاً، أَوْ إِيْقَاعاً فِي الْخَطَرِ وَالْمَهْلَكَةِ بِالْخُدْعَةِ، ﴿وَوَ» اذْكُرْ «إِذْ قَالَتْ» فِرْقَةٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَ «طَائِفَةٌ مِنْهُمْ» كَأَوْسُ بْنُ قَيْطِيٍّ وَتَابِعِيهِ فِي الرَّأْيِ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ: «يَا أَهْلَ يَثْرِبَ» وَشُكَّانَ الْمَدِينَةِ «لَا مَقَامَ لَكُمْ» فِي مَعْسَكْرٍ مُحَمَّدٍ، وَلَا يَصِحُّ تَوَقُّفُكُمْ فِيهِ مَعَ كَثْرَةِ الْعَدُوِّ وَوُضُوحِ هَلَاكِكُمْ بِأَيْدِيهِمْ «فَازْجِعُوا» إِلَى مَنَازِلِكُمْ بِالْمَدِينَةِ، وَاحْفَظُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ، وَأَمْوَالَكُمْ مِنَ النَّهْبِ، وَاتْرَكُوا مُحَمَّدًا بَيْنَ أَعْدَائِهِ حَتَّى يَفْعَلُوا بِهِ مَا أَرَادُوا «وَيَسْتَأْذِنُ» فِي الرَّجُوعِ «فَرِيقٌ مِنْهُمْ» كَبْنِي حَارِثَةَ وَبَنِي سَلَمَةَ «النَّبِيِّ» حَفِظاً لِخَاطِرِهِ احْتِيَاطاً، وَتَحْصِيلاً لِرِضَاهِ عَنْهُمْ، وَهُمْ «يَقُولُونَ» اعْتِدَاراً مِنَ الرَّجُوعِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ «إِنَّ يَبُوتَنَا» وَمَنَازِلَنَا فِي الْمَدِينَةِ «عَوْرَةً» وَمُخْتَلَةً وَخَرِبَةً يَخَافُ مِنْهَا الْعَدُوُّ وَالشُّرَاقُ، لِإِمْكَانِ دُخُولِهِمْ فِيهَا بِسَهُولَةٍ، فَنَرْجِعْ وَنَشُدْ خَلْلَهَا، وَنُعَمِّرْ خَرَابَهَا وَنُحْصِنَهَا مِنَ الدُّخُولِ فِيهَا، ثُمَّ نَرْجِعْ إِلَى مَعْسَكْرِكُمْ، وَنَكُونُ مَعَكُمْ.

قيل: كان النبي ﷺ يأذن لهم في الرجوع<sup>١</sup>، فردّهم الله وأكذب عُذرهم بقوله: ﴿وَمَا﴾ تلك البيوت، وليست ﴿هِيَ بِعُزْرَةٍ﴾ ومختلة، بل هي معمورة حصينة مُحْرَزة.

عن الصادق عليه السلام: «بل هي ربيعة السمك حصينة»<sup>٢</sup>.

وعن الباقر عليه السلام: «كانت بيوتهم في أطراف البيوت حيث ينفرد الناس، فأكذبهم الله»<sup>٣</sup> بقوله: ﴿إِنْ يُرِيدُونَ﴾ بقولهم ذلك وما يقصدون من عُذرهم ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ من القتال حباً للحياة، وتكديباً للرسول في وعده بالنصر.

قيل: قد صحّ أنّه فرّ إلى المدينة كلّ من في قلبه مرض، وبقي مع الرسول ﷺ أهل اليقين<sup>٤</sup>.

وَلَوْ دَخَلْتَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا أَلْفِتْنَةً لَأَنْتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا  
\* وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْلَوْنَ الْأَذْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ  
مَسْئُولًا [١٤ و ١٥]

ثمّ بيّن سبحانه شدّة اشتياقهم إلى الكفر بقوله: ﴿وَلَوْ دَخَلْتَ﴾ بيوتهم وهم فيها، وكان الدخول ﴿عَلَيْهِمْ مِنْ﴾ جميع ﴿أَقْطَارِهَا﴾ وجوانبها لكثرة الخلل فيها ﴿ثُمَّ سَأَلُوا﴾ من قبل طائفة أخرى كافرة، وطلبوا منهم ﴿أَلْفِتْنَةً﴾ والرجعة إلى الشّرك والكفر، والله ﴿لَأَنْتَوْهَا﴾ وأعطوها السائلين وأجابوهم إليها غير مباينين بما دهاهم من الداهية والغارة ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا﴾ باجابة الفتنة، وما تمكثوا ﴿بِهَا﴾ زماناً ﴿إِلَّا﴾ زماناً ﴿يَسِيرًا﴾ وقليلًا قدر ما يسمعون السؤال ويُرَدُّون الجواب فضلاً عن التعلّل باختلال البيوت عند سلامتها، كما فعلوا الآن، وما ذلك إلا لبغضهم للإسلام وأهله، وحبهم للكفر وأهله، ﴿وَ﴾ هم والله ﴿لَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ حين انهزموا يوم أحد، ونزل فيهم آيات اللّوم والعتاب، أنّهم في جهاد الكفّار ﴿لَا يُؤْلَوْنَ الْأَذْبَارَ﴾ ولا يتزكّون العدو في قتال خلف ظهورهم، ولا يفرون منه كما فروا في ذلك اليوم، ومع ذلك فروا في هذه الواقعة، ويستأذنونك في الرجوع نقضاً لذلك العهد ﴿وَ﴾ الحال أنّه ﴿كَانَ عَهْدُ اللَّهِ﴾ يوم القيامة ﴿مَسْئُولًا﴾ عنه هل وفي به أو تُقَضّ، ويعاقب على نقضه.

١. تفسير روح البيان ٧: ١٥١.

٢. مجمع البيان ٨: ٥٤٥، تفسير الصافي ٤: ١٦٩، وسمك البيت: سقفه.

٣. تفسير العياشي ٢: ١٨٦٦/٢٥٠، تفسير الصافي ٤: ١٦٩.

٤. تفسير روح البيان ٧: ١٤٩.

قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتُّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا  
 \* قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِيكُمْ مِنْ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا  
 يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا [١٦ و ١٧]

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بلوهمهم على لغوية عملهم بعد بيان ضرره بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: لو فرض أنه لا عقوبة على نقض عهد الله وعصيانه ﴿لَنْ يَنْفَعَكُمْ﴾ ولا يفيد في سلامتكم وطول عمركم ﴿الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ﴾ حَتْف الأنف ﴿أَوِ الْقَتْلِ﴾ بالسيف إذا قَدَّرَ كل واحدٍ منهما لكم وقت معين، وجرى عليه القلم، فإنه لا رادَّ لقضاء الله، ولا محيص عما خطَّ بالقلم ﴿وَوُ﴾ لو فرض أن الفرار نفعكم في تأخير آجالكم ﴿إِذَا لَا تُمْتُّعُونَ﴾ ولا تشفعون بالحياة ولذا الذ الدنيا ﴿إِلَّا﴾ زماناً أو تمتعاً ﴿قَلِيلًا﴾ فإن عمر الدنيا بالنسبة إلى الآخرة في غاية القِلَّة، ولا بد لكل نفس من الخروج منها. ثم أمر سبحانه النبي ﷺ بتقرير عدم نفع الفرار بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمنافقين ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِيكُمْ﴾ ويحفظكم ﴿مِنْ﴾ حكم ﴿الله﴾ وقضائه ﴿إِنْ أَرَادَ﴾ الله ﴿بِكُمْ سُوءًا﴾ وشرًّا، كالهزيمة والقتل والأسر ونحوها ﴿أَوْ﴾ [من] يصيبكم بسوء إن ﴿أَرَادَ﴾ الله ﴿بِكُمْ رَحْمَةً﴾ ونعمة، كالغلبة على العدو والغنيمة والشرف والسلامة ونحوها.

ثم قرّر سبحانه عدم عاصمية غيره بقوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومما سواه ﴿وَلِيًّا﴾ ومحباً ينفعكم لمحبة إياكم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ومعيناً يدفع عنكم السوء إذا أتاكم.

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ  
 إِلَّا قَلِيلًا \* أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ  
 أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللِّسَانِ  
 حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَخْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ  
 عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا \* يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا \* وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوْا  
 لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا  
 قَلِيلًا [١٨ - ٢٠]

ثم هدّد سبحانه المنافقين الذين كانوا يصرفون المسلمين عن الجهاد ونصرة النبي ﷺ بقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ ويعرف ﴿الْمُعَوِّقِينَ﴾ والمُتَبَطِّينَ للناس عن نصرة الرسول ﷺ ودينه، والصارفين لهم عن سلوك طريق كل خير، وهم المنافقون ﴿وَمِنْكُمْ﴾ أيها المسلمون، ﴿وَو﴾ يعلم ﴿الْقَائِلِينَ

لِإِخْوَانِهِمْ» وموافقهم في الكفر والتفاق من أهل المدينة: «هَلُمُّ» واقْرَبُوا «إِلَيْنَا» واخْضَرُوا عندنا، وفيه دلالة على أَنَّهُمْ حين قولهم هذا، كانوا خارجين من معسكر النبي ﷺ متوجهين نحو المدينة، فِرَاراً من الرُّحف، ولو كانوا في المعسكر يعتذرون ويتأخرون، ما أمكن لهم، أو يَخْرُجُونَ مع المؤمنين يُوْهِمُونَهُمْ أَنَّهُمْ معهم «وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ» والحرب ولا يقاتلون الأعداء «إِلَّا» إتياناً، أو قتالاً «قَلِيلًا» أو قليلاً منهم حال كونهم «أَشِحَّةً» وبُخلاء «عَلَيْكُمْ» بالمعاونة، أو الاتفاق في سبيل الله، أو بظُفركم واغتنامكم لا يريدون أن يكونوا لكم.

ثُمَّ بَيَّنَّ سبحانه شِدَّةَ حُبِّهِمْ بقوله: «فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ» من العدو بأن حملوا على عسكر المسلمين «رَأَيْتَهُمْ» يا محمد في تلك الحالة «يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ» التجأ بك، وهم من شِدَّةِ الحُبِّ «تَدَوُّوْا» وتَحَرَّكُوا «أَغْنَيْتَهُمْ» في أحداقهم يميناً وشمالاً «كَالَّذِي» والتقدير كدوران عين الشخص الذي «يُغَشِّي عَلَيْهِ» وتَعْرِضُ لَهُ<sup>١</sup> الْعَشْوَةُ وزوال الشُّعُور والفَهْم «مِنْ» معالجة سَكَرَاتِ «الْمَوْتِ» خوفاً ورُعباً، فلا يقدِر على النَّزَالِ والقتال «فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ» بانكسار العدو والظُّفَر عليهم، وَجُمِعَتِ الغنائم «سَلَقَوْكُمْ» وأَذُوكُمْ «بِالْيسَةِ حَذَادٍ» وأقوال خشنة وكلمات سيئة، كإظهار الِجَنَّةِ عليكم بالمساعدة والقتال معكم بقولهم: لو لم نَكُنْ معكم لما هَرَمْتُمُ العدو، وما نَجِيتُمُ من القتل بسيوفهم، فبنا غلبتموهم ونصرتهم عليهم، فوفروا حَظَّنَا من الغنائم، وإنَّما قالوا ما قالوا لكونهم «أَشِحَّةً» وحرصين «عَلَى الْخَيْرِ» أو المال، أو بُخلاء على المال، بأن يوفرَّ عليكم القسمة، مع كونهم راضين في أول القتال من الغنيمة بالإياب، فهم قليلو الخير في الحالين، كثيرو الشرِّ في الوقتين، لكونهم بُخلاء قبل القتال وبعده «أَوَّلُكَ لَمْ يُؤْمِنُوا» حقيقةً، وإنَّ أظهرُوا الإيمان «فَأَخْبَطَ اللَّهُ» وأبطل «أَعْمَالَهُمْ» الحسنة لعدم الإخلاص «وَكَانَ ذَلِكَ» الإحباط، «عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا» وسهلاً، فلمَّا نظرت قريش إلى الخندق قالوا: هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها<sup>٢</sup>، فنزلوا بمجمع الأسيال، فصَفَّ رسول الله ﷺ أصحابه، وكان أكثر الحال بينهم وبين العدو الرمي بالنبال والحصى، وأقبل نوفل بن عبد الله يوماً، فضرب فرسه ليظفر الخندق فوقه فيه، فنزل إليه عليٌّ عليه السلام فقطعه نصفين بسيفه<sup>٣</sup>.

ثم أقبل عمرو بن عبدود وهُبَيْرَةُ بن وَهَبٍ وبعض الشجعان، فصاحوا بخيولهم حتى طفروا الخندق، وركز عمرو رمحه في الأرض، وكان يُعَدُّ بألف فارس، وكان عمره عمرو بن عبدود

قصة قتل أمير المؤمنين عليه السلام عمرو بن عبدود

٢. تفسير القمي ٢: ١٨٢، تفسير الصافي ٤: ١٧٥.

١. في النسخة: ويعرضه.

٣. تفسير روح البيان ٧: ١٤٥.

تسعين سنة، فنأدى: من يبارزني؟ ثم أقبل تجول فرسه ويرتجز ويقول:

ولقد بَحِثْتُ مِنَ النَّدَا ۖ بجمعكم: هل من مبارز؟

إلى آخره. فقال عليه السلام: «من لهذا الكلب؟ فلم يُجبه أحد. فوثب علي عليه السلام فقال: «أنا له يا رسول الله» فقال عليه السلام: «يا علي هذا عمرو بن عبدود، فارس بَلِيلٌ» فقال: «أنا علي بن أبي طالب» فقال عليه السلام: «أدُّ مِنِّي» فدنا منه، فعممه بيده، ودفع إليه سيفه ذا الفقار، وقال: «اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله» فذهب علي عليه السلام وهو يَهْرول، ويقول:

«لَا تَسْعَجِلْنِ فَقَدْ أَنَا ۖ ك مجيبٌ صوتك غيرٌ عاجز»<sup>٢</sup>

إلى آخره.

روى العامة والخاصة أنه لما برز علي عليه السلام إلى عمرو قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «برز الايمان كله إلى الكفر كله»<sup>٣</sup>.

فقال عمرو: من أنت؟ قال: «أنا علي بن أبي طالب، ابن عم رسول الله وحُتَنه» فقال: والله إن أباك كان لي صديقاً، وإني لأكره أن أقتلك ما أمين ابن عمك أن اختطفك برؤمي، فأترُكك شاتلاً بين السماء والأرض، لا حي ولا ميت!

فقال له علي عليه السلام: «إني أحب أن أقتلك، وقد علم ابن عمي أنك إن قتلني دخلت في الجنة وأنت في النار، وإن قتلتك فأنت في النار وأنا في الجنة» فقال عمرو: كلتاهما لك، تلك قِسْمَةٌ ضَيِزِي.

فقال علي عليه السلام: «إني سمعتُ منك يا عمرو أنك قلت لا يعرض علي أحد في الحرب ثلاث خصال إلّا أجبته إلى واحدةٍ منها، وأنا أعرض عليك ثلاث» قال: هات. إلى أن قال: «فالثالثة أن تنزل من فرسك وتقاتلني راجلاً حتى أنا بذلك» فوثب عن فرسه وعرقبه، ثم بدا فضرب علياً عليه السلام بالسيف على رأسه، فأتاه علي عليه السلام بدرعه أو بدرتته فقطعها، وثبت السيف على رأسه، فضربه علي عليه السلام على موضع الرءاء من عنقه فسقط، فكبر المسلمون، فعرف النبي صلى الله عليه وسلم من تكبيرهم أن علياً قتل عمراً، فقال: «لا فتى إلّا علي، لا سيف إلّا ذو الفقار»<sup>٤</sup>.

وفي رواية: قال علي عليه السلام لعمرو: «أما كفاك أني بارزتك حتى استعنت علي بظهيري؟!» فالتفت عمرو إلى خلفه، فضربه علي عليه السلام مسرعاً على ساقيه فقطعهما فسقط، فجلس علي على صدره وذبحه،

١. بَلِيلٌ: موضع، وهو وادي بنع، أو وادي الصفراء دُوَيْن بدر، وفارس بَلِيلٌ: لقب عمرو بن عبدود. «لسان العرب - بلبيل - ١١: ٧٤٠».  
٢. تفسير الفمي ٢: ١٨٢، تفسير الصافي ٤: ١٧٥.  
٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٩: ٦١، نهج الحق: ٢١٧، كنز الفوائد ١: ٢٩٧، تأويل الآيات ٢: ١١/٤٥١.  
٤. تفسير الفمي ٢: ١٨٤، تفسير الصافي ٤: ١٧٦، تفسير روح البيان ٧: ١٤٥.

وأخذ رأسه، وأقبل إلى رسول الله ﷺ والدماء تسيل من رأسه وتقطر من سيفه، وهو يقول:

«أنا عليّ وابن عبدالمطلب»

ثم هرب من كان مع عمرو<sup>١</sup>.

وقيل: قتل الزبير هُبيرة بن وهب، فبقي النبي ﷺ يحاربهم خمسة عشر يوماً، فلما رأى من أصحابه الجَزَعَ لطول الحصار، دعا الله وقال: «يا صريخ المكروبين، ويا مجيب دعوة المضطرين، اكشف همي وغمي وكربي، فانك ترى ما نزل بي وبأصحابي» فبشّره جبرئيل أن الله يُرسل عليهم ريحاً وجنوداً من الملائكة، فانهزم القوم كما ذكرنا سابقاً، فبلغ خبر انهزامهم المدينة، وكان المنافقون الذين فرّوا من القتال، ورجعوا إلى المدينة «يَخْسَبُونَ» لجبنهم أن «الْأَخْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا» ولم يهزموا.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ  
وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا \* وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَخْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ  
وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا [٢٢-٢١]

ثم بيّن سبحانه ثباتهم على الكفر مع مشاهدتهم هذه المعجزة بقوله: «وَإِن يَأْتِ الْأَخْزَابُ» كَرَّةً ثانية إلى المدينة وهم فيها «يُودُّوْا» وتمنّوا «لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوْنَ» وخارجون منها إلى البادية أو كانوا «فِي الْأَغْرَابِ» وسكان البادية هم «يَسْأَلُونَ» كل قادم من المدينة «عَنْ أَنْبَائِكُمْ» وأخباركم، وما جرى عليكم «وَلَوْ كَانُوا» في الكرة الثانية أيضاً «فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا» أعداءكم «إِلَّا قَلِيلًا» خوفاً من التعبير وظهور نفاقهم.

ثم وعظ الله المسلمين بقوله: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ» أيها المسلمون «فِي» أفعال «رَسُولِ اللَّهِ» وأخلاقه وخصاله من الثبات في الجهاد، وتحمل المشاق والشدائد في جنب الله، وفي مرضاته «أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ» وسنة صالحة يحقّ التأسي والافتداء بها «لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ» وثوابه «وَالْيَوْمَ الْآخِرَ» ونعمه، أو مجيئه «وَذَكَرَ اللَّهَ» في جميع أوقاته وأحواله «كَثِيرًا» بقلبه ولسانه، ولا يغفل عنه، فإن المتأسي بالرسول ﷺ من قَرَن بين الرجاء المذكور ودوام الذكر الموجب لملازمة التقوى والطاعة.

ثم أنه تعالى بعد ذم المنافقين وضعفاء الايمان بالجبن والفرار عن القتال؛ وتكذيب وعد الله



ورسوله بالنصر والغلبة على الأعداء، ونقض العهد، مدح المؤمنين المخلصين بالثبات في الحرب، وتصديق الله ورسوله في الوعد، والوفاء بالعهد بقوله: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْمُخْلَصُونَ﴾ المخلصون ﴿الْأَحْزَابِ﴾ من كفار الأعراب والجنود المجتمعة لمحاربة الرسول يوم الخندق ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي نَرَى مِنَ الْبَلَاءِ الْعَظِيمِ﴾ وما وعدنا الله من قبل في كتابه بقوله: ﴿إِنَّمَا حَسِبْتُمْ أَنَّكُمْ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مِّثْلُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا﴾<sup>١</sup>. إلى آخره، ﴿وَوَعَدْنَا رَسُولَهُ﴾ بقوله ﷺ: «سَيَشْتَدُّ الْأَمْرُ عَلَيْكُمْ بِاجْتِمَاعِ الْأَحْزَابِ عَلَيْكُمْ، وَالْعَاقِبَةُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ»<sup>٢</sup> وقوله ﷺ: «إِنَّ الْأَحْزَابَ سَانِرُونَ إِلَيْكُمْ بَعْدَ تِسْعِ لَيَالٍ أَوْ عَشْرٍ»<sup>٣</sup> ﴿وَوَعَدْنَا رَسُولَهُ﴾ أيضاً صدق في إخباره حيث ترى مطابقته للواقع ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ما رأوه من الأحزاب ﴿إِلَّا إِيْمَانًا﴾ بالله ورسوله ﴿وَوَسْلِيمًا﴾ واثقياداً لأوامرهما وأحكامهما، لما علموا سعادة الدارين فيه.

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا \* لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا [٢٣ و ٢٤]

ثم فصل سبحانه حال المؤمنين المخلصين بقوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وبعضهم ﴿رِجَالٌ﴾ كاملون في صفات الرجولية ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ وثبتوا على العزم الراسخ على أداء ما جعلوا الله على أنفسهم من الثبات على نصرة الرسول ومقاتلة أعداء الله، لإعلاء كلمة الدين ﴿فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ ووفى بآثره، وخرج عن عهده ما التزم به، بأن ثبت في الزوال وقاتل الرجال لنصرة دين الله المتعال حتى قُتِلَ كحمزة بن عبدالمطلب، وعبيدة بن الحارث، وجعفر بن أبي طالب، ومُصْعَب بن عُمير، وأنس بن النضر الخزرجي عم أنس بن مالك الأنصاري.

روت العامة أن أنساً غاب عن بدر، فشهِد أحداً، فلما نادى إبليس: ألا إن محمداً قد قُتِلَ، مرَّ بعمر ومعه نفر فقال: ما يقعدكم؟ قالوا: قُتِلَ محمد. قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟! قوموا فموتوا على ما مات عليه، ثم جال بفروسه وحمل بسيفه، فوجد قتيلاً وبه بضع وثمانون جراحة<sup>٤</sup>. قيل: إن جماعة من الصحابة نذروا بعد وقعة أحد أنهم إذا لقوا حرباً مع رسول الله ﷺ ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا<sup>٥</sup>.

١. البقرة: ٢١٤/٢. ٢ و ٣. تفسير روح البيان ٧: ١٥٨.

٤. تفسير روح البيان ٧: ١٥٩. ٥. تفسير أبي السعود ٧: ٩٨، تفسير روح البيان ٧: ١٥٨.

وقيل: إن النذر استعير للموت؛ لأن الموت كَنَذَرٍ لازم في عتق كل حي<sup>١</sup>.  
**﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ﴾** قضاء نذره، ويتوقع وصول الشهادة إليه مع شدة اشتياقه إليها، كأمر المؤمنين عليهم السلام فإن الله أخر شهادته إلى الوقت المعلوم الذي أخبره الرسول صلى الله عليه وآله به.  
 روى الحاكم بإسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «فينا نزلت **﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾** وأنا والله المنتظر<sup>٢</sup> ونسب العلامة في (نهج الحق) نزوله في علي عليه السلام إلى العامة<sup>٣</sup>.  
 وعن الباقر عليه السلام في قوله: **﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾** قال: «لا يَفِرُّوا أبداً **﴿فَمِنْهُمْ مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾** أي أجله وهو حمزة وجعفر بن أبي طالب **﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ﴾** أجله يعني علياً عليه السلام»<sup>٤</sup>.  
 وعن أمير المؤمنين عليه السلام - في حديث له مع يهودي - قال: «ولقد كنت عاهدت الله ورسوله أنا وعمي حمزة وأخي جعفر وابن عمي عبيدة على أن نستشهد<sup>٥</sup> الله تعالى ورسوله، فتقدمني أصحابي وتخلّفت بعدهم لما أراد الله تعالى، فأنزل الله فينا: **﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا﴾** الآية<sup>٦</sup> **﴿وَمَا بَدَلُوا﴾** عهدهم وما غيروه **﴿تَبْدِيلًا﴾** يسيراً بخلاف المنافقين فإنهم بدلوا عهدهم تبديلاً كثيراً، ونقضوا نقضاً واضحاً.

رد بعض العامة أقول: ومن العجب أن بعض العامة قال: ومن ينتظر كعثمان وطلحة وغيرهما<sup>٧</sup>، فإنهم مستمرّون على نذورهم، وقد قضوا بعضها وهو الثبات مع الرسول صلى الله عليه وآله ومتنظرون قضاء بعضها وهو القتال إلى الموت شهداء، مع أن الظاهر انتظار الشهادة في سبيل الله، ولم يُزَقِّوا، لأن عثمان قُتِلَ في سبيل هواه بيد أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله، وطلحة قُتِلَ لمشاقته مع إمام زمانه بيد أصحاب خليفة الرسول.

وعن الصادق عليه السلام: «المؤمن مؤمنان: مؤمن صدق بعهد الله ووفى بشرطه، وذلك قول الله عز وجل: **﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾** وذلك الذي لا تُصيبه أهوال الدنيا ولا أهوال الآخرة، وذلك ممن يَشْفَعُ ولا يُشْفَعُ له» الخبر<sup>٨</sup>.

وعنه عليه السلام قال: «لقد ذكركم الله في كتابه فقال: **﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا﴾** الآية، إنكم وفيتم بما أخذ الله عليه ميثاقكم من ولايتنا، وإنكم لما تبدّلوا بنا غيرنا»<sup>٩</sup>.

١. تفسير أبي السعود ٧: ٩٨.

٢. مجمع البيان ٧: ٥٤٩، تفسير الصافي ٤: ١٨١.

٣. نهج الحق: ٤٢/١٩٦، شواهد التنزيل ٢: ٦٢٧/١.

٤. في الخصال وتفسير الصافي: على أمر وفينا به.

٥. تفسير البضاوي ٢: ٢٤٣، تفسير أبي السعود ٧: ٩٨.

٦. الكافي ٨: ٦/٣٤، تفسير الصافي ٤: ١٨١.

٧. الكافي ٢: ١١/١٩٣، تفسير الصافي ٤: ١٨١.

وعنه عليه السلام، قال: «قال رسول الله ﷺ: يا علي، من أحبك ثم مات فقد قضى نجه، ومن أحبك ولم يمت فهو ينتظر»<sup>١</sup>.

أقول: الأول تنزيل، وهاتان الروايتان تأويل، وإنما فعلوا من الوفاء «لِيَجْزِيََ اللَّهُ الصَّادِقِينَ» في عهدهم «بِصِدْقِهِمْ» ووفائهم به قولاً وفعلًا في الدنيا والآخرة جزاءً جزيلًا «وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ» بما ارتكبوا من الفرار وتخويف المسلمين وتحريضهم على الرجوع إلى المدينة «إِنْ شَاءَ» تعذيبهم بأن لا يوقفهم للتوبة وتخليص الايمان «أَوْ» يوقفهم و «يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» بعد توبتهم «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا» وستورًا للذنوب «رَحِيمًا» بالمؤمنين، ومنعمًا عليهم بالجنة والنعم الدائمة.

وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا \* وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا \* وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّوها وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا [٢٧-٢٥]

ثم بين سبحانه لطفه بالمؤمنين وإنجازه وعد النصر بقوله: «وَرَدَّ اللَّهُ» بقدرة الأحزاب «الَّذِينَ كَفَرُوا» إلى أوطانهم وهم كاظمون «بِغَيْظِهِمْ» وشدة غضبهم، والحال أنهم «لَمْ يَنَالُوا» ولم يصيبوا ما حسبوه «خَيْرًا» لهم من الغلبة والغنيمة مع غاية جدهم فيها «وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ» ورفّع عنهم كلفة التصدي له، بارسال الريح الشديدة، وإنزال الملائكة «وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا» وقادرًا على كسر شوكة الكافرين «عَزِيزًا» وغالبًا على كل شيء «وَأَنْزَلَ» بني قريظة «الَّذِينَ» نقضوا عهد الرسول ﷺ وتبعوا المشركين و «ظَاهَرُوهُمْ» وعاونوهم على قتال الرسول ﷺ مع كونهم «مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» والمؤمنين بالتوراة التي فيها البشارة ببعثته وذكر علانته وصفاته «مِنْ صَيَاصِيهِمْ» وخصونهم وقلاعهم المحكمّة «وَقَذَفَ» الله وألقى «فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ» من الرسول ﷺ والمسلمين والخوف منهم، بحيث سلّموا أنفسهم للقتل، وأهليهم وذرايرهم للأسر، فأنتم أيها المسلمون «فَرِيقًا» منهم «تَقْتُلُونَ» صبرًا «وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا» آخر منهم «وَأَوْرَثَكُمْ» وملّكم، كما تتملكون إرث الأقارب «أَرْضَهُمْ» التي كانوا مقيمين بها، ومتفعين بها بالزراعة والغرس فيها «وَدِيَارَهُمْ» وحصونهم وبيوتهم «وَأَمْوَالَهُمْ» من المواشي والأثاث والتعود والسلاح وغيرها «وَأَوْرَثَكُمْ تَقْدِيرًا» أخرى «أَرْضًا» لم تَطَّوُّوها ولم تضعوا إلى الآن أقدامكم فيها، كأرض فارس

والرؤم وغيرهما من الممالك التي تفتحونها إلى يوم القيامة. وقيل: إن الأرض كثاية عن فروج نساء تلك القبيلة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا شَاهَدْتُمُوهُ وَمَا لَمْ تَشَاهِدُوهُ قَدِيرًا﴾.

قصة بني قريظة وكانت قصة بني قريظة على ما روي أن النبي ﷺ لما رجع من الخندق في وقت الظهر، وصلى الظهر، دخل بيت زينب، وأراد أن يغتسل من الغبار، أو غسلت ثيوق رأسه الشريف، فأتاه جبرئيل على فرسه حيروم متعجراً بعمامة سوداء فقال: أوضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم. قال: ما وضعت الملائكة السلاح منذ نزل بك العدو، أو قال: ما وضعت الملائكة لأمتها، فكيف تضع لأمتك؟ إن الله يأمرك أن لا تصلّي العصر إلا ببني قريظة، فأني متقدمك ومزلزل بهم حصنهم، إنّا كنّا في آثار القوم نزجرهم حتى بلغوا حمراء الأسد، فأمر ﷺ ببلاد فأذن في الناس: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلّين العصر إلا في بني قريظة<sup>٢</sup>.

وفي رواية: فخرج ﷺ، فاستقبله حارث بن النعمان، فقال له: «ما الخبر؟» فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، هذا دحية الكلبي ينادي في الناس: ألا لا يصلّين العصر أحد إلا في بني قريظة. فقال ﷺ: «ذاك جبرئيل، ادعوا علياً» فجاء علي ﷺ فقال له: «ناد في الناس: لا يصلّين أحد العصر إلا في بني قريظة» فجاء أمير المؤمنين ﷺ فنادى فيهم، فبادروا إلى بني قريظة<sup>٣</sup>.  
قيل: وخرج رسول الله ﷺ وقد لبس الدرع والمغفر، وأخذ قنّاء بيده الشريفة، وتقلّد السيف، وزكّب فرسه اللخيف، وأمير المؤمنين ﷺ بين يديه مع الراية العظمى، والناس حوله قد لبسوا السلاح، وهم ثلاثة آلاف، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم<sup>٤</sup>.

وفي رواية: وأرسل علياً ﷺ متقدماً مع بعض الأصحاب، ومروءة بن عمرو بن النجار قد لبسوا السلاح، فقال ﷺ: «هل مريم أحد؟» قالوا: نعم دحية الكلبي، وأمرنا بحمل السلاح، وقال لنا: يطلع عليكم رسول الله الآن. فقال: «ذلك جبرئيل» فلما دنا علي ﷺ من الحصون، وعزّز اللواء عند أصل الحصون وأحاط بها، وكان حبي بن أخطب لما انهزمت قريش دخل في حصن بني قريظة، فأشرف كعب بن أسد<sup>٥</sup> شيخ بني قريظة على أصحاب الرسول ﷺ يشتمهم ويقول في حق النبي ﷺ وأزواجه مقالات قبيحة، فسكت المسلمون وقالوا: بيننا وبينكم السيف.

فلما رأى علي ﷺ رسول الله ﷺ مقبلاً أمر قتادة الأنصاري أن يلزم اللواء فاستقبله، وقال: يا

١. حمرّاء الأسد: موضع على ثمانية أميال من المدينة.

٢. تفسير القمي ٢: ١٨٩، تفسير الصافي ٤: ١٨٢.

٣. تفسير روح البيان ٧: ١٦١.

٤. في النسخة: كعب بن أسيد، وكذا الذي يأتي بعدها.

٥. تفسير روح البيان ٧: ١٦١.

رسول الله، لا عليك أن لا تدنوا من هؤلاء الأخابيث قال: «الملك سمعت منهم لي أذى؟» قال: نعم. قال: «إنهم لو رأوني لأذّهم الله»<sup>١</sup> فلما دنا من حصونهم قال: «يا إخوان القردة والخنازير، وعبد الطاغوت، أتشتُموني أنا، إذا نزلنا بساحة قوم ساء صباحهم» فجعلوا يخلفون أنهم لم يقولوا شيئاً، وأشرف عليهم كعب من الحصن فقال: والله يا أبا القاسم ما كنت جهولاً، أو قال: ما كنت فحاشاً. فاستحى رسول الله ﷺ حتى سقط الرداء من ظهره حياءً مما قال.

وكان حول الحصن نخل كثير، فأشار إليه رسول الله ﷺ بيده، فتباعد عنه، وتفرّق في المغازة، فأنزل رسول الله ﷺ العسكر حول حصنهم، فحاصروهم ثلاثة أيام لم يُطلع أحدٌ منهم رأسه، فلما كان ثلاثة أيام نزل عليه غزال بن شموئيل<sup>٢</sup> فقال: يا محمد، تُعطينا ما أعطيت إخواننا من بني النضير، أحقن دماننا ونخلّي لك البلاد وما فيها، ولانكثمك شيئاً؟» فقال: لا، «أو تنزلون على حُكمي» فرجع. وبقوا خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب، وبكت النساء والصبيان، وجزعوا جزعاً شديداً، فقال كبيرهم كعب بن أسد: يا معشر اليهود، تُبايع هذا الرجل وتُصدّقه، فوالله لقد تبين لكم أنه النبي الذي تجدونه في كتابكم، وأن المدينة دار هجرته، وما منعنا من الدخول معه إلا الحسد للعرب، حيث إنّه لم يكن من بني إسرائيل، ولقد كنتُ كارهاً من نقض العهد، ولم يكن البلاء والشؤم إلا من هذا الجالس - وأشار إلى حبيّ بن أخطب - فقالوا: لا تُفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره - أي القرآن -.

فقال: فإن أبيتم عليّ هذه الخصلة، فلهيّموا فلتقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف حتى لا نترك وراءنا نسلًا يخشى عليه إن هلكنا. فقالوا: كيف نقتل هؤلاء المساكين، فلا خير في العيش بعدهم إن لم نهلك.

فقال: فإن أبيتم فإن الليلة ليلة السبت، وإن محمد وأصحابه قد أمّنوا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب منهم غفلة. فقالوا: كيف تُفسد سبتنا، وتُحدّث فيه ما لم يُحدّث فيه من كان قبلنا.

فقال لهم عمرو بن سعدى: فإن أبيتهم فائتبتوا على اليهودية، وأعطوا الجزية. فقالوا: نحن لا نُقرّ للعرب بخراج في رقابنا، فإن القتل خيرٌ من ذلك.

فلما اشتدّ عليهم الحصار نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فأمر بالرجال فكُتّفوا، وكانوا سبعمائة، وأمر بالنساء فعُزِلن، فقامت الأوس إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، حلفاؤنا وموالينا من دون

١. في تفسير روح البيان: رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً.

٢. في تفسير الفي: غزال بن شموئيل.

الناس، نصرونا على الخزرج في المواطن كلها، وقد وهبت لعبد الله بن أبي سبيعمانة دارع وثلاثمائة حاسر في صبيحة واحدة، ولا نكون أقل من عبدالله.

فلما أكثروا على رسول الله ﷺ قال لهم: «أما ترضون أن يكون الحكم فيهم إلى رجل منكم» فقالوا: بلى. وهو من؟ قال: «سعد بن مُعاذ» قالوا: قد رضينا بحكمه، فأرسل ﷺ في طلبه، وكان جريحاً في وقعة الخندق، فأتوا به راكب حمار، وكان رجلاً جسيماً، والأوس حوله يقولون: يا أبا عمرو، أحسن في حلفائك ومواليك، فقد نصرونا في بُعات والحدائق<sup>١</sup>، والمواطن كلها. فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا يأخذه في الله لومة لائم. فقالت الأوس: واقوما، ذهب والله بنو قريظة آخر الدهر. فلما رآه النبي ﷺ قال للأنصار: «قوموا إلى سيدكم» فقام الأنصار فأنزلوه، فبكت النساء والصبيان إليه، فلما سكتوا قال لهم سعد: يا معشر اليهود، أرضيتم بحكمي فيكم؟ قالوا: نعم قد رضينا بحكمك، ورجونا نصفك ومعروفك وحسن نظرك، فعاد عليهم القول فقالوا: بلى يا أبا عمرو، ثم التفت إلى رسول الله ﷺ إجلالاً له فقال: ما ترى بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ فقال: «أحكم فيهم يا سعد، فقد رضيت بحكمك فيهم» فقال: قد حكمت يا رسول الله أن يقتل رجالهم، وتسمى نساءهم وذرايرهم، وتقسّم غنائمهم وأموالهم بين المهاجرين والأنصار. فقام رسول الله ﷺ وكبر، وقال: «قد حكمت بحكم الله عز وجل فوق سبعة أرقعة»<sup>٢</sup> ثم انفجر جرح سعد، فما زال ينزف الدم حتى قضى عليه.

فأمر النبي بأن يُجمَعَ ما وُجِدَ في حصونهم، فوجدوا فيها ألفين وخمسمائة سيف، وخمسمائة فرس، وثلاثمائة درع، وألفي رمح، وأثا وأواني كثيرة، وجمالاً ومواشي وغيرها، وخمس ذلك، وجعل عقارهم للمهاجرين، لأنه ما كان لهم منازل، وأمر بالمتاع أن يُحمَل، وترك المواشي هناك ترعى الشجر، ثم غدا إلى المدينة، وأمر بالأسارى أن يكونوا في دار أسامة بن زيد، والنساء والذراير في دار ابنة الحارث التجارية، ثم خرج عن المدينة، وأمر بالخندق فحفروا فيه الحفائر، أو أمر بحفر أخدود بالبقيع، فلما أمسى أمر باخراج رجل رجل، فكان يضرب عنقه ويلقيه في الأخدود، ويرد عليه التراب، وكان المتوكلي للقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والزبير.

فأتوا بكعب بن أسد، وكان جميلاً وسيماً، فلما نظر إليه رسول الله ﷺ قال له: «يا كعب، أما نفعلك

١. بُعات والحدائق: موضعان عند المدينة، كانت فيهما وقعتان بين الأوس والخزرج قبل الاسلام، راجع: الكامل في التاريخ ١: ٦٧٦ و٦٨٠. ٢. يعني سبع سماوات، وكل سماء يقال لها ربيع.

وصية ابن الحواس الحَبْرَ الذكي الذي قَدَمَ عليكم من الشام فقال: تركتُ الخمر والخزير<sup>١</sup>، وجئتُ إلى البؤس والتمور، لنبيٍّ يُبعثُ، مخرجه مكة، ومهاجره هذه البحيرة، يجتري بالكسيرات والثميرات، ويركب الجمار العري، في عينيه حُمرة، وبين كَفْيِهِ خاتم النبوة، يضع سيفه على عاتقه، لا يُبالي من لاقى منكم، يبلغُ سلطانه منقطع الخُفِّ والحافر؟» فقال: قد كان ذلك يا محمد، ولولا أن اليهود يُعبروني أَنِي جَرِعت عند القتل لَأَمَنت بك، ولكِنِّي على دين اليهودية أحبى عليه وأموت. فأمر ﷺ فقدموه وضربوا عُنقه.

ثم قَدَمَ حُبَيِّ بن أخطب، فقال له النبي ﷺ «كيف رأيت صنعَ الله يا فاسق؟». فقال: والله يا محمد ما ألوم نفسي في عداوتك، ولقد قلقتُ كلَّ مَقَلَّلٍ، وَجَهدتُ كلَّ الجُهد، ولكن من يَحْذله الله يُحْذَل، فقدم فضرب عُنقه، فقتلهم النبي ﷺ في البردين: الغداة والعشي، في ثلاثة أيام.

ثم بعث ﷺ سعد بن زيد الأنصاري بسباياهم إلى نجد، فابتاع بهم خيلاً وسلاحاً، فقسَمها بين المسلمين، ونهى أن يُفرَّق بين الوالده وولدها حتى يبلغ، واصطفى لنفسه منهم ريحانة بنت شمعون وأسلمت، فأعتقها وتزوج بها، وكانت هذه الواقعة سنة خمس من الهجرة<sup>٢</sup>.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنِ  
أُمَتِّعْكُمْ وَأَسْرَحْكُمْ سَرَاحاً جَمِيلاً \* وَإِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ  
الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُم أَجْراً عَظِيماً [٢٨ و ٢٩]

ثم أَنه تعالى بعد بيان وظيفة النبي ﷺ في مقام عبوديته، وهي التقوى واتباع الوحي، وبيان سلطنته المطلقة على أنفس المؤمنين وأموالهم، وجلالة شأن نسائه، وأطافة الخاصة بالمؤمنين به، بينَ وظيفته في المدارة مع أزواجه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ العظيم الشأن، والمخير الصادق عن الله المَلِكُ المَنَّانُ ﴿قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ﴾ ونسائكم اللاتي يكنَّ الآن في حِبالِك ﴿إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ﴾ السَّعة والتنعيم فيها، وتُردن ﴿زِينَتَهَا﴾ من الثياب الفاخرة والخَلْي والحُلل ﴿فتعالين﴾ واقبلن إلي ﴿أُمَتِّعْكُمْ﴾ وأعطينَ من مالي ما تستفعلن به ﴿وَأَسْرَحْكُمْ﴾ وأرسلكنَّ إلى بيوتكنَّ وقبائلكنَّ ﴿سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ وإرسالاً لا ضرار فيه ولا تنازع ﴿وَإِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وتطلبن قُربهما ورضاهما ﴿وَالذَّارَ الْآخِرَةَ﴾ ونعمها التي لا تُعَدُّ الدنيا وما فيها عندها بشيء، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ﴾ وهياً

١. في النسخة: الحمر والحميز.

٢. تفسير روح البيان ٧: ١٦٢، تفسير القمي ٢: ١٨٩، تفسير الصافي ٤: ١٨٢.

﴿للمُحْسِنَاتِ﴾ والصالحات ﴿مِنْكُمْ﴾ في الآخرة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وجزاء جزيلًا لَا يُعْرَفُ كُنْهَهُ وِغَايَتُهُ.

روى المفسرون أن نساء النبي ﷺ طلبن منه زيادة النفقة والكسوة وأذينه، لغيره بعضهم من بعض، فألى رسول الله ﷺ منهن شهراً، فنزلت هذه الآية، وكن يومئذ تسعاً: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وسودة بنت زمعة، وأم سلمة، فهولاء من قرش، وصفيّة بنت حيي بن أخطب وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، فلما نزلت طلقهن وخيرهن في المفارقة والبقاء، فاخترن النبي ﷺ.<sup>١</sup>

وروى الواحدي<sup>٢</sup> عن ابن عباس: أن حفصة نازعت النبي ﷺ يوماً، وطلبت منه زيادة النفقة. فقال ﷺ: «هل لك أن أجعل بيني وبينك رجلاً؟» قالت: نعم. فدعا رسول الله ﷺ عمر، فلما حضر قال لها: «تكلمي» فقالت حفصة لرسول الله ﷺ: «تكلم أنت ولا تقل إلا حقاً». فرفع عمر يده ليضربها، فقال النبي ﷺ: «كف عنها» فقال عمر: يا عدوة الله ما يقول النبي ﷺ إلا حقاً، والذي بعثه بالحق لولا مجلسه ما رفعت يدي حتى تموتي. فقام النبي ﷺ وذهب في غرفة في المسجد، فمكث فيها شهراً، ومنع نساءه أن يدخلن معه.<sup>٣</sup>

وعن الصادق عليه السلام: «أن النبي ﷺ لما حصل له الغنائم من خيبر، قالت نساؤه: أعطنا من هذه الغنيمة. قال: قسّمته بين المسلمين بأمر الله، فغضِبَ وقلن: لعلك تظنّ إن تطلقنا لا نجد الأكفاء من قومنا يتزوّجون! فأنف الله عزّ وجلّ لرسوله، فأمره أن يعتزلهن، فاعتزلهن رسول الله ﷺ في مشربة<sup>٤</sup> أم إبراهيم تسعة وعشرين يوماً حتى حِضْنَ وطهرن، ثم أنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية وهي آية، التخيير، فقامت أم سلمة وقالت: قد اخترت الله ورسوله، فقمن كلهن فعانقته وقلن مثل ذلك» الخبر.<sup>٥</sup>

وعن الباقر عليه السلام: «أن زينب بنت جحش قالت لرسول الله ﷺ: لا تعدل نبي! فقال: تربت يدك، إن لم أعِدْ، فمن يعدل؟! إلى أن قال: «فقال: إنك إن طلقنا وجدنا في قومنا أكفاءنا، فاحتبس الوحي عن رسول الله ﷺ تسعاً وعشرين ليلة. قال: فأنف الله لرسوله ﷺ، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ الْآيَاتِينَ﴾، فاخترن الله ورسوله، ولم يكن شيء، ولو اخترن أنفسهن لَين»<sup>٦</sup>.

١. مجمع البيان ٨: ٥٤٤، تفسير روح البيان ٧: ١٦٤. ٢. في النسخة: الراقدي. ٣. مجمع البيان ٨: ٥٥٥.

٤. المشربة: الغرفة، والصفّة، والأرض اللينة دائمة النبات.

٥. تفسير القمي ٢: ١٩٢، وتفسير الصافي ٤: ١٨٥، ولم ينسبها إلى الصادق عليه السلام.

٦. الكافي ٦: ٥/١٣٩، تفسير الصافي ٤: ١٨٥.



وفي رواية: «فخيرهن حتى انتهى إلى زينب بنت جحش، فقامت فقبلته، فقالت: أختار الله ورسوله»<sup>١</sup>.

وروى بعض العامة أنه ﷺ بدأ بعائشة، وقال لها: «إني ذاكرك أمراً أحب أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك» لما علم أن أبويها لا يأمرانها بفراقه قالت: وما هو يا رسول؟ فتلا عليها الآية فقالت: أفي هذا أستأمر أبوي؟ بل أختار الله ورسوله، فعجب ﷺ من اختيارها، وفرح حتى ظهر الفرح على بشرته<sup>٢</sup> ثم اختارت الباقيات اختيارها<sup>٣</sup>.

أقول: فيه دلالة على أن النبي ﷺ لم يحرز حبها له، حيث قال: «لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك» بل كان الظاهر منها اختيارها لنفسها، ولذا تعجب من اختيارها وظهور خلاف الظاهر منها، وليعلم أن هذا التخيير من خصائص النبي ﷺ.

عن الباقر عليه السلام، أنه سئل عن رجل خیر امرأته فاختارت نفسها، أبانت منه؟ قال: «لا، إنما هذا شيء كان لرسول الله ﷺ خاصة» الخبر<sup>٤</sup>.

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ  
وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا \* وَمَن يَفْعَلْ مِثْلَ ذَلِكَ يَفْعَلْ صَالِحًا تُؤْتَاهَا  
أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا [٣٠ و ٣١]

ثم أدب الله أزواجه وبين وظيفتهن بقوله: «يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ» ويرتكب فعلةً قبيحةً ظاهرة القباحة من معاصي الله ومخالفة الرسول وإيذائه. عن ابن عباس: يعني الشؤز وسوء الخلق<sup>٥</sup>. عن الصادق عليه السلام: «الفاحشة: الخروج بالسيف»<sup>٦</sup>. «يُضَاعَفْ لَهَا» في القيامة «الْعَذَابُ» عليها «ضِعْفَيْنِ» ومثلي عذاب غيرهن من النساء، لعلو شأنهن، وأتمية الحجة عليهن، وزيادة قبح عصيانهن، لاستلزامه إيذاء النبي ﷺ وتوهينه «وَكَانَ ذَلِكَ» التضعيف «عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا» وسهلاً، لشدة استحقاقهن له، ولا يمنعه زوجية النبي، بل هي سببه، وفيه مراعاة حقّه ﷺ «وَمَن يَفْعَلْ مِثْلَ ذَلِكَ» ويدأوم على الطاعة «لِلَّهِ وَرَسُولِهِ» إيماناً بهما، وخضوعاً لهما «وَتَعْمَلْ» عملاً «صَالِحًا» ومرضياً لهما إلى آخر عمرهما «تُؤْتَاهَا» وتُعْطَاهَا «أَجْرَهَا» وثوابها «مَرَّتَيْنِ» مرة

١. الكافي ٦: ١٣٨، تفسير الصافي ٤: ١٨٦. ٢. في النسخة: من بشره.

٣. تفسير روح البيان ٧: ١٦٥.

٤. الكافي ٦: ٣٢٧، تفسير الصافي ٤: ١٨٦، عن الصادق عليه السلام.

٥. تفسير روح البيان ٧: ١٦٦. ٦. تفسير القمي ٢: ١٩٣، تفسير الصافي ٤: ١٨٦.

على الطاعة، ومرة على طلبهن رضا النبي ﷺ وإدخالهن السرور في قلبه الشريف كما قيل<sup>١</sup>، وأمرة على الطاعة، ومرة أخرى عليها لعل شأنهن وزيادة معرفتهن ويقينهن، كما يكون عذابهن ضعيفين<sup>٢</sup> «وَأَعْتَدْنَا» وهيناً «لَهَا» مضافاً إلى تضعيف الثواب «رِزْقاً» في الجنة يكون ذلك الرزق «كَرِيماً» ومرضياً، أو رفيع القدر وعظيم الخطر.  
عن الباقر عليه السلام قال: «كُلُّ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ حَيْثُ يَكُونُ الْأَجْرُ يَكُونُ الْعَذَابُ»<sup>٣</sup>.

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ  
الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا \* وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ  
الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ [٣٢ و ٣٣]

ثم بالغ سبحانه في ترغيبهن إلى الطاعة بتكرار ندائهن ونسبتهن إلى النبي الموجبة لاتباع سيرته بقوله: «يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ» ومعاشرته «لَسْتُنَّ» في الشرف وعلو المنزلة عند الله «كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ» الأجنيات منه، المعاشرات لغيره، ولكن يكون الفضيلة والشرف لكن «إِنْ أَتَقَيْتُنَّ» وخفتن الله، واحترزن [من] مخالفته ومخالفة رسوله، فإن الاتصال بالنبي لا يفيد شرفاً وفضلاً إلا إذا انضم إليه التقوى<sup>٤</sup> والطاعة، فاذا علمت ذلك «فَلَا تَخْضَعْنَ» ولا تَلْنَّ عند مكاملة الأجانب «بِالْقَوْلِ» والكلام كما هو دأب النساء المطمعات، فإن ترقيق الصوت وتليين الخطاب من النساء يؤرث تهيج شهوة الرجال وطمعهم فيهن، فأتين لا تفعلن ذلك «فَيَطْمَعَ» فيكن الرجل «الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ» من الميل إلى الفسق والفجور «وَقُلْنَ» عند الحاجة إلى التكلم معهم «قَوْلًا» يكون عند الشرع والعقل «مَعْرُوفًا» وحسناً بعيداً من التهمة والإطماع «وَقَرْنَ» واستقررن «فِي بُيُوتِكُنَّ» والزمنها.

زوي أن سودة بنت زمعة ما خطت باب حجرتها لصلاة ولا لحج ولا عمرة حتى أخرجت جنازتها من بيتها في زمان عمر، فقيل لها: لم لا تحج؟ فقالت: قيل لنا: «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ»<sup>٥</sup> «وَلَا تَبَرَّجْنَ» ولا تكشفن الزينة والمحاسن للرجال، أو لا...<sup>٦</sup> «تَبَرَّجْنَ» النساء في زمان «الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى» قيل: هو زمان نوح<sup>٧</sup>. وقيل: زمان إبراهيم، كانت النساء تلبس الثياب المطرزة باللال، ويؤمن في الطرق

١. تفسير البيضاوي ٢: ٢٤٥، تفسير أبي السعود ٧: ١٠٢، تفسير الصافي ٤: ١٨٦، تفسير روح البيان ٧: ١٦٨.

٢. تفسير روح البيان ٧: ١٦٨. ٣. تفسير القمي ٢: ١٩٣، تفسير الصافي ٤: ١٨٦.

٤. في النسخة: انضم بالتقوى. ٥. تفسير روح البيان ٧: ١٧٠.

٦. يباي في النسخة بمقدار كلمة واحدة، ولعلها (تنبخترن) كما في (روح البيان) لأن المؤلف في معرض الأخذ عنه

أو (لا تبرجن) إعادة للنص القرآني. ٧. تفسير أبي السعود ٧: ١٧٠، تفسير روح البيان ٧: ١٠٢.

يعرضن أنفسهن على الرجال، والأخرى: قيل بعثة نبينا<sup>١</sup>.

وعن ابن مسعود، عن النبي ﷺ في حديث -: «أن يوشع بن نون وصي موسى عليه السلام عاش بعد موسى عليه السلام ثلاثين سنة، وخرجت عليه صفوراء بنت شعيب زوجة موسى - إلى أن قال -: وإن بنت أبي بكر ستخرج علي علي في كذا وكذا ألفاً من أمتي، فيقاتلها ويقتل مقاتليها ويأسرها ويحسن أسرها، وفيها أنزل الله ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ يعني صفوراء بنت شعيب<sup>٢</sup>.

وقيل: إن الجاهلية الأولى قبل البعثة، والأخرى في آخر الزمان<sup>٣</sup>.

عن الصادق عليه السلام، عن أبيه - في رواية -: «ستكون جاهلية أخرى»<sup>٤</sup>.

وقيل: إن الأولى<sup>٥</sup> بعد زمان إدريس<sup>٦</sup>. والأخرى من بعثة نبينا<sup>٧</sup>. روي أن بطنين من ولد آدم سكن أحدهما السهل، والآخر الجبل، وكان رجال الجبل صباحاً ونساءهم دمانم، والسهل بالعكس، فجاء إبليس وأجر نفسه من رجلٍ سهلي، وكان يخدعهم، فاتخذ شيئاً مثل ما يَزِمُ الرِّعاء، فجاء بصوتٍ لم يسمع الناس مثله، فبلغ ذلك من في السهل، فجاءوا يستمعون إليه، واتخذوا عيداً يجتمعون إليه في السنة، فتبرج النساء للرجال، وتزينوا لهن، فهجم رجلٌ من أهل الجبل عليهم في عيدهم، فرأى النساء وصباحتهن، فأخبر أصحابه، فتحولوا إليهم، فتزولوا معهم، وظهرت الفاحشة فيهن، وذلك بعد زمان إدريس<sup>٨</sup>.

وقيل: إن الأولى هنا بمعنى القديمة<sup>٩</sup> ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة ونوافلها ﴿وَاتَيْنَ الزَّكَاةَ﴾ الواجبة والمندوبة، وواضين على العبادات البدنية والمالية ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً [٣٣]

ثم التفت سبحانه من أزواج النبي ﷺ إليه وإلى أهل بيته ترغيباً لهن إلى الصلاح والسداد بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ بالارادة التكوينية التي لا تتخلف عن المراد ﴿لِيُذْهِبَ﴾ ويُزِيلَ ﴿عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ والقَدَر من المعاصي والاخلاق الذميمة يا ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ ومَعْدِن الرسالة وَمَهْبُط الوحي

١. تفسير أبي السعود ٧: ١٧٠، تفسير روح البيان ٧: ١٠٢.

٢. كمال الدين: ٢٧، تفسير الصافي ٤: ١٨٧.

٣. تفسير القمي ٢: ١٩٣، تفسير الصافي ٤: ١٨٧.

٤. تفسير روح البيان ٧: ١٧٠.

٥. تفسير روح البيان ٧: ١٧٠.

٦. تفسير روح البيان ٧: ١٧٠.

٧. تفسير روح البيان ٧: ١٧٠.

﴿وَيُطَهِّرُكُمْ﴾ وَيُطَهِّرُكُمْ مِنْهُ «تَطْهِيراً» وَتَنْظِيفاً بَلِغاً، وَجَعَلَكُمْ مَعْصُومِينَ.

وَأَمَّا فَسْرُنا الْإِرَادَةَ بِالتَّكْوِينِيَّةِ، لِكَوْنِهِ فِي مَقَامِ بَيَانِ فَضِيلَتِهِمْ عَلَى سَائِرِ النَّاسِ، وَلَا فَضِيلَةَ لِلْإِرَادَةِ الشَّرِيعِيَّةِ الَّتِي يَشْتَرِكُ فِيهَا الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ، فَإِذَا دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى عَصْمَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) فَلَا جَرَمَ لَا تَشْمَلُ نِسَاءَ النَّبِيِّ، لِلْإِجْمَاعِ عَلَى عَدَمِ عَصْمَتِهِنَّ، وَظُهُورِ الْمَعْصِيَةِ مِنْ أَكْثَرِهِنَّ خُصُوصاً عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ.

بسط الكلام في آية وقد اتَّفقت روايات العامة والخاصة على أنها نزلت في شأن الخمسة الطيبة، وفي التطهير (نهج الحق) للعلامة: أجمع المفسرون. وروى الجمهور كأحمد بن حنبل وغيره أنها نزلت في [رسول الله] وعلي وفاطمة والحسن والحسين.<sup>١</sup>

وروى الثعلبي، عن أم سلمة: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ فِي بَيْتِهَا، فَأَتَتْهُ فَاطِمَةُ (عَلَيْهَا السَّلَامُ) بِثَرْمَةٍ فِيهَا خَرِيرَةٌ، فَقَالَ لَهَا: «ادْعِي زَوْجَكَ وَابْنِكَ» فَجَاءَ تَهُمَ فَطَعَمُوا، ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ كِسَاءً لَهُ خَيْبَرِيًّا، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي وَعِترتي، فَأَذْهَبْ عَنْهُمْ الرَّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً» قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ» الْآيَةَ<sup>٢</sup>. فَأَخَذَ فَضْلَ الْكِسَاءِ فَغَسَّاهُمْ، ثُمَّ أَخْرَجَ يَدَهُ، فَأَلَوَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي وَخَاصَّتِي، فَأَذْهَبْ عَنْهُمْ الرَّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً» فَأَدْخَلَتْ رَأْسِي فِي الْبَيْتِ، وَقُلْتُ: أَنَا مَعَكُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «إِنَّكَ إِلَى خَيْرٍ»<sup>٣</sup>.

وروى الثعلبي، عن مُجَمِّعٍ، قَالَ: ذَهَبْتُ يَوْمًا مَعَ أُمِّي إِلَى عَائِشَةَ، فَقَالَتْ لَهَا أُمِّي: أَرَأَيْتَ خُرُوجَكَ يَوْمَ الْجَمَلِ، وَقَالَ اللَّهُ: «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ»؟ فَقَالَتْ: كَانَ قَدْرًا مِنَ اللَّهِ، ثُمَّ سَأَلْتُهَا عَنْ عَلِيٍّ فَقَالَتْ: سَأَلْتَنِي عَنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَزَوْجِ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، لَقَدْ رَأَيْتُ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، وَجَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَثْوٍ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي وَخَاصَّتِي، فَأَذْهَبْ عَنْهُمْ الرَّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا مِنْ أَهْلِكَ؟ فَقَالَ: «تَنْحِي، فَإِنَّكَ إِلَى خَيْرٍ»<sup>٤</sup>.

وعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «نَزَلَتْ هَذِهِ فِيَّ وَفِي عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنِ»<sup>٥</sup>. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الرِّوَايَاتِ الْكَثِيرَةِ الْعَامِيَةِ<sup>٦</sup>.

١. نهج الحق: ٣/١٧٣، مسند أحمد ١: ٣٣١، و: ٢٨٥، و: ٦، ٢٩٢، شواهد التنزيل ٢: ١٩ وما بعدها.

٢. زاد في النسخة: وفي رواية.

٣. العمدة لابن بطريق: ٢٢/٣٩، مجمع البيان ٨: ٥٥٩.

٤. العمدة لابن بطريق: ٢٣/٣٩، مجمع البيان ٨: ٥٥٩.

٥. العمدة لابن بطريق: ٢٢/٣٨، مجمع البيان ٧: ٥٥٩.

٦. راجع: سنن الترمذي ٥: ٣٢٠٥/٣٥١ و: ٣٧٨٧/٦٦٣ و: ٣٨٧١/٦٦٩، مسند أحمد ٤: ١٠٧ و: ٦، ٢٩٢ و: ٣٠٤، مصابيح

وعن الصادق عليه السلام - في هذه الآية - قال: «يعني الأئمة عليهم السلام ولايتهم من دخل فيها دخل في بيت النبوة»<sup>١</sup>.

وعنه عليه السلام - في رواية - : «فلو سكت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يبين من أهل بيته لادعاه فلان وفلان، ولكن الله أنزل في كتابه لنيته ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ الآية، وكان علي والحسن والحسين وفاطمة، فأدخلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحت الكساء في بيت أم سلمة. ثم قال: اللهم إن لكل نبي أهلاً وثقلاً، وهؤلاء أهل بيتي وثقلي. فقالت أم سلمة: ألسنت من أهلك؟ فقال: إنك إلى خير، ولكن هؤلاء أهلي وثقلي - إلى أن قال - الرجس: هو الشك، والله لا تشك في ربنا أبداً»<sup>٢</sup>.

وفي رواية عن الباقر عليه السلام: «أن الآية تنزل أولها في شيء، وأوسطها في شيء، وآخرها في شيء» ثم قال: «﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ من ميلاد الجاهلية»<sup>٣</sup>. وعن الباقر عليه السلام: «نزلت هذه الآية في رسول الله، وعلي بن أبي طالب، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام، وذلك في بيت أم سلمة زوجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فدعا رسول الله أمير المؤمنين، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام، ثم ألبسهم كساءً له خبيراً، ودخل معهم فيه، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي الذين وعدتني فيهم ما وعدتني، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. فقالت أم سلمة: وأنا معهم يا رسول الله؟ قال: أبشري يا أم سلمة، فأنك إلى خير»<sup>٤</sup>.

وفي احتجاج علي عليه السلام على أبي بكر قال: «فأنشدك الله ألي ولأهلي وولدي آية التطهير من الرجس، أم لك ولأهل بيتك؟» قال: بل لك ولأهل بيتك، الخير»<sup>٥</sup>.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال في جمع من المهاجرين والأنصار في المسجد في أيام خلافة عثمان: «أيها الناس، أتعلمون أن الله عز وجل أنزل في كتابه ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ فجمعتني وفاطمة وحسناً وحسيناً، وألقى علينا الكساء، وقال: اللهم إن هؤلاء أهل بيتي ولحمتي، يؤلمني ما يؤلمهم، ويخرجني ما يخرجهم، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. فقالت أم سلمة: وأنا يا رسول الله؟ فقال: أنت - أو إنك - على خير، إنما أنزلت في، وفي أخي، وفي ابنتي، وفي ابني وفي تسعة من ولد ابني الحسين خاصة، ليس معنا أحد غيرنا؟

→ السنة ٤: ٤٧٩٦/١٨٣، مستدرک الحاكم ٢: ٤١٦ و ٣: ١٤٨، الصواعق المحرقة: ١٤٣، خصائص النساہی: ٤، أسد الغابة ٤: ٢٩. ١. الکافی ١: ٥٤/٣٥٠، تفسیر الصافي ٤: ١٨٨، وفيهما: النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بدل النبوة. ٢. الکافی ١: ١/٢٢٧، تفسیر الصافي ٤: ١٨٨. ٣. تفسیر العياشي ١: ٦٤/٩٥، تفسیر الصافي ٤: ١٨٨. ٤. تفسیر القمي ٢: ١٩٣، تفسیر الصافي ٤: ١٨٧. ٥. الخصال: ٣٠/٥٥٠، تفسیر الصافي ٤: ١٨٨.

فقالوا كلهم: نشهد أن أم سلمة حدثتنا بذلك، فسلنا رسول الله فحدثنا كما حدثتنا أم سلمة<sup>١</sup>.

وعن زيد بن علي بن الحسين: أن جهالاً من الناس يزعمون أنه إنما أراد الله بهذه الآية أزواج النبي ﷺ، وقد كذبوا واتموا، وأيمن الله لو عنى أزواج النبي ﷺ لقال: ليذهب عنك الرجس ويظهركن تطهيراً، ولكان الكلام موتاً، كما قال: «واذكرون ما يتلى في بيوتكن»<sup>٢</sup> «ولا تبرجن»<sup>٣</sup> «ولسنن كأحد من النساء»<sup>٤</sup>.

وقال القمي رحمه الله: ثم انقطعت مخاطبة نساء النبي، وخاطب أهل بيت رسول الله ﷺ فقال: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت» الآية<sup>٥</sup>.

وقال بعض الأجلة: يحتمل أن يكون الخطاب إشارة إلى انتسابهن بأهل العصمة ترغيباً لهن إلى الطاعة وترك المعصية<sup>٦</sup>.

أقول: ويمكن أن يكون الخطاب لأزواج النبي ﷺ وأقاربه ذكوراً وإناثاً، والمقصود إرادة بعضهم من قوله: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس» كما قال: «وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً»<sup>٧</sup> ومن المعلوم أنه لم يكن جميعهم ملوكاً، كما أنه من المعلوم أنه لم يكن أزواج النبي ﷺ معصومات لظهور عصيانهن في زمان النبي ﷺ وبعده، كالخروج على وصي الرسول الذي كان مع الحق والحق معه.

وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً \*  
إِنَّ الْأُمْلَسِيِّينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ  
وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ  
وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ  
وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً  
عَظِيماً [٣٤ و ٣٥]

ثم خص سبحانه الخطاب بهن ازدياداً لوعظهن وترغيبهن إلى طاعة الله ورسوله بقوله: «وَأَذْكُرْنَ» وليكن في خاطركن نعمة الله التي خصكن بها وهو «ما يتلى» ويقرأ صباحاً ومساءً

١. كمال الدين: ٢٥/٢٧٨، تفسير الصافي ٤: ١٨٨. ٢. الاحزاب: ٣٤/٣٣. ٣. الاحزاب: ٣٣/٣٣.

٤. تفسير القمي ٢: ١٩٣، تفسير الصافي ٤: ١٨٧، والآية من سورة الأحزاب: ٣٢/٣٣.

٥. تفسير القمي ٢: ١٩٣، تفسير الصافي ٤: ١٨٧. ٦. لم نعر عليه. ٧. المائدة: ٢٠/٥.

عليكم ﴿فِي بُيُوتِكُمْ﴾ وفي حضوركم ومستمعكم ﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ القرآنية الدالة على صحة نبوة خاتم الأنبياء، وجلالته وعظمته شأنه، ووجوب طاعته، ﴿و﴾ المحتوية على ﴿الْحِكْمَةِ﴾ والموعظة الحسنة، والعلوم الكثيرة. وقيل: إن المراد بالحكمة الأحاديث النبوية<sup>١</sup> لطفاً من الله عليكم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ﴾ من الأزل ﴿لَطِيفًا﴾ ومبالغاً في البرِّ والإحسان بخلقه ﴿خَبِيرًا﴾ وعليماً باستعداداتهم ومصالحهم.

رُوي أنه لما نزلت في نساء النبي ﷺ الآيات المذكورة قالت نساء المؤمنين: فما نزل علينا؟ ولو كان فينا خيرٌ لذكرنا<sup>٢</sup>.

وعن مقاتل: لما رجعت أسماء بنت عميس من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب؟ دخلت على نساء رسول الله ﷺ وقالت: هل [نزل] فينا شيء من القرآن؟ قلن: لا. فأتت رسول الله فقالت: يا رسول الله، إن النساء لفي خيبة وخسار. فقال: «ومم ذلك؟» قالت: لأنهن لا يذكرن بخير<sup>٣</sup>، فأظهر الله لطفه بهن بقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ﴾ والمقرين بتوحيد الله ورسالة رسوله، والمتقادين لأحكامهما ﴿وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ والمصدقين بقلوبهم وجوارحهم لما يجب التصديق به من المبدأ والمعاد وغيرهما ﴿وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

عن الصادق عليه السلام: ﴿إِنَّ الْإِيمَانَ مَا وَقُرَ فِي الْقُلُوبِ، وَالْإِسْلَامَ مَا عَلَيْهِ الْمَنَاحِكُ وَالْمَوَارِيثُ وَحَقَّنَ الدَّمَاءَ، وَالْإِيمَانَ يُشَارِكُ الْإِسْلَامَ، وَالْإِسْلَامَ لَا يُشَارِكُ الْإِيمَانَ»<sup>٤</sup>.

أقول: هذا موافق لقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ»<sup>٥</sup>.

وعن النبي ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه، والمؤمن من آمن جاره بوائقه، وما آمن بي من بات شعباناً وجاره طاروا»<sup>٦</sup>.

أقول: لا منافاة بين الروایتين، فإن الأولى في تحقيق معنى اللفظين، والثانية في بيان الوظائف للمتصفين بهما.

﴿وَأَلْفَاتَيْنِ﴾ والمدامين على طاعة ربهم ﴿وَأَلْفَاتَيْنِ﴾ والملتزمات بها ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ في القول والعمل والنية ﴿وَالصَّادِقَاتِ﴾ فيها ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ على أداء الواجبات والكف عن

٢. تفسير روح البيان ٧: ١٧٤.

١. تفسير روح البيان ٧: ١٧٣.

٣. مجمع البيان ٨: ٥٦٠، تفسير الصافي ٤: ١٩٠.

٤. الكافي ٢: ٣٧٢، تفسير الصافي ٤: ١٩٠.

٥. الحجرات: ١٤/٤٩.

٦. مجمع البيان ٨: ٥٦١، تفسير الصافي ٤: ١٨٩.

المحرمات ﴿وَالصَّابِرَاتِ﴾ عليهما ﴿وَالْغَاشِيَيْنِ﴾ والمتواضعين لله ولرسوله وللمؤمنين بقلوبهم وجوارحهم ﴿وَالْغَاشِيَاتِ﴾ لهم ﴿وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ والباذلين بأموالهم في سبيل الله وابتغاء مرضاته ﴿وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ بها والباذلات لها ﴿وَالصَّائِمِينَ﴾ والممسكين عن الطعام والشراب وسائر المفطرات المعهودة بنية صادقة ﴿وَالصَّائِمَاتِ﴾ منها ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ وعوراتهم عن نظر الأجانب ومساها ﴿وَالْحَافِظَاتِ﴾ لها ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ﴾ بقلوبهم وألسنتهم ذكراً ﴿كَثِيراً﴾ بحيث لا يَغْفُلُونَ عنه ولا يَسْتَوْنَهُ في حال ﴿وَالذَّاكِرَاتِ﴾ الله ذكر أكثر.١

عن ابن عباس: يُريد أدبار الصلاة الصلوات، وغدواً وعشيّاً، وفي المضاجع، وإذا استيقظ من نومه، وكلّما غدا وراح من منزله.٢

وفي الحديث: «من استيقظ من نومه، وأيقظ امرأته، فصلياً جميعاً ركعتين، كُتِبَا من الذّاكرين الله كثيراً والذاكرات»٣.

وعن مجاهد: لا يكون العبد من الذّاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً٤. ﴿أَعَدَّ اللَّهُ﴾ وهياً ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿مَغْفِرَةً﴾ وسترأ للذنوب ﴿وَأَجراً عظيماً﴾ وثواباً جزيلاً لا يمكن بيان كفيته ومقدار عظمتة على ما صدر عنهم من الطاعات والعبادات.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِينًا \* وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا \* مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا \* الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا [٣٦-٣٩]

ثم أنه تعالى بعد أمر النبي ﷺ بتخيير أزواجه، وترغيبهن في طاعته، بين سبحانه وظيفة عموم الناس من الرجال والنساء بالنسبة إليه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ يصح ويستقيم ﴿لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ في

٢. مجمع البيان ٨: ٥٦١، تفسير روح البيان ٧: ١٧٦.

١. تفسير روح البيان ٧: ١٧٦.

٣. تفسير روح البيان ٧: ١٧٦.



وقت من الأوقات **﴿إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾** وأراد شيئاً **﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾** والاختيار في قبال قضائهما وإرادتهما بأن يختاروا **﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾** وفي عملهم ما شاءوا، بل يجب أن يجعلوا آراءهم واختيارهم تبعاً لرأيهما واختيارهما، ويعلم قضاء الله من قضاء الرسول. وقيل: إن المراد قضاء الرسول، وذكر قضاء الله لتعظيم الرسول<sup>١</sup>. وقيل: إن ضمير الجمع الثاني للرسول تعظيماً له<sup>٢</sup>. ثم هدد من اختار غير مختارهما بقوله: **﴿وَمَنْ يَغْضِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾** في أمرٍ من الأمور، ويختار لنفسه غير ما اختار له **﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾** وانحرف عن طريق الحق والصواب **﴿ضَلَالًا﴾** وانحرافاً **﴿مُبِينًا﴾** واضحاً لا يشك فيه العاقل.

رُوي أن رسول الله ﷺ خطب زينب بنت جحش بن رباب الأسدي، بنت عمته ميمونة بنت عبدالمطلب لمولاه زيد بن حارثة، وكانت زينب بيضاء جميلة، وزيد أسود أفتس، فأبت وقالت: أنا بنت عمّتك يا رسول الله، وأرفع قریش، فلا أرضاه لنفسی، وكذلك أبی أخواها عبدالله بن جحش، فنزلت<sup>٣</sup>، فقالت زينب وأخوها: رضينا يا رسول الله، فأنكحها رسول الله إياه، وساق إليها مهرها عشرة دنانير، وستين درهماً، وخماراً، وملحفة، ودرعاً، وإزاراً، وخمسين مئداً من طعام، وثلاثين صاعاً من تمر، وبقيت بالنكاح معه مدة، فجاء النبي ﷺ يوماً إلى دار زيد لحاجة، فوقع نظره إلى زينب، فأعجبه حسننها فأحبها، وقد كان يتمتع عن نكاحها قبل ذلك، ولا يريدّها. فقال ﷺ: «سبحان الله! يا مقلب القلوب ثبت قلبي» وانصرف، فسمعت زينب التسبيح، فذكرته لزيد بعد مجيئه، ففطن زيد أن رسول الله ﷺ أحبها، فأتى رسول الله ﷺ تلك الساعة، فقال: يا رسول الله، إني أريد أن أفارق صاحبتي. فقال ﷺ: «مالك رأيت منها شيئاً؟». قال: لا والله ما رأيت منها إلا خيراً، ولكنها تتعظم علي لشرفها، وتؤذي بلسانها، فحكى الله منعه منه بقوله: **﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾** يا محمد **﴿لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾** بالتوفيق لقبول الاسلام، والايمان بك، وأعانته على الرضا بما حكم الله به عليه من مفارقتها وزوجته، وتسليمها للرسول، وتخصيصه من بين الصحابة بذكر اسمه في هذه الآية في القرآن **﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾** بتحريه، وحسن تربيته، وتبينه وتزويجه من بنت عمّتك **﴿أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾** زينب ولا تطلقها **﴿وَأَتَىٰ اللَّهَ﴾** في طلاقها، أو في الشكوى من تعظمها **﴿و﴾** أنت **﴿تُخْفِي﴾** حين رده عن طلاقها **﴿فِي نَفْسِكَ﴾** من الناس **﴿مَا اللَّهُ بِبَدِيهِ﴾** ومظهره لهم من عملك بأنها إحدى أزواجك، وأن زيداً يطلقها، وستكون زوجتك، وإنما كان اخفاؤك لأنك تخاف **﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾** من أن يلوموك

١ و٢. تفسير البضاوي ٢: ٢٤٦، تفسير أبي السعود ٧: ١٠٤، تفسير روح البيان ٧: ١٧٧.

٤. تفسير روح البيان ٧: ١٧٨.

٣. تفسير روح البيان ٧: ١٧٧.

ويعبروك على تزويج دعيك ﴿وَأَقِمْ﴾ الغالب القاهر ﴿أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ وحده وتخصه بالخشية إن كان فيه ما يخشى.

عن السجاد عليه السلام: «أَنَّ الَّذِي أَخْفَاهُ فِي نَفْسِهِ هُوَ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ أَعْلَمَهُ أَنَّهَا سَتَكُونُ مِنْ أَزْوَاجِهِ، وَأَنَّ زَيْدًا سَيُطْلَقُهَا، فَلَمَّا جَاءَ زَيْدٌ وَقَالَ لَهُ: أُرِيدُ أَنْ أُطْلَقَ زَيْنَبُ قَالَ لَهُ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ [فَقَالَ سَبَّحَانَهُ: لَمْ قُلْتُ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ] وَقَدْ أَعْلَمْتُكَ أَنَّهَا سَتَكُونُ مِنْ أَزْوَاجِكَ»<sup>١</sup>.

﴿فَلَمَّا قَضَى﴾ واستوفى ﴿زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ كان له فيها، وحاجة يتوقعها منها، وطلقها وانقضت عِدَّتُهَا ﴿وَزَوَّجْنَاكَهَا﴾.

قصة تزويج الرسول روى أَنَّهُ لَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ لَزَيْدٍ: «مَا أَجَدَ أَحَدًا أَوْثَقَ فِي نَفْسِي زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ مِنْكَ، اخْطُبْ عَلَيَّ زَيْنَبَ» قَالَ زَيْدٌ: فَانْطَلَقْتُ، فَإِذَا هِيَ تُحَمَّرُ عَجِيئَتَهَا، فَقُلْتُ: يَا

زَيْنَبُ أَبْشِرِي، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُكَ، فَفَرِحَتْ وَقَالَتْ: مَا أَنَا بِصَانِعِهِ شَيْئًا حَتَّى

أُؤَامَرَ<sup>٢</sup> رَبِّي، فَقَامَتْ إِلَى مَسْجِدِهَا، فَنَزَلَ فِي الْقُرْآنِ ﴿وَزَوَّجْنَاكَهَا﴾ فَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللَّهِ، وَمَا أَوْلَمَ عَلَى أَمْرَةٍ مِنْ نِسَائِهِ مَا أَوْلَمَ عَلَيْهَا<sup>٣</sup>.

رُوي أَنَّهَا كَانَتْ تَفْتَخِرُ عَلَى سَائِرِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَقُولُ: زَوْجَكَنْ أَهْلِيكَنْ، وَزَوْجَنِي اللَّهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ<sup>٤</sup>.

وَرُوي أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنِّي لِأَدِلَّ عَلَيْكَ بِثَلَاثٍ: مَا مِنْ نِسَائِكَ أَمْرَةٍ تَدِلُّ بِهِنَّ: جَدِّي وَجَدُّكَ وَاحِدٌ، وَزَوْجُنِيكَ اللَّهُ، وَالسَّفِيرُ جَبْرِئِيلُ<sup>٥</sup>.

وعن الرضا عليه السلام في تفسير ﴿وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ﴾ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَرَفَ نَبِيَّهِ أَسْمَاءَ أَزْوَاجِهِ فِي دَارِ الدُّنْيَا، وَأَسْمَاءَ أَزْوَاجِهِ فِي الْآخِرَةِ، وَإِنَّهُنَّ أَمَهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَحَدٌ مِنْ سَمَى لَهُ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ، وَهِيَ يَوْمُئِذٍ تَحْتَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، فَأَخْفَى اسْمَهَا فِي نَفْسِهِ، وَلَمْ يُبْدِهِ، لِكَيْلَا يَقُولَ أَحَدٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ: إِنَّهُ قَالَ فِي أَمْرَةٍ فِي بَيْتِ رَجُلٍ إِنَّهَا أَحَدُ أَزْوَاجِهِ وَمِنْ أَمَهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَخَشِيَ قَوْلَ الْمُنَافِقِينَ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ يَعْنِي فِي نَفْسِكَ، وَإِنَّ اللَّهَ مَا تَوَلَّى تَزْوِيجَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ إِلَّا تَزْوِيجَ حَوَاءَ مِنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَزَيْنَبَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا وَزَوَّجْنَاكَهَا﴾ وَفَاطِمَةَ مِنْ عَلِيٍّ<sup>٦</sup>.

١. مجمع البيان ٨: ٥٦٤، تفسير الصافي ٤: ١٩١.

٢. أمره: شاوره.

٣. تفسير روح البيان ٧: ١٨٠.

٤. مجمع البيان ٨: ٥٦٦، تفسير الصافي ٤: ١٩١.

٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٩٥، تفسير الصافي ٤: ١٩٢.

وعنه عليه السلام - في حديث :- «أن رسول الله ﷺ قصد دار زيد بن حارثة في أمر أراده، فرأى امرأة تغتسل، فقال لها: سبحان الله الذي خلقك! وإنما أراد تنزيه الله عن قول من زعم أن الملائكة بنات الله - إلى أن قال - فلما عاد زيد إلى منزله أخبرته أمراته بمجيب رسول الله ﷺ وقوله لها: سبحان الله الذي خلقك، فلم يعلم زيد ما أراد بذلك، فظن أنه قال ذلك لما أعجب من حسنها، فجاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن امرأتي في خلقها سوء، وإني أريد أن أطلقها، فقال له النبي ﷺ: أمسك عليك زوجك، واتق الله، وقد كان الله عز وجل عرفه عدد أزواجه، وأن تلك المرأة منهن، فأخفى ذلك في نفسه، وخشي الناس أن يقولوا: إن محمداً يقول لمولاه: إن امرأتك ستكون لي زوجة، فيعييبونه بذلك «الخير»<sup>١</sup>.

ثم بين الله علة هذا التزويج بقوله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ وضيق ﴿فِي﴾ حَرَجٍ تزويج ﴿أَزْوَاجٍ أَذْعِيائِهِمْ﴾ ونساء الذين تبنوهم ﴿إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ ولم يبق لهم فيهن حاجة وطلّقوهن ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وما تريد تكوينه ﴿مَقْعُولًا﴾ ومكوناً لا محالة، كما كان تزويج زينب للنبي ﷺ منه.

ثم أنه تعالى بعد بيان عدم الحرج على المؤمنين في ذلك التزويج، وأنه حكم الاسلام، نفى الحرج فيه عن النبي ﷺ بقوله: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ شَيْءٌ مِنْ حَرَجٍ﴾ وضيق ﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ﴾ وقسمه ﴿لَهُ﴾ وحكم بجوازه وقدره من تزويج زينب، فإن التزويج ليس من خصائصه، بل كان ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ وطريقته المسلوكة ﴿فِي﴾ الأنبياء ﴿الَّذِينَ خَلَوْا﴾ ومضوا من الدنيا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ فإن داود - على ما قيل - كان له مائة مهيّرة، وثلاثمائة شربة<sup>٢</sup>، وسليمان كانت له ثلاثمائة مهيّرة، وسبعماية شربة<sup>٣</sup> وكان أمر الله ﴿وحكمه قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ وقضاء مقضياً، وحكماً قطعياً لا يغير، فإن أولئك الأنبياء هم ﴿الَّذِينَ يُتْلَوْنَ﴾ إلى الناس ﴿رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ وأحكامه ومعارفه ﴿وَيُخْشَوْنَ﴾ وحده ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ فلا تخش يا محمد غيره، وأنت سيدهم وخاتمهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ﴾ الذي هو أحسب الحاسبين ﴿حَسِيبًا﴾ ومحاسباً لعبادة على أعمالهم، ومجازياً لهم عليها، فلا ينبغي أن يخشى إلا منه في أمر النكاح وغيره إذا علم رضاه به وحكمه فيه.

رُوي أن كثرة الرُفْت - أو النكاح - من سنن الأنبياء<sup>٤</sup>.

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٢٠٣، تفسير الصافي ٤: ١٩٢.

٢. المهيّرة: الخثرة الغالية المهر، والشربة: الجارية المملوكة.

٣. تفسير أبي السعود ٧: ١٠٥، تفسير روح البيان ٧: ١٨٢.

٤. مجمع البيان ٨: ٥٦٦، تفسير روح البيان ٧: ١٨٣.

وعن النبي ﷺ: «حُبَّ إِلَيَّ مِنْ دِيَارِكُمْ ثَلَاثُ الطَّيِّبِ، وَالنِّسَاءِ، وَقُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ». قيل: إِنَّهُ لَيْسَ عِبَادَةٌ بَاقِيَةٌ مِنْ عَهْدِ آدَمَ إِلَى الْجَنَّةِ إِلَّا الْإِيمَانُ وَالنَّكَاحُ<sup>١</sup>.

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا [٤٠]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ مِنْ حُكْمِ الْعَرَبِ أَنَّ نِكَاحَ زَوْجَةِ الدَّعِيِّ كَنِكَاحِ زَوْجَةِ الْوَلَدِ الصُّلْبِيِّ، وَاسْتِطَالَ لِسَانَ الْمُنَافِقِينَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ نِكَاحِ زَيْنَبَ، أَبْطَلَ اللَّهُ ذَلِكَ الْحُكْمَ، وَرَدَّ الْمُنَافِقِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ بِالنَّسَبِ وَالْوِلَادَةِ حَتَّى يَثْبُتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مَا يَكُونُ بَيْنَ الْوَالِدِ وَوَلَدِهِ مِنْ خُرْمَةِ الْمَصَاهِرَةِ، وَإِنَّمَا هُوَ أَبُو رَجَالِهِ كَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ وَذُرِّيَّتِهِمَا ﴿وَلَكِنْ﴾ هُوَ أَشْفَقَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْأَبِ الشَّفِيقِ حَيْثُ إِنَّهُ يَكُونُ ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ وَمُظْهِرُ رَحْمَتِهِ الَّتِي تَكُونُ رَحْمَةً الْأَبْوَةِ رَشْحَةً مِنْ رَشْحَاتِهَا، بَلْ كَانَ هُوَ آخِرُ الرُّسُلِ ﴿وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ﴾ الَّذِي لَا يَرْجُو أَنْ يَجِيءَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ يَبَيِّنُ لِلنَّاسِ مَا هُوَ صَلَاحُهُمْ وَخَيْرُهُمْ، وَيُكْمِلُ لَهُمْ دِينَهُمْ وَنَفْسَهُمْ، فَلَا مُحَالَةَ أَنْ يَكُونَ اهْتِمَامُهُ فِي بَيَانِ صَلَاحِ أَهْلِ الْعَالَمِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَكْثَرَ، وَشَفَقَتُهُ عَلَيْهِمْ أَشَدَّ ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ عَالِمًا بِبَلَايَتِهِ لِهَذِهِ الدَّرَجَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي رَفَعَهُ إِلَيْهَا لِكُونِهِ ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ وَأَحْوَالِهِمْ وَاسْتِعْدَادَاتِهِمْ ﴿عَلِيمًا﴾ وَمُحِيطًا. وَقَدْ تَوَاتَرَ مِنْ طُرُقِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَنْتَ مَنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»<sup>٢</sup> فَلَوْ ادَّعَى أَحَدٌ بَعْدَهُ النَّبُوَّةَ، فَهُوَ كَاذِبٌ، وَلَوْ جَعَلَ الْأَرْضَ سَمَاءً وَالسَّمَاءَ أَرْضًا، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَدَّعِيَ فَوْقَ مَرْتَبَةِ النَّبُوَّةِ، كَمَا نَسَبَهُ الطَّائِفَةُ الضَّالَّةُ الْبَهَائِيَّةُ إِلَى رُئُسِهِمْ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا \* وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا [٤١ و ٤٢]

ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ نِعْمَةَ رِسَالَةِ الرَّسُولِ، وَخَاتَمَتِهِ، وَشَفَقَتِهِ، أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِذِكْرِهِ وَثَنَانَهُ شُكْرًا عَلَى نِعْمَتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا! اشْكُرُوا لِلَّهِ عَلَى إِعْنَانِهِمْ بِتَكْمِيلِ دِينِهِمْ، وَجَعَلَهُمْ أُمَّةً أَشْرَفَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ وَ﴿أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ لَتَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الْحَدِيدُ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا جَلَاؤُهَا؟ قَالَ: «تِلَاوَةُ كِتَابِ اللَّهِ، وَكَثْرَةُ ذِكْرِهِ»<sup>٣</sup>.

١. تفسير روح البيان ٧: ١٨٣.

٢. صحيح البخاري ٥: ٢٠٢/٨٩، صحيح مسلم ٤: ٢٤٠٤/١٨٧٠، سنن الترمذي ٥: ٣٧٣٠/٦٤٠، مستدرک الحاكم ٢:

٣٣٧، مسند أحمد ١: ١٧٣ و ١٧٥ و ١٨٢ و ١٨٤ و ٣٣١.

٣. تفسير روح البيان ٧: ١٩١.

وعن الصادق عليه السلام: «ما من شيء إلا وله حدّ ينتهي إليه إلا الذكر، فليس له حدّ ينتهي إليه - إلى أن قال - فإن الله لم يَرْضَ منه بالقليل، ولم يجعل حدّاً له ينتهي إليه» ثم تلا هذه الآية<sup>١</sup>.  
وعنه عليه السلام: «شيعتنا الذين إذا خلوا ذكروا الله كثيراً»<sup>٢</sup>.

وعنه عليه السلام: «تسبيح فاطمة الزهراء من الذكر الكثير الذي قال الله ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾»<sup>٣</sup>.  
ثم لما كان التسبيح أفضل الأذكار خصّه بالأمر بقوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ ونزّهوه من النقائص والشرك والولد ﴿بِكُرَّةٍ﴾ وأول النهار ﴿وَأَصِيلًا﴾ وآخره. قيل: إن الوقتين أفضل الأوقات<sup>٤</sup>. وقيل: هما كناية عن تمام النهار<sup>٥</sup>.

هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ  
بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا \* تَجِئْتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا [٤٤-٤٣]

ثم بالغ سبحانه في ترغيبهم إلى ذكره بقوله: ﴿هُوَ﴾ الله ﴿الَّذِي يُصَلِّي﴾ ويعطف ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في الدنيا بالرحمة الخاصة ﴿وَمَلَائِكَتُهُ﴾ تصلي وتعطف عليكم بالاستغفار والدعاء وإصلاح أموركم ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ برحمته وصلاته ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ الواقعية كالجهل والكفر والمعاصي والأخلاق الرذيلة ﴿إِلَى النُّورِ﴾ الذي صورته في هذا العالم العلم والایمان والطاعة والأخلاق الحميدة ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين ﴿رَحِيمًا﴾ حيث اعتنى بصلاحهم وتعلية قدرهم.

عن السدي: قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: أوصلي ربنا؟ فكبر عليه هذا الكلام، فأوحى الله إليه: أن قل لهم إني أصلي، وإن صلاتي رحمتي التي تطفئ غضبي<sup>٦</sup>.

عن الصادق عليه السلام: من صلى على محمد وآل محمد عشرًا، صلى الله عليه وملائكته مائة، ومن صلى على محمد وآل محمد مائة مرة، صلى الله عليه وملائكته ألفًا، أما تسمع قول الله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي﴾؟ الآية<sup>٧</sup>.

ثم ذكر الله لطفه بهم في الآخرة بقوله: ﴿تَجِئْتُهُمْ﴾ وإكرامهم حين الورد ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ وخين يَبْعَثُونَ كما عن أمير المؤمنين عليه السلام<sup>٨</sup> ﴿سَلَامٌ﴾ من الله، أو سلام ملائكته، أو السلامة من كل مكروه

١. الكافي ٢: ١/٣٦١، تفسير الصافي ٤: ١٩٤.

٢. الكافي ٢: ٤/٣٦٣، تفسير الصافي ٤: ١٩٤.

٣. تفسير أبي السعود ٧: ١٠٦، تفسير روح البيان ٧: ١٩٢، تفسير الصافي ٤: ١٩٤.

٤. تفسير روح البيان ٧: ١٩٢.

٥. تفسير روح البيان ٧: ١٩٣.

٦. التوحيد: ٢٦٧، تفسير الصافي ٤: ١٩٤.

٧. الكافي ٢: ١٤/٣٥٨، تفسير الصافي ٤: ١٩٤.

﴿وَأَعَدُّ لَهُمْ أَجْرًا﴾ وثواباً ﴿كَرِيمًا﴾ مرضياً، وهو الجنة ونعيمه الدائمة.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا \* وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ  
وَسِرَاجًا مُنِيرًا \* وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ إِلَى النَّاسِ لَتَكُونَ  
﴿شَاهِدًا﴾ يوم القيامة على إيمانهم وطاعتهم، وكفرهم وعصيانهم ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لأهل الإيمان والطاعة  
بالجنة والنعم الدائمة ﴿وَنَذِيرًا﴾ لأهل الكفر والعصيان بالنار والعذاب الدائم ﴿وَدَاعِيًا﴾ لعموم  
الناس ﴿إِلَى﴾ توحيد ﴿اللَّهِ﴾ ومعرفة وطاعته ﴿بِإِذْنِهِ﴾ وأمره وتيسيره ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ يُستضاء به  
في ظلمات الجهل والعدو، ويهتدي بنوره إلى قرب الله ونعم الآخرة، فراقب أحوال أمتك ﴿وَبَشِّرِ  
الْمُؤْمِنِينَ﴾ منهم ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ وزيادة كثرة على سائر الأمم في الرتبة والشرف، أو  
على أجر أعمالهم ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ وذم على مخالفتهم وترك اتباع أرائهم.

ثم أنه تعالى بعد بيان لطفه بالمؤمنين، وترغيبهم في الذكر والعبادة، بين لطفه بالنبي ﷺ وحثه  
على أداء وظيفة الرسالة ومداراته للناس بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ إلى الناس لتكون  
﴿شَاهِدًا﴾ يوم القيامة على إيمانهم وطاعتهم، وكفرهم وعصيانهم ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لأهل الإيمان والطاعة  
بالجنة والنعم الدائمة ﴿وَنَذِيرًا﴾ لأهل الكفر والعصيان بالنار والعذاب الدائم ﴿وَدَاعِيًا﴾ لعموم  
الناس ﴿إِلَى﴾ توحيد ﴿اللَّهِ﴾ ومعرفة وطاعته ﴿بِإِذْنِهِ﴾ وأمره وتيسيره ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ يُستضاء به  
في ظلمات الجهل والعدو، ويهتدي بنوره إلى قرب الله ونعم الآخرة، فراقب أحوال أمتك ﴿وَبَشِّرِ  
الْمُؤْمِنِينَ﴾ منهم ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ وزيادة كثرة على سائر الأمم في الرتبة والشرف، أو  
على أجر أعمالهم ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ وذم على مخالفتهم وترك اتباع أرائهم.

قيل: فيه مبالغة في الزجر عن مداراتهم في أمر الدعوة، واستعمال لين الجانب في التبليغ،  
والمسامحة في الإنذار<sup>١</sup>.

﴿وَدَعَا أَهْلَهُمْ﴾ ولا تعتن بترهاتهم في شأنك، ولا تخف من إضرارهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وفوض  
أمورك إليه ﴿وَوَكَّفَى بِاللَّهِ﴾ وحسبك خالق كل شيء من حيث كونه ﴿وَوَكَّلَا﴾ ومفوضاً إليه الأمور،  
ومُعْتَمِداً عليه، فإن من عرف كفاية الله له في كل أمر، وتكفله لمصالحه، استراح قلبه، واكتفى به في  
جميع أموره، ولم يدبر معه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَكَحَّثُمُ الْمُؤْمِنَاتُ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ  
فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا [٤٩]

ثم أنه تعالى بعد بيان وظيفة النبي ﷺ مع الله، وهو التقوى وترك طاعة غيره، واتباع وحيه، ووظيفته مع  
أزواجه، وهي تخييرهن في البقاء معه وفراقه، ووظيفته مع الناس، وبيان وظيفة المؤمنين مع الله، وهي  
إكثار ذكره، بين وظيفتهم مع أزواجهن بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَكَحَّثُمُ﴾ النساء ﴿الْمُؤْمِنَاتُ﴾

وَتَزَوَّجْتُمُوهُمْ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُمْ<sup>١</sup> وَتَدْخُلُوا بِهِمْ ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ عِدَّةٍ﴾ وَمُدَّةٍ تَرَبَّصَ يَجْلَ لَهَا التَّزْوِيجَ بَعْدَ انْقِضَائِهَا ﴿تَعْتَدُونَهَا﴾ وَتَسْتَفُونَ عِدَّتَهَا مِنَ الْأَيَّامِ وَالْأَشْهُرِ، أَوْ الْأَقْرَاءِ ﴿فَمَتَّعُوهُمْ﴾ وَأَعْطَوْهُمْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ مَا يَنْتَفِعْنَ بِهِ ﴿وَسَرَّحُوهُمْ﴾ وَأَرْسَلُوهُمْ إِلَى مَنَازِلِهِمْ ﴿سَرَاحًا﴾ وَإِرْسَالًا ﴿جَمِيلًا﴾ لَا ضَرَرَ فِيهِ عَلَيْهِمْ وَلَا إِيْذَاءٌ أَوْ مَنَعٌ حَقٌّ.

عن الصادق عليه السلام في رجل طلق امرأته قبل أن يدخل بها، قال: «عليه نصف المهر إن كان فرض لها شيئاً، وإن لم يكن فرض لها شيئاً فليمتعها على نحو ما يمتع به مثلها من النساء»<sup>١</sup>.

وعن الباقر عليه السلام في هذه الآية قال: «متعوهن: أي أعطوهن<sup>٢</sup> ما قدرتم عليه من معروف، فانهن يرجعن بكاتبه ووحشته وهن عظيم وشماتة من أعدائهن، فإن الله كريم، يستحي ويحب أهل الحياء، إن أكرمكم أشدكم إكراماً لحلائلهم»<sup>٣</sup>.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَخْلَقْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الْوَلَاتِيَّاتِ آتَيْتِ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكِ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ الْوَلَاتِيَّاتِ هَاجِرْنَ مَعَكَ وَأَمْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا [٥٠]

ثم أنه تعالى بعد أمر نبيه ﷺ بتسهيل الأمر على أزواجه بتخييرهن في البقاء معه وفراقه، من عليه بتسهيل أمر التزويج عليه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا﴾ منّا عليك بتسهيل أمر التزويج عليك حيث ﴿أَخْلَقْنَا﴾ وأبنا ﴿لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ والنساء الولاتي في جباله نكاحك خصوصاً ﴿الْوَلَاتِيَّاتِ آتَيْتِ أَجُورَهُنَّ﴾ وأعطيتهن ﴿أَجُورَهُنَّ﴾ ومهورهن ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ بالسبي، أو الهبة، أو الشراء، سيما إذا كن ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ﴾ وأرجعهن بالأسر ﴿عَلَيْكَ﴾ فإن قلبك بالصنفين الخاصين أطيب ﴿وَو﴾ كذا ﴿بَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ﴾ كزينة بنت جحش، فإنها بنت أمية بن عبدالمطلب ﴿وَبَنَاتِ خَالَكِ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ﴾ خصوصاً ﴿الْوَلَاتِيَّاتِ هَاجِرْنَ﴾ من مكة إلى المدينة ليكن ﴿مَعَكَ﴾ وفي جوارك، فإن

١. الكافي ٦: ٣/١٠٦، تفسير الصافي ٤: ١٩٥.

٢. في من لا يحضره الفقيه والتهذيب: جملوهن، وفي الصافي: أحملوهن.

٣. من لا يحضره الفقيه ٣: ٣٢٧/١٥٨٠، التهذيب ٨: ٤٨٨/١٤١، تفسير الصافي ٤: ١٩٥.

المهاجرات منهن أليق بمزاوجتك ﴿وَوَ﴾ كذا أحللتنا لك ﴿أَمْرَأَةً مُؤْمِنَةً﴾ من المؤمنات ﴿إِنْ﴾ اتَّفَقَ أنها ﴿وَهَبْتَ نَفْسَهَا﴾ ووُضِعَها ﴿لِلنَّبِيِّ﴾ بلا مهر وأجر، وهي إنما تحل لك ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَكْبِحَهَا﴾ وطلب ملك بضعها بلا مهر.

وفي الالتفات من الخطاب الى الغيبة، إيذاناً بأن الحكم مختص به ﷺ، لشرف النبوة، كما صرح به بقوله: ﴿خَالِصَةٌ لَّكَ﴾ وجعلنا حليتها بالهبة مختصة بك ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإن الإحلال لهم مشروطاً بإنشاء النكاح بلفظه، أو بلفظ التزويج في الدائم، وبأحدهما أو بلفظ التمتع في المنقطع، ولا يكون بلا مهر أبداً، وهذا هو الذي أشار بقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا﴾ وأوجبنا ﴿عَلَيْهِمْ فِي﴾ حَرْ ﴿أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من الأحكام، وإنما أحللتنا عليك النساء، وخصصناك بتلك الخصائص ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ وضيّق في أمر النكاح ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ وسَئِراً لما يصدر من عباده ممّا يعسر التحرز منه ﴿رَحِيمًا﴾ ومنعماً عليهم بالتوسعة والتسهيل في الأحكام.

عن ابن عباس: لم يكن عند النبي ﷺ امرأة إلا بعقد نكاح أو ملك يمين<sup>١</sup>.

وقيل: إنه كانت عنده الموهوبة نفسها، وهي ميمونة، خالة عبدالله بن عباس، خطبها النبي ﷺ فلما جاءها الخاطب وهي على بغيرها، فقالت: البعير وما عليه لرسول الله ﷺ<sup>٢</sup>.

وقيل: هي زينب بنت خزيمة الأنصارية، وماتت في حياته ﷺ<sup>٣</sup>.

وقيل: هي أم ثريك بنت جابر الأسدية، واسمها غزية، ولم يقبلها، وقيل: قبلها ثم طلقها قبل أن يدخل بها<sup>٤</sup>.

وعن ابن عباس: أنها أقبلت إلى النبي ﷺ فوهبت نفسها له بغير مهر، فقبلها ودخل عليها<sup>٥</sup>.

أقول: وعليه يكون المراد من قوله الأول حين وفاته.

وعن الباقر ﷺ: «جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو في منزل حَفْصَةَ، والمرأة متلبسة متمشطة فقالت: يا رسول الله، إن المرأة لا تخطب الزوج، وأنا امرأة أيم لا زوج لي منذ دهر ولا ولد، فهل لك من حاجة، فإن يك فقد وهبت نفسي لك إن قبلتني. فقال لها رسول الله خيراً، ودعا لها، ثم قال: يا أخت الأنصارن جزاكم الله عن رسول الله خيراً، فقد نصرني رجالكم، ورغبت في نساؤكم. فقالت لها حَفْصَةُ: ما أقلّ حياءك وأجراك وأنهمك للرجال! فقال رسول الله ﷺ: كُفِّي عنها يا حَفْصَةُ، فإنها خير منك، رَغِبت في رسول الله فلميتها وعيبتها. ثم قال للمرأة: انصرفي رحمك الله،

١. تفسير روح البيان ٧: ٢٠٥.

٢. تفسير روح البيان ٧: ٢٠٦.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٢٠٦.

٤ و ٥. تفسير روح البيان ٧: ٢٠٦.



فقد أوجب الله لك الجنة لرغبتك في، وتعزضك لمحبتي وشروري، سيأتيك أمري إن شاء الله تعالى،  
فأنزل الله تعالى ﴿وَأْمُرْ أَتَمُومَةً﴾ الآية. قال: فأحل الله عز وجل هبة المرأة لرسول الله ﷺ، ولا يحل  
ذلك لغيره<sup>١</sup>.

وعن القمي ما يقرب منه إلا أنه حكى اللوم عن عائشة، وقال في آخره: «فلا تجل الهبة إلا لرسول  
الله ﷺ»<sup>٢</sup>.

تُرْجَى مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَن ابْتِغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا  
جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ  
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا [٥١]

ثم بالغ سبحانه في التوسعة على رسوله ﷺ في النكاح والطلاق وحقوق الأزواج بقوله:  
﴿تُرْجَى﴾ وتؤخر ﴿مَن تَشَاءُ﴾ إرجاءها وتأخيرها ﴿مِنْهُنَّ﴾ بأن تزك نكاحها، أو تطلقها، أو تزك  
مضاجعتها وقسمها ﴿وَتُؤْوَى﴾ وتضم ﴿إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ ضمها وتقريبها منهن بالنكاح وإبقاءها فيه،  
وقسمها ومضاجعتها ﴿وَمَن ابْتِغَيْتَ﴾ وطلبت نكاحها، أو إمساكها، أو قسمها ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾  
وتركت نكاحها أو طلقها، أو تركت القسمة لها ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ ولا إثم ولا لوم ﴿عَلَيْكَ﴾ لأن الاختيار  
في أمرهن بيديك و ﴿ذَلِكَ﴾ التخيير وتفويض الأمر إلى مشيئتكم ﴿أَدْنَى﴾ وأقرب إلى ﴿أَن تَقَرَّ  
أَعْيُنُهُنَّ﴾ وتسر قلوبهن بمعاملتك معهن ﴿وَلَا يَحْزَنَ﴾ بترجيح بعضهن على بعض ﴿و﴾ إلى أن  
﴿يَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ﴾ من النفقة والقسمة والمضاجعة، وتطيب نفوسهن به، لتعلمن بأن  
جميع معاملتك معهن بحكم الله وإرادته، فإن سويت بينهن فبفضلك، وإن رجحت بعضهن  
فبطاعتك لله، لا بهوى نفسك.

قيل: إنه ﷺ قبل نزول الآية كان يسوي بين أزواجه في جميع الأمور، فلما نزلت اعتزل من  
خمس، وأوى إليه أربعة: عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وميمونة<sup>٣</sup>.

وقيل: إنه بعد نزولها أيضاً كان يسوي بينهن غير سودة، فإنها وهبت ليلتها لعائشة، وقالت: يا رسول  
الله، لا تطلقني حتى أحشر يوم القيامة في عداد أزواجك<sup>٤</sup>.

قيل: لما اسلخت نفسه عن صفاتها، وأصفت بصفات القلب - ولذا قال: «أسلم شيطاني بيدي» ولا

١. الكافي ٥: ٥٣/٥٦٨، تفسير الصافي ٤: ١٩٦.

٢. تفسير أبي السعود ٧: ١١٠، تفسير روح البيان ٧: ٢٠٧ و ٢٠٨.

٣. تفسير أبي السعود ٧: ١١٠، تفسير روح البيان ٧: ٢٠٨.

يقول يوم القيامة: نفسي نفسي - انصفت دنياه بصفات الآخرة - ولذا حل له في الدنيا ما يحل لغيره في الآخرة<sup>١</sup> من تزويج الزائد على الأربع، وترك القسمة بينهما<sup>٢</sup> وسائر الخصائص.

ثم هدد الرجال والنساء على سوء الظن به وبمخالفته بقوله: ﴿وَأَنَّهُ يَغْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ من الضمائر والخطورات ﴿وَكَانَ أَهْلًا عَلِيمًا﴾ بكل ما تبدونه وتخفونه ﴿حَلِيمًا﴾ غير عجول في العقوبة، فلا تغتروا بتأخيرها، فإن العجلة ممن يخاف الفوت.

لَا يَجِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَغْنَبَكَ حُسْنُهُنَّ  
إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا [٥٢]

ثم لما اخترن الرسول ﷺ بعد تخييرهن، ورضين بما اختاره في حقهن، شكر الله لهن بقوله: ﴿لَا يَجِلُّ لَكَ النِّسَاءُ﴾ ولا يجوز تزويجهن ﴿مِنْ بَعْدُ﴾ التسع اللاتي خيّرتهن فاخترتك ورضين بمعاملتك معهن بما شئت، وهن: عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وزينب بنت جحش، وميمونة بنت الحارث، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وصفية، وجويرية، وسودة. وأفضلهن أم سلمة، وميمونة. أو من بعد اليوم، فلو مات إحداهن لم يجل له نكاح أخرى ﴿وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ بأن تطلق إحداهن وتزوج مكانها غيرها كرامة لهن وجزاء على اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة، ورضين بما آتيتهن، فلا يجوز لك تزويج غيرهن من النساء ﴿وَلَوْ أَغْنَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ وجمالهن.

عن ابن عباس: هي أسماء بنت عميس، كانت امرأة جعفر بن أبي طالب، فأنه لما استشهد أراد رسول الله ﷺ أن يخطبها، فنهاه الله عن ذلك، فتركها فتزوجها أبو بكر بإذن رسول الله ﷺ<sup>٣</sup>. وقيل: هي حَبَابَةُ أخت الأشعث بن قيس<sup>٤</sup>.

ولما كانت الأزواج شاملة للإماء استثناهن بقوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ من الإماء، فإنه يجل لك البشري بهن. وقيل: إن الاستثناء منقطع، لعدم شمول الأزواج إلا المنكوحات بالعقد<sup>٥</sup>.

وعن مجاهد: المراد من الآية لا يجل لك النساء من اليهوديات والنصرانيات من بعد المسلمات، ولا أن تبدل بالمسلمات غيرهن من اليهود والنصارى، فإنه لا تكون أم المؤمنين يهودية ولا نصرانية إلا ما ملكت يمينك من الكتابيات أن تتسرى بهن<sup>٦</sup>.

وقيل: إن المراد من قوله: ﴿لَا يَجِلُّ لَكَ النِّسَاءُ﴾ المحرمات التسع المذكورة في سورة النساء<sup>٧</sup>.

عن الباقر عليه السلام، قال: «إِنَّمَا عَنِى بِهِ لَا يَجِلُّ لَكَ النِّسَاءُ اللَّاتِي حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ إِلَى آخِرِهَا، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا يَقُولُونَ كَانَ قَدْ أَحْلَ لَكُمْ مَا لَمْ يَجِلْ لَهُ، لِأَنَّ أَحَدَكُمْ يَسْتَبْدِلُ كُلَّمَا أَرَادَ، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَمَا يَقُولُونَ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَحْلَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَنْكِحَ مِنَ النِّسَاءِ مَا أَرَادَ إِلَّا مَا حَرَّمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ<sup>١</sup> وَمِثْلَهُ رَوَى عَنْ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَام<sup>٢</sup>.  
 وَقِيلَ: هَذِهِ الْآيَةُ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ: ﴿تُزْجَى مِنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءُ﴾<sup>٣</sup>.  
 وَعَنْ عَائِشَةَ: أَنَّهَا قَالَتْ: مَا فَارَقَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى حُلَّ لَهُ مَا أَرَادَ مِنَ النِّسَاءِ<sup>٤</sup>.  
 وَقِيلَ: إِنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا أَخْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ الْآيَةُ<sup>٥</sup> وَنُسِبَ ذَلِكَ إِلَى أَصْحَابِنَا.  
 ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عَاقِلًا﴾ مِنْ أَحْوَالِ خَلْقِهِ وَمَصَالِحِهِمْ ﴿رَقِيبًا﴾ وَمَحَافِظًا، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَغْفَلَ وَيَذْهَلَ عَنْهَا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ  
 نَظِيرِ بْنَِاءٍ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ  
 لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مَنْ  
 الْحَقُّ [٥٣]

ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَدَبَ عَشْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ عُمُومِ النَّاسِ وَخُصُوصِ أَزْوَاجِهِ، عَلَّمَ الْمُؤْمِنِينَ  
 أَدَبَ دُخُولِهِمْ فِي بَيْتِهِ، وَمَكَالِمَتِهِمْ أَزْوَاجَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ  
 وَخُجَرَاتِهِ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ﴾ وَيُعْلَنَ ﴿لَكُمْ﴾ وَتُدْعَوْنَ ﴿إِلَى طَعَامٍ﴾ وَغَدَاءٍ تَأْكُلُونَ  
 مِنْهُ، فَحِينَئِذٍ جَازَ لَكُمْ الدُّخُولُ، وَكَذَا لَا تَدْخُلُوهَا إِلَّا إِذَا كُنْتُمْ ﴿غَيْرَ نَظِيرِ بْنَِاءٍ﴾ وَحَالِ كُونِكُمْ غَيْرِ  
 مُنْتَظَرِينَ ﴿إِنَاءَةٍ﴾ وَوَقْتِهِ وَإِدَارِكِهِ.

رُؤْيُ أَنْ نَاسًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا يَنْتَظِرُونَ وَقْتَ طَعَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَدْخُلُونَ وَيَقْعُدُونَ إِلَى حِينَ  
 إِدْرَاكِهِ<sup>٦</sup>. وَعَلَيْهِ يَكُونُ النَّهْيُ عَنِ الدُّخُولِ بِغَيْرِ إِذْنٍ مُخْصِصًا بِالْإِخْلَافِ إِلَى طَعَامٍ، وَلِذَا قِيلَ: إِنَّ فِي  
 الْكَلَامِ تَقْدِيمًا وَتَأْخِيرًا، وَالْمَعْنَى: لَا تَدْخُلُوا إِلَى طَعَامٍ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ<sup>٧</sup>.  
 وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ عَدَمَ جَوَازِ الدُّخُولِ بِغَيْرِ إِذْنٍ مُخْصِصًا إِذَا كَانَ الدُّخُولُ لِلطَّعَامِ، وَيَكُونُ النَّهْيُ عَنِ

١. الكافي ٥: ٣٨٩/٤، تفسير الصافي ٤: ١٩٨.

٢. تفسير الرازي ٢٥: ٢٢٣، تفسير أبي السعود ٧: ١١١.

٣. الكافي ٥: ٣٨٩/٤، تفسير الصافي ٤: ١٩٨.

٤. تفسير أبي السعود ٧: ١١١.

٥. تفسير الرازي ٢٥: ٢٢٣، تفسير أبي السعود ٧: ١١١.

٦. تفسير الرازي ٢٥: ٢٢٤.

٧. تفسير روح البيان ٧: ٢١٣.

الدخول إلى الطعام من باب النهي عن قول ﴿أَفِ﴾ المستلزم للنهي عن الضرب<sup>١</sup>.  
عن الصادق عليه السلام: «كان جبرئيل إذا أتى رسول الله ﷺ قعد بين يديه قعدة العبد، وكان لا يدخل حتى يستأذن»<sup>٢</sup>.

ثم لما كان النهي عن الدخول بغير إذن ربما يوجب التأذي والقطع بحيث لا يدخل بعض المنافقين أصلاً ولو بالدعوة<sup>٣</sup>، أدرك إيجاب الدخول مع الدعوة بقوله: ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ﴾ إلى طعام ﴿فَادْخُلُوا﴾ وجوباً حفظاً لحرمة النبي ﷺ وطاعته ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ﴾ وأكلتم الغذاء ﴿فَانْتَشِرُوا﴾ وتفرقوا وأنتم غير ماكثين لدرك حظ حضور النبي ﷺ ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ﴾ بعضكم مع بعض ﴿لِحَدِيثٍ﴾ تتحدثون به ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الاستئناس بعد الأكل المستلزم لإطالة الجلوس ﴿كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ ويؤلم قلبه الشريف، لتضييق المنزل عليه وعلى أهله، واشتغاله فيما لا يعينه ﴿فَيَسْتَحْيِي﴾ ويتنعل ﴿مِنْكُمْ﴾ أن يقول لكم: قوموا وأخرجوا ﴿وَاللَّهُ﴾ يأمركم بالخروج من منزله، وينهاكم عن الاستئناس وإطالة الجلوس عنده، ﴿وَلَا يَسْتَحْيِي مِنْ﴾ قول ﴿الْحَقُّ﴾ ولا يرى على نفسه فيه عيباً. روى الفخر: أن بعض الصحابة أطال الجلوس والمكث يوم وليمة النبي ﷺ في عرس زينب بنت جحش، ولم يقل النبي ﷺ له شيئاً، فنزلت الآية<sup>٤</sup>. وقال القمي: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، وكان يُحبها، فأولم ودعا الصحابة، وكان أصحابه إذا أكلوا يحبون أن يتحدثوا عند رسول الله ﷺ وكان يحب أن يخلو، فأنزل الله عز وجل هذه الآية، وكانوا يدخلون عليه بلا إذن<sup>٥</sup>.

وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا [٥٣]

ثم بين الله أدب المكالمة مع أزواجه وطلب الماعون منهن عند الحاجة بقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ وطلبتن منهن ﴿مَتَاعًا﴾ وماعوناً تتفعون به ﴿فَسَأَلُوهُنَّ﴾ ذلك المتاع والماعون ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ وخلف الستر، فإن الصحابة قبل نزول الآية كانوا لا يبالون أن يدخلوا عليهن بغير حجاب، فنهى الله عنه وعلله بقوله: ﴿ذَلِكُمْ﴾ السؤال من وراء الحجاب ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾ من الخطورات

٢. علل الشرائع: ٢/٧، تفسير الصافي ٤: ١٩٩.

١. تفسير الرازي ٢٥: ٢٢٤.

٣. في النسخة: بالدعاء. ٤. تفسير الرازي ٢٥: ٢٢٥.

٥. تفسير القمي ٢: ١٩٥، تفسير الصافي ٤: ١٩٩.

النفسانية والهواجس الشيطانية ﴿وَقُلُوبُهُنَّ﴾ فَإِنَّ الرجل والمرأة إذا لم يَزْ أحدهما الآخر لم يقع في قلبه شيء، بخلاف ما إذا رأى، فإنه لا يؤمن أحدٌ على نفسه من الخواطر السيئة.

عن عائشة: أَنَّ أزواج النبي ﷺ كُنَّ يخرجن الليل لحاجتهنَّ، فخرجت سودة بنت زمعة ليلة من الليالي عشيًا، وكانت امرأةً طويلةً، فناداها عمر: ألا قد عرفناك يا سودة، فأنزل الله آية الحجاب<sup>١</sup>.

أقول: لا شبهة أن في ندائه هذا إيذاء النبي ﷺ، فنهى الله عنه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ يَصِحُّ ويستقيم ﴿لَكُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ بالتعرض لأزواجه في حياته ﴿وَلَا أَنْ تَنكِحُوا﴾ أو تنزوجهن ﴿أَزْوَاجَهُ﴾ اللاتي هن أمهاتكم ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ وبعد وفاته ﴿أَبْدًا﴾ وآخر الدهر، فإن في نكاحهن توهينه ﷺ، وإيذاء له، ومخالفةً لجعلهن أمهاتكم من غير فرق بين المدخول بها والمطلقة وغيرها، لصيرورتها بالعقد أمًا للمؤمنين.

وروى العامة أن سبب نزولها أن طلحة بن عبيد الله قال: لئن مات محمد لأتزوجن عائشة<sup>٢</sup>. وفي رواية قال: تزوج محمد بنات عمنا ويحجبهن عمنا والله لئن مات لأتزوجن عائشة<sup>٣</sup>، فنزل ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ المذكور من إيذائه وتزويج أزواجه ﴿كَانَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ذنباً عظيماً وإثمًا كبيراً لا أعظم منه ولا أكبر.

### إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا [٥٤]

ثم بالغ في التهديد عليهما بقوله: ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا﴾ وتظاهروا قصد نكاحهن وإيذاءه، وإيذاء أولاده وأقاربه الذي هو إيذاؤه ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ في صدوركم وتسرّوه في قلوبكم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مما تظهروه أو تخفوه ﴿عَلِيمًا﴾ وعليه مجازيكم.

والقمي قال: كان سبب نزولها أنه لما أنزل الله ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ وحرم الله نساء النبي ﷺ على المسلمين، غضب طلحة فقال: يحرم محمد علينا نساءه ويتزوج هو بنسائنا، لئن أمات الله محمدًا لتركضن بين خلاخيل نسائه كما ركض بين خلاخيل نسائنا، فأنزل الآية<sup>٤</sup>.

وفي رواية: لما قبض رسول الله، وولي الناس أبو بكر، أته العامرية والكندية، وهما مطلقتا رسول الله ﷺ قبل الدخول، وقد حطبتنا، فاجتمع أبو بكر وعمر وقالا لهما: اختارا إن شئتما الحجاب، وإن

٢. تفسير روح البيان ٧: ٢١٦.

٤. تفسير القمي ٢: ١٩٥، تفسير الصافي ٤: ١٩٩.

١. تفسير روح البيان ٧: ٢١٥.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٢١٦.

شتمنا الباه، فاختارتا الباه، ففترجنا، فحُذِم أحد الزوجين، وُجِّن الآخر<sup>١</sup>.  
وعن أبي جعفر عليه السلام، قال: «ما نهى الله عز وجل عن شيءٍ إلا وقد عَصِي فيه حتى لقد نكحوا أزواج رسول الله من بعده» وذكر العامرية والكندية، ثم قال: «لو سألتكم عن رجلٍ تزوج امرأةً فطلقها قبل أن يدخل، أتَحَل لابنه فقالوا: لا، فرسول الله أعظم حُرمةً من آبائهم»<sup>٢</sup>.  
وروي أن هذا الحكم جارٍ في الوصي أيضاً<sup>٣</sup>.

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أُنْثَاءَ إِخْوَانِهِمْ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِمْ وَلَا نِسَائِهِمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَأَتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً \* إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً [٥٦ و ٥٥]

ثم لما نهى الله عن سؤال الأزواج إلا من وراء الحجاب قال أباهن وأبناهن: أنحن كالأباعد؟ فنزلت: «لَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أُنْثَاءَ إِخْوَانِهِمْ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِمْ وَلَا نِسَائِهِمْ» والحرائر المؤمنات منهن «وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ» من إمانهن.  
ثم لتهيجهن على الطاعة خاطبهن بقوله: «وَأَتَّقِينَ اللَّهَ» فيما أمرتن به من الاحتجاب، ولا تتجرين على العصيان في الخلوات «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً» وعنده حاضراً وإليه ناظراً.  
ثم بالغ سبحانه في إكرام نبيه عليه السلام وتعظيمه بقوله: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ» في الملا الأعلى «يُصَلُّونَ» ويعطفون «عَلَى النَّبِيِّ» بالرحمة والثناء والتعظيم، وتعلية مقامه، وتشريفه بمزيد كرامته والدعاء والتسرة، وإنما بدأ سبحانه بنفسه إظهاراً لشرفه، وترغيباً للأمة إليها، فإنه إذا كان مصلياً عليه مع استغناؤه، كانت الأمة أولى به، لاحتياجهم إلى شفاعته، ولذا قال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» به أنتم أيضاً «صَلُّوا» واعطفوا «عَلَيْهِ» بالدعاء والتعظيم والثناء في الملا الأدنى «وَسَلِّمُوا» واتقادوا له، أو حيوةً بالسلام «تَسْلِيماً» مناسباً، لشرف منزلته، وعلو مقامه.  
قيل: إن تشريف الله محمداً عليه السلام بالصلاة عليه بقوله: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ» أشرف من تشريف آدم بالسجود<sup>٤</sup>.

١ و ٢. الكافي ٥: ٣٤٢١، تفسير الصافي ٤: ٢٠٠.

٣. مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٣٠٥، تفسير الصافي ٤: ٢٠٠.

٤. تفسير روح البيان ٧: ٢٢٣.

وقيل: إن الصلاة<sup>١</sup> على محمد ﷺ أفضل العبادات، لأن الله تعالى تولاها هو وملأته، ثم أمر بها المؤمنين، وسائر العبادات ليس كذلك<sup>٢</sup>، وفي الحديث: «أن الله ملكاً أعطاه سَمْعَ الخلائق، وهو قائم على قبري إذا مُتَّ إلى يوم القيامة، فليس أحدٌ من أمتي يصلِّي عليَّ صلاةً إلَّا قال: يا محمد، صلِّ عليك فلان كذا وكذا، ويصلِّي الربُّ على ذلك الرجل بكلِّ واحدةٍ عشرًا»<sup>٣</sup>.

وعن عبدالسلام بن نعيم<sup>٤</sup>، قال: قلت لأبي عبدالله: إني أدخل بيت الله ولا أعلم شيئاً إلَّا الصلاة على النبي ﷺ فقال: «أما إنَّه لم يخرج أحدٌ بأفضل ممَّا خرجتَ به»<sup>٥</sup>.

وعن كعب بن عُجرة، قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ قمنا إليه فقلنا: أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة عليك يا رسول الله؟ قال: قولوا: اللهم صلِّ على محمد وآل محمد، كما صلَّيتَ على إبراهيم وآل إبراهيم. إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وآل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد»<sup>٦</sup>.

والظاهر أنَّ المراد من التشبيه هو في الصلاة والبركة، لا في المقدار والكيفية، بل المقدار والكيفية بمقدار الفضيلة.

عن الصادق عليه السلام أنه سُئِلَ عن هذه الآية فقال: «الصلاة من الله رحمة، ومن الملائكة ترقية، ومن الناس الدعاء، وأما قوله: ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ يعني التسليم فيما ورد عنه».

قيل: فكيف نُصلِّي على محمد وآله؟ قال: «تقولون صلوات الله وصلوات ملائكته وأنبيائه ورسله وجميع خلقه على محمد وآل محمد، والسلام عليه وعليهم ورحمة الله وبركاته».

قيل: فما ثواب من صلَّى على النبي وآله بهذه الصلاة؟ قال: الخروج من الذنوب كهيشته يوم ولدته أمه»<sup>٧</sup>.

وعن الرضا عليه السلام في مجلسه مع المأمون، قال: «قد عَلِمَ المعاندون أنه لما نزلت هذه الآية قيل: يا رسول الله، قد عرفنا التسليم عليك، فكيف الصلاة عليك؟ فقال: تقولون: اللهم صلِّ على محمد وآل محمد، كما صلَّيتَ وباركتَ على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد» الخبر<sup>٨</sup>.

١. في النسخة: الصلوات.

٢. تفسير روح البيان ٧: ٢٢٤.

٣. في النسخة: عبدالله بن نعيم، تصحيف راجع: معجم رجال الحديث ١٠: ٢١.

٤. ثواب الأعمال: ١٥٥، بحار الأنوار ٩٤: ٣٤/٥٧.

٥. مجمع البيان ٨: ٥٧٩، تفسير روح البيان ٧: ٢٢٥.

٦. معاني الأخبار: ١٣٦٧، تفسير الصافي ٤: ٢٠١.

٧. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٢٣٦، تفسير الصافي ٤: ٢٠١.

وعن الباقر عليه السلام: «صل على النبي كلما ذكرته، أو ذكره ذاكر عندك، في أذان وغيره»<sup>١</sup>.

## إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا [٥٧]

ثم أنه تعالى أوضح فضيلة المكرمين لرسوله ﷺ والمسلمين له، وعلو مقامهم وكرامتهم عليه، ببيان سوء حال المؤذنين له بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ﴾ بترك طاعته ﴿وَهُ﴾ يؤذون ﴿رَسُولَهُ﴾ بتوهينه باللسان والجوارح، أو المراد يؤذون الله بإيذاء رسوله وإيذاء عترته وأولاده ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ وأبعدهم من رحمته ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ بحيث لا يكاد ينالون منها فيها شيئاً ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ مع ذلك في الآخرة ﴿عَذَابًا مُهِينًا﴾ لتوهينهم بالرسول ﷺ.

وقيل: إن اللعن بأزاء إيذاء الله، والعذاب بأزاء إيذاء الرسول<sup>٢</sup>.

القمي، قال: نزلت فيمن غصب أمير المؤمنين عليه السلام حقه، وأخذ حق فاطمة عليها السلام وأذاها، وقد قال رسول الله ﷺ: «من أذاها في حياتي كمن أذاها بعد موتي، ومن أذاها بعد موتي كمن أذاها في حياتي، ومن أذاها فقد أذاني، ومن أذاني فقد أذى الله» وهو قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾<sup>٣</sup>.

وعن علي عليه السلام، أنه قال وهو أخذ بشعره: «حدثني رسول الله ﷺ وهو أخذ بشعره، فقال: من أذى شعراً منك فقد أذاني، ومن أذاني فقد أذى الله، ومن أذى الله فعليه لعنة الله»<sup>٤</sup>.  
وعن الصادق عليه السلام، قال: «آخر رسول الله ﷺ ليلة من الليالي العشاء الآخرة ما شاء الله، فجاء عمر فدق الباب، فقال: يا رسول الله، نام النساء، نام الصبيان، فخرج رسول الله ﷺ فقال: ليس لكم أن تؤذوني ولا تأمروني، إنما عليكم أن تسمعوا وتطيعوا»<sup>٥</sup>.

## وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا [٥٨]

ثم أنه تعالى بعد تعظيم الرسول ﷺ بتقرين إيذائه بإيذاء ذاته المقدسة، عظم المؤمنين بتقرين إيذائهم بإيذاء رسوله بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إذا كان إيذاؤهم ﴿بِغَيْرِ مَا

١. من لا يحضره الفقيه ١: ٨٧٥/١٨٥، الكافي ٣: ٧/٣٠٣، تفسير الصافي ٤: ٢٠٢. ٢. تفسير الرازي ٢٥: ٢٢٨.

٣. تفسير القمي ٢: ١٩٦، تفسير الصافي ٤: ٢٠٢. ٤. مجمع البيان ٨: ٥٨٠، تفسير الصافي ٤: ٢٠٣.

٥. التهذيب ٢: ٨١/٢٨، تفسير الصافي ٤: ٢٠٣.



اَكْتَسَبُوا» وبلا جُرم وجناية موجبةً للقصاص والحدّ والتعزير ارتكبوا.

رُوي أَنَّ الزُّنَاةَ كانوا يَتَّبِعُونَ النساءَ إذا بَرَزْنَ بالليل لطلب الماء، أو لقضاء حوائجهنّ، وكانوا لا يتعرّضون إلّا للإماء، وربما يتعرّضون للحرائر أيضاً جهلاً أو تجاهلاً، لاتّحاد الكلّ في اللباس، حيث كانت تخرج الحرّة والأمة في درع وخمار<sup>١</sup>.

ورُوي أَنَّ المنافقين كانوا يُؤذون عليّاً عليه السلام ويُسَمِّعونَه ما لا خير فيه<sup>٢</sup> ﴿فَقَدْ اَحْتَمَلُوا﴾ واكتسبوا، أو جعلوا على ظهورهم ﴿بُهْتَانًا﴾ وافتراءً، ونسبة فعل القبيح إليهم كذباً ﴿وَإِثْمًا﴾ وذنباً ﴿مُتَّبِعِينَ﴾ وظاهراً.

وقيل: إِنَّ المراد بالبهتان عقوبته، وقيل: إِنَّه كناية عن الظلم، أو المعصية التي يكون عِظَمُهَا كِعِظَمِ معصية البهتان<sup>٣</sup>.

وقيل: إِنَّه كناية عن الإيذاء اللساني والقلبي، والإثم عن الإيذاء اليدي والعملي<sup>٤</sup>.

وعن القمي: يعني عليّاً وفاطمة عليها السلام وهي جارية في الناس كلّهم<sup>٥</sup>.

وفي الحديث القدسي: «من أذى ولياً لي، فقد بارزني بالمحاربة»<sup>٦</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين المؤذون لأوليائي؟ فيقوم قومٌ ليس على وجوههم لحمٌ، فيقال<sup>٧</sup>: هؤلاء الذين آذوا المؤمنين، ونصبوا لهم وعاندوهم، وعَنَواهم في دينهم، ثم يُؤمر بهم إلى جهنم»<sup>٨</sup>.

وعن الباقر عليه السلام: «الناس رجلان: مؤمن، وجاهل، فلا تُؤذوا المؤمن، ولا تجهل على الجاهل، فتكون مثله»<sup>٩</sup>.

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «من بهت مؤمناً أو مؤمنة، أقيم في طينة خَبال، أو يخرج ممّا قال»<sup>١٠</sup>.

وفي رواية: ما طينة خَبال؟ قال: «صديقٌ يخرج من فُروج الثومسات»<sup>١١</sup>.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ

١. تفسير أبي السعود ٧: ١١٥، تفسير روح البيان ٧: ٢٣٨.

٢. تفسير أبي السعود ٧: ١١٥، تفسير روح البيان ٧: ٢٣٨.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٢٣٩. ٤. تفسير الرازي ٢٥: ٢٣٠.

٥. تفسير القمي ٢: ١٩٦، تفسير الصافي ٤: ٢٠٣. ٦. تفسير روح البيان ٧: ٢٣٩.

٧. في النسخة: فمن. ٨. الكافي ٢: ٢٦٢، تفسير الصافي ٤: ٢٠٣.

٩. الخصال: ٥٧/٤٩، تفسير الصافي ٤: ٢٠٣. ١٠. تفسير القمي ٢: ١٩، تفسير الصافي ٤: ٢٠٣.

١١. الكافي ٢: ٢٦٦، تفسير الصافي ٤: ٢٠٣.

## جَلَالِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ يُعْرِفَنَّ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا [٥٩]

ثم لما كان من أنحاء إيذاء المؤمنين والمؤمنات تعرض المنافقين وأهل الفجور للمؤمنات في الطرق، وإيذاؤهن باحتمال أنهن من الإماء الزانيات، كما مر، أمر الله سبحانه النبي ﷺ بأن يأمرهن بالتحجب بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ﴾ اللاتي هن في حباله يكاحك ﴿وَبَنَاتِكَ﴾ وهن على ما قيل: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة عليهن السلام <sup>١</sup> ﴿وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بك في المدينة: إنهن ﴿يُذْنِبْنَ عَلَيْهِنَّ﴾ ويُقربن إليهن بعضاً ﴿مِنْ جَلَالِيبِهِنَّ﴾ وأثوابهن التي هي أوسع من الخمار، ويغطين بها وجوههن وأبدانهن حين الخروج من بيوتهن، ولا يخرجن مكشفات الوجوه كالإماء ﴿ذَلِكَ﴾ التغطّي وإدناء الجلباب ﴿أَذْنَىٰ﴾ وأقرب إلى ﴿أَنْ يُعْرِفَنَّ﴾ بالحرية والعفة، ويميزن من الإماء والفتيات اللاتي يكن مقصودات بالتعرض ومتوقّعات للزنا ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ أولئك المؤمنات من جهة أهل الفجور بالتعرض بهن في الطريق ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلف من التفريط وترك التستر ﴿رَحِيمًا﴾ وعطوفاً لعباده حيث يراعي راحتهم وصلاتهم في جميع أمورهم التي منها تعفّن نساءهم وحفظ نواويسهم، أو ذلك التنبيه أدنى أن يُعرّفن بالقدر والمنزلة عند الله، فلا يؤذین بالأطماع الفاسدة والأهواء الكاسدة والأقوال الكاذبة، وكان الله غفوراً لهن، وستوراً لذنوبهن، رحيماً بهن باعلاء درجاتهن في الآخرة.

لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ  
لَتُعْرِضَنَّ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا \* مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقَّفُوا أُخِذُوا  
وَقُتِلُوا تَفْتِيلًا \* سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ  
تَبْدِيلًا [٦٠-٦٢]

ثم هدّد سبحانه المنافقين المؤذنين للنبي ﷺ وأهل الفجور المؤذنين للمؤمنات والناشرين للأخبار الكاذبة الموحشة، أو المزورة بالمؤمنين بقوله: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ﴾ ولم يرتدع ﴿الْمُنَافِقُونَ﴾ عن إيذاء النبي ﷺ والمؤمنين ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ الشك والرغبة إلى الفجور عن التعرض لنساء المؤمنين ﴿وَالْمُرْجِفُونَ﴾ والمزّلزون لقلوب المسلمين بنشر الأخبار الكاذبة الموحشة ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ كالإخبار بانهمزام سرايا المسلمين وقتلهم وأسرههم، والإخبار بما فيه إزراء بالمؤمنين والمؤمنات، ونظائرها عما هم عليه من الأعمال والأقوال، والله ﴿لَتُعْرِضَنَّ بِهِمْ﴾ ولنهيجك إلى

قتالهم وإجلالهم، ولناْمُرْك بِأَخْذِهِمْ وَاسْتِنْصَالِهِمْ ﴿ثُمَّ﴾ بعد الإغراء ﴿لَا يَجَاوِزُوكَ﴾ ولا يُسَاكِنُوكَ ﴿فِيهَا﴾ في بلدك ﴿إِلَّا﴾ زماناً أو جِوَاراً ﴿قَلِيلاً﴾ يَتَهَيَّأُونَ فِيهِ لِلخُرُوجِ وَالْفِرَارِ، أَوْ يَتَبَيَّنُ فِيهِ حَالُهُمْ مِنَ الْإِنْتِهَاءِ وَعَدَمِهِ، وَهُمْ فِي حَالِ خُرُوجِهِمْ أَوْ فِي الزَّمَانِ الْقَلِيلِ الَّذِي يُجَاوِرُونَكَ يَكُونُونَ ﴿مُتَلَوِّينَ﴾ ومطرودين من رحمة الله، ومن جِوَارِكَ ﴿أَيْنَمَا﴾ وفي أيِّ مكان ﴿تُثْقِلُوا﴾ ووجِدُوا ﴿أُخْذُوا﴾ بالقهر ﴿وَقُتِّلُوا﴾ بالسيف ﴿تَقْتُلُوا﴾ فضيعاً مقروناً بالذلة والهوان، وليس ذلك الاغراء وما يتبعه بدعاً لكم، بل يكون ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ وعادته المستمرة ﴿فِي﴾ الأمم ﴿الَّذِينَ خَلَّوْا﴾ ومَضَوْا مِنَ الدُّنْيَا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وفي الأزمنة السابقة ﴿وَلَنْ تَجِدَ﴾ يا محمد ﴿لِسُنَّةِ اللَّهِ﴾ وعادته المستمرة من بدو خلق آدم إلى الآن ﴿تَبْدِيلًا﴾ وتغييراً، لكونها على أساس الحكمة التي يدور عليها فلك التكوين والتشريع، أو المراد أنه لا يقدِّر أحدٌ على تبديلها.

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً \* إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعيراً \* خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً \* يَوْمَ تُغْلَبُ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ \* وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا [٦٣-٦٨]

ثم لما كان ممَّا يؤذِي النَّبِيَّ ﷺ السُّؤَالَاتُ الْاسْتِهْزَائِيَّةُ التَّعْتِيَّةُ مِنْهُ، وَكَانَ مِنْهَا سُؤَالُ الْكُفَّارِ عَنْ وَقْتِ الْقِيَامَةِ اسْتِهْزَاءً وَتَعْتًا، حَكَاهُ سِيحَانُهُ تَوَطُّعًا لِهَيْدِهِ مُؤْذِيَهُ مِنَ الْكُفَّارِ يَقُولُ: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ﴾ وقت قيام ﴿السَّاعَةِ﴾ ومجيئ يوم القيامة.

قيل: كان المشركون يسألون عنه ويستعجلونه استهزاءً وتعْتًا، وأهل الكتاب امتحاناً، لعلمهم بخفائه من جميع الخلق<sup>١</sup>، فأمره الله بجوابهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، في جوابهم: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾ العلم بها ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وحده، لا يُطْلِعُ عَلَيْهَا أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ حَتَّى الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَمَلَائِكَتِهِ الْمُقَرَّبِينَ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ وأي شيء يُعْلِمُكَ بوقت قيامها غير الله؟ وقد أخفاه منك لحكمة بالغة، وليس من شرط النبي أن يعلم ما اقتضت الحكمة اختصاص علمه به تعالى.

ثم بيَّن احتمال قُرْبِهَا تَهْوِيلًا لَهُمْ بقوله: ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ﴾ شيئاً ﴿قَرِيبًا﴾ فلا تستعجلوه. رُوي أَنَّهُ إِذَا هَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ ﷺ، وَقَالَ: «تَخَوَّفْتُ السَّاعَةَ» وَقَالَ: «مَا أَمَدَ طَرْفِي وَلَا

أغمضه إلا وأظن الساعة قد قامت»<sup>١</sup> ولعل المراد من الساعة في الحديث الموت، فإنه الساعة الصغرى، كما روي «أن من مات فقد قامت قيامته»<sup>٢</sup>.

ثم ذم الكفار وأوعدهم بأشد العذاب بقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ» وأبعدهم من ساحة الرحمة في الدارين «وَأَعَدَّ» وهياً «لَهُمْ» في الآخرة «سَعِيرًا» وناراً موقدة حال كونهم «خَالِدِينَ» ومقيمين «فِيهَا أَبَدًا» دائماً، لأنهم لا يقدرون على الخروج منها و «لَا يَجِدُونَ» لأنفسهم «وَلِيًّا» ومحباً يشفع في نجاتهم «وَلَا نَصِيرًا» ومعيناً يخلصهم منها بقوته وقدرته، ويكون حالهم هذا «يَوْمَ تُقْلَبُ» وتصرف «وُجُوهُهُمْ» التي هي أشرف وأعز أعضائهم «فِي النَّارِ» من جهة إلى جهة كاللحم الذي يُراد أن يثوى في النار، أو المراد تتغير وجوههم من حال الحسن إلى حال القبح، ومن البياض إلى السواد.

ثم كأنه قيل: ما يقولون في تلك الحالة؟ فقال سبحانه: «يَقُولُونَ» تحسراً وتندماً: «يَا أَهْلَ النَّارِ لَيْتَنَّا» في الدنيا «أُطْعِمْنَا اللَّهَ» في أحكامه «وَأُطْعِمْنَا الرُّسُلَ» في أمره بالآيمان والتسيرة، فلن نبتي بذلك العذاب الشديد، ولا تنفعهم الندامة «وَقَالُوا» اعتذاراً من كفرهم وعصيانهم: «رَبَّنَا إِنَّا» لو خُلينا وأنفسنا لم نكن نكفر ونعصي بل «أُطْعِمْنَا سَادَتَنَا» وزُوساء أقوامنا «وَكُتِرَاءَنَا» وأشرافنا الذين أمرونا بالكفر والعصيان «فَأَصْلَحُوا السَّبِيلَ» وصرفونا عن طريق الحق ودين الاسلام بما زينوا لنا الشُّرك ومخالفة الرسول.

ثم كرروا النداء وقالوا: «رَبَّنَا» مبالغة في إجابة استدعائهم بقوله: «آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ» ومثلي ما آتيتنا «مِنَ الْعَذَابِ» لضلالتهم وإضلالهم «وَأَلْعَنَهُمْ» واطردهم من ساحة رحمتك «لَعْنًا كَبِيرًا» وطردها شديداً لا يتعقبه القرب والرجوع إليها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً [٦٩]

ثم نصح الله سبحانه المظهرين للاسلام ووعظهم بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» بمحمد ﷺ بالسُّتْم «لَا تَكُونُوا» في إيذاء رسولكم «كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى» من قومه الذين آمنوا به، كفارون وأتباعه وغيرهم من بني إسرائيل، حيث اتهموه بالزنى «فَبَرَّاهُ اللَّهُ» ونزَّهه «مِمَّا قَالُوا» ونسبوا إليه. روي أن قارون دفع إلى زانية مالا عظيماً على أن تقول على رأس الملائم من بني إسرائيل: إني حامل

من موسى على الزنى، فأظهر الله نزاهته عن ذلك، بأن أقرت الزانية بما كان بينها وبين قارون من التبايني والمصانعة<sup>١</sup>. ثم خسف الله بقارون الأرض بدعاء موسى وأمره.

وقيل: إن بني إسرائيل كانوا يغتسلون عُراً ينظر بعضهم إلى سواة بعض، وكان موسى ﷺ يغتسل وحده، ويتستر من الناس، فقالوا: إن اغتساله وحده ليس إلا لأجل البرص الذي في بدنه<sup>٢</sup>، أو لعب آخر، فذهب موسى يوماً ليغتسل، فوضع ثوبه على حجر، - قيل: إنه الحجر الذي انفجر منه الماء - فلما فرغ من غسله، وأراد أن يلبس ثوبه، فر الحجر بثوبه، فأسرع موسى خلفه عرياناً، وهو يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، فوقف الحجر عند بني إسرائيل، فنظروا إليه وقالوا: والله ما لموسى من بأس<sup>٣</sup>.

وعن الصادق ﷺ: «أن بني إسرائيل كانوا يقولون: ليس لموسى ما للرجال، وكان موسى ﷺ إذا أراد الاغتسال ذهب إلى موضع لا يراه فيه أحد من الناس، فكان يوماً يغتسل على شط نهر، وقد وضع ثيابه على صخرة، فأمر الله الصخرة فتباعدت عنه حتى نظر بنو إسرائيل إليه، فعلموا أن ليس كما قالوا، فأنزل الله الآية<sup>٤</sup>.

أقول: الظاهر أن الواقعة كانت قبل اطلاع بني إسرائيل على أنه ذا أهل وولد. وعنه ﷺ: «أن رضا الناس لا يُمَلِّك وألستهم لا تُظْبِط، ألم ينسبوا إلى موسى ﷺ أنه عتي، وآذوه حتى برأه الله مما قالوا<sup>٥</sup>.

«وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً» وروي أن موسى ﷺ خرج مع هارون إلى بعض الكهوف، فرأى هارون سريراً فنام عليه فمات، فلما عاد موسى ﷺ وليس معه هارون قال بنو إسرائيل: قتل موسى هارون حسداً له على محبة بني إسرائيل إياه، فقال موسى ﷺ: ويحكم كان أخي ووزيري أتروني أقتله؟ فلما أكثروا عليه قام فصلّى ركعتين، ثم دعا فنزل السرير الذي نام عليه فمات حتى نظروا إليه بين السماء والأرض فصدّقوا أن هارون مات فيه، فدفعه موسى، فقيل في حقه ما قيل، كما ذكر حتى انطلق موسى ببني إسرائيل إلى قبره، ودعا الله أن يحييه، فأحياه الله تعالى، وأخبرهم أنه مات، ولم يقتله موسى<sup>٦</sup>.

وعن أمير المؤمنين ﷺ: «أن موسى وهارون صعيدا الجبل، فمات هارون، فقالت بنو إسرائيل

٢. تفسير روح البيان ٧: ٢٤٦.

٤. تفسير القمي ٢: ١٩٧، تفسير الصافي ٤: ٢٠٥.

١. تفسير روح البيان ٧: ٢٤٦.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٢٤٦.

٥. أمالي الصدوق: ١٦٤/١٦٣، تفسير الصافي ٤: ٢٠٥.

٦. تفسير روح البيان ٧: ٢٤٧.

٢٠٠ ..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٥

لموسى عليه السلام: أنت قتلت، فأمر الله الملائكة فحملته حتى مرّوا به على بني اسرائيل، وتكلّمت الملائكة بموته حتى عرفوا أنّه مات، وبرّاه الله من ذلك<sup>١</sup>.

أقول: يمكن كون إيدانه بجميع الوجوه، وتبرّنه الله إياه من جميعها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً \* يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ  
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً [٧١ و ٧٠]

ثمّ بالغ سبحانه في نصّح المؤمنين بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ» في مخالفة أحكامه، وإيذاء رسوله والمؤمنين «وَقُولُوا» في حق رسولكم وإخوانكم المؤمنين وسائر الشؤون «قَوْلًا سَدِيداً» وكلاماً حقاً وصدقاً، ولا تحوّضوا في حديث جانِبٍ عن العدل والقصد، إذن «يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ» بالقبول والإثابة عليها، ويوفّقكم لما يُحبّه ويرضاه.

عن الصادق عليه السلام - في رواية - «اعلم أنّه لا يقبل الله منك شيئاً حتى تقول قولاً عدلاً»<sup>٢</sup>.

«وَيَغْفِرْ لَكُمْ» بإزاء استقامتكم في القول والفعل «ذُنُوبَكُمْ» العِظام، فإنّ الحسنات يُذهبن السيئات.

ثمّ بالغ في الحثّ على طاعته بقوله: «وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» في أوامرها ونواهيها «فَقَدْ فَازَ» في الدارين، ونال بأعلى المقاصد «فَوْزاً عَظِيماً» لا يتقادر قدره، ولا يتصوّر مثله من العزّ والكرامة والجنة والنعم الدائمة، والراحة الأبدية.

عن الصادق عليه السلام: «من يطيع الله ورسوله في ولاية علي والأئمة بعده، فقد فاز فوزاً عظيماً»<sup>٣</sup>.

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا  
وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً [٧٢]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان جملة من التكاليف والآداب والأخلاق، والأمر بالتقوى والقول السديد، والترغيب في طاعته، حثّ الناس على تحمّل مشاقّها ببيان عظمتها بقوله: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ» الواجبة الرعاية والحفظ، وهي على ما قيل تكاليفه وأحكامه<sup>٤</sup> «عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ» مع عظمتها وقوّتها بأن يجعلهنّ قابلات ومستعدّات لامثالها، على أن يشيّهنّ بطاعتها، ويعدّبهنّ على

١. مجمع البيان ٨: ٥٨٣، تفسير الصافي ٤: ٢٠٥. ٢. الكافي ٨: ١٠٧/٨١، تفسير الصافي ٤: ٢٠٦.

٣. تفسير الفمي ٢: ١٩٨، الكافي ١: ٣٤٢/٨، تفسير الصافي ٤: ٢٠٦.

٤. تفسير نور الثقلين ٤: ٣١٤، تفسير الرازي ٢٥: ٢٣٤.

مخالفتها ﴿فَأَيُّبِينَ﴾ وامتنعن ﴿أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾ ومن تَحْمِلُهَا، وقلن على ما قيل: يا رب، نحن مسخرات بأمرك، لا نريد ثواباً ولا عقاباً<sup>١</sup> ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ وخفن من العذاب المترتب على مخالفتها جهلاً بسعة الرحمة، وعدم الاعتماد بحفظه وتأييده تعالى، فإن لكل موجود عقلاً وإدراكاً على مرتبة وجوده ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ وقيل مشقة أداء حقها عند عرضها عليه.

وقيل: إن عرض الأمانة من باب الفرض والتمثيل، إيضاحاً لعظم شأن تلك الأمانة، والمعنى أن هاتيك الأجرام العظام التي هي مثل في الشدة والقوة، لو كانت ذات شعور وإدراك، وكُلفت بقبول تلك الأمانة ومراعاتها، لأبين من قبولها، وأشفقن منها، لغاية عظمة شأنها وتكلفتها، والتزم بها جنس الانسان مع ما فيه من ضعف البنية ورخاوة القوة<sup>٢</sup>.

﴿إِنَّهُ﴾ بالجبلة ﴿كَانَ ظَلُومًا﴾ وكثير التعدي على نفسه بارتكاب العصيان ﴿جَهُولًا﴾ بوخامة عاقبتها.

عن ابن مسعود، أنه قال: مثلت الأمانة كالصخرة الملقاة، ودُعيت السماوات والأرض والجبال إليها، فلم يَقْرَبُوا منها، وقالوا: لا نطيق حملها، وجاء آدم من غير أن دُعي وحرك الصخرة، وقال: لو أمرت بحملها لحملتها، فقلن له: احمل فحملها إلى رُكبتها، ثم وضعها وقال: لو أردت أن ازداد لزدت، فقلن له: احمل فحملها إلى حقوه، ثم وضعها وقال: لو أردت لزدت، فقلن له: أحمل فحملها حتى وضعها على عاتقه، فأراد أن يضعها، فقال الله: مكانك، فأنها في عُنُقك وعُتق دُرَيْتُكَ إلى يوم القيامة<sup>٣</sup>. وروى أن آدم قال: أحمل الأمانة بقوتي أم بالحق؟ فقيل: من يحملها يحمل بنا، فإن ما هو منا لا يُحْمَلُ إِلَّا بِنَا<sup>٤</sup>.

وروي أن علياً عليه السلام إذا حضر وقت الصلاة يتململ ويتزلزل ويتلون، فيقال له: مالك يا أمير المؤمنين؟ فيقول: «جاء وقت الصلاة، وقت أمانة عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها»<sup>٥</sup>.

وفي (النهج) في وصايا أمير المؤمنين عليه السلام للمسلمين: «ثم أداء الأمانة، فقد خاب من ليس أهلها، إنها عُرِضَتْ على السماوات المبنية، والأرض المدحجة، والمدحوة والجبال ذات الطول المنصوبة، فلا أطول ولا أعرض ولا أعلى ولا أعظم منها، ولو امتنع شيء ذو طول أو عرض أو قوة أو عز لا تمتنع،

١. تفسير البياضوي ٢: ٢٥٤، تفسير روح البيان ٧: ٢٥٢.

٢. تفسير أبي السعود ٧: ١١٨، تفسير روح البيان ٧: ٢٥٢.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٢٥٣.

٤. عوالي اللآلي ١: ٦٢/٣٢٤، تفسير الصافي ٤: ٢٠٨.

٥. تفسير روح البيان ٧: ٢٥٣.

ولكن أشفقن من العقوبة، وعَقَلْنَ ما جَهِلَ من هو أضعف مِنْهُنَّ، وهو الانسان، إِنَّه كان ظَلمواً جهولاً<sup>١</sup>.

وعن القمي رحمه الله: الأمانة هي الإمامة والأمر والنهي - إلى أن قال - فالأمانة هي الإمامة، عُرِضَتْ على السماوات والأرض والجبال ﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَخْلَعْنَهَا﴾ أَنْ يَدْعُوها، أو يَغْصِبوها من أهلها ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ يعني الأول ﴿إِنَّهَ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾<sup>٢</sup>.

وعن الصادق عليه السلام «الأمانة: الولاية، والانسان: أبو الشرور المنافق»<sup>٣</sup>.

أقول: ما ذُكِرَ في رواياتنا تأويلٌ قابلٌ للنقل، وقد ذكر كثيرٌ من العامة والخاصة لها تأويلات لا ينبغي نقلها، لكونها من غير الراسخين في العلم.

### لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً [٧٣]

ثم علل سبحانه العرض أو الحمل بقوله: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ الذين خانوا في الأمانة بعد قبولها ﴿وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ الذين عصوا ربهم برذها وعدم قبولها، كذا قيل<sup>٤</sup> ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ﴾ ويرجع بالرحمة وقبول التوبة ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ الذين قبلوا الأمانة وراعوها، واهتموا بحفظها، قيل: إن اللام لام العاقبة، والمعنى كان عاقبة العرض على الانسان<sup>٥</sup> - أو عاقبة حملها - تعذيب الخائنين وإثابة الحافظين.

وإنما ذُكِرَ قبول توبتهم للتنبية بأنهم لا يخلون من فَرَطات باقتضاء جِبِلَّتِهِمْ وتداركهم لها بالتوبة والإنابة، وذكر اسم الجليل أولاً للتهويل وتربية المهابة، وإعادتها في موضع الاضمار لاطهار مزيد الاعتناء بشأن المؤمنين وتفضيلهم.

ولما عبّر سبحانه عن تكاليفه بالأمانة، قدّم ذكر تعذيب المنافقين والمشرّكين إشعاراً بكون التعذيب من لوازم الخيانة في الأمانة دون الإثابة على الجُفَظ، فإنها بالإحسان والتفضل.

ثم لما وصف الانسان بكونه ظَلمواً جهولاً، وصف ذاته المقدّسة بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً﴾ وستوراً لظلم الظالمين من المؤمنين على أنفسهم بالعصيان ﴿رَحِيماً﴾ بالخاطئين والمسيئين بجهالة حيث يقبل توبتهم، ويُنَبِّههم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر بقلب أحد.

١. نهج البلاغة: ٣١٧ الخطبة ١٩٩، تفسير الصافي ٤: ٢٠٧.

٢. تفسير القمي ٢: ١٩٨، تفسير الصافي ٤: ٢٠٧. ٣. معاني الأخبار: ٢/١١٠، تفسير الصافي ٤: ٢٠٧.

٤. تفسير روح البيان ٧: ٢٥٦. ٥. تفسير أبي السعود ٧: ١١٨، تفسير روح البيان ٧: ٢٥٦.



عن أبي بن كعب: كانت سورة الأحزاب تُقارب سورة البقرة، أو أطول منها، ثم رُفِعَ [أكثرها] من الصدور وتُسَيِّخُ وبقي ما بقي<sup>١</sup>.

وفي الحديث: «من قرأ سورة الأحزاب وعلمها أهله وما مَلَكَت يمينه، أُعْطِيَ الأمان من عذاب القبر»<sup>٢</sup>.

عن الصادق عليه السلام: «من كان كثير القراءة لسورة الأحزاب، كان يوم القيامة في جِوارِ مُحَمَّدٍ وآله الأطهار وأزواجه»<sup>٣</sup>.

وفَقَّنا الله وجميع المؤمنين لإكثار تلاوتها، والتبرُّك والعمل بما فيها، بمحمد وآله الطيبين صلوات الله عليهم أجمعين.

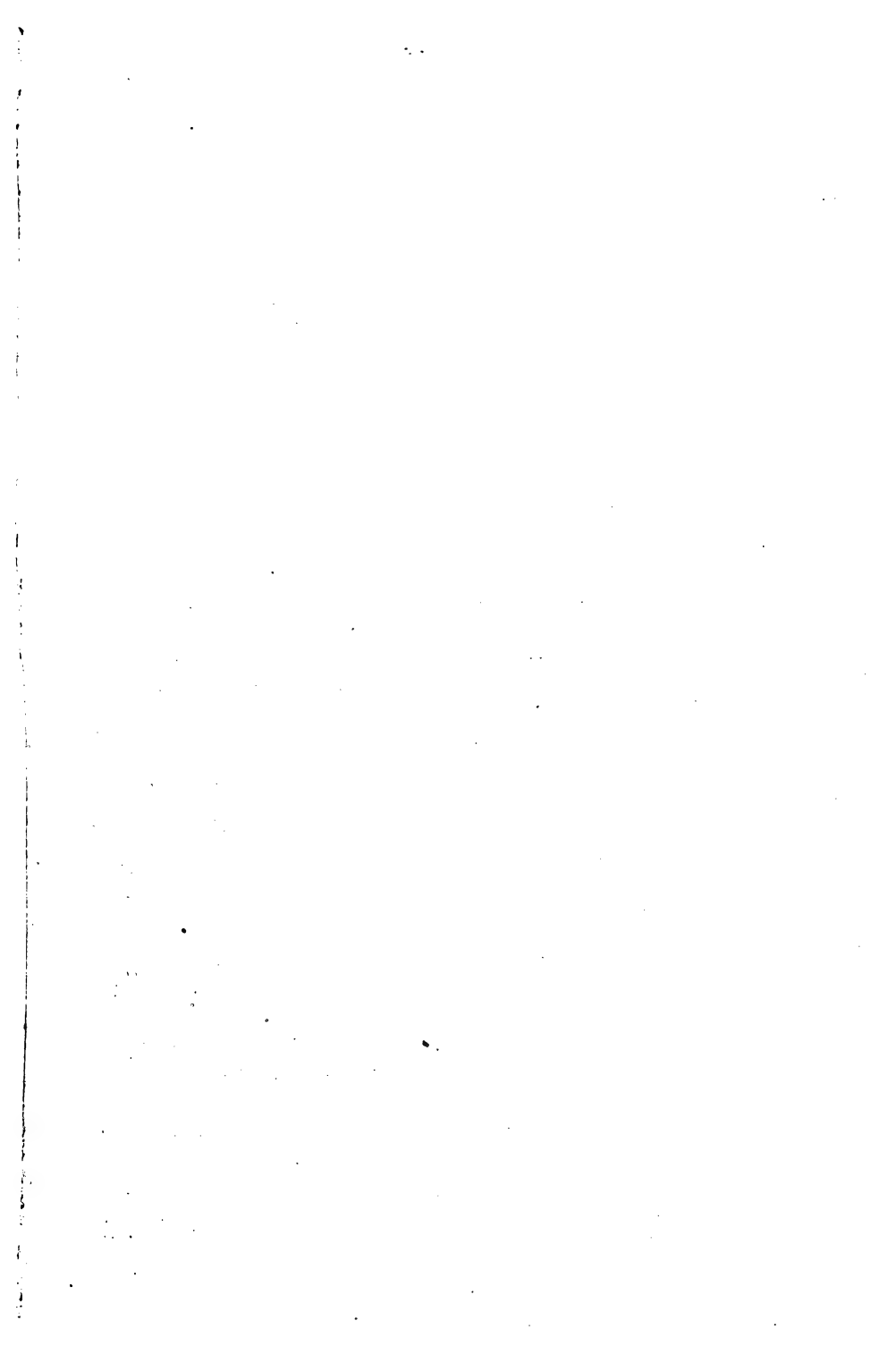
تم تفسير سورة الأحزاب بعون الله المَلِكِ الوَهَّاب، ونسأله التوفيق لتفسير مايتلوها.

---

١. تفسير روح البيان ٧: ٢٥٧، وهذه من الأخبار الباطلة التي تدلُّ على النقصان في الكتاب الكريم، وهو منزَّه عن كلِّ أنواع التحريف سواء بالزيادة أو النقص باجماع المسلمين، ومصون من يد التغيير بحفظ العزيز العلام.

٢. تفسير روح البيان ٧: ٢٥٧.

٣. ثواب الاعمال: ١١٠، مجمع البيان ٨: ٥٢٤، تفسير الصافي ٤: ٢٠٩.



## في تفسير سورة سبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ  
وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ \* يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ  
السَّمَاءِ وَمَا يَرْجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ [١-٢]

ثم لما ختمت سورة الأحزاب التي حكى الله في آخرها استهزاء الكفار بوعد القيامة، وذكر بغض أهوالها، وبين في أولها الولاية المطلقة للنبي ﷺ، وفي وسطها رسالته وخاتمته للأنبياء كافة، نظم بعدها سورة سبأ المبدوءة بدليل لزوم المعاد وإنكار الكفار وقوعه، المتوسطة باثبات رسالته إلى كافة الناس إلى يوم القيامة، فابتدأ بذكر الأسماء المباركات حسب دأبه تعالى بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم أثنى على ذاته المقدسة بقوله: ﴿الْحَمْدُ﴾ بجنسه وبجميع أنواعه وأفراده ﴿لَهُ﴾ وحده، ومختص بالواجب الوجود ﴿الَّذِي لَهُ﴾ بالملكية الإشراقية والإبداعية ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الملائكة والكواكب وغيرها ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الجن والإنس والحيوان والنبات والجبال والبحار والمعادن وغيرها من الموجودات التي خلقها الله لانتفاع الانسان في دينه ودنياه ومعاده ومعاشه، وإن لم يلزم كون الحمد على النعمة، لأنه الثناء على الجميل اختياري ﴿وَلَهُ﴾ تعالى وحده ﴿الْحَمْدُ فِي﴾ عالم ﴿الْآخِرَةِ﴾ الذي يكون بعد هذا العالم على قدرته وعدله وفضله ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ الذي خلق الأشياء على وفق المصلحة، ونظمها بأحسن نظام ﴿الْخَبِيرُ﴾ والعليم بجميع ذرات الكائنات وبواطنها وعواقبها.

ثم قرّر كمال علمه وخبريته وأوضحه بقوله ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾ ويدخل ﴿فِي﴾ مضائق ﴿الْأَرْضِ﴾ وخللها من المياه والكنوز والدافائن والأموات والأبخرة ونحوها ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من المياه والأبخرة والزرع والحشائش والمعادن والأموات حين البعث وغيرها ﴿وَهُوَ﴾ يعلم ﴿مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ المطر من الملائكة والكتب والأمطار والبركات ونظائرها ﴿وَمَا يَرْجُ﴾ ويصعد ويدخل

﴿فِيهَا﴾ من الملائكة والأعمال الصالحة والأدعية الخالصة وأمثالها ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ﴾ بالمطيعين و ﴿الْفَقُورُ﴾ للعاصين.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَغْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ \* لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ [٤ و ٣]

ثم أنه تعالى بعد توصيف نفسه بالقدرة والعلم الدالين على إمكان المعاد، والحكمة الدالة على وجوبه عليه، حكى إنكار المنكرين له بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جهلاً وعناداً: ﴿لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ قيل: إنه قال أبو سفيان وحلف باللات فأمر بردهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ الساعة البتة. ثم وصف نفسه بقوله: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ تنبيهاً بأنها من الغيوب التي لا يطلع عليها غيره، فإنه هو الذي ﴿لَا يَغْرُبُ﴾ ولا يغيب ﴿عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ وأصغر من شيء كان ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ مع سعتها ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ﴾ المثال والمقدار ﴿وَلَا أَكْبَرُ﴾ منه ﴿إِلَّا﴾ أنه مشهود ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ واللوح المحفوظ، وإنما يأتي الله بالساعة ويثبت الأشياء ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ في يوم الساعة على إيمانهم وأعمالهم وجزاء ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المؤمنون أن ﴿لَهُمْ﴾ بالاستحقاق ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ للذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ مكرم لا تعب فيه ولا مئة، فإن كمال الإنسان ليس إلا بالآيمان والعمل، وليس هذا العالم محل الجزاء عليهما، فلا بد من عالم آخر يجزي عليهما.

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رُجْزٍ أَلِيمٌ \* وَيَرَىٰ  
الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِينَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ  
الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ [٦ و ٥]

ثم أنه تعالى بعد ذكر حال المؤمنين، ذكر حال الكفار بقوله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا﴾ ومشوا سريعا ﴿فِي﴾ إبطال ﴿آيَاتِنَا﴾ القرآنية وأدلة التوحيد والمعاد والرسالة حال كونهم ظانين وزاعمين أنهم ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ لنا، وقادرين على الخروج من تحت قدرتنا بحيث نعجز عن تعذيبهم، أو معاجزين

للضعفاء عن الاستدلال بها ﴿أُولَئِكَ﴾ المسارعون بسبب جَدِّهم وسعيهم ذلك ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة عذاب كائن ﴿مِنْ﴾ جنس ﴿رَجَزٍ﴾ وسوء عذاب وشديده و ﴿أَلِيمٍ﴾ غايته.

ثم بين قوة إيمان أهل العلم، وعدم تأثير سعيهم وكيدهم في تثبيطهم عن الإيمان بقوله: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بالكتب السماوية وأحوال الأنبياء وبياناتهم بعين القلب ونور العلم. القمي: هو أمير المؤمنين عليه السلام<sup>١</sup> ﴿الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ﴾ من النبوة والقرآن والأحكام والحكم ﴿هُوَ﴾ بالخصوص ﴿الْحَقُّ﴾ الحقيق بالقبول ﴿وَيَهْدِي﴾ المصدقين له ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ودين الله الغالب المستحق للثناء والتمجيد، أو الله المنتقم من المكذبين، والشكور على المصدقين، ففي ذكر الوصفين ترهيب وترغيب.

وقيل: فيه ترغيب فقط، فإن سلوك صراط العزيز موجب للعز في الدارين، وقربه سبب للكرامة في الناشئين<sup>٢</sup>.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ \* أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ [٨ و ٧]

ثم أنه تعالى بعد ذكر إنكار الكفار وردهم بكونه مقدوراً له، وموافقاً للحكمة الملزمة، حكي سبحانه استهزاءهم بإخبار النبي صلى الله عليه وآله به، واستعجالهم منه بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعضهم لبعض استهزاء بالنبي صلى الله عليه وآله: يا قوم ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ﴾ يدعي النبوة والرسالة من الله و﴿يُنْبِئُكُمْ﴾ ويخبركم بأعجب الأعاجيب الذي لا يقول به عاقل وهو أنكم ﴿إِذَا﴾ مُتُّم و﴿مُرِّقْتُمْ﴾ وفترتم ﴿كُلَّ مُمَرِّقٍ﴾ و غاية التفرق بأن صرتم ثرباً ورفاتاً ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وشخّلون مرة أخرى، و تحيون حياة ثانية لا ندري ﴿أَفْتَرَى﴾ واختلق ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ في إخباره هذا ﴿كَذِباً﴾ واضحاً فظيحاً، إن قال ذلك مع شعور وقصد ﴿أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ ومرض زوال العقل، يؤهمه ذلك إن قال هذا القول من دون شعور وقصد.

ثم ردّهم الله بأن الأمر ليس كما زعموا، فإن محمداً صلى الله عليه وآله مبرأ من الافتراء والجنون ﴿بَلِ الَّذِينَ﴾ نسبوا أحد الأمرين إليه على سبيل منع الخلط أجهل الجهال وأسفه السفهاء، لأنهم بسبب أنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ولا يصدقون دار الجزاء واقعون ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ الشديد في الآخرة ﴿وَالضَّلَالِ﴾

والانحراف ﴿الْبَعِيد﴾ عن الحق والصواب في الدنيا، وهم لا يدركون حالهم في الدنيا ومآلهم في الآخرة، ولو كان لهم عقل وإدراك لفهموا حقيقة حالهم، ولما اجترءوا على إساءة مقالهم.

أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَأْنَهُمْ خَفِيفٌ  
بِهِمُ الْأَرْضُ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ \* وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ  
\* أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ  
\* وَلَسْلَيْمَانَ الْأَرْيَحَ عُدُوَّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ  
الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا تَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ  
السَّعِيرِ \* يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ

#### رَاسِيَاتٍ [٩-١٣]

ثم وبخهم سبحانه بعدم التفاتهم على كونهم محاطين بقدرة الله وفي قبضته الدال على توحيدهِ تعالى بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بحيث لا يقدرون على الفرار منها.

ثم هددهم بقوله: ﴿إِنْ نَشَأْ﴾ تعذيبهم على كفرهم وسوء مقالهم ﴿نَخْسِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ كما خسفناها بقارون ﴿أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا﴾ وقطعا من النار ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ كما أسقطنا على قوم شعيب لتكذيبهم الآيات بعد ظهور البيّنات ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ النظر والفكر فيهما وفي إحاطتهما بالخلق، أو ما ثلّي عليهم من الآية الناطقة بما ذكروا الله ﴿لَآيَةً﴾ ودلالة واضحة على التوحيد والمعاد، ولكن لا للقاسية قلوبهم، بل ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ رجاء إلى ربّه، فأنه إذا تأمل فيها ينزجر عن تعاطي القبيح من الشرك وإنكار المعاد.

ثم لما مدح العبد المنيب ذكر نعمه ولطفه على داود عليه السلام المشهور بالانابة بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ وأعطينا ﴿دَاوُدَ﴾ النبي ﴿مِنَّا فَضْلًا﴾ ومزية على أقرانه من الأنبياء والأولياء لكثرة إنابته، بأن قلنا للجبال التي في غاية الجمودة: ﴿يَا جِبَالُ أَوْبَى﴾ وسبحي مع داود، ورجعي بالتسبيح إذا سبح، أو سيري ﴿مَعَهُ وَ﴾ سخرنا له ﴿الطَّيْرَ﴾ مع غاية نفوره من الانسان، فكان الجبال والطير يسبحن إذا سبح داود عليه السلام بحيث يسمع الناس تسييحهما بلسان فصيح.

القمي لله، قال: كان داود إذا مرّ بالبراري يقرأ الزبور، وتسبح معه الجبال والطير والوحوش<sup>١</sup> ﴿وَأَلْنَا لَهُ﴾ كالشمع والعجين ﴿الْحَدِيدَ﴾ بحيث يصرفه في يده كيف يشاء من غير إحماء بنار، وقلنا له: ﴿أَنْ أَعْمَلَ﴾ واصنع منه ﴿سَابِغَاتٍ﴾ ودروعاً واسعة طويلة ﴿وَقَدْرَ﴾ واقتصد ﴿فِي السَّرْدِ﴾ ونظم الحلق ونسجها بحيث تناسبت وتساوت في الدقة والغلظ فلا تفتق ولا تخرق.  
عن الرضا عليه السلام: «الحلقة بعد الحلقة»<sup>٢</sup>. وقال القمي: المسامير التي في الحلقة<sup>٣</sup>.  
قيل: إنه عليه السلام أول من اخترع الدرع، وكان قبل ذلك صفائح حديد مضمومة<sup>٤</sup>.

رؤي أنه عليه السلام حين ملك بني إسرائيل كان يخرج متنكراً، فيسأل الناس ما يقولون في غيابه، فبعث الله ملكاً في صورة آدمي فسأله على عادته، فقال الملك: نعم الرجل داود، لولا خصلة فيه: فسأله عنها، فقال: إنه يأكل ويطعم عياله من بيت المال، ولو أكل من عمل يده لمت فضائله. فعند ذلك سأل الله أن يسبب له ما يستغني به عن بيت المال، فعلمه سبحانه صنعة الدرع، فكان يعمل في كل يوم درعاً ويبيعها بأربعة آلاف درهم، أو بستة آلاف، ينفق على نفسه وعياله ألفين، ويتصدق بالباقي على الفقراء<sup>٥</sup>.

وفي الحديث: «كان داود لا يأكل إلا من كسب يده»<sup>٦</sup>.

وقيل: إن المراد من التقدير في السرد أن لا يصرف جميع أوقاته فيه، بل يصرف مقدراً تحصل به القوة، ويصرف البقية في العبادة<sup>٧</sup>.

﴿و﴾ قلنا ﴿اعْمَلُوا﴾ يا داود وآله عملاً ﴿صَالِحاً﴾ خالصاً لله ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من العبادات ﴿بَصِيرٌ﴾ ومطلع، فأجازيكم عليها أحسن الجزاء.

﴿و﴾ سخرنا ﴿لِسُلَيْمَانَ﴾ بن داود ﴿الرَّيْحَ﴾ وهي الصبا على ما قيل<sup>٨</sup> ﴿عُدُوَهَا﴾ وسيرها من طلوع الشمس إلى الزوال ﴿شَهْرٌ﴾ ومقدار سير الراكب المسرع بين الهالين ﴿وَرَوَّاحَهَا﴾ وسيرها من الزوال إلى الغروب ﴿شَهْرٌ﴾ فكانت تسير في يوم واحد مسيرة شهرين للراكب.

القمي: كانت الريح تحمل كُرسي سليمان، فتسير به في الغداة مسيرة شهر، وبالعشي مسيرة شهر<sup>٩</sup>.  
﴿وَأَسَلْنَا﴾ وأجرينا ﴿لَهُ عَيْنَ الْقَظِيرِ﴾ والنحاس المذاب كالماء الجاري من العين، كما لنا لأبيه الحديد، فكان يصنع منه كلما أراد.

٢. قرب الإسناد: ١٣٠٥/٣٦٤، تفسير الصافي ٤: ٢١٢.

٤. تفسير روح البيان ٧: ٢٦٧.

٨. تفسير روح البيان ٧: ٢٦٩.

١. تفسير القمي ٢: ١٩٩، تفسير الصافي ٤: ٢١١.

٣. تفسير القمي ٢: ١٩٩، تفسير الصافي ٤: ٢١٢.

٥. ٧. تفسير روح البيان ٧: ٢٦٨.

٩. تفسير القمي ٢: ١٩٩، تفسير الصافي ٤: ٢١٢.

قيل: كان المَعْدِن باليمن<sup>١</sup>.

والقمي قال: عين الصُفْر<sup>٢</sup>.

﴿وَ﴾ كان ﴿مِنْ﴾ طائفة ﴿الْجِنَّ مَنْ يَفْعَلُ﴾ له أعمالاً عجيبة ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وفي منظره ومراءه ﴿يَأْذَنُ رَبِّهِ﴾ وأمره ﴿وَمَنْ يَزِغْ﴾ ويعيدل ﴿مِنْهُمْ عَنْ﴾ طاعة ﴿أَنْرِنَا﴾ إياه بطاعة سليمان، ويَعِلُّ إلى عصبانه ﴿تُذِقُهُ﴾ وتُطعمه ﴿مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ والنار الموقدة في الآخرة، أو في الدنيا.

قيل: كان معه مَلَك بيده سَوط من نار، كلما استعصى عليه جَنَى ضربه من حيث لا يراه ضربة فأحرقته بالنار<sup>٣</sup>.

وكان الجن ﴿يَفْعَلُونَ﴾ لسليمان ويصنعون ﴿لَهُ﴾ بأمره ﴿مَا يَشَاءُ﴾ ويريد ﴿مِنْ مَّخَارِبَ﴾ وقصورٍ وغُرَفٍ عاليةٍ ومساكن شريفةٍ ﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ وصورٍ مجسمةٍ من صور الملائكة والأنبياء والوحوش والطيور والأشجار وغيرها.

عن الصادق عليه السلام قال: «والله ما هي تماثيل الرجال والنساء، ولكنها الشجر وشبهه»<sup>٤</sup>.

﴿وَجَفَّانَ﴾ وأوانٍ كبيرةٍ ﴿كَالْجَوَابِ﴾ والجياض الكبار ﴿وَقُدُورٍ﴾ وظُروفٍ من النحاس أو الحجارة يُطْبَخُ فيها اللحم ﴿رَأْسِيَّاتٍ﴾ وثابتات على الأثافي، لا تنزل منها لعظمها، ولا تَحْرُكُ من أماكنها، بل يُضَعَدُ عليها بالسلاسل.

أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ \* فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ [١٣ و ١٤]

ثم لما ذكر نعمه الخاصة على سليمان عليه السلام، طلب منه العبادة والشكر بقوله: ﴿أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ﴾ لله واعبدوه، لأجل أن يكون عملكم ﴿شُكْرًا﴾ له تعالى على نعمه، أو المراد اشكروا لله شكرًا، أو افعلوا شكرًا ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورِ﴾ المجدد في أداء حق نعمه بالقلب واللسان والجوارح، وإن لم يمكن الخروج عن عهدة شكر نعمه، لأنَّ توفيق الشكر نعمة عظيمة يجب شكرها.

ثم لما ذكر عظمة ملك سليمان وسلطانه، ذكر نعمته عليه بعد موته بإقامة جسده معتمدًا على عصاه، ليتم أغراضه، وتبه على أن أحداً لا ينجو من الموت بقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾

١. تفسير روح البيان ٧: ٢٧١.

٢. تفسير القمي ٢: ١٩٩، تفسير الصافي ٤: ٢١٢.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٢٧٢.

٤. الكافي ٦: ٥٢٧، مجمع البيان ٨: ٦٠٠، تفسير الصافي ٤: ٢١٢.



وحكمنا بزهاق<sup>١</sup> روحه من جسده ومات، بقي معتمداً على عصاه مدةً مديدة، لكيلا تتوانى جنوده من الجن والإنس في ما كلفهم من الأعمال المقصودة له.

ثم ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ﴾ وما عرفهم به ﴿إِلَّا﴾ الأرض التي هي ﴿ذَابَتْهُ الْأَرْضُ﴾ وحشرات التي تأكل الخشب، فكانت ﴿تَأْكُلُ مِنْسَأَتُهُ﴾ وعصاه ﴿فَلَمَّا﴾ انكسرت و ﴿حَزَّ﴾ وسقط سليمان عليه السلام على الأرض ميتاً ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ﴾ و ظهرت لهم ﴿أَن لَّوْكَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ﴾ لَعَلِمُوا بموت سليمان حينه و ﴿مَا لَبِثُوا﴾ وما مكثوا بعد موته مدةً مديدة ﴿فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ والأعمال الشاقة التي كانوا يعملونها له بتسخيره وبأمره.

وقيل: يعني تبينت للإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب إلى آخره<sup>٢</sup>، فإن الإنس لما رأوا أن الجن يعلمون ما لا يعلمه الإنس، ظنوا أنهم يعلمون الغيب، فظهر بظهور جهلهم بموت سليمان عليه السلام خطأ الإنس في ذلك الظن.

قيل: إنه لما دنا أجل سليمان عليه السلام لم يُصبح إلا ورأى في محرابه شجرةً نابتة<sup>٣</sup>، فكان يسألها من خواصها فتخبره بها، وهو يُخبر الأطباء بها، ثم إنه رأى في محرابه يوماً حشيشاً خشباً رطباً، فسأله عن اسمه وخاصيته، فقال: أما اسمي فخرتوب<sup>٤</sup>، وأما خاصيتي فتخريب البيوت، فإني في أي بيت أثبت يخرّب ذلك البيت، فعلم سليمان عليه السلام أنه قد دنا أجله.

ثم أنه لاقى ملك الموت، فقال له: أخبرني بوقت موتي، فجاء يوماً وقال: لم يبق من عمرك إلا ساعة، فأوص بما شئت، فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب، فقام يصلي، واجتمعت الشياطين حوله، ولم يكن شيطان ينظر إليه في صلاته إلا احترق، فقبض عزرائيل روحه الشريف، فبقي جسده قائماً متكئاً على عصاه سنةً، ولم يعلم أحد بموته، ولا يُنكرون عدم خروجه لطول صلاته قبل ذلك، فلما أكلت الأرض عصاه، سقط على الأرض، فمرّ شيطان به، فلم يسمع صوته، ثم رجع فلم يسمع صوته، ثم نظر فاذا هو قد خر ميتاً، ففتحوا عنه، فاذا العصا قد أكلتها الأرض، فأرادوا أن يعرفوا وقت موته فوضعوا الأرض على العصا، فأكلت منها في يومٍ وليلةٍ مقداراً، فحسبوا على ذلك النحو، فوجدوه قد مات منذ سنة، وكانوا يعملون بين يديه بظن أنه كان حياً.

ثم أن الشياطين قالوا للأرض: لو كنت تأكلين الطعام أتيناك بأطيبه، ولو كنت تشربين الشراب أسقينك من أطيبه، ولكن ننقل إليك الماء والطين، فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت، ألم تر إلى

١. كذا، والصواب: زهوق.

٢. مجمع البيان ٨: ٦٠١، تفسير روح البيان ٧: ٢٧٨.

٤. كذا، ولعله خرنوب، أو خزوب.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٢٧٨.

الطين الذي يكون في جوف الخشب، فهو ما يأتيها الشياطين تشكراً لها<sup>١</sup>.

عن الصادق عليه السلام: «أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَى إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ آيَةَ مَوْتِكَ أَنْ شَجَرَةً تَخْرُجَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ يُقَالُ لَهَا الْخَرْنُوبَةُ، فَنَظَرَ سُلَيْمَانُ يَوْماً فَإِذَا الشَّجَرَةُ الْخَرْنُوبَةُ قَدْ طَلَعَتْ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَقَالَ لَهَا: مَا اسْمُكَ؟ قَالَتْ: الْخَرْنُوبَةُ، فَوَلَّى سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُدْبِراً إِلَى مَحْرَابِهِ، فَقَامَ فِيهِ مُتَكِّئاً عَلَى عَصَاهُ»<sup>٢</sup>.

وعن الباقر عليه السلام: «أَمَرَ سُلَيْمَانُ الْجِنَّ فَوَضَعُوا لَهُ قُبَّةً مِنْ قَوَارِيرٍ، فَبَيْنَمَا هُوَ مُتَكِّئٌ عَلَى عَصَاهُ فِي الْقُبَّةِ يَنْظُرُ إِلَى الْجِنِّ كَيْفَ يَعْمَلُونَ، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، إِذْ حَانَتْ مِنْهُ الثَّغَاةُ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ مَعَهُ فِي الْقُبَّةِ، فَفَرَعَ مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا الَّذِي لَا أَقْبِلُ الرُّشَاءَ، وَلَا أَهَابُ الْمُلُوكَ، أَنَا مُلْكُ الْمَوْتِ، فَقَبِضْهُ وَهُوَ مُتَكِّئٌ عَلَى عَصَاهُ فِي الْقُبَّةِ، وَالْجِنُّ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَمَكَّنُوا سَنَةً يَذَابُونَ لَهُ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ الْأَرْضَ فَأَكَلَتْ مِيسَاتَهُ، وَهِيَ الْعَصَا ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتْ الْجِنُّ﴾ الْآيَةُ»<sup>٣</sup>.

قال: «فَالْجِنُّ تَشْكُرُ الْأَرْضَ بِمَا عَمِلَتْ بِعَصَا سُلَيْمَانَ، فَمَا تَكَادُ تَرَاهَا فِي مَكَانٍ إِلَّا وَعِنْدَهَا مَاءٌ وَطِينٌ»<sup>٤</sup>.

وقال القمي: فلما خَرَّ لوجهه تبَيَّنَتِ الْإِنْسُ أَنَّ الْجِنَّ لو كانوا يعلمون، إلى آخره، وذلك أَنَّ الْإِنْسَ كانوا يقولون إِنَّ الْجِنَّ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ، فَلَمَّا سَقَطَ سُلَيْمَانُ عَلَى وَجْهِهِ، عَلِمُوا أَنَّ لَوْ يَعْلَمُ الْجِنُّ الْغَيْبَ لَمْ يَعْمَلُوا سَنَةً لِسُلَيْمَانَ وَهُوَ مَيِّتٌ، وَيَتَوَهَّمُونَهُ حَيًّا<sup>٥</sup>.

وعن الرضا عن أبيه عليه السلام: «أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ لِأَصْحَابِهِ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَهَبَ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي: سَحَرُ لِي الرِّيحَ وَالْإِنْسَ وَالْجِنَّ وَالطَّيْرَ وَالْوَحْشَ، وَعَلَّمَنِي مَنْطِقَ الطَّيْرِ، وَأَتَانِي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَعَ جَمِيعِ مَا أُوتِيتُ مِنَ الْمُلْكِ مَا تَمَّ لِي سُرُورُ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ، وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَدْخُلَ قَصْرِي فَأَصْعِدَ أَعْلَاهُ، وَأَنْظُرَ إِلَى مَمَالِكِي، وَلَا تَأْذَنُوا لِأَحَدٍ عَلَيَّ لَثَلَا يُنْقَضَ عَلَيَّ يَوْمِي. قَالُوا: نَعَمْ.

فلما كان من الغد، أخذ عصاه بيده، وصعد إلى أعلى موضع من قصره، ووقف متكئاً على عصاه ينظر إلى ممالكه مسروراً بما أُوتِي، فرحاً بما أُعْطِيَ، إذ نظر إلى شابٍّ حسن الوجه واللباس، قد خرج إليه من بعض زوايا قصره، فلما بصر به قال له: من أدخلك إلى هذا القصر، وقد أردت أن أدخل فيه

١. الكافي ٨: ١٤٤/١١٤، تفسير الصافي ٤: ٢١٣.

٢. علل الشرائع: ٣/٧٤، تفسير الصافي ٤: ٢١٣.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٢٧٩.

٤. علل الشرائع: ٣/٧٤، تفسير الصافي ٤: ٢١٣.

٥. تفسير القمي ٢: ٢٠٠، تفسير الصافي ٤: ٢١٣.

اليوم، فبإذن من دخلت؟ قال الشاب: أدخلني هذا القصر ربّه، وبإذنه دخلت. فقال: ربّه أحقّ به مني، فمن أنت؟ قال: أنا ملك الموت. قال: فيما جئت؟ قال: جئت لأقبض روحك. قال: امض لما أمرت به، فهذا يوم سروري، وأبى الله عزّ وجلّ أن يكون لي سرور دون لقائه.

فقبض ملك الموت روحه وهو مُتكيّ على عصاه، فبقي سليمان عليه السلام متكئاً على عصاه وهو ميت ما شاء [الله] والناس ينظرون إليه، ويُقدّرون أنّه حيّ، فافتتنوا فيه واختلفوا، فمنهم من قال: قد بقي سليمان متكئاً على عصاه هذه الأيام الكثيرة لم يتعب ولم يَئَم، ولم يأكل ولم يشرب، إنّ له ربّاً الذي يجب علينا أن نعبده. وقال قوم: إنّهُ ساحرٌ، وإنّه يُرينا أنّه واقفٌ مُتكيّ على عصاه بسحر أعيننا - إلى أن قال -: فلما اختلفوا بعث الله عزّ وجلّ الأرضة، فذبت في عصاه، فلما أكلت جوفها انكسرت، وخزّ سليمان من قصره<sup>١</sup>. الخبر<sup>٢</sup>.

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «أنّه عاش سليمان سبعمئة واثنى عشرة سنة»<sup>٣</sup>.

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جِئَتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ  
وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ \* فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ  
وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ \*  
ذَلِكَ جَزَاءُهمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ [١٥-١٧]

ثمّ لما ذكر سبحانه لطفه بالمُنيّين الشاكرين، ذكر نقمته على الكافرين بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ وهم قبيلة في اليمن يُدعون باسم أبيهم سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

عن النبي صلى الله عليه وآله: «أنّ سبأ رجلٌ من العرب، ولد عشرة» الخبر<sup>٣</sup>.

﴿فِي مَسْكِنِهِمْ﴾ ومحلّ إقامتهم، وهو مدينة مأرب باليمن، بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ﴿آيَةٌ﴾ عظمى، ودلالة واضحة على وجود الصانع الحكيم اللطيف بعباده، وهي جنان كثيرة متصلة بعضها ببعض بحيث تُعدّ ﴿جِئَتَانِ﴾ أحدهما ﴿عَنْ يَمِينٍ﴾ من المدينة ﴿و﴾ الأخرى عن ﴿شِمَالٍ﴾ منها. وقيل: يعني لكلّ مسكنٍ ودار جِئَتَانِ عن يمينها وشمالها<sup>٤</sup>.

وقال لهم ربهم بلسان نبيهم أو بلسان الحال: يا قبيلة سبأ ﴿كُلُوا﴾ وانتفعوا ﴿مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ ونعمه

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٤/٢٦٥، علل الشرائع: ٢/٧٣، تفسير الصافي ٤: ٢١٤.

٢. كمال الدين: ٣/٥٢٤، تفسير الصافي ٤: ٢١٥. ٣. مجمع البيان ٨: ٦٠٤، تفسير الصافي ٤: ٢١٥.

٤. تفسير أبي السعود ٧: ١٢٧، تفسير روح البيان ٧: ٢٨١.

﴿وَأَشْكُرُوا لَهُ﴾ على رزقكم، فإن لكم مضافاً إلى أنواع الثَّمار ﴿بِلَذَّةٍ طَيِّبَةٍ﴾ من حيث الهواء والماء والأمان من الأعداء والمؤذيات، تعيشون فيها في الدنيا ﴿وَرَبَّ عَقُورٍ﴾ لذنوبكم في الآخرة ﴿فَأَعْرِضُوا﴾ عن آياتنا، ولم يعتنوا بها، وعن شكر نعمنا، فلم يؤدوا حقها بالقيام بالطاعة ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ وأجرينا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وعلى بساينهم وأموالهم ﴿سَيْلَ الْغَرَمِ﴾ والشديد. قيل: إن الغرم اسم وادٍ جاء منه السيل، كما عن ابن عباس. أو قيل: إنه اسم السد الذي يحبس الماء بُلغة جَمِير<sup>١</sup>. وقيل: هو اسم الجرد الذَّكر الذي أرسله الله، فنقب عليهم ذلك السد<sup>٢</sup>.

قيل: إنه كان مسكن أولاد سبأ في حوالي بلدة مأرب بين الجبلين، طوله ثمانية عشر فرسخاً، وكان لا يأتهم الماء من مسيرة عشرة أيام حتى يجري بين الجبلين، فجعلت بلقيس سداً بين الجبلين من الأحجار والقار، كي تجتمع فيه مياه الأمطار والعيون، وجعلت له ثقباً في أعلاه ووسطه وأسفله، فإذا امتلأ السد فتحوا الثقب العالية، وسقوا مزارعهم وبساينهم، وإذا توسطه الماء فتحوا الثقب المتوسطة وهكذا، فبعث الله ثلاثة عشر نبياً إلى ثلاث عشرة قرية من قُرهم، فدعاهم إلى الإيمان والطاعة، وذكروهم نعم الله، وخوفوهم عذابه، فكذبوهم وقالوا: ما نعرف له علينا من نعمة، فقولوا لربكم فليحبس عنا هذه النعمة إن استطاع، فأرسل الله الجرد، فخرَّبوا السد، فجاءهم السيل الذي لا يُطاق، وملاً ما بين الجبلين، وحمل الجنات وكثيراً من الناس، وأغرق أموالهم ومواشيهم<sup>٣</sup>.

القمي قال: إن البحر كان باليمن، وكان سليمان أمر جنوده أن يُجربوا لهم خليجاً من البحر العذب إلى بلاد الهند، ففعلوا ذلك، وعقدوا عقدة عظيمة من الصخر والكلس حتى يفيض على بلادهم، وجعلوا للخليج مجاري، فكانوا إذا أرادوا أن يُرسلوا منه الماء أرسلوه بقدر ما يحتاجون إليه، وكانت لهم جتان عن يمين وشمال من مسيرة عشرة أيام، فيها يَمُرُّ المارُّ لا تقع عليه الشمس من التفافهما، فلما عَمِلُوا بالمعاصي وَعَتَوْا عن أمر ربهم، ونهاهم الصالحون فلم ينتهوا، بعث الله عز وجل على ذلك السدَّ الجرد - وهي الفأرة الكبيرة - فكانت تقلع الصخرة التي لا تسفلها الرجال، وترمي بها، فلما رأى ذلك قومٌ منهم هربوا وتركوا البلاد، فما زال الجرد يقلع الحجر حتى خرَّبوا ذلك [السدَّ] فلم يشعروا حتى غشيهم السيل، وخرَّب بلادهم، وقلع أشجارهم، وهو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ إلى قوله: ﴿سَيْلَ الْغَرَمِ﴾ أي العظيم الشديد<sup>٤</sup>.

﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ﴾ وعوضناهم ﴿بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ اللتين كانتا عن اليمين والشمال، وذاتي أشجارٍ مثمرة نافعة

٢. تفسير أبي السعود ٧: ١٢٨.

٤. تفسير القمي ٢: ٢٠٠، تفسير الصافي ٤: ٢١٥.

١. تفسير روح البيان ٧: ٢٨٣.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٢٨٣.

﴿حَتِّينِ﴾ آخرين ﴿ذَوَانِي أُنْكُلِ﴾ وثمر ﴿خَمَطٍ وَ﴾ مَرَّ، وشجر ﴿وَأَثْلٍ﴾ يقال له طَرْفَاء، ولا ثمر له ﴿وَشَيْءٍ مِنْ شَجَرٍ﴾ سِدْرٍ قَلِيلٍ.

قيل: توصيف السدر بالقِلَّة، لكون ثمره - وهو البُتْبُ - مما يطيب أكله.<sup>١</sup>

وقيل: إنَّ السدر صنفان: صنف يؤكل من ثمره ويُنْتَفَع بورقه لغسل اليد، وصنف له ثمرة عَفْصَة لا تؤكل أصلاً، وهو البري الذي يقال له الضالَّ، والمراد ها هنا هو الثاني، فكان شجرهم من خير شجرٍ، فصيره الله من شرِّ شجرٍ بسبب أعمالهم القبيحة.<sup>٢</sup>

﴿ذَلِكَ﴾ التبديل، أو الجزاء الفضيع ﴿جَزَيْنَاهُمْ﴾ لا جزاء آخر ﴿بِمَا كَفَرُوا﴾ نعمتنا وبسبب تركهم شكرها، أو بسبب كفرهم بالله ورسله ﴿وَهَلْ تُجَازِي﴾ بسلب النعمة ووضع ضدها مكانها ﴿إِلَّا الْكُفُورَ﴾ والمُصْرَ في ترك الشكر، لا والله لا تُجَازِي به غيره.

وقيل: كلمة (هل) هنا للنفي.<sup>٣</sup>

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ  
سِيرُوا فِيهَا لِيَأْتِيُوا وَيَأْتَا أَمِينٌ \* فَقَالُوا زَيْنًا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا  
أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ  
صَبَّارٍ شَكُورٍ [١٨ و ١٩]

ثم أنه تعالى بعد ذكر النعم التي كانت لهم في بلادهم وكُفْرانها، ذَكَرَ النعمة الخارجة وكُفْرانهم بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ وأوجدنا مضافاً إلى ما آتيناهم من النعم في مساكنهم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وفي المسافة التي بين بلادهم اليمنية ﴿وَبَيْنَ الْقُرَى﴾ والبلاد الشامية ﴿الَّتِي بَارَكْنَا﴾ وأكثرنا النعم ﴿فِيهَا﴾ بالمياه الكثيرة، والأشجار المثمرة، والخضب والسعة في المعيشة للأغنياء والفقراء، كِفْلَسْطِينَ وأريحا والأردن.

والقمي، قال: هي مكة.<sup>٤</sup>

﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ ومتواصلة يُرى بعضها من بعض.

قيل: كان بين سبأ والشام أربعة آلاف وسبعمائة قرية<sup>٥</sup>، أو ظاهرة للمسافر بكونها على الطريق غير

١. تفسير البضاوي ٢: ٢٥٩، تفسير روح البيان ٧: ٢٨٤.

٢. تفسير روح البيان ٧: ٢٨٤.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٢٨٤.

٤. تفسير القمي ٢: ٢٠١، تفسير الصافي ٤: ٢١٦.

٥. تفسير روح البيان ٧: ٢٨٥.

بعيدة عنه حتى تخفى عليه ﴿وَقَدَرْنَا﴾ في تلك القرى وعيناً ﴿فِيهَا﴾ للمسافر ﴿السَّيْرُ﴾ والسلوك في الأرض مقداراً من المسافة يليق بحال عابري السبيل.

قيل: كان الغادي ثقيل في الأخرى، والرائح منها يبيت في أخرى إلى أن يبلغ الشام، لا يحتاج إلى حمل زاد وماء، نعمة عليهم في سفرهم<sup>١</sup>.

وقلنا له بلسان الحال أو المقال: يا أولاد سبأ ﴿سَيِّرُوا﴾ في تلك القرى، وسافروا ﴿فِيهَا﴾ لمصالحكم، وإن تناولت مدة سفركم ﴿لَيَالِي وَأَيَّامًا﴾ كثيرة حال كونكم ﴿آمِنِينَ﴾ من الأعداء واللصوص والسباع بسبب كثرة الخلق، ومن الجوع والعطش بسبب عِمارة المواضع، أو المراد سببها فيها متى شئتم من الليالي والأيام لا يختلف الأمن فيها باختلاف الأوقات، فبَطَر أولاد سبأ النعمة، وسَمُوا طيب العيش ﴿فَقَالُوا﴾ طلباً للتعب: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ﴾ منازل ﴿أَسْفَارِنَا﴾ بتخريب القرى وجعلها مفاوز، ليركبوا فيها، ويحملوا الزاد، ويتناولوا على الفقراء ﴿وَوَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بتعريضها للسُّخَط والعذاب بالشُّرْك.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ وقصتهم أخباراً دائرة على ألسن الناس، وعظة وعبرة لمن بعدهم إلى يوم القيامة ﴿وَمَزَقْنَاهُمْ﴾ وفرقناهم في الأرض ﴿كُلَّ مُمَرِّقٍ﴾ وغاية التفريق بحيث يُضْرَب به المثل، ويقال: تفرقوا أيدي سبأ، فإنهم كانوا قبائل ولدهم سبأ، ولم يبق أحد منهم في مأرب، بل سكن غُصَّان في الشام، وقُضاعة في مكة، وأسد في البحرين، وأنمار في يَثْرِب، وجُذام بتهامة، والأزد في عمان ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التفريق والله ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمة ودلالات واضحة وعبراً كثيرة وحججاً قاطعة على وحدانية الله وقدرته، وغضبه على الكافرين، وإنما تكون فائدتها ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ ومبالغ في حفظ النفس عن المعاصي و﴿شَكُورٍ﴾ ومُجِدِّ في أداء حق نعم الله، وهو المؤمن الكامل في الإيمان المجتهد في عبادة الرحمن.

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ \* وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْثِقُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ [٢٠ و ٢١]

ثم أنه تعالى بعد بيان كُفْران أولاد سبأ وطغيانهم، وتعذيبهم بسلب النعم، بين أنها بتسويل الشيطان بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ﴾ وحقق وأظهر ﴿إِبْلِيسُ﴾ مطابقة ما ﴿ظَنَّهُ﴾ وزعمه في حق

أولاد آدم من كونهم يغفون بإغوانه للواقع حيث دعاهم إلى الشرك والعصيان فأجابوه، وأمرهم بها ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ وأطاعوه ﴿إِلَّا قَرِيقًا مِّنْ﴾ فرق ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم المخلصون منهم.

وقيل: إن (من) بيانية<sup>١</sup> والمراد إلّا فرقة المؤمنين.

وقيل: ظنّه أنه ناري و آدم طيني، والنار تأكل الطين<sup>٢</sup>. أو ظنّه أن بني آدم مُفسِدون في الأرض<sup>٣</sup>.

وقيل: إنّه ظنّ أنه يقدّر على إغواء بني آدم فلمّا زين له الكفر والمعاصي، وقبِلوا منه واتبَعوه، وجاهدوا كما ظنّ فيهم<sup>٤</sup>.

ثمّ بيّن سبحانه أن إبليس ما قهرهم على العصيان بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ﴾ شيء ﴿مِّنْ سُلْطَانٍ﴾ وقهر بحيث يسلب عنهم الاختيار، وإنّما كان سلطنته عليهم بالسوسة والإغواء، ولم نجعل له هذه السلطنة ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ ونميّز ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ﴾ ويخاف عقابنا ﴿يَمَنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ ولا يؤمن بها ولا يخاف من حسابها.

قيل: إنّ المراد بحصول العلم وجود متعلّقه<sup>٥</sup> ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من خصوصيات خلقه وأحوالهم وبواطنهم وظواهرهم ﴿حَفِيطٌ﴾ ومُطَّلَع لا تخفى عليه خافية حتى يحتاج إلى الاستعلام.

عن الباقر عليه السلام، قال: «كان تأويل هذه الآية أنّه لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله، والظن من إبليس حين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله: إنّهُ ينطق عن الهوى، فظنّ بهم إبليس ظنّاً، فصدّقوا ظنّه»<sup>٦</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: «لما أمر الله نبيّه صلى الله عليه وآله أن ينصب أمير المؤمنين عليه السلام للناس في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾<sup>٧</sup> في عليّ بغدير خمّ، فقال: من كنت مولاه فعليّ مولاه، فجاءت الأبالة إلى إبليس الأكبر وحثوا التراب على رؤوسهم، فقال لهم إبليس: ما لكم؟ قالوا: إنّ هذا الرجل قد عقد اليوم عقدة لا يتحلّها شيء إلى يوم القيامة. فقال لهم إبليس: كلا، إنّ الذين حوله قد وعدوني فيه عدة لن يخلفوني، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾<sup>٨</sup>.

قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ \* وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ

١. تفسير أبي السعود ٧: ١٣٠، تفسير روح البيان ٧: ٢٨٧.

٢. تفسير روح البيان ٧: ٢٨٨. ٣. تفسير أبي السعود ٧: ١٣٠.

٤. تفسير روح البيان ٧: ٢٨٨. ٥. تفسير أبي السعود ٧: ١٣١.

٦. الكافي ٨: ٥٤٢/٣٤٥، تفسير الصافي ٤: ٢١٨. ٧. المائدة: ٦٧/٥.

٨. تفسير الفمي ٢: ٢٠١، تفسير الصافي ٤: ٢١٨.

عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ إِذْنٌ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ  
قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ [٢٢ و ٢٣]

ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ سِجَانَهُ وَخَامَةَ عَاقِبَةِ الشُّرْكِ وَالْكَفْرَانِ، أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ بِإِبْطَالِ مَذْهَبِ الشُّرْكِ، وَتَبْكِيتِ الْمَشْرِكِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ، لِلْمَشْرِكِينَ تَهْكَمًا ﴿أَذْعُوا﴾ وَنَادُوا الْأَصْنَامَ ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ وَتَوَهَّمْتُمْ أَنَّهُمْ آلِهَةٌ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وَعَبَدْتُمُوهُمْ فِيمَا يَهْتَمُّكُمْ مِنْ جَلْبِ نَفْعٍ أَوْ دَفْعِ ضَرٍّ حَتَّى يُجِيبُوكُمْ، كَلَّا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِقْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَنَفْعٍ وَضَرٍّ لَا ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ السَّبْعِ ﴿وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وَلَيْسَ لَهُمْ تَصَرُّفٌ فِيهَا ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهَا﴾ خَلْقًا وَمَلَكًا وَتَصَرُّفًا ﴿مِنْ شِرْكِكُمْ﴾ وَدَخَلَ ﴿وَمَا لَهُ﴾ تَعَالَى ﴿مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ وَعَوْنٍ كِي يَغْجَزَ عَنْ إِنْغَازِ إِرَادَتِهِ عِنْدَ تَرْكِهِمُ الْمَعَاوَةَ، فَإِنْ تَوَقَّعُونَ شَفَاعَتَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ فَاعْمَلُوا أَنَّهُ لَا تَفِيدَ ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ مِنْ أَحَدٍ لِأَحَدٍ ﴿عِنْدَهُ إِلَّا﴾ إِذَا كَانَتْ ﴿لِمَنْ إِذْنٌ لَهُ﴾ فِي الشَّفَاعَةِ ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ﴾ وَأُزِيلَ الْخَوْفُ ﴿عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ بِالْإِذْنِ لَهُمْ فِي الشَّفَاعَةِ، قَامَ الْمَذْنُوبُونَ الْمُنْتَظَرُونَ لَشَفَاعَتِهِمْ وَ﴿قَالُوا﴾ لَهُمْ: أَيُّهَا الشُّفَعَاءُ ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ وَأَيُّ شَيْءٍ أَوْحَى إِلَيْكُمْ فِي شَأْنِ الشَّفَاعَةِ فَأَجَابَهُمُ الشُّفَعَاءُ وَ﴿قَالُوا﴾: قَالَ رَبُّنَا الْقَوْلَ ﴿الْحَقُّ﴾ وَهُوَ الْإِذْنُ فِي شَفَاعَةِ الْمَذْنُوبِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ دُونَ غَيْرِهِمْ ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ وَالْعَظِيمُ سُلْطَانًا، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ أَشْرَافِ الْخَلَائِقِ أَنْ يَتَكَلَّمَ إِلَّا بِإِذْنِهِ.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْفَرْعِ: الْفَرْعُ الَّذِي عِنْدَ الْوَحْيِ، فَإِنَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ يَفْزَعُونَ عِنْدَ نَزُولِ الْوَحْيِ، ثُمَّ يَزِيلُ اللَّهُ عَنْهُمْ الْفَرْعَ، فَيَقُولُونَ لَجَبْرِئِيلَ: مَاذَا قَالَ اللَّهُ؟ فَيَقُولُ: قَالَ الْحَقُّ، أَيُّ الْوَحْيِ.<sup>١</sup>  
عَنِ الْبَاقِرِ ﷺ: «وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ لَمْ يَسْمَعُوا [وَحْيًا] فِيمَا بَيْنَ أَنْ بُعِثَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ ﷺ إِلَى أَنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَلَمَّا بُعِثَ اللَّهُ جَبْرِئِيلَ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ سَمِعَ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ صَوْتَ وَحْيِ الْقُرْآنِ كَوَقْعِ الْحَدِيدِ عَلَى الصَّفَا، فَصَعِقَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنَ الْوَحْيِ انْحَدَرَ جَبْرِئِيلُ، كُلَّمَا مَرَّ بِأَهْلِ سَمَاءٍ فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ».<sup>٢</sup>  
وقيل: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُزِيلُ الْفَرْعَ عَنِ الْقُلُوبِ وَقْتُ الْمَوْتِ، فَيَعْتَرِفُ كُلُّ أَحَدٍ بِأَنَّ مَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْحَقُّ، فَيَنْفَعُ ذَلِكَ الْقَوْلَ مِنْ سَبْقِ ذَلِكَ مِنْهُ فِي حَيَاتِهِ.<sup>٣</sup>

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ الْفَرْعَ مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ، لِأَنَّ الْوَحْيَ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ أَشْرَاطِهَا، فَإِذَا أَوْحَى إِلَيْهِ فُزِّعَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ حَتَّى إِذَا أُزِيلَ الْفَرْعُ مِنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا لَجَبْرِئِيلَ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟<sup>٤</sup>

٢. تفسير القمي ٢: ٢٠٢، تفسير الصافي ٤: ٢١٩.

٤. تفسير الرازي ٢٥: ٢٥٥.

١. تفسير الرازي ٢٥: ٢٥٥.

٣. تفسير الرازي ٢٥: ٢٥٥.



قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ  
 فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ \* قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ \* قُلْ  
 يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ [٢٤-٢٦]

ثم قرّر سبحانه عدم مالكية الأصنام شيئاً بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، تبيكيتاً للمشرّكين: أيها المشركون  
 ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ﴾ بإنزال الأمطار ﴿وَالْأَرْضِ﴾ باخراج النباتات ولا تنتظر الجواب منهم،  
 و﴿قُلْ﴾ يرزقكم ﴿اللَّهُ﴾ لأنهم لا ينكرونه بقلوبهم، وإن لم يقرّوا باللسان خوفاً من الإلزام، ثم دارهم  
 في المجادلة، ولا تشبههم إلى الضلال بالصراحة، بل قل: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ مُرْكَبٍ هُدًى﴾  
 ورشاد، نسير به إلى المقصد الأعلى ﴿أَوْ﴾ منعم ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ وانحراف ﴿مُبِينٍ﴾ وواضح عن  
 الحق.

ثم بالغ في الإنصاف والمداواة معهم ﴿قُلْ﴾ أنتم أيها المشركون ﴿لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرَمْنَا﴾ ولا  
 تؤاخذون بذنوبنا ﴿و﴾ نحن ﴿لَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من عمل سوء، وفي نسبة الاجرام إلى نفسه  
 واتباعه والعمل إلى الخصم، حطّ النفس، وحفظ الخصم عن التعصّب المانع عن النظر مع كون  
 الجملتين باعنتين إليه.

ثم أمر سبحانه بالمبالغة في الحقّ على النظر والتفكر بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: اعلّموا أنّه  
 ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ وبينكم يوم القيامة ﴿رَبُّنَا﴾ حين الحشر للحساب ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾ ويحكم ﴿بَيْنَنَا﴾  
 وبينكم ﴿بِالْحَقِّ﴾ بعد ظهور حال كلّ منا ومنكم، بأن يدخل المحقّقين الجنة، والمبطلين النار، فإن الله  
 أعلم بالحقّ والباطل ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ بما يحقّ أن يحكم به، وبمن يحكم له ومن يحكم عليه،  
 كما أنّه عليهم بغيرها من الأمور.

قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْغَزِيْرُ الْحَكِيمُ \* وَمَا  
 أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [٢٧ و٢٨]

ثم أنّه تعالى بعد إثبات عجز الأصنام عن أن يضرّوا أو ينفعوا، بيّن عدم وجود كمال فيها يوجب  
 استحقاقها العبادة<sup>١</sup> بقوله: ﴿قُلْ﴾ أيها المشركون ﴿أَرُونِي﴾ الأصنام ﴿الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ﴾ إليّهم ﴿بِهِ﴾  
 تعالى من حيث كونهم ﴿شُرَكَاءَ﴾ له تعالى في الألوهية، لأنظر بأيّ صفة ألحقتموهم بالله الذي ليس  
 كمثله شيء، وجعلتموهم شركاء له، هل يخلّقون أو يرزقون؟ ﴿كَلَّا﴾ ليس لهم ما يجب أن يكون في

الإله والمعبود ﴿بَلْ﴾ المعبود بالحق والإله المستحق للعبادة ﴿هُوَ اللَّهُ الْغَزِيْرُ الْحَكِيْمُ﴾ والغالب القاهر، والعالم بجميع الأمور، فأين شركاؤكم التي هي أخس الأنبياء وأذلها من هذه المرتبة العالية ودرجة الألوهية.

ثم أنه تعالى بعد إبطال الشرك وإثبات التوحيد، بين صدق رسالة الرسول إلى عامة الناس بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد برسالة ﴿إِلَّا﴾ رسالة تكون ﴿كَافَّةً﴾ وعامة أو شاملة ﴿لِلنَّاسِ﴾ كلهم إلى يوم القيامة، أو المراد ما أرسلناك في حال من الأحوال إلا حال كونك جامعاً لهم في التبليغ بحيث لا يخرج منهم أحد، كما في الحديث: «فُضِّلَتْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بَسَتْ - إِلَى أَنْ قَالَ -: وَأَرْسَلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَةً»<sup>١</sup>.

وعن السجادة عليه السلام: «أَنْ أَبَا طَالِبٍ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا بَنَ أَخٍ، إِلَى النَّاسِ كَافَةً أُرْسِلْتَ، أَمْ إِلَى قَوْمِكَ خَاصَّةً؟ قَالَ: لَا، بَلْ إِلَى النَّاسِ أُرْسِلْتَ كَافَةً، الْأَبْيَضَ وَالْأَسْوَدَ، وَالْعَرَبِيَّ وَالْعَجَمِيَّ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَدْعُوَنَّ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ الْأَبْيَضَ وَالْأَسْوَدَ، وَمَنْ عَلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ، وَمَنْ فِي لُجَجِ الْبَحَارِ»<sup>٢</sup>.  
وعن الصادق عليه السلام: «أَنَّ اللَّهَ أَعْطَى مُحَمَّدًا شِرَاعَ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى - إِلَى أَنْ قَالَ -: وَأَرْسَلَهُ كَافَةً إِلَى الْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدَ، وَالْحَنَ وَالْإِنْسِ»<sup>٣</sup>. ﴿بَشِيرًا﴾ للمؤمنين بالثواب ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين بالعقاب ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ لغفلتهم وإنهم آكلهم في الشهوات وتركهم النظر في دلائل صدق محمد ﷺ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ منصبه الرفيع، وعظم نعمة رسالته حتى يؤمنوا به، ويشكروا هذه النعمة، فيحملهم الجهل على مخالفته وعصيانه.

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْذِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغْنِيُونَ \* وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ مُؤْمِنِينَ \* قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنْتُمْ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ \* وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا

٢. تفسير الصافي ٤: ٢٢٠.

١. تفسير روح البيان ٧: ٢٩٤ و ٢٩٥.

٣. الكافي ٢: ١١/١٤، تفسير الصافي ٤: ٢٢٠.

رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا  
يَعْمَلُونَ [٢٩-٣٣]

ثم أردف سبحانه ذكر الرسالة بذكر المعاد الذي هو الأصل الثالث بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ من فَرَطَ جهلهم بطريق الاستهزاء: يا محمد، ويا أتباعه، أنتم تعدوننا بمجيء القيامة، فقولوا ﴿مَتَى﴾ وفي أي وقت يكون إنجاز ﴿هَذَا الْوَعْدِ﴾ ووقوعه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيه؟ ﴿قُلْ﴾ يا محمد، تهديداً لهم: اعملوا أيها المنكرون للمعاد أن ﴿لَكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ﴾ عظيم، ووعده وقت شديد كثير الأحوال ﴿لَا تَسْتَخْرِجُونَّ﴾ ذلك الموعود عن ذلك الوقت، ولا تُقَدِّرون على تعويقه ﴿عَنهُ سَاعَةٌ﴾ ودقيقة ﴿وَلَا تَسْتَفْتِدُونَ﴾ عليه.

ثم حكى عنهم إنكار جميع أصول الدين من التوحيد والرسالة والمعاد، وجميع أحكام الله بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عناداً وطغياناً: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ الذي يدعي محمد أنه من الله، ولا بما فيه من الأصول والفروع ﴿وَلَا بِالَّذِي﴾ نزل ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وقبله.

ثم لما يأسوا النبي ﷺ من إيمانهم، وعده سبحانه بأنهم في القيامة في أذل أحوال الموقوفين للحساب بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يا محمد، أو أيها العاقل ﴿إِذْ﴾ الكفار ﴿الظَّالِمُونَ﴾ على أنفسهم بإنكار المعاد ﴿مَوْقُوفُونَ﴾ ومَحْبُوسُونَ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وفي موقف حساب أعمالهم ﴿يَزْجَعُ﴾ ويزد ﴿بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ آخر منهم ﴿الْقَوْلُ﴾ ويجادل كل مع غيره، لعجبت مما ترى.

ثم كأنه قيل: ما يقولون فقال سبحانه: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا﴾ واستحققوا من السفلة ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وتعظموا عن عبادة الله والانقياد للأنبياء، لرناستهم وكثرة أموالهم: أيها الرؤساء ﴿لَوْ لَا أَتَيْنَاكُمْ﴾ وصدكم لنا عن الإيمان ﴿لَكُنَّا﴾ والله في الدنيا ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ بالله ورأسه ﴿قَالَ﴾ الرؤساء ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وتأنفوا عن الإيمان والتبعية للرسول ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا﴾ إنكاراً لقولهم ورداً عليهم: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ﴾ ومنعناكم ﴿عَنِ﴾ قبول ﴿الْهُدَى﴾ والإيمان ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ﴾ الهدى ومقتضيه من الرسول والكتاب والمعجزات، لا والله ﴿بَلْ كُنْتُمْ﴾ لخبث ذاتكم وانهماككم في الشهوات ﴿مُجْرِمِينَ﴾ وطاغين ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾: نعم، أنتم صددتمونا عن الهدى، ولكن لا بالاجبار والقهر ﴿بَلْ مَكْرُكُمْ﴾ في ﴿الَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وحيلكم في صرفنا عن اتباع الحق، صدنا عنه ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا﴾ وثرغبونا ﴿أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ﴾ تعالى ﴿أَنْدَاداً﴾ وشركاء. ثم كلا الفريقين أضمرنا ﴿وَأَسْرَوْا﴾ وأخفوا في قلوبهم ﴿الْتَدَامَةَ﴾ والخرسة على ما فعلا من الضلال والاضلال، خوفاً من التعيير، أو عجزاً عن الاظهار ﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ﴾ من النار ﴿فِي أَغْنَاكِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالحق من التوحيد والرسالة والمعاد في الدنيا من المتبوعين والتابعين لكفرهم ﴿هَلْ يُخْزَوْنَ إِلَّا﴾ جزاء ﴿مَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي، لا والله لا يُخْزَوْنَ إِلَّا بِعَمَلِهِمْ.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ \*  
وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ \* قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ  
لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [٣٦-٣٤]

ثم لما يأسوا النبي ﷺ من إيمانهم بقولهم: (لن نؤمن) أبدأ (بهذا القرآن) سلى سبحانه نبيه ﷺ بذكر عدم إيمان التابعين للهوى والمحبين للدنيا بالرسول في الأعصار السابقة أيضاً بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾ وبلدة ﴿مِنْ﴾ نبي ﴿نَذِيرٍ﴾ للناس ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ وَمُتْعَمُوها وروساؤها تكبراً وعناداً للذُّر: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ بزعمكم من التوحيد والمعاد والأحكام ﴿كَافِرُونَ﴾، ومُنْكَرُونَ، هذه سيرة أغنياء جميع الأمم المتبوعين للفقراء والسفلة، فلا يَهْتَكُ إنكار أكابر قومك رسالتك، بل لم يقنعوا بالإنكار، واستدلوا على بطلان دعوى رسالتهم ﴿وَقَالُوا نَحْنُ﴾ أحب إلى الله منكم لأننا ﴿أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ منكم في الدنيا، وهذه علامة حُبِّه لنا ﴿وَمَا نَحْنُ﴾ في الآخرة على تقدير وقوعها ﴿بِمُعَذِّبِينَ﴾ لأن من أكرمه الله في الدنيا لا يهينه في الآخرة، أو لأنه لا عذاب في الآخرة لأحد.

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بردهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ﴾ وَيُوسِعُ ﴿الرِّزْقَ﴾ في الدنيا ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ بسطه وتوسعته له، مؤمناً كان أو كافراً ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ويضيق على من يشاء تقديره وتضييقه عليه من مؤمنٍ أو كافرٍ حسب اقتضاء حكمته البالغة، فليس بسطه دليلاً على قرب المبسوط له منه، وتضييقه دليلاً على بُعد من قَدَّرَ عليه عنه، فإنَّ القرب والبعد والثواب والعقاب منوطان بالإيمان والكفر والطاعة والعصيان، كما في الحديث: «الدنيا عرضٌ حاضرٌ ينال منها البرّ والفاجر، والآخرة وعدٌّ صادقٌ يحكم فيها ملكٌ قاهر»<sup>١</sup>. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ الذين هم أهل الغفلة والخذلان ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فيزعمون أن بسط الرزق للكرامة عند الله، والضيق للهوان عليه، مع أن كثيراً ما يكون الأول للاستدراج، والثاني لرفع الدرجة<sup>٢</sup>.

وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا

فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِتُونَ \* وَالَّذِينَ  
يَسْمَعُونَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ \* قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ  
الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ  
خَيْرُ الرَّازِقِينَ [٣٧-٣٩]

ثم قرر سبحانه ذلك، وصرح ببيان زعمهم بقوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ﴾ أيها الناس ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ التي تفتخرون وتفتنون بها ﴿بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ﴾ وتحببكم من الخصال، أو الحسنات ﴿عِنْدَنَا زُلْفَى﴾ وقربة ومحبوبة موجبة للإكرام والثواب ﴿إِلَّا﴾ أموال ﴿مَنْ آمَنَ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحاً﴾ مرضياً عند الله، بانفاقها في سبيل الله، وأولادهم بتعليمهم الخير وترغيبهم إليه وتربيتهم على الطاعة والصلاح. وقيل: يعني ولكن إيمان من آمن وعمل صالحاً يقربه. ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المؤمنون الصالحون ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَزَاءُ الضَّعْفِ﴾ وثواب عشرة أعمال فما فوق على عمل واحد ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من الحسنات ﴿وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ﴾ والقصور العالية في الجنة ساكنون، و﴿آمِتُونَ﴾ من زوال النعم وسائر المكاه.

ثم أنه ﷺ بعد بيان حسن حال المؤمنين، بين سوء حال الكفار بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَسْمَعُونَ فِي﴾ رد ﴿آيَاتِنَا﴾ والظن فيها بظن أنهم يكونون ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ لنا عن تعذيبهم ﴿فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ وداخلون.

ثم بين سبحانه أن البسط والتضييق في الرزق يكون للمؤمنين أيضاً بقوله: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ البسط له ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ المؤمنين تارة ﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ ويضيّق عليه أخرى ابتلاءً وحكمة، فلا تحشوا الفقر بالانفاق حيث إن ما بذلتكم ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ من أموالكم في سبيل الله ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ ويُعْطِيكُمْ عوضاً باقياً لكم في الآخرة ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿خَيْرُ﴾ الذين ترونهم ﴿الرَّازِقِينَ﴾ للخلق كالسلاطين والموالي وغيرهم، حيث إنه تعالى يَرْزُقُ بلا مئة وتوقع عوض.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا لِي إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ \* قَالُوا  
سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلِجْنَ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ \*  
فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ  
النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ [٤٠-٤٢]

ثم أنه تعالى بعد تهديد المتكبرين المعارضين للرسل بالحضور في العذاب، هدّدهم بالقضيحة والهوان يوم القيامة بقوله: ﴿وَذَكَرْهُمْ يَوْمَ يُؤْمَرُ﴾ يبعث الله المشركين العابدين للملائكة و﴿يَخْشَرُهُمْ﴾ إلى المحشر ﴿جَمِيعاً﴾ المستكبرين منهم والمستضعفين ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ توبيحاً و تنفيحاً لهم وإقناطاً لهم من شفاعة معبوداتهم ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ الذين هم أشرف شركائهم: أيها الملائكة ﴿أَهْلُؤَلَاءِ﴾ الكفار ﴿إِنَّا كُنْمْ كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَعْبُدُونَ﴾؟ فأجاب الملائكة و ﴿قَالُوا﴾ تنزيهاً له تعالى عن الشريك: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ ونزهةً من أن نعبد غيرك ﴿أَنْتَ وَلِيِّنَا﴾ ومعبودنا وحافظ صلاحنا ﴿مِنْ دُونِهِمْ﴾ إذن كيف نلتفت إلى عبادتهم إيانا، ونرضى بخضوعهم لنا! إنهم لم يكونوا يعبدوننا حقيقة ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْغَيْبَ﴾ والشياطين الأمرين لهم بالشرك، والمُربّين عنده عبادة غيرك ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ﴾ بقلوبهم ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ وبتسويلاتهم يُصدّقون، وأنت المُطلّع على ضمائر جميعهم. وقيل: إن ضمير الجمع في (أكثرهم) راجع إلى الإنس<sup>١</sup>. وقيل: إن الأكثر هنا بمعنى الكل<sup>٢</sup>. ﴿فَالْيَوْمَ﴾ أيها الملائكة الذين كان المشركون يرجون شفاعتكم وخيركم ﴿لَا يَسْمُكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ﴾ آخر منكم، فكيف لغيركم من الإنس، أو لبعض الإنس ﴿تَنْفَعاً وَلَا ضَرّاً﴾ وقيل: إن الخطاب إلى الكفار<sup>٣</sup> ﴿وَقُولُ﴾ الله ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ على الله بتضييع حقّه، وعلى أنفسهم باختيار الكفر وتعريضها للعذاب: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ وبوعدها ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ الرسل.

وَإِذَا تَثَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُ  
يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ  
إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ \* وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ  
قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ \* وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا  
رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ [٤٣-٤٥]

ثم أنه تعالى بعد حكاية تكذيب الأمم السابقة رسلهم، حكى تكذيب هذه الأمة خاتم النبيين ﷺ بقوله: ﴿وَإِذَا تَثَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ القرآنية ودلائل التوحيد حال كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ وواضحات الدلالات على صدق الرسول ﴿قَالُوا﴾ إنكاراً لرسالة الرسول ﴿مَا هَذَا﴾ الذي يدعي الرسالة ﴿إِلَّا﴾ رجُلٌ يُريدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ و﴿عَنْ﴾ عبادة ﴿مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ من الأصنام في الأزمنة

١. تفسير أبي السعود ٧: ١٣٧، تفسير روح البيان ٧: ٣٠٣.

٢. تفسير أبي السعود ٧: ١٣٧.

٣. تفسير الرازي ٢٥: ٢٦٥، تفسير أبي السعود ٧: ١٣٧.

المتطاوله، ويستتبعكم ويترأس عليكم ﴿وَقَالُوا﴾ إنكاراً لصدق القرآن: ﴿مَا هَذَا﴾ القرآن ﴿إِلَّا إِفْكٌ﴾ وكلامٌ شُموهٌ ﴿مُفْتَرًى﴾ ومكذوبٌ على الله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من المشركين وأهل الكتاب ﴿لِلْحَقِّ﴾ والقرآن الصدق ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ من قبل الله: ﴿إِنْ هَذَا﴾ القرآن، وما هو ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾. ثم لا مهم سبحانه على اتخاذهم الذين بغير دليل بقوله: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ وما أنزلنا عليهم ﴿مِنْ كُتُبٍ﴾ سماوية دالة على صحة مذهب الشُّرك ﴿يَذُرُسُونَهَا﴾ ويقرؤونها مكرراً بتفكيرٍ وتأملٍ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ يدعوهم إلى الشرك، ويخوفهم بالعقاب على تركه.

ثم هددهم بقوله: ﴿وَكَذَّبَ﴾ الأمم ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وفي الأعصار السابقة على عصرهم آيات الله ورسله كما كذبوك ﴿وَالْحَالُ أُنْ هَؤُلَاءِ﴾ ﴿مَا بَلَّغُوا﴾ وما وجدوا ﴿مِغْشَارَ﴾ ما أعطينا أولئك الأمم السابقة، وعُشرًا، وعُشر عُشر ﴿مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ من القوى الجسمانية وكثرة الأموال والأولاد والأعوان.

ثم فسر سبحانه التكذيب بقوله: ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ المبعوثين إليهم في دعوى الرسالة ودعوتهم إلى توحيدي ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ وإنكاري لهم وغضبي عليهم بإنزال عذاب الاستئصال وقطع دابرهم، فما خطر أولئك المكذبين لك بجنهم، فليحذروا من ما ابثلي به أولئك الأمم.

قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ شِئْنٍ وَفِرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ  
مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ [٤٦]

ثم أنه تعالى بعد حكاية إصرار قومه ﷺ على إنكار توحيد الله ورسالة الرسول وصدق القرآن، وتوبيخهم على التدين بالشرك بغير دليل قاطع عليه، بل بتقليد الآباء وتهديدهم بالعذاب، أمر سبحانه نبيه ﷺ بنصحهم بالطف بيان، وحثهم على التفكير في أمر رسالته بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لقومك: يا قوم ﴿إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ﴾ وأنصح لكم ﴿بِوَاحِدَةٍ﴾ مهمة من الخصال، أو الحسنات، وهي ﴿أَنْ تَقُومُوا﴾ من مجلسكم أو مجلس رسولكم، وتتفرقوا من مجامعكم عنده ﷻ ولرضاء وجهه. وقيل: يعني أن تقوموا لعبادة الله وحده<sup>١</sup> ﴿مِثْلَىٰ﴾ واثنين اثنين ﴿وَفِرَادَىٰ﴾ وواحدًا واحدًا، فإن في الكثرة والازدحام يقل الانصاف ويكثر الخلاف، ويشوش خاطر، ويثور الغضب ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ في أنفسكم في أمر رسالتي وبياناتي، وأخلاقي وأعمالتي، وسيرتي ومعجزاتي، حتى تعلموا أنه ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ﴾ وبمن يدعوكم إلى توحيد الله ومعارفه، ويأمركم بالحسنات وصالح الأعمال والأخلاق،

ويزجركم عن القبائح، ويعلمكم المواعظ والحكم الكثيرة شيء. ﴿مِنْ جَنَّةٍ﴾ وخفة العقل يدعوه إلى دعوى النبوة وتحمل أعباء الرسالة، كما زعمتم، فاذا علمتم أنه أرجح أهل العالم عقلاً، وأنزههم نفساً، وأصدقهم قولاً، وجب عليكم اتباعه والايمان به ﴿إِنْ﴾ صاحبكم، وما ﴿هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ومُخَوِّفٌ ﴿لَكُمْ﴾ من ربكم ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وقبل ابتلائكم به في الآخرة.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ذَكَرُهُ أَنْزَلَ عِزَانَهُ الشَّرَائِعَ وَأَيَاتِ الْفَرَائِضِ فِي أَوْقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، كَمَا خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَخْلُقَهَا فِي أَقَلِّ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ لَخَلَقَ، لَكِنَّهُ جَعَلَ الْأَنَاءَ<sup>١</sup> وَالْمُدَارَةَ مَثَلاً لِأَمْنَانِهِ، وَإِجَاباً لِلْحُجَّةِ عَلَى خَلْقِهِ، فَكَانَ أَوَّلُ مَا قَدَّمَ بِهِ الْإِقْرَارَ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَالرَّبُوبِيَّةِ وَالشَّهَادَةَ بِأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَلَمَّا أَقْرَأُوا بِذَلِكَ تَلَاَهُ بِالْإِقْرَارِ لِنَبِيِّهِ بِالنَّبُوءَةِ، وَالشَّهَادَةَ لَهُ بِالرَّسَالَةِ، فَلَمَّا انْقَادُوا لِذَلِكَ فَضَرَّ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةَ، ثُمَّ الصَّوْمَ، ثُمَّ الْحَجَّ، ثُمَّ الْجِهَادَ، ثُمَّ الزَّكَاةَ، ثُمَّ الصَّدَقَاتِ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا مِنْ مَالِ الْفِيءِ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: هَلْ بَقِيَ لِرَبِّكَ عَلَيْنَا شَيْءٌ آخَرَ يَفْرِضُهُ فَتَذَكَّرْهُ لَتَسْكُنَ أَنْفُسُنَا إِلَى أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ غَيْرُهُ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ يعني الولاية» الخبر<sup>٢</sup>.

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ \* قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَآمُ الْغُيُوبِ [٤٧ و ٤٨]

ثم أمره سبحانه بتأمين قلوبهم من الطمع في أموالهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ إن كنتم لا تؤمنون لخوفكم من طمعي في أموالكم، فاعلموا أن ﴿مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ﴾ على رسالتي ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾.

قيل: لما نزل ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾<sup>٣</sup> قال عليه السلام: «لا تؤذوني في قرابتي» فلما سب الأَصْنَامَ، قال المشركون: ما أنصفنا محمد يسألنا أن لا تؤذيه في قرابته، وهو يؤذينا بسب آلِهتنا! فنزلت هذه الآية<sup>٤</sup>. يعني إن شئتُم آذوا قرابتي ﴿إِنْ أَجَرِي﴾ وما شأبي ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ لأن عملي له ﴿وَهُوَ﴾ على خلوص نيتي مطَّلَعٌ، أو على رسالتي شاهد لأنه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

عن الباقر عليه السلام في هذه الآية: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَأَلَ قَوْمَهُ أَنْ يُؤَادُوا أَقَارِبَهُ وَلَا يُؤْذَوْهُمْ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ يقول: ثوابه لكم»<sup>٥</sup>.

وعنه عليه السلام: «يعني أجر المودة التي لم أسألكم غيره فهو لكم، تهتدون به، وتنجون من عذاب يوم

١. الأناة: الحلم والوقار. ٢. الاحتجاج: ٢٥٤، تفسير الصافي ٤: ٢٢٥. ٣. الشورى: ٢٣/٤٢.

٤. تفسير روح البيان ٧: ٣٠٨. ٥. تفسير القمي ٢: ٢٠٤، تفسير الصافي ٤: ٢٢٦.



القيامة<sup>١</sup>.وعنه عليه السلام أيضاً: «أجر ما دعوتكم إليه من إجابتي وذخره، فهو لكم دوني»<sup>٢</sup>.

ثم لما كان الكفار يستبعدون تخصيص الوحي والرسالة به عليه السلام، ردّهم سبحانه بقوله: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ وَيُرِي بِالْحَقِّ﴾ ويُنزله على من يراه أهلاً له، أو يرمي به الباطل فيدّمغه ويغديه، وهو ﴿عَلَامُ الْغُيُوبِ﴾ فيعلم ضمائر خلقه واستعداداتهم، ويعلم خفايا الأمور ومنها أمر الآخرة.

قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ \* قُلْ إِنْ صَلَلْتُ فَأَتَمَّا أَضِلُّ عَلَى  
نَفْسِي وَإِنْ أَهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ [٥٠ و ٥١]

ثم أمر نبيه عليه السلام بالإخبار بمجيء الحق الذي أخبر بأنه تعالى يقذفه بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿جَاءَ الْحَقُّ﴾ الموعود قذفه، وهو التوحيد ودين الاسلام ﴿وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ﴾ والشر ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ قيل: هو كناية عن زواله وذهابه<sup>٣</sup>.

عن ابن مسعود: أن النبي عليه السلام دخل مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، وجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾»<sup>٤</sup>. وعن الرضا، عن آبائه عليهم السلام، ما يقرب منه<sup>٥</sup>.

ثم قرّر رسالته بقوله: ﴿قُلْ إِنْ صَلَلْتُ﴾ عن الحق ﴿فَأَتَمَّا أَضِلُّ﴾ وبإله ﴿عَلَى نَفْسِي﴾ ولا يتعدى إلى غيري ﴿وَإِنْ أَهْتَدَيْتُ﴾ إلى الحق ووصلت إليه ﴿فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ من الحكمة والبيان ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿سَمِيعٌ﴾ لمقالي ومقال أعدائي (عليم) بما هو الحق منهما وما هو الباطل و ﴿قَرِيبٌ﴾ منّا يأخذ المبطل بلا تحمّل رحمة البعد وتأخير الأخذ.

وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَعُوا فَلَا قُوَّةَ وَأَخَذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ \* وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمْ  
التَّنَاقُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ \* وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ  
بَعِيدٍ \* وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا  
فِي شَكٍّ مُرِيبٍ [٥١-٥٤]

ثم هدّد المشركين بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ المشركين والعصاة يا محمد، أو يا ابن آدم ﴿إِذْ فَرَعُوا﴾ من

١. الكافي ٨: ٥٧٤/٣٧٩، تفسير الصافي ٤: ٢٢٦.  
٢. مجمع البيان ٨: ٦٢٠، تفسير الصافي ٤: ٢٢٦.  
٣ و ٤. تفسير روح البيان ٧: ٣٠٨.  
٥. أمالي الطوسي: ٦٨٣/٣٣٦، تفسير الصافي ٤: ٢٢٦.

رؤية العذاب عند الموت، أو حين البعث، أو يوم بدر. وعن الباقر عليه السلام: «إذ فرغوا من الصوت، وذلك الصوت من السماء»<sup>١</sup> لرايت أمراً هائلاً معجباً ﴿فَلَا قُوَّةَ﴾ لهم من عذاب الله، ولا نجاة بهرب أو تحصن، أو سائر وسائل الحفظ، وإن أخر عقوبتهم، وإنما يستعجل من يخاف الفت.

عن ابن عباس: أن ثمانين ألفاً، وهم السفيناني وقومه، يخرجون في آخر الزمان، فيقصدون الكعبة ليخربوها، فإذا دخلوا البيداء خُيف بهم، فلا ينجو منهم إلا السري الذي يُخبر عنهم، وهو جُهيته، فلذلك قيل: وعند جُهيته الخبر اليقين<sup>٢</sup>.

وعن الباقر عليه السلام: «لكنني أنظر إلى القائم وقد أسند ظهره إلى الحجر - إلى أن قال -: فإذا جاء إلى البيداء يخرج إليه جيش السفيناني، فيأمر الله عز وجل الأرض فتأخذ بأقدامهم، وهو قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَاتَّخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قال: من تحت أقدامه خُيف بهم»<sup>٣</sup> وقيل: من ظهر الأرض إلى بطنها، أو من الموقف إلى النار، أو من صحراء بدر إلى قلبها<sup>٤</sup>.

﴿وَقَالُوا﴾ عند معاناة العذاب، لدفعه عن أنفسهم بإقرارهم به، أو بدين محمد عليه السلام، أو بقيام القائم: ﴿أَمَّا بِهِ﴾ ولا ينفعهم عند معاناة العذاب، وبعد انقضاء زمان التكليف، وهو لخروجهم عنه صار بعيداً عنهم ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ اتِّتَافُشُ﴾ وتناول الإيمان ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ وهو الدنيا ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ وفي زمان التكليف ﴿وَوَ﴾ كانوا ﴿يَقْذِفُونَ﴾ ويرمون ﴿بِالْقَتِيبِ﴾ ويتكلمون بما لم يطلعوا عليه كمن يرمي الحجارة ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ إلى ما لا يراه من الرماة ﴿وَحِيلَ﴾ وأوجد المانع من الوصول ﴿يَبْتَنُّهُمْ﴾ بعد الموت ﴿وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من النجاة من العذاب والوصول إلى النعيم الدائم ﴿كَمَا فُعِلَ﴾ ذلك ﴿بِأَشْيَاعِهِمْ﴾ والذين كانوا قبلهم من المكذبين الذين أهلكوا بالعذاب ﴿مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ﴾ مما يجب الإيمان به ﴿مُرِيبٍ﴾ وموقع لقلوبهم في الاضطراب.

عن الصادق عليه السلام: «من قرأ الحمدین حمد سباً وحمد فاطر في ليلة، لم يزل في ليلته في حفظ الله وكلاءته وإن قرأهما في نهاره لم يصبه في نهاره مكروه، وأعطى خير الدنيا وخير الآخر، ما لم يخطر على قلبه، ولم يبلغ مثاه»<sup>٥</sup>.

رزقنا الله توفيق تلاوتهما في الليل والنهار، كما وقفنا لاتمام تفسير الأولى منهما، وله الحمد والمنة على نعمه الظاهرة والباطنة.

١. تفسير القمي ٢: ٢٠٥، تفسير الصافي ٤: ٢٢٦. ٢. تفسير أبي السعود ٧: ١٤٠، تفسير روح البيان ٧: ٣١٠.

٣. تفسير القمي ٢: ٢٠٥ و ٢٠٦، تفسير الصافي ٤: ٢٢٧.

٤. تفسير أبي السعود ٧: ١٤٠. ٥. في النسخة: كما.

٦. ثواب الأعمال: ١١٠، تفسير الصافي ٤: ٢٢٨.

## في تفسير سورة فاطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ  
مُتَنَنِي وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [١]

ثم لما ختمت سورة سبأ المبدوءة بحمد الله على نعمة الإبداء والإعادة، وتوبيخ المشركين ومنكري المعاد، ومُحاجَّتِهِمْ وتهديدهم بالعذاب، وذمَّهم على شكِّهم في أصول التوحيد والرسالة ودار الجزاء، نَظَّم بعدها سورة فاطر المبدوءة بحمد الله على نعمة الظاهرية، وهي خلق الموجودات، ونعمه الباطنية وهي إنزال العلوم والمعارف والأحكام والآداب بتوسط الملائكة والأنبياء والرسل والأولياء، وذكر الأدلة الدالة على التوحيد والمعاد الرافعة للشكَّ فيهما عن القلوب، فابتدأ فيهما بذكر الأسماء المباركات بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم أردفها بحمد ذاته المقدَّسة بقوله: ﴿الْحَمْدُ﴾ والثناء الجميل ﴿لِلَّهِ﴾ ثم وصف ذاته بالقدرة الكاملة والنعم الفاضلة الموجبتين لاستحقاقه الحمد بقوله: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومُبدِعهما من غير مثالٍ سابقٍ و﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ ووسائط بينه وبين أنبيائه ورُسله وأوليائه، يُبَلِّغون إليهم العلوم والمعارف والحكم والأحكام والآداب بالوحي والإلهام والرؤى الصادقة المتَّصفين بكونهم ﴿أُولَى أَجْنَحَةٍ﴾ وذويها كالطيور.

في كيفية خلق الملائكة ثم بيَّن عدد أجنحتهم<sup>١</sup> بقوله: ﴿مُتَنَنِي﴾ واثنين اثنين و﴿وَتَلَاثَ﴾ وثلاث ثلاث و﴿وَرُبَاعَ﴾ وأربع أربع. قيل: إن تفاوتهم في عدد أجنحتهم حسب تفاوت مراتبهم<sup>٢</sup>، فإنهم مع خِفَّة أجسادهم ولطافتها محتاجون إليها، فإنهم ينزلون من السماء إلى الأرض، ويعرجون منها إلى محلِّهم من السماء في طرفة عين و﴿يَزِيدُ﴾ الله ﴿فِي الْخَلْقِ﴾ منهم جَنَّةٌ وقامةٌ وحسناً وجَاحاً ﴿مَا يَشَاءُ﴾ منها.

١. في النسخة: جناحهم.

٢. تفسير البضاوي ٢: ٢٦٧، تفسير أبي السعود ٧: ١٤١، تفسير روح البيان ٧: ٣١٢.

رُوي أَنَّ صَفّاً مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَهُمْ سِتَّةُ أَجْنَحَةٍ، بِجَنَاحِينَ مِنْهَا يَلْقَوْنَ أَجْسَادَهُمْ، وَبِآخَرِينَ مِنْهَا يَطِيرُونَ فِيمَا أَمْرُوهُ، وَبِجَنَاحَانِ مِنْهَا مَرْخِيَانِ عَلَى وَجْهِهِمَا حَيَاءٌ مِنَ اللَّهِ<sup>١</sup>.

وَلَعَلَّ كَثْرَةَ بُعْدِ مَقَامِهِمْ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ مَوْجِبَاتِ كَثْرَةِ أَجْنَحَتِهِمْ، رَوَتْ الْعَامَّةُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ رَأَى جَبْرِئِيلَ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ وَلَهُ سِتْمَانَةُ جَنَاحٍ اثْنَانِ مِنْهَا يَبْلُغَانِ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ<sup>٢</sup>.

وَعَنِ الصَّادِقِ ﷺ، قَالَ: «خَلَقَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ مُخْتَلِفَةً، وَقَدْ رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَبْرِئِيلَ وَلَهُ سِتْمَانَةُ جَنَاحٍ» الْخَبَرِ<sup>٣</sup>.

وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ رَأَى جَبْرِئِيلَ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ وَلَهُ سِتْمَانَةُ أَلْفِ جَنَاحٍ<sup>٤</sup>.

وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَلَكاً يُقَالُ لَهُ دَرْدَانِيلُ، كَانَ لَهُ سِتَّةُ عَشَرَ أَلْفَ جَنَاحٍ»<sup>٥</sup> إِذَنْ تُحْمَلُ الْآيَةُ وَمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ - مِنْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَجْزَاءٍ، جِزءٌ لَهُ جَنَاحَانِ، وَجِزءٌ لَهُ ثَلَاثَةُ أَجْنَحَةٍ، وَجِزءٌ لَهُ أَرْبَعَةُ أَجْنَحَةٍ<sup>٦</sup> - عَلَى بَيَانِ وَجُودِ هَذِهِ الْأَصْنَافِ فِيهِمْ، لَا إِزَادَةَ الْحَصْرِ فِيهَا.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فِي (التَّوْحِيدِ) عَنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَامَ خُطِيباً، فَحَمْدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَلَائِكَةً لَوْ أَنَّ مَلَكاً مِنْهُمْ هَبَطَ إِلَى الْأَرْضِ مَا وَسَعَتْهُ لِعَظَمِ خَلْقِهِ وَكَثْرَةِ أَجْنَحَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَوْ كَلَفَتِ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَنْ يَصِفُوهُ مَا وَصَفُوهُ، لُبَّعْدَ مَا بَيْنَ مَفَاصِلِهِ، وَحَسَنَ تَرْكِيبِ صُورَتِهِ، وَكَيْفَ يُوصَفُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ مِنْ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ مَا بَيْنَ مُتَكَيِّبِهِ وَشُخْمَةِ أُذُنَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسُدُّ الْأَفَاقَ، بِجَنَاحٍ مِنْ أَجْنَحَتِهِ دُونَ عِظْمٍ بَدَنِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ السَّمَاوَاتِ إِلَى حُجْرَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَدِمَهُ عَلَى غَيْرِ قَرَارٍ فِي جَوْ هَوَاءِ الْأَسْفَلِ وَالْأَرْضُونَ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَوْ أُلْقِيَ فِي ثَقْرَةِ إِبْهَامِهِ جَمِيعُ الْمِيَاهِ لَوْسَعَتْهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ لَوْ أُلْقِيَتِ السَّفِينَةُ فِي دُمُوعِ عَيْنَيْهِ لَجَرَتْ دَهْرَ الدَّاهِرِينَ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ»<sup>٧</sup>.

وَاعْلَمْ أَنَّ الرُّوَايَاتِ دَالَّةٌ عَلَى كَوْنِ الْمَلَائِكَةِ أَجْسَاماً لَطِيفَةً فِي غَايَةِ الْكَثْرَةِ، فَلَا يَجُوزُ إِنكَارُهُ وَإِنكَارُ وَجُودِ الْأَجْنَحَةِ لَهُمْ، أَوْ تَأْوِيلُ الْجَنَاحِ بِالْجُمْلَةِ، كَمَا حَكَى عَنْ جَمَاعَةٍ أَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَهُ وَجْهٌ إِلَى اللَّهِ يَأْخُذُونَ مِنْهُ نِعْمَهُ، وَيُعْطُونَ مَنْ دُونَهُمْ مِمَّا أَخَذُوهُ بِإِذْنِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾<sup>٨</sup> وَقَوْلُهُ: ﴿عَلِمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾<sup>٩</sup> وَقَالَ تَعَالَى فِي حَقِّهِمْ: ﴿فَالْمَدْبُرَاتِ أَمْرًا﴾<sup>١٠</sup>

١ و ٢. تفسير أبي السعود ٧: ١٤١، تفسير روح البيان ٧: ٣١٣.

٣. تفسير القمي ٢: ٢٠٦، تفسير روح البيان ٤: ٢٢٩.

٤. تفسير الصافي ٤: ٢٢٩.

٥. كمال الدين: ٣٦٧/٢٨٢، تفسير الصافي ٤: ٢٢٩.

٦. الكافي ٨: ٤٠٣/٢٧٢، تفسير الصافي ٤: ٢٢٩.

٧. التوحيد: ٣/٢٧٨، تفسير الصافي ٤: ٢٣٠.

٨. الشعراء: ١٩٤/٢٦.

٩. النجم: ٥٣/٥.

١٠. النازعات: ٥/٧٩.

فهما جناحان، وفيهم من يفعل ما يفعل من الخير بواسطة، فالفاعل بواسطة فيه ثلاث جهات، ومنهم من له أربع جهات وأكثر<sup>١</sup>.

وقيل: إن المراد بالأجنحة الصفات الملكية والقوى الروحانية، وليست كأجنحة الطير<sup>٢</sup>.

وفي (الكافي) عن الثمالي، قال: دخلت على علي بن الحسين عليهما السلام فاحتبست في الدار ساعة، ثم دخلت البيت وهو يلتقط شيئاً، وأدخل يده من وراء الستر، فنأوله من كان في البيت، فقلت: جعلت فداك، هذا الذي أراك تلتقطه أي شيء هو؟ قال: «فُضْلة من رَعَب الملائكة نجمعه إذا خلونا، نجعله سَيْحاً<sup>٣</sup> لأولادنا» فقلت: جعلت فداك، فأنهم ليأتونكم؟ فقال: «يا أبا حمزة، إنهم ليزاحموننا على ثُكَّانَتنا»<sup>٤</sup>.

مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ  
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ \* يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِتٍ  
غَيْرِ اللَّهِ يَزُرُّكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ \* وَإِنْ  
يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ [٢-٤]

ثم أنه تعالى بعد بيان كمال قدرته بخلق السماوات والأرض والملائكة، واستخدامهم في الأمور، بين تفردّه في تدبير العالم وإعطاء النعم بقوله: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ﴾ باب من أبواب ﴿رَحْمَةٍ﴾ عامة كالسَّعة والصَّحة والنُّصرة ونظائرها من النُّعم، أو رحمة خاصة كالإعانة والتوفيق والعلم والحكمة ونظائرها، ويُرسِلها ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ ولا مانع من إرسالها من خلقه، ولا قادر على حبسها ممَّا سواه ﴿وَمَا يُمْسِكُ﴾ الله ويمنع من إعطائه وإرساله ﴿فَلَا مُرْسِلَ﴾ ولا مُعطي ﴿لَهُ﴾ ممَّا سوى الله و﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ فلا يكون العطاء والمنع إلا له تعالى، لعدم وجدان غيره شيئاً وقدرته على شيءٍ ﴿وَهُوَ﴾ تعالى وحده ﴿الْعَزِيزُ﴾ القادر على كل شيء، والقاهر على كل شيء، فلا يُنازعه في إعطائه ومنعه أحدٌ ﴿الْحَكِيمُ﴾ العالم بالمصالح والمفاسد، والمُطلع على المَحَلِّ القابل للإعطاء وغيره، فهو المستحقُّ للحمد والثناء والعبادة والخُضوع.

١. تفسير الرازي ٢٦: ٣. ٢. تفسير روح البيان ٧: ٣١٣.

٣. السَّيح: ضرب من البرود، وفي بعض نسخ المصدر: شُبْحاً: جمع شُبْحَة، وقد يراد بها القلادة تُجمل في سلك وتعلّق على الأولاد للعودة. قال في (المرآة): في (بصائر الدرجات): سيحاً بأولادنا، في أخبار كثيرة، السَّحَاب: خبط يُنظم فيه خرز ويلبسه الصبيان والجواري، وقيل: هو قلادة من قرنفل ومسك ونحوه، وليس فيها من اللؤلؤ والجوهر شيء. مرآة العقول ٤: ٢٩٠.

٤. الكافي ١: ٥٣/٣٢٤، تفسير الصافي ٤: ٢٣١، والثُّكَّات: جمع ثُكَّاة، ما يعتمد عليه حين الجلوس.

ثم أنه تعالى بعد بيان تفرده بالقدرة الكاملة والحكمة البالغة الموجبتين لحمده وشكره وعبادته، دعا عموم الناس إلى تذكّر نعمه وإقبالهم إلى شكره بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ من الأبيض والأسود والأحمر ﴿اذْكُرُوا﴾ واعرفوا ﴿بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ وتفضله ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بالخلق والرزق والصحة والأمنية وغيرها من النعم، وأدوا حقها بالقيام بالشكر والعبادة، وانصفوا من أنفسهم ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ ومفضل بنعمة الابداد لشيء من الأنبياء سوى الله وهو ﴿يَزِدُّكُمْ﴾ ما يوجب بقاءكم ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ بالمطر والرياح النافعة ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ﴾ بالنباتات والزرع والأشجار، لا والله لا خالق ولا رازق غيره، فاذن خصوه بالعبادة لأنه ﴿لَا إِلَهَ﴾ ولا معبود بالاستحقاق ﴿إِلَّا هُوَ﴾ تعالى وحده ﴿فَأَتَيْنِ﴾ ومن أي وجه، وأي جهة ﴿تُؤْتِكُونَّ﴾ وتصرفون من توحيد إلى الشرك، ومن عبادته إلى عبادة غيره من الأصنام والملائكة والكواكب وغيرها ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ في إدعاء التوحيد والرسالة، وأصروا على إنكارهما، فليس تكذيب الرسول أمراً بديعاً منهم ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ كثيرة أولو شأنٍ خطيرٍ ومعجزاتٍ باهرة، أرسلناهم إلى أمم كثيرة ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ وقبل إرسالك إلى قومك، فصبروا على تكذيبهم وإيذاء قومهم، فظفروا بمقاصدهم من الغلبة والنصرة وإعلاء الكلمة ﴿وَالَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ وترد عواقبها، فيجازي الصابر على صبره والمكذب على تكذيبه.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ \* إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ [٥ و ٦]

ثم أنه تعالى بعد إثبات التوحيد والدعوة إلى الإقرار به، دعا الناس إلى الإيمان بالحق بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ اعلموا ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالحق والعدل ودار الجزاء ﴿حَقٌّ﴾ وصدق لا خلف فيه ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ ولا تذهلنكم ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ وشهواتها عن السعي لها بطاعة الله وترك معاصيه ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ﴾ ولا يوقعنكم في خطر العذاب والجرمان من الثواب ﴿بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ والشيطان الموسوس في الصدور، بأن يمينكم عفو الله عن المعاصي لكرمه وسعة رحمته، إنه أكرم الأكرمين في موضع العفو والرحمة، وأشد المعاقبين في موضع النكال والتعنة.

ثم فسّر سبحانه الغرور وعزفه بالعداوة الموجبة للاحتراز منه بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ﴾ الذي أخرج أبويكم من الجنة لعداوته لهما ﴿لَكُمْ﴾ أيضاً ﴿عَدُوٌّ﴾ مبين، فاذا علمتم عداوته ﴿فَاتَّخِذُوهُ﴾ بمخالفتكم إياه في العقائد والأعمال ﴿عَدُوًّا﴾ وكونوا منه على حذرٍ في جميع الأحوال والأوقات،

وأعلموا أنه ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ﴾ ويَحْرَضُ جماعة أتباعه على العمل بأوامره ووساوسه ﴿لِيَكُونُوا﴾ بمخالفة الله ﴿مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ والخالدين في نار الجحيم، لا لوصولهم إلى المنافع الدنيوية كما هو مقصد المتحايين في الدنيا الغافلين عن المفاسد الأخروية.

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ  
وَأَجْرٌ كَبِيرٌ \* أَفَمَنْ رَزَقْنَاهُ سَوْءَ عَمَلٍ فَرَأَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ  
وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا  
يَصْنَعُونَ [٧ و ٨]

ثم بَيَّنَّ سبحانه حال حزبه وحزب الشيطان في الآخرة مبالغة في الجزع بقوله: ﴿الَّذِينَ﴾ اتَّبَعُوا الشيطان و ﴿كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يُمكن بيان حدَّ شدته وكيفيةها ﴿وَالَّذِينَ﴾ اتَّبَعُوا الله ورسوله و ﴿آمَنُوا﴾ بهما وبما يجب الايمان به ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ والمرضيات عند الله، وصبروا على مشاق طاعته ﴿لَهُمْ﴾ بإزاء إيمانهم ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ عظيمةٌ للذنوب وستر لها عن غيره بإخفائها عن الناس في الدنيا، ومحوها من ديوانهم أو تبديلها بالחסنات في الآخرة ﴿وَأَجْرٌ﴾ وثواب ﴿كَبِيرٌ﴾ لا غاية له على أعمالهم.

ثم بَيَّنَّ سبحانه وجوب كون الكفار معذَّبين، وكون المؤمنين الصالحين منعمين، وعدم إمكان التساوي بينهما بقوله: ﴿أَفَمَنْ رَزَقْنَاهُ﴾ من قبل النفس والشيطان ﴿سَوْءَ عَمَلٍ﴾ وقبيح فعله ﴿فَرَأَاهُ﴾ وتوهمه ﴿حَسَنًا﴾ وجميعاً لجهله وضعف عقله، يمكن أن يكون كمن رأى القبيح قبيحاً فاجتنبه، والْحَسَنَ عند الله حَسَنًا فارتكبه لقوة عقله وعلمه بعواقب الأمور في الآخرة ودار الجزاء، لا والله لا يمكن ذلك أبداً.

ثم لَمَّا كَانَ كفر الكافر ثِقِيلاً على قلب نبيه ﷺ سَلَاه سبحانه، وبَيَّنَّ أن الكفر والايمان بمشيئته بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ بالخذلان المسبب عن حُبِّ الطينة وسوء الأعمال ﴿يُضِلُّ﴾ ويَحْرِفُ عن الحق وسبيل الخير ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ خِذْلَانَهُ وضلاله ﴿وَيَهْدِي﴾ ويرشِدُ ويوصل إلى الحق والدين المرضي عنده بتوفيقه المسبب عن حُسْنِ الفطرة وطيب الطينة وحسن الأعمال والأخلاق ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ توفيقه وهدايته، فاذا علمت أن ضلال الكفار بإرادة الله ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾ ولا تهلك ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وعلى ضلالهم وكفرهم لأجل ﴿حَسْرَاتٍ﴾ وأحزان متوالية تعتربك، لإصرارهم على الكفر والتكذيب، وإنما عليك النَّصْحُ والتبليغ، وقد خرجت عن عَهْدِهِ ما عليك، وليس عليك إيمانهم، ولا

يُضْرَكُ كَفَرَهُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ويعملون من القبانح، فيجازيهم عليها أسوأ الجزاء.

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَخْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ  
بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ [٩]

ثم أنه تعالى لما وعد بالحرث والمعاد، استدل على إمكانه بقدرته المحسوسة على إحياء الأرض الميِّتة بقوله: ﴿وَاللَّهُ﴾ تعالى هو القادر ﴿الَّذِي أَرْسَلَ﴾ وهبج ﴿الرِّيَّاحَ﴾ المختلفة كالجنوب والشمال والصبأ ﴿فَتُثِيرُ﴾ وتشرأ ﴿سَحَابًا﴾ مطراً بين السماء والأرض ﴿فُسْقَنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ وأرض يابسة لا نبات لها، لإنزال المطر فيها ﴿فَأَخْيَيْنَا بِهِ﴾ أو بالسحاب الممطر ﴿الْأَرْضَ﴾ الميِّتة، وصيرناها خضراء بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وبسببها ﴿كَذَلِكَ﴾ الإحياء الذي تشاهدونه في الأرض ﴿النُّشُورُ﴾ بعد موتكم وحشركم من القبور بعد كونكم تراباً وزفأناً في صحّة المقدورية وبسهولة الثاني من غير تفاوت بينهما أصلاً سوى الإلف في الأول دون الثاني.

عن العسكري عليه السلام: «أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْزِلُ بَيْنَ نَفْخَتِي الصُّورِ بَعْدَ مَا يَنْفُخُ النَفْخَةُ الْأُولَى مِنْ دُونَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا مِنَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾<sup>٢</sup> وَهُوَ مَنَى كَمَنَى الرِّجَالِ، وَيَمْطُرُ ذَلِكَ عَلَى الْأَرْضِ، فَيَلْقَى الْمَاءُ الْمَنَى عَلَى الْأَمْوَاتِ الْبَالِيَةِ، فَيُثْبِتُونَ مِنَ الْأَرْضِ وَيَحْيُونَ»<sup>٣</sup>.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ  
الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ  
يَبُورُ [١٠]

ثم لما كان المشركون يتوهمون عزهم في عبادة الأصنام، والمنافقون يطلبون العزَّ بموافقة المشركين، دفع سبحانه التوهم بعد إثبات التوحيد بقوله: ﴿مَنْ كَانَ﴾ من المشركين والمنافقين ﴿يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ والشرف ﴿فَلِلَّهِ﴾ وحده ﴿الْعِزَّةُ﴾ والشرافة الدنيوية والأخروية ﴿جَمِيعاً﴾ فليطلبها من عنده بطاعته وعبادته، فإن الشيء لا يطلب إلا من عند صاحبه ومالكه، وفي الحديث: «أَنَّ رَبَّكُمْ يَقُولُ كُلَّ يَوْمٍ: أَنَا الْعَزِيزُ، فَمَنْ أَرَادَ عِزَّ الدَّارَيْنِ، فَلْيَطِيعِ الْعَزِيزَ»<sup>٤</sup> ولذا أثبت العزة لرسوله وللمؤمنين في الآية الأخرى، لأنهم أطاعوه.

١. في النسخة: تنتشر. ٢. الطور: ٥٢/٦.

٣. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢٨٢/١٤٠، تفسير الصافي: ٤/٢٣٣.

٤. مجمع البيان: ٨/٦٢٨، تفسير الصافي: ٤/٢٣٣.



ثُمَّ لَمَّا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ: نَحْنُ لَا نَعْبُدُ مِنْ لَا نَرَاهُ، فَإِنَّ الْبَعْدَ مِنَ الْمَعْبُودِ ذُلٌّ وَهَوَانٌ، فَرَدَّهُمْ سُبْحَانَهُ يَقُولُهُ: ﴿إِلَيْهِ﴾ تَعَالَى ﴿يَضَعُ الذِّكْرَ الطَّيِّبَ﴾ الَّذِي تَتَكَلَّمُونَ بِهِ مِنْ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ وَسَائِرِ الْأَذْكَارِ الْمُنْدُوبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالِدُعَاءِ، فَإِنْ لَمْ تَرَوْهُ فَإِنَّهُ يَسْمَعُ كَلَامَكُمْ، وَيَقْبَلُ الطَّيِّبَ مِنْ أَقْوَالِكُمْ ﴿وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ﴾ الْمُصَدِّقَ لِلْكَلِمِ وَالْقَوْلَ يَقْوَى ذَلِكَ الْقَوْلُ وَ﴿يَرْفَعُهُ﴾ إِلَى مَحَلِّ الْقَبُولِ.  
عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الْكَلِمُ الطَّيِّبُ: قَوْلُ الْمُؤْمِنِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، عَلَيَّ وَلِيٌّ اللَّهُ وَخَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ: الْإِعْتِقَادُ بِالْقَلْبِ أَنَّ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَا شَكَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ»<sup>١</sup>.

وَعَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: إِنْ لَكَ قَوْلٌ مُصَدِّقٌ مِنْ عَمَلٍ يُصَدِّقُهُ أَوْ يُكَذِّبُهُ، فَإِذَا قَالَ ابْنُ آدَمَ وَصَدَّقَ قَوْلُهُ بِعَمَلِهِ، رَفَعَ قَوْلُهُ بِعَمَلِهِ إِلَى اللَّهِ، وَإِذَا قَالَ وَخَالَفَ عَمَلَهُ قَوْلَهُ، رَدَّ قَوْلَهُ عَلَى عَمَلِهِ الْخَبِيثِ وَهُوَ فِي النَّارِ»<sup>٢</sup>.

وَعَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصاً، طُمِسَتْ ذُنُوبُهُ كَمَا يُطْمَسُ الْحَرْفُ الْأَسْوَدُ مِنَ الرَّقِّ الْأَبْيَضِ، فَإِذَا قَالَ ثَانِيَةً: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصاً، خَرَقَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَصَفُوفُ الْمَلَائِكَةِ حَتَّى يَقُولَ الْمَلَائِكَةُ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ: اخْشَعُوا الْعِظْمَةَ أَمْرُ اللَّهِ، فَإِذَا قَالَ ثَالِثَةً مُخْلِصاً: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، لَمْ تَنْتَهُ دُونَ الْعَرْشِ، فَيَقُولُ الْجَلِيلُ: اسْكُنِي فَوْعِزَتِي وَجَلَالِي لِأَغْفِرَ لِقَائِكَ بِمَا كَانَ فِيهِ» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿إِلَيْهِ يَضَعُ الذِّكْرَ الطَّيِّبَ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ يَرْفَعُهُ﴾ يَعْنِي إِذَا كَانَ عَمَلُهُ خَالِصاً ارْتَفَعَ قَوْلُهُ وَكَلَامُهُ<sup>٣</sup>.

ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَى الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ الْخَبِيثَيْنِ، وَمَا يَسْتَحَقُّ فَاعِلُهُمَا يَقُولُهُ: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ﴾ الْمَكْرَاتِ ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ كَمَكْرَاتِ قَرِيشٍ فِي إِطْفَاءِ نُورِ النَّبِيِّ ﷺ وَكَمَكْرَاتِ أَصْحَابِ السَّقِيفَةِ فِي غَضَبِ خِلَافَةِ الْوَصِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَكْرَ كُلِّ مُبْطِلٍ فِي إِذْهَابِ الْحَقِّ ﴿لَهُمْ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لَا تُوصَفُ شِدَّتُهُ ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ﴾ الْمَاكِرِينَ ﴿هُوَ يَبْوَرُ﴾ وَيَفْشَدُ وَيَفْنَى بِلَا نَتِيجَةَ، بِخِلَافِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فَإِنَّهُ يَبْقَى وَيَفِيدُ بِحَالٍ عَامِلِهِ.

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ [١١]

ثم عاد سبحانه إلى الاستدلال على قدرته وعلمه الموقوف عليهما المعاد بقوله: ﴿وَأَقْهَ﴾ هو القادر الذي ﴿خَلَقَكُمْ﴾ أولاً ﴿مِنْ تُرَابٍ﴾ بخلق أبيكم آدم منه ﴿ثُمَّ﴾ خلق ذريته ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وما يخرج من بين الصلب والترائب ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ﴾ يا بني آدم ﴿أَزْوَاجًا﴾ وأصنافاً كالأسود والأبيض والأحمر والذكر والأنثى ﴿وَمَا تَحْمِلُ﴾ ولا تحبل ﴿مِنْ أَنْثَى﴾ ومراة ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ حملها ﴿إِلَّا﴾ حال كونها ملتبسة ﴿بِعِلْمِهِ﴾ تعالى، وتابعة لمشيئته، يعلم مكان حملها ووضعها ووقتهما، وأحوال طفلها من الذكورة والأنوثة والنقص والتمام وغير ذلك ﴿وَمَا يُعَمَّرُ﴾ ولا تطول حياة ﴿مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ وطويل الحياة ﴿وَلَا يُنْقَضُ مِنْ﴾ مدة حياة أحدٍ على حسب الاقتضاء الأول و ﴿عُمُرِهِ﴾ لعروض المانع ﴿إِلَّا﴾ أنه مكتوب ﴿فِي كِتَابٍ﴾ ولوح محفوظ عند الله يقرأه الملائكة المقربون والنفوس القدسية المتصلة باللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ المذكور من خلقكم من تراب إلى آخر ما في الآية، أو من ثبت زيادة الأعمار ونقصها في الكتاب ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ القادر على كل شيء الغني في أفعاله عن الأسباب ﴿يَسِيرُ﴾ وسهل.

قال جمع: أن عمر شخص واحد لا يزيد ولا ينقص، والحق أن لكل أحد بمقتضى الحكمة الأولية مع قطع النظر عن العوارض والطوارئ أجلاً معيناً مكتوباً في لوح المحو والإثبات، ثم تلك الحكمة تتغير بالعوارض، فقد يعرض أمر يقوي مقتضى البقاء وزيادة الحياة، ويغير المصلحة الأولية، فيزيد في العمر، وقد يعرض أمر مقتضى لنقص لنقصه، ويسمى ذلك بالأجل المعلق، ولا يموت أحد به، ومن المعلوم أن الله من أول الخلق عالم بالمصلحة الأولية وعروض العوارض ووقوع الموت في أي وقت وأي ساعة بلا تأخر ولا تقدم، ويسمى ذلك بالأجل الحتمي، ولا يبقى أحد بعد بلوغه، ولا يعقل البداء لله.

عن النبي ﷺ: «الصدقة وصلة الرّحم تُعمران البلاد، وتزيدان في الأعمار»<sup>١</sup>.

وعنه عليه السلام: «بر الوالدين يزيد في العمر»<sup>٢</sup>.

وعنه عليه السلام: «إن المرء ليصل رحمه وما بقي من عمره إلا ثلاثة أيام (أو ثلاث سنين) فيئسنه (فيزيده) الله إلى ثلاثين سنة، وإنه ليقطع رحمه وقد بقي من عمره ثلاثون سنة، فيزده الله إلى ثلاثة أيام»<sup>٣</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: «ما نعلم شيئاً يزيد في العمر إلا صلة الرّحم حتى إن الرجل يكون أجله ثلاث

١. جوامع الجامع: ٣٨٧، تفسير الصافي ٤: ٢٣٤، تفسير روح البيان ٧: ٣٢٨.

٢ و ٣. تفسير روح البيان ٧: ٣٢٨.

سنين، فيكون وصولاً للرجيم، فيزيد الله في عمره ثلاثين سنة فيجعلها ثلاثاً وثلاثين سنة، ويكون أجله ثلاثاً وثلاثين سنة، فيكون قاطعاً للرجيم، فيقيصه الله عز وجل ثلاثين سنة ويجعل أجله إلى ثلاث سنين<sup>١</sup>.

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَابٌ فُرَاتٍ سَائِعٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ  
تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ  
لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [١٢]

ثم بالغ سبحانه في إثبات قدرته بالآثار الظاهرة بقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ المتشابهان في الصورة في طعم الماء، بل يقال لواحد منهما: ﴿هَذَا﴾ الماء ﴿عَذَابٌ﴾ وخَلَوٌ و﴿فُرَاتٌ﴾ وطَيِّبٌ و﴿سَائِعٌ شَرَابُهُ﴾ ومَرِيٌّ ماؤه ﴿و﴾ للآخر ﴿هَذَا﴾ الماء ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ هو مَرٌّ شديد الملوحة ﴿وَمِنْ كُلِّ﴾ منها مع هذا الاختلاف تصيدون السموك والطيور و﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ جديداً لأنه يفسد بترك التسارع إلى أكله ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ من كل منهما، أو من المِلْحِ الأجاج اللؤلؤ والمرجان، وتجعلونهما ﴿حَلِيَّةً﴾ وزيئة ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ قيل: إسناد اللبس إلى الرجال باعتبار لبس النساء لهم، فكانهم لبسوها<sup>٢</sup>.

أقول: لا يحتاج إلى هذا التكلف بعد كون الخطاب إلى الناس والنساء منهم ﴿وَتَرَى﴾ أيها الرائي ﴿الْفُلْكَ﴾ والسفينة ﴿فِيهِ﴾ العَذْبُ منه والمِلْحُ ﴿مَوَاجِرَ﴾ وشواقٍ للماء بحريها مُقْبِلَةً ومدبرة ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ وتطلبوا بعضاً ﴿مِنْ﴾ نعم ربكم و﴿فَضْلِهِ﴾ بالنقلة فيها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمه وتقومون بحققها حيث ترون أنه تعالى جعل المهالك سبباً لوجود المنافع وحصول المعاش.

قال جمع من مفسري العامة: إن المراد من الآية ضَرْبُ المَثَلِ في حق الكفر والإيمان، والكافر والمؤمن، فالبحر العَذْبُ مَثَلٌ للإيمان أو المؤمن، والبحر المِلْحُ الأجاج مَثَلٌ للكفر أو الكافر، فكما لا يُشَبِّه البحر العَذْبُ بالبحر الأجاج، كذلك لا يُشَبِّه الإيمان أو المؤمن بالكفر أو الكافر، بل حال الكفر أو الكافر أدون من البحر الأجاج؛ لأنه يُشارك البحر العَذْبُ في كثير من المنافع، كالمنافع المذكورة، ولا نفع للكفر أو الكافر<sup>٣</sup>.

يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ كُلَّ

١. الكافي ٢: ١٢٢/١٧، تفسير الصافي ٤: ٢٣٤.

٢. تفسير روح البيان ٧: ٣٣٠.

٣. تفسير الرازي ٢٦: ١٠، تفسير روح البيان ٧: ٣٣٠.

يَجْرَى لِأَجْلِ مُسَمًّى ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا  
يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ \* إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا  
لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ [١٣ و ١٤]

ثم ذكر سبحانه من آثار قدرته بقوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ وقد مرّ تفسيرهما مكرراً ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ وقهرهما تحت إرادته ﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجْرَى﴾ ويسير في فلكه بحركته الخاصة وعلى المدارات اليومية بحركته القسرية ﴿لِأَجْلِ مُسَمًّى﴾ ومعين قدره الله لجريهما، وهو يوم القيامة.

أيها الناس ﴿ذَلِكُمْ﴾ القادر الحكيم الذي فعل هذه الأعاجيب هو ﴿اللَّهُ﴾ الذي هو ﴿رَبُّكُمْ﴾ واعلموا أن ﴿لَهُ﴾ وحده ﴿الْمُلْكُ﴾ والسلطنة التامة في عالم الوجود من الملك والملكوت والجبروت، إذن خصوا العبادة به، ولا تشركوا به غيره.

ثم بين أن الأصنام فاقدون لصفات الألوهية بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ والقشرة البيضاء الرقيقة الملتفة على النواة ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ وتنادوهم أو تسألوهم حاجة ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ لأنهم جمادات ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على الفرض دعاءكم ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ وما أجابوكم، لعدم قدرتهم على التطق، أو ما قضا حاجتكم لعجزهم عن دفع الضرر عن أنفسهم وجلب نفع إلى أنفسهم بوجه، فكيف بدفع الضرر عنكم، أو إيصال النفع إليكم؟ هذا في الدنيا، وأما في الآخرة بعد صيرورتهم أحياء ناطقين ﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ إياهم بالله، ويُنكرون أنكم تعبّدوهم من دون الله، ﴿وَوَ﴾ اعلم أنه ﴿لَا يُنَبِّئُكَ﴾ ولا يخبرك يا محمد بواقع الأمور أحد ﴿مِثْلُ﴾ إله ﴿خَبِيرٍ﴾ بجميع الأمور وحقائقها وواقعاتها بحيث لا يمكن السهو والغلط والاشتباه في إخباره.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ \* إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ \* وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ \* وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِمْلَتَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ [١٥-١٨]

ثم أنه تعالى بعد بيان عجز الأصنام من إجابة عابديها، وعدم نفعهم لهم في الدنيا والآخرة، بل يضادوا عابديهم فيها، أعلن في الناس بحاجة جميع الخلق إليه تعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الأبيض والأحمر والأسود ﴿أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾ والمحتاجون ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ في وجودكم وبقائكم ورزقكم وعزكم ودينكم في الدنيا، ونجاتكم ونيلكم بالدرجات العالية في الآخرة ﴿وَاللَّهُ﴾ الواجب الوجود

﴿هُوَ﴾ وحده ﴿الْغَنِيُّ﴾ عن كل شيء مما سواه ﴿الْحَمِيدُ﴾ والمستحق للثناء الجميل على نعمه العامة والخاصة.

قيل: لما كثرت الدعاء من النبي ﷺ إلى عبادة الله والامتناع منها من الكفار، قالوا: لعل الله محتاج إلى عبادتنا حتى يأمرنا أمراً بالغا، ويهتدنا على تركها مبالغا، فأنزل الله ﴿أَنْتُمْ أَفْقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾<sup>١</sup>.

ثم بين قدرته وغناه عنهم بقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ﴾ إذهابكم وإهلاككم ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ عن وجه الأرض، ويهلككم جميعاً بالعذاب ﴿وَيَأْتِي﴾ مكانكم ﴿بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أقوى وأحسن وأطوع منكم ﴿وَمَا ذَلِكَ﴾ الإذهاب والإتيان ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ القادر على كل شيء الغني عن الأسباب ﴿بِعَزِيزٍ﴾ ومتعذر ولا صعب ومتعسر، بل عليه هين يسير.

ثم بين سبحانه أن إصرار النبي ﷺ على دعوتهم ليس لتضرره بكفرهم بقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ ولا تحمل نفس ﴿وَأَزِرُّهُ﴾ وحاملة ثقل العصيان ﴿وَزُرُّ﴾ نفس ﴿أُخْرَى﴾ وثقل عصيانها، بل إنما تحيل كل نفس إثم نفسها الذي اكتسبته في الدنيا، ولا يتوآخذ شخص إلا على ما ارتكبه من الذنب، لا على ما ارتكبه غيره ﴿وَإِنْ تَدْعُ﴾ نفس ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ ومثقلة للمعصية أحداً ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ وثقلها الذي عليها من الذنوب ليحمل شيئاً منه ﴿لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ ولو كان قليلاً، ولا يجيب دعوتها ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المدعو ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ من الداعي كالأب والأم والولد والأخ، إذ لكل منهم يومئذ شأن يغنيه وحمل يعجزه، فكفرتم وعصيانكم لا يصبر النبي ﷺ.

إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ \* وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ \* وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ \* وَلَا الظَّلُّ وَلَا الْخُرُورُ [١٨-٢١]

ثم لما كان فيه تهديد شديد، وما كاد يؤثر في قلوب المصرين على الشرك، سلى سبحانه نبيه ﷺ بقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ ويفيد إنذارك وعظمتك المؤمنين ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ ويخافون ﴿رَبَّهُم﴾ الكائنين عنه تعالى ﴿بِالْغَيْبِ﴾ المحجوبين عن رؤيته ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ وراعوا حدودها وشرائعها، فأنهم المتفوعون بانذارك دون المتمردين الطاغين من الناس، وليس عليك إيمانهم، وإنما عليك الإنذار، وقد أديت ما عليك وأبلغت، ثم بين سبحانه أنه كما لا يصبر عصيان أحد غيره، لا ينفع طاعة أحد

غيره بقوله: ﴿وَمَنْ تَزَكَّى﴾ وتطهر نفسه من الذنوب ﴿فَأَنَّمَا يَتَزَكَّى﴾ ويتطهر ونفعه ﴿لِنَفْسِهِ﴾ وقيل: إن المراد من أعطى الزكاة فأما ثوابه لنفسه<sup>١</sup> ﴿وَالِىَ آفَةِ الْمَصِيرِ﴾ والمرجع لكل من الكافر والمؤمن، فيجازي كلًّا على حسب استحقاقه.

﴿وَمَا يَسْتَوِى﴾ عنده في المجازاة الكافر الذي هو ﴿الْأَعْمَى﴾ القلب ﴿وَالْمُؤْمِنُ الَّذِي هُوَ﴾ ﴿الْبَصِيرُ﴾ بالحق ووظائفه الإلهية ﴿وَلَا﴾ فنون الباطل التي هي ﴿الظُّلُمَاتُ﴾ في الآخرة ﴿وَلَا﴾ الحق الذي هو ﴿النُّورُ﴾ وأفراده، لأن الحق واحد ﴿وَلَا الظُّلُّ﴾ الذي هو كناية عن ثواب الله والراحة الأبدية ﴿وَلَا الْحُرُورُ﴾ الذي هو كناية عن عذاب النار.

وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ  
فِي الْقُبُورِ \* إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ \* إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ  
إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ \* وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ  
بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ \* ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ

نكير [٢٦-٢٢]

ثم ضرب سبحانه مثلاً للمؤمن والكافر بقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى﴾ المؤمنون الذين هم ﴿الْأَحْيَاءُ وَلَا﴾ الكفار الذين هم ﴿الْأَمْوَاتُ﴾.

ثم بين قدرته على قهرهم بالايمان بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ بقدرته ﴿يُسْمِعُ﴾ كلامه ويفهمه ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ إسماعه وإفهامه بإحياء قلبه ﴿وَمَا أَنْتَ﴾ يا محمد ﴿بِمُسْمِعٍ﴾ كلامك ﴿مَنْ﴾ هو كالميت الذي ﴿فِي الْقُبُورِ﴾ لعدم قدرتك على ذلك ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ وما أنت إلا مخوف للناس من عذاب الله.

ثم بين سبحانه أن إنذاره ليس من قيل نفسه بقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ إلى الناس حال كونك مصحوباً ﴿بِالْحَقِّ﴾ وملتبساً بالصدق، لتكون لهم ﴿بَشِيرًا﴾ بالثواب على إيمانهم ﴿وَنَذِيرًا﴾ لهم بالعقاب على كفرهم وشركهم ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ﴾ وما من جماعة وأهل عصر ﴿إِلَّا خَلَا﴾ ومضى ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ مبعوث من الله لإنذارهم وهدايتهم إلى الحق، من رسول أو وصي رسول، فلست بدعاً من الرسل، وفي الآية دلالة على أنه لا يخلو زمان من حجة إما ظاهر مشهور أو غائب مستور، كما دلت عليه الروايات الكثيرة<sup>٢</sup>.

١. تفسير روح البيان ٧: ٣٣٧.

٢. الكافي ١: ٦/١٩٤، تفسير القمي ٢: ٢٠٩، عنهما تفسير الصافي ٤: ٢٣٦.

ثُمَّ سَلَىٰ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ ﷺ عَلَىٰ تَكْذِيبِ قَوْمِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ فلا ثَبَالَ تَكْذِيبِهِمْ، وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِ ﴿فَقَدْ كَذَّبَ﴾ الأُمَمُ الْعَاتِيَةُ الطَّاغِيَةُ ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾. وفي الأعصار السابقة على عصرهم رسلهم، ثُمَّ كَانَهُ قِيلَ: هل كان لهم رُسُلٌ؟ فأجاب سبحانه بقوله: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مستدلّين على صدق رسالتهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات الباهرات الدالات على صدقهم وصحة نبوتهم ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ والصُّحُفِ السماوية كصُحُفِ شِيث وإدريس وإبراهيم عليه السلام ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ المُوضِح للحقّ المبين، لما يُحتَاج إليه من الحكم والأحكام والمواعظ والأمثال والوعد والوعيد ونحوها، كالتوراة والإنجيل ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ﴾ بعداب الاستئصال ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأنكروا رسالتهم وكذبوهم ﴿فَكَتِفَ﴾ كَانَ تَكْيِيرٌ وتعيري عليهم بالعقوبات الشديدة التي صارت عبرةً لمن بعدهم إلى يوم القيامة، وفيه وعيدٌ لمكذّبي النبي ﷺ ووعده له بالنصر والظفر.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ \* وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ [٢٧ و ٢٨]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَىٰ بَعْدَ حِكَايَةِ تَكْذِيبِ الرِّسْلِ فِي دَعْوَى التَّوْحِيدِ وَالرَّسَالَةِ، شَرَعَ فِي الاسْتِدْلَالِ عَلَى تَوْحِيدِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يابن آدم، أو يا محمد، ولم تعلم ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ بِقُدْرَتِهِ الْكَامِلَةِ ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ بِالْأَمْطَارِ.

ثُمَّ عَدَلَ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ إِظْهَاراً لِكَمَالِ الْعِتَاءِ بِبَدِيعِ صُنْعِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ مِنَ الْأَرْضِ وَالْأَشْجَارِ ﴿بِهِ ثَمَرَاتٍ﴾ كَثِيرَةً ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ وَأَنْوَعَهَا كَالرُّمَانِ وَالتَّفَاحِ وَالتِّينِ وَالْعِنَبِ وَغَيْرِهَا، وَأَصْنَافِهَا أَوْ هَيَاتِهَا مِنَ الصُّفْرِ وَالْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ وَالسَّوَادِ وَغَيْرِهَا ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ وَخُطَطٌ وَطُرُقٌ ظَاهِرَةٌ. وَقِيلَ: يَعْنِي ذُو جُدَدٍ ﴿بَيَضٌ وَحُمْرٌ﴾ كُلٌّ وَاحِدَةٌ مِنَ الْبَيَضِ وَالْحُمْرِ ﴿مُخْتَلِفٌ﴾ أَيْضاً ﴿أَلْوَانُهَا﴾ بِالشَّدَّةِ وَالضَّعْفِ وَجُدَدٌ سُودٌ ﴿وَغَرَابِيبُ﴾ وَبِالْغَايَةِ أَعْلَىٰ دَرَجَةِ السَّوَادِ بِحَيْثُ لَا يُمَكِّنُ الْاِخْتِلَافَ فِيهَا.

ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ السَّوَدَ الْمَحْذُوفَ الْمَوْكَدَ بِالْغَرَابِيبِ بِقَوْلِهِ: ﴿سُودٌ﴾ فَعَلَىٰ مَا فَسَّرْنَا الْآيَةَ يَكُونُ الْمَقْصُودُ بَيَانِ اِخْتِلَافِ الطَّرِيقِ فِي اللَّوْنِ كَاِخْتِلَافِ الثَّمَارِ فِي اللَّوْنِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمَقْصُودُ بَيَانِ اِخْتِلَافِ نَفْسِ الْجِبَالِ فِي اللَّوْنِ، فَبَعْضُهَا تَكُونُ ذَا جُدَدٍ بَيَضٍ وَحُمْرٍ، وَبَعْضُهَا يَكُونُ كُلُّهُ أَسْوَدَ ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ﴾ كَالْفَرَسِ وَالبَغْلِ وَالْحِمَارِ ﴿وَأَلْأَنْعَامِ﴾ كَالْإِبِلِ وَالبَقَرِ وَالْغَنَمِ ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ بَأَنَّ

منهم أبيض، ومنهم أحمر، ومنهم أسود، ومنهم أصفر، ومنهم على لونٍ آخر ﴿كَذَلِكَ﴾ الاختلاف الكائن في الثمار والجبال.

إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ \* إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ \* لِيُؤْتِيَهُمُ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ [٢٨ - ٣٠]

ثم لما خص سبحانه تأثير الإنذار بالذين يخشون ربهم بالغيب، بين اختصاص الحشية بالعارفين بالله بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ﴾ بين ﴿عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ بالله العارفون بشؤونه وعظمته وقهارته لا غيرهم، لأن الحشية متوقفة على معرفة المخشي منه بالعظمة والمهابة والقدرة والقهارية، كما بين سبحانه علّة وجوب خشيته بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ وغالب على من عصاه، وقادر على الانتقام ممن عاداه وخالفه ﴿غَفُورٌ﴾ لمن يخشاه ويطيعه، فمن كان أعلم به تعالى كان أخشى منه كما قال النبي ﷺ: «أنا أخشاكم من الله، وأتقاكم له»<sup>١</sup>.

وروي عنه ﷺ أنه سُئل: أينا أعلم؟ قال: «أخشاكم من الله»<sup>٢</sup>.

عن السجاد عليه السلام، قال: «ما العلم بالله والعمل إلّا إلفان مؤتلفان، فمن عرف الله خافه، وحنّه الخوف على العمل بطاعة الله، وإن أرباب العلم وأتباعهم الذين عرفوا الله فعملوا له ورغبوا إليه، وقد قال الله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ﴾» إلى آخره<sup>٣</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: «دليل الحشية التعظيم لله والتمسك بخالص الطاعة وأوامره، والخوف والحذر، ودليلهما العلم»<sup>٤</sup> ثم تلا هذه الآية.

أقول: ولذا مدح الله العلماء بالعمل بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ حق تلاوته، ويهتمون بالعبادات البدنية التي أفضلها الصلاة كما قال تعالى: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ بأدائها وشرائطها، وبالعبادات المالية كما قال سبحانه: ﴿وَأَنفَقُوا﴾ في سبيل الله ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ وأعطيناهم من الأموال ﴿سِرًّا﴾ وخفية من الناس، لإدراك فضيلة الصدقة السرية ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ وجهاراً لترغيب الناس إليه، وهم بأعمالهم وعباداتهم ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً﴾ ومباعةً مع ربهم في سوق الدنيا ﴿لَّن تَبُورَ﴾ ولن تخسر تلك التجارة أبداً ﴿لِيُؤْتِيَهُمُ﴾ ويعطيهم على أعمالهم ﴿أَجُورَهُمْ﴾ التي وعدهم بلسان نبيه في

١. تفسير أبي السعود ٧: ١٥١، تفسير روح البيان ٧: ٣٤٤.

٢. تفسير روح البيان ٧: ٣٤٤. ٣. الكافي ٨: ٢/١٦، تفسير الصافي ٤: ٢٣٧.

٤. مصباح الشريعة: ٢٣، تفسير الصافي ٤: ٢٣٧.



كتابه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾<sup>١</sup> ﴿وَيَزِيدُهُم﴾ الله على ما يستحقون ما لم يخطر ببالهم ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وجوده وخزائن رحمته، كقبول شفاعتهم في العصاة من أقربائهم وأصدقائهم ومحبيهم ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿عَفُورٌ﴾ وستار لفرطاتهم ﴿شَكُورٌ﴾ لطاعاتهم، ومجازيهم عليها أفضل الجزاء.

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ \* ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ [٣١ و ٣٢]

ثم لما ذكر سبحانه تلاوة العلماء كتابه الكريم مدح كتابه بقوله: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ بتوسط جبرئيل ﴿مِنْ الْكِتَابِ﴾ الحميد والقرآن المجيد ﴿هُوَ﴾ بالخصوص ﴿الْحَقُّ﴾ الذي يجب الأخذ به، والعمل بما فيه، وأدل الدليل على حقانيته وصدقه، وكونه منزلاً من الله، إنه يكون ﴿مُصَدِّقًا﴾ وموافقاً في العلوم والمعارف وأصول الأحكام والحكم والمواعظ ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وما قبله من الكتب السماوية كالتوراة والانجيل والزبور وغيرها، مع كون من جاء به أمياً لم يقرأ الكتب، ولم يجالس أحداً من علماء أهل الكتاب، وإن اعترض المشركون عليك وقالوا: لم أوحى إليك ولم يوح إلى رجل من القريتين عظيم؟ قل: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ﴾ القابلين للإيحاء إليهم وغير القابلين له ﴿لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ يعلم بواطنهم ومن قوة عقولهم ونورانية طبيعتهم وقلوبهم، ويرى ظواهرهم من حسن أخلاقهم وسيرتهم، فيصطفي لوجه ورسالته أعتلهم وأفضلهم وأكملهم، ولا ينظر إلى كثرة جاههم ومالهم وأولادهم وأعوانهم ﴿ثُمَّ﴾ بعد إعطائك الكتاب العظيم وإيجابه إليك ﴿أَوْرَثْنَا﴾ وأعطينا ذلك ﴿الْكِتَابَ﴾ المنزل إعطاء إرث الوالد لولده ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَاهُمْ﴾ وانتجبناهم ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ للإعطاء والإكرام ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ بمخالفته لأحكامه وعصيانه ربّه ﴿وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾ ومتوسط في العمل بالكتاب، لا مُجَدِّ فيه ولا مُسَامِحٌ ومُساهل ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ﴾ ومتقدّم على جميع الناس في العمل ﴿بِالْخَيْرَاتِ﴾ الأعمال الصالحات ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وإرادته وتوفيقه ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من إرث الكتاب والسبق بالخيرات ﴿هُوَ﴾ بالخصوص ﴿الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ من الله الكبير، والإنعام الجزيل من المنعم القدير.

قال المفسرون من العامة: إن المراد من المصطفين في الآية جميع الأمة<sup>١</sup>. ورووا عن النبي ﷺ أنه لما نزلت هذه الآية فرِح فرحاً شديداً وقال ثلاثاً: «أمتي ورب الكعبة»<sup>٢</sup>.

واختلفت أقوالهم في المراد من الفرق الثلاث: قيل: الظالم من رجحت سيئاته حسناته، والمقتصد من تساوى، والسابق من رجحت حسناته<sup>٣</sup>. وقيل: الظالم هو الموحد غير المطيع، والمقتصد هو الموحد المطيع، والسابق: هو الموحد الذي لا يتوجه إلى غير الله<sup>٤</sup>. وقيل: الظالم هو المرتكب للكبائر، والمقتصد هو المرتكب للصغائر، والسابق بالخيرات<sup>٥</sup>. وقيل: الظالم أصحاب المشأمة، والمقتصد أصحاب الميمنة، والسابق بالخيرات<sup>٦</sup>، السابقون المقربون<sup>٧</sup>، إلى غير ذلك من الأقوال الكثيرة.

وفي روايات أهل البيت ﷺ: أن المراد من المصطفين الذين أورشوا الكتاب أولاد علي وفاطمة ﷺ<sup>٨</sup>. وفي بعضها: المراد من الظالم من لا يعرف الإمام، ومن المقتصد العارف به، ومن السابق الإمام، كما عن الباقر<sup>٩</sup> والصادق<sup>١٠</sup> والرضا<sup>١١</sup> والعسكري<sup>١٢</sup> ﷺ.

وفي بعضها: المراد من الظالم من استوت حسناته وسيئاته، ومن المقتصد العابد لله حتى يأتيه اليقين، ومن السابق من دعا إلى سبيل ربه، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ولم يكن للمُضِلِّين عَصْداً، ولا للمُخَانِثِينَ خَصِيماً، ولم يَرْضَ بحكم الفاسقين إلا من خاف على نفسه ودينه ولم يجد أعواناً، كما عن الصادق ﷺ<sup>١٣</sup>.

وعن الباقر ﷺ: «أما الظالم لنفسه ها هنا من عَجِلَ صالحاً وآخر سيئاً، وأما المقتصد فهو المتعبد المجتهد، وأما السابق بالخيرات فعليّ والحسن والحسين ومن قُتِلَ من آل محمد ﷺ شهيداً»<sup>١٤</sup>.

جَنَاتٌ عَدَنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا  
خَرِيرٌ \* وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَكَفُورٌ شَكُورٌ \*  
الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا

١. تفسير أبي السعود ٧: ١٥٣، تفسير روح البيان ٧: ٣٤٦.

٢. تفسير روح البيان ٧: ٣٤٧.

٣. تفسير الرازي ٢٦: ٢٤.

٤ و ٥. تفسير الرازي ٢٦: ٢٥.

٦. زاد في النسخة: والسابقون.

٧. تفسير الرازي ٢٦: ٢٥.

٨. بصائر الدرجات: ٣/٦٥، تفسير الصافي ٤: ٢٣٨.

٩. الكافي ١: ١/١٦٧، تفسير الصافي ٤: ٢٣٨.

١٠. الكافي ١: ٢/١٦٧، تفسير الصافي ٤: ٢٣٨.

١١. الخرائج والجرائع ٢: ٩/٦٨٧، تفسير الصافي ٤: ٢٣٨.

١٢. الكافي ١: ٣/١٦٧، تفسير الصافي ٤: ٢٣٨.

١٣. معاني الأخبار: ٢/١٠٥، تفسير الصافي ٤: ٢٣٩.

١٤. مجمع البيان ٨: ٦٣٩، تفسير الصافي ٤: ٢٣٩.

## لُعُوبٌ [٣٣-٣٥]

ثُمَّ بَيَّنَّ سبحانه فضله الكبير بملاحظة أنه سبب للتفضلات المذكورة بقوله: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٌ﴾ وبساتين إقامة واستقرار لا رحيل منها، أو المراد بساتين خاصة اسمها عَدْنٌ ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ يوم القيامة، ثُمَّ ﴿يُحَلَّلُونَ﴾ وَيُزَيَّنُونَ ﴿فِيهَا﴾ رجالاً ونساءً ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ مَصَّوغةٍ ﴿مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ وَدُرًّا بالنصب عطفًا على محلّ الذهب، والمعنى وَيُحَلَّلُونَ لُؤْلُؤًا ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وثوب رقيق من إبريسم ﴿وَقَالُوا﴾ عند الدخول في الجنات تشكرًا لما صنع بهم رَبُّهُمْ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ﴾ وَأَزَالَ ﴿عَنَّا﴾ بِتفضله علينا بالجنة ﴿الْحَزْنَ﴾ وَالْغَمَّ.

عن النبي ﷺ: «أما السابق فيدخل الجنة بغير حساب، وأما المقتصد فيحاسب حساباً يسيراً، وأما الظالم لنفسه فيحبس في المقام، ثُمَّ يدخل الجنة، فهم الذين قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا﴾ الْحَزْنَ»<sup>١</sup>.

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ للمذنبين ﴿شَكُورٌ﴾ للمطيعين بإثابتهم إلى غير نهاية ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا﴾ وَأَنْزَلَنَا ﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ والبقاء، وجنة لا خروج منها أبداً ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وإحسانه بلا حق لنا عليه ﴿لَا يَمَسُّنَا﴾ وَلَا يُصِيبُنَا ﴿فِيهَا نَصَبٌ﴾ وتعب ووجع، كما كان يُصِيبُنَا في الدنيا ﴿وَلَا يَمَسُّنَا﴾ وَلَا يَغْتَرِبُنَا ﴿فِيهَا لُغُوبٌ﴾ وكلال وعناء، إذ لا تكليف فيها ولا كَدٌّ، فَبَيَّنَّ سبحانه أن لهم السرور بالنجاة من العذاب، وبالدخول في الجنات، وبالأكرام بتحليتهم بأعلى الحلِي التي يتحلّى بها الملوك، وباللباس الذي هو أفضل الألبسة، وبالخلود في النعم، والراحة من جميع المكروه والآلام.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ \* وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ أَلَنذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ [٣٦ و ٣٧]

ثُمَّ أَنَّهُ تعالى بعد بيان حسن حال المؤمنين بيّن سوء حال الكفار في الآخرة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وبكتابه ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ بسبب كفرهم وأشدّ العذاب بارتكابهم أكبر الكبائر وأقبح القبائح ﴿لَا يُقْضَىٰ﴾ وَلَا يُحْكَمُ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بالموت ﴿فَيَمُوتُوا﴾ ويستريحوا منه ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ طَرْفَةَ عَيْنٍ ﴿مِنْ عَذَابِهَا﴾ بل كلما خبت زادوا سعيماً ﴿كَذَلِكَ﴾ الجزاء الفطيع

﴿نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ ومبالغ في الكفران، أو مصرّ على الطغيان ﴿وَهُمْ يَضْطَرُّونَ﴾ ويستغيثون ويَصْجُونَ ﴿فِيهَا﴾ ويقولون حال استغاثتهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا، وَخَلِّصْنَا مِنْ عَذَابِهَا، وَزِدْنَا إِلَى الدُّنْيَا نَازِلًا، وَنَجِّنَا مِنَ الدُّنْيَا بَاطِلًا﴾. ﴿وَنَعْمَلُ صَالِحًا﴾ فيها ﴿غَيْرَ﴾ العمل ﴿الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ ونحسبه صالحاً، فيقال لهم توبيخاً وتبكيتاً: ألم تعطيتكم المهلة ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ﴾ وثبّيتكم في الدنيا مقدار ﴿مَا يَتَذَكَّرُ﴾ ويتنبّه ﴿فِيهِ﴾ من الزمان ﴿مَنْ تَذَكَّرُ﴾ وتمكّنون فيه من التفكير وإصلاح العقائد والأعمال.

عن النبي ﷺ: «من عمّره الله ستين سنة، فقد أعذر إليه»<sup>١</sup>.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «العمر الذي أعذر الله إلى ابن آدم ستون سنة»<sup>٢</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: «هو توبّيح لابن ثمان عشرة سنة»<sup>٣</sup>.

﴿وَجَاءَكُمْ﴾ من قِبَلِ اللَّهِ ﴿الَّذِيذُ﴾ المُخَوِّفُ من عذاب هذا اليوم ﴿فَذُوقُوا﴾ العذاب، لأنكم ظلمتم أنفسكم بالكفر والطغيان على ربكم وتكذيب نبيكم ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ في هذا اليوم ﴿مِنْ﴾ نصيرٍ يدفع عنهم العذاب، ومعين يعينهم في الخلاص منه.

إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ \* هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا [٣٨ و ٣٩]

ثم لما قطع سبحانه رجاءهم العود إلى الدنيا، وأخبرهم بدوام عذابهم إلى الأبد، بين علمه بخبث ذاتهم وعودهم إلى الكفر والعصيان إن عادوا إلى الدنيا، وبنيتهم أنهم لو بقوا في الدنيا إلى الأبد لبقوا على الشُّرك والعصيان بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وخفيّاتهما، فيعلم خُبث طينة المُصْرِّين على الشُّرك بحيث لو رجعوا إلى الدنيا رجعوا إلى ما كانوا عليه من الشُّرك والعصيان، وأنهم كاذبون في قولهم: أخرجنا نعمل صالحاً، و﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ والنيات السوء التي في القلوب، فيعلم أن نية المشركين كانت في الدنيا أنهم لو كانوا باقين فيها أبداً الدهر لداموا على الشُّرك، ولذا يُعَذَّبهم أبداً على نياتهم، فليس لأحد أن يقول: لا يجوز العذاب الأبدي على الشُّرك في أيام معدودة.

ثم ذكر سبحانه بعد تهديد المشركين بعذاب النار في القيامة منته عليهم إثباتاً لتوحيده، وإتماماً

١. مجمع البيان ٨: ٦٤١، تفسير الصافي ٤: ٢٤١.

٢. نهج البلاغة: ٣٢٦/٥٣٣، مجمع البيان ٨: ٦٤١، تفسير الصافي ٤: ٢٤١.

٣. مجمع البيان ٨: ٦٤١، تفسير الصافي ٤: ٢٤١.

لِحُجَّتِهِ، وتقريراً لعدم رجوعهم عن شركهم إذا رجعوا إلى الدنيا بقوله: ﴿هُوَ﴾ الله القادر ﴿الَّذِي جَعَلَكُمْ﴾ بقدرته وفضله ﴿خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ ومتصرفين فيها، ومُسَلِّطِينَ على الانتفاع بها وبنعيمها، أو خلفاء مَن كان قبلكم من الأمم، وأورثكم ما كان لهم من الأمتعة، وتبهم بسوء حال الماضين من المشركين، وأعلمكم بما نزل على الأقدمين من العاصين، ومع ذلك ما تنبهتم وما اتعظتم ﴿فَمَنْ كَفَرَ﴾ بالله والدار الآخرة ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ ووبال شركه وجحوده الحق من الطرد والنار، لا يتعداه إلى غيره ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ وغضباً شديداً يُوجب لهم العذاب الأبدي ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ وضرراً عظيماً لا يتصور فوقه الضرر، وهو فوات النعم الأبدية والراحة السرمدية.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا \* إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا [٤٠ و ٤١]

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بإلزام المشركين على إبطال الشرك، وتوبيخهم على عبادة ما لا يليق للعبادة، ولا دليل على جوازها بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للمشركين ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ وأخبروني ﴿شُرَكَاءَكُمُ﴾ والأصنام ﴿الَّذِينَ﴾ سميتهم من قبل أنفسكم أنداداً لربكم و ﴿تَدْعُونَ﴾ وتعبدونهم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الذي هو خالقكم والمنعم عليكم ﴿أَرُونِي﴾ وعينوا لي ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ السَّمَاءِ؟﴾ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ؟ مع الله ﴿فِي﴾ خلق ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ حتى تقولوا إنهم آلهة السماوات؟! ﴿أَمْ﴾ أعطينا الأصنام أو المشركين و ﴿آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا﴾ كتبنا فيه أن لهم الشفاعة، أو يجب عليكم عبادتهم ﴿فَهُمْ﴾ إذن ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ من الله وحجة كائنة ﴿مِنْهُ﴾ ليس أحد من الأمور حتى يجوز عقلاً أو تعبداً عبادتهم ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا﴾ السابقون أو الرؤساء ﴿بَعْضًا﴾ اللاحقين أو التابعين بأنه يشفعون عند الله ويقضون حوائج عابديهم ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ وباطلاً لا أصل له، وإيقاعاً في خطر العذاب.

ثم بين سبحانه أن عظمة القول بالشرك مما يزيل السماوات والأرض عن مقرهما بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ

يُمْسِكُ، وَيَحْفَظُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، بِقُدْرَتِهِ مِنْ «أَنْ تَزُولَا» أَوْ كَرَاهَةِ أَنْ تَزُولَا مِنْ مَقَرِّهِمَا بِسَبَبِ قَوْلِ الْمُشْرِكِينَ بِالشَّرْكَ بِاللَّهِ.

عن الرضا عليه السلام، قال: «بنا يُمْسِكُ الله السماوات والأرض أن تزولا»<sup>١</sup>.

﴿وَبِاللَّهِ وَآلَتِنَا﴾ عَنْ مَكَانِهِمَا وَمَقَرِّهِمَا، كَمَا يَزُولَانِ فِي يَوْمٍ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ فِيهِ غَيْرَ الْأَرْضِ، وَتُطَوَّى السَّمَاءُ كَطَيِّ السَّجْلِ لِلْكِتَابِ ﴿إِنْ أَمْسَكْتَهُمَا﴾ وَمَا حَفَظَهُمَا مِنَ الزَّوَالِ<sup>٢</sup> ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ غَيْرِ اللَّهِ وَ﴿مَنْ بَعْدِهِ﴾ أَوْ مِنْ بَعْدِ نَزُولِهِمَا ﴿إِنَّهُ﴾ تَعَالَى ﴿كَانَ حَلِيمًا﴾ غَيْرَ مُعَاجِلٍ بِعَقُوبَةِ الْكَفَّارِ بِإِزَالِهِمَا بِقَوْلِهِمْ بِالشَّرْكَ، مَعَ أَنَّهُ مُقْتَضٍ لِهَذِهِمَا هَذَا، وَمَعَ ذَلِكَ يُمْسِكُهُمَا وَيَمْنَعُهُمَا مِنَ الزَّوَالِ وَ﴿عَفُورًا﴾ لِمَنْ رَجَعَ عَنِ الشَّرْكَ وَتَابَ مِنَ الْكُفْرِ.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ  
فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا تَفُورًا \* اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا  
يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ  
اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا [٤٢ و ٤٣]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ حِكَايَةِ إِنكَارِ الْمُشْرِكِينَ التَّوْحِيدَ، حَكَى إِنكَارَهُمُ الرِّسَالَةَ وَإِصْرَارَهُمْ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: «وَأَقْسَمُوا» وَحَلَفُوا «بِاللَّهِ» مَعَ أَنَّ الْحَلْفَ بِاسْمِ اللَّهِ الْعَظِيمِ يَكُونُ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ وَأَكِيدَهُ وَغَلِيظَهُ، وَقَالُوا: وَاللَّهِ «لَئِنْ جَاءَهُمْ» نَبِيٌّ «نَذِيرٌ» وَمُخَوِّفٌ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ، كَمَا أَدْعَى كَثِيرٌ مِنَ الْأُمَمِ مَجِيئَهُ فِيهِمْ «لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ» وَأَطْوَعُ لَهُ «مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ» كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ، لَكُنَّا أَكْثَرَ اسْتِعْدَادًا وَعَقْلًا وَفَهْمًا وَذَكَاءً مِنْهُمْ «فَلَمَّا جَاءَهُمْ» مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ «نَذِيرٌ» مِنَ النَّذَرِ، وَأَفْضَلُهُمْ بِالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِ «مَّا زَادَهُمْ» مَجِيزُهُ أَوْ ذَلِكَ النَّذِيرُ «إِلَّا تَفُورًا» وَتَبَاعَدًا عَنْ طَاعَتِهِ وَالْإِهْتِدَاءِ بِهَدَايَتِهِ، وَكَانَ تَفُورُهُمْ «اسْتِكْبَارًا» وَتَعْظِيمًا «فِي الْأَرْضِ» وَ«عَتَوُا عَلَى اللَّهِ» وَمَكْرُوا «مَكْرَ السَّيِّئِ» أَوْ الْمَرَادُ مَا زَادَهُمْ إِلَّا اسْتِكْبَارًا، وَمَكْرَ السَّيِّئِ، وَالتَّدْبِيرَ الشَّنِيعَ، وَالحِيلَةَ الْقَبِيحَةَ فِي قَتْلِهِ وَإِبْطَالِ دَعْوَتِهِ ﴿وَبِاللَّهِ وَآلَتِنَا﴾ الْحَالُ أَنَّهُ «لَا يَحِيقُ» وَلَا يَحِيطُ «الْمَكْرُ السَّيِّئُ» وَبِإِلَالِهِ وَفَاعِلُهُ.

فِي الْحَدِيثِ: «لَا تَمْكُرُوا وَلَا تَعِينُوا مَا كَرَأَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾»<sup>٣</sup>.

١. كمال الدين ٦/٢٠٢، تفسير الصافي ٤: ٢٤٣.

٢. فِي النسخة: النزول.

٣. تفسير الرازي ٢٦: ٣٤، تفسير روح البيان ٧: ٣٦١.

وفي الآخر: «المكز والخديعة في النار»<sup>١</sup>.

رؤي أن قريشاً بلغهم قبل مبعث رسول الله ﷺ أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم، فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى، أتتهم الرسل فكذبوهم، وحلفوا كما حكى الله عنهم<sup>٢</sup>.

ثم هددهم سبحانه بقوله: ﴿فَهَلْ الْمُشْرِكُونَ يَنْظُرُونَ﴾ وينظرون ﴿إِلَّا سُنَّتَ﴾ الله في الأمم ﴿الْأُولَى﴾ وطريقته المألوفة الجارية في المكذبين السابقين وماكرهم بالنبيين من تعذيبهم وإهلاكهم ﴿فَلَنْ تَجِدَ﴾ يا محمد، أو يا بن آدم ﴿لِسُنَّتِ اللَّهِ﴾ وطريقة معاملته مع أعدائه وأعداء رسله ﴿تَبْدِيلًا﴾ بأن يغفو عن المكذبين الماكرين الذين كان بناؤه على تعذيبهم ﴿وَلَنْ تَجِدَ﴾ أبداً ﴿لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ ونقلاً لعذابه من المكذبين إلى غيرهم، ومن المستحقين إلى من عداهم، وعدم وجدانهما دليل على عدم وجودهما.

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنَّا لَهُمْ  
أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ  
كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا \* وَلَوْ يُوَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ  
دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ  
بَصِيرًا [٤٤ و ٤٥]

ثم استشهد سبحانه على سنته السابقة في الأمم بالآثار الباقية من المعذبين الماضين بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ قيل: إن التقدير أقعد المشركين في منازلهم<sup>٣</sup> ولم يسافروا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ولم يذهبوا إلى الشام واليمن والعراق للتجارة أو غيرها ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ بنظر الاعتبار إلى الديار الخربة التي بقيت من الأمم المهلكة، فيعلموا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ تكذيب الأمم ﴿الَّذِينَ﴾ عتوا على الله وكذبوا الرسل ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كعاد وثمود وقوم سبأ؟ ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُمْ كَانُوا﴾ في حياتهم ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فما أغنى عنهم شدة القوى وعظمة الأجساد وطول الأعمار، مع أنهم لم يكذبوا مثل محمد ﷺ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ﴾ عن إنفاذ إرادته وتعذيب أعدائه ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ كانن ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ ولم يفته، فهؤلاء أولى بأن لا يُعْجِزَهُ ولا يفوتوه ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ بأعمالهم وعقائدهم الفاسدة وأخلاقهم الرذيلة ﴿قَدِيرًا﴾ على تعذيبهم وإهلاكهم.

٢. تفسير أبي السعود ٧: ١٥٦، تفسير روح البيان ٧: ٣٦٠.

١. تفسير روح البيان ٧: ٣٦١.

٣. تفسير أبي السعود ٧: ١٥٧، تفسير روح البيان ٧: ٣٦٢.

ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ لَطْفَهُ بِالْكَفَّارِ وَالْعَصَاةِ بِإِمْهَالِهِمْ وَعَدَمَ مُوَاخَذَةِ كُلِّهِمْ مَعَ اسْتِحْقَاقِهِمْ لَتَعْجِيلِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يَوَازِئُ أَخَذَ اللَّهُ النَّاسَ﴾ وَيُعَجِّلُ عِقَابَهُمْ ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ وَكَفَرَهُمْ وَعِصْيَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا﴾ وَاحِدًا ﴿مِنْ﴾ جِنْسٍ ﴿دَابَّةٍ﴾ وَتَحَرَّكَ يَتَحَرَّكَ فِيهَا بِإِنْزَالِ الْعَذَابِ ﴿وَلَكِنْ﴾ بَلَطْفِهِ ﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾ وَيُمْهَلُهُمْ ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وَوَقْتُ مَعِينِ قَدَرِهِ لِمَوْتِهِمْ بِحُكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ، أَوْ قَدَرِهِ لِنَزُولِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ، أَوْ قَدَرِهِ لِحِسَابِ النَّاسِ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ الْمَقْدَرُ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ يَوَازِيهِمْ وَ﴿كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ لَا يَوَازِيهِمْ أَزِيدٌ مِنْ اسْتِحْقَاقِهِمْ، وَلَا أَقَلُّ مِنْهُ، وَلَا يَأْخُذُ الْبَرِّ بِالْمُجْرِمِ وَالْمُؤْمِنُ بِالْكَافِرِ، بَلْ يَجَازِي كَلًّا بِعَمَلِهِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ. وَقَدْ مَرَّ ثَوَابُ تِلَاوَةِ السُّورَةِ الْمُبَارَكَةِ فِي آخِرِ سُورَةِ سَبَأٍ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ عَلَى تَوْفِيقِهِ لِاتِّحَامِ تَفْسِيرِ السُّورَةِ وَلَهُ الشُّكْرُ.



## في تفسير سورة يس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَس \* وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ \* إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ \* عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ \*  
تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ \* لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ [١-٦]

ثم لما ختمت سورة الملائكة المبدوءة بإظهار غاية عظمة ذاته المقدسة بجعل الملائكة رسلاً المختمة بلوم المشركين على كذبهم في دعوى أنه إن جاءهم نذير لكانوا أشد تسليماً وأكثر اتباعاً له من اليهود والنصارى لقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا تَقْوَرًا﴾<sup>١</sup>، أردفها بسورة يس المبتدئة ببيان مته عليهم بإرسال خاتم النبيين ﷺ وعظمة الكتاب النازل عليه، وهو القرآن المشتمل على الحكم والأحكام، وجعله من أعظم معجزاته، وبيان إصرار المشركين على معارضته وتكذيبه، وغيرها من المطالب المرتبطة بالسورة السابقة، فافتتحها على دأبة بذكر الأسماء المباركات بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وقد مر تفسيره.

ثم ابتدأ بذكر الحروف المقطعة بقوله: ﴿يس﴾. قيل: رمز عن خطاب يا أيها السامع للوحي، كما عن الصادق ﷺ في (معاني الأخبار)<sup>٢</sup> وعليه تكون (يا) حرف نداء و(السين) رمز عن السامع، وقيل: إنها رمز عن كلمة سيد البشر، أو سيد المرسلين<sup>٣</sup>، والظاهر أنه المراد من الروايات الكثيرة الدالة على أن ﴿يس﴾ اسم من أسماء النبي ﷺ.

ثم عظم سبحانه القرآن بحلفه به على صدق نبوة نبيه بقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ والكتاب الجامع للحكم التي لا نهاية لها، أو المحكم الذي لا يكسره شيء، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أو الحاكم بين الخلق إلى يوم القيامة فيما اختلفوا فيه، حيث يجب الرجوع إليه فيه. ثم ذكر سبحانه المقسم عليه بقوله: ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ من قبل الله إلى خلقه

٢. معاني الأخبار: ١/٢٢، تفسير الصافي ٤: ٢٤٤.

١. فاطر: ٤٢/٣٥.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٣٦٥.

لهدايتهم وإرشادهم إلى ما هو الصواب من أمور الدنيا والآخرة، فليس للكفار أن يقولوا: لست مرسلاً، وإنك ثابت أو متمكن ﴿عَلَى صِرَاطٍ﴾ وطريق ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾، مُوصِل إلى أعلى مراتب كمال الانسانية والقرب منه، وأعلى درجات الجنة والرضوان بلا انحراف واغوجاج، وهو الاسلام المركب من التوحيد والمعارف الإلهية والأحكام العملية والأخلاق الربانية، وإنما وصف دينه بالاستقامة مع كون شرائع سائر الأنبياء مستقيمة لكون استقامته وإيصاله إلى المقصد الأعلى فوق استقامتها، وفي توصيف القرآن البالغ حد الإعجاز في حسن الأسلوب وفصاحة البيان بالحكمة البالغة، أو الحكومة بين الناس مع كون الآتي به أمياً، إشارة إلى كونه أقوى الأدلة على كونه واحداً للوصفين، وإنما أتى بالدليل بصورة الحلف للتنبيه بعظمة القرآن، فإن الحلف لا يكون إلا بأمر عظيم عند الحالف، وبأن البرهان قد أقيم على الأمرين مراراً بأبلغ بيان، فلم يبق إلا الحلف على المدعى برجاء كونه سبباً لوثوق المنكر به، فجمع سبحانه بين الاستدلال والحلف بقوله: ﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ أعني ﴿تَنْزِيلَ﴾ الإله ﴿الْعَزِيزِ﴾ والقاهر لكل شيء، والقادر على عقوبة منكر القرآن ورسالة رسوله ودينه ﴿الْزَّحِيمِ﴾ بمن أفر بالجميع، والعطوف بمن أطاعه وأطاع رسوله، أو المراد القاهر لعباده بجعل الأحكام الوجوبية والتحريمية، الرحيم بهم بجعل الأحكام الندية والكرامية والإباحية، وإنما وصفه بكونه تنزيلاً من الله لكمال ظهور آثار النزول فيه، بحيث صح أن يقال مبالغة: إن هذا لمُنَزَّل عين النزول. ثم بين سبحانه علّة إرسال رسوله وتنزيل كتابه بقوله: ﴿لِتُنْذِرَ﴾ يا محمد وتخوف ﴿قَوْمًا﴾ وطانفة تكون فيهم ﴿مَّا أُنْذِرَ﴾ به وخوف بتوسط سائر الأنبياء ﴿آبَاؤُهُمْ﴾ من العذاب. وقيل: يعني قومًا الذين أنذر آباؤهم<sup>١</sup>، أو قومًا نحو ما أنذر آباؤهم، كما روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: «التنذير القوم الذين أنت فيهم، كما أنذر آباؤهم»<sup>٢</sup>.

أقول: على هذا يكون (ما) مصدرية. وقيل: إنها نافية، والمعنى لتنذير قومًا الذين ما أنذر آباؤهم الأقربون لطول مدة الفترة<sup>٣</sup> وغيبة الأنبياء من بينهم، وإن أنذر آباؤهم الأبعدون الذين كانوا في زمان إسماعيل ومن بعده من الأنبياء العرب والعجم، فبعد غلبة الكفر وشيوعه وغيبة الأنبياء لم يُنْذَرُوا، فصار الناس جميعاً غافلين عن التوحيد والمعارف والمعاد، فصارت هذه الغفلة سبباً لوجوب إنذارهم، كما قال سبحانه: ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ عن الله، وعن رسوله، وعن وعيده، كما عن الصادق عليه السلام<sup>٤</sup>.

لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ \* إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْلَالًا

٢. الكافي ١: ٣٥٨، تفسير الصافي ٤: ٢٤٥.

١. تفسير الرازي ٢٦: ٤٢، تفسير القرطبي ١٥: ٦.

٤. الكافي ١: ٣٥٨، تفسير الصافي ٤: ٢٤٥.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٣٦٨.

فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ \* وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ  
سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ [٧-٩]

ثم بيّن سبحانه لجأج القوم وامتناعهم من الايمان بقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ﴾ وثبت ووجب ﴿الْقَوْلُ﴾ والوعد الذي سبق منا عند تهديد إبليس - حيث قلنا: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾<sup>٢</sup> - ﴿عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ لوضوح كونهم أهل الشقاوة والشقاق ﴿فَهُمْ﴾ لخبث ذاتهم وانطباع قلوبهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بك وبكتابك وإنذارك أبداً، ولا يُطيعونك في شيء أصلاً.

ثم شبه سبحانه الأخلاق الرذيلة المانعة عن إيمانهم بالغلّ العريض الذي يكون في العتق فيمنع الرأس من تطأطئه وانحنائه بقوله: ﴿إِنَّا﴾ بتجلبهم على الحسد والكبر والشقاء، كأنه ﴿جَعَلْنَا﴾ وصيرنا ﴿فِي أَغْشَائِهِمْ﴾ وحيادهم ﴿أَغْلَالًا﴾ غلاظاً ثقلاً ﴿فَهِيَ﴾ لكثرة غلظها وعرضها منتهية من الصدور ﴿إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ﴾ لتلك الأغلال ﴿مُقْمَحُونَ﴾ رؤوسهم ورافعوها غير قادرين على تطأطئها والالتفات بها.

فحاصل المعنى أن كفار مكة لكثرة تكبرهم وشدة حسدهم على النبي ﷺ [أيوا] تسليماً ونياداً له، وأن يلتفتوا إلى الحق، وأن يفتحوا عيونهم لرؤية معجزاته وآياته، وأن ينظروا إليه وإليه، وأن يؤمنوا بما جاء به.

عن الصادق عليه السلام، قال: «هذا في الدنيا، وفي الآخرة في نار جهنم مقمحون»<sup>٣</sup>.

ثم شبه سبحانه امتناعهم عن سلوك طريق الحق والصراط المستقيم، ووقوفهم على الكفر [الذي] عماهم عن رؤية المعجزات، بمن كان في أطرافه سدٌ عظيم لا يمكنه الخروج منه، ولا رؤية ما في العالم من الأشياء بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ وخلقنا ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ وتلقاء وجوههم ﴿سَدًّا﴾ عظيماً ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ وورائهم أيضاً ﴿سَدًّا﴾ عظيماً لا يمكنهم المشي لا من القبال ولا من الخلف، فلا يقدرون على الذهاب إلى المقصد، والرجوع إلى المأوى والمأمن ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ وغطينا رؤوسهم وأبصارهم بسبب السدين، لغاية تقاربهما وارتفاعهما، أو بغشاء آخر مانع عن إبصارهم ﴿فَهُمْ﴾ لذلك ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ شيئاً من آيات الآفاق والأنفس الدالات على وحدانية الله، ومن المعجزات الدالة على نبوة النبي ﷺ وحقانية دينه.

عن الباقر عليه السلام: «يقول فأغشيناهم فهم لا يبصرون الهدى، أخذ الله سمعهم وأبصارهم وقلوبهم،

فأعماهم عن الهدى<sup>١</sup>.

زوي أنها نزلت في أبي جهل وصاحبيه المخزوميين حيث حلف أبو جهل أنه يرضخ رأس محمد ﷺ إن رآه في الصلاة، فرآه يوماً<sup>٢</sup> يصلي، فأخذ صخرة فرفعها ليرسلها على رأسه، فالتزقت بيده، ويده بعنقه، فرجع خائباً إلى قومه<sup>٣</sup>، فنزلت: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ إلى آخره، فقام الوليد بن المغيرة الخزومي، وقال: أنا أقتله بهذه الصخرة، فأخذ الصخرة، فجاء نحو النبي ﷺ، فلما قَرَّبَ منه غمي بصره، فكان يسمع صوته ولا يرى شخصه، فرجع إلى صاحبيه فلم يَرَهُمْ حتى نادوه فأخبرهم بالحال، فنزل في حقّه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ إِيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ إلى آخره.

وعن القمي: أنها نزلت في أبي جهل بن هشام ونفرٍ من أهل بيته، وذلك أن النبي ﷺ قام يُصَلِّي وقد حلف أبو جهل للعين: لئن رآه يصلي ليدمغه، فجاء ومعه حَجَرٌ والنبي ﷺ قائم يصلي، فجعل كلما رفع الحَجَر ليرميه، أثبت الله يده إلى عنقه، ولا يدور الحَجَر بيده، فلما رجع إلى أصحابه سقط الحَجَر من يده، ثم قام رجلٌ آخر، وهو من رَهْطه أيضاً، فقال: أنا أقتله، فلما دنا منه جعل يسمع قراءة رسول الله ﷺ فأرعب ورجع إلى أصحابه، فقال: بيني وبينه [كهينة] الفحل<sup>٤</sup> يخطر بذنبه، فخفت أن أتقدم<sup>٥</sup>.

وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ \* إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ

وَحَشِيَ الرَّحْمَنُ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ [١٠ و ١١]

ثم أنه تعالى بعد بيان شدة امتناعهم عن الانقياد للنبي ﷺ، وعدم سلوكهم طريق الحق، وعدم رؤيتهم معجزاته، صرّح بعدم تأثير إنذاره في قلوبهم بقوله: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ وخوفهم من عذاب الله على الشرك وتكذيبهم نبوتك وكتابتك ﴿أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ ولم تعظمهم، فإن قلوبهم شرّ القلوب لأنها لا تتعظ بالعظة، فاعلم إذن أيها النبي أنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بك حتى يأتيهم الموت، لكون ذواتهم في أعلى درجة الشقاوة، وقلوبهم في أقصى مرتبة القساوة، فلا تُعِيبُ نفسك في دعوتهم إلى الايمان، ولا تُكُنْ حريصاً في وعظهم وإنذارهم، بل اكتفِ بما تُثِمُّ به الحجة عليهم.

ثم يبين سبحانه اختصاص نفع الإنذار والدعوة إلى الايمان بأصحاب القلوب الصافية والآذان

١. تفسير القمي ٢: ٢١٢، تفسير الصافي ٤: ٢٤٤.

٢. زاد في النسخة: أن.

٣. تفسير الرازي ٢٦: ٤٤، تفسير أبي السعود ٧: ١٦٠.

٤. في المصدر: العجل.

٥. تفسير القمي ٢: ٢١٢، تفسير الصافي ٤: ٢٤٥.

السامعة بقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ الإنذار النافع في الهداية والارشاد ﴿مَنْ﴾ لان قلبه و ﴿أَتَسَعَ الذُّكْرُ﴾ والعِظَةُ، أو آمن بالقرآن وسلم للبرهان ﴿وَحَشِيَ﴾ بإنذارك ﴿الرَّحْمَنُ﴾ والإله الذي وسعت رحمته كل شيء وهو ﴿بِالْغَيْبِ﴾ والحيجاب عنهم، فيؤمن به ويعمل لمرضاته، أو حشي عقوبة الرحمن في الآخرة وأهوال القيامة التي تكون محجوبة عن أبصارهم ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ يا محمد، بعد الإنذار وتأثره بالعِظَةُ واتباعه لها وقيامه بالأعمال الصالحة ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ عظيمة لذنوبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ وثواب جسيم مرضي له على إيمانه وأعماله.

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ

مُبِينٍ [١٢]

ثم أنه تعالى بعد أمر النبي ﷺ ببشارة المؤمنين بالثواب أخبر بمجيء الآخرة التي هي دار المغفرة والثواب بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ بقدرتنا الكاملة ﴿نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ ونبعثهم بعد انقضاء الدنيا من القبور لجزاء الأعمال ﴿وَنَكْتُبُ﴾ في الصحف، ونثبت في الدفاتر بتوسط الكرام الكاتبين، أو نكتب في اللوح المحفوظ ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ وأسلفوا وأتوا به في زمان حياتهم من الأعمال خيراً أو شراً حسنة أو سيئة، ﴿وَنَكْتُبُ فِيهَا آثَارَهُمْ﴾ وما أبقوه بعد موتهم من سيرة حسنة أو سيئة، أو ما يوجب انتفاع الناس به من علم أو كتاب، أو وقف أو حبس، وإشاعة باطل، أو بدعة، أو تأسيس ظلم، أو صنعة فيها فساد كاختراع آلة لهو، أو بناء كنيسة أو غيرها.

وقيل: إن المراد آثار أقدام الماشين إلى المساجد<sup>١</sup>، روى بعض العامة: أن جماعة من الصحابة بعثت دورهم عن مسجد النبي ﷺ، فأرادوا النغير<sup>٢</sup> إلى جوار المسجد، فقال النبي ﷺ: إن الله يكتب خطواتكم ويثبتكم عليها، فالزموا بيوتكم<sup>٣</sup>.

وعن (المجمع): أن بني سلمة كانوا في ناحية من المدينة، فشكوا إلى رسول الله ﷺ بعد منازلهم من المسجد والصلاة معه، فنزلت الآية<sup>٤</sup>.

ثم بين سبحانه سعة علمه بكل شيء فضلاً عن أعمال العباد بقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء، وكل موجود من الموجودات من الجواهر والأعرض والأعمال والأفعال والأقوال، أو أجل أو رزق أو نصيب، أو إحياء وإماته ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ وأثبتناه ﴿فِي إِمَامٍ﴾ وأصل عظيم الشأن ﴿مُبِينٍ﴾ ومظهر

٢. في تفسير روح البيان: النقلة.

٤. مجمع البيان ٨: ٦٥٣، تفسير الصافي ٤: ٢٤٦.

١. تفسير روح البيان ٧: ٣٧٥.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٣٧٥.

لجميع الأشياء والأمور، وهو اللوح المحفوظ. قيل: سَمِيَ إِمَاماً لَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَتَّبِعُونَهُ وَيَعْمَلُونَ بِهِ<sup>١</sup>.  
وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أَنَا وَاللهُ الْإِمَامُ الْمُبِينُ، أَبَيَّنَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَرَثْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»<sup>٢</sup>.  
وعن (الاحتجاج): عن النبي ﷺ - في حديث - قال: «مَعَاشِرَ النَّاسِ، مَا مِنْ عِلْمٍ إِلَّا عَلَّمْنِيهِ رَبِّي، وَأَنَا عَلَّمْتُهُ عَلِيًّا، وَقَدْ أَحْصَاَهُ اللهُ فِيَّ، وَكُلَّ عِلْمٍ عَلَّمْتُهُ أَحْصِيْتُهُ فِي إِمَامِ الْمُتَّقِينَ»<sup>٣</sup>.  
وعن الباقر، عن أبيه، عن جده عليه السلام قال: «لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَامَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ مِنْ مَجْلِسَيْهِمَا، وَقَالَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُوَ التَّوْرَةُ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: هُوَ الْإِنْجِيلُ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَأَقْبَلَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هُوَ هَذَا، إِنَّهُ الْإِمَامُ الَّذِي أَحْصَى اللهُ فِيهِ عِلْمَ كُلِّ شَيْءٍ»<sup>٤</sup>.

وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ \* إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ  
اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ \* قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا  
بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ [١٣-١٥]

ثم أنه تعالى بعد بيان أن محمداً ﷺ من المرسلين، وأن وظيفته إنذار قومه، وأن طائفة منهم لا يؤمنون به حتى يَرَوْا العذاب الأليم، وطائفة منهم يؤمنون به ويُعِيدُ الانذار لهم فلنشملمهم الرحمة والمغفرة، أمره سبحانه أن يذكر لقومه قصة الرُّسُلِ المبعوثين إلى بلدة إنطاكية، وتطابق حالهم وحال قومهم لحاله وحال قومه بقوله: ﴿وَأَضْرِبْ﴾ يا محمد، وأذكر عند قومك، وبين ﴿لَهُمْ﴾ لتوضيح حالك وحالهم، ولطف الله بك وقهره على أعدائك ﴿مِثْلًا﴾ وقصة عجيبة هي في الغرابة كالمثل، وأعني بها ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾.

قيل: إن التقدير مثل أصحاب القرية التي كانت بالرُّوم تسمى أنطاكية<sup>٥</sup> ﴿إِذْ جَاءَهَا﴾ وحين دخلها ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾ والمبعوثون من قبل الله، أو من قبل عيسى الذي كان مبعوثاً ورسولاً من الله.  
ثم بين سبحانه كيفية مجيئهم إليها بقوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا﴾ أولاً ﴿إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ من الرسل يدعوانهم إلى التوحيد والإيمان بشريعة عيسى عليه السلام ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ في دعوى الرسالة والتوحيد ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ هما وقويناها ﴿بِثَالِثٍ﴾ من الرسل يقال له شمعون الصفا، وكان وصي عيسى عليه السلام بعد رفعه إلى السماء ﴿فَقَالُوا﴾ جميعاً لأهل القرية: يا أهل القرية ﴿إِنَّا إِلَيْكُم﴾ من جانب الله ﴿مُرْسَلُونَ﴾ فأنكروا رسالتهم، و﴿قَالُوا﴾ في جوابهم: ﴿مَا أَنْتُمْ﴾ أيها المدعون للرسالة ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ تأكلون الطعام

١. تفسير الرازي ٢٦: ٥٠.

٢. تفسير الفمي ٢: ٢١٢، تفسير الصافي ٤: ٣٤٧.

٣. معاني الأخبار: ١/٩٥، تفسير الصافي ٤: ٢٤٧.

٤. الاحتجاج: ٦٠، تفسير الصافي ٤: ٣٤٧.

٥. تفسير روح البيان ٧: ٣٧٧.

وتمشون في الأسواق، لا مزية لكم علينا، ولا فضيلة لكم كي تَحْصُونَ بالرسالة دوننا، ولو كان لله رسولا لكان ملكا، ثم بالغوا في التكذيب بقولهم: ﴿وَمَا أَنْزَلَ﴾ الله الإله الذي تقولون إنه ﴿الزَّحْمَنُ﴾ ومن شأنه الرحمة والرسل إليكم من السماء ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ من الكتاب والملائكة ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ في دعوى الرسالة والتوحيد ونزول الكتاب، وما أنتم إِلَّا تَقْتَرُونَ على الله في أنه أرسلكم إلينا لهديتنا.

### قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْنَا لَمُرْسَلُونَ \* وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ [١٦ و ١٧]

ثم لما رأى الرسل إصرار القوم في تكذيبهم، بالغوا في الدعوى، وأكدوها بالحلف، و﴿قَالُوا﴾ يا قوم ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْنَا لَمُرْسَلُونَ﴾ من قبله، وإن كذبتمونا، ولا يَصْرُنَا إنكاركم علينا، لأنه ليس وظيفتنا ﴿وَمَا﴾ الواجب ﴿عَلَيْنَا﴾ من قبل ربنا ﴿الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ والتبليغ الواضح بإظهار رسالتنا، وإظهار المعجزات الشاهدة على صدقنا، وما قَصْرْنَا في العمل بما هو وظيفتنا وأداء ما هو في عهدتنا، وأما إجباركم على الايمان، فليس بواجب علينا، ولا في وسعنا، فإن أصررتم على الكفر كان وبالاً عليكم.

حكى بعض العامة: أن عيسى عليه السلام بعث رجلين من الحواريين قبل رفعه إلى السماء إلى بلدة أنطاكية، وكان أهلها يعبدون الأصنام، فلما أمرهما أن يذهبا إلى البلدة، قالا: يا نبي الله، أنا لا نعرف لسان القوم، فدعا الله لهما فناما مكانهما فلما استيقظا، وقد حملتهما الملائكة وألقتهما إلى أرض أنطاكية، فكلّم كل واحد صاحبه بلغة القوم، فلما قريا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنيمات له، وهو حبيب النجار، وكان ينحت الأصنام، ويقال له صاحب يس، لأن الله تعالى ذكره في سورة يس، فسلمّا عليه، فقال لهما: من أنتما؟ فأخبراه بأنهما رسل عيسى، وقالا: جئنا لتهديكم إلى دين الحق، وترشدكم إلى الصراط المستقيم، وهو توحيد الله وعبادته. فقال الشيخ: ألكما على صدق دعواكم دليل واضح؟ قالا: نعم، نحن نشفي المريض وثبرئ الأكمه والأبرص باذن الله، وكان لهما ما لعيسى من المعجزة بدعاء عيسى عليه السلام، فقال الشيخ: إن لي ابناً مجنوناً قد عجزت الأطباء من علاجه، فاشفاه من مرضه، فذهب بهما إلى داره، فدعوا الله ومسحا المريض، فقام باذن الله صحيحاً، فأمن حبيب، وفشا الخبر، وشفي على أيديهما خلق كثير، وبلغ حديثهما إلى الملك، واسمه بحناطيس الرومي، أو أنطيوخس، أو شلاحن، فطلبهما فأتياه، فاستخبر عن حالهما، فقالا: نحن رسل عيسى عليه السلام، ندعوك إلى عبادة رب واحد. فقال: ألنا رب غير آلهتنا؟ قالا: نعم، وهو من أوجدك وآلهتك، من آمن به دخل الجنة، ومن

كفر به دخل النار، فغضب المَلِك وضربهما وحبسهما.

فانتهى ذلك إلى عيسى عليه السلام فبعث ثالثاً وهو شمعون ليُنْصُرهما، فجاء شمعون القرية متنكراً، فعاشر [حاشية المَلِك] حتى استأنسوا به، ورفعوا حديثه إلى المَلِك، فطلبه وأنس به، وكان شمعون يُظهر موافقته في دينه، حيث كان إذا دخل معه على الصنم يصلي ويتضرع، وهو يظن أنه من أهل دينه، فقال شمعون يوماً للمَلِك: بلغني أنك حبست رجلين دَعَوَاكَ إلى إله غير إلهك، فهل لك أن تدعوهما فأسمع كلامهما وأخاصهما عنك؟ فدعاهما.

وفي بعض الروايات: أن شمعون لما ورد أنطاكية دخل السجن أولاً حتى انتهى إلى صاحبيه، فقال لهما: ألم تعلمَا أنكما لا تطاعان<sup>١</sup> إلا بالرفق واللطف؟ إن مثلكما مثل المرأة لم تلد زماناً من دهرها، ثم ولدت غلاماً، فأسرعت بشأنه فأطعمته الخبز قبل أوانه فغضب به فمات، فكَذلك دعوتكما هذا المَلِك قبل أوان الدعاء.

ثم انطلق إلى المَلِك، فاستدعاهما - بعد التقرب إليه - للمخاصمة، فلما حضرا قال لهما شمعون: من أرسلكما؟ قال: الله الذي خلق كل شيء، وليس له شريك. فقال: صفاه وأجزا. قالوا: يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. قال: وما بُرهانكما على ما تدعيانه؟ قالوا: ما يتمنى المَلِك. فجاء بغلام مطموس العينين بحيث لا يتميز موضع عينيه من جبهته، فدعوا الله حتى انشق له موضع البصر، فاختذا بُدقتين من الطين، فوضعاهما في حَدقتيه، فصارتا مُقلتين ينظر بهما، فتعجب المَلِك، فقال له شمعون: أرايت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا، فيكون لك وله الشرف؟ قال: ليس لي عنك سر مكتوم، إن إلهنا لا يبصر ولا يسمع ولا يضُر ولا ينفع.

ثم قال لهما المَلِك: إن هنا غلاماً مات منذ سبعة أيام، كان لأبيه ضيعة قد خرج إليها، وأهله ينتظرون قدومه، واستأذنوا في دفنه، فأمرتهم أن يؤخروه حتى يحضر أبوه، فهل يُحبيه ربكما؟ فأمر بإحضار ذلك الميت، فدعوا الله علانيةً، ودعا شمعون سراً، فقام الغلام الميت حياً بإذن الله، وقال: لما مُت وفارق روحي من جسدي برزت على سبعة أودية من النار لموتي على الكفر، وأنا أحذركم عما أنتم عليه من الشُّرك، ورأيت أن أبواب السماء مفتوحة، وعيسى عليه السلام قائماً تحت العرش، وهو يقول: رب انصر رُسلي. فأحياني الله وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن عيسى رُوح الله وكلمته، وأن هؤلاء الثلاثة رُسل الله. قال المَلِك: ومن الثلاثة؟ قال الغلام: شمعون، وهذان. فتعجب المَلِك، فلما رأى شمعون أن قول الغلام أثر في المَلِك أخبره بالحال، وأنه رسول المسيح إليهم ونصحه، فأمن المَلِك فقط



خَفِيَّةٌ عَلَى خَوْفٍ مِنْ عِثَةِ مَلَكَةٍ، وَأَصَرَ قَوْمَهُ عَلَى الْكُفْرِ، فَرَجَمُوا الرُّسُلَ بِالْحِجَارَةِ، وَقَالُوا: إِنَّ كَلِمَتَهُمْ وَاحِدَةٌ، وَقَتَلُوا حَبِيبَ النَّجَّارِ وَأَبَا الْغَلَامِ الَّذِي أَحْيَى لَأَنَّهُ أَيْضًا كَانَ قَدْ آمَنَ<sup>١</sup>. وَقِيلَ: إِنَّ الْمَلِكَ أَيْضًا أَصَرَ [عَلَى] كُفْرِهِ<sup>٢</sup>.

عن القمي عليه السلام، عن الباقر عليه السلام: أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ: «بَعَثَ اللَّهُ رَجُلَيْنِ إِلَى أَهْلِ مَدِينَةِ أَنْطَاكِيَّةٍ، فَجَاءَهُمَا بِمَا لَا يَعْرِفُونَ، فَعَلَّطُوا عَلَيْهِمَا، فَأَخَذُوهُمَا وَحَبَسُوهُمَا فِي بَيْتِ الْأَصْنَامِ، فَبَعَثَ اللَّهُ الثَّالِثَ، فَدَخَلَ الْمَدِينَةَ فَقَالَ: أُرْشِدُونِي إِلَى بَابِ الْمَلِكِ، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَى الْبَابِ قَالَ: أَنَا رَجُلٌ كُنْتُ أَتَعَبِدُ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَعْبُدَ إِلَهَ الْمَلِكِ، فَأُبَلِّغُوا كَلَامَهُ الْمَلِكَ، فَقَالَ: أَدْخُلُوهُ إِلَى بَيْتِ الْأَلْهَةِ، فَأَدْخَلُوهُ، فَمَكَثَ سَنَةً مَعَ صَاحِبِيهِ، فَقَالَ لَهُمَا: أَيْتَقِلُ مِنْ دِينِ إِلَى دِينٍ بِالْخُرْقِ، أَفَلَا رَفَقْتُمَا؟ ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: لَا تَقْرَأَنَّ بِمَعْرِفَتِي<sup>٣</sup>.

ثُمَّ أَدْخَلَ عَلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: بَلِّغْنِي أَنَّكَ كُنْتَ تَعْبُدُ إِلَهِي، فَلَمْ أَزَلْ وَأَنْتَ أَخِي فَسَلْنِي حَاجَتَكَ فَقَالَ: مَالِي حَاجَةٌ أَيُّهَا الْمَلِكُ، وَلَكِنْ رَأَيْتُ رَجُلَيْنِ فِي بَيْتِ الْأَلْهَةِ، فَمَا حَالُهُمَا؟ فَقَالَ الْمَلِكُ: هَذَا رَجُلَانِ أَتَيَانِي بِبَطْلَانٍ دِينِي، وَيَدْعَوَانِي إِلَى إِلَهٍ سَمَاوِيٍّ. فَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ فَمِنَاضَرَةٍ جَمِيلَةٍ، فَإِنْ يَكُنِ الْحَقُّ لَهُمَا اتَّبِعْنَاهُمَا، وَإِنْ يَكُنِ الْحَقُّ لَنَا دَخَلَا مَعَنَا فِي دِينِنَا، وَكَانَ لَهُمَا مَا لَنَا، وَعَلَيْهِمَا مَا عَلَيْنَا.

فَبَعَثَ الْمَلِكُ إِلَيْهِمَا، فَلَمَّا دَخَلَا عَلَيْهِ، قَالَ لَهُمَا صَاحِبُهُمَا: مَا الَّذِي جِئْتُمَا بِهِ؟ قَالَا: جِئْنَا نَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَيَخْلُقُ فِي الْأَرْحَامِ مَا يَشَاءُ، وَيُصَوِّرُ كَيْفَ يَشَاءُ، وَأَنْبَتَ الْأَشْجَارَ وَالشَّمَارَ، وَأَنْزَلَ الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ.

فَقَالَ لَهُمَا: إِلَهُكُمَا هَذَا الَّذِي تَدْعَوَانِ إِلَيْهِ وَإِلَى عِبَادَتِهِ، إِنْ جِئْنَا بِأَعْمَى يَقْدِرُ أَنْ يَزِدَّهُ صَحِيحًا؟ قَالَا: إِنْ سَأَلْنَاهُ أَنْ يَفْعَلَ فَعَلٌ إِنْ شَاءَ. قَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ عَلَيَّ بِأَعْمَى لَمْ يُبْصِرْ شَيْئًا قَطْرًا. فَأَتَيْ بِهِ، فَقَالَ لَهُمَا: ادْعُوا إِلَهُكُمَا أَنْ يَزِدَّ بَصَرَ هَذَا. فَقَامَا وَصَلَّيَا رَكَعَتَيْنِ، فَآذَنَاهُ مَفْتُوحَتَانِ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ. فَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ عَلَيَّ بِأَعْمَى آخَرَ. فَأَتَيْ بِهِ فَسَجَدَ سَجْدَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَآذَنَاهُ الْأَعْمَى يُبْصِرُ.

فَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ حُجَّةٌ بِحُجَّةٍ عَلَيَّ بِمُقْعَدٍ. فَأَتَيْ بِهِ، فَقَالَ لَهُمَا مِثْلَ ذَلِكَ، فَصَلَّيَا وَدَعَا اللَّهُ، فَآذَنَاهُ الْمُقْعَدُ قَدْ أَطْلَقَتْ رِجْلَاهُ وَقَامَ يَمْشِي، فَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، عَلَيَّ بِمُقْعَدٍ آخَرَ فَأَتَيْ بِهِ، فَصَنَعَ بِهِ كَمَا صَنَعَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَانْطَلَقَ الْمُقْعَدُ، فَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، قَدْ أَتَيْتُنِي بِمُحَجَّتَيْنِ، وَأَتَيْتُنِي بِمِثْلِهِمَا، وَلَكِنْ بَقِيَ شَيْءٌ آخَرَ، فَإِنْ كَانَا فَعَلَاءَ دَخَلْتُ مَعَهُمَا فِي دِينِهِمَا، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، بَلِّغْنِي أَنَّهُ كَانَ لَكَ ابْنٌ وَاحِدٌ وَمَاتَ، فَإِنْ

أحياء إلهيها، دخلتُ معهما في دينهما. فقال له: وأنا أيضاً معك.

ثم قال لهما: قد بقيت خَصْلَةٌ واحدة، قد مات ابن المَلِك، فادعوا إلهكما أن يُحييه، فخرّا ساجدين لله عزّ وجلّ، وأطالا السُّجود، ثم رفعاً رأسهما، وقالا للمَلِك: ابعث إلى قبر ابنك تجدّه قد قام من قبره إن شاء الله، فخرج الناس ينظرون، فوجوده قد خرج من قبره ينفضّ رأسه من التُّراب، فأتي به إلى المَلِك، فعزّف أنّه ابنه، فقال: ما حالك يا بُني؟ قال: كنت ميتاً، فرأيت رجلين بين يدي ربّي الساعة ساجدين يسألانه أن يُحييني فأحياني. قال: يا بُني، تعرفهما؟ قال: نعم، فأخرج الناس إلى الصحراء، فكان يمرّ عليه رجلٌ فيقول أبوه. انظر، فيقول: لا، ثم مرّوا عليه بأحدهما بعد جمع كثير، فقال: هذا أحدهما، وأشار بيده إليه، ثم مرّوا أيضاً بقوم كثيرين حتى رأى صاحبه الآخر، وقال: هذا الآخر، فقال النبيّ صاحب الرجلين: أما أنا فقد آمنتُ بإلهكما، وعَلِمْتُ أن ما جئتما به هو الحقّ. فقال المَلِك: وأنا أيضاً آمنتُ بإلهكما، وأمن أهل مملكته كلّهم<sup>١</sup>.

قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ \*  
قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ \* وَجَاء مِنْ أَقْصَى  
الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ \* اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلْكُمْ  
أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ [١٨-٢١]

ثم لما عجزَ القوم عن الاحتجاج، وضاعت عليهم الحيل، سلكوا طريق العناد واللجاج و﴿قَالُوا﴾: أيها المدعون للرسالة ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ وتشامنا بقدمكم في بلدنا، إذ منذ قديمتم انقطع عنا المطر، وابتلينا بالبلايا والشور - على ما قيل - فاخرجوا من بيننا، أو انتهوا عن دعوتكم<sup>٢</sup>، والله ﴿لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهُوا﴾ عما تقولون، ولم تمتنعوا عن مقاتلتكم، ولم تردعوا عن دعوتكم ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ ولنرمينكم بالحجارة ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾ ولتصيبكم ﴿مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو القتل بالأحجار.

وقيل: إن المراد بالرجم السب والشتم، والمعنى لنشتمنكم، بل لا نكتفي به، فإن لم تردعوا بالشتم لنضربنكم ونقتلنكم<sup>٣</sup>، فأجابهم الرُّسل و﴿قَالُوا﴾: يا قوم ﴿طَائِرُكُمْ﴾ وسبب شؤمكم ﴿مَّعَكُمْ﴾ وهو كفركم بالله، وطفيناكم عليه، وتكذيبكم رُسله، فأنه سبب ابتلائكم بالبلايا والشور، وليس ذلك منا. ثم لا موهم على تطيّرهم وتويعيدهم بقولهم: ﴿أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ ووعظتم وأرشدتم إلى ما فيه خيركم وسعادتكم ونصحتم بما فيه صلاح دنياكم وآخرتكم، وتطيّرتُم بالمرشيد الناصح، أو توعدتموه

بالرَّجْمِ والتَّعْذِيبِ؟ ليس هذا طريق الإنصاف وسلوك الشاعر العاقل ﴿بَلْ أَنتُمْ﴾ أيها الناس ﴿قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ ومتجاوزون عن حدِّ العقل والانصاف، متوغلون في الجهل والعدوان والظلم والظُّغْيَانِ، فلمَّا سَمِعَ حبيب النِّجَارِ الذي آمَنَ بالرسَل قبل ورودهم في المدينة معارضة القوم للرسَل، وتصميمهم على قتلهم، جاء لنصرتهم كما حكاه سبحانه بقوله: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ﴾ وأبعد مكانٍ منها، وهو ما يقرَّب من بابها، وكان دورها اثني عشر ميلاً على ما قيل<sup>١</sup> ﴿وَرَجُلٌ﴾ عظيم الشأن عند الله لإيمانه وكماله في الصفات الوجودية، وهو ﴿يَسْعَى﴾ ويسرع في مشيه، لثلا يفوت عنه نُصْرَةُ الرسل بقتلهم ورجمهم، و﴿قَالَ﴾ إشفافاً لقومه: ﴿يَا قَوْمِ﴾ إن أردتم خير الدنيا والآخرة ﴿اتَّبِعُوا﴾ وأطيعوا هؤلاء ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ الذين يدعونكم إلى توحيد الله وخلوص العبادة له.

قيل: إنه بعد ذلك سأل الرسل: أتريدون على رسالتكم أجراً؟ قالوا: لا. فقال: يا قوم<sup>٢</sup> ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ﴾ ولا يطلب منكم ﴿أَجْراً﴾ ومالاً على إرشادكم إلى الحق، وتعليمكم المعارف والأحكام الإلهية ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ إلى خير دينكم ودنياكم، عالمون بما فيه صلاح معاشكم ومعادكم، فبين وجود المقتضي لاتِّباعهم، وهو كونهم مهتدين وعالمين بالمصالح والمفاسد، وعدم المانع وهو الضرر المالي فيه.

وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ \* ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ \* إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ

مُبين [٢٢-٢٤]

ثم بالغ في ترغيبهم إلى اتِّباعهم بيان أنَّهم لا يدعون إلّا إلى ما يحكّم به كلّ عقل سليم، وإن ما يُرَغِّبهم فيه هو الذي اختاره لنفسه بقوله: ﴿وَمَا لِي﴾ وأي داع يدعوني إلى أن أعبدُ الأخشاب والأحجار التي لا تنفعني ولا تُضرّني و ﴿لَا أَعْبُدُ﴾ الإله القادر ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ وأخرجني بقدرته من كتم العدم إلى عالم الوجود، وأنعم عليّ بنعمة الحياة في البدو؟ ﴿وَأَنْتُمْ﴾ أنتم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت، وتُعاقبون على الإشراف به وتكذيب رُسله، فجمع بين غاية الترغيب والترهيب.

ثم بين كون عبادة غير الله سفهاً لا يرتكبه من شَمِّ راحة العقل بإنكاره من نفسه بقوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ﴾ وأختار لنفسي غير الإله الذي فطرني و ﴿مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ ومعبودين كالأنصنام والكواكب وغيرهما مع أنّه ﴿إِنْ يُرِذِنِ الرَّحْمَنُ﴾ والإله الواسع الرحمة ﴿بِضُرٍّ﴾ ومكروهٍ لسوء عملي ﴿لَا تُغْنِي عَنِّي﴾ ولا

تفنعني ﴿شَفَاعَتُهُمْ﴾ عنده في حَقِّي ﴿شَيْئاً﴾ يسيراً من النفع، لعدم كونهم أهليين للشفاعة ﴿وَلَا﴾ هم بقدرتهم ﴿يُنْقِذُونَهُ﴾ نبي ويخلصونني من الضَّرِّ، لكون عجزهم إلى الغاية.  
ثم بَيَّن غاية ضلال عبدة الأصنام بالطف بيان بقوله: ﴿إِنِّي إِذَا﴾ وحين اتَّخَذِي إِلَهاً غير الله، والله ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وانحراف واضح عن طريق العقل ومثلَّك العقلاء، بحيث لا يخفى على أحد مَن شَم رائحة العقل والإدراك.

إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُون \* قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ \*  
بِمَا عَفَّرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمَكْرُمِينَ [٢٥-٢٧]

ثم لما بَيَّن وجوب اتباع الرسل الدُّعَاة إلى التوحيد، وكون الشُّرك غاية السُّفَه والضللال بالبرهان المطوي في كلامه، أعلن بإيمانه بقوله: ﴿إِنِّي﴾ يا قوم ﴿آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي هو رَبِّي وربَّ كُلِّ شيءٍ، فاسمعوني وأجيبوني في وعظي ونصحي، وأقبلوا قولي.  
قيل: إِنَّه خاطب الرسل بذلك حين أراد القوم قتله، ومقصوده إصفاؤهم إلى إقراره بالتوحيد، ليشهدوا به عند الله<sup>١</sup>.

قيل: أطال الكلام مع القوم ليشغلهم عن قتل الرسل، إلى أن قال: إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ ﴿فَاسْمَعُون﴾ فوثبوا عليه فقتلوه، وباشتغالهم بقتله تخلص الرسل<sup>٢</sup>.  
قيل: إِنَّهم وطئوه حتى خرجت أمعاؤه من دُبُرهِ<sup>٣</sup>. وقيل: نشره بالمشار حتى خرج من بين رجليه<sup>٤</sup>، وقيل: خَرَقُوا خرقاً في حلقه، ثم علقوه<sup>٥</sup> من وراء سور المدينة<sup>٦</sup>. وقيل: ألقوه في بئر يقال له الرُّس، وقبره في سوق أنطاكية<sup>٧</sup>.

قيل: إِنَّ اسم أبيه مري، وكان من نسل إسكندر الرومي<sup>٨</sup>.  
روى بعض العامة عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «شَبَّاقُ الْأُمَمِ ثَلَاثَةٌ لَمْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ طَرَفَةٌ عَيْنٍ: عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَصَاحِبُ يَسٍّ، وَمُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ»<sup>٩</sup>.

أقول: هذا منافٍ لما حكوه من أَنَّهُ كَانَ يَنْجِتُ الْأَصْنَامَ وَأَمَّنَ فِي سَنِّ الشَّيْخُوخَةِ عَلَى يَدَيِ الرِّسْلِ،

١. مجمع البيان ٨: ٦٥٨.

٣. تفسير القرطبي ١٥: ١٩.

٥. في تفسير القرطبي: حرقوه حرقاً، وعلقوه.

٧. تفسير روح البيان ٧: ٣٨٦.

٩. تفسير روح البيان ٧: ٣٨٣.

٢. تفسير روح البيان ٧: ٣٨٦.

٤. تفسير القرطبي ١٥: ١٩، تفسير روح البيان ٧: ٣٨٦.

٦. تفسير القرطبي ١٥: ١٩.

٨. تفسير روح البيان ٧: ٣٨٣.

وفي (المجالس) عن النبي ﷺ قال: «الصدّيقون ثلاثة: حبيب النجار مؤمن آل يس الذي يقول: ﴿اتبعوا المرسلين﴾، وحزقيل مؤمن آل فرعون، وعلي بن أبي طالب وهو أفضلهم»<sup>١</sup>.

وفي (الخصال) عنه ﷺ: «ثلاثة لم يكفروا بالوحي طرفة عين: مؤمن آل يس، وعلي بن أبي طالب، وأسية امرأة فرعون»<sup>٢</sup>.

ثم حكى سبحانه لطفه به بعد قتله بقوله تعالى: ﴿قِيلَ﴾ له بشارَةٌ من قِبَلِ اللَّهِ بَأَنَّهُ من أَهْلِ الْجَنَّةِ، أو إكراماً، أو إذناً: يا حبيب ﴿أَدْخِلِ الْجَنَّةَ﴾ التي أَعَدَّتْ للمتّقين، فلَمَّا رأى كرامته على الله بتوحيده وإيمانه ﴿قَالَ﴾ تَمَنِّيَا لَعَلَّهم قومه بما ناله من الكرامة والنعم الدائمة: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ بِمَا غَفَرْتُ لِي ذُنُوبِي ﴿وَجَعَلْتَنِي﴾ عنده بَلُطْفَةٍ ﴿مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ والمتنعمين في الجنة، فيحملهم علمهم بحالي على التوبة من الكفر، وقبول الإيمان، والقيام بطاعة الله. في الحديث العامي: «نصح قومه حياً وميتاً»<sup>٣</sup>.

وَمَا أُنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ \* إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ \* يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ [٢٨-٣٠]

ثم أنه تعالى بعد بيان إكرامه للمؤمن، بين قهره على أعدائه وكيفية إهلاكهم بقوله: ﴿وَمَا أُنزَلْنَا﴾ إذ قُتِلَ حبيب ﴿عَلَى قَوْمِهِ﴾ الذين عادوه وقتلوه ﴿مِنَ بَعْدِهِ﴾ لإهلاكهم ﴿مِنَ جُنْدٍ﴾ وعسكرٍ من الملائكة ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ كما أنزلنا يوم بدرٍ وأحد والخندق ﴿وَمَا كُنَّا﴾ ولم يكن مناسباً لقدرتنا وحِكمتنا أن نكون ﴿مُنْزِلِينَ﴾ للملائكة لإهلاك قوم ونصرة نبي، بل كان إنزال الملائكة من خصائصك وكرامتك، بل ﴿إِنْ كَانَتْ﴾ وما وجدت بأمرنا لإهلاكهم ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾.

رُوي أن الله بعث جبرئيل، فصاح عليهم صيحة ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ وميتون، لا يسمعون لهم حسيس، ولا ترى لهم حركة، وكانوا كسراج أطفئ بريح، أو كنارٍ خمدت بماءٍ في السهولة السرعة<sup>٤</sup>. قيل: وقعت الصيحة في اليوم الذي قتلوه<sup>٥</sup>. وقيل: في الساعة التي عادوا فيها بعد قتله إلى منازلهم فرحين مستبشرين<sup>٦</sup>. وقيل: في اليوم الثالث من قتله<sup>٧</sup>.

١. أمالي الصدوق: ٧٦٠/٥٦٣، تفسير الصافي: ٤: ٢٥٠.

٢. الخصال: ٢٣٠/١٧٤، تفسير الصافي: ٤: ٢٥٠.

٣. تفسير روح البيان: ٧: ٣٨٧.

٤. تفسير روح البيان: ٧: ٣٨٨.

٥. تفسير روح البيان: ٧: ٣٨٩.

٦. تفسير روح البيان: ٧: ٣٨٨.

٧. تفسير روح البيان: ٧: ٣٨٨.

عن النبي ﷺ: «أربعة مدائن من مدائن النار: أنطاكية، وعمورية، وقسطنطينة، وطفار اليمن». قيل: إنه بلدة قريّة من صنعاء يُنسب إليها الجرّع<sup>١</sup>.

ثمّ أنه تعالى بعد حكاية إهلاك أهل أنطاكية، أظهر حُبّه بعباده المخلوقين بقدرته باظهار التحسر على المكذّبين بالرّسل، وإراءة ذاته المقدّسة كالمتحسر عليهم مع تقدّسه عن العوارض البشرية والإمكانية بقوله: ﴿يَا حَسْرَةً﴾ شديدة ﴿عَلَى الْعِبَادِ﴾ المخلوقين في العالم لتحصيل العلوم والمعارف الإلهية، وتكميل النفوس ليل الرحمة والنعم الدائمة احضري، فإن هذا الوقت الذي يُصِرّ العباد على الكفر وقت حضورك، فإنهم ﴿مَا يَأْتِيهِمْ﴾ من قبل الله ﴿مِنْ رَسُولٍ﴾ لهدايتهم وتعليمهم وتربيتهم لطفاً بهم ورحمةً عليهم ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾ مع أن في قبولهم نصائحهم واتباعهم أوامره سعادة الدارين.

قيل: إن بإنشاء هذا النداء حضرت محضر الحسرة في النفوس القدسية والأرواح المجردة والقلوب الزاكية المطهرة، بل في جميع الحيوانات والنباتات والجمادات.

### أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ [٣١]

ثمّ أنه تعالى بعد إظهار الحسرة على المكذّبين بالرّسل الذين كانوا في القرون الماضية، وفي عصر خاتم النبيين، أظهر العجب من عدم اعتبارهم من هلاك الأمم المستهزئة بالرسل بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ أولئك المكذّبون والمستهزئون، ولم يعلموا علماً يُشابه الرؤية أنا ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ بعذاب الاستئصال ﴿قَبْلَهُمْ﴾ وفي الأعصار والأزمنة السابقة على عصرهم ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾ والأمم المكذّبة بالرسل المستهزئة بهم؟! ولم يَرَوْا بعد إهلاكهم ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ﴾ في الدنيا ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ بل انقطعوا عن الدنيا بالكلية.

ومما تضحك به الثكلى ما قاله إسماعيل الحقي في (روح البيان) من أنه يجب إكفار الروافض في قولهم بأنّ علياً وأصحابه يرجعون إلى الدنيا، فينتقمون من أعدائهم، ويملاؤن الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، وذلك القول مخالف للنص، نعم إن روحانية [علي عليه السلام] من وزراء المهدي في آخر الزمان على ما عليه أهل الحقائق<sup>٢</sup>. فإنّ كلامه سخيف - لظهور فساده، ودلالته على عدم فهمه وعدم اطلاعه على مذهب الطائفة المحققة الذين هم أعلى شأنًا من أن يجري اسمهم على لسان هذا الصوفي العامي - لا بأهل للجواب.

١. تفسير روح البيان ٧: ٣٧٧.

٢. تفسير روح البيان ٧: ٣٩٠.

قيل: إن المراد أن الباقيين لا يرجعون إلى المهلكين بنسب ولا ولادة، وهو كناية عن انقطاع نسلهم من الدنيا<sup>١</sup>.

وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ \* وَآيَةٌ لَهُمْ الْأَرْضُ الْمَمِيَّةُ أَحْيَيْنَاهَا  
وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ \* وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ  
وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ \* لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا  
يَشْكُرُونَ [٣٥-٣٢]

ثم أنه تعالى بعد بيان عدم رجوعهم إلى الدنيا وانقطاعهم عنها، أخبر باجتماعهم مع الباقيين في القيامة بقوله: ﴿وَإِنْ كُلٌّ﴾ من المهلكين والباقيين، وما واحدٌ منهم ﴿لَمَّا جَمِيعٌ﴾ ومجتمع مع الآخرين ﴿لَدَيْنَا﴾ يوم القيامة ﴿مُحْضَرُونَ﴾ وإلى موقف الحساب يُساقون للحساب والجزاء.

ثم أنه تعالى بعد تهديد المشركين بما نزل على الأمم المهلكة، وحضورهم بعد الموت في محضر عدله، ذكر بعض الآيات العظيمة الدالة على وحدانيته وقدرته على البعث بعد الموت بقوله: ﴿وَآيَةٌ﴾ عظيمة ودلالة واضحة ﴿لَهُمْ﴾ على التوحيد وكمال قدرته على البعث بعد الموت ﴿الْأَرْضُ الْمَمِيَّةُ﴾ واليابسة التي لا نبات لها، أما كيفية آييتها هو أننا ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ وأنبتنا فيها نباتات مختلفة كثيرة، ومن أهم منافع إحيائها أننا أنبتنا ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ عظيم النفع كالبر والسمير اللذين يتقوّت بهما ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ وبه يتعيشون ﴿وَجَعَلْنَا﴾ في الأرض وخلقنا ﴿فِيهَا جَنَّاتٍ﴾ وبساتين متشكلة ﴿مِنْ نَجِيلٍ﴾ وأنواع مختلفة من شجر التمر ﴿و﴾ من أعناب متنوعة ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ وشققنا ﴿فِيهَا﴾ كثيراً ﴿مِنَ الْعُيُونِ﴾ النابعة ﴿لِيَأْكُلُوا﴾ بعد خلق ما ذكر من البساتين، أو بعد تفجير العيون ﴿مِنْ ثَمَرِهِ﴾ الحاصل منه، ﴿و﴾ من ﴿مَا عَمِلَتْهُ﴾ واتخذته ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ منه من العصير والدبس ونحوهما.

وقيل: إن كلمة (ما) نافية، والحال أن الثمر ليس مما عملته أيديهم، بل يكون مما خلقه الله<sup>٢</sup>.

ثم ونح سبحانه الناس على ترك شكر هذه النعمة بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ المنعم بالإقرار بتوحيده وتقديسه وتحميده، مع أن الواجب بحكم العقل شكر المنعم.

سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا

٢. تفسير أبي السعود ٧: ١٦٦، تفسير روح البيان ٧: ٣٩٤.

١. تفسير روح البيان ٢٦: ٦٤.

يَعْلَمُونَ \* وَآيَةٌ لَهُمْ أَن لَّيْلٌ نَّسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَاِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ \* وَالشَّمْسُ  
تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [٣٦-٣٨]

ثم لما كان المشركون كفروا هذه النعم بجعل الشريك له تعالى، نزه ذاته عن الشريك بقوله: «سُبْحَانَ» الإله القادر «الَّذِي خَلَقَ» بقدرته الكاملة «الْأَزْوَاجَ» والأصناف من المخلوقات «كُلَّهَا» ثم فصل سبحانه أنواع الممكنات والمخلوقات بقوله: «مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ» كالأشجار والثمار والزروع والحبوب والحشائش وغيرها مما يأكل الناس والأنعام «وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ» ذكرنا وإنا «وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ» به ولا يطلعون عليه من المجردات والماديات والبريات والبحريات. قيل: إن دواب البر والبحر ألف صنف لا يعلم الناس أكثرها<sup>١</sup>.

عن الصادق عليه السلام: «أَنَّ التُّفْطَةَ تَقَعُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ عَلَى النَّبَاتِ وَالشَّجَرِ، فَيَأْكُلُ النَّاسُ مِنْهُ وَالبهائم، فتجري فيهم»<sup>٢</sup>.

«وَآيَةٌ» عظيمة أخرى «لَهُمْ» تدل على وحدانية ربهم، وهي «أَن لَّيْلٌ» المظلم وبيان كيفية آيئته هو أننا «نَسْلَخُ» ونزيل «مِنْهُ النَّهَارَ» بحيث لا يبقى منه شيء من ضوئه، كما يزال جلد الغنم منه «فَاِذَا هُمْ» بعد كشف النهار عن مكانه «مُظْلِمُونَ» ومحاطون بسواد الليل.

وعن الباقر - في تأويله - «يعني قبض محمد ﷺ وظهرت الظلمة، فلم يبصروا فضل أهل بيته»<sup>٣</sup>. «و» كذا «الشَّمْسُ» المضيئة المشرقة آية عظيمة لهم حيث إنها «تَجْرِي» وتسير «لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا» وإلى حد ينتهي إليه دورها في آخر السنة، كسير المسافرين إلى المقصد الذي ينتهي إليه سيره.

وقيل: إن مستقرها وسط السماء، فشبّه سبحانه ببطء سيرها وحركتها هناك بالوقوف<sup>٤</sup>. وقيل: إن مستقرها هو البرج الذي يكون بعد البرج الذي تكون فيه، فإن سيرها في برجها يترتب عليه استقرارها في البرج الذي بعده شهر<sup>٥</sup>.

وقيل: إن المستقر اسم زمان انقطاع سيرها، وهو عند خراب العالم، أو المراد وقت قرارها وتغير حالها بالطلوع من مغربها<sup>٦</sup>، كما عن أبي ذر في رواية عامية، قال: دخلت المسجد ورسول الله ﷺ جالس، فلما غابت الشمس قال: «يا أبا ذر، أتدري أين تذهب هذه الشمس؟» فقلت: لا، الله ورسوله أعلم. فقال: «تذهب وتسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويؤشك أن تسجد ولا يقبل منها،

١. تفسير روح البيان ٧: ٣٩٥.

٢. تفسير القمي ٢: ٢١٥، تفسير الصافي ٤: ٢٥٣.

٣. تفسير روح البين ٧: ٣٩٧.

٤. الكافي ٨: ٥٧٤/٣٨٠، تفسير الصافي ٤: ٢٥٣.

٥. تفسير روح البيان ٧: ٣٩٨.

٦. تفسير روح البيان ٧: ٣٩٨.



وتستأذن فلا يؤذن لها، ويقال لها: أرجعي إلى حيث جئت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله: **وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا<sup>١</sup>**.

وفي (المجمع) عنهما عليهما السلام: «لا مستقر لها<sup>٢</sup>».

**«ذَلِكَ»** الجري البديع الموافق للحكم الكثيرة التي عجزت عن فهمها العقول والأفهام **«تَقْدِيرُ»** الإله **«الْعَزِيزُ»** القاهر بقدرته لكل شيء، وإبرادته وتدييره **«الْعَلِيمُ»** بمصالح العالم وجميع الحكم. قيل: إن من تفكر في سير الشمس عليم أنه على الوجه الأنفع الأصلح لنظام العالم، ولا يكون ذلك إلا بتدبير العليم الحكيم، فإن من المعلوم أنها في كل يوم من ستة أشهر يكون خط سيرها غير خط السير الذي يكون لها في الأيام الأخر، لأنه لو كان سيرها في جميع الأيام على خط واحد لا احترقت الأرض المسامطة لمسيرها، وفسدت الأراضي غير المسامطة لاستيلاء الرطوبات المجتمعة فيها في الأشياء، ولذا قدر سبحانه قربها من جميع قطعات الأرض بالتدرج، لتخرج النباتات من قطعات الأرض، والثمار من أشجارها، وتفتح وتحف، ثم تبعد كيلا تاحترق الأرض والأشجار<sup>٣</sup>.

**وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ \* لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** [٣٩ و ٤٠]

ثم أنه تعالى قدر لها طلوعاً وغروباً، لئلا تكِل القوى بكثرة السير والتعب، ولا يختل النظام بسبب الظلمة الدائمة، ثم أنه تعالى قدر لها سيراً أبداً من سير القمر، وأسرع من سير زحل، فلو كانت بطيئة السير لدامت زماناً طويلاً في مسامتة شيء واحد فحرقه، ولو كانت سريعة السير لما حصل منها النفع المقصود من تخفيف الرطوبات ونضج الأثمار وتربية المعادن والأبدان وغيرها.

**«و»** قدرنا **«الْقَمَرَ»** يعني **«قَدَرْنَا»** وعيناه **«مَنَازِلَ»** كل ليلة ينزل في منزل لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه **«حَتَّىٰ عَادَ»** في الدقة والصُفرة والتفوس **«كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ»** وعود العذق العتيق من شِمراخه ورأسه إلى مَنبته، فإنه إذا يس وعثق صار أدق وأقوس، وعود القمر إلى هذه الحالة في ليلة السابع والعشرين في عيون الناظرين، وإن كان في الواقع عظيماً.

ثم بين سبحانه كون الشمس والقمر مسخرين وسائرين على وفق الحكمة بقوله: **«لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي»** ويتيسر ويصح **«لَهَا»** مع إرادة الله كونها أبداً سيراً ومتأخرة من القمر **«أَنْ تُدْرِكَ»** في

١. تفسير روح البيان ٧: ٣٩٨.

٢. مجمع البيان ٨: ٦٦٣، ولم ينسبه إليهما عليهما السلام، تفسير الصافي ٤: ٢٥٣.

٣. تفسير الرازي ٢٦: ٧٢.

سيرها ﴿الْقَمَرُ﴾ وتساوقه فيه، بأن تسير في بُرُوجها الاثني عشر في شهر كما يسير القمر في بُرُوجها الاثني عشر، وإلا يلزم حصول الفصول الأربعة فيه.

واحتمل بعض كون المراد من الإدراك البلوغ في الآثار، وإن لكل منهما أثراً يَخْصُهُ لا يمكن للآخر وجدان ذلك الأثر، أو المراد البلوغ في المكان، فإن لكل منهما فلُكاً لا يمكن اجتماعهما في مكان واحد ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ ومعجزه من أن يأتي بعده ويتهي إليه، فتكون جميع الأوقات ليلاً، بل النهار يتاوبه.

عن الباقر عليه السلام، قال: «يقول الشمس سلطان النهار، والقمر سلطان الليل، لا ينبغي للشمس أن تكون مع ضوء القمر بالليل، ولا يسبق الليل النهار، يقول لا يذهب الليل حتى يُدرکه النهار»<sup>١</sup>. وعن الصادق عليه السلام: «النهار خُلِقَ قبل الليل» وفي قوله: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ قال: «أي سبقه النهار»<sup>٢</sup>.

أقول: لأن الليل هو الظلمة الحاصلة بعد غروب الشمس.

وقيل: إن المراد بالليل سلطان الليل، وهو القمر، والمراد بالنهار سلطان النهار، وهو الشمس، فيكون المعنى لا يسبق القمر الشمس في السير بأن يجتمعا في وقت واحد مع كونهما يُبْرِنِ، بل إذا كان القمر في أفق المشرق، كانت الشمس في أفق المغرب، وهذا في حركتهما اليومية، ولذا عبّر عنهما بالليل والنهار<sup>٣</sup>.

﴿وَكُلٌّ﴾ منهما ﴿فِي فَلَكٍ﴾ غير فلَك الآخر، وسما غير سما الآخر ﴿يَسْبَحُونَ﴾ ويسيرون بسرعة وسهولة، كالسباح في الماء.

روت العامة: أن الله خلق بحراً دون السماء جارياً في سرعة السهم، قائماً في الهواء بأمر الله تعالى، لا تقطر منه قطرة تجري فيه الشمس والقمر والنجوم، فذلك قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ والقمر يدور دوران العجلة في لُحْة غمر ذلك البحر، فإذا أحب الله أن يُحْدِثَ الكسوف حَزَفَ الشمس عن العجلة، فتقع في غمر ذلك البحر، ويبقى سائراً على العجلة النصف أو الثلث، أو ما شاء الرب<sup>٤</sup>.

وإتيان صيغة الجمع مع أن السابح اثنان، لا سناده إلى الكل الذي هو جمع في المعنى، أو للكثرة

١. تفسير القمي ٢: ٢١٤، تفسير الصافي ٤: ٢٥٣.

٢. مجمع البيان ٨: ٦٦٤، وتفسير الصافي ٤: ٢٥٣ عن الرضا عليه السلام.

٣. تفسير الرازي ٢٦: ٧٣.

٤. تفسير روح البيان ٧: ٤٠٣.

العارضة لهما بسبب العوارض، أو كون المراد جميع الكواكب، وإتيانه بالواو والنون لتزليل الكوكبين منزلة العقلاء، لاسناد السياحة التي هي فعلهم إليهما.

وآيَةُ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ \* وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ [٤١ و ٤٢]

ثم أنه تعالى بعد ذكر اختلاف الليل والنهار، ذكر نعمة اختلاف الفلك في البحر، أو لما ذكر نعمة سير التيرين، ذكر نعمة تهيئة وسيلة سير الانسان في البر والبحر بقوله: ﴿وآيَةٌ﴾ عظيمة أخرى ﴿لَهُمْ﴾ ودلالة واضحة على توحيد ربهم ﴿أَنَا حَمَلْنَا﴾ وركبنا ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ونسلمهم الصعاف الذين يصعب عليهم السفر في البر ﴿فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ والسفينة المملوءة منهم ومن غيرهم ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ نَظِيرِ الْفُلِّ﴾ ومثله في سهوله السير به ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ عليه في البراري والجبال من الإبل وسائر الحيوانات الحاملة.

قيل: إن المراد من الفلك فلك نوح<sup>١</sup>، ومن ضمير الجمع نوع الانسان<sup>٢</sup>، والمعنى أَنَّا حملنا ذرية بني آدم في فلك نوح المملوء منهم ومن سائر الحيوانات التي لا تعيش في الماء، ولولا حمل الذرية في الفلك لما بقي لبني آدم نسل وعقب، وخلقنا لهم مما يماثل ذلك الفلك من السفن والزوارق، وعلى هذا قوله: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بدل (حملناهم) مشعرٌ بكمال النعمة وعدم اختصاصها بهم، بل تكون متعدية إلى أعقابهم إلى يوم القيامة.

وقيل: في التخصيص بذريتهم إشارة إلى عدم الفائدة في حملهم، لكونهم كفاراً، وإنما الفائدة في حمل ذريتهم المؤمنين. وقيل: إن المراد بالذرية جنس بني آدم، ويشمل الآباء والأولاد<sup>٣</sup>.

وإن نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ \* إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ \* وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ \* وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ \* وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْتُمْ أَنْتُمْ لَوِ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [٤٣-٤٧]

٢. تفسير الرازي ٢٦: ٧٩.

١. تفسير البضاوي ٢: ٢٨٢، تفسير أبي السعود ٧: ١٦٨.

٣. تفسير الرازي ٢٦: ٧٩.

ثم تَبَّ سبحانه على أن الركوب ليس علة للعبور من البحر بالسلامة، بل الله هو الحافظ للراكب والمركوب بقوله: ﴿وَإِنْ تَشَاءْ﴾ إغراقهم ﴿تُغْرِقْهُمْ﴾ في البحر مع كونهم في الفلك ﴿فَلَا صَرِيحَ﴾ ولا معين ﴿لَهُمْ﴾ يحرسهم من الغرق قبله ﴿وَلَا هُمْ﴾ بعد الغرق في البحر ﴿يُنْقَذُونَ﴾ ويخلصون منه بسبب من الأسباب ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ عظيمة كائنة ﴿مِمَّا﴾ عليهم ﴿وَمَتَاعاً﴾ وانتفاعاً منهم بالحياة والنعم الدنيوية ﴿إِلَى حِينٍ﴾ موتهم والأجل المقدر لهم، فإن الرحمة والعيشة المقدرة منجية ومغيثة لهم.

ثم أنه تعالى بعد بيان عدم اهتدائهم واعتنائهم بالآيات، بين عدم تأثرهم واتعاضهم بالمواعظ بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ نصحاً وعظةً أيها المشركون آمنوا بالله و ﴿اتَّقُوا﴾ بايمانكم ﴿مَا بَيِّنُ أَيْدِيكُمْ﴾ وما نزل من العذاب على الأمم الذين كانوا من قبل بسبب الشرك والطغيان على الله ورسله، واحذروا من أن ينزل عليكم مثله ﴿وَوَاحْذَرُوا﴾ احذروا ﴿مَا خَلَقَكُمْ﴾ وما أعد لكم من العذاب الأليم الدائم في الآخرة. - عن الصادق عليه السلام قال: «معناه اتقوا ما بين أيديكم من الذنوب، وما خلفكم من العذاب»<sup>١</sup>. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ويرجى أنكم بايمانكم ﴿تُزَحِّمُونَ﴾ من قبل الله، لأن النجاة من الشدائد لا تكون إلا برحمة الله، ولا تشملكم رحمته إلا بالايمان والتقوى - أعرضوا عن النصح البليغ، بل عاندوا وكابروا الناصح الشفيق، وأعجب من ذلك أنهم ما يزون ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ ومُعْجَزة من معجزات رسولهم ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ وبها غير معتنين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ نصحاً وإشفاقاً على الفقراء: ﴿أَنْفِقُوا﴾ على الفقراء والمحتاجين بعضاً وشيئاً ﴿مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ﴾ من الأموال، وأعطاكم من النعم تفضلاً وإحساناً، لثردوا به البلاء عن أنفسكم وأهلكم ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ نعم الله، وأنكروا توحيدهِ ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ونصحوا إنكاراً عليهم واستهزاء بهم: ﴿أَنْطَعُمْ﴾ من أطعمتنا ﴿مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾ إطعماه ﴿أَطْعَمَهُ﴾ بقدرته كما أطعمنا على زعمكم أن الله أعطانا هذه الأموال، وَتَحْسَبُونَ أَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَأَغْنَى الْفُقَرَاءَ وَأَعَزَّ الْأَذْلَاءَ ﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾ وما تكونون ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وانحرافٍ واضح عن الحق، وخطأ ظاهرٍ عن طريق الصواب، حيث لا تسألون الله الاتفاق عليهم، وتأمرونا بما يخالف مشيئة الله.

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ \* فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ [٤٨-٥٠]

ثم حكي سبحانه عنهم إنكار البعث واستهزاءهم به بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ هؤلاء المشركون للرسول والمؤمنين إنكاراً للمعاد واستهزاء بهم: ﴿مَتَى﴾ وفي أي وقت يُنْزَجَرُ ﴿هَذَا الْوَعْدُ﴾ الذي تعدونا به من قيام الساعة والحساب والجزاء على الأعمال؟ عَيِنَا وقته ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في الوعد به. ثم لما كانت الحكمة البالغة مقتضية لأخفائها، أجابهم سبحانه من قبل المؤمنين بذكر علاماته الموحشة وأحواله العظيمة بقوله: ﴿مَا يَنْظُرُونَ﴾ وما ينتظرون في وقوعه ﴿إِلَّا صَنِيعَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ لا يحتاج معها إلى الثانية، وهي نفخ إسرافيل في الصور المرة الأولى التي تكون نفخة الصّعق والموت، وهي ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ وتَنَالُهُمْ مُفَاجَأَةً بالقهر وسائر الناس ﴿وَالْحَالِ أُنْتُمْ يَخْصَصُونَ﴾ ويتنازعون في تجاراتهم ومعاملاتهم، وفي سائر أمور دنياهم.

عن ابن عباس: تهيج الساعة والرجلان يتبايعان [قد] نَشَرَا أثوابهما فلا يطويانها، والرجل يَلُوطُ حوضه فلا يستقي منه، والرجل قد انصرف بلبين لفجته<sup>١</sup> فلا يطعمه، والرجل قد رفع لقمته أو أكلته إلى فيه فلا يأكلها، ثم تلا هذه الآية ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾<sup>٢</sup>.

وقيل: إن المراد أَنَّهُمْ يختصمون في أمر البعث<sup>٣</sup> ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ ولا يقدرون عليها لمُفَاجَأَتِهِم بالموت، فلا يَدَعُ لهم مجال الأمر بأداء الواجبات، أو رد مظلمة، فضلاً عن فعله ﴿وَلَا يُمْهِلُهُمْ كِي﴾ [إِلَى أَهْلِهِمْ] وأزواجهم وأولادهم ﴿يَزْجَعُونَ﴾ من السوق، بل يموتون في مكانهم. القمي، قال: ذلك في آخر الزمان، يُصَاح فيهم صيحة وهم في أسواقهم يتخاصمون، فيموتون كلهم في مكانهم، لا يرجع أحد إلى منزله، ولا يوصي وصية<sup>٤</sup>.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ \* قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ

بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ [٥١ و ٥٢]

ثم بَيَّن سبحانه الأحوال التي بعد الصيحة والموت بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ بعد موت كافة الناس النفخة الثانية ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ من غير لبث ﴿مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ والقبور التي ذُفِنُوا فيها ﴿إِلَى﴾ محضر عدل ﴿رَبِّهِمْ﴾ وموقف حساب أعمالهم ﴿يَنْسِلُونَ﴾ ويسرعون جبراً وعُفْواً.

ثم كأنه قيل: ما يقول المنكرون للمعاد والبعث بعد خروجهم من قبورهم ومشاهدتهم صدقه؟ فأجاب سبحانه بقوله: ﴿قَالُوا﴾ تأسفاً على إنكارهم البعث، وخوفاً مما ينزل بهم من العذاب: ﴿يَا

١. كذا، وفي تفسير روح البيان: لفجته.

٢. تفسير روح البيان ٧: ٤٠٩.

٣. تفسير القمي ٢: ٢١٥، تفسير الصافي ٤: ٢٥٥.

٤. تفسير الرازي ٢٦: ٨٧.

وَيَلْتَنَا. وَيَا هَلَاكُنَا احْضَرْ فِي هَذَا الْوَقْتُ، أَنْ وَقْتُ حَضُورِكَ، ثُمَّ لَمَّا يُوْهِمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا نَائِمِينَ، ثُمَّ تَيَقَّظُوا قَالُوا تَعَجَّبًا: ﴿مَنْ بَعَثَنَا؟﴾ وَأَقَامْنَا ﴿مِنْ مَرْقِدِنَا؟﴾ وَمَتَامَنَا؟ ثُمَّ التَّفَتُوا إِلَى وَعْدِ الرُّسْلِ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ فَقَالُوا: ﴿هَذَا؟﴾ الْبَعْثُ مِنَ الْقَبْرِ وَالْحَيَاةُ بَعْدَ الْمَوْتِ هُوَ ﴿مَا وَعَدَ﴾ نَابِهَ ﴿الرَّحْمَنُ﴾ فِي الدُّنْيَا بِلِسَانِ الرُّسْلِ ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ فِي إِبْخَارِهِمْ عَنِ اللَّهِ بِالْعَالَمِ الْآخِرَةِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، وَقَلْنَا لَهُمْ اسْتَهِزَاءً مَتَى هَذَا الْوَعْدُ؟

وَقِيلَ: إِنَّهُمْ لَمَّا قَالُوا: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقِدِنَا؟﴾ أَجَابَهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ: إِنَّ هَذَا الْبَعْثُ لَيْسَ التَّيَقُّظُ مِنَ النَّوْمِ، بَلْ هُوَ مَا وَعَدَهُ الرَّحْمَنُ<sup>١</sup>.

عَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام، قَالَ: «إِنَّ الْقَوْمَ كَانُوا فِي الْقُبُورِ، فَلَمَّا قَامُوا حَسِبُوا أَنَّهُمْ كَانُوا نِيَامًا، قَالُوا: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقِدِنَا؟﴾ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾»<sup>٢</sup>.

وَعَنِ الصَّادِقِ عليه السلام، قَالَ: «كَانَ أَبُو ذَرٍّ يَقُولُ فِي خُطْبَةٍ: وَمَا بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ إِلَّا كَنُومَةٍ نَمْتَهَا، ثُمَّ اسْتَيْقَظَتْ مِنْهَا»<sup>٣</sup>.

إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ \* فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ  
نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ \* إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي  
شُغْلٍ فَاكِهُونَ [٥٣-٥٥]

ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ سَهُولَةَ إِحْيَائِهِمْ وَإِحْضَارَهُمْ فِي مُحْضَرٍ عَدْلُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ كَانَتْ﴾ الْنَفْخَةُ الثَّانِيَةُ لِلْخَلْقِ، وَمَا صَدَرَتْ مِنْ إِسْرَافِيلَ ﴿إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً﴾، غَيْرَ مُحْتَاجَةٍ إِلَى الثَّانِيَةِ ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ بِتِلْكَ الصَّيْحَةِ مِنْ غَيْرِ لِبَثِّ مَا ﴿جَمِيعٌ﴾ وَمَجْمُوعٌ ﴿لَدَيْنَا﴾ وَفِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ ﴿مُحْضَرُونَ﴾.

ثُمَّ أَعْلَنَ سَبْحَانَهُ بَعْدْلَهُ فِي الْمُجَازَاةِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَالْيَوْمَ﴾ الَّذِي حَضَرْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ عِنْدَنَا لِحِزَاءِ الْأَعْمَالِ ﴿لَا تُظَلِّمُ﴾ مِنْ قَبْلُنَا ﴿نَفْسٌ﴾ مِنَ النَّفُوسِ مُؤْمِنَةٌ كَانَتْ أَوْ كَافِرَةٌ بِنَقْصِ الثَّوَابِ أَوْ زِيَادَةِ الْعِقَابِ ﴿شَيْئًا﴾ يَسِيرًا، وَلَوْ كَانَتْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ﴾ أَيُّهَا الْكَفَّارُ وَالْفَجَّارُ ﴿إِلَّا﴾ جَزَاءً ﴿مَا كُنْتُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعَصْيَانِ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ، فَانَّهُمْ يُجْزَوْنَ الْيَوْمَ بِمَا لَمْ يَعْمَلُوا فَضْلًا وَرَحْمَةً عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ: ﴿وَيُزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ حَالَ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، أَزْدِيَادًا لِحَسْرَةِ الْكَفَّارِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ﴾ الْمُؤْمِنِينَ

١. تفسير البيضاوي ٢: ٢٨٤، تفسير روح البيان ٧: ٤١٢.

٢. تفسير الفمى ٢: ٢١٦، تفسير الصافي ٤: ٢٥٥.

٣. الكافي ٢: ١٨٠/١٨١، تفسير الصافي ٤: ٢٥٦.

الذين يكونون ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ وأهلها ﴿الْيَوْمَ﴾ كانوا ﴿فِي شُغْلٍ﴾ عظيمٍ وعملٍ يصرفهم عن الالتفات إلى أهوال اليوم وشدائده بحيث لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴿فَاكْهُونْ﴾ ومتنعمون بنعم الجنة، ومتلذذون بلذاتها، مسرورون بما نالوا من درجاتهم.

قيل: إن فاكهون تفسير لشغلهم، والمراد أنهم شغلوا باللذة والسرور، لا بالويل والثبور.<sup>١</sup>  
القمي، قال: ﴿فِي شُغْلٍ﴾ يعني في افتضااض العذارى ﴿فَاكْهُونْ﴾ قال: يُفاكهون النساء ويلاعبنهن.<sup>٢</sup>

وعن الصادق عليه السلام: «شغلوا بافتضااض العذارى، قال: وحواجهن كالأهله، وأشغار أعينهن كقوادم النسر».<sup>٣</sup>

وفي الحديث العامي: «إن الرجل ليعطى مائة رجل في الأكل والشرب والجماع».<sup>٤</sup>  
وفي الحديث: «أن أحدهم ليفتض في الغداة الواحدة مائة عذراء».<sup>٥</sup>  
وعن عكرمة: تكون الشهوة في أخراهن كالشهوة في أولهن، كلما افتضها رجعت على حالها عذراء.<sup>٦</sup>

رؤي أنه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أنفسي إلى نساينا في الجنة كما تنفسي إليهن في الدنيا؟ قال: «والذي نفسي بيده إن المؤمن ليقضي في يوم واحد إلى ألف عذراء».<sup>٧</sup>  
وقيل: إن الشغل هو سماع الأصوات الطيبة والنغمات اللذيذة.<sup>٨</sup>  
وقيل: إن المؤمن إذا اشتهى سماع الغناء أرسل الله تعالى إسرافيل فيقوم إلى الجانب الأيمن من المؤمن فيقرأ القرآن، ويقوم داود على جانبه الأيسر فيقرأ الزبور.<sup>٩</sup>  
وقيل: إن الشغل هو التزاور، فإن المؤمنين يتزاورون في الجنة.<sup>١٠</sup>

هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ \* لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مِمَّا يَدْعُونَ \* سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ [٥٦-٥٨]

ثم بين سبحانه كمال النعمة عليهم بقوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ المومنات اللاتي كنّ لهم في الدنيا مستقرون ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ وراحة أبدية، لا يشوبها تعب ولا نصب.  
قيل: أي في عزة ومنعة<sup>١١</sup>، متمكنون ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ والسرر المزيّنة التي تكون في الجبال

٢. تفسير القمي ٢: ٢١٦، تفسير الصافي ٤: ٢٥٦.

٤. ٩- تفسير روح البيان ٧: ٤١٤.

١١. تفسير روح البيان ٧: ٤١٧.

١. تفسير الرازي ٢٦: ٩١.

٣. مجمع البيان ٨: ٦٧١، تفسير الصافي ٤: ٢٥٧.

١٠. تفسير روح البيان ٧: ٤١٥.

﴿مُتَكَبِّرُونَ﴾ ومعتمدون على النَّمَارِقِ.

ثمَّ أنه تعالى بعد ذكر نعمة أنسهم بأزواجهم، واستغراقهم في الراحة، وتمكّنهم على السرور التي هي أحسن المجالس، وفراغهم من جميع المشاغل، بيّن ما كؤلهم في الجنة بقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ وأغذية لذيدة غاية اللذة، بلا اضطرارٍ لهم إلى أكلها من جهة تألمهم بالجوع وضَعْف القوى وإصلاح المزاج ﴿وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ ويشتهون من المأكولات اللذيذة والأشربة الطيبة. قيل: إن المراد لهم ما يدعون الله أن يعطيهم فيستجيب دعاءهم<sup>١</sup>.

وقيل: لهم ما كانوا يدعون في الدنيا من الجنة ودرجاتها<sup>٢</sup> ونعيمها، وعلى أي تقدير يكون في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ دلالة على كون الفاكهة وغيرها من النعم ملكاً لهم وتحت سلطتهم واختيارهم.

ثم ختم سبحانه ذكر نعمه على المؤمنين بذكر أعلاها بقوله: ﴿سَلَامٌ﴾. قيل: إن التقدير سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار<sup>٣</sup> ﴿قَوْلًا﴾ كأننا ﴿مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ بالمؤمنين عَطُوفٌ بعباده الصالحين. قيل: إن (سلام) بدل من (ما يدعون) والمعنى لهم سلام<sup>٤</sup> وتحتة، يقال لهم قولاً من جهة ربِّ رحيمٍ بواسطة المَلَكِ أو بدون واسطة مبالغة في تعظيمهم<sup>٥</sup>.

في الحديث: «بينما أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع نور فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم، فيقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، فذلك قوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته عليهم»<sup>٦</sup>.

أقول: المراد من إشرافه عليهم ظهور رحمته الخاصة بالخُلص<sup>٧</sup>، وتجلي النور الخاص الذي هو من آثار رضوانه، ومن نظره إليهم إدامة ذلك التجلي، ومن نظرهم إليه محوهم فيه.

القمي، قال: السلام منه هو الأمان<sup>٨</sup>.

وقيل: إنه كلام منقطع عما قبله، ويكون ذلك إخباراً منه تعالى لنا في كلامه، فإنه لما بيّن كمال حسن حالهم قال: ﴿سلام عليهم﴾ كما قال: ﴿سلام على نوح﴾ و ﴿سلام على إبراهيم﴾ و ﴿سلام على المرسلين﴾ فهو إحسان على عباده المؤمنين كإحسانه على المرسلين<sup>٩</sup>، وإنما وصف ذاته

٢. تفسير البيضاوي ٢: ٢٨٥.

٤. تفسير الرازي ٢٦: ٩٤.

٦. تفسير روح البيان ٧: ٤١٨.

٨. تفسير القمي ٢: ٢١٦، تفسير الصافي ٤: ٢٥٧.

١. تفسير روح البيان ٧: ٤١٨.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٤١٩.

٥. تفسير روح البيان ٧: ٤١٨.

٧. في النسخة: بالخُلصين.

٩. تفسير الرازي ٢٦: ٩٤.



بالربوبية المشعرة بمالكه وسيادته، للدلالة على نهاية التعظيم المعجب، فإن تسليم المالك المنعم العظيم الشأن على عبده الضعيف من العجائب الدالة على نهاية التعظيم والخطوة.

وَأَمَّا زَاوَا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ \* أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا  
الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ \* وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥٩-٦١)

ثم أنه تعالى بعد بيان كمال حسن المؤمنين وإكرامهم في الآخرة، بين سوء حال الكفار وإهانتهم فيها بقوله: ﴿وَأَمَّا زَاوَا الْيَوْمَ﴾ وتفرقوا عن المؤمنين ﴿أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ﴾ والعصاة، وادخلوا مساكنكم التي أعدت لكم في جهنم.

وقيل: يعني تفرقوا وتلاشوا من الحسرة والندامة، لما ترون من رفعة منزلة المؤمنين وحسن حالهم، أو تفرق بعضكم من بعض على خلاف ما للمؤمنين من الاجتماع مع الأزواج والتزاور بينهم، وامتازوا وتفرقوا من شفاعنكم وقرنائكم، فما لكم اليوم من شفيع ولا حميم، أو امتازوا عما ترجون، واعتزلوا من كل خير، أو امتازوا وتبينوا من بين الناس، فتظهر فيهم سيما يعرفون بها، وهو السواد الذي يظهر في وجوههم<sup>١</sup>.

أقول: المجرمون الذين يخلدون في النار هم المنكرون للمصانع وتوحيده، والمنكرون للرسالة، والمنكرون للولاية أو واحد من ضروريات الدين، كالشفاعة وظهور المهدي عليه السلام في آخر الزمان. ثم أنه تعالى بعد أمر المجرمين بالامتنياز، أخذهم بالتقريع والتبكيت بقوله: ﴿أَلَمْ أَقْهَدْ﴾ ولم أوص في عالم الذر، أو في الدنيا بلسان الرسل ﴿إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا﴾ ولا تطيعوا ﴿الشَّيْطَانَ﴾ الذي أخرج أبويكم من الجنة، ولم أقل ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ومبغض ظاهر البغضاء بحيث لا تخفى عداوته على ذي مسكة؟! وإنما نسب سبحانه إليهم عبادة الشيطان مع أن أحداً لا يعبد؛ لأن عبادة غير الله بأمره هي عبادته.

عن الصادق عليه السلام: «من أطاع رجلاً في معصية، فقد عبده»<sup>٢</sup>.

وعن الباقر عليه السلام: «من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق يروي<sup>٣</sup> عن الله فقد عبد الله تعالى، وإن كان الناطق يروي عن الشيطان فقد عبد الشيطان»<sup>٤</sup>.

﴿و﴾ ألم أعهد إليكم ﴿أَنْ أَعْبُدُونِي﴾ وأخلصوا لي العبادة ﴿هَذَا﴾ العهد ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾

٢. الكافي ٢: ٢٩٣، ٨/ تفسير الصافي ٤: ٢٥٨.

٤. الكافي ٦: ٤٣٤، ٢٤/ تفسير الصافي ٤: ٢٥٨.

١. تفسير الرازي ٢٦: ٩٥.

٣. في الكافي: يؤدي، وكذا التي بعدها.

موصول لكم إلى كل خير وسعادة.

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَفْقَهُونَ \* هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ  
تُوعِدُونَ \* أَضَلُّوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ \* الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ  
وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [٦٢-٦٥]

ثم بالغ سبحانه في تعريمهم، وبين أن خلافهم لم يكن منحصرًا بنقض عهدي، بل كان به وبعدهم  
اتعاظم بما شاهدوا وعلموا من العقوبات النازلة على الأمم السابقة بطاعتهم الشيطان بقوله: ﴿وَلَقَدْ  
أَضَلَّ الشَّيْطَانُ وَمِنْكُمْ﴾ أيها المجرمون ﴿جِبِلًّا﴾ وخلقاً ﴿كَثِيرًا﴾ فأصابهم لأجل ذلك ما أصابهم  
من العقوبات الهائلة التي ملأ الأفاق أخبارها، وبقي مدئ الدهر آثارها ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا﴾ قيل: إن التقدير  
أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم فلم تكونوا ﴿تَفْقَهُونَ﴾ وتفهمون أنها لضلالهم وطاعتهم الشيطان،  
فترتدعوا عنها كيلا يحيق بكم العقاب؟!<sup>١</sup>

ثم أنه تعالى بعد تبريع المجرمين، أراهم نتيجة ضلالتهم بقوله: ﴿هَذِهِ﴾ النار الموقدة التي تَرَوْنَهَا  
هي ﴿جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تُوعِدُونَ﴾ هاوئهددون بها على ألسنة الرسل في أزمنة متطاولة.  
قيل: ثم يُقَادُونَ إلى شفيرها<sup>٢</sup> ثم يقال لهم: ﴿أَضَلُّوْهَا﴾ وألقوا أنفسكم فيها، وقاسوا حرَّها ﴿الْيَوْمَ﴾  
الذي يكون يوم المجازاة ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَكْفُرُونَ﴾ بالله وبرسله.

عن أبي هريرة، قال: أوقِدَتِ النار ألف عام فايضت، ثم أوقِدَتِ النار ألف عام فاحمرت، ثم  
أوقِدَتِ ألف عام فاسودت فهي سوداء كالليل المظلم، وهي سجن الله تعالى للمجرمين.<sup>٣</sup>

ثم لوى سبحانه الخطاب إلى العيبة إيداناً بأن ذكر أحوالهم الفظيعة مقتضية للإعراض عنهم، ثم  
حكى أحوالهم القبيحة لغيرهم بقوله: ﴿الْيَوْمَ﴾ نمنعهم من التكلم، كأننا ﴿نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾ فلا  
يقدرُونَ على النطق ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾ وتعترف  
جوارحهم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ في الدنيا ويعملون من السيئات والقبايح، وذلك حين عاينوا  
صحائف أعمالهم، وأنكروا شرهم وسيئاتهم.

عن أنس، قال: كنّا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال: «أتدرون مم ضحكتم؟» قلنا: الله ورسوله  
أعلم. قال: «من مخاطبة العبد ربّه يقول: يا رب ألم تجزني<sup>٤</sup> من الظلم؟ يقول: بلى. فيقول: ما أجيز عن

١. تفسير روح البيان ٧: ٤٢٣.

٢. تفسير أبي السعود ٧: ١٧٦، تفسير روح البيان ٧: ٤٢٤.

٤. في تفسير روح البيان: تجزني.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٤٢٤.

نفسى إلا شاهداً مَنِي. فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين [شهوداً]. فَيُخْتَمَ على فيه، ويقال لأركانه: انطقي، فتَنطِقُ بأعماله، ثُمَّ يُخَلَّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعداً لَكَ وَشُحْقاً، فعنكَ كُنتَ أناضل<sup>١</sup>.

القمي، قال: إذا جمع الله الخلق يوم القيامة، دفع إلى كل إنسان كتابه فينظر فيه، فيُنكَرُونَ أَنَّهُمْ عملوا من ذلك شيئاً، فتشهد عليهم الملائكة فيقول: يا رب، ملائكتك يشهدون لك، فيحلفون أَنَّهُمْ لم يعملوا من ذلك شيئاً، وهو قول الله يوم يبعثهم الله جميعاً، فيحلفون له كما يحلفون لكم، فإذا فعلوا ذلك خَتَمَ الله على ألسنتهم، وتنطق جوارحهم بما كانوا يكسبون<sup>٢</sup>.

وفي (الكافي) عن الباقر عليه السلام: «ليست الجوارح تشهد على المؤمن، إنما تشهد على من حَقَّت عليه كلمة العذاب، فأما المؤمن فيعطى كتابه بيمينه، قال الله عز وجل: ﴿فَمَنْ أَوْتَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَاولئك يقرؤن كتابهم ولا يظلمون فتيلاً﴾»<sup>٣</sup>.

أقول: الرواية مختصة بالشهادة على المؤمن، فلا ينافي ما ورد في الحديث: «أن الله تعالى يخاطب العبد المؤمن يوم القيامة ويقول: ما أتيت من العبادات والخيرات؟ فيستحي المؤمن أن يعرض عباداته وحسناته، فينطق الله جوارحه فيشهدون بحسناته وأعماله الخيرية حتى أن أنامله تشهد بأنه عدّ تسبيحاته بها»<sup>٤</sup>.

وعن النبي صلى الله عليه وآله أَنَّهُ قال لبعض النساء: «عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس، واعقدن بالأنامل، فأنهن مسؤولات مُسْتَنْطَقَات»<sup>٥</sup>.

أقول: لا ينافي هذا لما سبق، لأنه شهادة له، بل لا ينافي شهادة جوارح بعض المؤمنين عليه، لإظهار فضله وسعة رحمته. كما ورد أن عبداً تشهد عليه أعضاؤه بالزلة فتتطاير شعرة من جفن عينيه، فتستأذن بالشهادة له، فيقول الله: تكلّمي يا شعرة جفن عبدي، واحتجّي عن عبدي، فتشهد له بالبكاء من خوفه، فيغفر له، فينادي مناد: هذا عتيق الله بشعرة<sup>٦</sup>.

وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ \* وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ [٦٦ و ٦٧]

٢. تفسير القمي ٢: ٢١٦، تفسير الصافي ٤: ٢٥٨.

١. تفسير روح البيان ٧: ٤٢٥.

٣. الكافي ٢: ١٧٢٧، تفسير الصافي ٤: ٢٥٨، والآية من سورة الإسراء: ١٧/٧١.

٥. تفسير روح البيان ٧: ٤٢٦.

٤. تفسير روح البيان ٧: ٤٢٦.

٦. تفسير روح البيان ٧: ٤٢٥.

ثُمَّ نَبِّهَ سُبْحَانَهُ عَلَى أَنَّ حُكْمَتَهُ الْبَالِغَةَ اقْتَضَتْ إِيْكَالَ النَّاسِ إِلَى اخْتِيَارِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ وَالْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ، وَإِلَّا كَانَ قَادِرًا عَلَى سَلْبِ قُوَى الْكُفَّارِ وَتَعْجِيزِهِمْ عَنِ الْعِصْيَانِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ بِالْمِشِيئَةِ التَّوَكُّيْنِيَّةِ طَمَسَ أَعْيُنَهُمْ وَمَحَوْهَا ﴿لَطَمَسْنَا﴾ وَجَعَلْنَا الْمَحْوَ ﴿عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ وَسَوَّيْنَا مَكَانَهَا بِحَيْثُ لَا يَبْقَى لَهَا ضَوْءٌ وَلَا يَبْدُو لَهَا شَيْءٌ وَلَا جَفْنٌ، كَمَا خَتَمْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ وَمَحَوْنَا بَصَارَهُمْ ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ وَتَبَادَرُوا إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الْوَاسِعِ الَّذِي اعْتَادُوا سُلُوكَهُ ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ ذَلِكَ الطَّرِيقَ، وَكَيْفَ يَزَوِّنُ مَوْضِعَ أَقْدَامِهِمْ مِنْهُ حَتَّى يُمَكِّنَهُمُ الْمَشْيَ فِيهِ؟ وَفِيهِ تَهْدِيدٌ لِّلْمُكَذِّبِ الرَّسُولِ بِمَا فَعَلَ بِقَوْمِ لُوطَ حِينَ كَذَّبُوهُ وَرَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ.

ثُمَّ بَالِغَ سُبْحَانِهِ فِي إِظْهَارِ قُدْرَتِهِ وَتَهْدِيدِ الْمُشْرِكِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ مَسْخَهُمْ وَمَحْوِ صُورَتِهِمُ النُّوعِيَّةِ ﴿لَمَسْخُنَاهُمْ﴾ وَغَيْرِنَا صُورَتِهِمْ بِأَنْ جَعَلْنَاهُمْ حَجَرًا أَوْ مَدْرَأً أَوْ جِمَادًا آخَرَ، أَوْ مَسْلُوبِي الْقُوَى ﴿عَلَى مَكَاتِنِهِمْ﴾ وَمَقَامِهِمْ وَفِي مَحْلِهِمْ بِالْفُورِ بِحَيْثُ لَا يَكُونُ لَهُمْ مَجَالُ الْإِنْتِقَالِ مِنْهُ ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا﴾ وَذَهَابًا إِلَى أَمَامِهِمْ وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ إِلَى وَرَائِهِمْ وَخَلْفَهُمْ، وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِاسْتِحْقَاقِهِمْ تِلْكَ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، كَاسْتِحْقَاقِهِمْ عُقُوبَةَ الْخُتْمِ فِي الْآخِرَةِ، وَإِنَّمَا الْمَانِعُ الْحِكْمَةُ الْمَقْضِيَّةُ لِإِمْهَالِهِمْ، فَلَا يَشَاءُ ذَلِكَ.

وَمَنْ تُعْمَرُهُ تُنَكِّسُهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ \* وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ  
إِنْ هُوَ إِلَّا ذَكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ \* لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَجْعَلَ الْقَوْلَ عَلَى

الْكَافِرِينَ [٦٨ - ٧٠]

ثُمَّ اسْتَشْهَدَ سُبْحَانَهُ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى سَلْبِ قُوَّتِهِمْ بِمَا يَزَوِّنُ مِنْ سَلْبِ قُوَى الْمُعَمَّرِينَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ تُعْمَرُهُ﴾ وَتُطِيلُ مَدَّةَ حَيَاتِهِ فِي الدُّنْيَا ﴿تُنَكِّسُهُ﴾ وَتَقْلِبُهُ ﴿فِي الْخَلْقِ﴾ وَالْجِسْمَ وَالْقُوَى الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنِيَّةَ، وَنَجْعَلُهُ بِخِلَافِ مَا كَانَ عَلَيْهِ فِي صِبَاوَةِ شَبَابِهِ، فَلَا يَزَالُ تَغْيِيرُ جَسَدِهِ وَتِزَايِدُ ضَعْفِهِ، وَتَتَنَاقَصُ قُوَاهُ وَثَبَّتَتْهُ، وَتَتَغَيَّرُ شَكْلُهُ وَصُورَتُهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَى حَالَةِ شَبِيهَةِ بَحَالِ صِبَاوَتِهِ فِي ضَعْفِ بَدَنِهِ وَقَلَّةِ عَقْلِهِ وَفَهْمِهِ ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾. قِيلَ: إِنَّ التَّقْدِيرَ أَتَرُونَ ذَلِكَ فَلَا تَفْهَمُونَ أَنَّ مِنْ قَدَرٍ عَلَى ذَلِكَ قَدَرٌ عَلَى مَا ذَكَرَ مِنَ الطَّمَسِ وَالْمَسْخِ؟<sup>١</sup>

ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ الْمَطَالِبَ الْعَالِيَةَ الرَّاجِعَةَ إِلَى الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ الدَّالَّةَ عَلَى كَوْنِهَا نَازِلَةً مِنْ اللَّهِ الْقَادِرِ الْحَكِيمِ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَكْذِبُونَهَا وَيَنْسُبُونَهَا إِلَى الشُّعْرِ وَيَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا شَاعِرٌ، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمُ

بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ والكلام المنظوم المزخرف المنسوج المبني على التخيلات والوهميات ﴿وَمَا يَنْبَغِي﴾ ولا يصلح ﴿لَهُ﴾ ولا يليق به الشعر والكلام الموزون المركب من الأوهام والأكاذيب، لرفعة مقام النبوة عنه، بل ﴿إِنْ﴾ هذا الكتاب الذي أتى به محمد ﷺ وما ﴿هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ وعظة من الله للعالمين، وهداية للمهتدين ﴿وَقُرْآنٌ﴾ وكتاب سماوي ﴿مُبِينٌ﴾ وظاهر أنه من الله الحكيم، أو فارق بين الحق والباطل، وموضح للعلوم والحكم والأحكام، وإنما أنزله الله تعالى ﴿لِيُنْذِرَ﴾ محمد ﷺ ويخوف بالعذاب على الشرك والعصيان ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ وعاقلاً فيهما منور الفكر والقلب ﴿وَلِنِ﴾ ﴿يَحِقَّ الْقَوْلُ﴾ ويثبت بإيضاح الحق وإتمام الحجة الوعد بالعذاب ﴿عَلَى﴾ القوم ﴿الْكَافِرِينَ﴾ المصيرين على المعاندة للحق، فإنه بتمامية الحجة عليهم يستحقون العذاب وتنجز الوعد به.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ \* وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ \* وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ [٧٣-٧١]

ثم أنه تعالى بعد إثبات نبوة النبي ﷺ وصدق كتابه، عاد إلى إثبات التوحيد بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ قيل: إن التقدير ألم يتفكروا ولم يعلموا؟ ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ ولانفعاهم ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ وصنعت قدرتنا بغير إعانة الغير ومشاركته ﴿أَنْعَامًا﴾ وأموالاً راعية من الإبل والبقر والغنم والمغز اللاتي فيها فوائد كثيرة ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ وعليها مسلطون، وفيها متصرفون ﴿وَذَلَّلْنَاهَا﴾ وسخرناها بقدرتنا ﴿لَهُمْ﴾ بحيث لا تستعصي عليهم في شيء مما يريدون بها، فإن الإبل والبقر مع عظمهما وقوتهما يتودهما طفل صغير ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ ومركوبهم يقطعون عليها المسافات البعيدة ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ لحمها وشحمها ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ كثيرة آخر غير الركوب والأكل، كالجلود، والأصواف، والأشعار، والأوبار، والنتائج والحمل والحرث ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من الألبان ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ النعم بالإقرار بتوحيده والقيام بطاعته؟!

وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لَّهُمْ يُنْصَرُونَ \* لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ \* فَلَا يَخْرُجُ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ [٧٦-٧٤]

ثُمَّ وَيُخَبِّرُهُمْ سُبْحَانَهُ عَلَى كُفْرَانِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ واختاروا لأنفسهم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وما سواه ﴿إِلَٰهَةً﴾ ومعبودين من الأصنام ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ وبرجاء أنهم ﴿يُنْصَرُّونَ﴾ من جَهَنَّمَ ويعاونون من قبلهم في الأمور، أو برجاء أنها يشفعون لهم يوم القيامة، مع أن أولئك الأصنام ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ ولا يقدرون على إعانتهم في شيء، لا في الدنيا ولا في الآخرة، لغاية عجزهم ﴿وَهُمْ﴾ باتباعهم وعبادتهم الأصنام في الدنيا يكونون ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جُنْدٌ﴾ وعسكر يتبعونهم حين سوفهم إلى النار، وكلهم العابد والمعبود ﴿مُخَضَّرُونَ﴾ في جهنم مجتمعون فيها، أما العابد فلاستحقاقه، وأما المعبود فلأن يكون وقوداً لها وحسرة لهم.

رُوي أَنَّهُ يُؤْتَى بِكُلِّ مَعْبُودٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَعَهُ أَتْبَاعُهُ كَأَنَّهُمْ جُنْدٌ، فَيُخَضَّرُونَ فِي النَّارِ.<sup>١</sup>  
أقول: هذا إذا كان المعبود جماداً، أو كان راضياً بعبادة غيره إياه، وفيه بيان غاية عجز الأصنام عن نصرتهم.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ عداوة المشركين وسوء أقوالهم مؤثراً في انكسار قلب النبي ﷺ، سَلَّى سُبْحَانَهُ حَبِيبِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا يَخْزُوكَ﴾ ولا يؤلم قلبك عداوة المشركين و﴿قَوْلُهُمْ﴾ إنَّ محمداً شاعرٌ أو مجنون ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ ويخبرون من بطنك وعداوتك ﴿وَمَا يُغْلِثُونَ﴾ من سبك وشتمك، أو ما يَشْتَرُونَ من النفاق، وما يعلنون من الشُّرك، أو ما يُسِرُّون من العلم بنبوتك، وما يعلنون من إنكار صدقك، أو ما يُسِرُّون من العقائد الفاسدة، وما يعلنون من الأعمال القبيحة.

أَوَّلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ \* وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا  
وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ \* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ  
مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ [٧٧-٧٩]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ إِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ، رَفَعَ شِبْهَتَهُمْ فِي الْمَعَادِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوَّلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ﴾ ولم يعلم ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ﴾ وصورناه بقدرتنا بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً مع تَضَارَتِهِ وبهجته، وكونه ذا أجزاء مختلفة بالماهية والطبيعة ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ قدرة متشابهة الأجزاء، وجعلناه بعد افتقاده لجميع القوى ذا نُطْفَةٍ وَفِطْنَةٍ وَعَقْلِ و﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ لنا ومجادلنا بالباطل ﴿مُبِينٌ﴾ ومُظْهِرٌ لِلْحُجَّةِ عَلَيْنَا فِي خُصُومَتِهِ.

قِيلَ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ كناية عن صيرورته ناطقاً، فَإِنَّ إِبْدَاعَ الْفَهْمِ وَالنُّطْقِ فِي الْجَمَادِ

أغرب من خلق الجسم<sup>١</sup>، وذكر الخصومة مكان النطق لكونها أعلى منه؛ لأن الناطق مع نفسه لا يبين كلامه مثل ما يبين كلامه مع غيره عند المخاصمة، فقلوه: ﴿مِنْ نُطْقَةٍ﴾ إشارة إلى أدنى ما كان عليه وقلوه: ﴿حَصِيمٌ مُّثَبِّتٌ﴾ إشارة إلى أعلى مرتبة كماله الظاهري.

ثم يبين سبحانه خصومته مع ربه بقلوه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ وتكلم في رد المعاد الذي وعدنا به كلاماً غريباً ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ ابتداءً من تراب، ثم من نطفة و ﴿قَالَ﴾ استبعاداً لصحة المعاد حين أخذ عظم رميم بيده ﴿مَنْ﴾ يقرر على أن ﴿يُخَيِّى﴾ هذه ﴿الْعِظَامُ﴾ ويصيرها إنساناً سوياً ﴿وَهِيَ﴾ الآن ﴿رَمِيمٌ﴾ بالية بعيدة من الحياة غايته ﴿قُلْ﴾ يا محمد، رداً لهذا المخاصم الغيبي، وتبكيئاً له: ﴿يُخَيِّئُهَا﴾ الإله القادر ﴿الَّذِي أَنْشَأَهَا﴾ وخلقها ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وحين لم يكن شيئاً، فإن الخلق ثانياً أهون من الخلق أولاً مع قابلية المادة وبقاء القدرة، لاستحالة التغير في ذاته تعالى ﴿وَهُوَ يَكُلُّ خَلْقٍ﴾ من الإنشاء والإعادة ﴿عَلِيمٌ﴾ ومبالغ في الاحاطة بتفاصيل كفياته، وبجميع الأجزاء المتبددة المتفتتة لكل من الأشخاص، وأوضاع بعضها من بعض من الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق، فيعيد كلاً على النمط السابق مع القوى التي كانت لها قبل.

قيل: إن فيه رفع شبهة الأكل والمأكول، وهي أنه إذا أكل إنسان إنساناً، وصار المأكول أجزاءً للأكل، فإن أعيدت أجزاء المأكول إليه لا تبقى أجزاءً للأكل حتى يعاد، وإن أعيد إلى الأكل لا يبقى للمأكول شيء، فأبطلها الله بقلوه: ﴿وَهُوَ يَكُلُّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ وتقديره أن لكل من الأكل والمأكول أجزاءً أصليةً وأجزاءً فضلية، وتصير الأجزاء الأصلية من المأكول أجزاءً فضليةً من الأكل، والله تعالى عالم بالأجزاء الأصلية من كل منهما، فيجمعها وينفخ فيها الروح، فيحيي الأكل والمأكول من الأجزاء الأصلية التي كانت لكل منهما<sup>٢</sup>.

روى بعض العامة أن الآيتين نزلت في أبي بن خلف حيث أخذ عظماً بالياً، وأتى النبي ﷺ، وقال: إنك تقول: إن الهك يحيي هذه العظام؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم ويُدخلك جهنم»<sup>٣</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: قال: «جاء أبي بن خلف فأخذ عظماً بالياً من حائط ففسته، ثم قال: يا محمد، إذا كنا عظاماً ورُفَاتاً، إنا لمبعوثون، فنزلت»<sup>٤</sup>.

وعنه عليه السلام: «إن الروح مقيمة في مكانها، روح المحسن في ضياء، وفسحة، وروح المسيء في ضيق

٢. تفسير الرازي ٢٦: ١٠٩، تفسير روح البيان ٧: ٤٣٨.

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٠٨.

٣. تفسير أبي السعود ٧: ١٨٠، تفسير روح البيان ٧: ٤٣٦.

٤. تفسير العباسي ٣: ٢٥٣٣/٥٦، تفسير الصافي ٤: ٢٦١.

وظلمة، والبدن يصير تراباً كما منه خلق، وما تقذِف به السباع والهوام مما أكلته وفرقته، كل ذلك في التراب محفوظٌ عند من لا يعزُب عنه مثقال ذرة في ظلمات الأرض، ويعلم عدد الأشياء، ووزنها، وإن تراب الروحانيين بمنزلة الذهب في التراب، فإذا كان حين البعث مطرت الأرض مطر النشور، فتربو الأرض ثم تمخض مخض السماء، فيصير تراب البشر كمصير الذهب من التراب إذا غسل بالماء، والزيد من اللبن إذا مخض، فيجمع تراب كل قالب إلى قالبه، فينتقل باذن الله القادر إلى حيث الروح، فتعود باذن المصور كهيتها، وتلج الروح فيها، فإذا استوى لا ينكر من نفسه شيئاً<sup>١</sup>.

الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ \* أَوَلَيْسَ  
الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ  
الْعَلِيمُ [٨٠ و ٨١]

ثم لما كان من شبهات منكري البعث والمعاد عدم إمكان تعلق الروح بالأجزاء الترابية اليابسة والعظام النخرة، دفعها سبحانه بتوصيف ذاته المقدسة بالقدرة على الجمع بين النار والشجر الرطب مع المضادة بينهما بقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ﴾ وخلق بقدرته ﴿لَكُمْ﴾ ولنفعكم ﴿مِنَ الشَّجَرِ﴾ الرطب ﴿الْأَخْضَرِ﴾ مع انتشار الماء في أجزائه وخلله ﴿نَاراً﴾ محرقة.

قيل: إن العرب تتخذ زُودهم من المَرخ والعقار، وهما شجران في بواديهم، يقطعون منهما عُصنين كالمساكين، فيسحق المَرخ وهو الذكر على العقار وهو أنثى، فتندح منهما النار<sup>٢</sup>، مع كونهما أخضرين يقطر منهما الماء ﴿فَإِذَا﴾ خرجت النار من الشجر ﴿أَنْتُمْ﴾ أيها العرب ﴿مِنْهُ تُوقَدُونَ﴾ وتُشعلون النار في الحطب، فكما لا مجال لأن تُشكوا في خروج النار من الشجر الرطب، ليس لكم أن تُشكوا في أن الله قادرٌ على إبلاج الروح في الأجزاء اليابسة بأن يجعلها غضة طرية كما كانت قبل الموت، وإحيائها كما كانت في الدنيا.

ثم أنكر سبحانه على من أنكر قدرته على جمع أجزاء البدن وإحيائها ثانياً بقوله: ﴿أَوَلَيْسَ﴾ الإله القادر ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ بقدرته ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ مع كبر جسمهما وعظم شأنهما ﴿بِقَادِرٍ﴾ في اعتقاد المشركين ﴿عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ في الحقارة والصغر بالنسبة إليهما ﴿بَلَىٰ﴾ قادرٌ على أن يخلق مثلهم ببديهة العقل، بل أقدر ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ﴾ للممكنات، والموجد لجميع الموجودات ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكيفياتها وكمياتها ومصلحتها ومفاسدها.



عن الصادق عليه السلام: «أما الجدل بالتي هي أحسن، فهو ما أمر الله نبيه ﷺ أن يُجادل من جحد البعث بعد الموت وإحياء له، فقال عز وجل حاكياً عنه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ الآية، فأراد من نبيه ﷺ أن يُجادل المُبطل الذي قال: كيف يجوز أن يبعث هذه العظام وهي رميم! قال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أفيعجز من ابتداءه لا من شيء أن يعيده بعد أن يتلى؟ بلى ابتدأه أصعب عندكم من إعادته.

ثم قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ أي إذا كَمُنَت النار الحارة في الشجر الأخضر الرطب، ثم يستخرجها، فعزفكم أنه على إعادة من تلي أقدر. ثم قال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ﴾ الآية، أي إذا كان خلق السماوات والأرض أعظم وأبعد في أوهامكم وقدركم أن تقدرُوا عليه من إعادة البالي، فكيف جوزتم من الله خلق هذا الأعجب عندكم، والأصعب لديكم، ولم تجوزوا منه ما هو أسهل عندكم من إعادة البالي؟<sup>١</sup>.

إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ \* فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ

كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [٨٢-٨٣]

ثم بين سبحانه كمال قدرته على إيجاد كل شيء من الأشياء بلا حاجة إلى إله ومعاون وعدة مدة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾ عز شأنه ﴿إِذَا أَرَادَ﴾ وشاء أن يكون المعدوم ﴿شَيْئًا﴾ موجوداً عظيماً كان أو حقيراً، جليلاً كان أو دقيقاً ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ﴾ وأن يريد به بالإرادة التكوينية ﴿فَيَكُونُ﴾ ويوجد من غير ريب وتأخير.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنما كلامه سبحانه فعل [منه] أنشأه، قال يقول لا بلفظ ... ويريد ولا يُضْمِر»<sup>٢</sup>.

وعن الرضا عليه السلام: «﴿كُنْ﴾ منه تعالى صنع، وما يكون به المصنوع»<sup>٣</sup>.  
وإنما عبر عن إرادته بقول: ﴿كُنْ﴾ تمثيلاً لتأثير قدرته وإرادته تعالى فيما أراد وجوده بأمر المطاع للمأمور المطيع في سرعة حصول المأمور به من غير توقّف على شيء ما، لوضوح أنه لا يكون هنا قول ولا أمر ولا مأمور، إذ لا معنى لأمر المعدوم أن يوجد نفسه.  
ثم أنه تعالى بعد بيان كمال ذاته، وبيان قدرته الكاملة على الإنشاء والإعادة وعدم تخلف مراداته

١. الاحتجاج: ٢١، تفسير الصافي: ٤: ٢٦٢.

٢. نهج البلاغة: ٢٧٤ الخطبة ١٨٦، تفسير الصافي: ٤: ٢٦٢.

٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١/١٧٣، تفسير الصافي: ٤: ٢٦٢.

عن إرادته، علّم الناس تنزيه ذاته المقدّسة وتسيّحه بقوله تبارك وتعالى: ﴿فَسُبْحَانَ﴾ الإله القادر ﴿الَّذِي بِيَدِهِ﴾ وبإرادته وقدرته ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ووجود جميع الموجودات وجميع الممكنات، فإنّ كلّ موجود مركّب عن جزء ملكي وهو الماهية، وجزء ملكوتي وهو وجوده. وقيل: إنّ المراد نزّها الله الذي تحت قدرته ملك كلّ شيء وضبطه وتصرفه عمّا صفوه به من العجز، وتعجّبوا ممّا قالوه في شأنه من التّقصان<sup>١</sup>.

وقيل: إنّ ملكوت الشيء ما يقوم به من الأرواح والملائكة<sup>٢</sup>.

﴿وَالْيَوْمِ﴾ وحده أيّها الناس ﴿تُزْجَعُونَ﴾ بعد الموت للحساب وجزاء الأعمال.

عن الباقر عليه السلام: «من قرأ سورة يس في عمره مرّة كتب الله له بكلّ خلق في الدنيا وبكلّ خلق في الآخرة وفي السماء بكلّ واحد ألف حسنة، ومحا عنه مثل ذلك، ولم يصبه غم ولا هذم ولا نصّب ولا جنون ولا جذام ولا وسواس ولا داء يضرّه، وخفّف الله عنه سكّرات الموت وأهواله، وولي قبض روحه، وكان ممّن يضمن الله له السّعة في معيشته، والفرح عند لقائه، والرضا بالثواب في آخرته، وقال الله لملائكته أجمعين من في السماوات ومن في الأرضين: قد رضيت عن فلان، فاستغفروا له»<sup>٣</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: «إنّ لكلّ شيء قلباً، وإنّ قلب القرآن يس»<sup>٤</sup>.

أقول: لعلّ وجهه أنّ القلب به حياة الشيء، ولما كانت سورة يس مُصدّرة بذكر خاتم النبيين عليه السلام ورسائله، وكانت حياة القرآن بوجوده وبعثته، صارت السورة بمنزلة القلب للقرآن.

وقيل: إنّ وجهه أنّ صحّة الايمان بالاعتراف بالحق والحق مقرر في هذه السورة بأبلغ وجه<sup>٥</sup>. وقيل: إنّ وجهه أنّه ليس فيها إلّا تقرير الأصول الثلاثة بأقوى البراهين، فإنّه تعالى ابتدأها بالرسالة بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ودليها ما قدّمه عليه من قوله ﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ وما أخره عنه من قوله: ﴿إِنذِرْ قَوْمًا﴾ وختّمها ببيان التوحيد والحق بقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ إشارة إلى التوحيد، وبقوله: ﴿إِلَيْهِ تُزْجَعُونَ﴾ إشارة إلى الحق، ومن حصل هذه الثلاثة فقد حصل نصيب قلبه، وهو التصديق بالجنان.

إلى أن قال: فلمّا لم يكن فيها إلّا أعمال القلب سمّاها قلباً، ولهذا ورد أنّ النبي عليه السلام ندب إلى تلقين

١. تفسير روح البيان ٧: ٤٤٢.

٢. تفسير الصافي ٤: ٢٦٣.

٣. ثواب الأعمال: ١١١، تفسير الصافي ٤: ٢٦٣.

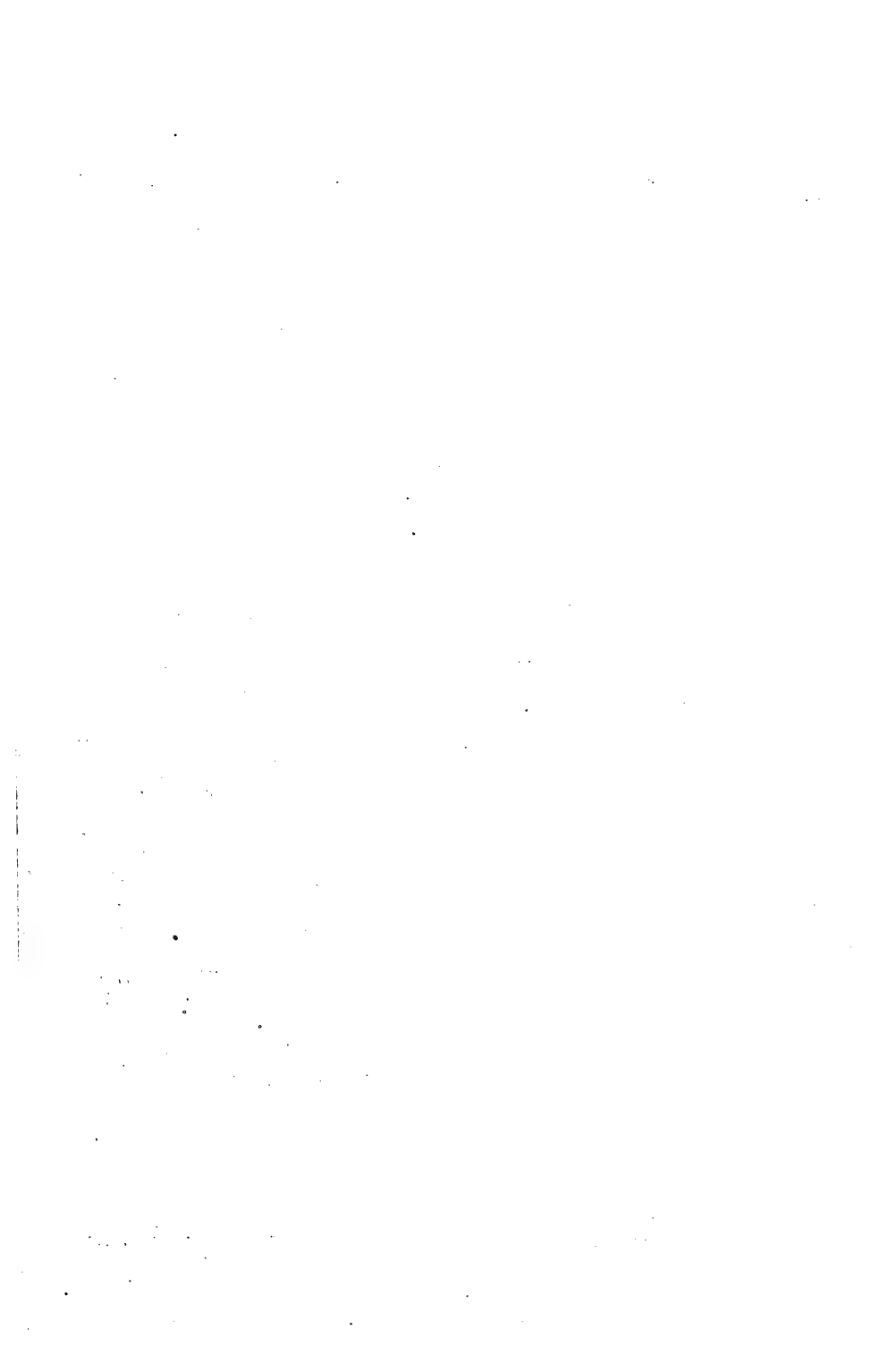
٤. مجمع البيان ٨: ٦٤٦، تفسير الصافي ٤: ٢٦٣.

٥. تفسير الرازي ٢٦: ١١٣.

٦. تفسير الرازي ٢٦: ١١٣، تفسير روح البيان ٧: ٤٤٢.

يَسْ لِمَن دَنَا مِنْهُ الْمَوْتُ عِنْدَ رَأْسِهِ؛ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ الْوَقْتَ يَكُونُ اللِّسَانُ ضَعِيفَ الْقُوَّةِ، وَالْأَعْضَاءُ الظَّاهِرَةُ سَاقِطَةً الثَّبِيَّةَ، لَكِنَّ الْقَلْبَ رَاجِعًا إِلَى اللَّهِ عَنِ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَمُتَقَبِّلًا إِلَيْهِ، فَيُتَقَرَّأُ عِنْدَ رَأْسِهِ مَا تَزِدُّ بِهِ قُوَّةَ قَلْبِهِ، وَيَشْتَدُّ تَصَدِيقُهُ بِالْأَصُولِ<sup>١</sup>.

قد تمّ تفسير السورة المباركة بتوفيق الله وعونه.



## في تفسير سورة الصافات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا \* فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا \* فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا [٣-١]

ثم لما ختمت سورة يس المبدوءة بذكر خاتم النبيين ﷺ وتعظيمه ورسالته المتضمنة للتوحيد والمعاد، المختمة برّد شبهة منكزية، نظمت بعدها سورة الصافات المبدوءة بتعظيم المؤمنين بالخلف بهم، المتضمنة للأصلين المذكورين، وتجليل آل يس، وهم آل النبي ﷺ بالتسليم عليهم، فابتدأها على دأبه بقوله ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثم لما كانت عادة العرب تأكيد الدعوى بالخلف بالأمور العظيمة الشريفة المحبوبة عندهم، خلف سبحانه بجماعات المؤمنين التالين للقرآن بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾ لله أقدامهم، والقائمات بعبادته ﴿صَفًّا﴾ محموداً عند الله، وهو الصف والقيام على خط مستقيم في جماعة الصلاة، أو في ميدان الجهاد ﴿فَالزَّاجِرَاتِ﴾ والجماعات الناهيات للناس عن المنكرات، أو للشيطان عن الوسوس، أو الممانعات للكفار عن الاستيلاء على المسلمين ﴿زَجْرًا﴾ بليغاً ﴿فَالتَّالِيَاتِ﴾ والقارنات ﴿ذِكْرًا﴾ عظيم الشأن، كالقرآن والتسبيح والتحميد والتهليل.

قيل: إن الفقرات الثلاث في المصلين جماعة؛ الصافات عند أداء الصلاة جماعة، الزاجرات للشيطان بالاستعاذة بعد التكبير، التاليات للقرآن بعدها<sup>١</sup>.

وقيل: إنها صفات العلماء؛ الصافات الذين يقومون منهم للدعوة إلى دين الله، والزاجرات الذين يزجرون العوام عن الضلال ويدفعون شبهاتهم، ويتلون عليهم ما يرغبهم في العمل بشرائع الله تبارك وتعالى<sup>٢</sup>.

وقيل: إنها صفات الملائكة حيث إنهم يقفون صفوفاً، أما في السماوات لأداء العبادة<sup>٣</sup>، أو يصفون

أجنحتهم في الهواء ويقفون لانتظار أمر الله إليهم، ويَزْجُرُونَ الناس عن المعاصي بالإلهامات<sup>١</sup>، أو الشياطين عن التعرض لبني آدم بالشر والإيذاء<sup>٢</sup>، أو عن استراق السمع<sup>٣</sup>، أو يزجرون السحاب للسوق من بلد إلى بلد<sup>٤</sup>، ويتلون القرآن والتسبيحات.

وقيل: إن المراد بالصافات الطيور، وبالأجرات كل ما يردع الناس عن المعاصي، وبالتاليات كل من يتلو كتاب الله<sup>٥</sup>.

إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ \* رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ \* إِنَّا زَيْنًا أَلَمْ نَكُنْ لَكُمْ بَرِيَّةً \* وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ \* لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّبُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ \* دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ \* إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ [١٠-٤]

ثم ذكر سبحانه المحلوف عليه بقوله: ﴿إِنَّ إِلَهُكُمْ﴾ ومعبودكم المستحق للعبادة ﴿لَوَاحِدٌ﴾ لا شريك له ولا ضد ولا ند، وهو ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ﴾ السبع وما فيها من الكواكب ﴿وَالْأَرْضِ﴾ وما عليها من الجبال ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الملائكة والتقلين والطيور وعجائب الخلق، ومالكها وحافظها ومبلغها إلى الكمالات اللاتقة بها ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ العديدة التي تكون للكواكب، وهي ثلاثمائة وستون بعدد أيام السنة، وبحسبها المغارب، ولذا اكتفى بذكرها.

ثم لما كان من أدلة التوحيد حسن نظام العالم، نبه عليه بقوله: ﴿إِنَّا زَيْنًا أَلَمْ نَكُنْ لَكُمْ بَرِيَّةً﴾ والقرى منكم وحسنا منظرها ﴿بَرِيَّةً أَلَمْ نَكُنْ لَكُمْ بَرِيَّةً﴾ والنجوم من حيث تلالؤها وأوضاعها سواء أكانت مركزة فيها، أو فيما فوقها من السماوات ﴿وَحَفِظْنَاهَا﴾ كاملاً، أو لتكون حافظاً ﴿مِنْ﴾ قرب ﴿كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ طاع صاعد إليها برمي الشهب، ولذا ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ ولا يستمعون، أو لا يُصْفُونَ ﴿إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ وجماعة الملائكة الساكنين في السماوات العلى، المطلعين على أسرار اللوح المحفوظ على ما قيل<sup>٦</sup>.

وقيل: إن المراد بالملأ الأعلى أشراف الملائكة وكيفية حفظ السماء منهم<sup>٧</sup>، ومنعهم عن الاستماع أنهم يرمون بالشهب ﴿وَيُقَذَّبُونَ﴾ كما يُقَذَّفُ العدو بالحجارة ﴿مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ من جوانب السماء

٢. تفسير الرازي ٢٦: ١١٥.

٤. تفسير روح البيان ٧: ٤٤٥.

٦. تفسير روح البيان ٧: ٤٤٩.

١. تفسير الرازي ٢٦: ١١٤.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٤٤٥.

٥. تفسير الرازي ٢٦: ١١٦.

٧. تفسير روح البيان ٧: ٤٤٩.

إذا قصدوا الصعود إليها، ليكون القذف والرمي بالشَّهب ﴿ذُحُورًا﴾ وطرداً لهم عنها.  
 وقيل: إنَّ التقدير يُذَحُّوْنَ ذُحُورًا<sup>١</sup>. قيل: إنَّ الذُّحُورَ هو الطُّردُ مع أَشدَّ الصَّغار والذُّلُّ<sup>٢</sup>.  
 ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة مضافاً إلى عذابهم في الدنيا بالشَّهب ﴿عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ ودائم بالنار.  
 القمي رحمته الله: أي دائمٌ موجعٌ قد وصل إلى قلوبهم<sup>٣</sup>. وقيل: إنَّ الرجم بالشَّهب عذابٌ دائمٌ لهم<sup>٤</sup>.  
 قال المفسرون: إنَّ الشياطين كانوا يَصْعَدُونَ إلى قُرب السماء، فلمَّا سَمِعُوا كلام الملائكة، وعرفوا  
 به ما سيكون، وكانوا يُخْبِرُونَ الكَهَنَةَ به، ويُوهِمُونَهُمْ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الغيب، فمنعهم الله تعالى من  
 الصُّعود إلى قُرب السماء بالشَّهب<sup>٥</sup>، فلا يسمع شيطانُ كلام الملائكة ﴿إِلَّا مَن خَطِئَ﴾ من  
 الشياطين، واختلس كلام الملائكة، وأخذَه بسرعة ﴿الْخَطْفَةَ﴾ الواحدة، واختلاساً فَراداً ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾  
 بِالْقَوْرِ وَلَحِقَهُ بِسُرْعَةٍ ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ وشعلةٌ مُضيئةٌ من النار غاية الإضاءة، كأنها تُثَقِّبُ بنورها الجوّ،  
 وهو يحدث في النجوم ثم يفصل منها، كما يفصل السهم من القوس، فكون النجوم رجوماً من جهة  
 كونها سبباً لرمي الشَّهب، لا أن نفس النجوم تصير شهباً، لوضوح أنَّ النجوم لا تنقص بالشَّهب،  
 والقول بأنَّ الكواكب قسمان: قسم باقٍ في المُلْك مدَى الدهر، وقسم حادثٌ لا يبقى، وهو الحادث  
 يتصاعد الأجزاء الأرضية مع الأبخرة واحتراقها بالقرب من الأثير، أو باشتعال الهواء القريب من الأثير  
 بالحرركة، خلاف القرآن العظيم، لظهوره في كون تلك الكواكب التي تكون زينةً للسماء تكون حفظاً  
 ورجوماً للشياطين.

قال قتادة: جعل الله النجوم لثلاث: زينةً للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يُهْتَدَى بها<sup>٦</sup>.  
 رُوي عن ابن عباس، أنه قال: بينما رسول الله ﷺ جالسٌ في نفرٍ من أصحابه، إذ رُمِيَ بنجمٍ،  
 فقال ﷺ: «ما كنتم تقولون لمثل هذا في الجاهلية؟» فقالوا: يموت عظيم، أو يولد عظيم. فقال ﷺ:  
 «إنَّه لا يُرْمَى لموت أحدٍ ولا لولادته، ولكن الله إذا قضى أمراً يُسَبِّحُه حَمَلَةُ العرش، ويقول أهل  
 السماء السابعة لحَمَلَةِ العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، فيستخبر أهل كلِّ سماء أهل سماء، حتى  
 ينتهي الخبر إلى سماء الدنيا، فتخطُّفه الجنُّ فيرمون، فما جاءوا به على وجهه فهو حقٌّ، ولكنَّهم  
 يزيدون ويكذبون، فما ظهر صدقه فهو من قسم ما سَمِعَ من الملائكة، وما ظهر كذبه فهو من قسم ما  
 قالوه منه<sup>٧</sup>.

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٢٣.

٣. تفسير القمي ٢: ٢٢١، وتفسير الصافي ٤: ٢٦٥ عن الباقر عليه السلام.

٥. تفسير الرازي ٢٦: ١٢٠.

٤. تفسير أبي السعود ٧: ١٨٥.

٧. تفسير روح البيان ٧: ٤٤٩.

٦. تفسير روح البيان ٧: ٤٥٠.

ومن التواريخ وبيان الحكماء الذين كانوا قبل الاسلام، يظهر أن الشَّهب كانت قبل الاسلام، وظاهر الآيات أنها لرحم الشياطين، وظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتِ حَرَساً شَدِيداً وَشِهَاباً﴾<sup>١</sup> أن الشَّهب حدث بعد بعثة النبي ﷺ، فلا بد من الحَمَل على كثرة الشَّهب وشدة المنع. ثم أن مبدأ خلقه الجَن من النار لا ينافي احتراقهم بها، لأن لازم كونهم جسماً احتراقهم بها، لأن النار تُحرق الجسم وإن كان لطيفاً.

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنِ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ \* بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ \* وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ \* وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ \* وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ \* وَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ \* أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ [١١-١٧]

ثم أنه تعالى بعد إثبات توحيده بخلق السماوات والأرض وما بينهما، وخلق مشارق الكواكب، وتزيين السماء بها، شرع في إثبات الحشر والمعاد بقوله تبارك وتعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أيها الرسول وأسألهم بمحاجة توبيخاً<sup>٢</sup> أو تقريراً ﴿أَهُمْ﴾ مع صغر جنتهم وضعف بُنيتهم ﴿أَشَدُّ خَلْقاً﴾ وأمتن بُنية، أو أصعب خَلْقاً على خالقهم ﴿أَمْ مَنِ خَلَقْنَا﴾ من الملائكة والسماوات والأرض والكواكب والمشارق والجَن والشياطين؟ وإنما ذكر كلمة (من) لتغليب العقلاء. ثم نقول: لو فرضوا أنهم كانوا أشد خَلْقاً من السماوات والأرض وغيرهما من الموجودات ألا يقرّون ولا يقولون: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ﴾ بقدرتنا أول مرة ﴿مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ لاصق باليد، فاذا عَلِمُوا أن الطين المركب من التراب والماء قابل لأن يصيره القادر الحكيم إنساناً ذا شعور وطق وعقل، كان عليهم أن يعتقدوا إمكان خلقهم مرة أخرى، لبقاء تلك القابلية في ثرايبهم، وعدم إمكان زوال القدرة عن الخالق القادر الذي خلقهم أول مرة، لكون قدرته ذاتية غير قابلة للزوال ﴿بَلْ﴾ لا تستفتهم لكونهم معاندين حيث إنك ﴿عَجِبْتَ﴾ من إنكارهم إمكان البعث ووقوعه مع غاية وضوح دليله ﴿وَهُمْ﴾ هم ﴿يَسْخَرُونَ﴾ منك ويستهزئون بك حيث تدعوهم إلى الإقرار والإيمان به مع كونهم مُستبَعِدِينَ إياه.

وعن قتادة: أنه عَجِبَ نبي الله ﷺ من هذا القرآن حين أنزل وضلال بني آدم، وذلك أن النبي ﷺ كان يظن أن كل من يسمع القرآن يؤمن به، فلما سمع المشركون القرآن سَخَرُوا منه ولم يؤمنوا،



عَجِبَ مِنْ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ<sup>١</sup> \* وَإِذَا ذُكِّرُوا \* وَوَعظوا وَهَدُّوا عَلَىٰ إِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ أَوْ الْقُرْآنَ \* لَا يَذْكُرُونَ﴾ ولا يَتَعَطَّوْنَ، أو إذا تَبَّهوا على أدلة البعث أو جهات إعجاز القرآن لا يَتَنَبَّهُونَ لكثرة عنادهم وقلة فهمهم وفكرهم ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً \* وَمُعْجَزَةً دَالَّةً عَلَىٰ صَدَقَ رِسَالَتِكَ وَإِخْبَارِكَ بِوُقُوعِ الْحَشْرِ وَالنَّشْرِ \* يَسْتَسْخِرُونَ﴾ وَيَبَالُغُونَ فِي الْاسْتِهْزَاءِ بِكَ، أو يحملون غيرهم على الاستهزاء، فلا بالبراهين يلتزمون، ولا بالموعظة يَتَعَطَّوْنَ، ولا بالمعجزة يُؤْمِنُونَ ﴿وَقَالُوا﴾ لِلْمُعْجِزِ الَّذِي تَأْتِيهِمْ بِهِ: ﴿إِنْ هَذَا﴾ الْفَعْلُ الْخَارِقُ لِلْعَادَةِ، وما هو ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وَشُعْبَذَةُ ظَاهِرَةٌ بِحَيْثُ لَا يَشْكُ فِيهِ أَحَدٌ، كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مَا أَتَى بِهِ مُعْجَزَةً دَالَّةً عَلَىٰ صَدَقِهِ فِي دَعْوَى الْبَعْثِ مَعَ أَنَّهَا كَذَبٌ ظَاهِرٌ ﴿أَمْ﴾ تُبْعَثُ ﴿إِذَا مِتْنَا﴾ وَدُفِنَا ﴿وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ بَالِيَةً.

ثُمَّ بِالْعَوَا فِي الْإِنْكَارِ بِإِعَادَةِ أَدَاةِ الْاسْتِفْهَامِ، كَأَنَّهُمْ قَالُوا: أَنْصَفُوا أَيُّهَا الْعَقْلَاءُ ﴿إِنَّا﴾ مَعَ ذَلِكَ لَمُحْيُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ ﴿لَمُبْعُوثُونَ﴾ وَمُخْرَجُونَ مِنَ الْقُبُورِ، فَرَضْنَا أَنَا تُبْعَثُ لِقَرَبِ عَهْدِنَا بِالْحَيَاةِ وَاجْتِمَاعِ تُرَابِنَا فِي قُبُورِنَا ﴿أَوْ﴾ يُبْعَثُ ﴿أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ وَأَجْدَادُنَا الْأَقْدَمُونَ مَعَ تَفَرُّقِ تُرَابِهِمْ فِي أَطْرَافِ الْعَالَمِ، وَمَحْوِ أَثَرِ قُبُورِهِمْ، هِيَهَاتَ هِيَهَاتَ!

قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ \* فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ \* وَقَالُوا يَا أَوَّلَنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ \* هَذَا يَوْمُ الْفَضْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ \* أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ \* مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ [١٨-٢٣]

ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ إِقَامَةِ الْأَدْلَةِ السَّابِقَةِ عَلَىٰ إِمْكَانِ الْبَعْثِ وَالْإِعَادَةِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَعَدَمِ الْمَجَالِ لِإِقَامَةِ الْبِرْهَانِ، أَمْرَ نَبِيِّهِ ﷺ بِمُعَارَضَةِ إِنْكَارِهِمْ بِالْإِثْبَاتِ بِقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ لَهُؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ الْمَعَانِدِينَ: ﴿نَعَمْ﴾ عَلَىٰ رَغْمِ أَنْوَفِكُمْ يَتَّبِعُونَ جَمِيعاً ﴿وَأَنْتُمْ﴾ أَيْضاً تُتَّبِعُونَ ﴿دَاخِرُونَ﴾ وَصَاغِرُونَ فِي الْمَحْشَرِ وَأَذِلَّةٌ بَيْنَ النَّاسِ، حَيْثُ مَنَعَكُمْ التَّكْبِيرَ وَالْخِيَلَاءَ عَنْ تَبِيعَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَقَبُولِ قَوْلِهِ وَتَصْدِيقِهِ فِي ادِّعَاءِ إِمْكَانِ الْبَعْثِ، مَعَ أَنَّهُ مَضَافاً إِلَىٰ إِمْكَانِهِ لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِصَعْبٍ، بَلْ فِي غَايَةِ السُّهُولَةِ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ وَصَبِيحَةٌ ﴿وَأَحَدَةٌ﴾ مِنْ إِسْرَافِيلَ، وَتَفْخَعُ مِنَ الصُّورِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى الثَّانِيَةِ ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ يُحْيَوْنَ وَيَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ ﴿يَنْظُرُونَ﴾ إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَجَوَانِبِهِمْ كَالْحَيَارَى، أَوْ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ نَظَرَ الْحَيَرَةِ، وَيَنْظُرُونَ كَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ وَيَنْظُرُونَ فِي زَمَانِ حَيَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا، أَوْ

ينتظرون ما يفعل بهم ﴿وَقَالُوا﴾ حين رأوا أنهم مبعوثون تحسراً وندامة: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ ويا هلاكنا احضر، فهذا أوان حضورك ﴿هَذَا﴾ اليوم ﴿يَوْمَ الَّذِينَ﴾ ووقت الجزاء على الأعمال، والعقوبة على السيئات.

فيقول الله أو الملائكة، أو يقول بعضهم لبعض توبيحاً وتقريعاً: ﴿هَذَا﴾ اليوم ﴿يَوْمَ الْفُضْلِ﴾ والقضاء بما تستحقون من الثواب أو العقاب، أو يوم الفرق بين المؤمنين والمهتدين والكافرين والضالين، وهو اليوم ﴿الَّذِي كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ وتقولون: لا بعث ولا حساب ولا عقاب.

فيقول الله للملائكة: ﴿أَحْشَرُوا﴾ واجمعوا ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ على الله بكفرانهم نعمه وتضييعهم حقه، وعلى أنفسهم بتعريضها للعقاب الدائم والهلاك الأبدي، ﴿و﴾ أحشروا ﴿أَزْوَاجَهُمْ﴾ وأشباههم من أهل الشرك والكفر والنفاق والعصيان، أو قرناءهم من الشياطين أو نساءهم اللاتي كنَّ على دينهم ﴿و﴾ أحشروا ﴿مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ \* من دُونِ اللَّهِ من الأصنام وغيرها معهم لازدياد حسرتهم وتخجيلهم، أو الشياطين الذين زينوا لهم الكفر ﴿فَأَهْدُوهُمْ﴾ وسوقوهم، أو أرشدوهم ﴿إِلَى صِرَاطِ الْحَكِيمِ﴾ والطريق المستقيم إليها، وفيه تهكم بهم.

قيل: إن كل ظالم يحشر مع من كان مُعِيناً له وموافقاً له، فاليهود مع اليهود، والنصارى مع النصارى، والمجوس مع المجوس، وشارب الخمر مع شارب الخمر، والزاني مع الزاني<sup>١</sup>، وهكذا كل من كان على عقيدته.

وَقِفُّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُُولُونَ \* مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ \* بَلْ هُمْ أَلْيَوْمَ

مُسْتَسْلِمُونَ [٢٤-٢٦]

ثم لما ساق الملائكة المجرمين إلى جهنم نادى الله: يا ملائكة العذاب الذين يسوقون الكفار إلى جهنم، احبسوهم ﴿وَقِفُّوهُمْ﴾ على الصراط، أو على شفير جهنم.

ثم بين سبحانه علّة توقيفهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ مَسْئُُولُونَ﴾ عن أعمالهم وعقائدهم في الدنيا سؤال توبيخ وتقريع.

وقيل: يسألهم خزنة جهنم هناك ويقولون: ﴿ألم يأتكم رسل منكم﴾ بالبينات؟ فيقولون ﴿بلى

ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين»<sup>١</sup>.

وعن (العلل) عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال في تفسير الآية: «لا يجاوز قدما عبد حتى يُسأل عن أربع: عن شبابه فيما أبلاه، وعن عمره فيما أفناه، وعن ماله من أين جمعه وفيما أنفقه، وعن حبنا أهل البيت عليهم السلام»<sup>٢</sup>.

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «عن ولاية أمير المؤمنين عليه السلام»<sup>٣</sup>.

ويُحتمل أن من السؤال قوله: ﴿مَالَكُمْ﴾ أيها الكفرة، ولأي سبب ﴿لَا تَنَاصَرُونَ﴾؟ عن ابن عباس: أي لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم في الدنيا تناصرون، وذلك أن أبا جهل قال يوم بدر: نحن جميع منتصرون. فقيل لهم يوم القيامة: مالكم غير متناصرين؟

وقيل: يقال للكفار ما لشركائكم لا ينصرونكم، ولا يمنعونكم من العذاب؟<sup>٤</sup> وعلى أي تقدير لا ناصر لهم ﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ﴾ منقطعون عن جميع الحيل في نجاتهم، و﴿مُستسلِمُونَ﴾ ومُتقادون لحكم الله وتمكنون لعذابه.

وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ \* قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ \*  
قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ \* وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا  
طَاغِينَ \* فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ \* فَأَعْوَيْنَا كُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ [٢٧-٣٢]

ثم بين سبحانه أنهم مع عدم كونهم متناصرين كلهم متخاصمون بقوله: ﴿وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ﴾ وهم أتباع الرؤساء أو الشياطين ﴿عَلَى بَعْضٍ﴾ الآخر وهم الرؤساء أو الشياطين ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ ويتخاصمون.

ثم كأنه قيل: كيف يكون تساؤلهم<sup>٥</sup> وتخاصمهم؟ فأجاب سبحانه بقوله: ﴿قَالُوا﴾ الأتباع لرؤسائهم، أو الكفرة لقرنائهم من الشياطين: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها الرؤساء أو الشياطين ﴿كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَأْتُونَنَا﴾ وتحملونا على الكفر والعصيان ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ وبالقوة القهرية على ما قيل<sup>٦</sup>، وتَجبرونا على الكفر والعصيان.

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٣٢، والآية من سورة الزمر: ٧١/٣٩.

٢. علل الشرائع: ٢/٢١٨، تفسير الصافي ٤: ٢٦٦.

٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٢٢/٥٩، أمالي الطوسي: ٥٦٤/٢٩٠، تفسير الصافي ٤: ٢٦٦.

٤. تفسير الرازي ٢٦: ١٣٣.

٥. تفسير روح البيان ٧: ٤٥٥.

٦. تفسير الرازي ٢٦: ١٣٤، تفسير البيضاوي ٢: ٢٩٢.

وقيل: يعني عن ناحية الحلف واليمين، فإن رؤساءهم كانوا يحلفون لأتباعهم المستضعفين أن ما يدعونهم إليه هو الحق المبين، فكانوا يثقون بأيمانهم<sup>١</sup>.

وقيل: إن المراد أنكم كنتم تخدعوننا، وتوهمون لنا أن دعوتكم إلينا ليست إلا نصرة الحق وتقوية للصدق<sup>٢</sup>. فأجابهم الرؤساء و«قَالُوا» لهم: ما أجبرناكم على الكفر وأصللناكم عن الايمان «بَلْ لَمْ تَكُونُوا» في الدنيا «مُؤْمِنِينَ» حتى تقولوا إننا صرفناكم عن الايمان «وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ» شيء «مِنْ سُلْطَانٍ» وقهر وإجبار يسلب به اختياركم «بَلْ كُنْتُمْ» في الدنيا «قَوْمًا» وجمعاً «طَآغِينَ» على الله باختياركم، ومُصرِّين على العصيان بشهوة أنفسكم «فَحَقَّ» وثبت ولزم «عَلَيْنَا» في اليوم «قَوْلَ رَبِّنَا» ووعيده بالعذاب على الكفر والعصيان، لعدم جواز خلف الوعد عليه، فاليوم «إِنَّا لَنَدَّائِقُونَ» طعم ذلك العذاب باستحقاقنا، ولما كنتم راغبين الى الكفر «فَأَغْوَيْنَاكُمْ» ودعوناكم إليه من غير إكراه وإجبار، فاستجبتم لنا باختياركم وهو أنفسكم، فليس لكم حق الاعتراض علينا «إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ» وضالين عن الحق، فأحببنا أن تكونوا أمثالنا في الغواية والضلال.

فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ \* إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ \* إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ \* وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَيتَنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ \* بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ \* إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ \*  
وما تجزؤون إلا ما كنتم تعملون [٣٣-٣٩]

ثم أنه تعالى بعد حكاية تخاصم الرؤساء والأتباع، أخبر عن سوء حالهم في جهنم بقوله: «فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ» ودخول النار والابتلاء بالشدائد «مُشْتَرِكُونَ» لاشتراكهم في الغواية والضلال والعصيان.

ثم بين سبحانه عدله وحكمته في تعذيبهم بقوله: «إِنَّا كَذَلِكَ» الفعل الفضيع، ومثل هذه المعاملة الهائلة «نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ» ونعامل معهم لإنكارهم التوحيد والرسالة والمعاد، كما نبه سبحانه عليه بقوله: «إِنَّهُمْ كَانُوا» في الدنيا «إِذَا قِيلَ لَهُمْ» بطريق النصح والعتبة والدعوة إلى التوحيد. قولوا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ» ويتأنفون عن القول به، ويتعصبون لألهتهم، ويصرون على الشرك «وَيَقُولُونَ» في جواب الداعي إلى التوحيد والقتال به وهو النبي الأمي ﷺ الآتي بالقرآن: «إِنَّا لَنَارِكُوا» عبادة «إِلَهَيتَنَا» وأصنامنا اتباعاً «لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ» حيث إنه يدعي خلاف ما وجدنا عليه

آباءنا.

ثُمَّ رَدَّاهُمْ سَبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ جَاءَ﴾ مِنْ جَانِبِ اللَّهِ ﴿بِالْحَقِّ﴾ وَمَا هُوَ ثَابِتٌ بِالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ، وَمُحَقِّقٌ عِنْدَ الْعَقْلِ السَّلِيمِ مِنَ التَّوْحِيدِ الَّذِي أَخْبَرَهُ بِهِ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ ﴿وَصَدَّقَ﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ جَمِيعُ ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ ﴿إِنِّكُمْ﴾ أَنَّهَا الْمَشْرُكُونَ وَاللَّهُ ﴿لَدَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ لِلْإِشْرَاقِ وَالْإِسْتِكْبَارِ وَتَكْذِيبِ الرَّسُولِ الْأَمِينِ، وَفِي الْإِلْفَاتِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ إِظْهَارَ لَشِدَّةِ الْغَضَبِ عَلَيْهِمْ.

ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ عَلَى أَنَّ لَيْسَ فِي تَعْذِيبِهِمْ<sup>١</sup> شَائِبَةُ الظُّلْمِ وَالْعَمَلِ بِخِلَافِ الْكَرَمِ، بَلْ هُوَ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا﴾ مَقْدَارَ جَزَاءٍ ﴿مَا كُنْتُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ لَا تُزَادُونَ<sup>٢</sup> وَلَا تُنْقَصُونَ.

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ \* أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ \* فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ [٤٠-٤٢]

ثُمَّ بَيَّنَّ حَالَ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ. قِيلَ: إِنَّ الْإِسْتِثْنَاءَ مُنْقَطِعٌ، وَالْمَعْنَى لَكِنْ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ<sup>٣</sup> لَا يَذُوقُونَهُ، وَالْمُخْلَصُونَ بِالْفَتْحِ: الَّذِينَ أَحْصَلَهُمُ اللَّهُ لِعِبَادَتِهِ، وَبَرَّاهُمْ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ بَعْدَ خِلَاصِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ بَيِّنَةً بِغَايَةِ الْفَضْلِ بِقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ﴾ الْأَجْلَاءُ الرَّفِيعُونَ الْمَقَامَ، الْمُمْتَازُونَ عَنْ غَيْرِهِمْ بِطَيْبِ الطَّبِيعَةِ وَحُسْنِ الْفِطْرَةِ وَالْخُلُوصِ فِي الْعِبَادَةِ ﴿لَهُمْ﴾ بِمُقَابِلِ حُسْنِ عَقِيدَتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ﴿رِزْقٌ﴾ لَا يَمُكِّنُ وَصْفَ كَمَالِهِ وَحُسْنِهِ ﴿مَعْلُومٌ﴾ عِنْدَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَجُوداً وَقَدراً وَحُسْناً وَلَذَّةً وَطَيْباً، وَذَلِكَ الرِّزْقُ ﴿فَوَاكِهُ﴾ كَثِيرَةٌ وَنِعْمٌ لَذِيذَةٌ مِنَ الثَّمَارِ وَغَيْرِهَا تُؤْكَلُ لِلذَّهْنِ لِلْحَاجَةِ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْفَوَاكِهِ خُصُوصَ الثَّمَارِ؛ لِأَنَّ رِزْقَ أَهْلِ الْجَنَّةِ كُلِّهِ مِنَ الثَّمَارِ<sup>٤</sup>، أَوْ لِأَنَّ ذِكْرَهَا مُغْنٍ عَنْ ذِكْرِ غَيْرِهَا، لِأَنَّهَا مِنْ أَتْبَاعِ سَائِرِ الْأَطْعِمَةِ<sup>٥</sup>، فَإِذَا كَانَتِ الْفَاكِهَةُ الَّتِي هِيَ أَدْنَى مِنْ غَيْرِهَا حَاضِرَةً عَلَى الدَّوَامِ، كَانَ غَيْرُهَا أَوْلَى بِالْحُضُورِ.

وَقِيلَ: لَمَّا كَانَتِ الْفَاكِهَةُ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ عَزِيزَةً الْوُجُودِ، خَصَّهَا بِالذِّكْرِ لِازْدِيَادِ التَّشْوِيقِ<sup>٦</sup>.

١. فِي النُّسخَةِ: أَنَّ فِي تَعْذِيبِهِمْ لَيْسَ.

٢. فِي النُّسخَةِ: لَا تُزَادُونَ.

٣. تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٧: ٥٥٨.

٤. تَفْسِيرُ الرَّازِي ٢٦: ١٣٦.

ثم لما كان الرزق المقرون بالإهانة غير معتن به عند النفوس الأبية والهمم العالية، بين سبحانه إكرامهم بقوله: ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ عند الله تبارك وتعالى غاية الإكرام مُعْظَمُونَ نهاية التعظيم.  
عن الباقر عليه السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله - في حديث - «أما قوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّغْلُومٌ﴾ بأن يَغْلَمَهُ الخُدام فيأتون به أولياء الله قيل أن يسألوهم إياه، وأما قوله: ﴿فَوَاكِهَ وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ قال: إنهم لا يشتهون شيئاً في الجنة إلا أكرموا به»<sup>١</sup>.

فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ \* عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ \* يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ \*  
بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ \* لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ \* وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ  
الطَّرْفِ عِينٌ \* كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ [٤٣-٤٩]

ثم أنه تعالى بعد ذكر مأكلهم وصف كمال مجلسهم ومشروبهم بقوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ وبساتين ذوات ﴿النَّعِيمِ﴾ وهم متمكنون فيها ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾ حال كونهم ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ ومواجهين، ليفرحوا بحسن حال الأحبة وزويتهم ويتأنسوا<sup>٢</sup>. زوي أنهم إذا أرادوا القرب سار السرير تحتهم<sup>٣</sup>، ثم وصف سبحانه كمال مجلسهم ومشروبهم بقوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾ ويدور الغلمان حولهم ﴿بِكَأْسٍ﴾ وإناء من رُجاجة فيه خمر ﴿مِنْ﴾ نهر ﴿مَعِينٍ﴾ وجارٍ على وجه أرض الجنة، أو من شراب معين وظاهر للعيون، أو جارٍ من العيون، وتلك الحَمْرَةُ على خلاف حُمور الدنيا ﴿بَيْضَاءَ﴾.  
قيل: إن حَمْرًا منه أشد بياضاً من اللبن<sup>٤</sup>.

ثم بالغ سبحانه في بيان لذتها بقوله: ﴿لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ حيث إنه تعالى جعلها عين اللذة بخلاف حُمور الدنيا، فإنها - على ما قيل - لا لذة لها<sup>٥</sup> ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ وصداع، أو فساد من صداع أو وجع بطن ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ ويسْكرون. القمي، قال: لا يُطْرَدُونَ عنها<sup>٦</sup>.

ثم وصف سبحانه منكوهم بقوله: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ وحاسبات الأبصار عن غير أزواجهن، بل يكون نَظَرُهُنَّ إلى أزواجهن، لحسنهن في نظرهن وعفتن، وهن ﴿عِينٌ﴾ قيل: يعني حسان الأعين وعظامها<sup>٧</sup> ﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ في البياض والنظافة ﴿بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ ومستور مَصُونٌ من الغبار. قيل: شبههن سبحانه في البياض ببيض النعام، لأن لونها بياض مخلوط بالصفرة، وهو أحسن ألوان

١. الكافي ٨: ٦٩/١٠٠، تفسير الصافي ٤: ٢٦٨.  
٢ و٣. تفسير الرازي ٢٦: ١٣٧.  
٤. تفسير القمي ٢: ٢٢٢، تفسير الصافي ٤: ٢٦٨.  
٥. تفسير روح البيان ٧: ٤٥٩.  
٦. تفسير روح البيان ٧: ٤٦١.  
٧. في النسخة: ويتوانسوا.

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ \* قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ \*  
 يَقُولُ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُضْطَّغِينَ \* وَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ءَأَنَّا لَمَدِينُونَ \*  
 قَالَ هَلْ أَنتُمْ مُطَّلِعُونَ \* فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ \* قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتُ  
 لَمُتْرِدٍ \* وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ [٥٧-٥٠]

ثم حكي سبحانه بعض محاورات أهل الجنة، كما حكي بعض محاورات أهل النار بقوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ويتحدثون.

قيل: إن الكلام عطف على قوله: ﴿يطاف عليهم بكأس﴾<sup>٢</sup> والمراد أن أهل الجنة يشربون ويتحدثون على الشرب، كما هو عادة أهل شرب الخمر في الدنيا، فيثقل بعضهم على بعض حال كونهم يتساءلون عما جرى عليهم في الدنيا<sup>٣</sup> ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ في تضاعيف محاوراته وأثناء كلامه: ﴿إِنِّي كَانَ لِي﴾ في الدنيا ﴿قَرِينٌ﴾ وجليس ﴿يَقُولُ﴾ على سبيل التوبيخ على إيماني بالبعث والحساب: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُضْطَّغِينَ﴾ بالبعث كيف تُقر بما تستبعده العقول؟ ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ بعد الموت متشرأ في وجه الأرض ﴿وَعِظَامًا﴾ بالية ﴿ءَأَنَّا﴾ لمحيون ثانياً و﴿لَمَدِينُونَ﴾ ومُجزون على أعمالنا؟! هيهات هيهات لا يكون ذلك أبداً!

ثم ﴿قَالَ﴾ ذلك القائل: ﴿هَلْ أَنتُمْ﴾ يا أصحابي ﴿مُطَّلِعُونَ﴾ على أهل النار، ومشرفون عليهم حتى أريكم ذلك القرين المكذب بالبعث؟ ﴿فَاطَّلَعَ﴾ القائل وأشرف على قرينه ﴿فَرَآهُ﴾ مستقراً ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ ووسطها ثم ﴿قَالَ﴾ ذلك القائل لقرينه الهالك ﴿تَاللَّهِ إِن كِدْتُ﴾ وقد قاربت ﴿لَمُتْرِدٍ﴾ وإلى أن تهلكني كما هلكت ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ علي بالهداية والعصمة ﴿لَكُنْتُ﴾ معك ﴿مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ في العذاب، والمُساقين إلى النار، كما أحضرت أنت وأمثالك.  
 عن ابن عباس: في الجنة كوى ينظر منها أهلها إلى أهل النار ويُنَاطِرُونَهُمْ، لأن لهم في توبيخ أهل النار لذة وسروراً<sup>٤</sup>.

أَفَمَا نَحْنُ بِمَتِّينَ \* إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ \* إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ

١. تفسير أبي السعود ٧: ١٩١، تفسير الصافي ٤: ٢٦٩.

٢. الصافات: ٤٥/٣٧.

٣. تفسير الرازي ٢٦: ١٣٨، تفسير البضاوي ٢: ٢٩٤، تفسير أبي السعود ٧: ١٩١، تفسير روح البيان ٧: ٤٦١.

٤. تفسير روح البيان ٧: ٤٦٢.

### الْعَظِيمُ \* لِيُمَثِّلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ [٥٨-٦١]

ثم أقبل القائل إلى جلسانه وقُرْنانه في الجنة بعد الإعراض عن قرينة الذي رآه في النار، وحاورهم في الخلود في الجنة شروراً بفضل الله، والتذاذاً بتحديث [جلسانه عن] نعيمه، فقال لهم: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ قيل: إن التقدير نحن مَخْلُودُونَ، فما نحن بميتين؟<sup>١</sup> ﴿إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَى﴾ كانت في الدنيا، وقبل بعثنا من القبور. وقيل: إن الاستثناء منقطع، والمعنى لكن موتنا الأولى قد كانت في الدنيا<sup>٢</sup>. وقيل: إن (إِلَّا) هنا بمعنى بعد وسوى<sup>٣</sup> (وما نحن) كالكَفَّار ﴿بِمَعْدُئِينَ﴾ أبداً.

عن الباقر عليه السلام: «إذا دخل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، جاء بالموت فيذبح كال كبش بين الجنة والنار، ثم يقال: خُلُودٌ فلا موت أبداً. فيقول أهل الجنة: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ \* إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَى وَمَا نَحْنُ بِمَعْدُئِينَ﴾»<sup>٤</sup>.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ الخلود في الجنة، ودوام النعمة، والأمن من العذاب، والله ﴿لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، والظفر بأقصى المطالب، وهو السعادة الأبدية التي لا سعادة فوقها و ﴿لِيُمَثِّلَ هَذَا﴾ المقصد الأعلى ﴿فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ وليجتهد المجتهدون، لا للمقاصد الدنيوية السريعة الزوال والانتقطاع. قيل: إنه من كلام الله ترغيباً للناس في طلب ثواب الآخرة<sup>٥</sup>.

### أَذَلِكْ خَيْرٌ نَزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ \* إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ [٦٢ و ٦٣]

ثم أنه تعالى بعد بيان نعم أهل الجنة ومأكلاتهم ومشربهم، ذكر سبحانه مأكول أهل النار ومشربهم، بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لقومك المشركين بعد تلاوة الآيات النازلة عليك في وصف نعم أهل الجنة: أنصفوا يا قوم ﴿أَذَلِكْ﴾ الرزق المعلوم الذي هو فاكهة الجنة ﴿خَيْرٌ﴾ وأحسن من كونه ﴿نَزْلاً﴾ وتهينة لورودكم يوم القيامة، أو خيراً حاصلاً مع كون حاصلة اللذة والسرور ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ﴾ التي حاصِلها الألم والعَم.

قيل: إن المفسرين لم يذكروا لشجرة الزُّقُوم تفسيراً<sup>٦</sup>.

وقيل: إن الزُّقُوم اسم شجرة صغيرة الورق مرة كريهة الرائحة، تكون بتهامة، يعرفها المشركون<sup>٧</sup>.

١. تفسير أبي السعود ٧: ١٩٣، تفسير روح البيان ٧: ٤٦٢.

٢. تفسير روح البيان ٧: ٤٦٣.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٤٦٣.

٤. تفسير الفمي ٢: ٢٢٣، تفسير الصافي ٤: ٢٧٠.

٥. تفسير روح البيان ٧: ٤٦٣.

٦. تفسير الرازي ٢٦: ١٤١.

٧. تفسير روح البيان ٧: ٤٦٤.



وقيل: إِنَّ شَجَرَةَ الرُّقُومِ هِيَ أَطْعَمَةُ كَرِيهَةً فِي النَّارِ<sup>١</sup>.

وقيل: إِنَّ ظَاهِرَ الْقُرْآنِ أَنَّهَا شَجَرَةُ كَرِيهَةٍ الطَّعْمِ، تَنْتُهُ الرَّائِحَةُ، شَدِيدَةُ الْخُشُونَةِ<sup>٢</sup>.

روي أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ شَاعِرُ قُرَيْشٍ: أَكْثَرَ اللَّهِ فِي بَيْوتِكُمُ الرُّقُومَ، فَإِنَّ الْيَمْنَ يُسَمُّونَ الزُّبْدَ وَالتَّمْرَ بِالرُّقُومِ. وَقَالَ أَبُو جَهْلٍ لِعَارِيَتِهِ: زَقَمْنِي، فَأَتَتْهُ بَزْدٌ وَتَمْرٌ، وَقَالَ تَزَقَمُوا<sup>٣</sup>.

وقيل: إِنَّ الْمَشْرِكِينَ لَمَّا سَمِعُوا الْآيَةَ قَالُوا: كَيْفَ يُعْقَلُ أَنْ يَنْبُتَ الشَّجَرُ فِي جَهَنَّمَ مَعَ أَنَّ النَّارَ تُحْرِقُ الشَّجَرَ؟<sup>٤</sup> فَدَرَأَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا قُتْنَةً﴾ وَسَبَبًا لَشَبْهَةِ مَوْجِبَةٍ لِمَادِي الْكُفَّارِ فِي كَفَرِهِمْ ﴿لَلظَّالِمِينَ﴾ وَالْمَشْرِكِينَ وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْفِتْنَةِ الْمِحْنَةِ وَالْعَذَابِ<sup>٥</sup>. وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ الْإِمْتِحَانَ وَالْإِبْتِلَاءَ فِي الدُّنْيَا، حَيْثُ إِنَّ الْكُفَّارَ لَمَّا سَمِعُوا كَوْنَ الشَّجَرِ فِي النَّارِ طَعَنُوا فِي الْقُرْآنِ وَالنَّبْوَةِ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَمَّا سَمِعُوا آمَنُوا وَفَوَّضُوا عِلْمَهُ إِلَى اللَّهِ<sup>٦</sup>.

إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ \* طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ \* فَإِنَّهُمْ  
لَا يَكُلُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْ وَنَ مِنْهَا الْبُطُونَ \* ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حِمِيمٍ \* ثُمَّ  
إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ [٦٨-٦٤]

ثُمَّ وَصَفَ سَبْحَانَهُ الشَّجَرَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ﴾ وَتَنْبُتُ ﴿فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ وَقَفَرَهَا، وَتَرْتَفِعُ أَغْصَانُهَا إِلَى دَرَكَاتِهَا، وَمَا كَانَ مِنْبَتُهُ النَّارَ لَمْ يَحْتَرِقْ بِهَا. وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى مَنْ قَالَ: كَيْفَ يُعْقَلُ أَنْ يَنْبُتَ الشَّجَرُ فِي النَّارِ مَعَ أَنَّ النَّارَ تُحْرِقُ الشَّجَرَ ﴿طَلْعُهَا﴾ وَتَمَرُهَا الَّذِي يَظْهَرُ مِنْهَا فِي تَنَاهِي الْقُبْحِ وَالْإِيحَاشِ ﴿كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ قِيلَ: إِنَّهُ تَشْبِيهُ بِالْمُخِيلِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَتَخَيَّلُونَ أَنَّ صُورَةَ الشَّيَاطِينِ أَقْبَحُ الصُّوَرِ وَأَكْرَهَهَا، وَلِذَا لَوْ وَصَفُوا شَيْئًا بِغَايَةِ الْقَبَاحَةِ، قَالُوا: كَأَنَّهُ شَيْطَانٌ، كَمَا أَنَّهُمْ لَوْ وَصَفُوا شَيْئًا بِغَايَةِ الْحُسْنِ قَالُوا: كَأَنَّهُ مَلَكٌ<sup>٧</sup>.

وقيل: إِنَّ الشَّيْطَانَ اسْمُ حَيَّةٍ لَهَا رَأْسٌ وَعُورٌ، وَهِيَ مِنْ أَقْبَحِ الْحَيَّاتِ، وَبِهَا يُضْرَبُ الْمَثَلُ فِي الْقُبْحِ<sup>٨</sup>.

وقيل: إِنَّ رُؤُوسَ الشَّيَاطِينِ نَبَتْ مَعْرُوفٌ قَبِيحُ الرَّأْسِ<sup>٩</sup> ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكُلُونَ مِنْهَا﴾ بِالْإِكْرَاهِ وَالْإِجْبَارِ، أَوْ

١. تفسير روح البيان ٧: ٦٦٤.

٢. تفسير الرازي ٢٦: ١٤١.

٣. تفسير الرازي ٢٦: ١٤١، تفسير روح البيان ٧: ٤٦٥.

٤. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٢.

٥. تفسير البيضاوي ٢: ٢٩٥.

٦. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٢، تفسير روح البيان ٧: ٤٦٥.

٧ و٨. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٢.

لشدة الجوع ﴿فَمَا يَوُونَ مِنْهَا الْبَطُونَ﴾.

ثم لما كان لازم الشَّبع وملأ البطن العطش وشدته، بين سبحانه مشروبهم، كما بين مشروب أهل الجنة بعد ذكر طعامهم بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ﴾ بعد الأكل من الشجرة واشتداد العطش وطول الاستسقاء ﴿عَلَيْهَا لَشُوبًا﴾ وخليطاً ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ وماء متناوٍ في الحرارة.

قيل: يعني شرباً من دم أو قيح أسود أو صديد ممزوجاً ومشوباً بماءٍ حارٍ غاية الحرارة يقطع أمعاءهم.<sup>٢</sup>

قيل: إن كلمة (ثم) دالة على التراخي الزماني، فيفهم منها أن أهل النار يملأون بطونهم من شجرة الرُّقُوم وهي حارة تحرق بطونهم، فيعظم عطشهم، فيستسقون فلا يُسْقَوْنَ إلا بعد مدة طويلة ليكمل تعذيبهم. وقيل: إن كلمة (ثم) دالة على التراخي في الرتبة، فتدل على أن مشروبهم في الشناعة أشد من مأكولهم.<sup>٣</sup>

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ بعد أكل الرُّقُوم وشرب الحميم، كما عن مقاتل<sup>٤</sup> ﴿لِأَلَى الْجَحِيمِ﴾ قيل: إن موضع الحميم خارج من الجحيم، فهم يُورَدون الحميم لأجل الشرب كما تُورَد الإبل إلى الماء، ثم يُرَدون إلى الجحيم، كما دل عليه قوله: ﴿يُطَوَّفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آناً﴾<sup>٥</sup> وقيل: إن الرُّقُوم والحميم نُزِلَ يُقَدَّم إليهم قبل دخول الجحيم.<sup>٦</sup>

إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ \* فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ مُهْرَعُونَ \* وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ \* وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ \* فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ \*  
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ [٦٩ - ٧٤]

ثم بين سبحانه علة استحقاقهم هذا العذاب الشديد بقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا﴾ ووجدوا ﴿آبَاءَهُمْ﴾ وكبراءهم ﴿ضَالِّينَ﴾ ومنحرفين عن طريق الحق والهدى بعبادتهم الأصنام ﴿فَهُمْ﴾ بلا تدبر في صحة مذهب آبائهم، وتحصيل دليل على حقانية دينهم مع وضوح بطلانه بأدنى تفكير ﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾ وعقبهم، أو إلى تقليدهم ﴿يُهْرَعُونَ﴾ ويسرعون بكمال الشدة، ويتبعونهم مع غاية العصبية. ثم لما كان إصرار الناس على الكفر والضلال سبباً لتألم قلب النبي ﷺ وحزنه، سلاه سبحانه

١. في النسخة: وملأته. ٢. تفسير روح البيان ٧: ٤٦٥.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٤٦٥. ٤. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٣.

٥. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٣، والآية من سورة الرحمن: ٥٥/٤٤.

٦. تفسير روح البيان ٧: ٤٦٥.

بقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ﴾ والله ﴿قَبْلَهُمْ﴾ بإضلال إبليس ﴿أَكْثَرُ﴾ القرون ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ والأمم الماضين ﴿وَوَ﴾ والله ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ﴾ من قبلنا أنبياء ﴿مُنْذِرِينَ﴾ ومُخَوِّفِينَ لهم من العذاب على الشُّرك والعصيان مع المعجزات الباهرة والبراهين القاطعة، فبينوا لهم بطلان عقائدهم، وسوء عاقبة كفرهم، فما اعتنوا بإنذارهم ﴿فَانظُرْ﴾ أيها النبي، أو الناظر ﴿كَيْفَ﴾ كان ﴿عَاقِبَةُ﴾ أمر الأمم ﴿الْمُنْذَرِينَ﴾ ومآل كفرهم وطغيانهم، فقد عَلِمْتَ أَنَّ عاقبتهم كانت أَوْخَمُ العواقب وأَسْوأها ﴿إِلَّا﴾ عاقبة الذين كانوا ﴿عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ فَإِنَّ عاقبتهم خير العواقب وأحسنها.

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ \* وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ \*  
وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ \* وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ \* سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي  
الْعَالَمِينَ \* إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ [٧٥-٨٠]

ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ سبحانه إرساله الرسل إلى الأمم الضالة، ذكر بعض الأنبياء العظام ولطفه بهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا﴾ ودعانا ﴿نُوحٌ﴾ لتخليصه من إيذاء قومه وقتلهم إياه، والأمن [مِنْ] الغرق بالطوفان ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ نحن لدعائه.

ثُمَّ بَيَّنَّ سبحانه حُسْنَ إجابته له لقوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ وأقاربه ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ والغَمِّ الشديد، وهو أذى قومه، أو الغرق بالطوفان ﴿وَجَعَلْنَا﴾ بعد هلاك الخَلْقِ بالطوفان ﴿ذُرِّيَّتَهُ﴾ ونَسْلَهُ فقط ﴿هُمُ الْبَاقِينَ﴾ على وجه الأرض.

رُوي أَنَّهُ مات كُلٌّ مِنْ معه في السفينة غير أبنائه وأزواجهم، وهم الذين بقوا متناقلين إلى يوم القيامة<sup>١</sup>.

﴿وَتَرَكْنَا﴾ على نوح، وأبقينا ﴿عَلَيْهِ فِي﴾ الأمم ﴿الْآخِرِينَ﴾ الثناء وحسن الذكر ﴿سَلَامٌ﴾ من الله، أو من الملائكة والتَّغْلِينَ ﴿عَلَى نُوحٍ﴾ وذلك السلام والتحية باقٍ عليه ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾ وأمة بعد أمة. قيل: إِنَّ المراد الدعاء بثبوت هذه فيهم جميعاً، كَأَنَّهُ أثبت الله التسليم على نوح وأدامه في الملائكة والتَّغْلِينَ، فَيَسْلَمُونَ عليه بِكُلِّيَّتِهِمْ<sup>٢</sup>.

قال القرطبي: جاءت الحية والعقرب لدخول السفينة، فقال نوح: لا أحملكما لأنكما سبب الضرر والبلاء. فقالا: احملنا ونحن نضمن لك أن لا نُضَرَّ أحداً ذَكَرَكَ، فمن قرأ حين يخاف مضرتهما

٢. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٥، تفسير روح البيان ٧: ٤٦٨.

١. تفسير روح البيان ٧: ٤٦٧.

﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ لم يُضْرَأ<sup>١</sup>.

عن الصادق عليه السلام - في حديث -: «وبُشِّرهم نوح بهود، وأمرهم باتباعه، وأن يقيموا الوصية كل عام فينظروا فيها، ويكون عيداً لهم، كما أمرهم آدم عليه السلام، فظهرت الجبرية من ولد حام ويافث، فاستخفى ولد سام بما عندهم من العلم، وجرت على سام بعد نوح الدولة لحام ويافث، وهو قول الله عز وجل: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ يقول: تركت على نوح دولة الجبارين، ويُعزى<sup>٢</sup> الله محمداً عليه السلام بذلك. قال: وولد لحام: السند والهند والحبش، وولد لسام العرب والعجم، وجرت عليهم الدولة، وكانوا يتوارثون الوصية عالم بعد عالم حتى بعث الله هوداً<sup>٣</sup>.

ثم أنه تعالى بعد ذكر نعمة على نوح، بين استحقاقه لها بقوله: ﴿إِنَّا كَذَّلِكَ﴾ ومثل تلك النعم **﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾** ونُفِضَ عليهم بسبب إحسانهم.

إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ \* ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ \* وَإِنْ مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ \*  
إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ \* إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ [٨١-٨٥]

ثم أتى على نوح وذكر إحسانه بقوله: ﴿إِنَّهُ﴾ كان أحداً **﴿مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾** بتوحيدي وبما يجب الايمان به من البعث وغيره. وفيه بيان أن من أعظم درجات الانسان الايمان بالله والانقياد لطاعته.

ثم بين سبحانه غضبه على أعداء نوح بقوله: **﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا﴾** بالطوفان الأقوام **﴿الْآخَرِينَ﴾** المعادين لنوح، وهم الكفار والمشركون.

قيل: إن كلمة (ثم) لبيان غاية البعد وتفاوت الرتبة بين إنجاء نوح وأهله، والإغراق المتراحي الزماني<sup>٤</sup>.

ثم بين سبحانه قصة إبراهيم عليه السلام الذي كان من أولي العزم بعد نوح عليه السلام بقوله: **﴿وَإِنْ مِنْ شَيْعَتِهِ﴾** وأتباعه والسالكين على منهاجه في التوحيد والدعوة إليه، والثبات على الحق، وتحمل أذى القوم **﴿لِإِبْرَاهِيمَ﴾**. عن ابن عباس: من أهل دينه، وعلى شئته، أو ممن شايعه في مصابرة المكذبين<sup>٥</sup>.

قيل: كان بين نوح [إبراهيم] ألفان وستمئة وأربعون [سنة] وما كان بينهما إلا نبيان: هود،

٢. في كمال الدين: ويعز.

١. تفسير القرطبي ٩: ٣٢.

٤. تفسير روح البيان ٧: ٤٦٨.

٣. كمال الدين: ٣/١٣٥، تفسير الصافي ٤: ٢٧٢.

٥. تفسير أبي السعود ٧: ١٩٦، تفسير روح البيان ٧: ٤٦٨.

وصالح<sup>١</sup>.

أقول: الظاهر أن المراد النبي المعروف، لأنه لا شبهة أن الأرض لا تخلو من حجة.  
وعن الكلبي: أن المراد أن من شيعة محمد ﷺ إبراهيم<sup>٢</sup>، وإن لم يذكر اسمه الشريف قبل الآية،  
وكان إبراهيم قبل نبينا بكثير، لكنه تابع له في الحقيقة<sup>٣</sup>.  
﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ﴾ وحين أقبل إلى خالقه ومالكة ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الآفات النفسانية، والهواجس  
الشیطانية، والعلاتق الدنيوية. عن ابن عباس: إنه يحب للناس ما يحب لنفسه، وسليم جميع الناس من  
غشّه وظلمة، وأسلمه الله تعالى فلم يعدل به أحداً<sup>٤</sup>.  
وقيل: إن (إذ) متعلق بذكر المقدّر<sup>٥</sup>.

وكان ظهور مجيئه ربه وإقباله إلى مالكة ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ الذين كانوا عبدة الأصنام إنكاراً  
عليهم وتوبيخاً لهم ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ وأي شيء هذه الأصنام التي لها تسجدون.

﴿إِن كُنتُمْ آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ \* فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ \* فَتَنَظَرُ نَظْرَةً فِي  
النُّجُومِ \* فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ \* فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ \* فَرَاغَ إِلَى إِلَهِهِمْ فَقَالَ أَلَا  
تَأْكُلُونَ \* مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ \* فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ \* فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ  
\* قَالَ أَعْبُدُونِ مَا تَنْحَتُونَ \* وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ \* قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا  
فَأَلْقُوهُ فِي الْبَحْرِ \* فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ \* وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ  
إِلَىٰ رَبِّي سَيَّهِدِينَ﴾ [٨٦-٩٩]

ثم بالغ في توبيخهم ولومهم بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ آلِهَةً﴾ وكذباً أو باطلاً ﴿إِلَٰهَةً﴾ ومعبودين ﴿دُونَ اللَّهِ﴾  
وسوى المعبود المستحق للعبادة ﴿تُرِيدُونَ﴾ وتطلبون.

قيل: إن (إنكأ) مفعول له، وإنما قدمه لكون الأهم عنده أن يقرر عندهم أنهم على إفك وباطل في  
شركهم<sup>٦</sup>. وقيل: إنه مفعول ل(تريدون)<sup>٧</sup> أو حال، والمعنى أتريدون آلهة من دون الله أفكين<sup>٨</sup>.  
﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وحسبانكم في حقّه، أتظنون أنه جعل لنفسه من الجمادات شركاء

١. تفسير أبي السعود ٧: ١٩٧، تفسير روح البيان ٧: ٤٦٩.

٢. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٦، تفسير القرطبي ١٥: ٩١.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٤٦٩.

٤. تفسير البيضاوي ٢: ٢٩٧.

٥. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٧.

٦. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٧، تفسير روح البيان ٧: ٤٦٩.

٧. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٧.

في العبادة، أو أنه من جنس هذه الجمادات حتى جعلتموها مساوية له، أو تظنون أنه لا يؤاخذكم بإسراككم، أو أنه غافل عن سينات أعمالكم، وهو رب العالمين، لا يساويه<sup>١</sup> وليس كمثله شيء، ولا يرضى بعبادة غيره، ولا يعزب عنه مثقال ذرة.

ثم صم إبراهيم عليه السلام على أن يلزم قومه الحجة على عدم قابلية الأصنام للعبادة حتى خرج القوم إلى عيد لهم، فقالوا: يا إبراهيم، اخرج معنا إلى الصحراء وإلى عيدنا<sup>٢</sup>، وكانوا على ما قيل يتعاطون علم النجوم<sup>٣</sup> ﴿فَنَظَرُ﴾ إبراهيم ﴿نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ فرأى موقعها واتصالاتها، أو نظر في علم النجوم ﴿فَقَالَ﴾ اعتذاراً من الخروج ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ومريض لا يصلح لي الخروج.

عن ابن عباس: أنهم كانوا يتعاطون علم النجوم، فعاملهم على مقتضى عادتهم، وذلك أنه أراد أن يكادهم في أصنامهم، ليلزمهم الحجة في أنها غير معبودة، وكان لهم من الغد يوم عيد يخرجون إليه، فأراد أن يتخلف عنهم، ليبقى خالياً في بيت الأصنام، فيقدر على كسرهما<sup>٤</sup>.  
قيل: إن المراد من قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، إنني سأسقم، وكانت تأتيه سقامة كالحُمى في بعض ساعات الليل والنهار<sup>٥</sup>.

وقيل: كان له نجم مخصوص، كلما طلع على صفة مخصوصة مريض<sup>٦</sup>.  
وقيل: إن هذا الكلام منه على سبيل التعريض، ومثاده أن الإنسان في أكثر أحواله لا ينفك عن حالة مكروهة<sup>٧</sup> إما في بدنه، وإما في قلبه، وكل ذلك سقم<sup>٨</sup>.

وقيل: يعني سقيم القلب غير عارف بربي، وكان ذلك قبل بلوغه<sup>٩</sup>.  
وقيل: يعني مريض القلب بسبب إطباق ذلك الجمع العظيم على الكفر والشرك<sup>١٠</sup>.  
وعن الباقر عليه السلام: «والله ما كان سقيماً وما كَذَبَ»<sup>١١</sup>.

وعن الصادق عليه السلام، قال: «إنه حسب فرأى ما يحلّ بالحسين عليه السلام، فقال: إنني سقيم لما يحلّ بالحسين»<sup>١٢</sup>.

قيل: إن القوم توهّموا من قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أنه أثبتلي بالطاعون لكثرتة في زمانه<sup>١٣</sup> ﴿فَتَوَلَّوْا﴾

١. في النسخة: لا يساومه. ٢. يريد استحقاق. ٣. في النسخة: معيدنا.

٤. تفسير روح البيان ٧: ٦٦٩. ٥. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٧.

٦. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٧. ٧. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٧.

٨. في النسخة: مكروهة. ٩. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٨. ١٠. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٧.

١١. تفسير الرازي ٢٦: ١٤٧. ١٢. الكافي ٨: ٧٠/١٠٠، تفسير الصافي ٤: ٢٧٣.

١٣. الكافي ١: ٥/٢٨٧، تفسير الصافي ٤: ٢٧٣.

١٤. تفسير أبي السعود ٧: ١٠٧، تفسير الصافي ٤: ٢٧٣، تفسير روح البيان ٧: ٤٧٠.

وأعرضوا **عَنَّهُ** حال كونهم **مُذْبِرِينَ** وهاربين منه، لخوف السَّراية، فلما ذهب القوم وتركوه جاء إلى بيت الأصنام **فَرَاغَ** وذهب خفية **إِلَى آلِهَتِهِمْ** فرأى أن القوم وضعوا عندهم الطعام لتحصل له البركة على ما قيل <sup>١</sup> **فَقَالَ** لهم استهزاء بهم: **أَلَا تَأْكُلُونَ** من هذا الطعام؟ ثم بالغ في الاستهزاء بهم وقال **مَا لَكُمْ** وأي حال عرض لكم أنكم **لَا تَنْطِقُونَ** ولا تكلّمون معي ولا تجيبوني؟ **فَرَاغَ** وأقبل **عَلَيْهِمْ** خفية فضربهم **ضَرْبًا** شديداً **بِالْيَمِينِ** وبتمام القوّة التي كانت له. قيل: إن المراد فأقبل عليهم حال كونه ضارباً لهم بسبب الحلف على ضربهم بقوله: **تَاللّٰهِ لَا كِيدَ إِلَّا لَكُمْ** فلما رجع القوم من عيدهم <sup>٢</sup> جاءوا إلى الأصنام على حسب رسمهم، فوجدوها مكسورة، فظنّوا بالقرائن أنّه عمل إبراهيم <sup>٣</sup> **فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ** وتوجّهوا نحوه، وهم **يَزِفُونَ** ويُسرعون في المشي.

ثم أنّه بعد ما جرت بينه وبين القوم من المحاورات التي حكاها سبحانه في سورة الأنبياء **قَالَ** توبيخاً لهم: **أَتَعْبُدُونَ** يا قوم، وأنتم عقلاء **مَا تَتَّخِذُونَ** بأيديكم من الأحجار والأخشاب؟ **وَاللّٰهُ خَلَقَكُمْ** بقدرته مادّةً وصورةً **وَوَضَعَكُمْ** خلق **مَا تَعْمَلُونَ** من الأصنام بإقداركم على نحتها. ولما عجز نمرد وخواصه من إبطال حجّته **قَالُوا**: يا قوم **آبْنَا لَهُ بُنْيَانًا** ربيعاً عظيماً، واملأوه حطباً، وأشعلوا فيه النار لإحراق إبراهيم **فَأَلْقَوْهُ فِي الْجَحِيمِ** والنار الشديدة الإيقاد. قيل: إن القائل رجلٌ من أعراب فارس اسمه الهيزن <sup>٤</sup>.

عن ابن عباس، أنّه قال: بنا حائطاً من حجر، طوله في السماء ثلاثون ذراعاً، وعرضه عشرون ذراعاً، واملأوه حطباً، وأشعلوا فيه ناراً <sup>٥</sup>.

**فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا** وشرّاً عظيماً، وهو إحراقه بالنار **فَجَعَلْنَاهُمْ** والأذلين بإبطال كيدهم، وجعل النار عليه برداً وسلاماً، وسعيهم في إهلاكه سبباً لظهور حجّته ووضوح صدقه وعلوّ رتبته **وَقَالَ** للوط ولمن آمن به من بعد إنجاء الله إياه من النار: **إِنِّي ذَاهِبٌ** ومهاجرٌ من هذه القرية الظالم أهلها، وهي حرّان، أو بابل، أو هرمز بحرة <sup>٦</sup> التي كانت بين البصرة والكوفة **إِلَى** بلاد الشام التي أمرني **رَبِّي** بالذهاب إليها.

٢. في النسخة: معيدهم.

٤. تفسير روح البيان ٧: ٤٧١.

١. تفسير روح البيان ٧: ٤٧٠.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٤٧٠.

٥. تفسير روح البيان ٧: ٤٧١.

٦. الذي في معجم البلدان: هرمز جرد: ناحية في أطراف العراق، وهرمز قرة: قرية في طرف نواحي مرو، ولعل ما في المتن مصحف ما عن: هرمز جرد. معجم البلدان ٥: ٤٦٣.

٣٠٦..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٥

وقيل: أمر بالذهاب إلى أرض فلسطين وهي بين الشام ومصر<sup>١</sup>. أو المراد إلى موضع يكون فيه صلاح ديني<sup>٢</sup>، أو إلى بيت المقدس، كما عن الصادق<sup>٣</sup>. وعن أمير المؤمنين عليه السلام في رواية: «فذهابه إلى ربه توجهه إليه عبادةً واجتهاداً وقربةً إلى الله»<sup>٤</sup>. إنه بلفظه «سَهَّيْدِينَ» إلى الموضع الذي أمرني بالذهاب إليه، ويرشدني إليه البتة على لطفه أو وعده.

رؤي أن إبراهيم لما جعل الله عليه النار برداً وسلاماً، وأهلك عدوة نمرود، وتزوج بسارة، وكانت أحسن النساء وجهاً، وكانت تشبه حواء في حسنها، عزم الانتقال من أرض بابل إلى الشام<sup>٥</sup>.

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ \* فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ \* فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ  
يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا  
تَأْمُرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ \* فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ \*  
وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ \* قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ \* إِنَّ  
هَذَا لَهُوَ أَلْبَاءُ الْمُؤْمِنِينَ \* وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ \* وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ \*  
سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ \* كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ \* إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا  
الْمُؤْمِنِينَ [١٠٠-١١١]

ثم أن سارة اشترت هاجر، فوهبتها لإبراهيم<sup>٦</sup>، فلما ملكها دعا ربه بقوله: «رَبِّ هَبْ لِي» ولداً يكون «مِنَ» عبادك «الصَّالِحِينَ» والكاملين في العلم والعمل والأخلاق، ليكون عوناً لي على الطاعة والدعوة، ويؤنسني في العربة «فَبَشَّرْنَاهُ» إجابةً لدعائه «بِغُلَامٍ حَلِيمٍ» وولد صالح متحمل للمشاق، صبور عند إصابة المكاره، لا يغلب عليه الغضب، ولا يعجل في الأمور.

قيل: إنه تعالى جمع فيه بشارات ثلاث: الأولى: إنه غلام، والثانية: إنه يبلغ أوان الحلم، والثالثة: إنه حلِيم، ومن جلمه أنه استسلم للذبح<sup>٧</sup>. قيل: ما نعت الله نبياً بالحلم لعة وجوده غير إبراهيم وابنه<sup>٨</sup>. فلما وهب له إسماعيل، ونشأ إلى أن بلغ رتبة [أن] يعاون إبراهيم في حوائجه ومشاغله «فَلَمَّا بَلَغَ» إبراهيم «مَعَهُ السَّعْيَ» في مشاغله ومصالحه، أو السعي الذي هو أحد أعمال الحج، أراد الله أن

٣. الكافي ٨: ٣٧١/٥٦٠، تفسير الصافي ٤: ٢٧٤.

٥. تفسير روح البيان ٧: ٤٧٣.

١ و ٢. تفسير روح البيان ٧: ٤٧٢.

٤. التوحيد: ٥/٢٦٦، تفسير الصافي ٤: ٢٧٤.

٦. في النسخة: فوهبها من إبراهيم.

٧. تفسير الرازي ٢٦: ١٥١، تفسير أبي السعود ٧: ١٩٩، تفسير روح البيان ٧: ٤٧٣.

٨. تفسير البضاوي ٢: ٢٩٨، تفسير أبي السعود ٧: ١٩٩، تفسير الصافي ٤: ٢٧٥.



يُريهِ كمال جِلم ولده، فأمره في المنام بذبحه.

نصه رؤيا إبراهيم، رُوي أن إبراهيم رأى ليلة التروية في منامه كأن قائلًا يقول له: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ بِذِيحِ ابْنِكَ** هذا، فلما أصبح تروى في ذلك من الصباح إلى الرواح، أمن الله هذا الحكم أم من

الشیطان، فمن تَمَّ سُمِّي يوم التروية، فلما أمسى رأى مثل ذلك، فعرف أنه من الله، فسَمِّي يوم عرفة، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة، فهم بنحره فسَمِّي يوم النحر<sup>١</sup>.

وفي (الكافي) عنهما **عليه السلام**: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ التَّروِيَةِ قَالَ جَبْرِئِيلُ لِإِبْرَاهِيمَ: تَرَوْهُ مِنَ الْمَاءِ، فَسَمِّي تَرْوِيَةً، ثُمَّ أَتَى مِنَى فَأَبَاتَهُ بِهَا، ثُمَّ غَدَا إِلَى عَرَفَاتٍ، فَضْرَبَ خَبَاءَهُ بِمِرَّةٍ دُونَ عَرَفَةَ، وَبَنَى مَسْجِدًا بِأَحْجَارٍ بَيْضَ - إِلَى أَنْ قَالَ -: عَمَدَ بِهِ إِلَى عَرَفَاتٍ فَقَالَ: هَذِهِ عَرَفَاتُ، فَأَعْرِفْ بِهَا مَنَاسِكَكَ، وَأَعْرِفْ بِذَنبِكَ، فَسَمِّي عَرَفَاتٍ. ثُمَّ أَفَاضَ إِلَى الْمُزْدَلِفَةِ، فَسَمِّيَتِ الْمُزْدَلِفَةُ لِأَنَّهُ أَزْدَلَفَ إِلَيْهَا»<sup>٢</sup>.

وعلى أي تقدير، فجاء إبراهيم بإسماعيل إلى منى، وهو ابن ثلاث عشر سنة على ما قيل<sup>٣</sup> و**«قَالَ»** له تَلَطَّافًا وَاشْفَاقًا **«يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ»** ما يوجب عليّ **«أَنِّي أَذْبَحُكَ»** قربانًا لله. وقيل: إنه رأى أنه يذبحه<sup>٤</sup> **«فَانْظُرْ»** وتفكر فيما قلت **«مَاذَا تَرَى»** وأي شيء هو رأيك ومختارك؟ وإنما استكشف رايه ليعلم أنه صابر في البلاء ومتقادّ لأمر الله أو جزوع أب من التسليم، وليكون سنة في المشاورة، أو ما ترى من نفسك من الصبر والتسليم؟ فلما سمع إسماعيل ذلك من أبيه **«قَالَ»** بلا ريث وتامل **«يَا أَبَتِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ»** به من ذبحي، وإنما قال ما تؤمر ولم يقل ما أمرت، للدلالة على أن انقياده لا يختص بخصوص الذبح الذي أمر به، بل يعم لكل ما يؤمر به في حقّه **«سَتَجِدُنِي»** يا به **«إِنْ شَاءَ اللَّهُ»** أن أكون صابرًا **«مِنَ الصَّابِرِينَ»** على الذبح، أو قضاء الله، ومن المتقادين لأمر الله. **«فَلَمَّا أَسْلَمَا»** وانقادا لأمر الله، عن قتادة: أسلم إبراهيم ابنه، وإسماعيل نفسه<sup>٥</sup> **«وَتَلَّهُ»** وصرعه إبراهيم **«لِلْجَبِينِ»** وألقاه على شقّه بحيث وقع جبينه على الأرض لمباشرة الأمر بصبر وجلد **«وَنَادَيْنَاهُ»** من جانب الجبل، أو من ميسرة مسجد الحيف **«أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ»** كف عن ذبح ولدك، فأنك **«قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا»** وعملت بما رأيت في المنام من العزم على الذبح، وإتيان مقدّماته التي كانت تحت يدك وقدرتك. قيل: إنه تعالى أمر السكّين بقوّته على منّحره فلم يقطع، ثم وضع السكّين على فقاها فانقلب السكّين<sup>٦</sup>.

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٥٣، تفسير البيضاوي ٢: ٢٩٨، تفسير أبي السعود ٧: ٢٠٠، تفسير روح البيان ٧: ٤٧٣.

٢. الكافي ٤: ٩/٢٠٧، تفسير الصافي ٤: ٢٧٧. ٣. مجمع البيان ٨: ٧٠٦، تفسير الرازي ٢٦: ١٥٢.

٤. تفسير الرازي ٢٦: ١٥٣. ٥. تفسير الرازي ٢٦: ١٥٧، تفسير روح البيان ٧: ٤٧٤.

٦. تفسير روح البيان ٧: ٤٧٥.

قيل: إن جواب (لَمَّا) محذوف، والتقدير لَمَّا فعل ذلك وناديانه أن يا إبراهيم قد صَدَقَت الرؤيا، سعد سعادةً عظيمة، وآتاه الله نبوةً ولده، وأجرله له الثواب<sup>١</sup>.

وقيل: إن التقدير كان ما كان مما لا يحيط<sup>٢</sup> به نطاق البيان من استبشارهما وشكرهما الله على ما أنعم عليهما من رفع البلاء بعد حلوله، والتوفيق لما لم يُوقَفْ أحد لملته، وإظهار فضلهما بذلك على العالمين مع إحراز الثواب العظيم<sup>٣</sup> ﴿إِنَّا﴾ كما جزينا إبراهيم وابنه بإحسانهما وطاعتهما ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي﴾ جميع ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ بالاحسان والطاعة، أو إِنَّا كما فرجنا عنهما الكربة بإحسانهما، كذلك نَجْزِي غيرهما من المحسنين ﴿إِنَّ هَذَا﴾ البلاء الذي ابتلينا به إبراهيم وابنه والله ﴿لَهُوَ الْبَلَاءُ﴾ والابتلاء ﴿الْمُبِينُ﴾ والمُظْهِرُ لِلْمُخْلِصِ من غيره، أو إن ما فعلنا لهو المحنة البينة الصعوبة، إذ لا شيء أصعب منها، ونَجِّينَا إسماعيل من الذبح ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ الجئة أو عظيم القدر.

قيل: إن عظمة قدر هذا الفداء، لكونه فداء إسماعيل النبي وخاتم الأنبياء الذي كان في صلبه<sup>٤</sup>.  
عن ابن عباس: أنه الكبش الذي قرَّبه هابيل فقبَّل منه، وكان يرعى في الجنة حتى فدى به إسماعيل<sup>٥</sup>.

عن الصادق عليه السلام في رواية: «فلما كان في الليل أتى إبراهيم أت من ربه، فأراه في الرؤيا ذبح ابنه إسماعيل بموسم مكة، فأصبح إبراهيم حزيناً للرؤيا التي رآها، فلما حضر موسم ذلك العام حمل إبراهيم هاجر وإسماعيل في ذي الحجة من أرض الشام، فانطلق بهما إلى مكة ليذبحه في الموسم، فبدأ بقواعد البيت الحرام، فلما رفع قواعده خرج إلى منى حاجباً، وقضى تسكعته بمنى، ثم رجع إلى مكة، فطاف بالبيت أسبوعاً، ثم انطلقا فلما صارا في السعي<sup>٦</sup>، قال إبراهيم لإسماعيل: يا بني إني أرى في المنام أنني أذبحك في الموسم عامي هذا، فما ترى؟ قال: يا أبت افعل ما تؤمر. فلما فرغا من سعيهما انطلق به إبراهيم إلى منى، وذلك يوم النحر، فلما انتهى إلى الجمرة الوسطى، أضجعه لجبينه الأيسر وأخذ الشفرة ليذبحه، نودي: ﴿أَنْ يَأْبِرَاهِيمُ﴾ \* قَدْ صَدَقْتَ الرُّؤْيَا﴾ إلى آخره، وقدي إسماعيل بكبش عظيم، فذبحه وتصدق بلحمه على المساكين<sup>٧</sup>.

وفي رواية عنهما عليه السلام: «ثم قام على المشعر الحرام، فأمره الله أن يذبح ابنه، وقد رأى شمائله وخلانقه، وأنس ما كان إليه، فلما أصبح أفاض من المشعر إلى منى، فقال لأمه: زوري البيت أنت.

١. تفسير الرازي: ٢٦: ١٥٧ وفي النسخة: واجزأله الثواب.

٢. تفسير وروح البيان ٤٧٦: ٧.

٣. تفسير أبي السعود ٧: ٢٠١، تفسير روح البيان ٧: ٤٧٧.

٤. في مجمع البيان: المسعى.

٥. مجمع البيان ٨: ٧١٠، تفسير الصافي ٤: ٢٧٦.

٦. في النسخة: يطاق.

واحتمس الغلام، فقال: يا بني هات الجِمار والسكين حتى أقربَ القربان، فإن ربك أين هو يا بني أنت والله هو، إن الله تعالى قد أمرني بذبحك، فانظر ماذا ترى؟ ﴿قَالَ يَا أَبَتِ أَفَعَلَّ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ فلما عزم على الذبح قال: يا أبة خمر<sup>١</sup> وجهي وشُدْ وثاقي. قال: يا بني الوثاق مع الذبح! والله لا أجمعهما عليك اليوم.

إلى أن قال الباقر عليه السلام: «فأضجعه عند الجَمرة الوسطى، ثم أخذ المِدية فوضعها على حلقه، ثم رفع رأسه الى السماء، ثم انتحى<sup>٢</sup> عليه بالمِدية فقلبها جَبْرئيل عن حلقه، فنظر إبراهيم فإذا هي مقلوبة، فقلبها إبراهيم على حدها، وقلبها جَبْرئيل على قفاها، ففعل ذلك مراراً، ثم نودي من ميسرة مسجد الخيف: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ \* قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ واجترَ الغلام من تحته، وتناول جَبْرئيل الكبش من قَلَّةِ نَبير<sup>٣</sup> فوضعه تحته<sup>٤</sup>.

وفي رواية القمي: «ونزل الكبش على الجبل الذي عن يمين مسجد منى، نزل من السماء، وكان يأكل في سواد، ويمشي في سواد، أقرن<sup>٥</sup>. قيل: ما كان لونه؟ قال: «أملح، أغبر»<sup>٥</sup>.

وفي رواية عن الرضا عليه السلام: «فلما عزم على ذبحه، فذاه الله بذبح عظيم، بكبش أملح، يأكل في سواد، ويشرب في سواد، وينظر في سواد، ويمشي في سواد، ويبول ويَتَعَرَّ في سواد، وكان يرتع<sup>٦</sup> قبل ذلك في رياض الجنة أربعين عاماً، ما خرج من رَجَمِ أثى، وإنما قال الله له كن فكان، لِيَتَفَدَّى به إسماعيل، فكُلَّمَا يَذْبَح بِمَنَى فهو فِدْيَةٌ لإسماعيل إلى يوم القيامة.

إلى أن قال: والعلة التي لأجلها دفع الله عز وجل الذبح عن إسماعيل هي العلة التي من أجلها دفع الله الذبح عن عبدالله، وهي كون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والأنمة في ضلُوبهما، فببركة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والأنمة دفع الله الذبح عنهما، فلم تجرِ [السنة] في الناس بقتل أولادهم، ولولا ذلك لوجب على الناس كل أضحية التقرب إلى الله تعالى ذكره بقتل أولادهم، وكل ما يتقرب به الناس من أضحية فهو فِدَاءٌ لإسماعيل إلى يوم القيامة»<sup>٧</sup>.

وعنه عليه السلام: «لو خلق الله مضغةً أطيب من الضأن، لفدى بها إسماعيل عليه السلام»<sup>٨</sup>.

وعن الرضا عليه السلام، قال: «لما أمر الله إبراهيم أن يذبح مكان ابنه إسماعيل الكبش الذي أنزله عليه،

١. في النسخة: غمر. ٢. انتحى: أي اعتمد ومال.

٣. نَبير: هو أعلى جبال مكة وأعظمها.

٥. تفسير القمي ٢: ٢٢٦، تفسير الصافي ٤: ٢٧٩.

٦. في النسخة: يربح.

٧. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢١٠، ١/٢١٢، تفسير الصافي ٤: ٢٧٩.

٨. الكافي ٦: ٣١٠، تفسير الصافي ٤: ٢٨٠.

تمنى إبراهيم أن يكون قد ذبح ابنه إسماعيل بيده، وأنه لم يؤمر بذبح الكباش مكانه، ليرجع إلى قلبه ما يرجع إلى قلب الوالد الذي يذبح أعزّ ولده بيده، فيستحقّ بذلك أرفع درجات أهل الثواب على المصائب. فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: يا إبراهيم، من أحبّ خلقي إليك؟ قال: يا ربّ، ما خلقت خلقاً أحبّ إليّ من حبيبك محمد. فأوحى الله إليه: يا إبراهيم، هو أحبّ إليك أم نفسك؟ قال: بل هو أحبّ إليّ من نفسي. قال: فولده أحبّ إليك أم ولدك؟ قال: بل ولده. قال: فذبح ولده ظلماً على أيدي أعدائه أوجع لقلبك، أو ذبح بيدك في طاعتي؟ قال: يا رب، بل ذبحه على أيدي أعدائه أوجع لقلبي. قال: يا إبراهيم، إن طائفة تزعم أنّها من أمة محمد ستقتل الحسين ابنه من بعده ظلماً وعدواناً، كما يذبح الكباش، ويستوجبون بذلك سخطي. فجزع إبراهيم لذلك، فتوجّع قلبه، وأقبل يبكي، فأوحى الله تعالى إليه: يا إبراهيم، قد فديت جزعك على ابنك إسماعيل لو ذبحته بيدك بجزعك على الحسين وقتله، وأوجبت لك أرفع درجات أهل الثواب على المصائب، وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَقَدْ يَنَافَعُ يَذْبَحُ الْكَبْشَ، وَيَسْتَوْجِبُونَ بِذَلِكَ سَخَطِي. فَجَزَعَ إِبْرَاهِيمَ لِدَٰلِكَ، فَتَوَجَّعَ قَلْبُهُ، وَأَقْبَلَ يَبْكِي، فَأَوْحَىٰ اللَّهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِ: يَا إِبْرَاهِيمَ، قَدْ فَدَيْتَ جَزْعَكَ عَلَىٰ ابْنِكَ إِسْمَاعِيلَ لَوْ ذَبَحْتَهُ بِيَدِكَ بِجَزْعِكَ عَلَىٰ الْحُسَيْنِ وَقَتْلِهِ، وَأَوْجَبْتَ لَكَ أَرْفَعَ دَرَجَاتِ أَهْلِ الثَّوَابِ عَلَىٰ الْمَصَائِبِ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَدْ يَنَافَعُ يَذْبَحُ الْكَبْشَ﴾<sup>١</sup>.

ثم بين سبحانه زيادة تشريفه لإبراهيم بقوله، ﴿وَتَرَكْنَا﴾ وأبقينا ﴿عَلَيْهِ فِي﴾ الأمم ﴿الْآخِرِينَ﴾ حُسن الذِّكْر والثَّناء الجميل إلى يوم القيامة، أو التحية له بقولهم: ﴿سَلَامٌ﴾ من الله، أو من الملائكة والتقلين ﴿عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ كما أبقينا على نوح هذه التحية ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الجزء الجزيل، ومثل هذا الأجر الجميل ﴿نَجْزِي﴾ جميع ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين منهم إبراهيم حيث ﴿إِنَّهُ مِنْ﴾ جملة ﴿عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ وأوليائنا المخلصين، لا من عباد الدنيا وأتباع النفس والهوى.

وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا وَيَسِّرْنَاهُ مِّنَ الصَّالِحِينَ \* وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ  
وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ \* وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ \*  
وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ \* وَنَصَرْنَاهُمْ فَاكْتَاوُا هُمُ الْغَالِبِينَ \*  
وَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ \* وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ \* وَتَرَكْنَا  
عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ \* سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ \* إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي  
الْمُحْسِنِينَ \* إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ [١١٢-١٢٢]

ثم بين سبحانه زيادة تفضله وإنعامه على إبراهيم بقوله: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ﴾ مع غاية كبره وعُظم زوجته سارة ويأسها من الولد ﴿بِإِسْحَاقَ﴾ وجعلنا ذلك الولد ﴿نَبِيًّا﴾ صالحاً ﴿وَمِنْ﴾ جملة الأنبياء

﴿الصَّالِحِينَ﴾ وفي وصفه بالصلاح بعد النبوة غاية تعظيم لشأنه، ودلالة على كونه أعلى مراتب كمال الانسانية ﴿وَبَارَكْنَا﴾ على إبراهيم وأنعمنا ﴿عَلَيْهِ﴾ بكثرة الأولاد ﴿و﴾ كذا ﴿عَلَى﴾ ابنه ﴿إِسْحَاقَ﴾ حيث أخرجنا من صلبه بني إسرائيل ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ ونسلهما ﴿مُحْسِنٌ﴾ كانبيا بني إسرائيل الذين منهم موسى وعيسى وغيرهما من الرسل، ﴿و﴾ منهم ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ باختيار الكفر وارتكاب المعاصي ﴿مُيَبِّنٌ﴾ وظاهر ظلمه. وفيه رد على اليهود حيث افتخروا بكونهم من ولد إسحاق ويعقوب، ودلالة على أن النسب لا أثر له في الصلاح والفساد والطاعة والعصيان. وفي الحديث: «يا بني هاشم لا يأتيني الناس بأعمالهم، وتأتوني بأنسابكم»<sup>١</sup>.

ثم بين سبحانه تفضله على موسى وأخيه هارون بقوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا﴾ وأنعمنا ﴿عَلَى مُوسَى وَ﴾ أخيه ﴿هَارُونَ﴾ بنعمة النبوة والرسالة وغيرهما من النعم الدينية والدنيوية ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا﴾ برحمتنا ﴿و﴾ نجينا ببركتهما وبتبعهما ﴿قَوْمَهُمَا﴾ بني إسرائيل ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ والغم الشديد الذي كان لهم من تعذيب فرعون وقومه ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ على أعدائهم ﴿فَكَانُوا﴾ بنصرتنا ﴿هُمْ الْغَالِبِينَ﴾ على عدوهم بعد أن كانوا مغلوبين ومقهورين، وأنزلنا على موسى وهارون ﴿وَأَتَيْنَاهُمَا﴾ بعد نجاتهما وقومهما وإهلاك عدوهما ﴿الْكِتَابَ الْمُسْتَسِينِ﴾ والتوراة الواضح لجميع ما يحتاج إليه الناس من المعارف والأحكام والأخلاق وغيرها ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا﴾ بالوحي وإيتاء الكتاب ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ودللناهما على الطريق الواضح إلى قربنا وخير الدنيا والآخرة وجنت النعيم ﴿وَتَرَكْنَا﴾ وأبقينا ﴿عَلَيْهِمَا﴾ حسن الذكر والثناء ﴿فِي﴾ الأمم ﴿الْآخِرِينَ﴾ وهم أمة خاتم النبيين ﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ وهو كلام الله كما في نظائره ﴿إِنَّا﴾ كما جزيهما النعم العظام ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي﴾ جميع ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ بإحسانهم ﴿إِنَّهُمَا مِنْ﴾ جملة ﴿عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ \* إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ \* أَتَدْعُونَ بَغْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ [١٢٣-١٢٥]

في بيان دعوة إلياس ثم ذكر سبحانه رسالة إلياس وكيفية دعوة قومه بقوله: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ﴾ بن ياسين من غيبته سبط هارون على ما قيل<sup>٢</sup> ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ من جانب الله إلى قومه. وقيل: إنه إدريس النبي<sup>٣</sup>، وعلى أي تقدير: اذكر يا محمد ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ نصحاً وإنكاراً عليهم الشُّرك: يا قوم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله وعذابه على الشُّرك والعصيان.

روي أنه بعث بعد موسى يوشع بن نون، ثم كالب بن يوقنا، ثم حزقيل، فلما قبض حزقيل عظمت الأحداث في بني إسرائيل، ونسوا عهد الله، وعبدوا الأصنام والأوثان، وكانت الأنبياء يبعثون بعد موسى بتجديد ما نسوا من التوراة، وبنو إسرائيل كانوا متفرقين بأرض الشام، وكان سيط منهم حلوا ببعلبك ونواحيها من أرض الشام، وهم السبط الذين كان منهم إلياس، فلما أشركوا وعبدوا الصنم وتركوا العمل بالتوراة، بعث الله إليهم إلياس نبياً<sup>١</sup>. فدعاهم إلى التوحيد، وقال لهم: ويلكم ﴿أَتَذْعُرُونَ﴾ وتَعْبُدُونَ الْحِمَادَ الَّذِي سَمَّيْتُمُوهُ ﴿بَعْلًا﴾ مع أنه لم يَخْلُقْ ذُبَاباً ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ وتتركون عبادته، مع أنه خَلَقَ السماوات والأرض وغيرهما بقدرته!<sup>٢</sup>

قيل: إن بعلًا كان اسم صنم لأهل بلدة بك من بلاد الشام، وهو اليوم معروف ببعلبك، وكان من ذهب طوله عشرون ذراعاً وله أربعة أوجه، وفي عينيه يا قوتتان كبيرتان، فُتِنُوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن، وجعلوهم أنبياء، فكان الشيطان يدخل جوفه، ويتكلم بشرعية الضلالة، والسدنة يَحْفَظُونَهَا، وَيُعَلِّمُونَهَا النَّاسَ<sup>٣</sup>.

نقل كلام الفخر قال الفخر الرازي: هذا مشكل، لقدحه في كثير من معجزات النبي ﷺ، كتكلم الذئب ورده<sup>٤</sup> والجمال معه<sup>٥</sup>.

وفيه: أن المعجزة دليل الصدق في مورد إمكانه كنبوة نبينا، لا في مورد امتناع الصدق، فمن ادعى النبوة، ودعا الناس إلى عبادة غير الله، هو كاذب ولو أتى بألف معجزة.

اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ \* فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ \* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ \* وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ \* سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ \* إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ \* إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ [١٢٦-١٣٢]

ثم صرح الناس بالتوحيد ونفي الشرك، حيث فسر أحسن الخالقين بقوله: ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ الذين كانوا قبل صنعكم هذا الصنم، فاذا لم يكن البعل رب آبائكم لا يكون ربكم ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ مع إتمامه الحجة عليهم عبادةً ولجاجاً ﴿فَأَنَّهُمْ﴾ بتكذيب رسولهم ومعارضتهم للحق ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ ويدخلون في النار يوم القيامة، ولا ينجو من أولئك القوم ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ والموحدين الذين أخلصهم الله لنفسه ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾.

﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾. قيل: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَإِسْمَاعِيلَ، كما أَنَّ سَيْنَاءَ وَسِينَينَ وَاحِدٌ<sup>١</sup>. وقيل: إِنَّ يَاسِينَ اسم والد إِبْرَاهِيمَ، وآلَهُ هُوَ إِبْرَاهِيمُ<sup>٢</sup>. وقيل: إِنَّهُ جَمَعَ أَرِيدَ بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَأَتْبَاعَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، كما يُقَالُ الْمُهْلَبِيُّونَ<sup>٣</sup>.

وقال كثير من مُفسري العامة: إِنَّ (يس) اسم النبي ﷺ، والمراد من آل يس آلَهُ كما عن ابن عباس<sup>٤</sup>.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إِنَّ اللَّهَ سَمَّى النَّبِيَّ ﷺ بِهَذَا الاسْمِ، حَيْثُ قَالَ: ﴿يس وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ لَعَلَّهُمْ يَسْقُطُونَ السَّلَامَ عَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا أَسْقَطُوا غَيْرَهُ»<sup>٥</sup>.  
وعن الصادق عليه السلام، عن آبائه، عن علي عليه السلام - فِي هَذِهِ الْآيَةِ - قَالَ: «يس محمد، ونحن آل يس»<sup>٦</sup>.  
أقول: على هذا الشكل ارتباط الآية بما قبلها وما بعدها من قوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ \* إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ \*.

روى بعض العامة أَنَّ إِبْرَاهِيمَ دَعَا عَلَى قَوْمِهِ فَفَحَطُوا ثَلَاثَ سِنِينَ، فَلَمْ يَرْتَدَّ عُوا عَنِ الشِّرْكِ، فَلَمَّا رَأَى إِبْرَاهِيمُ مِنْهُمْ ذَلِكَ دَعَا اللَّهَ أَنْ يُرِيحَهُ مِنْهُمْ، فَقِيلَ لَهُ: أَخْرِجْ يَوْمَ كَذَا إِلَى مَوْضِعٍ كَذَا، فَمَا جَاءَكَ مِنْ شَيْءٍ فَارْكَبْهُ. فَخَرَجَ إِبْرَاهِيمُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَعَ خَادِمِهِ الْيَسَعَ، فَوَصَلَ الْمَوْضِعَ الَّذِي أُمِرَ، فَاسْتَقْبَلَهُ فَرَسٌ مِنَ النَّارِ، فَرَكِبَ عَلَيْهِ، فَانْطَلَقَ الْفَرَسُ بِهِ إِلَى جَانِبِ السَّمَاءِ، فَناداه الْيَسَعُ، مَا تَأْمُرُنِي، فَأَلْقَى كِسَاءَهُ إِلَيْهِ مِنَ الْجَوْ فَرَفَعَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ، وَقَطَعَ عَنْهُ لَذَّةَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ، وَكِسَاءَ الرِّيشِ<sup>٧</sup>.

وقيل: إِنَّهُ فِي الْأَرْضِ غَائِبٌ عَنِ الْإِنْظَارِ كَالْخَضِرِ، وَهُمَا آخِرُ مَنْ يَمُوتُ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَإِبْرَاهِيمُ مُوَكَّلٌ بِالصَّحَارَى، وَالْخَضِرُ مُوَكَّلٌ بِالْبَحَارِ<sup>٨</sup>.

وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ \* إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ \* إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ \* ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ \* وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ \* وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ [١٣٨-١٣٣]

نصه لوط عليه السلام ثُمَّ ذَكَرَ سَبْحَانَهُ لُطْفَهُ بِلُوطَ، وَغَضَبَهُ عَلَى أَعْدَائِهِ وَقَوْمِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إِلَى أَهْلِ سَدُومَ، وَادَّكَرَ يَا مُحَمَّدَ ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ وَعِيَالَهُ

١. تفسير الصافي ٤: ٢٨٢، تفسير روح البيان ٧: ٤٨٢.  
٢. تفسير الصافي ٤: ٢٨٢، تفسير أبي السعود ٧: ٢٠٤.  
٣. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٢، تفسير أبي السعود ٧: ٢٠٤.  
٤. جوامع الجامع: ٤٠١.  
٥. الاحتجاج: ٢٥٣، تفسير الصافي ٤: ٢٨٢.  
٦. معاني الأخبار: ٢/١٢٢، تفسير الصافي ٤: ٢٨١.  
٧. تفسير روح البيان ٧: ٤٨٣.  
٨. تفسير روح البيان ٧: ٤٨٣.

﴿أَجْمَعِينَ﴾ من العذاب ﴿إِلَّا﴾ امرأة ﴿عَجُوزًا﴾ مُسِنَّةٌ، قَدَرْنَا أَنْ تَكُونَ ﴿فِي الْفَافِرِينَ﴾ والباقي في العذاب والهلاك، أو في الماضين والهالكين ﴿ثُمَّ﴾ بعد انجانهم ﴿دَمَّرْنَا﴾ وأهلكنا بالعذاب ﴿الْآخِرِينَ﴾ من قومه بكفرهم وطغيانهم ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة والله ﴿لَتَمُوتُونَ﴾ في أسفاركم إلى الشام ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وعلى ديارهم المخروبة ومنازلهم المنهدمة حال كونهم ﴿مُضْطَجِعِينَ وَ﴾ مُتَلَسِّسِينَ ﴿بِالْإِلِيلِ﴾ قيل: إن المراد تعميم الأوقات يعني ليلاً ونهاراً<sup>١</sup> ﴿أ﴾ تشهدون ذلك ﴿فَلَا تَغْفُلُونَ﴾ ولا تدركون أنهم كانوا مثلكم في الكفر والعصيان؟ فتخافوا أن ينزل بكم ما نزل بهم، وأن يُصيبكم مثل ما أصابكم من العذاب.

عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية فقال: «تَمُوتُونَ عليهم في القرآن إذا قرأتم القرآن تقرأون ما قص الله عليكم من خبرهم»<sup>٢</sup>.

وَإِنْ يُؤْتَسَ لِمَنْ الْمُرْسَلِينَ \* إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ \* فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ \* فَالْتَقَمَهُ الْحَوْثُ وَهُوَ مُلِيمٌ \* فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ \* لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ \* فَتَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ \* وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ \* وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ \* فَاْمْتَنَوْا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ [١٣٩-١٤٨]

قصة يونس بن متى عليه السلام ثم ذكر سبحانه قصة يونس بن متى بقوله: ﴿وَإِنْ يُؤْتَسَ﴾ بن متى، الملقب بذي النون من أولاد هود على ما قيل<sup>٣</sup> ﴿لِمَنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ من الله إلى بقية قوم ثمود بني نوى من بلاد الموصل على ما قيل<sup>٤</sup>، وعن ابن عباس: أنه كان يسكن فلسطين<sup>٥</sup>. واذكر يا محمد ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ وهرب يونس من قومه خجلاً أو خوفاً من أن يظنوه كاذباً في وعيده بإهلاكهم بلا انتظار الوحي إلى ناحية البحر، فانتهى ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ والمملوء من الناس والمتاع. روي أنه لما دخل السفينة وتوسط البحر، واحتبست من الجري ووقفت، فقال الملاحون: هنا عبد أبى من سيده، وهذا رسم السفينة إذا كان أبى لا تجري<sup>٦</sup>.

وقيل: إنهم قالوا: إن فيكم عاصياً، وإلا لم يحصل ما نراه من غير ريح ولا سبب ظاهر، وقال التجار:

١. تفسير روح البيان ٧: ٤٨٥.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٤٨٦.

٥. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٤.

٢. الكافي ٨: ٣٤٩/٢٤٩، تفسير الصافي ٤: ٢٨٢.

٤. تفسير روح البيان ٧: ٤٨٦.

٦. تفسير روح البيان ٧: ٤٨٧.



قد جَرَّبْنَا مثْلَ هَذَا، فَاذَا رَأَيْنَا ذَلِكَ نَفْرِغْ، فَمَنْ خَرَجَ اسْمُهُ نَرْمِيهِ فِي الْبَحْرِ، لِأَنَّ غَرَقَ الْوَاحِدَ خَيْرٌ مِنْ غَرَقَ الْكُلِّ<sup>١</sup>.

﴿فَسَاهَمَ﴾ وَأَفْرَعَ أَهْلَ السَّفِينَةِ، أَوْ يُونُسَ مَعَ أَهْلِ الْفُلْكِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ﴿فَكَانَ﴾ يُونُسَ ﴿مِنْ أَلْمُذْخَضِينَ﴾ وَالْمَغْلُوبِينَ بِالْقَرْعَةِ، فَقَالَ يُونُسُ: أَنَا الْعَبْدُ الْآبِقُ، وَأَنَا وَاللَّهِ الْعَاصِي، فَتَلَفَّفَ فِي كِسَانِهِ، وَقَامَ عَلَى رَأْسِ السَّفِينَةِ، فَرَمَى بِنَفْسِهِ فِي الْبَحْرِ<sup>٢</sup>. ﴿فَالْتَقَمَهُ﴾ الْبَحْرُ. وَابْتَلَعَهُ ﴿الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ نَفْسَهُ عَلَى خُرُوجِهِ مِنْ بَيْنِ قَوْمِهِ بِإِذْنٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

عَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام، قَالَ: «إِنَّهُ لَمَّا رَكِبَ مَعَ الْقَوْمِ، فَوَقَفَتْ فِي اللَّجَّةِ، وَاسْتَهَمُوا فَوْقَ السَّهْمِ عَلَى يُونُسَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَمَضَى يُونُسَ إِلَى صَدْرِ السَّفِينَةِ، فَاذَا الْحَوْتُ فَاتِحٌ فَاهُ، فَرَمَى بِنَفْسِهِ»<sup>٣</sup>.

وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: «فَلَمَّا تَوَسَّطُوا الْبَحْرَ، بَعَثَ اللَّهُ حَوْتًا عَظِيمًا، فَحَبَسَ عَلَيْهِمُ السَّفِينَةَ، فَظَنَرَ إِلَيْهِ يُونُسَ، فَفَزِعَ مِنْهُ، وَصَارَ إِلَى مُؤَخَّرِ السَّفِينَةِ، فَدَارَ إِلَيْهِ الْحَوْتُ، فَفَتَحَ فَاهُ، فَخَرَجَ أَهْلُ السَّفِينَةِ فَقَالُوا: فِينَا عَاصٍ، فَتَسَاهَمُوا فَخَرَجَ سَهْمُ يُونُسَ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ فَأَخْرَجُوهُ، وَأَلْقَوْهُ فِي الْبَحْرِ، فَالْتَقَمَهُ الْحَوْتُ، وَمَرَّ بِهِ فِي الْمَاءِ»<sup>٤</sup>.

رَوَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى السَّمَكَةِ: أَتَيْ لَمْ أَجْعَلْهُ لَكَ رِزْقًا، وَلَكِنْ جَعَلْتُ بَطْنَكَ لَهُ وِعَاءً، فَلَا تَكْسِرِي مِنْهُ عَظْمًا، وَلَا تَقْطَعِي مِنْهُ وَصْلًا<sup>٥</sup>.

قِيلَ: فَسَقَلَ بِهِ إِلَى قَرَارِ الْأَرْضَيْنِ حَتَّى سَمِعَ تَسْبِيحَ الْحَصَى<sup>٦</sup>، فَمَكَثَ فِي بَطْنِهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً<sup>٧</sup>. وَقِيلَ: شَهْرًا، وَقِيلَ: عَشْرِينَ يَوْمًا. وَقِيلَ: سَبْعَةَ أَيَّامٍ. وَقِيلَ: ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ<sup>٨</sup>. وَكَانَ يَسْبِّحُ اللَّهَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا بِالتَّسْبِيحِ، أَوْ مِنَ الْقَانِمِينَ بِحَقِّهِ اللَّهُ قَبْلَ الْبَلَاءِ ﴿لَلْبَيْتِ﴾ وَمَكَثَ حَيًّا أَوْ مَيِّتًا ﴿فِي﴾ جَوْفِ الْحَوْتُ وَ﴿بَطْنِهِ﴾ مِنْ حِينَ دَخُولِهِ فِيهِ ﴿إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾ مِنَ الْقُبُورِ لِلْحِسَابِ وَجِزَاءِ الْأَعْمَالِ، أَمَّا بِبَقَائِهِمَا حَيِّينَ أَوْ مَيِّتِينَ فَيَكُونُ بَطْنُ الْحَوْتُ قَبْرَ يُونُسَ، وَلَكِنْ لَمْ يَلْبَثْ لِكَوْنِهِ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ، وَفِيهِ الْحَقُّ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ.

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٤، تفسير روح البيان ٧: ٤٨٧.

٢. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٥، تفسير روح البيان ٧: ٤٨٧.

٣. من لا يحضره الفقيه ٣: ١٧٣/٥١، تفسير الصافي ٤: ٢٨٣.

٤. تفسير القمي ١: ٣١٨، تفسير الصافي ٤: ٢٨٣. ٥. تفسير روح البيان ٧: ٤٨٧.

٦. تفسير أبي السعود ٧: ٢٠٦، تفسير روح البيان ٧: ٤٨٧. ٧. تفسير روح البيان ٧: ٤٨٧.

٨. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٥.

رُوي عن ابن عباس أن السمكة أخرجته إلى نيل مصر، ثم إلى بحر فارس، ثم إلى بحر البطائح، ثم إلى دجلة<sup>١</sup>.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أَنَّ الحوت قد طاف به في أقطار الأرض والبحار، ومَرَّ بقارون<sup>٢</sup>.  
عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «يَسْجَحُ يونس في بطن الحوت، فَسَمِعَتِ الملائكة تسيحه، فقالوا: رَبَّنَا إِنَّا  
نسمع صوتاً ضعيفاً بأرضٍ غريبة؟ فقال: ذلك عبدي يونس، عصاني فحبسته في بطن الحوت في  
البحر، فقالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك [أمنه] في كلِّ يومٍ وليلةٍ عمل صالح؟ فقال: نعم،  
فشفعوا له، فأمر الحوت فقدمه في الساحل، فذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿فَتَبَيَّنَتْنَا﴾<sup>٣</sup>. وألقيناه  
﴿بِالْقَرَاءِ﴾ والمكان الخالي من الشجر والنبات ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ وعليلٌ لضعف بدنه، حيث إنَّه صار  
كالقَرْخ المتوفٍ لا لحم له ولا شعر. قيل: سقيم بمعنى سلب<sup>٤</sup>. قيل: ألقاه الحوت بأرض نصيبين<sup>٥</sup>  
﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ وقرعٌ لثظله من الشمس، وتمنع بدنه من الدُّباب، فإنَّه على ما قيل  
لا يقع عليه الدُّباب<sup>٦</sup>. وكان يأكل من ثمرها حتى تشدَّد.

رُوي أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله: إِنَّكَ تُحِبُّ الْقَرْخَ؟ قال: «بلى، هي شجرة أخِي يونس»<sup>٧</sup>.  
عن الباقر عليه السلام، قال: «لَبِثَ يونس في بطن الحوت ثلاثة أيام - إلى أن قال -: فأخرجه الحوت وألقاه  
بالساحل، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين - وهو القَرْخ - فكان يَمْصُه ويستظلُّ به وبورقه، وكان  
تساقط شعره، ورقُّ جلده»<sup>٨</sup>.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «فأمر الحوت أن يلفظه على ساحل البحر، وقد ذهب جلده ولحمه،  
وأنبت الله عليه شجرة من يقطين - وهي الدُّباء - فأظلمت من الشمس فسكن، ثم أمر الله الشجرة  
فتنحَّت عنه، ووقعت الشمس عليه فجزع، فأوحى الله إليه: يا يونس، لم ترحم مائة ألف أو يزيدون،  
وأنت تَجْزَعُ من ألم ساعة! قال: رَبِّ عَفْوكَ عَفْوكَ، فردَّ الله عليه بدنه»<sup>٩</sup>.

وعن الباقر عليه السلام - في رواية -: «فلَمَّا قَوِيَ وأشدَّتْ بعث الله دودةً فأكلت أسفل القَرْخِ، فَذَبَلَتِ القرعة،  
ثم يَبَسَتْ، فَشَقَّ ذلك على يونس، فظَلَّ حزيناً، ثم أوحى الله إليه مالك حزيناً يا يونس؟ قال: يا رب  
هذه الشجرة التي كانت تنفعني، فسَلَطْتُ عليها دودةً فَيَبَسَتْ. قال: يا يونس، أَحْزَنْتَ لشجرة لم

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٥.

٢. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٦.

٣. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٥، تفسير روح البيان ٧: ٤٨٨.

٤. تفسير البضاوي ٢: ٣٠٢، تفسير روح البيان ٧: ٤٨٩.

٥. تفسير روح البيان ٧: ٤٨٨.

٦. تفسير البضاوي ٢: ٣٠٢، تفسير أبي السعود ٧: ٢٠٦، تفسير روح البيان ٧: ٤٨٩.

٧. تفسير القمي ١: ٣١٩، تفسير الصافي ٤: ٢٨٤.

٨. تفسير القمي ١: ٣١٩، تفسير الصافي ٤: ٢٨٤.

تزرعها، ولم تَشْقِها، ولم تُعْرَ¹ بها أن يَبْسِت حين استغنيَتْ عنها، ولم تحزن لأهل نينوى، أكثر من مائة ألف أردت أن ينزل عليهم العذاب»².

وقيل: إنَّ اليقطين كلَّ شجرة لا تقوم على ساق، وتحتد على وجه الأرض كالذُّبَاء والخَنْظَل والبَطِيخ³ وقيل: إنه قيل عند ابن عباس هو ورق القَرْع. فقال: ومن جعل القَرْع بين الشجر يقطيناً؟ كلَّ ورقة اتسعت وسترَتْ فهي يقطين⁴.

وقال: أنبت الله عليه شجرة من يقطين، فكان يستظل بها، يأكل من ثمرها حتى تشدَّ، ثم إنَّ الأرضة أكلتها، فخرت من أصلها، فحزن يونس لذلك حزناً شديداً، فقال: يا رب كنت استظل تحت هذه الشجرة من الشمس والريح، وأئص من ثمرها، وقد سقطت؟ فقيل له: يا يونس، تحزن على شجرة أنبتت في ساعة، وقُلِعت في ساعة، ولا تحزن على مائة ألف أو يزيدون تركتهم، فانطلق إليهم⁵.

وفي الرواية الباقية ط «قال الله تعالى: إنَّ أهل نينوى آمنوا واتَّقوا، فارجع إليهم»⁶. كما قال سبحانه: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ﴾ ثانياً إلى قومه الذين خرج من بينهم، وكان عددهم بالغاً ﴿إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ﴾ نفس ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ على مائة ألف بثلاثين ألف، كما عن الصادق عليه السلام⁷، أو بعشرين ألف في نظر الرازي وتقديره⁸.

قيل: إنَّ المراد إرساله فيهم قبل التقامه الحوت حيث إنه أخبر أولاً بأنَّه من المرسلين، والواو لمطلق الجمع⁹، وذكره بعد قصة هربه وما بعده، للدلالة على مقدار من أرسل إليهم عدداً. وقيل: إنه لم يكن قبل التقامه الحوت نبياً، وكانت رسالته بعده¹⁰.

عن ابن عباس، قال: إنه كان يسكن مع قومه فلسطين، فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفاً، وبقي سبطان ونصف، وكان الله أوحى إلى بني إسرائيل: إذا سركم عدوكم أو أصابتكم مُصيبة، فادعوني استجب لكم. فلما نسوا ذلك وأسروا، أوحى تعالى بعد حين إلى نبي من أنبيائهم: أذهب إلى ملك هؤلاء الأقوام وقل له حتَّى يبعث إلى بني إسرائيل نبياً. فاختار يونس [لقوته] وأمانته. قال يونس: الله أمرك بهذا؟ قال: لا، ولكن أمرت أن أبعث قوياً أميناً وأنت كذلك. فقال

١. في تفسير القمي: تعي.  
٢. تفسير القمي ١: ٣١٩، تفسير الصافي ٤: ٢٨٤.  
٣. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٦، تفسير أبي السعود ٧: ٢٠٦.  
٤. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٦.  
٥. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٥.  
٦. تفسير القمي ١: ٣٢٠، تفسير الصافي ٤: ٢٨٥.  
٧. تفسير الصافي ٤: ٢٨٤.  
٨. تفسير روح البيان ٧: ٤٨٩.  
٩. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٣.  
١٠. تفسير القمي ١: ٣١٩، تفسير الصافي ٤: ٢٨٤.

٣١٨..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٥

يونس: وفي بني إسرائيل من هو أقوى مِنِّي، فلم لا تبعته؟ فالتَّحَ المَلِكُ عليه، فَعَضِبَ يونس منه، وخرج حتَّى أتى بحر الروم، ووجد سفينة مشحونة<sup>١</sup>. وذكر قصة الحوت، قال: كانت رسالته بعد ما نبذه الحوت<sup>٢</sup>.

أقول: هذا مخالف لرواياتنا.

رُوي أنَّ يونس خرج من العراء ومَرَّ بجانب نينوى، فرأى هناك غلاماً يرعى، فقال له: من أنت يا غلام؟ فقال: من قوم يونس. قال: فإذا رجعت إليهم فاقراً عليهم مِنِّي السلام، وأخبرهم أنَّك لقيت يونس ورأيتَه. فقال الغلام: إن تكن يونس [فقد] تعلم أنَّ من يحدث ولم تكن له بينةً قتلوه، وكان في شريعتهُم أنَّ من كَذَب قُتِل، فمن يشهد لي؟ فقال له يونس: تشهد لك هذه الشجرة وهذه البقعة. فقال الغلام ليونس: مُرهما بذلك؟ فقال: إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له. قالتا: نعم. فرجع الغلام إلى قومه، فأتى المَلِك، فقال: إني لقيت يونس، وهو يقرأ عليكم السلام، فأمر المَلِك أن يُقتَلَ. فقال: إن لي بينةً. فأرسل معه جماعة، فانتهوا إلى الشجرة والبقعة. فقال لهما الغلام: أشدكما الله عزَّ وجلَّ هل أشهدكما يونس؟ قالتا: نعم. فرجع القوم مذعورين، فأتوا المَلِك فحدَّثوه بما رأوا، فتناول المَلِك يد الغلام فأجلسه في منزله، وقال له: أنت أحقُّ مِنِّي بهذا المقام والمَلِك؟ فأقام بهم الغلام أربعين سنة<sup>٣</sup>. وعن الباقر (عليه السلام) - في رواية - «فانطلق يونس إلى قومه، فلَمَّا دنا من نينوى، استحيى أن يدخل، فقال لراعي لقيه: إئت أهل نينوا فقل لهم: إنَّ هذا يونس قد جاء. فقال الراعي: أتكذب، أما تستحي ويونس قد عَرِقَ في البحر وذهب؟ قال يونس: اللهمَّ إنَّ هذه الشاة تشهد لك أنَّي يونس. وأنطقت الشاة له بأنَّه يونس، فلما أتى الراعي وأخبرهم أخذوه وهموا بضربه. فقال: إن لي بينةً أقول. قالوا: فمن يشهد لك؟ قال: هذه الشاة تشهد. فشَهِدَتْ بأنَّه صادق وأن يونس قد ردَّه الله إليكم. فخرجوا يَطْلُبُونَه، فوجدوه فجاءوا به ﴿فَأَمْتُوا﴾ بيونس بعد رجوعه إليهم وحسن إيمانهم» كما عن الباقر (عليه السلام)<sup>٤</sup>.

وروي بعض العامة أنَّ قومه آمنوا فسألوه أن يرجع إليهم فابى يونس، لأنَّ النبي إذا هاجر لم يرجع إليهم مقيماً فيهم<sup>٥</sup>.

وقيل: إنَّ المراد فأمَّنوا بالله بعد مشاهدتهم آثار نزول العذاب<sup>٦</sup>، وتابوا من الشرك والعصيان ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ﴾ ونفعناهم بالحياة الدنيا ونعمها ﴿إِلَى حِينٍ﴾ قَدَرْنَاهُ لهم، والوقت الذي جعلناه أجلاً

٢. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٦.

٤. تفسير القمي ١: ٣٢٠، تفسير الصافي ٤: ٢٨٥.

٦. تفسير أبي السعود ٧: ٢٠٦، تفسير روح البيان ٧: ٤٨٩.

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٤.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٤٨٩.

٥. تفسير روح البيان ٧: ٤٩٠.

لكل واحد منهم، وإنما آخر سبحانه قصة يونس، لأن في قصص سائر الأنبياء ترغيب إلى الصبر وتحمل الأذى، وفي قصته تهديد على قلة الصبر، والترغيب مقدم على التهيب، كذا قيل<sup>١</sup>.

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُتُونَ \* أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ

شَاهِدُونَ [١٤٩ و ١٥٠]

ثم لما ذكر سبحانه أدلة التوحيد والمعاد، ووصف ذاته المقدسة بنعوت الكمال وغاية العظمة والجلال والتفرد بالخلق والربوبية، ونح قريشاً وبني ثعلبة وجهينة وخزاعة وبني سلمة القائلين بأن الملائكة بنات الله بقوله: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ يا محمد واستطلع رأيهم على سبيل التوبيخ والتجھيل ﴿أَلِرَبِّكَ﴾ الخالق لجميع الموجودات الغني عن الكائنات ﴿الْبَنَاتُ﴾ من الأولاد مع استنكافهم منهم بحيث يقتلونهم إذا ولدن لهم أو يدفنونهن أحياء ﴿وَلَهُمُ الْبُتُونَ﴾ الذين هم أرفع الأولاد بحيث يفخرون بهم؟! لا يمكن ذلك أبداً، فإن الخالق لا يختار لنفسه الأحسن، ولمخلوقاته الأرفع. قيل: إنهم قالوا: إن الله تعالى تزوج من الجن، فخرجت منها الملائكة، فهم بنات الله، لذا شترن من العيون<sup>٢</sup>.

ثم بالغ سبحانه في توبيخهم وتبكيتهم بقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ﴾ الذين هم أشرف الموجودات وأبعدهم من الصفات الجسمانية والذات الطبيعية ﴿إِنَاثًا﴾ مع أن الأنوثة من خسائس صفات البشرية ﴿وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ أنوثتهم، فإن الحكم بأنوثة حيوان لا يمكن إلا بالمشاهدة، لعدم الطريق للعقل إلى ذلك الأمور الجزئية، وعدم نقل ممن شاهد الملائكة كالأنبياء والرسل، مع أنهم ينكرون رسالة البشر.

أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ \* وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ \* أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى

الْبَنِينَ \* مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ \* أَفَلَا تَذَكَّرُونَ \* أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ \*

فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ [١٥١-١٥٧]

ثم أن الأقبح من إسناد الأنوثة إلى الملائكة إسناد الولادة إلى الله الخالق لجميع الموجودات الغني عن الكائنات، ولذا أعلن في العالم بغاية جهالتهم بقوله: ﴿أَلَا﴾ تنبهوا أيها العقلاء ﴿إِنَّهُمْ مِّنْ﴾ أجل

١. تفسير الرازي ٢٦: ٢٦٣، تفسير روح البيان ٧: ٤٩١.

٢. تفسير روح البيان ٧: ٤٩١.

﴿إِنْكِهِمْ﴾ وتوَعَّلهم في الباطل، وجرحهم على أسوأ الكذب وأقبح الافتراء ﴿لَيَقُولُونَ﴾ ما تَشْهَد العقول على بطلانه وفساده، وهو قولهم: إِنَّهُ ﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾ الملائكة ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَادِبُونَ﴾ في قولهم كذباً لا يَشْك فيه ذو مُسْكَ، لوضوح أَنَّ الولادة من خصائص الجسمانيات، والله خالق جميع الأجسام وغيرها من الموجودات، مع أَنَّ طلب الولد من لوازم الحاجة، والله تعالى هو الغني المطلق له ما في السماوات والأرض.

ثم على فرض المحال إمكان الولادة منه تعالى ﴿أَصْطَقَى﴾ وهل اختار لنفسه ﴿الْبَنَاتِ﴾ التي هي أحسن الأولاد ﴿عَلَى الْبَنِينَ﴾ الذين هم أكمل الأولاد، مع أَنَّهُ تعالى أكمل الموجودات، ولا يمكن للأكمل أن يختار لنفسه إلا الأكمل ﴿مَا لَكُمْ﴾ أَيُّهَا الْجَهَالُ ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ على الله القادر على كُلِّ شيء الغني عن كُلِّ شيء بهذا الحكم الذي تحكم ببطلانه بديهية العقل، ويتنفر منه جميع العقلاء؟ ﴿أَمْ﴾ تقولون ذلك القول ﴿فَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ولا تفهمون شناعته، ولا تتنبهون بنهاية قَبَاحته؟! أَتَدْعُونَ أَنُوثَةَ الملائكة بهوى أنفسكم، أو بتقليد آبائكم وكبرائكم ﴿أَمْ لَكُمْ﴾ على هذه الدعوى ﴿سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ وَحُجَّةٌ واضحة، ودليل قاطع من أخبار نبي أو كتاب مُنْزَل عليكم من السماء، فيه بيان صفات الملائكة؟! فان نزل عليكم كتاب ﴿فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ الناطق بصحة دعواكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تَدْعُونَ من كون الملائكة إناثاً، وفي نزول الكتاب إليكم.

وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ \* سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ \* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ [١٥٨ - ١٦٠]

ثم أَنَّ جمعاً من الزنادقة<sup>١</sup> كانوا قائلين على ما قيل بأنَّ الشيطان أخ الله، فالله تعالى خالق الخير، والشيطان خالق الشر<sup>٢</sup>. فوبَّخهم الله سبحانه على هذا القول بقوله: ﴿وَجَعَلُوا﴾ بهوى أنفسهم ﴿بَيْنَهُ﴾ تعالى ﴿وَبَيْنَ الْجَنَّةِ﴾ والشرطين ﴿نَسَبًا﴾ خاصاً، وهو القرابة بالأخوة. وقيل: إِنَّ المراد بالجنة جماعة الجن<sup>٣</sup>، وبالنسب المصاهرة والمزاوجة، كما مرَّ حكايته عن بعض المشركين. قيل: إِنَّ كفار قريش لما قالوا: الملائكة بنات الله. قال أبو بكر: فمن أمهاتهم؟ قالوا: سَرَوَات

١. وهم المجوس القائلون بيزدان وأهرمن، كما في تفسير الرازي.

٢. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٨، تفسير أبي السعود ٧: ٢٠٨.

٣. في النسخة: بالجنة الأجنة، وما أثبتناه من تفسير روح البيان، ذلك لأن الأجنة جمع جنين، اما الجن فهي اسم جنس يدل على الجمع، وواحدته جني. تفسير روح البيان ٧: ٤٩٢.

الجن<sup>١</sup>.

وقيل: إن المراد بالجنة الملائكة، لاجتماعهم واختفائهم عن الأبصار<sup>٢</sup>، والنسب الولادة حيث قالوا: إن الملائكة بنات الله.

ثم ردهم الله بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْإِجْتَهُ﴾ بالمعنى الأول والثاني ﴿إِنَّهُمْ﴾ أنفسهم ﴿لَمْ حَضَرُونَ﴾ في النار، والمعدبون فيها، ولو كان الشياطين أخوة الله أو الجن<sup>٣</sup> أزواجه ما أحضروا في النار، وعلى الوجه الثالث يكون مرجع ضمير الجمع القائلون بكون الملائكة بنات الله، ثم نزه سبحانه ذاته المقدسة عن تلك النسب القبيحة غير اللائقة بالآلوهية بقوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ وتزّه واجب الوجود ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ به وينسبون إليه من الولد والأخ والزوج.

وقيل: إن التسييح من الملائكة، والمراد: ولقد علمت الملائكة أن المشركين لمحضرون، وقالوا: سبحانه الله عما يصفون<sup>٤</sup>. ثم استثنوا أنفسهم عن أولئك الواصفين بقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ والمعنى: ولكن عباد الله المخلصين الذين نحن منهم براء من ذلك التوصيف، بل نصفه بالصفات العليا، وعلى كونه كلام الله يكون المعنى: ولكن عباد الله المخلصين لا يصفونه بتلك الصفات.

وقيل: إن الاستثناء راجع إلى ضمير الجمع في (محضرون) والمعنى لكن عباد الله المخلصين لا يحضرون، بل هم ناجون<sup>٥</sup>.

وقيل: إن الاستثناء من معنى ضمير الجمع في قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾<sup>٦</sup> والأقرب هو الوجه الثاني.

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ \* مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ \* إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ \* وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ [١٦٤-١٦١]

ثم عاد سبحانه إلى خطاب المشركين، ونههم بأن إضلالهم الناس لا أثر له إلا فيمن قدر الله دخوله في النار بقوله: ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ من دون الله من الأصنام وغيرها ﴿مَا أَنْتُمْ﴾ بتوصيفكم الله بصفات غير لائقة بجنابه ﴿عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾ ومضلّين أحداً من الناس ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ﴾ في علم الله وتقديره ﴿صَالٍ الْجَحِيمِ﴾ وملق نفسه فيها في الآخرة لحبث ذاته وسوء اختياره وزدالة

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٨، تفسير أبي السعود ٧: ٢٠٩.

٢. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٨، تفسير روح البيان ٧: ٤٩٣.

٣. تفسير أبي السعود ٧: ٢٠٩، تفسير روح البيان ٧: ٤٩٤.

٤. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٩.

٣. في النسخة: أو الأجنة.

٥. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٩.

صفاته.

قيل: إن كلمة (الواو) في قوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ بمعنى مع، والجملة خبر كلمة (إن) <sup>١</sup> والمعنى: إنكم دائماً مع ما تعبدون لا تفارقونه ولا تتزكون عبادته أبداً، وإن ضمير (عليه) راجع إلى كلمة (ما) في (وما تعبدون) والمعنى: ما أنتم أيها المشركون على ما تعبدون بغاتين وبباعثين وحاملين على طريق الفتنة والاضلال إلا من هو صال الجحيم مثلكم <sup>٢</sup>.

ثم رَدَّ الله سبحانه القائلين بكون الملائكة بنات الله بما يُظهر الملائكة المقربون في مقام العبودية والانقياد للخدمة من قولهم: ﴿وَمَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا﴾ ويكون ﴿لَهُ مَقَامٌ﴾ وشغل معين في إصلاح العالم، وعبادة موطئة كلها ﴿مَعْلُومٌ﴾ لنا لا نقدر أن نتجاوز ولا نستطيع أن ننزل منه خضوعاً لعظمة الله، وخشوعاً لهيبته وتواضعاً لجلاله.

رُوي أن منهم راکعاً لا يقيم صُلبه، وساجداً لا يرفع رأسه <sup>٣</sup>. وعن ابن عباس: ما في السماوات موضع شبر إلا وعليه ملك يُصلي ويُسبح <sup>٤</sup>.

وَأِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ \* وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ \* وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ \* لَوْ أَنَّ  
عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ \* لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ \* فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ  
يَعْلَمُونَ [١٦٥-١٧٠]

ثم بينوا قيامهم للخدمة بقولهم: ﴿وَأِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ لأداء الطاعة والاشتغال بالخدمة ﴿وَأِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ لله، ومنزهونه عن الشريك والولد، وسائر ما لا يليق بمقام ربوبيته ووجوب وجوده. قال بعض العامة: الأول إشارة إلى درجاتهم في الطاعة، والثاني إلى درجاتهم في المعرفة <sup>٥</sup>. وعن (نهج البلاغة) في وصف الملائكة: «صافون لا يتزايلون، مسبحون لا يشأمون» <sup>٦</sup>.

القمي عليه السلام: قال جبرئيل: ﴿وَأِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ \* وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ <sup>٧</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: «كنا أنواراً صفوفاً حول العرش، نسبح فيسبح أهل السماء بتسبيحنا، إلى أن هبطنا إلى الأرض فسبحنا، فسبح أهل الأرض بتسبيحنا ﴿وَأِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ \* وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾» <sup>٨</sup>.

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٩.

٢. تفسير الرازي ٢٦: ١٦٩.

٣. تفسير روح البيان ٧: ٤٩٥.

٤. تفسير روح البيان ٧: ٤٩٥.

٥. تفسير البيضاوي ٢: ٣٠٤، تفسير الصافي ٤: ٢٨٦.

٦. نهج البلاغة: ٤١، تفسير الصافي ٤: ٢٨٦.

٧. تفسير القمي ٢: ٢٢٧، تفسير الصافي ٤: ٢٨٦.

٨. تفسير القمي ٢: ٢٢٨، تفسير الصافي ٤: ٢٨٦.



قيل: إن في قولهم ﴿إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ \* وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ دلالة على حَضَر الصَّف في العبادة، والتسبيح بهم، فدلَّ على أنَّ عبادة غيرهم من الثقلين وتسبيحهم بالنسبة إلى عبادتهم وتسبيحهم كالعدم<sup>١</sup>.

وإن كان تأويله في الأئمة عليهم السلام يدلَّ على أنَّ عباده الملائكة وتسبيحهم في جنب عبادتهم وتسبيحهم كالعدم، أو المراد العبادة الاستقلالية والأولية لا التبعية.

ثم وَبَحَّ سبحانه المشركين بخلفهم ونقضهم العهد بقوله: ﴿وَإِنْ كَانُوا﴾ قبل بعثه النبي صلى الله عليه وآله ونزول القرآن ﴿لَيَقُولُونَ﴾ اعتذاراً عن شركهم وتقليد آبائهم ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا﴾ وكتاباً ﴿مِنْ﴾ كتب الأمم ﴿الْأُولَى﴾ كالنوراة والإنجيل ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ والموحدين الخالصين، ولما خالفنا كتابنا كما خالفت الأمم كتبهم، ولما لم ينزل علينا كتاب ناطق بالتوحيد وبطلان عبادة الأصنام، قلدنا آباءنا الأقدمين، وقلنا بما قالوا. فلما جاءهم ذِكرُ هو سيد الأذكار، وكتاب مهيمٌ على سائر الكتب متضمنٌ للتوحيد والمعارف والحكم والأحكام ودلائل الصدق ﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾ وأنكروا صدقه، ونسبوه إلى الشعر والسحر والكيهانة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وخامة عاقبة كفرهم وسوء نتيجه، وهو الخذلان والقتل والأسر في الدنيا، والعذاب الأليم الدائم في الآخرة.

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ \* إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ \* وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ \* فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ \* وَأَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ يُنْصَرُونَ [١٧٥-١٧١]

ثم أنَّ الله تبارك وتعالى بعد تهديد الكفار والمشركين بالخذلان والعذاب، ذكر نُصْرته لانبياؤه عليهم السلام بقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ﴾ والله لقد تقدَّمت في الأزل، أو في اللوح المحفوظ ﴿كَلِمَتُنَا﴾ ووعدنا ﴿لِعِبَادِنَا﴾ الخالصين وأنبيائنا ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى الناس لهدايتهم ودعوتهم إلى التوحيد، ومعرفة الله بصفات الكمال والجلال، وتلك الكلمة وذلك الوعد هو قولنا: ﴿إِنَّهُمْ﴾ فقط ﴿لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ من قِبَلنا في الدنيا والآخرة على مخالفتهم ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا﴾ وعسكرنا، وهم المرسلون وأتباعهم الذين يحامون عن ديننا وكتبنا ﴿لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ على أعدائهم بالمال، وإن فُرِضَت الجولة والدولة لغيرهم في بُرْهة من الزمان، وأما الْعَلَبَةُ بِالْحُجَّةِ فهي لهم في جميع الأزمان والأوان، ولا يكون لغيرهم ولو في آن.

ثم أنَّ الله تبارك وتعالى بعد تقوية قلب نبيه صلى الله عليه وآله بالنُصرة، أمره بترك مقاتلة أعدائه بقوله: ﴿فَتَوَلَّ﴾

٣٢٤..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٥

يا محمد، عن المشركين المعاندين، وأعرض **«عَنْهُمْ»** واصبر على أذاهم، ولا تقاثلهم **«حَتَّى جِئِينَ»** ووقت معين نأمرك فيه بقتالهم قيل: هو يوم بدر، وقيل: يوم الفتح<sup>١</sup>، **«وَأَبْصِرْهُمْ»** في ذلك الوقت، أو في الحال على أسوأ حال وأقطع نكالٍ حلَّ بهم من القتل والأسر والأمر بالإبصار في الحال للإيدان بقربه، كأنه بين يديه يُبصره في الوقت **«فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ»** وعن قريب يُعابنون ما يحلُّ بهم من الشرور.

أَفِعْذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ \* فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ \* وَتَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّى جِئِينَ \* وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ [١٧٦ - ١٧٩]

ثم لما كان في الآية تهديد المشركين بالعذاب، كانوا يقولون استهزاءً به: متى ينزل ذلك العذاب؟ أنكر الله سبحانه عليهم استعجالهم الناشيء عن الجهل بقوله: **«أَفِعْذَابِنَا»** المستأصل لهم **«يَسْتَعْجِلُونَ»** لا والله لا ينبغي الاستعجال به فأنه جهلٌ وسفاهةٌ **«فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ»** وحلَّ بفنائهم ذلك العذاب الموعود كالجيش المُغير على قومٍ **«فَسَاءَ»** وبس **«صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ»** بالعذاب. قيل: إن الإغارة لما كثرت من العرب في الصباح، كنى بالصباح<sup>٢</sup> عن وقت الإغارة، وإن كان نزول البلاء والشدة أي وقت كان<sup>٣</sup>.

ثم أنه تبارك وتعالى بعد تهديد الكفار بالعذاب، وكان فيه تقوية قلب النبي ﷺ في معارضة القوم، أكد سبحانه الأمر بالتوكل والإعراض عنهم إلى زمان نزول العذاب، أو نزول الأمر بقتالهم بقوله: **«وَتَوَلَّى»** يا محمد وأعرض **«عَنْهُمْ»** ولا تقدم على قتالهم **«حَتَّى جِئِينَ»** وإلى وقتٍ معلومٍ **«وَأَبْصِرْ»** ما يفعل بهم **«فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ»** وعن قريب يرون ما يوعدون، وفي إعادته غاية التهديد والتهويل.

وقيل: إن المراد من هذا الكلام فيما تقدم أحوال الدنيا، وهنا أحوال الآخرة<sup>٤</sup>.

القمي رحمه الله: **«فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ»** يعني العذاب إذا نزل ببني أمية وأتباعهم في آخر الزمان، قوله: **«فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ»** قال: أبصروا حين لا ينفعهم البصر. قال: فهذه في أهل الشبهات والضلالات من أهل القبلية<sup>٥</sup>.

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٧٢، تفسير الصافي ٤: ٢٨٧. ٢. في النسخة: الصباح.

٣. تفسير أبي السعود ٧: ٢١١، تفسير الصافي ٤: ٢٨٨، تفسير روح البيان ٧: ٤٩٩. ٤. تفسير الرازي ٣٦: ١٧٣.

٥. تفسير القمي ٢: ٢٢٧، تفسير الصافي ٤: ٢٨٨.

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ \* وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ \* وَالْحَمْدُ لِلَّهِ  
رَبِّ الْعَالَمِينَ [١٨٠-١٨٢]

ثم أنه تعالى بعد حكاية مقالات المشركين ودفعها، ووعد الرسل بالغلبة والنصرة، وأكد تنزيه ذاته المقدسة عما يقول الظالمون بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾ يا محمد، ونزهه غاية التنزيه، وهو أيضاً ﴿رَبُّ الْعِزَّةِ﴾ والعَلَّة والعظمة ومالكها وصاحبها، فلا عزة إلا له، ولا غلبة إلا منه، فهذا الرب مستحق للتنزيه ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ به أولئك المشركون، وينشئون إليه ممّا لا يليق بساحة كبريائه من الشركاء والأزواج والأولاد، وخلف الوعد بالعذاب على الأعداء والنصرة للأولياء.

ثم أعلن سبحانه بإكرامه لرسله، وإن أهانهم أعداؤهم، بالتسليم على عامتهم من آدم إلى الخاتم بعد التسليم على عدّة من أولى العزم منهم، كنوح وإبراهيم وموسى بقوله: ﴿وَسَلَامٌ﴾ من الله المنبئ بالأمان من جميع المكارة الدنيوية والأخروية، والفوز بجميع المقامات العالية ﴿عَلَى﴾ جميع الأنبياء ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ والمبعوثين من جانب الله لهداية الخلق ونشر الشرائع.

في الحديث: «إِذَا سَلَّمْتُمْ عَلَيَّ فَمَلَأُوا عَلَى الْمُرْسَلِينَ، فَإِنَّمَا أَنَا مِنْهُمْ»<sup>١</sup>.  
وروي عنه ﷺ: «إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَيَّ فَعَمَّوْا»<sup>٢</sup>.

ثم أتبع سبحانه تنزيه ذاته ولطفه وإكرامه بعباده المرسلين، بالثناء الجميل على نفسه بقوله: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على تكميل نعمه على المرسلين، وإفاضته عليهم من فنون الكرامات السنية والكمالات الدينية والدنيوية، وعلى أتباعهم من الآلاء الظاهرية والباطنية الموجبة لحمده.

قيل: إن اختصاص الحمد بذاته دالٌّ على اختصاص جميع الكمالات به، وأنه لا كمال لأحد إلا وهو منه وراجع إليه، وكلّ النعم منه فلا منعم غيره<sup>٣</sup>.

وقيل: في هذه الآية إشارة إلى وصفه بالصفات الثبوتية بعد التنبيه على اتصافه بالصفات السلبية، وإيدان باستثناء الأفعال الجميلة التي منها إكرام الرسل والمؤمنين بهم بأسمى الكرامات، وفيها إشعار بتحقيق النصر والعَلَّة للرسول. وفي الآيات تعليم كيفية تسييحه تبارك وتعالى، والتسليم على الرسل، وتحميده<sup>٤</sup>.

روى بعض العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام: «من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم

٣. تفسير روح البيان ٧: ٥٠٠.

١ و ٢. تفسير روح البيان ٧: ٥٠٠.

٤. تفسير أبي السعود ٧: ٢١٢، تفسير روح البيان ٧: ٥٠٠.

٣٢٦ ..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٥

القيامة، فليكن آخر كلامه من مجلسه: «سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ \* وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ \* وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»<sup>١</sup>.

وفي (الكافي) و(الفقيه) ما يقرب منه<sup>٢</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة الصافات في كل يوم جمعة، لم يزل محفوظاً من كل آفة، مدفوعاً عنه كل بلية في الحياة الدنيا، مرزوقاً في الدنيا بأوسع ما يكون من الرزق، ولم يُصبه في ماله وولده ولا بدنه سوء من الشيطان ولا من جبارٍ عنيدٍ، وإن مات في يوم أو ليلة بعثه الله شهيداً وأماته شهيداً وأدخله الجنة مع الشهداء في درجة من الجنة»<sup>٣</sup>.

وعن الكاظم عليه السلام: «أنها لم تُقرأ عند مكروبٍ من موتٍ إلا عَجَّلَ الله راحته»<sup>٤</sup>.

قد تمّ تفسير السورة المباركة والله الحمد.

---

١. تفسير البيضاوي ٢: ٣٠٥، تفسير أبي السعود ٧: ٢١٢، تفسير روح البيان ٧: ٥٠٠.

٢. الكافي ٢: ٣/٣٦٠، عن الباقر عليه السلام، من لا يحضره الفقيه ١: ٢١٣/٩٥٤، تفسير الصافي ٤: ٢٨٨.

٣. نواب الأعمال: ١١٢، مجمع البيان ٨: ٦٨١، تفسير الصافي ٤: ٢٨٨.

٤. الكافي ٣: ٥/١٢٦، تفسير الصافي ٤: ٢٨٩.

## في تفسير سورة ص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ \* بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ [١ و ٢]

ثم لما خُتِمت سورة الصفات المبدوءة بتعظيم التالين للذكر، وبيان التوحيد والمعاد بالأدلة القاطعة، وتعجب النبي ﷺ من عدم إيمان المشركين بهما، المتضمنة لحكاية مُخاصمة أهل النار بعضهم مع بعض، وذكر مسكن المؤمنين في الآخرة وطعامهم وشرابهم ومنكوحهم، ومسكن المشركين في الآخرة ومأكولهم ومشروبهم، وحكاية ألطاف الله بجماعة من الأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس ولوط ويونس، نُظِمت بعدها سورة ص المبدوءة بتعظيم القرآن بالخلف به، وبيان كونه الذكر، وتعجب المشركين من رسالة محمد ﷺ ودعوته إلى التوحيد، وبيان ألطافه الخاصة بجماعة من الأنبياء كداود وسليمان وأيوب وإبراهيم وبعض آخر منهم، وذكر مسكن المتقين في الآخرة ومأكولهم ومشروبهم، ومسكن أهل النار ومأكولهم ومشروبهم، وحكاية مُخاصمة بعضهم مع بعض، وغير ذلك من المطالب المناسبة للسورة السابقة، فابتدأها على دأبه بقوله تبارك وتعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾:

ثم افتتحها بحرف ﴿ص﴾ من الحروف المقطعة، لجلب توجّه الناس إلى المطالب المهمة التي بعدها، قيل: هو اسمٌ للسورة<sup>١</sup>. وقيل: رمزٌ عن الأسماء الحُسنى التي فيها حرف الصاد كصادق، وصمد، وبصير ونظائرها<sup>٢</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: «أنه اسمٌ من أسماء الله، به أقسم الله»<sup>٣</sup>.

وقيل: إنه رمزٌ عن صدق محمد ﷺ في كل ما أخبر عن الله، وعليه يكون هو المقسم عليه، وكذا على الوجه الأول إذ التقدير بناءً عليه: هذه ص أي السورة المنزلة من الله بطريق الإعجاز<sup>٤</sup>.

٣. مجمع البيان ٨: ٧٢٦، تفسير الصافي ٤: ٢٩٠.

١ و ٢. تفسير الرازي ٢٦: ١٧٤.

٤. تفسير الرازي ٢٦: ١٧٤.

وعن ابن عباس: أَنَّ صَّ كَانَ بَحْرًا [بِمَكَّةَ وَ] كَانَ عَلَيْهِ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، إِذْ لَا لَيْلَ وَلَا نَهَارَ.<sup>١</sup>  
وعن الصادق عليه السلام: «وَأَمَّا صَّ فَعَيْنٌ تَنُتِعُ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ، وَهِيَ الَّتِي تَوْضَأُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْهَا لَمَّا عَرَجَ بِهِ، وَيَدْخُلُهَا جَبْرَائِيلُ كُلَّ يَوْمٍ دَخْلَةً فَيَنْغَمِسُ فِيهَا، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا فَيَنْقُضُ أَجْنَحَتَهُ، فَلَيْسَ مِنْ قَطْرَةٍ تَقَطَّرُ مِنْ أَجْنَحَتِهِ إِلَّا خَلَقَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْهَا مَلَكًا يُسَبِّحُ اللَّهَ وَيُقَدِّسُهُ وَيُكَبِّرُهُ وَيَحْمَدُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»<sup>٢</sup>.

وعنه عليه السلام - في حديث المعراج -: «ثُمَّ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ: ادْنُ مِنْ صَادٍ فَاغْسِلْ مَسَاجِدَكَ وَطَهِّرَهَا، وَصَلِّ لِرَبِّكَ. فَدَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ صَادٍ، وَهُوَ مَاءٌ يَسِيلُ مِنْ سَاقِ الْعَرْشِ الْأَيْمَنِ»<sup>٣</sup>.  
وعن الكاظم عليه السلام - في حديث - أَنَّهُ سُئِلَ مَا صَادُ الَّذِي أُمِرَ أَنْ يَغْتَسِلَ مِنْهُ - يَعْنِي النَّبِيُّ ﷺ - لَمَّا أُسْرِيَ بِهِ؟ فَقَالَ: «عَيْنٌ تَنْفَجِرُ مِنْ رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْعَرْشِ، يُقَالُ لَهَا: مَاءُ الْحَيَاةِ، وَهُوَ مَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ص وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾»<sup>٤</sup> والمواعظ والعبر، فَإِنَّ فِيهِ قَصَصَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَمَمِ. وقيل: يعني ذي الشرف والذكر في السنة الناس إلى يوم القيامة<sup>٥</sup>. وقيل: إِنَّ الْمُقَسَّمِ عَلَيْهِ مَحْذُوفٌ، وَهُوَ إِنَّهُ لِحَقٍّ، وَإِنَّ مُحَمَّدًا لَصَادِقٌ<sup>٦</sup>. ﴿بَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من رؤساء قريش والمُصْرِينَ على مخالفته كانوا من ﴿فِي عِزَّةٍ﴾ وحمية وأتفة عن قبول تبعيته، واستكبار عن الاعتراف بنبوته وتصديق كتابه، ﴿و﴾ في ﴿شِقَاقٍ﴾ بعيد وعداوة شديدة له.

كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مَن قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَوْلَا حِينَ مَنَاصٍ \* وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ [٤ و ٣]

ثُمَّ هَدَّاهُمْ سَبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وكثيراً ما استأصلنا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وفي الأعصار السابقة على عصرهم ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ وأهل عصرٍ واحدٍ بالعذاب على كفرهم والمشاقة مع رسولهم ﴿فَنَادَوا﴾ رَيْبُهُمْ أَوْ أَعْوَانُهُمْ حِينَ نَزَلَ الْعَذَابُ اسْتِغَاثَةً أَوْ تَوْبَةً وَاسْتِغْفَارًا لِّيُنْجُوهُمْ مِنْهُ وَيُعْثُوهُمْ مِنَ الْهَلَاكِ، ﴿و﴾ الْحَالُ أَنَّهُ ﴿لَا تَحِينَ مَنَاصٍ﴾ وليس الوقت وقت الفرار والخلاص.

قيل: إِنَّ قَرِيضًا إِذَا ضَاقتَ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ فِي الْقِتَالِ نَادَوْا: مَنَاصٍ مَنَاصٍ، أَيِ اهْزُبُوا.<sup>٧</sup>  
ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ أَنَّ مِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّهُمْ اسْتَبَعَدُوا ﴿وَعَجِبُوا﴾ مِنْ ﴿أَنْ جَاءَهُمْ﴾ رَسُولٌ ﴿مُنْذِرٌ﴾

٢. معاني الأخبار: ١/٢٢، تفسير الصافي ٤: ٢٩٠.

٤. علل الشرائع: ١/٣٣٥، تفسير الصافي ٤: ٢٩٠.

٦. تفسير البضاوي ٢: ٣٠٦.

١. تفسير روح البيان ٨: ٢.

٣. الكافي ٣: ١/٤٨٥، تفسير الصافي ٤: ٢٩٠.

٥. تفسير الرازي ٢٦: ١٧٥.

٧. تفسير روح البيان ٨: ٤.

يُنذِرهم من عذاب الله، وهو ﴿مِنْهُمْ﴾ وبشر مثلهم يأكل ويمشي بينهم، ولم يتعجبوا من أن تكون المنحوتات آلهة، مع أن الثاني من العجائب لا الأول، فلما رأوا المعجزات الصادرة منه ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا﴾ هو ﴿سَاجِدٌ﴾ فيما يظهره من الخوارق للعادة و﴿كَذَّابٌ﴾ في دعوى الرسالة والتوحيد ونزول الوحي والآيات إليه من السماء، وكون ما يأتي به معجزة أقدره الله عليها للشهادة على صدقه.

أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ \* وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمْسُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ \* مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِمَلَّةِ  
الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ [٥-٧]

ثم استشهدوا على كذبه بآدعائه التوحيد مع بعده في زعمهم بقوله: ﴿أَجْعَلِ﴾ محمد ﴿الْآلِهَةَ﴾ الكثيرة التي تعبدها ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ في زعمه ﴿إِنَّ هَذَا﴾ [أي] الدعوى ﴿لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ وأمر بعيد عن الأذهان لم يقل به أحد من آبائنا الأولين. قيل: إنهم قالوا ثلاثمائة وستين إلها لا تكفي لتنظيم أمور أهل مكة، فكيف ينتظم أمر العالم بآله واحد<sup>١</sup>.

رُوي أنه بعد إسلام حمزة وعمر، جاء أشراف قريش كالوليد بن المغيرة، وأبي سفيان، وأبي جهل وأضرابهم إلى أبي طالب، وقالوا: يا عبد مناف، أنت شيخنا وكبيرنا، قد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء - يعنون المسلمين - فجئنا لتقضي بيننا وبين ابن أخيك. فاستحضر أبو طالب رسول الله ﷺ وقال: يا بن أخي، هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تجل كل الميل على قومك. فقال ﷺ: «ماذا يسألونني؟» فقالوا: ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا، وندعك وإلهك. فقال ﷺ: «أرايتم إن أعطيتكم ما سألتهم، أعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم العجم». قالوا: نعم. قال: «تقولون لا إله إلا الله» فقاموا وقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً<sup>٢</sup>.

﴿وَأَنْطَلَقَ﴾ وذهب ﴿الْمَلَأُ﴾ من قريش والأشراف ﴿مِنْهُمْ﴾ وهم على ما قيل خمسة وعشرون من مجلس أبي طالب<sup>٣</sup> بعد ما شاهدوا تَصَلَّبَ النَّبِيُّ ﷺ في دينه، ويشسوا مما كانوا يرجونه من المصالحة بتوسط أبي طالب، وقال لهم عقبة ابن أبي معيط على ما قيل: ﴿أَنْ آمْسُوا﴾ يا قوم على طريقتكم، وسيروا على مذهبيكم، ولا تكلّموا محمداً بعد، فإنه لا فائدة في مكالمته<sup>٤</sup>. ﴿وَاصْبِرُوا﴾

١. تفسير روح البيان ٨: ٥.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٥، تفسير الرازي ٢٦: ١٧٧، تفسير البيضاوي ٢: ٣٠٧، تفسير أبي السعود ٧: ٢١٥.

٣. تفسير الرازي ٢٦: ١٧٧، تفسير أبي السعود ٧: ٢١٥، تفسير روح البيان ٨: ٥.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٦.

واثبتوا **«عَلَى»** عبادة **«الْإِهْتِكُمْ»** وأصنامكم **«إِنَّ هَذَا»** الصبر والنبات على الدين **«لَشَيْءٍ يُزَادُ»** وأمرٌ يُطَلَّب.

قيل: يعني أن هذا الذي شاهدنا من محمد من أمر التوحيد ونفي آلهتنا لشيء يُراد من جهة إمضائه وإنفاذه لا محالة من غير صارفٍ يلويه ولا عاطفٍ يُثنيه، فاقطعوا أطماعكم عن استنزائه عن رأيه بواسطة أبي طالب وشفاعته، وحشيتكم أن لا تمنعوا عن عبادة آلهتكم بالكلية، فاصبروا عليها، وتحملوا ما تسمعون في حقها من القَدَحِ وشؤء المقال<sup>١</sup>.

وقيل: يعني أن هذا الهتك الذي نراه بآلهتنا، والقدح الذي نسمع فيهم، لأمرٌ يُراد بنا، ومكرٌ يُمكر علينا<sup>٢</sup>، أو المراد أن دينكم لشيءٍ يستحق أن يُطَلَّب، فيكون ترغيباً فيه، وتعليلاً للأمر بالصبر<sup>٣</sup>. أو المراد أن هذا الذي نرى من محمد من المخالفة لديننا، هو شيءٌ يُراد بنا من حوادث الزمان الذي لامناص منه<sup>٤</sup>.

وعن الباقر عليه السلام، قال: «أقبل أبو جهل ومعه قومٌ من قريش، فدخلوا على أبي طالب، فقالوا: إن ابن أخيك قد أذانا وأذى آلهتنا، فادَّعه وأمره أن يكف عن آلهتنا، ونكف عن آلهته. فبعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فدعاه، فلما دخل النبي ﷺ لم ير في البيت إلا مشركاً. فقال: السلام على من أتبع الهدى. ثم جلس، فخبَّره أبو طالب بما جاءوا له. فقال ﷺ: «وهل لهم في كلمةٍ خيَّر لهم من هذا، يسودون بها العرب ويطؤون أعناقهم؟<sup>٥</sup> فقال أبو جهل: نعم، وما هذه الكلمة؟ قال ﷺ: تقولون لا إله إلا الله، فوضعوا أصابعهم في آذانهم، وخرجوا هرباً وهم يقولون: «مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ»<sup>٦</sup>. قيل: أرادوا من المِلَّةِ مِلَّةَ قريش التي أدركوا آبائهم عليها<sup>٧</sup>. وقيل: أرادوا مِلَّةَ النصارى<sup>٨</sup>. **«إِنَّ هَذَا»** القول وما هذه الكلمة **«إِلَّا اخْتِلَاقٌ»** وكذبٌ مخترعٌ من قبل نفسه، ويأطل لا يقول به عاقل، فإنه لو كان حقاً لقال به آباؤنا.

أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابَ [٨]

ثم أنه تعالى بعد حكاية إنكارهم التوحيد تمسكاً بكونه خلاف ما عليه آباؤهم، حكى عنهم إنكار نبوة النبي ﷺ بقوله: **«أَنْزَلَ»** من الله **«عَلَيْهِ الذِّكْرُ»** والكتاب السماوي **«مِنْ بَيْنِنَا»** ونحن أحقُّ

١. تفسير أبي السعود ٧: ٢١٥، تفسير روح البيان ٨: ٦.

٢ - ٤. تفسير روح البيان ٨: ٦.

٦. الكافي ٢: ٥٧٤/٥، تفسير الصافي ٤: ٢٩٢.

٧. تفسير الرازي ٢٦: ١٧٨، تفسير روح البيان ٨: ٦.

٨. تفسير الرازي ٢٦: ١٧٨، تفسير البياضاي ٢: ٣٠٧، تفسير أبي السعود ٧: ٢١٥.



بنزول الذكر منه، لكوننا أكبر<sup>١</sup> سناً، وأكثر سناً، وأكثر مالا وأعواناً، وأعظم شأنًا، وأبسط يدًا وأنفذ قولاً من محمد الذي لا مال له ولا ولد ولا أعوان ولا رياسة، وكما فَضَّلنا الله عليه بتلك النعم الظاهرة، كان عليه أن يُفَضَّلنا عليه بإنزال الوحي والكتاب ومُنْصِب الرسالة، ومع فرض كونه مساوياً لنا فترجيحه علينا بتلك الكرامات ترجيحٌ بغير مُرجح، ومن الواضح أن هذا الاعتراض ليس إلا من جهة عدم التأمل في جهات إعجاز القرآن الموجب لليقين بكونه كلام الله الخالق لكل شيء، وليس مما اختلقه مُحَمَّدٌ ﷺ من قبل نفسه، وليس ترك تأملهم فيه من جهة قطعهم بأنه كلام البشر ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ وتريد ﴿مِنْ ذِكْرِي﴾ وإعجاز كتابي، لا في نبوة مُحَمَّدٍ ﷺ، ولو تأملوا فيه عَلِمُوا بأنه كتابي، ومحمدٌ رسولي، ومع الشك يجب عليهم التأمل والتفكر بحكم العقل ﴿بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا﴾ ولم يطعموا بعد ﴿عَذَابٍ﴾ فاذا ذاقوا وطعموا طعمه، عَلِمُوا أن القرآن ذكري، ومحمدٌ رسولي، ولما كانوا في شك ولم يذوقوا العذاب على ترك التدبر، كانوا مذنبين بين الأوهام، تارة يقولون إنه سحر، وأخرى شعر، وثالثة إنه كهانة.

### أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ \* أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ [٩ و ١٠]

ثم رَدَّهم سبحانه بأن منصب النبوة برحمة الله واختياره بيده بقوله: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ﴾ ﴿خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ حتى يُعطوها من شاءوا، ويمنعوها عمن شاءوا، ويحكموا فيها بأرائهم، فيختاروا للنبوة بعض زعمانهم ويمنعوك عنها، ليس الأمر كذلك، فإن النبوة عطية من الله، ودرجة عالية لا يقدر على إعطائها إلا من لا نهاية لقدرته، ولا غاية لجوده، وهو الله العزيز الوهاب، فإنه الغالب الذي لا يُغَالَب، والوهاب الذي يهب ما يشاء لمن يشاء ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ حتى يكون لهم التصرف فيها وفيما بينهما، كيف يشاءون فينبون أحداً للنبوة، ويعزلون منها أحداً، ويُنزلون من السماء ملكاً بالوحي أو الكتاب على ما يشاءون؟! كلا ليس لهم ذلك، فإن كان لهم ذلك ﴿فَلْيَرْتَقُوا﴾ وليصعدوا ﴿فِي الْأَسْبَابِ﴾ والمعارج التي يتوصل بها إلى العرش حتى يجلسوا عليه، ويدبروا أمر العالم، ويُنزلوا الوحي على من يروونه أهلاً له. وفيه نهاية التهكم، فاذا لم يكن لهم وفي تصرفهم ملك السماوات والأرض وما بينهما والسلطنة فيهما، لا يكون بيدهم خزائن الرحمة، وليس لهم إنزال رحمة أو منعها، ولا نُصَب أحدٍ ولا عَزَله.

وقيل: إن المراد بالأسباب الفلكيات، وأستدل به على أن الفلكيات أسباب للحوادث السُّفلية<sup>١</sup>.

جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ \* كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ  
ذُو الْأَوْتَادِ \* وَثَمُودٌ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ \* إِنَّ كُلَّ  
إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ \* وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً مِّالَهَا مِنْ  
فَوَاقٍ \* وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَانًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١١-١٦)

ثم لما ذكر سبحانه أن المشركين لا يملكون السماوات والأرض، بين عجز الجند منهم فضلاً عن  
العشرة والعشرين بقوله: ﴿جُنْدٌ مَا﴾ وعسكر قليل منهم كلما كثروا ﴿هُنَالِكَ﴾ وفي ذلك المكان  
الذي أنكروا التوحيد، وعَجِبُوا من رسالتك، وتكلموا بالكلمات التي لا تليق بمقامك ﴿مَهْزُومٌ﴾  
ومنكسر ومغلوب عن قريب، وذلك الجند ﴿مِنْ﴾ جملة ﴿الْأَحْزَابِ﴾ والجماعات القوية الذين<sup>٢</sup>  
تحزبوا واجتمعوا على تكذيب الرسل ومعارضتهم.

وقيل: إن (هنالك) إشارة إلى يوم بدر. قال قتادة: إن الله أخبر بمكة أنه سيهزم جند المشركين، فجاء  
تأويلها يوم بدر. وقيل: يوم الخندق. وقيل: يوم فتح مكة، فإن مكة هو الموضع الذي ذكروا فيه هذه  
الكلمات<sup>٣</sup>. فهو إخبار بكونهم منهزمين في مكة، وهو من المعجزات. وقيل: إن المعنى هم كُخِند ما من  
الكفار المتحزبين على الرسل، مهزوم ومكسور عما قريب، فلا ثبال بقولهم، ولا تكثر ببهذا<sup>٤</sup>.

ثم ذكر سبحانه الأحزاب الذين جعل قريش منهم بقوله: ﴿كَذَّبَتْ﴾ كما كذبتك يا محمد قومك  
﴿قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ وثوحاً ﴿وَعَادٌ﴾ هوداً ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ موسى، وهو من كثرة ظلمه، أو قوته كان ﴿ذُو  
الْأَوْتَادِ﴾ وإنما وصف فرعون بهذا الوصف، لأنه على رواية بعض العامة كانت له أوتاد من حديد  
يُعَذَّبُ الناس عليها بأن يمدّه من غضب عليه مستلقياً بين أربعة أوتاد ويشدّ كل يده ورجله منه  
بسارية، وكان كذلك في الهواء بين السماء والأرض حتى يموت، أو كان يمدّ الرجل مستلقياً على الأرض، ثم  
يشدّ يديه ورجليه وأرأسه على الأوتاد<sup>٥</sup>.

وقيل: إنه كان يمدّ المُعَذَّب بين أربعة أوتاد في الأرض، ويُرسَل عليه العقارب والحيات<sup>٦</sup>.  
وعن الصادق عليه السلام، أنه سئل عن قوله: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ فقال عليه السلام: «إنه كان إذا عذب رجلاً

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٨٠.

٢. في النسخة: التي.

٣. تفسير الرازي ٢٦: ١٨١.

٥. في النسخة: مدّ.

٤. تفسير أبي السعود ٢١٦: ٧، تفسير روح البيان ٨: ٨.

٦. في النسخة: شدّ. ٧. تفسير روح البيان ٨: ٩.

٨. تفسير الرازي ٢٦: ١٨٢، تفسير أبي السعود ٧: ٢١٧.

بسطه على الأرض على وجهه، ومدّ يديه ورجليه ورأسه على الأرض، فأوتدها بأربعة أوتاد، وربما بسطه على خشب منبسط<sup>١</sup> فوثد رجله ويديه بأربعة أوتاد، ثم تركه على حاله حتى يموت<sup>٢</sup> الخبر. وقيل: ينصب الخشب في الهواء، وكان يمدّ يدي المَعَذَّب ورجليه إلى تلك الخشب الأربع، ويضرب على [كل] واحد من هذه الأعضاء وتدا، ويتزكّه مُعلَقاً في الهواء إلى أن يموت<sup>٣</sup>. وعن قتادة: كانت أوتاداً وأرساناً وملاعب يلعب بها عنده<sup>٤</sup>.

وقيل: إنّ عساكره كانوا كثيرين، وكانوا كثيري الأهبة عظيمي النعم، وكانوا يكثرّون من الأوتاد لأجل الخيام<sup>٥</sup>.

وقيل: إنّ المعنى ذو الجموع الكثيرة، وسمّى الجموع الكثيرة أوتاداً لأنهم يشدونّ ملكه، كما يقوّي الرود البناء<sup>٦</sup>.

وقيل: إنّ المعنى ذوا الملك الثابت، فإنّه استقام له الأمر أربعمئة سنة من غير منازع<sup>٧</sup>، وإنّما استعير الأوتاد لثبات الملك، لأنّ أكثر بيوت العرب كانت خياماً وثباتها بالأوتاد<sup>٨</sup>.

﴿وَكَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ صالحاً ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ لوطاً، وكانوا - على ما قيل - أربعمئة ألف بيت في كلّ بيت عشرة<sup>٩</sup> ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ وأهل الغيطة شعباً قيل: نُسبوا إلى الغيطة لأنهم كانوا يسكنونها<sup>١٠</sup>. وقيل: الأيكة اسم بلد<sup>١١</sup> ﴿أُولَئِكَ﴾ الأمم المذكورة هم ﴿الْأَخْزَابُ﴾ الذين تجمعوا على أنبيائهم ﴿إِنْ كُلٌّ﴾ من هؤلاء الأمم، وما حزب منهم ﴿إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ﴾ الذين أرسلوا إليهم ﴿فَحَقَّ﴾ وثبت ﴿عِقَابٌ﴾ كلّ منهم حسب استحقاقهم، منهم غوّقوا بالصيحة، ومنهم بريح صرصر عاتية، ومنهم بالغرق بالطوفان، ومنهم بالغرق في البحر، ومنهم بالصاعقة، ومنهم بالرجفة، ومنهم بتقليب بلادهم وإمطار الجحارة عليهم ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ﴾ الكفرة الذين كذبوك، وما ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ وهي النفخة الثانية. وقيل: هي النفخة الأولى<sup>١٢</sup>.

رؤي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنّه قال في هذه الآية: «يأمر الله إسرافيل فينفخ نفخة الفزع، فيمدها ويطولها، وهي التي يقول: ﴿مَآلَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾»<sup>١٣</sup>.

وقيل: إنّ المراد عذاب يمتّحهم ويأخذهم بغتة ودفعة<sup>١٤</sup> ﴿مَا﴾ لتلك الصيحة، وليس ﴿لَهَا مِنْ﴾ تأخير وتوقّف ولو مقدار ﴿فَوَاقٍ﴾ ناقة، وهو الفصل ما بين حلتبتيها، وقيل: يعني ما لها من سكن أو

٢. علل الشرائع: ١/٦٩ باب ٦٠، تفسير الصافي ٤: ٢٩٣.

٧- ١١. تفسير روح البيان ٨: ٩.

١٣. تفسير الرازي ٢٦: ١٨٣.

١. في النسخة: الخشب ينسط.

٣- ٦. تفسير الرازي ٢٦: ١٨٢.

١٢. تفسير الرازي ٢٦: ١٨٣، تفسير البضاوي ٢: ٣٠٨.

١٤. تفسير الرازي ٢٦: ١٨٢.

رجوع إلى السكون<sup>١</sup>.

وفي الآيتين تسلية قلب النبي ﷺ، لئلا يحزن من تكذيبهم وعدم إيمانهم بأن قومه جند قليل من الأحزاب الذين كذبوا الرسل، فاستأصلهم الله بالعذاب، مع كونهم في غاية الكثرة والشوكة والقوة، فكيف بقومه الذين هم ضعفاء قليلون، وتهديد لمكذبيهم ومعارضيه ﴿و﴾ مع ذلك ﴿قَالُوا﴾ استهزاء بالرسول حين سمعوا خبر تأخير العذاب إلى الآخرة: ﴿رَبَّنَا﴾ وإلها ﴿عَجِّلْ لَنَا﴾ بلطفك ﴿قِطْنَا﴾ ونصيبنا من العذاب الذي وعدنا محمد ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ والنفخ في الصور، ولا تؤخره إليه.

أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ \* إِنَّا سَخَرْنَا  
الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإشْرَاقِ \* وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ \*  
وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْكِتَابَ وَفَضَّلْنَا الْخَطَابَ [١٧ - ٢٠]

ولما كان في قولهم هذا زيادة السخرية والاستهزاء به،<sup>٢</sup> بالغ سبحانه في تسلية النبي ﷺ بقوله: ﴿وَأَصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ من الاستهزاء والتكذيب، وطب نفساً بما فضلك على جميع الرسل من الكتاب والحكمة والسلطنة في الملك والملكوت وجوامع الكلم وفضل الخطاب ﴿وَأَذْكُرْ﴾ لتسلية قلبك ما أعطينا ﴿عَبْدَنَا﴾ المخلص لنا، أعني ﴿دَاوُدَ﴾ بن إيشا ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ والقوة في البدن والدين، ومع ذلك ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ورجاع إلى الله بالتضرع والتوبة، والتسبيح والتقديس، ولذا ﴿إِنَّا﴾ بقدرتنا ﴿سَخَرْنَا﴾ وذللنا ﴿الْجِبَالَ﴾ له يسرون ﴿مَعَهُ﴾ وتبعاً له حال كونهن ﴿يُسَبِّحُنَ﴾ لله حالاً بعد حال كرامة له ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ وآخر النهار ﴿وَالْإشْرَاقِ﴾ أول النهار، ﴿و﴾ سخرنا ﴿الطَّيْرَ﴾ بأنواعها حال كونها ﴿مَحْشُورَةً﴾ ومجموعة إليه من كل جانب، ثم ﴿كُلٌّ﴾ من الجبال والطير حال تسبيح داود عليه السلام ﴿لَهُ أَوَّابٌ﴾ ورجاع بالتسبيح والتقديس.

عن ابن عباس: كان داود عليه السلام إذا سبَّح جاوبته الجبال بالتسبيح، واجتمعت إليه الطير فسبَّحت، وذلك حشرها<sup>٣</sup>.

وقيل: إن ضمير (له) راجع إلى الله، والمعنى: أن داود والجبال والطير لله أوابٌ ومُسَبِّحٌ.<sup>٤</sup>  
رؤي أن الله تعالى لم يعط أحداً من خلقه ما أعطى داود من حسن الصوت، فلما وصل إلى الجبال ألحان داود تحرَّكت من لذة السماع، فوافقته في الذكر والتسبيح، ولما سمعت الطيور نغماته صفرت

٢. زاد في النسخة: ثم.

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٨٣.

٣ و ٤. تفسير الرازي ٢٦: ١٨٦، تفسير روح البيان ٨: ١٣.

بصغير التنزيه والتقديس، ولما أصغت الوحوش إلى صوته دنت منه حتى كانت تؤخذ بأعناقها<sup>١</sup>.

﴿وَسَدَدْنَا﴾ وقوينا ملكه وسلطته بالوزراء الناصحين، وبالهيبه وإلقاء الرعب في قلوب المخالفين، وبصنعة اللبوس وسائر آلات الحرب، مما لم يكن لغيره من السلاطين، إلى غير ذلك ما يوجب استحكام ﴿مُلْكُهُ وَأَتَيْنَاهُ﴾ وأعطيناه ﴿الْحِكْمَةَ﴾ والمعارف الإلهية وأحكام الشريعة والعلم بحقائق الأشياء ﴿وَفُضِّلَ الْخُطَابُ﴾ ووضح البيان بحيث يفهمه كل أحد.  
وعن الرضا عليه السلام: «أنه معرفة اللغات»<sup>٢</sup>.

وقيل: هو الإفصاح بحقيقة الأمر، وقطع القضايا والحكم باليقين<sup>٣</sup>.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «هو قوله البينة على المدعى، واليمين على المدعى عليه»<sup>٤</sup>.

وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ \* إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ \* إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ \* قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجِكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَئِلَّا مَا هُمْ وَظَنَ دَاوُدُ أَنَّهَا فَتَنَاءٌ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ \* فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ (٢١-٢٥)

ثم لما ذكر سبحانه أطافه بداد، حكى ابتلاءه بالحزن الشديد، لارتكابه ما لم يكن لائقاً بمقامه، كابتلاء نبينا عليه السلام بالحزن على تكذيب القوم، وصدر ذكر القضية بالاستفهام التعجبي<sup>٥</sup> المشوق إلى سماعها المؤذن بغرابتها بقوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ﴾ يا محمد، وقرع سمعك الشريف ﴿نَبَأُ الْخَضَمِ﴾ والخبر العظيم الجدير بأن يسمعه كل أحد في موضوع تنازع الخصمين ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا﴾ وتصعدوا ﴿الْمِحْرَابَ﴾ وسور الغرفة التي كان يتعبد فيها، ونزلوا فيها ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ﴾ ووردوا عليه بغتة مع كون بابها مغلقاً ﴿فَفَزِعَ﴾ ودُهِشَ ﴿مِنْهُمْ﴾ لكون ورودهما على خلاف العادة، فلما رأوا فزعاً ودُهِشَةً ﴿قَالُوا﴾ إزالة لفزع: يا داود ﴿لَا تَخَفْ﴾ ما إنا ﴿خَصْمَانِ﴾ ومنازعان جئناك لتحكم

١. تفسير روح البيان ٨: ١٣.

٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٢٨/٣، تفسير الصافي ٤: ٢٩٤.

٣. تفسير روح البيان ٨: ١٥.

٥. في النسخة: التعجبي.

٤. جوامع الجامع ٤: ٤٠٤، تفسير الصافي ٤: ٢٩٤، تفسير روح البيان ٨: ١٥.

بيننا، أما إجمال المخاصمة أنه ﴿بَقِيَ بُغْضُنَا عَلَى بُغْضٍ﴾ وظلم أحدا الآخر ﴿فَأَخْخَمَ بَيْنَنَا﴾ واقطع خصومتنا ﴿بِالْحَقِّ﴾ والعدل ﴿وَلَا تُشْطِطُ﴾ في الحكم ولا تُجَرِّ في القضاء ﴿وَأَهْدَانَا﴾ بحكمك ﴿إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ ووسط الطريق بزجر الباغي عن ما سلكه من طريق الجور، وإرشاده إلى منهج العدل، ثم حكى سبحانه تفصيلها بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الرجل الذي يكون معي ﴿أَخِي﴾ في الدين، أو في الصحبة، أو في النسب على الفرض ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَفْجَةً﴾ والضأن الأنثى ﴿وَلِى نَفْجَةً وَاحِدَةً﴾ ليس لي غيرها ﴿فَقَالَ﴾ مع أخوته المقتضية لتعطفه: ﴿أَكْفُلْنِيهَا﴾ وملكنيها لتكون لي مائة نعمة ﴿وَعَزَّنِي﴾ وغلبني ﴿فِي الْخِطَابِ﴾ والخجج.

عن ابن عباس: كان أعز مني وأقوى في مخاطبتي، لأنه كان ملكاً.

فلما سمع داود ذلك ﴿قَالَ﴾ والله ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ أخوك ﴿يَسْأَلُ نَفْجَتِكَ﴾ الواحدة ليضمها ﴿إِلَى نَفَاجِهِ﴾ الكثيرة ﴿وَوَ﴾ ليس هذا الظلم منه أمراً بديعاً بل ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخَطَايَا﴾ والشركاء، أو المصاحبين ﴿لَيَبْغِي﴾ ويتعدى ﴿بُغْضُهُمْ عَلَى بُغْضٍ﴾ ولا يراعي حق الصحبة والشركة ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله واليوم الآخر ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم يرَاعون حقوق الناس ولا يظلمون أحداً سواء أكان شريكاً أو مصاحباً أو غيرهما، ﴿وَوَ﴾ لكن ﴿قَلِيلٌ مَّا﴾ ويسير في الغاية ﴿هُم﴾ في الأزمنة كلها. قصة داود وتزويجه  
ثم غاب أوريا وذهب إلى قتال اللقاء قبل أن يعقد عليها، ثم خطبها داود فزوجت أوريا  
منه لجلالة قدره، فاعتم ذلك أوريا، فعاتبه الله تعالى على أنه خطب على خطبة أخيه المسلم مع عدم حاجة، لأنه كان تحته وفي جبالته تسع وتسعون امرأة، ولم يكن لأوريا غير التي خطبها.<sup>٣</sup>

وقيل: إن داود رأى امرأة أوريا، فمال قلبه إليها، وابتلى بحبها، فسأله داود أن يُطْلَقَهَا، فاستحى أن يَزِدَّه، فتزوجها وولد منها سليمان، وكان ذلك جابراً في شريعته معتاداً بين أمته، خلا أنه ﷺ لعظمة منزلته وعلو شأنه نبه بالتمثيل على أنه لم يكن ينبغي له أن يسأل رجلاً ليس له إلا امرأة واحدة أن ينزل عنها ويتزوجها مع كثرة نساءه.<sup>٤</sup>

رؤي أن داود قال للخصم: إن رُمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا - وأشار إلى الأنف والجبهة - فقال:

١. تفسير روح البيان ٨: ١٧.

٢. في تفسير روح البيان ٨: ١٨؛ بنشأوع أو بنشأوع.

٣. تفسير روح البيان ٨: ١٩.

٤. تفسير أبي السمود ٧: ٢٢٢، تفسير روح البيان ٨: ١٩.

يا داود، أنت أحرّ أن يُضْرَب منك هذا وهذا، وقد فعلت كيت وكيت. ثمّ نظر داود فلم ير أحداً. ﴿وَوَيْلٌ لِّكَ إِذَا ظُنَّ﴾ وعلم ﴿دَاوُدَ أَنَّمَا فَتَتَاءُ﴾ وأردنا تنبيهه على قبح ما صدر منه.

وقيل: إنّ سبب علمه أنّه لما قضى بينهما، نظر أحد المتخاصمين إلى الآخر فضحك، ثمّ صعد إلى السماء.<sup>٢</sup>

وعن الباقر عليه السلام في قوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّكَ دَاوُدَ﴾: «أي علم، وذكر عليه السلام أنّ داود كتب إلى صاحبه أن لا تُقدّم أوريا بين يدي التابوت ورّده، فقدم أوريا إلى أهله، ومكث ثمانية أيام ثمّ مات».<sup>٣</sup>

وفي رواية عن الرضا عليه السلام قيل له: يا بن رسول الله، ما قصة داود مع أوريا؟ قال: «إنّ المرأة في أيام داود كانت إذا مات بعلمها أو قُتل لا تتزوج بعده أبداً، فأول من أباح الله تعالى أن يتزوج بامرأة قُتل بعلمها داود، فتزوج بامرأة أوريا لما قُتل، وانقضت عِدتها».<sup>٤</sup>

وقال بعض العامة: كانت زَلّة داود المسارعة في الحكم قبل السؤال عن المدعى عليه.<sup>٥</sup>

وعن الرضا عليه السلام - في رواية - فقيل: يا بن رسول الله، فما كانت خطيئة داود؟ فقال: «ويحك! إنّ داود إنّما ظنّ أنّه ما خلق الله تعالى خلقاً أعلم منه، فبعث الله الملكين فتسوّروا المحراب، فقالا له: خصمان بغى بعضنا على بعض - إلى أن قال - فعجل داود على المدعى عليه، فقال: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه. ولم يسأل المدعى البيّنة على ذلك، ولم يُقبل على المدعى عليه فيقول له: ما تقول؟ فكان هذا خطيئته»<sup>٦</sup> وقالوا فيه وجوه آخر لا تُطيل بذكرها.

وعلى أي تقدير ﴿فَاسْتَفْتَى﴾ داود ﴿رَبَّهُ﴾ من زلّته التي كانت بالنسبة إليه ذنباً بعد ما التفت إليه ﴿وَوَحَرَ﴾ وسقط على الأرض حال كونه ﴿رَاكِعاً﴾ قيل: إنّ المراد من الركوع هنا السجود<sup>٧</sup>، والمعنى خَرّ للسجود حال كونه مصلياً تسميةً للصلاة باسم الركوع، لكونه من أعظم أجزائها.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وآله: «أنه سَجَدَ في صَّ وقال: سجدها داود توبةً، وسَجَدَها شُكراً».<sup>٨</sup>

﴿وَأَنَابَ﴾ داود ورجع إلى ربّه بالتوبة. رُوي أنّه بقي في سجود أربعين يوماً وليلة لا يرفع رأسه إلّا لصلاة مكتوبة، أو لما لا بدّ منه، ولا يرقأ دمه حتى تَبَّتْ منه العُشب حول رأسه، ولم يشرب ماءً إلّا

١. تفسير الرازي ٢٦: ١٩٦. ٢. تفسير الرازي ٢٦: ١٩٨، تفسير أبي السعود ٧: ٢٢١.

٣. تفسير القمي ٢: ٢٣٤، تفسير الصافي ٤: ٢٩٦.

٤. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٩٤/١، تفسير الصافي ٤: ٢٩٦.

٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٩٤/١، تفسير الصافي ٤: ٢٩٥.

٦. تفسير روح البيان ٨: ١٨.

٧. تفسير روح البيان ٨: ١٨.

ثُلثاء دمع، وجهد نفسه راغباً إلى الله في العفو عنه حتى كاد يهلك، واشتغل بذلك عن التلک حتى وثب له ابنٌ يقال له إيشا على ملكه، واجتمع إليه أهل الزيع من بني إسرائيل<sup>١</sup> «فَقَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ» الذنب الذي استغفر منه في شهر ذي الحجة على ما قيل<sup>٢</sup>. فلما نزلت توبته حارب ولده فهزمه «وَأَنَّ لَهُ» عَزَّ وَجَلَّ «عِنْدَنَا» بعد المغفرة «لَوْ لَقِيَ» وقرّباً وكرامةً في الدنيا «وَحَسَنَ مَأْبٍ» ومرجع بعد الموت، وهو الجنة العالية المُعدّة للأنبياء.

يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ  
الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ  
شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ [٢٦]

ثم أنه تعالى بعد بيان تفضلاته الخاصة على داود، وذكر ابتلائه بالحرز الشديد، بين زيادة إنعامه عليه بقوله: «يَا دَاوُدُ إِنَّا» بعد أن غفرنا لك «جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً» وملكاً نافذ الحكم «فِي الْأَرْضِ» وسلطاناً مقتدرًا على جميع الناس مع النبوة والرُّسُل، إذن «فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ» والعدل، وفي منازعاتهم بحكم الله، كما هو مقتضى الخلافة الإلهية «وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ» في حكومتك، ولا تقض بميل نفسك «فَيُضِلَّكَ» ويَحْرِفَكَ الهوى وميل النفس «عَنْ» سلوك «سَبِيلِ اللَّهِ» وطريق القرب إليه، وهو العدل في الحكم، فإن هوى النفس يدعو إلى جلب المنافع الشخصية ورعاية القريب والصديق، وإعمال البغضاء في حق من أساء إلى الحاكم، وكل ذلك يصرف نظر الحاكم عن الحق وإعطائه لمن هو له ويمتنعه عن العدل.

ثم هدّد سبحانه متبعي الهوى والضالين عن الهدى بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» باتباع الهوى والجور في الحكومة، وتضييع الحقوق، مُعدّ «لَهُمْ» في الآخرة «عَذَابٌ شَدِيدٌ» بالنار «بِمَا نَسُوا» ولم يذكروا «يَوْمَ الْحِسَابِ» وغفلوا عن أهوال القيامة وشدائدها، وكان نسيانهم ذلك اليوم وغفلتهم سبباً لاستحقاقهم أشدّ العذاب وأشدّ العقاب، ولو كانوا متذكرين له لتداركوا قبائح أعمالهم بالتوبة وأعدوا له الأهبة.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ  
لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ\* أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ



## فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ [٢٧ و ٢٨]

ثم لما حكى سبحانه شدة إنكار المشركين للحشر حتى بلغوا في إنكارهم إلى أن استهزءوا بأخبار النبي ﷺ به، شرع في الاستدلال على لزوم الحشر بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ خلقاً «بَاطِلًا» وعشاً بلا حكمة فيه ﴿ذَلِكَ﴾ الخلق الباطل والعبث ﴿ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلًا﴾ وهلاك ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ﴾ عذاب ﴿النَّارِ﴾ لكفرهم وإنكارهم الحشر، بل إنما كان خلق العالم عن حكمة بالغة، وهي تكميل الاستعدادات وفعليتها، فالنفوس الزكية بالمعارف والعلم والعمل يرتقون إلى مدارج كمال الانسانية والسعادة، والنفوس الخبيثة ينحطون إلى مهاوي ذرَكَات الحيوانية والشقاوة، ومن المعلوم أنه لا بد لكل من الكمال والنقص والإرتقاء والانحطاط أثر ونتيجة، قابل لأن يصير منظوراً للعلاء، ومتعلقاً لهم، ولو لم يكن عالم آخر لاستوى الناقص والكامل، والشقي والسعيد، وهذا في غاية التبحر، كما أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والمعاصي، لا والله لا نجعلهم سواء، لكونه خلاف العدل، والله الحكيم منزلة عنه ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ﴾ من ربهم وعذابه بالعمل بالطاعات واجتناب السيئات ﴿كَالْفُجَّارِ﴾ وأهل الفسوق والطغيان، حاشا لا يجوز التسوية بينهما على الله لكونه قبيحاً في الغاية، فلا بد من عالم آخر يثاب فيه المؤمن والمتقي بأفضل الثواب، ويُجازى فيه المُفْسِدُ والفاجر بأسوأ الجزاء، ويرى كل منهم نتيجة أعمالهم.

رُوي أن كفار قريش قالوا للمؤمنين: إنا نعطى في الآخرة من الخير ما تُعطون، بل أكثر، فردّهم الله بقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ﴾ إلى آخره<sup>١</sup>.

أقول: ويمكن كون قولهم هذا على سبيل الاستهزاء، أو على تقدير وقوع الآخر.

عن الصادق عليه السلام قال: «لا ينبغي لأهل الحق أن يُنزِلُوا أنفسهم منزلة أهل الباطل، لأن الله لم يجعل عنده أهل الحق بمنزلة أهل الباطل، ألم يعرفوا وجه قول الله في كتابه إذ يقول: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى آخره؟»<sup>٢</sup>.

كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَذَّبَ بَرُّوْا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ \* وَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ \* إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِبَادُ \* فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ \* رُدُّوْهَا

### عَلَيَّ فَطَقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْيَانِ [٢٩-٣٣]

ثم لما بين سبحانه العلوم الكثيرة في القرآن من المعارف وأدلة التوحيد والمعاد، وخصائص الأنبياء، وتفضلاته عليهم، وقصصهم، بين فضل القرآن، وكونه نازلاً منه، لدلالة ما فيه عليه بقوله: ﴿كِتَابٌ﴾ قيل: إن التقدير هذا القرآن<sup>١</sup> كتاب ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ بتوسط جبرئيل ﴿إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مُبَارَكٌ﴾ وكثير الخير والنفع الديني والدنيوي، لمن آمن به وصدق ﴿لِيَذَّبَزُوا آيَاتِهِ﴾ ويتفكروا فيها بالفكر السليم عن التعصب والعباد، فيعرفوا ما فيها من المطالب العالية واللطائف الفائقة والبيانات الرائقة، فيؤمنوا به ﴿وَلِيَسْتَذْكُرُوا﴾ ويتعظ بمواعظه ويعتبر بما فيه ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ وأصحاب العقول السليمة عن شوائب الأوهام، وإنما خص سبحانه الاتعاض به والعمل بما فيه بأولي الأبواب، لتوقفه على العقل الغالب على الأهواء الزائغة والشهوات المردية.

ذكر بعض أحوال داود عليه السلام ثم عاد سبحانه تعالى بعد الاستدلال على المعاد والرسالة إلى ذكر أعظم تفضلاته على داود عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾ وأنعمنا عليه بذلك الولد الذي كان خليفة له ووارث نبوته وسلطته.

رؤي أن داود عاش مائة سنة، ومات يوم السبت، وكان له غرفة ومحراب يصعد فيه وينزل، وكان يوم السبت في محرابه إذ جاءه ملك الموت وقال: جئتك لأقبض رؤوحك فقال: دعني حتى أنزل وارتي. فقال: مالي إلى ذلك سبيل، نغدت الأيام والشهور والسنون والآثار والأرزاق، فما أنت بمؤثر بعدها، فسجد داود على مرقاة من الدرّج، فقبض نفسه على تلك الحالة، وأوصى لابنه سليمان بالخلافة<sup>٢</sup>.

ثم مدح سبحانه سليمان بقوله: ﴿نِعَمَ أَلْعَبْدُ﴾ سليمان ﴿إِنَّهُ﴾ كآبِيه ﴿أَوَّابٌ﴾ ورجاع إلى الله في جميع الأحوال في النعمة بالشكر، وفي المحنة بالصبر والتضرّع، واذكر يا محمد ﴿إِذْ عَرَضَ﴾ وأظهر ﴿عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ﴾ ووقت العصر الخيول ﴿الضَّافِيَاتُ﴾ والقائمان على قوائم ثلاث مع ثنية الرابعة أو وضعها على طرف السبك و﴿الْحَيَاذُ﴾ والسريعات في العدو.

وعن ابن عباس: الجياد الخيل السوابق، وإذا جرت كانت سيراً خفافاً في جريها<sup>٣</sup>، والصفتان من أحمد صفات الخيل.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٢٦.

١. تفسير روح البيان ٨: ٢٥.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٢٧.

في ردة العامة قيل: إن سليمان غزا أهل دمشق ونصيبين، وهي قاعدة ديار ربيعة، فأصاب ألف فريس عربي<sup>١</sup>. وقيل: أصابها أبوه من العمالة وورثها سليمان<sup>٢</sup> على خلاف رواية أبي بكر عن رسول الله ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»<sup>٣</sup>.

وقيل: إنها خيول بحرية جاء بها الجن لسليمان<sup>٤</sup>. وعلى أي تقدير قيل: قعد سليمان يوماً بعد صلاة الظهر على كرسيه، وكان يريد جهاداً، فاستعرض تلك الخيول عليه، فلم يزل تُعرض عليه وهو ينظر إليها ويتعجب من حسنها حتى ذهب وقت فضيلة العصر، أو وقت ذكر كان يُواظب عليه<sup>٥</sup>.

ذكر فضيلة لأمر وقال بعض العامة: حتى غربت الشمس وفات وقت صلاة العصر<sup>٦</sup> **﴿فَقَالَ﴾** تأسفاً للمؤمنين ﷺ وتحسراً على ما صدر منه: **﴿إِنِّي أُحِبُّتُ حَبَّ الْخَيْرِ﴾** وجعلت حب الخيل بدلاً

**﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾** واشتغلت بالنظر إليه **﴿حَتَّى تَوَارَتْ﴾** الشمس **﴿بِالْحِجَابِ﴾** وشترت بستر أفق المغرب، فبعد غروب الشمس قال للملائكة: **﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ﴾** فردت الملائكة الشمس باذن الله إلى محل فضيلة العصر، فصلاها في وقتها، كما ردت الشمس لعلي بن أبي طالب عليه السلام حين فات وقت صلاة العصر منه لنوم النبي ﷺ في حجره على ما روته العامة والخاصة<sup>٧</sup> **﴿فَطَفِقَ﴾** وأخذ يمسح **﴿مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾**.

عن الصادق عليه السلام، قال: «إن سليمان بن داود عرض عليه ذات يوم بالعشي الخيل، فاشتغل بالنظر إليها حتى توارت الشمس بالحجاب، فقال للملائكة: ردوا الشمس علي حتى أصلي صلاتي في وقتها، فردوها. فقام فمسح ساقيه وعقته، وأمر أصحابه الذين فاتتهم الصلاة معه بمثل ذلك، وكان ذلك وضوءهم للصلاة، ثم قام فصلّى، فلما فرغ غابت الشمس وطلعت النجوم، وذلك قول الله عز وجل: **﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾** إلى قوله: **﴿وَالْأَعْنَاقِ﴾**<sup>٨</sup>.

أقول: ظاهر الآية أن سليمان مسح بالسوق والأعناق، لا هو وأصحابه.

١. تفسير البيضاوي ٢: ٣١٢، تفسير أبي السعود ٧: ٢٢٥، تفسير روح البيان ٨: ٢٧.

٢. تفسير البيضاوي ٢: ٣١٢، تفسير أبي السعود ٧: ٢٢٥، تفسير روح البيان ٨: ٢٧.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٢٧.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٢٧.

٥. تفسير أبي السعود ٧: ٢٢٥.

٦. فضيلة رد الشمس لعلي عليه السلام مروية في البداية والنهاية ٦: ٨٠، وترجمة الامام علي عليه السلام من تاريخ دمشق لابن عساكر ٢: ٢٨٣، والصواعق المحرقة: ١٢٨، و مناقب ابن المغازلي: ١٤٠/٩٦ و ١٤١/٩٨، و مناقب الخوارزمي: ٢١٧، والرياض النضرة ٣: ١٤٠، و مجمع الروايات ٨: ٢٩٧ و تفسير روح البيان ٨: ٣١، و نور الأبصار: ٣٣، و اثبات الهداة: ٥٨/٤٢٧، و بحار الأنوار ٤١: ١٦٦ - ١٩٠.

٨. من لا يحضره الفقيه ١: ١٢٩/٦٠٧، تفسير الصافي ٤: ٢٩٨.

وعن ابن عباس: سألت علياً عن هذه الآية فقال: «ما بلغك فيها؟» قلت: بلى، سمعت كعباً يقول: اشتغل سليمان بعرض الأفراس حتى فاتته الصلاة. فقال: ردّوها عليّ - يعني الأفراس - وكانت أربعة عشر، وأمر بضرب شوقها وأعناقها بالسيف فقتلها، فسلب الله ثلثة أربعة عشر يوماً، لأنّه ظلم الخيل بقتلها.

فقال عليّ عليه السلام: «كذب كعب، لكن اشتغل سليمان بعرض أفراس ذات يوم، لأنّه أراد جهاد العدو حتّى توارت الشمس بالحجاب، فقال بأمر الله للملائكة الموكّلين بالشمس: ردّوها عليّ، فردّت فصلّى العصر في وقتها، وإنّ الأنبياء لا يظلمون ولا يأمرّون بالظلم، لأنّهم معصومون مطهرون»<sup>١</sup>.  
وعن الباقر عليه السلام، أنّه سئل عن قول الله عز وجل: ﴿ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ قال: «يعني مفروضاً، وليس معنى وقت فوتها إذا جاز ذلك ثمّ صلاحها، لم تكن صلاته هذه مؤدّة، ولو كان ذلك لهلك سليمان بن داود حين صلاحها لغير وقتها»<sup>٢</sup>.

أقول: يمكن كون النظر إلى الخيول والاطلاع بحالها للجهاد، كان أهمّ من الصلاة، ولما أحبّ أن يؤدّي الصلاة لوقتها أمر بزد الشمس، فكان حاله حال أمير المؤمنين عليه السلام، ونظر سليمان إلى الأفراس كنوم النبي صلى الله عليه وآله في حجر أمير المؤمنين عليه السلام، وعلى أيّ تقدير ليست الروايات متواترة ولا حجة في غير الأحكام الشرعية.

وقيل: إنّ رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينه كما في ديننا، وكان سليمان احتاج إلى الغزو، فجلس وأمر باحضار الخيل وإجرائها، وذكر أنّي لا أحبّ الخيل لأجل الدنيا، وإنّما أحبّها لأمر الله، وطلب تقوية دينه. وذلك معنى ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ أي حبّ الخيل، وذلك الحبّ الشديد حصل عن ذكري ربي وكتابة أوامره، لا عن الشهوة والهوى، ثمّ إنّ أمر باعدائها وتسييرها حتّى توارت الخيل بالحجاب، وغابت عن نظره، ثمّ قال للراضين: ردّوا الخيل عليّ، فلمّا عادت إليه جعل يسمح شوقها وأعناقها تشريفاً لها وإظهاراً لعزّها<sup>٣</sup>، أو ليعلم صحتها ومرضاها<sup>٤</sup>.  
أقول: نعم التفسير هو، لولا أن يكون بالرأي ومخالفاً للروايات.

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ [٣٤]

١. مجمع البيان ٨: ٧٤١، تفسير الصافي ٤: ٢٩٨.

٢. الكافي ٣: ١٠/٢٩٤، من لا يحضره الفقيه ١: ٦٠٦/١٢٩، تفسير الصافي ٤: ٢٩٨.

٣. تفسير الرازي ٢٦: ٢٠٦، تفسير روح البيان ٨: ٢٩. ٤. تفسير الرازي ٢٦: ٢٠٦.

ثم أنه تعالى بعد ذكر فتنة أبيه داود، ذكر فتنته بقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ وابتلينا ﴿سُلَيْمَانَ﴾ وكانت فتنته على ما روته بعض العامة أنه قال يوماً: لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأة أو تسعين أو تسعين أو مائة، تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله. فقال له صاحبه ووزيره آصف بن برخيا: قل إن شاء الله، فلم يَثَلْ، فطاف عليهنَّ تلك الليلة فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشقِّ ولدٍ له عينٌ واحدة، ويدٌ واحدة، ورجل واحدة، فألقته القابلة على كُرْسِيِّه<sup>١</sup>، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ﴾ وسريره الذي كان يقَعْد عليه ﴿جَسَدًا﴾.

رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون<sup>٢</sup>. ورُوي أنه نسي أن يقولها لينفَذ مراد الله تعالى<sup>٣</sup>.

وفي رواية أخرى: أن سليمان ولد له ابن، فاجتمعت الشياطين على قتله، وذلك أنهم كان يقدِّرون في أنفسهم أنهم يستريحون ممَّا هم فيه من تسخير سليمان إياهم على التكالييف الشاقة، فعَلِم سليمان بذلك، فأمر السُّحَاب بحمله، وكانت الريح تُعطيهِ غذاءه، ورَبِّي فيه خوفاً من مضرة الشياطين، فابتلاه الله لأجل خوفه هذا وعدم توكله في أمر ابنه على ربِّه بموت ابنه حيث مات في السُّحَاب، وألقى ميتاً على كُرْسِيِّه<sup>٤</sup>.

وقريب منه ما عن الصادق عليه السلام، فإنه قال: «إِنَّ الْجِنَّ وَالشَّيَاطِينَ لَمَّا وَلَدَ لِسُلَيْمَانَ ابْنَ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنْ عَاشَ لَهُ وَلَدٌ لِلْقَيْنِ مِنْهُ مَا لَقِينَا مِنْ أَبِيهِ مِنَ الْبَلَاءِ، فَاشْفَقَ مِنْهُمْ عَلَيْهِ، فَاسْتَرْضَعَهُ فِي الْمُرْنِ - وَهُوَ السُّحَابُ - فَلَمْ يَشْعُرْ إِلَّا وَقَدْ وَضَعَ عَلَى كُرْسِيِّهِ مَيْتاً، تَنْبِيهاً عَلَى أَنَّ الْحَذَرَ لَا يَنْفَعُ مِنَ الْقَدَرِ، وَإِنَّمَا عُوتِبَ عَلَى خَوْفِهِ مِنَ الشَّيَاطِينِ»<sup>٥</sup>.

قيل: لما ألقى ابنه الميت على كُرْسِيِّهِ جَزِعَ سليمان عليه، إذ لم يكن له إلا ابْنٌ واحدٌ، فدخل عليه ملكان، فقال أحدهما: إن هذا مشى في زرعٍ فأفسده. فقال له سليمان: لم مشيت في زرعٍ؟ قال: لأنَّ هذا الرجل زَرَعَ في طريق الناس، فلم أجد مسلكاً غير ذلك. فقال سليمان: لم زرعت في طريق الناس. أما علمت أنَّ الناس لا يَدُّ لهم من طريق يمشون فيه؟ فقال لسليمان: صدقت. لم ولدت على طريق الموت، أما عِلِمْتُ أنَّ مَرَمَزَ الْخَلْقِ عَلَى الْمَوْتِ، ثُمَّ غَابَا، فَاسْتَغْفَرَ سُلَيْمَانُ<sup>٦</sup> ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ ورجع إلى الله تعالى.

وقيل: إن ابتلاءه كان سبب ملكه، وذلك أنَّ سليمان بلغه خبر مدينة في البحر، فخرج إليها بجنوده

٤. تفسير روح البيان ٨: ٣٢.

٦. تفسير روح البيان ٨: ٣٢.

١ - ٣. تفسير روح البيان ٨: ٣٢.

٥. مجمع البيان ٨: ٧٤١، تفسير الصافي ٤: ٢٩٩.

٣٤٤..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٥

تحمله الريح، فأخذها وقتل مَلِكُهَا، وأخذ بتأسمها جرادة من أحسن النساء وجهاً، فاصطفاها لنفسه، وأسلمت فأحبها، وكانت تبكي أبدأ على أبيها، فأمر سليمان الشياطين فمثلوا لها صورة أبيها، فكسوها مثل كسوة أبيها، وكانت تذهب إلى تلك الصورة بكرة وعشياً مع جواربها تسجد لها، فأخبر آصف سليمان بذلك، فكسر الصورة، وعاقب المرأة، ثم خرج إلى فلاة من الأرض، وفرش الرماد وجلس عليه تائباً إلى الله.

وكانت له أمٌ ولد يقال لها أمينة، إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها، وكان مُلكه في خاتمه، فوضعه عندها يوماً، فأناها الشيطان صاحب البحر على صورة سليمان، وقال: يا أمينة، خاتمي. فتختم به وجلس على كرسي سليمان، فأتى عليه الطير والجن والإنس.

وتغيرت هيئة سليمان، فأتى أمينة لطلب الخاتم. فأنكرته وطردته، فعرف أن الخطيئة قد أدركته، فكان يدور على البيوت يتكفف، وإذا قال: أنا سليمان، خثوا التراب عليه وسبوه، ثم أخذ يخدّم السماكين، ينقل لهم فيعطونه كل يوم سمكتين، فمكث عليه بهذه الحالة أربعين يوماً عدداً ما عبيد الوثن في بيته، فأنكر آصف وعظماء بني إسرائيل حكم الشيطان، وسأل آصف نساء سليمان، فقلن: ما يدع امرأة منا في دمه، ولا يغتسل من جنابة. وقيل: نفذ حكمه في كل شيء إلا فيهن. ثم طار الشيطان، وقذف الخاتم في البحر، فابتلعه سمكة، ووقعت السمكة في يد سليمان، فشق بطنها، فإذا هو بالخاتم، فتختم به، ووقع ساجداً لله، ورجع إليه مُلكه، وأخذ ذلك الشيطان، وأدخله في صخرة، وألقاها في البحر<sup>١</sup>.

أقول: عليه يكون الجسد المُلقى على كُرسِيه ذلك الشيطان بتأويلات، وهذه الرواية مردودة بوجوه كثيرة، منها: أن الشياطين لا يتصورون بصور الأنبياء، وأن سليمان لم يكن عاصياً حتى يعاقب عليه إلى غير ذلك.

وقيل: إن فتنة كانت بسبب مرض ابتلاه الله بحيث صار كالجسد المُلقى على كُرسِيه لا قوة له ولا روح، ثم أناب ورجع إلى الصحة<sup>٢</sup>.

قَالَ رَبِّ آغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ  
\* فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ \* وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ  
وَعَوَّاصٍ \* وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ \* هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ

## حِسَابٌ \* وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ [٣٥-٤٠]

ثم سأل الله تبارك وتعالى أهم حوائجه الآخروية حيث ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ زلاتي التي لا تليق بمقام نبوتي، ثم أردفه بطلب ما فيه إصلاح أمور ديناه وقوة ترويجه للدين بقوله: ﴿وَهَبْ لِي﴾ يا رب، وأعطني ﴿مُلْكًا﴾ وسلطاناً عظيماً ﴿لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ﴾ من خلقك ﴿مِنْ بَغْدِي﴾ ويكون أرفع من أن يناله غيري حتى تكون لي معجزة دالة على صدق نبوتي، ووسيلة لنجاح مقاصدي من هداية خلقك، ورفع الظلم وإشاعة العدل، وترويج الدين ﴿إِنَّكَ﴾ لا ترد دعائي ومسالتي لأنك ﴿أَنْتَ أَلْوَهَابُ﴾ وكثير العطاء لا تقص في خزانك، ولا تحل في ساحتك، ولا مانع من جودك ﴿فَسَخَّرْنَا﴾ وذللنا ﴿لَهُ الرِّيحَ﴾ إجابةً لدعائه بحيث ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ حال كونها ﴿رُحَاءَ﴾ أو طيبة ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ سليمان وقصد من البلاد والأماكن البعيدة ﴿وَوَسَخَّرْنَا﴾ سخرنا ﴿الشَّيَاطِينَ﴾ له، أعني ﴿كُلَّ بَنَاءٍ﴾ منهم، ليبني له ما أراد من الأبنية ﴿وَوَكَّلْهُمُ الْغَوَاصِ﴾ يغوص في البحر فيخرج له اللالي والمرجان والنفائس ﴿وَأَخْرَجْنَا﴾ منهم ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ ومقيدين ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ والقيود.

ومن المعلوم أن لطافة أجسامهم لا تنافي صلابتها، بحيث يقدرّون على تحمّل الأشياء الثقيلة، كجمل ملك بلاد قوم لوط، ونرى الرياح تحمل الأحجار الثقيلة في الغاية وتخرب الأبنية العظيمة، ولا ينافي تقيدهم بالقيود التي لا يقدرّون على قطعها وكسرها.

وقيل: إن تقيدهم كناية عن منعهم من الشرور والفساد<sup>١</sup> بحيث لا يقدرّون على شيء منها. ثم قلنا له: ﴿هَذَا﴾ الملّك العظيم ﴿عَطَاؤُنَا﴾ الخاص بك، لم نعطه أحداً قبلك، ولا نعطه أحداً بعدك ﴿فَأَشْنُ﴾ وأعط ما شئت لمن شئت ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ وامنع ما شئت عمّن شئت حال كونك متلبساً ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ومأخوذة على شيء من عطائك ومنعك، لتفويض التصرف إليك على الإطلاق.

عن ابن عباس: أعط من شئت وامنع من شئت بغير حساب، لا حرج عليك فيما أعطيت، وفيما أمسكت<sup>٢</sup>.

قيل: ما أنعم الله على أحد نعمةً إلا كانت عليه تبعه<sup>٣</sup> إلا سليمان فإن أعطى أجر عليه، وإن لم يعط لم يكن عليه تبعه<sup>٣</sup>.

وقيل: إن قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ متعلّق بعطائنا، والمعنى أن هذا العطاء لا يمكن حسابه لغاية

٢. تفسير الرازي ٣٦: ٢١١.

١. تفسير أبي السعود ٧: ٢٢٧، تفسير روح البيان ٨: ٣٧.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٣٩.

كثرت<sup>١</sup>.

وقيل: إن المراد من المَنَ والإمساك بالنسبة إلى الشياطين المقيدين، والمعنى امتن على من شئت منهم بفكِّه، وأمسك من شئت منهم في القيد<sup>٢</sup> ﴿و﴾ مع ذلك ﴿إِنَّ لَهُ عِنْدَنَا﴾ في الدنيا ﴿لَزُلْفَى﴾ وقربة حيث إنهم المرسلين المكرمين ﴿و﴾ له ﴿حُسْنُ مَآبٍ﴾ بعد الموت، وفي الآخرة.

وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ يَنْصُبْ وَعَذَابٍ \*  
أَزْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ \* وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ  
رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ \* وَخَذْ يَدَكَ ضِغْثًا فَاصْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ  
إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ [٤١-٤٤]

ثم إنه تعالى بعد تسلية النبي ﷺ بافتتان داود وسليمان بزلتهما مع ما كان لهما من النبوة والسلطنة، وسلامة نبينا منه، أمر النبي ﷺ بالصبر على الأذى ببيان صبر أيوب عليه السلام بقوله: ﴿وَأَذْكُرْ﴾ يا محمد ﴿عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ بن آموص من ولد إسحاق ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ ودعاه، وكان دعاه ﴿أَنِّي مَسْنِي﴾ وأصابني ﴿الشَّيْطَانُ﴾ بنفخة في، أو بدعائه ﴿يَنْصُبْ﴾ وتعِبَ ومشَقَّ ﴿وَعَذَابٍ﴾ ومرضى مُوجِعٍ وألم شديد، وأنت أرحم الراحمين، كما في سورة الانبياء، فاستجابنا وقلنا له: يا أيوب ﴿أَزْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ واضربها على الأرض بقوة، فضربها فنبعت عين من محل ضرب رجله، فقلنا له: ﴿هَذَا﴾ الماء الذي خرج من العين ﴿مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ﴾ تغتسل به ﴿وَشَرَابٌ﴾ تشرب منه، فاغتسل في ذلك الماء يبرأ ظاهرك، واشرب منه يبرأ باطنك.

وقيل: مغتسل بارد يبرد حرارة الظاهر، وشراب يبرد حرارة الباطن<sup>٣</sup> فاغتسل من الماء وشرب منه، فذهب ما به [من] الداء من ظاهره وباطنه، فقام صحيحاً سالماً من الأمراض، وعاد إليه شبابه وجماله أحسن ما كان<sup>٤</sup>.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: مكث أيوب في البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات، لم يُغَمَّصَ فيهن، ولم يتقلب في المدّة من جنب إلى جنب<sup>٥</sup>، فكشفنا ما به من ضرٍ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ﴾ وأولاده الذين هلكوا حين ابتلانه بهدم البناء عليهم ﴿و﴾ وهبنا ﴿مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ فكان له من الأولاد ضعيف ما كان قبل البلاء.

٢. تفسير الرازي ٢٦: ٢١١.

١. تفسير أبي السعود ٧: ٢٢٨، تفسير روح البيان ٨: ٣٩.

٤ و ٥. تفسير روح البيان ٨: ٤١.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٤١.



عن الصادق عليه السلام: أحيا الله أهله الذين ماتوا قبل البلية، وأحيا الله الذين ماتوا حين البلية<sup>١</sup> وكان ذلك **﴿رَحْمَةً عَظِيمَةً مِّنَّا﴾** عليه. قيل: يعني لرحمة عظيمة عليه من عندنا<sup>٢</sup> **﴿وَلِيَكُونَ ذِكْرًا﴾** وعِظَةً وَعِبْرَةً **﴿لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾** ليصبروا على الشدائد كما صبر أيوب، ويلجأوا إلى الله فيما نزل بهم كما لجأ أيوب إليه، ليفعل بهم ما فعل به من حُسن العاقبة، كما تَمَّ لَمَّا حلف أيوب أن يضرب (رَحْمَةً) زوجته لتقصير توهمه في حقها، كما مرَّ تفصيله في سورة الأنبياء، وكان مغتماً على خلفه بعد اطلاعه على عذرها فيه، كشف الله غمّه بقوله: **﴿وَحُذِّذْ﴾** يا أيوب **﴿بِيدِكَ ضِعْفًا﴾** وحُزْمَةً أَوْ قَبْضَةً من ربحان أو حشيش يكون عدده مائة **﴿فَاضْرِبْ بِهِ﴾** رحمة وأبرَّ قسمك **﴿وَلَا تَخَنْتَ﴾** في يمينك.

ثم مدحه سبحانه بالصبر والقيام بوظائف العبودية والرجوع إلى الله وعدم الشكوى إلى غيره بقوله: **﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾** على البلايا<sup>٣</sup> العظام التي أصابته في نفسه وأهله وماله **﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾** أيوب **﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾** إلى الله رجّاع إليه لا إلى غيره.

روي عن ابن مسعود أنه قال: أيوب رأس الصابرين إلى يوم القيامة<sup>٤</sup>.

روي أنه لما كشف الله البلاء عن أيوب خَطَرَ في قلبه أنه حسن صبره فيما نزل عليه من البلاء فنودي: يا أيوب، أنت صبرت أم نحن صبرناك؟ يا أيوب، لولا أنا وضعنا تحت كل شعرة من البلاء جبلاً من الصبر لم تصبر<sup>٥</sup>.

وفي قوله: **﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾** دلالة على أنه علّة مدحه بالعبودية. قيل: لما نزل **﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾** في حق سليمان، وفي حق أيوب، عَظُمَ الغم في قلوب المؤمنين، وقالوا: لا سبيل لنا إلى تحصيل هذا الشرف؛ لأن سليمان ناله بملك لا ينبغي لأحد بعده، وأيوب ناله بالصبر على البلايا التي نزلت عليه، ولا تقدير على أحدهما. فأنزل الله تعالى: **﴿نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾**<sup>٦</sup> والمراد أنك إن لم تكن نعم العبد، فإنا نعم المولى، وإن كان منك تقصير، فمَنَى الرحمة والتيسير<sup>٧</sup>.

وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ \*  
أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةِ ذِكْرِي الدَّارِ \* وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ \*  
وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ \* هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ

١. تفسير القمي ٢: ٢٤٢، تفسير الصافي ٤: ٣٠١. ٢. تفسير أبي السعود ٧: ٢٢٩، تفسير روح البيان ٨: ٤٢. ٣. في النسخة: البلاء. ٤. و٥. تفسير روح البيان ٨: ٤٥. ٦. في النسخة: البلاء. ٧. الأنفال: ٨/٤٠. ٨. تفسير الرازي ٢٦: ٢١٦.

## لِلْمُتَّقِينَ لَحْسنَ مآبٍ [٤٥-٤٩]

ثم ذكر سبحانه أحوال جمع من الأنبياء العظام بقوله: ﴿وَأَذْكُرُ﴾ يا محمد ﴿عِبَادَنَا﴾ المُخلصين ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ كيف ابتلي بنارٍ نمرود ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ كيف ابتلي بالمصائب العظيمة ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ كيف ابتلي بفراق يوسف حتى ابصت عيناه من الحزن مع أنهم كانوا ﴿أُولَى الْأَيْدِي﴾ والقوة في العبادة ﴿وَالْأَبْصَارِ﴾ والمعارف الإلهية ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ﴾ وبرزأناهم من حُب الدنيا والشهوات ورذائل الأخلاق، أو مَحْصَنَاهُمْ لنا بسبب صفة كريمة ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ من الخصال العالية التي لا شوب فيها، وهي ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ الآخرة، بحيث نَسُوا الدنيا وما فيها، بل نَسُوا أنفسهم.

وقيل: إن المراد خصصناهم بفضيلة وكرامة خالصة لهم، وهي ذكرهم بالعظمة وعُلُو الرتبة في الدار الآخرة، أو في الدنيا إلى يوم القيامة استجابةً لدعائهم بقوله: ﴿وَاجْعَلْ لَنَا لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾<sup>١</sup>.

﴿وَأَنَّهُمْ عِندَنَا﴾ وفي علمنا، أو في نظرنا ﴿لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ﴾ والمختارين من أولاد آدم والمتجيبين من الخلق، لكمال قربنا، والتمحّص لعبادتنا، وتحمل أعباء رسالتنا، ومن ﴿الْأَخْيَارِ﴾ الذين لا يتمنى منهم إلا ما فيه رضا ربهم وصلاح دينهم ونفع أبناء جنسهم، وفي الوصفين دلالة على عصمتهم ﴿وَأَذْكُرُ﴾ يا محمد جدك ﴿إِسْمَاعِيلَ﴾ بن إبراهيم ﴿وَالْيَسَعَ﴾ بن أخطوب خليفة إلياس - على ما قيل - نبي من أنبياء بني إسرائيل<sup>٢</sup> ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ قيل: هو إلياس<sup>٣</sup>. وقيل: إنه ابن عم اليسع<sup>٤</sup> وقيل: إنه يوشع<sup>٥</sup> وقيل: إنه ابن أيوب<sup>٦</sup>، كيف قاسوا الشدائد والآفات، وصبروا على البلايا والأذيات ﴿وَكُلٌّ﴾ منهم ﴿مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ المشهورين بالخير والصلاح ﴿هَذَا﴾ المذكور من افتتان الانبياء وصبرهم على المحن ﴿ذِكْرُ﴾ وعظة لك وتذكرة وتسليّة لقلبك، حيث إن من شأنك أن تصبر على ما لا يصبر عليه غيرك.

قيل: إن المراد هذا الذي تلونا عليك ذكرٌ جميلٌ لهؤلاء الأنبياء يُذكرون به إلى آخر الدهر<sup>٧</sup>.

ثم سلّاه سبحانه بذكر المثوبات التي تترتب على التقوى وإطاعة أحكام الله الموجبة للصبر عليها بقوله: ﴿وَإِنِ لِلْمُتَّقِينَ﴾ والمُطِيعين لأوامر الله ونواهيه مع مالهم من الشرف والذكر الجميل ﴿لَحْسنَ مآبٍ﴾ ومرجع بعد الخروج من الدنيا.

١. تفسير الرازي ٢٦: ٢١٧، والآية من سورة الشعراء: ٨٤/٢٦.

٢. تفسير البضاوي ٢: ٣١٤، تفسير أبي السعود ٧: ٢٣٠، تفسير روح البیان ٨: ٤٧.

٣. تفسير البضاوي ٢: ٣١٤، تفسير أبي السعود ٧: ٢٣١، تفسير روح البیان ٨: ٤٧.

٤. تفسير البضاوي ٢: ٣١٤، تفسير روح البیان ٨: ٤٧.

٥. تفسير البضاوي ٢: ٣١٤، تفسير روح البیان ٨: ٤٧.

٦. تفسير البضاوي ٢: ٣١٤، تفسير روح البیان ٨: ٤٧.

٧. تفسير روح البیان ٨: ٤٨.

جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَّفْتَحَةٌ لَهُمْ الْأَبْوَابُ \* مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ  
وَشَرَابٍ \* وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ \* هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ  
الْحِسَابِ \* إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَالَهُ مِنْ نَقَادٍ \* هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِيْنَ لَشَرًّا مَآبٍ \*  
جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيُسَّ أَلْمِهَادُ \* هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ \* وَآخِرُ مِنْ  
شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ [٥٨-٥٠]

ثم بين سبحانه حسن ما بهم بقوله: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ وبساتين تكون لهم الإقامة فيها أبداً. وقيل: إن عدن علم الجنات، لما روى عن النبي ﷺ قال: «أن الله تعالى بنى جنة عدن بيده، وبنها بليتة من ذهب ولبنة من فضة، وجعل يلاطها المسك، وثرابها الزعفران، وحصانها الياقوت»<sup>١</sup>.

وعلى أي تقدير إذا جاءها المتقون وجدوها ﴿مَفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ منها فيدخلونها بلا انتظار لأن يفتحها البوابون وأن يؤذن لهم في الدخول، بل يستقبلهم الملائكة بالترحيب والتبجيل والتسليم.

وقيل: إن فتح ابوابها كناية عن عدم منعهم من الدخول<sup>٢</sup>، فاذا دخلوا الجنة جلسوا على السرير كالمملوك حال كونهم ﴿مُتَكَبِّرِينَ﴾ على الثمار المصفوفة ومعتمدين عليها ﴿فِيهَا﴾ مستريحين منعمين ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ لتلذذهم ﴿بِفَاكِهَةٍ﴾ وأنواع ﴿كَثِيرَةٍ﴾ من ثمار الجنة ﴿وَشَرَابٍ﴾ من خمر وعسل ولبن وغيرها.

ثم بين سبحانه منكوهم بقوله: ﴿وَعِنْدَهُمْ﴾ فيها أزواج ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ على أزواجهن، لا ينظرون إلى غيرهم، و ﴿أَتْرَابٌ﴾ ومتساويات مع أزواجهن في السن، لا فيهن عجوزة ولا صغيرة. قيل: لأن التحاب بين الأقربان أرسخ<sup>٣</sup>.

في الحديث: «يدخل أهل الجنة [الجنة] جرداً مكحليين أبناء ثلاث وثلاثين سنة، لكل رجل منهم زوجتان، على كل زوجة سبعون حلة، يرى مخ ساقها من ورائها»<sup>٤</sup>.

ويقول لهم الملائكة: ﴿هَذَا﴾ الذي ترون من الثواب العظيم والنعمة الجسيمة هو ﴿مَا﴾ كنتم ﴿تُوْعَدُونَ﴾ في الدنيا على لسان نبيكم على الإيمان والتقوى ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ووقت جزاء الأعمال ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي أنتم فيه من أنواع النعم والكرامات ﴿لَرِزْقُنَا﴾ وعطاؤنا لأوليائنا والمتقين من عبادنا ﴿مَالَهُ مِنْ نَقَادٍ﴾ وانقطاع أبداً وزوال أصلاً.

عن ابن عباس: ليس لشيء نقاد، ما أكل من ثمارها خلف مكانه مثله، وما أكل من حيوانها وطيرها

عاد مكانه حياً<sup>١</sup>.

﴿هَذَا﴾ الذي قلنا للمتقين في الآخرة، وأما الكفار فيبين سبحانه أنهم في ضد حال المتقين بقوله: ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ على الله، والمكذبين للرسل، والمتجاوزين عن الحد في العصيان ﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾ وأسوأ مرجع بعد الموت، وإن كانوا في الدنيا أحسن حالاً من المؤمنين، واعلموا أن مأبهم ﴿جَهَنَّمَ﴾ التي لا شر منها، وهم ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ ويدخلون فيها بغتة، لأنهم مهذوها لأنفسهم في الدنيا ﴿فَيَسَّسَ أَلْمِهَادُ﴾ والفراش جهنم. قيل إطلاق المهاد والفراش عليها من التهكم والسخرية<sup>٢</sup>.

﴿هَذَا﴾ الذي هيئناه لهم وأحضرناه عندهم ﴿فليذوقوه﴾ وليطعموه، وهو ﴿حَمِيمٌ﴾ ومانع متناه في الحرارة والحرقة ﴿وَعَسَاقٌ﴾ ومانع متناه في البرودة. عن ابن عباس: هو الزمهرير يحرقهم ببرده كما تحرقهم النار بحرّها<sup>٣</sup>. وقيل: إنه ما يسيل من قيح أهل النار<sup>٤</sup>.

وقيل: إنه مانع مثنى لو قطرت قطرة منه في المشرق لأنتنت أهل المغرب<sup>٥</sup>. وعن كعب: أنه عين في جهنم يسيل إليها سم كل ذي سم من عقرب وحية<sup>٦</sup>.

والقمي، قال: الغساق: واد في جهنم فيه ثلاثمائة وثلاثون قصراً، في كل قصر ثلاثمائة بيت، في كل بيت أربعون زاوية، في كل زاوية شجاع<sup>٧</sup> في كل شجاع ثلاثمائة وثلاثون عقرباً، في حمة<sup>٨</sup> كل عقرب ثلاثمائة وثلاثون قلة من سم، لو أن عقرباً منها نفخت سمها على أهل جهنم لوسيعهم سمها<sup>٩</sup>. قيل: إن في الآية تقديمًا وتأخيراً، والمراد هذا حميم وغساق فليذوقوه<sup>١٠</sup>.

﴿و﴾ عذاب ﴿آخِرُ﴾ أو مذوق آخر من مثل هذا العذاب أو المذوق، و﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾ في التعذيب والإيلام والشدة والفظاعة ﴿أَزْوَاجٌ﴾ وأجناس مختلفة. قيل: إنه صفة للحميم والغساق والعذاب الآخر<sup>١١</sup>.

هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارَ \* قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمَّمْتُمْ لَنَا فَيَسَّسَ الْقُرَآءُ [٦٠ و ٥٩]

ثم لما بين سبحانه سوء حال الكفار في أنفسهم، بين حالهم مع أتباعهم ومواليهم الذين كانوا معهم

١. تفسير روح البيان ٨: ٥٠.

٢ و ٣. تفسير روح البيان ٨: ٥١.

٤ و ٥. تفسير الرازي ٢٦: ٢٢١، تفسير أبي السعود ٧: ٢٣٢، تفسير روح البيان ٨: ٥١.

٦. الشجاع: ضرب من الحيات.

٧. تفسير الرازي ٢٦: ٢٢١.

٨. الحمة: الإبرة التي تضرب بها العقرب.

٩. تفسير القمي ٢: ٢٤٢، تفسير الصافي ٤: ٣٠٦.

١٠. تفسير الرازي ٢٦: ٢٢١.

١١. تفسير الرازي ٢٦: ٢٢١.

في الدنيا مخاطباً للرؤساء بقوله: ﴿هَذَا﴾ الفوج والجمع السريع للحق بكم في دخول النار أيها الرؤساء ﴿فَوُجٌّ﴾ وجمع ﴿مُقْتَحِمٌ﴾ وداخل ﴿مَعَكُمْ﴾ بالقهر والشدة في النار، كما كانوا يتبعونكم في الدنيا، ويسارعون في قبول قولكم في الكفر والضلال بالاختيار. قيل: هو حكاية لقول الخزنة لرؤساء الكفار<sup>١</sup>.

قيل: يضرب الزبانية المتبوعين والأتباع معاً بالمقامع، فيسقطون في النار خوفاً من تلك المقامع<sup>٢</sup>. ثم لما رأى الرؤساء ضيق مكانهم بدخول الأتباع معهم قالوا في جواب الخزنة: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ ولا كرامة لهم ﴿إِنَّهُمْ﴾ أيضاً ﴿صَالُوا النَّارِ﴾ وداخلوها فيضيقون علينا المكان، ويسنونونا بفتح منظرهم وشوء صحبتهم.

القمي، عن النبي ﷺ: «أَنَّ النَّارَ تُضَيِّقُ عَلَيْهِمْ كَضِيقِ الرَّجِّ بِالرَّمَحِ»<sup>٣</sup>.

فلما سمع الأتباع سوء مقال الرؤساء في حقهم ﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ﴾ أيها الرؤساء أحق بالدعاء عليكم، وأن يقال لكم: ﴿لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ ولا كرامة لكم إذ ﴿أَنْتُمْ﴾ تدعوننا إلى الكفر وتزيينه في نظرنا وترغبنا إليه، وابتليتونا بالعذاب والصلي في النار و﴿قَدْ شَمُوهُ لَنَا﴾ وأوقعتونا فيه، وجعلتم النار لنا مقرأً ﴿فَبَشِّرْ﴾ المقرَّاء ﴿وَسَاءَ الْمَقَرَّ جَهَنَّمُ﴾.

قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ \* وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ \* أَتُخَذُّنَاهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ \*  
إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ [٦١-٦٤]

ثم أعرض الأتباع عن مكالمة رؤسائهم ومخاصمتهم، وقالوا متضرعين إلى الله بقولهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا﴾ العذاب أو الصلي ﴿فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً﴾ ومضاعفاً ﴿فِي النَّارِ﴾ لضلالهم وإضلالهم.

عن القمي: تأويل الطاغين بالاول والثاني وبني أمية، وتأويل الأزواج ببني العباس، وقوله: ﴿لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ يقول بنو أمية لا مرحباً بهم ﴿وَقَالُوا﴾ يعني بنو فلان: ﴿لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ شَمُوهُ لَنَا﴾ يعني بدأنهم بظلم آل محمد ﴿قَالُوا﴾ يعني بنو أمية: ﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا﴾ يعنون الأول والثاني<sup>٤</sup>.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٥٢.

١. تفسير أبي السعود ٧: ٢٣٢، تفسير روح البيان ٨: ٥٢.

٣. مجمع البيان ٨: ٧٥٣، تفسير الصافي ٤: ٣٠٧، ولم أعره عليه في تفسير القمي، والزجج: الحديدية في أسفل الرمح.

٤. تفسير القمي ٢: ٢٤٢.

﴿و﴾ أما شرح حال الطاغين مع أعدائه المؤمنين، فهو أنهم إذا نظروا إلى أطراف جهنم لا يرون المؤمنين ﴿قَالُوا﴾ تعجباً وتوبيخاً ﴿مَا لَنَا﴾ وأي حالٍ عرض علينا بسببه ﴿لَا نَرَى﴾ في جهنم ﴿رِجَالاً﴾ كانوا في الدنيا و ﴿كُنَّا﴾ فيها ﴿تَعُدُّهُمْ﴾ ونَحْسِبُهُمْ ﴿مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ والمفسدين لمخالفتهم إيانا في الدين، وسبهم آلهتنا، وتشيت شملنا، والقاء البغضاء بيننا. وقيل: أرادوا بالأشْرار فقراء المسلمين الذين كانوا يَعدُّونهم من الأراذل والسُّفلة الذين لا خير فيهم، وَيَسْخَرُونَ منهم كسلمان وبلال وأضرابهما<sup>١</sup> ﴿أَتَّخَذْنَاَهُمْ سِخْرِيًّا﴾ وما كانوا كما توهمنا، فلم يدخلوا النار ﴿أَمْ﴾ دخلوها و﴿زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ وانحرفت عنهم الأنظار، فلم تلتفت إليهم. وقيل: إن المراد توبيخ أنفسهم عن الاستسحار منهم في الدنيا أو تحقيرهم فيها، والمعنى أي الأمرين فعلنا بهم الاستسحار منهم أو الازدراء بهم وتحقيرهم، فأنكروا كلاً من الفعلين على أنفسهم توبيخاً لها<sup>٢</sup>.

وقيل: إن (أم) منقطعة، والمعنى اتخذناهم سخرياً، بل زاغت عنهم أبصارنا في الدنيا تحقيراً لهم، وكانوا خيراً ممَّا ونحن لا نعلم<sup>٣</sup> ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي حكينا وأخبرنا بوقوعها يوم القيامة ﴿لَحَقُّ﴾ وصدق وواقع البتة، وهو ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ وجدا لهم فيها بعضهم مع بعض.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ \* رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ  
وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ \* قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ \* أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ [٦٥-٦٨]

ثم لما ذكر سبحانه قصص الأنبياء الذين صبروا على البلايا واليأس، تسليةً للنبي، وحثاً له على الصبر على أذى قومه، وذكر بعده ثواب الإيمان والتقوى، وعقاب الكفر والعصيان لما ذكر، وليصير داعياً للكفر إلى الإيمان، ورادعاً لهم عن الكفر ومخالفة الرسول، عاد إلى بيان الرسالة والتوحيد بقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للمشركين ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَ﴾ مخوِّفٌ لكم من عذاب الله على الكفر والعصيان، وقل لهم: ﴿مَا مِن إِلَهٍ﴾ ومعبودٍ بالاستحقاق في عالم الوجود ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ الذي هو ﴿الْوَاحِدُ﴾ ذاتاً وصفة بحيث لا يمكن تصوُّر الكثرة والتعدد فيه بجهةٍ من الجهات أصلاً، وهو ﴿الْقَهَّارُ﴾ لكل شيءٍ، والغالب على كل شيءٍ بقدرته يُعَذِّبُ من يشاء ويرحم من يشاء، فكيف تدعون له شركاء ولا تخافون قهره وعقابه؟!<sup>٤</sup>

٢. تفسير أبي السعود ٧: ٢٣٣، تفسير الصافي ٨: ٥٤.

١. تفسير روح البيان ٨: ٥٣.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٥٤.

ثم أكد سبحانه وحدته وقدرته بقوله: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا من آلهتكم وغيرها، ومالك جميع الموجودات، ومدبر جميع العوالم، وهو ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب في أمر من الأمور، فلا يكون لشيء عزة ولا قوة ولا غلبة بوجه من الوجوه.

ثم إنه تعالى بعد ترهيب المشركين بتوصيف ذاته المقدسة بالقهارية، رغبهم بالتوبة بتوصيف ذاته بالغفارية، كأنه قال: هو مع قهاريته، وعظمة سلطنته، وكمال قدرته على الانتقام ﴿الْغَفَّارُ﴾ لمن خالفه وعصاه، ومع عفوه ستار لقبائح أعماله إذا تاب وآمن وعمل صالحاً. في الحديث: «إذا قال العبد: يا رب اغفر لي. قال الله: أذنبت عبدي ذنباً، فغفم أن له رباً يغفر الذنوب وما يؤاخذ به، أشهدكم أنني قد غفرت له»<sup>٢</sup>. وإنما قدم ذكر وصف القهارية لمناسبتها للأنذار.

﴿قُلْ﴾ يا محمد، للمشركين: إن القرآن الذي جئتكم به ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ وخبر ذو فائدة مهمة، وذو شأن جسيم، نازل من الله الكريم، يُنبئكم بالتحديد والنبوة والمعاد، وكيفية الحشر والجنة والنار، والعلوم الكثيرة والحكم الوفيرة، والأحكام والأخلاق والآداب، وكل ما تحتاجون إليه من أمور المعاش والمعاد و﴿أَنْتُمْ﴾ أيها المشركون لانغماركم في الضلال ﴿عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ ولتصلبكم في دينكم به لا تعتنون، مع أن جميع الأمور المذكورة من أعظم موجبات السعادة، والجهل بها من أعظم أبواب الشقاوة، وبداهة العقل تحكم بوجوب النظر والتفكير فيها وعدم جواز المساهلة فيها والتغافل عنها.

مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ \* إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ [٦٩ و ٧٠]

ثم استدلل سبحانه على أن القرآن كلام الله تعالى، وأنه نازل منه إليه بالوحي بقوله: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ﴾ ما بوجه من الوجوه ﴿بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ وأحوال الملائكة الساكنين في السماوات العلى، ومكالماتهم بطريق السماع من العلماء وقراءة الكتب والحضور عندهم ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ وحين يقولون لله بعد قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾<sup>٣</sup> أنجعل فيها خلقاً تغلب عليهم الشهوة والغضب، فيفسدون فيه ويسفكون الدماء، ونحن مطهرون من الرذيلتين ومنزهون مما يترتب عليهما من قبائح الأعمال، ومع ذلك تُسبحك وتقدس لك. فردّه الله بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>٤</sup> وإنما

٢. تفسير روح البيان ٨: ٥٥.

١. في تفسير روح البيان: ويأخذ.

٣. البقرة: ٣٠/٢. ٤. البقرة: ٣٠/٢.

عبر سبحانه عن تلك المكالمة بالمخاصمة، لكونها بصورة الاعتراض والرد، وإن كان غرض الملائكة السؤال عن الحكمة.

عن الباقر عليه السلام - في حديث المعراج - : «قال: يا محمد. قلت: لبيك، قال: فيما اختصم الملائكة والأعلى؟ قال: قلت: سبحانه لا علم لي إلا ما علمتني: قال: فوضع يده - أي يد القدرة - بين كفي، فوجدت بزدها بين يدي. قال: فلم يسألني عما مضى وعما بقي إلا علمته، فقال: يا محمد، فيما اختصم الملائكة الأعلى؟ قال: قلت: في الكفارات والدرجات والحسنات»<sup>١</sup>.

وفي رواية (المجمع): «فأما الكفارات فإسباغ الوضوء في السُّبُرات<sup>٢</sup>، ونقل الأقدام إلى الجماعات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، وأما الدرجات فإفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام»<sup>٣</sup>.

وعلى أي تقدير، لا يتصور لي طريق إلى العلم بهذه الأمور المذكورة في الكتب السماوية إلا بالوحي من الله إليّ و ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ وما ينزل هذه المغيبات عليّ ﴿إِلَّا﴾ لأجل ﴿أَنَّمَا أَنَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ تُنذِيرٌ﴾ لكم من عذاب الله على الكفر والعصيان ﴿مُبينٌ﴾ وظاهر إنذارتي ورسالتي عنكم بالدلائل الموضحة لها والمعجزات الباهرة.

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ \* فَاذْأَسْوَيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ \* فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ \* إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ \* قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ \* قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ \* قَالَ فَاهْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ \* وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ \* قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ \* قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ \* إِلَى يَوْمِ أُلُوِّتِ الْمَعْلُوم \* قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُعَوِّبَهُمْ أَجْمَعِينَ \* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ \* قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ \* لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ [٧١-٨٥]

٢. السُّبُرات: جمع سَبْرَة، الغداة الباردة.

١. تفسير القمي ٢: ٢٤٣، تفسير الصافي ٤: ٣٠٩.

٣. مجمع البيان ٨: ٧٥٦، تفسير الصافي ٤: ٣٠٩.



ثُمَّ لَمَّا كَانَ الْمَانِعُ عَنْ إِيْمَانِ الْمُشْرِكِينَ الْحَسَدَ وَالْكَبْرَ، وَكَانَ امْتِنَاعُ إِبْلِيسَ عَنِ السَّجُودِ لَأَدَمَ ذَلِكَ الْمَذْكُورِينَ، حَكَمَى سَبْحَانَهُ خُصُومَةُ الشَّيْطَانِ مَعَهُ فِي أَمْرِهِ بِالسَّجُودِ لَهُ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى بِقَوْلِهِ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ﴾ السَّاكِنِينَ فِي الْأَرْضِ أَوْ لِعُمُومِهِمْ ﴿إِنِّي﴾ بَعْدَ حِينٍ ﴿خَالِقٌ﴾ بِقَدْرَتِي ﴿بَشَرًا﴾ وَإِنْسَانًا ظَاهِرَ الْجِلْدِ فِي الْأَنْظَارِ ﴿مِنْ طِينٍ﴾ وَتُرَابٍ مَبْلُورٍ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ وَصَنَعْتَ جَسَدَهُ، وَأَكْمَلْتَ خَلْقَ أَجْزَائِهِ، وَصَوَّرْتَهُ بِالصُّورَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ﴾ بَعْدَ تَسْوِيَّتِهِ، وَأَفْضَتَ عَلَيْهِ الْجَوْهَرَ الْقُدْسِيَّ الَّذِي كَانَ لَهُ شَرْفُهُ وَعَظَمَتُهُ ﴿مِنْ رُوحِي﴾ وَلَيْسَ لِي رُوحٌ ﴿فَقَعُوا﴾ أَيُّهَا الْمَلَائِكَةُ وَخَرُّوا ﴿لَهُ﴾ حَالِ كُونِكُمْ ﴿سَاجِدِينَ﴾ تَكْرِيماً وَتَعْظِيماً لَهُ، لِاسْتِحْقَاقِهِ مَنْصَبَ الْخَلَافَةِ الْإِلَهِيَّةِ.

ثُمَّ لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى خَلْقَهُ، وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ، قَامَ مِنْ مَكَانِهِ ﴿فَسَجَدَ﴾ لَهُ ﴿الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ مِنْ غَيْرِ رِيثٍ وَتَأْخِيرٍ طَاعَةً لِلَّهِ وَتَعْظِيماً لِأَدَمَ. قِيلَ: أَوَّلُ مَنْ سَجَدَ إِسْرَافِيلُ، وَلِذَا جُوزِيَ بَوْلَايَةِ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ<sup>١</sup>. ثُمَّ سَجَدَ سَائِرُ الْمَلَائِكَةِ ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ لِأَنَّهُ ﴿اسْتَكْبَرَ﴾ وَتَأَنَّفَ مِنَ السَّجُودِ لَهُ وَتَعْظِيمِهِ ﴿وَكَانَ﴾ لِذَلِكَ ﴿مِنْ الْكَافِرِينَ﴾ لِنِعَمِ رَبِّهِ، وَمُنْكَرِي عِلْمِهِ وَحُكْمَتِهِ، أَوْ كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ مِنْ بَدْوِ خَلْقِهِ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَإِنْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ مَعْدُوداً مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِكثْرَةِ عِبَادَتِهِ، فَلَمَّا امْتَنَعَ الْمَلْعُونُ مِنَ السَّجُودِ ﴿قَالَ﴾ اللَّهُ مُشَافِهُهُ لَه: ﴿يَا إِبْلِيسُ﴾ أَخْبِرْنِي ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ وَأَيُّ رَادِعٍ رَدَعَكَ مِنْ ﴿أَنْ تَسْجُدَ﴾ إِكْرَاماً وَتَعْظِيماً ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ وَأَوْجَدْتَهُ بِقَدْرَتِي بِلَا تَوْسُطِ أَبٍ وَأُمٍّ وَدَخَالَه شَيْءٍ مِنَ الْأَسْبَابِ.

عَنِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: «يَعْنِي بِقَدْرَتِي وَقُوَّتِي»<sup>٢</sup>.

قِيلَ: إِنَّ تَثْنِيَةَ الْيَدِ كَنَايَةً عَنْ كِمَالِ الْقُدْرَةِ فِي خَلْقِهِ<sup>٣</sup>.

وَقِيلَ: أُرِيدُ يَدَ الْقُدْرَةِ وَيَدَ النِّعْمَةِ<sup>٤</sup>.

وَقِيلَ: لَمَّا كَانَ مَبَاشَرَةُ السُّلْطَانِ حَمْلَ شَيْءٍ بِيَدِهِ دَلِيلٌ عَلَى كِمَالِ عِنَايَتِهِ بِهِ، كُنِيَ سَبْحَانَهُ عَنْ غَايَةِ عِنَايَتِهِ بِخَلْقِ آدَمَ بِقَوْلِهِ: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾<sup>٥</sup>.

﴿اسْتَكْبَرْتَ﴾ الْآنَ، وَهَلْ تَعْظَمْتَ فِي نَفْسِكَ بِغَيْرِ جِهَةٍ ﴿أَمْ كُنْتَ﴾ فِي الْوَاقِعِ، أَوْ مِنْ قَبْلِ ﴿مِنْ﴾ الْأَكْبَابِ وَ﴿الْعَالِينَ﴾ شَأْناً بِالْإِسْتِحْقَاقِ؟!

قِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْعَالِينَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمَرُوا بِالسَّجُودِ، وَهُمْ الْأَرْوَاحُ الْجَرْدَةُ<sup>٦</sup>، أَوْ الْمُرَادُ

١. تفسير روح البيان ٨: ٥٩.

٢. التوحيد: ٢/١٥٣، عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٣/١٢٠، تفسير الصافي ٤: ٣١٠.

٣. تفسير الرازي ٢٦: ٢٣٠ و٢٣١، تفسير روح البيان ٨: ٦٠.

٤. تفسير الرازي ٢٦: ٢٣١.

٦. تفسير روح البيان ٨: ٦١.

أشباح محمد ﷺ وأوصيائه الذين كانوا يعبدون الله عند ساق العرش<sup>١</sup>.

﴿قَالَ: إِبْلِيسُ: سَجُدَ الْأَفْضَلَ لِلْمَفْضُولِ قَبِيحٌ، وَ﴿أَنَا خَيْرٌ﴾ مِنْ آدَمَ وَأَفْضَلُ ﴿مِنْهُ﴾ ذَاتًا وَخَلْقَةً؛ لِأَنَّكَ «خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ» مُتَصَادِفَةٌ بِالطَّبْعِ نَوَارِنِيَّةٌ لَطِيفَةٌ بِالذَّاتِ، وَأَيْنَ أَنَا مِنْ آدَمَ الَّذِي أَوْجَدْتَهُ «وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» هَابِطٌ بِالطَّبْعِ ظُلْمَانِي، كَتِيفٌ بِالذَّاتِ!

بيان وجوه خيرية والحاصل أن آدم لو كان مخلوقاً من النار ما سجدت له، لكونه مثلي، فيكيف أسجد التراب على النار وأخضع له وهو دوني، وهذا المانع الذي أبداه في الظاهر - وإن كان مانعه في الحقيقة الكبير والحسد - في غاية الفساد؛ لأن مباشرة تعالى خلقته بذاته المقدسة ونفخه فيه من روح وإفاضة العلم الذي لا يعلمه الملائكة المقرَّبون عليه، من أقوى الأدلة على فضله عليه وعلى سائر الملائكة مع أنه قيل: إن التراب خير من النار لوجوه:

منها: أن طبع النار الفساد وإتلاف ما تعلقت به، بخلاف التراب فإنه إذا وُضِعَ فيه البذر أخرجه أضعاف ما وُضِعَ فيه، بخلاف النار فإنها آكلة له.

ومنها: أن طبع النار الخفة والطيش والحدة، بخلاف التراب فإن طبعه الرِّزَانَةُ والسُّكُونُ والثَّبات. ومنها: أن التُّرابَ يتكوَّن فيه ومنه أرزاق الحيوانات وأقواتهم، ولباس الناس وزيتهم، وآلات معاشهم ومسكنهم، وليس في النار تلك الفوائد.

ومنها: أن التُّرابَ ضروريٌّ للحيوانات لا يستغنون عنه في حال ولا عمّا يتكون فيه ومنه، والنار يستغني عنها الحيوان مطلقاً إلا الإنسان، وهو أيضاً يستغني عنها أياماً وشهوراً، ومنها أن النار لا تقوم بنفسها، بل هي مفتقرة إلى محلٍّ تقوم به يكون حاملاً لها، والتراب يقوم بنفسه لا يفتقر إلى حامل. أقول: فيه نظرٌ ظاهرٌ.

ومنها: أن النار مفتقرة إلى التراب، لأن المحل الذي تقوم به لا يتكوَّن إلا من تراب أو فيه، [فهو] المفتقرة إلى التراب والتراب غني عنها. أقول: وفيه نظرٌ.

ومنها: أن مادة إبليس هي المارج من نار، وهو ضعيفٌ تتلاعب به الأهوية، فيميل معها كيف ما مالت، ولذا غلب الهوى على المخلوقين منه فأسره وقهره، بخلاف مادة آدم، وهي التراب، فهو قوي لا يذهب مع الهواء أين ذهب، فهو قهر هواه وأسرته، ورجع إلى ربّه فاجتبه، فكان الهواء الذي مع مادة آدم سريع الزوال فزال، وعاد آدم إلى الثبات والرزانة التي كانت أصلاً له، وكان إبليس بالعكس،

فَعَادَ كُلٌّ إِلَى أَصْلِهِ وَغُصْرِهِ، أَدَمَ إِلَى أَصْلِهِ الطَّيِّبِ الشَّرِيفِ، وَاللَّعِينِ إِلَى أَصْلِهِ الرَّدِيِّ الْخَبِيثِ.  
ومنها: أُنَّ النَّارَ وَإِنْ كَانَ لَهَا بَعْضُ الْمَنَافِعِ كَالطَّبِخِ وَالتَّسْخِينِ وَالِاسْتِضَاءَةِ بِهَا، إِلَّا أَنَّ الشَّرَّ كَامِنٌ فِيهَا، لَا يَصُدُّهَا عَنْهُ إِلَّا قَسْرُهَا وَحَبْسُهَا، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأَسْفَدَتِ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ، وَأَمَّا التَّرَابُ فَالْخَيْرُ وَالْبَرَكَةُ كَامِنٌ فِيهِ، كَلَّمَاءٌ أَثِيرٌ وَقَلْبٌ ظَهَرَ خَيْرُهُ وَبَرَكَتُهُ وَثُمَرَتُهُ.

ومنها: أُنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَكْثَرَ ذِكْرِ الْأَرْضِ فِي كِتَابِهِ، وَأَخْبَرَ عَنْ مَنَافِعِهَا، وَأَنَّهُ جَعَلَهَا، مِهَادًا وَفِرَاشًا وَبَسَاطًا وَقَرَارًا وَكَيْفَانًا لِلْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ، وَدَعَا عِبَادَهُ إِلَى التَّفَكُّرِ فِيهَا، وَالنَّظَرِ فِي آيَاتِهَا وَعَجَائِبِهَا وَمَا أَوْدَعَ فِيهَا، وَلَمْ يَذْكُرِ النَّارَ إِلَّا فِي مَعْرِضِ الْعُقُوبَةِ وَالتَّخْوِيفِ وَالْعَذَابِ، إِلَّا مَوْضِعًا أَوْ مَوْضِعَيْنِ ذَكَرَهَا فِيهِ بِأَنَّهَا تَذْكُرَةٌ وَمَتَاعٌ لِلْمُتَّقِينَ، تَذْكُرَةٌ بِنَارِ الْآخِرَةِ، وَتَمَتُّعٌ الْآخِرَةِ، وَتَمَتُّعٌ بِهَا بَعْضُ النَّاسِ، وَهُمْ النَّازِلُونَ بِالْقَوَاءِ، وَهِيَ الْأَرْضُ الْخَالِيَّةُ، إِذَا نَزَلَ بِهَا الْمَسَافِرُ، فَأَنَّهُ يَتَمَتُّعُ بِالنَّارِ فِي مَنْزِلِهِ.

ومنها: أُنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَصَفَ الْأَرْضَ بِالْبَرَكَةِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ عَمُومًا، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَبَارِكْ فِيهَا﴾<sup>١</sup> وَخُصُوصًا كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَنَجِّنَا وَلَوْطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾<sup>٢</sup> الْآيَةُ، وَنَحْوِهَا. وَأَمَّا النَّارُ فَلَمْ يُخْبِرْ أَنَّ فِيهَا بَرَكَةً، بَلِ الْمَشْهُورُ أَنَّهَا مُذْهِبَةٌ لِلْبَرَكَاتِ.

ومنها: أُنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْأَرْضَ مَحَلًّا لِبُيُوتِهِ الَّتِي يَذْكُرُ فِيهَا اسْمَهُ وَيُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْعُدُودِ وَالْأَصَالِ عَمُومًا، وَبَيْتَهُ الْحَرَامَ الَّذِي جَعَلَهُ قِيَامًا لِلنَّاسِ مَبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ خُصُوصًا، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بَيْتُهُ الْحَرَامُ لَكَفَاهَا شَرَفًا وَفَخْرًا عَلَى النَّارِ.

ومنها: أُنَّ اللَّهَ أَوْدَعَ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْمَعَادِنِ وَالْأَنْهَارِ وَالْعَيُونِ وَالشَّجَرَاتِ وَالْحَبُوبِ وَالْأَقْوَاتِ وَأَصْنَافِ الْحَيَوَانَاتِ وَأَمْتَعَتِهَا، وَالْجِبَالِ وَالرِّيَاضِ وَالْمَرَاقِبِ الْبَهِيَّةِ وَالصُّورِ الْبَهِيَّةِ مَا لَمْ يُودِعْ فِي النَّارِ.

ومنها: أُنَّ غَايَةَ النَّارِ أَنَّهَا وُضِعَتْ خَادِمَةً لَهَا فِي الْأَرْضِ، فَإِنَّ مَحَلَّهَا مَحَلَّ الْخَادِمِ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ فَهِيَ تَابِعَةٌ لَهَا، فَإِذَا اسْتَعْنَتْ عَنْهَا طَرَدَتْهَا، وَإِذَا احْتَاجَتْ إِلَيْهَا اسْتَدْعَتْهَا اسْتِدْعَاءُ الْمَخْدُومِ لَخَادِمِهِ<sup>٣</sup>.

فَلَمَّا أَظْهَرَ اللَّعِينُ التَّكْبَرَ عَلَى أَدَمَ ﴿قَالَ﴾ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَاصْخَرْجِ﴾ يَا إِبْلِيسُ مِنَ الْجَنَّةِ، أَوْ مِنَ السَّمَاوَاتِ، أَوْ مِنْ بَيْنِ الْمَلَائِكَةِ، وَابْعُدْ ﴿مِنْهَا﴾ قِيلَ: تَبِعْتَهُ بِإِهْبَاطِهِ إِلَى الْأَرْضِ<sup>٤</sup>.

ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ عِلْمَهُ أَمْرَهُ بِخُرُوجِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ وَمَطْرُودٌ مِنْ سَاحَةِ رَحْمَتِي وَكُلِّ خَيْرٍ وَبَرَكَةٍ، وَإِنَّمَا كُنِيَ عَنِ الطَّرْدِ بِالرَّجْمِ، لِأَنَّ كُلَّ مَطْرُودٍ مَهَانٌ يُزَجَّمُ بِالْحَجَارَةِ. وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ مَرْجُومٌ

٣. تفسير روح البيان ٨: ٦٢.

٢. الأنبياء: ٧١/٢١.

١. فصلت: ١٠/٤١.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٦٤.

بالشَّهْب<sup>١</sup> «وَأَنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي» والانتقطاع عن رحمتي وفيوضاتي مستمراً و«إِلَى يَوْمِ الدِّينِ» ووقت جزاء الأعمال، فلا توفَّق لعمل يُوجب نجاتك من النار، ومن كان ملعوناً قبل اليوم كان ملعوناً إلى الأبد ومُبتلىً بعذاب شديد هو نتيجة اللعن في الدنيا «قَالَ» إبليس: «رَبِّ إِذَا آلَ أَمْرِي إِلَى الطُّرْدِ وَاللَعْنِ «فَأَنْظِرْنِي» ومهلني في الدنيا ولا تُمتني «إِلَى يَوْمِ» القيامة الذي يحيل فيه آدم وذريته و«يُبْعَثُونَ» من قبورهم للحساب. ولَمَّا كَانَ إِمَّالُهُ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ مُسْتَلْزِماً لَعْدَمِ مَوْتِهِ أَبَداً، لَمْ يُجِبْهُ اللهُ تَعَالَى [إِلَى] مَسْؤُولِهِ، بَلْ «قَالَ» سبحانه: «فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ» والمُهمَلين جزاءً لعبادتك، ولكن «إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» عند الله غير معلوم لغيره، وهو النسخة الأولى على قول، أو الرجعة لا إلى يوم البعث.

فلَمَّا ظَهَرَ قَهْرُ اللهِ وَطَرْدُهُ فِي الدُّنْيَا وَتَعَذُّبُهُ فِي الْآخِرَةِ «قَالَ»: «إِذْ «فَسَبَّوْكَ» وَقَهَرُكَ وَسُلْطَانُكَ، لَأَخْذِ ثَأْرِي مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ «لَأَغْوِيَنَّهُمْ» أحملهم على العصيان بالسواوس والتسويلات، ولأضلَّهم عن الْحَقِّ بِالْقَاءِ الشُّكُوكِ وَالشُّبُهَاتِ فِيهِمْ «أَجْمَعِينَ».

ثُمَّ لَمَّا رَأَى عُلُوَّ مَقَامِ الْخَلَاصِ مِنْ عِبَادِهِ وَعَجْزَهُ عَنْ إِغْوَانِهِمْ قَالَ: «إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ» أعني «الْمُخْلِصِينَ» الذين أخلصتهم لنفسك وطاعتك، عصمتهم من الزلات والتوجه إلى غيرك، لئلا يقع الخلف في وعيده، والكذب في إخباره «قَالَ» الله تعالى تهديداً لإبليس والتابعين له من ذريته: «فَالْحَقُّ» قسمي، أو أنا الحقَّ «وَالْحَقُّ أَقُولُ» وقيل: إِنَّ الْمَعْنَى فَالْحَقُّ تَقُولُ، وَالْحَقُّ أَقُولُ وَعِزَّتِي «لَأَمْلَأَنَّ» يوم القيامة «جَهَنَّمَ مِنْكَ» ومن جنسك من الشياطين «وَمِمَّنْ تَبِعَكَ» من ذرية آدم وأطاعك «وَمِنْهُمْ أَجْمَعِينَ» لا أتروك من التابعين والمتبوعين أحداً.

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ \* إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ

\* وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ [٨٦-٨٨]

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ بِالْإِسْتِدْلَالِ عَلَى بَيِّنَتِهِ، وَصَدَقَ كِتَابُهُ، بِاشْتِمَالِهِ عَلَى الْمُغْيِبَاتِ الَّتِي لَا تَعْلَمُ إِلَّا بِالْحَوْحِيِّ، مِنْ تَخَاصُمِ الْمَلَائِكَةِ، وَتَمَرُّدِ الشَّيْطَانِ مِنْ أَمْرِهِ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ، وَهُوَ الْمَقْتَضِي لِلْإِيمَانِ، أَمْرُهُ بِالْإِعْلَانِ بِعَدَمِ طَمَعِهِ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ الْمَانِعِ لِإِيمَانِهِمْ بِقَوْلِهِ «قُلْ» يَا مُحَمَّدُ: أَنَا مَأْمُورٌ مِنْ قِبَلِ اللهِ بِتَبْلِيغِ كِتَابِهِ، وَإِرْشَادِكُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالطَّرِيقِ الْحَقِّ و«مَا أَسْأَلُكُمْ» ولا أطمع منكم «عَلَيْهِ» شيئاً يسيراً «مِنْ أَجْرٍ» ومالٍ، لَأَنَّ عَمَلِي اللهُ وَأَجْرِي عَلَيْهِ «وَمَا أَنَا» في دعوتي بنبوتي

وكتابي ﴿مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ والمتعسفين في دعوى شيء لا واقع له ولا حقيقة، بل دعوتكم إلى ما دل عليه البرهان وحكم به العقل السليم والمعجزات الباهرات.

عن النبي ﷺ: «أنا برئ من التكلف وصالح أمتي»<sup>١</sup>.

وفي حديث آخر: «أنا والأتقياء من أمتي برآء من التكلف»<sup>٢</sup>.

وعنه ﷺ: «للمتكلف ثلاث علامات: يُنازع من فوقه، ويتعاطى ما لا ينال، ويقول ما لا يعلم»<sup>٣</sup>.

وعن ابن مسعود: يا أيها الناس، من علم شيئاً فليقل، ومن لم يعلم شيئاً فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم، فإنه تعالى قال لنبيه: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾<sup>٤</sup>.

عن الباقر عليه السلام: «قال لأعداء الله أولياء الشيطان أهل التكذيب والإنكار: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ يقول: متكلفاً أن أسألكم ما لستم بأهله»<sup>٥</sup>.

وعن الرضا عليه السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أَنَّ المسلمين قالوا للرسول الله: لو أكرهت يا رسول الله من قَدِرت عليه من الناس على الاسلام لكثُر عددنا وقوينا على عدونا؟ فقال رسول الله ﷺ: ما كنت لألقى الله تعالى ببدعة لم يُحدث لي فيها شيئاً، وما أنا من المتكلفين»<sup>٦</sup>.

عن الصادق عليه السلام، قال: «المتكلف يُخطئ وإن أصاب، والمتكلف لا يستجلب في عاقبة أمره إلا الهوان، في الوقت إلا التعب والعناء والشقاء، والمتكلف ظاهره رياء، وباطنه نفاق، وهما جناحان بهما يطير المتكلف، [و] ليس بالجملة من أخلاق الصالحين ولا من شعار المتقين التكلف في أي باب كان، قال الله لنبيه: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾»<sup>٧</sup>.

ثم أكد سبحانه كون القرآن تنزيلاً من الله، بأنه لو كان من الخلق لكان فيه الترغيب إلى الدنيا، والإلهاء عن ذكر الله، والقَصَص الكاذبة، والمطالب الباطلة. و﴿إِنْ﴾ هذا القرآن، وما ﴿هُوَ﴾ من أوله إلى آخره ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾، وعِظَةٌ ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾، وهُدًى ورحمةٌ للمتقين من الجِنَّة والناس أجمعين ﴿و﴾ الله ﴿لَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ﴾ والخبر العظيم الشأن الذي فيه من الوعد والوعيد والترغيب والتهديد، أو خبره من حيث الصدق والكذب ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾، وزمانٍ مبهمٍ قريب. قيل: هو وقت الموت. وقيل: يوم القيامة<sup>٨</sup>. وكل آتٍ قريب، أو عند خروج القائم عليه السلام كما عن أمير المؤمنين عليه السلام<sup>٩</sup>، وفي غاية التهديد<sup>١٠</sup>.

١. تفسير روح البيان ٨: ٦٧.

٢. جوامع الجامع: ٥٨، تفسير الصافي ٤: ٣١١، تفسير روح البيان ٨: ٦٧.

٣. الكافي ٨: ٥٧٤/٣٧٩، تفسير الصافي ٤: ٣١١.

٤. مصباح الشريعة: ١٤٠، تفسير الصافي ٤: ٣١١.

٥. الكافي ٨: ٤٣٢/٢٨٧، تفسير الصافي ٤: ٣١٢.

٦. تفسير أبي السعود ٧: ٢٣٩، تفسير روح البيان ٨: ٦٨.

٧. تفسير أبي السعود ٧: ٢٣٩، تفسير روح البيان ٨: ٦٨.

٣٦٠..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٥

عن الباقر عليه السلام: «من قرأ سورة «ص» في ليلة الجمعة أعطي من خير الدنيا والآخرة ما لم يُعط أحد من الناس إلا نبي مرسل أو ملك مقرب، وأدخله الجنة، وكل من أحب من أهل بيته حتى خادمه الذي يخدمه، وإن كان لم يكن في حد عياله ومن يُشَقَّع فيه»<sup>١</sup>.  
قد تمّ تفسير السورة بعون الله تبارك وتعالى.

---

١. ثواب الاعمال: ١١٢، مجمع البيان: ٨: ٧٢٣، تفسير الصافي: ٤: ٣١٢.

## في تفسير سورة الزمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ \* إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ  
اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ [٢٠١]

ثم لما كانت سورة «ص» متضمنة لبيان التوحيد والنبوة والمعاد، باثبات كون القرآن نازلاً من الله تبارك وتعالى، نظمت بعدها سورة الزمر المتضمنة لبيان التوحيد والمعاد، المبدوءة بعد افتتاحها بذكر الاسماء المباركات بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ بكون القرآن مُنزَلاً من الله بقوله: ﴿تَنْزِيلُ﴾ هذا ﴿الْكِتَابِ﴾ المُسَمَّى بالقرآن يكون ﴿مِنْ﴾ جانب ﴿اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ القادر على كل شيء ﴿الْحَكِيمِ﴾ والعالم بجميع الأشياء وصلاحها، فيقدرته أَلْفَ من الحروف المتداولة في الإنس، بكيفية عَجَزَتِ الإنس والجن عن الإتيان بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. وبحكمته جعله مشتملاً على الحكم التي لا يُحيط بها أحد، وعلى جميع ما يحتاج إليه الناس إلى يوم القيامة.

وقيل: إن الوصفين للكتاب<sup>١</sup>، والمعنى تنزيل الكتاب من الله، وهو كتاب عزيز حكيم لظهور الوصفين فيه، بجريان أحكامه، ونفاذ أوامره ونواهيه من غير مدافع ولا مانع، وإبتناء جميع ما فيه على أساس الحكم الباهرة.

ثم لما كان لازم الايمان بكون القرآن نازلاً من الله القيام بعبوديته وترك عبادة غيره، أكد سبحانه نزوله من الله بقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿الْكِتَابِ﴾ المقرون ﴿بِالْحَقِّ﴾ ودلائل الصدق، من إعجاز البيان، واشتماله على العلوم الكثيرة، والأمور الغيبية.

وقيل: إن الأول لبيان شأن المنزل، والثاني لبيان شأن المنزل إليه، فلا تُكرّر، وذكر لفظ الكتاب في موضع ضميره لبيان عظّمته وعلوّ شأنه<sup>٢</sup>.

٢. تفسير أبي السعود ٧: ٢٤٠، تفسير روح البيان ٨: ٦٩.

١. تفسير روح البيان ٨: ٦٩.

وقيل: إن معنى بالحق بسبب الحق وإثباته وإظهاره، أو المعنى كوننا محققين في ذلك.<sup>١</sup>  
ثم رتب عليه الأمر بالعبادة الخالصة له بقوله: ﴿فَاعْبُدْ اللَّهَ﴾ يا محمد، حال كونك ﴿مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ الذي أوحينا إليك، ومحمضاً له الطاعة من شوائب الشرك والرياء والشك والهوى، ومن المعلوم أن المخاطب في الظاهر هو النبي ﷺ، وفي الحقيقة هو أمته.

أَلِلّٰهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالدِّينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ إِنْ أَلَّهُ زُلْفَىٰ إِنْ أَلَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَبِمَا هُمْ بِهِ يَخْتَلِفُونَ إِنْ أَلَّهُ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ [٣]

ثم كون الخطاب إلى العموم بقوله: ﴿أَلَا﴾ أيها العقلاء تنبهوا على أن ﴿الله﴾ خاصة ﴿الدِّينِ الْخَالِصِ﴾ من الشرك والشك ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ واختاروا لأنفسهم ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ ومما سواه ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ وأرباباً هم مشركون، وإذا قيل لهم: لم تعبّدون الأصنام مع اعترافكم بأن الله خالقكم وخالق السماوات والأرض وما بينهما؟ قالوا: لا ندعو الأصنام و﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ لغرض من الأغراض ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ وقرّبي، وليكونوا وسيلة علوّ منزلتنا عنده.

ثم هدّد سبحانه المشركين المعارضين والمخالفين للمخلصين بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ﴾ يوم القيامة ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بعدله ﴿فَبِمَا هُمْ بِهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين بتعذيب المشركين وإكرام المخلصين، أو المراد يحكم بين المشركين ومعبودهم، حيث إن المشركين يرجون شفاعة أصنامهم وأصنامهم يلعنونهم.

عن الصادق عليه السلام، عن أبيه عليه السلام: «أن رسول الله قال: إن الله تبارك وتعالى يأتي يوم القيامة بكل شيء يعبد من دونه من شمس أو قمر أو غير ذلك، ثم يسأل كل إنسان عما كان يعبد، فيقول من عبد غيره: ربنا إنا كنا نعبدك ليقربنا إليك زلفى. قال: فيقول الله تبارك وتعالى للملائكة: أذهبوا وبما كانوا يعبدون إلى النار، ما خلا من استثنيت، فإن أولئك عنها مبعدون»<sup>٢</sup>.

ثم هدّدهم بحراماتهم عن الحق، ووصولهم إلى المقصود في الدنيا بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ ولا يوفق للوصول إلى الحق والمقصود ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ ولا يوفق للوصول إلى الحق والمقصود ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ في القول بالوهمية الأصنام، وتقريبهم عبّدتهم إلى الله، وشفاعتهم عنهم عند الله

١. تفسير أبي السعود ٧: ٢٤٠، تفسير روح البيان ٨: ٦٩.

٢. قرب الإسناد: ٢٧٩/٨٥، تفسير الصافي ٤: ٣١٣.



و﴿كَفَّارٌ﴾ ونبالغ في تضييع حقوق نعم الله، أو مُصرِّ في كفرهم وعبادتهم غير الله.

لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ  
الْقَهَّارُ \* خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ  
النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ  
الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ [٥ و ٤]

ثم إنه تعالى بعد تهديد المشركين شرَّع في إبطال مذاهبهم التي منها القول بأن الملائكة بنات الله بقوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ﴾ ويختار لنفسه ﴿وَلَدًا﴾ كما زعمه بعض المشركين واليهود والنصارى ﴿لَاصْطَفَىٰ﴾ وانتخب ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ ويقرر على اتخاذ ﴿مَا يَشَاءُ﴾ أن يكون ولده، ومن الجواهر القدسية والعقول المجردة، لا عيسى ومريم وعزير، ولا البنات التي تكرهونها لأنفسكم ﴿سُبْحَانَهُ﴾ وتقدس ذاته عما نسبوا إليه من الولد، لا متناعه له، بل ﴿هُوَ اللَّهُ﴾ الواجب الوجود ﴿الوَاحِدُ﴾ من جميع الجهات لا تركيب له ولا ثاني له ولا صاحبة ولا ولد، هو ﴿الْقَهَّارُ﴾ الذي يقهر جميع الموجودات بقدرته، فلا يحتاج إلى ولدٍ يعاونه في الأمور ويقوم مقامه بعد الموت.

ثم أكد سبحانه كمال قدرته وغناؤه بقوله: ﴿خَلَقَ﴾ بقدرته الكاملة، بلا مشارك ولا معاون ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ السبع ﴿وَالْأَرْضَ﴾ وما بينهما، والحال أن خلقها ﴿بِالْحَقِّ﴾ والحكمة البالغة، لا بالعبث والباطل و﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ﴾ ويغلبه ﴿عَلَى النَّهَارِ﴾ بحيث يذهب النهار عن الأبصار ﴿وَيُكَوِّرُ﴾ ويغلب ﴿النَّهَارَ﴾ بنوره ﴿عَلَى اللَّيْلِ﴾ المظلم بحيث يزِيل ظلمته، فشبّه سبحانه النور والظلمة بعسكرين مهيبين عظيمين قد يغلب هذا ذاك، وقد يغلب ذاك هذا. وقيل: إن التكوير بمعنى الإقبال، وعلى أي تقدير أريد زيادة أحدهما ونقص الآخر، وذلك دليل على كونهما تحت تدبيره وقدرته ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ﴾ التي هي سلطان النهار ﴿وَالْقَمَرَ﴾ الذي هو سلطان الليل، وذللّهما تحت قدرته وسلطانه، وجعلهما متقادين لأمره وإرادته، فبارادته ﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجْرِي﴾ ويسير في الفلك على وفق صلاح العالم ﴿لِلْأَجَلِ﴾ ووقت ﴿مُسَمًّى﴾ ومعين قدره الله بحكمته، وهو منتهى دورته في كل يوم، أو في كل شهر أو منتهى حركته وسيره، وهو يوم القيامة الذي فيه تَطْوِي السماء كَطَي السَّجَل للكتب.

ثم لما ذكر سبحانه الآيات العظيمة على قدرته الكاملة، أعلن في الناس بانحصار قدره في ذاته

المقدسة بقوله، ﴿أَلَا﴾ أيها العقلاء اعلموا أن الله تعالى ﴿هُوَ الْغَرِيزُ﴾ والغالب القادر على كل شيء. ثم لما كانت قدرته موجباً لأرغاب القلوب وترهيب النفوس منه، أعلن بكمال رحمته ورأفته بعباده بقوله: ﴿أَلْعَفَاؤُ﴾ بعباده لا يقطع عنهم رحمته بعصيانهم، ولا يعاجل بالعقوبة على سيئاتهم. قيل: الغفار وهو سائر القبانح، فكما ستر قبانح الأبدان وقذاراتهم في باطنهم، يستر خواطرهم المذمومة وإرادتهم السيئة، كإرادة الغش والخيانة والظنون الرديئة في ضميرهم، مع أنه لو كانت ظاهرة لمقتوا أصحابها، بل قتلوهم، وكذلك يستر ذنوبهم التي موجبة للافتضاح بها عن الناس، بتبديلها بالחסنات إذا مات على الإيمان<sup>١</sup>.

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ [٦]

ثم إنه تعالى بعد استدلاله على التوحيد بالآيات الأفاقية، استدلل عليه بالآيات الأنفسية بقوله: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ الله بقدرته ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهي آدم أبو البشر ﴿ثُمَّ جَعَلَ﴾ وخلق من جنس تلك النفس أو من جزء ﴿مِنْهَا﴾ وهو الصلغ الذي يلي الخاصرة، أو من بقية طبيعتها ﴿زَوْجَهَا﴾ حواء ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾ إلى الأرض من الجنة على قول<sup>٢</sup>، أو خلق لاتنفاعكم، كما عن أمير المؤمنين عليه السلام<sup>٣</sup> ﴿مِنْ الْأَنْعَامِ﴾ الأربعة: الإبل، والبقرة، والضأن، والمعز، للإبل قسمان: بخاتي<sup>٤</sup> وعيراب، وللثلاثة الآخر أيضاً قسمان: أهلي، ووحشي، أو لكل قسمان: الذكر، والأنثى، فيصير المجموع ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ وأصناف، ولما كان انتفاع الناس بالأنعام أكثر، أو لكونها أشرف الحيوانات، خصها بالذكر.

ثم لما ذكر سبحانه مبدأ خلق الانسان، وكونهم من نفس واحدة، ذكر كيفية خلقهم بقوله: ﴿يَخْلُقْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ وأرحامهن ﴿خَلْقًا﴾ تدريجياً ومتأخراً ﴿مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ سابقٍ فخلقكم إنساناً سوياً من بعد تكسية عظامكم بلحم، وذلك بعد خلقكم عظاماً، وذلك بعد خلقكم مضغة، وذلك بعد خلقكم علقة، وذلك بعد خلقكم نطفة، وكل ذلك كائن ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، كما عن الباقر عليه السلام<sup>٥</sup> أو ظلمة الصلب، وظلمة

١. تفسير روح البيان ٨: ٧٣.

٢. تفسير الرازي ٢٦: ٢٤٥.

٣. البخاتي: الإبل الخراسانية.

٤. الاحتجاج: ٢٥٠، تفسير الصافي ٤: ٣١٤.

٥. مجمع البيان ٨: ٧٦٦، تفسير الصافي ٤: ٣١٥.

البطن، وظلمة الرحم<sup>١</sup>.

﴿ذَلِكُمْ﴾ القادر الحكيم ﴿الله﴾ وهو ﴿رَبُّكُمْ﴾ ومُكَمَّل وجودكم في تلك الأطوار وما بعدها، أو مالكم المُنعم عليكم في جميع العوالم، المستحق لعبادتكم و ﴿لَهُ﴾ وحده ﴿الْمُلْكُ﴾ والسُّلْطَنَةُ المطلقة الكاملة لا غيره، فاذن ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا معبود سواه، فاذا عرفتم خالقكم وما لَكُمْ والمُنعم عليكم، والسلطان المقتدر عليكم ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ وكيف تردون عن عبادته، وتعرضون عن إطاعته، وتشغلون بعبادة الأصنام والجمادات؟!

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [٧]

ثم أنتم - أيها الناس - بعد الإحاطة بما تلونا عليكم من آيات وحدانيته وقدرته وحكمته، وتزَّهه عن الشريك والولد ﴿إِنْ تَكْفُرُوا﴾ بوحْدانيته ونعمه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ بذاته ﴿غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ وعن إيمانكم وعبادتكم، بل عن العالمين، فإنه واجب الوجود من جميع الجهات، وكامل الصفات بالذات، لا يُتَصَوَّر فيه الحاجة حتى يقضي بكم حاجته، ﴿وَلَكِنْ﴾ لكن ﴿لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ لطفاً بهم ورحمةً عليهم، حيث إنَّ الكفر يَصْرَهُمْ ويُسْقِطُهُمْ عن أهلية الرحمة والإنعام، ويحرِّمهم عن الفيوضات الابدية الدنيوية والأخروية. القمي: هذا كثر النعم<sup>٢</sup>.

﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا﴾ نعمة بالايان والقيام بالعبودية، رُوي أنَّ الشكر الولاية والمعرفة<sup>٣</sup>، يُحِبُّ الله الشكر و﴿يَرْضَىٰ لَكُمْ﴾ لأنه سبب فوزكم بسعادة الدارين والنشأتين لا لانتفاعه تعالى به.

ثم لما ذكر سبحانه غضبه وسَخَطه على الكفر، نبَّه بأنَّ ضرره وتبعاته لا تتعدى الكافر، ولا تسرى إلى غيره بقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ ولا تحمِل نفس ﴿وَازِرَةٌ﴾ وحاملة للكفر وقل العصيان ﴿وِزْرُ﴾ نفس ﴿أُخْرَىٰ﴾ وحملها من الذنب والمعصية، بل كل نفس تحمل وزر نفسها ويعاقب عليه ﴿ثُمَّ﴾ بعد الموت ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ ومالك أمركم وحده ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ ومصيركم بالبعث والنشور ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ ويخبركم عند ذلك ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والايان والطاعة والعصيان بالمحاسبة والمجازاة، والثواب والعقاب، وفيه غاية التهديد على الكفر.

١. مجمع البيان ٨: ٧٦٦، تفسير الرازي ٢٦: ٢٤٥، تفسير روح البيان ٨: ٧٥.

٢. تفسير القمي ٢: ٢٤٦، تفسير الصافي ٤: ٣١٥. ٣. المحاسن: ٦٥/١٤٩، تفسير الصافي ٤: ٣١٥.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ الْخَوْفُ مِنَ الْعِقَابِ مُتَوَقِّعًا عَلَى عِلْمِ الْمَعَاقِبِ بِالْعَصِيَانِ، أَعْلَنَ سُبْحَانَهُ بِسَعَةِ عِلْمِهِ يَقُولُ: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ والمضمرات في القلوب، فكيف بغيرها من الأعمال الظاهرة؟

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ اللَّهُ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ [٨]

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ الْاِسْتِدْلَالِ عَلَى التَّوْحِيدِ بِالْأَدْلَةِ الْوَاضِحَةِ وَإِظْهَارِ سَخَطِهِ عَلَى الشُّرْكِ، بَيَّنَّ شِدَّةَ لَجَاجِ الْمُشْرِكِينَ وَكُفْرَانِهِمْ نِعْمَهُ يَقُولُ: ﴿وَإِذَا مَسَّ﴾ وَأَصَابَ ﴿الْإِنْسَانَ﴾ الْجَهْلُ الْمُشْرِكُ ﴿ضُرٌّ﴾ وَسُوءُ حَالٍ مِنْ فَقْرٍ أَوْ مَرَضٍ أَوْ غَيْرِهِمَا مِنَ الشَّدَائِدِ ﴿دَعَا رَبَّهُ﴾ فِي كَشْفِ ذَلِكَ الضَّرِّ، وَنَادَى مَالِكَهُ الْقَادِرَ عَلَى دَفْعِهِ لِلْخَلَاصِ مِنْ تِلْكَ الْبَلِيَّةِ حَالِ كَوْنِهِ ﴿مُنِيبًا﴾ وَرَاجِعًا ﴿إِلَيْهِ﴾ بِالتَّوْبَةِ وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ، وَخَاضِعًا لَهُ، وَمَتَضَرِّعًا عِنْدَهُ ﴿ثُمَّ إِذَا﴾ أزال الله عنه و﴿خَوَّلَهُ﴾ وَأَعْطَاهُ ﴿نِعْمَةً﴾ عَظِيمَةً ﴿مِنْهُ﴾ مِنَ الْغِنَى وَالصَّحَّةِ وَالرَّاحَةِ ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو﴾ اللهُ ﴿إِلَيْهِ﴾ مِنَ الضَّرِّ يَسْأَلُهُ كَشْفَهُ ﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ أَوْ نَسِيَ رَبَّهُ الَّذِي كَانَ ذَلِكَ الْكَافِرُ يَدْعُوهُ وَيَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلِ التَّحَوُّلِ وَالْإِعْطَاءِ، وَمَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُهُ لَمْ يَتَضَرَّعْ إِلَيْهِ، وَرَجَعَ إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ﴿وَجَعَلَ﴾ فِي حِسَابَانِهِ تِلْكَ الْأَوْثَانِ ﴿لَهُ أَنْدَادًا﴾ وَشُرَكَاءَ فِي الْعِبَادَةِ، أَوْ أَمْثَالًا فِي الْقُدْرَةِ، أَوْ أَضْدَادًا فِي الْكُفُوفَةِ، وَهَذَا مِنْ أَعْجَبِ الْأَعْجَابِ، حَيْثُ إِنَّهُمْ فِي حَالِ الضَّرَرِّ يَعْتَقِدُونَ تَوْحِيدَهُ وَقُدْرَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الْأُمُورِ، وَفِي حَالِ الرِّخَاءِ يَعْتَقِدُونَ كُونَ الْجَمَادَاتِ أَمْثَالًا لَهُ فِي الْقُدْرَةِ، وَشُرَكَاءَ لَهُ فِي الْأُلُوهِيَةِ. وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ ارْتِكَابَ هَذَيْنِ الْمُتَنَاقِضَيْنِ لَا يَكُونُ إِلَّا بَهْوَى النَّفْسِ وَاتِّبَاعَ الشَّهْوَةِ، لِيُضِلَّ بِنَفْسِهِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿لِيُضِلَّ﴾ النَّاسَ أَيْضًا عَنْ سَبِيلِهِ إِلَى قُرْبِهِ، وَإِلَى كُلِّ خَيْرٍ وَهُوَ التَّوْحِيدُ.

ثُمَّ أَمَرَ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهِ ﷺ بِتَهْدِيدِهِمْ يَقُولُ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَذَا الْكَافِرِ: ﴿تَمَتَّعْ﴾ وَانْتَفِعْ مِنْ نِعَمِ الدُّنْيَا ﴿بِكُفْرِكَ﴾ الَّذِي تَخَيَّلْتَهُ وَسَبِيلًا إِلَى نَيْلِ تِلْكَ النِّعَمِ وَالِاتِّفَاعِ بِهَا تَمَتُّعًا وَاتِّفَاعًا ﴿قَلِيلًا﴾ أَوْ زَمَانًا يَسِيرًا، وَلَكِنْ لَا تَفْرَحْ بِذَلِكَ ﴿إِنَّكَ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ وَمُلَازِمُهَا، وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ لَذَّةَ تَمَتُّعِكَ فِي تَمَامِ عَمْرِ الدُّنْيَا لَا يُعَدُّ فِي جَنْبِ عَذَابِ الْآخِرَةِ شَيْءً.

عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ سَنَلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «نَزَلَتْ فِي أَبِي الْفَضْلِ، إِنَّهُ كَانَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عِنْدَهُ سَاحِرًا، فَكَانَ إِذَا مَسَّهُ الضَّرَرُّ، يَعْنِي السَّهَمُ ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ يَعْنِي تَابًا إِلَيْهِ، مِنْ قَوْلِهِ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا يَقُولُ: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً﴾ يَعْنِي الْعَافِيَةَ ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ يَعْنِي

نسي التوبة إلى الله تعالى مما يقول في رسول الله إنه ساحرٌ، ولذلك قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَمَنَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ يعني إمرتك على الناس بغير حق من الله تعالى ومن رسوله<sup>١</sup>.

أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ  
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ [٩]

ثم إنه تعالى بعد ذمّ المشرك وتهديده، مدح الموحّد المتقطع إلى الله بقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ وعابدٌ لله ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ وساعاته حال كونه ﴿سَاجِدًا﴾ لله ﴿وَقَائِمًا﴾ في الصلاة وباجتهاده في العبادة ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ ويتقي من أهوالها، ﴿وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ ومغفرته، وفضله عليه بالجنة ونعمها الدائمة، لا إنه يحذر ضرر الدنيا ويرجو منافعتها فقط، كمن يُعرض عن عبادة الله ويُشرك به مخلوقاته الخسيسة، حاشا أن يكونا متساويين.

عن ابن عباس: من أحب أن يهون الله عليه الموقف يوم القيامة، فليره الله في سواد الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربّه<sup>٢</sup>.

ثم أكد سبحانه إنكار التساوي بين الموحّدين المطيعين والمشرّكين العاصين بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد، للعقلاء المنصفين ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ في نظركم وحكم عقلكم ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ المبدأ والمعاد، وما ينجون به من المهالك، وما فيه صلاحهم ﴿وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً؟ بل في جهلهم وضلالهم يعمهون، لا يستتون أبداً، بل بينهما بونٌ بعيدٌ، لوضوح أنّ الأولين في أعلى درجات السعادة والخير، والآخرين في أنزل دركات الشقاوة والشرّ، وفيه تنبيهٌ على أنّ القانتين هم العلماء، وغيرهم هم الجّهال، وإن حصلوا العلوم الظاهرية.

قال بعض العامة: إنّ الآية نزلت في عثمان، لأنّه كان يحيي الليل في ركعة واحدة يقرأ القرآن فيها<sup>٣</sup>. أقول: لا شبهة في أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان أعبد أصحاب الرسول وأعلمهم، فنزوله في شأنه أولى، كما عن الصادق عليه السلام في الرواية السابقة. قال: «ثم عطف القول من الله في علي عليه السلام يخبر بحاله وفضله عند الله، فقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ إلى أن قال: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ أنّ محمداً رسول الله ﷺ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ محمداً رسول الله ﷺ، أو أنّه ساحرٌ كذابٌ»<sup>٤</sup>.

ثم نبّه سبحانه على أنّ فهم التفاوت بينهم شأن العقلاء بقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ ويفهم ذلك التفاوت

١. الكافي ٨: ٢٤٦/٢٠٤، تفسير الصافي ٤: ٣١٥.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٨١.

٣. الكافي ٨: ٢٤٦/٢٠٤، تفسير الصافي ٤: ٣١٦.

٤. تفسير الرازي ٢٦: ٢٥١.

٣٦٨ ..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٥

بين الفرق، وقيل: يعني إنما يتعظ بهذه البيانات الواضحة ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾<sup>١</sup> وذوو العقول الخالصة عن شوائب الأوهام.

عن الباقر عليه السلام: «إنما نحن الذين يعلمون، وعدونا الذين لا يعلمون، وشيعتنا أولو الألباب»<sup>٢</sup>. وعن الصادق عليه السلام ما يقرب من ذلك<sup>٣</sup>.

وعن المثجبي عليه السلام: «أولوا الألباب هم أولو العقول»<sup>٤</sup>.

### قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِينَ لَدَيْنَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ [١٠]

ثم لما بين سبحانه علو رتبة المجتهدين في العبادة، أمر نبيه صلى الله عليه وآله بحث المؤمنين على التقوى والطاعة بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للمؤمنين على حسب رسالتك: إن الله يقول لكم ﴿يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيدي ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ واحذروا عذابه بالالتزام بطاعته والاجتناب عن معصيته. ثم رغبهم في طاعته بذكر فائدتها الدنيوية بقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أعمالهم بالاخلاص وصدق النية ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ ومدة العمر فيها فائدة ﴿حَسَنَةً﴾ من التوفيق والتأييد، والأنس بالله، واطمئنان القلب وبذكره، والحب في قلوب المؤمنين، والعزة عند الناس، والمهابة في قلوب الكفار. وقيل: إن المراد الصحة والعافية<sup>٥</sup>.

وقيل: الصحة والأمن والكفاية، لقول النبي صلى الله عليه وآله: «ثلاثة ليس لها نهاية: الأمن، والصحة، والكفاية»<sup>٦</sup>. وعن أمير المؤمنين: «أن المؤمن يعمل لثلاث من الثواب: أما الخير فإن الله يثيبه بعمله في الدنيا - ثم تلا هذه الآية، ثم قال -: فمن أعطاه الله في الدنيا لم يحاسبه به في الآخرة»<sup>٧</sup>. وقيل: إن الظرف متعلق بقوله: ﴿أَحْسَنُوا﴾ والمعنى: أن الذين أحسنوا في الدنيا فلهم حسنة في الآخرة، وهي الجنة والتعم الدائمة<sup>٨</sup>.

ثم لما كان كثير من المقصرين في الطاعة<sup>٩</sup> والاحسان في العمل، دفع الله سبحانه عذرهم بقوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ﴾ وبلاده ﴿وَاسِعَةٌ﴾ وكثيرة، فمن تعسر عليه توفير الطاعة<sup>١٠</sup> في بلده ووطنه، فعليه أن

١. تفسير أبي السعود ٧: ٢٤٥.

٢. الكافي ١: ٢/١٦٦، تفسير الصافي ٤: ٣١٦.

٣. الكافي ٨: ٦/٣٥، تفسير الصافي ٤: ٣١٦.

٤. الكافي ١: ١٢/١٥، تفسير الصافي ٤: ٣١٦.

٥. تفسير الرازي ٢٦: ٢٥٢، تفسير البيضاوي ٢: ٣٢١، تفسير أبي السعود ٧: ٢٤٦. ٦. تفسير الرازي ٢٦: ٢٥٢.

٧. أمالي الطوسي: ٣١/٣٥، تفسير الصافي ٤: ٣١٦. ٨. تفسير الرازي ٢٦: ٢٥٢.

٩ و ١٠. كذا، والظاهر أن الصواب: التفرغ على الطاعة.

يُهاجر منه إلى بلدٍ آخر يتمكّن فيه من ذلك، كما هو سُنّة الأنبياء والصالحين، ويصير على مفارقة الوطن المألوف، والبعد من الأحبة والأقارب ومشاقّ الطاعة ﴿إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ﴾ على البلايا والمحن في حفظ دينه والعمل بطاعة الله وَيُعْطُونَ ﴿أَجْرَهُمْ﴾ كاملاً بمقابلة ما كابدوا من الصبر ﴿يَغْيِرُ حِسَابٍ﴾ وإحصاءٍ لعجز المحاسبين عنه.

رُوي عن النبي ﷺ «أَنَّهُ تُنْصَبُ الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة والصدقة والحج، فيؤفون بها أجورهم، ولا تُنْصَبُ لأهل البلاء، بل يُنْصَبُ عليهم الأجر صَبّاً حتى يتمنى أهل المعافاة في الدنيا أن أجسادهم تُقرض بالمقاريض ممّا يذهب به أهل البلاء من الفضل»<sup>١</sup>.

قيل: لَمَّا نَزَلَ ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾<sup>٢</sup> قال النبي ﷺ «رَبِّ زِدْ لَأُمَّتِي» فنزل: ﴿مِثْلَ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمِثْلِ حَبَّةِ انْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَبْلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾<sup>٣</sup> إلى آخره. فقال: ﴿رَبِّ زِدْ لَأُمَّتِي﴾ فنزل: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه أضعافاً كثيرة﴾<sup>٤</sup> فقال: ﴿رَبِّ زِدْ لَأُمَّتِي﴾ فنزل: ﴿إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فأنتهى رسول ﷺ<sup>٥</sup>.

وعن الصادق عليه السلام قال «قال رسول ﷺ: إذا نُشِرَتِ الدواوين وُنُصِبَتِ الموازين لم يُنْصَبْ لأهل البلاء ميزانٌ، ولم يُنْشَرْ لهم ديوانٌ»<sup>٦</sup>.

في فضيلة الصبر وعنه ﷺ: «إذا كان يوم القيامة يقوم عُتَق من الناس<sup>٧</sup> فيأتون باب الجنة فيضربونه فيقال لهم: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر. فيقال لهم: على ما صبرتم؟ فيقولون: كنا نصبر على طاعة الله، ونصبر على معاصي الله. فيقول الله عز وجل: صدقوا، ادخلوا الجنة، وهو قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾»<sup>٨</sup>.

أقول: ظاهر الروايتين الأخيرتين أن المراد من قوله: ﴿يَغْيِرُ حِسَابٍ﴾ أنهم لا يقومون يوم القيامة في مقام الحساب، ولا يحاسبون على شيء من أعمالهم.

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ \* وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ  
الْمُسْلِمِينَ \* قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١١-١٣)

١. تفسير الرازي ٢٦: ٢٥٤، تفسير البيضاوي ٢: ٣٢١، تفسير أبي السعود ٧: ٢٤٦، تفسير روح البيان ٨: ٨٥.  
٢. الأنعام: ١٦٠/٦. ٣. البقرة: ٢٦١/٢. ٤. البقرة: ٢: ٢٤٥/٢. ٥. تفسير روح البيان ٨: ٨٥.  
٦. مجمع البيان ٨: ٧٦٧، تفسير الصافي ٤: ٣١٧. ٧. أي جماعة منهم.  
٨. الكافي ٢: ٤/٦٠، عن الصادق عليه السلام، تفسير الصافي ٤: ٣١٧.

٣٧٠..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٥

ثم إنَّ تعالى بعد الأمر بالقوى، والتأكيد في ملازمة العبادة، أمر نبيِّه ﷺ بتبليغ وجوب الاخلاص فيها بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للمشركين ﴿إِنِّي أُمِرْتُ﴾ من قبل ربِّي ﴿أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ وامتثل أوامره ونواهيه حال كوني ﴿مُخْلِصاً﴾ ومُحْضاً ﴿لَهُ الدِّينَ﴾ والعبادة من الشرك الرياء والأغراض الدنيوية ﴿وَأُمِرْتُ﴾ من قبله تعالى ﴿لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وأقدمهم في التسليم والانقياد له تعالى، كي أكون أقدمهم في الآخرة في نيل الثواب والدخول في الجنة.

قيل: إنَّ لام (لأن أكون) ليست زائدة، بل هي للتعليل. والمعنى: إنَّما أمرت بالعبادة والإخلاص فيها، لأجل أن أكون مقدماً في الدنيا والآخرة.

روى أن كفَّار مكة قالوا للنبيِّ ﷺ: ما يَحْمِلُكَ على الذي أتيتنا به؟ ألا تنظر إلى ملة أبانك وسادات قومك يعبُدون الآلات والغزى، فتأخذ بتلك الملة، فنزلت.

ثم هدَّد سبحانه الناس على ترك العبادة الخاصة بأمر نبيِّه ﷺ باظهار خوف نفسه من العقوبة على تركها مع كونه حبيب الله وصفيِّه بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للمشركين ﴿إِنِّي﴾ مع عِظَم شأني وعُلُو قدري عند الله ﴿أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بترك العبادة الخالصة وأشرك غيره فيها ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ الدواهي والأحوال، فأنتم أولى بالخوف مِنِّي. وفيه غاية التهديد والزجر عن العصيان.

قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي \* فاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ  
الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ \*  
لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَا  
عِبَادِ فَاتَّقُونِ [١٤-١٦]

ثم أمر سبحانه نبيِّه ﷺ بالإخبار بالتزامه بامتنال ما أمر به من العبادة الخالصة، وإعراضه عما يعبد من دونه، قطعاً لطمح المشركين من موافقته ﷺ لهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿الله﴾ الذي خلقتني ورباني وكفاني بالخصوص ﴿أَعْبُدْ﴾ امتثالاً لأمره حال كوني ﴿مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ وعبادتي من شُوب الشُّرك والرياء والهوى، وأرى هذا صلاحِي، فان وافقتموني عليه فقد نلتُم سعادة الدارين، وإلا ﴿فَاعْبُدُوا﴾ يا معشر الكفار ﴿مَا شِئْتُمْ﴾ أن تعبدوه ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ من الأصنام والأوثان والملائكة والشمس والقمر وغيرها من مخلوقاته، وسَتْرُون سوء عاقبة عبادتكم.

ثم لما كان الكفار يقولون: خسرت يا محمد حيث خالفت دين أبانك. أمره سبحانه بجوابهم بقوله:



﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ والمتضررين الذين هم أعظم خسراناً وضرراً في العالم هم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا﴾ وأضرّوا ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ وأهلكوها الهلاك الأبدي<sup>١</sup> بضلالها واختيار الكفر لها ﴿وَأَهْلَكُوا﴾ ﴿أَهْلِيَهُمْ﴾ من الأزواج والأولاد والأقارب ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

عن ابن عباس: إن لكل رجل منزلاً وأهلاً وخُدماً في الجنة، فإن اطاع أُعطي ذلك، وإن كان من أهل النار حُرِم ذلك فحَسَر نفسه وأهله ومنزله، وورثه غيره من المسلمين<sup>٢</sup>.

ثم بيّن سبحانه غاية فظاعة خسرانهم بقوله: ﴿أَلَا﴾ اعلّموا أيها العقلاء ﴿ذَلِكَ﴾ الخسران ﴿هُوَ﴾ الخُسْرَانُ الْمُتَّبِعُ، والضرر والغبن الفاحش الواضح الذي لا يَشْك فيه ذو مُسْكَ، فإن صرف العمر والعقل والقوى التي يمكن أن يُستفاد منها الحياة الأبدية والجنة والنعم الدائمة والراحة السرمدية في تحصيل الهلاكة الأبدية والعذاب الدائم، تضييع لرأس المال، ووقوع في أعظم الخسران الذي لا يتصور خسران مثله.

ثم بيّن سبحانه كيفية خسران الخاسرين بقوله: ﴿لَهُمْ﴾ يوم القيامة في جهنم ﴿مِنْ قُوتِهِمْ﴾ وعلى رؤوسهم ﴿ظُلُلٌ﴾ وأغشية وطبقات ﴿مِنْ النَّارِ﴾ مانعة من نظرهم إلى الفوق لغلظها وكثافتها، وإنما أطلق عليه الظل مع أن الظلة ما يُستظل به من حرّ الشمس ويطلب للتبريد للهكّم بهم ﴿وَمِنْ تَحْتِهِمْ﴾ أيضاً ﴿ظُلُلٌ﴾ وطبقات من النار، وإطلاق الظلة عليها من باب إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر، أو لأجل المشابهة، أو لكونها ظلاً لمن في الدركات السافلة. وحاصل المعنى أنهم بين طبقتين من النار محاطون بها من جميع الجوانب ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب القضيع، وإن كان مُعدّاً للكفار، ولكن ذكّره في القرآن لأنه ﴿يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ المؤمنين ليُخلصوا إيمانهم، ويثبتوا عليه، ويتقوه بالطاعة ﴿يَا عِبَادِ﴾ إذن ﴿فَاتَّقُونِي﴾، واحذروا سخطي، ولا تعرّضوا لما يوجب عقوبتي.

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ \* الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أَتْلَابُ [١٧ و ١٨]

ثم لما أوعد الله عبدة الأصنام بالنار، وذمهم بالجهل والخسران، وعد الموحدين بالثواب، ومدحهم بالهداية إلى كل خير وسعادة، والفضل والكرامة وكمال العقل بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ وأعرضوا عن عبادة الشيطان والأوثان ﴿وَأَنَابُوا﴾ ورجعوا بالكلية ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وحده،

وأعرضوا عما سواه ﴿لَهُمْ﴾ خاصة ﴿الْبَشْرَى﴾ بالثواب والرؤوسان من الرسل في الدنيا، ومن الملائكة عند الموت وحين البعث بالجنة والنعم الدائمة ﴿فَبَشِّرْ﴾ أنت يا رسول الله حسب رسالتك بالهداية إلى كل خير وسعادة والفضل والكرامة عندي ﴿عِبَادِ﴾ أي المؤمنين ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ من أفواه الناس، فيتفكرون فيما يسمعون، لتمييز الحق والباطل، والصواب والخطأ ﴿فَيَسْتَمِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ وأصوبه وأحقه، فإذا سمعوا القول بالتوحيد والقول بالشرك، والقول بوجوب إرسال الرسول على الله ونصب الامام عليه والقول بعدمه، والقول بكون محمد ﷺ رسول الله وعلي ﷺ الامام بعده والقول بانكارهما، والقول بوجوب جعل الثواب والعقاب على الأعمال ووجوب خلق العالم الآخر لجزاء الأعمال والقول بعدمها، واختاروا التوحيد، ووجوب إرسال الرسول، ونصب الامام، وكون محمد رسول الله ﷺ وعلي ﷺ هو الامام بعده، ووجوب جعل الثواب والعقاب على الناس ووجود دار الجزاء لقيام الأدلة القاطعة على كل منها، وظهور كون أساس غيرها على التقليد والهوى والعصية.

قال بعض العامة: إن الآية نزلت في عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد، وسعيد، وطلحة، والزبير، حين سألوا أبا بكر، فأخبرهم بإيمانه فآمنوا<sup>١</sup>.  
أقول: لا يمكن القول بذلك مع ثبوت مطاعن كثيرة في حقهم.  
ومدحهم بما في ذيل الآية، عن ابن عباس: أن المراد منه الرجل يجلس مع القوم ويسمع الحديث، وفيه محاسن ومساوئ، فيحدث بأحسن ما سمع، ويترك ما سواه<sup>٢</sup>.

وعن الصادق ﷺ: «هو الذي يسمع الحديث فيحدث به كما سمع لا يزيد ولا ينقص منه»<sup>٣</sup>.  
وفي رواية: «هم المسلمون لآل محمد ﷺ الذين إذا سمعوا الحديث لم يزدوا فيه ولم ينقصوا منه، جاءوا به كما سمعوه»<sup>٤</sup>.

ثم مدحهم سبحانه بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ إلى الدين الحق، وكل خير ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ﴾ بالخصوص ﴿أُولُوا الْأَلْتَابِ﴾ وذوو العقول السليمة عن شوائب الأهواء الفاسدة والأهواء الزائغة.  
عن الكاظم ﷺ: «أن الله بشر أهل العقل والفهم في كتابه فقال: ﴿فَبَشِّرْ﴾ الآية»<sup>٥</sup>.

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ \* لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا

١. تفسير روح البيان ٨: ٨٩.

٢. تفسير الرازي ٢٦: ٢٦٢.

٣. الكافي ١: ٤١/١، تفسير الصافي ٤: ٣١٨.

٤. الكافي ١: ٣٢٢/٨، تفسير الصافي ٤: ٣١٨.

٥. الكافي ١: ١٢/١٠، تفسير الصافي ٤: ٣١٨.

رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرْفٌ مِّنْ قُوْهِهَا عُرْقٌ مَّبِيْنَةٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا  
يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ [١٩ و ٢٠]

ثمَّ إِنَّه تعالى بعد بيان سوء حال المشركين وحسن حال الموحدِين، بَيَّنَّ عدم تأثير الدعوة الى التوحيد في قلوب المصرِّين على الإِشْرَاق، وعدم الفائدة في إِتْعَاب النبي ﷺ نفسه الشريفة في ترغيبهم الى الإِيمان بقوله: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ﴾ ووجب ﴿عَلَيْهِ﴾ بسوء فطرته وخُبث طيبته ﴿كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ ووعدَه من الله تعالى بقوله: ﴿لَا مَلْجَأَ لَكَ مِنْهُ﴾<sup>١</sup> إلى آخره. أنت يا محمد تهديه إلى الحق وتسوقه إلى الجنة ﴿أَفَأَنْتَ﴾ يا نبي الرحمة ﴿تُنْقِذُ﴾ وتُخْرِجُ ﴿مَنْ﴾ تُمْكِنُ ﴿فِي النَّارِ﴾ منها؟! لا والله لا تهدي من أضله الله، ولا تُخَلِّصَ من النار من جعله الله من أصحابها، فلا تُتْعِبَ نفسك الزكية في دعوتهم، ولا تُحْزِنَ على عدم إيمانهم.

ثمَّ لَمَّا بَيَّنَّ استحقاق المشركين للعذاب، استدرك حال المتقين بقوله: ﴿لَكِنَّ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ واحترزوا من الشُّرْكِ والعصيان ﴿لَهُمْ﴾ مع كونهم آمنين من العذاب ﴿غُرْفٌ﴾ في الجنة ﴿مِنْ قُوْهِهَا غُرْفٌ﴾ أخرى ﴿مَّبِيْنَةٌ﴾<sup>٢</sup> نحو بناء المنازل على الأرض في الرصانة والاستحكام، كلَّها من دُرٍّ وياقوت وزَبَرْجَد.

عن الباقر عليه السلام: «سأل علي عليه السلام رسول الله ﷺ عن تفسير هذه الآية: بماذا بُنِيَتْ هذه الغُرفُ يا رسول الله؟ فقال: يا علي، تلك الغُرفُ بناها الله لأوليائه بالدرِّ والياقوت والزُّبرجد، سقوفها الذهب، مَحْبُوكَةٌ بالفضة، لكلِّ غُرفةٍ ألف باب من ذهب، على كُلِّ بابٍ منها مَلَكٌ مُوَكَّلٌ به، وفيها فُرش مرفوعة بعضها فوق بعض من الدِّيباج بألوانٍ مختلفة، وحشوها المِسْكُ والعُثْبُرُ والكافور، وذلك قول الله: ﴿وفرش مرفوعة﴾»<sup>٣</sup>.

ثمَّ أَكَّدَ سبحانه وعده للمتقين بقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ الذي وعده ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ لَقَبِحْ خَلْفَ الوعد عليه.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ [٢١]

٢. لم يذكر بقية الآية وهي: تجري من تحتها الأنهار.

١. الأعراف: ١٨/٧، هود: ١١٩/١١.

٣. تفسير القمي ٢: ٢٤٦، الكافي ٨: ٦٩/٩٧، تفسير الصافي ٤: ٣١٨.

ثم لما كان سبب الإعراض عن الله وعبادته حُب الدنيا وشهواتها، بَيَّن سبحانه سرعة زوالها الموجبة للنفرة منها بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنِّي رَأَيْتُ﴾ أيها الرائي ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ بقدرته الكاملة ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ المطَّلَّ، أو جهة الغلو ﴿مَاءً﴾ مباركاً بطريق الأمطار ﴿فَسَلَكْتَهُ﴾ وأجره في عُروق الأرض، فيكون ﴿يَتَابِعُ﴾ وعبوناً ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ليُخْرِجَ منها شيئاً فشيئاً ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ﴾ الله منها بذلك الماء، ويُنَبِّت ﴿بِهِ﴾ بقدرته ﴿زُرْعاً﴾ نافعاً ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ وأصنافه كالبرِّ والشعير ونحوهما، وكيفياته كالأحمر والأبيض والأصفر وغيرها، وطعمومه كالخلو وغيره ﴿ثُمَّ يَهْبِجُ﴾ ذلك الزرع وَيَنْبِيسُ بعد طراوته ونضرت، أو يَحْضَرُ ﴿فَتَرَاهُ مُضْفَرًا﴾ من يسه بعد أن كان مُخْضَرًا ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ﴾ الله ﴿حُطَامًا﴾ وفُتَاتًا ومتكسراً من شدة يسه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور مُفَصَّلاً ﴿لَذِكْرٌ﴾ وتنبهاً على سرعة زوال الدنيا وتغيّر حالاتها ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وذوي العقول السليمة، فلا يَغْتَرُونَ بِإِقْبَالِهَا وَبَهْجَتِهَا، وَلَا يُفْتَنُونَ بِزَهْرَتِهَا.

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ  
ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [٢٢]

ثم إنَّه تعالى بعد ترغيب العباد الى الطاعة والتهديد بالعذاب على العصيان وبيان ثناء الدنيا بين ان تلك البيانات لا تؤثر إلا مع شرح الصدر وتَنَوَّرَ القلب بقوله: ﴿أَفَمَنْ﴾ قيل: إنَّ التقدير أكل الناس سواء؟<sup>١</sup> ﴿شَرَحَ اللَّهُ﴾ وسع ﴿صَدْرَهُ﴾ ولين قلبه، وأكمل استعدادَه ﴿لِلْإِسْلَامِ﴾ وقَبول دين الحق بأن خلقه من طينة طيبة، وجعله ذا فكرة صابغة ﴿فَهُوَ﴾ باقتضاء طينته، وسعة صدره، ونورانية قلبه، وإصابة فكره مستقرّ ﴿عَلَى نُورٍ﴾ عظيم وبصيرة كاملة وهداية فائضة ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ اللطيف به.

قيل: إنَّ شرح الصدر بقوة الأدلة التي نصبها الله، وهو مختصّ بالعلماء وبالأنطاف الخاصة التي تتجدّد حالاً بعد حال، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾<sup>٢</sup> ويتأكد الأدلة وحلّ الشبهات وإلقاء الخواطر.<sup>٣</sup>

عن النبي ﷺ: أَنَّهُ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فَقَالَ: «إِنَّ النُّورَ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ انْفَتَحَ لَهُ وَانْشَرَحَ» قالوا: يا رسول الله، هل لذلك علامة يُعرف بها؟ قال: «التجافي عن دار الغرور، والإجابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت. قبل حلول القوت»<sup>٤</sup>.

٢. سورة محمد: ٤٧/١٧.

١. تفسير أبي السعود ٧: ٢٥٠.

٤. تفسير أبي السعود ٧: ٢٥٠، تفسير روح البيان ٨: ٩٦.

٣. مجمع البيان ٨: ٧٢٢.

وقيل: إن التقدير أَمَّنْ شرح الله صدره للإسلام كمن قسى قلبه من ذكر الله<sup>١</sup>. وحاصل المعنى والله أعلم: أنه كما لا يستوي النور والظلمة والعلم والجهل، لا يستوي من على النور ومن على الظلمة.

قال بعض العامة: نزلت في حمزة بن عبدالمطلب، وعلي بن أبي طالب عليهما السلام<sup>٢</sup>.

وقال القمي: نزلت في أمير المؤمنين<sup>٣</sup>.

﴿قَوْلٌ﴾ وهلاك ﴿لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ والغليظة أفندتهم الحاصلة تلك القوة ﴿مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ولأجله، فإن النفوس الخبيثة والأرواح الظلمانية تزيد خبثها وكثورتها بسماع ذكر الله، كما أنه في القلوب المنورة والصدور المنشرفة يزيد تنوراً وانشراحاً واطمئناناً، ولذا قال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ﴾ المتصفون بقساوة القلب ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وانحراف واضح عن طريق الحق وسبيل الخير، بحيث لا يثلك فيه من له أدنى شعور وإدراك. قيل: إنه نزل في أبي لهب وولده<sup>٤</sup>.

اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَثَانِي تَفْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ [٢٣]

ثم إنه تعالى بعد بيان كون من له شرح الصدر على نور وهداية عظيمة من ربه، بين أعظم وسائل الهداية بقوله: ﴿اللَّهُ نَزَلَ﴾ بلطفه بعباده لهدايتهم إلى كل خير ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ وأطيب الكلام من حيث الفصاحة والبلاغة، والملاحة والحزنة، وحسن الأسلوب والاشتغال على العلوم الكثيرة والحكم الوفيرة والمعارف والمواظب النافعة، والقصص المنبهة، وأحوال الأمم الماضية، وكيفيات الآخرة، إلى غير ذلك مما لا يُدانيه كتاب من الكتب السماوية، فضلاً عن غيرها، ومع ذلك يكون ﴿كِتَاباً مُّتَشَابِهاً﴾ متماثلة<sup>٥</sup> آياته في الفصاحة والبلاغة والإعجاز وصحة المعنى، والدلالة على الحق، واستنباع المنافع الدنيوية والأخروية ﴿مَثَانِي﴾ ومكررات مواظبة وعبرة، وقصصه وأمثاله، ووعده ووعيده. وقيل: يعني مكررة<sup>٦</sup> تلاوته مع عدم ذهاب رونقه وعدم زوال لذة قراءته واستماعه، مع أن

١. تفسير الرازي ٢٦: ٢٦٦.

٢. تفسير الصافي ٤: ٣١٩، تفسير أبي السعود ٧: ٢٥٠، تفسير روح البيان ٨: ٩٦.

٣. تفسير القمي ٢: ٢٤٨، تفسير الصافي ٤: ٣١٩. ٤. تفسير روح البيان ٨: ٩٦.

٥. في النسخة: ومتماثلًا. ٦. في النسخة: مكرر.

كل كلام يَمَلّ تَكَرَّره<sup>١</sup>.

ولظهور عَظَمَةِ الله فيه، وغضبه على أعدائه وعصاته ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ وترتعد ﴿مِنَهُ جُلُودٌ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ وأبدان الذين عرفوا خالقهم بالعظمة والقهارية. قيل: هو مثل لشدة الخوف<sup>٢</sup> ﴿ثُمَّ﴾ إذا تَلَّوْا، أو استمعوا آيات الوعد والرحمة ﴿تَلَيَّنَ جُلُودُهُمْ﴾ ولتسكن أبدانهم، وزال عنها ما كان بها من الخوف والارتعاد، وتبدلت خَشْيَتُهُم بالرجاء، ورهبتهم بالرغبة ﴿وَقُلُوبُهُمْ﴾ تطمئن ﴿إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ورحمته وغفرانه، فلذا ﴿ذَلِكَ﴾ الكتاب الذي بيَّنَّا أوصافه ﴿هُدًى لِلَّذِينَ﴾ وما به رشاد الخلق إلى الحق ﴿يَهْدِي﴾ الله ويُرشد ﴿بِهِ﴾ إلى جميع الخيرات الدنيوية والأخروية ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته وإرشاده من النفوس الزكية، والقلوب الطاهرة، والذوات المستعدة القابلة لنيل الفيوضات الإلهية ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ﴾ ويَحْذله بسبب خُبث ذاته، وقساوة قلبه، ورذالة صفاته وأخلاقه ﴿فَمَا لَهُ﴾ بعد الله ﴿مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى الحق وَيُخَلِّصه من وَرَطة الضلال.

روى عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله، تحانت عنه ذنوبه، كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها» وفي رواية أخرى: «حرَّمه الله على النار»<sup>٣</sup>.

«وعن عبدالله بن عبدالله بن الزبير، قال: قلت لجدي أسماء بنت أبي بكر: كيف كان أصحاب رسول الله يفعلون إذا قرئ القرآن عليهم؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم. قال: فقلت لها: إن ناساً اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خرَّ أحدهم مغشياً عليه. فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»<sup>٤</sup>.

أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ \* كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ \* فَاِذَا فَعَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ اَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ [٢٤-٢٦]

ثم لما بيَّن الله سبحانه عَجْز جميع الخلق عن هداية من أراد الله ضلَّالته، بيَّن عَجْز الضَّالِّ عن دفع العذاب عن نفسه في الآخرة بقوله: ﴿أَفَمَنْ﴾ قيل: إن التقدير أكل الناس سواء؟<sup>٥</sup> فمن ﴿يَتَّقِي﴾

٢. الكشف ٤: ١٢٤، تفسير الرازي ٢٦: ٢٧٣.

٤. تفسير روح البيان ٨: ١٠٠.

١. تفسير روح البيان ٨: ٩٨.

٣. تفسير روح البيان ٨: ١٠٠.

٥. تفسير أبي السعود ٧: ٢٥٢، تفسير روح البيان ٨: ١٠١.

وَيَتَوَقَّى ﴿بُؤْخِهِ﴾ الذي هو أشرف أعضائه ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وشديدة ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لعجزه عن الاتقاء بغيره، مع أن سائر الأعضاء تكون وقاية له، كمن هو آمن من العذاب في ذلك اليوم، ولا يعتريه مكروه حتى يحتاج إلى الاتقاء ﴿وَقِيلَ﴾ بعد وقوعهم في النار من جهة خَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ الذين ضَيَّعُوا حقوق الله، وكفروا بنعمه، ووضعوا الكفر موضع الإيمان، وتكذيب الرسول موضع تصديقه، والعصيان موضع الطاعة: أيها الظالمون ﴿ذُوقُوا﴾ وأطعموا طعم ﴿مَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَكْسِبُونَ﴾ وَتَحْصِلُونَ لأنفسكم من العذاب بالكفر والعصيان.

ثم استشهد سبحانه على شدة سخطه وعذابه على الظالمين المكذبين للرسول في الآخرة بانزال العذاب على كثيرٍ منهم في الدنيا بقوله: ﴿كَذَّبَ﴾ كثيرٌ من الأمم ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ رُسُلهم ﴿فَأَتَاهُمْ﴾ ونزل عليهم ﴿الْعَذَابُ﴾ المُقَدَّر لكل أمة منهم بتكذيبهم ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ومن الجهة التي لا يحتسبون ولا يتوهمون نزول العذاب منها، وكانوا آمنين. قيل: أشد العذاب ما يكون غير متوقع<sup>١</sup> وقيل: يعني لا يعرفون له مدفعاً ولا مرداً<sup>٢</sup> ﴿فَأَذَاهُمْ اللَّهُ﴾ مع عذاب الاستئصال ﴿الْخِزْيُ﴾ والذلُّ والصغار ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كالمنسوخ بصورة القردة والخنازير، والعرق والخسف، والسبي والإجلاء، ونحوها من فنون النكال، وهو العذاب الأدنى لهم ﴿وَاللَّهُ﴾ العذاب الآخرة ﴿بِالنَّارِ الْمُحْدَلِّهِمْ﴾ أَكْبَرُ وأشد من العذاب الدنيوي كماً وكيفاً مدة ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ كبره وشدته لما تجرّوا وما عصوا الله ورسوله، وخلصوا أنفسهم منه بالإيمان والتوبة والقيام بالطاعة.

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ \* قُرْآنًا عَرَبِيًّا  
غَيْرِ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ [٢٧ و ٢٨]

ثم لما بين سبحانه ما يُوجب الاتعاظ من هوان الدنيا، وكون الهداية إلى الحق بانسراح وتنور القلب، وغير ذلك من المطالب العالية، والإبلاغ في التخويف والترهيب، بين سبحانه أن القرآن في المواعظ والعيبر وسائر ما يحتاج إليه الناس من العلوم بالغ حد الكمال بقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ وَبَيْنَا ﴿لِلنَّاسِ﴾ عموماً ولأهل مكة خصوصاً ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ الذي أنزلناه ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ومطلب نافع هو في الحسن وكثرة النفع والغرابة كالمثل ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ وَيُنْبهُونَ لما هو خير لهم في دنياهم وآخرتهم، ويتعظون به.

ثم مدح القرآن الجامع لجميع المطالب المهمة النافعة بقوله: ﴿قُرْآنًا﴾ متصفاً بكونه ﴿عَرَبِيًّا﴾

يفهمه كل العرب. وقيل: يعني متلو في المحارب إلى يوم القيامة بلسان العرب مع أنه أعجز الفصحاء والبلغاء منهم عن معارضته والإتيان بمثله <sup>١</sup> «غَيْرَ ذِي عِوَجٍ» وانحراف عن الحق واختلاف وتناقض في مطالبه، كما قال تعالى: «وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوِجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» <sup>٢</sup> «لَعَلَّهُمْ» بالتدبر فيه والتفكر في جهات إعجازه «يَتَّقُونَ» ويحترزون عن الكفر والعصيان.

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مَتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ  
مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ \* إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ \* ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ [٢٩-٣١]

ثم ضرب سبحانه مثلاً لتوضيح فساد مذهب المشركين وقباحة طريقتهم بقوله: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا» معجباً يطابق حال المشركين والموحدين، وهو أنه يفرض المشرك الذي يدعي لنفسه آلهة «وَرَجُلًا» مملوكاً «فِيهِ شُرَكَاءُ مَتَشَاكِسُونَ» ومنارعون في ذلك العبد المملوك يتجاذبونه ويتعاورونه في مهماتهم المتباينة، فإن هذا العبد يكون متحيراً متفرق البال ومتوزع القلب «وَو» يفرض الموحد الذي يعتقد أن إلهه واحد «وَرَجُلًا سَلَمًا» وخالصاً «لِرَجُلٍ» واحد لا سبيل لغيره عليه أصلاً «هَلْ» العبدان «يَسْتَوِيَانِ» ويتمثالان «مَثَلًا» وحالاً؟ لا يستويان البتة، بل الأول في غاية التحير، والثاني في غاية الاطمئنان والراحة، فعلى المؤمنين أن يقولوا: «أَلْحَمْدُ لِلَّهِ» على إظهاره الحجة على المشركين وقطع خصومتهم «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» ذلك مع غاية ظهوره.

عن أمير المؤمنين قال: «إني مخصوص في القرآن بأسماء، احذروا أن تغلبوا عليها فتضلوا في، أنا السَّلم لرسول الله ﷺ يقول الله تعالى: «وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ» <sup>٣</sup>.

وعنه عليه السلام قال: «أنا ذلك الرجل السَّلم لرسول الله ﷺ» <sup>٤</sup>.

وعن الباقر عليه السلام: «الرجل السَّلم للرجل حقاً علي عليه السلام وشيعته» <sup>٥</sup>.

وعنه عليه السلام: «أما الذي فيه شركاء متشاكسون، فلان الأول، يجمع المتفرقون ولايته، وهم في ذلك يلعن بعضهم بعضاً، ويبرأ بعضهم من بعض، وأما رجل سَلَم لرجل فإنه فلان الثاني حقاً وشيعته» <sup>٦</sup>. أقول: المراد من فلان الأول أبو بكر، ومن فلان الثاني أمير المؤمنين عليه السلام، وتحالف أصحاب أبي

١. تفسير الرازي ٢٦: ٢٧٦.

٢. النساء: ٨٢/٤.

٣. معاني الأخبار: ٥٩ و ٩٠/٦٠، تفسير الصافي ٤: ٣٢١.

٤. مجمع البيان ٨: ٧٧٥، شواهد التنزيل ٢: ١١٩، ٨٠٧/١١٩، تفسير الصافي ٤: ٣٢١.

٥. مجمع البيان ٨: ٧٧٥، تفسير الصافي ٤: ٣٢١. ٦. الكافي ٨: ٢٢٤/٢٨٣، تفسير الصافي ٤: ٣٢١.



بكر من جهة كونهم متبعي الهوى والآراء.

ثم لما هدد سبحانه المشركين بعذاب الدنيا، وبين حالهم وحال الموحدّين بضرب المثل، ولم تؤثر تلك البيانات في كثيرٍ من القلوب القاسية، وكان قلبه متأثراً من لجاجهم، سلى سبحانه حبيبه بقوله: ﴿إِنَّكَ يَا مُحَمَّدٌ مَيِّتٌ لَا مَحَالَةَ وَإِنَّهُمْ﴾ أيضاً ﴿مَيِّتُونَ﴾ عن قريب البتة ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ جميعاً أنت وخصماؤك ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ ومليكم، وفي مخضّر عدلٍ من بيده أموركم ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾ وتجاجون، فتقول: يا ربّ إني بلغت ما أرسلت به واجتهدت في دعوة هؤلاء المشركين حقّ الاجتهاد، فكذبوني وأصروا على لجاجي وعنادي. وهؤلاء يقولون: ربنا أطعنا ساداتنا وكبراءنا فأضلوّنا السبيلا، فيحكم الله لك عليهم، فلا ثبال اليوم بهم.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ  
مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ \* وَالَّذِي جَاءَ بِالْصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ \* لَهُمْ  
مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ \* لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي  
عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ [٣٥-٣٢]

ثم حكم سبحانه على المشركين في الدنيا بكونهم أظلم الظالمين بقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ في نسبة أنه اتخذ لنفسه شريكاً ولولداً ﴿وَكَذَّبَ بِالْصِّدْقِ﴾ والأمر الذي هو عين الحق، وهو رسالة محمد ﷺ، وكون القرآن كلام الله ﴿إِذْ جَاءَهُ﴾ وحين أتاه من غير تدبّر فيه والنظر في جهات إعجازه، لا والله لا أظلم ولا أكفر منه، ثم أردفه بالعيد بقوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ﴾ يوم القيامة أيها العقلاء ﴿مَثْوًى﴾ ومستقراً أبدياً ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ الذين هؤلاء الظلمة منهم، بل هي مخواهم بالاستحقاق، وبئس المثوى وبئس المصير.

ثم مدح سبحانه النبي ﷺ والمؤمنين به بقوله: ﴿وَالَّذِي جَاءَهُ﴾ من جانب الله ﴿بِالصِّدْقِ﴾ والقرآن المشتمل على المعارف الإلهية والحكم الكثيرة والأحكام والآداب والأخلاق ﴿وَهُوَ﴾ هو لمحمد الأُمّي والذي ﴿صَدَّقَ بِهِ﴾ وأقرّ له وهو أمير المؤمنين عليّ عليه السلام على ما روي عن المعصومين من دُرّيته، بل روى العلامة في (نهج الحق) عن الجمهور عن مجاهد، أنه قال: هو علي بن أبي طالب عليه السلام. ورواها

١. تفسير القمي ٢: ٢٤٩، مجمع البيان ٨: ٧٧٧، تفسير الصافي ٤: ٣٢٢.

٢. نهج الحق: ١٩/١٨٥، كفاية الطالب: ٢٣٣، الدر المنثور ٧: ٢٢٨، روح المعاني ٢٤: ٣.

أيضاً في (كشف الغمة)<sup>١</sup> عن موسى بن مَرْزُويه، عنه. وعن الحافظ، عن جعفر بن محمد عليه السلام.  
 في الرد على فخر الدين الرازي  
 أقول: يَدُلُّ عليه قول النبي ﷺ المسلم بين العامة والخاصة: «سَبَّاقُ الْأُمَمِ أَوْ الصَّادِقُونَ مِنْهُمْ ثَلَاثَةٌ: مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ، وَمُؤْمِنُ آلِ يَسَّ، وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، وَهُوَ أَفْضَلُهُمْ»<sup>٢</sup> مع أَنَّهُ رَوَى أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ أَنَّ آيَةَ «وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ» نَزَلَتْ فِي عَلِيٍّ<sup>٣</sup> فَلَا يُعْتَنَى بِقَوْلِ فخر الدين الرازي<sup>٤</sup> وبعض أصحابه من أَنَّهُ أَبُو بَكْرٍ<sup>٥</sup>، فَإِنَّهُ عَلَى تَقْدِيرِ كَوْنِهِ مُصَدِّقاً لِلرَّسُولِ وَكِتَابِهِ، لَمْ يَكُنْ تَصْدِيقُهُ قَائِلاً<sup>٦</sup> لِلذِّكْرِ وَالْمَدْحِ بِقَوْلِهِ: «أُولَئِكَ» الْمُتَّصِفُونَ بِالصِّدْقِ وَالتَّصَدِيقِ «هُمْ» خَاصَّةً «الْمُتَّقُونَ» الْفَائِزُونَ بِالتَّقْوَى إِلَى أَعْلَى دَرَجَةِ كَمَالِ الْإِنْسَانِيَةِ فِي الدُّنْيَا، وَأَعْلَى دَرَجَاتِ الْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ «لَهُمْ» بِإِزَاءِ صَدَقَتِهِمْ وَتَصَدِيقِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ «مَا يَشَاوُونَ» وَيَسْتَهْوُونَ مِنَ الثَّغْمِ الْكَائِنَةِ «عِنْدَ رَبِّهِمْ» وَمَلِكِهِمُ اللَّطِيفُ بِهِ «ذَلِكَ» الْجَزَاءُ الْمَذْكُورُ «جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ» فِي عِقَادَتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، الْمُجْتَهِدِينَ فِي التَّقْوَى وَعِبَادَةِ رَبِّهِمْ «لِيُكَفَّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ» وَيَسْتَرَّ عَنْهُمْ» يَوْمَ الْقِيَامَةِ «أَسْوَأُ الَّذِي عَمِلُوا» وَأَقْبَحُهُ، فَضْلاً عَنِ السَّيِّئِ وَالْقَبِيحِ مِنْهُ. قِيلَ: إِنَّ الْمَعْنَى: وَعَدَهُمُ اللَّهُ جَمِيعَ مَا يَشَاوُونَ مِنْ زَوَالِ الْمَضَارِّ وَحُصُولِ الْمَسَارِّ<sup>٧</sup>، لِيُكَفَّرَ عَنْهُمْ بِمَوْجِبِ ذَلِكَ الْوَعْدِ أَسْوَأُ الَّذِي عَمِلُوا دَفْعاً لِمَضَارِّهِمْ «وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ» وَيُعْطِيَهُمْ ثَوَابَهُمْ «بِأَحْسَنِ» مِنْ «الَّذِي كَانُوا» فِي الدُّنْيَا «يَعْمَلُونَ» إِعْطَاءً لِمَنَافِعِهِمْ وَمَسَارِّهِمْ.

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ \* وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ [٣٦ و ٣٧]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ الْكُفَّارَ وَالْمُشْرِكِينَ يَخَوِّفُونَ الْمُؤْمِنِينَ بِالتَّخَوِّيفَاتِ الْكَثِيرَةِ، بَلْ رَوَى أَنَّ قَرِيشاً قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: نَخَافُ أَنْ تَخْلِكَ آلِهَتُنَا<sup>١</sup>. آمَنَ اللَّهُ رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: «أَلَيْسَ اللَّهُ» الْقَادِرُ الرَّؤُوفُ «بِكَافٍ عَبْدَهُ» مُحَمَّدٌ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ، يَدْفَعُ عَنْهُمْ الْآفَاتِ، وَيُخَفِّظُهُمْ مِنَ الْبَلِيَّاتِ، كَمَا كَفَى نُوْحاً الْعَرَقَ، وَإِبْرَاهِيمَ الْحَرَقَ، بَلْ هُوَ كَافٍ جَمِيعَ مَهْمَاتِهِ.  
 ثُمَّ خَاطَبَ سَبْحَانَهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِقَوْلِهِ: «وَيُخَوِّفُونَكَ» يَا مُحَمَّدُ، هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ «بِالَّذِينَ»

١. كشف الغمة ١: ٣١٣. ٢. مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٩٢.

٣. فضائل الصحابة لابن حنبل ٢: ١٠٧٢/٦٢٧، و ١١١٧/٦٥٥، كنز العمال ١١/ ٦٠١/ ٣٢٨٩٨.

٤. مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٩٠. ٥. تفسير الرازي ٢٦: ٢٧٩.

٦. تفسير الرازي ٢٦: ٢٧٩، روح المعاني ٢٤: ٣. ٧. في النسخة: قابلة.

٨. تفسير روح البيان ٨: ١٠٨.

٩. تفسير الرازي ٢٦: ٢٨١، تفسير البيضاوي ٢: ٣٢٦، تفسير أبي السعود ٧: ٢٥٥.

يَعْبُدُونَهُمْ ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ الَّذِينَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ لِّغَايَةِ جَهْلِهِمْ وَضَلَالِهِمْ  
 ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ﴾ وَيَحْرِفُهُ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ، كَهَوْلَاءِ الْمُشْرِكِينَ ﴿فَمَا لَهُ﴾ فِي الْعَالَمِ ﴿مِنْ هَادٍ﴾  
 يَهْدِيهِ وَيُوصِلُهُ إِلَى الْحَقِّ ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ﴾ وَيُوفِّقُهُ لِلْسُّلُوكِ عَلَى الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿فَمَا لَهُ مِنْ  
 مُضِلٍّ﴾ يَصْرِفُهُ عَنِ السُّلُوكِ فِيهِ بِالْحُجَّةِ وَالْبِرْهَانِ وَالتَّخْوِيفِ وَالتَّطْمِينِ.

ثُمَّ هَدَّدَ سُبْحَانَهُ الْمُشْرِكِينَ الْمُخَوِّفِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ وَغَالِبٍ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَ﴿ذِي  
 أَنْتِقَامٍ﴾ مِنْ أَعْدَائِهِ لِأَوْلِيَائِهِ؟ بَلَى وَاللَّهِ هُوَ الْغَالِبُ الْقَادِرُ الْمُنْتَقِمُ، يَنْتَقِمُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ أَشَدَّ  
 الْإِنْتِقَامِ.

وَلِّينَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ  
 مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ  
 هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ [٣٨]

ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ مَعَ اعْتِرَافِهِمْ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْقَادِرُ الَّذِي خَلَقَ بِقُدْرَتِهِ جَمِيعَ  
 الْمَوْجُودَاتِ، كَيْفَ يَدْعُونَ أَنَّ الْجَمَادَاتِ الَّتِي لَا قُدْرَةَ لَهَا وَلَا حَسَّ وَلَا شُعُورَ يَضُرُّونَ عِبَادَ اللَّهِ؟ أَمْ  
 أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَافِظُهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلِّينَ سَأَلْتَهُمْ﴾ وَقُلْتُ لَهُمْ أَيُّهَا الْعُقَلَاءُ ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ  
 وَالْأَرْضَ﴾ وَمَا بَيْنَهُمَا؟ ﴿لِيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ وَلِيَعْتَرِفُونَ أَنَّ لَا خَالِقَ غَيْرِهِ، فَإِذَا اعْتَرَفُوا بِذَلِكَ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ:  
 ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾ وَأَخْبِرُونِي أَنْ ﴿مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وَتَعْبُدُونَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ، عَلَى فَرَضِ  
 كَوْنِهِمْ قَادِرِينَ، هَلْ يُمْكِنُهُمْ أَنْ يُعَارِضُوا اللَّهَ فِي إِرَادَتِهِ مِثْلًا ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ وَمَكْرُوهٍ كَالْمَرَضِ  
 وَالْفَقْرِ وَالذُّلِّ وَنَظَائِرِهَا ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ وَمَزِيلَاتُ سُوءِ الْحَالِ الَّذِي أَرَادَهُ ﴿أَوْ﴾ إِنْ  
 ﴿أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ وَنِعْمَةٍ كَالصَّحَّةِ وَالْغِنَى وَالْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ وَأَمْثَالِهَا ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾  
 وَمَانِعَاتُ عَنْ وَصُولِ نِعْمِهِ إِلَيَّ؟ لَا وَاللَّهِ لَا هُنَّ كَاشِفَاتُ الضَّرِّ، وَلَا مُمْسِكَاتُ الرَّحْمَةِ، بَلْ هُنَّ أَعْجَزُ  
 مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَضْعَفُ مِنْ كُلِّ ضَعِيفٍ.

رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا سَأَلَهُمْ سَكَنُوا وَلَمْ يُجِيبُوهُ بِشَيْءٍ فَنَزَلَ<sup>١</sup>. وَإِنَّمَا أَتَى سُبْحَانَهُ بِالْجُمُوعِ  
 وَالضَّمَانِ الْمُوَثَّقَةِ لِلْإِشَارَةِ إِلَى ضَعْفِ أَصْنَامِهِمْ، أَوْ لِأَنَّهُمْ سَمَّوْا أَصْنَامَهُمْ بِأَسْمَاءِ الْأَنْثَا كَاللَّاتِ وَالْعُزَّى  
 وَمَنَاةَ.

ثُمَّ أَمَرَ نَبِيَّهَ بِإِظْهَارِ الْاعْتِمَادِ عَلَى رَبِّهِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لَهُمْ: إِنْ تَظَاهَرِ عَلَيَّ أَهْلُ الْعَالَمِ، فَأَنِّي لَا

أَبَالِي، لَأَنَّ ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ وَهُوَ كَافٍ فِي جَمِيعِ أُمُورِي، وَنَاصِرِي عَلَى أَعْدَائِي، وَحَافِظِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ وَضَرٍّ ﴿عَلَيْهِ﴾ وَحَدَهُ ﴿يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لَعَلَّهُمْ بَأْنَ مَا سِوَاهُ تَحْتَ قُدْرَتِهِ وَمَلَكُوتِهِ وَنُفُوذِهِ وَإِرَادَتِهِ.

قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ \* مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ \* إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ [٣٩-٤١]

ثُمَّ أَمَرَهُ بِالْإِبْلَاجِ فِي إِظْهَارِ تَوَكُّلِهِ عَلَى اللَّهِ وَعَدَمِ مِيلَاتِهِ بِالْمُشْرِكِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ، مُخَاطَباً لِقُرَيْشٍ: ﴿يَا قَوْمِ اعْمَلُوا﴾ وَاشْعُرُوا فِي الْأَضْرَارِ عَلَيَّ، وَإِبْطَالِ أَمْرِي، وَالْإِخْلَالِ فِي رِسَالَتِي، وَاجْتِهَادِي فِي مَكْرَمِ وَكَيْدِكُمْ، مَعَ أَنْكُمْ ﴿عَلَى﴾ مَا تَعْتَقِدُونَ مِنْ ﴿مَكَاتِكُمْ﴾ وَحَالَتِكُمْ مِنَ الْقُوَّةِ وَالشُّوْكَةِ وَالْعِدَاوَةِ ﴿إِنِّي﴾ أَيْضاً ﴿عَامِلٌ﴾ وَسَاعٍ فِي التَّبْلِيغِ وَالْإِنذَارِ، وَإِعْلَاءِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، وَتَقْرِيرِ دِينِ الْإِسْلَامِ مَا اسْتَطَعْتُ، مَا أَنَا عَلَيْهِ مِنْ مَكَاتِي وَحَالَتِي مِنْ قَلَّةِ النَّاصِرِ وَعَدَمِ الْمَالِ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مَنْ يَنْصُرُهُ اللَّهُ وَيَغْلِبْهُ وَ﴿مَنْ يَأْتِيهِ﴾ مِنْ قَبْلِهِ تَعَالَى ﴿عَذَابٌ﴾ يَسْتَأْصِلُهُ ﴿يُخْزِيهِ وَ﴾ يَذَلُّهُ فِي الدُّنْيَا، وَمَنْ ﴿يَحِلُّ﴾ وَيَنْزِلُ ﴿عَلَيْهِ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ وَدَانِمٌ لَا يَفَارِقُهُ، لَسَعِيهِ فِيمَا يُوْجِبُ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ.

ثُمَّ لَمَّا بَالِغَ سَبْحَانِهِ فِي إِمْتَامِ الْحُجَّةِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الْمُعَانِدِينَ، وَبَيَانِ بَطْلَانِ مَذْهَبِهِم بِالْأَدَلَّةِ الْوَاضِحَةِ الْقَاهِرَةِ، وَضَرْبِ الْمَثَلِ، وَتَهْدِيدِهِم بِالْعَذَابِ الدُّنْيَوِيِّ وَالْآخِرِيِّ، رَدَعَ نَبِيَّهُ ﷺ عَنْ الْجَدِّ وَالْإِهْتِمَامِ فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِصَدَقِ كِتَابِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا﴾ بَلَطْنَا وَحَكَمْنَا وَمَقَامَ رَبِّيْنَا ﴿أَنْزَلْنَا﴾ بِتَوْسِطِ جِبْرِئِيلَ ﴿عَلَيْكَ﴾ يَا نَبِيَّ الرَّحْمَةِ ﴿الْكِتَابَ﴾ الْعَظِيمَ الشَّانَ الَّذِي فِيهِ الْمَعَارِفُ وَالْحُكْمُ وَالْأَحْكَامُ، إِرْشَاداً ﴿لِلنَّاسِ﴾ إِلَى مَصَالِحِهِمْ وَمَنَافِعِهِم الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرِيَّةِ، وَإِتِمَاماً لِلْحُجَّةِ حَالِ كَوْنِهِ مَقْرُوناً ﴿بِالْحَقِّ﴾ وَدَلَالِ الصَّدَقِ، أَوْ حَالِ كَوْنِنَا مُحَقِّقِينَ فِي إِنْزَالِهِ ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ بِهِ إِلَى مَا فِيهِ ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ فَوَائِدَ هِدَايَتِهِ وَعَمَلِهِ ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ عَنْ سَبِيلِ الْحَقِّ، بَأْنَ كَذَبَهُ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ﴾ وَكَانَ وَبَالَ ضَلَالِهِ عَلَى نَفْسِهِ، وَضُرَرِهِ ﴿عَلَيْهَا﴾ لَا عَلَيْنَا وَلَا عَلَيْكَ ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ﴾ مِنْ قَبْلِ رَبِّكَ ﴿بِوَكِيلٍ﴾ وَقِيمَ حَتَّى تَجْبِرَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ وَاتِّبَاعِ أَحْكَامِهِ، بَلْ إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ، وَقَدْ بَلَغْتَ، فَلَا تَتَعَبُ نَفْسَكَ فِي مَعَارَضَتِهِمْ وَحُجَّتِهِمْ عَلَى الْإِيمَانِ، وَاسْتَرْحَ مِنْ كُلْفَةِ تَحْمِيلِهِمْ عَلَى قَبُولِ الْحَقِّ وَتَصْدِيقِ كِتَابِكَ.

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ  
عَلَيْهَا أَلَمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ  
يَتَفَكَّرُونَ [٤٢]

ثم لما كانت الهداية هي الحياة الحقيقية، والضلal الدائم هو الموت والموت بمنزلة النوم، عاد سبحانه بعد ترويح قلب نبيه ﷺ إلى الاستدلال على توحيد به يكون النوم واليقظة والموت بيده، كما أن الهداية والضلال بإرادته بقوله:

﴿اللَّهُ﴾ وحده ﴿يَتَوَفَّى﴾ بقدرته ﴿الْأَنفُسَ﴾ ويُميت الأشخاص ﴿حِينَ﴾ وصول وقت ﴿مَوْتِهَا﴾ و﴿انقضاء أجل حياتها﴾، ويتوفى ﴿الَّتِي لَمْ تَمُتْ﴾ ويقبض رُوحها ﴿فِي﴾ وقت ﴿مَنَامِهَا﴾ لا كاملاً، بل بحيث يبقى فيها شعاعها.

وقيل: إن المراد بالأنفس الأرواح، والمعنى يقبض الأرواح كاملاً من أبدانها حين موت أبدانها، ويقبض الأرواح التي لم تَمُتْ أبدانها في وقت نوم الأبدان<sup>١</sup>. وإنما أطلق التوفي على الإنامة لشباهتها في عدم العقل والتمييز بالإماتة، كما ورد أن النوم أخ الموت.

بيان كيفية النوم وروي عن أمير المؤمنين ﷺ: «أن الروح يخرج عند النوم، ويبقى شعاعه في الجسد، فلذلك ترى الرؤيا»<sup>٢</sup> ﴿فَيُمْسِكُ﴾ الله الأنفس ﴿الَّتِي قَضَىٰ﴾ وحكم ﴿عَلَيْهَا أَلَمَوْتَ﴾ ويمنعها من الرجوع إلى أبدانها ﴿وَيُرْسِلُ﴾ الأنفس ﴿الْأُخْرَىٰ﴾ التي لم يقبض عليها الموت عند الانتباه واليقظة مرة بعد مرة ﴿إِلَى﴾ انقضاء ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ومدة حياتها المقدرة.

عن سعيد بن جبیر: أن أرواح الأحياء وأرواح الأموات تلتقي في المنام، فيتعارف منها ما شاء الله أن يتعارف، فيُمْسِكُ التي قضى عليها الموت، ويُرسِلُ الأخرى إلى أجسادها إلى انقضاء مدة حياتها<sup>٣</sup>. عن الباقر ﷺ قال: «ما من أحدٍ ينام إلا عرجت نفسه إلى السماء، وبقيت روحه في بدنه، وصار بينهما سبب كشعاع الشمس، فان أذن الله في قبض الأرواح أجابت الروح النفس، وان أذن الله في ردّ الروح أجابت النفس الروح، وهو قول الله: ﴿يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ الآية<sup>٤</sup>. أقول: الظاهر أن المراد بالنفس في الرواية الروح الانساني، وبالروح الروح الحيواني. وإسناد التوفي إلى الله لأنه الأمر، فلا ينافي إسناده إلى ملك الموت وأعوانه من الملائكة بالمباشرة. نعم.

١. تفسير روح البيان ٨: ١١٥.

٢. مجمع البيان ٨: ٧٨١، تفسير الصافي ٤: ٣٢٣.

٣. تفسير روح البيان ٨: ١١٢ و١١٥.

٤. تفسير روح البيان ٨: ١١٥.

روي أن الله تعالى باشر قبض النفوس الطيبة الزكية كروح الحسين بن علي عليه السلام.<sup>١</sup>  
والصديقة الطاهرة، روى بعض العامة أن فاطمة الزهراء عليها السلام لما نزل عليها ملك الموت لم ترض  
بقبض روحها، فقبض الله تعالى روحها.<sup>٢</sup>

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من التوفى على الوجهين، والامساك في أحدهما، والإرسال في الآخر  
﴿لآيَاتٍ﴾ عجيبة ودلالات واضحة على كمال قدرة الله وحكمته ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في آثار قدرة الله  
التي منها كيفية الموت والنوم، فيعلمون أن العاقل لا يعبد الجَمَاد الذي لا قدرة له ولا إدراك، بل يعبد  
الإله الذي له القدرة الكاملة والحكمة البالغة.

أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلَوْكَائُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ \* قُلْ  
لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [٤٤ و ٤٥]

ثم لما كان قول مشركي مكة: إنا لا نعبدكم لكونهم آلهة، بل نعبدكم لتقربونا إلى الله زلفى، ويشفعوا  
لنا عند الله، أنكر سبحانه عليهم القول بقوله: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا﴾ قيل: كلمة (أم) مقطعة، والمعنى: بل  
اتخذوا واختاروا لأنفسهم<sup>٣</sup> ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومما سواه ﴿شُفَعَاءَ﴾ يشفعون لهم عند الله.  
ثم أمر سبحانه بتوبيخهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء الشفهاء أشفعونكم ﴿أَوْلَوْكَائُوا لَا  
يَمْلِكُونَ شَيْئاً﴾ من الأشياء، ولا يقدرون على دفع شيء عن أنفسهم، فضلاً عن شفاعتكم عند الله،  
ودفع عذابه عنكم ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ولا يدركون شيئاً حتى نفع أنفسهم، فضلاً عن عبادتكم التي لا  
نفع<sup>٤</sup> لهم فيها ﴿قُلْ﴾ يا محمد إرشاداً لهم ﴿لِلَّهِ﴾ وحده ﴿الشَّفَاعَةُ﴾ الصادرة عن كل شافع  
﴿جَمِيعاً﴾ لا يستطيع أحد أن يشفع عنده إلا بإذنه، كما قال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾<sup>٥</sup>  
لأن ﴿لَهُ﴾ تعالى وحده ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما بينهما والسلطنة فيها، فلا يتنفس متنفس  
ولا يتحرك متحرك ولا يتكلم متكلم إلا بإذنه وإرادته ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ بعد الموت ﴿تُرْجَعُونَ﴾ وإلى  
محضر عدله تُرَدُّونَ، فيحاسب أعمالكم ويُجازيكم على حسب استحقاقكم، فاحذروا سخطه،  
واحترزوا عذابه.

وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ  
مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ \* قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ

١. تفسير روح البيان ٨: ١١٤.

٢. تفسير روح البيان ٨: ١١٤.

٣. تفسير روح البيان ٨: ١١٧.

٤. في النسخة: يقع. ٥. البقرة: ٢٥٥/٢.

## الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [٤٥ و ٤٦]

ثم حكى سبحانه شدة تعصمهم في مذهبهم وغاية حمقهم بقوله: ﴿وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَخَذَهُ﴾ عندهم بأن يقول أحد: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له ﴿أَشْمَأَزَّتْ﴾ ونفرت من ذكر التوحيد ﴿قُلُوبُ﴾ المشركين لأنهم ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يصدقون ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ وامتلات غيظاً وغماً، لعداوتهم لله، وعدم خوفهم من عقوبته في القيامة ﴿وَإِذَا ذُكِّرَ﴾ عندهم الأصنام ﴿الَّذِينَ﴾ يتبدونهم ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ فرادى، أو مع ذكر الله ﴿إِذَا هُمْ﴾ لفرط افتتانهم بها ﴿يَسْتَبْسِرُونَ﴾ ويسرون حتى تبسط وجوههم له. ثم إنه تعالى بعد حكاية إصرارهم على ما يشهد العقل بفساده، أمر نبيه ﷺ بالالتجاء إلى الله من لجأهم وعنادهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، عند رؤيتك هذه الحالة العجيبة وعجزك عن هدايتهم: ﴿اللَّهُمَّ﴾ يا فاطر السموات والأرض، وخالقهما على النحو البديع، ويا عالم الغيب والشهادة، والمطلع على ما لا تدركه الحواس وما تدركه ﴿أَنْتَ﴾ تعلم ما عليه هؤلاء، وتقدر على الانتقام منهم ﴿تَحْكُمُ﴾ يوم القيامة ﴿بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فاحكم بيني وبين هؤلاء المشركين المصيرين على الباطل، المعاندين للحق.

روى بعض العامة عن أبي سلمة، قال: سألت عائشة: بم كان يفتح رسول الله صلواته بالليل؟ قالت: كان يقول: «اللهم رب جبرئيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»<sup>١</sup>.

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ \* وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ [٤٧ و ٤٨]

ثم بين سبحانه حكمه يوم القيامة على المشركين بشدة العذاب وعدم خلاصهم منه بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أشركوا و ﴿ظَلَمُوا﴾ على ربهم بتضييع حقوقه، وعلى أنفسهم باهلاكها الدائم ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ من الأموال والأمتعة والأموال ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ على سبيل الفرض ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ وبذلوه ليتخلصوا ﴿مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ﴾ وشديد العقاب ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ما تخلصوا منه، ولا يخفف عنهم ولو ساعة ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ وظهر لهم من عذابه ﴿مَا لَمْ يَكُونُوا﴾ في الدنيا ﴿يَحْتَسِبُونَ﴾

ويتوهمون. وفيه بيان غاية شدة عذابهم وكثرة أنواعه، كما أن في قوله ﷺ في صفة ثوابهم في الجنة «بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر في قلب بشر»<sup>١</sup> بيان نهاية حسنه وكثرة أنواعه.

ثم بين سبحانه أن العذاب المذكور من آثار أعمالهم السيئة التي عملوها في الدنيا بقوله: ﴿وَبَدَأَ وظهر ﴿لَهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ و آثار قبائح أعمالهم التي عملوها حين عرض صفحه عليهم ﴿وَحَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِمْ﴾ من كل جانب ﴿مَا كَانُوا بِهِ﴾ في الدنيا ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من عذاب الآخرة عند إخبار النبي ﷺ به، وكانوا يقولون: متى هذا الوعد؟

فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ  
بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ \* قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ  
عَنَّهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ \* فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَٰؤُلَاءِ  
سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ [٥١-٤٩]

ثم لما حكى سبحانه اشمزاز المشركين عن ذكر الله وحده، واستبشارهم بذكر أصنامهم، بين أنهم مع عداوتهم لله يلتجأون إليه وحده عند ابتلائهم بالشدائد بقوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ وَأصابه ﴿ضُرٌّ﴾ ومكروه وسوء حال كفر أو مرض أو خوف أو نظائرها ﴿دَعَانَا﴾ والتجأ إلينا وحدنا، وسألنا كشفه، مع اشمزازة عن ذكرنا متفرداً ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ﴾ وأعطيناه ﴿نِعْمَةً﴾ من غنى أو صحة ونحوهما تفضلاً ﴿مِنَّا﴾ عليه لم يرها منا، بل ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾ ووجدته ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ كان لي بوجوه كسبه، أو لعلمي بأنني سأعطاها لما لي من الفضل والاستحقاق، والحال أنه ليس كذلك ﴿بَلْ﴾ تلك النعمة إنما ﴿هِيَ فِتْنَةٌ﴾ واختبار له، أيشكر أم يكفر ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ لحقهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنها استدراج واختبار لهم.

واعلم أن تلك الكلمة الباطلة ليست مختصة بهم بل ﴿قَدْ قَالُوا﴾ جمع من الأمم ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ كفارون وقومه، حيث قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾<sup>٢</sup> فابتلوا بالعذاب لقولهم ذلك ﴿فَمَا أَغْنَىٰ﴾ وما دفع ﴿عَنَّهُم﴾ العذاب ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الأمتعة الدنيوية ويجمعون منها، ولم تنفعهم النعمة في الخلاص من النعمة ﴿فَأَصَابَهُمْ﴾ ووصل إليهم ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ وأسوأ جزء ما عملوا في الدنيا من الكفر والقبائح والمعاصي.

ثم أودع سبحانه كفار مكة، أو من في عصر النبي ﷺ منهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ على أنفسهم



باختيار الشرك والغرور ﴿مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ القوم الذين جاوروك في مكة، أو في زمانك، وعاندوك في الحق ﴿يُصِيبُهُمْ﴾ وعن قريب يصل إليهم ﴿سَيَأْتِيَهُمْ مَا كَسَبُوا﴾ وعقوبات ما عملوا من الكفر والمعاصي في الدنيا والآخرة ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ الله القادر على كل شيء من تعذيبهم بالهرب والقوة والشوكة.

قيل: قد أصابهم في الدنيا حيث فحطوا سبع سنين، وقُتل أكابرهم في بدر<sup>١</sup> وسائر الغزوات.

أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ \* قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ \* وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ \* وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ \* أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّآخِرِينَ \* أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ \* أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ \* بَلَى قَدْ جَاءَكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ [٥٢-٥٩]

ثم عاد سبحانه إلى جواب قولهم: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ بقوله: ﴿أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا﴾ أولئك الحمقاء. قيل: إن التقدير أيقولون ذلك ولم يعلموا<sup>٢</sup> بالتفكر في أن الغنى والفقر كثيراً يكونان على خلاف العادة، ويتبدلان في شخص واحد بغير اختياره ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ بقدرته وحكمته ﴿يَبْسُطُ﴾ ويوسع ﴿الرِّزْقَ﴾ والنعمة ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أن يوسع عليه لصلاح في نظره من امتحانٍ وجزاء عمل أو لغيرهما، لا لرفعة قدره عنده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ويضيق على من يشاء أن يقدر ويضيق عليه، لعلمه بصلاح في حقه، أول نظام العالم، لا لضعفه قدره، ولا باختياره ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من البسط تارة والقبض أخرى، وفي مورد دون مورد ﴿لَآيَاتٍ﴾ ودلالات على بسط الرزق وقبضة، بل كل الحوادث في العالم، بيد الله وإرادته وحده، لا بتدبير أحد، ولكن إنما يكون نفع تلك الآيات والتفكر فيها ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله، إذ هم المتفكرون والمتدبرون فيها، والمتفعون بها، وأما غيرهم غافلون عنها غير

١. تفسير أبي السعود ٧: ٢٥٩، تفسير روح البيان ٨: ١٢٢.

٢. تفسير روح البيان ٨: ١٢٢.

معتنين بها.

ثم إنه تعالى بعد توعيد المشركين والكفار الظالمين على أنفسهم بالكفر والشرك والعصيان، وتهديدهم بالعذاب الشديد، أعلن سبحانه بسعة رحمته بالنسبة إلى عباده المؤمنين بقوله: ﴿قُلْ يَا نبي الرحمة للمؤمنين من قبلي﴾ **﴿يَا عِبَادِي﴾** المؤمنين **﴿الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾** وأفرطوا في الخيانة **﴿عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾** بتجاوز الحد في العصيان **﴿لَا تَقْنَطُوا﴾** ولا تيأسوا **﴿مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾** وتفضل عليه بالعمو والمغفرة.

ثم كأنه قيل: لم لا يَتَقْنَطُونَ مع كثرة المعاصي؟ فأجاب سبحانه بقوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ﴾** بكرمه وتفضله **﴿يَغْفِرُ الذُّنُوبَ﴾** للمؤمنين **﴿جَمِيعاً﴾** ولو كانت بعدد النجوم والرمال وأوراق الأشجار. ثم أكد سبحانه وعده بقوله: **﴿إِنَّهُ﴾** بالخصوص **﴿هُوَ الْعَفُوُّ﴾** للذنوب وستارها **﴿الرَّحِيمُ﴾** بالمؤمنين بعد الغفران بإعطاء الثواب.

قيل: إن الآية نزلت في قوم خافوا إن أسلموا لا يَغْفِرَ لهم ما ارتكبوا من الذنوب العظام، كقتل النفس والزنا ومعاداة النبي ﷺ والقتال معه، فأنزل الله هذه الآية، ففرح النبي ﷺ بها، ورآها أصحابه أنها أوسع الآيات في مغفرة الذنوب.

عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال: «ما في القرآن آية أوسع من **﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾**»<sup>١</sup>. وزوي أن وحشياً قاتل حمزة كتب إلى النبي ﷺ يسأله هل له من التوبة؟ وكتب أنه سمع فيما أنزل الله بمكة من القرآن آيتين أنستاه من كل خير وهما قوله: **﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾** إلى قوله: **﴿مَهَاناً﴾**<sup>٢</sup> فنزلت: **﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾**<sup>٣</sup> فكتب بها رسول الله ﷺ، فخاف وحشي وقال: لعلي لا أبقى حتى أعمل صالحاً، فأنزل الله **﴿لَا يَغْفِرُ اللَّهُ يُشْرِكُ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾**<sup>٤</sup>. فقال وحشي: إني أخاف أن لا أكون في مشيئة الله، فأنزل الله: **﴿قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾** إلى آخره فأقبل وحشي وأسلم<sup>٥</sup>.

القمي، قال: نزلت في شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام خاصة<sup>٦</sup>.

وعن الباقر عليه السلام: «وفي شيعة ولد فاطمة أنزل الله هذه الآية خاصة»<sup>٧</sup>.

وعن الصادق عليه السلام، قال: «لقد ذكركم الله في كتابه إذ يقول: **﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾** الآية، قال:

١. أسباب النزول للواحدي: ٢٠٨.

٢. مجمع البيان ٨: ٧٨٤، تفسير الصافي ٤: ٣٢٦.

٣. الفرقان: ٦٨/٢٥ و ٦٩.

٤. الفرقان: ٧٠/٢٥.

٥. النساء: ١١٦/٤.

٦. أسباب النزول للواحدي: ١٩٠.

٧. تفسير القمي ٢: ٢٥٠، تفسير الصافي ٤: ٣٢٥.

٨. تفسير القمي ٢: ٢٥٠، معاني الأخبار: ٤/١٠٧، تفسير الصافي ٤: ٢٢٥.

والله ما أراد بهذا غيركم<sup>١</sup>.

وعنه عليه السلام: «ما على ملة إبراهيم غيركم، وما يقبل إلا منكم، ولا يغفر الذنوب إلا لكم»<sup>٢</sup>.

أقول: المراد من النزول في شيعة على نزولها في حق غير المرتدين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وهم شيعة علي وولده، إذ هم الذين لم يتركوا النص الجلي في علي عليه السلام.

إن قيل: الآية موجبة لعدم خوف المؤمنين من الله وعقابه، مع أنه ثبت أنه يجب على المؤمن أن يكون خائفاً راجياً، لوضوح أن الأمن من مكر الله وعقابه من المعاصي الكبيرة، كاليأس من رحمة الله. قلنا: لا شبهة أن كثرة المعاصي قد تؤدي إلى الكفر وذهاب الإيمان، فالؤمن لا يعلم أنه يموت على الإيمان، فيخاف من زوال إيمانه ولو حين الموت، مع أن الوعد بالمغفرة إنما هو في القيامة، والمؤمن يخاف من عقوبة الله في البرزخ، كما ورد «أن أخوف ما أخاف عليكم البرزخ» مع أنه يحتمل تقييدها، لأنه بالتوبة المقبولة، ومع التوبة لا يعلم قبولها، كما قيل: إن ابن مسعود قرأ: (إن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن يشاء)<sup>٣</sup>.

وروي ذلك عن ابن عباس<sup>٤</sup> أيضاً.

فليس في الآية إغراء إلى المعصية كما توهم، بل يجب على المؤمن الإنابة والتوبة إلى الله بقوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا﴾ أيها الناس وارجعوا ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾

بالتوبة عن المعاصي ﴿وَأَسْلِمُوا﴾ واصلوا ﴿لَهُ﴾ تعالى أعمالكم من شوب الشرك والهووى ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿ثُمَّ﴾ بعد نزوله ﴿لَا تُنصِرُونَ﴾ ولا تشعرون منه من قبل أحد ﴿وَأَنِيبُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهو القرآن، وعملوا بما فيه.

وقيل: يعني ما هو أنجي وأسلم كالإنابة والمواظبة على الطاعة، أو المعنى الزموا طاعته واجتنبوا معصيته<sup>٥</sup> ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ الديني، أو الأخروي بإتيان الموت ﴿بَغْتَةً﴾ وغملة ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ لوقت مجيئه حتى تداركوا وتناهبوا له، وإنما امرتكم بما ذكرت كراهة ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ﴾ حين نزول العذاب تحسراً واستغاثة بها على ما هو دأب المتحسرين: ﴿يَا حَسْرَتِي﴾ ويا أسفاً ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ﴾ وقصرت ﴿فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ وناحيته على تجاوزي عن الحد في عدم رعاية حقوقه، وعدم سلوك طريقه ﴿وَإِنْ كُنْتُ﴾ في الدنيا وقد عدت فيها ﴿لَمِنَ السَّاجِرِينَ﴾

١. الكافي ٨: ٥/٣٥، تفسير الصافي ٤: ٢٢٥.

٢. المحاسن: ٥٦/١٤٧، تفسير الصافي ٤: ٢٢٥.

٣. تفسير الرازي ٢٧: ٥، تفسير روح البيان ٨: ١٢٦.

٤. مجمع البيان ٨: ٧٨٥، عن عبدالله.

٥. تفسير روح البيان ٨: ١٢٨.

والمستهزئين بدينه وبرسوله وكتابه، ولم اكنف بترك طاعتهما ﴿أَوْ تَقُولَ﴾ نفس: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ وأرشدني إلى الحق ﴿لَكُنْتُ﴾ في الدنيا ﴿مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك والمعاصي.

رؤي أنه ما من أحدٍ من أهل النار يدخل النار حتى يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني لكنت من المتقين، فيكون عليه حسرة<sup>١</sup>.

﴿أَوْ تَقُولَ﴾ نفس تمنياً ﴿حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾ عياناً ومشاهدة: ﴿لَوْ أَنَّ لِي﴾ الآن ﴿كَوْةٌ﴾ ورجوعاً إلى الدنيا ﴿فَأَكُونُ﴾ فيها ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الصالحين في العقيدة والعمل. قيل: إن كلمة (أو) الدالة على التردد، لها دلالة على أن كل نفس من الكفار لا تخلو عن هذه الأقوال تحيراً وتعللاً ما لا طائل تحته، أو ندماً حين لا ينفع<sup>٢</sup>.

وقيل: إنها تحسّر بالتفريط عند تطاير الكتب، ثم تتعلل بفقد الهداية عند مشاهدة المتقين واغترابهم، يتمي الرجعة عند الاطلاع على النار ورؤية العذاب<sup>٣</sup>. وقيل: إن كل قول يكون لقوم<sup>٤</sup>. ثم لما كان في القول الثاني إنكار الهداية من الله ونفيها، ردها الله تعالى بقوله ﴿بَلَى﴾ قد هديتك، فإنه ﴿قَدْ جَاءَ تِلْكَ آيَاتِي﴾ التي أنزلتها لهداية الناس مع دلائل الصدق بتوسط رسولي ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ وأنكرت أنها كلامي عناداً ولجاجاً ﴿وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ من قبولها واتباعها، وتعظمت عن الإيمان بها ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ لنعمي، والمضيعين لحقوقي عليك من إرسال الرسول إنزال الكتاب بعد إعطائك العقل والحواس وسائر القوى.

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ \* وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [٦٠ و ٦١]

ثم لما حكى سبحانه كذب المشركين على الله بقولهم: إن الله ما هدانا، هدد الكاذبين على الله بقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى﴾ يا محمد، أو يأمن من شأنه الرؤية الكفار ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ ونسبوا إليه ما لا يليق به من أخذه الشريك، أو اختياره صاحبة الولد، أو تركه هداية الناس ونحوها ﴿وُجُوهُهُمْ مُّسْوَدَّةٌ﴾ ومظلمة لسواد قلوبهم وظلمتها بسبب الكفر والجهل. ويحتمل أن يكون المراد بسواد الوجه الفضيحة بين الناس والذلة، كما يقال: الفقر سواد الوجه.

١. تفسير روح البيان ٨: ١٢٩.

٢. تفسير روح البيان ٨: ١٢٩.

٣. تفسير روح البيان ٨: ١٣٠.

٤. تفسير روح البيان ٨: ١٢٩.

ويقال للكاذب: ثبت كذبتك، وأسود وجهك.

ثم بين كمال استحقاقهم الخلود في جهنم بقوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَيْسَ﴾ أيها العقلاء ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ يوم القيامة ﴿مَثْوًى﴾ وماوى أدياً ﴿لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الايمان بالله وبرسوله وإطاعته واتباع آياته.

عن الصادق عليه السلام، قال: «إن في جهنم لوادٍ للمتكبرين يقال لها سقر، شكا إلى الله من شدة حره، وسأله أن يتنفس، فأذن له فتنفس، فأحرق جهنم<sup>١</sup>.

اقول: على هذه الرواية يكون المراد من الآية أن في جهنم مثنوى خاصاً للمتكبرين أسوأ من مثنوى غيرهم.

ثم إنه تعالى بعد وعيده للمشركين وعد المتقين من الشرك والكذب بقوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ﴾ يوم القيامة المؤمنين ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك والكذب على الله من جهنم وعذابها مقرونين ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ ونجاحهم بأعلى المطالب وهو الجنة ونعمها.

وقيل: إن باء (بمفازة) سببية والمعنى أن الله يُنَجِّي المتقين من العذاب<sup>٢</sup> بسبب سعادتهم وفوزهم في الدنيا بالطاعات والخيرات.

ثم كأنه قيل: كيف ينجيهم؟ فقال سبحانه: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾ ولا يصيبهم ﴿الْسُّوءُ﴾ والمكروه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من نعم الدنيا ولا يَغْمَمُ الفزع الأكبر.

اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ \* لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ  
وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ [٦٢ و ٦٣]

ثم إنه تعالى بعد شرح الوعد والوعيد، بين كمال قدرته الدال على توحيده، وعلى إنجازهما بقوله: ﴿اللَّهُ﴾ وحده ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الممكنات ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الموجودات ﴿وَكِيلٌ﴾ وقِيمٌ وولي، يتصرف فيه كيف يشاء، ومتكفل بمصالح عباده، والكافي لهم في جميع أمورهم ﴿لَهُ﴾ وحده ﴿مَقَالِيدُ﴾ خزائن ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومفاتيحها، لا يتصرف فيها غيره، ويُعْطِي منها ما يشاء لمن يشاء.

قيل: إن خزائن السماوات المطر، وخزائن الأرض النبات<sup>٣</sup>.

١. تفسير القمي ٢: ٢٥١، تفسير الصافي ٤: ٣٢٧.

٢. تفسير أبي السعود ٧: ٢٦١.

٣. تفسير روح البيان ٨: ١٣٢.

روي عن النبي ﷺ أنه شئ عن تفسير مقاليد السماوات والأرض، فقال: «تفسيرها لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، بيده الخير، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير»<sup>١</sup>.

أقول: على هذه الرواية يكون معنى الآية له هذه الكلمات، وهي مفاتيح جميع الخيرات، فمن قالها أصاب خير الدنيا والآخرة.

ثم لما بين سبحانه ربح المؤمن في سوق تجارة الدنيا، ذكر خسران الكفار بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ التنزيلية والتكوينية الآفاقية والأنفسية الدالة على توحيد الله في ذاته وصفاته الجلالية والجمالية ﴿أُولَئِكَ﴾ البعيدون عن ساحة رحمة الله ﴿هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾ خسراناً لا خسارة ورائه، لأنهم سدوا على أنفسهم أبواب رحمته ولطفه، وفتحوا عليها أبواب سخطه وعذابه.

قُلْ أَغْفِرُ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ \* وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ [٦٤ و ٦٥]

ثم إنه تعالى بعد بيان أن ذاته المقدسة خالق كل شيء، ومدبر أمور عالم الوجود، ومُعطي الخيرات ومنعها، أمر نبيه وحبيبه ﷺ بالانكار على من توقع منه عبادة غيره، وإظهار التعجب من طمعهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، في جواب من يتوقع منك الايمان بالأصنام، ويسأل منك الإقدام بعبادتها: ﴿أَغْفِرُ اللَّهُ﴾ قيل: إن التقدير أبعد مشاهدة آيات قدرة الله<sup>٢</sup> وحكمته و وحدانيته، ومعرفتي إياه بجميع الصفات الكمالية، فغفر الله من المخلوقات التي أنا أفضل وأكمل من جميعها ﴿تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ﴾ وتسألوني أن أقول بالوحيته، وتقولون أن أستلمها.

قيل: كانوا يقولون: يا محمد، استلم بعض آلهتنا نؤمن بإلهك<sup>٣</sup>. ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ بحكم العقل والعقلاء، فإن من الواضح أن العقل حاكم بشع عبادة الجماد الذي لا يَصْرُ ولا يَنْفَع، وترك عبادة الخالق الذي بيده كل خير وشر ونفع وضرر.

ثم إنه تعالى بعد أمر نبيه ﷺ بتوبيخ المشركين على طمعهم في إشراكه وإظهار أنه عين الجهل والحمق، بالغ سبحانه في قطع طمعهم فيه، بهديد حبيبه عليه بقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾، يا محمد، من قبلنا ﴿وإِلَى﴾ الأنبياء ﴿الَّذِينَ﴾ جاءوا ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ وكان ما أوحى إليك وإلى كل واحدٍ منهم،

١. تفسير الرازي ٢٧: ١١، تفسير البيضاوي ٢: ٣٣٠، تفسير أبي السعود ٧: ٢٦١، تفسير روح البيان ٨: ١٣٢.

٢. تفسير الرازي ٢٧: ١٢، تفسير أبي السعود ٧: ٢٦٢.

٣. تفسير روح البيان ٨: ١٣٢.

هو أنه والله و ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ بي على فرض المحال ﴿لَيَخْبُطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وَلَيَنْطُلْنَ سَعِيكَ، وإن كنت أحب الخلق إلي، وأكرمهم علي ﴿وَ﴾ الله ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ البتة ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ في صفقتك، وفيه إيدانٌ بغاية شناعة الشرك وقبحه، وكونه عبثٌ ينهى عنه من يستحيل منه فضلاً عن غيره.

وقيل: إن المخاطب هو النبي ﷺ والمراد أمته<sup>١</sup>.

وعن ابن عباس: هذا أدبٌ لنبيه ﷺ وتهديده لغيره، لأن الله عصمة من الشرك ومُداهنة الكفار<sup>٢</sup>.

وعن الباقر عليه السلام، أنه سُئل عن هذه الآية فقال: «تفسيرها لئن أمرت بولاية أحدٍ مع لاية علي عليه السلام من بعدك لَيَخْبُطَنَّ عملك، ولتَكُونَنَّ من الخاسرين»<sup>٣</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: «يعني إن اشرك<sup>٤</sup> في الولاية غيره» الخبر<sup>٥</sup>.

أقول: هذه الروايات تأويلٌ للآية.

بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ \* وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا  
قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا  
يُشْرِكُونَ [٦٦ و ٦٧]

ثم بالغ سبحانه في تأكيد التوحيد بقوله: ﴿بَلِ اللَّهِ﴾ وحده ﴿فَاعْبُدْ﴾ وقيل: إن التقدير لا تعبد ما أملك المشركون بعبادته، بل إن عبدت شيئاً فاعبد الله<sup>٦</sup> ﴿وَكَُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لِنعمة هدايتك إلى توحيده ومعرفته وعبادته بتقوية عقلك ونصب الأدلة القاطعة والوحي إليك.

عن الصادق عليه السلام: «أن الله بعث نبيه ﷺ بأياك أعني واسمعي يا جارة، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ يعني بل الله فاعبد بالطاعة، وكن من الشاكرين أن عَصَدْتَكَ بأخيك وابن عمك»<sup>٧</sup>.

ثم إنه تعالى بعد أمر نبيه ﷺ بتوصيف المشركين له بالشرك والجهل، فسر جهلهم بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ﴾ ما عرفوه حق معرفته، واعظموه بما يليق بعظمته، حيث جعلوا له من مخلوقاته شركاء، وساوه مع الجمادات التي لا شعور لها ولا قدرة على شيء، والحال أنه ﴿الْأَرْضُ﴾ بطبقاتها الظاهرة والباطنة، وأجزائها الكبيرة والصغيرة ﴿جَمِيعًا﴾ وكلاً ﴿قَبْضَتُهُ﴾ وفي

١. تفسير الفمي ٢: ٢٥١، تفسير الصافي ٤: ٣٢٨.

٢. تفسير الفمي ٢: ٢٥١، تفسير الصافي ٤: ٣٢٨.

٣. الكافي ١: ٣٥٣/٧٦، تفسير الصافي ٤: ٣٢٨.

٤. تفسير الفمي ٢: ٢٥١، إلى نهاية الآية، تفسير الصافي ٤: ٣٢٨.

٥. تفسير الفمي ٢: ٢٥١، إلى نهاية الآية، تفسير الصافي ٤: ٣٢٨.

٦. تفسير الفمي ٢: ٢٥١، إلى نهاية الآية، تفسير الصافي ٤: ٣٢٨.

٧. تفسير الفمي ٢: ٢٥١، إلى نهاية الآية، تفسير الصافي ٤: ٣٢٨.

٣٩٤..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٥

يد قدرته، وتحت تصرفه **«يَوْمَ الْقِيَامَةِ»** يُقَلَّبُهَا مع غاية عظمتها، كما يُقَلَّبُ الإنسان حصاةً أو خاتماً في كفه **«وَالسَّمَاوَاتِ»** السبع مع سعتها وغاية ضخامتها **«مَطْوِيَّاتٍ»** ومدرجات وملفوفات كلف الثياب **«يَبْسِطُهَا»** وقدرته.

عن ابن عباس، قال: ما السماوات السبع والأرضون السبع في يد الله إِلَّا كَخَزْدَلَةٍ في يد أحدكم<sup>١</sup>.  
عن الصادق عليه السلام: «قبضته يعني ملكه، لا يملكها معه أحد...» قال: «اليمين: اليد، واليد: القدرة والقوة **«مَطْوِيَّاتٍ يَبْسِطُهَا»** يعني بقدرته وقوته<sup>٢</sup>.

ثم إنه تعالى بعد بيان عظمته وسلطانه وقدرته، نزه ذاته المقدسة عن الشريك بقوله: **«سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى»** وترفع **«عَمَّا يُشْرِكُونَ»** من الشركاء والأصنام.

عن ابن عباس وابن مسعود: أن خبراً من اليهود أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا محمد، أشعرت أن الله يضع يوم القيامة السماوات على إصبع، والجبال على إصبع، والأرضين على إصبع، والماء والثرى والأشجار على إصبع، وجميع الخلائق على إصبع، ثم يهزهن ويقول: أنا المليك، وأين المُلوك؟ فضحك رسول الله تعجباً منه، وتصديقاً له، فانزل الله [هذه الآية]<sup>٣</sup>.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ  
نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ \* وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ  
الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ \*  
وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ [٦٨- ٧٠]

ثم بالغ سبحانه في إظهار عظمته قدرته بقوله: **«وَنُفِخَ فِي الصُّورِ»** نفخة واحدة **«فَصَبَقَ»** وفزع ومات **«مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ»** من الملائكة **«وَمَنْ فِي الْأَرْضِ»** من الحيوانات **«إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ»** أن لا يُضْعَفَ، قيل: هم جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، أو هم وحمة العرش، فإنهم لا يموتون عند النفخة الأولى<sup>٤</sup>. وقيل: هم الحور والغلمان وخزنة الجنة والنار<sup>٥</sup>.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه سأل جبرئيل عن هذه الآية: «من الذين لم يشأ الله أن يضعفهم؟» قال: «هم الشهداء يتقلدون أسيافهم حول العرش»<sup>٦</sup>.

٢. التوحيد: ٢/١٦١، تفسير الصافي ٤: ٣٢٩.

١. تفسير روح البيان ٨: ١٣٥.

٤. تفسير أبي السعود ٧: ٢٦٣، تفسير روح البيان ٨: ١٣٧.

٣. تفسير الرازي ٢٧: ١٥، تفسير روح البيان ٨: ١٣٤.

٦. تفسير الرازي ٢٧: ١٨، تفسير روح البيان ٨: ١٣٨.

٥. تفسير روح البيان ٨: ١٣٧.



وروي بعض العامة عن الصادق عليه السلام: «أَنَّ أَهْلَ الْإِسْتِثْنَاءِ مُحَمَّدٌ وَأَهْلُ بَيْتِهِ عليهم السلام وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ»<sup>١</sup>. أقول: هذان الخبران مبنيان على أَنَّ المراد بالصَّعْق أعم من الموت والغشوة، كما نسب ذلك إلى بعض المحققين<sup>٢</sup>، فالأحياء يموتون بالنفخة، والأرواح الذين ذاقوا الموت يُغشى عليهم، وعند ذلك يقول الله تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ﴾، مع أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي كَوْنِ مُحَمَّدٍ وَأَهْلِ الْإِسْتِثْنَاءِ، لِأَنَّهُمْ بَوَاحٍ هُوَ، كَمَا رَوَى أَنَّهُمْ قَالُوا: «إِنَّ مَعَ اللَّهِ حَالَاتٍ، نَحْنُ هُوَ، وَهُوَ نَحْنُ»<sup>٣</sup>.

﴿ثُمَّ﴾ بعد أربعين سنة على رواية<sup>٤</sup> ﴿يُفْخَخُ فِيهِ﴾ النفخة الْأُخْرَى، وهي نفخة الإحياء ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ وناهضون من قبورهم على أرجلهم، أو واقفون من شدة الحيرة في مكانهم حال كونهم ﴿يَنْظُرُونَ﴾ إلى الأطراف والجوانب كالمبهوتين، أو إلى السماء كيف غُيِّرَتْ وَطُوتِ، إلى الأرض كيف بُدِّلَتْ، وإلى الداعي كيف يدعوهم إلى الموقف، أو إلى الآباء والأمهات والأولاد كيف ذهب شفتهم واشتغلوا بأنفسهم، أو إلى خصمانهم ماذا يفعلون بهم. وقيل: يعني ينتظرون ما يُفَعَّلُ بِهِمْ<sup>٥</sup>.

في بيان كيفية وعن النبي صلى الله عليه وآله: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرِ»<sup>٦</sup>. وعن السجاد عليه السلام أَنَّهُ سِئِلَ عَنِ النَّفْخَتَيْنِ كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: «مَا شَاءَ اللَّهُ». والمدة الكائنة بين النفختين

قيل: أخبرني يا بن رسول الله كيف يُنْفَخُ فِيهِ فقال: «أَمَّا النَّفْخَةُ الْأُولَى» فَإِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ إِسْرَافِيلَ، فَيَهْبِطُ إِلَى الدُّنْيَا، وَمَعَهُ الصُّورُ، وَلِلصُّورِ رَأْسٌ وَاحِدٌ وَطَرَفَانِ، وَبَيْنَ رَأْسِ كُلِّ طَرَفٍ مِنْهُمَا إِلَى الْآخِرِ مِثْلُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَإِذَا رَأَتْ الْمَلَائِكَةُ إِسْرَافِيلَ قَدْ هَبَطَ إِلَى الدُّنْيَا وَمَعَهُ الصُّورُ قَالُوا: قَدْ أَذِنَ اللَّهُ فِي مَوْتِ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَفِي مَوْتِ أَهْلِ السَّمَاءِ.

قال: فَيَهْبِطُ إِسْرَافِيلُ بِحَظِيرَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَهُوَ مُسْتَقْبِلُ الْكَعْبَةِ، فَإِذَا رَأَوْهُ أَهْلُ الْأَرْضِ قَالُوا: قَدْ أَذِنَ اللَّهُ فِي مَوْتِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَيَنْفَخُ فِيهِ نَفْخَةً، فَيَخْرُجُ الصَّوْتُ مِنَ الطَّرَفِ الَّذِي يَلِي الْأَرْضَ، فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ ذُو رُوحٍ إِلَّا صَعِقَ وَمَاتَ، وَيَخْرُجُ الصَّوْتُ مِنَ الطَّرَفِ الَّذِي يَلِي السَّمَاءَ، فَلَا يَبْقَى فِي السَّمَاوَاتِ ذُو رُوحٍ إِلَّا صَعِقَ وَمَاتَ إِلَّا إِسْرَافِيلَ، فَيَقُولُ اللَّهُ لِإِسْرَافِيلَ: مَتَّ فَيَمُوتُ إِسْرَافِيلُ، فَيَمُكِّنُونَ فِي ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يَأْمُرُ السَّمَاوَاتِ فْتَمُورُ، وَيَأْمُرُ الْجِبَالَ فَتَسِيرُ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾\* وتسير الجبال سيرا<sup>٧</sup>.

٢. تفسير روح البيان ٨: ١٣٧.

١. تفسير روح البيان ٨: ١٣٨.

٣. لم نثر عليه. ٤. تفسير الرازي ٢٧: ١٨.

٧. الطور: ٩/٥٢ و ١٠.

٥ و ٦. تفسير روح البيان ٨: ١٣٨.

إلى أن قال: «فينفخ الجبار نفخةً أخرى في الصور، فيخرج الصوت من الطرف الذي يلي السماوات، فلا يبقى في السماوات أحدٌ إلّا حيّ وقام كما كان، ويعود حملة العرش، وتحضر الجنة والنار، ويحشر الخلائق للحساب»<sup>١</sup>.

قال الغزالي: اختلف الناس في أمد المدة الكائنة بين النفختين، فاستقرّ جمهورهم على أنّها أربعون سنة. قال: وحدثني من لا أشك في علمه: أنّ أمد ذلك لا يعلمه إلّا الله، لأنّه من أسرار الربوبية، فإذا أراد الله إحياء الخلق يفتح خزانة من خزائن العرش، فيها بحر الحياة، فيمطر به الأرض - فإذا هو كمّني الرجال - بعد أن كانت عطشى، فتحيى وتهتزّ، ولا يزال المطر عليها حتى يئمّها، ويكون الماء فوقها أربعين ذراعاً، فإذا الأجسام ثبّت من عَجَب الدُّنْب<sup>٢</sup>، وهو أول ما يُخلَق من الإنسان، بدأ منه ومنه يعود، وهو عَظْمٌ على قدر الجَمَصَة، وليس له مَخ، فإذا ثبّت كما يثبّت البَقْل، تشبّك بعضها في بعض، فإذا رأس هذا في مَنكِب هذا، ويد هذا في جنب هذا، أو فُجِدَ هذا على حِجَرِ هذا لكثرة البشر، الصبي صبي، والكهل كهل، والشيخ شيخ، والشاب شاب، ثم تهبّ ريحٌ من تحت العرش فيها نار، فتتسّف ذلك عن الأرض، وتبقى الأرض بارزةً مستوية، كأنّها صحيفةٌ واحدة، ثم يحيي الله إسرائيل، فينفخ في الصور من صخرة بيت المقدس، فتخرج الأرواح لها دويّ كدويّ النحل، فتملأ الخافقين، ثم تذهب كلّ نفسٍ إلى جُثَّتْها بإعلام الله تعالى حتى الوحش والطير وكلّ ذي روح، فإذا الكلّ قيام ينظرون<sup>٣</sup>. وعن الصادق عليه السلام: «إذا أراد الله أن يبعث الخلق أمطر السماء على الأرض أربعين صباحاً، فتجمع الاوصال، وتثبّت اللحوم»<sup>٤</sup>.

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ﴾ وأضاءت ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ والذي خلقه لإضاءة العرصة.

وقيل: إنّ المراد بالنور عدل ربهم، وإنّما استعير له النور لأنّه يُزَيّن البقاع، ويظهر الحقوق، كما يُسمّى الظلم ظلمة<sup>٥</sup>.

وفي الحديث: «الظلم ظلمات يوم القيامة»<sup>٦</sup>.

وقيل: إنّ هذا من المكتوم الذي لا يُفسّر<sup>٧</sup>.

عن الصادق عليه السلام قال: «رَبُّ الأرض إمام الأرض». قيل: إذا خرج يكون ماذا؟ قال: «إذا يستغني الناس عن ضوء الشمس والقمر، ويجتزون بنور الإمام»<sup>٨</sup>.

١. تفسير القمي ٢: ٢٥٢، تفسير الصافي ٤: ٢٣٠.

٣. تفسير روح البيان ٨: ١٣٩.

٥. تفسير روح البيان ٨: ١٤٠.

٧. تفسر روح البيان ٨: ١٤٠.

٢. أي أصله عند رأس العصص.

٤. تفسير القمي ٢: ٢٥٣، تفسير الصافي ٤: ٣٣٠.

٦. تفسير الرازي ٢٧: ١٩، تفسير أبي السعود ٧: ٢٦٣.

٨. تفسير القمي ٢: ٢٥٣، تفسير الصافي ٤: ٣٣١.

وعنه **عليه السلام**: «إذا قام قائمنا أشرقت الأرض بنور ربها، واستغنى العباد عن ضوء الشمس، وذهبت الظلمة»<sup>١</sup>.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ وصحائف الأعمال في أيدي الناس.

قيل: هو كناية عن الشروع في حساب أعمال الناس، كما يضع المحاسب دفتر المحاسبة بين يديه عند الشروع في الحساب<sup>٢</sup>.

وقيل: إنه اللوح المحفوظ الذي فيه شرح أحوال عالم الدنيا إلى القيامة<sup>٣</sup>.

﴿وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ الذين استشهدوا نصرةً للدين، فاذا دُعي النبيون والشهداء الذين هم أفضل الناس للحساب، فكيف يكون حال الأمم.

وقيل: إن المراد بالشهداء الشهود على الأمم من الملائكة والأولياء<sup>٤</sup>.

القمي: الشهداء الأئمة، والدليل على ذلك قوله تعالى في سورة الحج: ﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا﴾ أنتم يا معشر الأئمة ﴿شهداء على الناس﴾<sup>٥</sup>.

﴿وَقُضِيَ﴾ بين الناس وحكيم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ في ذلك اليوم ﴿بِالْحَقِّ﴾ والعدل؛ ثم بعد إثبات العدل نفي الظلم على العباد بقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ بنقص الثواب عما وعد، وزيادة العقاب على ما أوعد. ثم أكد ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس وأعطيت كاملاً جزاء ﴿مَا عَمِلَتْ﴾ من الخير والشر.

ثم لما كان إيفاء الحق متوقفاً على العلم الكامل بأعمال العباد ومقاديرها وكيفياتها، بين علمه بها مضافاً إلى كونها مثبتة في الكتاب بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿أَعْلَمُ﴾ من غيره حتى من العامل ﴿بِمَا﴾ كانوا في الدنيا ﴿يَفْعَلُونَ﴾ فيمتنع منه الخطأ في الحكم.

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ \* قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ [٧١ و ٧٢]

ثم بين سبحانه ما يحكم به يوم القيامة في حق الكفار والمتكبرين بقوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

١. إرشاد المفيد ٢: ٣٨١، تفسير الصافي ٤: ٣٣١.

٢. تفسير الرازي ٢٧: ٢٠. ٣. تفسير روح البيان ٨: ١٤٠.

٤. تفسير القمي ٢: ٢٥٣، تفسير الصافي ٤: ٢٣١.

وَيَذْهَبُ بِهِ بِالْعُفْ والدفع ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ بأمره بعد الحساب، والحكم عليهم باستحقاق العقاب حال كونهم ﴿زُمرًا﴾ وجماعات وأفواجًا متفرقة بعضها في أثر بعض على حسب ترتب طبقاتهم في الكفر والشرارة ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا﴾ بالاكراه<sup>١</sup> والاضطرار و﴿فَتِيَحَتْ﴾ بأمر مالك خازن جهنم ﴿أَبْوَابُهَا﴾ السبعة ليدخلوها.

قيل: فائدة إغلاقها إلى وقت مجيئهم تهويل شأنها، كما هي حال المسجون، وإيقاد حرها<sup>٢</sup>.  
﴿وَقَالَ لَهُمْ﴾، تقريباً وتوبيخاً للملائكة الذين هم ﴿خَزَنَتُهَا﴾ وحفاظها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أيها الكفرة في الدنيا ﴿رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ وأنبياء من جنسكم، ليسهل عليكم مراجعتهم وفهم كلامهم، وهم ﴿يَتْلُونَ﴾ ويقرأون ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ويؤذون إليكم ﴿آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ التي أنزلت لهدايتكم ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾ ويخوفونكم ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ وشدائده وأهواله؟

﴿قَالُوا﴾ للجنة: ﴿بَلَىٰ﴾ قد أتونا، وتلوا علينا، وأنذرونا ﴿وَلَكِنْ﴾ ما اعتنينا بهم، ولذا ﴿حَقَّتْ﴾ ووجبت ﴿كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ ووَعْدُهُ من الله ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الذين نحن منهم.

فلما اعترفوا باستحقاقهم للعذاب ﴿قِيلَ﴾ لهم: ﴿أَدْخُلُوا﴾ قهراً وقسراً ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ حال كونكم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ملازمين لعذابها، بحيث لا تنفكون منه أبداً ﴿فَيَسَّ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ وساء مأوى المستكبرين عن الإيمان وطاعة الرسول ﷺ تعظماً، هذا المنزل والمأوى، وفيه دلالة على أنه مع وفور آيات الحق وتامة الحجة، لم يكن لهم مانع عن الإيمان به إلا التكبر على الرسل، والتعظم عن تبعيتهم. قيل: إنه إيهام القائل لتهويل المقول<sup>٣</sup>.

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا  
وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ \* وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ  
الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ  
الْعَامِلِينَ \* وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ  
وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [٧٣-٧٥]

ثم ذكر سبحانه حسن حال المتقين بقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ واحترزوا من الاشراك به، ويذهب بهم الملائكة بأسراع وإعزاز وإكرام بلا تعب ولا نصب ليوصلونهم ﴿إِلَى الْجَنَّةِ﴾ ودار

الراحة والكرامة في أسرع وقتٍ حال كونهم ﴿زُمرًا﴾ وجماعاتٍ متفاوتين حسب تفاوتهم في الإيمان والعبادة والمعرفة والفضل، وتحمل المشاق، والصبر على المكارة والشدائد، وحب الرسول وآله ﴿حتى إذا جاءوها﴾ وقد ﴿وفيتحت﴾ قبل وصولهم إليها ﴿أبوابها﴾ الثمانية، فيدخلوها بلا توقّف عندها ورؤية وصَب الانتظار لفتحها.

قيل: إن جواب (إذا) قوله: (فتحت) وزيادة الواو للإيذان بكونها مفتحة قبل مجيئهم، ولا ينافي ذلك<sup>١</sup> ما روي عن النبي ﷺ: «أنا أول من يستفتح باب الجنة»<sup>٢</sup>. وقوله ﷺ: «أنا أول من يفتح باب الجنة»<sup>٣</sup> لإمكان أن يريد الله أن يعلم الناس بأنه ﷺ كما فتح عليكم في الدنيا أبواب المعرفة والعبادة وتكميل النفس وتهذيب الأخلاق، فتح له في الآخرة أبواب الجنة والرحمة والنعم الدائمة، فيصير ببركته مفتوحاً لهم قبل وصولهم إليه.

وقال ﷺ: «الجنة محرمة على جميع الأمم حتى أدخلها أنا وأمتي الأول فالأول»<sup>٤</sup>.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ الرضوان واتباعه عن الملائكة الذين هم سدة الجنة وحين استقبلهم إياهم دخلوهم فيها ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المتّقون، وأمان لكم من كلّ آفةٍ ومكروه ﴿طِبْتُمْ﴾ نفساً، أو نظفتم منا الاقذار الظاهرية والباطنية، وصلحتم لدخول الجنة، إذن ﴿فَادْخُلُوهَا﴾ حال كونكم ﴿خَالِدِينَ﴾ ومقيمين فيها أبداً لا خروج لكم منها.

عن الصادق، عن أبيه، عن جدّه، عن علي ﷺ قال: «إن للجنة ثمانية أبواب: باب يدخل منه النّبيون والصدّيقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب يدخل منها شيعةنا ومحّبونا، فلا أزال واقفاً على الصراط أدعوا وأقول: ربّ شيعةٍ ومحّبٍ وأنصاري وأوليائي ومن تولاني في دار الدنيا. فإذا النداء من بطنان العرش: قد أجيبت دعوتك، وشفعت في شيعتك، وليشفع كلّ رجل من شيعةٍ ومن تولاني ونصرني وحارب من حاربي بفعلٍ أو قولٍ في سبعين من جيرانه وأقربائه، وباب يدخل منه سائر المسلمين ممن يشهد أن لا إله إلا الله، ولم يكن في قلبه مثقال ذرةٍ من بغضنا أهل البيت»<sup>٥</sup>.

وعن الباقر ﷺ قال: «أحسنوا الظن بالله، واعلموا أنّ للجنة ثمانية أبواب، عرض كلّ بابٍ منها مسيرة أربعة سنين»<sup>٦</sup>.

وفي رواية عامية عن النبي ﷺ، قال: «إنّ للجنة لثمانية أبواب، ما منها بابان إلا بينهما سبيل الراكب

١. تفسير روح البيان ٨: ١٤٤.

٢. تفسير روح البيان ٨: ١٤٤.

٣. الخصال: ٧/٤٠٨، تفسير الصافي ٤: ٣٣٢.

٤. تفسير روح البيان ٨: ١٤٥.

٥. تفسير روح البيان ٨: ١٤٤.

٦. الخصال: ٦/٤٠٧، تفسير الصافي ٤: ٣٣٢.

سبعين عاماً، وما بين كلِّ مصراعين من مصارع الجنة مسيرة سبع سنين<sup>١</sup>.

وفي رواية: «كما بين مكة وبصرى»<sup>٢</sup>.

وتحية الملائكة لهم بالسلام حين الدخول، وتحيتهم من الله بالسلام بقوله: ﴿سَلامٌ قَولاً مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾، إنما هو بعد استقرارهم فيها. وقيل: إن سلام الملائكة لعوامهم، وسلام الله لخواصهم<sup>٣</sup>.

﴿وَقَالُوا﴾ أولئك المتقون بعد دخولهم في الجنة وَيَلْهَمُ بِنِعْمَةِ الْعِظَامِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَغَدَهُ﴾ بالبعث والثواب على الايمان الأعمال على لسان رسوله ﷺ: ﴿وَأَوْزَنَّا﴾ هذه ﴿الْأَرْضِ﴾ التي جعلها مقراً لأوليائه - وقد مرَّ تفسير التورث في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾<sup>٤</sup> - ﴿تَنْبِؤُا﴾ وتُمْكِنُ ﴿مِنَ الْجَنَّةِ﴾ التي أعطانا وخصنا بها ﴿حَيْثُ نَشَاءُ﴾ وفي أي مكان يُريد. روي أن أمة محمد ﷺ تدخل أولاً الجنة، فتزول حيث تشاء منها، ثم يدخل سائر الأمم<sup>٥</sup> ﴿فَنِعْمَ﴾ الأجر ﴿أَجْرُ﴾ العابدين ﴿الْعَالَمِينَ﴾ له وهو الجنة ونعيمها.

ثم لما حكى الله سبحانه حمد المتقين إياه في الجنة، حكى استغراق أقرب الملائكة إليه في التحميد والتسبيح له بقوله تعالى: ﴿وَتَزَيَّ﴾ يا محمد ﴿الْمَلَائِكَةُ حَافِينَ﴾ ومُحْدِقِينَ ﴿مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ وجوانبه ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ الله وينزهونه عما لا يليق به، حال كونهم مُقَرَّنِينَ تسبيحه ﴿يَحْمَدُونَ﴾ تِلْذِذاً به ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بإقامة كلِّ في مقامه اللائق به حسب التفاضل بينهم ﴿بِالْحَقِّ﴾ والحكمة البالغة. وقيل: إنه بيان خاتمة القسمة بالقضاء بين الخلق بالحق بادخال أهل الجنة في الجنة، وإدخال أهل النار في النار<sup>٦</sup>. ﴿وَقِيلَ﴾: والقائل الملائكة على التفسير الأول، والمتقون على الثاني: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على قضائه بالحق بين عباده.

عن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة الزمر استخفاها<sup>٧</sup> من لسانه، أعطاه الله شرف الدنيا والآخرة، وأعزَّه بلامالٍ ولا عشيرة حتى يهابه من يراه، وحرم جسده على النار، وبنى له في الجنة ألف مدينة، وفي كلِّ مدينة ألف قصر، وفي قصر مائة حوراء، وله مع هذا عينان تجريان، وعينان نصّاختان، وجنتان مدهامتان، ومن كلِّ فاكهة زوجان»<sup>٨</sup>.

الحمد لله على توفيقه لاتمام السورة المباركة الشريفة.

١ و ٢. تفسير روح البيان ٨: ١٤٤.

٣. تفسير روح البيان ٨: ١٤٥.

٤. المؤمنون: ١٠/٢٣ و ١١.

٥. تفسير روح البيان ٨: ١٤٧.

٦. تفسير روح البيان ٨: ١٤٨.

٧. في ثواب الاعمال: استحقها، وفي تفسير الصافي: استخفاً.

٨. نواب الاعمال: ١١٢، مجمع البيان ٨: ٧٦٠، تفسير الصافي ٤: ٣٣٣.

## في تفسير سورة غافر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم \* تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ \* غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ  
شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ [١-٣]

ثم لما خُتِمت سورة الزُّمر المبدوءة ببيان عظمة القرآن، والأمر باخلاص الدين لله، والحكم بخسران المكذِّبين بآيات الله واستحقاقهم للعذاب، والمختمة ببيان أهوال القيامة، وقضاء الله فيه بالحق، وحكاية حمد الملائكة الحافين حول العرش، نظمت سورة المؤمن البدوء أيضاً ببيان عظمة القرآن وتهديد المكذِّبين بالآيات، وبيان استحقاقهم للنار، وحكاية تحميد الملائكة الحاملين للعرش والمحيطين به، إلى غير ذلك من المطالب المناسبة للسورة السابقة، فبابتدأها بذكر الأسماء المباركات بقوله تعالى:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ثم افتتحها بذكر الحروف المقطعة بقوله: «حم» وقد مرَّ أنَّ الحرفين رمان من اسمين من الأسماء الحسنى.

عن الصادق عليه السلام: «معناه الحميد المجيد»<sup>١</sup>.

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «أنه اسم من أسمائه تعالى»<sup>٢</sup>.

وقيل: إنه اسم للسورة، وعليه هو مبتدأ وخبره قوله: «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ»<sup>٣</sup>.

وانزال هذا القرآن «مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ» القادر على كل شيء «الْعَلِيمِ» بكل شيء فبقدرته ربّه من الحروف المتداولة على نحو عَجَزَ العاملون عن الاتيان بمثله، وبعلمه جعله حاوياً للعلوم الكثيرة التي لا يحوي غيرها الكتب السماوية.

وقيل: إنَّ العزيز بمعنى الذي لا مثل له في حُسن البيان والنظم والأسلوب، بحيث لا يُدانيه كتاب

٢. تفسير روح البيان ٨: ١٤٩.

١. معاني الأخبار: ١/٢٢، تفسير الصافي ٤: ٣٣٤.

٤. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦، تفسير روح البيان ٨: ١٥٠.

٣. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦.

سماويّ فضلاً عن غيره، ويمكن كون التُّكْتة في توصيف ذاته هنا بالوصفين، التنبيه على قدرته على إثابة المؤمنين به العاملين بما فيه، وتعذيب المكذبين المُعرّضين عنه، وعلى علمه بأحوال العباد من الكفر والإيمان والطاعة والعصيان.

ثم أعلن سبحانه بسعة رحمته وشدة قهره وعذابه بقوله: ﴿عَافِرِ الذَّنْبِ﴾ وساتره حتى عن المذنب وإن لم يُثَبَّ ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ العُذر من الذنب والعصيان، عَافٍ عَمَّا يَثْبُ منه، وإن كان أكبر الكبائر. ثم أعلن بشدة قهره وعذابه بقوله: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ على المشركين والعصاة.

ثم لما كانت رحمته سابقة على غضبه، عاد إلى ذكر كرمه بقوله: ﴿ذِي الطُّولِ﴾ والفضل والاحسان على جميع الخلق في الدنيا وعلى المؤمنين في الآخرة، فاذا كان ذاته المقدسة بتلك الصفات الجليلة، ثبت أنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا مستحق للعبادة في عالم الوجود إلا ذاته، فإذن فاعبدوه ولا تعبدوا غيره، واعلموا أنه ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ والمُتَقَلَّب بعد خروجكم من الدنيا، فيجازيكم على عبادتكم إياه، يُعَاقِبكم على عبادتكم غيره.

مَا يَجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ \* كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَنِي إِسْرَافِيلَ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالبَّاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ [٥٤ و ٥٥]

ثم إنّه تعالى بعد بيان كون القرآن نازلاً منه، ذم الكفار الذين جادلوا النبي ﷺ فيه ونسبوه إلى السحر أو الشعر أو الكهانة بقوله تعالى: ﴿مَا يَجَادِلُ﴾ ولا يتنازع ﴿فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ المُنزلة بالظن فيها ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بها لجأجأً وعناداً، واصرّوا على مَحَقِّ الْحَقِّ وتشبيد الباطل، فاذا علمت يا محمد أنهم كفار مطرودون عن ساحة الرحمة ومستحقون للعذاب ﴿فَلَا يَغْرُوكَ﴾ ولا يوقفك في توهم سلامتهم من عذابي إمهالهم و﴿تَقَلُّبُهُمْ﴾ وتصرفهم ﴿فِي الْبِلَادِ﴾ كالشام واليمن للتجارة وكسب المعاش وجمع الأموال، فأني وإن أمهلهم ولكن سأخذهم وأنقم منهم، كما أخذت أمثالهم من الأمم الماضية، فإنّ تكذيب الرسول، والمجادلة في الآيات، ليس من خصائص قومك، بل ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحاً ﴿وَالْأَحْزَابُ﴾ والأمم الذين تحزّبوا على الرُّسل وعادوهم، تبعوا قوم نوح ﴿مِنْ بَنِي إِسْرَافِيلَ﴾، في تكذيب الرسل، بل بعد التكذيب قصدت ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم وطائفة من الطوائف ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ ويقتلوه أو يخسبوه ﴿وَجَادَلُوا﴾ رسولهم وخاصموه ﴿بِالبَّاطِلِ﴾ وما لا أصل ولا حقيقة له ﴿لِيُدْحِضُوا﴾ ويمحوا ﴿بِهِ الْحَقَّ﴾ الذي لا محيد عنه ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾



بالعذاب عقوبةً على كفرهم و همهم بالرسول ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ ربك الذي عاقبهم به بعد ما رأيت آثاره من خراب الديار ومحو الآثار عبرةً للنظار، ألم يكن مهلكاً مستأصلاً لهم؟

وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ \* الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ \* رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ \* وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [٦-٩]

ثم وعد سبحانه النبي ﷺ بأخذه قومه كما أخذ أولئك الأمم بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ العذاب الذي حُرِّثَ وثبت على أولئك الأمم ﴿حَقَّتْ﴾ ووجبت ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ ووعدته بالعذاب ﴿عَلَى﴾ قومك ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ برَبِّهم، وتخزبوا عليك، وجادلوك بالباطل لأجل ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ومستحقوها أشد الاستحقاق.

وقيل: إن المراد مثل وجوب العذاب الدنيوي على الأمم السابقة، وجبت كلمة ربك على أولئك الكفرة، وهي كونهم أصحاب النار في الآخرة<sup>١</sup>.

ثم لما حكي سبحانه شدة استنكاف المشركين عن التوحيد، وعداوتهم للموحدين، بين رافة الملائكة بالموحدين، وشفتهم عليهم من أن يبتلوا بعذاب النار، ورحمتهم عليهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ والجسم المحيط بعالم الوجود، منه ينزل قضاء الله وقدره، وأولئك الحملة في الدنيا أربعة على قول<sup>٢</sup>، وثمانية على آخر<sup>٣</sup>، وفي الآخرة ثمانية بالاتفاق<sup>٤</sup> ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ وفي جوانبه من الملائكة المكرمين. قيل: هم سبعون ألف صف من مائة ألف صف، قد وضعوا أيماهم على شمانلهم<sup>٥</sup> ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ الله ويترهونه من كل ما لا يليق بشأنه الجليل مفرنين تسبيحهم ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ على نعمائه التي لا تنهاى. قيل: كل يسبح بما لا يسبح به الآخر<sup>٦</sup> ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ إيماناً حقيقاً بحالهم ومقامهم، وإنما صرح بإيمانهم مع كفاية تسبيحهم وتحميدهم عنه، إظهاراً لفضيلة الإيمان

٢. تفسير روح البيان ٨: ١٥٥.

٤. تفسير الرازي ٢٧: ٣١، تفسير روح البيان ٨: ١٥٥.

٦. تفسير روح البيان ٨: ١٥٦.

١. تفسير الرازي ٢٧: ٣٠.

٣. تفسير الرازي ٢٧: ٣١.

٥. تفسير روح البيان ٨: ١٥٦.

وشرف أهله، وتنبهها على أن الله تعالى لا يكون حاضراً في العرش مشاهداً لهم، بل هم كغيرهم مؤمنون به وممدوحون بايمانهم به، ولو كانوا مشاهدين إياه لم يَخْذَحُوا بايمانهم ﴿وَيَسْتَفْهَرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ من البشر شَفَقَةً عليهم. قيل: كمال السعادة في تعظيم الله والشُّفَقَة على خلق الله<sup>١</sup>.  
عن الرضا عليه السلام: «للذين آمنوا بولايتنا»<sup>٢</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: «أن لله ملائكة يُسْقِطُونَ عن ظهور شيعتنا الذنوب، كما يُسْقِطُ الريح الورق في أوان سقوطه، وذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾» الآية<sup>٣</sup>.

ويقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وأحطت بكل شيء ﴿وَرَحْمَةً وَعِلْماً﴾ قيل: يعني ملاكل شيء نعمتك وعلمك، فإذا كنت واسع الرحمة ﴿فَاغْفِرْ﴾ برحمتك ﴿لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ وتبدوا من الشرك والعصيان، ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ وعملوا بدينك وأحكامك وما فيه رضاك ﴿وَوَقَّهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ واخفظهم منه، وهو تأكيد لطلب المغفرة التي بها النجاة من العذاب، ويقولون بعد طلبهم النجاة من العذاب للمؤمنين ﴿رَبَّنَا وَأَذِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ وبساتين إقامة، أو بساتين اسمها جنات عَدْنٍ ﴿الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ على لسان أنبيائك على الايمان بك ﴿وَوَدَّخِلْهُمْ مَعَهُمْ﴾ لدخول الجنة ﴿مِنْ أَبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ ليتم شروهم، ويتضاعف ابتهاجهم ﴿إِنَّكَ أَنْتَ﴾ بالخصوص ﴿الْعَزِيزُ﴾ والقادر على إنجاز وعدك وإجابة دعاء كل داع ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يمتنع منه خلف الوعد الذي هو من القابح.

عن سعيد بن جبیر، قال: يدخل المؤمن الجنة فيقول: أين أبي، أين ولدي، أين زوجي؟ فيقال لهم: إنهم لم يعملوا مثل عملك. فيقول: إني كنتُ أعمل لي ولهم؟ فيقال: أدخلوهم الجنة<sup>٤</sup>.  
وعن النبي صلى الله عليه وآله: «إذا كان يوم القيامة تُودي في أطفال المسلمين أن أخرجوا من قبوركم، فيخرجون من قبورهم، فينادي: أن امضوا إلى الجنة» الخبر.

﴿وَقِهِمْ﴾ يا رب ﴿السَّيِّئَاتِ وَ﴾ اخفظهم من جميع مكاره القيامة وأهوالها ﴿مَنْ تَوَّي السَّيِّئَاتِ﴾ وتَحَفَّظَ منها ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وفي ذلك اليوم العظيم الشديد الأهوال ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ وتفصّلت عليه غاية الرحمة والتفصّل.

قيل: إن المراد بالسَّيِّئَاتِ المعاصي في الدنيا، والمعنى: وقهم المعاصي في الدنيا، ومن تقيه من

١. تفسير روح البيان ٨: ١٥٧.

٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٢/٢٦٦، تفسير الصافي ٤: ٢٣٥.

٣. الكافي ٨: ٤٧٠/٣٠٤، تفسير الصافي ٤: ٢٣٥.

٤. تفسير روح البيان ٨: ١٥٧.

٥. تفسير روح البيان ٨: ١٥٨.

المعاصي فيها فقد رحمته في الآخرة<sup>١</sup>. ﴿وَذَلِكَ﴾ المذكور من الإقاية والرحمة ﴿هُوَ﴾ فقط ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ والظفر بأعلى المقاصد، أو أهم المطالب الذي ليس وراءه مطمع لطامع.

القمي رحمه الله قال في تأويل الآية: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ يعني رسول الله ﷺ والأوصياء عليهم السلام من بعده، يحملون علم الله عز وجل ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ يعني الملائكة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني شيعة آل محمد ﷺ ﴿لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ يعني من ولاية فلان وفلان وبني أمية ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أي ولاية ولي الله ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ يعني تولى علياً عليه السلام، وذلك صلاحهم ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ يعني يوم القيامة ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لمن نجاه الله من ولاية فلان وفلان<sup>٢</sup>.

وروى الكليني رحمه الله: «أن الله تعالى أعطى النابيين ثلاث خصال، لو أعطى كل خصلة منها أهل السماوات والأرض لنجوا بها» ثم تلا الآية<sup>٣</sup>.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى  
الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ \* قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا أَتْنَتْنِي وَأَحْيَيْتَنَا فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا  
فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ \* ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَخُدَّه كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ  
تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ [١٠-١٢]

ثم أنه تعالى بعد بيان رافة الملائكة المقربين بالمؤمنين، ودعائهم في حقهم، حكى سبحانه غضبهم على الكافرين ونداءهم إليهم بما فيه توبيخهم وتقريرهم وتهويلهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بآيات الله ورسله والدار الآخرة ﴿يُنَادُونَ﴾ يوم القيامة بعد دخولهم في جهنم ومقتهم وغيظهم على أنفسهم الأمانة بالسوء، والنادي الملائكة الذين هم خزنة جهنم: أيها الكفرة والله ﴿لِمَقْتُ اللَّهِ﴾ وسخطه عليكم في الدنيا ﴿أَكْبَرُ﴾ وأشد ﴿مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ وسخطكم عليكم في هذا اليوم، وإنما كان مقت الله وسخطه عليكم ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ وحين تنادون من جهة الأنبياء ﴿إِلَى الْإِيمَانِ﴾ بتوحيد الله ورسالة رسله ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾ وتابون من إجابتهم استكباراً عليهم واتباعاً لهوى أنفسكم.

قيل: إن كلمة (إذا) متعلقة بذكروا المقدّر<sup>٤</sup>.

ثم حكى سبحانه عنهم الاعتراف بالذنب واستحقاقهم العذاب بقوله: ﴿قَالُوا﴾ حين تقرير خزنة

٢. تفسير القمي ٢: ٢٥٥، تفسير الصافي ٤: ٢٣٥.

٤. تفسير روح البيان ٨: ١٦٠.

١. تفسير روح البيان ٨: ١٥٩.

٣. الكافي ٢: ٣١٥، تفسير الصافي ٤: ٣٣٦.

جهنم إياهم ﴿رَبَّنَا﴾ إِنَّا شَاهَدْنَا أَنَّكَ ﴿أَمْسَنَّا﴾ إِمَاتَيْنِ ﴿أَتُنْتِنِ﴾ إِحْدَاهُمَا حِينَ انْقِضَاءِ أَجَالِنَا فِي الدُّنْيَا، وَالْأُخْرَىٰ بَعْدَ إِحْيَانِنَا فِي الْقُبُورِ لِسُؤَالِ مَنْكَرٍ وَنَكِيرٍ ﴿وَأَخْيَيْنَنَا﴾ أَحْيَاءَ تَيْنِ ﴿أَتُنْتِنِ﴾ إِحْدَاهُمَا فِي الْقُبُورِ لِلسُّؤَالِ وَالتَّعْذِيبِ، وَالْأُخْرَىٰ فِي الْقِيَامَةِ، وَكُنَّا تُنَكِّرُ جَمِيعَهَا.

وعن الصادق عليه السلام: «ذلك في الرجعة»<sup>١</sup>.

﴿فَاعْتَرَفْنَا﴾ لَمَّا شَاهَدْنَاهَا ﴿يَدُّنُونَا﴾ الَّتِي مِنْهَا تَكْذِيبُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنْكَارُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَدَارُ الْآخِرَةِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ﴿فَهَلْ﴾ بَعْدَ اعْتِرَافِنَا هَذَا ﴿إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ سَرِيعٍ أَوْ بَطِيءٍ مِنَ النَّارِ، أَوْ ﴿مِنْ﴾ هَذِهِ الدَّارِ إِلَىٰ دَارِ الدُّنْيَا وَالْعَمَلِ ﴿سَبِيلٍ﴾ وَطَرِيقٍ فَتُسَلِّكُهُ وَتُخَلِّصُكَ مِنَ الْعَذَابِ، أَوْ نَعْمَلُ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ؟ فَيَقَالُ لَهُمْ: لَا سَبِيلَ إِلَىٰ ذَلِكَ ﴿ذَلِكُمْ﴾ الْعَذَابُ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ وَابْتَلَيْتُمْ بِهِ مُعَلَّلٌ ﴿بِأَنَّهُ﴾ كَانَ حَالِكُمْ فِي الدُّنْيَا أَنَّهُ ﴿إِذَا دُعِيَ اللَّهُ﴾ وَذُكِرَ، أَوْ عُبِدَ ﴿وَحْدَهُ﴾ وَبِلا شَرِيكَ وَمَنْزَعاً عَنْهُ ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بِتَوْحِيدِهِ، وَاشْمَأَزَّتْ مِنْهُ قُلُوبُكُمْ ﴿وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ﴾ وَيُحْجَلْ لَهُ يَدٌ أَوْ وَلَدٌ ﴿تُؤْمِنُوا﴾ بِالْإِسْرَافِ بِهِ، وَلَوْ رَجَعْتُمْ إِلَى الدُّنْيَا ثَانِيًا ﴿فَالْحُكْمُ﴾ بِأَنَّهُ لَا عُفْرَانَ لِلْمُشْرِكِ وَلَا نَجَاةَ لَهُ مِنَ النَّارِ ﴿فَهُوَ﴾ الْحَاكِمُ بِالْحَقِّ ﴿أَلْعَلَّيْ﴾ مَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكَ، الْمُتَعَالِي مَنْ أَخَذَ النَّدَّ وَالصَّاحِبَةَ وَالْوَلَدَ، وَمَنْ خَلَفَ الْوَعْدَ، الْحَكِيمُ ﴿أَلَكَبِيرِ﴾ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ \*  
فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ \* وَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ  
يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ [١٣-١٥]

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَىٰ بَعْدَ تَهْدِيدِ الْمُشْرِكِينَ بِالْعُقُوبَةِ، أَعْلَنَ بَلْطَفِهِ وَمَتْنَهُ عَلَى النَّاسِ بِنَصَبِ الْأَدَلَّةِ الْقَاطِعَةِ عَلَى تَوْحِيدِهِ الْمُحْيِي لِلْقُلُوبِ، وَبِإِنْزَالِ الْمَطَرِ الْمَوْجِبِ لِحَيَاةِ الْأَيْدَانِ، تَرْغِيباً لَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِهَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ﴾ اللَّهُ وَحْدَهُ الْلطِيفُ ﴿الَّذِي يُرِيكُمْ﴾ بَلْطَفِهِ ﴿آيَاتِهِ﴾ الدَّالَّةَ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَكَمَالِ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، وَلِيَحْيِيَ بِالتَّفَكُّرِ فِيهَا قُلُوبَكُمْ ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ الْأَمْطَارَ النَّافِعَةَ لِيُوجِدَ بِهَا ﴿رِزْقًا﴾ وَمَعِاشًا، فَيَحْيِي بِهِ أَبْدَانَكُمْ ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ وَمَا يَتَنَبَّهُ بِتِلْكَ الْآيَاتِ، وَمَا يَتَعَطَّ بِهَا ﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ وَيَرْجِعُ إِلَى رَبِّهِ بِالتَّفَكُّرِ فِيهَا، فَيَعْرِفُ نِعْمَةَ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾ وَأَعْبُدُوهُ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ حَالُ كُونِكُمْ ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وَمُخَصَّصِينَ بِهِ الْعِبَادَةَ وَالِدَعَاءَ ﴿وَلَوْ كَرِهَ﴾ تَوْحِيدَكُمْ وَإِخْلَاصَكُمْ ﴿الْكَافِرُونَ﴾ فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَصِدَّكُمْ عَنِ التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ

غِيظُهُمْ وَغَضِبُهُمْ عَلَيْكُمْ، لَكُونَهُمْ فِيكُمْ رَفِيعِي الْمَنْزِلَةِ وَعَالِي الْمَقَامِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ فِي الْكَمَالِ، وَأَعْلَى الْمَوْجُودَاتِ فِي صِفَاتِ الْجَمَالِ وَالْجَلَالِ.

قيل: إن الموجودات من العقل والنفس الكليين والطبيعة الكلية والعرش والكرسي والسموات والكُرات والحيوانات والنباتات والمعادن، كلها [من] الدرجات والمراتب الرحمانية، التي هو تعالى أعلى وأرفع من جميعها<sup>١</sup>.

وقيل: إن المراد رافع درجات الأنبياء والعلماء والأولياء والمؤمنين في الجنة<sup>٢</sup>، أو رافع درجة كل موجود من الموجودات في العالم، حيث إن للأنبياء درجة، ولكل من الملائكة درجة، ولكل من العلماء درجة، ولكل من الأجسام درجة، ولكل فرد من الإنسان درجة في العلم والرزق والأجل والسعادة والشقاوة<sup>٣</sup>. والحاصل أن لكل شيء يكون له فضيلة ومتبة، فهو بايجاده تعالى وإعطائه.

وهو تعالى ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ العظيم، الذي له على ما قيل أربعمائة رُكنٍ، ما بين كل رُكنٍ إلى رُكنٍ أربعمائة ألف سنة، وهو فوق جميع الموجودات من الكرسي والسموات، خلقه سبحانه إظهاراً لعظمته وقدرته، لا مكاناً لذاته، وجعله محل نزول بركاته ورحمته، ومطافاً لملائكته، وقبلة لدُعائه، ومِعراجاً لخاتم أنبيائه، وظلة يوم الحشر لأوليائه<sup>٤</sup>.

وقيل: إن المراد من العرش هنا المُلْك العظيم، ذكره إظهاراً لهيبته، ونفاذ قدرته، واستيلائه على جميع مخلوقاته<sup>٥</sup>.

وهو سبحانه ﴿يُلْقِي﴾ وَيُنْزِلُ ﴿الرُّوحَ﴾ والوحي الذي به حياة القلوب، أو المَلَك المسمى بالروح، وهو الخاص برسول الله ﷺ والأنمة المعصومين عليه السلام على رواية القمي<sup>٦</sup>، أو المسمى بجبرئيل كما عن بعض<sup>٧</sup>، حال كون إنزاله ناشئاً ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ تعالى وإرادته ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ الْمُصْطَفِينَ للرسالة وتبليغ الوحي ﴿لِيُنْذِرَ﴾ ذلك الرسول المُوَحَّى إليه الناس ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ والحشر الذي تتلاقى فيه الأرواح والأبدان، أو الأولون والآخرون، أو أهل السموات وأهل الأرض، كما عن الصادق عليه السلام<sup>٨</sup>، أو العاملون والأعمال، أو الظالمون والمظلومون، أو أهل النار والزبانية، ويخوفهم من أهواله وشدائده.

٢. تفسير روح البيان ٨: ١٦٤.

١. تفسير روح البيان ٨: ١٦٥.

٤. تفسير روح البيان ٨: ١٦٥.

٣. تفسير روح البيان ٨: ١٦٤، تفسير الرازي ٢٧: ٤٣.

٦. تفسير القمي ٢: ٢٥٦، تفسير الصافي ٤: ٣٣٧.

٥. تفسير روح البيان ٨: ١٦٦.

٧. تفسير روح البيان ٨: ١٦٦.

٨. تفسير القمي ٢: ٢٥٦، معاني الأخبار: ١/١٥٦، تفسير الصافي ٤: ٣٣٧.

## يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [١٦]

ثم عرّف سبحانه ذلك ببيان ما فيه من الأحوال والشدائد بقوله: ﴿يَوْمَ﴾ يحشر الناس و﴿هُمْ﴾ بارِزُونَ وظاهرون، ولا يَشْتَرُهُمْ جَبَلٌ ولا أَكْمَةٌ ولا بِنَاءٌ، لكون الأرض مستوية، ولا ثياب لكونهم عراة، كما في الحديث: «يُخْشَرُونَ حَفَاءَ عَرَاةٍ، أو المراد هم بارزون وخارجون من قبورهم<sup>١</sup>.  
وقيل: بئروهم كناية عن ظهور أعمالهم وأسرارهم<sup>٢</sup>.

﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ﴾ مع كَثْرَتِهِمْ ﴿شَيْءٌ﴾ من أعيانهم وأعمالهم الجليّة والخفية السابقة واللاحقة، فينادي منادٍ حين ظهورهم وظهور أعمالهم: يا أهل المحشر ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ﴾ والسُّلْطَنَةُ المُنْطَلَقَةُ ﴿الْيَوْمَ﴾ ثم يقول ذلك المنادي على قول<sup>٣</sup>، أو أهل المحشر على قول<sup>٤</sup>، أو الله تعالى على قول<sup>٥</sup>: المُلْكُ اليوم ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

قيل: يقول المؤمنون ذلك تلذّذاً حيث نالوا بهذا الذكر المنزلة الرفيعة، ويقوله الكفار تحسراً وندامةً على فوت هذا الذكر منهم في الدنيا<sup>٦</sup>.

وقيل: إنّ المجيب هو إدريس النبي، كما عن أمير المؤمنين عليه السلام<sup>٧</sup>، وفي رواية قال: «يقول الله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ ثم تنطق أرواح أنبيائه ورُسله وحُججه فيقولون: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾»<sup>٨</sup>.  
وعن الصادق عليه السلام - في حديث إماتة الله أهل الأرض وأهل السماء والملائكة - قال: «ثم لَبِثَ مثل ما خلق الله الخلق، ومثل ذلك كله، وأضعاف ذلك، ثم يقول الله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾؟ ثم يَزِدْ على نفسه: لله الواحد القهار. أين الجبارون، أين الذين ادّعوا معي إلهاً آخر، أين التكبرون ونخوتهم ثم يبعث الخلق»<sup>٩</sup> الخبر.

قيل: إنّما خصّ النداء بيوم القيامة مع أنّ ملك الوجود له تعالى من الأزل إلى الأبد، وأنّه قاهر الممكنات تحت إرادته من بدو الخلق إلى آخر الدهر، ونداء ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ﴾ منه تعالى باقٍ في المعنى في الدنيا والآخرة؛ لأنّ الدنيا دار الأسباب، ولولا الأسباب لما ارتاب المرتاب، وفي القيامة

٢. تفسير الرازي ٢٧: ٤٥.

٤. تفسير روح البيان ٨: ١٦٧.

٦. تفسير الرازي ٢٧: ٤٦.

٧. تفسير روح البيان ٨: ١٦٧، ولم ينسبه إلى أمير المؤمنين عليه السلام.

٩. تفسير القمي ٢: ٢٥٦ و ٢٥٧، تفسير الصافي ٤: ٣٣٧.

١. تفسير روح البيان ٨: ١٦٧.

٣. تفسير روح البيان ٨: ١٦٧.

٥. تفسير الرازي ٢٧: ٤٧.

٨. التوحيد: ١/٢٣، تفسير الصافي ٤: ٣٣٧.

تزلزل الأسباب، وتنزل الارباب، ولا يبقى غير حكم مسبب الأسباب<sup>١</sup>.

الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ \*  
وَأَنْذَرُهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِمِينَ مِمَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ  
حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ [١٧ و ١٨]

ثم أعلن سبحانه بعدله في المجازات بقوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ وعملت في الدنيا خيراً أو شراً ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ بوجه من الوجوه على أحد، لا بزيادة العقاب، ولا بنقص الثواب ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ تعالى مع كثرة الخلق ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ بحيث يحاسب جميعهم في أقرب زمان، إذ لا يشغله شأن عن شأن.

عن ابن عباس رضي الله عنه: إذا أخذ الله في حسابهم، لم يقل أهل الجنة إلا فيها، ولا أهل النار إلا فيها<sup>٢</sup>.  
ثم بالغ سبحانه في تخويف الكفار من أهوال القيامة بقوله: ﴿وَأَنْذَرُهُمْ﴾ يا محمد ﴿يَوْمَ﴾ القيامة ﴿الْآزِفَةِ﴾ والقرية الوقوع؛ لأن كل آت قريب ﴿إِذِ الْقُلُوبُ﴾ فيه ترتفع من مكانها من شدة الخوف والفرع وتقف ﴿لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ وتلتصق بالحلوق، فلا تعود فيتنفسوا أو يستروحوا، ولا تخرج فيموتوا، قيل: تنتفح الرئة من الفرع، فيرتفع القلب إلى الحنجرة<sup>٣</sup>، حال كون أصحاب القلوب ﴿كَاطِمِينَ﴾ وحاسبين غيظهم في أنفسهم بالصبر، وساكتين حال امتلائهم بالغم والكرب، وعاجزين عن إظهارهما والطلق بهما من شدة غلبتهما عليهما، وعظم اضطرابهم من أهوال ذلك اليوم، ورؤية العذاب المُعد لهم و﴿مِمَّا لِلظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم في الدنيا بالكفر والطغيان ما به نجاتهم منه ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ وقريب مُشفق يدفع عنهم العذاب ببذل النفس والمال ﴿وَلَا﴾ لهم في ذلك اليوم من ﴿شَفِيعٍ﴾ يشفع لهم و﴿يُطَاعُ﴾ في شفاعته، ويقبل قولهم والتماسهم النجاة لهم. وفيه رد على المشركين الزاعمين أن الأصنام شفعانهم عند الله، ويقبل شفاعتهم البتة.

يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ \* وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ  
مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ [١٩ و ٢٠]

ثم إنه تعالى بعد ذكر أعظم موجبات الخوف، بين علمه بجميع أعمال العباد وذنوبهم، بحيث لا

٢. تفسير روح البيان ٨: ١٦٩.

١. تفسير الرازي ٢٧: ٤٧ قطعة منه.

٣. تفسير روح البيان ٨: ١٧٠.

يخفى عن علمه مثقال ذرة بقوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ الله ﴿خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ واستراق النظر إلى ما لا يحل، مع كونه أخفى أعمال الجوارح، فكيف بغيره ﴿وَمَا يَعْلَمُ﴾ يعلم ﴿مَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ وتضميره القلوب من الحَظَرَاتِ والنباتِ السوء، والعقائد الفاسدة، وحبِّ الأصنام والمعاصي، وبغض التوحيد والاخلاص وأهلها ﴿وَاللَّهُ﴾ الحكيم ﴿يَقْضِي﴾ ويحكم في عباده ﴿بِالْحَقِّ﴾ والعدل في كلِّ ما دقَّ وجلَّ، ولا يغفص عنه بالهوى والرَّشاء. وفيه أعظم التخويف والتهويل.

ثم قطع رجاء المشركين من أصنامهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ويتبدون هؤلاء المشركون ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ تعالى، ومما سواه من الأصنام وغيرها ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ فكيف يرجون شفاعتهم؟! ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لمقالات المشركين من ثناء آلهتهم وطعنهم في التوحيد و﴿الْبَصِيرُ﴾ الذي يبصر خضوعهم لها وعبادتهم إياها.

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ \* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاكْفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ [٢١ و ٢٢]

ثم إنه تعالى بعد الابلاغ في تخويف المشركين بأحوال القيامة وعذابها، هددهم بعذاب الدنيا بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ ولم يسافروا للتجارة وغيرها ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ التي تكون فيها طريقهم إلى الشام واليمن ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ بنظر الاعتبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ الأمم ﴿الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، ومآل أمر القرون السابقة عليهم من الأحزاب المكذبة للرسول، المهلكة بسبب شركهم ومعارضتهم للحق، كعاد وثمود وقوم لوط ﴿كَانُوا هُمْ﴾ في عصرهم أعظم جثَّة من هؤلاء المشركين و﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وأكثر آثاراً وأحكامها ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ كالقلاع الحصينة، والقصور الرفيعة، والمُدن المتينة ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ وعاقبهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ وأهلكهم بمعاصيهم من الكفر وتكذيب الرسل ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ﴾ عذاب ﴿اللَّهُ مِنْ وَاقٍ﴾ وحافظ يقيهم ويحفظهم ﴿ذَلِكَ﴾ الأخذ والعذاب إنما كان مُعلَّلاً ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ﴾ من قبل الله ﴿رُسُلُهُمْ﴾ مستدلين على صدقهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات الباهرات، أو مصاحبين للأحكام الظاهرات ﴿فَاكْفَرُوا﴾ بها وكذبوا الرسل وعارضوهم ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ أخذاً شديداً عاجلاً، وأهلكهم إهلاكاً فظيعاً ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿قَوِيٌّ﴾ وقادرٌ على إنفاذ إرادته ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على من كفر وعصا.



وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ \* إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ  
فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ \* فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ  
آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ \* وَقَالَ فِرْعَوْنُ  
ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي  
الْأَرْضِ الْفَسَادَ \* وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ  
بِيَوْمِ الْحِسَابِ {٢٣-٢٧}

ثم ذكر سبحانه من الرسل الذين أتوا قومهم بالبينات موسى بن عمران عليه السلام، الذي كان عظيم الشأن، كثير المعجزات تسلية للنبي ﷺ بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى﴾ بن عمران عليه السلام متمسكاً ومستندلاً على صدقه في دعوى الرسالة والتوحيد ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الباهرات والمعجزات الظاهرات ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ وَحُجَّةٍ عَقْلِيَّةٍ وَاضِحَةٍ.

وقيل: إن المراد به معجزة العصا خَصَّهَا بالذكر مع كونها من جملة الآيات تفخيماً لشأنها<sup>١</sup> ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ سلطان مصر ﴿وَهَامَانَ﴾ وزيره ﴿وَقَارُونَ﴾ الاسرائيلي الذي ارتد بعد إيمانه بموسى وحفظه التوراة، وأتباعهم من القبط وغيرهم، فدعاهم إلى الإيمان بالتوحيد ورسالته، وأظهر لهم المعجزات ﴿فَقَالُوا﴾ عِنَاداً وَلَجَاجاً: هو ﴿سَاحِرٌ﴾ يُظْهِرُ خَوَارِقَ الْعَادَةِ بِالسَّحَرِ ﴿كَذَّابٌ﴾ في دعوى توحيد الإله ورسالة نفسه من قبله، وإنما أتى بصيغة المبالغة الدالة على الكثرة لتكرّر الدعوة منه، ولم يُبالغوا في نسبة السحر إليه لعدم تكررّه منه، ولزعمهم أنَّ سَحَرَتَهُمْ أسحر منه، ولذا قالوا في حقهم: سَحَارَ عَلَيْهِم.

ثم بين سبحانه شدة عناد القوم له بقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ وأظهر لهم المعجزات التي كانت له ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾ وبأقدارنا ﴿قَالُوا﴾ أيها القبط: ﴿اقْتُلُوا أَبْنَاءَ﴾ بني إسرائيل ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بموسى ويكونون ﴿مَعَهُ﴾ في الإيمان بالتوحيد، لئلا ينشأوا على دين موسى ويعينوه عليه ﴿وَاسْتَحْيُوا﴾ وأبقوا ﴿نِسَاءَهُمْ﴾ وبناتهم ليخديمنكم، كما تفعلون ذلك من قبل ﴿وَمَا كَيْدُ﴾ هؤلاء ﴿الْكَافِرِينَ﴾ ومكرهم وسوء صنيعهم ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ وضَيَاعٍ وبُطْلَانٍ، لا يفوزون به إلى مقصودهم، ولا يمنعون به عن نفوذ إرادة الله وجريان قضائه. وقيل: يعني ما كيدهم إلّا في ازدياد ضلالهم<sup>٢</sup>.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لَمَلَّتْهُ ﴿ذُرُونِي﴾ ودعوني ﴿أَقْتُلْ مُوسَى وَ﴾ خَلَوْهُ ﴿لْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ الذي يدعى أنه

أرسله حتى يُخَلِّصَهُ مِنَ الْقَتْلِ، فَأَنَّى أَرَى صِلَاحَ مَمْلَكَتِي فِي قَتْلِهِ ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ إِنَّ لَمْ أَقْتُلْهُ مِنْ ﴿أَنْ يَبْدُلَ﴾ وَيُغَيِّرَ ﴿وَدِينَكُمْ﴾ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ﴿أَوْ أَنْ﴾ يُفْسِدَ دِينَكُمْ و﴿يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ﴾ الَّتِي تَسْكُنُونَهَا، وَالْمَمْلَكَةَ الَّتِي تَعِيشُونَ فِيهَا ﴿الْفُسَادَ﴾ وَلَا اخْتِلَافَ بَأَنْ يَجْتَمَعَ عَلَيْهِ قَوْمُهُ، فَيَقَعَ الْقِتَالُ وَالْخُصُومَاتُ، وَتَنَارُ الْفِتَنِ.

قِيلَ: إِنَّ مَلَأَ فِرْعَوْنَ كَانُوا يَمْنَعُونَهُ مِنْ قَتْلِ مُوسَى، وَيَقُولُونَ: لَا تَقْتُلْهُ إِنَّهُ سَاحِرٌ ضَعِيفٌ، لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَغْلِبَ سَحَرَتَكَ، وَإِنْ قَتَلْتَهُ دَخَلَتْ الشُّبُهَةُ عَلَى النَّاسِ، وَقَالُوا: إِنَّهُ كَانَ مُحَقَّقًا، وَهُمْ عَجَزُوا عَنْ جَوَابِهِ ٢. وَقِيلَ: إِنَّهُ لَمْ يَمْنَعَهُ أَحَدٌ مِنْ قَتْلِهِ، وَأَوْهُمْ اللَّعِينُ أَنَّهُمْ كَفَّوْهُ عَنْ قَتْلِهِ، وَلَوْلَاهُمْ لَقَتْلُهُ، وَمَا مَنَعَهُ عَنْهُ إِلَّا مَا فِي نَفْسِهِ مِنَ الْفَرَحِ الْهَائِلِ الْعَاجِلِ إِنَّ هَمَّ بِقَتْلِهِ، لَعَلَّمَهُ بَنِيوتُهُ ٣.

وَعَنِ الصَّادِقِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ ٤ هَذِهِ آيَةِ: مَا مَنَعَهُ؟ قَالَ: «مَنَعَتْهُ رَشْدَتُهُ، وَلَا يَقْتُلُ الْأَنْبِيَاءُ وَلَا أَوْلَادُ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا أَوْلَادُ الرِّثَاءِ» ٥.

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ لِقَوْمِهِ بَعْدَ مَا سَمِعَ حَدِيثَ قَتْلِهِ: يَا قَوْمَ ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾، وَالتَّجَنُّاتُ إِلَيْهِ، وَامْتَنَعَ بِجِصْنِهِ الْمَنِيعِ ﴿مِنْ﴾ شَرِّ ﴿كُلِّ﴾ شَخْصٍ ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ وَمُتَعَطِّمٍ عَنِ التَّسْلِيمِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَالْإِيمَانُ بِهِمَا و﴿لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ فَإِنَّ الْمُتَكَبِّرَ الْمُؤْمِنَ بِالْمَعَادِ قَدْ يَرْتَدِعُ مِنَ الْمَعَاصِي الْعِظَامِ، لَخَوْفِ الْمَعَادِ، بِخِلَافِ الْمُتَكَبِّرِ غَيْرِ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ لَا يُبَالِي مِنْ شَيْءٍ، وَإِنَّمَا لَمْ يُسَمِّ فِرْعَوْنَ لَتَعْمِيمِ الْإِسْتِعَاذَةِ، وَلِلتَّنْبِيهِ عَلَى عِلَّةِ الْقِسَاوَةِ وَالْجُرْأَةِ عَلَى اللَّهِ، وَلِرِعَايَةِ حَقِّ التَّرْبِيَةِ الَّتِي كَانَتْ لِفِرْعَوْنَ عَلَيْهِ.

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكْذِبُوا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكْ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ \* يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ \* وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ \* مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ \* وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ

١. في النسخة: وتثير. ٢. تفسير الرازي ٢٧: ٥٤، تفسير روح البيان ٨: ١٧٤.

٣. تفسير روح البيان ٨: ١٧٥. ٤. في النسخة: في.

٥. علل الشرائع: ١/٥٧، تفسير الصافي ٤: ٣٣٩.

# عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ \* يَوْمَ تُؤْلَوْنَ مَذْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ [٢٨-٣٣]

فلما استعاذ موسى بربه من شرِّ فرعون، وانتشر همهً بقتل موسى، حكى سبحانه دفعه القتل عنه ببعث رجلٍ يردُّ عنه بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ﴾ إِنْ ﴿رَجُلٌ﴾ كَامِلٌ فِي صفات الرجولية ﴿مُؤْمِنٌ﴾ بالله وبموسى في نفسه، كائن ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وأقاربه. قيل: كان ابن عمه، يقال له شمعان<sup>١</sup>. وقيل: جبر<sup>٢</sup>. وقيل: حبيب وهو النجار الذي عمِلَ التابوت الذي وضعت فيه أم موسى وألفته<sup>٣</sup> في البحر<sup>٤</sup>. وقيل: حزقيل<sup>٥</sup> بن نوحائيل<sup>٦</sup>. وقيل: حزقيل<sup>٧</sup>.

ذَكَرَ سَبَاقِ الْأُمَمِ فإنه روى بعض العامة عن النبي ﷺ أنه قال: «سَبَاقِ الْأُمَمِ ثَلَاثَةٌ لَمْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ طَرَفَةٌ عَيْنٍ: حَزَقِيلُ: مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ، وَحَبِيبُ النَّجَّارِ صَاحِبُ يَسَ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، وَهُوَ أَفْضَلُهُمْ<sup>٨</sup>».

وعلى أي حالٍ كان ﴿يَكْتُمُ إِيْمَانَهُ﴾ بالله وبموسى وَيَسْتُرُهُ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، لكون قوله مقبولا عندهم، وكان إيمانه بعد بعثه موسى، وقيل: قبله بمائة سنة<sup>٩</sup>.

وعن الصادق ﷺ: «التقية ديني ودين آبائي، ولا دين لمن لا تقية له، والتقية ثرس المؤمن<sup>١٠</sup>، فإن مؤمن آل فرعون لو أظهر إيمانه<sup>١١</sup> لَقُتِلَ<sup>١٢</sup>».

يا قوم ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ لِأَجْلِ ﴿أَنْ يَقُولَ﴾ أَوْ كَرَاهَةِ قَوْلِهِ: ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ الذي خلقني وخلق السماوات والأرض وما بينهما لا غيره، ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ﴾ قَدْ جَاءَكُمْ وَأَتَاكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ والمعجزات الظاهرات ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وخالفكم اللطيف بكم.

ثم إنه بعد القطع بكون موسى نبياً بالبينات والمعجزات، احتجَّ على قُبْحِ قتلِهِ باحتمال الضرر في قتلِهِ بقوله: ﴿وَإِنْ يَكُ﴾ موسى ﴿كَاذِبًا﴾ في دعواه ﴿فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ وبآلِ افترائه وضرره، لا يتعدى إلى غيره تحتاج في دفعه إلى قتلِهِ ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا﴾ فيما يدعيه من التوحيد والوعد بالعذاب على إنكاره ومخالفة قوله، فكذبتموه وقصدتموه بسوءٍ ﴿يُصْنِبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ به ان لم يُصَبِّحْكُمْ

٣. في النسخة: وألفاه.

١ و ٢. تفسير روح البيان ٨: ١٧٦.

٥. في النسخة: خربيل.

٤. تفسير روح البيان ٨: ١٧٦.

٨. تفسير روح البيان ٨: ١٧٦.

٦ و ٧. تفسير روح البيان ٨: ١٧٦.

٩. تفسير روح البيان ٨: ١٧٦.

١٠. في مجمع البيان وتفسير الصافي: ترس الله في الأرض.

١١. في مجمع البيان وتفسير الصافي: الإسلام. ١٢. مجمع البيان ٨: ٨١٠، تفسير الصافي ٤: ٣٤٠.

كله، فإن في إصابتكم البعض كفاية في هلاككم.

وقيل: إن البعض هنا يعني الكل، أو المراد من البعض العذاب الدنيوي، الذي هو بعض ما يعدهم؛ لأنه كان يعدهم بالعذاب الدنيوي والأخروي<sup>١</sup>.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ولا يوصل إلى الخير والمقصود ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ ومتجاوز عن الحد في العصيان، ومن هو ﴿كَذَّابٌ﴾ على الله وكثير الافتراء عليه. قيل: هو احتجاج آخر عليهم، والمراد أنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله إلى المعجزات القاهرة التي أظهرها لكم، أو المراد أنه لو كان كذلك خذله الله وأهلكه، فلا حاجة إلى قتله<sup>٢</sup>. ثم قال المؤمن: ﴿يَأْقُومُ لَكُمْ الْمُلْكُ﴾ والسلطنة ﴿الْيَوْمَ﴾ حال كونكم ﴿ظَاهِرِينَ﴾ وغالين على بني إسرائيل، أو على سائر الناس ﴿فِي﴾ هذه ﴿الْأَرْضِ﴾ وتلك المملكة، وهي مملكة مصر، لا يقاومكم في هذا الوقت أحد، ومع ذلك الاقتدار الذي يكون لكم ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ﴾ وأخذه، ومن يدفع عنا عذابه ﴿إِنْ جَاءَنَا﴾ فلا تتعرضوا لقتله بعد ما علمتم أنه إن جاءنا لا يمنعنا منه أحد، وإنما نسب ما يشتره من الملك والغلبة إليهم لتطيب قلوبهم، وأدخل نفسه في الابتلاء بالعذاب ليؤذن بأنه ناصح لهم، سارع في دفع ما يرديهم كسعيه في نفسه، ليقبلوا نصحه ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ بعد ما سمع نصيح المؤمن: يا قوم ﴿مَا أَرَأَيْكُمْ﴾ وما أشير عليكم ﴿إِلَّا مَا أَرَأَى﴾ وأعتقد صلاحه، وهو قتله، لتنجس مادة الفساد والفتنة ﴿وَمَا أَهْدِيَكُمْ﴾ بهذا الرأي، وما أرشدكم ﴿إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ والصواب.

قيل: كان كاذباً في إظهار الجلالة، لأنه كان في غاية الخوف من موسى، ولولاه لما استشار في قتله أحداً<sup>٣</sup>.

في ناصح مؤمن آل فرعون ﴿وَقَالَ: الرَّجُلُ الَّذِي آمَنَ﴾ من آل فرعون نُصْحاً لقومه: ﴿يَأْقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ من أن تُزَوَّجَ يوماً يكون ﴿مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ السالفة والأمم الماضية والطوائف المختلفة المهلكة بالعذاب على تكذيب الرسل في الأزمنة السابقة، أعني ﴿مِثْلَ ذُنُوبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ وحالهم ﴿وَقَوْمِ عَادٍ وَقَوْمِ ثَمُودَ﴾ حيث أهلكوا بالطوفان والريح الصَّارِصَ والصَّيْحَةَ ﴿وَقَوْمِ الْفِيلِ﴾ كانوا ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ كقوم لوط وأضرابهم، وإنما كان هلاكهم باستحقاقهم له ﴿وَمَا اللَّهُ﴾ الحكيم العادل ﴿يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ﴾ بأن يُعَذِّبَهُمْ قبل إتمام الحجة، أو بغير ذنب.

ثم لما رأى إصرار فرعون على قتل موسى بقوله: ﴿مَا أَرَأَيْكُمْ﴾ أظهر إيمانه بموسى،

٣. تفسير أبي السعود ٧: ٢٧٥، تفسير روح البيان ٨: ١٧٩.

١ و ٢. تفسير روح البيان ٨: ١٧٨.

وَحَوْفُهُمْ أَوْلَىٰ بِعَذَابِ الدُّنْيَا، ثُمَّ خَوْفُهُمْ بِعَذَابِ الْآخِرَةِ، بقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ من عذاب الله تعالى ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ والتصايح بالويل والثُبُور، أو يوم ينادي بعضكم بعضاً للاستغاثة كقولهم: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُعْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾<sup>١</sup> أو ينادي أصحاب الجنة أصحاب النار، وأصحاب النار أصحاب الجنة، وعلى أي تقدير المراد يوم القيامة، أعني ﴿يَوْمَ تَوَلَّوْنَ﴾ وتَرَدَّدُونَ من موقف الحساب حال كونكم ﴿مُدْبِرِينَ﴾ ومُتَصَرِّفِينَ عنه إلى النار، أو فارين من النار، والحال أنه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ﴾ عذاب ﴿الله﴾ وبأسه ﴿مِنْ عَاصِيَةٍ﴾ وحافظٍ يَغْصِيكُمْ وَيَحْفَظُكُمْ منه، فان قَبِلْتُمْ تُصْحَى فقد هَدَيْتُمْ إلى خيركم، وإن لم تقبلوه فقد أضلَّكم الله وخذلكم ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللهُ﴾ وَيُخْذِلْهُ ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يَهْدِيهِ إِلَى مَا فِيهِ رُشْدُهُ وصلاحه.

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ \* الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْعُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ [٣٥ و ٣٤]

ثم بين المؤمن غاية ضلالهم واتباعهم الهوى بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ يا أهل مصر ﴿يُوسُفُ﴾ بن يعقوب، وقيل: يعني يوسف بن إفرانيم بن يوسف بن يعقوب<sup>٢</sup> ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ بالرسالة من قبل الله مستدلاً على دعوته إلى التوحيد والرسالة ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات الظاهرات الفاهرات ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ﴾ وترديد ﴿مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ من الدين الحق وذمتهم عليه ﴿حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ﴾ ومات ﴿قُلْتُمْ﴾ تشهياً وتكذيباً للرسل الذين بعده أيضاً: ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللهُ﴾ أبداً ﴿مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ قيل: إن مقصودهم أنه لما لم يُطع يوسف لن يجرأ أحدٌ على دعوى الرسالة بعده<sup>٣</sup> ﴿كَذَلِكَ﴾ الضلال القطيع ﴿يُضِلُّ اللهُ﴾ ويُحْرِفُ عن طريق الحق بخذلانه ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ ومتجاوز عن الحد في العيصان ﴿مُرْتَابٌ﴾ وشاك في رسالة الرسل ومعجزاتهم، لغلبة الهوى وعدم التفكير في العواقب.

ثم عَرَفَ المسرف المرتاب بقوله: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ ويتنازعون المؤمنين ﴿فِي آيَاتِ﴾ توحيد ﴿الله﴾ ويطعنون فيها ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ وَحُجَّةٍ وبرهان ﴿أَتَاهُمْ﴾ من قبل الله يَصِحُّ التمسك به ﴿كَبُرَ﴾ وعَظُمَ الجِدَالُ في آيات الله ﴿مَقْتًا﴾ ومن جهة البُغْضِ والنفور ﴿عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾

عن ابن عباس: يَمْتَنِعُهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِذَلِكَ الْجِدَالِ<sup>١</sup>، وليس هذا الجِدَالُ إِلَّا من طبع القلب وَ «كَذَلِكَ»  
الطبع الفطري «يَطْنَعُ اللَّهُ» وَيَحْتِمُ «عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ» عن أتباع الرسل، أو قبول الحق «جَبَّارٍ»  
ومتعالٍ على الناس بغير حق، أو ظالم عليهم.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِي لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ \* أَسْبَابَ  
السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ  
عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ \* وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ  
اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ [٣٦-٣٨]

ثم إنه تعالى بعد بيان تكبر فرعون وتجره، بين غاية حقه وجهله بقوله: «وَقَالَ فِرْعَوْنُ» لوزيره  
هامان عتواً واستكباراً وحُماً: «يَا هَامَانُ» قيل: إن اللعين في أثناء مواعظ حزقيل<sup>٢</sup> أراد قطع كلامه  
خوفاً من أن يؤثر في القلوب، فدعا هامان، وقال له<sup>٣</sup>: «ابْنِي لِي صَرْحًا» وبناءً عالياً مشيداً بالأجر  
«لَعَلِّي» بالصعود عليه «أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ» وأصل إلى الطرق الموصلة إلى مقصودي، أعنى «أَسْبَابَ  
السَّمَاوَاتِ» وطرقها من سماء إلى سماء عن ابن عباس، قال: منازلها «فَأَطَّلِعَ» واستعلى عليه  
لانظر «إِلَى إِلَهِ مُوسَى» لأنه يمتنع العلم بصدق موسى إلا بروية إله «وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ» في دعوى أنه  
مرسل من قبله «كَاذِبًا» فاشتغل هامان ببناؤه، كما مر في سورة القصص<sup>٤</sup>.

وقيل: إنه قال ذلك تمويهاً<sup>٥</sup>. وقيل: إنه لم يرد بناء الصرح، لعلم كل عاقل بأنه يمتنع بناء صرح  
يتمكن بالصعود عليه من دخول السماوات، بل كان مقصوده بيان امتناع رؤية إله، فلا يمكن العلم  
بوجوده<sup>٦</sup>.

وقيل: إن الله أعماه وخلاه نفسه، ليتفرغ لبناء الصرح، ليرى منه آية أخرى له، ويتأكد استحقاقه  
العقوبة بذلك<sup>٧</sup>، كما أشار إليه تعالى بقوله: «وَكَذَلِكَ» التزيين البليغ «زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ»  
وشنيع فعله، فانهك فيه انهماكاً لا يزعوِي عنه «وَصُدَّ» ومنع «عَنِ» سلوك «السَّبِيلِ» المستهي  
إلى الخير والصَّلاح «وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ» ومكره ببناء الصرح، وسعيه في إبطال الآيات «إِلَّا فِي  
تَبَابٍ» وخسار وهلاك.

٢. في تفسير روح البيان: حزقيل.

٤. مجمع البيان ٨/٨١٥. ٥. القصص: ٢٨/٣٨.

٧. تفسير الرازي ٢٧: ٦٥، تفسير روح البيان ٨: ١٨٣.

١. تفسير روح البيان ٨: ١٨١.

٣. تفسير روح البيان ٨: ١٨٣.

٦. تفسير روح البيان ٨: ١٨٣.

٨. تفسير روح البيان ٨: ١٨٣.

ثم حكى سبحانه دعوة المؤمن إلى دين موسى بقوله: ﴿وَقَالَ الرَّجُلُ الَّذِي آمَنَ﴾ بموسى نصحاء لقومه: ﴿يَأْتِيهِمْ أَتَّبِعُونَ﴾ واسمعوا قولي ﴿أَهْدِيكُمْ﴾ وأرشدكم ﴿سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ وطريقاً يوصلُ سالكه إلى مصالح الدين والدنيا، ولا تتبعوا فرعون فإنه يشلكم بكم سبيل الغي والضلال.

يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ \* مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَأَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ \* وَيَا قَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ \* تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْغَيْرِزِ الْغَفَّارِ [٣٩-٤٢]

ثم لما كان أقوى الصوارف عن اتباع الحق حُب الدنيا، بدأ بدَمَها بقوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ ولذاتها ﴿مَتَاعٌ﴾ قليلٌ وانتفاعٌ يسيرٌ، يزول بأسرع وقت ﴿وَلِإِنَّ دَارَ الْآخِرَةِ﴾ بالخصوص ﴿هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ والبقاء، لخلودها ودوام ما فيها، فعليكم بالاعراض عن الدنيا، والاقبال إلى الآخرة والعمل لها، فإنه ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ في الدنيا ﴿فَلَا يُجْزَى﴾ في الآخرة ﴿إِلَّا مِثْلَهَا﴾ عدلاً من الله سبحانه ﴿وَمَنْ عَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾ مرضياً عند الله، أي عمل كان ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَأَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله وبرسله واليوم الآخر، فإن قبول الأعمال مشروطاً بالايمان ﴿فَأُولَئِكَ﴾ المؤمنون العاملون ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ في الآخرة جزاءً لايمانهم وأعمالهم و ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا﴾ وَيَتَنَعَّمُونَ ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وبلا تقديرٍ وتقييرٍ وموازنةٍ بالعمل، بل أضعافاً مضاعفةً فضلاً من الله.

ثم بالغ المؤمن في إظهار الشفقة على قومه، وإيقاظهم من سِنَةِ الغفلة بتكرير ندائهم بقوله: ﴿يَا قَوْمِ مَا لِيَ﴾ والعجب مِنِّي ومنكم حيث إنِّي ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى﴾ سبب ﴿النَّجَاةِ﴾ من النار ﴿وَتَدْعُونَنِي﴾ أنتم ﴿إِلَى﴾ سبب الدخول في ﴿النَّارِ﴾ ثم بين السببين بقوله: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ وأنكر وجوده مع دلالة الآثار والادلة القاطعة على وجوده وقدرته وحكمته، أو أَقْرَبَهُ ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ﴾ في ألوهيته ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ ولم يتم على شركته له دليلٌ قاطعٌ. وهو سبب الدخول في النار ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى﴾ الايمان بالآله ﴿الْغَيْرِزِ﴾ القادر على كل شيء، وعلى الانتقام ممن أنكره، أو أشرك به ﴿الْغَفَّارِ﴾ لمن تاب عن العقائد الفاسدة وعصيانه، ورجع إليه بالايمان والطاعة، وهو سبب النجاة، فلا يياس الذين اصرؤا على الكفر والطغيان مُدَّةً مديدةً من رحمته وإحسانه، فإنه يغفر كُفْرَ مائة سنة بايمان لحظة.

لَا جَزْمَ أُنْمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا  
إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ \* فَسْتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ  
وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ \* فَوَقَاةَ اللَّهِ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا  
وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ [٤٣-٤٥]

ثم بالغ في إبطال الشرك بقوله: ﴿لَا جَزْمَ﴾ قيل: هي كلمة مستقلة في إثبات ما بعدها<sup>١</sup> ﴿أُنْمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ وتوقعون مني عبادته من الأصنام ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا﴾ إلى عبادته بإرسال الرسول وإنزال الكتاب والطق والبيان، لأنها جماد ﴿وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ بل يتبرأ ممن عبده. قيل: إن المعنى حق وثبت أن إلهكم ليس له استجابة دعوة عابدية في الدنيا بالبقاء والصحة والعناء وغيرها، ولا في الآخرة بالنجاة<sup>٢</sup> ورفعة الدرجات ونحوها، فكيف يكون مع غاية العجز، رباً! أو المراد ليس له دعوة مستجابة.

﴿وُ﴾ ثبت ﴿أَنْ مَرَدَّنَا﴾ ومرجعنا بعد الموت والخروج من الدنيا ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وحده، فيجازينا على أعمالنا في الدنيا ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ﴾ والمتجاوزين عن حدود العقل بالاشراك والظلم على الناس ﴿هُمْ﴾ بالخصوص ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وملازموها يُعَذَّبُونَ فيها أبداً.

ثم قيل: لما خوفه القوم بالقتل خوفهم بقوله<sup>٣</sup>: ﴿فَسْتَذَكِّرُونَ﴾ وعن قريب تعلمون ﴿مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ من عدم الفائدة في عبادة الأصنام، وأن المرجع هو الله، وإن المشركين مُعَذَّبُونَ في النار عند الموت، أو حين مشاهدة العذاب، ﴿وُ﴾ أنا ﴿أَفْوُضُ أَمْرِي﴾ في دفع كيدهم وتظاهرهم عليّ ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ القادر على نصرة أوليائه، وأتوكل عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ يعلم المحق والمبطل، ومن يُعارضه ويتوكل عليه فينصره، ويثيب المحق والمتوكل، ويخذل المبطل والمعارض له ويُعاقبه.

في بيان نجات مؤمن آل فرعون من القتل  
ثم أمر فرعون بقتله ﴿فَوَقَاةَ اللَّهِ﴾ حَفَظَهُ من ﴿سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا﴾ وشدائد ما هموا به من الايذاء والقتل.

قال بعض العامة: إن المؤمن هرب إلى جبل، واشتغل بالصلاة والعبادة، فبعث الله السباع فأحاطوا به وحرسوه، وبعث فرعون جماعة من خواصه ليأخذوه، فجاءوا فوجدوه يُصَلِّي والسباع مُحِيطَةٌ به، فخافوا من السباع، ورجعوا إلى فرعون وأخبروه بما رأوا من حال المؤمن، فقتل

١. تفسير أبي السعود ٧: ٢٧٨، تفسير روح البيان ٨: ١٨٧.

٣. تفسير الرازي ٢٧: ٧١.

٢. تفسير روح البيان ٨: ١٨٧.



فرعون جميعهم، لئلا يُنْشُوا الخير<sup>١</sup>.

وقيل: إن بعضهم أكلته السباع، وبعضهم رجع إلى فرعون وأخبره بالقصة، فاتهمه وصلبه<sup>٢</sup>.

وعن مقاتل: إن القوم قصدوا قتله، فهرب إلى الجبل، فلم يقدروا عليه<sup>٣</sup>.

وقيل: نجا حزقيل مع موسى<sup>٤</sup> ﴿وَحَاقَ﴾ ونزل ﴿يَا لِفِزْعُونَ﴾ وبنتفسه في الدنيا ﴿سَوْءَ أَلْعَذَابِ﴾ وشديده، وهو الغرق في البحر.

وعن الصادق عليه السلام - في حديث - أنه قال: «كان حزقيل يدعوهم إلى توحيد الله، ونبوة موسى، وتفضيل محمد على جميع الرسل وخلقه، وتفضيل علي بن أبي طالب عليه السلام والخيار من الأئمة على سائر أوصياء النبيين، وإلى البراءة من ربوبية فرعون، فوشى به الواشون إلى فرعون، وقالوا: إن حزقيل يدعو إلى مخالفتك، ويُعين أعداءك على مضادتك. فقال لهم فرعون: ابن عمي، وخليفتي على ملكي، وولي عهدي، إن فعل ما قلتُم فقد استحقَّ العذاب على كفره بنعمتي، وإن كنتم عليه كاذبين فقد استحققتُم أشدَّ العذاب لا يثارتكم الدخول في مسأته».

فجاء بحزقيل، وجاء بهم فكاشفوه، وقالوا: أنت تجحد ربوبية فرعون المَلِك وتكفر بنعمائه. فقال حزقيل: أيها المَلِك، هل جرّبت عليّ ذنباً قط؟ قال: لا. قال: فسألهم من ربهم؟ قالوا: فرعون هذا. قال: ومن خالقكم؟ قالوا: فرعون هذا. قال: ومن رازقكم الكامل لمعايشكم، والدافع عنكم مكارهكم؟ قالوا: فرعون هذا. قال حزقيل: أيها المَلِك، فأشهدك وكلّ من حضرك أنّ ربهم هو ربّي، وخالقهم هو خالقي، ورازقهم هو رازقي، ومُصلِح معاشهم هو مُصلِح معاشي، لا ربّ لي ولا خالق ولا رازق غير ربهم وخالقهم ورازقهم، وأشهدك وأشهد من حضرك أنّ كلّ ربّ ورازق وخالق سوى ربهم وخالقهم ورازقهم، فأنا بريء منه ومن ربوبيته، وكافر بالهيته.

يقول حزقيل هذا، وهو يعني أنّ ربهم هو الله ربّي، ولم يقل: إنّ الذي قالوا هو ربهم ربّي، وخفي هذا على فرعون ومن حضره، وتوهموا أنّه يقول: فرعون ربّي وخالقي ورازقي. فقال لهم فرعون: يا رجال السوء، وياطلّاب الفساد في ملكي، ومُرّيدي الفتنة بيني وبين ابن عمي، وهو عَصْدي، أنتم المستحقّون لعذابي، لإرادتكم فساد أمري، وإهلاك ابن عمي، والفتّ في عَصْدي.

ثمّ أمر بالآوتاد، وجعل في ساق كلّ واحدٍ منهم وتدّاً، وفي صدره وتدّاً، وأمر أصحاب أمشاط

١. تفسير أبي السعود ٧: ٢٧٨، تفسير روح البيان ٨: ١٨٩.

٢. تفسير روح البيان ٨: ١٨٩. ٣. تفسير الرازي ٢٧: ٧٢.

٤. تفسير روح البيان ٨: ١٨٩، وفيه: خربيل، بدل حزقيل.

٤٢٠..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٥

الحديد فشقوا بها لحومهم من أبدانهم، فذلك ما قال تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾ به لما وشوا إلى فرعون ليهلِكَوه ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وهم الذين وشوا بحرقيل إليه، لما أوتد فيهم الأوتاد، ومشط عن أبدانهم لحومها بالأمشاط<sup>١</sup>.

وعن الصادق عليه السلام قال: «والله لقد قطعوه إرباً إرباً، ولكن وقاه الله أن يفتنوه عن دينه»<sup>٢</sup>.

### النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَقَوْمُ السَّاعَةِ أَذْخَلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ [٤٦]

ثم بين سبحانه تعذيبه القوم في البرزخ بقوله: ﴿النَّارُ﴾ بعد هلاك فرعون وقومه ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ ويُعَذَّبُونَ ويُخَرَّقُونَ بها في البرزخ ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ وفي أول النهار وآخره.

قيل: إما يعذبون بين الوقتين بعذاب آخر، أو ينقَس عنهم<sup>٣</sup>.

وقيل: إنَّ كنايةً عن الدوام، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾<sup>٤</sup>. وقيل: إنَّ المراد بالعرض الإظهار والإراءة<sup>٥</sup>.

وعن ابن مسعود: أنَّ أرواح آل فرعون في أجواف طيرٍ سود، يُعْرَضُونَ على النار مرَّتين، فيقال: يا آل فرعون، هذه داركم<sup>٦</sup>.

وفي حديث عامي: «أَنْ أَحْدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ النَّارِ، يُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>٧</sup>.

أقول: لعلَّ المراد من الطير السود القوالب المثالية، وإنَّما عبَّر عنها بالطير لسرعة سيرها وارتفاعها في الجوّ.

عن الصادق عليه السلام: «ذلك في الدنيا قبل يوم القيامة، لأنَّ في النار القيامة لا يكون غدوًّا وعشيًّا» ثم قال: «إِنْ كَانُوا يُعَذَّبُونَ فِي النَّارِ غَدُوًّا وَعَشِيًّا، فَمِمَّا بَيْنَ ذَلِكَ هُمْ [مِنْ] السَّعْدَاءِ، وَلَكِنْ هَذَا فِي نَارِ الْبَرْزَخِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ...﴾؟»<sup>٨</sup>.

وعن الباقر عليه السلام: «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَارًا بِالشَّرْقِ خَلَقَهَا لِيَسْكُنَهَا أَرْوَاحُ الْكَفَّارِ، وَيَأْكُلُونَ مِنْ رِزْقِهَا، وَيَشْرَبُونَ مِنْ حَمِيمِهَا لِيَلْهَمَ، فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ هَاجَتْ إِلَى وَادٍ بِالْيَمَنِ يُقَالُ لَهُ بَرْهَوْت، أَشَدَّ حَرًّا مِنْ

١. الاحتجاج: ٣٧٠، التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٢٤٧/٣٥٧، تفسير الصافي: ٤: ٣٤٣.

٢. تفسير القمي: ٢: ٢٥٨، تفسير الصافي: ٤: ٣٤٢. ٣. تفسير روح البيان: ٨: ١٨٩.

٤. تفسير الرازي: ٢٧: ٧٣. ٥. مريم: ١٩/٦٢.

٦. مجمع البيان: ٨: ٨١٨، تفسير الصافي: ٤: ٣٤٣. ٧. تفسير روح البيان: ٨: ١٨٩.

نار الدنيا، كانوا فيه يتلاقون ويتعارفون، فإذا كان المساء عادوا إلى النار، فهم كذلك إلى يوم القيامة١. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ ووقت الحشر والحساب يقول الله تعالى للملائكة: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ جهنم وعذبوهم فيها ﴿أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ \* قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ [٤٧ و ٤٨]

ثم لما انتهى الكلام إلى ذكر القيامة، ودخول الكفار في النار، حكى سبحانه مناظرة الأتباع والرؤساء في النار بقوله: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ﴾ ويتنازعون ﴿فِي النَّارِ﴾. ثم شرح سبحانه تخاصمهم فيها بقوله: ﴿فَيَقُولُ﴾ الكفار ﴿الضُّعَفَاءُ﴾ والأقْلُونَ في القدر والمنزلة والثروة ﴿لِلَّذِينَ﴾ ترأسوا ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾ عن اتباع الرسل، وتعظّموا عن قبول الحق، واستتبخوا الضعفاء ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿لَكُمْ تَبَعًا﴾ ومطيعين لأوامركم، وأجبناكم فيما دعوتونا من الشرك وتكذيب الرسل، وفصار اتباعنا إياكم سبباً لدخولنا في جهنم ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ﴾ اليوم ﴿مُغْنُونَ﴾ ودافعون ﴿عَنَّا﴾ بالسعي والتحمل ﴿نَصِيبًا﴾ وبعضاً ﴿مِنْ﴾ عذاب ﴿النَّارِ﴾ باتباعنا إياكم، كما كنا ندفع عنكم كثيراً من البليات، ونتحمل عنكم الرّحمات في الدنيا ﴿قَالَ﴾ الرؤساء ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ في جوابهم: كيف ندفع النار عنكم؟ أما ترون ﴿إِنَّا﴾ وإياكم ﴿كُلٌّ﴾ داخلون ﴿فِيهَا﴾ ومُعذبون بها، ولو قدرنا لدفعنا عن أنفسنا ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الحكيم ﴿قَدْ حَكَمَ﴾ بالحق ﴿بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ بأن أدخل المؤمنين الجنة، والكافرين النار، ولا مُعَقِّبَ لحكمه.

وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ \* قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ [٤٩ و ٥٠]

ثم إنهم لما يأسوا من رؤسائهم، حكى الله التماسهم إلى الخزنة بقوله: ﴿وَقَالَ﴾ جميع ﴿الَّذِينَ﴾ ادخلوا ﴿فِي النَّارِ﴾ من الضعفاء والمستكبرين ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ والملائكة المأمورين بتعذيبهم: يا خزنة جهنم ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ شفاعاً لنا إنه ﴿يُخَفِّفُ عَنَّا﴾ في مقدار زمان يكون ﴿يَوْمًا﴾ من أيام

الدنيا شيئاً ﴿مِنْ الْعَذَابِ﴾ الذي نحن فيه. فأجابتهم الخَزَنَةُ و﴿قَالُوا﴾ بعد مدة طويلة - على ما قيل - توبيخاً لهم<sup>١</sup>: «أَو لَمْ تَكُ» قيل: إن التقدير ألم تنبها على هذا، ولم تَكُ<sup>٢</sup> تأتيكمم وُسْلُكُمْ﴾ في الدنيا واحداً بعد واحد مستدلين على صدقهم ﴿بِالْيَبِّيَّاتِ﴾ والحُجج الظاهرة فيما أخبروكم من سوء عاقبة الكفر والتكذيب؟! ﴿قَالُوا﴾ كلهم: ﴿بَلَى﴾ أتونا وأخبرونا فكذبناهم، إذن ﴿قَالُوا﴾ إقناطاً لهم: إذا كان الأمر كذلك، فلا ترجوا منا هذا الدعاء، لاستحالة علينا ﴿فَادْعُوا﴾ أنتم لأنفسكم ما تريدون ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ في حق أنفسهم، أو دعاء غيرهم لهم بتخفيف العذاب أو رفعه عنهم ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ وضياح، لأنه لا يُجاب، لوجوب تعذيبهم على الله بمقتضى الحكمة والعدل.

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ \* يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ [٥١ و ٥٢]

ثم إنه تعالى بعد بيان عدم إجابته دعاء الكفار وإعراضه عنهم في الآخرة بين لطفه برسله وبالمؤمنين بهم بقوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ كما نصرنا موسى ﴿وَنَصْرُ الَّذِينَ﴾ أتبعوهم و﴿آمَنُوا﴾ بهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وتُعْلِبُهُمْ على أعدائهم بالظفر بالحجة والقوة، ولو في العاقبة. عن ابن عباس: أنه لم يُقتل من الأنبياء إلا من لم يؤمر بقتال، وكل من أمر بقتال نُصِرَ<sup>٣</sup>. ﴿وَنَصْرُهُمْ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ بإعلاء درجاتهم وإكرامهم في مجمع الخلق، أو المراد يوم إقامة الشهود على تبليغهم، والعمل بما كان وظيفتهم من الملائكة والنبيين، كما قال الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾<sup>٤</sup> إلى آخره.

عن الصادق عليه السلام: «ذلك في الرجعة، أما علمت أن أنبياء كثيرة لم يُنصروا في الدنيا وقُتلوا، وأنمة من بعدهم قُتلوا ولم يُنصروا، وذلك في الرجعة»<sup>٥</sup>.

ثم عرّف سبحانه اليوم بما فيه فرح الرسل والمؤمنين بقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ﴾ الذين هم أعداؤهم ﴿مَعَذَرَتُهُمْ﴾ عن كفرهم وطغيانهم على الرسل والمؤمنين، لعدم قبولها إن اعتذروا، ولذا لا يعتذرون، ولا يؤذن لهم فيعتذرون، وقيل: إنهم يعتذرون في وقت، ولا يؤذن لهم في الاعتذار في وقت آخر<sup>٦</sup> ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ والبعد عن الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وسر المقام، لكونهم أسوأ الناس وسر الخلق، بخلاف المؤمنين فأنهم تُقبل معذرتهم عن خطاياهم، بل تُقبل شفاعتهم، ولهم الرحمة،

٣. تفسير روح البيان ٨: ١٩٣.

١ و ٢. تفسير روح البيان ٨: ١٩٢.

٤. النساء: ٤١/٤. ٥. تفسير القمي ٢: ٢٥٩، تفسير الصافي ٤: ٣٤٥.

٦. تفسير روح البيان ٨: ١٩٣.

ولهم حُسن الدار.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ \* هُدًى وَذِكْرَى  
لِأُولَى الْأَلْبَابِ \* فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ  
بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ [٥٣-٥٥]

ثم استشهد سبحانه على نصرته رسله والمؤمنين بنصرته موسى وقومه بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ بفضلنا ورحمتنا ﴿مُوسَى﴾ بن عمران ﴿الْهُدَى﴾ والمعجزات الدالة على صدقه في دعوى نبوته وصحة شريعته ﴿وَأَوْرَثْنَا﴾ قومه ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ منه ﴿الْكِتَابَ﴾ الذي أنزل إليه - وهو التوراة - ليكون ذلك الكتاب ﴿هُدًى﴾ من الضلال و﴿ذِكْرًى﴾ وموعظة ﴿لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ وذوي العقول السليمة من شوائب الأهواء.

وقيل: إن الهدى ما يكون دليلاً في نفسه، والذكرى ما يُذكر<sup>١</sup> في الكتب الإلهية المتقدمة الذي صار منسياً<sup>٢</sup>.

ثم لما ذكر سبحانه نصرته لموسى وسائر الأنبياء، سلى نبيه ﷺ بقوله: ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد، على مخالفة الكفار ومعارضة الأعداء بعد ما سمعت من وعدي بنصرة الرسل ونصرتي موسى والمؤمنين به ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بنصرك وظهور دينك وإعلاء كلمتك ﴿حَقٌّ﴾ وصدق، لا يمكن الخلف فيه ﴿وَاسْتَغْفِرْ﴾ ربك أولاً ﴿لِذَنْبِكَ﴾ وما صدر منك أحياناً من ترك الأفضل والأولى ﴿وَسَبِّحْ﴾ بعد الاستغفار مقرباً له ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ على نعمه عليك ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ قيل: إنه كناية عن<sup>٣</sup> الدوام<sup>٤</sup>. وقيل: إن الإبكار هو: أول النهار إلى نصفه. والعشي: من الزوال إلى أول يوم البعد، فيكون المعنى الحقيقي جميع الأوقات<sup>٥</sup>. وقيل: إن المراد طرفي النهار<sup>٦</sup>، وهما أفضل أوقات التسبيح.

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ  
مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ [٥٦]

ثم بين سبحانه أن لا علة لمجادلتهم إلا الكبر بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ ويخاصمون الرسول والمؤمنين ﴿فِي﴾ إبطال ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾ الطعن فيها، ويَجْحَدُونَ بها ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ وبرهان ﴿أَتَاهُمْ﴾

١. زاد في النسخة: ما. ٢. تفسير الرازي ٢٧: ٧٧، تفسير روح البيان ٨: ١٩٥. ٣. في النسخة: من.

٤. تفسير روح البيان ٨: ١٩٦. ٥. تفسير الرازي ٢٧: ٧٨، تفسير روح البيان ٨: ١٩٦.

٦. تفسير الرازي ٢٧: ٧٨.

من قبل الله مع أن التكلم فيها وفي أمر الدين لا بد أن يكون بسلطانٍ مبينٍ وبرهانٍ متينٍ ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ﴾ وما في قلوبهم ﴿أَلَا كِبَرُ﴾ وتعظم من قبول الحق، وتسعية الرسول، والتفكر والنظر الصحيح في معجزاته وكلماته، بل إرادة الرئاسة والتقدم عليه، مع أنه ﴿مَا هُمْ﴾ بمدركي غرضهم من الكبير والتعظم، وليسوا ﴿بِالْغِيَةِ﴾ وهو إبطال الآيات والإخلال في أمر نبوتك وإذالك، فإني ناشر آياتك، ومُشرق نورك، ورافع منزلتك في الناس، ومُعَلِّ قدرك في الآفاق ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ والتجأ إليه من شرهم وكيدهم فإنه القادر على دفعهم وعلى كل شيء و﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لمقالك ومقال أعدائك ﴿الْبَصِيرُ﴾ باهتمامك في التبليغ واهتمام أعدائك في المنع عنه، فيجازيك أفضل الجزاء، ويُجازي أعداءك أسوأه.

قيل: إن المراد بالمجادلين اليهود، فأنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ: لست صاحبنا المذكور في التوراة، بل هو المسيح بن داود، أو يوسف بن مسيح بن داود<sup>١</sup>. وقيل: إنهم أرادوا الدجال الذي يخرج في آخر الزمان وقالوا: إنه يتلغ سلطانه البر والبحر، وتسير معه الأنهار، وهو آية من آيات الله، فيرجع إلينا الملك<sup>٢</sup>. وقيل: إن المراد بقوله: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ التجئ إليه من فتنة الدجال، فإنه ليس فتنة أعظم من فتنته<sup>٣</sup>. وروى العامة أحاديث عن النبي ﷺ في الاستعاذة من فتنة الدجال وخروجه وكيفية إفتتان الناس به<sup>٤</sup>.

لَخَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ  
\* وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا  
الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ [٥٧ و ٥٨]

ثم لما كان أكثر مجادلة المشركين في البعث وإمكان المعاد وإنكار الآيات الدالة عليه، استدل سبحانه عليه بقوله: ﴿لَخَلَقُ السَّمَاوَاتِ﴾ السبع مع سعتها وعظمتها ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بطبقاتها وخصامتها ﴿أَكْبَرُ﴾ وأعظم ﴿مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ ثانياً، ومن هو قادر على الأعظم قادر على خلق الأصغر والأضعف، وهذا من أعظم البراهين على صحة المعاد والبعث وإمكانه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ المنكرين للمعاد ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ كون إعادة الناس أسهل وأهون، لقصور نظرهم، وفرط غفلتهم، ولذا يقولون: ﴿مِنْ يَحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾<sup>٥</sup>؟

ثُمَّ بَيَّنْ سُبْحَانَهُ رَفْعَةَ شَأْنِ الْمُسْتَدَلِّينَ بِالْآيَاتِ، وَالْمُتَفَكِّرِينَ فِيهَا، وَعَدَمَ تَسَاوِيهِمْ مَعَ الْجُهَالِ الْمُقَدِّلِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي﴾ الْكَافِرُ الَّذِي هُوَ ﴿الْأَعْمَى﴾ قَلْبُهُ عَنْ رُؤْيَا آيَاتِ ﴿وَالْبَصِيرِ﴾ الَّذِي يَرَاهَا بَعِينَ قَلْبِهِ، وَيَتَفَكَّرُ فِيهَا ﴿وَوَ﴾ كَذَا ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا﴾ الْأَعْمَالِ ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ وَبَادَرُوا إِلَى الْحَسَنَاتِ ﴿وَلَا أَلْمُسِيءِ﴾ فِي الْعَقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ، وَهُمْ الْكَفَّارُ وَالْعَصَاةُ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ حَشَرٌ وَمَعَادٌ وَدَارُ الْجَزَاءِ، لَزِمَ تَسَاوِيُ الْفَرِيقَيْنِ، وَهُوَ بَاطِلٌ بِبَيِّنَةِ الْعَقْلِ، فَاتَمَّ - أَيُّهَا الْكَفَّارُ الْمُجَادِلُونَ - تَعْلُمُونَ عَدَمَ التَّسَاوِيِ بَيْنَ الْعَالَمِ وَالْجَاهِلِ وَالْمُحْسِنِ وَالْمُسِيءِ، وَلَكِنْ ﴿قَلِيلًا مَّا﴾ وَمِقْدَارًا يَسِيرًا ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ وَتَتَنَبَّهُونَ إِلَى مَا يُلْزَمُهُ مِنْ صِحَّةِ الْمَعَادِ، وَإِنَّمَا قَدَّمَ ذِكْرَ الْمُؤْمِنِ الْمُحْسِنِ عَلَى الْمُسِيءِ لِمَجَاوِرَةِ الْبَصِيرِ.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ أَنَّ الْمَشْرُكِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْعِلْمَ خَيْرٌ مِنَ الْجَهْلِ، وَأَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ خَيْرٌ مِنَ الْعَمَلِ السَّيِّئِ، وَلَكِنْ لَا يُعَيِّنُونَ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالسَّيِّئِ فَيَعْتَقِدُونَ الْجَهْلَ وَالتَّقْلِيدَ عِلْمًا وَمَعْرِفَةً، وَالْحَسَدَ وَالْكِبْرَ صَالِحًا وَطَاعَةً<sup>١</sup>.

وقيل: إِنَّ ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فِي مَعْنَى لَا يَتَذَكَّرُونَ أَصْلًا، كَمَا يُقَالُ: هُوَ قَلِيلُ الْحَيَاءِ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ لَا حَيَاءَ لَهُ<sup>٢</sup>.

إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيَّتُهُ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ \* وَقَالَ رَبُّكُمْ  
ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ  
دَاخِرِينَ [٥٩ و ٦٠]

ثُمَّ لَمَّا أَثْبَتَ سُبْحَانَهُ إِمْكَانَ الْمَعَادِ بِتَوْضِيحِ كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَسَهُولَتِهِ، أَخْبَرَ بِوُقُوعِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ﴾ وَالْقِيَامَةَ ﴿لَأَيَّتُهُ﴾ الْبَتَّةَ ﴿لَا رَيْبَ﴾ وَلَا مَجَالَ لِلشَّكِّ ﴿فِيهَا﴾ وَفِي إِثْبَانِهَا، لَوْضُوحِ شَوَاهِدِهَا، وَاتِّقَانِ بَرَاهِينِهَا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ وَهُمْ الْكَفَّارُ الْمُنْكَرُونَ لَهُ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بِإِثْبَانِهَا، لِقُصُورِ أَنْظَارِهِمْ، وَشِدَّةِ تَعْصِبِهِمْ، وَإِلْفِهِمْ بِمَا اعْتَقَدَهُ آبَاؤُهُمْ.

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ إِثْبَانِ إِمْكَانِ الْمَعَادِ، وَالْإِخْبَارِ بِوُقُوعِهِ، أَمَرَ النَّاسَ بِعِبَادَتِهِ الْمُنْجِيَةِ مِنْ أَهْوَالِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ﴾: أَيُّهَا النَّاسُ ﴿ادْعُونِي﴾ وَحَدِي لِحَوَانِجِكُمْ، وَاعْبُدُونِي خَالصًا مُخْلِصًا لِنَجَاتِكُمْ مِنَ الشَّدَائِدِ ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وَدَعَاءِكُمْ، وَاقْضِ حَوَانِجَكُمْ، إِمَّا فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الْآخِرَةِ، وَأُنْجِئَكُمْ مِنْ شِدَائِدِهَا ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وَيَسْتَكْفِرُونَ ﴿عَنْ عِبَادَتِي﴾ الَّتِي مِنْهَا الدَّعَاءُ، وَيَتَعَظَّمُونَ عَنْ

طاعتي ﴿سَيَدْخُلُونَ﴾ في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ﴾ حال كونهم ﴿ذَاخِرِينَ﴾ وذليلين جزاءً لتكبرهم على الله. في فضيلة الدعاء عن الباقر عليه السلام - في هذه الآية - قال: «هو الدعاء، وأفضل العبادة الدعاء»<sup>١</sup>.

وعنه عليه السلام، أنه سُئِلَ: أي العبادة أفضل عند الله؟ قال: «أن يُسأل ويُطَلَب ما عنده، وما من أحدٍ أبغض إلى الله تعالى ممن يستكبر عن عبادته، ولا يسأل ما عنده»<sup>٢</sup>. وعن الصادق عليه السلام، قال: «ادعُ ولا تَقُلْ: قد فرغ من الأمر، فإن الدعاء هو العبادة، إن الله يقول...» وتلا هذه الآية<sup>٣</sup>.

وعن السجاد عليه السلام - في (الصحيفة) بعد ذكر الآية - : «فسميت دعاءك عبادة، وتركه استكباراً، وتوعدت على تركه دخول جهنم داخرين»<sup>٤</sup>.

وروي أنه سُئِلَ الصادق عليه السلام: أليس الله يقول: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وقد نرى المضطرَّ يدعو ولا يُجاب له، والمظلوم يستنصره على عدوه فلا ينصره؟ قال: ويحك ما يدعو أحدٌ إلا استجاب له! أمّا الظالم فدعاؤه مردودٌ إلى أن يتوب، وأمّا المُحقِّ فإذا دعاه استجاب له، وصرف عنه البلاء من حيث لا يعلم، أو أذخر له ثواباً ليوم حاجته، وإن لم يكن الأمر الذي سأل العبد خيراً له إن أعطاه أمسك عنه، والمؤمن العارف بالله ربما عزَّ عليه أن يدعو فيما لا يدرى أصواب ذلك أم خطأ<sup>٥</sup>.

### اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ [٦١]

ثم ذكر سبحانه دلائل توحيده واستحقاقه للعبادة بقوله: ﴿اللَّهُ﴾ هو القادر ﴿الَّذِي جَعَلَ﴾ وخلق نفعاً ﴿لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿اللَّيْلَ﴾ المظلم ﴿لِتَسْكُنُوا﴾ وتستريحوا ﴿فِيهِ﴾ بسبب برودته المسكنة للقوى المُحرَّكة، والمظلمة المسكنة للحواس، ﴿وَجَعَلَ﴾ ﴿النَّهَارَ﴾ بضوئه ﴿مُبْصِراً﴾ للأشياء، وطرق تحصيل المعاش، وإنما لم يذكر لتبصروا فيه، وأسند البصار إلى النهار مجازاً، للأشعار بكون النور الذي به قيام النهار هو العلة للرؤية عند البصير، وتكون دلالة تنوّر النهار على وحدانية الله أقوى من دلالة الفعل، وإنما قدّم ذكر الليل لأنّه عدم النور، والعدم مقدّم على الوجود، والليل سابق في الوجود على النهار.

ثم لما ذكر سبحانه النعمتين العظيمتين، نبّه<sup>٦</sup> على فضله وإحسانه على الناس، ووبّخهم على ترك

٢. الكافي ٢: ٣٣٨، تفسير الصافي ٤: ٣٤٦.

٤. تفسير الصافي ٤: ٣٤٦.

٦. في النسخة: تنبّه.

١. الكافي ٢: ٣٣٨، تفسير الصافي ٤: ٣٤٦.

٣. الكافي ٢: ٣٣٩، تفسير الصافي ٤: ٣٤٦.

٥. الاحتجاج: ٣٤٣، تفسير الصافي ٤: ٣٤٦.



شكره بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ وإحسانٍ عظيمٍ ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ يخلق الليل والنهار بحيث لا يوازيه فضل وإحسانٌ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ لجهلهم بالمنعم وعدم التفاتهم إلى هذه النعمة ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضل الله وإنعامه، وإنما كرّر سبحانه ذكر الناس للتنصيص بتخصيص الكفران بهم.

ذِكْرُكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ \* كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ \* اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذِكْرُكُمْ أَنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ \* هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ  
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [٦٢-٦٥]

ثم إنّه تعالى بعد بيان قدرته ونعمته وحكمته، أعلن بألوهيته وربوبيته ووحدانيتها بقوله تبارك وتعالى: ﴿ذِكْرُكُمْ﴾ القادر الحكيم المنعم هو ﴿اللَّهُ﴾ الذي يتأله إليه جميع الموجودات، وهو ﴿رَبُّكُمْ﴾ ورب العالمين وخالقكم ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ممكن، وهو الإله الذي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا معبود سواه، إذن ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أيها المشركون، وكيف تُصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟ ﴿كَذَلِكَ﴾ الإفك والانصراف العجيب الذي يكون لقومك ﴿يُؤْفَكُ﴾ ويُصرف عن عبادة الله الأمم ﴿الَّذِينَ كَانُوا﴾ قبل قومك ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ودلائل توحيده وكمال صفاته ﴿يَجْحَدُونَ﴾ ويكذبون عناداً ولجاجاً وتقليداً. ثم استدلّ سبحانه على توحيده بقوله: ﴿اللَّهُ﴾ هو القادر الحكيم ﴿الَّذِي جَعَلَ﴾ بقدرته وحكمته ﴿لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ منزلاً في حال حياتكم ومماتكم، كما عن ابن عباس<sup>١</sup> والمراد جعلها ثابتة وساكنة لتتمكنوا من التصرف فيها، وجعل ﴿السَّمَاءَ بِنَاءً﴾ وسقفاً مبنيّاً، وقبةً مرفوعةً فوقكم.

ثم إنّه تعالى بعد الاستدلال بالآيات الآفاقية على توحيده، استدلّ بالآيات الأنفسية بقوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ في الأرحام ﴿فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ حيث خلقكم منتصبين القائمة، بادي البشرية، متناسبي الأعضاء. عن ابن عباس: خلق ابن آدم قائماً معتدلاً يأكل ويتناول بيده<sup>٢</sup> ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ﴾ المأكولات ﴿الطَّيِّبَاتِ﴾ واللذيزات ﴿ذِكْرُكُمْ﴾ القادر المنعم عليكم بتلك النعم هو ﴿اللَّهُ﴾ الذي هو ﴿رَبُّكُمْ﴾ لا رب سواه ﴿فَتَبَارَكَ﴾ وتقدس عن الشريك ﴿اللَّهُ﴾ الذي هو ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ومالك الملائكة والجن والإنس أجمعين، ورافع كل من حضيض النقص على أوج الكمال اللاتق به، وكل تحت

ملكوته، ومفتقر إليه في ذاته وجوده وما به بقاؤه وكماله ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ بالذات الذي به حياة كل حي، فمن له تلك الصفات الجمالية والجلالية؟ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا معبود بالاستحقاق سواه، فاذا عرفتموه بالتفرد والقدرة والحكمة والرحمة ﴿فَادْعُوهُ﴾ وحده لحوائجكم، واعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ﴾ ومُحْضِينَ ﴿لَهُ الدِّينَ﴾ والعبادة، ولا تُشْرِكُوا به شيئاً، وقولوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على ما هدانا وأنعم علينا بالنعم العظام.

عن ابن عباس: من قال لا إله إلا الله، فليقل على أثرها: الحمد لله رب العالمين<sup>١</sup>.  
وعن السجاد عليه السلام: «إذا قال أحدكم لا إله إلا الله، فليقل: الحمد لله رب العالمين، فإن الله يقول: ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾» الآية<sup>٢</sup>.

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي  
وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ [٦٦]

ثم لما أمر سبحانه الناس بعبادته خالصاً من الشرك، أمر نبيه ﷺ بترغيبهم فيها، باظهار أنه اختار لهم ما اختاره لنفسه، التي هي أعز النفوس عنده بقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين، ترغيباً لهم إلى التوحيد: ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ من قبل ربي عن ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ الأصنام ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ﴾ القرآنية، أو ألهمت بالشواهد والأدلة الواضحة ﴿وَمِنْ قَبْلِ رَبِّي﴾ ومالكي اللطيف بي ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ أمري، وأخلص ديني ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ  
لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلَنَبْلُغُوا أَجْلاً  
مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ \* هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ  
لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [٦٧ و ٦٨]

ثم عاد سبحانه إلى الاستدلال على توحيده بأطوار خلق الانسان بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ يا بني آدم أولاً ﴿مِنْ تُرَابٍ﴾ حيث إن الدم الذي يتكون منه المني من الأغذية المتكونة من التراب، أو إنه خلقكم منتهياً إلى خلق أبيكم آدم، وهو مخلوق من تراب ﴿ثُمَّ﴾ خلقكم ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وماء صاف متكون من الدم في صلب الرجل ﴿ثُمَّ﴾ خلقكم ﴿عَلَقَةً﴾ ودم جامد متكون من النطفة في الرحم، ثم

يَخْلُقُ أَعْضَاءَكُمْ مِنْهَا، وَيَصَوِّرُكُمْ فِيهِ، وَيَنْفُخُ فِيكُمْ الرُّوحَ، وَيُحْيِيكُمْ ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ﴾ مِنْ رَحِمِ أُمَّكُمْ حَالَكُمْ كَوْنَكُمْ ﴿طِفْلًا﴾ صَغِيرًا عَاجِزًا عَنْ جَلْبِ نَفْعٍ أَوْ دَفْعِ ضَرَرٍ ﴿ثُمَّ﴾ يُبْقِيكُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿لِتَسْتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ وَكَمَالِ قُوَّتِكُمُ الظَّاهِرِيَّةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ، وَهُوَ حَدُّ الشَّبَابِ.

قيل: هو ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين<sup>١</sup>. وقيل: من إحدى وعشرين سنة إلى ثلاث وثلاثين<sup>٢</sup>. ﴿ثُمَّ﴾ يُبْقِيكُمْ ﴿لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ قيل: إن الشيخوخة من خمسين أو إحدى وخمسين إلى الموت، أو إلى ثمانين<sup>٣</sup> ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَفَّى﴾ وَيُقَبِّضُ رُوحَهُ ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ أَنْ يَتَوَلَّدَ، فَيَسْقُطُ جَنِينًا، أَوْ مِنْ قَبْلِ بُلُوغِ الْأَشَدِّ، أَوْ مِنْ قَبْلِ الشَّيْخُوخَةِ ﴿وَذَلِكَ الْأَطْوَارُ فِي الْخَلْقِ﴾ ﴿لِتَبْلُغُوا أَجَلَ مُسَمًّى﴾ وَوَقْتًا مُعَيَّنًا فِي تَقْدِيرِ اللَّهِ لَا تَتَجَاوَزُونَهُ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وَتَفْهَمُونَ مَا فِي ذَلِكَ الْإِنْتِقَالِ مِنْ طَوَرٍ إِلَى طَوَرٍ مِنْ فَنُونِ الْحِكْمِ وَالْعِبَرِ، وَتَسْتَدِلُّونَ بِهِ عَلَى خَالِقِكُمُ الْقَدِيرِ الْحَكِيمِ.

ثُمَّ لَمَّا وَصَفَ سُبْحَانَهُ ذَاتَهُ الْمَقْدَسَةَ بِالْحَيَاةِ الذَّاتِيَّةِ، نَبَّهَ عَلَى أَنَّ حَيَاةَ كُلِّ حَيٍّ وَمَوْتَهُ بِقُدْرَتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿هُوَ﴾ تَعَالَى وَحْدَهُ الْقَادِرُ ﴿الَّذِي يُحْيِي﴾ كُلَّ مَيِّتٍ أَرَادَ أَحْيَاءَهُ ﴿وَيُيَبِّئُ﴾ كُلَّ حَيٍّ أَرَادَ إِمَاتَتَهُ. ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ نَهَايَةَ سَهُولَةِ خَلْقِ الْأَشْيَاءِ وَتَغْيِيرِهَا وَالتَّصَرُّفِ فِيهَا عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ قَدَّرَ شَيْئًا، أَوْ أَرَادَ تَكْوِينَهُ وَإِيجَادَهُ ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ﴾ وَيُرِيدُ وَجُودَهُ بِالْإِرَادَةِ التَّكْوِينِيَّةِ ﴿فَيَكُونُ﴾ وَيُوجَدُ بِلَا رَيْثٍ وَتَأْخِيرٍ وَتَوْقُفٍ عَلَى شَيْءٍ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ الْأَمْرُ عَظِيمًا كَالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ، أَوْ حَقِيرًا كَالذَّرَّةِ، أَوْ تَغْيِيرًا كَتَغْيِيرِ التُّرَابِ وَصَيْرُورَتِهِ دَمًا، وَصَيْرُورَةِ الدَّمِ نُطْفَةً، وَصَيْرُورَةِ النُّطْفَةِ عَلَقَةً، أَوْ تَبْدِيلًا كإِعْدَامِ هَذَا الْعَالَمِ، أَوْ إِعْدَامِ الْخَلْقِ وَإِيجَادِ عَالَمٍ آخَرَ، أَوْ خَلْقٍ آخَرَ.

أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُمْ يُضَرِّفُونَ \* الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَوْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَتُسُوفَ يَعْلَمُونَ \* إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأَسْلَاسِْلٌ يُسْحَبُونَ \* فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ \* ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ \* مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ [٦٩-٧٤]

ثُمَّ إِنَّ تَعَالَى بَعْدَ حُكْمِهِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ الْمُبَارَكَةِ بِكُفْرِ الْمُجَادِلِينَ فِي الْآيَاتِ، وَبَيَانِ كَوْنِهِمْ مَبْغُوضِينَ عِنْدَهُ وَعِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ، وَكَوْنِ قُلُوبِهِمْ مَطْبُوعَةٌ، وَبَيَانِ عِلَّةِ جِدَالِهِمْ، وَهُوَ التَّعَظُّمُ وَالتَّكَبُّرُ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرِسُولِهِ فِي وَسْطِهَا، وَبَعْدَ ذِكْرِ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى تَوْحِيدِهِ، عَادَ إِلَى ذَمِّ الْمُشْرِكِينَ الْمُجَادِلِينَ

في الآيات، وتهديدهم بعذاب الآخرة بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد، أو أيها الرائي، ولم تنظر نظر التعجب والعبرة ﴿إِلَى﴾ المشركين ﴿الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ﴾ ويُخاصمون ﴿فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ الواضحة المقضية للإيمان بها، الزاجرة عن الجدال والمكابرة فيها، أنهم ﴿أَنَّى يُضْرَقُونَ﴾ عن تلك الآيات والتصديق بها، وكيف يعرضون عنها؟ أعني بالمجادلين المشركين ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾ المنزل من السماء مع دلائل الصدق ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ من سائر الكتب والأحكام ﴿فَتُؤْفَ يُفْلَمُونَ﴾ سوء عاقبة تكذيبهم وجدالهم، وعن قريب يرون مآل كفرهم وطغيانهم، وذلك ﴿إِذْ﴾ تجعل ﴿الْأَغْلَاقُ﴾ وحين توضع القيود من النار ﴿فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾. قيل: ثعل أيديهم إلى أعناقهم مضمونة إليها ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ أيضاً تجعل عليهم حال كونهم ﴿يُسْحَبُونَ﴾ ويخرون على الأرض على وجوههم بعنف، يجزهم الملائكة الزبانية وخزنة جهنم ﴿فِي الْحَمِيمِ﴾ والمانع المتناهي في الحرارة.

قيل: في كلمة (في) إشعاراً بإحاطة حرارة النار أو الماء لجميع جوانبهم، كأنهم في عين الحميم ويُسْحَبُونَ فيها<sup>٢</sup>.

وعن مقاتل: ﴿يُسْحَبُونَ﴾ في الْحَمِيم أي في حر النار، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وجوههم﴾<sup>٣</sup>.

﴿ثُمَّ﴾ إنه بعد جرهم بالسلاسل إلى الحميم ﴿فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ ويُخرَقون، ففي الآيات دلالة على أنهم يُعَذَّبُونَ بأنواع العذاب.

﴿ثُمَّ﴾ بعد إحراقهم في النار ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾ تقريباً وتوبيخاً: أيها المشركون ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تُشْرِكُونَ﴾ من دُونِ اللَّهِ رجاء شفاعتهم، أو إعاتتهم إياكم في الشدائد، ادعوا اليوم ليشفعوا لكم، أو يعينوكم، ويُنجوكم من العذاب ﴿قَالُوا﴾ في جواب خَزَنَةِ جَهَنَّمَ تحسراً وندامة: إِنْ أَصْنَامُنَا ضَلُّوا عَنَّا، وغابوا عن أبصارنا، فلا نعرفهم، وذلك قبل أن تُقرَنَ بهم ألهتهم وأصنامهم، أو المراد من الضلال الهلاك، والمعنى هلكوا وضاعوا عَنَّا، فنزل عدم نفعهم لهم منزلة عدمهم، ثم قالوا: ﴿يَبْلُ﴾ الآن تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّا ﴿لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا﴾ ونعبد ﴿مِن قَبْلُ﴾ وفي الدنيا ﴿شَيْئاً﴾ قابلاً للعبادة، بل الاعتناء والاعتداد. قيل: إن المراد مما كنا مشركين ﴿كَذَلِكَ﴾ الضلال والتحير الذي يكون لهم في الآخرة حتى يَفْرَعُوا إلى الكذب، مع علمهم بأنه لا ينفَعهم ﴿يُضِلُّ اللَّهُ﴾ ويَحِيرُ ﴿الْكَافِرِينَ﴾ في الدنيا والمشركين

٢. تفسير روح البيان ٨: ٢١١.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٢١١، والآية من سورة القمر: ٤٨/٥٤.

حتى لا يهتدوا إلى شيء ينفعهم في الآخرة.

قيل: إن المراد مثل ضلال آلهم عنهم، يُضِلَّهُم الله عن آلهم حتى أنهم لو طلبوها أو طلبتهم لم يجد أحدهما الآخر<sup>١</sup> وقيل: يعني يُضِلَّهُم عن طريق الجنة<sup>٢</sup>.

ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ \* أَدْخُلُوا  
أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ \* فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ  
فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ [٧٥-٧٧]

ثم التفت سبحانه من الغيبة إلى الخطاب إلى الكفار في الدنيا مبالغة في توبيخهم وتقرعهم بقوله: ﴿ذَلِكُمْ﴾ الضلال أيها الكفرة، أو العذاب الشديد الذي ابتليتم به في الآخرة من الأغلال والسلاسل والجزء إلى الحميم والحرق بالنار جزاء ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَفْرَحُونَ﴾ وتبطلون ﴿فِي﴾ وجه ﴿الْأَرْضِ﴾ وفي زمن الحياة ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وبعين الباطل من الشرك بالله الطغيان عليه وعلى رُسله ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَمْرَحُونَ﴾ وتتكبرون عن قبول دين الحق، أو تتوسعون في البطر والأشر بحيث تغفلون عن إتيان هذا اليوم والابتلاء بشدائده وأحواله<sup>٣</sup>، فالحال ﴿أَدْخُلُوا﴾ أيها الكفرة جزاء على كفركم وفرحكم بشرككم وبطركم في الباطل ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ السبعة، وهي مفتوحة ومقسومة لكم من أي باب شئتم حال كونكم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ومقيمين بها أبداً ﴿فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن قبول الحق وإطاعة الله ورسوله، وساء منزلهم ومأواهم جهنم.

ثم لما كان جدال المشركين في آيات التوحيد والرسالة سبباً لتأثر قلب الرسول سلاه سبحانه بقوله: ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد، على أذى المشركين وإيحاشهم إياك بتلك المجادلات، فإننا نخذلهم وننصرك عليهم، واعلم ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بنصرك وتعذيبهم ﴿حَقٌّ﴾ وصدق لا خلف فيه أبداً ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ في هذه الدنيا ﴿بَعْضَ﴾ العذاب ﴿الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ كالقتل والأسر فذاك ﴿أَوْ نَتَوَقَّيَنَّكَ﴾ قبل أن تراه ﴿فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ بعد الخروج من الدنيا، فتعذبهم بأعمالهم أشد العذاب، ونستقيم منهم أشد الانتقام.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ  
عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَّسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ

## بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ [٧٨]

ثم لما كان من جدال المجادلين نسبة معجزات النبي ﷺ إلى السحر، اقترحهم عليه معجزات زائدة على ما أتى به، مع كونها فوق الكفاية، ردّهم سبحانه بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا إِلَى أَقْوَامٍ كَثِيرَةٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ وفي الأزمنة السابقة على بعثك بعضاً ﴿مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ أحوالهم ومعجزاتهم، وكيفية دعوتهم، وصبرهم على أذى قومهم، كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ﷺ وأضرابهم، ﴿وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ ولم نسّمهم لك، ولم نخبرك بأحوالهم. روي عن أبي ذر أنه قال: قلت لرسول الله ﷺ: كم عدد الأنبياء؟ قال ﷺ: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً». فقال: قلت: فكم الرسل منهم؟ فقال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جمّاً غيراً<sup>١</sup>. وفي (الخصال) عنهم عليهم السلام: «أن عددهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً»<sup>٢</sup>. وروي بعض العامة عن علي عليه السلام: «بعث الله نبياً أسود لم يقص علينا قصته»<sup>٣</sup>. قيل: إن الذين قص الله قصتهم على نبيه في القرآن ثمانية عشر<sup>٤</sup>، وعدّ منهم ذا القرنين ولقمان، ولم تثبت نبوتهما، بل وردت روايات دالة على عدم نبوتهما.

﴿وَمَا كَانَ﴾ يصح «لِرَسُولٍ» من الرسل، وإن كان في غاية عظمة الشأن وعلو المنزلة «أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ» ومعجزة لقومه «إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» لأنها من عطاياه، قسّمها بينهم على ما اقتضته الحكمة، ولذا لم يأتوا بكل ما اقترح عليهم قومهم عناداً ولجاجاً وتعتاً، وما كان ذلك قادحاً في نبوتهم، كذلك ليس عدم إيتانك بما اقترح عليك قادحاً في رسالتك، مع أنك أتيت بما أقمّت به الحجة وأزيد، فليس بعد اتمام الحجة إلا العذاب ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بالعذاب في الدنيا، أو الآخرة ﴿قُضِيَ﴾ وحكم بين الرسل ومكذّبيهم بالرسالة ﴿بِالْحَقِّ﴾ والعدل، فعند ذلك ريح المُحَقِّونَ ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ وفي تلك المحكمة «الْمُبْطِلُونَ» منهم المجادلون في الآيات والمقترحون للمعجزات.

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ \* وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ  
وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ [٧٩ و ٨٠]

ثم بعد التوعيد على الشرك وتكذيب الرسل، عاد سبحانه إلى بيان آيات التوحيد بقوله: ﴿اللَّهُ﴾

٢. الخصال: ٥٢٤، تفسير الصافي ٤: ٣٤٩.

١. تفسير روح البيان ٨: ٢١٥.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٢١٥، مجمع البيان ٨: ٨٣٠، تفسير الصافي ٤: ٣٤٩.

٥. في النسخة: ذلك.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٢١٥.

تعالى هو ﴿الَّذِي جَعَلَ﴾ وخلق ﴿لَكُمْ الْأَنْعَامَ﴾ الثمانية ﴿لِتَرْكَبُوا﴾ بعضاً ﴿وَمِنْهَا﴾ كالإبل في الأسفار ﴿وَبَعْضاً وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كالبحر والغنم والمعز، وإنما غير النظم في الجملة الثانية لرعاية الفواصل، وللإشعار بأصالة الركوب. وقيل: إن المراد بالأنعام الإبل خاصة<sup>١</sup> لكثرة استعمالها فيه ﴿وَلَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِيهَا مَنَافِعُ﴾ كثيرة غير الركوب والأكل كاللبنان والأوبار والأشعار والجلود ﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾ بتوسط الأنعام وحمل أثقالكم ﴿وَعَلَيْهَا﴾ ونقلها من بلدٍ إلى بلدٍ ﴿حَاجَةً﴾ كأنه ﴿فِي صُدُورِكُمْ﴾ وقلوبكم من المعاملة والاسترباح ﴿وَعَلَيْهَا﴾ في البراري ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ في البحار ﴿تَحْمَلُونَ﴾.

قيل: إن المراد بالحمل على الإبل حمل النسوان والولدان، ولذا فصل بينه وبين الركوب، وذكر الفُلك للمناسبة بينه وبين الإبل حتى قالوا: الإبل سفينة البر، وإنما لم يقل: في الفلك<sup>٢</sup>، لصحة استعمال (في) و(على) في المقام، وكون (على) هنا للمزاوجة، وإنما أدخل على الركوب والبلوغ حرف التعليل، لأنهما قد يكونان لأغراض دينية كالجهاد والحج بخلاف الأكل وسائر المنافع، فإنها من المباحات، فلا يحدان من الأغراض الإلهية.

وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ \* أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [٨١ و ٨٢]

ثم إنه تعالى بعد ذكر الدلائل الكثيرة على توحيده وقدرته وحكمته، نبه على ظهور تلك الآيات والدلائل بقوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ﴾ الله أيها الناس بطلغه ﴿آيَاتِهِ﴾ ودلائل توحيده ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ فإن كلاً منها في<sup>٣</sup> غاية الظهور بحيث لا يجترئ على إنكارها من له عقل، وإنما أضاف الآيات إلى اسمه الجليل، لتربية المهابة، وتهويلاً لانكارها.

ثم لما كان سبب إنكار الآيات ليس إلا الكبر وحب الدنيا والرياسة، وبخهم على ترك التفكير في وخامة عاقبة المتكبرين بقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ قيل: إن التقدير اقعدوا في مكانهم، فلم يسيروا ولم يسافروا<sup>٤</sup> ﴿فِي﴾ أقطار ﴿الْأَرْضِ﴾ للتجارة وغيرها ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ نظر الاعتبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ المتكبرين والمتمردين ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فإنها لم تكن إلا الهلاك والبوار مع

١. تفسير الرازي ٢٧: ٨٩، تفسير أبي السعود ٧: ٢٨٦. ٢. تفسير روح البيان ٨: ٢١٨.

٣. في النسخة: من. ٤. تفسير روح البيان ٨: ٢١٩.

أَنَّهُمْ ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ عدداً ﴿وَأَشَدَّ﴾ مِنْهُمْ ﴿قُوَّةً﴾ في الأبدان ﴿وَزُ﴾ أزيد منهم ﴿آثَاراً﴾ باقية ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ بعدهم من المدن والقصور والحصون والبساتين والقنوات والأنهار ﴿فَمَا أَغْنَى﴾ وما دفع ﴿عَنْهُمْ﴾ العذاب ﴿مَا كَانُوا﴾ في مدة أعمارهم ﴿يَكْسِبُونَ﴾ وَيَحْصُلُونَ من الأموال والأولاد والعدد، فلما لم يستفيدوا من تلك المكنة العظيمة والدولة القاهرة إلا الخيبة والخسار والبوار، فكيف يكون حال الفقراء والضعفة؟

وقيل: إن كلمة (ما) في قوله: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾ استفهامية، وفي قوله: ﴿مَا كَانُوا﴾ مصدرية، والمعنى أي شيء أغنى عنهم كسبهم<sup>١</sup>.

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ \* فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ \* فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الْيُسَى قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ [٨٣-٨٥]

ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ غُرُورَ الْمُتَكَبِّرِينَ بقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ ودعواهم إلى دين الحق مستدلين على صدقهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات الباهرات ﴿فَرَحُوا﴾ واغترزوا أولئك المتكبرون ﴿بِمَا عِنْدَهُمْ﴾ ومالهم ﴿مِنْ الْعِلْمِ﴾ بعقائدهم الفاسدة وشبهاتهم الباطلة، أو بأمور الدنيا وتدبيرها، واستحقروا علم الرسل واستهزءوا بهم وبما أخبروا به من عذاب الدنيا والآخرة ﴿وَحَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من الأخبار بالعذاب الدنيوي والأخروي.

وقيل: إن المراد فرح الرسل بعلمهم، والمعنى أن الرسل لما رأوا من قومهم غاية الجهل والاعتماد عن الحق، فرحوا بما أتوا من العلم، وشكروا الله عليه، وحق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم<sup>٢</sup>.

وقيل: إن المراد فرح الكافرين بما عند الرسل من العلم، ومعنى فرحهم ضحكهم واستهزائهم به<sup>٣</sup>. ﴿فَلَمَّا رَأَوْا﴾ أولئك الأمم المهلكة ﴿بَأْسَنَا﴾ وعذابنا الشديد النازل عليهم بأمرنا ﴿قَالُوا﴾ اضطراباً ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَخَدَعُوا﴾ وصدقنا بتفرده في الألوهية واستحقاق العبادة ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا﴾ بسبب الإيمان ﴿بِهِ﴾ وعبادته ﴿مُشْرِكِينَ﴾ بالله من الأصنام وبتزائنا منهم ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ﴾ ولم يمكن أن يفيدهم

١. تفسير الرازي ٢٧: ٩١، تفسير أبي السعود ٧: ٢٨٧، تفسير روح البيان ٨: ٢٢٠.

٢. تفسير الرازي ٢٧: ٩١، تفسير أبي السعود ٧: ٢٨٧. ٣. تفسير الرازي ٢٧: ٩١، تفسير أبي السعود ٧: ٢٨٧.



﴿إِيمَانُهُمْ﴾ الاضطرابي ﴿لَمَّا رَأَوْا بُأْسَنَا﴾ وعذابنا في الدنيا، أو عند الموت ورؤية أهوال الآخرة، لعدم قدرتهم على الكفر، كما لم ينفع إيمان فرعون بعد الغرق، وهذه المعاملة مع الكفار المكذّبين للآيات والرسل من عدم قبول إيمانهم عند معاناة العذاب، تكون ﴿سُنَّتَ اللَّهِ﴾ وعادته الجارية ﴿الَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿فِي عِبَادِهِ﴾ والطُّغَاةُ المكذّبين من الأمم السالفة ﴿وَحَسِرَ﴾ وغبن أو هلك ﴿هُنَالِكَ﴾ وفي ذلك الوقت ﴿الْكَافِرُونَ﴾ بوحدانية الله كما عن ابن عباس عليه السلام<sup>١</sup>.

وعن الرضا عليه السلام أنّه شغل: لأني علّة غرق الله فرعون وقد آمن واقرّ بوحيدته؟ قال عليه السلام: «لأنّه آمن عند رؤية البأس، والايمان عند رؤية البأس غير مقبول، وذلك حكم الله تعالى ذكره في السلف [والخلف]، قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بُأْسَنَا﴾ الآيةان<sup>٢</sup>.

وفي (الكافي): قدّم إلى المتوكّل رجل نصراني فجر بامرأة مسلمة، فأراد أن يُقيم عليه الحدّ. فأسلم، ف قيل: قد هدم إيمانه شركه وفعله وقيل: يُضرب ثلاثة حدود. وقيل غير ذلك، فأرسل المتوكّل إلى الامام الهادي عليه السلام، وسأله عن ذلك، فكتب عليه السلام: «يُضرب حتى يموت» فأنكروا ذلك، وقالوا: هذا شيء لم ينطق به كتاب، ولم تجيء به سنة، فسألوه ثانياً البيان، فكتب عليه السلام هاتين الآيتين بعد البسملة، فأمر المتوكّل فُضرب حتى مات<sup>٣</sup>.

عن الباقر عليه السلام: «من قرأ حم المؤمن في كلّ ليلة، غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، وألزمه كلمة التقوى، وجعل الآخرة له خيراً من الدنيا»<sup>٤</sup>.

وعن الصادق عليه السلام، قال: «الحواميم رياحين القرآن»<sup>٥</sup>.

الحمد لله على التوفيق لاتمام تفسير السورة المباركة والمسمّاة بالمؤمن، ونشكّره على نعمه وآلائه.

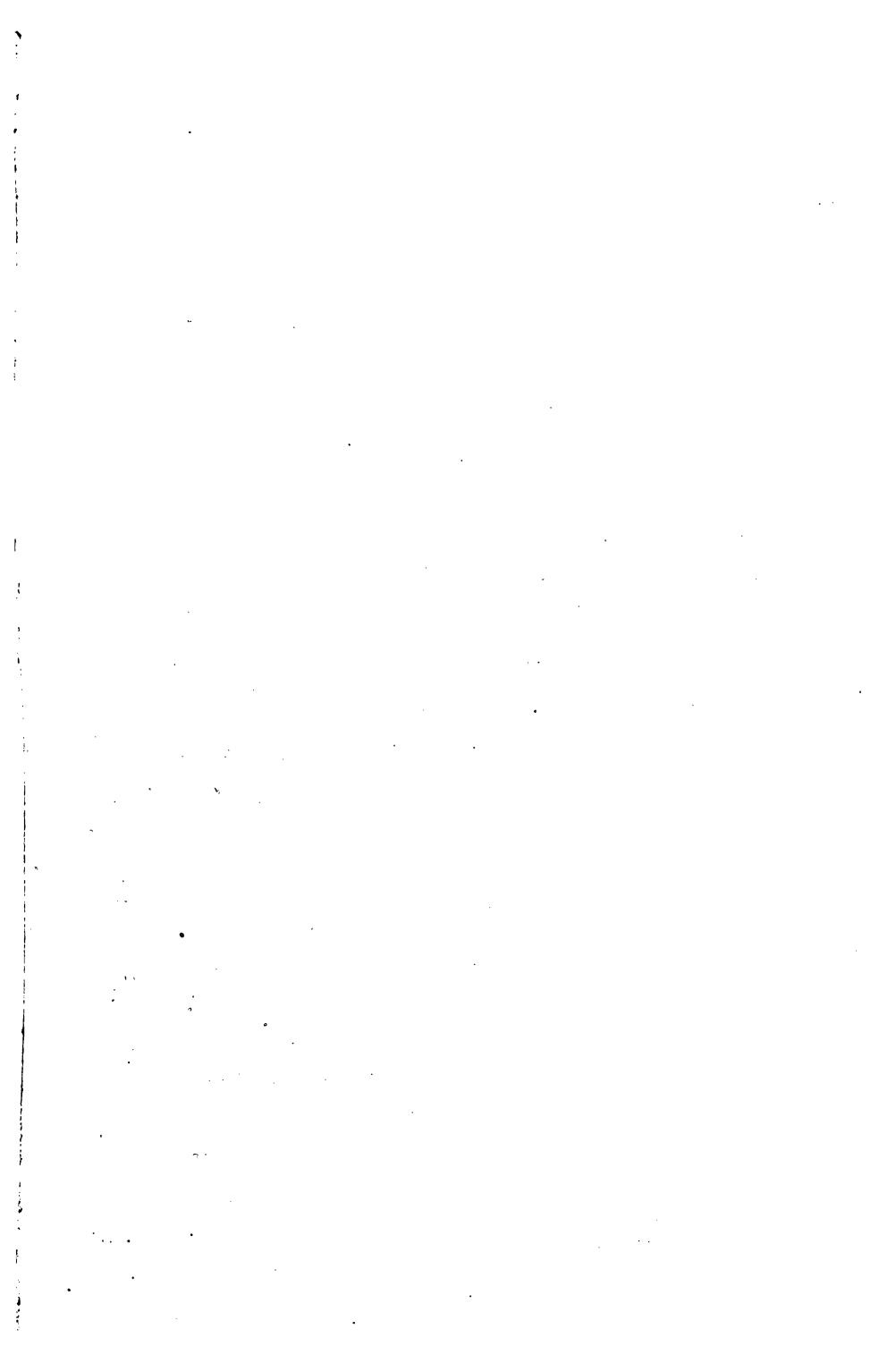
١. تفسير روح البيان ٨: ٢٢٢.

٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٧/٧٧، تفسير الصافي ٤: ٣٥٠.

٣. الكافي ٧: ٢٣٨، تفسير الصافي ٤: ٣٥٠.

٤. نواب الاعمال: ١٣٠، تفسير الصافي ٤: ٣٥١.

٥. نواب الاعمال: ١١٤، تفسير الصافي ٤: ٤٥١.



## في تفسير سورة فُصِّلَتْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَم \* تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ \* كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ \* بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ \* وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ [١-٥]

ثم لما خُتِمت سورة المؤمن البدوء بتعظيم القرآن المتضمنة لإثبات التوحيد وذمّ المجادلين في الآيات، وذكر أدلة التوحيد وتهديد منكريه، نظم بعدها سورة حم السجدة المبدوءة أيضاً بتعظيم القرآن، المشتعلة على ذمّ المعارضين عن آياته، والمشرّكين المعارضين للرسول، وذكر أدلة التوحيد وتهديد المعارضين عنه وغيرها من المطالب العالية المناسبة لما في السورة المباركة السابقة، فابتدأ سبحانه على دأبه بذكر الأسماء المباركات تيمناً وتبركاً وتعليماً للعباد بقوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم افتتحها بذكر الحروف المقطّعة بقوله: ﴿حم﴾ جلباً للقلوب إلى المطالب التي بعدها، وقد مرّ أنّها رمزٌ عن الأسماء الحسنى. وقيل: إنّها اسم للسورة<sup>١</sup>، أو القرآن<sup>٢</sup>.

ثم عظم سبحانه القرآن حيث وصفه بقوله: ﴿تَنْزِيلٌ﴾ ومنزلٌ بتوسط الروح الأمين ﴿مِنْ﴾ الله ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ على رسوله الذي هو رحمة للعالمين، رحمة منه على الخلق أجمعين إلى يوم الدين، وهو ﴿كِتَابٌ﴾ عظيم الشأن، جامع لعلوم الأولين والآخرين، ولكلّ ما يحتاج إليه في المعاش والمعاد والدنيا والدين ﴿فُصِّلَتْ﴾ وفُرِّقَتْ ﴿آيَاتُهُ﴾ وجُعِلَتْ تفاصيل وتبيناً لصفات الله الجمالية والجلالية، من كمال علمه وقدرته وحكمته ورحمته وقهاريته، ولبدو خلق السماوات والأرض والكواكب والانسان والجانّ وحكمته، وحكمة خلق الليل والنهار وتعاقبهما، وللأحكام والسُنن والآداب، وأدلة المعاد والوعد والوعيد والثواب والعقاب، ودرجات أهل الجنة ودرجات أهل النار،

والمواظ والعبر وغير ذلك من المطالب العالية المختلفة.

قيل: إنه ليس بين الناس كتاب اجتمع فيه العلوم المختلفة والمطالب المتباينة مثل القرآن<sup>١</sup>.

ثم بالغ سبحانه في مدح الكتاب بقوله: ﴿قُرْآنًا﴾ قيل: إن المعنى أريد من هذا الكتاب المفضل، أو حال كونه قرآنًا<sup>٢</sup> ﴿عَرَبِيًّا﴾ كأننا ﴿لَقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ وَيَفْهَمُونَ اللغة العربية، كما قال تعالى: ﴿مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوِيٍّ﴾<sup>٣</sup> ليكون ذلك الكتاب ﴿بَشِيرًا﴾ ومبشراً لمصدقيه والمطيعين لأحكامه بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ ومُحذِّراً لمكذبيه ومخالفيه بالنار.

ثم حكى سبحانه شقاوة القوم الذين نزل القرآن بلغتهم بقوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أَكْثَرُهُمْ فلم يتدبروا فيه مع كونه بلغتهم ﴿فَهُمْ﴾ كأنهم<sup>٤</sup> صَمٌّ ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ آياته، أو المراد فهم لا يسمعون سماع القبول، وهم مع ذلك عارضوه النبي ﷺ ﴿وَقَالُوا﴾ يا محمد، أنت تدعونا إلى الإيمان بكتابك وتوحيد ربك، والحال أنه ﴿قُلُوبُنَا﴾ كائنة ﴿فِي أَكِنَّةٍ﴾ وأعطية متكاثفة تمنعها ﴿مِنْ﴾ فهم ﴿مَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ﴿وَوَ﴾ كائن ﴿فِي آذَانِنَا وَقُفٌّ﴾ وثقل، أو صَمٌّ لا يمكننا سماع صوتك واستماع آيات كتابك ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ﴾ مع ذلك ﴿حِجَابٌ﴾ وساتر ومانع من رؤيتك.

قيل: إن كلمة (من) دالة على قوة الحجاب واستيعابه للمسافة الكائنة بينهم وبينه<sup>٥</sup>، ولما كان القلب والسمع والبصر آلة للإدراك، واقتصروا على ذكرها، وفيه بيان لغاية إعراضهم ونفرتهم عنه.

ثم قالوا: يا محمد، إذن ﴿فَاعْمَلْ﴾ واجتهد في ترويج دينك وتشبيد رسالتك و ﴿إِنَّا﴾ أيضاً ﴿عَامِلُونَ﴾ وساعون في إبطال دينك والإخلال في أمرك. وقيل: يعني اعمل أنت على دينك، وإنّا أيضاً عاملون على ديننا<sup>٦</sup>.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ \* الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ [٦ و ٧]

ثم أمر سبحانه بجوابهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهم ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ لا قدرة لي على إجباركم وقهركم على الإيمان وقبول التوحيد، وإنما المائز بيني وبينكم أنه ﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾ من قبل ربي ولا يوحى إليكم، ووظيفتي تبليغ ما يوحى إلي، وهو ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ وهو رب العالمين،

٢. تفسير الرازي ٢٧: ٩٤، تفسير روح البيان ٨: ٢٢٦.

٥. تفسير الرازي ٢٧: ٩٧.

١. تفسير روح البيان ٨: ٢٢٦.

٤. في النسخة: كأنه.

٣. إبراهيم: ٤/١٤.

٦. مجمع البيان ٩: ٥، تفسير روح البيان ٨: ٢٢٨.

لا الأصنام المنحوتة والمصنوعة، وأقول: إذا كان هو ربكم ﴿فَاسْتَقِيمُوا﴾ وتوجهوا ﴿إِلَيْهِ﴾ بقلوبكم وجوارحكم، وأخلصوا له دينكم ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ مما أنتم عليه من الشرك، وتوبوا إليه من طغيانكم عليه.

ثم هدّدهم على الشرك بعد دعوتهم إلى التوحيد بقوله: ﴿وَوَيْلٌ﴾ وعذاب شديد ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ برّبهم، وهم ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ لله، ويصرفون الأزيد منها من أموالهم للأصنام ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ﴾ ودار جزاء الأعمال ﴿هُمْ﴾ بالخصوص ﴿كَافِرُونَ﴾ جاحدون لا يرجون لأعمالهم ثواباً، ولا يخافون عقاباً، ولذا ينهمكون في الشهوات وطلب الدنيا ولذاتها.

قيل: إن الله قرن ترك الزكاة بالكفر بالآخرة، وصف المشركين به لزيادة التحذير من منعها<sup>١</sup>.

وعن ابن عباس: أن تفسير (لا يؤتون الزكاة) لا يقولون لا إله إلا الله، فإنها زكاة الأنفس<sup>٢</sup>. والمعنى لا يطهرون أنفسهم من الشرك بالتوحيد، فإنما المشركون نجس.

وقيل: إن الزكاة إن كانت في القرآن مقرونة بالصلاة، كقوله: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾<sup>٣</sup> وقوله: ﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾<sup>٤</sup> فالمراد بها زكاة المال؛ وإن كانت منفردة كقوله: ﴿خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةٌ﴾<sup>٥</sup> وقوله: ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةٌ﴾<sup>٦</sup> وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾<sup>٧</sup> فالمراد بها طهارة النفس<sup>٨</sup>.

في الرد على بعض المفسرين أقول: في الثاني نظر، بل منع واضح لقوله: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ﴾<sup>٩</sup> ثم لا يخفى أن الآية بناء على التفسير الأول تدل على تكليف الكفار بالزكاة، وما عن الصادق عليه السلام أنه قال: «اترى أن الله طلب من المشركين زكاة أموالهم وهم يشركون به حيث يقول: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ \* الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَاْفِرُونَ﴾».

قيل: جعلت فداك، فسر لي. فقال: أويل للمشركين الذين أشركوا بالامام الأول، وهم بالأنمة الآخرين كافرون، إنما دعا الله العباد إلى الايمان به، فاذا آمنوا بالله وبرسوله افترض عليهم الفرائض<sup>١٠</sup> مطروح أو مؤول، مع أن فيه حمل الاشراك على الاشراك بالامام، وحمل الآخرة على

١. تفسير أبي السعود ٨: ٣، تفسير روح البيان ٨: ٢٢٩.

٢. تفسير أبي السعود ٨: ٣، تفسير روح البيان ٨: ٢٣٠.

٣. المائدة: ٥٥/٥. ٤. الكهف: ٨١/١٨.

٥. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٠.

٦. تفسير الفمي ٢: ٢٦٢، تفسير الصافي ٤: ٢٥٣.

٣. البقرة: ٤٣/٢.

٧. الأعلى: ٨٧/١٤.

٦. مريم: ١٩/١٣.

٩. الروم: ٣٩/٣٠.

الأئمة الآخرة، مع كونهما في الآية بقرينة الآيات السابقة واللاحقة كالنص في الاشتراك بالله والدار الآخرة.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ \* قُلْ إِنَّا نَكْفُرُونَ  
بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ \*  
وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ  
سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ \* ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آتِيَا  
طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ [٨-١١]

ثم إنه تعالى بعد تهديد المشركين، وعد المؤمنين الموحدين بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الأعمال ﴿الْمَرْضِيَّاتِ﴾ عند الله، الخالصات من شوب الشرك الجلي والخفي ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ عليهم، فينكدر بالجنة، لأنه سمي ما يعطيهم أجراً، ولا مئة في الأجر.

قيل: نزلت في المرضى والزمنى، إذا عجزوا عن الطاعة، كتبت لهم الأجر كأحسن ما كانوا يعملون<sup>١</sup>.  
وقيل: إن المراد لهم أجر غير مقطوع، أو غير محسوب عليهم<sup>٢</sup>، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَفَّقُ  
الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾<sup>٣</sup>.

ثم لما هدد سبحانه المشركين، وبخهم على إشراكهم مع دلالة الأدلة القاطعة على توحيده بقوله:  
﴿قُلْ﴾ يا محمد، للمشركين توبيخاً لهم ﴿إِنَّا نَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ﴾ بقدرته  
وحكمته ﴿الْأَرْضَ﴾ مع عظمها وبسطها ﴿فِي﴾ مقدار ﴿يَوْمَيْنِ﴾ من أيام الدنيا من الزمان تعليماً  
للعباد التائي في الأمور وترك العجلة، وإلا فمن المعلوم إمكان إيجادها في آن واحد.  
قيل: خلق الله الأرض في يوم الأحد، وبسطها في الاثنين<sup>٤</sup>. وقيل: إن المراد من اليومين دفعتين<sup>٥</sup>.  
والقمي قال: في وقتين؛ ابتداء الخلق وانقضاؤه<sup>٦</sup>.

﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ﴾ مع هذه القدرة الكاملة من الجمادات ﴿أَنْدَادًا﴾ وشركاء في الألوهية والعبادة،

١. تفسير الرازي ٢٧: ١٠٠، تفسير البضاوي ٢: ٣٤٩، تفسير أبي السعود ٨: ٤.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٠. ٣. الزمر: ١٠/٣٩، وفي النسخة: لهم أجرهم بغير حساب.

٤. تفسير أبي السعود ٨: ٦، تفسير روح البيان ٨: ٢٣١.

٥. تفسير أبي السعود ٨: ٤، تفسير روح البيان ٨: ٢٣١.

٦. تفسير القمي ٢: ٢٦٢، تفسير الصافي ٤: ٣٥٣.

والحال أنه يتمتع أن يكون له يدًا وُضدًا ﴿ذَلِكَ﴾ الإله القادر الحكيم هو ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وخالق الموجودات ومربيها، فكيف يتصور أن يكون أخس مخلوقاته يدًا له وشريكًا ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ جبالًا ﴿زَوَاسِي﴾ وثوابت ﴿مِنْ فَوْقَهَا﴾ لتمنعها من الميلان، ولتكون منافعها ظاهرة.

في بيان بدو خلق  
عن ابن عباس رضي الله عنه: أول ما خلق الله من شيء القلم، وقال له: اكتب - إلى أن قال - ثم بسط الأرض على ظهر النون، وفاضطرب النون، فمادت الأرض، فأوتدت بالجبال بالجبـال وما فيهما، وعدده الجبال  
قيل: إن الله تعالى طوّق الأرض بجبلٍ محيطٍ بها، وهو من صخرة خضراء<sup>٢</sup>.

وقيل: أول جبل نُصِب على وجه الأرض جبل أبو قُبَيْس<sup>٣</sup>، وإن مجموع الجبال التي عُرفت في الاقاليم السبعة مائة وثمانية وسبعون جبلًا<sup>٤</sup>. وقيل: عددها ستة آلاف وستمئة وثلاثة وسبعون جبلًا سوى التلول<sup>٥</sup>.

﴿وَبَارَكْ﴾ سبحانه في الأرض وأكثر الخير ﴿فِيهَا﴾ بخلق أنواع الحيوانات والنباتات التي منها معاش الانسان ﴿وَقَدَّرْ﴾ في الأرض، وقَسَمَ لمن يحتاج إلى القوت ﴿فِيهَا﴾ بقدرته وحكمته ﴿أَقْوَاتَهَا﴾ والأرزاق التي تتولّد منها وتوجد فيها من البرّ والشعير وغيرهما.

وقيل: إن المراد أقوات نفسها من المطر حيث إن الله قَدَّرَ لكل أرض حظّها من المطر<sup>٦</sup>. وقيل: يعني الأقوات التي اختصّ حدوثها بأرضٍ خاصّةٍ حيث إن الله جعل كلّ بلدٍ معدنًا لنوعٍ من الأشياء المطلوبة لرغبة الناس في التجارة والضرب في الأرض لكسب الأموال<sup>٧</sup>، كل ذلك ﴿فِي﴾ تَحَمّة ﴿أَزْيَعَةٍ أَيَّامٍ﴾ كاملة من أيام الدنيا، وتلك الأيام استوت ﴿سَوَاءً﴾ بلا زيادة وتقصان.

القمي: يعني في أربعة أوقات، وهي التي تخرج فيها أقوات العالم من الناس والبهائم - إلى أن قال - وهو الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء - إلى أن قال -: وجعل الله هذه الأقوات في أربعة أوقات في الشتاء، والربيع، والصيف، والخريف، وقام به العالم واستوى وبقي، وسَمَى الله هذه الأوقات أياماً ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ يعني المحتاجين؛ لأنّ كلّ محتاجٍ سائلٌ، وفي العالم من خلق الله من لا يسأل ولا يقدر على السؤال من الحيوان، فهم سائلون وإن لم يسألوا<sup>٨</sup>.

وقيل: إن المراد أن الحَصْر في أربعة للسائلين عن مدّة خلق الأرض وما فيها<sup>٩</sup>.

١. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٢.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٣.

٥. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٣.

٧. تفسير الرازي ٢٧: ١٠٣.

٩. تفسير أبي السعود ٨: ٥، تفسير روح البيان ٨: ٢٣٤.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٢.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٢.

٦. تفسير الرازي ٢٧: ١٠٢.

٨. تفسير القمي ٢: ٢٦٢، تفسير الصافي ٤: ٣٥٣.

٤٤٢ ..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٥

عن ابن عباس، قال: سَمِعْتُ رسول الله وأنا رديفة يقول: «خلق الله الأرواح قبل الأجسام بأربعة آلاف سنة، وخلق الأرزاق قبل الأرواح بأربعة آلاف سنة سواء لمن سأل ولمن لم يسأل، وأنا من الذين لم يسألوا، ومن سأل جهل»<sup>١</sup>.

أقول: فيه دلالة على أن لام السائلين متعلقة بسواء.

وعن النبي ﷺ - في حديث -: «الرزق أشد طلباً لصاحبه من صاحبه له»<sup>٢</sup>.

﴿ثُمَّ﴾ بعد خلق الأرض ﴿أَسْتَوَى﴾ سبحانه، وتوجّه ﴿إِلَى﴾ خلق ﴿السَّمَاءِ﴾ وقصد نحوها بإرادته ومشيتته ﴿وَهِيَ﴾ في النظر ﴿دُخَانٌ﴾ وأجزاء أرضية لطيفة متصاعدة في الهواء مع الحرارة، وفي الواقع مادة ظلمانية. قيل: أريد به الأجزاء التي لا تنجز، ومن ظلمتها إبهامها<sup>٣</sup>. وقيل: إن المراد من الدخان البخار المرتفع من الماء تشبيهاً له به<sup>٤</sup>.

عن ابن عباس في جواب نافع بن الأزرق الحروري: أن أول ما خلق الله العرش على الماء، والماء من جوهره خضراء أذابها الله، ثم ألقى فيها ناراً، فصار الماء يقدف بالغثاء والزبد، فخلق الأرض من الغثاء، ثم استوى إلى الدخان الذي صار من الماء، فسمكه سماءً، ثم بسط الأرض، فكان خلق الأرض قبل خلق السماء، وبسط الأرض، وأرسل الجبال، وتقدير الأرزاق، وخلق الأشجار والدواب والبحار والأنهار بعد خلق السماء<sup>٥</sup>.

﴿فَقَالَ﴾ الله ﴿لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾ حين اقتضاء الحكمة إيجادهما: ﴿أَتَيْنَا﴾ من زاوية العدم إلى عالم الوجود، وكونا على ما ينبغي أن تأتيا وتكونا عليه من الشكل والوصف، من كون الأرض مدحوة وقراراً ومهاداً، والسماء مقبية وسقفاً، سواء كان إتيانكما وتكونكما ﴿طَوْعاً﴾ ورغبة إلى طاعة أمري ﴿أَوْ كَرْهاً﴾ وبغير رغبة ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ متقادين غير كارهين، وهذا تمثيل لتأثير قدرته ونفوذ إرادته في إيجادهما، وتشبيه له بالسلطان القاهر الذي يقول لأدنى رعيته: لا بد لك من أن تفعل هذا شئت أم لم تشأ: فيقول: سمعاً وطاعة.

ثم لا يخفى أن الآية مسوقة لبيان خلق السماء بعد خلق الأرض، ولكن لما لم يبين كيفية خلق الأرض مع كمال عظمتها، قرنه ببيان كيفية خلق السماء التي هي أعظم منها، وفي بعض الروايات دلالة على أن الخطاب إلى السماء والأرض بعد خلقهما.

في حديث: «أن موسى قال: يا رب لو أن السماوات والأرض حيث قلت لهما: اتيننا طوعاً أو كرهاً

٢- ٤. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٥.

١. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٤.

٥. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٥.



عصياك، ما كنت صانعاً بهما؟ قال: كنت أمر دابة من دوابي فتبَّلَعهما<sup>١</sup>.

القمي رحمه الله: سُئل الرضا عليه السلام عن كَلِمِ الله لا من الجن ولا من الإنس؟ فقال: «السموات والأرض في قوله: ﴿أَتَيْنَا طَوْعاً أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾»<sup>٢</sup>.

أقول: عليه يكون المراد من إتيانهما طاعتها إياه في الحركات والسكنات وغيرهما.

ثم قيل: إن أول ما أجاب الله تعالى من الأرض موضع الكعبة، ومن السماء ما يجذأها، فجعل الله لها حرمة على سائر الأرض حتى كانت كعبة الاسلام وقبلةً للأنام<sup>٣</sup>.

فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ  
الْأُولَىٰ بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [١٢]

ثم بين سبحانه ما أوجده بإرادته النافذة بقوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ﴾ وأتم خلقهن حال كونهن، أو كان قضاهن ﴿سَبْعَ سَمَواتٍ﴾ طباق عظام بحيث تكون الأرض بالنسبة إلى السماء الدنيا كنسبة حصاة صغيرة إلى القلاة الواسعة، وكذا السماء الأولى بالنسبة إلى الثانية، وهكذا إلى السابعة ﴿فِي﴾ مقدار ﴿يَوْمَيْنِ﴾ من أيام الدنيا من الزمان.

قيل: خلق سبحانه ما في الأرض في يوم الثلاثاء والأربعاء، والسموات وما فيهن في يوم الخميس إلى آخر ساعة من يوم الجمعة، وفي الساعة الآخرة منها خلق آدم، وهي الساعة التي فيها القيامة<sup>٤</sup>.

﴿وَأَوْحَى﴾ الله تعالى ﴿فِي كُلِّ سَمَاءٍ﴾ بعد خلقهن ﴿أَمْرَهَا﴾ قيل: يعني خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها، وخلق في كل منها ما فيها من الملائكة وجبال البرد والبحار<sup>٥</sup>.

وقيل: يعني حكم في كل منها بما أراد، فإن له تعالى على أهل كل سماء تكليفاً خاصاً بأهلها، منهم قيام لا يتعدون، ومنهم زكوة لا يتصبون، ومنهم شجود لا يرفعون رؤوسهم إلى غير ذلك<sup>٦</sup>، وإضافة الأمر إلى نفس السماء للملازمة<sup>٧</sup>.

﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الْأُولَى﴾ والقريبة من الأرض بكواكب متلألئة تشبه ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ مضيئة، بعضها ثوابت، وبعضها سیارات، ﴿وَحِفْظًا﴾ بديعاً من الآفات، وضعود الشياطين إليها،

١. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٦.

٢. في النسخة: تكلم.

٣. تفسير القمي ٢: ٢٦٣، تفسير الصافي ٤: ٢٥٤.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٦.

٥. تفسير الرازي ٢٧: ١٠٧، تفسير أبي السعود ٨: ٦، تفسير روح البيان ٨: ٢٣٩.

٦. تفسير روح البيان ٢٧: ١٠٧، تفسير روح البيان ٨: ٢٣٨.

٨. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٨.

واستراق السمع منها، بالثُّهْب المنفصلة من الكواكب.

في فضيلة أهل البيت (عليهم السلام) عن النبي ﷺ: «النجوم أمانٌ لأهل السماء، فإذا ذهبَت النجوم ذهب البيت (عليهم السلام) وأهل السماء، وأهل بيتي أمانٌ لأهل الأرض، فإذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض»<sup>١</sup>.

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور المفصل من بدائع الخلق ﴿تَقْدِيرُ﴾ الإله ﴿الْعَزِيزُ﴾ والقدير الذي لا تناهي لقدرته ﴿الْعَلِيمُ﴾ الذي لا نهاية لعلمه، فيفعل ما يشاء، ويعلم مصالح الأمور.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ \* إِذْ جَاءَهُمْ  
الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ  
مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ [١٣ و ١٤]

ثم إنه تعالى بعد بيان كمال قدرته، أمر النبي ﷺ بتهديد المشركين بقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن الإيمان بالله وبتوحيده، ولم يتفكروا فيما خلقه الله إبداعاً من الموجودات العلوية والسُّفلية ﴿فَقُلْ﴾ لهم يا محمد: إِنِّي ﴿أَنْذَرْتُكُمْ﴾ وخوفتكم من أن ينزل الله عليكم ﴿صَاعِقَةً﴾ من السماء وعذاباً شديداً، يكون ﴿مِثْلَ صَاعِقَةِ﴾ قوم ﴿عَادٍ وَ﴾ قوم ﴿ثُمُودَ﴾ والعذاب النازل عليهم، لأنكم إذن كالحطب اليابس الذي لا يليق إلاً للحراق بالنار، وإنما خصَّ سبحانه القبيلتين بالذكر لأن أهل مكة كانوا كثيراً يَمُرُّونَ في أسفارهم إلى الشام واليمن على ديارهم، ويرون آثار العذاب فيها ﴿إِذْ جَاءَهُمْ الرُّسُلُ﴾ الذين أرسلوا إليهم، وحين دعوهم إلى الإيمان بالتوحيد والمعاد ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ واجتهدوا في إرشادهم من جميع الجهات والجوانب.

قيل: هو كناية عن انحاء النصيح من الرفق والعُنف والترغيب والترهيب<sup>٢</sup>، ويحتمل كونه كناية عن شدة إصرارهم على دعوتهم، وتبليغ ما أرسلوا به، وهو ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ أيها القوم ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ وحده، فاجابهم قومهم و﴿قَالُوا﴾ استخفافاً بهم وتكذيباً لهم ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا﴾ إرسال رسول من قبله إلينا ﴿لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ برسالته حتى لا نشك في صدقهم، ونسارع إلى الإيمان بهم، فلما لم تكونوا ملائكة، بل تكونون بشرأ مثلنا، لا فضيلة لكم علينا ﴿فَإِنَّا﴾ برسالتكم و﴿بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ من التوحيد على زعمكم ﴿كَافِرُونَ﴾ وجاحدون.

رُوي أن أبا جهل قال يوماً في ملا من قريش: التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم رجلاً عالماً

بالشعر والسحر والكيانة فكلمه، ثم أتانا ببيانٍ عن أمره. فقال عُتْبَةُ بن ربيعة: والله لقد سَمِعْتُ السحر والشعر والكيانة، وعلمت من ذلك علماً، وما يخفى عليّ. فأتاه فقال: يا محمد، أنت خيرٌ أم هاشم، أنت خيرٌ أم عبدالمطلب، أنت خيرٌ أم عبدالله؟ لِمَ تَشْتُمُ آلَهِتَنَا وَتُضِلُّنَا؟ فإن كنت تُرِيدُ الرِئَاسَةَ عقدنا لك اللواء، فكنْتَ رئيسنا، وإن يكن بك الباء زوجناك عشر نسوة تختارهنّ، أي بناتٍ شئت من قريش، وإن كان المال مرادك جمعنا لك ما تستغني به، ورسول الله ﷺ ساكتٌ. فلما فرغ عُتْبَةُ قال ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

حم \* تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿صَاعِقَةٌ مِثْلُ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودٌ﴾<sup>١</sup>. فأمسك عُتْبَةُ على فيه، وناشده بالرحيم، ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش، فلما احتبس عنهم قالوا: لا نرى عُتْبَةَ إلّا قد صبا، فانطلقوا إليه، وقالوا: يا عُتْبَةُ، ما حبسك عنا إلّا أنك قد صبات. فغَضِبَ وأقسم أنه لا يكلم محمداً أبداً، ثم قال: والله لقد كلمته فأجابني بشيء ما هو بشعرٍ ولا سحرٍ ولا كيانة. فلما بلغ ﴿صَاعِقَةٌ مِثْلُ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودٌ﴾ أمسكتُ بني وناشدته بالرحيم، ولقد علمتُ أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب<sup>٢</sup>.

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا  
أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ \* فَأَرْسَلْنَا  
عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ \* وَأَمَّا ثُمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ  
فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا  
يَكْسِبُونَ \* وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [١٥-١٨]

ثم لما بين سبحانه كفر عاد وثمود، بين طغيانهم بقوله: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا﴾ وتعظّموا في أنفسهم ﴿في﴾ وجه ﴿الأرض﴾ التي كانوا فيها ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وبلا استحقاقٍ للكبر والتعظيم، وإنما رأوا عظم أجسامهم وشدة قوتهم ﴿وَقَالُوا﴾ اغتراراً بها ﴿مَنْ﴾ هو ﴿أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟ ثم ردّهم سبحانه ووبّخهم على اغترارهم بقوله: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا﴾ لم يعلموا أولئك المغرورون ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ القادر ﴿الَّذِي خَلَقَهُمْ﴾ وأعطاهم تلك القوة ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وأكثر منهم قدرة، إذ من الواضح أن قوة المخلوق من عطاء الخالق وكمال قوته وقدرته ﴿وَكَانُوا﴾ من غاية عتوّهم

واستكبارهم ﴿بَيِّنَاتًا﴾ المنزلة على الرسل، أو دلائل توحيدنا وقدرتنا ﴿يَجْحَدُونَ﴾ وينكرون عباداً ولجأجأ، فلما جمعوا بين التكبر والغرور وإنكار الآيات، صاروا مستحقين لعذاب الاستئصال ﴿فَأَرْسَلْنَا غَصْبًا﴾ غصباً ﴿عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ عقيماً ﴿صَرَصْرًا﴾ وبارداً كما عن الباقرة <sup>١</sup>، لها صوت شديد هائل في هبوبها ﴿فِي أَيَّامٍ﴾ وليالٍ ﴿تَجَسَّاتٍ﴾ ومشروبات، ليس فيها خير - على ما قيل - من صبيحة الأربعاء لثمان يقين من شوال إلى غروب الأربعاء، الذي كان آخر الشهر <sup>٢</sup>. قيل: ما عَذَّب قوم إلا في الأربعاء <sup>٣</sup>.

قيل: أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين، ودامت عليهم الرياح من غير مطر <sup>٤</sup>. عن جابر بن عبد الله: إذا أراد الله ب قوم خيراً أرسل عليهم المطر، وحبس عنهم كثرة الرياح، وإذا أراد الله ب قوم شراً حبس عنهم المطر، وسلط عليهم كثرة الرياح <sup>٥</sup>. وعلى أي حال كان إرسال الريح عليهم ﴿لِنَذِيقَهُمْ﴾ الله بها ﴿عَذَابٍ﴾ الاستئصال الذي كان سبب ﴿الْخِزْيِ﴾ والدَّلَّ لهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قبل عذاب الآخرة ﴿وَوَ اللَّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ الذي أعد لهم في القيامة ﴿أَخْزَى﴾ وأكثر إذلالاً لهم وافتضاحاً حال كونه في مشهد خلق الأولين والآخرين ﴿وَهُمْ﴾ حين ابتلائهم لا يعاونون على دفعه و ﴿لَا يَنْصُرُونَ﴾ من أحدٍ بوجهٍ من الوجوه، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وإنما عَذَّبهم الله بالريح لأنهم اغتروا بعظم أجسادهم وشدة قوتهم، حتى ظنوا أن شيئاً لا يقاومهم، فسلط الله عليهم الريح، لينبئهم أنهم لا يقاومون الريح التي هي أخف وألطف من سائر الأشياء، فكيف بأجسامٍ هي أثقل وأقوى منها؟ فصارت تلك الأجسام العظيمة كريشة طير أو تين في الهواء. روي أن النبي ﷺ كان يجثو على ركبتيه عند هبوب الرياح، ويقول: «اللهم اجعلها رحمةً ولا تجعلها عذاباً، اللهم اجعلها لنا رياحاً ولا تجعلها ريحاً» <sup>٦</sup>.

أقول: الظاهر أن (الرياح) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ﴾ <sup>٧</sup> وإلى قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ <sup>٨</sup> و﴿يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ مَبَشِّرَاتٍ﴾ <sup>٩</sup> وقوله: ﴿رِيحًا﴾ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ إلى الحق وإلى طريق الجنة والراحة الأبدية، بارسال الرسول ونصب

١. تفسير القمي ٢: ٢٦٣، تفسير الصافي ٤: ٣٥٥. ٢. تفسير روح البيان ٨: ٢٤٤.

٣. تفسير البيضاوي ٢: ٣٥١، تفسير أبي السعود ٨: ٩، تفسير روح البيان ٨: ٢٤٤.

٤ و ٥. تفسير روح البيان ٨: ٢٤٤. ٦. تفسير روح البيان ٨: ٢٤٥.

٧. الحجر: ٢٢/١٥. ٨. الفرقان: ٤٨/٢٥. ٩. الروم: ٤٦/٣٠.

الدلائل عليه ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى﴾ والضلال وعدم البصيرة، وآثروه ﴿عَلَى الْهُدَى﴾ والبصيرة، واختاروا الكفر ورجحوه على الايمان.

عن الصادق عليه السلام: «عرفناهم فاستحبوا العمى على الهدى وهم يعرفون»<sup>١</sup>.

وعنه عليه السلام: «عرفناهم وجوب الطاعة، وتحريم المعاصي، وهم يعرفون»<sup>٢</sup>.

﴿فَأَخَذْتَهُمْ﴾ عقوبتنا على كفرهم وطغيانهم ﴿صَاعِقَةُ الْعَذَابِ﴾ والداهية التي هي في إفادتها لهوانهم بلغت إلى مرتبة يصح أن يقال هي عين ﴿الْهُونِ﴾ والذل، وذلك الأخذ معلل ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ويعملون من ترجيح الضلالة على الهدى، واختيار الكفر والعصيان على الايمان والطاعة ﴿وَنَجِّنَا﴾ من ذلك العذاب ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وبرسوله صالح ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الشرك والعصيان.

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ \* حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ \* وَقَالُوا لِمَ لُجُودُهُمْ لَمْ شَهِدَتْ عَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [١٩ و ٢١]

ثم إنه تعالى بعد حكاية عذابهم الدنيوي، أخبر عن عذابهم الآخروي بقوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ﴾ والتقدير واذكر يا محمد لقومك يوم يحشر ويجمع الأقسام المذكورون الذين هم ﴿أَعْدَاءُ اللَّهِ﴾ ويساقون ﴿إِلَى﴾ شفير ﴿النَّارِ﴾ وباب من أبواب جهنم ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ويحسبون في الطريق ليتلاحقوا.

عن الباقر عليه السلام: «يُحْبَسُ أَوَّلُهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ لِيَتَلَحَّقُوا»<sup>٣</sup> فهم كذلك ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا﴾ حضروا النار، و ﴿جَاءُوهَا﴾ أنكروا صدور الأعمال القبيحة منهم، واستحقاقهم النار، فعند ذلك ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ﴾ على رؤوس الأشهاد ﴿سَمْعُهُمْ﴾ وأذنهم بما سمعت من الأقوال والأصوات المحرمة ﴿وَأَبْصَارُهُمْ﴾ بما بصرت من المحرمات ﴿وَجُلُودُهُمْ﴾ وقشور أبدانهم بما لامست من المحرمات و ﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ من الجرائم والشروع.

قيل: إن المراد بالجلود سائر الجوارح والأعضاء<sup>٤</sup>، فتخبر كل جارحة بما صدر من الأعمال السيئة

١. التوحيد: ٤/٤١١، تفسير الصافي: ٣٥٥.

٢. تفسير الصافي: ٤/٣٥٦، مجمع البيان: ٩/١٢، وتفسير أبي السعود: ٨/٩، لم ينسأه إلى أحد.

٣. تفسير روح البيان: ٨/٢٤٧.

٤. اعتقادات الصدوق: تفسير الصافي: ٤/٣٥٥.

من صاحبها زوي أن النبي ﷺ ضحك يوماً حتى بدت نواجذه، ثم قال ﷺ: «ألا تسألون من ضحك؟» قالوا: من ضحك يا رسول الله؟ قال ﷺ: «عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، قال: يقول: يا رب، أليس قد وعدتني أن لا تطعمني؟ قال: فإن لك ذلك. قال: فإني لا أقبل شاهداً إلا من نفسي. قال الله تعالى: أو ليس كفى بي شهيداً، أو بالملائكة الكرام الكاتبين؟ فيقول: أي رب، أجرني من الظلم، فلن أقبل شاهداً إلا من نفسي. فيختم على فيه، وتكلم الأركان بما [كان] يعمل، قال: فيقول: بعداً لكنّ وشحقاً عنك، كنت أجادل»<sup>١</sup>. وقد مرّ ما يقرب منه في سورة يس.

عن القمي: نزلت في قوم تعرض عليهم أعمالهم فينكرونها، ويقولون: ما عملنا شيئاً منها فأشهد عليهم الملائكة الذين كتبوا عليهم أعمالهم، قال: قال الصادق عليه السلام: «فيقولون لله: يا رب، هؤلاء ملائكتك يشهدون لك. ثم يخلفون الله ما فعلوا من ذلك شيئاً - إلى أن قال - فعند ذلك يختم الله على ألسنتهم، ويطلق جوارحهم، فيشهد السمع بما سمع ممّا حرم الله، ويشهد البصر بما نظر به إلى ما حرم الله عز وجل، وتشهد اليدان بما أخذتا، وتشهد الرجلان بما سعتا فيما حرم الله عز وجل، ويشهد الفرج بما ارتكب ممّا حرم الله»<sup>٢</sup> الخبر.

«وَقَالُوا» توبيخاً «لِجَلُودِهِمْ» وأعضائهم، أو خصوص قشورهم: أيها الجلود «لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا» مع أننا كنا نُدافع عنكم؟ قيل: إن تخصيص الجلود بالتوبيخ، لكونها بمرأى منه، أو أبعد من الشهادة، لعدم كون شأن الإدراك اللازم في الشهادة، وهو الإدراك بالرؤية والسمع<sup>٣</sup>.

أقول: فيه ما فيه.

وعن ابن عباس: المراد بشهادة الجلود شهادة الفروج، لأنها لا تخلو من الجلود، والله حيّ يكتفي<sup>٤</sup>. وعن الصدوق، عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «يعني بالجلود الفروج»<sup>٥</sup>.

وعن الصادق عليه السلام «يعني بالجلود الفروج والأفخاذ»<sup>٦</sup>.

وإنما خصّ الأعضاء الثلاثة بالشهادة بناءً على إرادة القشور أو الفروج من الجلود، لكون المعاصي الصادرة بها أكبر وأعظم من المعاصي الصادرة بالشم والذوق، بل ما يُصدر بالذوق داخل في معاصي الجلود.

«وَقَالُوا» لأصحابهم بيانٍ لانتقائهم، كما أن لكل شيء نطاقاً وبياناً مناسباً لشأنه: «أُتِّقْنَا اللَّهَ الَّذِي

٢. تفسير القمي ٢: ٢٦٤، تفسير الصافي ٤: ٣٥٦.

١. تفسير روح البيان ٨: ٢٤٨.

٤. تفسير الرازي ٢٧: ١١٦، تفسير روح البيان ٨: ٢٤٨.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٢٤٨.

٥. من لا يحضره الفقيه ٢: ٣٨١/١٦٢٧، تفسير الصافي ٤: ٣٥٦.

٦. الكافي ٢: ١٣٠، تفسير الصافي ٤: ٣٥٦.

أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ بِتَسْبِيحِهِ وَغَيْرِهِ، فَمَعَ قَدَرْتَنَا عَلَى النُّطْقِ، لَمْ يَكُنْ لَنَا أَنْ نَكْتُمَ الشَّهَادَةَ عِنْدَ اللَّهِ بِمَا عَمَلْتُمْ بِوَاسِطَتِنَا مِنَ الْقَبَائِحِ ﴿وَهُوَ﴾ الْقَادِرُ الَّذِي ﴿خَلَقَكُمْ﴾ وَأَوْجَدَكُمْ ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بَعْدَ خُرُوجِكُمْ مِنْهَا ﴿تَرْجِعُونَ﴾ فَكَيْفَ يُسْتَبَعَدُ مِنْهُ إِنْطَاقُ جَوَارِحِكُمْ وَأَعْضَانِكُمْ. وَقِيلَ: إِنَّهُ ابْتَدَأَ كَلَامَ اللَّهِ لَا كَلَامَ الْجُلُودِ<sup>١</sup>.

وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَشِيرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ \* وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ \* فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ \* وَفَضَّلْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَرَّقْنَاهُ لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ [٢٥-٢٢]

ثُمَّ قَرَّرَ سَبْحَانَهُ كَلَامَ الْجُلُودِ بِتَوْبِيخِ أَعْدَائِهِ وَتَقْرِيعِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿تَسْتَشِيرُونَ﴾ أَعْمَالَكُمْ مَخَافَةً ﴿أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ﴾ فِي هَذَا الْيَوْمِ ﴿سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ عَلَى قَبَائِحِ أَعْمَالِكُمْ عِنْدَ اللَّهِ، لَعَدَمِ اعْتِقَادِكُمْ بِالْبَعْثِ وَجِزَاءِ الْأَعْمَالِ، وَعَدَمِ تَصَوُّرِكُمْ إِمْكَانَ شَهَادَتِهَا عَلَيْكُمْ ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ﴾ وَتَوَهَّمْتُمْ حِينَ اسْتَارَكُمْ ﴿أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الْقَبَائِحِ خُفِيَةً وَسِرًّا، فَلَا يُؤَاخِذُكُمْ بِهَا فِي الْآخِرَةِ عَلَى تَقْدِيرِ وَقُوعِهَا وَفَرْضِ إِمْكَانِهَا، وَلِذَلِكَ أَجْتَرَأْتُ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ خُفِيَةً.

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: كُنْتُ مُسْتَرًّا بِاسْتَارِ الْكَعْبَةِ، فَدَخَلَ ثَلَاثَةٌ نَفَرٍ: ثَقْفِيَانِ وَقُرَشِيٌّ، أَوْ قُرَشِيَانِ وَتَقْفِيٌّ، كَثِيرٌ شَحْمٌ بَطُونُهُمْ، قَلِيلٌ فَقَهُ قُلُوبُهُمْ. فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَتَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ؟ قَالَ الْآخَرُ: يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا، وَلَا يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا. فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَشِيرُونَ﴾ الْآيَةَ<sup>٢</sup>.

﴿وَذَلِكُمْ﴾ الظَّنُّ يَا أَعْدَاءَ اللَّهِ ﴿ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ﴾ الْمَحِيطُ بِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ الْخُفِيَّةِ وَالْجَلِيَّةِ ﴿أَرَدَاكُمْ﴾ وَأَهْلَكَكُمْ ﴿فَأَصْبَحْتُمْ﴾ وَصِرْتُمْ بِسَبِيهِ ﴿مِنْ﴾ جَمَلَةٍ ﴿الْخَاسِرِينَ﴾ وَالْمُتَضَرِّرِينَ بِأَعْظَمِ الضَّرَرِ فِي الْآخِرَةِ، حَيْثُ ضَيَعُوا أَعْمَارَهُمْ وَعَقُولَهُمْ وَجَوَارِحَهُمُ الَّتِي سَبَّبَا

١. تفسير روح البيان ٨: ٢٤٨.

٢. تفسير الرازي ٢٧: ١١٧، تفسير أبي السعود ٨: ١٠، تفسير روح البيان ٨: ٢٤٩.

لتحصيل سعادة الدارين، وحصلوا بها شقاوة النشأتين ﴿فَإِنْ يَصْضِرُوا﴾ على ألم النار، ولم يَجْزَعُوا، ولم يستغيثوا إلى أحدٍ برجاء الفرج ﴿فَالْتَأَزُّ﴾ الموقدة ﴿مَثْوًى﴾ ومأوى ﴿لَهُمْ﴾ أبداً ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ ويطلبوا رضا ربهم ويسألوا منه النجاة ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُغْثِينَ﴾ والمُجَابِينَ إلى مسؤولهم، فيكون صبرهم وجزعهم سواء، لا يفيد شيء منهما خلاصهم من النار ونجاتهم من العذاب.

ثم إنه تعالى بين سبب ابتلائهم بالكفر بقوله: ﴿وَقَيَّضْنَا﴾ وقدرنا ﴿لَهُمْ﴾ في الدنيا ﴿قُرْنَاءَ﴾ وأصدقاء من شياطين الإنس والجن بأن خَلَيْنَا بينهم وبين هؤلاء المعاندين، وسلبنا عنهم التوفيق ﴿فَزَيَّنُوا﴾ هؤلاء الشياطين القُرْنَاءَ ﴿لَهُمْ﴾ وحسنوا في نظرهم ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمور الدنيا ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمور الآخرة، بأن أروهم أن لا بعث ولا حساب.

وقيل: لما كان كل أحد مقبلاً إلى الآخرة، كان ما بين أيديهم أمور الآخرة، وما خلفهم نسيان الذنوب<sup>١</sup>.

﴿وَحَقٌّ﴾ وثبت ﴿عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ والوعد بالعذاب ﴿فِي أُمِّهِمْ﴾ وقرون ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت من الدنيا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ﴾ على الكفر والطغيان.

ثم لما ذكر سبحانه أن الظالمين بالله ظنّ السوء من جملة الخاسرين، وفي زمرة الامم الماضية المهلكة، قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ الذين أولئك الظالمون من جملتهم وفي زمرتهم.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ \* فَلَنذِيقَنَ  
الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ \* ذَلِكَ جَزَاءُ  
أَعْدَاءِ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ \* وَقَالَ  
الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْمَلُهُمَا تَحْتَ  
أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ [٢٦ - ٢٩]

ثم إنه تعالى بعد بيان سوء عاقبة أعدائه، وشدة عذابهم في الآخرة، بين شدة عداوة قريش لله ولرسوله، وسعيهم في صرف الناس عن استماع القرآن والايمان به بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من رؤساء المشركين لأتباعهم وضِعْفَانِهِمْ، أو بعضهم لبعض: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ إذا قرأ به محمد أو أحد من المؤمنين به ﴿وَالْغَوَا فِيهِ﴾ واشتغلوا حين قراءته بالأباطيل كَقَصص رُستم وإسفنديار، والتصفيق والصَّفير والرقص، على ما قيل<sup>٢</sup> ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بهذه الأفعال والأقوال ﴿تَعْلَمُونَ﴾ على قراءته،



فلا يتمكن القارئ من القراءة، ولا المستمع من الاستماع، لتشتت حواسهم والتشويش والتلبس عليهم.

ثم هددهم سبحانه بقوله: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ هُؤْلَاءَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وسعوا في تلبس الحق بالباطل، ولغوا في القرآن ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ لا يُقَادَرُ قدره، ولا يُحْمَكُن في هذا العالم وصفه ﴿وَوَاللَّهِ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ﴾ الجزء ﴿الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

عن ابن عباس: عذاباً شديداً يوم بدر، واسوأ الذي كانوا يعملون في الآخرة<sup>١</sup>.  
 ﴿ذَلِكَ﴾ الجزء الأسوأ هو ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ وهي ﴿النَّارُ﴾ وقيل: إن النار مبتدأ وخبره قوله: ﴿لَهُمْ﴾، وعلى الوجه الأول من كون النار بياناً للجزاء، يكون المعنى ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ ومنزل الإقامة الأبدية<sup>٢</sup>.

وقيل: إن المراد أن لهم في النار المشتملة على الدرجات داراً مخصوصةً يُخْلَدُونَ فيها<sup>٣</sup>، أو اسمها دار الخلد.

ثم تبه سبحانه على أن ذلك الجزاء هو مقتضى العدل بقوله: ﴿جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة تصديقاً لرسالة النبي ﷺ وهداية إلى الدين الحق ﴿يَجْحَدُونَ﴾ ويلغون فيها بسبب جحودهم بإياها. قيل: إن التقدير يُعْزَوْنَ جزاء<sup>٤</sup>، ويُحْتَمَل كون (جزاء) مفعولاً لأجله، والمعنى أن الخلود في النار لأجل كونه جزاءً بعوض جحودهم الآيات ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حين دخولهم في النار، وتقلبهم في العذاب ﴿رَبَّنَا أَرِنَا﴾ وعرفنا الشياطين ﴿الَّذِينَ أَضَلَّانَا﴾ وحرفانا عن صراط دينك ﴿مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ بالتسويل والتزيين.

وقيل: إن المراد من الإنس قابيل الذي سنَّ القتل ظلماً، ومن الجنَّ الشيطان الذي سنَّ الكفر<sup>٥</sup>.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «يعنون إبليس الأبالسة، وقابيل بن آدم أول من أبدع المعصية»<sup>٦</sup>.

وعن السجاد عليه السلام: «تأويل الإنس بفلان»<sup>٧</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: «تأويلهما بهما»<sup>٨</sup>.

١. تفسير أبي السعود ٨: ١٢، تفسير روح البيان ٨: ٢٥٢.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٢٥٢.

٣. تفسير أبي السعود ٨: ١٢، تفسير روح البيان ٨: ٢٥٣.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٢٥٣.

٥. تفسير نور الثقلين ج ٤: ٥٤٥.

٦. مجمع البيان ٩: ١٧، تفسير الصافي ٤: ٣٥٨.

٨. الكافي ٨: ٣٣٤/٥٢٣، تفسير الصافي ٤: ٣٥٨، وفيهما: قال: هما، ثم قال: فلان شيطاناً.

﴿نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ ندوسهما<sup>١</sup> بها ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ والأذلين أو الأنزلين من مكاناً، والأشدّين من عذاباً، تشفياً منهما بذلك، أو نجعلها في الدرك الأسفل من النار.

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ [٣٠]

ثم لما بالغ سبحانه في وعيد أعدائه والمشرّكين، وأطنب في تهديدهم، بيّن لطفه بالموحدين وإحسانه لبواباته المؤمنين بقوله: ﴿إِنَّ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ بالسّتهم وقلوبهم: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ وحده لا شريك له في ألوهيته وربوبيته ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ على التوحيد، وثبتوا على ذلك الاعتقاد والقول، لم يزل قدمهم عن صراط عبوديته، وأخلصوا دينهم له، وأعرضوا عمّا سواه، وعملوا بمقتضاه من اجتناب الكبائر، وأداء الفرائض إلى أن خرجوا من الدنيا.

عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «إني متكلم بعدة الله وحجّته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ الآية». ثم قال: «فاستقيموا على كتابه، وعلى منهاج أمره، وعلى الطريقة الصالحة من عبادته، لا تمزقون منها، ولا تبدعون فيها، ولا تتخلّفون عنها»<sup>٢</sup>.

وعن القمي: استقاموا على ولاية أمير المؤمنين عليه السلام<sup>٣</sup>.

وعن الرضا عليه السلام، أنه سئل ما الاستقامة؟ قال: «هي والله ما أنتم عليه»<sup>٤</sup>.

﴿تَتَنَزَّلُ﴾ من قبل الله ﴿عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ عند الموت - كما عن القمي<sup>٥</sup> - بالبشارة، وهي ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ أيها الموحّدون من إصابة مكروه بعد الموت وبعد اليوم ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما فاتكم من نعم الدنيا ومفارقة ما خلّفتم من الأهل والأولاد والأحبّة ﴿وَأَبْشِرُوا﴾ وافرحوا ﴿بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تُوعَدُونَ﴾ بها على إيمانكم وأعمالكم الصالحة في كتاب الله وعلى لسان رسوله.

عن العسكري عليه السلام - في حديث يذكر حضور ملك الموت عند المؤمن حين نزعه - قال: «فيقول ملك الموت: فانظر فوقك، فينظر فيرى درجات الجنان وقصورها التي تقصّر عندها الأمانى، فيقول ملك الموت: تلك منازلك ونعمتك وأموالك وأهلك وعيالك، ومن كان من أهلك هاهنا ودّريتك صالحاً فهم هنالك معك، أفترضى بهم بدلاً ممّا هاهنا؟ فيقول: بلى والله. ثم يقول: انظر فينظر فيرى محمداً وعلياً صلوات الله عليهما والطيبين من آلهما في أعلى عليين. فيقول: أتراهم هؤلاء ساداتك

١. في النسخة: ندوسهما. ٢. نهج البلاغة: ١٧٦/٢٥٣، تفسير الصافي ٤: ٣٥٨.

٣. تفسير القمي ٢: ٢٦٥، تفسير الصافي ٤: ٣٥٨. ٤. مجمع البيان ٩: ١٧، تفسير الصافي ٤: ٣٥٩.

٥. تفسير القمي ٢: ٢٦٥، تفسير الصافي ٤: ٣٥٨.

وَأَنْتُمْ؟ هُمْ هَٰئِلِكٌ خَلَّاسُكَ وَأَنْتَاسُكَ، أَمَا تَرْضَىٰ بِهِمْ بَدَلًا مِّمَّا تَفَارِقُ هُنَا. فيقول: بلى وربّي، فذلك ما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ فما أمامكم من الأهوال قد كفيتموها ولا تحزنوا على ما تخلفونه من الذراري والعيال، فهذا الذي شاهدتموه في الجنان بدلًا منهم ﴿وَأُبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ هذه منازلكم، وهؤلاء ساداتكم وأناسكم وجلاسكم<sup>١</sup>.

وقيل: إنّ البشارة في المواقف الثلاثة عند الموت، وفي القبر، وعند البعث إلى القيامة<sup>٢</sup>.

نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ  
وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ \* نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ \* وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى  
اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣١-٣٣)

ثمّ لما أخبر سبحانه عن كون شياطين الإنس والجنّ قرناء الكفّار والمشرّكين، بشّر بأنّ الملائكة أولياء الموحّدين المؤمنين، حيث حكى عن الملائكة أنّهم يقولون للمؤمن: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ﴾ وأصدقائكم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ومدة أعماركم فيها، وأعوانكم في أمور دينكم، بالهامكم الحقّ وإرشادكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم، ويحفظكم من الزّلات بدل وساوس الشياطين وتسويلاتهم في قلوب الكفّار وإضلالهم بإيهم.

روى بعض العامة عن الصادق عليه السلام أنّه قال: من لاحظ في أعماله الثواب والأغراض، كانت الملائكة أولياءه، ومن عمّلها على مشاهدته تعالى فهو وليّه لأنّه يقول: ﴿الله وليّ الذين آمنوا﴾<sup>٣</sup>.

﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بتبشيركم بالجنّة، وشفاعتكم، وتلقّيكم بالسلام والتّحية والإكرام، وهدايتكم إلى الجنّة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ من النّعم الجسمانية ﴿مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ وتلذّد أعينكم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ من الخطّوط الروحانية ﴿مَا تَدْعُونَ﴾ وما تتمنّون، كما عن ابن عباس<sup>٤</sup>. وفي تكرار ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ وعدم الاقتصار بعطف (ما تدعون) على (ما تشهّي) إيذانًا باستقلال كلّ منهما بالبشارة حال كونهما ﴿نُزُلًا﴾ ورزقًا مهينًا للضيف ﴿مِنْ﴾ قبل إله ﴿غُفُورٍ﴾ للذنوب، ومبدّل للسيئات بالحسنات ﴿رَحِيمٍ﴾ بالمؤمنين الصالحين باعلاء درجاتهم، وفنون إكراماتهم، وفي التعبير - كما ذكر - بالنّزل وتقديمه

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ١١٧/٢٣٩، تفسير الصافي ٤: ٣٦٠.

٢. تفسير الرازي ٢٧: ١٢٢، تفسير روح البيان ٨: ٢٥٥.

٤. تفسير الرازي ٢٧: ١٢٣.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٢٥٦.

الضيف، دلالة على أن ما أعد لهم بعد ذلك من عظام الأمور بالنسبة إلى ما ذكر أكثر بمراتب<sup>١</sup>.  
ثم لما حكى سبحانه الأقوال السيئة عن الكفار، كقولهم: ﴿قُلُونَا فِي أَكْثَةٍ ... وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ<sup>٢</sup>﴾  
وقولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ<sup>٣</sup>﴾ أخبر بأن أقوال المسلمين أحسن الأقوال بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ  
قَوْلًا مِنْ أَطِيبَ كَلَامًا<sup>٤</sup>﴾ ﴿يَمَنْ دَعَا النَّاسَ<sup>٥</sup>﴾ ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وإلى توحيده، ومعرفة صفاته الكمالية،  
وطاعته وعبادته ﴿وَعَمِلَ﴾ نفسه عملاً ﴿صَالِحًا﴾ فَإِنَّ أَكْثَرَ الطَّاعَاتِ دَعْوَةُ الْخَلْقِ إِلَى الْحَقِّ، مع  
كون عمله موافقاً لقوله، واختار دين الاسلام الذي هو الدين المرضي عند الله ﴿وَقَالَ﴾ ابتهاجاً به:  
﴿إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

قيل: إن المراد من الداعي إلى الله رسول الله ﷺ. وقيل: هم المؤذنون<sup>٦</sup>، قيل: كان بلال يؤذن  
ويقول اليهود: غراب أسود يدعو إلى الصلاة فنزلت الآية<sup>٧</sup>.  
وعن العياشي: أنها في علي عليه السلام<sup>٨</sup>. وقيل: إن المراد هو العموم<sup>٩</sup>.  
أقول: من المعلوم أن أكمل مصاديق الداعي هو النبي والوصي صلوات الله عليهما والكمثلون من  
أصحابهما.

### وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ [٣٤]

ثم رغب سبحانه نبيه ﷺ في الدعوة إلى الحق بعد بيان كونها أحسن الأقوال بقوله: ﴿وَلَا  
تَسْتَوِ﴾ الأقوال ﴿الْحَسَنَةُ﴾ التي منها دعوتك إلى الدين الحق، والصبر على أذى قومك ﴿وَلَا﴾  
الأقوال ﴿السَّيِّئَةُ﴾ والتي منها الصادرة من المشركين المعاندين للحق، كقولهم: ﴿قُلُونَا فِي أَكْثَةٍ﴾  
ونظائره في الجزاء والعاقبة، فإن أقوالك الحسنة موجبة لعظمتك في الدنيا وعُلُوَّ درجاتك في  
الآخرة، والأقوال السيئة من أعدائك موجبة لانحطاطهم وعقوبتهم في الدارين، فلا تَفْتَرِكْ سِيئَاتِ  
أقوالهم وأعمالهم في اجتihadك في الدعوة، بل عليك بالجد والصبر على أذاهم و﴿ادْفَعْ﴾ سيئتهم  
التي اعترضتك ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ والطرق في دفعها، وهي الفرق والمُداراة ومقابلة إساءتهم

٣. فصلت: ٤١/٢٦.

٥. فصلت: ٤١/٥.

١. تفسير روح البيان ٨: ٢٥٧.

٤. تفسير الرازي ٢٧: ١٢٥، تفسير روح البيان ٨: ٢٥٧.

٥. تفسير الرازي ٢٧: ١٢٥، تفسير أبي السعود ٨: ١٤، تفسير روح البيان ٨: ٢٥٧، وفي النسخة: هو المؤذنون.

٦. تفسير روح البيان ٨: ٢٥٩.

٧. تفسير الصافي ٤: ٣٦١.

٨. تفسير أبي السعود ٨: ١٤.

بالاحسان، وسفاهتهم وسوء صنيعهم بالصبر والجلم وحسن البشر ولين الكلام ﴿فَإِذَا﴾ قابلت إساءتهم بالاحسان، وخرقهم بالرفق، وسفاهتهم بالجلم، وفعالهم القبيحة بالأفعال الحسنة، يستحي منك العدو، ويترك أفعاله القبيحة، وانقلب من البغضة إلى المحبة، ويصير ﴿الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ﴾ كأبي سفيان وأضرابه ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ وصديق قريب.

روى بعض العامة أنها نزلت في أبي سفيان، وذلك أنه لأن للمسلمين بعد الشدة بالمصاهرة التي حصلت بينه وبين النبي ﷺ، ثم أسلم فصار ولياً بالاسلام، حميماً بالقرابة<sup>١</sup>.  
عن الصادق عليه السلام - في الآية - قال: «الحسنة التقية، والسيئة الإذاعة»<sup>٢</sup> الخبر.

وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ \* وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نُرْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ \* وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ [٣٥-٣٧]

ثم عظم سبحانه تلك السجية بقوله: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا﴾ ولا ينالها ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على المكاره والشدائد، وحسبوا أنفسهم عن إظهار الغضب، ولا يعطى تلك الخصلة والسجية، أو خصلة الصبر ﴿وَمَا يُلْقَاهَا﴾ من قبل الله ﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ من كمال النفس وحسن الأخلاق وفضائل الانسانية، أو ذو حظ عظيم من المثوبات الآخروية، أو من الجميع.  
عن الصادق عليه السلام: «﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ في الدنيا على الأذى<sup>٣</sup> ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ من الخير وكمال النفس».

ثم لما كان الغضب والخرق من الشيطان، ذكر سبحانه طريق دفعه بقوله: ﴿وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ وَيُهْجَنِكَ إِلَى مَقَابِلَةِ الْأَسَاءَةِ بِالْإِسَاءَةِ، وَالْإِقْدَامِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ﴾ من قبل ﴿الشَّيْطَانِ﴾ الموسوس ﴿نُرْعٌ﴾ ومهيج ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من شره ووسوسته، واسأل الله حفظك من تسويلاته ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى وحده ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك، والمجيب لدعائك ﴿الْعَلِيمُ﴾ بخلوص نيتك، وصميمية دعائك.  
القمي، قال: المخاطبة لرسول الله ﷺ، والمعنى للناس<sup>٤</sup>.

١. تفسير أبي السعود ٨: ١٤، تفسير روح البيان ٨: ٢٦٢.

٢. الكافي ٢: ١٧٣/٦، مجمع البيان ٩: ٢٠، تفسير الصافي ٤: ٣٦١.

٣. مجمع البيان ٩: ٢٠، تفسير الصافي ٤: ٣٦١. ٤. تفسير روح البيان ٨: ٢٦٥.

عن النبي ﷺ، قال: «إِذَا غَضِبْتَ وَكُنْتَ قَانِمًا فاقْعُدْ، وَإِنْ كُنْتَ قَاعِدًا فَقُمْ، وَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ»<sup>١</sup>.

ثم لما مدح سبحانه الدعوة إلى الله وإلى توحيده، شرع في بيان أدلة توحيده وقدرته وحكمته بقوله: ﴿وَمِنْ آدِلَةِ تَوْحِيدِهِ﴾ و﴿آيَاتِهِ﴾ الدالة على قدرته وحكمته ﴿الَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ وتعاقبهما، وقد مرَّ نكتة تقديم الليل.

ثم لما كان جمع من المشركين عبدة الشمس والقمر، ذكرهما لمناسبة الليل والنهار بقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ دابان بأمره، ثم نهى عن عبادتهما بقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا﴾ أيها الناس ﴿لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ لأنهما حادثان مربوبان مسخران تحت أمر خالقهما ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الْقَادِرِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ بقدرته لنظام العالم ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِالْسُّجُودِ لِهَذَا اللَّهِ تَسْجُدُونَ﴾ و﴿إِيَّاهُ تُعْبُدُونَ﴾ فإن السجود خضوع خاص بمقام الربوبية والألوهية، لا يجوز لغير الله.

قيل: إن الصائين كانوا يسجدون للثَّيرين<sup>٢</sup> ويقولون: إنا نسجد لها، ونقصده السجود لله، فنها عن عبادته بتلك الوسطة<sup>٣</sup>.

أقول: يمكن أن يقال: علّة سجودهم للثَّيران<sup>٤</sup> أول ابتداعه ذلك، إلا أنه انتهى الأمر إلى الاعتقاد بخالقيتهما.

فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ \*  
وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ  
الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [٣٨ و ٣٩]

ثم لما كان السجود لهما بهذا الاعتقاد من باب الاشتباه في المصداق، حيث إنهم كانوا يعتقدون أن مصداق الخالق هو الشمس مثلاً، والحال أنه هو الله، ففي الحقيقة كان سجودهم لله، فيكون المراد إن كنتم تعبدون الخالق الذي هو الله في الواقع، لا تسجدوا للشمس، بل اسجدوا لله الذي هو تكوّن الشمس من مخلوقاته ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا﴾ وتعظّموا عن عبادة الله الذي تقول بألوهيته، فإنه غني عن عبادتهم وسجودهم له ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة المقربين يعبدونه دائماً و﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ ويَنزّهونه عن الشريك ﴿وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ ولا يملّون عن عبادته وتسيبحه.

٢. الثَّيرين: الشمس والقمر.

٤. في النسخة: لينوان.

١. تفسير روح البيان ٨: ٢٦٥.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٢٦٦.

قيل: إن المراد إن استكبروا عن إطاعة أمرك، ولم يَسْجُدُوا لله، لا يَقِلْ بذلك عدد من يُخْلِصُ عبادته لله<sup>١</sup>، فإن الملائكة المقرَّبين مع كَثْرَتِهِمْ وقُرْبِهِمْ للشمس والقمر، يَعْبُدُونَ الله، وَيُسَبِّحُونَهُ دائماً، ولا يَسْجُدُونَ لهما.

ثم إنه تعالى بعد الاستدلال بالآيات الفلكية، استدلل بالآيات الأرضية بقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكُ﴾ أيها الإنسان الشاعر البصير ﴿تَرَى الْأَرْضَ﴾ قبل نزول المطر عليها ﴿خَاشِعَةً﴾ ومُحَطَّةً يابسة لا نبات فيها ولا بركة ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ بالأمطار ﴿أَفْهَرَّتْ﴾ وتحركت بالنبات والزُّرع ﴿وَوَرَّتْ﴾ وانتفخت بسبب انتشار أصول الحشائش والزرع فيها، فتكون كالملت التي تُفْخ في الروح فيحيي. ثم استدلل سبحانه على المعاد بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا﴾ بقدرته ﴿لَمْخِي الْمَوْتَى﴾ من الأولين والآخرين يوم البعث ﴿إِنَّهُ﴾ من الأشياء من الإبداء والاعادة ﴿قَدِيرٌ﴾ لا تناهي لقدرته.

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ \* إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ \* لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ \* مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ [٤٠-٤٣]

ثم لما ذكر سبحانه بعض آيات التوحيد، هدّد المجادلين فيها بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ ويحرفون عن سبيل الحق بالظن ﴿فِي آيَاتِنَا﴾ والقاء الشبهات فيها ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ ولا يُسْتَرُونَ منا، ولا يغيبون عنا، فنسوقهم يوم القيامة إلى النار، ونلقيهم فيها، إذن فانظروا أيها العقلاء ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى﴾ بالعنف ﴿فِي النَّارِ﴾ على وجهه ﴿خَيْرٌ﴾ مَالاً وأحسن حالاً ﴿أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا﴾ من كل مكروه ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ويدخل في جنة عدن، لاشك أن الثاني خير.

ثم بالغ في التهديد بقوله: ﴿اعْمَلُوا﴾ أيها الكفار ﴿مَا شِئْتُمْ﴾ من القبائح والفواحش، فأنكم لا تَخْرُجُونَ من سلطان الله، ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يعزب عنه مثقال ذرة من أعمالكم، فيجازيكم عليها أسوأ الجزاء، ولم يمنع استعجاله في العذاب إلا الحكمة، فإنها اقتضت إمهالكم، ولا يخاف القوت.

ثم بالغ سبحانه في تهديد الملحدين في آياته ازدياداً لإرعاب قلوبهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

بِالذِّكْرِ، والحدوا في القرآن ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ وحين قرئ عليهم من غير تفكير وتدبر فيه من وجوه الإعجاز، شيعذبون بكفرهم والحادهم أشد العذاب، وكيف يكفرون به ﴿وَ﴾ الحال ﴿إِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ وقاهرٌ بالحجة على سائر الكتب، ومهيمن عليه، أو كثير النفع لعامة الناس، أو بلا نظير وشبيه لعدم كون كتاب معجزاً إلا هو ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ﴾ ولا يتطرق إليه المعارض ﴿مِنْ﴾ الكتب التي ﴿يَبْنِي يَدْيَهُ﴾ ومن قبله ﴿وَلَا﴾ من الكتب والدفاتر التي ﴿مِنْ خَلْفِهِ﴾ ومن بعده، وإنما أطلق الباطل على المعارض، تنبيهاً على أن كل معارض له باطلٌ وفاسدٌ.

قيل: إن المراد بالباطل الذي بين يديه النقيصة، والذي من خلفه الزيادة<sup>١</sup>.

وقيل: إن المعنى لا يجد الباطل إليه سبيلاً من جهة من الجهات حتى يتصل به<sup>٢</sup>، فعبر عن جميع الجهات بأظهرها، وهو القدم والخلف، أو المراد لا يأتية الباطل فيما أخبر به عما مضى، ولا فيما أخبر به عما يأتي<sup>٣</sup>.

وعنها عليه السلام: «ليس في إخباره عما باطل، ولا في إخباره عما يكون في المستقبل باطل، بل أخباره كلها موافقه لمخبراتها»<sup>٤</sup> كل لأنه ﴿تَنْزِيلٌ﴾ وكتاب منزل ﴿مِنْ﴾ إليه ﴿حَكِيمٌ﴾ وعالم بحقائق الأمور ومصالح الأشياء، لا يفعل ولا يقول شيئاً إلا بالحكم الكثيرة، ولا ينزل كتاباً على من يشاء إلا بمصالح وفيرة ﴿حَمِيدٌ﴾ في أحكامه وأفعاله، محمود على نعمه الجسمانية والروحانية، التي منها هذا الكتاب العظيم.

روى بعض العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: ألا إنها ستكون فتنة. فقلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة ولا يشيع منه العلماء، ولا يخلق من كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنشئه الجن حتى قالوا: «إنا سمعنا قرأنا عجباً يهدي إلى الرشد فامنا به» من قال به صدق، ومن عبل به رشد، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم»<sup>٥</sup>.

ومن العجب أنه مع عظمة هذا القرآن، وظهور كونه معجزاً نازلاً إليك يا محمد ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ من

٢. تفسير الرازي ٢٧: ١٣٢، تفسير روح البيان ٨: ٢٧٠.

٤. مجمع البيان ٩: ٢٣، تفسير الصافي ٤: ٣٦٢.

١. تفسير الرازي ٢٧: ١٣١.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٢٧٠.

٥. تفسير روح البيان ٨: ٢٧٠.



جهة كُفَّار قومك في شأنك وشأن كتابك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ﴾ من جهة الأمم الماضية ﴿لِلرُّسُلِ﴾ العظام الذين كانوا ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ في حَتِّهِمْ من أَنَّهُمْ سَحَرَة، أو كَهَنَة، أو مجانين. وفي حَقِّ الكتب السماوية المنزلة عليهم من أَنها أساطير ونحوها.

وقيل: يعني ما يقال لك من قبل الله إلا ما قيل من قبله للرسل<sup>١</sup> من الأمر بالصبر على سفاهة القوم وأذاهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لأوليائه المؤمنين بك وبهم ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأعدائه الكافرين بك وبهم، المكذِّبين لكتابك وكتبهم، فاسع أنت يا حبيبي في التبليغ والدعوة إلى الحق، ثم فوض أمر الناس إلي، فإني أعاملهم على حسب استحقاقهم.

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَبِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ [٤٤]

ثم بين سبحانه قطع عُذر العرب في الايمان بالقرآن بقوله: ﴿وَلَوْ﴾ أنزلنا القرآن و﴿جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا﴾ وكتاباً ﴿أَعْجَبِيًّا﴾ ومنظماً بلغة العجم ﴿لَقَالُوا﴾ اعتراضاً عليك وتوبيخاً لك: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ﴾ وهلا بينت ﴿آيَاتُهُ﴾ بلسان نفهمه ﴿أ﴾ كلام، أو كتاب ﴿أَعْجَبِيٍّ﴾ يوتى إلينا ﴿و﴾ نحن قوم ﴿عَرَبِيٍّ﴾ لا نفهم شيئاً منه؟ وهذا من الغرائب الدالة على كذب كتابك.

ثم لما ذَكَرَ سبحانه أنه ليس لمشركي العرب الاعتذار من عدم إيمانهم بعدم فهمهم القرآن، وكونه بغير لسانهم، أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يبين لهم علّة عدم إيمانهم، وكون قلوبهم منصرفة عنه، وعدم سماعهم آياته، كما قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ... وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾<sup>٢</sup> بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿هُوَ لِلَّذِينَ﴾ لم يكن في قلوبهم تعصّب وعناد ولجاج و﴿آمَنُوا﴾ بالطوع والرغبة وطلباً للحق ﴿هُدًى﴾ من الضلال ورشاداً إلى الحق وجميع الخيرات الدنيوية والأخروية و﴿وَشَفَاءٌ﴾ من الأمراض الباطنية كالشك والأخلاق الرذيلة و﴿وَالَّذِينَ﴾ يستكبرون عن قبول الحق، ويصرون على تقليد الآباء والكبراء و﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عناداً ولجاجاً، كأنه ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ وثقل وصمم، لا يسمعون القرآن ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ وموجب لذهاب بصرهم وبصيرتهم، بحيث لا يرون ما فيه من الإعجاز، وما في الرسول من دلائل الصدق، كما قالوا: ﴿بيننا وبينك حجاب﴾<sup>٣</sup> بل ﴿أُولَٰئِكَ﴾ البعداء عن ساحة

رحمة الله وسعادة الدارين، إذا تليت عليهم الآيات، أو ذُكرت عندهم المواعظ والعبر، كأنهم ﴿يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ عنهم غايته، بحيث لا يكاد يُسْمَعُ منه الكلام، بل إِنَّمَا يُسْمَعُ النداء والصوت.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ \* مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ [٤٥ و ٤٦]

ثم لما كان عناد المشركين وإنكارهم صدق القرآن وطعنهم فيه سبباً لا يذأ قلب النبي ﷺ، سلاه سبحانه بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى﴾ بن عمران التوراة، وأنزلنا إليه ذلك ﴿الْكِتَابَ﴾ لهداية قومه ﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر، كما اختلف قومك في كتابك، فمنهم من صدقه، ومنهم من كذبه، فليس اختلاف قومك في صدق كتابك أمراً بديعاً مختصاً بقومك، بل هي عادة قديمة للأمم ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾ وعدة ﴿سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ في حق أمتك المكذبة بالإمهال وعدم استئصالهم بالعذاب في الدنيا بقوله: ﴿بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ﴾<sup>١</sup> وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾<sup>٢</sup> تالله ﴿لَقُضِيَ﴾ وحكم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ باستئصال المكذبين بالعذاب، كما فعل بمكذبي الأمم السابقة ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ ليسوا بقاطعين بكذب كتابك، بل هم والله ﴿لَفِي شَكٍّ﴾ من صدق كتابك وترديد ﴿مِنْهُ﴾ ترديد ﴿مُرِيبٍ﴾ وموقع قلبهم في الغلق والاضطراب، فلا تستعظم استيحاكك من تكذيبهم، واعلم أنه ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ من الإيمان بكتابك وتعظيمه، والتمسك به، والعمل بأحكامه ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ نفعه لا يتعدى إلى غيره ﴿وَمَنْ أَسَاءَ﴾ وأعرض عنه، وكفر به وطعن فيه ﴿فَعَلَيْهَا﴾ ضرره لا عليك ولا على أحدٍ غيره.

ثم قرر ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ بل هو العادل الذي لا يمكن منه الجور، فلا يُعَذَّبُ غير المسيء، ولا المسيء زائداً على استحقاقه، ولا يضيع أجر المحسنين، ولا يُنْقِصُ منه. قيل: من ظلم وعلم أنه ظلم فهو ظلام. وقيل: إن صيغة المبالغة باعتبار كثرة العبيد، لا باعتبار كثرة الظلم. وقيل: إن أصله: وما ربك بظالم، ثم ثقل مع نفيه إلى صيغة المبالغة، فكانت المبالغة راجعة إلى النفي، والمعنى أن الظلم منفي عنه نفيًا مؤكداً مضاعفاً<sup>٣</sup>.

إِلَيْهِ يَرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ  
وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ \*  
وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنَّوْا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ [٤٧ و ٤٨]

ثم لما هدّد سبحانه الكفّار بأنّ ضرر كفرهم راجع إليهم، كان مجال السؤال عن وقته، فأجاب سبحانه تعالى بقوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ تعالى وحده ﴿يُورِدُ عِلْمُ﴾ وقت عذابهم، وهو يوم ﴿السَّاعَةِ﴾ والقيامة. ثم بين سبحانه إحاطته بالحوادث المستقبلية في هذا العالم بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ﴾ ذات أكمام وقشور، أو أوعية ﴿مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ وأوعيتها أو قشورها العليا كالجوز واللوز ونظائرهما ﴿وَمَا تَحْمِلُ﴾ ولا تحبل ﴿مِنْ أُنْثَى﴾ من الانسان وسائر الحيوانات ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ حملها ﴿بِعِلْمِهِ﴾ ومقرّوناً بإحاطته، وإنّه إذا سئل أحدٌ عن<sup>٢</sup> هذه الأمور، لا بدّ له من ردّ علمه إلى الله، ويقول: الله يعلم، كما يردّ العلم بسائر الحوادث الكونية إليه، ولعلّ ذكر الجمل الثلاث من خُروج الأثمار والحمل والوضع لشباهتها بالبعث من القبور، فليس لأحدٍ أن يسأل عن وقت الساعة من<sup>٣</sup> أحدٍ، وله أن يسأل عنها بأهلها ﴿و﴾ هو ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ قيل: إنّ التقدير: واذكر يا محمد لقومك يوم يناديهم الله<sup>٤</sup>، توبيخاً لهم، ويقول: أيّها المشركون ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ الذين زعمتم فادعوهم ليخلصوكم اليوم من عذابي ﴿قَالُوا﴾ يا ربّ ﴿أَدْنَاكَ﴾ وأسمعناك، كما عن ابن عباس<sup>٥</sup> ﴿مَا﴾ من أحدٍ ﴿مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ يشهد بأنّ الأصنام شركاءك، إذ تبرأنا منهم لما عاينّا الحال، أو المراد ما منّا أحدٌ يشاهدهم، إذ ضلّوا عنّا، كما قال سبحانه: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ ويعبدونه ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وفي زمان حياتهم في الدنيا ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ وأيقنوا بأنّه ﴿مَا لَهُمْ﴾ في ذلك اليوم ﴿مِنْ مَّحِيصٍ﴾ ومهزّب من العذاب، ومخلّص من النار.

وقيل: إنّ قوله: ﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ كلام الأصنام، والمعنى ما منّا من شهيدٍ بصحة ما نسبوا إلينا من الشراكة، وعلى هذا يكون معنى ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أنّه لا ينفعهم<sup>٦</sup>، فيكون حضورهم غيبتهم.

لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوشَ قَنُوطٌ \* وَلَئِنْ أَدْنَاةَ  
رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ

١. في النسخة: الأعلى. ٢. في النسخة: من.

٣. في النسخة: عن.

٤. تفسير الرازي ٢٧: ١٣٦.

٥. نفسى روح البيان ٨: ٢٧٦.

٦. تفسير الرازي ٢٧: ١٣٧.

رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا  
وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ [٥٠ و ٤٩]

ثم لما بين سبحانه بأس المشركين في القيامة من الخلاص من العذاب، بين بأسهم في الدنيا من رحمة الله عند ابتلائهم بالضرر بقوله: ﴿لَا يَسْأَمُ﴾ ولا يمل ﴿الْإِنْسَانُ﴾ بالطبع والحيلة ﴿مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ وطلب النفع الدنيوي والأخروي ﴿وَ﴾ لكن ﴿إِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ وأصابه الضرر ﴿فَيَتَوَوَّسُ قَنُوطٌ﴾ ومبالغ في قطع الرجاء من الرحمة، بحيث تظهر آثار اليأس في وجهه وأعضائه.  
وحاصل المراد - والله أعلم - أن حال جنس الانسان وطبيعته دائر بين الجرح إلى الفوائد بحيث لا يقف على حدٍ كلما وجد طلب الزيادة، والقنوط الذي هو شدة اليأس.

ثم ذم سبحانه على سوء حاله ومقاله عند عود النعمة بقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَذْقَنَاءَهُ﴾ وأنعمنا عليه ﴿رَحْمَةً﴾ ونعمة كأنه ﴿مِنَّا﴾ وبتفضلنا كالصحة والغنى والأمن ونحوها ﴿مِنْ بَغْدِ ضَرَاءَ مَسْتَهَةٍ﴾ وبلية أصابته من فقرٍ ومرضٍ وخوفٍ وأمثالها ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ غروراً وجهلاً ﴿هَذَا﴾ الخير العائد إلى حق ﴿لِي﴾ وصل إلي بفضلٍ وعلمي لا يزول عني أبداً، فيشتغل بالنعمة عن المنعم، وجهل أنه عطاء من ربه ليلبوه أشكر أم يكفر، بل يبالغ في الكفر بقوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ﴾ أن ﴿السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ والقيامة آتية، كما يزعم المؤمنون بالمعاد ﴿وَلَكِنَّ رُجِعْتُ﴾ ورددت ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾ على تقدير قيامها وصحة قول القائلين بالمعاد ودار الجزاء، وتبعث من القبر للحساب عند الله ﴿إِنَّ لِي عِنْدَهُ﴾ والله ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾ والدرجة العليا من النعم والكرامة، لأن استحقاق النعم الدنيوية ملازم لاستحقاق النعم الأخروية مع كون قياس أمر الآخرة على أمر الدنيا من الأوهام الفاسدة والأمانى الكاذبة ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولتعلمهم يوم القيامة ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من الكفر والمعاصي بتجسم أعمالهم بالصور الواقعية التي تكون لها فينفر منها حتى يتمنى أن بينه وبينها أمداً بعيداً ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ﴾ ونطعمهم ﴿مِنْ﴾ طعم ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وعقابٍ شديدٍ لا يمكن وصفه، ولا يعرف كنهه، بدل ما توهّموه من أن لهم عند الله المثوبة الحسنى والكرامة العليا.

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ  
عَرِيضٍ \* قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي  
شِقَاقٍ بَعِيدٍ [٥١ و ٥٢]

ثم بعد حكاية أقواله السيئة، حكى سبحانه أفعاله الشنيعة بقوله: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا﴾ بنعمة ﴿عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ أبطرته و ﴿أَعْرَضَ﴾ عن الشكر، وكفر بتلك النعمة ﴿وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ وتباعد بكليته عن التوجه إلى منعمه تكبراً وتعظماً، وتولى بركنه عن طاعة ربه ﴿وَإِذَا مَسَّهُ﴾ وأصابه ﴿الشَّرُّ﴾ والضرر ﴿فَدُودُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ وتضرع طويلاً.

ثم بعد إثبات التوحيد، وحكاية إعراض المشركين عن القرآن ومجادلتهم، وتهديدهم بالعذاب، أمر سبحانه نبيه ﷺ بالترغيب إلى الإيمان بالقرآن بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين المعرضين عن القرآن ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ وأخبروني أيها العقلاء ﴿إِنْ كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ونازلاً منه، ثم أنتم ﴿كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ من غير نظرٍ وتدبرٍ مع وضوح كونه منه بأدنى نظر، أَلَسْتُمْ فِي شِقَاقٍ مِنْ اللَّهِ وَعِنَادٍ مَعَهُ؟ و ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ وأبعد من طريق الحق ﴿مِمَّنْ هُوَ﴾ كائن ﴿فِي شِقَاقٍ﴾ وخلاف ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الوفاق، ومعاداة بعيدة عن الموالاة.

سَتْرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ \* أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ [٥٣ و ٥٤]

ثم لما كان عمدة أسباب إعراض المشركين عن القرآن نهيهم عن الشرك، ودعوتهم إلى التوحيد، بين سبحانه أن جميع الموجودات أدلة التوحيد بقوله تعالى: ﴿سَتْرِيهِمْ آيَاتِنَا﴾ وأدلة توحيدنا أنا بعد أن مرة بعد أخرى بذكر أحوال الموجودات ﴿فِي الْآفَاقِ﴾ وأقطار السماوات والأرض، والتنبيه على ما فيها من عجائب الصنع ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ وعجائب خلقتهم وأحوالهم ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ﴾ ويوضح ﴿لَهُمْ﴾ توحيد خالقها، و ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ الذي لا يمكن للعاقل التردد فيه ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ ولم يُغْنِهِ عن إراءة الآيات أن يروا بفكرهم ﴿أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ وكل موجود من القبر القطمير ﴿شَهِيدٌ﴾ وناظر، يُدَبِّرُهُ كيف يشاء على وفق صلاحه، كما قيل: سبحانه من هو عند كل شيء وقبلة وبعده<sup>١</sup>. وروي أنه ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله وبعده ومعه<sup>٢</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: «العبودية جوهره كنهها الربوبية، فما فُقد من العبودية وُجد في الربوبية، وما خفي عن الربوبية أُصِيب في العبودية». قال الله: ﴿سَتْرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ إلى قوله: ﴿شَهِيدٌ﴾ أي موجود في غيبتك وحضرتك<sup>٣</sup>.

أقول: يُحتمل أن يكون المراد أنه يعرف حقيقة الربوبية بمعرفة العبودية، فما فقد من العبودية من الكبرياء والعزة والغنى المطلق والعلم بحقائق الأشياء وخفاياها والمغيبات والقدرة الكاملة وغيرها من الكمالات، وُجد في الربوبية، فإن العبودية ذلة ومسكنة وفقر وجهل وعجز وعدم وفناء، وما خفي من الربوبية من الكمالات أصيب في العبودية، فإن العبد بالتفكير فيما له من الصفات الكمالية، يعلم الكمالات الربوبية؛ لأنه يرى الكمالات الحاصلة من ربه، ولا يمكن أن يكون مُعطى الشيء فاقداً.

قيل: إن المراد بالآيات الآيات الدالة على حَقَانِيَةِ القرآن، وكونه من عند الله<sup>١</sup>، والمراد بالآيات الإلَاقِيَةِ ما أخبر به النبي ﷺ من الحوادث الآتية، كغلبة الروم على فارس في بضعة سنين، وما وقع في الأمم الماضية الموافقة لما هو المضبوط في كتب التواريخ والأنبياء السابقة، مع كون النبي أمياً لم يقرأ ولم يتعلم<sup>٢</sup>، أو ما وقع له من الفتوحات والغلبة على آفاق الدنيا على وجهٍ خارقٍ للعادة<sup>٣</sup>، ومن قوله: ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ هو اللَّحْطُ في مكة وما حلَّ بأهلها من الخوف والقتل والأسر<sup>٤</sup>.

وقيل: إن المراد من آيات الآفاق فتح البلاد المحيطة بمكة<sup>٥</sup>، ومن آيات أنفسهم فتح مكة<sup>٦</sup>.

ثم بيّن سبحانه أن عدم تفكير المشركين في الآيات لجرأتهم على الله، لعدم اعتقادهم بالآخرة بقوله: ﴿أَلَا﴾ أيها العقلاء ﴿إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ﴾ وشكٍّ عظيم، وثُبُهَةٌ شديدة ﴿مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ بعد الموت، وحضورهم عنده للحساب وجزاء الأعمال، ولذا يجترئون على الله في مخالفته وترك التفكير في آيات توحيده، ورسالة رسوله، وصدق كتابه، فيقولون ما يقولون، ويعملون ما يعملون ﴿أَلَا﴾ أيها المشركون بالله، المُنكِرُونَ لِقَائِهِ ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿يَكُلُّ شَيْءًا﴾ ظاهره وباطنه ﴿مُحِيطٌ﴾ بحيث لا يخفى عليه منهم خافية، فيُجازيكم على كفركم وسوء نياتكم وجدالكم في الحق أسوأ الجزاء.

عن الصادق عليه السلام: «من قرأ حم السجدة، كانت له نوراً يوم القيامة لبصره وسروراً، وعاش في الدنيا محموداً مغبوطاً»<sup>٧</sup>.

وعن (الخصال) عنه: «إن العزائم أربع» وعدّ منها هذه السورة<sup>٨</sup>.

الحمد لله على إتمام تفسيرها.

١. تفسير أبي السعود ٨: ١٩، تفسير روح البيان ٨: ٢٨١.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٢٨١.

٣. تفسير أبي السعود ٨: ١٩، تفسير روح البيان ٨: ٢٨١.

٤. تفسير أبي السعود ٨: ١٩.

٥. تواب الاعمال: ١١٣، تفسير الصافي ٤: ٣٦٥.

٦. الخصال: ٢٥٢/١٢٤، تفسير الصافي ٤: ٣٦٥.

٧. تفسير الرازي ٢٧: ١٣٩.

## في تفسير سورة الشورى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ \* عَسَقَ \* كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ  
الْحَكِيمُ [١-٣]

ثُمَّ لَمَّا خَتِمَتْ، وكانت مبتدئة ببيان عظمة القرآن، وكونه بلغة العرب، وبيان مجادلة المشركين فيه، وطعنهم عليه وذمهم، والجواب عنهم، وبيان أدلة التوحيد والمعاد والنبوة المختمة بالوعد بإراءة الآيات الدالة على التوحيد وصدق القرآن، نُظِمَتْ سورة حمعسق المبدوءة بتعظيم ما أوحى إلى النبي ﷺ، المشتملة على بيان النبوة، وإظهار المنة على العرب بإنزال القرآن بلسانهم، وذكر الآيات الدالة على التوحيد، وتهديد المجادلين فيها بقوله: ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾<sup>١</sup> وغير ذلك من المطالب العالية المناسبة للسورة السابقة، فابتدأها بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثُمَّ افْتَتَحَهَا بِالْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ بقوله: ﴿حَمَّ \* عَسَقَ﴾ جلباً لتوجّه القلوب إلى المطالب المهمة المذكورة بعدها، وقد مرّ مراراً أنَّ كلَّ حرفٍ رمز عن الأسماء الحسنى.

عن الصادق عليه السلام: «معناه الحكيم الميثب العالم السميع القادر القوي»<sup>٢</sup>. وأيضاً رمزٌ عن العلوم الكثيرة، ليستنبطها الراسخون في العلم، وقيل: كلٌّ واحدٍ من حمّ وعسق اسم لهذه السورة، ولذا يُفَصَّلُ بينهما<sup>٣</sup>.

ثُمَّ عَظَّمَ سَبْحَانَهُ الْمَطَالِبَ الْمَذْكُورَةَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ الموحى في هذه السورة، ومثل ما بها من التوحيد والمعاد والنبوة، وما فيه صلاح العباد في المعاش والمعاد، أو مثل ذلك الإيحاء ﴿يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ في سائر السور ﴿إِلَى﴾ الرسل ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ في الكتب المنزلة عليهم ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ والإله القادر العليم، الذي لا تناهي لعلمه وقدرته وحكمته، فإنَّ

١. الشورى: ٣٥/٤٢. ٢. معاني الأخبار: ١/٢٢، تفسير الصافي ٤: ٣٦٦.

٣. تفسير البيضاوي ٢: ٣٥٨، تفسير أبي السعود ٨: ٢١، تفسير روح البيان ٨: ٢٨٥.

إحياء هذه المطالب العالية والمباحث القدسية الإلهية ببيان مُعْجَزٍ، لا يصدر إلا ممن له كمال القدرة والعلم، وإنما أتى بصيغة المضارع مع أن المناسب ذكر لفظ الماضي، بلحاظ ذكر الرسل السابقة، للدلالة على أنه عادته المستمرة وتجددّه وقتاً بعد وقت.

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ \* تَكَادُ السَّمَاوَاتُ  
يَتَفَطَّرُونَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي  
الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [٥ و ٥]

ثم بالغ سبحانه في تعظيم ما أوحى بتعظيم ذاته المقدسة بقوله: ﴿لَهُ﴾ تعالى بالملكية الإشرافية الإبداعية ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ السبع ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ظاهرها وباطنها ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ والمرتفع عن أن تُدرّكه العقول والأوهام ﴿الْعَظِيمُ﴾ الذي تصغر عنده العظماء ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ﴾ مع عظمهنّ وغاية ثخونتهنّ ﴿يَتَفَطَّرُونَ﴾ ويتشققن من عظمتهم وخشيته ومهابته ﴿مِنْ﴾ العرش الذي هو في ﴿فَوْقِهِنَّ﴾ إلى السماء الدنيا التي هي أسفل من كلّهنّ، بأن لا تبقى سماء إلا سقطت، وإنما خصّ بدو التفطّر بالعرش لظهور عظمتهم منه.

قيل: إن المراد من قوله: ﴿مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ المبالغة في حصول الإشفاق إلى الجميع، كقوله: ﴿يصب من فوق رؤسهم الحميم﴾<sup>١</sup>.

وقيل: إن ضمير (فوقهن) راجع إلى الأرضين<sup>٢</sup> ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ الذين لا يعلم عددهم وعظمتهم خلقهم إلا الله ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ ويُزْهِونَ مقروناً ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ عبودية وتعظيماً له ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من المؤمنين، كما عن الصادق عليه السلام<sup>٣</sup>، إشفافاً بهم.

في الحديث: «ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضع جبهته ساجداً لله ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾»<sup>٤</sup>.

وقيل: إن المراد بالملائكة حَمَلَةُ العرش خاصة<sup>٥</sup>.

أقول: في الآية دلالة على أن كمال العبادة التوجه إلى الله، والاشفاق على الخلق.

قيل: إن الجواهر الروحانية لها جهتان: جهة الاستفاضة من المبدأ الأعلى، وجهة الإفاضة إلى العالم الجسماني الأدنى<sup>٦</sup>، فقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ إشارة إلى الجهة الأولى، وقوله:

٢. تفسير أبي السعود ٨: ٢٢.

١. تفسير الرازي ٢٧: ١٤٤.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٢٨٧.

٣. جوامع الجامع: ٤٢٧، تفسير الصافي ٤: ٣٦٧.

٦. الرازي ٢٧: ٢٤٥.

٥. تفسير روح البيان ٨: ٢٨٧.



﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ إشارة إلى الجهة الثانية.

ثم لما كان تنزيه الذات عن القائص الامكانية مقدماً على كونه مقيضاً للخيرات، قدم التسييح الدال على التنزيه على الحمد الدال على فياضيته.

وقيل: إن المراد باستغفارهم لأهل الأرض، تأثيرهم في نظم أحوال العالم على النحو الأصلح والأصوب<sup>١</sup>.

وقيل: هو شفاعتهم في حق المؤمنين، ودعائهم في حق الكفار بأن لا يعجل الله في عقوبتهم، أو يوفقهم للإيمان<sup>٢</sup>.

ثم حث سبحانه الناس على طلب المغفرة للذنوب، وسؤال ما يحتاجون إليه في دينهم ودنياهم من الله تعالى بقوله: ﴿أَلَا﴾ أيها الناس ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ﴾ وحده ﴿الْعَفْوُ﴾ للذنوب ﴿الَرْحِيمُ﴾ بالمؤمنين، فتوجهوا إليه واسألوه غفران ذنوبكم وخير دنياكم وآخرتكم.

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِیْظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ \*  
وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ  
الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ [٦ و ٧]

ثم ذم سبحانه المشركين الذين توجهوا إلى غيره، وطلبوا الخير من الأصنام وهددهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ واختاروا لأنفسهم ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ تعالى مع أنه ولي المؤمنين ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ وجعلوا له شركاء ﴿اللَّهُ﴾ العظيم ﴿حَفِیْظٌ﴾ ورفيق ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وعلى أحوالهم وأعمالهم لا يفوته شيء منها، يحاسبهم عليها ﴿وَمَا أَنْتَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ﴾ من قبل الله ﴿بِوَكِيلٍ﴾ ومفوض إليك أمرهم حتى تسأل عنهم وتؤاخذهم، إنما أنت منذر، عليك البلاغ ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الوحي الذي كان للأنبياء من قبلك بلسان قومهم ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ وكتاباً عظيم الشأن بلسان قومك ﴿لِتُنْذِرَ﴾ العرب الذين يسكنون ﴿أُمَّ الْقُرَى﴾ وأصل البلدان، وهو مكة، لكون الأرض مدحوة من تحتها ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ وفي أطرافها من سائر الأرض ﴿وَتُنْذِرَ﴾ الناس وتخوفهم ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ والحشر الذي يجتمع فيه أهل السماوات وأهل الأرضين من الأولين والآخرين والجنة والناس أجمعين، فإنه لظهور وجوب وقوعه ﴿لَا رَبَّ﴾ فيه، ولا مجال لشك يعتريه، ثم إنهم بعد الجمع يفترون فرقتين: ﴿فَرِيقٌ﴾ منهم - وهم المؤمنون - يدخلون ويسكنون ﴿فِي الْجَنَّةِ﴾ بفضل الله ﴿وَفَرِيقٌ﴾ آخر منهم -

وهم الكفار - يُضِلُّونَ ﴿فِي السَّعِيرِ﴾ والنار الملتهبة غضباً عليهم.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ  
مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ \* أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ  
يُخَيِّى الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [٨ و ٩]

ثم لما قال سبحانه لنبيه ﷺ: لا تكون على المشركين وكيلًا، ولا تقدر على جمعهم على الحق، بين أن تلك القدرة لله بقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ اجتماع جميع الناس على الحق ﴿لَجَعَلَهُمْ﴾ بالقهر ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وفريقاً واحداً متفقين على دين واحد، كما عن ابن عباس<sup>١</sup> «ولكن» لم يشأ الله ذلك، لاختلاف طبيعتهم، واقتضاء الحكمة إيكالهم إلى إرادتهم واختيارهم، وجعل التكليف عليهم، ليميز الخبيث من الطيب، والشقي من السعيد، فإذا ﴿يَدْخُلُ﴾ الله ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ توفيقه لطيب طبيعته، وقوة عقله، وسلامة نفسه ﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾ ودينه الحق في الدنيا، وجنته في الآخرة، لأنه وليه وناصره ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ الذين اتخذوا من دونه أولياء ﴿مَا لَهُمْ﴾ في الدنيا، ولا في الآخرة ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ وحافظٍ لصلاح، يعينهم على ما فيه خيرهم وصلاحهم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنهم العذاب الدنيوي والأخروي.

ثم أكد سبحانه توبيخ المشركين على اتخاذهم الأصنام أولياء بقوله: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ﴾ لأنفسهم من الأصنام التي لا قدرة لها ولا شعور ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ لا والله هذا غاية السّفه والحمق، فمن طلب ولياً يستفيد من ولايته ﴿فَاللَّهُ﴾ وحده ﴿هُوَ الْوَلِيُّ﴾ الحقيقي الذي بيده الأمور كلّها من الخير والشرّ ﴿وَهُوَ يُخَيِّى الْمَوْتَى﴾ وليس في عالم الوجود من له هذه القدرة، بل ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ إيجاباً وإعداماً وتصرفاً وتقلباً ﴿قَدِيرٌ﴾.

وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ  
أُنِيبُ [١٠]

ثم لما بين تفرق الناس واختلافهم في الدين، أمر نبيه ﷺ بنهي المؤمنين عن مخاصمة الكفار ومنازعتهم في شيء والتوكل على الله في دفع كيدهم بقوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ﴾ قيل: إن التقدير: قل يا محمد للمؤمنين ما اختلفتم فيه أيها المؤمنون مع الكفار ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ من أمور الدين ﴿فَحُكِّمُوهُ﴾

راجع ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ من إثابة المؤمنين المحققين، وتعذيب الكفار المبطلين يوم الفصل والقضاء<sup>١</sup>.

قيل: إن المراد فما اختلفتم فيه، فتحاكموا إلى الرسول<sup>٢</sup>.

وقيل: يعني وما اختلفتم فيه من الأمور التي لا ترتبط بالأحكام كمسألة الروح، فقولوا: الله أعلم<sup>٣</sup>. وما اختلفتم فيه من التشابهات، فارجعوا إلى المحكمات ﴿ذَلِكُمْ﴾ الحاكم بالحق ﴿اللَّهُ﴾ الذي هو ﴿رَبِّي﴾ وربيكم ﴿عَلَيْهِ﴾ خاصة ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري التي منها دفع شر الأعداء والمشركين ﴿وَالَيْهِ﴾ وحده ﴿أُنِيبُ﴾ وأرجع في جميع المهمات والمعضلات، ولما كان التوكل أمراً وحدانياً مستمراً، أتى بصيغة الماضي، وأما الإنابة فهي متجددة حسب تجدد الحوائج، ولذا أتى بصيغة المضارع، فكلوا أنتم يا أتباعي على الله، وأنيبوا إليه.

فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ  
أَزْوَاجًا يَذْرُؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ \* لَهُ مَقَالِيدُ  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ  
عَلِيمٌ [١١ و ١٢]

ثم لما كان التوكل التام والإنابة في جميع الأمور والحوائج موقوفاً على العلم بكمال قدرة الله ولطفه ورأفته، عرّف سبحانه قدرته ورأفته. وعلمه بقوله: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقهما و﴿جَعَلَ لَكُمْ﴾ وخلق لطفاً بكم ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ ومن جنسكم بقدرته ولطفه وإحسانه ﴿أَزْوَاجًا وَ﴾ حلائل، وخلق ﴿مِنَ الْأَنْعَامِ﴾ للأنعام ﴿أَزْوَاجًا﴾ وقيل: يعني وخلق لكم من الأنعام أصنافاً أو ذكوراً وإناثاً، لترتفعوا بها، وهو بسبب الإزدواج ﴿يَذْرُؤُكُمْ﴾ ويكثركم أيها الناس والأنعام، أو يثبتكم بهذا التدبير الذي به التوالد والتناسل، و﴿فِيهِ﴾ وإنما ذكر سبحانه كلمة (فيه) في محل (به) تنزيلاً للتدبير والازدواج منزلة المعين للبت والتكثير، وفي استعمال ضمير (كم) الذي هو للخطاب إلى جماعة العقلاء، مع أن الأنعام غير عقلاء، وغائبة لتغليب العقلاء، والخطاب على غير العقلاء والغيب<sup>٤</sup>.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ﴾ وشبيه نظيره على تقدير وجود المثل والنظير له ﴿شَيْءٌ﴾ وموجود من الموجودات، فكيف بأن لا يكون له مثل ونظير؟ ففيه مبالغة في نفي المثل له تعالى. وقيل: إن الكاف

١. تفسير أبي السعود ٨: ٢٤.

٢ و ٣. تفسير الرازي ٢٧: ١٤٩.

٤. تفسير أبي السعود ٨: ٢٤، تفسير روح البيان ٨: ٢٩٢.

٥. في تفسير روح البيان ٨: ٢٩٣: ففيه تغليبان، تغليب المخاطب على الغائب، حيث لم يقل يذركم وأياهم لأن الأنعام ذكرت بلفظ الغيبة، وتغليب العقلاء على غيرهم، حيث لم يقل يذرها وأياكم فان (كم) مخصوص بالعقلاء.

هنا زائدة<sup>١</sup>.

وعلى أي تقدير لا شبهة أن مثل الشيء هو المشابه له في الذات والصفات، ولا مشابهة بين الممكن والواجب، لا في الذات ولا في الصفات، وإن تشاركاً في صدق بعض المفاهيم كالموجود والعالم والقادر والسميع والبصير ونظائرها، إلا أن بين مناسبتها في الواجب والممكن غاية المغايرة، كما هو محقق في محله.

ولما كان سماع الوكيل ومرجع الحوائج لمقال المتوكل والمُنِيب ورؤية ابتلائهما معتبراً في قضاء الحوائج، وصف ذاته المقدسة بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع المسموعات ﴿الْبَصِيرُ﴾ بكلِّ البصيرات بغير جارحة، بل باحاطته بجميع الموجودات التي منها الأصوات والأفعال والكيفيات ﴿لَهُ﴾ تعالى ﴿مَقَالِيدُ﴾ خزان خيرات ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومفاتيحها، لا يتصرف فيها إلا هو ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ ويوسع ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ توسعة رزقه ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ويضيق على من يشاء ضيقه حسب علمه بمصالح نظام العالم ومصالح الأشخاص ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء ومصالحها ومضارها ﴿عَلِيمٌ﴾ وخبير.

شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ  
إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى  
الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن  
يُنِيبُ [١٣]

ثم لما أخبر سبحانه بأنه عالم بالمصالح والمفاسد، وأنه يُوحى إلى النبي ﷺ وإلى الأنبياء من قبله، بين ما أوحى إليه ورآه مصلحة للعباد<sup>٢</sup> بقوله: ﴿شَرَعَ﴾ الله ﴿وَسَنَ﴾ ﴿لَكُمْ﴾ يا أمة محمد ﴿مِنَ الدِّينِ﴾ المرضي عنده ﴿مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ الذي [هو] أول أولي العزم من الرسل، وأمره به أكيداً ﴿وَرَبِّ﴾ الدين ﴿الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد وخاتم الرسل وآخر أولي العزم منهم، وفي تلوين الخطاب من الغيبة إلى التكلم، والتعبير عن الوصية بالايحاء إليه دلالة واضحة على تعظيمه ورسالته، رداً على المنكرين لها ﴿وَمَا وَصَّيْنَا﴾ وأمرنا ﴿بِهِ﴾ أكيداً سائر أولي العزم من الرسل الذين بينهما، أعني ﴿إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ وذلك الموصى به والمُوحى إليك أمرٌ واحدٌ، وهو ﴿أَنْ أَقِيمُوا﴾ وأشيعوا متفقاً في النَّاسِ ﴿الَّذِينَ﴾ المرضي عند الله، وهو الاسلام المركَّب من التوحيد، والمعارف

الإلهية، والمعاد، والأخلاق، والزُّهد في الدنيا، والإقبال إلى الآخرة، وتظاهروا على حفظه والمواظبة عليه **﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾** ولا تختلفوا **﴿فِيهِ﴾**.

أقول: فيه دلالة على أن أصل الدين من أول الدنيا الاسلام، والأحكام فروعها التي تختلف باختلاف الاعصار.

وقيل: إن المراد اجتمعوا على التوحيد، ولا تفرقوا بآلهة كثيرة، فإن ذلك خلاف العقل، ومع ذلك **﴿كَبُرَ﴾** وثقل وشر **﴿عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾** قبول **﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾** من التوحيد ورفض عبادة الأصنام، لحُب طيبتهم، وضعف عقولهم و **﴿اللَّهُ يَجْتَبِي﴾** ويجمع ويجلب **﴿إِلَيْهِ﴾** ويوفق لقبول توحيده **﴿مَنْ يَشَاءُ﴾** توفيقه وجلبه **﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾** بالإرشاد والإمداد والطافه الخاصة **﴿مَنْ يُنِيبُ﴾** وتقبل إليه بقلب سليم.

روي أنه تعالى قال: من تقرب مني شبراً، تقربت منه ذراعاً، ومن اتاني يمشي آتيته هرولة<sup>١</sup>. قيل: إن المعنى من أقبل إلي بطاعته، أقبلت إليه بهدايتي وإرشادي بأن أشرح صدره وأسهل أمره<sup>٢</sup>. عن الباقر عليه السلام: «أن الله بعث نوحاً إلى قومه أن أعبدوا الله واتقوه وأطيعوني، ثم دعاهم إلى الله وحده، وأن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئاً، ثم بعث الأنبياء على ذلك، إلى أن بلغوا محمداً عليه السلام فدعاهم إلى أن يعبدوا الله، ولا يُشركوا به شيئاً، وقال: **﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾** إلى قوله: **﴿مَنْ يُنِيبُ﴾** فبعث الأنبياء إلى قومهم بشهادة أن لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء من عند الله، فمن آمن مُخلصاً، ومات على ذلك، أدخله الله الجنة بذلك، وذلك أن الله ليس بظلام للعبيد، وذلك إن الله لم يكن يُعَذِّب عبداً<sup>٣</sup> حتى يغفل عليه في القتل والمعاصي التي أوجب الله عليه بها النار، فلما استجاب لكل نبي من استجاب له من قومه من المؤمنين، جعل لكل نبي شرعةً ومِنهاجاً، والشرعة والمِنهاج سبيل وسنة<sup>٤</sup>.

وعن الرضا عليه السلام في تأويله: «نحن الذين شرع الله لنا دينه، فقال في كتابه: **﴿شَرَعَ لَكُمْ﴾** يا آل محمد **﴿مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾** ووصينا بما وصَّى به نوحاً، **﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾** يا محمد **﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾** فقد أعلمنا وبلغنا علم ما علمنا، واستودعنا علمهم، نحن ورثة أولوا العزم من الرسل **﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾** يا آل محمد **﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾** وكونوا على جماعة **﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾** من أشرك بولاية علي **﴿مَا تَدْعُوهُمْ﴾** من ولاية علي، إن **﴿اللَّهُ﴾** يا محمد **﴿يَهْدِي﴾**

٣. في النسخة: أنه إن لم يكن يعذب أبداً.

١. تفسير الرازي ٢٧: ١٥٧.

٤. في النسخة: والشرع. ٥. الكافي ٢: ١٧/٢٤، تفسير الصافي ٤: ٣٦٩.

إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ» من يُجيبك إلى ولاية علي<sup>١</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: «أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ» قال: «الامام» «وَلَا تَفَرَّقُوا فِيهِ» كناية عن أمير المؤمنين «مَا تَدْعُوهُمْ» من ولاية علي «مَنْ يَشَاءُ» كناية عن علي عليه السلام<sup>٢</sup>.  
أقول: لا يخفى اغتشاش الرويتين على ما وجدتهما.

وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ أَلْعَلُّمُ بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ  
إِلَيَّ أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ  
مِنْهُ مُرِيبٍ \* فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا  
أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رُبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ  
أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ [١٥ و ١٤]

ثم بين سبحانه علّة اختلاف الأمم بعد اتفاق الأنبياء في الدين، ونهي الناس عن التفرّق فيه بقوله:  
«وَمَا تَفَرَّقُوا» وما اختلفوا في الدين الحقّ في وقت «إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ» وحصل لهم «أَلْعَلُّمُ»  
بحقانيّة ذلك الدين المتفق عليه، بالحجج الظاهرة، والبراهين القاطعة «بَغْيًا» وطلباً للدنيا وشهواتها  
وجاهها، أو ظُلماً وعداءً «بَيْنَهُمْ» لا لخباء الحقّ والشبهة فيه «وَلَوْلَا كَلِمَةٌ» وعدّة «سَبَقَتْ مِنْ  
رَبِّكَ» بإمهالهم وتأخير عقوبتهم «إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى» ووقت معين عند الله، وهو يوم القيامة، أو آخر  
أعمارهم المقدّرة، والله «لَقَضَى» وحكّم «بَيْنَهُمْ» باستئصالهم بالعذاب لغاية استحقاقهم وعظمة  
عصيانهم بالكفر بالتوحيد، وإنكار رسالة الرسول، مع ظهور معجزاته وكثرة دلائل صدقه «وَأَنَّ»  
اليهود والنصارى «الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ» السماوي من سبائقيهم، ووصل إليهم التوراة والإنجيل  
«مِنْ بَعْدِهِمْ» وفي عصر نبيّكم، لا يكونون بقاطعين بكذب القرآن، بل هم والله «لَفِي شَكٍّ مِنْهُ»  
وترديد في صدقه «مُرِيبٍ» وموقع لقلوبهم في القلق والاضطراب.

وقيل: إن المراد أنهم لفى شك من كتابهم لا يؤمنون به حقيقة<sup>٣</sup> «فَلِذَلِكَ» التفرّق والشك الذي  
يكون لهم في كتابك، أو كتابهم «فَادْعُ» جميع الناس إلى دين الله وتوحيده وكتابه «وَاسْتَقِمْ»  
واثبت على الدعوة كما «أُمِرْتَ» من قبل ربك «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ».  
روي أنه قال الوليد بن المغيرة للنبي ﷺ: أرجع عما أنت عليه إلى دين آبائك، أعطك نصف مالي.

١. بصائر الدرجات: ١/١٣٩، الكافي: ١/١٧٤، تفسير الصافي: ٤: ٣٦٨.

٢. تفسير الفمي: ٢: ٢٧٤، تفسير الصافي: ٤: ٣٦٨. ٣. تفسير روح البيان: ٨: ٢٩٩.

وقال له شعبة بن ربيعة: إن رجعت إلى دين أبائك أزوجك بتي. فنزلت ﴿وَأَسْتَقِيمَ كَمَا أَمِرتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾<sup>١</sup>.

﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ أي كتاب كان من الكتب المنزلة، ولست كالذين قالوا نؤمن ببعض ونكفر ببعض ﴿وَأَمِرتُ﴾ أيضاً من قبل ربِّي ﴿لَأَعْدِلَ﴾ في الحكم ﴿بَيْنَكُمْ﴾ إذا تحاكمتم إليّ، أو المراد لأسوي بين ضعيفكم وقويكم ووضيعكم وشريفكم في الدعوة والهداية، أو أسوي بينكم وبين نفسي بأن أحب لكم ما أحب لنفسي، ولا أفرق بين نفسي وبينكم، بأن أمركم بما لا أعمل به، وأنهاكم عما لا أنهي عنه ﴿اللَّهُ رُبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ ليس ربي غير ربكم ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا﴾ وجزاؤها، لا أعذب بسيئاتكم، ولا تعذبون بسيئاتي، فوجب أن يهتم كل أحد باصلاح عمل نفسه ﴿لَا حُجَّةَ﴾ باقية، ولا مجال بعد للمُحاجة ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لأنه أقمّت عليكم حُجّتي، ووضح عندكم صدقي، فاذا جاء يوم القيامة ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ في صعيد واحد ﴿وَالِيهِ﴾ وحده ﴿الْمَصِيرُ﴾ وإلى حكمه المرجع، لا يحكم بين الخلق إلا هو، ولا يمتنع أحد عن نفوذ حكمه عليه، فيجازينا وإياكم على أعمالنا بعد تمامية الحجة علينا في الدنيا.

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ \* اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ \* يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ [١٦-١٨]

ثم لما كان لليهود والنصارى مجال الاحتجاج على صحة دينهم، بأنه مما اتفق عليه، فلزم أن يكون حقاً، رد الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ﴾ ويخاصمون النبي ﷺ والمؤمنين ﴿فِي﴾ دين ﴿اللَّهُ﴾ الذي دعا إليه الرسول ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ﴾ من قبل كثير من الناس، أو من قبل المُحاجين في عالم الذر ويوم الميثاق ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ وباطلة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لأنهم اتفقوا على وجوب الايمان بمن أذعى الرسالة، وأتى بمعجزة دالة على صدقه، ولذا آمنوا بموسى وعيسى ﷺ، فلزم من ذلك الايمان بمحمد ﷺ حيث أتى بمعجزات شاهدها دالة على صدق دعوى رسالته، فليس لهم التفكيك بين الايمان بموسى ﷺ والايمان بمحمد ﷺ.

٤٧٤..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٥

ثُمَّ هَدَدَهُمْ سَبْحَانَهُ عَلَى أَبَاطِلِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ شَدِيدٌ مِنْ اللَّهِ لِمَكَابِرَتِهِمُ الْحَقَّ بَعْدَ ظُهُورِهِ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لَا يُوصَفُ بِالْبَيَانِ عَلَى كُفْرِهِمْ.

ثُمَّ أَكَّدَ نَزُولَ الْقُرْآنِ مِنْ اللَّهِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ﴾ هُوَ اللَّطِيفُ ﴿الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ الْجَامِعَ لِلْعُلُومِ وَالْأَحْكَامِ مَقْرُونًا ﴿بِالْحَقِّ﴾، وَشَوَاهِدَ الصِّدْقِ، ﴿وَقَدْ﴾ أَنْزَلَ ﴿الْمِيزَانَ﴾ قِيلَ: هُوَ الشَّرْعُ الَّذِي يُوزَنُ بِهِ الْأَعْمَالُ، وَيُعَيَّنُ بِهِ وَزَنُ الْأَشْخَاصِ، وَيُعْتَبَرُ بِهِ الْحَقُوقُ<sup>١</sup>. وَقِيلَ: هُوَ كِتَابَةٌ عَنْ نَفْسِ الْعَدْلِ فِي الْحَقُوقِ، وَإِنْزَالُهُ كِتَابَةٌ عَنِ الْأَمْرِ بِهِ<sup>٢</sup>، أَوِ الْمَرَادُ بِهِ مَعْنَاهُ الْحَقِيقِيُّ لِمَا<sup>٣</sup> رَوَى أَنَّ جَبْرِئِيلَ نَزَلَ بِالْمِيزَانِ، فَدَفَعَهُ إِلَى نُوحٍ، فَقَالَ لَهُ: مَرُّ قَوْمِكَ يَزِنُونَا بِهِ<sup>٤</sup>.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمَرَادُ بِهِ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ<sup>٥</sup>. وَقَالَ الْقَمِي: هُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ<sup>٦</sup>.

أَقُولُ: لَا شَكَّ أَنَّ الْمَعْنَى وَاحِدَةً، وَإِنَّمَا قَرَنَ اللَّهُ الْمِيزَانَ بِالْكِتَابِ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ الْعَدْلَ فِي الْحَقُوقِ أَهَمُّ الْأُمُورِ بَعْدَ التَّوْحِيدِ، وَأَنَّهُ الْمَقْصُودُ الْمَهْمُ مِنَ الْكِتَابِ، وَأَنَّ الْعَدْلَ وَمِيزَانَ الْأَعْمَالِ هُوَ الْمَهْمُ فِي الْقِيَامَةِ، وَلِذَا ذَكَرَهَا بَعْدَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُذَرِّكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ، وَأَيُّ شَيْءٍ يُعَلِّمُكَ بِحَالِ السَّاعَةِ الَّتِي هِيَ مِنَ الْعِظَمِ وَالشَّدَةِ وَالْخَفَاءِ بَحِثَ لَا يَعْلَمُ وَقْتُ وَقُوعِهَا أَحَدٌ إِلَّا بِإِعْلَانِنَا ﴿لَعَلَّ﴾ تِلْكَ ﴿السَّاعَةُ﴾ الَّتِي نَطَقَ بِمَجِيئِهَا الْكِتَابُ شَيْءٌ ﴿قَرِيبٌ﴾ مَجِيئُهَا، فَكُونُوا مِنْهَا عَلَى حَذَرٍ، وَتَهَيَّئُوا لَهَا بِأَعْمَالِكُمْ، وَالْعَجَبُ أَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا﴾ وَسَأَلَ سُرْعَةَ مَجِيئِهَا اسْتِهْزَاءً بِالْكِتَابِ وَبِالنَّبِيِّ الْمُخْبِرِينَ بِوُقُوعِهَا الْكَفَّارَ ﴿الَّذِينَ﴾ لَا يَعْتَقِدُونَ بِالسَّاعَةِ وَ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ لِعَدَمِ خَوْفِهِمْ مِنْهَا، وَيَقُولُونَ: مَتَى هِيَ؟ لِيَتَهَا قَامَتْ حَتَّى يَظْهَرَ أَنَّ عَلَى الْحَقِّ أَمَّ مُحَمَّدٍ ﴿وَقَدْ﴾ لَكِنَ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بِهَا بِإِخْبَارِ النَّبِيِّ ﷺ وَكِتَابِهِ كُلِّهِمْ ﴿مُشْفِقُونَ﴾ وَخَائِفُونَ ﴿مِنْهَا﴾ وَيَتَذَكَّرُونَ لَهَا، وَيَتَمَنَّوْنَ تَأْخِيرَهَا، لِأَنَّهُمْ يَتَيَقَّنُونَ ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الْوَاقِعَ لَا مُحَالَةً ﴿أَلَا﴾ أَيُّهَا الْعُقَلَاءُ اعْلَمُوا ﴿إِنَّ﴾ السَّافَهَاءَ ﴿الَّذِينَ يَمَارُونَ﴾ وَيُجَادِلُونَ النَّبِيَّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿فِي﴾ إِمْكَانِ وَقُوعِ ﴿السَّاعَةِ﴾ وَيَنْكُرُونَ مَجِيئَهَا عِنَادًا وَلَجَاجًا، وَاللَّهُ ﴿لَقَدْ ضَلَّالٌ بَعِيدٌ﴾ عَنِ الْحَقِّ، لَوْضُوحِ إِمْكَانِهِ، وَكَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى إِيْتَانِهِ، وَوُضُوحِ وَجُوبِ الْوَفَاءِ بِالْوَعْدِ عَلَى اللَّهِ، وَوُجُوبِ وَقُوعِهَا، لِأَنَّ اسْتِيفَاءَ حَقِّ الْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ، وَعَدَمُ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الْمَطِيعِ وَالْعَاصِي وَاجِبٌ، فَلَوْ لَمْ تَحْيَ السَّاعَةُ لَزِمَ تَضْيِيعُ حَقِّ الْمَظْلُومِ وَالْمَطِيعِ، وَهُوَ مُحَالٌ عَلَى اللَّهِ.

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ [١٩]

٥. مجمع البيان ٩: ٤٠، تفسير روح البيان ٨: ٣٠٢.

١ - ٤. تفسير روح البيان ٨: ٣٠١.

٦. تفسير القمي ٢: ٢٧٤، تفسير الصافي ٤: ٣٧٠.



ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ إِزَالَهُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ، نَبَّهَ كونه لُطْفًا بِعباده بقوله: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ﴾، وكثير الاحسان ﴿بِعِبَادِهِ﴾ المؤمنين، حيث هداهم إلى الإيمان والخيرات الدنيوية والأخروية بإنزال الكتاب وإرسال الرسول.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ مجال القول بأنَّ الرزق لُطْفٌ، وهو للكفار أكثر من المؤمنين، نَبَّهَ بأنَّه ليس من جهة اللُطف بقوله: ﴿يَرْزُقُ﴾ من نعمه الدُّنيوية ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ أَنْ يَرْزُقَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾ القادر على ما يشاء ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يَغَالَبُ ولا يُدَافَعُ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ لَا تَكُونَ قَضِيَّةُ ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ لدفع الدُّخُلِ الْمُقَدَّرِ، بل للاستشهاد بها على عموم لُطفه، والمعنى أَنَّ شَاهِدَ لُطفه أَنَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ أَنْ يَرْزُقَهُ كَيْفَمَا يَشَاءُ، فَيُخَصِّصُ كُلًّا مِنْ عِبَادِهِ بِنَوْعٍ مِنَ الرِّزْقِ عَلَى حَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ مَشِيئَتُهُ الْمُبْنِيَّةُ عَلَى الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ.

روى بعض العامة عن الصادق عليه السلام، أَنَّهُ قَالَ: «لُطْفُهُ فِي الرِّزْقِ الْحَلَالِ، وَتَقْسِيمُهُ عَلَى الْأَحْوَالِ»<sup>١</sup>.

وقيل: يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ<sup>٢</sup>.

في (الكافي) عن الصادق عليه السلام. قيل له: الله لطيف بعباده يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ. قال: «ولاية أمير المؤمنين عليه السلام»<sup>٣</sup>.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ

مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ [٢٠]

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ إِظْهَارِ لُطْفِهِ بِعباده، حَثَّهم عَلَى الْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ بقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ بِعَمَلِهِ ﴿حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ فَإِنَّهُ كَالْبَذْرِ لِفَوَائِدِهَا وَالثَّمَرَاتِ الْأَبَدِيَّةِ ﴿نَزِدْ﴾ وَتُضَاعَفُ ﴿لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ وَأَجْرُهُ وَثَوَابُهُ بِالوَاحِدِ عَشْرَةَ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ فَمَا فَوْقَهَا ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ بِأَعْمَالِهِ ﴿حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ وَفَوَائِدِهَا مِنَ الْأَمْتَةِ وَالْأَمْوَالِ وَالْجَاهِ وَالرَّاسَةِ ﴿نُؤْتِهِ﴾ شَيْئًا ﴿مِنْهَا﴾ حَسِيبًا قَسَمْنَا لَهُ.

روت العامة عن النبي صلى الله عليه وآله: «مَنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ الْآخِرَةُ، جَمَعَ اللَّهُ شَمْلَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ الدُّنْيَا، فَزَقَّ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ»<sup>٤</sup> ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ﴾ شَيْءٌ ﴿مِنْ نَصِيبٍ﴾ مِنَ الثَّوَابِ، وَحُطُّ مِنَ النَّعْمِ، إِذْ كَانَتْ هَمَّتُهُ مَقْصُورَةً عَلَى الدُّنْيَا، وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى.

١. تفسير روح البيان ٨: ٣٠٥.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٠٤.

٣. الكافي ١: ٩٢/٣٦١، تفسير الصافي ٤: ٣٧١.

٤. مجمع البيان ٩: ٤١، تفسير الصافي ٤: ٣٧١.

٤٧٦ ..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٥

عن الصادق عليه السلام: «المال والبنون حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة، وقد يجمعها الله لأقوام»<sup>١</sup>.

وعنه عليه السلام: «من أراد الحديث لمنفعة الدنيا، لم يكن له في الآخرة نصيب، ومن أراد به خير الآخرة أعطاه الله خير الدنيا والآخرة»<sup>٢</sup>.

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَضْلِ  
لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ \* تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا  
كَسَبُوا وَهُمْ وَقِعَ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ  
لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ \* ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ  
عِبَادَةَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ [٢١-٢٣]

ثم إنَّه تعالى بعد إظهار مِته على العباد، بتشريع الدين المرضي عنده لهم، وإنزال الكتاب والميزان، وتبخ المشركين بقوله: «أَمْ لَهُمْ» من الأصنام. قيل: إنَّ المعنى بل لهم من شياطين الانس والجن<sup>٣</sup> الذين زينوا لهم عبادة الأصنام «شُرَكَاءُ» لله «شَرَعُوا» وسَوَّاهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ولم يرضَ به من الشرك وإنكار البعث وحرمة السائبة والوصيلة وأخواتهما «وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَضْلِ» والوعد السابق بإمها لهم وتأخير عذابهم إلى الموت، أو الوعد بأن الفصل يكون القيامة، والله «لَقُضِيَ» بين الكافرين والمؤمنين، أو بين المشركين وشركائهم، ويحكم «بَيْنَهُمْ» بنزول العذاب «وَإِنَّ» المشركين الذين هم أظلم «الظَّالِمِينَ لَهُمْ» في الآخرة «عَذَابٌ أَلِيمٌ» وعقاب مُوجع غاية.

ثم شرح سبحانه حال المشركين والموحدين في الآخرة بقوله: «تَرَى» يا محمد، أو أيها الراي المشركين «الظَّالِمِينَ» على أنفسهم بإهلاكها بسبب سوء العقائد والأعمال «مُشْفِقِينَ» وخائفين غاية الخوف «مِنْ» عذاب «مَا كَسَبُوا» وعَمِلُوا من القبائح والسيئات «وَهُمْ» لا محالة «وَقِعَ بِهِمْ» وهم واقعون فيه، [سواء] كان مشفقين منه أم لا «وَمِنْ» أما «الَّذِينَ آمَنُوا» بتوحيد الله «وَعَمِلُوا» الأعمال «الصَّالِحَاتِ» فإنهم متمكنون «فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ» وأطيب البساتين وأنزهها «لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ» ويشتهون من النعم واللذات المدخرة «عِنْدَ رَبِّهِمْ» ومليكهم اللطيف

٢. الكافي ١: ٣٧/٢، تفسير الصافي ٤: ٣٧١.

١. تفسير القمي ٢: ٢٧٤، تفسير الصافي ٤: ٣٧١.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٣٠٨.

بهم ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من المسكن الطيب والنعم الفائقة المَعْدَةُ للمؤمنين ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ والإنعام العظيم الذي تَصَغَّرُ دونه الدنيا بحذافيرها ألف ألف مرة ﴿ذَلِكَ﴾ الفضل الكبير هو الثواب ﴿الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ﴾ به في الدنيا ﴿عِبَادَةُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ على لسان نبيه، وفيه غاية تعظيم الأجر المذكور على الإيمان والعمل الصالح.

### قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ [٢٣]

ثم لما كان مجال توهم الجاهل طمع النبي ﷺ في الأجر على تبليغ الكتاب وتبشير المؤمنين بالأجر العظيم، أمر الله نبيه ﷺ بالاعلان بأن لا طمع له في الأجر بالمال والجاه من أحد بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للناس: إِنِّي ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ﴾ ولا أتوقع منكم على التبليغ والتبشير ﴿عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ وعوضاً دينياً من مالي وجاه وغيرهما، كما لا يطلب الله منكم على هدايتكم وإنعامه عليكم ولا الأنبياء السابقون على تبليغهم أجراً وعوضاً ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ﴾ الكائنة ﴿فِي﴾ ذوى ﴿الْقُرْبَىٰ﴾ ومن انتسب إلي بالنسب.

روى بعض العامة أنه اجتمع المشركون في مجمع لهم فقال بعضهم: أترون أن محمداً لا يسأل على ما يتعاطاه أجراً، فنزلت<sup>١</sup>.

وعن الصادق عليه السلام، قال: «لما رجع رسول الله ﷺ من حجة الوداع وقدم المدينة، أتته الأنصار، فقالوا: يا رسول الله، إن الله تعالى قد أحسن إلينا، وشرّفنا بك، وبنزولك بين ظهرائنا، فقد فرح الله صديقنا، وكبت عدونا، وقد تأتيناك وفود فلا تجد مائعتيهم، فيشمت بك العدو، فتحب أن تأخذ ثلث أموالنا، حتى إذا قدم عليك وفد مكة وجدت ما تعطيه. فلم يرّد رسول الله ﷺ عليهم شيئاً، وكان ينتظر ما يأتيه من ربه، فنزل جبرئيل عليه وقال: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ ولم يقبل أموالهم. فقال المنافقون: ما أنزل الله هذا على محمد، وما يريد إلا أن يرفع بضعة ابن عمه، ويحمل علينا أهل بيته، يقول أميس من كنت مولاه، فعلي مولاه، واليوم ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾»<sup>٢</sup>.

روى بعض العامة: أنها لما نزلت قيل: يا رسول الله، من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: «علي وفاطمة وابنائي الحسن والحسين»<sup>٣</sup>.

١. تفسير أبي السعود ٨: ٣٠، تفسير روح البيان ٨: ٣١٠.

٢. الكافي ١: ٢٣٤، تفسير الصافي ٤: ٣٧٢.

٣. تفسير الرازي ٢٧: ١٦٦، تفسير البيضاوي ٢: ٣٦٢، تفسير أبي السعود ٨: ٣٠، تفسير روح البيان ٨: ٣١١.

وروى العلامة عن الجمهور في الصحيحين، وأحمد بن حنبل في مسنده، الثعلبي في تفسيره عن ابن عباس، قال: لما نزلت: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ قالوا: يا رسول الله، من قربائك الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال ﷺ: «علي وفاطمة وابناهما»<sup>١</sup>.  
ورَدَّ بعض العامة هذه الرواية بأن السورة مكية من غير استثناء منها، ولم يكن لفاطمة حيتن أولاد<sup>٢</sup>.  
في ردِّ بعض العامة أقول: فيه أن الدعوى ممنوعة، لما روي عن الصادق عليه السلام أنها مدنية<sup>٣</sup>، مع أنه يُحتمل تكرر نزولها، وكان السؤال بعد نزولها في المدينة.

وعن الصادق عليه السلام، عن آبائه: «لما نزلت هذه الآية، قام رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس، إن الله تبارك وتعالى قد فرض عليكم فرضاً، فهل أنتم مؤدوه؟ فلم يُجبه أحدٌ منهم، فانصرف. فلما كان من الغد قام فقال مثل ذلك، فلم يُجبه أحدٌ، ثم قام فقال مثل ذلك في اليوم الثالث، فلم يتكلم أحدٌ، فقال ﷺ: إنه ليس من ذهب ولا فضة ولا مطعم ولا مشرب. قالوا: فألقه إذاً. قال: إن الله تبارك وتعالى أنزل عليّ ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ فقالوا: أما هذه فتعم».

قال الصادق عليه السلام: «فو الله ما وفي بها إلا سبعة: سلمان، وأبو ذر، وعمار، والمقداد بن الأسود الكندي، وجابر بن عبد الله الأنصاري، ومولى لرسول الله، وزيد بن أرقم»<sup>٤</sup>.

أقول: هذه الرواية منافية لما روي عنه عليه السلام في شأن نزولها، إلا أن يقال إن قيامه كان في مجمع جمع من المنافقين، لم يكن فيهم أحدٌ من الخُلق كسلمان وأضرابه، ومن الذين التمسوا منه قبول ثلث أموالهم للبذل للوفاد.

وعن علي عليه السلام، قال: «فينا في حم آية، لا يحفظ مودتنا إلا كل مؤمن» ثم قرأ هذه الآية<sup>٥</sup>.  
وعن الصادق عليه السلام، قال: «ما يقول أهل البصرة في هذه الآية ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ الآية؟ قيل: إنهم يقولون إنها لأقارب رسول الله ﷺ. قال: «كذبوا، إنما نزلت فينا خاصة: في أهل البيت علي وفاطمة والحسن والحسين أصحاب الكساء»<sup>٦</sup>.

وعن الباقر عليه السلام أنه سُئل عنها فقال: «هم الأئمة عليهم السلام»<sup>٧</sup>.

وعن علي عليه السلام، أنه قال: «قال رسول الله ﷺ: من لم يحب عترتي فهو لإحدى ثلاث: إما منافق،

١. نهج الحق: ٤/١٧٥. ٢. تفسير روح البيان ٨: ٣١١.

٣. لم نعر عليه وعلى فرض وجود تلك الرواية أريد بها بعض آياتها كما هو معلوم وصرح به في بعض الروايات.

٤. قرب الإسناد: ٢٥٤/٧٨، تفسير الصافي ٤: ٣٧٢. ٥. مجمع البيان ٩: ٤٣، تفسير الصافي ٤: ٣٧٣.

٦. الكافي ٨: ٦٦/٩٣، تفسير الصافي ٤: ٣٧٣. ٧. الكافي ١: ٧/٣٤٢، تفسير الصافي ٤: ٣٧٣.

وَأَمَّا لَزْنَتِي، وَأَمَّا حَمَلْتُ بِهِ أُمِّي فِي غَيْرِ طَهْرٍ<sup>١</sup>.

وعن النبي ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْأَنْبِيَاءَ مِنْ أَشْجَارٍ شَتَّى، وَخَلَقْتُ أَنَا وَعَلِيٌّ مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ أَنَا أَصْلُهَا، وَعَلِيٌّ فَرْعُهَا، وَفَاطِمَةُ لِقَاحُهَا، وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ ثِمَارُهَا، وَأَشْيَاعُنَا أَوْرَاقُهَا، فَمَنْ تَعَلَّقَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا نَجَا، وَمَنْ زَاغَ هَوَى، وَلَوْ أَنَّ عَبْدًا عَبْدَ اللَّهِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ أَلْفَ عَامٍ ثُمَّ أَلْفَ عَامٍ ثُمَّ أَلْفَ عَامٍ حَتَّى يَصِيرَ كَالشَّنِّ<sup>٢</sup> الْبَالِي، ثُمَّ لَوْ يَدْرِكُ مَحَبَّتَنَا، أَكْبَهُ اللَّهُ عَلَى مَنْخَرِهِ فِي النَّارِ، ثُمَّ تَلَا: ﴿قُلْ لَا أَشْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾<sup>٣</sup>.

روى الزمخشري في (الكشاف) عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ شَهِيدًا، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ مَغْفُورًا لَهُ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ تَابًا، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ مُسْتَكْمِلَ الْإِيمَانِ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ بَشَّرَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ بِالْجَنَّةِ ثُمَّ تَكَبَّرَ وَنَكِبَ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ يُزَفُّ إِلَى الْجَنَّةِ كَمَا تُزَفُّ الْعُرُوسُ إِلَى بَيْتِ زَوْجِهَا، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ فَتُحِّقَ لَهُ مِنْ قَبْرِهِ بَابَانِ إِلَى الْجَنَّةِ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ، جَعَلَ اللَّهُ قَبْرَهُ مَزَارَ مَلَائِكَةِ الرَّحْمَةِ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ عَلَى السَّيِّئَةِ وَالْجَمَاعَةِ.

أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ: آيِسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ كَافِرًا، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ لَمْ يَشْمَ رَائِحَةُ الْجَنَّةِ»<sup>٤</sup>. وقال الفخر الرازي: أَنَا أَقُولُ: آلُ مُحَمَّدٍ هُمُ الَّذِينَ يُؤْوِلُ أَمْرَهُمْ إِلَيْهِ، فَكُلٌّ مِنْ كَانَ أَوَّلُ أَمْرِهِ إِلَيْهِ أَشَدَّ وَأَكْمَلُ، كَانَ هُوَ الْآلُ، وَلَا شَكَّ أَنَّ فَاطِمَةَ وَعَلِيًّا وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ كَانَ التَّعْلُقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ أَشَدَّ التَّعْلُقَاتِ، وَهَذَا كَالْمَعْلُومِ بِالنَّقْلِ الْمُتَوَاتِرِ، فَوَجِبَ أَنْ يَكُونُوا هُمُ الْآلُ. إِلَى أَنْ قَالَ: فَإِذَا ثَبِتَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةَ أَقَارِبُ النَّبِيِّ ﷺ، وَجِبَ أَنْ يَكُونُوا مَخْصُوصِينَ بِمَزِيدِ التَّعْظِيمِ. إِلَى أَنْ قَالَ: إِنَّ الدَّعَاءَ لِلْأَلِ مَنَصَّبٌ عَظِيمٌ، لِذَلِكَ جُعِلَ خَاتَمَةُ الشَّهَادَةِ فِي الصَّلَاةِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَارْحَمْ مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ» وهذا التعظيم لم يوجد في حقِّ غيرِ الْآلِ<sup>٥</sup>.

في ردِّ فخر الرازي أقول: جميع ما قال هذا الرجل يَدُلُّ عَلَى تَقَدُّمِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى آئِمَّتِهِ، وَعَلَى أَفْضَلِيَةِ فَاطِمَةَ عَلَى عَائِشَةَ، وَكَوْنِهَا سَيِّدَتِهَا وَسَيِّدَةَ نَسَاءِ الْعَالَمِينَ.

٢. الشَّنُّ: القِرْبَةُ الْحَلَقُ الصَّغِيرَةُ.

١. الخصال: ٨٢/١١٠، تفسير الصافي: ٤: ٣٧٤.

٤. الكشاف: ٤: ٢٢٠، تفسير الرازي: ٢٧: ١٦٥.

٣. مجمع البيان: ٩: ٤٣، تفسير الصافي: ٤: ٣٧٣.

٥. تفسير الرازي: ٢٧: ١٦٥.

ثم قال: قوله: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى﴾ فيه منصبٌ عظيمٌ للصحابة، لأنه قال: «والسابقون الاولون»<sup>١</sup> «أولئك المقربون»<sup>٢</sup> فكُلٌّ من أطاع الله كان مقرباً عند الله، فدخل تحت قوله: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى﴾.

أقول: هذا الكلام مما تضحك به الثكلى، لأنه يتم بناءً على كون المراد من القربى الذين تقربوا إلى الله ورسوله بالعبادة والطاعة، لا القرب النسبي، ولا الأشخاص المعيّنة في الروايات النبوية بطرق عامة وخاصة، ولم يقل به أحد.

وعلى الثاني لا يدخل في الآية غير الأربعة، أو المعصومين من ذرّيته، بناءً على التعدي إلى نظائر الأربعة، وعلى الأول يدخل فيه الأشخاص الكثيرة، ولا اختصاص له بالسابقين من الصحابة.

### وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ [٢٣]

ثم حث سبحانه المؤمنين على مودة ذوى القربى بقوله: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ﴾ ويكتسب فعلةً أو خصلةً ﴿حَسَنَةً﴾ عظيمة، وهي مودة المذكور ﴿نَّزِدْ لَهُ﴾ في تلك الحسنة في الدنيا والآخرة، وتضاعف ﴿فِيهَا حُسْنًا﴾ أما في الدنيا فبالتوفيق والتأييد والإخلاص، وأما في الآخرة فبالمغفرة والدرجات العالية والنعيم التي يكون فهمها وفهم حُسْنها خارجاً من طوق البشر.

ثم بالغ سبحانه في تعظيم هذه الحسنة باظهار شكره لها بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذنوب محبي ذوى القربى و﴿شَكُورٌ﴾ لاحسانهم عليه بهذه المودة التي هي أحب الأمور عنده، فإن الشكر هو فعل ما يُنبئ عن تعظيم المُنعم لكونه مُنعمًا، والواذ لآل الرسول ﷺ كأنه أنعم على الله بمودته لهم، فشكر سبحانه هذه النعمة بتوفية ثوابها، والتفضل عليه بما لا يقادر قدره، وبإكرامه غايته.

قال الفخر الرازي: قيل: إنها نزلت في أبي بكر، والظاهر أنها للعموم في أي حسنة كانت، إلا أنها لما كانت عقيب ذكر المودة في القربى دلّ على أن المقصود التأكيد في تلك المودة.<sup>٣</sup>

عن الصادق عليه السلام: «أنها نزلت فينا أهل البيت، أصحاب الكساء»<sup>٤</sup>.

وعن الحسن المجتبى عليه السلام، أنه قال في خطبة له: «إننا من أهل بيت افترض الله مودتهم على كل مسلم، فقال: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿حُسْنًا﴾ فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت»<sup>٥</sup>.

وعن الباقر عليه السلام - في هذه الآية - قال: «من توالى الأوصياء من آل محمد وتبع آثارهم، فذاك نزيده»<sup>٦</sup>

٣. تفسير الرازي ٢٧: ١٦٧.

٢. الواقعة: ١٠/٥٦.

١. التوبة: ١٠٠/٩.

٦. في الكافي: يزيد، وفي النسخة: نزيده.

٤ و ٥. مجمع البيان ٩: ٤٤، تفسير الصافي ٤: ٣٧٤.

ولاية من مضى من البينين والمؤمنين الأولين حتى تتصل ولايتهم إلى آدم<sup>١</sup> وعنه عليه السلام «الافتراء التسليم لنا والصدق علينا ولا يكذب علينا»<sup>٢</sup>.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ  
الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [٢٤]

ثم لما بين سبحانه في أول السورة عظمة القرآن، وأنه بوحى الله، وذكر بعده المطالب العالية التي لا تُصدّر من النبي الأمي إلا بوحى، وبخ المشركين على طعنهم فيه ونسبة الكذب إليه بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ قيل إن المعنى بل أيقول<sup>٣</sup> هؤلاء المشركون: إن القرآن ليس وحياً من الله، بل ﴿افْتَرَى﴾ محمد بدعوى الرسالة من الله، ونسبة القرآن إليه ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ مع تسالمهم على كونه صادقاً في سائر الأمور، اميناً من جميع الجهات، وأنه أمي لا يقرأ كتاباً، ولم يُجالس عالماً، ولم يتعلّم من أحد، فهذه النسبة إليه من غاية الحمق.

ثم لَوْن الخطاب إلى النبي ﷺ بقوله: ﴿فَإِنْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾ ختم قلبك ﴿يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ وَيَطْبَعُ عليه حتى تفترى على الله مثل هذا الافتراء العظيم، فإنه لا يصدر من أحد إلا كان مطبوع القلب مختوماً عليه، وفيه غاية استبعاد الافتراء منه ﷺ.

وقيل: إن المراد إن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذى المشركين حتى لا يَشُقَّ عليك نسبتهم الافتراء إليك<sup>٤</sup>.

وقيل: إن المعنى إن يشأ الله عدم صدور القرآن منك لمنعك عن التكلم بأن يختم على قلبك، فلا يخطر بقلبك معانية، ولا يتطرق لسانك بحرف من حروفه، وحيث لم يكن الأمر كذلك، بل تواتر الوحي به حيناً بعد حين، تبين أنه من عند الله<sup>٥</sup>.

وبعبارة أخرى المراد أن الله قادر على أن يختم على قلبك، ولو كنت مفترياً عليه لختم على قلبك، ولما لم تكن مفترياً عليه، لم يختم على قلبك.

ثم أكد سبحانه نفى الافتراء عن القرآن بقوله: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ﴾ بلطفه الافتراء ﴿الْبَاطِلَ﴾ ويمحّقه حتى لا يبقى على الأرض ﴿وَيُحِقُّ﴾ ويثبت ﴿الْحَقَّ﴾ بين الناس إلى يوم القيامة ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ وحججه وبيّناته، أو بوحيه وقضائه، أو بسبب مواعيده المكررة المؤكدة.

١. الكافي ٨: ٥٧٤/٣٧٩، تفسير الصافي ٤: ٣٧٤.

٢. الكافي ١: ٣٢١/٤، تفسير الصافي ٤: ٣٧٤.

٣. تفسير أبي السعود ٨: ٣١٣.

٤. تفسير أبي السعود ٨: ٣١٣.

٥. تفسير أبي السعود ٨: ٣١٣.

أقول: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا وَعْداً مِنْ اللَّهِ لِرَسُولِهِ ﷺ بِأَنَّهُ يَمْحُو الْبَاطِلَ الَّذِي عَلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْبُهْتِ وَالْفِرَةِ وَالتَّكْذِيبِ، وَثَبَّتَ الْحَقُّ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، أَوِ الْقُرْآنَ الَّذِي آتَى بِهِ. ﴿إِنَّهُ﴾ تَعَالَى ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وَمُطَّلَعٌ عَلَى الضَّمَانِ، فَيَعْلَمُ مَا فِي قَلْبِكَ وَقُلُوبَ أَعْدَانِكَ، فَيَجْزِي الْأَمْرَ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ صَدَقَ نَيْتُكَ وَسُوءَ ظَنِّ الْمُشْرِكِينَ فِي حَقِّكَ، فَيَجْزِي كَلَاماً عَلَى حَسَبِ مَا فِي قَلْبِهِ.

عَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ - تَأْوِيلُ الْآيَةِ - يَقُولُ: «لَوْ شِئْتُ حَبَسْتُ عَنْكَ الْوَحْيَ، فَلَمْ تُكَلِّمْ بِفَضْلِ أَهْلِ بَيْتِكَ وَلَا بِمَوَدَّتِهِمْ، وَقَالَ اللَّهُ: ﴿وَيُمْنٌ أَنَّهُ الْبَاطِلُ وَيُحَقِّقُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ يَقُولُ: بِحَقِّ أَهْلِ بَيْتِكَ الْوَلَايَةِ ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يَقُولُ: بِمَا أَلْقَوْهُ فِي صُدُورِهِمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ لِأَهْلِ بَيْتِكَ وَالظُّلْمِ بَعْدَكَ»<sup>١</sup>.

### وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ [٢٥]

ثُمَّ نَدَبَ سُبْحَانَهُ الْمُشْرِكِينَ إِلَى التَّوْبَةِ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشُّرْكِ وَسُوءِ الظَّنِّ بِالنَّبِيِّ بِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ﴾ الْإِلَهِ الْعُطُوفُ ﴿الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ الْعَاصِينَ، وَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمُ الَّتِي تَابُوا مِنْهَا، وَنَدِمُوا عَلَيْهَا.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هِيَ عَامَةٌ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، وَالْوَلِيِّ وَالْعَدُوِّ، فَمَنْ تَابَ مِنْهُمْ قَبْلَ اللَّهِ تَوْبَتَهُ<sup>٢</sup>.

فِي شُرَاطِئِ التَّوْبَةِ رَوَى بَعْضُ الْعَامَّةِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا دَخَلَ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، وَكَبَّرَ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ قَالَ لَهُ

الْمَقْبُولَةُ

عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يَا هَذَا، إِنَّ اللِّسَانَ بِالِاسْتِغْفَارِ تَوْبَةُ الْكَذَّابِينَ، وَتَوْبَتُكَ هَذِهِ تَحْتَاجُ إِلَى التَّوْبَةِ».

فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا التَّوْبَةُ؟ قَالَ: «التَّوْبَةُ تَقَعُ عَلَى سِتَّةِ مَعَانٍ: عَلَى الْمَاضِي مِنَ الذُّنُوبِ بِالنَّدَامَةِ، وَعَلَى تَضْيِيعِ الْفَرَائِضِ بِالْإِعَادَةِ، وَرَدِّ الْمَظَالِمِ، وَإِذَابَةِ النَّفْسِ فِي الطَّاعَةِ كَمَا رَبَّيْتَهَا فِي الْمَعْصِيَةِ، وَإِذَاقَتِهَا مَرَارَةَ الطَّاعَةِ كَمَا أَذْقَتْهَا حَلَاوَةَ الْمَعْصِيَةِ، وَالبَّكَاءُ بِدَلِّ كُلِّ ضَلَحٍ ضَلَحَتَهُ»<sup>٣</sup>.

ثُمَّ بَالِغَ سُبْحَانِهِ فِي إِظْهَارِ الرَّافَةِ بِعِبَادِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا، لِمَنْ يَشَاءُ بِرَحْمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ يَتُوبُوا ﴿وَو﴾ إِنَّهُ تَعَالَى ﴿يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، فَيُجَازِي التَّائِبَ، وَيَتَجَاوَزُ عَنْ غَيْرِ تَائِبٍ حَسَبِ مَا تَقْضِيهِ مَشِئَتُهُ الْبَلِیْغَةُ الْمُبْتَنِيَّةُ عَلَى الْحُكْمِ وَالْمَصَالِحِ.

عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ سَيِّدِ الشَّهَدَاءِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «اجْتَمَعَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

١. الكافي ٨: ٣٧٩/٥٧٤، تفسير الصافي ٤: ٣٧٤.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٣١٤.

٣. تفسير الرازي ٢٧: ١٦٨، تفسير أبي السعود ٨: ٣١، تفسير روح البيان ٨: ٣١٤.



فقالوا: إِنْ لَكَ - يا رسول الله - في نفقتك، وفيمن يأتيك من الوفود حاجة، وهذه أموالنا مع دماننا، فاحْكُم بَارَأً مَاجُوراً، أعْطِ ماشئت، وأمسك ما شئت من غير حَرْجٍ.

قال: فأنزل الله ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ يعني أن تودّوا قرباني من بعدي، فخرجوا فقال المنافقون: ما حمل رسول الله على ترك ما عرضنا عليه إلا ليحسنا<sup>١</sup> على قربته من بعده، إن هو إلا شيء افتراه محمد في مجلسه. وكان ذلك من قولهم عظيماً، فأنزل الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنْ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾<sup>٢</sup> فبعث إليهم النبي ﷺ فقال: هل من حَدَثٍ؟ فقالوا: إي والله يا رسول الله، لقد قال بعضنا كلاماً عظيماً كَرِهْنَاهُ، فتلا رسول الله ﷺ الآية، فبكوا واشتدّ بكائهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ الآية<sup>٣</sup>.

### وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ [٢٦]

ثم أعلن سبحانه فضله على المطيعين من المؤمنين بقوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ﴾ الله دعاء ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إذا دعوهم، ويثيبهم على طاعتهم. قيل: شبه سبحانه إثابة المؤمنين على طاعتهم باستجابة دعائهم؛ لأن في طاعته طلب الثواب<sup>٤</sup> ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ على ما سألوهم ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وكرمه. وقيل: يعني ويستجيب المؤمنون لله بالطاعة، ويزيدهم الله على ما استحقّوه من الثواب تفضلاً<sup>٥</sup>، كما قال: ﴿استجبوا لله وللرسول﴾ فكأنه قال تعالى: والله يدعو إلى دار السلام، ويستجيب الذين آمنوا.

وقال بعض العامة: الزيادة مفسّرة بالشفاعة لمن وجبت له النار<sup>٦</sup>. ورواه في (المجمع) عن

النبي ﷺ<sup>٧</sup>.

وعن الباقر عليه السلام في قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [قال: «هو المؤمن يدعو لأخيه بظهر الغيب، فيقول له المَلَكُ: آمين، ويقول العزيز الجبار: ولك مثلاً ما سألت، وقد أعطيت ما سألت لحَبْك إياه»<sup>٨</sup>. ثم إنّه تعالى بعد إظهار لطفه بالمؤمنين، أعلن بغضه على الكفار بقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ بالله ورسله

١. في النسخة: ليحبنا. ٢. الاحقاف: ٤٦/٨.

٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٢٣٥، تفسير الصافي ٤: ٣٧٥.

٥. تفسير روح البيان ٨: ٣١٦.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٣١٦.

٧. مجمع البيان ٩: ٤٦، تفسير الصافي ٤: ٣٧٦.

٦. تفسير روح البيان ٨: ٣١٧.

٨. الكافي ٢: ٣٦٨، تفسير الصافي ٤: ٣٧٦.

وكتبه والدار الآخرة ﴿لَهُمْ﴾ فيها ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بالنار، والقول بأن الآية تدلّ بدليل الخطاب على ثبوت العذاب غير الشديد للمؤمن فاسدٌ، لعدم حُجَّتِهِ دليل الخطاب.

وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ  
بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ [٢٧]

ثمّ لما وعد سبحانه إجابة دعاء المؤمن، كان مجال السؤال أنّه كيف يكون ذلك مع ضيق معيشة كثير من المؤمنين وابتلائهم بالشدة من جهتها مع استجابة دعائهم؟ فأجاب سبحانه عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ وَسَعَةً عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَاللَّهُ ﴿لَبَغَوْا﴾ وَطَعُوا﴾ فِي﴾ وَجْهِ ﴿الْأَرْضِ﴾ وَلَهُوَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَانْهَمَكُوا فِي الشَّهَوَاتِ وَالْمَعَاصِي، أَوْ لَتَكَبَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ.

عن ابن عباس: بغهم في الأرض طلبهم منزلة بعد منزلة، ومركباً بعد مركب، وملبساً بعد ملابس<sup>١</sup>. وقيل: يعني يظلم بعضهم بعضاً<sup>٢</sup>.

﴿وَلَكِنْ﴾ لَطَفًا بِالْعِبَادِ ﴿يُنْزِلُ﴾ اللَّهُ رِزْقَهُمْ ﴿بِقَدَرٍ﴾ مَعِينٍ، وَحَدٌّ مُحْدُودٍ فِي عِلْمِهِ ﴿مَا يَشَاءُ﴾ أَنْ يُنْزِلَ مِنَ الرِّزْقِ بِمَا يَقْتَضِيهِ مَشِيتُهُ وَحُكْمَتُهُ، وَمَا يَكُونُ صَلَاحُهُمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ.

عن الصادق عليه السلام: «لو فعل لفعلوا، ولكن جعلهم محتاجين بعضهم إلى بعض، واستعبدهم بذلك، ولو جعلهم كلّهم أغنياء لبغوا»<sup>٣</sup>.

﴿إِنَّهُ﴾ تَعَالَى ﴿بِعِبَادِهِ﴾ وَبِخَفَايَا أُمُورِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ وَجَلَايَاهَا ﴿خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾.

ذكر حديث قدسي عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ، عن جبرئيل، عن الله تعالى، أنّه قال: «من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وإنّي لأسرع شيء إلى نصرة أوليائي، وإنّي لأغضب لهم كما يغضب الليث الجري، وما تقرب إليّ عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه، وما زال عبدي المؤمن يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً مؤيداً، إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته».

إلى أن قال: «وإن من عبادي المؤمنين لمن يسأل الباب من العبادة فأخفه عنه، لثلاث يدخله عجب فيفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلّا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلّا الغنى، ولو افقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلّا الصحة، ولو اسقمته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح

إيمانه إلا السَّعَمَ، ولو أصححته لأفسده ذلك، إني أدبر أمر عبادي بعلمي بقلوبهم، إني عبادي خبير بصير<sup>١</sup>.  
 روي عن خُباب بن الأرت: أن الآية فينا نزلت، وذلك أنا نظرنا إلى أموال بني قريظة وبني النضير  
 وبني قينقاع فتمنينها<sup>٢</sup>. وقيل: نزلت في أهل الصَّفة، تَمَنَوْا سَعَةَ الرِّزْقِ والغنى<sup>٣</sup>.

وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ \*  
 وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتْ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ  
 إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ [٢٨ و ٢٩]

ثم إنه تعالى بعد بيان إنزال رزق العباد على حسب مصالحهم، بين سعة جوده وكرمه بقوله:  
**«وَهُوَ الْقَادِرُ الْجَوَادُ الَّذِي بِجُودِهِ وَقَدْرَتِهِ يُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ الْغَيْثَ وَالْمَطَرَ النَّافِعَ لَأَهْلِ  
 الْأَرْضِ حِينَ احتاجوا إليه، و«مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا»** ويأسوا من نزوله، وإِنَّمَا قَدَّ سُبْحَانَهُ نزوله بذلك  
 لا يجابه كمال الفرج والشكر **«وَيَنْشُرُ»** على عباده **«رَحْمَتَهُ»** ويبيث عليهم أنواع بركاته. قيل: هي  
 الشمس بعد المطر، فإنها عظيمة النفع والوقع<sup>٤</sup>.

وفي الحديث القدسي: لو أن عبادي أطاعوني أمطرتهم بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار،  
 وما أسمعهم صوت الرعد<sup>٥</sup>.

**«وَهُوَ الْوَلِيُّ»** لهم الناظر في خيرهم وصلاتهم، ومالك أمورهم **«الْحَمِيدُ»** والمستحق للحمد  
 على إنعامه، الم محمود على أفعاله وإحسانه.

ثم لما ذكر سبحانه آية قدرته ورحمته، ذكر آية أخرى على قدرته وألوهيته بقوله: **«وَمِنْ آيَاتِهِ  
 وَأَدَلَّةُ قُدْرَتِهِ وَأَلُوْهِتِهِ «خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»** على عظمتها، وما هما عليه من تعاجيب الصُّنْعِ  
 الدالة على عظمتهم **«و»** خلق **«مَا بَتْ»** وفرق **«فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ»** وموجودات فيه متحركة بالارادة  
 من الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات، فإن الملائكة ماشون كما يطرون **«وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ  
 إِذَا يَشَاءُ»** جمعهم لمصلحة فيه كالمحاسبة **«قَدِيرٌ»**.

وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ \* وَمَا أَنْتُمْ

١. تفسير روح البيان ٨: ٣١٨، مجمع البيان ٩: ٤٦ «قطعة».

٢. تفسير الرازي ٢٧: ١٧١، تفسير روح البيان ٨: ٣١٩، وفي النسخة: فتمناها.

٣. تفسير الرازي ٢٧: ١٧١، تفسير روح البيان ٨: ٣١٩.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٣١٩.

٥. تفسير روح البيان ٨: ٣٢٠.

بِمُعْجِزَيْنِ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ [٣٠ و ٣١]

ثم لما بين رافته ورحمته على الناس، بين علة ابتلائهم بالمصائب بقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ﴾ أيها الناس، وإن نزلت بكم ﴿مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ وبليّة، كالفقر والمرض وغيرهما ﴿فِيمَا كَسَبَتْ﴾ وعملت ﴿أَيَّدِيكُمْ﴾ وجوارحكم من المعاصي والذنوب، وإنما نسب الكسب إلى اليد، لكون غالب الأعمال بها. روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يصيب بن آدم خدش عودٍ إلّا بذنب»<sup>١</sup>.

﴿وَيَعْفُوا﴾ الله ﴿عَنْ كَثِيرٍ﴾ من الذنوب. عن الصادق عليه السلام: «ليس من التواء عرقٍ ولا نكبة حَجَرٍ<sup>٢</sup> ولا عثرة قدم ولا خدش عودٍ إلّا بذنب، وأما ما يعفو الله أكثر مما عجل الله عقوبته في الدنيا، فإن الله أجل وأكرم وأعظم من أن يعود في عقوبته في الآخرة»<sup>٣</sup>.

وعنه عليه السلام أنه سئل: أرايت ما أصاب علياً وأهل بيته من بعده، أهو بما كسبت أيديهم وهم أهل بيت طهارة معصومون؟ فقال: «إن رسول الله ﷺ كان يتوب إلى الله ويستغفره في كل يوم مائة مرة من غير ذنب، وإن الله تعالى يَخْصُ أوليائه بالمصائب ليأجرهم من غير ذنب»<sup>٤</sup>.

وعن (المجمع) عن علي عليه السلام: «قال رسول الله ﷺ: خير آية في كتاب الله هذه الآية. يا علي، ما من خدش عودٍ ولا نكبة قدمٍ إلّا بذنب، وما عفاه الله عنه في الدنيا أكثر، فهو أكرم من أن يعود فيه، وما عاقب عليه في الدنيا فهو أعدل من أن يُتْنَى على عبده»<sup>٥</sup>.

ثم اعلم أن الخطاب للمكلفين، فلا يشمل البهائم والأطفال والمجانين، نعم قد تكون مصائبهم [في] مالكي البهائم والوالدي الأطفال والمجانين وأقاربهم، فتكون كفارة لذنوبهم ﴿وَمَا أَنْتُمْ﴾ أيها الغصاة ﴿بِمُعْجِزَيْنِ﴾ الله ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وفاتنين منه بالهرب، إن أراد ابتلاءكم وعقوبتكم بذنوبكم ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ في العالم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومما سواه ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ يدفع عنكم العقوبة بالموالاة ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ومعين يدفعها عنكم بالقوة.

وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ \* إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عُلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ \* أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ \* وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ [٣٢-٣٥]

٢. نكبت الحجارة رجله: لثمتها وأدمتها.

١. تفسير الرازي ٢٧: ١٧٢.

٣. الكافي ٢: ٦/٣٢٣، تفسير الصافي ٤: ٣٧٧.

٤. تفسير القمي ٢: ٢٧٧، الكافي ٢: ٢/٣٢٦، تفسير الصافي ٤: ٣٧٧.

٥. مجمع البيان ٩: ٤٧، تفسير الصافي ٤: ٣٧٧.

ثُمَّ نَبِّهَ سُبْحَانَهُ عَلَى آيَةٍ أُخْرَى دَالَّةٍ عَلَى قُدْرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على كمال عظمتِهِ وَرَحْمَتِهِ السَّفْنُ ﴿الْجَوَارِ﴾ والساوِرات ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ بِالرَّيْحِ الطَّيْبَةِ ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ وَالْجِبَالِ الْعَظِيمَةِ ﴿إِنْ يَشَأْ﴾ اللَّهُ ﴿يُسْكِنُ الرِّيحَ﴾ الَّتِي تُجْرِي السَّفْنَ بِهَا ﴿فَيُظِلُّنَّ﴾ وَيَبْقِيَنَّ ﴿رَوَاكِدَ﴾ وَثَوَابِتَ وَغَيْرَ جَارِيَّاتٍ فِي الْبَحْرِ، وَغَيْرَ سَائِرَاتٍ ﴿عَلَى ظَهْرِهِ﴾ فَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى تَحْرِيكِ الرِّيحِ وَإِجْرَاءِ السَّفْنِ، فَيَقَعُ سُكَّانُهَا فِي الْاضْطِرَابِ وَخَوْفِ الْغَرَقِ ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ مِنْ كَوْنِ جَرِي السَّفْنِ وَرُكُودِهَا بِإِرَادَةِ اللَّهِ ﴿لآيَاتٍ﴾ عَدِيدَةٍ وَأَدَلَّةٍ وَاضِحَةٍ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، وَإِنَّمَا الْاسْتِدْلَالُ وَالِاتِّفَاعُ بِهَا ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عَلَى الْبَلَايَا وَالْمِحَنِ ﴿شَكُورٍ﴾ لِنِعْمِ اللَّهِ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ صَبُورًا فِي الْبَلَاءِ شُكُورًا لِنِعْمِ اللَّهِ، لَا يَصْرِفُهُ الْإِبْتِلَاءُ بِرُكُودِ السَّفْنِ وَالْبَطَرُ بِجَرِيهَا عَنْ التَّفَكُّرِ فِي تِلْكَ الْآيَاتِ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الصَّبْرِ الشُّكُورَ الْمُؤْمِنِ الْكَامِلِ الْإِيمَانَ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ نَصْفُهُ الصَّبْرُ عَنِ الْمَعَاصِي، وَنَصْفُهُ الشُّكْرُ بِاتِّبَاعِ الْوَاجِبَاتِ<sup>١</sup>. ﴿أَوْ يُوقِفْهُمْ﴾ قِيلَ: هُوَ عَطَفَ عَلَى (يُسْكِنُ) وَالْمَعْنَى إِنْ يَشَأْ يُسْكِنُ الرِّيحَ أَوْ يُرْسِلُهَا عَاصِفَةً فَيُغْرِقُ قَهْرًا وَيُغْرِقُ أَهْلَهَا جَمِيعًا<sup>٢</sup> ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ وَعَمَلُوا وَيُهْلِكُ بَعْضَهُمْ ﴿وَيَغْفِرُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ مِنْ أَهْلِهِمْ، فَيُنْجِيهِمْ مِنَ الْغَرَقِ، وَذَلِكَ الْإِبْقَاءُ وَالْإِهْلَاكُ لِيَسْتَقِمَّ مِنَ الْعَاصِي<sup>٣</sup> ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ وَيَتَازَعُونَ ﴿فِي آيَاتِنَا﴾ بِأَنَّهُ ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ﴾ وَمُخْلَصٍ مِنْ عَذَابِنَا، إِذَا وَقَفَتِ السَّفْنُ، أَوْ عَصَفَتِ الرِّيحُ، فَيَصِيرُ ذَلِكَ سَبَبًا لِعَرَاْفَتِهِمْ بِأَنَّ الضَّارَّ وَالنَّافِعَ هُوَ اللَّهُ لَا غَيْرَهُ.

فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ \* وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ \* وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ \* وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ [٣٩-٣٦]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ عَدَمُ التَّفَكُّرِ فِي الْآيَاتِ وَالْمُجَادَلَةِ فِيهَا بِسَبَبِ حُبِّ الدُّنْيَا، وَالْإِنْهَمَاكِ فِي شَهَوَاتِهَا، وَالْجُرْصِ عَلَى جَمِيعِ أَمْتَعَتِهَا، بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ حَقَارَةَ الدُّنْيَا، وَشُرْعَةَ زَوَالِهَا الْمُقْتَضِيَةَ لِعَدَمِ الْإِعْتِنَاءِ بِهَا وَالْإِعْرَاضِ عَنْهَا بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ، وَأَعْطِيتُمْ مِنْ قَبْلِ رَبِّكُمْ ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ تَزْعَبُونَ إِلَيْهِ وَتَتَنَافَسُونَ فِيهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْمَزَارِعِ وَالْأَوْلَادِ وَالرَّنَاسَةِ وَالْجَاهِ ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تَمْتَعُونَ بِهَا

في مدة أعمارهم فيها، وانتفاعات قليلة تنقطع بخروجكم منها ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من المثوبات الأخروية ﴿خَيْرٌ﴾ من جميع الدنيا وما فيها ﴿وَأَبْقَى﴾ وأدوم منها، حيث لا انقطاع ولا زوال له أبداً، وهي خالصة ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وأخلصوا له دينهم ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ﴾ وحده في جميع أمورهم ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ ويعتمدون ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ ويحترزون ﴿كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ وعظائم الذنوب، وهي التي أوعده الله عليها النار.

وعن ابن عباس: كبير الإثم هو الشرك<sup>١</sup>، ولعل المراد الشرك الخفي حتى يجتمع مع الإيمان. ﴿وَيَحْتَزِّزُونَ﴾ يحترزون ﴿أَلْفَوَاحِشَ﴾ والمعاصي المتناهية في القبح، وهي من عطف الخاص على العام، للإيدان بغاية شناعته، وقيل: الكبائر والفواحش واحد، وإنما التغاير باعتبار الوصف<sup>٢</sup> ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا﴾ على أحد ﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ ويحلّمون ولا يتقمون.

عن الباقر عليه السلام: «من كظم غيضاً وهو يقدر على إمضائه، حتى الله قلبه أمناً وإيماناً يوم القيامة، ومن ملك نفسه إذا رغب وإذا رهب وإذا غضب، حرّم الله جسده على النار»<sup>٣</sup>.

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ حين دعاهم بلسان رسوله إلى الإيمان والتسليم والطاعة، وإنما خصّه بالذكر مع أنه عين الإيمان المذكور في السابق، لمزيد التشريف.

قيل: نزلت في الأنصار، دعاهم الرسول ﷺ إلى الإيمان، فاستجابوا له<sup>٤</sup>.

وقيل: إن المراد الاستجابة عن صميم القلب، وهو الرضا بقضاء الله، بحيث لا تكون في قلبه منازعة في أمر من الأمور<sup>٥</sup>.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ اليومية التي هي أهم الواجبات ورأسها، إن قيلت قيل ما سواها. في الحديث: أول ما يحاسب العبد يوم القيامة بصلاته، فإن صلحت أفلح وانجح، وإن فسدت خاب وخسر<sup>٦</sup>.

﴿وَأَشْرَهُمْ﴾ إذا وقعت واقعة ﴿شُرَى﴾ وتشاور ﴿بَيْنَهُمْ﴾ لا يتفردون برأي، ولا يقدمون على عمل إلا بعد تبادل الآراء، واجتماع ذوي الرأي منهم عليه، وتصويبهم إياه.

نسي الحث على روى بعض العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام: «نعم الموازنة المشاورة، وبش الاستعداد المشاورة في الأمور الاستبداد»<sup>٧</sup>.

١. تفسير الرازي ٢٧: ١٧٦، تفسير أبي السعود ٨: ٣٤، تفسير الصافي ٨: ٣٢٧.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٣٠.

٣. تفسير أبي السعود ٨: ٣٤، تفسير روح البيان ٨: ٣٣١.

٤. تفسير الرازي ٢٧: ١٧٦، تفسير روح البيان ٨: ٣٣١.

٥. تفسير روح البيان ٨: ٣٣١.

٦. تفسير روح البيان ٨: ٣٣١.

وعن النبي ﷺ: «ما من رجل يشاور أحداً إلا هُدي إلى الرُّشد»<sup>١</sup>.

وعن القمي: يشاورون الإمام [فيما يحتاجون إليه] من أمر دينهم<sup>٢</sup>.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الأموال والأمتعة والنعم ﴿يُنْفِقُونَ﴾ في مرضاة الله، ويحتمل كون المراد من قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ مطلق البرّ والمعروف. عن النبي ﷺ: «كل معروف صدقة»<sup>٣</sup>.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ وقع عليهم الظلم من ذي شوكة جريء على الله، لا يرضون بالذلل والهوان لأنفسهم بتحمل الظلم، بل ﴿هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ ويتنقمون من الظالم على الوجه الذي جعل الله له ورخصه فيه، لدفع الذل عن نفسه، وردع الظالم من الجرأة على الضعفاء، وهو وصفهم بالشجاعة والصلابة في الدين بعد وصفهم بسائر أمهات الفضائل، ولا تنافي بين مدحهم بالعفو عند الغضب وكظم الغيظ، وبين مدحهم بعدم الرضا بالظلم عليهم، وتحمل الذل، وتضييع حقهم، وإقدامهم على إحقاق حقهم من الظالم، فإنه من إباء النفس الذي هو من الفضائل.

### وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ [٤٠]

ثم لما رخص سبحانه في الانتقام من الظالم، بين حكمه بقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ﴾ وجناية صادرة من المسيء والجاني إن أردتم المجازاة ﴿سَيِّئَةٍ﴾ وجناية ﴿مِثْلُهَا﴾ لا تزيد عليها، وإنما اطلق اسم السيئة على الجزاء باعتبار أنه يسوء الآخر ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ عن المسيء، ولم يقابل إساءته بإساءة ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بينه وبين من يُعادي بالعفو والإغضاء ﴿فَأَجْرُهُ﴾ العظيم ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ وفي إيهام الأجر إشعاراً بغاية عظمته، بحيث لا يمكن وصفه وتحديده.

في فضيلة العفو عن المسيء روي أن أبا بكر كان عند النبي ﷺ، ورجل من المنافقين يشبهه، وأبو بكر لم يُجبه، ورسول الله ﷺ ساكت يتبسم، فأجابه أبو بكر، فقام النبي ﷺ وذهب. فقال أبو بكر: يا رسول الله، ما دام يُسبني كنت جالساً، فلما أجبتة قمت؟ فقال النبي ﷺ: «إن ملكاً يجيبه عنك، فلما أجبتة ذهب وجاء الشيطان، وأنا لا أكون في مجلس يكون هناك الشيطان» فنزل ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾<sup>٤</sup>.

وفي حديث عامي: «إذا كان يوم القيامة ينادي مناد: أين العافون عن الناس؟ هلموا إلى ربكم،

١. مجمع البيان ٩: ٥١، تفسير الصافي ٤: ٣٧٨. ٢. تفسير القمي ٢: ٢٧٧، تفسير الصافي ٤: ٣٧٨.

٣. صحيح مسلم ٢: ١٠٥٠/٦٩٧، صحيح البخاري ٨: ٥١/٢٠، تفسير روح البيان ٨: ٣٣٢.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٥.

وَأَخَذُوا أَجُورَكُمْ، وَحَقٌّ لِّكُلِّ مُسْلِمٍ إِذَا عَفَا أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ<sup>١</sup>.

وعنه عليه السلام: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْخَلْقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَادَىٰ مَنَادٌ: أَيُّنَ أَهْلِ الْفَضْلِ؟ يَقُومُ نَاسٌ، وَهَمَّ قَلِيلُونَ، فَيَنْطَلِقُونَ سِرَاعاً إِلَى الْجَنَّةِ، فَتَلْقَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ، يَقُولُونَ: إِنَّا نَرَاكُمْ سِرَاعاً إِلَى الْجَنَّةِ، فَمَنْ أَنْتُمْ؟ يَقُولُونَ: نَحْنُ أَهْلُ الْفَضْلِ، يَقُولُونَ: وَمَا كَانَ فَضْلُكُمْ؟ يَقُولُونَ: كُنَّا إِذَا ظَلَمْنَا صَبْرْنَا، وَإِذَا سَيَّءَ إِلَيْنَا اغْتَفَرْنَا، وَإِذَا جَهِلَ عَلَيْنَا حَلَمْنَا، يَقُولُونَ لَهُمْ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ، فَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ<sup>٢</sup>.

وعن (المجمع) عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَادَىٰ مَنَادٌ: مَنْ كَانَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ فَلْيَدْخُلِ الْجَنَّةَ؟» فيقال: مَنْ ذَا الَّذِي أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ؟ فيقال: الْعَافُونَ عَنِ النَّاسِ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ<sup>٣</sup>. وعن الصادق عليه السلام قال: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: عَلَيْكُمْ بِالْعَفْوِ، فَإِنَّ الْعَفْوَ لَا يَزِيدُ الْعَبْدَ إِلَّا عِزًّا، فَتَعَارَفُوا يُعَزِّكُمْ اللَّهُ<sup>٤</sup>.

ثُمَّ أَعْلَنَ سُبْحَانَهُ بِغَضَبِهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ مِنْهُمْ مَنْ اقْتَصَصَ زَائِدًا عَلَى الْمَثَلِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ﴾ تَعَالَى ﴿لَا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ وَيَقْطَعُ عَنْهُمْ رَحْمَتَهُ، سَوَاءٌ كَانُوا مُبْتَدئين بِالظُّلْمِ، أَوْ مُتَجَاوِزِينَ فِي الْقِصَاصِ عَلَى الْمَثَلِ.

قِيلَ: فِي إِخْبَارِهِ تَعَالَى بِعَدَمِ حُبِّهِ لِلظَّالِمِينَ بَعْدَ الْحَقِّ عَلَى الْعَفْوِ عَنْهُ، تَنْبِيْهُ عَلَى أَنَّ الْعَفْوَ عَنِ الْمُؤْمِنِ - الَّذِي هُوَ حَبِيبُ اللَّهِ - أَوْلَى، وَفِيهِ مَا لَا يَخْفَى<sup>٥</sup>.

وَلَمَنْ اتَّقَصَّرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ \* إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ \* وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ [٤١-٤٣]

ثُمَّ تَبَّهَ سُبْحَانَهُ عَلَى أَنَّهُ لَا مُوَاخَذَةَ عَلَى الْمَظْلُومِ فِي انتِصَارِهِ وَانتِقَامِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَمَنْ اتَّقَصَّرَ﴾ وَانْتَقَمَ مِنَ الظَّالِمِ ﴿بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ وَإِسَائَتِهِ إِلَيْهِ ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الْمُنْتَصِرُونَ ﴿مَا عَلَيْهِمْ﴾ لِأَحَدٍ ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾ بِالْمُعَابَةِ أَوْ الْمَوَاخَذَةِ: لِأَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا أُبِيحَ لَهُمْ مِنَ الْإِنتِقَامِ<sup>٦</sup> ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ بِالْمُعَابَةِ ﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ بِأَنَّهُمْ يَبْذُوهُمْ بِالظُّلْمِ، أَوْ يَعْتَدُوا فِي الْإِنتِقَامِ ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ وَيَتَجَبَّرُونَ فِيهَا ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بِأَنَّهُمْ يَدْعَوْنَ الْأُلُوهِيَّةَ أَوْ النَّبُوَّةَ أَوْ الْإِمَامَةَ ﴿أُولَئِكَ﴾ الظَّالِمُونَ وَالْبَاغُونَ ﴿لَهُمْ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لِظُلْمِهِمْ وَبَغْيِهِمْ مُضَافًا إِلَى الْقِصَاصِ وَالْحَدِّ فِي الدُّنْيَا ﴿وَقَدْ﴾ وَاللَّهُ ﴿لَمَنْ صَبَرَ﴾

١. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٥.

٣. مجمع البيان ٩: ٥١، تفسير الصافي ٤: ٣٧٩.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٢٣٦.

٤. الكافي ٢: ٥/٨٨، تفسير الصافي ٤: ٣٧٩.

٦. في النسخة: الانصار.

٥. تفسير الرازي ٢٧: ١٨١.



على أذى المؤمنين وإساءتهم إليه ﴿وَعَفَّرَ﴾ لمن ظلمه وآذاه ولم يتنصر، وفوض أمره إلى الله ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الصبر ﴿لَكُنْ عَزْمُ الْأُمُورِ﴾ وواجبات الأعمال، لكونه من كمال النفس، وصفات الرب، وكرائم الأخلاق، وفي تأكيد الخبر باللام دلالة على غاية محبوبيته عند الله.

وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ \* وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ \* وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ [٤٦-٤٤]

ثم بالغ سبحانه في تهديد الظالمين بقوله: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾ عن طريق الجنة بخذلانه حتى يرتكب الظلم على المؤمنين ﴿فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ﴾ ومراعي صلاح يوقفه للخير وسلوك طريق الصواب والجنة ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ تعالى وبعد خذلانه ﴿وَتَرَى﴾ يا محمد، أو يأمن له البصر ﴿الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم، وعلى المؤمنين ﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ يوم القيامة ﴿يَقُولُونَ﴾ تحسراً وتميئاً: يا رب ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ﴾ ورجوع إلى الدنيا ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾ حتى تتدارك ما فاتنا من الأعمال الصالحة، ونوب مما ارتكبنا من الظلم والأعمال السيئة ﴿وَتَرَاهُمْ﴾ أيها الرائي أنهم يساقون إلى النار و﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ حال كونهم ﴿خَاشِعِينَ﴾ وحقيرين، أو مرخين أجفانهم بسبب ما لهم ﴿مِنْ الذَّلِّ﴾ والهوان، وهم ﴿يَنْظُرُونَ﴾ إلى النار ﴿مِنْ طَرْفٍ﴾ وتحريك ضعيف لأجفانهم ﴿خَفِيٍّ﴾ على غيرهم نظرهم إليها، يُعَبَّرُ عن هذا النظر باستراق النظر، لأنهم لا يُقَدِّرون على أن يملأوا عيونهم منها من شدة الخوف وغاية الذل.

وقيل: إن المراد أنهم ينظرون النار ببصار قلوبهم لا بأعينهم؛ لأنهم يُحْشَرُونَ عُمِيًّا، أو يُسْحَبُونَ على وجوههم<sup>١</sup>. وقيل: لا يرفعون أجفانهم من خجلة المؤمنين<sup>٢</sup>.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ حين رأوهم على تلك الحالة تويخاً لهم: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أشد الخسران هم الكفار والعصاة ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا﴾ وأضرّوا ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ بتعرضها للعذاب بسبب اختيارهم الشرك، وارتكابهم العصيان ﴿وَأَضْرَوْا أَهْلِيَهُمْ﴾ من أزواجهم وأولادهم وأقاربهم، بمنعهم عن الإيمان، وترغيبهم إلى الكفر والطغيان، ولم يُقَوِّمهم من النار ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

ثم بين سبحانه كيفية خسرانهم بقوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَا﴾ اعلموا أنها العقلاء: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ والكافرين في الآخرة متمكنون ﴿فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ دائم لا انقطاع له أبداً. قيل: إنه من تمام كلام المؤمنين<sup>١</sup> ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ﴾ في ذلك اليوم ﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ وأصدقاء ﴿يَنْصُرُونَهُمْ﴾ بدفع العذاب ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ حسبما كانوا يرجون ذلك في الدنيا من أصنامهم ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾ ويحرفه عن طريق الحق ﴿فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ يُوْدِي سلوكه إلى النجاة من العذاب.

أَسْتَجِيبُوا لِلرَّبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ  
يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ \* فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا إِنْ عَلَيْكَ  
إِلَّا الْإِبْلَاجُ [٤٧ و ٤٨]

ثم إنه تعالى بعد التهديدات الشديدة، وعظ الناس بقوله تبارك وتعالى: ﴿أَسْتَجِيبُوا﴾ أيها الناس ﴿لِلرَّبِّكُمْ﴾ اللطيف بكم حين دعاكم بلسان رسوله إلى الإيمان ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ﴾ كم ﴿يَوْمٌ﴾ كثير الأحوال ﴿لَا مَرَدَّ﴾ ولا دافع ﴿لَهُ مِنْ﴾ قبل ﴿اللَّهُ﴾ القادر العظيم بعد ما حكم ووعد به، أو المراد من قبل أن يأتي من الله يوم لا يمكن رده لأحد.

وقيل: إنه يوم الموت، ومعنى ﴿لَا مَرَدَّ لَهُ﴾ أنه لا يقبل التقديم والتأخير<sup>٢</sup>.

وقيل: إنه يوم القيامة، ومعنى (لا مرد له) أنه لا يمكن فيه الرد إلى الدنيا<sup>٣</sup>. ﴿مَا لَكُمْ﴾ أيها العصاة من عذاب الله ﴿مِنْ مَلْجَأٍ﴾ ومخلص ﴿يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ يُنْكِر علينا تعذيبكم، فترفع العذاب عنكم باعتراضه علينا، أو المراد ليس لكم إنكار ما اقترحتموه من المعاصي؛ لأنها مدونة في صحائف أعمالكم، وتشهد عليها الكرام الكاتبين وجوارحكم<sup>٤</sup>.

ثم سلى سبحانه نبيه ﷺ كي لا يتأثر قلبه الشريف من اعتراض المشركين والمعاندين عن دعوة الله إليهم إلى الإيمان ووعد به وعيده بقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن استجابة دعوة الله إلى الإيمان، ولم يعتنوا بدعائك إليه ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ إليهم لتكون ﴿عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ ورقبياً تمنعهم عن الكفر والأعمال السيئة، وتقرهم على الاستجابة ﴿إِنْ عَلَيْكَ﴾ وما شأنك ووظيفتك ﴿إِلَّا الْإِبْلَاجُ﴾ وأداء ما أرسلت به إليهم، وقد أديت بأكمل الأداء، فلا يهملك إعراضهم، فإن ضرره عليهم لا عليك.

إِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَّحْنَا بِهَا وَإِنْ تَصِيبُهُمُ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ

١. تفسير أبي السعود ٨: ٣٦.

٢. مجمع البيان ٩: ٥٤، تفسير الرازي ٢٧: ١٨٣.

٣. مجمع البيان ٩: ٥٤، تفسير الرازي ٢٧: ١٨٣.

٤. تفسير أبي السعود ٨: ٣٦.

## فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ [٤٨]

ثُمَّ تَبَّ سُبْحَانَهُ عَلَى أَنْ سَبَّ إِعْرَاضَهُمْ لَيْسَ إِلَّا الْغُرُورُ بِالدُّنْيَا، وَالْإِنْهَمَاكُ فِي شَهَوَاتِهَا، وَكُفْرَانِهِمْ نِعَمَ اللَّهِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا﴾ و﴿بَلَطْنَا رَحْمَةً﴾ وَنِعْمَةً مِنَ الصِّحَّةِ وَالْغِنَى وَالْأَمْنِ وَالْأَوْلَادِ وَالرَّائِسَةِ وَالْجَاهِ ﴿فَرَحَ﴾ وَاعْتَرَى بِهَا وَبَطَرَ لِأَجْلِهَا، وَيَظُنُّ أَنَّ هَذَا الْقَدَرَ مِنْ نِعَمِ الدُّنْيَا فَازَ بِكُلِّ الثَّمَنِ، وَوَصَلَ إِلَى أَعْلَى السَّعَادَاتِ، لَعَدَمَ تَصَوُّرِهِ السَّعَادَةَ الْآخِرِيَّةَ الَّتِي جَمِيعُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَقَلِّ قَلِيلٍ مِنْهَا كَالْقَطْرَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْبَحْرِ الْمَحِيطِ ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ﴾ وَوَرَدَتْ عَلَيْهِمْ ﴿سَيِّئَةٌ﴾ وَبَلِيَّةٌ كَالْفَقْرِ وَالْمَرَضِ وَالْخَوْفِ وَنَحْوِهِمَا ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أُيْدِيَهُمْ﴾ وَبِسَبَبِ مَا أَرْتَكِبْتَهُ جَوَارِحَهُمْ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْقَبَاحِ ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ لَاسْتِعْظَامَهُ تِلْكَ الْبَلِيَّةَ يَنْسَى النِّعَمَ الْإِلَهِيَّةَ، لِأَنَّهُ بِالطَّبَعِ ﴿كَفُورٌ﴾ مُبَالِغٌ فِي الْإِعْرَاضِ عَنِ الشُّكْرِ، إِلَّا مِنْ وَقْفِهِ اللَّهِ لِأَدَائِهِ، وَعَصَمِهِ مِنَ الْكُفْرَانِ.

قِيلَ: فِي تَصْدِيرِ الشَّرْطِيَّةِ الْأُولَى بِإِذَا، وَإِسْنَادِ الْإِذَاقَةِ إِلَى نُونِ الْعِظْمَةِ، تَنْبِيْهُ عَلَى أَنَّ إِصْصَالَ النِّعْمَةِ مُحَقَّقٌ كَثِيرُ الْوُقُوعِ، وَأَنَّهُ مُقْتَضَى ذَاتُهُ الْمَقْدَسَةِ، وَفِي تَصْدِيرِ الثَّانِيَةِ بِأَنَّ الشَّرْطِيَّةَ، وَإِسْنَادِ الْإِصَابَةِ إِلَى السَّيِّئَةِ، وَتَعْلِيلِهَا بِأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ إِذَا بَدَرَتْ وَقُوعَهَا، وَأَنَّهَا بِالْعَارِضِ فِي وَضْعِ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْكُفْرَانَ مُقْتَضَى طَبِيعِ الْإِنْسَانِ<sup>١</sup>.

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ \* أَوْ يَزْوَجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ [٤٩ و ٥٠]

ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ نِعَمَ الدُّنْيَا عَلَى الْإِنْسَانِ بِرَحْمَتِهِ، وَابْتِلَانَهُ بِالْبَلِيَّاتِ بِمَعَاصِيهِ وَسَيِّئَاتِهِ، بَيَّنَّ قُدْرَتَهُ الْكَامِلَةَ عَلَى التَّصَرُّفِ فِي جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ، وَسُلْطَتَهُ الْمَطْلُوقَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُ﴾ وَحْدَهُ ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وَالسُّلْطَانَةُ التَّامَّةُ فِي عَوَالِمِ الْمُلْكِ وَالْمَمْلُوكَاتِ، لَيْسَ لغيرِهِ فِيهَا مُلْكٌ وَمِلْكٌ يُعْتَرَى بِهِ، بَلْ كُلَّمَا كَانَ لغيرِهِ مِنَ النِّعَمِ فَهُوَ بِعَطَانِهِ، وَعَلَيْهِ الشُّكْرُ، وَكُلَّمَا أَصَابَهُ مِنَ الْبَلِيَّةِ فَهُوَ بِإِرَادَتِهِ تَعَالَى، وَعَلَيْهِ الصَّبْرُ وَالتَّسْلِيمُ وَالرِّضَا، وَمِنْ دَلَالَتِ سُلْطَانَتِهِ أَنَّهُ تَعَالَى ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ خَلْقَهُ، وَلَا يَقْدِرُ غَيْرُهُ عَلَى خَلْقِ شَيْءٍ، وَمِنْ أَظْهَرِ تَصَرُّفَاتِهِ أَنَّهُ بِقُدْرَتِهِ وَحُكْمَتِهِ ﴿يَهَبُ﴾ وَيُعْطِي بِلا عَوْضٍ ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ مِنْ نَوْعِ الْإِنْسَانِ أَوْلَادًا ﴿إِنِاثًا﴾ فَقَطْ ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ مِنْهُمْ ﴿الذَّكُورَ﴾ مِنَ الْأَوْلَادِ فَقَطْ.

١. تفسير البضاوي ٢: ٣٦٦، تفسير أبي السعود ٨: ٣٦، تفسير روح البيان ٨: ٣٤١.

عن الباقر عليه السلام: «يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا» يعني ليس معهن ذكر<sup>١</sup> «وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَوْرَ» يعني ليس معهم أنثى.

«أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا» ويجعلهما معاً لشخص واحد، فيكون له البنين والبنات. وفي الرواية الباقية: «أي يهب لمن يشاء ذكراً وإناثاً جميعاً، يجمع له البنين والبنات»<sup>٢</sup> الخبر.

في فضيلة احسان      وإنما قدّم سبحانه ذكر الإناث أولاً على ذكر الذكور، قيل: لأنها أكثر، لتكثير النسل، والوالدين إلى البنات      وللطبيب قلوب أبائهن، باظهار العناية بهن، والتشريف لهن، والتوبيخ لمن كان يكرهها ويذفنّها في التراب في [حال حياتها]، ولرعاية الترتيب الواقع في الوجود حيث وهب الله لآدم أولاً حواء<sup>٣</sup>.

وفي الحديث: «من بركة المرأة تبكيها بالبنات، ألم تسمع قوله: «يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَوْرَ» حيث بدأ بالإناث<sup>٤</sup>، وللتنبية بأن الالتفات إلى الضعيف أولى، والإحسان إليه الزم. وفي الحديث: «من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن، كنّ له سترًا من النار»<sup>٥</sup>.

وفي تقديم الذكور على الإناث في الآية إيماء إلى فضيلة الذكور على الإناث، كما أنّ في تعريف الذكور في الآية الأولى إيماء إلى ذلك، مضافاً إلى المحافظة على الفواصل، وإنما لم يذكر الهبة في إعطائهما؛ لأن المقصود بيان نعمة اقترانهما لشخص واحد بعد بيان كون كلّ واحد منهما من مواهب الله «وَيَجْعَلُ» الله بقدرته «مَنْ يَشَاءُ» عقمه وعدم التولد منه «عَقِيماً» لا تلد ولا يولد له «إِنَّهُ» تعالى «عَلِيمٌ» بحقائق الأشياء ومصالحها، والحكم الكامنة فيها «قَدِيرٌ» على إنقاذ إرادته، فيفعل بحكمته وقدرته كلّما فيه حكمةً وصلاًحاً.

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيّاً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً  
فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ [٥١]

ثمّ إنّ تعالى بعد بيان كمال قدرته وسلطته وحكمته، يبيّن علوّ شأنه، ورفعه مقامه من أن يواجهه أحد بالكلام، وكيفية تعليمه الأنبياء والرسل العلوم والحقائق بقوله تبارك وتعالى: «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ» وما صحّ، وما أمكن لإنسان «أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ» ويخاطبه «إِلَّا» بأحد الوجوه الثلاثة: إمّا يكلمه «وَخِيّاً» وإلهاماً وقذفاً في القلب في اليقظة أو النوم براءته الرؤيا «أَوْ» يُشَافِهه بالكلام في اليقظة

١. في النسخة: الذكور. ٢. تفسير القمي: ٢: ٢٧٨، تفسير الصافي: ٤: ٣٨١.

٣. تفسير روح البيان: ٨: ٣٤٢. ٤. تفسير روح البيان: ٨: ٣٤٢.

٥. تفسير روح البيان: ٨: ٣٤٢.

بإيجاد الصوت والكلام من غير رؤية المتكلم كتكلم من يتكلم ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ وستر ﴿أَوْ﴾ يكلمه بتوسط الملك بأن ﴿يُزِيلُ﴾ من قبله ﴿رَسُولًا﴾ من الملائكة كجبرئيل عليه السلام ﴿فَيُوحِي﴾ ذلك الملك إلى البشر الذي أرسله الله إليه ﴿يَاذُنِي﴾ وأمره ﴿مَا يَشَاءُ﴾ أن يوحيه إليه من المطالب والحقائق.

عن النبي ﷺ أنه قال: «من الأنبياء من يسمع الصوت فيكون بذلك نبياً، ومنهم من يُنْفَث في أذنه وقلبه فيكون بذلك نبياً، وإن جبرئيل يأتيني فيُكَلِّمُنِي كما يُكَلِّمُ أَحَدَ صَاحِبِهِ»<sup>١</sup>.

وعن عائشة: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم<sup>٢</sup> عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» قالت: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم<sup>٣</sup> عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً<sup>٤</sup>.

﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿عَلِيٌّ﴾ عن مواجهة الناس ومشابهة المخلوقين، متعالٍ عن صفاتهم، فلا يكون المفارقة بينه وبينهم إلا بالوجه المذكورة ﴿حَكِيمٌ﴾ وعليمٌ بجميع المصالح وقابليات الأشخاص، فيكلم بعض الأنبياء بلا واسطة، وبعضهم بالواسطة، وبعضهم إلهاماً على حسب اختلاف درجاتهم وكمالهم.

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ  
وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ  
مُسْتَقِيمٍ \* صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ  
تَصِيرُ الْأُمُورُ [٥٢ و ٥٣]

ثم لما بين سبحانه كيفية الإحياء إلى الأنبياء، عظم شأن ما أوحى إلى رسوله بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الإحياء البديع الذي كان لسانر الأنبياء ومثله ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد، القرآن الذي يكون ﴿رُوحاً﴾ وسبباً للحياة الطيبة الأبدية للقلوب الميتة بالجهل والضلال والكفر. قيل: إن المراد بالروح جبرئيل، وإحياءه إليه إرساله إليه بالوحي<sup>٥</sup>.

١. أفصم الشيء: ذهب وانكشف.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٤٥.

٣. في النسخة: يفصد. ٤. تفسير روح البيان ٨: ٣٤٥، وفيه: جبينه ليتفصد عرقاً.

٥. تفسير أبي السعود ٨: ٣٨، تفسير روح البيان ٨: ٣٤٧.

وعن الصادق عليه السلام: «أَنَّهُ خَلَقَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ أَعْظَمَ مِنْ جَبْرَيْلَ وَمِيكَائِيلَ، كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُخْبِرُهُ وَيُسَدِّدُهُ، وَهُوَ مَعَ الْأَنْمَةِ مِنْ بَعْدِهِ»<sup>١</sup>.

وعلى أي تقدير، كان ذلك الإحياء بالقرآن ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ في وقت ﴿مَا كُنْتَ تَذَرِي﴾ في ذلك الوقت ﴿مَا أَلْكَتَابُ﴾ وأي شيء القرآن ﴿وَلَا﴾ تدري ما ﴿الْإِيمَانُ﴾ وتضاعيف ذلك من الأمور التي لا يدركها البشر إلا بالوحي ﴿وَلَكِنْ﴾ أنزلنا القرآن و ﴿جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ وضياءً ﴿تَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ﴾ هدايته ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ بالتوفيق لتصديقه، والنظر فيه ﴿وَأِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿تَهْدِي﴾ بالدعوة والتبليغ عموم الناس ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ والدين القويم الذي لا أعوجاج فيه.

ثم عظم سبحانه ذلك الصراط ومدحه بقوله تعالى: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً وتصرفاً، وفيه تقرير استقامته، وتقرير وجوب سلوكه.

ثم هدّد الناس على التخلف عنه بقوله تعالى: ﴿أَلَا﴾ اعلّموا أيّها الناس أَنَّهُ ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ العظيم المالك لعالم الملك والملكوت ﴿تَصِيرُ﴾ وترجع ﴿الْأُمُورُ﴾ المتعلقة بجميع الموجودات، وبيده في الدنيا والآخرة تدبيرها، لا يخرج شيء عن حكمه، ولا يمتنع من قضائه، فيجازيكم بأعمالكم، ويُعاقبكم على عصيانكم.

عن الصادق عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ حَمِّ عَسَقَ بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَالْتَلَجِّ، أَوْ كَالشَّمْسِ، حَتَّى يَقِفَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَقُولُ: عَبْدِي أَدْمَنْتَ قِرَاءَةَ حَمْعَسَقَ وَلَمْ تَدْرِ ثَوَابَهَا، أَمَا لَوْ دَرَيْتَ مَا هِيَ وَمَا ثَوَابُهَا مَا مَلَلْتُ مِنْ قِرَاءَتِهَا، وَلَكِنْ سَأَجْزِيكَ جَزَاءَكَ، أَدْخَلُوهُ الْجَنَّةَ، وَلَهُ فِيهَا قَصْرٌ مِنْ يَاقُوتَ حُمْرَاءَ، أَبْوَابُهَا وَشُرَفُهَا وَدَرَجَاتُهَا، يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا، وَلَهُ فِيهَا حُورًاوَانٌ مِنْ حُورِ الْعَيْنِ، وَأَلْفٌ جَارِيَةٌ وَأَلْفٌ غَلَامٌ مِنَ الْغُلَمَانِ الْمُخْلَدِينَ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى»<sup>٢</sup>.

الحمد لله على التوفيق لإتمام تفسيرها وتلاوتها

١. الكافي ١: ١/٢١٤، تفسير الصافي ٤: ٣٨١.

٢. ثواب الأعمال: ١١٣، مجمع البيان ٩: ٣١، تفسير الصافي ٤: ٣٨٣.

## في تفسير سورة الزخرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم \* وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ \* إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [١ - ٣]

ثم لما خُتِمت سورة الشورى المبدوءة بتعظيم القرآن ومدحه، المتضمنة للمنة على العرب بإنزاله بلغتهم ولسانهم، وللاستدلال على التوحيد والمعاد، وذم المجادلين في الآيات المختصة بمدح القرآن، والتهديد على مخالفته، نُظِمت سورة الزخرف المبدوءة بتعظيم القرآن ومدحه، وإظهار المنة على العرب بإنزاله بلغتهم ولسانهم، ثم تهديد المعارضين له والطاعنين فيه، المتضمنة لأدلة التوحيد وذم المجادلين فيه، وغير ذلك من المطالب العالية المناسبة لما في السورة السابقة، فابتدأها بذكر الأسماء المباركات بقوله تبارك وتعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثم افتتحها جلَّ شأنه بلفظ ﴿حَم﴾ وقد مرَّ أن الحرفين رمان من اسمين من الاسماء الحسنى، أو أنها اسم للسورة، أو القرآن، وعلى هذين القولين يكون المعنى هذه السورة أو هذا القرآن حم. ثم حلف سبحانه بكتابه إظهاراً لعظمته بقوله: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ والواضح الدلالة للذين أنزل إليهم، أو المظهر للذين الحق، والصراط المستقيم، أو المبين للهدى من الضلال والحق من الباطل، والخير من الشر، والسعادة من الشقاوة.

ثم ذكر سبحانه المُقسم عليه بقوله: ﴿إِنَّا﴾ أنزلنا و ﴿جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ وركبناه من الكلمات المتداولة على ألسنتكم أيها العرب على نحو عَجَزَتْ جميع الفصحاء عن إتيان سورة مثله ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وتفهمون ما فيه من العقائد الحقّة، والأحكام المُحكّمة، والعلوم النافعة، والحكم البالغة، والمواعظ الشافية، والعبر الوافية.

وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ [٤]

ثم بالغ سبحانه في مدحه بقوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ واللّوح المحفوظ الذي هو أصل الكتب السماوية مثبت ومضبوط، وهو ﴿لَدَيْنَا﴾ وعندنا والله ﴿لَعَلِّي﴾ قدراً، ورفيع شأنًا، أو لعلّي عن طُرو

الفساد والبطلان، أو لعلي على سائر الكتب السماوية، لكونه معجزةً باقيةً إلى آخر الدهر و﴿حَكِيمٌ﴾ ومُحَكَّمٌ لا يتطرق إليه النسخ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أو مُحَكَّمٌ في البلاغة والبداعة، أو ذو حكمة بالغة، وقيل: إن الوصفين للوَح المحفوظ - كما عن ابن عباس رضي الله عنه - وإنما خصه الله بالتشريف لكونه جامعاً لأحوال جميع المحدثات<sup>١</sup>.

عن ابن عباس: إن أول ما خلق الله القلم، فأمره أن يكتب ما يريد أن يخلق<sup>٢</sup>.

قيل: إن ذلك ليشاهد الملائكة موافقة المحدثات لما في ذلك اللوح، فيعلموا كمال علم الله وحكمته<sup>٣</sup>.

وقيل: إن المراد من أم الكتاب الآيات المحكمات، والمعنى أن حَم واقعة في الآيات المحكمات التي هي الأصل والأَم<sup>٤</sup>.

وعن الصادق عليه السلام في تأويله: «هو أمير المؤمنين عليه السلام في أم الكتاب، يعني الفاتحة، فإنه مكتوب فيها في قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾<sup>٥</sup> قال: ﴿الصراط المستقيم﴾ هو أمير المؤمنين عليه السلام ومعرفته».

أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ \* وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ \* وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ \* فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ [٥-٨]

ثم أنكر سبحانه على نفسه بعد بيان جعل القرآن عربياً أن يترك اللطف بالعرب، أو بقرش بقوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾. قيل: إن التقدير أنه يهلككم أيها العرب، أو يا قرش؟ فنحنى ﴿الذِّكْرَ﴾ وتباعد القرآن عنكم، وترك الأمر والنهي والوعد والوعيد<sup>٦</sup> بالنسبة إليكم، أو نرد عنكم المواعظ والنصائح<sup>٧</sup>، أو ذكر العذاب<sup>٨</sup> ﴿صَفْحًا﴾ وإعراضاً عنكم لأجل ﴿أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ ومتجاوزين عن الحد في الإصرار على الشرك والعصيان. ولا والله لا نفعل ذلك لسعة رحمتنا، بل ثم الحجة عليكم بإرسال الرسول وإنزال الكتاب بلسانكم، لئلا تقولوا يوم القيامة: ﴿إنما أنزل الكتاب

٣. تفسير الرازي ٢٧: ١٩٤.

١ و ٢. تفسير الرازي ٢٧: ١٩٤.

٤. تفسير الرازي ٢٧: ١٩٤.

٥. معاني الأخبار: ٣٢/٣، «بتقديم وتأخير»، تفسير الصافي ٤: ٣٨٤.

٧. تفسير الرازي ٢٧: ١٩٥.

٦. تفسير روح البيان ٨: ٣٥١.

٨. تفسير الرازي ٢٧: ١٩٥.



على طائفتين من قبلنا وان كنا عن دراستهم لغافلين<sup>١</sup>.

عن قتادة: لو أن هذا القرآن رُفِع حين رَدَّه أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله برحمته كَرَّره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة<sup>٢</sup>.

والحاصل والله أعلم: إنا لا نترككم مع سوء اختياركم، بل نذكركم ونُعْظِكم كي ترجعوا عما أنتم عليه إلى الدين الحق.

ثم ذكر سبحانه عادة الأمم السابقة في تكذيب الرسل والكتب السماوية وإهلاكهم بالعذاب عِظة للمشرِكين وتهديداً لهم وتسليةً للرسول بقوله: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا﴾ وكثيراً ما بعثنا ﴿مِّن نَّبِيِّ﴾ من قبلنا ﴿فِي﴾ الأمم ﴿الْأُولَى﴾ والقرون الماضية ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ﴾ من قبلنا ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ يدعوهم إلى الإيمان بالتوحيد والعمل بالدين الحق ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾ ومنه يَسْخَرُونَ، فلا تتأذوا محمد من تكذيب قومك واستهزائهم بك، فإن البلية إذا عَمَّت طابت ﴿فَأَهْلَكْنَا﴾ هم بالعذاب مع أنهم كانوا ﴿أَشَدَّ﴾ من قومك وأكثر ﴿مِنْهُمْ بَطْشاً﴾ وقوةً وعِدَّةً، ولم يمنعنا عن إهلاكهم بطشهم وقوتهم، وما قدرُوا على معارضتنا ﴿وَمَضَى﴾ وسَلَفَ في القرآن ﴿مَثَلُ﴾ الأمم ﴿الْأُولَى﴾ وحكيَنا لك قَصَّتْهم التي حَقَّقَا أن يُضْرَبَ بها المثل في الغربة، كقصّة عاد وثمود وقوم لوط وإضرابهم، فعلى قومك أن يعتبروا بهم، ويتركوا اتباعهم.

وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ \*  
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ \* وَالَّذِي  
نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ \* وَالَّذِي خَلَقَ  
الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا [٩-١٢]

ثم إنَّه تعالى بعد إسراف المشرِكين وإصرارهم على الشرك، بيَّن اعترافهم بالفطرة بالتوحيد بقوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ﴾ يا محمد، تقريراً لهم ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وعوالم المُلْك والملكوت؟ والله ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ بالفطرة في الجواب ويعترفن البتة بأنَّه ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ الله الذي هو ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على مُلكه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بجميع مخلوقاته وأحوالهم، لعدم إمكان خلقهن من العاجز الجاهل كالأصنام والأوثان.

قيل: جوابهم خلقهم الله<sup>١</sup>، ولما كان لازم اعترافهم كون الخلق واجداً للمقدرة والعلم، وصف سبحانه ذاته المقدسة بالوصفين، وفيه توبيخهم بأنه مع اعترافهم بذلك يعبدون غيره. ويُكبرون قدرته على البعث.

ثم شرع سبحانه في وصف ذاته بكمال القدرة والحكمة مخاطباً للمشركين بقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ وَصِيرَ ﴿لَكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمَشْرُكُونَ ﴿الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ وَمَكَانًا تَسْقَرُونَ عَلَيْهِ، وَمَسْكَنًا تَنَامُونَ وَتَقْلَبُونَ عَلَيْهِ، كَمَا يَتَقَلَّبُ أَحَدُكُمْ عَلَى فِرَاشِهِ ﴿وَجَعَلَ﴾ بَلْطَفِهِ ﴿لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ وَطَرِيقًا سَهْلَ الْعُبُورِ مِنْهَا، تَسْلُكُونَهَا فِي أَسْفَارِكُمُ لِلتَّجَارَةِ وَسَائِرِ الْمَقَاصِدِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بَسْلُوكُهَا ﴿تَهْتَدُونَ﴾ إِلَى مَقَاصِدِكُمْ، وَكَيْ تَصِلُوا إِلَى الْبِلَادِ الَّتِي فِيهَا مُحَاوِجِكُمْ، أَوْ لِكَيْ تَهْتَدُوا بِالتَّفَكُّرِ فِيهَا إِلَى تَوْحِيدِ رَبِّكُمْ الَّذِي هُوَ الْمَقْصَدُ الْأَسْنَى ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ﴾ بِقُدْرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ الْمَطْلُ، أَوْ مِنْ جِهَةِ الْعُلُوفِ ﴿مَاءً﴾ نَافِعًا بِالْأَمْطَارِ ﴿بِقُدْرٍ﴾ وَحَدٍّ يَنْفَعُكُمْ وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿فَأَنْشَرْنَا﴾ بِذَلِكَ الْمَاءِ وَأَحْيَيْنَا ﴿بِهِ بَلْدَةً﴾ وَمَكَانًا ﴿مَيِّتًا﴾ وَيَأْسًا لَا نَبَاتَ لَهُ، وَلَا انْتِفَاعَ بِهِ ﴿كَذَلِكَ﴾ الْإِحْيَاءُ تَحْيَوْنَ ثَانِيًا، وَمِثْلُ إِخْرَاجِ النَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ ﴿تُخْرِجُونَ﴾ مِنَ الْقُبُورِ، وَتُخْشَرُونَ لِلْحَسَابِ، وَفِي التَّعْبِيرِ عَنْ إِحْيَائِهِمْ بِالْإِخْرَاجِ تَهْوِينِ لِأَمْرِ الْبَعْثِ ﴿وَالَّذِي خَلَقَ﴾ بِقُدْرَتِهِ ﴿الْأَزْوَاجَ﴾ وَالْأَنْوَاعَ الْمُخْتَلِفَةَ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ ﴿كُلَّهَا﴾ كَالْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ، وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، وَالْحَلُوِّ وَالْحَامِضِ، كَمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>٢</sup>.

قيل: إنَّ جميع ما سوى الله زوج كالفوق والتحت، واليمين والشمال، والقُدَامِ والخلف، والماضي والمستقبل، والذوات والصفات، والصيف والشتاء، والربيع والخريف، والليل والنهار، إلى غير ذلك<sup>٣</sup>. أقول: جميع الممكنات زوجٌ تركيبِي مركَّب من الماهية والوجود والجنس والفصل والمادة، والصورة، فالتفرد مختصٌّ بالذات الواجب الوجود.

وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ \* لَيْسْتُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا  
نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ  
مُقْرِنِينَ \* وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ [١٢ - ١٤]

ثم إنَّه تعالى بعد إظهار المِنة على العباد بجعل السبيل، بين تسهيله السير بخلق المركب للسير بقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْفُلْكِ وَالسَّفَنِ الْجَارِيَةِ فِي الْبَحَارِ ﴿وَو﴾ مِنْ ﴿الْأَنْعَامِ﴾ كَالْإِبِلِ وَالْأَفْرَاسِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ عَلَيْهِ فِي الْبَحْرِ وَالْبَرِّ، وَتَقْدِيمِ الْفُلْكِ عَلَى الْأَنْعَامِ، لَكُنِ الْفُلْكَ أَدَلُّ

على قدرة الله وحكمته ﴿لِشَيْئُوا﴾ وتستعلوا ﴿عَلَى ظُهُورِهِ﴾ وتستقرّوا عليه، وإفراذه الضمير باعتبار اللفظ ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ عليكم ﴿إِذَا أَسْتَوَيْتُمْ﴾ واستعلتيم ﴿عَلَيْهِ﴾ وتُحْمَدوه وتشكروه ﴿وَتَقُولُوا﴾ مستعظمين قدرته وإنعامه حين الركوب ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ﴾ وذلك ﴿لَنَا هَذَا﴾ المركوب بقدرته وإحسانه مع كونه أقوى منا ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ ومماثلين في القوة والشدة، وقادرين على تذليله وضبطه إذا استصعب علينا ﴿وَأَنَّا﴾ حين انقضاء آجالنا ﴿إِلَى رَبِّنَا﴾ على مركب الخشب ﴿لَمُنْقَلِبُونَ﴾ وراجعون ومسافرون، كما ينقلب من بلدٍ إلى بلدٍ على هذا المركب، أو كما جننا في الدنيا من عند ربنا وبقدرته في أول الأمر، نقبل إليه ونرجع.

قيل: لما كان ركوب الفلك والدابة تعريض النفس للهلاك بانكسار الفلك وعثار الدابة وتُموسها، أمرنا بتذكّر الموت والانقلاب إلى الله والتوجّه إليه.<sup>١</sup>  
 في دعاء الركوب  
 والسر  
 روى الزمخشري عن النبي ﷺ أنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال: «بسم الله» فإذا استوى على الدابة قال: «الحمد لله على كلّ حال ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ إلى قوله: ﴿لَمُنْقَلِبُونَ﴾»<sup>٢</sup>.

وروى القاضي أبو بكر أن الحسن بن علي رضي الله عنهما رأى رجلاً ركب الدابة، وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ فقال له: ما بهذا أمرت، أمرت أن تقول: الحمد لله الذي هدانا لهذا لا لسلام، الحمد لله الذي منّ علينا بمحمد ﷺ، والحمد الذي جعلنا من خير أمة أخرجت للناس، ثم تقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾<sup>٣</sup>.

وروى الفخر الرازي عن النبي ﷺ أنه كان إذا سافر وركب راحلته كبر ثلاثاً، ثم يقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ ثم قال: اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا السفر، وأطعنا بعد الأرض، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة على الأهل، اللهم أصحبنا في سفرنا، وأخلفنا في أهلنا» وكان إذا رجع إلى أهله يقول: «أيبون تائبون، لربنا حامدون»<sup>٤</sup>.

في (الكافي) عن الرضا عليه السلام: «إن ركب الظهر فقل ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ الآية»<sup>٥</sup>. وعن أبيه عليه السلام: «هي إن خرجت برّاً فقل الذي قال الله عز وجل: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾

١. تفسير روح البيان ٨: ٣٥٦.

٢. الكشاف ٤: ٢٣٩، تفسير الرازي ٢٧: ١٩٩.

٣. تفسير الرازي ٢٧: ١٩٩.

٤. الكافي ٥: ٣/٢٥٦، تفسير الصافي ٤: ٣٨٥.

الآية، فإنه ليس من عبده يقولها عند ركوبه، فيقع من عبير أو دابة، فيصبيه شيء بإذن الله<sup>١</sup>.

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ \* أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ  
بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ [١٥، ١٦]

ثم إنه تعالى بعد إثبات أنه خالق الممكنات والموجودات، واعتراف المشركين بذلك، وبخهم على القول بأن الملائكة أولاده بقوله: ﴿وَجَعَلُوا﴾ وأثبتوا ﴿لَهُ﴾ تعالى ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم الملائكة ﴿جُزْءًا﴾ وولد مع أن الولد الذي جزء من والده منفصل عنه، لا يمكن أن يكون عبده وملكه، وهذا القول ليس منهم بعبير وعجيب ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ بالطبع ﴿لَكُفُورٌ﴾ مبالغ في الكفر و﴿مُبِينٌ﴾ ومظهر لكفره، ولذا يقول ما يقول.

ثم ذمهم بأنهم لم يقنعوا بهذا القول الشنيع، بل أثبتوا له أخس الأولاد، وهو البنات، وأنكر ذلك عليهم بقوله: ﴿أَمْ اتَّخَذَ﴾ الله واختار لنفسه ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ بقدرته يا قريش ﴿بَنَاتٍ﴾ موهونة عندكم، مكروهة في طباعكم ﴿وَأَصْفَاكُمْ﴾ وأترككم على نفسه بتفضيلكم ﴿بِالْبَنِينَ﴾ الذين هم خير الأولاد وأكملهم وأشرفهم، وهذا مما لا يقول به ذو مسكة، وإنما نبه على حقارة البنات بتذكير اللفظ، وعلى فخامة البنين بتعريفه، وإنما قدم ذكر نسبة البنات إلى الله، لكونها أنكر من اصطفاهاهم البنين، وفي تلوين الخطاب تأكيد الإلزام وتشديد التوبيخ.

وحاصل المراد والله العالم: حيث إنكم قلتم: إن الله ولد، مع وضوح امتناعه واستحالة، كيف أمكن منكم القول بأنه اختار لنفسه أخس الأولاد، وأترككم على نفسه بخيرهم وأشرفهم وأفضلهم، فإنه خلاف بديهة العقل.

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ \*  
أَوْ مِنْ بُنْتَانٍ فِي الْغَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ [١٧، ١٨]

ثم بين شدة كراهتهم للبنات بقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ﴾ وأخبر ﴿بِمَا صَرَبَ﴾ وجعل ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾ والإله الفياض على الممكنات ﴿مَثَلًا﴾ وشبيهاً، فإن الولد يجانس ويماثل والده ﴿ظَلَّ﴾ وصار ﴿وَجْهُهُ﴾ من سوء ما بشر به وشدة الغيظ عليه ﴿مُسْوَدًّا﴾ وأسود في الغاية. وقيل: إن أسوداد الوجه

كناية عن شدة كراهته<sup>١</sup> لما أخير به من تولد البنت له ﴿وَهُوَ﴾ بسبب إخباره لولادة البنت ﴿كَظِيمٌ﴾ ومملوء من الكرب والحزن والغضب، فإذا نقص البنت بهذه الدرجة، كيف يختارها الله لنفسه، وكيف يَسُبُّونها إليه، وهل يجوز للعاقل إثباتها له؟

ثم بالغ سبحانه في الإنكار والتوبيخ عليهم بنسبة البنات إليه بقوله: ﴿أَوَ مَنْ يُنْشَأُ﴾ ويُربى ﴿فِي الْجَنَّةِ﴾ والزينة. قيل: إن التقدير اجترءوا وجعلوا له تعالى<sup>٢</sup> من شأنه أن يُربى في الزينة لنقص نفسه و﴿هُوَ﴾ مع ذلك ﴿فِي الْخِصَامِ﴾ ومواقع الجدال مع غيره ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ وغير قادر على تقرير دعواه، وتبيين حجته، لضعف لسانه، وقلة عقله، وبلاذته ذهنه. قيل: فلما أرادت المرأة أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بما كان حجة عليها<sup>٣</sup>.

وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاءً أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ \* وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ [١٩ و ٢٠]

ثم ذمهم سبحانه بنسبة الأنوثة إلى الملائكة الذين هم أشرف المخلوقات بعد الأنبياء والرسل والأولياء بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا﴾ وحكموا بأن ﴿الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ وأكمل الخلق وأكرمهم على الله ﴿إِنَاءً﴾ والحال أنه لا يمكن الاطلاع على أنوثتهم بإدراك العقول، بل لابد من أن يكون اطلاعهم على ذلك بإخبار نبي، وهم لا يقولون به، وأبرؤية خلقة الملائكة، إذ أفاضلهم أيها العقلاء ﴿أَشْهَدُوا﴾ وحضروا ﴿خَلْقَهُمْ﴾ ورأوا أنوثتهم حتى يحكموا بها؟ لا والله ما شهدوا وما رأوا، بل كان حكمهم بتقليد آبائهم الكاذبين، ونحن ﴿سَتُكْتَبُ﴾ البتة في ديوان أعمالهم ﴿شَهَادَتُهُمْ﴾ هذه ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ يوم القيامة عنها، ويُعَذَّبُونَ بها، فعلم من تفسيرنا أن السين للتأكيد. وقيل: إنها للاستقبال والاستعطاف إلى التوبة قبل الكتابة<sup>٤</sup>.

ثم حكى سبحانه استدلالهم على صحة عبادتهم الملائكة الموجب لازدياد كفرهم بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ استدلالاً على صحة عبادتهم الملائكة، وكونها مرضية عند الله ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ﴾ أن لا نعبد الملائكة ﴿مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ فلما عبدناهم علمنا أنه شاء منا عبادتهم. ثم ردهم سبحانه بأنه ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ﴾ التلازم بين فعلهم وإرادة الله التشريعية ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ مستند إلى الدليل

٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٥٨.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٣٦٠.

١. تفسير روح البيان ٨: ٣٥٨.

٣. مجمع البيان ٩: ٦٦، تفسير الرازي ٢٧: ٢٠٢.

﴿إِنْ هُمْ﴾ وما أولئك الكافرون ﴿إِلَّا يَخْضَوْنَ﴾ ويكذبون كذباً مستنداً إلى الخدس الباطل، لوضح أن الإرادة التكوينية غير الإرادة التشريعية، وغير مستلزمة لها، وإلا لما عذب المشركين في الدنيا بشركهم.

أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ \* بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ \* وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ \* قَالَ أُولَٰئُو جِثَّتْكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ [٢٤-٢١]

ثم لما أبطل سبحانه دليلهم المذكور، بين كون الملائكة بنات الله لا بد أن يستند إلى كتاب سماوي من قبله تعالى، وأنكره عليهم بقوله: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ﴾ وأنزلنا عليهم ﴿كِتَابًا﴾ من السماء نطقاً بأن الملائكة بنات الله، ويجوز عبادتهم، خلافاً للقرآن المبطل لها والناهي عنها، سابقاً على نزول القرآن و﴿من قبله﴾ وقيل: يعني من قبل [القرآن أو] الرسول، أو من قبل ادعائهم أن الملائكة بنات الله<sup>١</sup> ﴿فَهُمْ﴾ في ادعائهم ذلك ﴿بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ ومستدلون، وعليه معتمدون؟ لا والله ما آتيناهم كتاباً، فلا دليل لهم على مدعاهم، لا عقلاً ولا نقلاً ﴿بَلْ﴾ لا مُسْتَمْسِكَ لَهُمْ إِلَّا تَقْلِيدَ آبَائِهِمْ وَاسْلَافِهِمْ حَيْثُ إِنَّهُمْ ﴿قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ الأقدمين ثابتين ﴿عَلَى أُمَّةٍ﴾ ودين مجتمع عليه، وهو عبادة الملائكة واعتقاد أنهم بنات الله ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ﴾ وسنتهم وطريقتهم ﴿مُقْتَدُونَ﴾ وفي مواضع أقدامهم سالكون، ولخطواتهم متبعون.

ثم بين سبحانه أن تمسك الجهال بالتقليد ليس أمراً يديعاً مختصاً بقومك، بل كان دأبهم من قديم الدهر بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ القول الصادر من قومك ﴿مَا أَرْسَلْنَا﴾ في القرون التي مضت ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ وقبل إرسالك ﴿فِي قَرْيَةٍ﴾ من قرى الأرض وبلدة من البلدان ﴿مِنْ﴾ نبي ﴿نَذِيرٍ﴾ ومخوف قومهم من العذاب على الشرك ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ وجابرتها ورؤساؤها المتعنون الذين أبطرتهم النعمة، وصرفتهم إلى التقليد في جواب ذلك الرسول: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ وأسلافنا الذين كانوا أعمق وأعلم منّا ثابتين ﴿عَلَى أُمَّةٍ﴾ ودين اتفقوا على صحته ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ﴾ وسنتهم الباقية منهم ﴿مُقْتَدُونَ﴾ ولهم<sup>٢</sup> مقلدون ﴿قَالَ﴾ كل رسول لقومه الذين تمسكوا بالتقليد ﴿أَمْ﴾ ثقلدونهم ﴿وَلَوْ جِثَّتْكُمْ﴾ من

قبل الله ﴿يَاهْدَى﴾ وأرشد إلى الحق ﴿وَمِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُكُمْ﴾ من الدين؟ على فرض كونه هداية ورشاداً، مع أنه ليس كذلك ﴿قَالُوا﴾ عناداً ولجاجاً وتعصباً: يا أيها الرسل ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ من التوحيد ﴿كَافِرُونَ﴾ ومُكِّرون، وإن كان أهدى وأرشد ممَّا وجدنا عليه آباءنا.

فَاتَّقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ \* وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ \* إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ \* وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [٢٥-٢٨]

فلَمَّا أعلنوا بالتعصب والإصرار على دينهم، وتبعية آباءهم، وبارزوا الرسل بالكذب والاستهزاء، ويأس الرسل من إيمانهم ﴿فَاتَّقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ باستصالحهم بالعذاب، وأهلكناهم بأفطع الهلاك ﴿فَأَنْظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ أمر الأمم ﴿الْمُكْذِبِينَ﴾ لرسلهم، وإلى ما صار مآلهم، فلا تكررت بتكذيب قومك، فإن الله سيقنم منهم كما أنتقم من الأمم المكذبة لرسلهم.

ثم حكى سبحانه قصة دعوة إبراهيم الذي كان يفتخر العرب بانتسابهم إليه، وأنه تيراً من التقليد، وتمسك في دينه بالبرهان، مع كونه أعقل الناس وأعظمهم شأناً، وأمتهم رأياً، وأصوبهم طريقة في اعتقاد الكل بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ قيل: إن التقدير واذكر يا محمد لقومك وقتاً<sup>١</sup> قال ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ الذي يجب عليكم أيها العرب اتباعه، دعوة إلى التوحيد، وتنفيراً من الشرك ﴿لَأَبِيهِ﴾ أذر ﴿وَقَوْمِهِ﴾ الذين كانوا يعبدون الكواكب والأصنام تقليداً لأبائهم: يا قوم ﴿إِنِّي بَرَاءٌ﴾ ومنزجراً قلباً ﴿مِنْ﴾ عبادة جميع ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ من الكواكب والأصنام وغيرها، فلا أعبد شيئاً ﴿إِلَّا﴾ الله، لأنه ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ وبدأ خلقي من غير مثال.

قيل: إن الاستثناء منقطع، والمعنى أتى برئ من عبادة الأصنام، لكن الذي خلقتني لا أبرأ من عبادته<sup>٢</sup> ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ ويُرشدني إلى معالم دينه، وكيفية عبادته وطاعته، ودرجات قربه، وعليه يكون السين للتأكيد، وقيل: إنه للتسويق، والمعنى سيُبينني على الهداية، وسيهديني إلى ما وراء الذي هداني إليه إلى الآن<sup>٣</sup>.

وقيل: إن في قوله في سورة الشعراء: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾<sup>٤</sup> وقوله هنا: ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ دلالة على استمرار الهداية في الحال والاستقبال<sup>٥</sup>.

١ و ٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٦٣.

٣. تفسير البضاوي ٢: ٣٧١، تفسير أبي السعود ٨: ٤٤، تفسير روح البيان ٨: ٣٦٣. ٤. الشعراء ٢٦: ٧٨.

٥. تفسير الرازي ٢٧: ٢٠٨.

وعلى أي تقدير أنه عليه السلام دعا الناس إلى كلمة التوحيد، وهو قول: لا إله إلا الله، المستفاد من تبرية من جميع ما يعبدون إلا خالقه ﴿وَجَعَلَهَا﴾ - بقوله: ﴿وَاجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾<sup>١</sup> - «كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ» ونسله وذريته إلى يوم القيامة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بدعوة الموحدين منهم ﴿يَزَجُّوْنَ﴾ من الشرك إلى التوحيد، فيكون فيهم أبدأ من يوحد الله ويدعو إلى التوحيد، ويكون إماماً وحجة على الخلق. عن السجاد عليه السلام قال: «فينا نزلت هذه الآية ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ والإمامة في عقب الحسين عليه السلام باقية إلى يوم القيامة»<sup>٢</sup>.

وعن النبي صلى الله عليه وآله في خطبة الغدير: «معاصر الناس، القرآن يعرفكم أن الأئمة من بعده ولده، وإنسي عزفتكم أنهم مني وأنا» منه، حيث يقول الله عز وجل: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾<sup>٣</sup>. وفي (المناقب) عنه عليه السلام أنه شغل عن هذه الآية فقال: «الإمامة في عقب الحسين عليه السلام، يخرج من صلبه تسعة من الأئمة، منهم مهدي هذه الأمة»<sup>٤</sup>.

### بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ \* وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ [٣٠ و ٢٩]

ثم بين سبحانه أنه مع جعله لإبراهيم كلمة التوحيد باقية في ذريته، لم يؤمن به كلهم بقوله: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ﴾ ونفعت بالنعم الدنيوية من الصحة وطول العمر، وكثرة المال والأود وغيرها ﴿هَؤُلَاءِ﴾ المشركين المعاصرين للرسول من أهل مكة ﴿وَأَبَاءَهُمْ﴾ السابقين، فمع أن حق تلك النعم أن يشكروا المنعم ويوحّدوه ويعتبدوه، انهمكوا في الشهوات، واغترّوا واشتغلوا بها عن كلمة التوحيد، واستمروا على الشرك ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ﴾ من قبل الله القرآن الذي هو ﴿الْحَقُّ﴾ وعين الصدق ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ وظاهر الرسالة بالمعجزات الباهرات، أو مظهر للتوحيد بالحجج القاهرات ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ والقرآن الذي فيه وجوه من الإعجاز ليوقظهم عن نوم الغفلة، ويرشدهم إلى التوحيد، عاندوا الحق، وطعنوا في القرآن، وكونه معجزة، و﴿قَالُوا هَذَا﴾ القرآن الذي لا تقدر على الإتيان بمثله ﴿سِحْرٌ﴾ لا معجزة ﴿وَإِنَّا بِهِ﴾ ويكونه من جانب الله وكلامه ﴿كَافِرُونَ﴾ وعنه معرضون.

### وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ [٣١]

١. إبراهيم: ٣٥/١٤. ٢. كمال الدين: ٨/٣٢٣، تفسير الصافي ٤: ٣٨٧.

٣. الاحتجاج: ٦٥، تفسير الصافي ٤: ٣٨٨. ٤. مناقب ابن شهر آشوب ٤: ٤٦، تفسير الصافي ٤/٤٨٨.



ثم حكى سبحانه عنهم الاعتراض على الرسالة ودعوى نزول القرآن من الله بقوله: ﴿وَقَالُوا﴾ جهلاً بملاك الرسالة، وخطأً في تطبيق العظمة عند الله على العظمة عند الناس: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ إن كان منزلاً من الله ﴿عَلَى رَجُلٍ مِّنْ أَهَالِي إِحْدَى الْقَرْيَتَيْنِ﴾ مكة والطائف ﴿عَظِيمٍ﴾ عند الناس بالمال والجاه، كالوليد بن المغيرة المخزومي الساكن في مكة، وعروة بن مسعود الثقفي الساكن في الطائف.

وقيل: إن المراد من الرجل خصوص عروة بن مسعود، فإنه كان يسكن كلتا القريتين، حيث إنه كان في الطائف بساكنه وضياعه، وفي مكة تجارته وأمواله، ولذا كان يتردد إليهما، ويحسب من أهلها. وحاصل المراد - والله أعلم - أن الرسالة منسوبة لرجل عظيم لا يليق به إلا العظيم بين الناس، وهو من له جاة ومال وكثرة الوليد، لا محمد فإنه ليس له مال ورئاسة، فهو كاذب في دعوى الرسالة ونزول القرآن عليه.

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
وَوَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ  
خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ [٣٢]

ثم رد سبحانه اعتراضهم بإنكار قابليتهم للرأي والتكلم في المناصب الإلهية من النبوة والامامة بقوله: ﴿أَهُمْ﴾ مع ضعف عقولهم وغاية عجزهم وقصورهم ﴿يَقْسِمُونَ﴾ بين الناس ﴿رَحِمَتْ رَبِّكَ﴾ وفضله بالنبوة والامامة، ويضعونها حيث شاءوا؟ لا والله هم أعجز وأحق من أن يتصرفوا في تفصلاته الدنيوية، ويقسموا نعمه الظاهرية، بأن يفتقروا الغني، ويغفوا الفقير، ويعزوا الدليل، ويذلو العزيز ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾ وأرزاقهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ومدة أعمارهم فيها ﴿وَوَفَعْنَا بَعْضَهُمْ﴾ في الرزق وسائر النعم ﴿فَوْقَ بَعْضٍ﴾ إلى ﴿دَرَجَاتٍ﴾ كثيرة متفاوتة حسبما تقتضيه الحكمة، فمن ضعيف وقوي، وفقير وغني، ووضيع وشريف، وجاهل وعالم، وغبي وذكي ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا﴾ في مصالحهم ﴿سَخِرِيًّا﴾ ذليلاً ومطيعاً، ولو سويناه بينهم في جميع الأمور لم يعبر أحدٌ مسخراً لغيره، ولم يخذم أحدٌ غيره، فيختل نظام العالم، وينتهي إلى خرابه ﴿وَرَحِمَتْ رَبِّكَ﴾ ورسالته، وما فيه سعادة الدارين ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل لأهلها ﴿مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ الناس من الحطام الدنيوية الزائلة، وإنما العظمة المعتبرة في إعطاء تلك الرحمة العظيمة، هي عظمة النفس بالصفاء والنورانية،

والتخلّق بأخلاق الله، والتنزّه عن الرذائل، وكمال العقل والذكاء، والإعراض عن الدنيا وعمّا سوى الله، والاقبال إلى الله والدار الآخرة. وقليلٌ من تلك المكارم خيرٌ من الدنيا بحذافيرها، ولا يُلَازِم وجود النعم الدنيوية وجود تلك الكمالات النفسانية وقُرب واجدها إلى الله، بل كثيراً ما لا يجتمعان.

نفي مخاصمة النبي ﷺ مع المشركين  
 روى في (الاحتجاج) أن عبد الله بن أبي أمية قال لرسول الله ﷺ في مجمع سائر قريش: لو أراد الله أن يبعث إلينا رسولاً، لبعث أجَلَ من فيما بيننا مالاً، وأحسن حالاً، فهلاً نَزَلَ هذا القرآن الذي تزعم أن الله أنزله عليك، وأنه بعثك به رسولاً، على رجلٍ من القريتين عظيم؛ إمّا الوليد بن المغيرة بمكة، وإمّا عروة بن مسعود الثقفي بالطائف؟ ثم ذكر أشياء أخرى.

إلى أن قال له رسول الله ﷺ: «وأما قولك: لولا نَزَلَ هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم، إمّا الوليد بن المغيرة بمكة، وإمّا عروة بن مسعود الثقفي بالطائف، فإن الله ليس يستعظم مال الدنيا كما تستعظمه أنت، ولا خَطَرٌ عنده كما له عندك، بل لو كانت الدنيا عنده تعدل جَنَاح بعوضةٍ لما سقى كافراً به شربة ماء، وليس قسمة الله إليك، بل الله القاسم للرحمات، والفاعل لما يشاء في عبّيده وإمانته، وليس هو عزّ وجلّ مَن يخاف أحداً كما تخافه أنت لِماله وحاله فعرفته بالنبوة لذلك، ولا مَن يطمع في أحدٍ في ماله وحاله كما تطمع فتخصّه بالنبوة لذلك، ولا مَن يُحبّ أحداً محبة الهوى كما تُحبّ أنت فتقدّم من لا يستحقّ التقديم، وإنّما معاملته بالعدل، فلا يؤثر لأفضل مراتب الدين وجلاله إلّا الأفضل في طاعته، والأجدّ في خدمته، وكذلك لا يؤخّر في مراتب الدين وجلاله إلّا أشدّهم تباطؤاً عن طاعته، وإذا كان هذا صفته، لم ينظر إلى مالٍ، ولا إلى حالٍ، هذا المال والحال من تفضّله، وليس لأحدٍ من عباده [عليه] ضربة لازب<sup>١</sup>.

فلا يقال له: إذا تفضّلت بالمال على عبّد، فلائذ أن تفضّل عليه بالنبوة أيضاً، لأنّه ليس لأحدٍ إكراهه على خلاف مُرادّه، ولا إلزامه تفضلاً، لأنّه تفضّل قبله بنعمة، ألا ترى - يا عبد الله - كيف أغنى واحداً وأقبح صورته، وكيف أحسن صورة واحدٍ وأفقره، وكيف أغنى واحداً، وكيف شرف واحداً وأفقره ووضعه؟

ثم ليس لهذا الغني أن يقول: هلاً أضيف إلى يساري جمال فلان؟ ولا للجميل أن يقول: هلاً أضيف إلى جمالي مال فلان؟ ولا للشريف أن يقول: هلاً أضيف إلى شرفي مال فلان؟ ولا للوضع أن يقول: هلاً أعطيني شرف فلان؟ ولكن الحكم لله، يُقسم كيف يشاء، ويفعل كما يشاء، وهو حكيم في

١. صار الأمر ضربة لازب، أي لازماً ثابتاً.

أفعاله محمود في أعماله، وذلك قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾. قال الله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ يَفْهِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فأحوجنا بعضاً إلى بعض، أحوج هذا إلى مال ذلك، وأحوج ذلك إلى سبلعة هذا وإلى خدمته، فترى أجل الملوك وأغنى الأغنياء محتاجاً إلى أفقر الفقراء في ضربٍ من الضروب، إما سبلعة منه، وإما خدمة يصلح لها لا يتهاى لذلك المَلِكُ أن يستغني إلّا به، وإما باب من العلوم والحكم، وهو فقيرٌ إلى أن يستفيده من ذلك الفقير، فهذا الفقير يحتاج إلى ذلك المَلِكِ الغني، وذلك المَلِكُ يحتاج إلى علم هذا الفقير ورأيه أو معرفته، ثم ليس للمَلِكِ أن يقول: هلا اجتمع إلى مالي علم هذا الفقير؟ وليس للفقير أن يقول: هلا اجتمع إلي رأبي وعلمي وما أتصرف فيه من فنون الحكم مال هذا المَلِكِ الغني؟<sup>١</sup>

وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا  
مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ \* وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ \*  
وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ  
لِلْمُتَّقِينَ [٣٥-٣٣]

ثم يبين سبحانه حقارة الدنيا وخطامها عنده، ردّاً لمن استعظمها وادّعى أولوية واجدها بالرسالة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا﴾ كراهة ﴿أَنْ يَكُونَ النَّاسُ﴾ في الكفر ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وجماعة متفقة على الشرك لرغبتهم فيه، إذا رأوا جميع الكفار في التنعم والسعة، والله ﴿لَجَعَلْنَا﴾ لحقارة الدنيا وهوانها عندنا ﴿لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ﴾ ويشرك به مع كونه شر الخلاق وأقلهم قدراً، أعني ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ ومساكنهم ﴿سُقْفًا﴾ معمولة ﴿مِنْ﴾ جنس ﴿فِضَّةٍ﴾ خالصة ﴿وَمَعَارِجَ﴾ ومدارج ومصاعد من فِضَّةٍ أيضاً ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ يعلمون السطوح والقصور، وجعلنا ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ ومساكنهم ﴿أَبْوَابًا﴾ من فِضَّةٍ ﴿وَسُرَرًا﴾ أيضاً من فِضَّةٍ ﴿عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ﴾ ويعتمدون حال الجلوس ﴿و﴾ وجعلنا ﴿زُخْرُفًا﴾ وزينة عظيمة من الذهب لهم.

وقيل: إن المعنى ونجعل لهم مع ذلك ذهباً كثيراً<sup>٢</sup>. وقيل: إنه عطف على محل (من فِضَّةٍ) والمعنى سُقْفًا من فِضَّةٍ وزُخْرُف بمعنى الذهب، أي سُقْفًا بعضها من فِضَّةٍ وبعضها من ذهب<sup>٣</sup>.

٢. تفسير الرازي ٢٧: ٢١١.

١. الاحتجاج: ٣٠-٣٣، تفسير الصافي ٤: ٣٨٩.

٣. جوامع الجامع: ٤٣٤.

عن الصادق عليه السلام: «لو فعل الله ذلك بهم لما آمن أحد، ولكنه جعل في المؤمنين أغنياء، وفي الكافرين فقراء، وجعل في المؤمنين فقراء، وفي الكافرين أغنياء، ثم امتحنهم بالأمر والنهي، والصبر والرضا»<sup>١</sup>.

وعن السجاد عليه السلام - في رواية - «لو فعل الله ذلك بأمة محمد صلى الله عليه وآله لحزن المؤمنون وغمهم، ولم يناكحهم، ولم يوارثوهم»<sup>٢</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: «ما كان من ولد آدم مؤمن إلا فقيراً ولا كان كافر إلا غنياً، حتى جاء إبراهيم فقال: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾<sup>٣</sup> فصير الله في هؤلاء أموالاً وحاجة، وفي هؤلاء أموالاً وحاجة»<sup>٤</sup>.

ثم بين سبحانه سرعة زوال تلك النعم بقوله: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ﴾ وما جميع هذه النعم ﴿لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ﴾ وإلا أمور يستمتع بها في مدة العمر لا بقاء لها، بل تزول بالموت والخروج من الدنيا ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ بما فيها من أنواع النعم التي لا توصف بالبيان باقية أبدية لا زوال لها، وهي ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ وفي حكمه ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ والمحترزين عن الكفر والشرك والعصيان، ولما كانت الدنيا دار الامتحان، ليميز الخبيث من الطيب، لم يوفّر النعم على المؤمنين حتى يجتمع الناس على الايمان، لعدم حصول الامتحان، وعدم تبيين المخلص عن المنافق.

وَمَنْ يَشَأْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ \* وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ [٣٦ و ٣٧]

ثم بين سبحانه أن طعن المشركين في القرآن وإعراضهم عن الرسول من تسويل الشياطين والقائهم بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَشَأْ﴾ وتعامى ﴿عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ وكتابه المنزل لوعظ الناس - وهو القرآن - أو عن التوجه إلى الله ﴿فَنَقِيضُ لَهُ﴾ ونسبنا إليه ﴿شَيْطَانًا﴾ يغويه ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ ومُصاحب لا يفارقه، ولا يزال يؤسوسه، ويُرَيِّن له العمى على الهدى، والكفر على الايمان.

عن النبي صلى الله عليه وآله: «إذا أراد الله بعبد شراً، قَيِّضَ له شيطاناً قبل موته بسنة، فلا يرى حسناً إلا قبحه عنده حتى لا يعمل به ولا يرى قبيحاً إلا حسنه حتى يعمل به»<sup>٥</sup>.

١. تفسير القمي ٢: ٢٨٤، تفسير الصافي ٤: ٣٩٠. ٢. علل الشرائع: ٣٣/٥٨٩، تفسير الصافي ٤: ٣٩٠.

٣. الممتحنة: ٥/٦٠. ٤. الكافي ٢: ١٠/٢٠٢، تفسير الصافي ٤: ٣٩١.

٥. تفسير روح البيان ٨: ٣٦٩.

وفي (الخصال) عن أمير المؤمنين عليه السلام: «من تصدّى بالإثم عمي<sup>١</sup> عن ذكر الله تبارك وتعالى، ومن ترك الأخذ بمن أمر الله بطاعته، قِيضَ له شيطاناً فهو له قرين<sup>٢</sup>».

ثم بَيَّن سبحانه ضرر الشياطين بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ بتسوياتهم وإغوائهم لقرنائهم، والله ﴿لَيَصُدُّوهُمْ﴾ ويمنعونهم ﴿عَنِ﴾ سلوك ﴿السَّبِيلِ﴾ المُوَدِّي إلى الحقِّ، وإلى جميع الخيرات الدنيوية والأخروية، ﴿وَالْحَالُ أَنَّ الْعَاشِينَ﴾ يَحْسَبُونَ ﴿وَيَتَوَهَّمُونَ﴾ في أنفسهم، لشدة ضلالهم ﴿أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ إلى الحقِّ. قيل: إن مرجع الضمير [إلى] الشياطين<sup>٣</sup>. والمعنى أَنَّهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّ الشياطين الذين اتَّبَعُوهم مهتدون.

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَشْسُ الْقَرِينُ \* وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٨ و ٣٩﴾

ثم إِنََّّهُمْ مستمررون على مصاحبة الشياطين وحسابهم الباطل ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ كل واحد منهم مع قرينه يوم القيامة ورأى وخامة عاقبة اتباعه للشيطان الذي قارنه ﴿قَالَ﴾ مخاطباً له: ﴿يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ في الدنيا ﴿بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ وفصل ما بينهما.

قيل: إن التثنية على التغليب، والمراد منها المشرق والمغرب<sup>٤</sup>. وقيل: على الحقيقة، والمراد مشرق الشمس ومشرق الكواكب، وهو مغرب الشمس. وقيل: مشرق الشمس في الصيف والشتاء، وبينهما بُعد عظيم<sup>٥</sup>.

وعلى أي تقدير المقصود تمنى البعد الذي لا أبعد منه ﴿فَيَشْسُ الْقَرِينُ﴾ أنت يا شيطان، ثم يقال له من قبل الله تعالى توبيخاً وتقريعاً: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ﴾ تمنى التباعد ﴿إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾ أنفسكم، ولأجل أن عصيتهم ربكم باتباعكم في الدنيا إياهم في الكفر والطغيان ﴿أَنَّكُمْ﴾ أيها التابعون والمتبعون ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ الأليم ﴿مُشْتَرِكُونَ﴾ كما كنتم في الدنيا مشركين في سببه، وهو العصيان.

وقيل: إن فاعل (لن ينفعكم) قوله: ﴿أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ والمعنى أن اشتراككم في العذاب لا ينفعكم في التشفي، إذ تقولون ﴿رَبَّنَا أَنَّهُمْ ضَعِيفِينَ مِنَ الْعَذَابِ﴾<sup>٦</sup> ولا في التخفيف عنكم؛ لأن شدة العذاب تذهل كلاً عن الآخر.

١. في المصدر: صدىء بالاثم عشى.

٢. تفسير أبي السعود ٨: ٤٧، تفسير روح البيان ٨: ٣٧٠.

٣. تفسير الرازي ٢٧: ٢١٣.

٤. تفسير أبي السعود ٨: ٤٧، تفسير روح البيان ٨: ٣٧٠.

٥. تفسير أبي السعود ٨: ٤٨، تفسير روح البيان ٨: ٣٧٠، والآية من سورة الأحزاب: ٢٨/٣٣.

فحاصل الآيات أن كثرة المال والثَّعم الدنيوية تُعمي الإنسان عن مطالعة آيات الله وكتابه، وذلك العمى يجعل الانسان قريناً للشيطان، وهو يُضلّه عن الهدى، فيشتركان في العذاب، كما كانا مشتركين في الكفر والعِصيان.

عن الباقر عليه السلام - في تأويله - «نزلت هاتان الآيتان هكذا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ يعني فلاناً وفلاناً، يقول أحدهما لصاحبه حين يراه: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ فقال الله تعالى لنبيه عليه السلام: قل لفلان وفلان وأتباعهما ﴿لَن يَنْفَعَكُمَ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ﴾ آل محمد<sup>١</sup>.

أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَىٰ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ \* فَإِنَّمَا تَذَهَبُ  
بِكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مُتَقَمِّمُونَ \* أَوْ تُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ  
مُقْتَدِرُونَ [٤٠-٤٢]

ثم لما وصف الله سبحانه المُصْرِينَ على الكفر والشرك بالعمى والعشي والتعمي، بالغ في ذمهم بأن وصفهم بالعمى والصُّم، فلا يُمكن هدايتهم إلى الطريق الحق بالدعوة والبيان بقوله: ﴿أَفَأَنْتَ﴾ يا محمد ﴿تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ وفاقدِي قُوَّةَ السَّمْعِ دعوتك وآيات كتابك ﴿أَوْ تَهْدِي﴾ وتُدَلُّ ﴿الْأَعْمَى﴾ وفاقدِي قُوَّةَ البصرِ إلى الطريق الحق ودين الاسلام ﴿وَوُتِدَلُّ﴾ تَدَلُّ ﴿مَنْ كَانَ﴾ غائراً ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وانحراف واضح لجميع العقلاء عن الحق وسبيل الخير؟ لا والله لا تقدر على إسماعهم وهدايتهم مع كمال نبوتك، وتُماخِة مقامك، فلا تُتعب نفسك الشريفة في دعوتهم إلى الايمان، وفيه إشعار بأن الوصفين لتمكّنهم في الضلال المُغرط.

روي أن النبي عليه السلام كان يُتعب نفسه في دُعاء قومه، وهم لا يزيدون إلا غياً وتعامياً ممّا يُشاهدونه من المعجزات، وتصامماً عما يسمعون من الآيات، فنزلت<sup>٢</sup>.

ثم سلى سبحانه نبيه عليه السلام بقوله: ﴿فَإِنَّمَا تَذَهَبُ بِكَ﴾ من الدنيا إلى جوار رحمتنا قبل أن تُريك عذابهم، وتُشفي غليل صدرك وصدور المؤمنين باهلاكهم ﴿فَإِنَّمَا﴾ لا محالة ﴿مِنْهُمْ مُتَقَمِّمُونَ﴾ في الدنيا والآخرة بعد ذهابك من الدنيا.

روى العلامة في (نهج الحق) عن ابن عباس في الآية، أنه قال: بعلي عليه السلام<sup>٣</sup>.

وقال القاضي: الرواية عن طريق ابن عباس قد رواها ابن مردويه.

١. تفسير القمي ٢: ٢٨٦، تفسير الصافي ٤: ٣٩٢. ٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٧١.

٣. نهج الحق: ٢٠٥، مناقب ابن المغازلي: ٣٢١/٢٧٥، وشواهد التنزيل ٢: ٨٥٢/١٥٣، عن جابر الانصاري.

روت العامة عن النبي ﷺ: أرى ما يُصيب أُمَّته بعده، فما رُوي مستبشراً صاحكاً حتى قُبِضَ.

وروى القاضي التستري، عن الطبرسي، عن جابر بن عبدالله، قال: إني لأدناهم من رسول الله ﷺ في حجة الوداع بيني حين قال: «الأتقنيكم» ثم التفت إلى خلفه وقال: «أو علي» ثلاث مرات، فرأينا أن جبرئيل عمزه، فأنزل الله تعالى على أثر ذلك: ﴿فَإِنَّمَا تَذَهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ بعلي.

وفي رواية أخرى عنه، قال: إني لأدناهم من رسول الله في حجة الوداع بيني، حتى قال: «الأتقنيكم ترجعون بعدي كفّاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض، وأيم الله لئن فعلتموها لتعرفنني في الكتيبة التي تُضاربكم» ثم التفت إلى خلفه فقال: «أو علي» ثلاث مرات، فرأينا أن جبرئيل عمزه، فأنزل الله ﴿فَإِنَّمَا تَذَهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ بعلي بن أبي طالب<sup>١</sup>.

وعن الصادق عليه السلام، قال: «فَإِنَّمَا تَذَهَبَنَّ بِكَ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَإِنَّا رَادُّوكَ إِلَيْهَا، وَمِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ بعلي بن أبي طالب»<sup>٢</sup>.

﴿أَوْ تُرِيَّتْكَ﴾ قيل: إن المعنى أو إن أردنا أن تُريك<sup>٣</sup> ﴿الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ من العذاب ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ لا يفتوتونا ولا يخرجون من سلطاننا.

فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ \* وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ [٤٤ و ٤٣]

ثم إنّه تعالى بعد تسليّة النبي ﷺ في معارضة قومه، أمره بالثبات على ما هو عليه بقوله: ﴿فَاسْتَمْسِكْ﴾ يا محمد ﴿بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن الذي لم يُوحَ إلى أحد من الرسل مثله في الفصاحة والبلاغة، وتضمّن العلوم والحكم والأحكام، والتزم بما فيه، ولا تعتن بمعارضة قومك، وتكذيبهم إيّاه، وطعنهم فيه، سواء عجلنا لك عذابهم، أو أخرناه ﴿إِنَّكَ﴾ بلطف ربك كائن، أو ماراً ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وطريق سوي لا عوج له، وهو التوحيد، ودين الاسلام، وأحكام القرآن ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ﴾ وشرف عظيم ﴿لَكَ﴾ خصوصاً ﴿وَلِقَوْمِكَ﴾ وأمتك عموماً، كما روي أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ لكل شيء شرفاً يُباهي به، وإنّ بهاء أمتي وشرفها بالقرآن»<sup>٤</sup>.

وقيل: إن المراد من قومه خصوص قريش، حيث يقال: إن هذا الكتاب العظيم نزل على رجلٍ من هؤلاء<sup>٥</sup>.

١. إحقاق الحق ٣: ٤٤٥. ٢. تفسير القمي ٢: ٢٨٤، تفسير الصافي ٤: ٣٩٢.

٣. تفسير أبي السعود ٤٨: ٣٧٢، تفسير روح البيان ٨: ٣٧٢.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٣٧٣. ٥. تفسير روح البيان ٨: ٣٧٣.

ثم جمع سبحانه النبي ﷺ وقومه في الخطاب التهديدي بقوله: ﴿وَسَوْفَ تُنَالُونَ﴾ هل أدبتم شكر إنعامنا عليكم بإنزال القرآن والذكر الجميل، أو هل حفظتموه وعلمتم بما فيه من الأحكام، وأدبتموه إلى الناس.

عن الصادق عليه السلام: «الذكر القرآن، ونحن قومه، ونحن المسؤولون»<sup>١</sup>.

وعنه عليه السلام: «إيانا عني، ونحن أهل الذكر، ونحن المسؤولون»<sup>٢</sup>.

## وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ [٤٥]

ثم لما كان معارضة القوم مع الرسول ﷺ وطعنهم في القرآن، لتصريحهما بطلان الشرك والدعوة إلى التوحيد، بين سبحانه أنه ليس من خواصك وخواص كتابك، بل جميع الأنبياء والرسل مطبقون على التوحيد وإنكار الشرك بقوله: ﴿وَأَسْأَلُ﴾ يا محمد ﴿مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ قيل: إن التقدير أُمم من أرسلنا ﴿مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ وعلمانهم الذين يقرأون كتبهم<sup>٣</sup> ﴿أَجَعَلْنَا﴾ لهم ﴿مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ ومما سواه ﴿آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ وهل حكمنا في ملة من الملل بجواز عبادة غيرها.

روي عن عائشة: لما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «ما أنا بالذي أشك، ولا أنا بالذي أسأل»<sup>٤</sup>.

وقيل: إن المراد السؤال من أشخاص الرسل، لما روي أنه ﷺ لما أسري به إلى المسجد الحرام حُشِر إليه الأنبياء والمرسلون من قبورهم، ومثلوا له، فأذن جبرئيل وأقام، وقال: يا محمد، تقدم وصل ياخوانك الأنبياء والمرسلين، فلما فرغ من صلاته قال له جبرئيل: زعمت قريش أن الله شريكاً، وزعمت اليهود والنصارى أن الله ولداً، سل يا محمد هؤلاء النبيين: هل كان الله شريك؟ ثم قرأ ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ إلى آخره فقال ﷺ: «لا أسأل، وقد اكتفيت، وليس بشاك فيه» فلم يشك ولم يسأل<sup>٥</sup>.

وقال بعض مفسري العامة: إن هذه الآية نزلت على النبي ﷺ ببيت المقدس ليلة المعراج، فلما نزلت وسمعها الأنبياء أقروا الله بالوحدانية وقالوا: بعثنا بالتوحيد<sup>٦</sup>. وعن عطاء، عن ابن عباس: لما أسري به إلى المسجد الأقصى بعث له آدم وجميع المرسلين من ولده فأذن جبرئيل ثم أقام فقال: يا

١. الكافي ١: ١٦٤/٥، تفسير الصافي ٤: ٣٩٣.

٢. تفسير أبي السعود ٨: ٤٩، تفسير روح البيان ٨: ٣٧٤.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٣٧٤.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٣٧٤.

٥. الكافي ١: ١٦٤/٢، تفسير الصافي ٤: ٣٩٣.

٦. تفسير روح البيان ٨: ٣٧٤.



محمد، تقدّم وصلّ بهم. فلما فرغ قال له جبرئيل: ﴿وَأَسْأَلُ﴾ يا محمد ﴿مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ الآية. فقال ﷺ: «لا أسأل لأني لست شاكاً فيه»<sup>١</sup>.

وعن الباقر عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية: من ذا الذي سأله محمد، وكان بينه وبين عيسى خمسمائة سنة، فتلا هذه الآية: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾<sup>٢</sup> فكان [من] الآيات التي أراها الله محمداً ﷺ حين أسرى به إلى بيت المقدس أن حشر الله له الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين، ثم أمر جبرئيل فأذن شفعاً، وأقام شفعاً، ثم قال في إقامته: حيّ على خير العمل، ثم تقدّم محمد ﷺ فصلّى بالقوم، فأنزل الله عليه: ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ الآية، فقال لهم رسول الله ﷺ: على ما تشهدون، وما كنتم تعبدون؟ فقالوا: نشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأنتك رسول الله، أخذت<sup>٣</sup> على ذلك موثيقنا وعهودنا<sup>٤</sup>.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ \* وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ \* وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ \* فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ \* وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ \* أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ [٤٦-٥٢]

ثم حكى سبحانه إرساله موسى مع كونه عديم المال والجاه، إلى فرعون الذي كان له ملك مصر وأموال كثيرة، رداً على قريش الذين قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾<sup>٥</sup> الآية، بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى﴾ مع كونه فقيراً ومهيناً عند القبط حال كونه مستدلاً على صدقه ﴿بِآيَاتِنَا﴾ ومعجزاته التي أعطيناها ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ ملك مصر ﴿وَمَلَئِهِ﴾ وأشرف قومه المطاعين عند القبط ﴿فَقَالَ﴾ لهم موسى: يا قوم ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إليكم، لأدعوكم إلى توحيدهِ وطاعته، وجنتكم بآيات ومعجزات من ربكم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ وأراهم المعجزات الدالة على صدقه ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا

١. في الكافي: أخذ.

٢. الإسراء: ١/١٧.

٣. تفسير الرازي ٢٧: ٢١٦.

٤. الزخرف: ٤٣/٣١.

٥. تفسير القمي ٢: ٢٨٥، الكافي ٨: ٩٣/١٢١، تفسير الصافي ٤: ٣٩٣.

يُضْحَكُونَ» كذباً، وبها يستهزئون، فكان يريهم آيةً بعد آية، ويأتيهم بمعجزة بعد معجزة ﴿وَمَا تُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ الْآيَاتِ وَمِعْجَزةٍ مِنَ الْمَعْجَزَاتِ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ﴾ وأعظم ﴿مِنْ أُخْتِهَا﴾ وقربتها ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ﴾ وابتليناهم بعد أن يستهزئوا بالمعجزات ﴿بِالْعَذَابِ﴾ والبلاء من الطوفان، والجراد، والقمل، والدم، والطمس ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بسبب العذاب والبلاء ﴿يَزْجِعُونَ﴾ عما هم عليه من الكفر والظن إلى الإيمان والتسليم، فلما اشتد الأمر على فرعون وملئيه، جزعوا ﴿وَقَالُوا﴾ تضرعاً إلى موسى: ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾ في زعم الناس. وقيل: إنهم كانوا يقولون للعالم [الماهر] ساحر<sup>١</sup> والمعنى: أيها العالم، إنك صادقاً في دعوى الرسالة ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ الذي أرسلك ليكشف عنا العذاب ﴿بِمَا عَاهَدَ﴾ من النبوة المحفوظة ﴿عِنْدَكَ﴾ أو من استجابة دعوتك، أو من كشف العذاب عمّن آمن بك، والباء على هذا للسببية، أو المعنى بحق ما عهد عندك من النبوة ﴿إِنَّا﴾ على تقدير كشف العذاب ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾ ومؤمنون بك.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ ورفعنا ﴿عَنْهُمْ الْعَذَابَ﴾ بدعاء موسى ﴿إِذَا هُمْ يَسْكُتُونَ﴾ ويقتضون عهدهم بالاهتداء والإيمان، وبادروا إليه من غير ريث، وأصروا على الكفر والعناد ﴿وَوُكِّلَ لَهُمْ نَادِيٌّ فِرْعَوْنُ﴾ بنفسه، أو بمنادٍ من قبله ﴿فِي﴾ ما بين ﴿قَوِيهِ﴾ وهم القبط، ﴿قَالَ﴾ تعظماً واختاراً: ﴿يَا قَوْمُ﴾ إن كان إله غيري كنت أولى بالرسالة من قبله ﴿أَلَيْسَ لِي مَلِكٌ مِثْرُكَ؟﴾ وهي على ما قيل أربعون فرسخاً في أربعين<sup>٢</sup>. ﴿وَوُكِّلَ لَهُمْ نَادِيٌّ فِرْعَوْنُ﴾ الأربعة المتشعبة من النيل، وهي على ما قيل نهر الإسكندرية، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر تيس<sup>٣</sup>. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ قيل: كانت تلك الأنهار تجري في بستان له فيه قصره. وقيل: يعني تجري من أمري<sup>٤</sup>. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يا قوم سلطتي وجهي ومالي، يا قوم أموسى خير مني مع ما تبصرون من سلطتي وعظمتي ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ وأفضل ﴿مِنْ هَذَا﴾ الرجل ﴿الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ وضعيف وحقير بينكم؟ وقيل: إن المعنى أفلا تبصرون أنا خير منه<sup>٥</sup>. وقيل: (أنا خير) لابتداء الكلام، والمعنى (أفلا تبصرون) أم تبصرون<sup>٦</sup> ما يكون.

ثم قال: (أنا خير منه) وقيل: إن كلمة (أم) بمعنى بل<sup>٧</sup>. وقيل: بمعنى الاستفهام وبل، فكانه قال أئر

٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٧٧.

١. تفسير الرازي ٢٧: ٢١٨.

٣. تفسير الرازي ٢٧: ٢١٨، تفسير روح البيان ٨: ٣٧٧.

٥. تفسير روح البيان ٨: ٣٧٧.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٣٧٧.

٧. تفسير الرازي ٢٧: ٢١٨، تفسير روح البيان ٨: ٣٧٨.

٦. تفسير الرازي ٢٧: ٢١٨.

تعدد موجبات فضله ومبادئ خيريته: يا قوم، أثبت عندكم ما قلت؟ بل أنا خيرٌ منه<sup>١</sup>. ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ لَا يَكَادُ يُبَيِّنُ﴾ ويوضح كلامه، لرتة في لسانه، فكيف يليق للرسالة؟ وقيل: إنه قال ذلك بلحاظ اطلاعه على حاله السابق، وما كان يعلم زوال رتته منه بدعائه. وقيل: إن المراد لا يكاد يبين حُجته على رسالته، لا أنه لا يقدر على الكلام<sup>٢</sup>.

فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ أَسْوَرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ \* فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ \* فَلَمَّا أَسْقُونَا أَتَيْنَنَا مِنْهُمْ فَأَعْرِفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ \* فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ [٥٦-٥٣]

ثم قيل: إن عادة القبط كانت جارية بأن من جعلوه رئيساً مطاعاً سوروه بسوارٍ من ذهب، وطوقوه بطوقٍ من ذهب<sup>٣</sup>، فلذا قال فرعون توبخاً لموسى: ﴿فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ﴾ من قبل ربه ﴿أَسْوَرَةٌ وَأَقْلِبَهُ مِنْ ذَهَبٍ﴾ التي هي مقاليد الملك، إن كان صادقاً في دعوى الرسالة؟ ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ حال كونهم ﴿مُقْتَرِنِينَ﴾ لموسى ومنضمين إليه، أو متقادين له؟ كي يعينونه على أمره، ويصدقونه في دعوى رسالته.

﴿فَاسْتَحَفَّ﴾ فرعون بما ذكر من التليسات ﴿قَوْمَهُ﴾ وأراد بالتموهيات خفة عقولهم، وحملهم على الجهل، كي يطيعوه فيما أراد منهم ممّا يباه أرباب العقول السليمة. وقيل: طلب منهم خفة الأبدان، وهي كناية عن إسراعهم في طاعته، أو المراد وجد أحلامهم خفيفة، يغترون بالتسويلات والتموهيات الباطلة<sup>٤</sup>، أو وجدهم خفافاً في أبدانهم وعزائهم<sup>٥</sup>. ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ فيما أمرهم به من معارضة موسى، والأعراض عنه، لفرط ضلالهم.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ وخارجين عن حدود العقل وعبودية الله، فلذلك استعظموا فرعون بماله وملكه، وسارعوا إلى طاعته، واستحقروا موسى لفقره وضَعْفه، فخالفوه أمناً من ضرره.

عن أمير المؤمنين (عليه السلام): «ولقد دخل موسى ومعه أخاه هارون على فرعون، وعليهما مدارع الصوف، وبأيديهما عصا، فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه ودوام عزه، فقال: ألا تعجبون من هذين، يشترطان لي دوام العز، وبقاء الملك، وهما بما ترون من حال الفقر والدُّلّ، فهلا ألقى عليهما أساور من ذهب؟! إعظاماً للذهب وجمعه، واحتقاراً للصوف وللبدن. ولو أراد الله لأتيناك حيث بعثهم كنوز

٢. تفسير الرازي ٢٧: ٢١٩.

١. تفسير أبي السعود ٥٠: ٣٧٨.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٣٧٩.

٣. تفسير الرازي ٢٧: ٢١٩.

٥. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٠.

الذهبان ومعادن الأفيان ومغارس الجنان، وأن يحشّر معهم طيور السماء ووحوش الأرضين لفعل، ولو فعل لسقط البلاء وبطل الجزاء».

إلى أن قال: «ولكن الله سبحانه جعل رسله أولى قوة في عزائمهم، وضعفه فيما ترى الأعين من حالاتهم، مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنى، وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذى، ولو كانت الأنبياء أهل قوة لا ترام، وعزة لا تضام، ومثلك ثمّد نحوه أعناق الرجال وتشدّ إليه عقد الرجال، لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار، وأبعد لهم عن الاستكبار، ولأنوا عن رهبة قاهرة لهم، أو رغبة مائلة بهم، وكانت السيئات مشتركة، والحسنات مقسمة، ولكن الله سبحانه أراد أن يكون الاتّباع لرسله، والتصديق بكتبه، والخشوع لوجهه، والاستكانة لأمره، والاستسلام لطاعته أموراً له خاصة، لا يشوبها من غيرها شائبة، وكلّما كانت البلوى والاختبار أعظم، كانت المثوبة والجزاء أجزل»<sup>١</sup>.

﴿فَلَمَّا أَسْقَوْنَا﴾ وشدّدوا عليهم سَخَطًا بالافراط في الطغيان والعناد للحقّ ﴿أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ وعجلنا في إنزال العذاب عليهم ﴿فَأَعْرِضْنَا عَنْهُمْ﴾ في البحر المطاع والمطيعين ﴿أَجْمَعِينَ﴾ بحيث لم تترك منهم أحداً.

قيل: لما افتخر فرعون بجرّيان الماء من تحته، غرّقه الله في الماء<sup>٢</sup>.

عن الصادق عليه السلام، قال في هذه الآية: «إن الله تبارك وتعالى لا يأسف كأسفنا، ولكنه خلق أولياء لنفسه يأسفون ويرضون، وهم مخلوقون ومربوبون، فجعل رضاهم رضا نفسه، وسخطهم سخط نفسه، وذلك لأنّه جعلهم الدعاة إليه، والأدلاء عليه، فلذلك صاروا كذلك».

إلى أن قال: «ولو كان يصل إلى الملكوت الأسف والضجر، وهو الذي أحدثهما وأنشأهما، لجاز لقائل أن يقول: إنّ الملكوت يبيد يوماً، لأنّه إذا دخله الضجر والأسف، دخله التغيّر، وإذا دخله التغيّر، لم يؤمّن عليه الإبادة»<sup>٣</sup> الخبر.

وقيل: إنّ الأسف والغضب من الله إرادة العذاب الذي هو أثر الغضب، والانتقام هو التعذيب لجُرم سابق<sup>٤</sup>.

ثمّ بيّن سبحانه أن فائدة إهلاكهم صيرورتهم عبرة لمن بعدهم بقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ﴾ وصيرناهم ﴿سَلَفًا﴾ وقُدوة لمن بعدهم من الكفّار الذين يَسْلُكُونَ مَسْلَكَهُمْ في استيجاب ما حلّ به من العذاب،

١. نهج البلاغة: ٢٩١ الخطبة ١٩٢، تفسير الصافي ٤: ٣٩٥.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٨١.

٣. الكافي ١: ٦١٢، التوحيد: ٢/١٦٨، تفسير الصافي ٤: ٣٩٦.

٤. تفسير الرازي ٢٧: ٢١٩.

أو سلفاً وقدوة في دخول النار أَوْ مَثَلًا وعِظَةً «لِلْآخِرِينَ» من الناس، لئلا يَسْلُكُوا مَسْلَكَهُمْ.

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُون [٥٧]

ثم إنه تعالى بعد حكاية جدال قريش مع النبي ﷺ بقولهم: «لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ»<sup>١</sup> حكى جدالهم الآخر بقوله: «وَلَمَّا ضُرِبَ» وجعل عيسى «ابْنُ مَرْيَمَ» في إبطال قول النبي ﷺ «مَثَلًا» ومقياساً؛ روي أنه لما نزل: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ»<sup>٢</sup> قرأه رسول الله ﷺ على قريش، فامتعضوا وغضبوا غضباً شديداً، وشق عليهم ذلك، فقال عبدالله بن الزُّبَيْرُ بطريق الجدال: هذا لنا ولآلهتنا، أو لجميع الأمم؟ فقال: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم» فقال: خصمتك ورب الكعبة، أليست النصارى يَعْبُدُونَ المسيح، وأنت تزعم أنه نبي وثني عليه وعلى أمه، وقد عَلِمْتَ أن النصارى يَعْبُدُونَهَا، واليهود يَعْبُدُونَ عَزِيزاً، وبنو المِليح يَعْبُدُونَ الملائكة، فإن كان هؤلاء في النار، فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، فسكت رسول الله ﷺ فنزلت<sup>٣</sup>.

ولمَّا ضُرِبَ بن مريم مثلاً «إِذَا قَوْمُكَ» قريش يا محمد، لما سَمِعُوا المَثَلَ «مِنْهُ يَصِدُّونَ» وَيَصْجُونَ، ويرفعون أصواتهم فَرَغاً وشُوراً لظَنُّهم أَنَّكَ صرت مُلزماً بذلك المَثَل. وعن (المعاني) عن النبي ﷺ أنه قال في الآية «الصدود في العربية الضَّحْكُ»<sup>٤</sup>. وفي رواية فضل بن رُوَيْهَانَ: أَنَّ النبي ﷺ قال في جواب ابن الزُّبَيْرِ: «ما أَجْهَلَكَ بِلِسَانِ قَوْمِكَ!»<sup>٥</sup> فَإِنَّ (ما) لَا يُرَادُ بِهِ ذُووُ الْعُقُولِ، وعيسى من ذُوِي الْعُقُولِ، فَأُنْزِلَ اللَّهُ: «وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا» إلى آخره.

في فضيلة أمير المؤمنين عليه السلام وروى العلامة في (نهج الحق) عن العامة: أَنَّ النبي ﷺ قال لعلي عليه السلام: «أَنْ فَيْكَ مَثَلًا مِنْ عَيْسَى، أَحَبَّهُ قَوْمٌ فَهَلَكُوا فِيهِ، وَأَبْغَضَهُ قَوْمٌ فَهَلَكُوا فِيهِ» فقال المنافقون: أما ترى له مثلاً إلا عيسى بن مريم؟ فنزلت هذه الآية<sup>٦</sup>.

وقال القاضي نور الله: قد روى أحمد بن حنبل في مسنده ما في الحديث المذكور من طرق ثمانية، منها: ما رواه مسنداً إلى علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «يا علي، إِنَّ فَيْكَ مَثَلًا مِنْ عَيْسَى، أَبْغَضَهُ الْيَهُودُ حَتَّى بَهَتُوا أُمَّه، وَأَحْبَبَهُ النَّصَارَى حَتَّى أَنْزَلُوهُ الْمَنْزِلَ الَّذِي لَيْسَ لَهُ». قال: قال علي عليه السلام: «يَهْلِكُ

٣. تفسير الرازي ٢٧: ٢٢١، تفسير روح البيان ٨: ٣٨١.

٢. الأنبياء: ٩٨/٢١.

١. الزخرف: ٤٣/٣١.

٥. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٢، وليست عن ابن رُوَيْهَانَ.

٤. معاني الأخبار: ١/٢٢٠، تفسير الصافي ٤: ٣٩٦.

٦. نهج الحق: ٦٢/٢٠٢.

فِي رَجُلَانِ : مُحِبٌّ يَفِرُّنِي بِمَا لَيْسَ فِيّ، وَمُبْغِضٌ شَتَانِي عَلَى أَنْ يَبْهَتَنِي».

وكذا ابن المغازلي في كتاب (المناقب)، ومحمد بن عبد الواحد في (جواهر الكلام)، وابن عبد ربّه في (العقد) ذكروا ما في معناه<sup>١</sup>. وقريب من هذا المضمون روايات عديدة بطرق أصحابنا.

وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ \* إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ \* وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٥٨-٦٠﴾

واحتمل الفخر الرازي أَنَّ الكفار لما سَمِعُوا أَنَّ النصارى يَتَّبِدُونَ عيسى، قالوا: إذا عبدوا عيسى فألهتنا خيرٌ من عيسى، وإنَّما قالوا ذلك لأنَّهم كانوا يَتَّبِدُونَ الملائكة<sup>٢</sup>. فحكى سبحانه قولهم بقوله: ﴿وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ مِنْ عَيْسَى أَمْ هُوَ﴾ خيرٌ من آلهتنا؟ وما قالوا ذلك المثل و﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ﴾ يا محمد لغرض من الأغراض ﴿إِلَّا جَدَلًا﴾ ولأجل الخصام والغلبة عليك، لا لطلب الحق حتى يُذعنوا له عند ظهوره ببيانه ﴿بَلْ هُمْ﴾ وما أولئك المجادلون إِلَّا ﴿قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ ومُصْرُونَ على الجدال، ومبالغون في الخصومة.

ثم بيّن سبحانه منزلة عيسى ردّاً على من قال بألوهيته بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾ من عبادنا مربوبٌ بتربيتنا ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بنعمة النبوة، وتفضّلنا عليه بفضيلة الرسالة، لا هوايتنا ولا شريكنا في الألوهية واستحقاق العبادة ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا﴾ وعبرةً عجيبةً حقيقةً بكونها كالمثل السائر ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعتبرون به، إنا خلقناه من غير أب، كما خلقنا آدم، وآتيناه معجزاتٍ كثيرةً.

ثم لما ذكر سبحانه كون عيسى عبرةً وآيةً من حيث تولّده من غير أب، بيّن كمال قدرته في أمر الولادة بقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ والله ﴿لَجَعَلْنَاهُ﴾ ولخلقنا بطريق الولادة ﴿وَمِنْكُمْ﴾ مع أنكم رجال من الإنس ليس من شأنكم الولادة ﴿وَمَلَائِكَةً﴾ مُسْتَقَرِّينَ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أمثال أولادكم ﴿يَخْلُقُونَ﴾ كم، ويقومون مقامكم في مباشرة أعمالكم التي تباشرونها، كما خلقناهم بطريق الابداع، وأسكناهم في السماوات يسبحون ويُقدِّسون، ومن الواضح أَنَّ توليد الملائكة من رجال الإنس أبدع من توليد عيسى من الأنثى الإنسية من غير أب، وفيه تنبيه على أنَّهم غير أهلين للعبادة، لأنَّهم مخلوقون مربوبون.

في (الكافي) عن أبي بصير، قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يومٍ جالس، إذ أقبل أمير المؤمنين عليه السلام،

فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِيكَ شَبْهًا مِنْ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ، لَوْلَا أَنْ تَقُولَ فِيكَ طَوَائِفُ مَا قَالَتِ النَّصَارَى فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ، لَقُلْتُ فِيكَ قَوْلًا لَا تَمُوتُ بَمَلَأَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا أَخَذُوا التُّرَابَ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْكَ، يَلْتَمِسُونَ بِذَلِكَ الْبَرَكَةَ» قال: فَغَضِبَ الْأَعْرَابِيُّانَ وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ وَعَدَّةٌ مِنْ قُرَيْشٍ مَعَهُمْ، فَقَالُوا: مَا رَضِيَ أَنْ يَضْرِبَ لَابِنَ عَمِّهِ إِلَّا عِيسَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ: ﴿وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ أَي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ ﴿وَبِلَايَكَةِ فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾<sup>١</sup>.

وقيل: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعْدَ حِكَايَةِ جِدَالِ الْقَوْمِ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ هَدَّاهُمْ وَقَالَ: لَوْ نَشَاءُ لَأَهْلَكْنَاكُمْ وَجَعَلْنَا بَدَلًا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً يَسْكُنُونَ الْأَرْضَ بَعْدَكُمْ وَيَعْمُرُونَهَا وَيَعْبُدُونِي<sup>٢</sup>.

وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِلشَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ \* وَلَا

يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦١ و ٦٢)

ثُمَّ بَيَّنَ سَبْحَانَهُ خَصِيصَةَ عِيسَى ﷺ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُ﴾ ﷺ يَنْزِلُهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴿لَعَلَّمَ لِلشَّاعَةِ﴾ وَاعْلَمَ لِقُرْبِهَا، وَشَرَطَ مِنْ أَصْرَاطِهَا ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أَيُّهَا النَّاسُ، وَلَا تَشْكَنْ فِيهَا، وَلَا تُجَادِلُنْ بِوُقُوعِهَا لِوُجُوبِ إِتْيَانِهَا عَلَيَّ ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ وَأَمِنُوا بِرَسُولِي، وَاعْمَلُوا بِشَرِيعَتِي، فَإِنَّ هَذَا الْإِتِّبَاعَ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ وَعَنِ الْقَمِيِّ ﷺ فِي تَأْوِيلِهِ: ثُمَّ ذَكَرَ خَطَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِلشَّاعَةِ﴾ وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ قَالَ: يَعْنِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ<sup>٣</sup>.

﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ﴾ عَنْ اتِّبَاعِي وَلَا يَمْنَعُكُمْ عَنْ سُلُوكِ صِرَاطِي ﴿الشَّيْطَانُ﴾ وَاعْلَمُوا ﴿إِنَّهُ لَكُمْ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ وَمِبْغِضٌ ظَاهِرُ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضِ.

فِي الْحَدِيثِ الْعَامِيِّ: «أَنَّ عِيسَى يَنْزِلُ عَلَى ثَنِيَّةٍ بِالْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ يُقَالُ لَهَا أَفِيقُ أَغْبَرُ<sup>٤</sup>.

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «الْأَنْبِيَاءُ أَوْلَادُ عِلَّاتٍ<sup>٥</sup>، وَأَنَا أَوَّلُ النَّاسِ بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ، إِنَّهُ أَوْلَا مَا يَنْزِلُ يَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخَنْزِيرَ، وَيُقَاتِلُ عَلَى الْإِسْلَامِ»<sup>٦</sup>.

أَقُولُ: يَعْنِي لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَبِيِّنا ﷺ نَبِيٌّ [مِنْ] أَوَّلِي الْعِزْمِ، لِأَنَّهُ لَا تَخْلُو الْأَرْضُ مِنْ حُجَّةٍ.

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «الْيُوشِكُنَ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا يَكْسِرُ الصَّلِيبَ»<sup>٧</sup> الْخَبَرِ.

١. الكافي ٨: ٥٧/١٨، تفسير الصافي ٤: ٣٩٧.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٣.

٣. تفسير القمي ٢: ٢٨٦، تفسير الصافي ٤: ٣٩٨.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٤.

٥. العلة: الضرة، وبنو العلات: بنو رجل واحد من أمهات شتى، ويريد بالحديث أن الأنبياء ﷺ إيمانهم واحد

وشرائعهم مختلفة. ٦. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٤.

٧. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٤.

وروا أنه يجتمع عيسى والمهدي، فيقوم عيسى بالشرية، والمهدي بالسيف<sup>١</sup>. وقال بعضهم: أن عيسى يُصَلِّي بالناس، والمهدي يقتدي به<sup>٢</sup>، وقال بعضهم: يؤم المهدي، ويقتدي به عيسى<sup>٣</sup>، وأنفق أصحابنا على أن عيسى يقتدي بالمهدي عليه السلام فإن السلطنة الإلهية للمهدي، وعيسى معينة وبتعة. وقيل: إن ضمير (إنه) راجع إلى القرآن<sup>٤</sup>، والمعنى أن القرآن لعلم للساعة، لما فيه من الإعلام بها، والدلالة عليها.

وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا \* إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ \* فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَلَّيَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ \* هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ [٦٣-٦٦]

ثم لما بين سبحانه عظمة شأن عيسى، حكى دعوته إلى التوحيد والمعارف الإلهية بقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى﴾ من جانب الله إلى بني إسرائيل مستندلاً على رسالته ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات الباهرات كاحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغيرهما ﴿قَالَ﴾ يا بني إسرائيل، إني ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ والمعارف الإلهية التي يجب عليكم تعلمها ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ﴾ وتتنازعون ﴿فِيهِ﴾ من الأمور الدينية التي بيانها وظيفة الأنبياء. وعن ابن عباس: أن البعض هنا بمعنى الكل<sup>٥</sup>.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يا بني إسرائيل، وخافوه في مخالفتي ﴿وَأَطِيعُوا﴾ واقبلوا مني ما أبلغكم من ربي، واعملوا به، واعلموا أن أهم ما أبلغكم به التوحيد، فإني أقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ تعالى وحده ﴿هُوَ﴾ بالخصوص ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ ورب كل شيء، لا شريك له في الألوهية واستحقاق العبادة، إذا علمتم ذلك ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحده بخلوص النية، ولا تعبدوني ولا تعبدوا غيري مما سواه ﴿هَذَا﴾ التوحيد والإخلاص في عبادته ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ يوصل سالكه إلى جميع الخيرات، ويؤديه إلى أكمل السعادات ﴿فَاخْتَلَفَ﴾ اليهود والنصارى في أمر الله وشأن عيسى بعد ثلاثمائة سنة من رفعه، على ما قيل<sup>٦</sup>، وحدثت ﴿الْأَحْزَابُ﴾ والفرق العديدة ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ فحزب قالوا: إنه رسول الله وعبد،

٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٥.

٤. جوامع الجامع: ٤٣٦، تفسير أبي السعود ٨: ٥٣.

٦. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٦.

١. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٤.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٥.

٥. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٥.



وحزب قالوا: إنه ابن الله، وحزب قالوا: إنه ثالث ثلاثة، وحزب قالوا: إنه هو الله، وحزب قالوا: إنه - نعوذ بالله - ولد زنا، وجميعهم إلا الفرقة الأولى ظلموه ﴿فَوَيْلٌ﴾ وأسوأ الأحوال في القيامة ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وكفروا به، وخالفوا قوله ﴿مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ﴾ عذابه، وهو يوم القيامة، وهؤلاء الظالمون ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ ويتنظرون شيئاً في ابتلائهم بالعذاب ﴿إِلَّا السَّاعَةَ﴾ والقيامة ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَفُجَاءَةً﴾ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ولا يحتملون إتيانها، لكونهم منكبين له.

قيل: ذكر إتيانها بغتة لم يكن مغنياً عن ذكر عدم شعورهم به، لأن إتيانها بغتة يجتمع مع الشعور بوقوعه والاستعداد له<sup>١</sup>.

### الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ [٦٧]

ثم ذكر سبحانه بعض أهوال الساعة بقوله: ﴿الْأَخْلَاءُ﴾ والأصدقاء ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وفي ذلك الوقت ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ ومُبْغِضٌ، لظهور مضار الخلّة، والتحابب بينهم ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ الذين كانوا متنفعين في الآخرة بخُلَّتْهم ومَوَادَّتْهم، لكونهم في الدنيا متعاونين على البرِّ والتقوى، فتكون خُلَّتْهم في الدنيا باقية إلى القيامة، بل تزداد بمشاهدة آثارها من الثواب والشفاعَة ورفع الدرجات.

وروى بعض العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال في هذه الآية: «كان خليلان مؤمنان، وخليلان كافران، فمات أحد المؤمنين، فقال: يا رب، إن فلاناً كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير وينهاني عن الشرّ، ويخبرني أنّي ملائكتك، يا رب فلا تُضِلَّهُ بعدي، واهدِهِ كما هديتني، وأكرمهُ كما أكرمتني. فإذا مات خليله المؤمن، يُجمَع بينهما، فيقول كلّ واحدٍ منهما لصاحبه: نعم الأخ ونعم صاحب، فيُثْنِي عليه خيراً».

قال ويموت أحد الكافرين فيقول: إن فلاناً كان ينهاني عن طاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالشرّ، وينهاني عن الخير، ويخبرني أنّي غير ملائكتك، فلا تُهْدِهِ بعدي وأضِلِّه كما أضللتني، وأنه كما أهتنتني، فإذا مات خليله الكافر جُمِع بينهما، فيقول كلّ واحدٍ منهما لصاحبه: بشس الأخ وبشس الخليل، فيُثْنِي عليه شراً<sup>٢</sup>.

وفي الحديث: «أن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»<sup>٣</sup>.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٨.

١. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٦.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٨.

وفي رواية أخرى: «يقول الله تعالى: المتحابون في [أي في الله] بجلالي لهم منابر من نور يَغِطُّهم النبيون والشهداء»<sup>١</sup>.

وعن ابن عباس: يقول أحبُّ الله، وأبغضُ الله، ووالٍ الله، وعادٍ الله، فأنه يُنال ما عند الله بهذا، ولن ينفع أحد أكثرهُ صومه وصلاته وحجّه حتى يكون هكذا، وقد صار الناس اليوم يُحبُّون ويُبغضون للدنيا، ولن ينفع ذلك أهلَه، ثم قرأ الآية<sup>٢</sup>.

في فضيلة مؤاخاة ﴿وَاطْلُبْ مُوَاخَاةَ الْأَتْقِيَاءِ﴾ ولو في ظلمات الأرض، وإن أفنيت عمرك في طلبهم، فإن الله عز وجل لم يخلق أفضل منهم على وجه الأرض بعد النبيين، وما أنعم الله على عبد بمثل ما أنعم به من التوفيق لصحبته، قال الله تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾<sup>٣</sup>.

يَا عِبَادِ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ \* الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ \* ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ \* يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [٦٨-٧١]

ثم بين سبحانه إكرامه ولطفه بالمتقين يوم القيامة بأن يباشر مخاطبتهم فيه بقوله: ﴿يَا عِبَادِ﴾ الموحدين ﴿لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ﴾ من أهوال ﴿الْيَوْمِ﴾ وشدائده ﴿وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتكم من نعم الدنيا والحِرمَانِ عن الدرجات العالية في الجنة.

ثم عرّف سبحانه عباده المبشرين بتلك البشارة بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا وكمال صفاتنا ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ومنقادين لأحكامنا، مطيعين لأوامرنا ونواهيها ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ التي كنتم توعدون بها في الدنيا ﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ المؤمنات حال كونكم ﴿تُحْبَرُونَ﴾ وتُسَرَّونَ سروراً يظهر أثره في وجوهكم، أو تُزَيَّنُون بثياب من سندس وإستبرق، وأساور من ذهب وفضة، أو تُكْرَمُون، فإذا دخلوا الجنة فرحين مسرورين ومكرمين ومزنيين ﴿يُطَافُ﴾ ويُدَارُ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بأيدي الغلمان والولدان ﴿بِصَحَافٍ﴾ وقِصَاعٍ واسعةٍ مَدْرُورَةِ الأفواء مصنوعة ﴿مِنْ ذَهَبٍ﴾ فيها طعامهم ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ وكؤوس من ذهب لا عروة لها ولا خُرْطُوم، فيها شرابهم، يشربون منها حيث يشاءوا.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٨.

٤. في النسخة: وتسترُونَ.

١. تفسير روح البيان ٨: ٣٨٨.

٣. مصباح الشريعة: ١٥٠، تفسير الصافي ٤: ٣٩٩.

عن ابن عباس: يُطاف بسبعين ألف صحيفة من ذهب، في كل صحيفة سبعون ألف لون، كل لون له طعم غير طعم الألوان الأخر، هذا لأسفل درجة، وأما الأعلى فيتوتى بسبعمئة ألف صحيفة<sup>١</sup>. وفي الحديث: «أن أدنى أهل الجنة منزلة من له سبع درجات، وهو على السادسة، وفوقها السابعة، وإن له ثلاثمائة خادم، وإنه يُغدى عليه ويُرَاح في كل يوم بثلاثمائة صحيفة، في كل صحيفة لون من الطعام ليس في الأخرى، وإنه ليلدّ أوله كما يلدّ آخره، وإن له من الأشربة ثلاثمائة إناء، في كل إناء شراب ليس في الآخر، وإنه ليلدّ أوله كما يلدّ آخره، وإنه ليقول: يا رب، لو أذنت لي لأطعمت أهل الجنة وسقيتهم، ولم يُنقص ذلك ما عندي شيئاً، وإن له من الحور العين ثنتين وسبعون زوجة سوى أزواجه من الدنيا»<sup>٢</sup>.

﴿وَلَكُمْ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فِيهَا﴾ بتفضل الله ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ﴾ من أنواع المشتبهات كالمطاعم والمشارب والمناكح والملابس ونحوها ﴿وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ بمشاهدته ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ودائمون لا تموتون، ولا منها تُخرجون.

عن القارئ عجل الله فرجه: أنه سُئل عن أهل الجنة، هل يتوالدون إذا دخلوها؟ فأجاب: «أن الجنة لا حَمْل فيها للنساء ولا ولادة، ولا طمّ ولا نقاس، ولا شقاء بالطفولية، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، كما قال الله، فاذا انتهى المؤمن ولدّاً خلقه الله بغير حمل ولا ولادة على الصورة التي يريد، كما خلق آدم عبدة»<sup>٣</sup>.

وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ \* لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ \* إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ \* لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ \* وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ [٧٦-٧٢]

ثم قرّر سبحانه خلودهم فيها بقوله: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾ وملكتوها ملك الوارث عن مورثه ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الصالحة و﴿لَكُمْ﴾ سوى الطعام والشراب ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ بحسب الأنواع والأصناف، وافر كل صنف ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

ثم لما ذكر سبحانه حسن حال المتقين في الآخرة من حيث المطعم والمشرب والسكن وسائر اللذائذ وخلودهم فيها، بيّن سوء حال المشركين والطغاة في الآخرة بقوله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾

٢. تفسير روح البيان ٨: ٣٩١.

١. تفسير روح البيان ٨: ٣٩٠.

٣. الاحتجاج: ٤٨٨، تفسير الصافي ٤: ٣٩٩.

والقصاة ﴿فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ﴾ وشدائدها ﴿خَالِدُونَ﴾ ومقيمون أبداً، لا ينقطع عنهم لحظة ولا يُفترَّ ولا يخفف ﴿عَنْهُمْ﴾ ساعة ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ وآيسون من الخلاص. عن الضحاك: يُجعل المجرم في تابوت من النار، ثم يُثقل عليه، فيبقى فيه لا يرى ولا يبرى<sup>١</sup>.  
ثم تبه سبحانه بأن عذابهم بمقتضى العدل بقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بإخلاصهم في العذاب الشديد ﴿وَلَكِنْ كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿هُمْ الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بتعريضها للعذاب الدائم، حيث اختاروا الكفر والعصيان.

وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَزِقَكَ قَالَ إِنَّمَا مَكِثُونَ \* لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ [٧٧ و ٧٨]

ثم بين سبحانه شدة عذابهم بقوله: ﴿وَنَادُوا﴾ تَمْثِلاً لأربعين سنة، أو مائة، أو ألف سنة، كما عن ابن عباس<sup>٢</sup> ﴿يَا مَالِكُ﴾ جهنم ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا﴾ ولِثَمِينَا ﴿رَزِقَكَ﴾ حتى نستريح.  
رؤي أنه يلقي على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب، فيقولون: ادعوا مالكا، فيدعون: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَزِقَكَ﴾<sup>٣</sup> ولا ينافي هذه الاستغاثة بإياهم من الخلاص، فالإيأس يكون من الخروج والعفو، والسؤال راجع إلى الموت، وقيل في رفع التنافي: إن أوقاتهم وأحوالهم مختلفة، فيسكتون أوقاتاً لغلبة بأسهم، ويستغيثون أوقاتاً لشدة عذابهم<sup>٤</sup>.

وعلى أي تقدير ﴿قَالَ﴾ مالك في جوابهم بعد مدة إهانة لهم: يا أهل النار ﴿إِنَّمَا﴾ إلى الأبد ﴿مَكِثُونَ﴾ ومقيمون فيها، لا خلاص لكم منها بموت ولا بغيره. ثم قال لهم من قبل الله: والله ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ﴾ في الدنيا ﴿بِالْحَقِّ﴾ وأعلمناكم بتوسط الرسول والكتاب السماوي بالدين المرضي عند ربكم ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ﴾ وذلك الدين ﴿كَارِهُونَ﴾ ومنه متنفرون، وعنه معرضون، لمنافاته لشهواتكم، فكان تماديكم في الكفر وانهماكم في الشهوات سبباً لبقائكم في العذاب وخلودكم في النار، فلا مجال لتوقع النجاة.

أَمْ أَرْبُوهَا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ \* أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ \* قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَّا أَوَّلَ الْغَائِدِينَ [٧٩-٨١]

٢. تفسير الرازي ٢٧: ٢٢٧، تفسير أبي السعود ٨: ٥٥.

٤. تفسير الرازي ٢٧: ٢٢٧.

١. تفسير روح البيان ٨: ٣٩٣، ولم ينسب إلى أحد.

٣. تفسير الرازي ٢٧: ٢٢٧.

ثم إنه تعالى بعد بيان شدة عذاب الكفار في الآخرة لكرهتهم الحق في الدنيا، ذكر سعيهم في الدنيا مع ذلك في إطفاء نور الحق، ومكرهم بالرسول، وتعاهدهم على قتله بقوله تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا﴾ وبل أحكموا ﴿أَمْ أَرَأَيْكُمْ﴾ معهوداً، وهو كيدهم ومكرهم بالرسول. عن مقاتل: نزلت في تدبيرهم في دار الندوة، في المكر بالرسول وتشاورهم في قتله ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ وثبتون كيدنا بهم حقيقة لا هم ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ وبل يتوهمون ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ وما حدثوا به في أنفسهم من الكيد في أمر الرسول ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ وتشاورهم خفية من الرسول والمؤمنين ﴿بَلَى﴾ نحن نسمعهما ونطلع عليهما ﴿وَرُسُلَنَا﴾ الحافظون عليهم أعمالهم حاضرون ﴿لَدَيْهِمْ﴾ أينما كانوا و﴿يَكْتُمُونَ﴾ في ديوان أعمالهم كلما يصدر عنهم من الاعمال والأقوال سراً وعلانية، ثم تعرض عليهم يوم القيامة، ويُعاقبون عليها أشد العقاب.

ثم لما ذكر سبحانه عناد المشركين للرسول، وهمهم بقتله لقوله بتوحيد الله، وتنزّهه عن الولد، أمره بإعلامهم بأن عدم موافقته لهم في الاعتقادات الفاسدة ليس لأجل العناد الموجب للقتل، بل إنما لعلمه بامتناع وجود الشريك والولد له تعالى بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للمشركين ﴿إِنْ كَانَ﴾ في الواقع ونفس الأمر ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾ الخالق لجميع الموجودات ﴿وَلَدٌ﴾ ذكرأ كان أم أنثى، كما تزعمون أن الملائكة بنات الله ﴿فَإِنَّا أَوَّلَ الْغَائِدِينَ﴾ لذلك الولد، وأسبقكم إلى تعظيمه والاقتياد له، لأنني أعلم الناس بعظمة الله الموجبة لتعظيم ولده، لكونه من لوازم تعظيم الوالد، حيث إن الولد جزء منفصل من الوالد، ولكن لما حكم عقلي بامتناع التركيب في الواجب الوجود حتى ينفصل منه الجزء، امتنع مني القول بثبوت الولد له وعبادتي إياه، فليس إنكاري كون الملائكة بنات الله للعناد واللجاج حتى استحققت القتل والطرده.

سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ \* فَذَرَهُمْ يَخْضِبُوا

وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ [٨٢ و ٨٣]

ثم أعلن بتنزّهه تعالى عن الولد والشريك بقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ﴾ و﴿وَالْأَرْضِ﴾ وما فيهما و﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ الذي هو اعظم من جميع الموجودات، وتنزّهه ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ وينسبون إليه من الولد والشريك.

وقيل: يعني سبحانه رب هذه الأجسام العظام؛ لأن مثل هذه الربوبية تُوجب التسييح على كل

مربوب، ونزوهه عن كل ما يصفه الكافرون به من صفات الأجسام، فإنه لو كان جسماً لم يقدر على خلق هذا العالم وتديره<sup>١</sup>.

ثم هذّدهم سبحانه على عدم إذعانهم للحق بعد إلزامهم عليه بالبرهان القاطع بقوله: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ يا محمد، واتركهم حتى ﴿يَخُوضُوا وَ﴾ يستغرقوا في أباطيلهم وشهواتهم ﴿يَلْقَبُوا﴾ بدنياهم ويستغلوا بملاهيهم ليزدادوا شقاوة واستحقاقاً للعقوبة ﴿حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمْ﴾ ويصلوا إلى وقتهم ﴿الَّذِي﴾ كانوا ﴿يُوعَدُونَ﴾ فيه بالعذاب من قبلنا، فيروا صدق وعدنا وسوء عاقبة خوضهم ولعبهم، أو يُوعَدُونَ على لسانك بمجيئه، وهو يوم القيامة، وهم يُنْكِرُونَ مجيئه.

وقيل: هو يوم موتهم، لأنه متصل بيوم القيامة، كما قال ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته» ولذا جعل خوضهم ولعبهم متتهيين إليه<sup>٢</sup>.

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ \* وَتَبَارَكَ  
الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ  
تُرْجَعُونَ \* وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ  
وَهُمْ يَعْلَمُونَ [٨٤-٨٦]

ثم أعلن سبحانه بتوحيده بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ﴾ تعالى وحده ﴿الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَ﴾ معبود بالحق ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أيضاً ﴿إِلَهٌ﴾ ومعبود لا معبود فيهما سواه ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ الذي يدبر بحكمته البالغة أمور العوالم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوال جميع الموجودات أزلاً وأبداً ﴿وَتَبَارَكَ﴾ وتعالى عن الولد والشريك، أو كثر خير الاله ﴿الَّذِي لَهُ﴾ بالإشراق والإيجاد ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات والسلطنة التامة عليها إيجاداً وإعداماً وتصرفاً وتديراً ﴿وَعِنْدَهُ﴾ وخاصته وحده ﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ التي تقوم فيها القيامة ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أيها الناس ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بالموت وتردون للحساب والجزاء، فاستعدوا للقاءه، وبادروا إلى تحصيل مرضاته.

ثم إنه تعالى بعد إبطال القول بأن الملائكة بنات الله، نفى كونهم وكون غيرهم من المعبودين شفعاء عنده بقوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ هؤلاء المشركون ويعبدونهم ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ تعالى ﴿الشَّفَاعَةَ﴾ عند الله للنعصا، ولا يقدر عليها ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ وأعترف بتوحيد الله في الألوهية والعبادة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ما يشهدون به عن بصيرة، ويوقنون به عن شهود أو برهان، كالملائكة،

وعيسى، وعزير. ومن الواضح أنهم لا يشفعون لمن خالفهم في العقائد.  
وقيل: إن المعنى أنهم لا يقدرّون على الشفاعة إلا لمن شهد بالحق<sup>١</sup>، واعترف به، من اختصاص  
استحقاق العبادة بالله، وهم المؤمنون الموحّدون، فليس للمشرّكين أن يرجوا الشفاعة.  
رُوي أن النّضر بن الحارث ونقرأ معه قالوا: إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن نتولّى الملائكة، فهم  
أحقّ بالشفاعة من محمد، فأنزل الله هذه الآية<sup>٢</sup>.

وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ \* وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ  
قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ \* فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ [٨٧-٨٩]

ثم بيّن سبحانه أن المشرّكين مجبولون على التوحيد بقوله: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ﴾  
وأخرجهم من كتمّ العدم إلى الوجود، والله ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ خلقنا، لعدم إمكان غير ذلك لأحدٍ ممّن  
يُسَمُّ [منه] رائحة العقل ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ويصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره، مع اعترافهم بأنهم  
كلّهم مخلوقون له، أو المراد لم يكدّبون على الله بأنّه أمرهم بعبادة الأصنام؟  
ثم إنّ تعالى بعد ذكر علمه بالسعة التي لا يعلمها غيره ذكر علمه بشكوى نبيه ﷺ من قومه بقوله:  
﴿وَقِيلَ﴾ وشكواهم من قومه بقوله: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ الكفار ﴿قَوْمٌ﴾ وجمع ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بي  
وبكتابي.

وقيل: إن واو (وقيله) واو القسم<sup>٣</sup>، والمعنى: أقسم بقول رسولي يا رب، وجواب القسم: إن هؤلاء  
قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ، فيكون المجموع كلام الله. وفي حلفه تعالى بقول رسوله إظهاراً لكمال عظّمته، ورفعته  
شأنه، وتفخيم دعائه، والتجانه إليه.

وعن ابن عباس: أن المعنى: وقيل يا رب، والهاء زائدة<sup>٤</sup>.  
ثم سلّى سبحانه رسوله ﷺ بقوله: ﴿فَاصْفَحْ﴾ يا حبيبي، وأعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ واقتطع عن إيمانهم  
﴿وَقُلْ﴾ متاركة لهم ﴿سَلَامٌ﴾ عليكم، تسلمون أنتم من إيذائي، وأسلم أنا من كيديكم، لا خلاف بيني  
وبينكم.

ثم هدّدهم سبحانه بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وخامة عاقبة كفرهم، ومتاركة إياهم، وإن تأخّر ذلك،  
فإن كلّ آتٍ قريب.

٢. تفسير الرازي ٢٧: ٢٣٢.

١. تفسير الرازي ٢٧: ٢٣٢.

٤. تفسير الرازي ٢٧: ٢٣٤.

٣. تفسير أبي السعود ٨: ٥٧، تفسير روح البيان ٨: ٣٩٩.

عن ابن عباس: أن قوله: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ منسوخ بآية السيف.<sup>١</sup>  
عن الباقر عليه السلام: «من قرأ سورة الزخرف آمنه الله في قبره من هوام الأرض وضغطة القبر حتى يقف بين يدي الله عز وجل، ثم جاءت به حتى تدخله الجنة»<sup>٢</sup>.  
الحمد لله رب العالمين على إنعامه عليّ بالتوفيق لإتمام السورة المباركة الزخرف.

---

١. تفسير الرازي ٢٧: ٢٣٥.

٢. نواب الأعمال: ١١٣، مجمع البيان ٩: ٥٩، تفسير الصافي ٤: ٤٠٢.



## في تفسير سورة الدخان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ [١-٣]

ثم لما خُتِمت سورة الزخرف المبدوءة بتعظيم القرآن، وبإظهار المنة على العرب بإنزاله بلسانهم، المختمة بذكر أدلة التوحيد وتهديد منكره، وحكاية شكاية الرسول ﷺ من عدم إيمان قومه، وأمره تعالى إياه بمتاركتهم المتوسطة بذكر دعوة موسى إلى التوحيد، ومعارضة فرعون ملأه معه، نظمت سورة الدخان المبدوءة بتعظيم القرآن، وإنزاله في أشرف الأوقات، وبيان أدلة التوحيد، وتهديد منكره، وتسليية الرسول ﷺ بحكاية معارضة فرعون وقومه موسى عليه السلام، وشكاية موسى من عدم إيمان قومه، وسؤاله منهم المتاركة، إلى غير ذلك من المطالب المناسبة لما في السورة السابقة، فابتدأها بذكر أسمائه المباركة بقوله تبارك وتعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم افتتحها بذكر كلمة ﴿حم﴾ المركبة من حرفين، وقد مر أن كل حرفٍ منها رمزٌ من اسم من الأسماء الحُسنى، وقلنا إنها اسم للسورة عند بعض، واسم للقرآن عند آخر، وقيل: إن المعنى على هذا القول بحق حم<sup>١</sup>.  
﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ والقرآن الواضح المعنى للعرب، لكونه بلسانهم. وقيل: إن حم خبر لمبتدأ محذوف<sup>٢</sup>، والمعنى هذه السورة حم، ثم أقسم بالقرآن بقوله: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ بُلُطْنَا عَلَى الْخَلْقِ ﴿فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ وهي ليلة القدر. عن قتادة، قال: نزلت صُحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، والتوراة لست ليالٍ منه، والزبور لاثنتي عشرة مضت منه، والإنجيل لثمان عشرة مضت منه، والقرآن لأربع وعشرين مضت من رمضان، وهي ليلة القدر<sup>٣</sup>.

وعن الصادق عليه السلام قال: «أي أنزلنا القرآن، واللييلة المباركة هي ليلة القدر»<sup>٤</sup>.

وعن الكاظم عليه السلام مثله، وزاد: «أنزل الله سبحانه القرآن فيها إلى البيت المعمور جملةً واحدةً، ثم

٢. مجمع البيان ٩: ٩٢. ٣. تفسير الرازي ٢٧: ٢٣٨.

١. تفسير روح البيان ٨: ٤٠٠.

٤. مجمع البيان ٩: ٩٢، تفسير الصافي ٤: ٤٠٣.

نزل من البيت المعمور على رسول الله ﷺ في طول عشرين سنة<sup>١</sup>.

وروى بعض العامة أن عطية الحاروري سأل ابن عباس عن قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ﴾ وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ كيف يصح ذلك، مع أن الله أنزل القرآن في جميع الشهور؟ فقال ابن عباس: يا بن الأسود، لو هلك أنا، ووقع هذا في نفسك، ولم تجد جوابه لهلكت، نزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى البيت المعمور، وهو في السماء الدنيا، ثم نزل بعد ذلك في أنواع الوقائع حالاً بعد حال<sup>٢</sup>.

وعن الكاظم عليه السلام أنه سأله نصراني عن تفسير هذه الآية في الباطن فقال: «أما ﴿حَم﴾ فهو محمد، وهو في كتاب هود الذي أنزل عليه [وهو] منقوص الحروف، والكتاب المبين فهو أمير المؤمنين علي عليه السلام، وأما الليلة فقاطمة»<sup>٣</sup>.

ثم ذكر سبحانه علّة إنزاله بقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ من بدو الخلق ﴿مُنْذِرِينَ﴾ للناس ومخوفهم من العذاب على الشرك والعصيان، وشأننا هدايتهم إلى الحق.

فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ \* أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ \* رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ  
إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [٤-٦]

ثم بين سبحانه فضيلة الليلة بقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ﴾ ويفصل ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ ومتمن من الأجال والأرزاق وسائر الأمور من الليلة إلى مثلاً من السنة القابلة.

عن الكاظم عليه السلام: «﴿فِيهَا يُفْرَقُ﴾ يعني في ليلة القدر ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي يقدر الله عز وجل كل أمر من الحق والباطل، وما يكون في تلك السنة، وله فيه البداء والمشيئة، يُقدّم ما يشاء، ويُؤخر ما يشاء من الأجال والأرزاق، والبلايا والأعراض والأمراض، ويزيد فيه ما يشاء، وينقص ما يشاء، ويُلقيه رسول الله ﷺ إلى أمير المؤمنين عليه السلام، ويُلقيه أمير المؤمنين عليه السلام إلى الأنمة بعده، حتى ينتهي ذلك إلى صاحب الزمان عجل الله فرجه الشريف، ويشترط له فيه البداء والمشيئة والتقديم والتأخير»<sup>٤</sup>.

ثم بين سبحانه الأمر الحكيم بقوله تعالى: ﴿أَمْراً﴾ حصلاً ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾ على مقتضى حكمتنا ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ رُسُلنا بالكتاب، لإنباز الخلق، ولتكمّل عليهم ﴿رَحْمَةً﴾ كائنة ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ بمقتضى

١. تفسير القمي ٢: ٢٩٠، ولم ينسب إلى أحد، تفسير الصافي ٤: ٤٠٣.

٢. تفسير الرازي ٢٧: ٣٣٩.

٣. تفسير القمي ٢: ٢٩٠، لم ينسب إلى أحد، تفسير الصافي ٤: ٤٠١.

٤. الكافي ١: ٣٩٩، تفسير الصافي ٤: ٤٠٤.

٥. القدر: ١/٩٧.

ربوبيته على وفق حاجات المحتاجين ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لنضرعاتهم ﴿أَلْعَلِيمُ﴾ بحاجاتهم.  
 فنحصل من الآيات المباركات بيان شرف القرآن وعظمته، ذاتاً بقسمه تعالى به، وتوصيفه بكونه  
 مبیناً، وانتساباً بنسبة إنزاله إلى ذاته المقدسة، وبيان زمان نزوله، وهو أشرف الأزمنة، وغاية هي إنذار  
 الخلق وتكميل الرحمة عليهم.

## رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ \* لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ [٨ و ٧]

ثم بالغ سبحانه في تعظيم كتابه بتعظيم نفسه الذي أنزله بقوله: ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا  
 بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ بأن لها رباً، أو موقنين بشيء، فإن اليقين بهذا أولى من اليقين بسائر الأشياء  
 لغاية وضوحه. وقيل: يعني إن كنتم طالبين لليقين، فأيقنوا بذلك.<sup>١</sup>  
 فإذا كان الله تعالى خالق جميع الموجودات العلوية والسفلية، ثبت أنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا معبود  
 بالاستحقاق سواه وهو ﴿يُحْيِي﴾ الموتى ﴿وَيُمِيتُ﴾ الأحياء، وهو ﴿رَبُّكُمْ﴾ وخالقكم ومكمل  
 وجودكم ﴿وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ وأجدادكم السابقين من آدم ومن بعده من أولاده.  
 روى بعض العامة عن الباقر عليه السلام: «أنه قد انقضى قبل آدم الذي هو أبونا ألف آدم وأكثر».<sup>٢</sup>

## بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ \* فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ \* يُغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ \* رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ [٩-١٢]

ثم أضرب سبحانه عن كونهم موقنين بقوله: ﴿بَلْ هُمْ﴾ مع تلك الآيات الدالة على التوحيد ﴿فِي  
 شَكٍّ﴾ مما ذكر من التوحيد وسائر شؤونته تعالى غير موقنين في إقرارهم بأنه رب السماوات  
 والأرض ﴿يَلْعَبُونَ﴾ بإقرارهم، ويهزون باعترافيهم، ولا يقولون عن جد وإذعان. وقيل: إن المعنى بل  
 هم حال شك مستقر في قلوبهم، يلعبون<sup>٣</sup> بزخارف الدنيا، ولا يكونون بصدد إزالة شكهم.  
 إذا كان ذلك حال الكفار ﴿فَارْتَقِبْ﴾ يا محمد، وانتظر لهم ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ﴾ أو المراد فانتظر  
 وعد الله في يوم تأتي السماء ﴿بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ ظاهر لا يشك أحد في أنه دخان.  
 قيل: إن الدخان كناية عن المجاعة والفحط، فإن الجائع يرى بينه وبين السماء كهية الدخان من

٢. تفسير روح البيان ٨: ٤٠٥.

١. تفسير روح البيان ٨: ٤٠٥.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٤٠٦.

شدة الجوع، أو لأن في عام القحط يظلم الهواء لقلة الأمطار وكثرة الغبار، أو لأن العرب تسمي الشر الغالب دُخاناً، وإسناد إتيانه إلى السماء؛ لأنه بسبب كنفها عن الأمطار<sup>١</sup>.

رؤي هذا عن ابن عباس، وابن مسعود، وقالوا: ذلك لما دعا النبي ﷺ على أهل مكة حين أصروا على تكذيبه وإيذائه بقوله: «اللهم اشدّد وطأتك على مُضَر، واجعلها عليهم سنيئاً كسني يوسف» فأصابتهم سنة حتى أكلوا الجيف والجلود والعظام والعُلْهُز<sup>٢</sup> والكِلَاب، فكان الرجل لِمَا به من الجوع يرى بينه وبين السماء كالدخان، فجاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ، وناشده بالله والرحيم، ووعدته إن دعا لهم وأزال عنهم تلك البلية أن يؤمنوا به<sup>٣</sup>، فلما أزال الله عنهم ذلك رجعوا إلى الكفر والشرك.

نسي ذكر بعض اشراط الساعة وقيل: إنه الدُخان الذي عَدَّ من اشراط الساعة، فإنه يظهر في العالم، فيحصل لأهل الايمان منه حالة تشبه الرُكام، ولأهل الكفر السُكر، وتصير رؤوسهم كالحنيد<sup>٤</sup>. روى بعض العامة هذا القول عن علي عليه السلام وابن عباس<sup>٥</sup>.

وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «أول الآيات الدُخان، ونزول عيسى بن مريم، وناار تخرُج من قعر عدن، تسوق الناس إلى المحشر» قال حذيفة: يا رسول الله، وما الدُخان؟ فتلا رسول الله ﷺ هذه الآية، وقال: «دُخانٌ يملأ ما بين المغرب والمشرق، يمكث أربعين يوماً وليلة، أما المؤمن فيصيبه كهينة الرُكمة، وأما الكافر فهو كالسكران، يخرُج من مَنَحْرِهِ وأذنيه وذُبره»<sup>٦</sup>.

وفي رواية أخرى ذكر ﷺ من الآيات طُلوع الشمس من مغربها، والدجال، والدُخان، والدابة<sup>٧</sup>. وروى في (الجوامع) عن علي عليه السلام أنه قال: «دُخان يأتي من السماء قبل قيام الساعة، يدخل في أسمع الكفّرة حتى يكون رأس الواحد كالحنيد، ويعتري المؤمن كهينة الرُكام، وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه، ليس فيه خصاص<sup>٨</sup> ويمتد ذلك أربعين يوماً»<sup>٩</sup>.

﴿يَغْشَى﴾ ذلك الدُخان ﴿الْأَنَاسَ﴾ ويَشْمَلُهُمْ من كلّ جانب، وهم يقولون: ﴿هَذَا﴾ الدُخان ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عظيم، ثم يقولون تضرّعا إلى الله: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ﴾ وارفع ﴿عَنَّا﴾ هذا ﴿الْعَذَابَ﴾

١. تفسير روح البيان ٨: ٤٠٦.

٢. العُلْهُز: القراد الضخم، وطعامه من الدم والوبركان يُتخذ في المجاعة.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٤٠٦، ولم ينسبه إلى أحد.

٤. الحنيد: الشيء المشوي، فعيل بمعنى مفعول، ومنه لحم حنيد، وعجل حنيد، أي محنود.

٥. تفسير الرازي ٢٧: ٢٤٢.

٦. تفسير الرازي ٢٧: ٢٤٢.

٧. تفسير الرازي ٢٧: ٢٤٣.

٨. الخصاص: جمع خَصَصَ. وهو البيت المتخذ من الشجر أو القصب، أو الذي سقفه من الخشب.

٩. جوامع الجامع ٤٣٨.

الذي أحاط بنا ﴿إِنَّا﴾ بعد رفعه ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ بك وبرسولك.

أَنْتَ لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ \* ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ  
\* إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا \* إِنَّكُمْ عَائِدُونَ \* يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا  
مُنتَقِمُونَ [١٦-١٣]

ثم يقول الله تعالى ردّاً عليهم: ﴿أَنْتَ لَهُمُ الذِّكْرَى﴾ كيف لهم الاتعاظ برؤية هذه الداهية، والحال أنه ﴿قَدْ جَاءَهُمْ﴾ من قبل الله ﴿رَسُولٌ﴾ عظيم الشأن ﴿مُبِينٌ﴾ ومظهرٌ لهم رسالته بالمعجزات الباهرة، أو مظهرٌ لهم مناهج الحق، وأتاهم من المواعظ والعبر ما يحرك ضمّ الجبال ﴿ثُمَّ﴾ مع ذلك ﴿تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا ﴿عَنْهُ﴾ بل لم يقنعوا بالتولي والإعراض حتى أطالوا اللسان عليه ﴿وَقَالُوا﴾ تارة ﴿مُعَلَّمٌ﴾ يعلمه بشر، ويفتري على الله بأن كتابه كتاب الله وكلامه أنزله إليه بالوحي، وتارة قالوا: إنه ﴿مَجْنُونٌ﴾ وخفيف العقل حيث يدعي ما لم يقل به عقلاء قومه، أو يُصيبه الجن حين يعرض له الغشي، فيلقون إليه ما يدعي أنه كلام الله. وقيل: إن بعضهم قالوا: معلم، وبعضهم قالوا: إنه مجنون، فإذا كان خُبت ذاتهم وردالة صفاتهم بهذه المرتبة، لا يُتَوَقَّع منهم الايمان والاتعاظ.

ثم لَوْنُ سبحانه الخطاب إليهم تسجيلاً عليهم الخلف بقوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو﴾ ورافعو ﴿الْعَذَابِ﴾ الذي تسألون كشفه ورفع زماماً ﴿قَلِيلًا﴾ وهو بقية مدة أعمارهم إلى القيامة، أو كشفاً قليلاً، ولكن ﴿إِنَّكُمْ﴾ بعد كشفه ﴿عَائِدُونَ﴾ وراجعون البتة إلى الكفر والعنوّ والطغيان، واذكر يا محمد، أو ذكرهم ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ﴾ فيه وناخذ الكفار بطنفٍ وَصَوْلَةٍ ﴿الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ ونعاقبهم العقوبة العظمى، وفي ذلك اليوم ﴿إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ منهم أشد الانتقام.

عن ابن عباس: أنه قال ابن مسعود: البطشة الكبرى يوم بدر، وأنا أقول هي يوم القيامة.<sup>١</sup>

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ \* أَنْ أَذْأُوا إِلَيْنِي عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي  
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ \* وَأَنْ لَا تَغْلُوا عَلَى اللَّهِ [١٧-١٩]

ثم حكى سبحانه حال قوم فرعون، ومعارضتهم موسى بن عمران، وإهلاكهم بالعذاب، تسليّة للنبي ﷺ، وتهديداً لقومه بقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ وامتحاناً في العصر السابق على عصر قومك ﴿وَقَبْلَهُمْ﴾ بزمانٍ طويل ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ وكان امتحانهم بأن أتاهم ﴿وَجَاءَهُمْ﴾ من قبلنا لهدايتهم إلى

الحق موسى بن عمران الذي هو ﴿رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ على الله عظيم الشأن عنده، أو كريم وشريف عند الناس، أو حسن الخلق، فقال: ﴿أَنْ أَأَقُولَ﴾ يا قوم، وسَلِّمُوا ﴿إِلَيْ﴾ بني إسرائيل الذين هم يكونون ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ وارسلوهم معي ولا تعذبوهم. قيل ان المعنى ادو إلى عباد الله ما هو واجب عليكم من الايمان بالله، وقبول دعوتي وطاعتي<sup>١</sup>.

ثم ذكر علة أمره بتأدية بني إسرائيل، أو تأدية حق الله إليه بقوله: ﴿إِنِّي﴾ يا قوم ﴿لَكُمْ﴾ واليكم ﴿رَسُولٌ﴾ من قبل الله ﴿أَمِينٌ﴾ على وحيه ورسالته، غير متهم بالكذب والخيانة ﴿وَأَنْ لَا تَغْلُوا﴾ ولا تكبروا ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ بالإهانة بوحيه وبرسوله وعباده، أو لا تتأنفوا من طاعته والإيمان به.

إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ \* وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ \* وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا إِلَيَّ فَأَعْتَزَلُونِ \* قَدْ عَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ \* فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبَعُونَ \* وَاتْرِكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ \* كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَابٍ وَعُيُونٍ \* وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ \* وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ \* كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ [١٩-٢٨]

ثم ذكر علة نهيه بقوله: ﴿إِنِّي آتِيكُمْ﴾ من جانب الله ﴿بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ وحجة واضحة على رسالتي من قبله، وصدقي فيما دعوتكم إليه، وهي المعجزات الباهرات، وفي تعليل وجوب التأدية عليهم بأمانة نفسه، وحرمة العلو على الله بإتيان السلطان المبين، ما لا يخفى من اللطافة والجزالة ﴿وَإِنِّي﴾ يا قوم ﴿عُذْتُ﴾ والتجأت ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ القادر على دفع كل شرٍّ وخيرٍ من ﴿أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ بالحجارة، الذي هو أفظع القتل، أو بالقول السيء من الشتم والسب والنسبة إلى الكذب والسحر، أو من أن تؤذوني بالضرب والشتم.

وقيل: لَمَّا قَالَ: ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ توعده بالقتل<sup>٢</sup>.

﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ وتذعنوا ﴿إِلَيَّ﴾ وكأبرتم عقولكم، ولم تصدقوني فيما أقول ﴿فَاعْتَزَلُونِ﴾ واطركوني على ما أنا عليه، ولا تتعرضوا لي بشرٍّ ولا أذى، فأصرَّ القبط على تكذيبه وإيذائه ﴿قَدْ عَا رَبَّهُ﴾ وكان دعاؤه: ﴿أَنَّ هَؤُلَاءِ﴾ القبط ﴿قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ وطاغون مُصْرُونَ على الكفر بك وتكذيبي، فافعل بهم ما يستحقون بجرمهم.

فأوحى الله إليه إذا كان حال القبط ذلك ﴿فَأَسْرِ﴾ أنت يا موسى ﴿بِعِبَادِي﴾ بني إسرائيل ﴿لَيْلًا﴾

من مصر، وأخرجهم منها على غفلةٍ من أعدائهم ﴿إِنَّكُمْ﴾ بعد خُرُوجكم من مصر ﴿مُتَّبِعُونَ﴾ يتبعكم فرعون وجنوده، إن عِلِمُوا بخروجكم ليقتلوكم، فإذا قربوا منكم، ووصلتم إلى بحر القلزم، فاضْرِبْ بعصاك البحر فينفلق، وجاوز بني إسرائيل البحر ﴿وَأَتَوْكَ السَّحَرُ﴾ حال كونه ﴿رَهْوَاً﴾ وساكناً على هيئته بعد ما جاوزته، ولا تضربه بعصاك لينطبق.

وقيل: إن الرِّهْوَ الفُرْجَةُ الواسعة<sup>١</sup>. والمعنى: اتركه حال كونه ذا فُرْجَةٍ واسعةٍ حتى يدخله القَيْطُ ﴿إِنَّهُمْ﴾ إذا ﴿جُنِدَ مُغْرَقُونَ﴾ في البحر، لانطباق الماء عليهم بعد دخولهم فيه.

ثم فعل موسى ﷺ ما أمره الله من إخراج قومه من مصر ليلاً، فأتبعه فرعون وجنوده، فأدركهم الغرق فغرقوا و ﴿كَمْ تَرَكُوا﴾ وكثيراً أبقوا في الدنيا ما حصلوه في مدة أعمارهم ﴿مِنْ جَنَّاتٍ﴾ وبساتين كثيرة الأشجار ﴿وَعُيُونٍ﴾ وأنهار كثيرة الماء المنشعبة من النيل، على ما قيل<sup>٢</sup> ﴿وَزُرُوعٍ﴾ من الحبوب والثمار ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ومحافل مرتبة، ومنازل مُسْتَحْسَنَة، أو منابر كانوا يمدحون فرعون عليها<sup>٣</sup> ﴿وَوَعْمَةٍ﴾ ونُضارة عيش ﴿كَانُوا فِيهَا فَكِهِينَ﴾ ومتنعمين ومتلذذين ﴿كَذَلِكَ﴾ السلب سلبناهم إياها، ومثل ذلك الخروج أخرجناهم منها ﴿وَأَوْرَثْنَاها﴾ وملكتها ﴿قَوْماً آخِرِينَ﴾ لبسوا منهم في شيء من قرابةٍ ولا دينٍ ولا ولاء، وهم بنو إسرائيل الذين كانوا مُسْتَعْبِدِينَ في أيديهم أذلاء بينهم.

### فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْتَظِرِينَ [٢٩]

ثم بَيَّن سبحانه هوان القَيْط عليه، وعدم اكترائه بهلاكهم بقوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ﴾ بعد هلاكهم ﴿السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ قيل: هو كناية عن عدم الاعتداد بوجودهم<sup>٤</sup>.

وقيل: هو من التهكم والسخرية، حيث إنهم كانوا يستعظمون أنفسهم، ويتخيلون أنهم إذا ماتوا بكت السماء والأرض عليهم، فأخبر الله أنهم ما كانوا في القدر والشأن بهذا الحد الذي كانوا يتخيلون لأنفسهم، بل كانوا أدون من ذلك<sup>٥</sup>.

وقيل: إن المعنى فما بكت أهل السماء وأهل الأرض من المؤمنين عليهم، بل كانوا مسرورين بهلاكهم<sup>٦</sup>.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٤١١.

٤. تفسير أبي السعود ٨: ٦٣، تفسير روح البيان ٨: ٤١٣.

٦. تفسير الرازي ٢٧: ٢٤٧.

١. تفسير الرازي ٢٧: ٢٤٦.

٣. تفسير الرازي ٢٧: ٢٤٦.

٥. تفسير الرازي ٢٧: ٢٤٧.

وقيل: إن الكلام على حقيقته<sup>١</sup> من غير حذف وإضمار، لرواية أنس، عن النبي ﷺ، أنه قال: «ما من عبد إلا وله في السماء بابان: باب يخرج منه رزقه، وباب يدخل فيه عمله، فإذا مات فقدها، وبكى عليه» وتلا هذه الآية، قال: «وذلك لأنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحاً، فتبكي عليهم، ولم يصعد لهم إلى السماء كلام طيب ولا عمل صالح، فتبكي عليهم»<sup>٢</sup>.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه مر عليه رجل عدو لله ولرسوله، فقال: «فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ؟» وقال: «وما بكت السماء والأرض إلا على يحيى بن زكريا، وعلى الحسين»<sup>٣</sup>.

وعن الصادق عليه السلام، قال: «بكت السماء على يحيى بن زكريا وعلى الحسين ابن علي عليه السلام أربعين صباحاً، ولم تبك إلا عليهما» قيل: فما بكاؤهما؟ قال: «تطلع حمراء، وتغيب حمراء»<sup>٤</sup>.

وروى بعض العامة عن زيد بن أبي زياد: لما قُتل الحسين بن علي عليه السلام أحمر له آفاق السماء أشهراً، وأحمرارها بكاؤها<sup>٥</sup>.

وعن ابن سيرين، قال: أخبرونا أن الحُمرة التي مع الشُّق لم تكن حتى قُتل الحسين<sup>٦</sup>. ثم بين سبحانه عدم إهماله القبط بقوله: «وَمَا كَانُوا» لما جاء وقت هلاكهم «مُنْظَرِينَ» ومُهلين ساعة، بل عجل إهلاكهم، فاجتمع لهم عذاب الدنيا والآخرة.

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ \* مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنْ  
الْمُسْرِفِينَ \* وَلَقَدْ أَخْتَرْنَاَهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ \* وَأَتَيْنَاهُمْ مِنَ آيَاتِ  
مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ [٣٠-٣٣]

ثم إنه تعالى بعد ذكر غضبه على القبط، ذكر لطفه ببني إسرائيل بقوله تبارك وتعالى: «وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ» بإغراق أعدائهم من القبط «مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ» والمذل الذي كانوا معذبين به، أعني «مِنْ» عذاب «فِرْعَوْنَ» أو من العذاب المهين الذي كان يُصيبهم من فرعون «إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا» ومتكبراً، وكان «مِنَ الْمُسْرِفِينَ» على أنفسهم بالظلم، المتجاوزين عن الحد في الكفر والطغيان «وَاللهَ» وَلَقَدْ أَخْتَرْنَاَهُمْ «وَاصْطَفَيْنَاهُمْ» حال كوننا «عَلَى عِلْمٍ» باستحقاقهم للاختيار والتفضل، أو على علم بجناياتهم وفراطتهم «عَلَى الْعَالَمِينَ» والجماعات الكثيرة في أعصارهم، بأن آتيناهم الكتاب والنبوة والملك «وَأَتَيْنَاهُمْ مِنَ آيَاتِ» ودلائل التوحيد والقدرة والحكمة،

١. تفسير روح البيان ٨: ٤١٣.

٣. تفسير القمي ٢: ٢٩١، تفسير الصافي ٤: ٤٠٧.

٢. تفسير الرازي ٢٧: ٢٤٦.

٤. مجمع البيان ٩: ٩٨، تفسير الصافي ٤: ٤٠٧.

٦. تفسير روح البيان ٨: ٤١٣.

٥. تفسير روح البيان ٨: ٤١٣.



كفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المنّ والسّلى، التي لم يعهد مثلها في غيرهم ﴿مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾ ونعمة عظيمة ظاهرة، أو ما فيه امتحان واختبار لهم، أنهم كيف يعملون، هل يشكرون أو يكفرون؟

إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ \* إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ \* فَأْتُوا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ [٣٧-٣٤]

ثم لما كان الكلام في ذم أهل مكة وإصرارهم على الكفر، وإثما ذكر قصة موسى تسليّة للنبي وتهديداً لهم، عاد سبحانه إلى ذم أهل مكة بقوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ المشركين المنكرين للبعث ﴿لَيَقُولُونَ﴾ في جواب المؤمنين القائلين بأن عاقبة حياتهم الموت ثم البعث للحساب: ﴿إِنْ﴾ العاقبة، وما ﴿هِيَ﴾ عندنا ﴿إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى﴾ المزيلة للحياة الدنيوية ﴿وَمَا نَحْنُ﴾ بعدها ﴿بِمُنْشَرِينَ﴾ ومبعوثين.

وقيل: إن المعنى وما الحياة إلا حياة موتتنا الأولى<sup>١</sup>.

وقيل: يعني ما الحالة إلا حالة موتتنا الأولى، وإن كان البعث والنشور ممكناً. ﴿فَأْتُوا﴾ أيها المدعون للبعث بعد الموت ﴿بِآيَاتِنَا﴾ وأحيوهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تعدّونا من البعث. قيل: كانوا يطلبون من الرسول والمؤمنين أن يدعوا الله فينشر لهم قصي بن كلاب، ليشاوروه ويسألوا منه أحوال الموت وصدق محمد ﷺ في دعوى النبوة والبعث في الآخرة<sup>٢</sup>، وهم طلبوه في الدنيا جهلاً وعناداً، فبادر سبحانه في جوابهم أولاً بتهديدهم بقوله: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ وأفضل في القوة والشوكة التي بها يذفع الضرّ والشرّ ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ ملك اليمن الذين كانوا قريب الدار منهم ﴿وَالَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كقوم عاد وثمود وأضرابهم من الجابرة الذين كانوا أولي قوة وبأس، لاشك أن قوم تُبَّع وأضرابهم كانوا أشد من كفار مكة قوة وشوكة، ومع ذلك ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بعدذاب الاستئصال بحيث لم يبق منهم أحد.

كأنه قيل: ما سبب إهلاكهم؟ فقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ في عصرهم ﴿مُجْرِمِينَ﴾ ومُصْرِينَ على الكفر والطغيان، فاذا أهلك هؤلاء الأقوام الكثيرة القوية بسبب إجرامهم، كان إهلاك أهل مكة مع ضعفهم أولى.

١. تفسير روح البيان ٨: ٤١٧.

٢. تفسير الرازي ٢٧: ٢٤٩، تفسير روح البيان ٨: ٤١٧.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَآعِيبِينَ \* مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ  
وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ \* إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ \* يَوْمَ لَا يُغْنِي  
مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ \* إِلَّا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ  
الرَّحِيمُ [٣٨-٤٢]

ثم استدلَّ سبحانه على صحة البعث ثانياً بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من  
الموجودات حال كوننا ﴿لَآعِيبِينَ﴾ بخلقها، وقاصدين عملاً لا حكمة فيه ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا﴾ وما بينهما  
بداعٍ من الدواعي، وغرض من الأغراض ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وداع الحكمة، وغرض الايمان والطاعة  
المُكملين للنفس المستعدة للكمال، ولازم ذلك خلق عالم آخر للحساب والجزاء وبعث الناس،  
والإلزام تساوي الكامل والناقص، والمطيع والعاصي، بل يلزم أن يكون المطيع أسوأ حالاً من  
العاصي ﴿وَلَكِنْ﴾ أهل مكة ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ بسبب إنيهمالكهم في الشهوات وعدم تفكيرهم في الآيات ﴿لَا  
يَعْلَمُونَ﴾ أن لازم خلق هذا العالم خلق آخر وبعث الناس فيه، ولذا يُنكرونه.

ثم صرح سبحانه نتيجة الدليل المذكور بقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ والقضاء بين الحق والباطل،  
وتمييز الأعمال الصحيحة والفسادة، وهو يوم القيامة، موعد الخلائق و﴿مِيقَاتُهُمْ﴾ ووقت  
اجتماعهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ لا يشذ منهم أحد، أعني ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى﴾ ومُحِبٍّ من الأقرباء  
والأصدقاء ﴿عَنْ مَوْلَى شَيْئًا﴾ من الإغناء، ولا يدفع أحدٌ عن أحدٍ قليلاً من العذاب، ولا تنفع نفس  
نفساً يسيراً من النفع ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ويؤمنون مما ينزل بهم من الشدائد ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ﴾  
عليه بالعمو وقبول الشفاعة في حقّه، وهم المؤمنون ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿هُوَ﴾ وحده ﴿الْعَزِيزُ﴾ القاهر  
الذي لا ينصر من أراد تعذيبه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بمن أراد أن يرحمه.

إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ \* طَعَامَ الْأَثِيمِ \* كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ \* كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ  
\* خَذُوهُ فَاَعْلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ \* ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ  
\* ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ \* إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ [٤٣-٥٠]

ثم إنه تعالى بعد ذكر اجتماع الناس في القيامة، وعدم نفع أحدٍ أحدًا، ذكر سوء حال الكفار بقوله  
تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ﴾ التي منبتها قعر جهنم، ثمرتها التي في غاية المرارة والحرارة ﴿طَعَامُ  
الْأَثِيمِ﴾ وغذاء الكافر الكثير العصيان، وذلك الثمر في شدة الحرارة ﴿كَالْمُهْلِ﴾ والصُّفر أو النحاس  
المذاب، فاذا أُكِلَ ﴿يَغْلِي﴾ ذلك الثمر ﴿فِي الْبُطُونِ﴾ والأجواف ﴿كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ﴾ وغلbian الماء

الشديد الحرارة. قيل: إِنَّهُ يَقَطَعُ الْأَمْعَاءَ<sup>١</sup>.

ثم يقول الله للملائكة الغلاظ الشداد غضباً على الكافر الأثيم: ﴿خُذُوهُ﴾ بالنواصي والأقدام ﴿فَاغْلُظُوهُ﴾ وجزوه بالشف والقهر ﴿إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ ووسط جهنم ﴿ثُمَّ صُبُّوا﴾ وأهريقوا ﴿فَوْقَ رَأْسِهِ﴾ ومن أعلى جسده ﴿مِنْ عَذَابٍ﴾ ذلك ﴿الْحَمِيمِ﴾ وفي نسبة الصب إلى العذاب دون الحميم مع أنه المصبوب غاية المبالغة، فيعذب ظاهره بالحميم، وباطنه بالزقوم.

رؤي أنه إذا دخل الكافر النار يُطْعَمُ الزقوم، ثم إن خازن النار يضرب على رأسه بمِغْمَعَةٍ يسيل منها دماغه على جسده، ثم يَصَبُّ الحميم فوق رأسه، فينقذ إلى جوفه، فيقطع الأمعاء والأحشاء<sup>٢</sup>، ويقال له استهزاء وتقريعاً: ﴿ذُقْ﴾ هذا العذاب المهين المذلل ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ على زعمك وزعم قومك، مع أنك بخلاف ما زعمت ﴿إِنَّ هَذَا﴾ العذاب الذي تذوقه هو ﴿مَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ وفيه تشكون، أو فيه تمارون وتجادلون.

رؤي أن أبا جهل قال: ما بين جبلي مكة أعز وأكرم مني، فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعل بي شيئاً، فنزلت الآية<sup>٣</sup>.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ \* فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ \* يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ  
وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ \* كَذَلِكَ وَرَوَّجْنَاهُمْ بِخُورٍ عَيْنٍ \* يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ  
أَمِينٍ [٥٥-٥١]

ثم إنَّه تعالى بعد وعيد الكفار، وعد المؤمنين المتقين بقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ والمحترزين عن الشُّرك والعِصيان، متمكنون في الآخرة ﴿فِي مَقَامٍ﴾ ومنزل ﴿أَمِينٍ﴾ ومأمون من الآفات والمكاره والزوال، وأعني ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ وبساتين كثيرة الأشجار ﴿وَعُيُونٍ﴾ وأنهار لا يمكن توصيفها من حيث النزاهة والصفاء، ﴿يَلْبَسُونَ﴾ فيها ألبسة ﴿مِنْ سُندُسٍ﴾ وحرير رقيق ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وحرير غليظ، وهما من أرفع أنواع اللباس، حال كونهم في المجالس ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ ومواجهين، ليأنس بعضهم ببعض. وقيل: إن المراد متقابلين بالمحبة، غير متدابرين بالبغض والحسد<sup>٤</sup>.

ثم عظم سبحانه ذلك الثواب بقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ قيل: يعني الأمر كذلك<sup>٥</sup> الذي ذكرنا، أو مثل ذلك

٢. تفسير روح البيان ٨: ٤٢٨.

١. تفسير روح البيان ٨: ٤٢٧.

٣. تفسير الرازي ٢٧: ٢٥٢، تفسير روح البيان ٨: ٤٢٨.

٥. تفسير روح البيان ٨: ٤٣٠.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٤٣٠.

٥٤٢ ..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٥

الثواب العظيم آتيناهم ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ﴾ وقرناهم ﴿يُحُور عَيْنٌ﴾ ونسوة بيض<sup>١</sup> واسعة الأعين حسانها، أو الشديديات بياض أعينهن وسوادها.

عن الباقر عليه السلام: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، بعث رب العزة علياً فأنزلهم منازلهم من الجنة وزوجهم، فعلي والله الذي يزوج أهل الجنة في الجنة، وما ذاك إلى أحدٍ غيره، كرامة من الله، وفضلاً فضله الله، ومن به عليه»<sup>٢</sup>.

وعن الصادق عليه السلام قال: «المؤمن يُزَوَّج ثمانمائة عذراء وألف ثيب<sup>٣</sup>، وزوجتين من الحور العين»<sup>٤</sup>. وقيل: إن الحور العين من نساء الدنيا<sup>٥</sup>. وعن أبي هريرة: أنهن لسن من نساء الدنيا<sup>٦</sup>.

ثم بين سبحانه مأكول أهل الإيمان بعد منازلهم وملابسهم ومناكحهم بقوله: ﴿يَدْعُونَ﴾ ويطلبون ﴿فيها﴾ في أي مكان كانوا ﴿بِكُلِّ فَاكِهَةٍ﴾ أرادوا حال كونهم ﴿آمِنِينَ﴾ من ضررها وانقطاعها وزوالها والاعتراض من اكثارها.

لَا يَدْعُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ \* فَضْلاً  
مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ \* فَإِنَّمَا يَسْرُنَا بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ \*  
فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرتَقِبُونَ [٥٦-٥٩]

ثم إنه تعالى بعد بيان نعم الجنة، وتنعمات المتقين وأزواجهم، وتلذذاتهم فيها، بشر بخلودهم فيها بقوله: ﴿لَا يَدْعُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ أبدأً، أي نحو كان ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ التي ذاقوها في الدنيا، إن أمكن ذوقها في الآخرة، مع أنه محال، فيستحيل موتهم فيها.

وقيل: إن المعنى إلا ذوق تذكر الموة الأولى، فكما يصح نسبة الذوق إلى شيء إذا علم به، يصح نسبته إليه إذا تذكره. وقيل: إن الاستثناء منقطع، والمعنى ولكن الموة الأولى قد ذاقوها<sup>٧</sup>.

ثم تبه سبحانه على أعظم التفضلات عليهم بقوله: ﴿وَوَقَاهُمْ﴾ وحفظهم أول الأمر، وقبل النعم المذكورة ﴿عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ ونجّاهم منه، كل ذلك من النجاة من النار، والدخول في الجنة، والتنعّم بالنعم الأبدية، يكون ﴿فَضْلاً﴾ وإحساناً ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ يا محمد على المتقين المستحقين للإحسان

١. في النسخة: بياض. ٢. الكافي ٨: ١٥٤/١٥٩، تفسير الصافي ٤: ٤١٠.

٣. في تفسير القمي: وأربعة آلاف ثيب. ٤. تفسير القمي ٢: ٨٢، تفسير الصافي ٤: ٤١٠.

٥. تفسير روح البيان ٨: ٤٣١. ٦. تفسير روح البيان ٨: ٤٣١.

٧. تفسير الرازي ٢٧: ٢٥٤.

والتفضل ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور الذي خصَّ الله المتقين به ﴿هُوَ أَلْفُوزٌ أَلْعَظِيمُ﴾ والنيل بأعلى المقاصد. ثم بين سبحانه الغرض من إنزال الكتاب المبين والقرآن المجيد، وذكر دلائل التوحيد والمعاد والوعد والوعيد بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزَأُ بِلسَانِكَ﴾ ولسان قومك، وأنزلناه بلغتكهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَسْتَدْكَرُونَ﴾ ويفهمون ما فيه، ويتعظون ويعملون به، ومع ذلك هم ينكرون ويكذبونك ويخاصمونك ﴿فَازْتَقِبْ﴾ وانتظر لما يحل بهم من العذاب ﴿إِنَّهُمْ﴾ أيضاً ﴿مُزْتَقِبُونَ﴾ لما يحل بك من الدوائر والمضار، وسترى ما يحل بهم، ولا ينالون ما يأملون فيك.

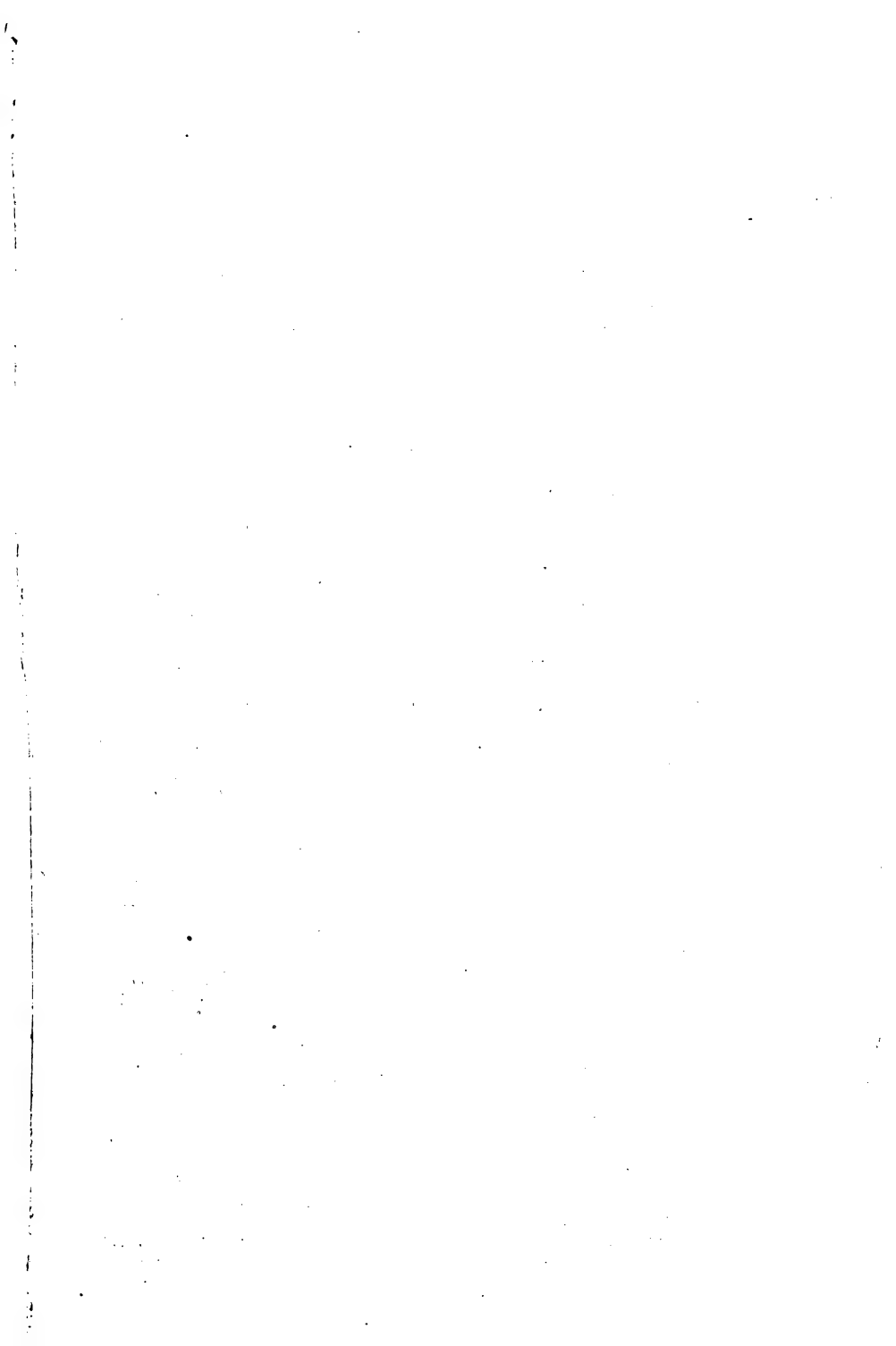
روت العامة عن النبي ﷺ: «من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة، أصبح مغفوراً له»<sup>١</sup>. ورووا أيضاً عنه ﷺ: «من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة، أو يوم الجمعة، بنى الله له بيتاً في الجنة»<sup>٢</sup>. وعن الباقر عليه السلام: «من أدام سورة الدخان في فرائضه ونوافله، بعثه الله من الآمنين يوم القيامة، وظلله تحت عرشه، وحاسبه حساباً يسيراً، وأعطاه كتابه بيمينه»<sup>٣</sup>. في الكافي عنه عليه السلام، أنه سئل: كيف أعرف أن ليلة القدر تكون في كل سنة؟ قال: «إذا أتى شهر رمضان فاقرأ سورة الدخان في كل ليلة مائة مرة، فإذا أتت ليلة ثلاث وعشرين فانك ناظرٌ إلى تصديق ما سألت عنه»<sup>٤</sup>. الحمد لله على التوفيق.

١. تفسير البضاوي ٢: ٣٨٥، تفسير روح البيان ٨: ٤٣٣.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٤٣٣.

٣. نواب الأعمال: ١١٤، مجمع البيان ٩: ٩١، تفسير الصافي ٤: ٤١١.

٤. الكافي ١: ٨/١٩٦، تفسير الصافي ٤: ٤١١.



## في تفسير سورة الجاثية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم \* تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ \* إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ  
لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ \* وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ \*  
وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضُ  
بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [١-٥]

ثم لما ختمت سورة حم الدخان المشتملة على تعظيم القرآن، وبيان أدلة التوحيد والمعاد،  
والنفصلات العظيمة بني إسرائيل، نظمت سورة حم الجاثية المشتملة على تلك المطالب، فابتدأها  
بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم افتتحها بذكر كلمة ﴿حم﴾ وقد مر تأويلها مراراً.

ثم بين عظمة شأن القرآن الكريم بقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ الْعَظِيمِ الشَّانِ مِنْ﴾ جانب ﴿اللَّهُ  
الْعَزِيزِ﴾ القادر على إيجاد الممكنات التي منها جعل القرآن من أعظم المعجزات ﴿الْحَكِيمِ﴾  
المطلع على جميع العلوم، ولذا اشتمل كتابه على حكم كثيرة وعُلومٍ وفيرة.

قيل: إن حم قسم، والمعنى أقسم بحم الذي هو تنزيل الكتاب، وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّ فِي﴾  
خلق ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>١</sup> أو في أنفسهما خلقاً ومقادراً وكيفية ﴿لَآيَاتٍ﴾ وأدلة واضحة على  
توحيد خالقهما، وكمال قدرته وربوبيته، ولكن الانتفاع بها ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم يتفكرون فيها،  
ويستدلون بالخلق على الخالق، وبالمصنوع على الصانع وتوحيده وقدرته وحكمته ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾  
أيها الناس من التراب أولاً، ومن النطفة، ثم من علقه، ثم من المضغة إلى تمام الخلق ﴿وَوَفِي﴾  
يَبُثُّ وفي الأرض ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ وذي حياة متحرك على اختلاف أنواعها وأصنافها وصورها  
وهياتها ﴿آيَاتٍ﴾ وشواهد مقتضية لليقين بتوحيد موجودها ومفرقها وحكمته وقدرته ﴿لِقَوْمٍ  
يُوقِنُونَ﴾ بشيء في العالم، فإن من لم يكن شكاً، بل كان ممن يحصل له اليقين بشيء، يحصل له

اليقين بما دلت عليه تلك الآيات بطريق أولى، لأنه من الظهور كالشمس في رابعة النهار ﴿و﴾ في ﴿اٰخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَ﴾ في ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ بقدرته وحكمته ﴿مِنْ السَّمَاءِ مِنْ﴾ ماءٍ نافع هو سبب ﴿رِزْقِ﴾ الانسان وسائر الحيوانات بأصنافها ﴿فَأَخْبَاهُ بِهٖ الْأَرْضُ﴾ بإخراج أنواع الزروع والأشجار والثمار والنباتات منها ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وبئسها وعدم الانتفاع بها ﴿و﴾ في ﴿تَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ﴾ وتحويلها من جهة إلى جهة، وتبديلها من حال إلى حال ﴿آيَاتُ﴾ وبراهين متقنة على قدرة الله ورحمته ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ ويُدركون واقعيات الأمور غير المحسوسة بالنظر إلى المحسوسات.

قيل: إن في اختلاف الفواصل إشارة إلى أن الناس إن كانوا مؤمنين، فعليهم أن يفهموا هذه الدلائل بقوة إيمانهم، وإن لم يكونوا من أهل الايمان، بل كانوا طلاب الحق واليقين به، فعليهم أيضاً أن يتفكروا في تلك الآيات، ويطلبوا اليقين بقوة النظر والفكر، وإن لم يكونوا من أهل الايمان، ولا من طلاب اليقين، فلا أقل يكونون من زمرة العقلاء، فعليهم أيضاً أن يتفكروا فيها، ويدركوا الحق بقوة عقولهم<sup>١</sup>.

أقول: والأولى أن يقال إن حدوث السماوات والأرض، لما لم يكن من المحسوسات، وكان محتاجاً إلى التأمل التام أدلة حدوثهما، ولا باعث إلى ذلك التأمل إلا الايمان، خص دالتهما بأهل الايمان، وأما الآيات الأخر من خلق الانسان والحيوانات ونزول الغيث وتصريف الرياح، فلما كان حدوثها محسوساً ومشاهداً لكل أحد، كان دليلاً على وجود القادر الحكيم من غير حاجة إلى ترتيب القياس، لوضوح احتياج الحادث إلى المحدث، إلا أن بعضها لما أمكن إسنادها إلى الأسباب الطبيعية، كنزول المطر الذي يُمكن إسناده إلى تصاعد الأبخرة، وكتصريف الريح الممكن إسناده إلى سقوط الأدخنة، لابد من قوة عقل يدرك بها أن العلل لابد أن تنتهي إلى علة العلل، وإن كان الاستدلال بكل آية محتاجاً إلى العقل ولذا ذكر سبحانه الآيات جميعها في آية واحدة وذيلها بقوله: ﴿آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾.

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ \* وَيَلَّ

لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ [٦ و ٧]

ثم عظم سبحانه تلك الآيات لتوجيه النفوس إليها، وتوبيخ من لا يتفكر فيها بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ الآيات التكوينية العظيمة التي ذكرناها في الآيات السابقة القرآنية ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾ ودلائل وجوده وتوحيده،



وكمال صفاته التي ﴿تَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد، بتوسط جبرئيل، حال كونها مقرونة ﴿بِالْحَقِّ﴾ ودلائل الصدق بعيدة عن الباطل والكذب.

ثم ذم المشركين بقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ وبيان يحثهم إلى الايمان، أو أي برهان على التوحيد ﴿بَعْدَ﴾ حديث ﴿اللهِ وَآيَاتِهِ﴾ المُنزلة على سبيل الاعجاز، والمبينة للدلائل الواضحة، أولئك المشركون ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالتوحيد، فإنه ليست آية ومعجزة أعظم من تلك الآيات، وليس برهاناً على التوحيد اتقن من تلك البراهين، وليس بياناً أوضح وأفصح من بيان الله، فإذا لم يؤمنوا بها لم يؤمنوا بغيرها أبداً. قيل: إن المعنى فبأي حديث بعد آياته يؤمنون<sup>١</sup> وانما ذكر سبحانه اسم الجلالة في الآية تعظيماً للآيات.

ثم إنه تعالى بعد بيان إصرار المشركين على الشرك، وامتناعهم عن الايمان، هددهم سبحانه بقوله: ﴿وَيَذَلُّ﴾ وعذاب شديد ﴿لِكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ وكذاب في إخباره بأن القرآن سحرٌ أو شعرٌ أو كلام بشر ﴿أُتِيْمٌ﴾ ومُصرٌّ على الذنب والعصيان.

يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تَتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ  
أَلِيمٍ [٨]

ثم ذكر سبحانه من عظام ذنوبه أنه ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ﴾ القرآن المنزل من ﴿الله﴾ حين ﴿تَتْلَى﴾ وتقرأ ﴿عَلَيْهِ﴾ لأن يؤمن بها، وينقاد لما فيها ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ على كفره، ويدوم على ضلالته ومعارضته، مع أن حقها الإذعان والانقياد لها، لما فيها من جهات الاعجاز، وهو يعرض عنها حال كونه ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ ومتأنفاً عن الايمان بها، وتعظماً نفسه عن التسليم لما فيها، معجباً بما عنده من الأباطيل، وهو في عدم تأثر قلبه بها ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ وفي عدم الانتفاع بها كأن لم يشعُر بها ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ يا محمد، وشَرِّ قلبه بإخباره ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ حيث إنه باصراره بما يُوجب، وجده في إيجاد أسبابه، كأنه طالب وشائق إليه.

قيل: نزلت في النَّصْر بن الحارث بن عبدالدار، كان يشتري من أحاديث الأعاجم كحديث رستم وإسفنديار، ويَشْغُل الناس بها عن استماع القرآن<sup>٢</sup>.

وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ \* مِنْ وَرَائِهِمْ

١. تفسير أبي السعود ٨: ٦٨، تفسير روح البيان ٨: ٤٣٧.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٤٣٨.

جَهَنَّمَ وَلَا يَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ  
عَذَابٌ عَظِيمٌ \* هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجْزٍ  
أَلِيمٌ [١١-٩]

ثم ذمّه سبحانه بعدم قناعته بالكذب والإصرار على الكفر، بل يستهزئ بالآيات بقوله: ﴿وَأِذَا  
عَلِمَ﴾ ذلك الأفلاك ﴿مِنْ آيَاتِنَا﴾ المُنزلة ﴿شَيْئاً﴾ قليلاً كان، أو كثيراً ﴿اتَّخَذَهَا هُزْوًا﴾ وجعلها  
مهزوءاً بها ومورذاً للسخرية ﴿أُولَئِكَ﴾ المستهزون بالآيات، المستكبرون عن الإيمان بها ﴿لَهُمْ﴾  
بسبب كبرهم الباعث على الاستهزاء ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ومثّل لهم، مذهب لعزهم الذي تخيلوه  
لأنفسهم، ثم فسر سبحانه العذاب المهين الذي هدّ به هؤلاء المقبلين بقلوبهم إلى الدنيا بقوله: ﴿مِنْ  
وَرَائِهِمْ﴾ وفي خلفهم، وهو الدار الآخرة التي ولّوا عنها ﴿جَهَنَّمَ﴾ وقيل: إنّ وراء هنا بمعنى القدام  
﴿وَلَا يَغْنَى﴾ ولا يدفع العذاب ﴿عَنْهُمْ﴾ في الآخرة ﴿مَا كَسَبُوا﴾ وحصلوا في الدنيا من الأموال  
والزخارف ﴿شَيْئاً﴾ قليلاً ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا﴾ واختاروا لأنفسهم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ من الأصنام  
والأوثان، على خلاف زعمهم من أنهم شُفّعاء عند الله ﴿وَلَهُمْ﴾ في جهنم<sup>٢</sup> ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وشديد  
في الغاية مضافاً إلى كونه مهيناً.

ثم إنّ تعالى بعد تهديد المعرضين عن آيات القرآن والمستهزئين بها، بالغ في توصيف القرآن  
بالهداية، بآخبره عنه بأنه عينها بقوله: ﴿هَذَا﴾ القرآن ﴿هُدًى﴾ وعين رشاد إلى مصالح الدين والدنيا،  
ودالّ إلى كلّ خير، وإلى أعلى الكمالات اللانقة بالبشر ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ﴾ القرآن النازلة من  
﴿رَبِّهِمْ﴾ اللطيف بهم ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة استحقاق وعدلّ ﴿عَذَابٌ مِنْ رَجْزٍ﴾ وشديدة ﴿أَلِيمٌ﴾  
ذلك العذاب غاية.

اللّٰهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَسْتَغْفِرُوا مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَلَعَلَّكُمْ  
تَشْكُرُونَ \* وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِى  
ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [١٣ و ١٢]

ثم إنّ تعالى بعد ذكر كثير من الآيات الدالة على توحيده وقدرته وحكمته، وتهديد المعرضين عنها  
والمستهزئين بها، عاد إلى ذكر آيات وأدلة أخر على توحيده بقوله: ﴿اللَّهُ﴾ تعالى هو القادر ﴿الَّذِى  
سَخَّرَ﴾ وذللّ ﴿لَكُمْ الْبَحْرَ﴾ بأن جعله لينا مانعاً ساكناً ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ﴾ والسفن ﴿فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾

وإرادته ﴿وَلْيَسْتَنْبِئُوا﴾ وتطلبوا بالركوب في السفن للتجارة، وبالغوص في البحر وإخراج اللؤلؤ والمرجان منه، وبصيد السموك ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وإحسانه ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمه، ولكي تزدون حتى إحسانه ﴿وَسَخَّرَ﴾ ودل أيضاً ﴿لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الموجودات، بأن جعلها نافعة لكم في حياتكم وبقائكم ومعاشكم، ومعارفكم وكمال أنفسكم حال كونها ﴿جَمِيعاً﴾ وكلا كانته ﴿مِنْهُ﴾ تعالى موجودةً بقدرته ومشيئته ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التسخير ﴿لآيَاتٍ﴾ عظيمة ودلالات واضحة على توحيد خالقها ومُسَخَّرها وإنما كماله ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في بدائع صنعه الله وعظائم نعمه.

### قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [١٤]

ثم إنه تعالى بعد ذكر الأدلة المثبتة على توحيده وتهديد المشركين، أمر المؤمنين بالمُدارة معهم والعتو عن إساءتهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بك ﴿يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ وثوابه، ولا يخشون عقابه، ولا يخشون نزول مثل ما نزل على الأمم الماضية، كما عن ابن عباس<sup>١</sup>. وهم الكفار والمشركون المنكرون للمعاد، إذا أساءوا إليهم باللسان واليد ﴿لِيَجْزِيَ﴾ الله ﴿قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

قيل: إن المراد من القوم المؤمنون، وتنكيره لتعظيم شأنهم، والمراد مما يكسبون مغفرتهم للمسيئين إليهم، والمعنى أمرهم بالمغفرة ليجزي الله يوم القيامة قوماً، أي قوم كانوا بما كسبوا في الدنيا من الأعمال الحسنة التي من جملتها الصبر على أذى الكفار وإساءتهم، والإغضاء عنهم بكظم الغيظ واحتمال المكروه<sup>٢</sup>.

وقيل: إن المراد الكفار، وتنكيره للتحقير، والمعنى: قل للمؤمنين يتجاوزوا عن إساءة الكفار، ليجزي الله الكفار بما كسبوا من الإثم والإساءة، والمراد لا تكافئوهم أنتم حتى تكافئهم نحن<sup>٣</sup>.  
قيل: إن الآية منسوخة بآية السيف والقتال<sup>٤</sup>.

روى بعض العامة عن ابن عباس: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني عمر ﴿يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ يعني عبدالله بن أبي، وذلك أنهم نزلوا في عزوة بني المصطلق على بشر يقال له المريسي،

٢. تفسير أبي السعود ٨: ٧٠، تفسير روح البيان ٨: ٤٤٢.

٤. تفسير البيضاوي ٢: ٣٨٨، تفسير روح البيان ٨: ٤٤١.

١. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦٣.

٣. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦٣.

فأرسل عبدالله غلامه ليستقي الماء، فباطأ عليه، فلما أتاه قال له: ما حبسك؟ قال: غلام عمر قعد على طرف البئر، فما ترك احداً يستقي حتى ملأ قرب النبي وقرب أبي بكر وملأ لمولاه. فقال عبدالله: ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل: سَمَنَ كَلْبُكَ يَا كَلْبُكَ، فبلغ قوله عمر، فاشتمل بسيفه يريد التوجه إليه، فنزلت<sup>١</sup>.

وقيل: شَمَّ رجلٌ من كفَّار قريش عمر بمكة، فهم أن يبطش به، فأمر الله بالعفو والتجاوز، وأنزل الله هذه الآية<sup>٢</sup>.

وروى ميمون بن مهران أن فنجاس<sup>٣</sup> بن عازورا اليهودي، لما نزل قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً﴾<sup>٤</sup> قال: رب محمد احتاج، فسمع بذلك عمر، فاشتمل على سيفه، وخرج في طلبه، فبعث النبي ﷺ في طلبه وردّه<sup>٥</sup>.

مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ \* وَلَقَدْ آتَيْنَا  
بَنِي إِسْرَآئِيلَ الْكِتَابَ وَالْحَكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَزَرَقْنَا هُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ  
عَلَىٰ الْعَالَمِينَ \* وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ  
الْعِلْمُ بُغْيَا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ \*  
ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا  
يَعْلَمُونَ [١٥-١٨]

ثم بين سبحانه أنه يجزي كل أحد جزاء عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، بقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحاً﴾ ومرضياً عند الله ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ عمله ونفعه، وإليه عائد ثوابه، لا إلى الله، ولا إلى غيره ﴿وَمَنْ أَسَاءَ﴾ وعصى ربه، وتبع هوى نفسه ﴿فَعَلَيْهَا﴾ وزره وضرره وعقابه، لا على نفس غيره، فأوامره تعالى ونواهيه الطاف منه تعالى إلى العبيد، وتقريب إلى مصالحهم، تباعد عن مضارهم ومفاسدهم ﴿ثُمَّ﴾ بعد خروجكم من الدنيا، ودخولكم في دار الجزاء ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ ومالك أموركم ﴿تُرْجَعُونَ﴾ وإلى محكمة عدله تُساقون، فيجازيكم على أعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ففيه حث على العمل الصالح، ومنه العفو عن المسييء، وتحذير عن العمل السيء.

ثم بين سبحانه أن طريقة قوم خاتم النبيين ﷺ طريقة قوم موسى في الإيمان والكفر مع نزول

٢. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦٣.

١. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦٣، تفسير روح البيان ٨: ٤٤١.

٥. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦٣.

٤. البقرة: ٢٤٥/٢.

٣. في تفسير الرازي: فنجاس.

الكتاب إليهم، وإتيان المعجزات لهم، ووفور النعم عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وأعطيناهم بفضلنا ﴿الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ﴾ قيل: هي العلم بالأحكام<sup>١</sup>. وقيل: إنها العلم بفصل القضاء<sup>٢</sup>. وقيل: إنها المعارف الإلهية<sup>٣</sup> ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ فإن إبراهيم كان شجرة الأنبياء، وكان أكثر الأنبياء في نسله. ثم إنه تعالى بعد بيان نعمه الدينية بين نعمه الدنيوية التي أعطاهم بقوله: ﴿وَوَزَّزْنَاهُمْ﴾ في الدنيا ﴿مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ واللذائذ كالمَن والسُلوى وأموال القبط ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ﴾ بقلق البحر لهم، وتظليل الغمام عليهم ونظائرهما ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ قيل: إن المراد عالمي زمانهم<sup>٤</sup> ﴿وَأَتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ﴾ وأدلة ظاهرة ﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾ والدين، أو معجزات ظاهرة على صحة نبوتهم.

عن ابن عباس: يعني بين لهم من أمر النبي ﷺ أنه يُهاجر من يهامة إلى يثرب، ويكون أنصاره من أهل يثرب<sup>٥</sup>، ومع ذلك اختلفوا في أمر النبي ﷺ، أو في التوحيد، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في ذلك الأمر ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بحقيقته وحقيقته، فجعلوا ما يرفع الخلاف سبباً لوجوده، ولم يكن هذا الاختلاف لحدوث شك في قلوبهم، بل كان لأجل أن أحدثوا ﴿بَغْيًا﴾ وعداوة ﴿بَيْنَهُمْ﴾ لطلبهم الدنيا والرياسة، فصار ذلك العدوان سبباً لاختلافهم وتنازعهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي﴾ يوم القيامة ﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين بإثابة المحققين، وتعذيب المبطلين.

﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء نبوة بني إسرائيل ﴿جَعَلْنَاكَ﴾ يا محمد - لكرامتك علي، ونورانية قلبك، وكمال عقلك وعظمة خلقك - مستوياً ﴿عَلَى شَرِيعَةٍ﴾ وطريقة عظيمة الشأن ﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾ والدين الذي خصصناك به ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ واعمل بأحكامها، وبلغها إلى الناس ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الضَّالِّينَ﴾ الذين لا يعلمون شيئاً من الحقائق، ولا تأخذ بآراء قوم يجهلون الدين، بل لا دين لهم إلا ما يشتهون من غير حجة على ما يتدينون.

عن الكلبي: أن رؤساء قريش قالوا للنبي ﷺ وهو بمكة: ارجع إلى دين آبائك، فهم كانوا أفضل منك، وأسَنَ فنزلت<sup>٦</sup>.

إِنَّهُمْ لَن يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيٌّ  
الْمُتَّقِينَ \* هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ [١٩ و ٢٠]

١- ٣. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦٥، تفسير أبي السعود ٨: ٨١، تفسير روح البيان ٨: ٤٤٣.

٥. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦٥.

٤. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦٥، تفسير روح البيان ٨: ٤٤٣.

٦. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦٥.

ثم هدد سبحانه حبيبه ﷺ على اتباع أهواء قومه بقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَغْنُثُوا عَنْكَ﴾ ولا يفيدوك لو ملت إلى أديانهم الباطلة، ولن يمنعوك ﴿مِنْ﴾ عذاب ﴿أَقْبَى﴾ على أتباعك شهواتهم التي سموه ديناً ﴿شَيْئاً﴾ قليلاً من الإغناء، وبوجه من الوجوه ﴿وَلِئَنَّ﴾ المشركين ﴿الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم باختيار الكفر ﴿بِنَفْسِهِمْ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿أُولِيَاءُ بَغِضٍ﴾ وأتباعه، للتجانس في الخُب، وردالة الصفات والأخلاق، ولانتفعهم تلك الولاية، وأنت ولي الله ﴿وَأَلَّهِ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ من الشرك وأتباع الهوى والأديان الباطلة، وأنت قدوتهم، وهو بولايتهم وصلهم إلى جميع الخيرات والسعادات الدنيوية والأخروية، وما أبين الفرق بين الولايتين!

ثم بين سبحانه فوائد القرآن المشتملة على أدلة دين الحق بقوله: ﴿هَذَا﴾ القرآن العظيم المشتمل على البيانات الشافية والمواعظ الوافية آياته ﴿بَصَائِرُ﴾ للقلوب وأنوار للعيون النازلة ﴿لِلنَّاسِ﴾ من ربكم ومالك أمركم اللطيف بكم ﴿وَهُدًى﴾ ورشاد من الضلال ﴿وَرَحْمَةً﴾ ونعمة عظيمة من الله ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ بصدقه وبأنه كلام ربه.  
عن النبي ﷺ «القرآن يَدُلُّ على دانكم ودوائكم»<sup>١</sup>.

أقول: الداء الشرك، وأعظم دوائه التفكير في أدلة التوحيد، ثم بعده الذنوب ودواؤه الاستغفار، ثم حب الدنيا ودواؤه التفكير في فنائها.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ [٢١]

ثم لما بين سبحانه ولايته للمتقين، بين علة ذلك، وهو وضوح فضيلة المتقين على الظالمين بقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ الكفار ﴿الَّذِينَ اجْتَرَحُوا﴾ واكتسبوا ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ والأعمال الشنيعة، واشتغلوا بها، وغفلوا عن الله والدار الآخرة ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ﴾ ونصيرهم في الألفاف والإكرام ﴿كَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما يجب الإيمان به من التوحيد ورسالة الرسول والدار الآخرة ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ المرضيات عندنا، ونعاملهم معاملتهم، ويكون ﴿سَوَاءً﴾ ومساوياً ﴿مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ ودنياهم وآخرتهم؟ كلا ليس الظالمون كالمتقين، والعصاة المسيئون كالمطيعين الصالحين، بل الطائفة الأولى في ذل الكفر والعصيان، والثانية في عز الإيمان والطاعة، ولا تستوي حياتهم وموتهم، فإن الطائفة الأولى حياتهم أسوأ الحياة، لابتلائهم فيها بالتعب لجمع الأموال وحفظها، واشتغال قلوبهم بحب

الدنيا والأموال والأولاد والرياسة وكونهم في خوفٍ من العدو والضرر والمرض والذلّ، وفي حزنٍ ممّا يفوتهم ممّا يأملون، وموتهم أسوأ الموت، لصعوبة انقطاعهم من الدنيا، وشدة ابتلائهم بالعذاب. والطائفة الثانية حياتهم حياة طيبة، لأنّهم بالله، وقناعتهم بما رزقهم الله، وتوكلهم على الله، وفراغ قلوبهم من همّ الدنيا، وأمنهم من الأعداء، وشروهم بما أعدّ الله لهم من الكرامة والثواب. روي عن النبي ﷺ أنّه قال لمّا رأى أصحاب الصّفة<sup>١</sup> في المسجد: «المحيي محياكم والممات مماتكم»<sup>٢</sup>.

عن ابن عباس: يعني أحسبوا أنّ حياتهم ومماتهم كحياة المؤمنين ومماتهم؟ كلا فإنهم يعيشون كافرين ويموتون كافرين، والمؤمنون يعيشون مؤمنين ويموتون مؤمنين، وذلك لأنّ المؤمن ما دام في الدنيا يكون وليه الله، وأنصاره المؤمنون، وحجّة الله معه، والكافر بالضدّ<sup>٣</sup>. وقيل: إنّ المعنى أحسبوا أن يستوتوا في الممات، كما استوتوا في الحياة؟ فإنّ المؤمنين يستوتون [مع] الكفار في الرزق والصحة والكفاية، بل قد يكون الكافر أحسن حالاً من المؤمن، وإنّما الفرق بينهما في الممات<sup>٤</sup>.

وقيل: إنّ الجملة مستأنفة، والمعنى الكافر محياه ومماته سواء، والمؤمن كذلك فكل يموت على ما عاش عليه<sup>٥</sup>.

ثمّ لمّا كان المشركون يقولون: نحن أحسن حالاً من المؤمنين في الآخرة، ردّهم الله بقوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وبش شيئاً يقولون عن جزمٍ من أنّهم أحسن حالاً من المؤمنين. قال الفخر الرازي: قال الكلبي: نزلت هذه الآية في عليّ وحزمة وأبي عبيدة بن الجراح، وفي ثلاثة من المشركين: عتبة وشيبة والوليد بن عتبة، قالوا للمؤمنين: والله ما أنتم على شيء، ولو كان ما تقولون حقاً لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة، كما أنا أفضل حالاً منكم في الدنيا، فأنكر الله عليهم هذا الكلام<sup>٦</sup>.

وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ \* أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ [٢٣ و ٢٢]

١. الصّفة: مكان مُظلل في مسجد المدينة، كان يأتي إليه فقراء المهاجرين، وبرعاهم الرسول ﷺ، وهم أصحاب الصّفة.  
٢. تفسير روح البيان ٨: ٤٤٦.

٦. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦٦.

٥-٣. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦٧.

ثم لما حكم الله سبحانه بعد مساواة الكافر والمؤمن في الحياة وفي الممات، استدل على وجود عالم آخر، وهي دار الجزاء بقوله: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ لا للغو والعبث، بل مُعللاً ﴿بِالْحَقِّ﴾ والحكمة البالغة، وهو تكميل النفوس وظهور استعداداتها، بسبب جعل التكليف والأحكام ﴿وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ وحصلت لها من الأعمال الصالحة والسنة. وقيل: إن التقدير ليؤدل بها على قدرته وتجزى<sup>١</sup>. وقيل: إنه معطوف على قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ والمعنى: لأجل إظهار الحق وتجزى، وعلى أي تقدير يكون الحاصل أن المقصود من خلق العالم إظهار العدل والرحمة، ولا يتم إلا إذا حصل البعث والتفاوت في الدرجات والدركات بين المحققين والمبطلين<sup>٢</sup>، والمحسنين والمسيئين ﴿وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ﴾ بتقصيص الثواب وزيادة العقاب على الاستحقاق.

ثم إنه تعالى بعد نهى نبيه ﷺ عن اتباع هوى المشركين الجهال، ذم المشركين باتباعهم الهوى، وأظهر التعجب من سَفَههم بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ يا محمد، قيل: إن التقدير أنظرت فرأيت<sup>٣</sup> ﴿مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ﴾ ومعبوده ﴿هُوَآءَ﴾ وشهوة نفسه، وترك الهدى وطاعة ربه، وذلك مما يقضي التعجب. قيل: كانوا يستحسنون حَجراً فيَعْبُدونه، فاذا أرادوا أحسن منه رفضوه<sup>٤</sup>.

ثم بين سبحانه أنه بخذلانه بقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ﴾ وحرفه عن طريق الهدى بخذلانه ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ من إيصال بالطريق الحق والصواب، أو علم من الله بأن ذاته الخبيثة غير قابلة للهداية ﴿وَحَتَمَ﴾ وطبع ﴿عَلَى سَمْعِهِ﴾ بحيث لا تذخله المواعظ، ولا يسمع الحق ﴿وَو﴾ على ﴿قَلْبِهِ﴾ بحيث لا يفهم كلام الله، ولا يتفكر في آياته، ولا يتأثر بالثبوت ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ عَشَاوَةً﴾ وغطاء مانعاً عن رؤية المعجزات وبدائع الصنع الدالة على توحيد الصانع ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ﴾ وأي شخص ومرشد يرشده إلى الحق ﴿مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ ومما سواه، أو من بعد إضلاله إياه، لا والله لا يهديه أحد غير الله ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ذلك وتنبهون؟ قيل: إن التقدير ألا تلاحظون فلا تذكرون ولا تنفكرون، فتعلموا أن الهداية بيد الله؟<sup>٥</sup>

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ  
بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ [٢٤]

٣. تفسير أبي السعود ٨: ٧٣، تفسير روح البيان ٨: ٤٤٨.

١ و٢. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦٨.

٤. تفسير البيضاوي ٢: ٣٨٩، تفسير أبي السعود ٨: ٧٣.

٥. تفسير أبي السعود ٨: ٥٧٣، تفسير روح البيان ٨: ٤٤٩.



ثُمَّ وَيَخْهَمُ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ إِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ وَالْمَعَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا﴾ من غاية جهلهم وضلالهم: ليس حياتنا و﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ في ﴿الَّذِينَ﴾ التي نحن فيها ﴿نَمُوتُ﴾ فيها تارةً ﴿وَنَحْيَا﴾ فيها أخرى، وليس وراء ذلك حياة في عالم آخر، كما تدعون، وتأخير (نحيي) لمراعاة شَبَه الفواصل، والواو لمطلق الجمع، كذا قيل<sup>١</sup>. وقيل: إنهم كانوا يقولون بالتناسخ<sup>٢</sup>. وقيل: إن المراد بالموت كونهم نطفاً في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات<sup>٣</sup>. وقيل: إن المراد بالحياة المذكورة بعد الموت حياتهم بسبب بقاء الأولاد<sup>٤</sup>. وقيل: إن المراد موت بعض، وحياة بعض<sup>٥</sup>.

ثُمَّ حَكَى سُبْحَانَهُ إِنْكَارَهُمْ كَوْنَ الْمَوْتِ بِقَبْضِ مَلَكِ الْمَوْتِ أَرْوَاحَ النَّاسِ، بَلْ هُوَ بِالطَّبِيعَةِ بِقَوْلِهِ حِكَايَةً عَنْهُمْ: ﴿وَمَا يَهْلِكُنَا﴾ ويُمِيتُنَا شيءٌ ﴿إِلَّا الدَّهْرُ﴾ وطول زمان الحياة، أو حركات الأفلاك وتأثير الطبائع، فليس الموت بيد الفاعل المختار، فجمعوا بين إنكار الإله وإنكار المعاد، فردَّهم سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ﴾ القول من حصر الحياة بالحياة الدنيوية، وكون الموت بتأثير الطبيعة والدهر شيءٌ ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ وَحُجَّةٌ قَاطِعَةٌ ثَوَّرَتْ الْيَقِينَ، بَلْ ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ بسبب تقليد آبائهم، ولا ينبغي للعاقل أن يعتمد في هذه العقائد التي في خطئها خطرٌ عظيمٌ على الظنِّ والحسبان، بل لابد من الحُجَّةِ القاطعة العقلية والنقلية، كما هو طريقة المؤمنين.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* قُلِ اللَّهُ يُخَيِّكُم ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ \* وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئِدُ يُخَسِّرُ الْمُبْطِلُونَ [٢٥-٢٧]

ثُمَّ حَكَى سُبْحَانَهُ مَعَارَضَتَهُمُ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى الْبَعْثِ، فَردَّهم بِإِهَا بما يكون فساده أظهر من الشمس بقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ﴾ وتقرأ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لإثبات البعث ﴿آيَاتُنَا﴾ الدالة على إمكانه ووقوعه مع كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ وواضحات الدلالات عليه، وكقولنا: ﴿إِنَّ الَّذِي أَخْيَاها لَمْخِي الْمَوْتَى﴾<sup>٦</sup> وقولنا: ﴿وَهُوَ الَّذِي بَنَدُ الْخَلْقِ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾<sup>٧</sup> وقولنا: ﴿قُلِ يُخَيِّبُهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾<sup>٨</sup>. ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ بزعمهم ودليلهم على إبطال ما نطقت به الآيات شيءٌ ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ سفهاً

١. تفسير روح البيان ٨: ٤٤٩.

٢. تفسير البضاوي ٢: ٣٨٩، تفسير أبي السعود ٨: ٧٣، تفسير روح البيان ٨: ٤٤٩.

٣- ٥. تفسير الرازي ٢٧: ٢٦٩. ٦. فصلت: ٣٩/٤١. ٧. الروم: ٢٧/٣٠.

٨. يس: ٧٩/٣٦.

وعناداً ولجاجاً: أيها المدعون للحياة بعد الموت ﴿أَنْتُمْ بِآبَاتِنَا﴾ وأحيوهم ثانياً، وأحضروهم عندنا يشهدون بصحة قولكم بالبعث والحساب ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في إخباركم به.

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بردهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: أيها الجهال ﴿أَفَأَنْتُمْ عَلَىٰ خَلْقٍ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ﴿يُخَيِّكُمُ﴾ في الدنيا بقدرته وحكمته ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء آجالكم هو ﴿يُمَيِّتُكُمْ﴾ بقدرته، لا الطبيعة والدهر، ولا حركات الأفلاك، ولا تأثير الكواكب ﴿ثُمَّ﴾ بعد إحيائكم في القبور ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾ حال كونكم متهمين ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ للحساب وجزاء الأعمال ﴿لَا رَيْبَ﴾ في جمعكم في ذلك اليوم، ولا شك للعاقل ﴿فِيهِ﴾ لوجوبه على الله بحكم العقل، ومن الواضح عدم التلازم بين إمكان الإحياء في الآخرة، وإمكانه في الدنيا، ولا يلزم من قدرة الله على ذلك قدرة المخبرين به عن الله ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ دلالة حدوث الانسان وسائر الموجودات على وجود الإله القادر الحكيم، وعلى قدرته على الإحياء ثانياً ووجوبه عليه، ثم بين قدرته الكاملة على إيجاد جميع الموجودات، وسعة سلطنته بقوله: ﴿وَلَهُ﴾ وحده ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والسلطنة التامة على جميع الموجودات علوياً وسفلية، إيجاداً وإعداماً، وتصرفاً وتديباً، فمن كان بهذه القدرة لا يعجز عن إيجاد الانسان وإحيائه ثانياً بعد موته وصيرورته رميمًا وتراباً، فثبت المعاد بالدليل القاطع.

ثم هدّد المنكرين بقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ والقيامة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ووقت قيامها ﴿يَخْسَرُ﴾ ويتضرر ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ والقائلون بأن لا إله ولا بعث، لأنهم ضيعوا أعمارهم وعقولهم وقواهم التي أنعم الله بها عليهم، وجعلها بمنزلة رأس مالهم في سوق الدنيا، كرأس مال التجار، ففي إتلافها وتضييعها خسارة لا خسارة فوقها.

وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةٍ كُلُّ أُمَّةٍ تَدْعِي إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

\* هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [٢٨ و ٢٩]

ثم ذكر بعض أهوال القيامة بقوله: ﴿وَتَرَىٰ﴾ يا محمد، أو أيها الرائي ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم وجماعة من الجماعات مؤمنينهم وكفارهم من هول ذلك اليوم ﴿جَائِيَةٍ﴾ وباركة على ركبهم، لذهاب قوة القيام عنهم.

عن كعب الأحبار أنه قال لعمر: ان جهنم تزفر زفرة يوم القيامة فلا يبقى مَلَكٌ مَقْرَبٌ ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه، حتى يقول إبراهيم الخليل: يا رب، أسألك اليوم إلا نفسي<sup>١</sup>.

وقيل: يَجْتَنُونَ لإظهار الخُضوع والخُشوع<sup>١</sup>.

وقيل: جاثية: يعني قائمة على اطراف الأصابع<sup>٢</sup>، ليروا ما ينزل بهم.

قيل: إِنَّ المؤمن والكافر مشاركون في الخوف حتى يظهر المحق والمبطل<sup>٣</sup>.

وعن ابن عباس، قال: يعني مجتمعة<sup>٤</sup>، لا يخلط بعضهم بعض، وعند ذلك ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ وصحيفة أعمالها لتقرأها، وتكرير كلمة (كل أمة) للاغلاظ والوعيد، ثم يقال لهم: ﴿الْيَوْمَ يَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ فيه أيتها الأمم ﴿مَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من خيرٍ أو شرٍّ، وطاعة أو عصيان. عن النبي ﷺ: «إذا كان يوم القيامة جاء الايمان والشرك فيجثيان بين يدي الرب تعالى، فيقول الله للايمان: أنطلق أنت وأهلك إلى الجنة، ويقال للشرك: انطلق أنت وأهلك إلى النار»<sup>٥</sup>.

ثم يقال للأمم بعد إعطاء كل كتابه بيده: ﴿هَذَا﴾ الكتاب الذي فيه أعمالكم ﴿كِتَابَنَا﴾ الذي كتبه الكرام الكاتبين بأمرنا ﴿يَنْطِقُ﴾ بأعمالكم في الدنيا، ويشهد ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بما فعلتم وأرتكبتم مقروناً ﴿بِالْحَقِّ﴾ والصدق بلا زيادة ولا نقصان ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا الدنية ﴿نَنْسَخُ﴾ ونستكتب بتوسط الملائكة ﴿مَا كُنْتُمْ﴾ في مدة أعماركم ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من الحسنات والسيئات صغيرة وكبيرة.

قيل: ما من صباح ومساء إلا وينزل فيه ملك من عند إسرافيل إلى كاتب أعمال كل إنسان، ينسخ عمله الذي يعمل في يومه وليلته، وما هو لاقٍ فيهما<sup>٦</sup>.

عن النبي ﷺ: «أول ما خلق الله القلم، وكتب ما يكون في الدنيا من عملٍ معمولٍ برٍّ أو فجور، وأحصاه في الذكر، واقراءوا ﴿إِنَّا كُنَّا نَنْسَخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهل يكون النسخ إلا من شيء قد فرغ منه»<sup>٧</sup>.

وعن ابن عباس: أن الله وكل ملائكة يستسخون من ذلك الكتاب المكتوب عنده كل عام في شهر رمضان ما يكون في الأرض من حدثٍ إلى مثله من السنة المقبلة، فيعارضون به حَفَظَةَ الله على عباده كل عشية خميس، فيجدون ما رفع الحَفَظَةُ موافقاً لما في كتابهم ذلك ليس فيه زيادة ولا نقصان، فإذا أفنى الورق ممَّا قَدَرِ واتقطع الأمر وانقضى الأجل، أتت الحَفَظَةُ الخَزَنَةَ، وقالوا: ما نجد لصاحبكم عندنا شيئاً، فيرجع الحَفَظَةُ فيجدونه قد مات.

ثم قال ابن عباس: أَلَسْتُمْ قوماً غريباً؟ هل يكون الاستنساخ إلا من أصلي وهو اللوح المحفوظ من

٢. تفسير روح البيان ٨: ٤٥٣.

١. تفسير الجامع ١٦: ١٧٤.

٣ و ٤. تفسير الرازي ٢٧: ٢٧٢، تفسير روح البيان ٨: ٤٥٣.

٦. تفسير روح البيان ٨: ٤٥٤.

٥. تفسير روح البيان ٨: ٤٥٤.

٧. تفسير روح البيان ٨: ٤٥٤.

التغيير والتبديل والزيادة والتقصان على ما عليه مما كتبه القلم الأعلى؟<sup>١</sup>

وعن الصادق عليه السلام أنه سئل عن «نون والقلم» قال: «إن الله خلق القلم من شجرة في الجنة، يقال لها الخلد، ثم قال لنهر في الجنة: كن مداداً، فجمد النهر، وكان أشدّ بياضاً من الثلج، وأحلى من الشهد، ثم قال للقلم: اكتب، قال: يا رب، ما أكتب؟ قال عز وجل: اكتب ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، فكتب القلم في ورقٍ أشدّ بياضاً من الفضة، وأصفى من الياقوت، ثم طواه فجعله في ركن العرش، ثم ختم على فم القلم، فلم ينطق ولا ينطق أبداً، فهو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلها، أو لستم غرباً فكيف لا تعرفون معنى الكلام، وأحدكم يقول لصاحبه: انسخ ذلك الكتاب، أو ليس إنما ينسخ من كتاب آخر من الأصل، وهو قوله: «إِنَّا كُنَّا نَسْنِسُخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»<sup>٢</sup>.

وفي حديث ذكر فيه المَلَكَيْنِ الْمُؤَكِّلَيْنِ بالعبد، قال: «إنهما إذا أرادا النزول صباحاً ومساءً، ينسخ لهما إسرافيل عمل العبد من اللوح المحفوظ، فيعطيهما ذلك، فاذا صعدا صباحاً ومساءً بديوان العبد، قابله إسرافيل بالنسخ التي استنسخ لهما حتى يظهر أنه كان كما نسخ منه»<sup>٣</sup>.

قيل: إلزام الحجة على العبد يوم القيامة بشهود الملائكة صدور الطاعة أو العصيان من العبد في وقته المخصوص وكتابتهم أعمالهم<sup>٤</sup>.

وقيل: إن الحفظة يكتبون جميع أعمال العبيد، ثم يتبادلونها بما في اللوح المحفوظ، فما فيه ثواب أو عقاب أثبت، وما لم يكن فيه شيء منها محي، وذلك قوله تعالى: «يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ»<sup>٥</sup>.

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ  
الْفَوْزُ الْمُبِينُ \* وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ  
وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ \* وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا  
نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ \* وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا  
عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ \* وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ  
يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ \* ذَلِكَ بِأَنكُمْ آتَخَذْتُمْ آيَاتِ  
اللَّهِ هُزُوًا وَعََزَّيْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا [٣٥-٣٠]

١. تفسير روح البيان ٨: ٥٤٤.

٢. تفسير القمي ٢: ٣٧٩، تفسير الصافي ٥: ٩.

٣. سعد السعود: ٢٢٦، تفسير الصافي ٥: ٩.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٥٤٤، والآية من سورة الرعد: ٣٩/١٣.

ثُمَّ بَيَّنْ سَبْحَانَهُ مَعَامِلَتَهُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ ﴿فَنُدْخِلُهُمْ رِزْقُهُمْ﴾ بِفَضْلِهِ ﴿فِي﴾ جَنَّتِهِ الَّتِي هِيَ مَحَلُّ ﴿رَحْمَتِي﴾ وَمَظْهَرُهَا ﴿وَذَلِكَ﴾ الْإِدْخَالُ فِي الْجَنَّةِ ﴿هُوَ الْفَوْزُ﴾ وَالظَّفَرُ ﴿الْمُيَبِّئُ﴾ وَالظَّاهِرُ عَلَى الْمَقْصِدِ الْأَعْلَى، بِحَيْثُ لَا فَوْزَ وَرَاءَهُ، وَلَا ظَفَرَ عَلَى مَقْصُودٍ فَوْقَهُ.

ثُمَّ ذَكَرَ سَبْحَانَهُ عِتَابَهُ عَلَى الْكَافِرِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُمْ تَقْرِيعاً وَتَوْبِيخاً: أَيُّهَا الْكَافِرُ ﴿أَلَمْ تَكُنْ﴾ قِيلَ: إِنَّ التَّقْدِيرَ أَلَمْ يَكُنْ تَأْتِيكُمْ رَسُولِي، فَلَمْ تَكُنْ ﴿آيَاتِي تُثَلَّى عَلَيْكُمْ﴾ (؟) بَلَى، قَدْ كَانَتْ تُثَلَّى عَلَيْكُمْ ﴿فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عَنْ الْإِيمَانِ بِهَا، وَكَذَّبْتُمُوهَا ﴿وَكُنتُمْ﴾ بِسَبَبِ الْاسْتِكْبَارِ وَالْتِكْذِيبِ ﴿قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ وَجَمْعاً مُعَاقِبِينَ، أَوِ الْمَرَادُ قَوْمًا عَادَتُهُمُ الْإِجْرَامُ.

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ تَوْبِيخِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَبِآيَاتِهِ، وَاسْتِكْبَارِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِالْمَبْدَأِ، وَبَخْهِمْ عَلَى إِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ وَالْمَعَادَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ فِي الدُّنْيَا لَكُمْ ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بِالْحَشْرِ وَالْبَعْثِ وَجِزَاءَ الْأَعْمَالِ ﴿حَقٌّ﴾ وَصَدَقَ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴿وَرَبِّ﴾ إِنَّ السَّاعَةَ وَالْقِيَامَةَ قَائِمَةٌ لَا مُحَالَاةَ وَلَا رَيْبَ فِيهَا وَلَا شَكَّ فِي صَحَّةِ وَقُوعِهَا، قُلْتُمْ: أَيُّهَا الْعَنَاءُ اسْتَغْرَاباً وَانْكَاراً لَهَا: إِنَّا مَا نَذَرِي مَا السَّاعَةُ وَلَا نَعْلَمُ أَيَّ شَيْءٍ هِيَ ﴿إِنْ نَظُنُّ﴾ بِقِيَامِهَا وَمَا نَحْسَبُ إِيْتَانِهَا ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ ضَعِيفاً وَخُسْبَاناً وَاهِناً، لَكثَرَةِ مَا سَمِعْنَا مِنَ الرَّسُولِ مِنَ الْوَعْدِ بِهَا وَالِاسْتِدْلَالِ عَلَيْهَا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُشْتَقِقِينَ﴾ بِقِيَامِهَا، وَعَالِمِينَ بِوُقُوعِهَا، لَمَّا رَأَيْنَا مِنْ إِنْكَارِ آبَائِنَا وَأَكْبَرِنَا إِيَّاهَا.

أَقُولُ: الظَّاهِرُ أَنَّ الطَّائِفَةَ الْمَظْهَرِينَ لِلشَّكِّ غَيْرِ الطَّائِفَةِ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾<sup>٢</sup> عَنْ يَقِينٍ وَجَزْمٍ.

﴿وَبَعْدَ ذَلِكَ يَدَا﴾ لِلْكَفَّارِ، وَظَهَرَ ﴿لَهُمْ﴾ صُورُ الْبَرْزَخِيَّةِ الَّتِي تَكُونُ عَلَيْهَا ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ وَقِبَاحَتَهُ، وَهُمْ فِي الدُّنْيَا كَانُوا يَغْدُونَهُ حَسَنَاتٍ، أَوِ الْمَرَادُ وَخَامَةٌ عَاقِبَتُهُ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمَرَادَ جِزَاءَ أَعْمَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ، كَالشَّرِّ وَالْمَعَاصِي<sup>٣</sup> ﴿وَحَاقَ﴾ وَأَحَاطَ ﴿بِهِمْ﴾ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿مَا كَانُوا﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وَمَنْ يَسْخَرُونَ مِنْ جِزَاءِ أَعْمَالِهِمْ، وَالْعِقَابُ الْمَوْعُودُ عَلَى شَرْكِهِمْ وَعَتْوِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ، وَفِيهِ إِذْهَانٌ بِأَنْ قَوْلَهُمْ: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ كَانَ عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِهْزَاءِ وَالسُّخْرِيَةِ.

﴿وَقِيلَ﴾ لَهُمْ مِنْ جَانِبِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ أَيُّهَا الْكَافِرُ، وَنَتْرُكُكُمْ فِي جَهَنَّمَ وَعَذَابِهَا،

٢. الجاثية: ٤٥/٢٤.

١. تفسير البضاوي ٢: ٣٩٠، تفسير روح البيان ٨: ٤٥٥.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٤٥٨.

ترك الشيء المنسي الذي لا يبالى به ﴿كَمَا نَسِيتُمْ﴾ وما راعيتُم ﴿لِقَاءَ﴾ عذاب الله في ﴿يُؤْيِكُمْ﴾ هذا، ولم تلتفتوا إليه، ولم تبالوا به، بأن تركتم ما يذفع به من الإيمان والأعمال الصالحة ﴿وَمَا أَوَّكُنَا﴾ ومنزل لكم، أو مَرَّجِعكم ﴿النَّارُ﴾ لأنها مأوى من نسيناه ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ اليوم أبداً أحد ﴿مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ يَنْصُرُكم، ويدفع عذاب النار عنكم، ويخلصكم عنه.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الترك في العذاب، وتمكنكم في النار معلل ﴿بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ وإبراهيم توحيداً وما ينزل من كتابه الناطق بالحق ﴿هَزْوَاً﴾ وجعلتموها مما يَشْخَرُ به ﴿وَعَزَّيْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وخدعتكم شهواتها، فشتغلتم بها، وانهمكتم فيها، وغفلتم عن الله والدار الآخرة، حتى أنكم أنكرتم الله ودار الجزاء، وحسبتم أن لا حياة بعد الموت، ولا حساب ولا جزاء.

فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ \* فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ  
وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ  
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [٣٥-٣٧]

ثم أعرض سبحانه عن مخاطبتهم إيداناً بغاية مهانتهم، وخروجهم عن أهلية الخطاب، ووجه خطابه إلى العقلاء بقوله: ﴿فَالْيَوْمَ﴾ وفي هذا العالم ﴿لَا يُخْرَجُونَ﴾ من النار ولا يخلصون ﴿وَمِنْهَا﴾ أبداً ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ويطلبون بأن يرضوا عنهم ربهم بالتوبة والإنابة والطاعة، لفوات وقته وأوانه، ثم لما كان المطالب العالية والوعد والوعيد المفصلة في هذه السورة من ألطاف الله بعباده ونعمه الروحانية عليهم، ومن شؤون ربوبيته لهم، ختم سبحانه السورة بحمد ذاته المقدسة على نعمه بقوله: ﴿فَلِلَّهِ﴾ وحده ﴿الْحَمْدُ﴾ بأنواعه وأصنافه لأنه ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ كلها من عالم الجبروت، وعالم الملكوت، وعالم الملك.

ثم أثنى سبحانه على نفسه بقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ﴾ والعظمة والسلطنة المطلقة ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وجميع عوالم الوجود ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا عزة لغيره إلا به، والقادر الذي لا قدرة لغيره إلا بإعطائه ﴿وَالْحَكِيمُ﴾ الذي لا يصدر منه إلا ما فيه أكمل الصلاح وأتم الحكمة، فلا اختصاص الحمد به أحمدوه على نعمه، ولا اختصاص العظمة والكبرياء به كبروه، ولا اختصاص العزة والحكمة به وحدوه واعبدوه.

في الحديث: «أنَّ لله ثلاثة أنواب: أترز بالعزة، وأرتدى بالكبرياء، وتسربل بالرحمة، فمن تعزَّز

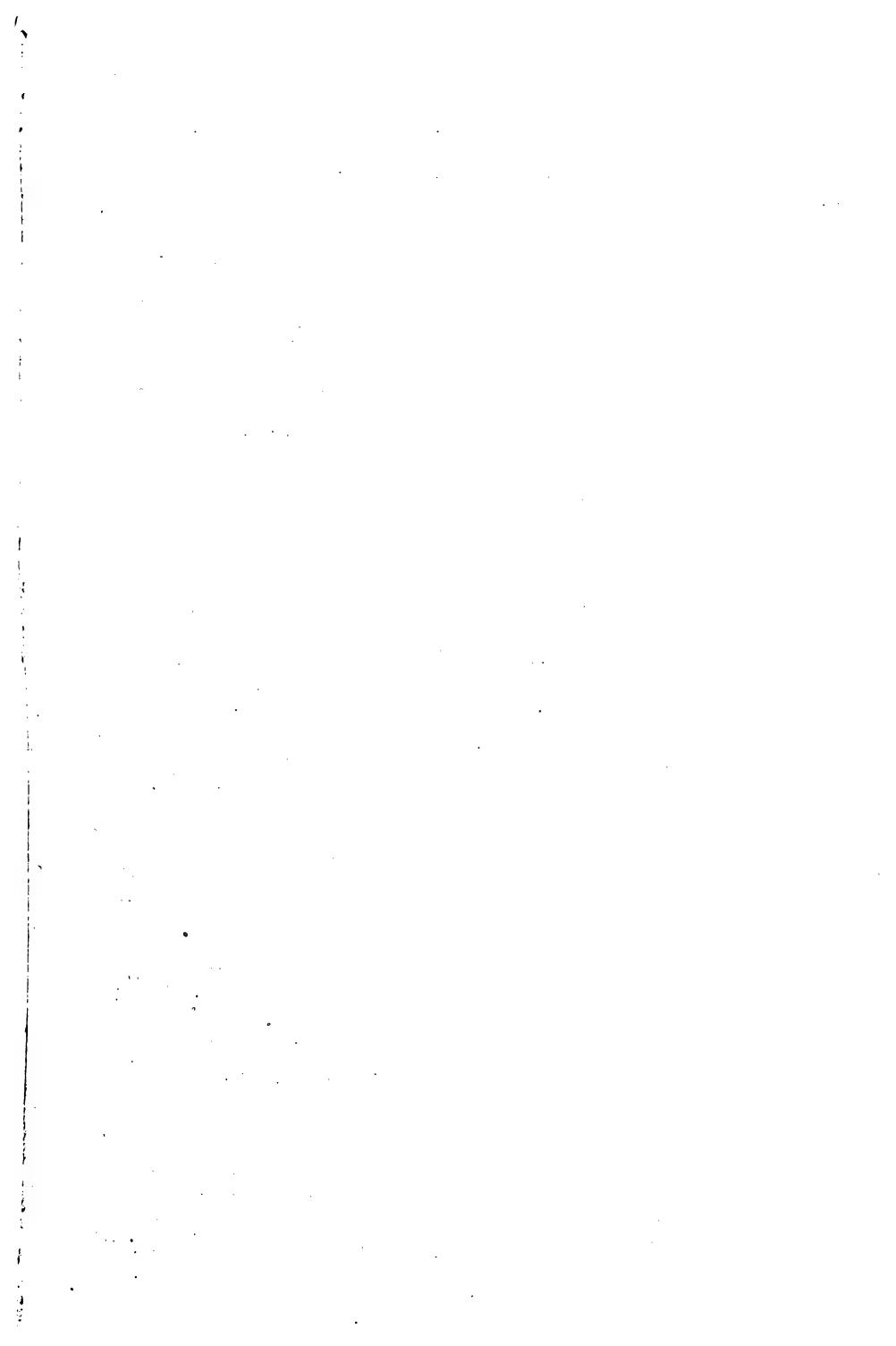
بغير الله أذله الله، فذلك الذي يقول الله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾<sup>١</sup>، ومن تكبر فقد نازع الله، إن الله تعالى يقول: لا ينبغي لمن نازعني أن أدخله الجنة، ومن يرحم الناس يرحمه الله، فذلك الذي سربله الله سرباله الذي ينبغي له<sup>٢</sup>.

وفي الحديث القدسي: «يقول الله: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما ألقته في جهنم»<sup>٣</sup>.

عن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة الجاثية كان ثوابها أن لا يرى النار أبداً، ولا يسمع زفير جهنم وشهيقها، وهو في الجنة مع محمد ﷺ»<sup>٤</sup>.  
الحمد لله على التوفيق لإتمام تفسيرها.

١. الدخان: ٤٤/٤٩. ٢ و٣. تفسير روح البيان ٨: ٤٥٩.

٤. ثواب الأعمال: ١١٤، مجمع البيان ٩: ١٠٦، تفسير الصافي ٥: ١٠.





## في تفسير سورة الأحقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ \* تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ \* مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ  
وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا  
مُعْرِضُونَ [١-٣]

ثم بعد ختم سورة الجاثية المتضمنة لبيان عظمة القرآن، وأدلة التوحيد والمعاد، وذم المشركين الذين أعرضوا عن الرسول وكتابه، وتهديدهم بالعذاب، والإخبار بوقوع القيامة وشدة أهوالها، نظمت سورة الأحقاف المتضمنة لجميع تلك المطالب العالية النافعة، فابتدأها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثم افتتحها بما افتتح به السورة السابقة من الحروف المقطعة، وهو قوله: ﴿حَمْدٌ﴾ ثم عظم القرآن بقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وقد مر تفسيره.

ثم شرع في ذكر دليل التوحيد والمعاد بقوله: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات العلوية والسفلية بداعٍ من الدواعي ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وداعي الحكمة والصلاح الأتم، وهو تكميل النفوس بالمعرفة والعلم والأخلاق والأعمال الصالحة، ليصرن<sup>١</sup> قابلات للفيوضات الأبدية والنعيم غير المتناهية والرحمة الموصولة ﴿وَمَقَرُونَا بِتَقْدِيرِ﴾ ﴿أَجَلٍ﴾ ووقت ﴿مُسَمًّى﴾ ومعين ينتهي إليه الكل، وهو يوم القيامة، وعالم الآخرة، ودار الجزاء، وتميز النفوس الزكية والخبيثة، لالتبقي أبداً.

ثم ذم المشركين على غفلتهم عن عالم الآخرة، ودليل وجوبه، وعدم اعتنائهم بما وُعدوا به من المجازاة فيه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأشركوا بالله، وأنكروا دار الجزاء ﴿عَمَّا أُنذِرُوا﴾ به وخوفوا من يوم القيامة وأهوالها ﴿مُعْرِضُونَ﴾ وبما وُعدوا به من عذاب الآخرة على الشرك والعصيان لا

يعتنون ولا يبالون، مع قيام البراهين القاطعة على صحته، وإخبار الرُّسل بوقوعه، ونُطق الكتب السماوية به.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ  
فِي السَّمَاوَاتِ أَتُنُونِى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ  
صَادِقِينَ [٤]

ثم إنه تعالى بعد إثبات التوحيد، ردّ مذهب الشرك بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أيها المشركون، وأخبروني ﴿مَا تَدْعُونَ﴾ وتُعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان ﴿أَرُونِي﴾ وبيّنوا لي ﴿مَاذَا خَلَقُوا﴾ وأي جزء أوجدوا ﴿مِنْ﴾ أجزاء ﴿الْأَرْضِ﴾ متفردين بخلقه وإيجاده؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ مع الله ودخل ﴿فِي﴾ إبداع ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ أو ملكها أو تدبيرها حتى يكون لهم شأنية استحقاق للعبادة؟ لا والله ليس لهم دخل في وجود شيء منهما، فإذا تكون عبادتهم محض السَّفه، لعدم استحقاقهم لها، بل الاستحقاق لخالقهما وخالق غيرهما من الموجودات، وإن قلتم: إن الخالق المستحقّ بالذات للعبادة أمرنا بعبادة هذه الجُمادات ﴿أَتُنُونِى بِكِتَابٍ﴾ وسنِّد على ما تَدْعُونَ من قبل الله نازل عليكم ﴿مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ القرآن الناطق بالتوحيد والنهي عن عبادة غيره ﴿أَوْ أَثَارَةٍ﴾ وبقية بقى عندكم من علمٍ مختصّ بالأنبياء والرسل، أو رواية رويتم ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ الأولين خُصصتم به، ولم يُطلَع عليها غيركم.

عن ابن عباس، أنه قال: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ﴾ علم الخطّ الذي يُخطّ في الرمل<sup>١</sup>.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى أمر الله بهذا، فإذا لم يكن في الكتب السماوية، ولا فيما نُقِلَ عن الأنبياء ما يَدُلُّ على صحّة دينكم، كان بطلانه ظاهراً واضحاً، مع أنه قد دلت الأدلّة القطعية العقلية والنقلية على خلافه.

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْفِيَاةِ وَهُمْ  
عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ \* وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ  
كَافِرِينَ \* وَإِذَا تُمُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ  
هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ [٥-٧]

ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ عَدَمَ اسْتِحْقَاقِ غَيْرِ اللَّهِ الْعِبَادَةَ بِالذَّاتِ، وَلَا بِأَمْرِ اللَّهِ، بَيَّنَّ غَايَةَ ضَلَالِ الْمُشْرِكِينَ بِعِبَادَتِهِمْ مَا لَا شُعُورَ لَهُ وَلَا إدْرَاكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَتْرُكُ عِبَادَةَ اللَّهِ وَدَعَاؤَهُ وَ﴿يَدْعُوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الْقَادِرَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْعَالَمَ بِالْخَفِيَّاتِ ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ دَعَاؤُهُ ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ لِعَدَمِ قُدْرَتِهِمْ عَلَى الْجَوَابِ ﴿وَهُمْ﴾ مَعَ عِزِّهِمْ عَنْ إِجَابَةِ دَعَا الدَّاعِينَ ﴿عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ وَبِهِ غَيْرُ شَاعِرِينَ، لِكُونِهِمْ جَمَادَاتٍ، وَفِيهِ تَهَكُّمٌ بِالْأَصْنَامِ وَبِعَبَدَتِهَا.

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ عَدَمِ نَفْعِ الْأَصْنَامِ بِعَابِدِيهِمْ فِي الدُّنْيَا، بَيَّنَّ عَدَمَ نَفْعِهِمْ إِيَّاهُمْ فِي الْآخِرَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾ حِينَ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَجَمَعُوا فِي عَرَصَةِ الْقِيَامَةِ، وَأَحْيَا اللَّهُ الْأَصْنَامَ ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ﴾ وَأَنْكَرُوا عِبَادَةَ الْمُشْرِكِينَ ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ وَمُكْذِبِينَ، وَقَالُوا: مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ، بَلْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَهْوَاءَكُمْ.

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ إِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ وَإِبْطَالِ الشَّرْكِ، حَكَمَى إِنْكَارِ الْمُشْرِكِينَ مُعْجَزَاتِ النَّبِيِّ ﷺ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا تَتْلَى﴾ وَتُقْرَأُ ﴿عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ الْقُرْآنِيَّةُ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى جِهَاتٍ مِنَ الْأَعْجَازِ لِيُؤْمِنُوا بِهَا وَبِسُنَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ حَالُ كَوْنِ تِلْكَ الْآيَاتِ ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ وَوَاضِحَاتِ الدَّلَالَةِ عَلَى كَوْنِهَا مِنَ اللَّهِ، وَعَلَى رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ، وَحُشْرِ النَّاسِ لِلْجَزَاءِ ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عِنَاداً ﴿لِلْحَقِّ﴾ أَوْ كَفَرُوا لِأَجْلِ الْحَقِّ وَشَأْنِهِ، وَهُوَ الْآيَاتُ الْمَتْلُوَّةُ عَلَيْهِمْ ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ ذَلِكَ الْحَقُّ، وَبِمَحْضِ سَمَاعِ الْآيَاتِ مِنْ غَيْرِ تَدَبُّرٍ فِيهَا وَتَأَمُّلٍ: ﴿هَذَا﴾ الَّذِي جَاءَنَا وَتَلَى عَلَيْنَا ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وَبَاطِلٌ ظَاهِرٌ بَطْلَانَهُ، وَوَاضِحٌ أَنَّهُ لَا حَقِيقَةَ لَهُ.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنْ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [٨]

ثُمَّ أَنْكَرَ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمُ الْآخِرَ الْأَعْجَبُ مِنَ الْأَوَّلِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ اخْتَلَقَ هَذَا الْقُرْآنَ وَ﴿افْتَرَاهُ﴾ عَلَى اللَّهِ، وَنَسَبَهُ كِذْباً إِلَيْهِ.

ثُمَّ أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ بِرَدِّهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ، لَهُؤُلَاءِ الْكُفَّارُ: ﴿إِنْ﴾ اخْتَلَقْتُ الْقُرْآنَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِي وَ﴿افْتَرَيْتُهُ﴾ عَلَى اللَّهِ عَلَى سَبِيلِ الْفَرَسِ كَمَا يَقُولُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ يُعَاجِلُنِي بِعُقُوبَةِ هَذَا الْإِفْتِرَاءِ، وَإِنْ عَاجَلُنِي بِالْعُقُوبَةِ ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي﴾ وَلَا تُقَدِّرُونَ عَلَيَّ أَنْ تَدْفَعُوا عَنِّي ﴿مِنْ﴾ عَذَابِ ﴿اللَّهِ شَيْئاً﴾ بِسِرِّهِمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بِي وَمُدَافِعِينَ عَنِّي، فَكَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ أَقْدِمَ عَلَى الْإِفْتِرَاءِ، وَأَعْرِضَ نَفْسِي لِلْعُقُوبَةِ الَّتِي لَا مَخْلَصَ مِنْهَا!

ثُمَّ أَمَرَ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِتَهْدِيدِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿هُوَ﴾ تَعَالَى ﴿أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ﴾ وَمَا تَخْضَعُونَ

﴿فِيهِ﴾ من القُدْح والطعن في القرآن، ونسبته إلى السحر تارة، وإلى الافتراء أخرى ﴿كَفَى بِهِ﴾ تعالى ﴿شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه يشهد بصدقي في دعوى الرسالة، حيث أنزل عليّ أفضل الكتب السماوية، وصدق كتابي حيث جعله محتوياً لجهات من الإعجاز، فيجازيني على صدقي أفضل الجزاء، ويُعاقبكم على تكذيبي أشد العقوبة ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ لمن رجع عن الكفر وأمن بتوحيده ﴿الرَّحِيمُ﴾ بمن تاب وعَمِلَ صالحاً بإعطاء جزيل الثواب، وبمن أصرَّ على الكفر بتأخير عقوبته إلى يوم الحساب.

قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا  
يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ [٩]

ثم لما اقترح المشركون على النبي ﷺ معجزات غير ما أتى به، أو يباخباره بالمغيبات على ما قيل<sup>١</sup>، أمر الله نبيه ﷺ بردهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المقترحين ﴿مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ﴾ وأول من أرسل إلى البشر، لوضوح أنه أرسل قبلي كثير من الرسل، وكلهم دعوا الناس إلى ما أدعوكم إليه من توحيد الله وعبادته وطاعته، وما أتوا إلا بما آتاهم الله من المعجزات، ولم يُجيبوا أمهم بجميع ما سألوهم من خوارق العادات، ولم يُخبروهم إلا بما أوحى إليهم من ربهم، فكيف تُنكرون مني أن أدعوتكم إلى ما دعا إليه من قبلي من الرسل؟ وكيف تقترحون عليّ ما لم يؤت به الله إياي؟

﴿وَمَا أَدْرَى﴾ ولا أعلم بغير الوحي من الله ﴿مَا يَفْعَلُ بِي﴾ وأي شيء يُصنّيني فيما يغير من الحوادث ﴿وَلَا بِكُمْ﴾ وإلى ما يصير أمري وأمركم في الدنيا، وإنما أخبركم ببعض الحوادث من هجرتي، وغلبي عليكم، وظهور ديني على سائر الأديان بالوحي من الله ﴿إِنْ أَتَيْتُمْ﴾ وما أقول وما أفعل ﴿إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ من ربي، لا أتجاوزهُ ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ومُخَوِّفٌ من عقاب الله ﴿مُبِينٌ﴾ ومُوضِحٌ إنذارٍ لكم بلسانكم، وبالمعجزات الدالة على صدقي.

عن ابن عباس: لما اشتدَّ البلاء بأصحاب النبي ﷺ بمكة، رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخيل وشجرٍ وماءٍ، فقصّها على أصحابه، فاستبشروا بذلك، ورأوا أن ذلك فرج مما هم فيه من أذى المشركين ثم انهم مكثوا بُرْهَةً من الدهر لا يرون أثر ذلك، فقالوا: يا رسول الله، ما رأينا الذي قلت، متى تُهاجر إلى الأرض التي رأيتها في المنام؟ فسكت النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ وهو شيء رأيت في المنام، وأنا لا أتبع إلا ما أوحاه الله إليّ<sup>٢</sup>.

وقيل: إن المراد لا أدري ما يُفعل بي في الدنيا، أموت أم أقتل كما قُتل الأنبياء قبلي، ولا أدري ما يُفعل بكم أيها المكذبون، أترمون بالحجارة من السماء، أم يُخسف بكم، أم يُفعل بكم ما فعل بسائر الأمم<sup>١</sup>.

وروي أيضاً عن ابن عباس: أنه لما نزلت هذه الآية، فرِحَ المشركون والمنافقون واليهود، وقالوا: كيف نتبع نبياً لا يدري ما يُفعل به وبنا؟ فأنزل الله ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا \* لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾<sup>٢</sup>، فبين تعالى ما يُفعل به وبمن اتبعه، ونسخت هذه الآية، وأرغم الله أنف المنافقين والمشركين<sup>٣</sup>.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [١٠]

ثم حثَّ سبحانه المشركين على الايمان بالقرآن بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للمشركين: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أيها المشركون، وأخبروني ﴿إِنْ كَانَ﴾ ما آتيتكم به من القرآن نازلاً ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وبوجه كما أقول، لا سحر ولا مقترئ كما تزعمون ﴿و﴾ أنتم ﴿كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ وجحدتم بنزوله من عند الله ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ عظيم الشأن ﴿مِنْ﴾ علماء ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الواقفين على ما في التوراة من التوحيد والوعد والوعيد على الايمان والكفر وكيفية المعاد ﴿عَلَى﴾ انطواء التوراة بنظير ما في القرآن و ﴿مِثْلِهِ﴾ فعلم بسبب مطابقة القرآن للتوراة أن القرآن من جنس الوحي الناطق بالحق.

وقيل: إن المراد إن كان القرآن من عند الله وشَهِدَ شَاهِدٌ من بني إسرائيل على مثل ما أقول<sup>٤</sup> لدلالة المعجزات ﴿فَأَمَنْ﴾ بالقرآن أنه كلام الله وليس من اختلاق البشر ﴿وَأَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ وتأنقتم عن الإقرار به، ألستم أضل الناس وأظلمهم على أنفسكم، حيث وضعت الجحود والإنكار موضع الايمان، والاقرار عناداً ولجاجاً؟ فبذلك الظلم سلب عنهم التوفيق للايمان والهداية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ ولا يُوفِّقُ للايمان ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بالإصرار على الكفر.

في ذكر إيمان عبدالله ابن سلام عن سعد بن أبي وقاص، قال: ما سمعت رسول الله يقول لأحد يحشي على وجه الأرض: إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام، وفيه نزل ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ إلى آخره<sup>٥</sup>. كان من أحرار اليهود، وكان اسمه الحصين<sup>٦</sup>، فسمَّاه رسول الله ﷺ عبدالله،

١. تفسير الرازي ٢٨: ٨. ٢. الفتح: ٤٨/ ١ - ٥. ٣. تفسير الرازي ٢٨: ٨. ٤. تفسير الرازي ٢٨: ١٠.

٥. تفسير الرازي ٢٨: ٩، تفسير روح البيان ٨: ٤٧٠. ٦. في النسخة: الحفنين.

قيل: إِنَّهُ لَمَّا سَمِعَ بِمَقْدَمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَتَاهُ فَظَنَرُ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ، فَعَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، وَتَأَمَّلَهُ فَتَحَقَّقَ أَنَّهُ النَّبِيُّ الْمَوْعُودُ الْمُنْتَظَرُ، فَقَالَ لَهُ: إِنِّي أَسْأَلُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ: مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، وَأَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالْوَلَدُ يَنْزِعُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ؟

فَقَالَ ﷺ: «أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارُ تَحْشُرُهُمْ مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ أَهْلُ الْجَنَّةِ فزِيَادَةُ كَيْدِ الْحَوْتِ، وَأَمَّا الْوَلَدُ فَانْ سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ نَزْعَهُ، وَإِنْ سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ نَزْعَتَهُ».

فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، فَقَامَ ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهِتَ، فَانْ عَلَّمُوا بِإِسْلَامِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ عَنِّي بَهْتُونِي عِنْدَكَ. فَجَاءَتِ الْيَهُودُ وَهُمْ خَمْسُونَ فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ فِيكُمْ؟» قَالُوا: خَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا، وَسَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا، وَأَعْلَمُنَا وَابْنُ أَعْلَمِنَا.

فَقَالَ: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ؟» قَالُوا: أَغَاذَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ. فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ. فَقَالُوا: شَرَرْنَا وَابْنُ شَرَرْنَا وَانْتَقَصَوْهُ. قَالَ: هَذَا مَا كُنْتُ أَخَافُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَحْذَرُ<sup>١</sup>.

وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ بِالشَّاهِدِ غَيْرِ عَبْدِ اللَّهِ: لِأَنَّ الْحَوَامِيمَ كُلَّهَا مَكِّيَّةٌ، وَكَانَ إِسْلَامُ عَبْدِ اللَّهِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ قَبْلَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِعَامَيْنِ، وَوَرَدَ أَنَّ الْحَوَامِيمَ وَإِنْ كَانَ مَكِّيَّةً إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ، فَانَّهَا مَدِينِيَّةٌ، وَضَعَتْ فِي السُّورَةِ الْمَكِّيَّةِ بِأَمْرِ الرَّسُولِ ﷺ<sup>٢</sup>.

وقيل: إِنَّ الشَّاهِدَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ، وَشَهَادَتُهُ مَا فِي التَّوْرَةِ مِنْ بَعَثِ<sup>٣</sup> الرَّسُولِ، وَنَزُولِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ<sup>٤</sup>.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ [١١]

ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ شِدَّةَ كُفْرِ الْمُشْرِكِينَ بِقَوْلِهِ: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا» مِنْ عَتَاةٍ قَرِيشٍ تَعْظِيمًا لَأَنْفُسِهِمْ مُخَاطَبَةً «لِلَّذِينَ آمَنُوا» بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَهُمْ فِي نَظَرِهِمْ مِنْ أَدْنَى النَّاسِ وَفَقَرَانِهِمْ، ثُمَّ تَرَكَ سَبْحَانَهُ حِكَايَةَ خُطَابِهِمْ، وَانْتَقَلَ إِلَى الْغَيْبَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «لَوْ كَانَ» دِينَ الْإِسْلَامِ حَقًّا وَالْقُرْآنُ «خَيْرًا» وَنَافِعًا «مَا سَبَقُونَا» أُولَئِكَ الْأَرْدَالُ وَالسَّفَلَةُ «إِلَيْهِ» وَإِلَى الْإِيمَانِ بِهِ.

وقيل: إِنَّ مَعْنَى «لِلَّذِينَ آمَنُوا» لِأَجْلِ إِيْمَانِ الَّذِينَ آمَنُوا<sup>٥</sup>، فَلَيْسَ الْكَلَامُ لِلْمُشَافَهَةِ وَالْمُخَاطَبَةِ.

وقيل: إِنَّ الْكَفَّارَ لَمَّا سَمِعُوا إِيْمَانَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْفُقَرَاءِ بِالرَّسُولِ ﷺ وَالْقُرْآنَ قَالُوا لِلْمُؤْمِنِينَ

١. تفسير روح البيان ٨: ٤٦٩.

٢. تفسير الرازي ٢٨: ١٠، تفسير روح البيان ٨: ٤٧٠.

٣. تفسير البيضاوي ٢: ٣٩٣، تفسير أبي السعود ٨: ٨١.

٤. في تفسير البيضاوي: نعت.

٥. تفسير الرازي ٢٨: ١١.

الحاضرين عندهم، لو كان خيراً ما سبقنا إليه أولئك الفقراء الغائبون<sup>١</sup>.

قيل: إن هذا كلام كفار مكة<sup>٢</sup>، وقيل: لما أسلمت جُهينة ومُزينة وعَفَّار وأسلم، قالت بنو عامر وعُطفان وأسد وأشجع: لو كان خيراً ما سبقنا إليه رعاء اليهم<sup>٣</sup>.

وقيل: إن أمة لعمر أسلمت، وكان عمر يضربها حتى يفتر، ويقول: لولا إني فترت لزدتك ضرباً، فكان كفار قريش يقولون: لو كان ما يدعو إليه محمد حقاً، ما سبقنا إليه أمة عمر<sup>٤</sup>.

وقيل: لما أسلم عبدالله بن سلام قالت اليهود ذلك<sup>٥</sup>.

ثم ردَّهم بقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا﴾ بالقرآن، كما اهتدى به المؤمنون، ولم يرشدوا إلى الحق ﴿بِهِ﴾ لعدم تدبرهم فيه، وعدم وقوفهم على جهات إعجزاه، ظهر عنادهم وقالوا ما قالوا ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ بعد نفيمهم الخير في القرآن: ﴿هَذَا﴾ القرآن ﴿إِفْكٌ﴾ وكِذِبٌ ﴿قَدِيمٌ﴾ دائر في السنة السابقين.

وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ  
الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ \* إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا  
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ \* أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً  
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١٢-١٤]

ثم ردَّ سبحانه تكذيبهم القرآن بقوله: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ نزل ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾ وهو التوراة حال كونه ﴿إِمَامًا﴾ يؤتم به، ومقتدى يقتدى به في دين الله ﴿وَرَحْمَةً﴾ ونعمة عظيمة من الله. لمن آمن به وعَمِلَ بأحكامه، وقد سلَّم جميع أهل الكتاب حقانيته وصدقه ﴿وَهَذَا﴾ القرآن الذي يُكذِّبونه ﴿كِتَابٌ﴾ عظيم الشأن ﴿مُصَدِّقٌ﴾ لذلك الكتاب الذي جاء به موسى، ومطابق له، ولما بين يديه من الكتب السماوية في العلوم والمعارف، وبيان أحوال المعاد والمواعظ والعبر، والترهيد عن الدنيا، والترغيب إلى الآخرة.

ولما كان قوم النبي ﷺ غرباً جعل لسانه ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ لتفهم العرب ما فيه و﴿لِيُنذِرَ﴾ ويخوف ذلك الكتاب بالوعد بالعذاب ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ على أنفسهم بالكفر والعصيان ﴿وَلِيُبَشِّرَ﴾ بالثواب العظيم في الآخرة ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ في العقائد والأعمال المطيعين لله مخلصين. وحاصل المراد - والله أعلم - أن الغرض من إنزال الكتاب إنذار العاصين، وبشارة المطيعين، فلا

١. الكشاف ٤: ٣٠٠، تفسير الرازي ٢٨: ١١.

٢. الكشاف ٤: ٣٠٠، تفسير الرازي ٢٨: ١١.

٣. تفسير الرازي ٢٨: ١١.

٤. الكشاف ٤: ٣٠٠، تفسير الرازي ٢٨: ١١.

يمكن أن يكون مثل هذا الكتاب كذباً.

ثُمَّ بَيَّنَ سبحانه المحسنين المبشرين بالنواب بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا﴾ بالسَّعْيِ قُلُوبُهُمْ ﴿رَبَّنَا آتِنَا﴾ وحده لا شريك له في الربوبية والعبادة ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ وثبتوا على شريعته ودينه من الأحكام، واجتهدوا في العمل بمقتضى عبوديته وتوحيده، فلم يروا منعاً ولا مطلقاً غيره، ولا مستحقاً للشكر والطاعة سواه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بعد الموت من عذابٍ ومكرهٍ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من فوات محبوبٍ ﴿أُولَئِكَ﴾ الموحدون المستقيمون على وظائف العبودية إلى الموت ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ وأهاليها، حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ومقيمين ﴿فِيهَا﴾ أبداً لا يخرجون منها ولا يموتون أصلاً، وإنما يَغُطُّونَ ذلك ليكون ﴿جَزَاءً﴾ لهم ﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ من الإيمان والحسنات.

### وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا [١٥]

ثُمَّ بَيَّنَ سبحانه أنواع الحسنات بقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾ وأمرناه بأن يُحْسِنَ ﴿بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ بليغاً.

ثُمَّ بَيَّنَ سبحانه علّة وجوب الإحسان إلى الأمّ مع كونها وعاء وكون الأب هو الأصل والمنعم بقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾ في<sup>١</sup> بطنها ﴿كُرْهًا﴾ وعلى مشقّةٍ لتقله بعد أربعة أشهر إلى وضعه ﴿وَوَضَعَتْهُ﴾ من بطنها على الأرض ﴿كُرْهًا﴾ وعلى مشقّةٍ لشدة وجع المخاض عليها ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ﴾ ويطامه من المدّة ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ تمضي عليها بمقاساة الشدائد لأجله.

وفيه دلالة على أن أقلّ الحمل ستة أشهر، بالنظر إلى الآية التي حدّ فيها الرضّاع التام بحولين كاملين، فإذا أنت المرأة بالولد لسته أشهر من دخول الزوج بها، يُلْحَق بالزوج ولا تُنْهَم المرأة.

في ذكر خطب عمر  
نسي الحكم  
بالرجم  
روى الفخر الرازي أن امرأةً رُفِعت إلى عمر، وكانت قد ولدت لسته أشهر، فأمر برجمها، فقال علي عليه السلام: «لا رجم عليها» واستدلّ بالآية على النحو الذي ذكرنا<sup>٢</sup>.

وقال المفيد في (الارشاد): رَوَوْا أَنَّ عُمَرَ أَتَى بِأَمْرَةٍ وَلَدَتْ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ، فَهَمَّ بِرَجْمِهَا،

فَقَالَ لَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «إِنَّ خَاصَمَتَكَ بَكْتَابُ اللَّهِ خَصَمَتَكَ، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ وَيَقُولُ: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ﴾»<sup>٣</sup>  
فاذا أتمّت الرضّاعة لستين، وكان حملة وفضاله ثلاثين شهراً، كان الحمل منها ستة أشهر، فخلّى عمر



سبيل المرأة، وثبت الحكم بذلك، يعمل به الصحابة والتابعون، ومن أخذ عنه إلى يومنا هذا<sup>١</sup>.  
أقول: والعجب أن مع ظهور هذا الخبط والغلط والحكم بغير العلم في دين الله من عمر، وبيان الحكم الحق من أمير المؤمنين عليه السلام وشيوعه بين الصحابة والتابعين، وقع عين هذا الخبط والحكم بغير ما أنزل الله به من عثمان.

فان الفخر الرازي روى عن عثمان أنه هم بذلك، فقرأ ابن عباس عليه ذلك<sup>٢</sup>.

حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي  
أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي  
إِنِّي تبتُّ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ \* أُولَٰئِكَ الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا  
عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا  
يُوعَدُونَ [١٥ و ١٦]

ثم بين سبحانه حال الولد البار المحسن بوالديه بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ قيل: إن الانسان أخذ ما وضيئه به من البر والاحسان بوالديه حتى إذا بلغ وقت كمال قواه وعقله<sup>٣</sup> ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ وهو أكثر مدة بلوغ الأشد، كما عن الصادق عليه السلام، قال: «إذا بلغ العبد ثلاث وثلاثين سنة فقد بلغ أشده، وإذا بلغ أربعين سنة فقد بلغ متهاه» الخبر<sup>٤</sup>.

وقيل: هو آخر سن الكهولة<sup>٥</sup>، وقيل: بلوغ الأشد هو آخر سن النشوء والنماء، والأربعين آخر الشباب، ومن ذلك الوقت تأخذ القوى الحيوانية في الانتقاص، والقوة العقلية في الاستكمال<sup>٦</sup>.  
فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ تضرعاً إلى الله ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ وألهمني، كما عن ابن عباس<sup>٧</sup>، أو وفقني<sup>٨</sup> ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ من الوجود والعقل وكمال الأعضاء، والرزق والصحة والأمان وغيرها مما لا يحصى ﴿وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ الذين نعمتها علي أعظم بعد نعمتك علي، فأني لا أقدر على مكافأة نعمهما علي إلا بالدعاء في حقهما ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ وتقبله مني، فإنه لا يمكنني ذلك إلا بتوفيقك.

﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ بان تجعل الايمان والعمل الصالح سارياً وراسخاً فيهم، ولا تجعل

١. إرشاد المفيد ١: ٢٠٦، تفسير الصافي ٥: ١٤.

٢. تفسير الرازي ٢٨: ١٥.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٤٧٤.

٤. الخصال: ٢٣/٥٤٥، تفسير الصافي ٥: ١٤.

٥. تفسير الرازي ٢٨: ١٧.

٦. تفسير الرازي ٢٨: ١٨.

٧. تفسير الرازي ٢٨: ٢٠.

٨. تفسير روح البيان ٨: ٤٧٤.

للشيطان فيهم نصيباً وسبيلاً، يا رب ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ مما فرط مني من الزلات والمعاصي قبل أن ادعوك ﴿وَأِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ الذين أخلصوا لك دينهم. ﴿أُولَئِكَ﴾ المنعوتون بتلك النعوت الجليلة ﴿الَّذِينَ تَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ من الطاعات التي كلها أحسن الأعمال ﴿وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ وزلاتهم بأنواعها، تابوا عنها أو لم يتوبوا، لكونها مكفورة بأعمالهم الحسنة، بل مبدلة بالحسنات حال كونهم ﴿فِي﴾ زمرة ﴿أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ ومتظمين في سلكهم في الآخرة، كل ذلك يكون ﴿وَعَدَ الصَّدِيقِ﴾ من الله لهم ﴿الَّذِي كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يُوعَدُونَ﴾ به على ألسنة الرسل.

نسي نقل كلام  
مفسري العامة في  
نزول الآية ورده

حكى الفخر الرازي عن الواحدي أنه حكى عن كثير من مفسري العامة أن هذه الآية نزلت في أبي بكر، ثم قال قالوا: والدليل عليه أن الله تعالى قد وقت الحمل والفصال ها هنا بمقدار يعلم أنه قد ينقص وقد يزيد عنه بحسب اختلاف الناس في هذه الأحوال، فوجب أن يكون المقصود شخصاً واحداً حتى يقال: إن هذا التقدير إخبار عن حاله، فيمكن أن يكون أبو بكر كان حمله وفصاله هذا المقدار.

أقول: فيما ذكر ما لا يخفى من الوهن، فإن ذكر الوقتين لبيان أقل الحمل وأكثر مدة الرضاع، ولا يختلف الناس فيهما وفي تعيينهما حكم وأحكام كثيرة مذكورة في محله، ثم على تقدير كون المراد شخصاً خاصاً، وإمكان كون حمل أبي بكر وفصاله هذا المقدار من المدة، لا بوجوب كون المراد منه ذلك الرجل، لوجود هذا الاحتمال في كثير من الصحابة الخُصَصين.

ثم قالوا: ثم قال الله تعالى في صفة ذلك الانسان: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ إلى آخره، ومعلوم أنه ليس كل إنسان يقول ذلك القول، فوجب أن يكون المراد إنساناً معيناً. قال هذا القول، وأما أبو بكر فقد قال هذا القول في قريب من هذا السن، لأنه كان أقل سناً من النبي ﷺ بستين وشي، والنبي ﷺ بُعِثَ عند الأربعين، وكان أبو بكر قريباً من الأربعين، وهو قد صدق النبي ﷺ وآمن به، فثبت بما ذكرناه أن هذه الآية صالحة لأن يكون المراد منها أبا بكر.

أقول: فيه أنه قد ذكرنا أن المراد بيان حال الانسان الذي أخذ بوصية الله في حق الوالدين في تمام عمره بالبر والإحسان، ورأى النعم التي على والديه نعماً على نفسه، وناب عنهما في الشكر عند اكمال أربعين سنة وكمال قوة عقله، وليس المراد بيان حال شخص معين، كما أن الآية التي فيها بيان حال الولد العاق لوالديه ليس المراد منها شخصاً معيناً، مع أن أبا بكر لم يكن له وقت إيمانه أربعين سنة باعترافهم، كما أن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً لم يكن له ذلك السن وقت إيمانه، والقرب والبعد لا

يوجب الصلاحية للقريب وعدمها للبعيد، بعد أن لم يكونا بالغين ذلك الحد من السن، مع أن الظاهر نيابة الولد الشكر عن الوالدين غير الكافرين، وأبو بكر كان أبواه كافرين، ولا ينفع شكر الولد في حقها، وعلي عليه السلام كان أبواه مؤمنين في اعتقادنا.

ثم قالوا: وإذا ثبت القول بهذه الصلاحية، فنقول: ندعي أنه هو المراد من هذه الآية، ويدل عليه أنه تعالى قال في آخر هذه الآية: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ وهذا يدل على أن المراد من هذه الآية أفضل الخلق، لأن الذي يتقبل الله عنه أحسن أعماله، ويتجاوز عن سيئاته، يجب أن يكون أفضل الخلق، وأجمعت الأمة على أن أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله إما أبو بكر وإمام علي، ولا يجوز أن يكون المراد من هذه الآية علي بن أبي طالب، لأن هذه الآية إنما تليق بمن أتى بهذه الكلمة عند بلوغ الأشد، وعند القرب من أربعين سنة، وعلي بن أبي طالب ما كان كذلك، انتهى.

أقول: هذا الاستدلال مما يُضْحِكُ به الثكلي، لوضوح أن من تقبل الله أحسن أعماله، ويجاوز عن سيئاته، لا يجب أن يكون أفضل الخلق، فإن كل من يدخل الجنة يكون كذلك، لأنه لا يمكن أن لا يتقبل الله أحسن الأعمال، ولا يمكن أن يدخل الجنة من له ذنب غير مغفور، ثم لا شبهة أن علياً عليه السلام كان أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ولا ينكره إلا من كان له عناد وعصبية، ولا في أن الآية إنما تليق بمن أتى بهذه الكلمة بعد بلوغ أربعين سنة، لا عند القرب منه.

وإنما الغرض من نقل كلامهم بطوله الذي لا ينبغي التفوه به من عاقل، فضلاً من عالم وفاضل، وضوح أن القول بنزول الآية في حق أبي بكر لا مستند له إلا الاجتهاد الفاسد، المبني على حب ترويح الباطل، وإطفاء نور الحق، والله متم نوره ولو كره المشركون.

• ذكر فضيلة وعن الصادق عليه السلام قال: «لما حملت فاطمة عليها السلام بالحسين عليه السلام، جاء جبرئيل إلى الحسين عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: إن فاطمة ستلد غلاماً تقتله أمتك من بعدك، فلما حملت فاطمة بالحسين عليه السلام كرهت حمله، وحين وضعت كرهت وضعه، ثم قال: «لم تر أم تلد غلاماً تكرهه، ولكنها كرهته لما علمت أنه سيقتل» قال: «وفيه نزلت هذه الآية»<sup>١</sup>.

أقول: لعل المراد أنه لم يكن لهذا الكلي الذي تضمنته الآية مصداق تام المطابقة إلا الحسين عليه السلام وفاطمة عليها السلام.

وفي رواية أخرى، قال: «ثم هبط جبرئيل فقال: يا محمد، إن ربك يقرئك السلام، ويُبَشِّرُكَ بأنه

جاعل في ذريته الإمامة والولاية والوصية، فقال: إني رضىت، ثم بشر فاطمة بذلك فرضيت<sup>١</sup>.

أقول: يحتمل الجمع بأن بشارة الرسول ﷺ ورضا فاطمة ﷺ كانا بعد وضعه ﷺ.

ثم قال الصادق ﷺ: «فلولا أنه قال: «وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي» لكانت ذريته كلهم أئمة» قال: «ولم يرتضع الحسين من فاطمة ﷺ ولا من انثى، كان يؤتى به النبي ﷺ فيضع إبهامه في فيه، فيمض منها ما يكفيه اليومين والثلاث، فنبت لحم الحسين ﷺ من لحم رسول الله ﷺ ودمه»<sup>٢</sup>.  
أقول: قال السيد الأجل بحر العلوم:

لله مرتضع لم يرتضع أبداً من نثي أنثى ومن طه مراضعه<sup>٣</sup>

وقال الصادق ﷺ: ولم يؤلد لسته أشهر إلا عيسى بن مريم، والحسين ﷺ<sup>٤</sup>.

وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفْ لَكُمْمَا أَتَعَدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي  
وَهُمَا يَسْتَفِيتَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ  
الْأَوَّلِينَ \* أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ  
الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ [١٧ و ١٨]

ثم إنه تعالى بعد بيان بز الولد الصالح بوالديه، وأخذه بوصية الله في حقهما، بين سبحانه حال الإنسان العاق لوالديه، الكافر برّيه وبالدار الآخرة بقوله: «وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ» عند دعوتهما له إلى الإيمان بالله وبالدار الآخرة شفقة عليه وإحساناً إليه، تضجراً من قولهما وكراهة له، يا والدي «أَفْ لَكُمْمَا» والنكبة الدائمة عليكما «أَتَعَدَانِي أَنْ أُخْرَجَ» حياً من القبر بعد الموت وصيرورتي ثراباً وعظماً زميماً، وأبعث حياً «وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ» ومضت أهالي الأعصار السابقة من الدنيا «وَمِنْ قَبْلِي» ولم يبعث منهم أحد، ولم تحيا منهم نفس «وَهُمَا» حرصاً على إيمان ولدهما «يَسْتَفِيتَانِ اللَّهَ» ويدعوانه أن يغيثه ويوفقه للإيمان، ويقولان لذلك الولد: «وَيْلَكَ آمِنْ» بالبعث والحساب، وصدق بالخراج من القبر للجزاء «إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ» بالبعث والنشور للحساب وجزاء الأعمال «حَقٌّ» وصدق، لا يمكن الخلف فيه، لتزهره تعالى عنه «فَيَقُولُ» الولد تكذيباً لوالديه: «مَا هَذَا» الوعد الذي تنسبانه إلى الله «إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» وأكاذيب الأمم السابقين التي كانوا يُسَطِّرونها في دفاترهم، كأحاديث رستم وإسفنديار.

١. الكافي ١: ٣٨٦/٤، تفسير الصافي ٥: ١٤.

٢. الكافي ١: ٣٨٦/٤، تفسير الصافي ٥: ١٤.

٣. أدب الطف ٦: ٥٠. ٤. الكافي ١: ٣٨٦/٤، تفسير الصافي ٥: ١٤.

قيل: نزلت في عبدالرحمن بن أبي بكر، كان أبواه يدعوانه إلى الاسلام فيأبى<sup>١</sup>.

رُوي أَنَّهُ لَمَّا دَعَاهُ أَبَوَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبَرَاهُ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، قَالَ: أُنْعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ مِنَ الْقَبْرِ، وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي، فَلَمْ أَرِ أَحَدًا مِنْهُمْ يُعِثُّ؟ فَأَيْنَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُدْعَانَ، وَأَيْنَ فُلَانٌ، وَأَيْنَ فُلَانٌ؟<sup>٢</sup>

وَرُوي أَنَّهُ لَمَّا كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى مَرْوَانَ بِأَنْ يُبَايِعَ النَّاسَ لِيَزِيدَ، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لَقَدْ جِئْتُمْ بِهَا هَرَقْلِيَّةً، أَتُبَايِعُونَ لَأَبْنَاءِنَاكُمْ؟ فَقَالَ مَرْوَانُ: أَتَيْهَا النَّاسُ، هُوَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا﴾ وَبِهِ قَالَ الْكَلْبِيُّ مِنَ الْعَامَةِ، وَالْقَمِيُّ رحمته الله.<sup>٣</sup>

وقيل: إِنَّهُ لَمْ يَرِدْ بِهِ شَخْصًا مُعَيَّنًا.<sup>٤</sup>

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أُولَئِكَ﴾ الْعَاقُونَ الْكَافِرُونَ بِاللَّهِ، الْمُنْكَرُونَ لِلْحَشْرِ، هُمْ ﴿الَّذِينَ حَقَّ﴾ وَثُبْتُ عَلَيْهِمْ﴿ فِي عِلْمِ اللَّهِ ﴿الْقَوْلُ﴾ وَالْوَعْدُ بِالْعَذَابِ الْأَبَدِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾<sup>٥</sup> وَهُمْ ﴿فِي﴾ زُمَرَةٍ ﴿أُمَمٌ﴾ مُسْتَحَقَّةٌ لِلْعَذَابِ ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ وَمَضَتْ ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ مِنَ الدُّنْيَا ﴿إِنَّهُمْ﴾ السَّابِقِينَ وَاللَّاحِقِينَ جَمِيعًا ﴿كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ فِي سَوْقِ الدُّنْيَا، لِإِتْلَافِهِمْ مَا هُوَ بِمَنْزِلَةِ رَأْسِ مَالٍ تَجَارَتَهُمْ مِنَ الْفِطْرَةِ الْأَصْلِيَّةِ، وَالْعَقْلِ السَّلِيمِ، وَالْعَمْرِ وَالنَّعْمِ الَّتِي تَفْضُلُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِهَا.

وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ \* وَيَوْمَ يُعْرَضُ  
الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا  
فَالْيَوْمَ تَجْرُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا  
كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ [١٩ و ٢٠]

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ فَرِيقَيْنِ مِنَ الْأَوْلَادِ الْبَازِينَ بِالْوَالِدَيْنِ وَالْعَاقِقِينَ لِهَمَا، بَيَّنَّ أَنَّ لِكُلِّ فَرِيقٍ مَرَاتِبَ وَدَرَجَاتٍ مُخْتَلِفَةً بِقَوْلِهِ: ﴿وَلِكُلِّ﴾ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ ﴿دَرَجَاتٌ﴾ مُخْتَلِفَةٌ فِي الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ وَالطَّاعَةِ وَالْعَصْيَانِ، أَوْ فِي الثَّوَابِ وَدَرَكَاتِ مُتَفَاوِتَةٍ فِي الْعِقَابِ مُسَبِّبَةً ﴿مِمَّا عَمِلُوا﴾ فِي الدُّنْيَا مِنْ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ﴿وَلِيُؤْفِقَهُمْ﴾ رَبُّهُمْ ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ وَيُعْطِيَهُمْ أَجْرَ طَاعَتِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ وَافِيَةً تَامَةً ﴿وَهُمْ لَا

٢. تفسير الرازي ٢٨: ٢٣.

١. تفسير الرازي ٢٨: ٢٣.

٤. تفسير الرازي ٢٨: ٢٣.

٣. تفسير الرازي ٢٨: ٢٣، تفسير القمي ٢: ٢٩٧، تفسير الصافي ٥: ١٥.

٥. السجدة: ١٣/٣٢.

يُظَلَّمُونَ<sup>١</sup> بنقص ثواب المطيعين، وزيادة عقاب العاصين.

قيل: إن (ليوفيهم) علة لمقدّر، يدلّ الكلام عليه، والمعنى: قدّر جزاء أعمالهم، وجعل الثواب درجات، والعقاب درجات، ليوفيهم ولا يظلمهم<sup>٢</sup>.

ثم لما بين سبحانه أنه يوصل حق كل أحد إليه، بين أحوال أهل العقاب بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ ويقرّبون منها، ويوقّفون عليها، ليروا أهوالها. أو المراد يُضَلّون فيها، فيقول لهم: إنها الكفار ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾ وأصبتم حظوظكم ولذاذككم التي قدّرت لكم ﴿فِي حَيَاتِكُمْ﴾ في ﴿الدُّنْيَا﴾ وعمرّكم فيها ﴿وَأَسْتَمْتُمْ﴾ بنعم الله، وانتفعتم ﴿بِهَا﴾ فلم يبق لكم في الآخرة منها شيء ﴿فَالْيَوْمَ﴾ وفي هذا الوقت ﴿تَجْرُونَ﴾ من الله ﴿عَذَابَ الْهُونِ﴾ وجزاء بالنار فيه ذلّ وحقارة ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ على الناس ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وتأنّون عن الإيمان وطاعة الرسول ﷺ ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وبلا مقتضى للاستكبار والتأنف ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ﴾ فيها ﴿تُفْسِقُونَ﴾ وتعصون بترك الواجبات وإيتان المحرّمات.

روي عن النبي ﷺ أنه دخل على أصحاب الصّفة، وهم يرقعون ثيابهم بالأدم، ما يجدون لها رقاعاً، فقال: «أنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحكمكم في حلّة ويروح في أخرى، ويغدئ عليه بجفنة ويروح عنه بأخرى، ويُسّر بيته كما تُسّر الكعبة؟». قالوا: نحن يومئذ خير. قال: «بل [أنتم] اليوم [خير]»<sup>٣</sup>

روي عن عمر أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو على سرير، وقد أثر بجنبه الشريط، فبكى عمر، فقال ﷺ: «ما يُبكيك يا عمر؟» قال: ذكرت كسرى وقيصر، وما كانا فيه من الدنيا، وأنت رسول رب العالمين، قد أثر بجنبك الشريط! فقال ﷺ: «أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، ونحن قوم قد أخرت طيباتنا في الآخرة».

قالت عائشة: ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله، وأول بدعة حدثت بعده الشّعْب.

وقالت أيضاً: وقد كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه ناراً، وما هو إلا الماء والتمر، غير أنه جزي الله عنا نساء الأنصار، كُنّ ربما أهدين لنا شيئاً من اللبن<sup>٣</sup>.

عن أبي هريرة قال: رأيت سبعين من أصحاب الصّفة ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار أو كساء، قد

٢. تفسير الرازي ٢٨: ٢٥.

١. تفسير الرازي ٢٨: ٢٥.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٤٨٠.

ربطوه في أعناقهم، فمنها ما يَبْلُغُ نصف الساقين، ومنها ما يَبْلُغُ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن تُرى عورته<sup>١</sup>.

عن الصادق (عليه السلام)، عن أبائه، قال: «أتى النبي ﷺ بِخَبِيرٍ<sup>٢</sup>، فأبى أن يأكله، فقيل: أئحرمه؟ قال: لا، ولكني أكره ما تتوق إليه نفسي، ثم تلا هذه الآية ﴿أَذْهَبْنِمُ طَبَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾<sup>٣</sup>.

وَأَذْكُرُ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَتَّبِعُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ \* قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأَفَّكُنَا عَنْ إِلَهِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ \* قَالَ إِنَّمَا أَلِمْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ \* فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ \* تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاجِدُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ [٢٥-٢١]

ثم إنه تعالى بعد إثبات التوحيد، وتوعيد الكفار المنهمكين في الشهوات، ذكر قصة قوم عاد، الذين كانوا أقوى وأكثر نعمة من أهل مكة، ليعتبروا بهم بقوله: ﴿وَأَذْكُرُ﴾ يا محمد، لقومك هود الذي كان ﴿أَخَا عَادٍ﴾ ومن قومه، ليعتبروا من حال قومه ﴿إِذْ أَنْذَرَ﴾ وخوف ﴿قَوْمَهُ﴾ الذين كانوا يَسْكُنُونَ ﴿بِالْأَحْقَافِ﴾ وهو أرض قريبة من حَضْرَمَوْت من بلاد اليمن، على ما قيل<sup>٤</sup>، وكانوا من قبيلة إرم. وقيل: إن بلاد عاد كانت في اليمن، ولهم كانت إرم ذات العِمَاد، والأحقاف جبل مستطيل مُعَوَّج من الرَّمْل<sup>٥</sup>.

أقول: هذا منافٍ لقول علي (عليه السلام): «شَرُّ وَادٍ بَيْنَ النَّاسِ وَادِي الْأَحْقَافِ» إلا أن يقال: إن الوادي سَمِيَ باسم الجبل الذي فيه، قال: «وَوَادٍ بِحَضْرَمَوْتٍ يُدْعَى بَرْهُوتٍ تُلْقَى فِيهِ أَرْوَاحُ الْكَفَّارِ»<sup>٦</sup>. ﴿وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ﴾ ومضت الرُّسُل من الدنيا من قبل هود ﴿وَمِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ وبعده، وكان إنذاره ﴿إِنْ﴾ يا قوم ﴿لَا تَتَّبِعُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ يا قوم إن أشركتم به ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أهواله، وشديد بلاؤه ﴿قَالُوا﴾ في جواب هود: يا هود ﴿أَجِئْنَا

٢. الْخَبِيرُ: الحلواء المخلوطة من التمر والسَّمْن.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٤٨٠.

٦. تفسير روح البيان ٨: ٤٨١.

٣. المحاسن: ١٣٣/٤٠٩، تفسير الصافي ٥: ١٥.

٥. تفسير روح البيان ٨: ٤٨١.

لِتَأْفِكَنَا ﴿وَنَضْرِبْنَا عَنْ﴾

عبادة ﴿الْهَيْتَا﴾ إلى عبادة الهلك، وهذا لا يكون أبداً ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب العظيم على عبادة أصنامنا ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في وعدك به ﴿قَالَ﴾ هود: لاشك في وقوعه، و﴿إِنَّمَا أَلِمْكُمْ﴾ بوقت نزوله ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ ومختص به، وهو يأتيكم به في الوقت الذي يعلمه، ويرى فيه صلاح إتيانه به، وليس في قدرتي شيء، وإنما أنا رسول من الله إليكم ﴿وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ من واجب الرسالة التي من جملتها تحذيركم بنزول العذاب عليكم، إن لم تتهوا عن الشرك ﴿وَلَكِنِّي أَزَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ خيركم وصلاحكم، ولا تعلمون وظيفة الرسول، إنها التبليغ لا إتيان العذاب. في حكاية نزول العذاب على قوم عاد  
ثم قيل: إن الله تعالى حبس عنهم المطر أياماً، ثم ساق إليهم سحابة سوداء، فخرجت عليهم من وادٍ يقال له المغيث<sup>١</sup> ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ حال كونه ﴿عَارِضًا﴾ يعرض في السماء ﴿مُتَتَّقِلًا أُوْدِيَّتِهِمْ﴾ ومتوجهاً إلى أراضيهم ﴿قَالُوا﴾ مستبشرين ومسرورين بعروضه واستقباله: يا قوم ﴿هَذَا﴾ السحاب ﴿عَارِضٌ﴾ وظاهر في السماء وهو ﴿مُطْمِئِنَّا﴾ ومُنزل الغيث علينا. قال هود: ليس الأمر كما توهمتم ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ من العذاب، وهو ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فاذا جاءتهم ريحٌ عقيم كانت ﴿تُذَمِّرُ﴾ وتهلك ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من نفوسهم وأموالهم ومواشيهم ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ وإرادته، كالجند الذي لا يسير ولا يقف إلا بأمر الرئيس والأمير ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ وصاروا من ذلك العذاب هالكين بحيث ﴿لَا يَرَوْنَ﴾ من آثارهم ﴿إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ﴾ الخالية منهم ﴿كَذَلِكَ﴾ الجزاء الفظيع، وبمثل ذلك العذاب المستأصل ﴿نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ والطاغين على ربهم.

قيل: جاءت ريحٌ باردة من قيل المغرب، وأول ما عرفوا أنه عذاب، أن راوا ما كان في الصحراء من رحالهم ومواشيهم تطير بها الريح بين السماء والأرض، وترفع الطعينة في الجو حتى ثرى كأنها جُرادة، فتذمها بالحجارة، فدخلوا بيوتهم، وأغلقوا أبوابهم، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم، فأمال الله الأحقاف عليهم، فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام، لهم أنين، ثم كشفت الريح عنهم الأحقاف، فاحتملتهم فطرحتهم في البحر<sup>٢</sup>.

وقيل أول من أبصر العذاب امرأة منهم، قالت: رأيت ريحاً فيها كشهد النار<sup>٣</sup>.

١. تفسير روح البيان ٨: ٤٨٢.

٢. تفسير الرازي ٢٨: ٢٨، تفسير أبي السعود ٨: ٨٦، تفسير روح البيان ٨: ٤٨٣.

٣. تفسير الرازي ٢٨: ٢٨، تفسير أبي السعود ٨: ٨٦.



وَرَوَى أَنْ هُودًا لَمَّا أَحَسَّ بِالرَّيْحِ، خَطَّ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ خَطًّا إِلَى جَنْبِ عَيْنٍ تَبْعُ، فَكَانَتِ الرِّيحُ الَّتِي تُصِيبُهُمْ رِيحًا لَيِّنَةً هَاوِيَةً طَيِّبَةً، وَالرَّيْحُ الَّتِي تُصِيبُ الْقَوْمَ تَرْفَعُهُمْ مِنَ الْأَرْضِ، وَتَطِيرُ بِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ، وَتَضْرِبُهُمْ عَلَى الْأَرْضِ<sup>١</sup>.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «ما أمر الله خازن الرياح أن يرسل إلى عاد إلا مثل مقدار الخاتم» ثم إن ذلك المقدار أهلكهم بكليتهم<sup>٢</sup>.

وعنه ﷺ أنه كان إذا رأى الريح فزع، وقال: «اللهم إني أسألك خيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت به»<sup>٣</sup>.

وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ \* وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حولَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ \* فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ [٢٦-٢٨]

ثم بين سبحانه فضل قوم عاد على كفار أهل مكة بكمال القوة وكثرة النعم والأموال بقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ﴾ وأقدرناهم وملكاناهم ﴿فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ من السعة والبسطة والقوة وسائر التصرفات، وإنما لم يقل: فيما ما مكناكم فيه، لركاكة التكرار. وقيل: إن كلمة (إن) زائدة<sup>٤</sup>. وقيل: شرطية، وجزاء الشرط كان بغيكم أكثر<sup>٥</sup>.

أقول: لا يفيد القولان ما هو المقصود من بيان كونهم أقوى وأقدر منكم، ومع ذلك لم ينجوا من العذاب، فكيف بكم؟

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا﴾ ليستعملوها في سماع دلائل التوحيد والمواعظ والعبر ﴿وَأَبْصَارًا﴾ ليستعملوها في النظر إلى بدائع صنع الله، وما فيه دلائل توحيده وكمال صفاته ومعجزات الرسول ﴿وَأَفْئِدَةً﴾ يفكرون بها في عجائب الخلق وعواقب الأمور ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾ ولم يفدهم ﴿سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ﴾ في كمال نفوسهم وحصول سعادتهم وارتقائهم عن حضيض الحيوانية

١. تفسير الرازي ٢٨: ٢٨.

٢. تفسير الرازي ٢٨: ٢٨.

٣. تفسير الرازي ٢٨: ٢٨.

٤. تفسير الرازي ٢٨: ٢٩، تفسير روح البيان ٨: ٤٨٤.

٥. تفسير روح البيان ٨: ٤٨٤.

﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ من الإغناء والفائدة، حيث إنهم لم يستعملوا شيئاً منها فيما خُلِقَتْ له، ولم يؤدّوا شكرها.

﴿إِذْ كَانُوا يَخْجُدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ويتعصّبون في إنكار دلائل التوحيد والمعاد ورسالة الرسول ﴿وَحَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من العذاب، حيث كانوا يستعجلونه شخريّةً وأستهزاءً.

﴿وَهُ﴾ تالله ﴿لَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ يا أهل مكة بأنواع مختلفة من العذاب ﴿مَا حَوْلَكُمْ﴾ وفي أطرافكم ﴿مِنْ﴾ أهالي ﴿الْقُرَى﴾ والبلدان الكثيرة كقرى عاد وثمود وقوم لوط باليمن والشام، بسبب شركهم وطغيانهم ﴿وَصَرَفْنَا آيَاتِ﴾ وكزّنا عليهم الحجج وأنواع العير، لكي يعتبر بها أولئك الأهالي ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عمّا هم عليه من الشُّرك والطُّغيان، ويتوبوا من معاصيهم، ومع ذلك لم يرجع أحدٌ منهم ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمْ﴾ وهلا خلّصهم من العذاب الأصنام ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومما سواه، لكونهم بزعمهم ﴿قُرْبَانًا﴾ ووسائل للرُّلُفَى إلى الله ﴿آلِهَةً﴾ ومعبودين.

وقيل: إنّ المعنى اتَّخَذُوهم آلهةً حال كونهم متقرّبين لعبادتهم إلى الله، حيث كانوا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾<sup>١</sup>.

وقيل: إنّ المفعول الثاني لاتخذوا هو (قرباناً) و(آلهة) عطف بيان له<sup>٢</sup>. وعلى كلّ تقدير فيه غاية التقرّيع.

ثمّ بالغ سبحانه في تزييعهم بقوله: ﴿بَلْ ضَلُّوا﴾ وغبوا، أو ضاعوا ﴿عَنْهُمْ﴾ فحرموا عن نصرتهم وشفاعتهم، لعجزهم عن ذلك ﴿وَذَلِكَ﴾ المذكور من اتّخاذهم الأصنام قرباناً آلهةً ﴿إِنْكُتْهُمْ﴾ وقولهم الباطل الذي صرفهم عن الحقّ ﴿وَمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَقْتَرُونَ﴾ على الله من أنّ الله جعل الأصنام شفعاءهم ورضى لعبادتها.

قيل: يعني: وذلك الضياع أثر إفكهم وأثر ما يَنْتَرُونَ<sup>٣</sup>.

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا  
فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ \* قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ  
بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ \* يَا

قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ  
أَلِيمٍ [٢٩-٣١]

ثم إنه تعالى بعد تهديد أهل مكة على الكفر ومخالفة الحق، رغبهم في الإيمان بالقرآن بذكر إيمان الجن به بقوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا﴾ ووجهنا ﴿إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿تَفَرَّأْ﴾ وجماعة ﴿مِنْ الْجِنَّ﴾ وألقينا في قلوبهم الميل والرغبة إلى الحضور عندك ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ حين تلاوتك إياه ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ عند تلاوته ﴿قَالُوا﴾ أولئك الثَّغْرُ بعضهم لبعض ﴿أَنْصِتُوا﴾ واسكتوا لسماعه ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ القرآن وفرغت من تلاوته، آمَنُوا به وأجابوا إلى ما سَمِعُوهُ، و﴿وَلَوْ﴾ عنك ورجعوا ﴿إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ حال كونهم ﴿مُنْذِرِينَ﴾ لهم وداعين إياهم إلى الإيمان به.

في إيمان الجن روى بعض العامة: أن الجن كانت تَسْتَرِقُ السَّمْعَ، فلَمَّا حَرِسَتِ السَّمَاءَ وَرَجِمُوا بالقرآن، ودعوة بالشُّبِّ قالوا: ما هذا إِلَّا لِنَبِيٍّ حَدَثَ، فنَهَضَ سبعة نفر من أشرف جن نصيبين قومهم إليه ورؤسائهم<sup>١</sup>، وقيل: كانوا من ملوك جن يَبْنُو بِالْمَوْصِلِ<sup>٢</sup>.

وعن ابن عباس: أَنَّهُمْ كَانُوا تِسْعَةً، وَأَسْمَاؤُهُمْ سَلِيطُ، وَشَاصِرُ، وَبَاصِرُ<sup>٣</sup>، وَحَاصِرُ، وَحَسَا، وَمَسَا، وَعَلِيمُ، وَأَرْقَمُ، وَأُدْرَسُ، فَضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ حَتَّى بَلَغُوا يَهَامَةَ، ثُمَّ انْدَفَعُوا إِلَى وَادِي نَحْلَةٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، فَوَافُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ<sup>٤</sup> - وفي رواية: يَصَلِّي صَلَاةَ الْفَجْرِ - فَاسْتَمَعُوا لِقِرَاءَتِهِ وَهُوَ يَقْرَأُ طَهُ<sup>٥</sup>، فَجَاءُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، وَقَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ كِتَابِ ﴿مُوسَى﴾ مِنَ السَّمَاءِ، يَكُونُ ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، وَمَوَاقِفًا لِمَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ السَّمَاوِيَّةِ فِي التَّوْحِيدِ وَالْمَعَارِفِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْمَعَادِ، وَالتَّزْهِيدِ فِي الدُّنْيَا وَالتَّرَغِيبِ إِلَى الْآخِرَةِ، وَتَهْذِيبِ الْأَخْلَاقِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ، وَهُوَ ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ مِنَ الْعَقَائِدِ ﴿وَالْإِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ﴾ مُوَصِّلٌ إِلَى قُرْبِ اللَّهِ وَالْجَنَّةِ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ.

قيل: إِنَّمَا قَالُوا: ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَهُودًا<sup>٦</sup>. وعن ابن عباس: أَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا بِأَمْرِ عِيسَى<sup>٧</sup>. وقيل: لِأَنَّ شَرِيعَةَ عِيسَى مُقَرَّرَةٌ لَشَرِيعَةِ مُوسَى لَا نَاسِخَةٌ<sup>٨</sup>. وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ مِنْ جِهَةِ عَظَمَةِ التَّوْرَةِ مِنْ بَيْنِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ.

ثم قالوا: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ وكتابه أو رسوله الذي يدعوكم إلى كل خير وسعادة ﴿وَآمِنُوا

١ و٢. تفسير روح البيان ٨: ٤٨٧.

٣. في تفسير روح البيان: وماصر.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٤٨٧.

٥. تفسير روح البيان ٨: ٤٨٧.

٦ و٧. تفسير روح البيان ٨: ٤٨٩.

٨. تفسير روح البيان ٨: ٤٨٩.

بِهِ يَغْفِرُ ﴿لَكُمْ﴾ بَعْضاً ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ وَهُوَ مَا كَانَ مِنْ حَقِّكَ اللَّهُ عَلَى مَا قِيلَ<sup>١</sup> ﴿وَيُجْزِكُمْ﴾  
وَيُعَذِّبُكُمْ ﴿مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مُعَذِّدٌ لِلْكَفَّارِ.

وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ  
أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [٣٢]

ثم بعد ذكر المرغبات إلى الإيمان تبيّن مضاف تركه بقوله: ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ﴾ ولا يؤمن برسوله أو كتابه ﴿فَلَيْسَ﴾ بقادرٍ على دفع عذاب الله، ولا ﴿بِمُعْجِزٍ﴾. تعالى عن تعذيبه ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ بالهرب من أقطارها، أو الدخول في أعماقها ﴿وَلَيْسَ لَهُ﴾ ممّا سوى الله ﴿مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ وأنصارٌ يدفعون عنه العذاب بالمعارضة والشفاعة ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين لا يجيبون داعي الله، ولا يؤمنون به، متمكّنون، أو ثابتون ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ وانحرافٍ ﴿مُبِينٍ﴾ عن الحق والطريق المستقيم بحيث لا يخفى على عاقل.

زوي أنّه شغل ابن عباس: هل للجنّ ثواب؟ قال: نعم، لهم ثواب، وعليهم عقاب، يلتقون في الجنة، ويزدحمون على أبوابها<sup>٢</sup>.

في بيان تشريف الجنّ من النفر من الجنّ لما أنصرفوا من بطن نخلة، جاءوا إلى قومهم منذرين، ثمّ جاءوا مع قومهم وافدين إلى رسول الله ﷺ وهو بمكة، وهم ثلاثمائة، أو اثنا عشر ألفاً، فانتهوا إلى الْحَجُّونَ - وهو موضع فيه مقابر مكة - فجاء واحدٌ من أولئك النفر إلى رسول الله ﷺ فقال: إنّ قومنا قد حضروا بِالْحَجُّونَ ليقولنك، فوعده ﷺ ساعةً من الليل، ثمّ قال لأصحابه: «إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَقْرَأَ عَلَى الْجَنِّ اللَّيْلَةَ وَأُنْذِرَهُمْ، فَمَنْ يَتَّبِعُنِي؟» قالها ثلاثاً، فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود، فقام معه قال: فانطلقنا حتى إذا كنّا بأعلى مكة في شِعبِ الْحَجُّونَ، خطب لي ﷺ خطباً بجرله، وقال لي: «لَا تَخْرُجْ مِنْهُ حَتَّى أَعُودَ إِلَيْكَ، فَإِنَّكَ إِنْ خَرَجْتَ لَنْ تَرَانِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»<sup>٣</sup>. وفي رواية: لم آمن عليك أن يخطبك بعضهم» - ثمّ جلس وقرأ عليهم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أو سورة الرحمن، وسمعت لَفْطاً شديداً، وغشيته ﷺ، ثمّ انقطعوا كقطع السحاب، فقال لي: «هل رأيت شيئاً؟» قلت: نعم، رجالاً سوداً كأنهم رجال الرُّط. فقال ﷺ: «أُولَئِكَ جَنّ نَصِيبِينَ» قلت: سَمِعْتُ لَفْطاً شديداً حتى خفتُ عليك، إلى أن سمعتك تقرأ عليهم بعصاك، وتقول: اجلسوا؟ فقال ﷺ: «إِنْ

الجنَّ تَدَاعَتْ فِي قَتِيلٍ قُتِلَ بَيْنَهُمْ، فَتَحَاكَمُوا إِلَيَّ، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ»<sup>١</sup>.

أقول: اللَّغَطُ: اختلاط أصوات الكلام حتى لا يُفهم، والزُّطُّ: طائفة من السودان.

القمي رحمه الله، قال بعد ذكر الآيات: فهذا كله حكاية الجنِّ، وكان سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ خرج من مكة إلى سوق عكاظ، ومعه زيد بن حارثة، يدعو الناس إلى الاسلام، فلم يُجِبْه أحدٌ، ولم يجد أحداً يقبله، ثم رجع إلى مكة، فلما بلغ موضعاً يقال له: وادي مجنة تهجد بالقرآن في جوف الليل، فمر به نفر من الجنِّ، فلما سمِعوا قراءته قال بعضهم لبعض: ﴿أَنْصِتُوا﴾ يعني استكثوا ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أي فرغ رسول الله ﷺ من القراءة ﴿وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ \* قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ فجاءوا إلى رسول الله ﷺ فأسلموا وآمنوا، وعلمهم رسول الله ﷺ شرائع الإسلام، فأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾<sup>٢</sup> السورة كلها، فحكى الله عز وجل قولهم، وولى عليهم رسول الله ﷺ منهم، وكانوا يعودون إلى رسول الله في كل وقت، فأمر رسول الله أمير المؤمنين علياً عليه السلام أن يعلمهم ويفقههم، فمنهم مؤمنون وكافرون وناصبون ويهود ونصارى ومجوس، وهم ولد الجان، انتهى.

وسئل العالم علي بن مؤمنى الجنَّ أيدخلون الجنة؟ فقال: «لا، ولكن الله حظائر بين الجنة والنار، يكون فيها مؤمنو الجنِّ وفساق الشيعة»<sup>٣</sup> أقول: وبه قال بعض العامة<sup>٤</sup>.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِضْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ \* وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ \* فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ [٣٥-٣٥]

ثم إنه تعالى بعد إثبات التوحيد والنبوة، واستدل على المعاد بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ قيل: إن التقدير والمعنى: أو لم يتفكروا ولم يعلموا علماً جازماً يكون بمنزلة الرؤية<sup>٥</sup> ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ﴾ بقدرته

١. تفسير روح البيان ٨: ٤٨٨.

٢. الجن: ١/٧٢.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٤٩١.

٤. تفسير الصافي ٢: ٢٩٩، تفسير الصافي ٢: ١٨.

٥. تفسير أبي السعود ٨: ٨٩، تفسير روح البيان ٨: ٤٩٢.

الكاملة ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ السبع ﴿وَالْأَرْضِ﴾ وأبدعهما من غير مثالٍ سابقٍ ﴿وَلَمْ يَخْشَ﴾ ولم يتعب ﴿بِخَلْقِهِنَّ﴾ مع غاية عظمهنَّ ﴿يَقَادِرُ عَلَى أَنْ يَخْبِيَهُنَّ الْمَوْتَى﴾ ويخلفهنَّ على المثال الأول مع صغرهم ﴿بَلَى﴾ قادرٌ على ذلك ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء ﴿قَدِيرٌ﴾ لا تختص قدرته بشيءٍ دون شيءٍ.

ثم هدد سبحانه منكري المعاد بقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ ويوقعون عليها، ثم يقال لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿أَلَيْسَ هَذَا﴾ العذاب الذي ترونه ﴿بِالْحَقِّ﴾ والصدق وأنتم كنتم في الدنيا تكذبونه وتستهنونون به؟! ﴿قَالُوا بَلَى﴾ إنه الحق، ووعده مطابق للواقع ﴿وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أكذبا جوابهم بالقسم طمعاً في الخلاص بسبب الاعتراف به<sup>١</sup> ﴿قَالَ﴾ الله أو خازن النار ﴿فَذُوقُوا﴾ اليوم ﴿الْعَذَابَ﴾ الذي كنتم تستعجلونه مستلذين بذوقه وطعمه، ولا تنوهموا ابتلاءكم به بلا علة، ولا سبب، بل هو ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا به ﴿تَكْفُرُونَ﴾ والكفر به أعظم أسباب الاستحقاق، وتكذيب وعد الله أقوى مقتضات الابتلاء به.

فاذا علمت - يا محمد - وخامة عاقبة تكذيبهم واستهزائهم بك ﴿فَاضْبِرْ﴾ عليهما ﴿كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَرْشِ﴾ وذوو الثبات والحزم ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ الذين جاءوا من قبلك، كإبراهيم ونوح وموسى وعيسى، فإنك من جملتهم، بل أفضلهم وخاتمهم.

في ذكر أولي العزم عن الصادق عليه السلام في هذه الآية: «هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات من الرسل وعددهم الله عليهم».

قيل: كيف صاروا أولي العزم؟ قال: «لأن نوحاً بُعِثَ بكتاب وشريعة، وكل من جاء بعد نوح أخذ بكتاب نوح وشريعته ومنهجه، حتى جاء إبراهيم بالصحف وبعزيمة ترك كتاب نوح، لا كفراً به، فكل من جاء بعد إبراهيم أخذ بشريعة إبراهيم ومنهجه وبالصحف، حتى جاء موسى بالتوراة وشريعته ومنهجه وبالعزيمة ترك الصحف، فكل نبي جاء بعد موسى أخذ بالتوراة ومنهجه، حتى جاء المسيح بالإنجيل، وبعزيمة ترك شريعة موسى ومنهجه، فكل نبي جاء بعد المسيح أخذ بشريعته ومنهجه، حتى جاء محمد ﷺ فجاء بالقرآن وبشريعته ومنهجه، فحلاله حلال إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة، فهؤلاء أولو العزم من الرسل»<sup>٢</sup>.

عن الباقر عليه السلام: «إنما سُمُوا أولي العزم، لأنه عهد إليهم في محمد ﷺ ولأوصيائه من بعده

والمهدي ﷺ وسيرته، فأجمع عزمهم على أن ذلك كذلك<sup>١</sup>.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ﴾ يا محمد بالعذاب ﴿لَهُمْ﴾ فإنه على شرف النزول عليهم ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ ولم يَمُكِّنُوا في الدنيا، ولو عَمَرُوا ألف سنة أو أكثر فيها ﴿إِلَّا سَاعَةً﴾ وزماناً قليلاً ﴿مِنْ نَّهَارٍ﴾ لأن الزمان الطويل في الغاية بعد انقضائه يكون في النظر كالزمان القصير، بل يكون كأن لم يكن، مع أن طول عمر الدنيا بالنسبة إلى عمر الآخرة وطول بقائها كالساعة، والآن هذا الذي ذكرناه في السورة، أو في القرآن ﴿بَلَاغٌ﴾ وكفاية لهم في الوعظ والنصح وإتمام الحجة، فإن اتَّعَظُوا به فقد هَدُوا إلى كل خير، وحازوا السعادة الأبدية، ونالوا الحياة<sup>٢</sup> الدائمة، وإن أَعْرَضُوا عنه ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ بالعذاب ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ والجماعة الخارجون عن قابلية الاتعاظ وطاعة الله.

ذكر ما يوجب سهولة الولادة للمرأة التي عسرت ولادتها

عن ابن عباس، قال: قال النبي ﷺ: «إذا عسرت على المرأة ولادتها، أخذ إناءً نظيفاً وكُتِبَ عليه: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ إلى آخره، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾<sup>٣</sup> وآية: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾<sup>٤</sup> ثم يَغْسَلُ الإناء، وتُسْقَى منه المرأة، ويُنْصَحَ على بطنها وفَرْجُهَا<sup>٥</sup>.

وفي رواية أخرى، عن ابن عباس: إذا عسرت على المرأة الولادة، فليكتب هاتان الآيتان في صحيفة، ثم تُسْقَى، وهي هذه: بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله الحكيم الكريم، لا إله إلا الله العلي العظيم، سبحانه الله رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾<sup>٦</sup>.

عن الصادق ﷺ: «من قرأ كل ليلة أو كل جمعة سورة الأحقاف، لم يُصِبه الله بروع في الحياة الدنيا، وأمنه من فرع يوم القيامة»<sup>٧</sup>.

١. الكافي ١: ٢٢/٣٤٤، علل الشرائع: ١/١٢٢، تفسير الصافي ٥: ١٩، وزاد في المصادر: والإقرار به.

٢. في النسخة: بالحياة. ٣. النزاعات: ٤٦/٧٩. ٤. يوسف: ١١١/١٢.

٥. تفسير روح البيان ٨: ٤٩٥. ٦. تفسير روح البيان ٨: ٤٩٦.

٧. ثواب الأعمال: ١١٤، مجمع البيان ٩: ١٢٣، تفسير الصافي ٥: ١٩.





## في تفسير سورة محمد ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ [١]

ثم لما خُتِمت سورة الأحقاف ببيان إيمان الجنِّ بمحمد ﷺ وكتابه، وكُفِرَ أهل مكة بهما، وتهديد الكفار بالعذاب الدنيوي والأخروي، نظمت سورة محمد ﷺ المتضمنة لذم الكفار، ومنعهم الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ ودينه وكتابه، وبيان سوء عاقبتهم، ومدح المؤمنين وبيان حسن عاقبتهم، وتحريضهم على قتال الكفار، وأمرهم بجهادهم، فافتتحها بذكر الاسماء الحسنى بقوله ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. ثم شرع في ذم الكفار الصادقين عن سبيل الله بقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصروا على كفرهم، كأبي جهل وأضرابه من قريش واليهود وغيرهم ﴿وَصَدُّوا﴾ ومنعوا أنفسهم أو الناس ﴿عَنْ﴾ سلوك ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾، واتباع أدلة الحق ودين الاسلام ﴿أَضَلَّ﴾ الله وأبطل ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ الحسنة بالذات، كصلة الرحم، والاتفاق على الفقراء، وإعانة المظلومين وإغاثة الملهوفين ونظائرها، بحيث لا يبقى لهم عملٌ يؤجرون<sup>١</sup> عليه.

قيل: لما قال في آخر السورة المباركة السابقة ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ كان مجال أن يقال: كيف يُهْلَكُ الفاسقون مع أن لهم في طول أعمارهم صالحة كإطعام الطعام، وصلة الرحم ونحو ذلك، فيكون في إهلاكهم إهدار أعمالهم، مع أنه تعالى قال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ؟﴾ فقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي لم يبق لهم عملٌ، ولم يوجد، فلم يُمنع إهلاكهم؛<sup>٢</sup> لأن الإيمان شرط قبول العمل وترتب الأجر عليه، فما لا يُقبل كما لا يوجد، أو لأن الكفر يترجح في الميزان على جميع الحسنات، كما أن الإيمان يترجح على جميع السيئات، أو لأن خيرية العمل بحيث يترتب عليه الأجر، إنما يكون بقصد العامل لإجاده لله، والكافر لا يقصد بأعماله التقرب إلى الله، وتحصيل رضاه، فلا يصدر منه خيرٌ حتى يراه.

١. في النسخة: يؤجر. ٢. تفسير الرازي ٢٨: ٣٦.

قيل: إن المراد من سبيل الله هو الاتفاق على المؤمنين<sup>١</sup>. وقيل: هو الجهاد<sup>٢</sup>. والحق أنه الاسلام واتباع النبي الذي هو الصراط المستقيم.

عن الباقر عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام بعد وفاة رسول الله في المسجد والناس مجتمعون بصوت عالٍ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ فقال له ابن عباس: يا أبا الحسن، لم قلت؟ ما قلت؟ قال: قرأت شيئاً من القرآن. قال: لقد قلت لأمر؟ قال: نعم، إن الله يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾<sup>٣</sup> فتشهد على رسول الله أنه استخلف أبا بكر؟ قال: ما سمعت رسول الله أوصى إلا إلي. قال: فهلا يابعتني؟ قال: اجتمع الناس على أبي بكر، فكنت منهم. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «كما اجتمع أهل العجل على العجل، ها هنا. فتتم، ومثلكم ﴿كَمَثَلِ الْيَدِيِّ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصِرُونَ﴾ \* صُمُّ بَكْمٌ عَمِي فَهُمْ لَا يَبْصِرُونَ»<sup>٤</sup>.

أقول: تدل الرواية على عموم الكفر للأصلي والارتدادي الذي حصل بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ \* ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ [٢ و ٣]

ثم إنّه تعالى بعد بيان سوء حال الكفار، بين حسن حال المؤمنين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والأعمال المرضيات عند الله ﴿وَأَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ من القرآن وشرائع الاسلام وعن الصادق عليه السلام، قال: «بما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم في علي عليه السلام»<sup>٥</sup>.

﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ النازل ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ الحقيق بالايمان به، وتخصيصه بالذكر لتعظيم شأنه ﴿كَفَرُوا﴾ وسَتَرُوا عَنْهُمْ﴾ بسبب هذا الايمان ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ ومعاصيهم في الآخرة ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ وحالهم في الدين والدنيا بالتأييد والتوفيق.

٣. الحشر: ٥٩/٧.

١ و ٢. تفسير الرازي ٢٨: ٣٧.

٤. تفسير القمي ٢: ٣٠١، تفسير الصافي ٢٠: ٢٠، والآيتان من سورة البقرة: ١٧/٢ و ١٨.

٥. تفسير القمي ٢: ٣٠١، تفسير الصافي ٢١: ٢١.

القمي عليه السلام قال: نزلت في أبي ذرّ وسلمان وعمار والمقدار، لم يَنْقُضُوا العهد قال: ﴿وَأَمْتُوا بِمَا نَزَّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ أي ثبوا على الولاية التي أنزلها الله ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ يعني أمير المؤمنين عليه السلام ﴿بِأَلَهُمْ﴾ أي حالهم<sup>١</sup>.

ثم بيّن سبحانه علّة هذا التفاوت بين الفريقين بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من إبطال أعمال الكفار، وتكفير سيئات المؤمنين، وإصلاح حالهم ﴿بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الضَّالِّينَ﴾ وأطاعوا الشيطان وكبراءهم، وعملوا بدين آبائهم عن تقليد وعصية، ففعلوا ما فعلوا من الكفر والصدّ عن سبيل الله ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ﴾ النازل ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ والرسول المبعوث من قبل خالقهم، ففعلوا ما فعلوا من الايمان والأعمال الصالحات ﴿كَذَلِكَ﴾ الضرب البديع الفصيح الوافي ﴿يُضْرِبُ اللَّهُ﴾ ويبين ﴿لِلنَّاسِ﴾ عامّة ﴿أَمْثَالَهُمْ﴾.

فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَنتَحَبْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا لَوَاتِقَافَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِك [٤]

ثم لما بيّن سبحانه كون الكفار غير نافعين لأنفسهم ولغيرهم لضلال أعمالهم، وضارّين للناس بصدّهم عن سبيل الله، أمر المؤمنين بقتلهم وإعدامهم بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ﴾ وصادفتم أيها المسلمون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في أي مكانٍ وأي حالٍ ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ وقطع الأعناق عنهم بالسيف واجب عليكم، وهذا الحكم مستمرٌّ ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَنتَحَبْتُمُوهُمْ﴾ وكسرتهم جيشهم بإكثار القتل فيهم، أو أعجزتموهم عن الحركة والمقاومة في قتالكم ﴿فَشُدُّوا﴾ واستحكموا ﴿الْوَتَاقَ﴾ والقيد بأيديهم وأرجلهم، وأشروهم كيلاً يَفِرُّوا من أيديكم، فاذا قهرتموهم وأسرتموهم ﴿فَإِذَا﴾ تَمُنُّونَ عليهم ﴿مَتًى﴾ وتطلقونهم من غير أخذ شيءٍ منهم ﴿بَعْدُ﴾ الأسر وشدّ الوتاق ﴿وَمَتًى﴾ تَفْذُونَ وتأخذون منهم ﴿فَإِذَا﴾ ومالاً وتطلقونهم بعوضه.

وحاصل الآية - والله أعلم - أنه ما دام الحرب قائمة، فالحكم القتل حال المبارزة، فاذا انكسر جيش الكفر وغلب المسلمون عليهم بإكثار القتل فيهم، فالحكم الأسر، وبعد الأسر يتخيّر بين القتل وبين الإطلاق بلا أخذ شيءٍ، وبين الإطلاق مع أخذ شيءٍ، وهذا الحكم باقي ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ آلتها وأثقالها التي لا تقوم إلّا بها، كالسلاح والكراع.

وقيل: يعني حتى يضع أهل الحرب أثامهم وشركهم ومعاصيهم ظاهراً بحيث لا يبقى إلّا مسلم أو

مسالم<sup>١</sup>.

وفي التعبير عن القتل بضرب الرقبة إشعاراً بأنه ينبغي أن يكون القتل بذلك، وفيه أيضاً تصويرٌ له بأشنع صورته.

نسي ذكر بعض أحكام الجهاد عن الصادق عليه السلام، قال: «كان أبي يقول: إن للحرب حكيمين: إذا كانت الحرب قائمة لم تضع أوزارها ولم يُتَّخَن أهلها، فكل أسير أخذ في تلك الحال فإن الامام فيه بالخيار،

إن شاء ضرب عنقه، وإن شاء قطع يده ورجله من خلاف بغير حسم، وتركه يتشخط في دمه حتى يموت، وهو قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ<sup>٢</sup>﴾ الآية. والحكم الآخر: إذا وضعت الحرب أوزارها، وأُتِّخَن أهلها، فكل أسير أخذ على تلك الحال، فكان في أيديهم، فالامام فيه بالخيار، إن شاء من عليهم فأرسلهم، وإن شاء فاداهم أنفسهم، وإن شاء استعبدهم فصاروا عبيداً<sup>٣</sup>.

أقول: قال الحسن البصري من العامة: إن الامام بعد الأسر مخير بين المن والفداء والاسترقاق، وليس له القتل<sup>٤</sup>.

وقال الفاضل المقداد في آيات أحكامه: المنقول من أهل البيت عليه السلام أن الأسير إن أخذ والحرب قائمة، تعين قتله، إما بضرب عنقه، أو قطع يديه ورجليه، ويترك حتى ينزف ويموت، وإن أخذ بعد تقضي الحرب تخير الامام بين المن والفداء والاسترقاق، ولا يجوز القتل، ولو حصل منه الاسلام مُنِعَ القتل خاصة<sup>٥</sup>.

أقول: على ما ذكر لابد من القول بالتقديم والتأخير في الآية، ولا بأس به، فتكون الآية: فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها. ثم قال: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَخَسَّموهُمْ فَشَدُّوا أَلْوِثَاقَ فِئْمًا مَّنًّا بَعْدَ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ﴾ ثم في نسبة قطع اليدين والرجلين إلى أهل البيت عليه السلام، وأما حكم الاسترقاق فيعلم من الرواية.

ثم قال الفاضل المذكور اختلف القائلون بأن الآية لا تقديم فيها ولا تأخير في قوله: ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ قيل: هو غاية لضرب الأعناق، وقيل: غاية لشد الوثاق، وقيل: للمن والفداء، وقيل: للمجموع بمعنى أن هذه الأحكام جارية فيهم حتى لا تكون حرب بين المشركين بزوال شوكتهم.

٢. المائدة: ٣٣/٥.

١. تفسير البيضاوي ٢: ٤٠١.

٤. كنز العرفان ١: ٣٦٥/٢.

٣. الكافي ٥: ١٣٢، التهذيب ٦: ١٤٣/٢٤٥، تفسير الصافي ٥: ٢١.

٥. كنز العرفان ١: ٣٦٥/٣.

وقيل: حتى لا يبقى أحد من المشركين. وقيل: حتى لا يبقى غير دين الاسلام. وقيل: حتى ينزل عيسى<sup>١</sup>.

ثم أكد سبحانه الأحكام بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ قيل: إن التقدير الأمر ذلك، أو افعلوا ذلك<sup>٢</sup>.

وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ \* سَيَهْدِيهِمْ وَيُضْلِحُ بَالَهُمْ \* وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ [٤-٦]

ثم بين سبحانه قدرته على إهلاك الكفار وعدم حاجته إلى قتال المسلمين معهم بقوله: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ من الكفار، وانتقم ﴿مِنْهُمْ﴾ بإهلاكهم بالخسف أو الرحقة أو الصاعقة أو غيرها من الأسباب، أو بإقباض أرواحهم بلا واسطة سبب من حاجة إلى القتال، أو بقتل الملائكة إياهم من غير حاجة إليكم ﴿وَلَكِنْ﴾ لم يشأ ذلك ﴿لِيَبْلُوَا﴾ ويمتحن ﴿بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أمركم بقتالهم والجهاد معهم، فتستوجبوا الثواب العظيم، ويرتدع الكفار عن كفرهم بظهور شوكتكم وغلبتكم عليهم ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا﴾ منكم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وطلباً لمرضاته في جهاد أعدائه ﴿فَلَنْ يُضِلَّ﴾ ولن يضيع أبداً ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ بل يثبتهم أعظم الثواب، ويكون حال الكفار الذين أضل الله أعمالهم. ثم فصل سبحانه ثواب المجاهدين بقوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ ويرشدكم البتة في الدنيا إلى درجات قرب، وطرق تحصيل رضاه ﴿وَيُضْلِحُ بَالَهُمْ﴾ شأنهم بالتوفيق لتهديب أخلاقهم وتكميل نفوسهم ومعارفهم وبقينهم.

وقيل: إنه وعد لخصوص المقتولين<sup>٣</sup>، ويكون المراد سيهديهم في القيامة إلى الجنة من غير توقف، والمراد باصلاح بالهم تبديل سيئاتهم بالحسنات.

﴿وَيُدْخِلُهُمُ﴾ في الآخرة ﴿الْجَنَّةَ﴾ التي ﴿عَرَفَهَا﴾ ووصفها ﴿لَهُمْ﴾ في الدنيا، أو بينها لهم بحيث يعلم كل أحد حين دخوله الجنة منزله فيها، ويهتدي إليه كأنه كان ساكنه منذ خلق، كما قيل<sup>٤</sup>. وفي الحديث: «لأحدكم بمنزله في الجنة أعرف منه بمنزله في الدنيا»<sup>٥</sup>.

وقيل: (عرّفها) جعل لها عرفاً، أي رائحة طيبة، والمعنى زينها وطيبها لهم<sup>٦</sup>. وقيل: يعني حدّدها وأفرزها، يعني أن جنة كل أحد محدودة مفروزة<sup>٧</sup>.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٤٩٩.

٤ - ٥. تفسير روح البيان ٨: ٥٠٠.

١. كنز العرفان ١: ٣٦٦/٤.

٣. تفسير الرازي ٢٨: ٤٨.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ \* وَالَّذِينَ كَفَرُوا  
فَتَعَسَّأَ لَهُمْ وَأُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ \* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا  
أَعْمَالَهُمْ [٧-٩]

ثم شجّع سبحانه المؤمنين في جهاد الكفار بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ وَتُعِينُوهُ فِي إِنجَاحِ مَقْصُودِهِ، وَهُوَ إِعْلَاءُ كَلِمَتِهِ، وَرَوَاجُ تَوْحِيدِهِ، وَقَمْعُ الْكُفْرِ﴾ ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ في حرب أعدائكم بتقوية قلوبكم، وإرعاب أعدائكم، وحفظكم من بأسهم، وتأيدكم بالملائكة، وتهينة الأسباب الغيبية ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في حريهم، ويُرِزَ أقدام أعدائكم بحيث لا يقدرّون على المقاومة في زوالكم. قيل: يُثَبِّتْ أقدامكم في معارضة الكفار بالحجة والقيام بحقوق الإسلام.<sup>١</sup>  
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَّأَ لَهُمْ﴾ وهلاكاً دائماً، أو ذُلّاً وهواناً، أو عثوراً وخيبة ﴿لَهُمْ وَأُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ وأبطل مساعيهم في النيل بالمقاصد الدنيوية والأخروية على خلاف المؤمنين، حيث إنه تعالى لن يُضِلَّ أعمالهم ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من التّعس والإضلال ﴿بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا﴾ وأبغضوا ﴿مَا أُنزِلَ اللَّهُ﴾ من الكتاب الداعي إلى التوحيد وطاعة الله، ولمخافة هوى أنفسهم ﴿فَاحْبَطُوا﴾ الله من درجة القبول ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ كأننا ما كان.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ  
عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا \* ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا  
مَوْلَى لَهُمْ \* إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ  
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى  
لَّهُمْ [١٠-١٢]

ثم هدّد سبحانه الكفار المعارضين للرسول ﷺ والكارهين لدينه بقوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ ولم يسافروا ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ في أسفارهم ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ الأمم ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كعاد وثمود وقوم سبأ وقوم لوط.  
ثم كأنه قيل: كيف كان عاقبتهم؟ فقال سبحانه: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ﴾ وأنزل الهلاك ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بكفرهم، ومعارضة الرسل ﴿وَالِلْكَافِرِينَ﴾ الذين يُنكرون التوحيد والرسالة في عصرك نظائر تلك العواقب

و﴿أَمْثَلُهَا﴾ لكونهم أمثال أولئك ﴿ذَلِكَ﴾ الهلاك الذي هو نعمة على الكافرين ونعمة على المؤمنين، أو ذلك المذكور من نصر المؤمنين وتدمير الكافرين ﴿يَأَنَّ اللَّهَ﴾ بلطفه ﴿مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وحافظ صلاحهم، ومعينهم في كل خير، وناصرهم على أعدائهم ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ﴾ الذين هم مظهر قهره تعالى ﴿لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ ولا راعي لصلاحهم، ولا معين يدفع العذاب والشُرور عنهم. ثم بيّن سبحانه أن من شؤون ولايته للمؤمنين حُسن حالهم في الآخرة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ تعالى بفضلهِ ﴿يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّاتٍ﴾ كثيرة الأشجار ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يتنعمون فيها بنعم لا قدر لنعم الدنيا عندها، ولذا لم يذكر سبحانه تمتعهم بنعم الدنيا ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حيث إنهم لا مولى لهم ﴿يَتَمَتَّعُونَ﴾ ويتنعمون بنعم الدنيا أياماً قللاً كالبهائم، لا هم لهم إلا ذلك ﴿وَيَأْكُلُونَ﴾ حريصين على الأكل، مهتمين به، غافلين عن النعم، وعن عواقبهم ﴿كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ في مسارحها ومعالفها حريصةً عليه غافلة عما يُراد بها من النحر والذبح، غير عارفة بالمُنعم عليها ﴿وَالنَّارُ﴾ في الآخرة ﴿مَثْوًى﴾ ومنزل إقامة ﴿لَهُمْ﴾ باستحقاقهم وسوء أعمالهم.

وَكَايْنٍ مِنْ قُوَّةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قُوَّتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ \* أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوهُ أَهْوَاءَهُمْ [١٣ و ١٤]

ثم إنه تعالى بعد تهديد الكفار المعارضين للرسول ﷺ بما جرى على الأمم الماضية، سلى رسوله بقوله: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قُوَّةٍ﴾ وكثيراً من بلدة كانت ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً﴾ وأكثر أهلاً وشوكة ﴿مِنْ قُوَّتِكَ﴾ وبلدتك ﴿الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ أهلها منها ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بعتوهم وطغيانهم أنواع العذاب ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ يدفع عنهم العذاب ويمنعهم من الهلاك، وأهل قريتك أولى بذلك لصغفهم وقوة جنائتهم. عن ابن عباس: لما خرج النبي ﷺ من مكة إلى الغار، التفت إلى مكة وقال: «أنت أحب البلاد إلى الله وإلي، ولولا أن المشركين أخرجوني ما خرجت عنك» فأنزل الله هذه الآية<sup>١</sup>.

ثم بيّن سبحانه استحقاق النبي ﷺ والمؤمنين للنصرة والإكرام، واستحقاق الكفار للخذلان والهوان بإنكار التساوي بينهم بقوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ﴾ مستقراً ﴿عَلَى بَيْتَةٍ﴾ وحجة ظاهرة وبرهان باهر كالقرآن والمعجزات التي تكون له ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ ومالك أمره ﴿كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ﴾ من قبل الشيطان والفسس

الأمانة ﴿سَوْءَ عَمَلِهِ﴾ وبيع فعله كالشرك وغيره من المعاصي ﴿وَأَتَّبِعُوا﴾ بسبب ذلك التزيين ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ الزائغة، وانهمكوا في فنون الضلالات من غير شبهة ثوهم صحة ما عليه، لا والله لا تساوي بينهما عند الله، وإفراد ضمير (له) و(عمله) باعتبار لفظ (من) وجمع ضمير (اتبعوا) و(اهوانهم) باعتبار معناه.

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ [١٥]

ثم بعد بيان الفرق بين الفريقين عنده، بين عاقبتهم في الآخرة بقوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾ والمؤمنون العاملون بوظائف الايمان من قبل الله على لسان رسوله ﷺ ووصفها العجيب الشأن أن ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ كثيرة ﴿مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ وغير متغير الطعم واللون والرائحة بطول المكث في منابعه وأوانيه، مع أن مياه الدنيا تتغير ﴿وَأَنْهَارٌ﴾ كثيرة ﴿مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ﴾ بالحموضة وغيرها من الطعوم المكروهة ﴿وَأَنْهَارٌ﴾ كثيرة ﴿مِنْ خَمْرٍ﴾ ومسكر عني أو غيره ﴿لَذَّةٍ﴾ ولذيذة ﴿لِلشَّارِبِينَ﴾ كلهم، ليس فيها كراهة طعم وريح وخمار<sup>١</sup>، وغائلة شكر وغمار<sup>٢</sup>، على خلاف خمر الدنيا.

وقيل: إن (لذة) مصدر وصف به الخمر للمبالغة<sup>٣</sup>.

﴿وَأَنْهَارٌ﴾ كثيرة ﴿مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ من الشَّمع وفضلات النحل وغيرها غير مختلطة بشيء منها. قيل: إن الفرق بين الخالص والمُصَفًّى، أن الأول يقال لما زال عنه شؤبه، والثاني يقال لما لا شوب فيه أصلاً<sup>٤</sup>.

قيل: إنما وصف الجنة بما يستلذ من أشربة الديان لغاية شوق العرب إلى هذه المانعات المجردة عما يتقصها وينقصها، مع وصفها بالغزارة والاستمرار، وإنما قدّم أنهار الماء لغرابتها في الحجاز، وشدة حاجة العرب إليها، وإنما نثى باللبن لكون حاجتهم إليه بعد الماء أكثر، ثم ثلثه بالخمير لكونها

١. الخُمار: صداع الخمر وأذاها.

٢. يقال: اغتمر السكر فلاناً: غطى على عقله وستره.

٣. تفسير روح البيان ٨: ٥٠٧.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٥٠٦.



عندهم أعز، ثم ختم بالعسل لكونه أشرف<sup>١</sup>.

عن كعب الأحبار، قال: قلت لرسول الله ﷺ: كيف أنهار الجنة؟ فقال ﷺ: «على حافتها كراسي وقياب مضروبة، وماؤها أصفى من الدمع، وأحلى من الشهد، والبن من الزبد، الذ من كل شيء، وعرض كل نهر مسيرة خمسمائة عام، تدور تحت القصور والجبال، لا تترطب ثيابهم، ولا توجع بطونهم، وأكبر أنهارها نهر الكوثر، طينه المسك الأذفر، وحافته الدر والياقوت»<sup>٢</sup>.

عن ابن عباس: ليس هنا مما في الجنة سوى الأسامي<sup>٣</sup>.

«وَلَهُمْ فِيهَا» مضافاً إلى الأنهار الأربعة «مِنْ كُلِّ» صنف من «الْثَمَرَاتِ» والفواكه التي تشتهيها الأنفس. قيل: لما كان الأكل في الجنة للذة لا للحاجة، لم يذكر من المأكولات إلا الثمرات التي تؤكل للذة<sup>٤</sup>.

ثم بين سبحانه بعد إكمال النعمة عليهم، أميتهم من العقوبة والمواخذه بقوله: «وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ» والتقدير: ولهم المغفرة لذنوبهم قبل دخول الجنة، أو في الجنة، لعدم التكليف فيها، فيأكلون فيها ويشربون من غير حساب ومواخذه بخلاف الدنيا، فإن في الأكل والشرب فيها حساب أو عقاب أو عتاب.

ثم كأنه قال سبحانه: انظر أيها العاقل، آمن هو خالد في هذه الجنة ومتنعم فيها بفنون النعم، ويسقون من تلك الأنهار الأربعة «كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ» أبداً، ومُعَذَّبٌ فيها دائماً. وقيل: إن التقدير هذه الجنة التي مثلها وصفتها ما ذكر، كمقام من هو خالد في النار<sup>٥</sup>.

«وَسُقُوا» بدل الأشربة التي تكون لأهل الجنة «مَاءً حَمِيماً» وحاراً غاية الحرارة «فَقَطَّعَ» ذلك الماء من غاية حرارته وسموميته «أَمْغَاءَهُمْ» وأحشاءهم. قيل: إذا دنا منهم شوى وجوههم، وانعزلت فروة وجوههم<sup>٦</sup>، فإذا شربوه قطع أمعاءهم فخرجت من أدهارهم<sup>٧</sup>. ثم اعلم أن قطع الأمعاء ليس من أثر الحرارة، ولعله من أثر مسمومية الماء، أو أثر خصوص ذلك الماء.

وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا أَعْلَمُ  
مَاذَا قَالَ أَنْفَا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ \* وَالَّذِينَ  
اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ [١٦ و ١٧]

٤. تفسير الرازي ٢٨: ٥٥.

٦. الصحيح: فروة رؤوسهم. راجع روح البيان ٨: ٥٠٨.

١- ٣. تفسير روح البيان ٨: ٥٠٧.

٥. تفسير الرازي ٢٨: ٥٦.

٧. تفسير روح البيان ٨: ٥٠٨.

ثم لما ذكر سبحانه حال المؤمن والكافر أوردتها بذكر حال المنافق بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ﴾ يحضر مجلسك و﴿يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ يا محمد، ويصغي [إلى] كلامك، ولا يتأمل فيه تهاوناً به ﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا﴾ استهزاء وشخيرة ﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من الصحابة الخُلصين كسلمان وأبي ذر وابن مسعود: ﴿مَاذَا قَالَ﴾ محمد ﴿أَنفَأُ﴾ وقبلًا أو الساعة.

عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «إِنَّا كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ، فَيُخْبِرُنَا بِالْوَحْيِ فَأَعْيَاهُ [أَنَا] وَمَنْ يَعِيهِ، فَبِإِذَا خَرَجْنَا قَالُوا: مَاذَا قَالَ أَنفَأُ»<sup>١</sup>.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ المستهزون بالنبي صلى الله عليه وآله وبكلامه، هم ﴿الَّذِينَ طَعِبَ اللَّهُ﴾ وختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ لا يتوجهون إلى الحق، ولا يميلون إلى خير أصلاً ﴿وَأَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ الفاسدة ونفوسهم الأمارة الخبيثة، ولذا فعلوا ما فعلوا من الإهانة والاستهزاء.

عن الباقر عليه السلام: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله كَانَ يَدْعُو أَصْحَابَهُ، فَمَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا سَمِعَ وَعَرَفَ مَا يَدْعُوهُ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ شَرًّا طَعِبَ عَلَىٰ قَلْبِهِ، وَلَا يَسْمَعُ وَلَا يَعْقِلُ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَعِبَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾»<sup>٢</sup>.

﴿وَالَّذِينَ﴾ آمنوا بالرسول عن صميم القلب و﴿أَهْتَدُوا﴾ ببركته إلى دين الحق ﴿زَادَهُمْ﴾ الله باستماع كلمات الرسول ومواعظه، أو باستهزاء المنافقين ﴿هُدًى﴾ ورشاداً حيث إنهم فهموا المطالب العالية التي ألغاهم إليهم الرسول، أو استقبحوا استهزاء المنافقين، فصار سبباً لكمال توجههم إلى كلام الرسول ومواعظه ﴿وَأَتَاهُمْ﴾ الله ﴿تَقْوَاهُمْ﴾ وتوفيق العمل بما علموا من وظائف دينهم، أو المراد آتاهم ثواب تقواهم، أو جنبهم من القول في القرآن بغير حجة وبرهان والتفسير بالرأي، أو ألقى الخشية من القيامة في قلوبهم.

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا

جَاءَهُمْ ذِكْرُهَا [١٨]

ثم هدّد سبحانه الكفار والمنافقين بقوله: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ وما ينتظرون ﴿إِلَّا السَّاعَةَ﴾ والقيامة ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ ومُفَاجَأَةً، أو المعنى فإنهم لا يتعظون بأخبار الأمم السابقة المهلكة، ولا بالإخبار بآتيان الساعة والقيامة، بل ينتظرون في تذكّرهم واتعاضهم إتيانها، وليس ببعيد ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ وظهرت أماراتها ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ﴾ وكيف تنفعهم ﴿إِذَا جَاءَهُمْ﴾ الساعة ﴿ذِكْرُهَا﴾ واتعاضهم لاستحالة

نفعه لانقضاء وقته وعدم قبول التوبة فيه.

في ذكر علامتي الساعة، قال: سئل رسول الله ﷺ: متى الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنه بأعلم من السائل، ولكن لها أشراط: تقارب الأسواق.

أقول: يعني كسادها ومطر لا نبات له، وتفشو الفتنة، وتظهر أولاد البغية، ويُعظم رب المال، وتعلو أصوات الفسقة في المساجد، ويظهر أهل المنكر على أهل الحق»<sup>١</sup>.

وفي الحديث: «إذا ضيعت الأمانة، فانتظر الساعة» فقيل: كيف إضاعتها؟ فقال: «إذا وسد الأمر<sup>٢</sup> إلى غير أهله، فانتظر الساعة»<sup>٣</sup>.

وعن الصادق عليه السلام، قال: «قال النبي ﷺ: من أشراط الساعة أن يفشو الفالاح وموت الفجأة»<sup>٤</sup>. وعن النبي ﷺ: «من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويظهر الجهل، ويُسرب الخمر، ويفشو الزنا، ويقل الرجال، وتكثر النساء»<sup>٥</sup> إلى غير ذلك من الروايات التي لا يهمننا استقصاء ذكرها، لعدم ارتباطها بمقصودنا من التفسير.

## فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ [١٩]

ثم لما بين سبحانه قرب مجيء الساعة، أمر نبيه ﷺ بالالتزام بالتوحيد والاستغفار من الذنوب، ترغيباً للمؤمنين بقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ﴾ يا محمد ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ والتزم بالتوحيد، فإنه المنجي من أهوال الساعة ﴿وَاسْتَغْفِرْ﴾ ربك ﴿لِذَنبِكَ﴾ وترك الأولى والأفضل الصادر منك. وقيل: إن المراد لذنب أهل بيتك ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ الذين ليسوا من أهللك<sup>٦</sup>.

وقيل: لما حكي الله سبحانه إصرار قوم النبي ﷺ على الشرك، وعدم انعطافهم إلا بقيام الساعة، وكان ذلك مما يقتضي حزن حبيبه ﷺ سلاه سبحانه بأن كفر قومك لا يضرك، فائتبت أنت على التوحيد وتكميل نفسك ونفوس المؤمنين بك بالاستغفار، فإنه يحصل لك ما ترجوه من علو الدرجة ورفعة المقام والقرب الكامل إلى الله<sup>٧</sup>.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ والأمكنة التي تذهبون إليها وترجعون منها لمعاشكم ومعادكم، وأعمالكم

١. تفسير روح البيان ٨: ٥١٠.

٢. الكافي ٣: ٣٩/٢٦١، تفسير الصافي ٥: ٢٤.

٣. تفسير الرازي ٢٨: ٦١.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٥١٠.

٥. روضة الواعظين: ٤٨٥، تفسير الصافي ٥: ٢٤.

٦. تفسير الرازي ٢٨: ٦١.

التي تشغلون بها في حوائجكم الدنيوية والأخروية ﴿وَمُنُواكُمْ﴾ ومنزل إقامتكم في الآخرة، فلا يأمركم إلا بما فيه خيركم وصلاحكم في الدنيا والآخرة، فبادروا إلى امتثال ما أمركم به، فأنه المهم لكم في المقامين.

عن الصادق عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: «الاستغفار، وقول لا إله إلا الله خير العبادة»، قال العزيز الجبار: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾<sup>١</sup>.

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأُمُورُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ \* فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ [٢٠-٢٢]

ثم إنه تعالى بعد بيان التباين بين المؤمنين والمنافقين في فهم كلمات الرسول والاعتاظ بها والاستفادة منها، بين الفرق بينهم في الأخذ بما يوحى إليه من التكليف العملية بقوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عن صميم القلب اشتياقاً إلى الوحي، وحرصاً على الجهاد الذي فيه شرف الدنيا والآخرة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ﴾ وهلاً جاءت من جانب الله ﴿سُورَةٌ﴾ فيها الأمر بجهاد الكفار حتى نمثله ونفدي نفوسنا في سبيل الله؟ ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ﴾ من جانب الله ﴿سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾ واضحة الدلالة على ما فيها ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ وأمر الله به، رأيت المؤمنين يفرحون ويستبشرون بها شوقاً إلى الشهادة ولقاء الله و﴿رَأَيْتَ﴾ المنافقين ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ الشك والنفاق وحُب الحياة الدنيا وخوارفها ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ من شدة الجبن ﴿نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ﴾ ومن سلب شعوره وقواه ﴿مِنْ﴾ جهة عروض ﴿الْمَوْتِ﴾ عليه، أو من خوف الموت ﴿فَأُولَئِكَ﴾ وأحق ﴿لَهُمْ﴾ الموت الذي لا يفرار منه؛ لأن الموت خير من الحياة التي ليست في طاعة الله ورسوله.

وقيل: إن (أولى لهم) دعاء عليهم بأن يليهم المكروه<sup>٢</sup>. وقيل: إنه بمعنى فويل لهم<sup>٣</sup>. وقيل: إن المعنى الطاعة أولى لهم<sup>٤</sup>، كما قال سبحانه: ﴿طَاعَةٌ﴾ خالصة ﴿وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ مستحسن عند العقلاء، خير لهم وأحسن.

١. الكافي ٢: ٣٦٦، تفسير الصافي ٥: ٢٧.

٢. تفسير روح البيان ٨: ٥١٦.

٣. تفسير الرازي ٢٨: ٦٢.

٤. تفسير الرازي ٢٨: ٦٢، تفسير روح البيان ٨: ٥١٦.

وقيل: إن المعنى أمرهم وشأنهم طاعة الله ولسوله وقول معروف أن يجيبوا لما أمروا به من الجهاد<sup>١</sup>. أو المراد أنهم يقولون أمرنا طاعة وقول معروف<sup>٢</sup>

﴿فَإِذَا عَزَمَ﴾ الرسول ﷺ أو الله ﴿الْأَمْرُ﴾ وجدَّ في الجهاد، خالفوا وقعدوا مع المتخلفين ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ في إخبارهم بإيمانهم وطاعتهم وأمره ﴿لَكَانَ﴾ الصدق والله ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ وأفضل وأنفع من الكذب والنفاق والفتور عن الجهاد.

ثم قيل: إن المنافقين كانوا يعتذرون بالقتال والجهاد، ويقولون: كيف والقتل إفساد، والعرب قبانلنا وأرحمانا<sup>٣</sup>، فردَّ الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ وهل يتوقع منكم أيها المنافقون ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أمور الناس، وتأترمت عليهم، وصار بيدكم زمام أمورهم ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ حرصاً على الملك، وتهالكاً على الدنيا.

وقيل: إن المراد يتوقع منكم إن توليتم وأعرضتم عن الجهاد، لكراهة الفساد وقطع الأرحام، أن تفسدوا في الأرض بالسرقة والغارة، وتقاتلوا على أدنى شيء، وتقطعوا أرحامكم، كما كان عادة العرب في الجاهلية<sup>٤</sup>.

عن الصادق عليه السلام: «أنها نزلت في بني أمية»<sup>٥</sup>.

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ \* أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ  
أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا [٢٣ و ٢٤]

ثم أعرض سبحانه عن مخاطبتهم إظهاراً لعدم قابليتهم للمكالمة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ المعرضون عن طاعة الله ورسوله ﷺ هم ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ وأطردهم عن ساحة رحمته، وعن كل خير وسعادة ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ وسلب عنهم قوة استماع الحق ومواعظ الله ورسوله ﴿وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾ عما يشاهدونه من الآيات الآفاقية والأنفسية على التوحيد والمعجزات الدالة على صدق الرسول، ولما كان العمى أقوى في السببية للضلال أطنب فيه تسجيلاً له.

وقيل: إن البصر آلة الرؤية، فاذا أصابته آفة حصل العمى بخلاف الأذن، فإنها ليست آلة للسمع، لوضوح أن قوة السمع لا يذهب بقطع الأذن، ولذا لم يقل: أصم آذانهم، وقال: (أَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ)<sup>٦</sup>.

٢. تفسير الرازي ٢٨: ٦٣، تفسير روح البيان ٨: ٥١٦.

١. تفسير روح البيان ٨: ٥١٦.

٤. الكشف ٤: ٣٢٥، تفسير الرازي ٢٨: ٦٤.

٣. تفسير الرازي ٢٨: ٦٣.

٥. تفسير القمي ٢: ٣٠٨، والكافي ٨: ٧٦/١٠٣، وتفسير الصافي ٥: ٢٨، عن الإمام علي عليه السلام.

٦. تفسير الرازي ٢٨: ٦٥.

٦٠٠ ..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٥

ثُمَّ لَمَّا كَانَ التَّدْبِيرُ فِي الْقُرْآنِ شِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ مِنْ مَرَضِ الْكُفْرِ وَالشَّكِّ وَالنَّفَاقِ، وَبَيَّحَ سَبْحَانَهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَفَّارَ عَلَى تَرْكِ تَدَاوِي أَمْرَاهُمْ بِالتَّدْبِيرِ فِيهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ﴾ قِيلَ: إِنَّ التَّقْدِيرَ أَلَا يَلْحَظُونَ الْقُرْآنَ فَلَا يَتَصَفَّحُونَ مَا فِيهِ مِنَ الْمَوَاعِظِ وَالْبَعِيرِ وَالزَّوْجَرِ حَتَّى تَشْفَى أَمْرَاهُمْ، وَلَا يَقْعُوا فِي الْمَعَاصِي الْمَوْبِقَةِ<sup>١</sup>، لَكُونَهُمْ مَلْعُونِينَ مَبْعَدِينَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ.

وعن الصادق عليه السلام: «فَيَقْضُوا مَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَقِّ»<sup>٢</sup>.

﴿أُمٌّ﴾ يَتَذَكَّرُونَ وَيَتَفَكَّرُونَ فِيهِ، وَلَكِنْ ﴿عَلَى قُلُوبٍ﴾ قَاسِيَةٌ ﴿أَقْفَالُهَا﴾ الْخَاصَّةُ بِهَا، وَهِيَ أَقْفَالُ الْجُجَاعِ وَالْعِيْنَادِ وَالْعَصْبِيَّةِ، فَلَا تَدْخُلُ فِيهَا مَعَانِيَةٌ.

قِيلَ: إِنَّ تَنْكِيرَ الْقُلُوبِ لِإِفَادَةِ الْبَعْضِ<sup>٣</sup>، أَوْ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ الْقُلُوبَ لَعَدَمِ اسْتِفَادَتِهِمْ بِهَا كَأَنَّهَا لَيْسَتْ لَهُمْ<sup>٤</sup> وَلَا صَاحِبَ لَهَا، أَوْ لِتَهْوِيلِ حَالِهَا، وَتَفْطِيعِ شَأْنِهَا فِي الْفَسَادِ، وَالْجَهَالَةِ بِأَهْمِيَّتِهَا، كَأَنَّهُ قِيلَ: عَلَى قُلُوبٍ مُنْكَرَةٌ لَا يَعْرِفُ حَالَهَا وَلَا يَقَادِرُ قَدْرُهَا فِي الْقِسْوَةِ<sup>٥</sup>.

عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: «أَنَّ لَكَ قَلْبًا وَمَسَامِعَ، وَإِنْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَ عَبْدًا فَتَحَ مَسَامِعَ قَلْبِهِ، وَإِنْ أَرَادَ غَيْرَ ذَلِكَ خَتَمَ مَسَامِعَ قَلْبِهِ، فَلَا يَصْلُحُ أَبَدًا، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أُمٌّ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾»<sup>٦</sup>.

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ \* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ [٢٥ و ٢٦]

ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ غَايَةَ ضَلَالِ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُصْرِينَ عَلَى الْكُفْرِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا﴾ وَرَجَعُوا ﴿عَلَى أَدْبَارِهِمْ﴾ وَكَفَرُوا السَّابِقَ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ، وَأَصْرُوا عَلَيْهِ ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ وَوَضَحَ ﴿لَهُمُ الْهُدَى﴾ وَطَرِيقَ الْحَقِّ، وَهُوَ نُبُوَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَصَحَّةُ دِينِ الْإِسْلَامِ بِالْإِدْلَالِ وَالْمُعْجَزَاتِ، وَرُؤْيَا نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي التَّوْرَةِ وَسَائِرِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ.

﴿الشَّيْطَانُ﴾ الْمُغْوِي ﴿سَوَّلَ﴾ وَسَهَّلَ ﴿لَهُمْ﴾ مُخَالَفَةَ الْحَقِّ، وَزَيَّنَ لَهُمْ ارْتِكَابَ الْعِظَامِ ﴿وَأَمْلَى﴾ وَأَمَدَ ﴿لَهُمْ﴾ فِي الْأَمَانِيِّ بِأَنْ يَقُولُوا نَعِيشْ أَيَّامًا، وَنُؤْمِنْ بِهِ بَعْدَ نِيلِنَا بِمَقَاصِدِنَا الدُّنْيَوِيَّةِ. وَقِيلَ: يَعْنِي أَمْلَى اللَّهُ لَهُمْ وَأَمْهَلَهُمْ، فَلَمْ يُعَاجِلْهُمْ بِالْعُقُوبَةِ<sup>٧</sup> ﴿ذَلِكَ﴾ الْإِرْتِدَادُ وَالتَّسْوِيلُ، أَوْ الْإِمْلَاءُ

١. تفسير روح البيان ٨: ٥١٨.

٢. مجمع البيان ٩: ١٥٨، وتفسير الصافي ٥: ٢٨، عن الصادق والكاظم عليه السلام. ٣. تفسير الرازي ٢٨: ٦٥.

٤. تفسير روح البيان ٨: ٥١٨.

٥. تفسير الرازي ٢٨: ٦٦.

٦. المحاسن: ٣٥/٢٠٠، تفسير الصافي ٥: ٢٨. ٧. تفسير أبي السعود ٨: ٩٩، تفسير روح البيان ٨: ٥١٩.

لهم، يكون ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ سراً وخفية ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا﴾ وأبغضوا ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ من القرآن ورسالة محمد ﷺ - قيل: هم اليهود الذين كَرِهُوا نزول القرآن على محمد<sup>١</sup> -: ﴿سَنُطِيعُكُمْ﴾ وتوافقكم ﴿فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ الذي تتوقعون منا.

قيل: إن المنافقين قالوا لليهود: إننا نوافقكم في إنكار محمد وتكذيبه، ولا نوافقكم في إظهار الكفر وإعلان أمرنا بالفعل قبل قتالهم وإخراجهم من ديارنا، وإنما لم يوافقوهم في ذلك لما كان لهم في إظهار الإيمان من المنافع الدنيوية<sup>٢</sup>.

وقيل: إن القائلين هم اليهود، فإنهم قالوا للمشركين الذين كَرِهُوا ما أنزل الله من القرآن الناطق بالتوحيد والرسالة والحشر: سنطيعكم في بعض الأمر، وهو إنكار رسالة محمد وتكذيبه، ولا نوافقكم في إنكار مطلق الرسالة والحشر وإشراك الأصنام بالله<sup>٣</sup>.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ والأقاويل التي قالوها خفية. وقيل: يعني والله يعلم ما في قلوبهم من العلم بصدق النبي ﷺ، وصحة ما أتى به من القرآن والدين، فإنهم كانوا مكابرين معاندين<sup>٤</sup>.

وعن الصادق عليه السلام في تأويل هذه الآية: قال: «فلان وفلان ارتدوا عن الإيمان في ترك ولاية أمير المؤمنين عليه السلام».

قال: «نزلت والله فيهما وفي أتباعهما، وهو قول الله عز وجل الذي نزل به جبرئيل على محمد ﷺ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ في علي ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ قال: دعا بني أمية إلى ميثاقهم أن لا يصيروا هذا الأمر فينا بعد النبي ﷺ، ولا يعطونا من الخمس شيئاً، وقالوا: إن أعطيتناهم إياه لم يحتاجوا إلى شيء، ولم يبالوا أن لا يكون الأمر فيهم. فقالوا: سنطيعكم في بعض الأمر الذي دعوتونا إليه، وهو الخمس، أن لا نعطيتهم منه شيئاً، والذي نزل الله ما افترض على خلقه من ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، وكان معهم أبو عبيدة، وكان كاتبهم» الخبر<sup>٥</sup>. وعنهما عليه السلام: «أنهم بنوا أمية، كَرِهُوا ما أنزل الله في علي عليه السلام»<sup>٦</sup>.

فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ أَمَلًا يَكْفِيهِمْ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ \* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ  
اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ [٢٧ و ٢٨]

١. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٠، تفسير روح البيان ٨: ٥١٩.

٢. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٠، تفسير روح البيان ٨: ٥١٩.

٣ و ٤. تفسير الرازي ٢٨: ٦٧.

٦. مجمع البيان ٩: ١٦٠، تفسير الصافي ٥: ٢٩.

٥. الكافي ١: ٤٨٣/٣، تفسير الصافي ٥: ٢٨.

٦٠٢ ..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٥

ثم هدّدهم سبحانه بقوله: ﴿فَكَيْفَ﴾ حالهم ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الموكّلون بقبض الأرواح، وقبضوا أرواحهم.

قيل: إنّ المراد يفعلون في حياتهم ما يفعلون، فكيف يفعلون إذا قبض روحهم الملائكة<sup>١</sup>. وقيل: يعني هبّ أنّهم يُسيرون كفرهم، والله لا يُظهره في حياتهم، فيكفّ يُخفونه إذا قبض أرواحهم ملائكة<sup>٢</sup> العذاب حال كونهم ﴿يَضْرِبُونَ﴾ بمقام الحديد أو النار ﴿وَجُوهَهُمْ﴾ التي أقبلوا بها إلى ما أسخط الله، وحولوها عن الحقّ ﴿وَأَذْبَارُهُمْ﴾ وأقفيتهم التي ولّوها عن أهله، وعمّا فيه رضا ربهم.

﴿ذَلِكَ﴾ التوفّي الهالئ، أو الضرب بالمقام ﴿يَأْتُهُمْ﴾ لثبّت باطنهم ﴿أَتَّبِعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ﴾ وأغضبه عليهم من الكفر والطغيان والمعاصي ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ وما يُوجب حُبّه لهم ورحمته عليهم من الايمان والطاعة ﴿فَأَخْطَبَ﴾ الله لذلك ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ الحسنة، فلا يُفيدهم شيء من نفقاتهم على الفقراء وإحسانهم إلى الناس ونظائرهما من الخيرات والمبرات التي فعلوها حال إيمانهم، أو حال كفرهم، ولأنّهم لم يطلبوا بها رضا الله وطاعته، بل طلبوا رضا الشيطان والأصنام وموافقة هوى أنفسهم.

عن الباقر عليه السلام في تأويله قال: «كَرِهُوا عَلِيًّا عليه السلام» وقد أمر الله بولايته يوم بدر، ويوم خنين، وببطن نخلة، ويوم التروية، ويوم عرفة، نزلت فيه خمس عشرة آية في الحجّة التي صدّ فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن المسجد الحرام، وبالجملة، وبخمس<sup>٣</sup>.

القمي عليه السلام: ﴿مَا أَسْخَطَ اللَّهُ﴾ يعني موالاة فلان وفلان وظالمي أمير المؤمنين عليه السلام ﴿فَأَخْطَبَ﴾ الله ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ يعني التي عملوها من الخيرات<sup>٤</sup>.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ \* وَلَوْ نَشَاءُ  
لَأَرْسَلْنَاكَهُمْ فَلَعرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَنُعرفنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ  
\* وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا  
أَخْبَارَكُمْ [٢٩-٣١]

ثم بيّن الله سبحانه بعد تهديد المنافقين والكفار علة جرأتهم على ما هم عليه من النفاق بقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ وبل توهم المنافقون ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ الشكّ وعناد الرسول والعصية ﴿أَنْ لَنْ

٢. تفسير الرازي ٢٨: ٦٧.

٤. تفسير القمي ٢: ٣٠٩، تفسير الصافي ٥: ٢٩.

١. تفسير روح البيان ٨: ٥١٩.

٣. روضة الواعظين: ١٠٦، تفسير الصافي ٥: ٢٩.



يُخْرِجُ اللَّهُ ﴿ وَلَنْ يَظْهَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَبَدًا ﴾ «أَضْعَافَهُمْ» وأحقادهم وعداوتهم للرسول والمؤمنين، فيبقى كفرهم وحقدهم لهم مستورا، وهذا لا يمكن أبداً.

قيل: إن كلمة (أم) استفهامية مُتَّصِلَةٌ، والتقدير: أحسب الذين كفروا أن لن يعلم الله إسرارهم، أم حسب المنافقون أن لن يُظْهِرَها الله<sup>١</sup>.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ إراءتهم ﴿لَأَرَيْنَاكُمْهُمْ﴾ ولعرفناكم بأعيانهم وأشخاصهم بالأمارات والدلائل ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ وعلامات في وجوههم دالة على نفاقهم.

عن أنس، قال: ما خفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية شيء من المنافقين، كان يعرفهم بسيماهم، ولقد كنا في بعض الغزوات وفينا تسعة من المنافقين، يشك فيهم الناس، فناموا ذات ليلة وأصبحوا وعلى وجه كل منهم مكتوب: هذا منافق<sup>٢</sup>.

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ والله يا محمد ﴿فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ وفحوى كلامه، وأسلوب محاورته، وصرف الكلام عن سننه الجارية عليه، إما بازالة الإعراب، أو التصحيف، وإما بازالته عن التصريح وصرفه بمعناه إلى التعريض، كقولهم: ﴿ليُخْرِجَنَّ الْأَعَزَّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾<sup>٣</sup> أو المراد لتعرفنهم في معنى قول الله، كقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا﴾<sup>٤</sup> وقيل: لحن القول: الوجه الخفي من القول الذي يعرفه النبي ﷺ دون غيره<sup>٥</sup>.

﴿وَالَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَعْمَالَكُمْ﴾ ظاهرها وباطنها، فيجازيكم على حسب قصودكم ونياتكم.

عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «قلت أربع كلمات أنزل الله تصديقهن، قلت: المرء مخبوءٌ تحت لسانه، فإذا تكلم ظهر، فأنزل الله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾»<sup>٦</sup>.

وعن أبي سعيد الخدري، قال: لحن القول: بغض علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله ﷺ بغضهم علي بن أبي طالب عليه السلام<sup>٧</sup>.

﴿وَاللَّهُ﴾ ﴿لَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ ولنختبرن إيمانكم بالأمر بالجهد ونحوه من التكاليف الشاقة ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ﴾ ونميزهم من غير المجاهدين ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ على مشاق الجهاد وسائر التكاليف، ونميزوا من غير الصابرين والثابتين في المعارك من المولين والفارين ﴿وَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ و

٢. تفسير أبي السعود ٨: ١٠١، تفسير روح البيان ٨: ٥٢٠.

٥. تفسير الرازي ٢٨: ٧٠.

٣. المنافقون: ٨/٦٣. ٤. النور: ٦٢/٢٤.

٦. أمالي الطوسي: ١٠٨٢/٤٩٤، تفسير الصافي ٥: ٢٩.

٧. مجمع البيان ٩: ١٦٠، تفسير الصافي ٥: ٣٠.

نمتحن ﴿أَخْبَارَكُمْ﴾ بأنكم صادقون في الايمان، وأنكم ثابتون في نزال الأعداء، إنه صدق أو كذب.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ  
الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَالُهُمْ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا  
اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ [٣٢ و ٣٣]

ثم هدّد سبحانه الكفار والمنافقين بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله في الباطن، أظهر الايمان أو الكفر ﴿وَصَدُّوا﴾ ومنعوا انفسهم أو غيرهم ﴿عَنْ﴾ سلوك ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والعمل بدين الاسلام ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ وعاندوه وعارضوه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ ووضح ﴿لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ والحق من رسالة محمد ﷺ وصحة دينه، بما شاهدوا من معجزاته وتوحيته في الكتب السماوية. قيل: أريد منهم بنو قريظة والنضير من اليهود، ورؤساء قريش المطعّمون يوم بدر، أولئك <sup>١</sup> ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ﴾ تعالى بكفرهم وصدّهم وشقاقهم مع الله بشقاقهم مع الرسول ﴿شَيْئًا﴾ يسيراً من الضرر، بل يَضُرُّون أنفسهم أشدّ الضرر ﴿وَسَيُحِطُّ﴾ الله ويُبطل البتة ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ ومكاندهم في إطفاء نور الحق، واضمحلال كلمة التوحيد، وإبطال دين الاسلام.

وقيل: إن المراد من الذين كفروا خصوص أهل الكتاب ومن أعمالهم الخيرية التي كانوا يعملونها قبل الكفر برسالة النبي ﷺ <sup>٢</sup>.

ثم لما بيّن سبحانه أنّ الكفر ومشاقّة الرسول ﷺ يوجب بطلان الأعمال الخيرية، حتّى المؤمنين على طاعة الله ورسوله، والتحذير عن إبطال الأعمال بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في جميع ما أمركم به ونهايكم عنه ﴿وَلَا تُبْطِلُوا﴾ بمخالفة الرسول ﷺ والرياء والسّمتة والعجب ﴿أَعْمَالَكُمْ﴾ كما أبطل الكفار بالكفر ومشاقّة الرسول ﷺ أعمالهم. وقيل: إن المعنى لا تبطلوا بالشرك أعمالكم <sup>٣</sup>.

عن الباقر عليه السلام: قال: «قال رسول الله ﷺ: من قال: شُحّان الله، غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال: الحمد لله، غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال: لا إله إلا الله، غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال: الله أكبر، غرس الله له بها شجرة في الجنة. فقال رجلٌ من قريش: يا رسول الله، إن شجرنا في الجنة كثير؟ فقال: نعم، ولكن إياكم أن تُرسِلوا عليها نيراناً فتَحْرِقوها، وذلك أن الله تعالى

يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾<sup>١</sup>.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ \*  
فَلَا تَهْتَفُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ بِالْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ  
أَعْمَالَكُمْ [٣٤ و ٣٥]

ثم إنه تعالى بعد بيان بطلان أعمالهم الخيرية وعدم فائدتها لهم، بين عدم العفو عن ذنوبهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا﴾ وخرجوا من الدنيا ﴿وَالْحَالُ أَنْ هُمْ كُفَّارٌ﴾ حين موتهم ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ذنوبهم التي اقترفوها في الدنيا، كثيرة كانت أو صغيرة، لعدم أهليتهم للمغفرة والرحمة، فاذا علمتم أن الله يُعادي الكفار، ولا يقبل أعمالهم الخيرية، ولا يغفر ذنوبهم، ولا يرحمهم ﴿فَلَا تَهْتَفُوا﴾ لا تتوانوا في قتالهم، ولا تَضَعُفُوا في جهادهم، بل جُودُوا واجتهدوا فيه، ولا تجعلوا المشاغل الدنيوية مانعة عنه، ولا ﴿تَدْعُوا﴾ هم ﴿إِلَى السَّلَامِ وَالصَّلَاحِ﴾ ولا تسألوا منهم مشاركة القتال، فإن فيه ذلَّكم، والحال ﴿أَنْتُمْ بِالْأَعْلَوْنَ﴾ والغالبون عليهم.

ثم بين سبحانه علة علوهم وغلبتهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ وناصركم في الدارين ﴿وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ﴾ ولن يُضَيِّعَ ﴿أَعْمَالَكُمْ﴾ بل يُعْطِيَكُمْ أَجْرَهَا فوق ما تتوقعون، فيكون لكم في جهادهم شرف الدنيا وثواب الآخرة، فلا ينبغي لمن له عقل أن يتهاون فيه.

لما بين سبحانه أن الغلبة على الكفار بنصرة الله لا بقوتهم وشوكتهم، كان مجال أن يتوهم أن أجر جهادهم ينقص بسبب كون الغلبة بثُمرته تعالى، فدفعه سبحانه وقال: لم ينقص أجر جهادكم بسبب نُصْرته، بل يُعْطِيَكُمْ أَجْرَكُمْ كَامِلًا<sup>٢</sup>.

قيل: إن الآية ناسخة لقوله ﴿وَأَنْ جُنَحُوا لِلْسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾<sup>٣</sup> وفيه: أنه لا تنافي بين الحكيمين، فإن الآية ظاهرة في حرمة طلب المسلمين الصلح مع الكفار أولاً، والآية الأخرى إذن في إجابة الكفار إن طلبوا الصلح، فإن في طلب الصلح منهم ذلٌّ ومهانة للمسلمين<sup>٤</sup>، وفي إجابة دعائهم إلى الصلح شَرَفٌ وكرامة لهم.

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تَوَمَّنَا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ  
أَمْوَالَكُمْ \* إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخَفِّكُمْ تَبَخَّلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ [٣٦ و ٣٧]

١. نواب الأعمال: ١١، تفسير الصافي ٥: ٣٠.

٢. تفسير الرازي ٢٨: ٧٣.

٣. الأنفال: ٦١/٨.

٤. تفسير القرطبي ١٦: ٢٥٦.

ثم بالغ سبحانه في حث المؤمنين على الجهاد ببيان مهانة الدنيا وعظمة أجر الآخرة بقوله: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ والعمر فيها والاشتغال بزخارفها وزينتها ﴿لَعِبٌ وَفُتُورٌ﴾ وباطل وعمل شفهاني عند العقلاء وأهل البصيرة ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا﴾ أيها الناس بما يجب الايمان به ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الكفر والعصيان ومخالفة أحكام الله ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ الله ﴿أُجُورَكُمْ﴾ ومثوبات أعمالكم الصالحة من الايمان والتقوى في الآخرة، كما وعدكم به ﴿وَلَا يَسْأَلُكُمْ﴾ الله ﴿أَمْوَالَكُمْ﴾ جميعاً، فتتضررون في الدنيا بسبب الايمان والتقوى، ويختل معاشكم، حتى يصير الضرر مانعاً من الايمان والتقوى، وإنما يسألكم جزءاً يسيراً منها بعنوان الزكاة كالعشر ونصف العشر.

وقيل: إن المراد لا يسألكم أموالكم لأنه ليس لكم مال، بل جميع ما في ايديكم مال الله، أو دعه عندكم، وأجازكم في صرفه في محاويجكم تفضلاً عليكم، فلا ينبغي أن تمتنعوا عن صرفه فيما أمركم مالكة بصرفه<sup>١</sup>.

ثم قرّر سبحانه لطفه بالمؤمنين بأن لم يرض بضرهم وخرّجهم وفساد باطنهم وضائرهم بقوله: ﴿إِنْ يَسْأَلُكُمْوهَا﴾ ويأمركم بصرفها ﴿فِيخْفِكُمْ﴾ ويجهدكم بأمركم بصرف الكل في سبيله ﴿تَبْخُلُوا﴾ وتمتنعوا عن صرف الكل ﴿وَيُخْرِجُ﴾ الله بسبب ذلك الأمر والسؤال أو البخل ﴿أَضْعَافَكُمْ﴾ وأحقادكم الحادثة بذلك السؤال، فإن ابن آدم ينقم ويبغض من يطعم في ماله، ويوقعه في الضرر، ولذا لم يسألكم جميع أموالكم.

هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِتُبْخُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ [٢٨]

ثم وبّخهم سبحانه على بخلهم بصرف اليسير من أموالهم بقوله تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ﴾ وتنبهوا أيها المؤمنون بأنكم ﴿هَؤُلَاءِ﴾ البخلاء الذين ﴿تَدْعُونَ﴾ من قبل الله ﴿لِتُبْخُلُوا﴾ يسيراً من أموالكم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وترويج دينه، وإعانة أوليائه ﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ﴾ ويمتنع ببخله عن الانفاق، والحال أن ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ﴾ بماله على الفقراء والمجاهدين وسائر الوجوه البرية ﴿فَإِنَّمَا يَبْخُلْ﴾ ويمسك الخير ﴿عَنِ نَفْسِهِ وَ﴾ يحرم من منافع.

﴿اللَّهُ﴾ تعالى هو ﴿الْغَنِيُّ﴾ بذاته عنكم وعن أموالكم وصدقاتكم ﴿وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾ إليه وإلى ما

عنده من الخيرات، فما يأمركم به هو عين خيركم وصلاحكم، وفائدته راجعة إليكم.

ثم هدّد سبحانه العصاة والمخالفين بقوله: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ وتعرضوا عن الايمان والطاعة والانفاق يهلككم و﴿يَسْتَبْدِلْ﴾ ويخلف في أرضكم ومساكنكم ﴿قَوْمًا﴾ آخرين وجماعة ﴿غَيْرُكُمْ﴾ يعيشون في دياركم ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ في العصيان والإعراض عن الايمان والطاعة، بل يكونون مؤمنين مجدين في التقوى والطاعة.

قيل: إن كلمة (ثم) دالة على أن مدخولها مما يستبعده المخاطب<sup>١</sup>.

قيل: إن المخاطب قريش، والبدل الأنصار. وقيل: إن المخاطب العرب، والبدل أهل فارس<sup>٢</sup>، لما روي أن النبي ﷺ سئل عن القوم وسلمان كان إلى جنبه، فضرب على فخذه، فقال: «هذا وقومه، والذي نفسي بيده، لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس»<sup>٣</sup>، ورواه (المجمع) أيضاً، وفيه فضيلة عظيمة لأهل فارس<sup>٤</sup>.

وفي الحديث: «خيرتان من خلقه في أرضه: قريش خيرة الله من العرب، وفارس خيرة الله من العجم»<sup>٥</sup>.

وعن أبي الدرداء أنه كان يقول بعد قراءة هذه الآية: أكثروا يا بني فروع<sup>٦</sup>. قيل: إن فروع إن فروع كتنور، أخو إسماعيل وإسحاق، أبو العجم الذين في وسط البلاد<sup>٧</sup>.

عن الباقر عليه السلام، قال: «﴿إِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ يا معشر العرب ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يعني الموالي»<sup>٨</sup>.

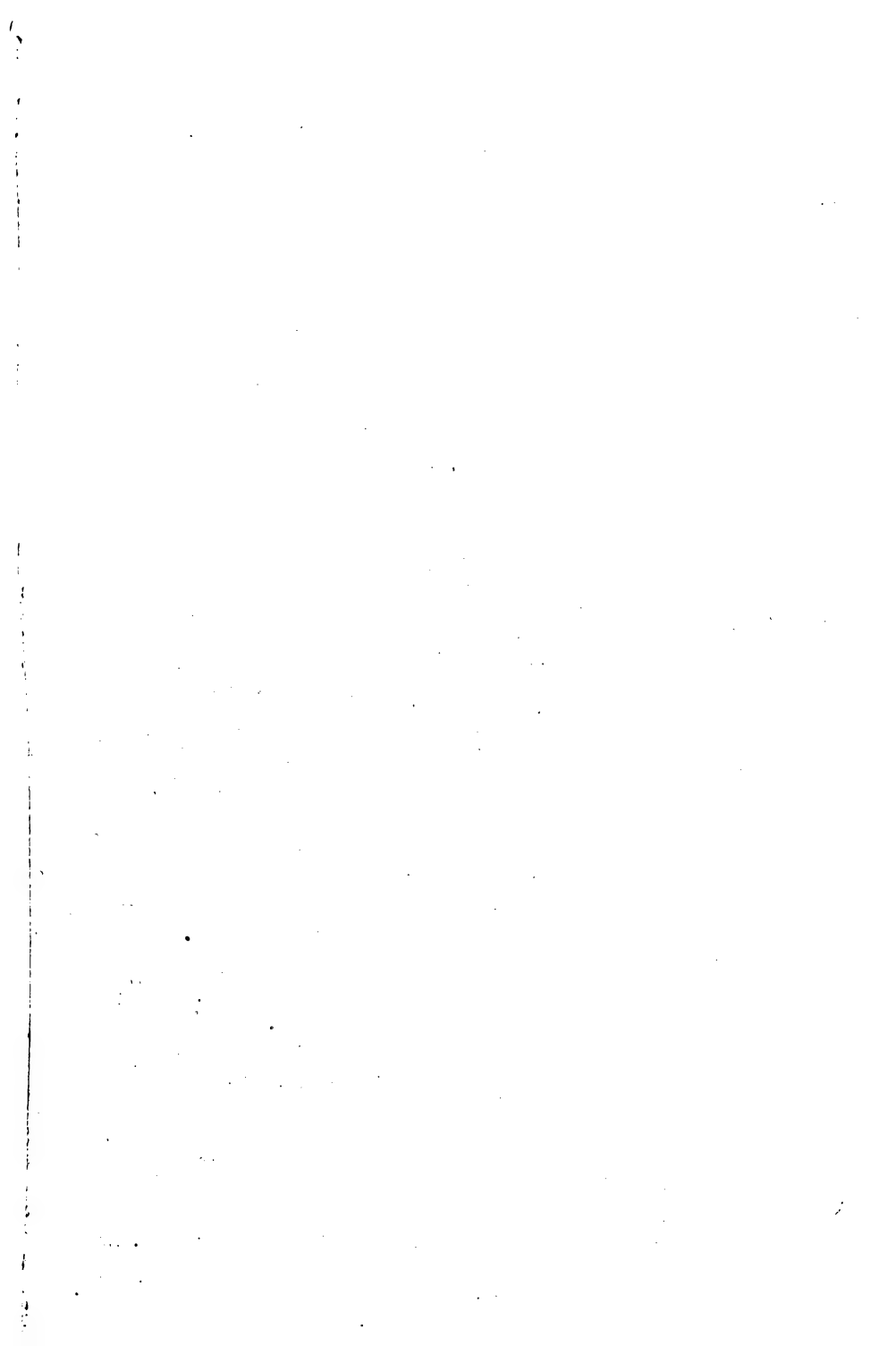
٢. تفسير روح البيان ٨: ٥٢٦.

١. تفسير روح البيان ٨: ٥٢٦.

٣. تفسير الرازي ٢٨: ٧٦، تفسير أبي السعود ٨: ١٠٣، تفسير روح البيان ٨: ٥٢٦. ٤. مجمع البيان ٩: ١٦٤.

٥. تفسير روح البيان ٨: ٥٢٦.

٨. مجمع البيان ٩: ١٦٤، عن الصادق عليه السلام، تفسير الصافي ٥: ٣٢.



## في تفسير سورة الفتح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا [١]

ثم لما ختمت سورة محمد ﷺ المتضمنة لبيان فضيلة المؤمنين به باتباعهم دينه الحق، وتفضله عليهم بتكفير ذنوبهم وإصلاح أمور دينهم ودنياهم، وأمرهم بتصرته، والانفاق في ترويج دينه، والجهاد لإعلاء كلمته ودفع أعدائه، والبشارة بغلبتهم على الكفار، نظمت سورة الفتح المبدوءة ببشارة رسوله ﷺ بفتح مكة أو الحديبية، وتصرته على أعدائه، الموقوف على ثبات المؤمنين في نصره، والانفاق في الجهاد معه، وبغفران ذنوبه، وسائر تفضلاته عليه ﷺ وعلى المؤمنين به، فافتتحها عز وجل بذكر أسمائه الحسنى على دأبه تعالى تيمناً وتعليماً للعباد والمؤمنين بقوله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثم ابتدئها بالبشارة بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ يا محمد، مكة وغلبناك على أهلها، وظفرناك بها عنوة ﴿فَتْحًا﴾ وظفراً ﴿مُبِينًا﴾ ظاهراً، مكشوف الحال لكل أحد، إنه بقدرتنا وتأييدنا.

عن أنس يثريه رسول الله ﷺ عند انصرافه من الحديبية، وإنما أتى سبحانه بصيغة الماضي إيداناً تحقق وقوعه<sup>١</sup>.

رُوي أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «لقد نزلت عليّ آية هي أحب إليّ من الدنيا وما فيها»<sup>٢</sup>.

وفي رواية أخرى: «لقد نزلت عليّ سورة ما يَسُرُّني بها حُمر النُّعم»<sup>٣</sup>.

وفي ثالثة أنه ﷺ قال لأصحابه: «أنزلت عليّ سورة أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس»<sup>٤</sup> ثم قرأ السورة عليهم، وهنأهم وهنأوه، وفي الآية والروايات دلالة واضحة على عظمة شأن هذا الفتح الذي

١. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٣، تفسير روح البيان ٩: ٢.

٢. مجمع البيان ٩: ١٦٥، وفيه: الدنيا كلها، تفسير الصافي ٥: ٣٣.

٣. تفسير القرطبي ١٦: ٢٦٠، تفسير روح البيان ٩: ٦ و٧.

٤. تفسير روح البيان ٩: ٦.

فيه قوة الإسلام ورواج شرعه.

روت العامة أن النبي ﷺ رأى في المنام أنه مع أصحابه دخلوا مكة آمنين مُحَلِّقِينَ رؤسهم ومقصرين، وأنه دخل البيت وأخذ مفتاحه، وطاف هو وأصحابه واعتمر، فأخبر بذلك الرؤيا أصحابه ففرحوا، ثم أخبرهم أنه يريد الخروج للعمرة فتجهّزوا للسفر، فخرج عليه الصلاة [والسلام] بعد أن اغتسل في بيته، ولبس ثوبين، وركب راحلته القصوى من عند بابه، ومعه ألف وأربعمائة من المسلمين على رواية، وأبطأ عليه كثير من أهل البوادي خشية من قريش، وساق عليه السلام معه الهدى سبعين بدنة<sup>١</sup>، وكان خروجه يوم الاثنين غرة ذي القعدة من السنة السادسة من الهجرة، فلما وصل إلى ذي الحليفة<sup>٢</sup>، وهو ميقات المدينين، صلى بالمسجد الذي فيه ركعتين، وأحرم بالعمرة هو وغالب أصحابه، ومنهم من أخر الإحرام إلى الجحفة<sup>٣</sup>، ثم نفد الماء في الطريق بين أصحابه، فأقبلوا نحوه، وكان بين يديه ركوة<sup>٤</sup> يتوضأ منها، فقال: «مالكم؟» قالوا: يا رسول الله. ليس عندنا ماء نشرب أو نتوضأ منه إلّا في ركوتك. فوضع يده في الركوة، فغار الماء من أصابعه الشريفة أمثال العيون، فشرّبوا وتوضّأوا، وقال جابر: لو كنّا مائة ألف لكفانا<sup>٥</sup>.

ثم أرسل ﷺ بشر بن سفيان إلى مكة عيناً له، فلما رجع إلى رسول الله ﷺ وهو بعُسفان<sup>٦</sup>، قال: يا رسول الله، قد سمعت قريش بخروجك، فلبسوا التمر - قيل: هو كناية عن إظهار شدة العداوة والجحد له - واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش، ومعهم زادهم ونساؤهم وأولادهم، ونزلوا بذي طوى<sup>٧</sup>، وتعاهدوا على أن لا تدخلها عليهم أبداً. فقال ﷺ: «أشيروا عليّ - أيها الناس - أثيريدون أن نؤم البيت، فمن صدنا عنه قاتلناه؟» فقال المقداد: يا رسول الله، إنّنا لا نقول ما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾<sup>٨</sup> ولكن نقول: اذهب أنت وربك [فقاتلا] إنا معكما مقاتلون. فقال ﷺ: «امضوا على اسم الله» فساروا.

ثم قال ﷺ: «هل رجل [يخرجنا] من طريق إلى غير طريقهم التي هم بها» فقال رجل من أسلم اسمه ناجية بن جندب: أنا يا رسول الله. فسلك بهم طريقاً وغراً، ثم أفاضوا إلى أرض سهلة.

١. البدنة: ناقة أو بقرة تُنَحُّ قرباناً بمكة.

٢. ذو الحليفة: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة.

٣. الجحفة: قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة من مكة على أربعة مراحل.

٤. الركوة: إناء صغير من جلد يُشرب فيه الماء.

٥. تفسير روح البيان ٩: ٣.

٦. عُسفان: منهل من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة.

٧. ذو طوى: موضع عند مكة.



ثم أمر رسول الله ﷺ أن يَسْلُكُوا طريقاً يُخْرِجُهُمْ عَلَى مَهْبِطِ الْحُدَيْبِيَّةِ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَسَلَكُوا ذَلِكَ الطَّرِيقَ، فَلَمَّا نَزَلُوا بِالْحُدَيْبِيَّةِ نَزَحَ<sup>١</sup> مَاوْهَا حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيهَا قَطْرَةٌ مَاءٍ، فَشَكَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ الْعَطَشَ، وَكَانَ الْحَرُّ شَدِيداً، فَأَخْرَجَ ﷺ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، وَدَفَعَهُ إِلَى الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَغْرِزَهُ فِي جَوْفِ الْبِئْرِ<sup>٢</sup> - وَقِيلَ: تَمَضُّضُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ مَجَّهَ فِي الْبِئْرِ - فَجَاشَ الْمَاءُ حَتَّى امْتَلَأَتِ الْبِئْرُ، فَشَرِبُوا جَمِيعاً، وَرَوَتْ إِيْلَهُمْ، وَلَمْ يَنْقُدْ مَاوْهَا<sup>٣</sup>.

وَقِيلَ: لَمَّا ارْتَحَلُوا مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ أَخَذَ الْبَرَاءُ السَّهْمَ مِنَ الْبِئْرِ، فَخَفِضَتْ كَأَن لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَاءٌ. فَلَمَّا أَطْمَأَنَّ ﷺ بِالْحُدَيْبِيَّةِ، جَاءَهُ بَدِيلُ بْنُ وَرْقَاءَ، وَكَانَ سَيِّدَ قَوْمِهِ، فَسَأَلَهُ مَا الَّذِي جَاءَ بِهِ؟ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ يُرِيدُ حَرْباً، إِنَّمَا جَاءَ زَائِراً لِلْبَيْتِ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَطْمَئِنُّوا بِقَوْلِهِ، ثُمَّ أَرْسَلُوا الْخَلِيسَ بْنَ عُلْقَمَةَ، وَكَانَ سَيِّدَ الْأَحَابِيشِ، فَلَمْ يَعْتَمِدُوا عَلَيْهِ أَيْضاً، فَأَرْسَلُوا عُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ التَّقْفِيَّ عَظِيمَ الطَّائِفِ، فَلَمَّا قَامَ بِالْخَيْرِ مِنْ عِنْدِهِ ﷺ، وَقَدْ رَأَى مَا يَصْنَعُ بِهِ أَصْحَابُهُ، لَا يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَّا ابْتَدَرُوا وَضَوْءَهُ، وَلَا يَبْصُقُ بُصَافاً إِلَّا ابْتَدَرُوهُ، وَلَا يَسْتُطْ مِنْ شَعْرِهِ شَيْءٌ إِلَّا أَخَذُوهُ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَلَا يَجِدُونَ النَّظَرَ إِلَيْهِ تَعْظِماً لَهُ.

فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنِّي جِئْتُ كَسَرَى فِي مُلْكِهِ، وَقِصْرَ فِي مُلْكِهِ، وَالنَّجَاشِي فِي مُلْكِهِ، مَا رَأَيْتُ مَلِكاً فِي قَوْمٍ قَطْ مِثْلَ مُحَمَّدٍ فِي أَصْحَابِهِ، أَخَافُ أَنْ لَا تُثَنِّصُوا عَلَيْهِ.

فَقَالَتْ لَهُ قُرَيْشٌ: لَا تَتَكَلَّمْ بِهَذَا يَا أَبَا يَعْفُورَ، لَكِنْ نَزَدَ عَامِنَا هَذَا، أَوْ يَرْجِعَ مِنْ قَابِلٍ. فَقَالَ: مَا أَرَاكُمْ إِلَّا سَيَصِيبُكُمْ قَارَعَةٌ، ثُمَّ انْصَرَفَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ إِلَى الطَّائِفِ.

ثُمَّ دَعَا ﷺ خِرَاشَ بْنَ أُمَيَّةَ الْخُزَاعِيَّ، فَبَعَثَهُ إِلَى قُرَيْشٍ، وَحَمَلَهُ عَلَى بَعِيرٍ لَهُ، يَقَالُ لَهُ الثَّلْعَبُ، لِيُبَلِّغَ أَشْرَافَهُمْ عَنْهُ مَا جَاءَ لَهُ، فَعَقَرُوا جَمَلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَرَادُوا قَتْلَ خِرَاشٍ، فَمَنَعَهُ الْأَحَابِيشُ، فَخَلَوْا سَبِيلَهُ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَخْبَرَهُ بِمَا لَقِيَ.

ثُمَّ دَعَا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُبَلِّغَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مَا جَاءَ لَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَخَافُ قُرَيْشاً عَلَى نَفْسِي، وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ بَنِي عَدِيٍّ بْنِ كَعْبٍ أَحَدٍ يَمْنَعُنِي، وَقَدْ عَرَفْتُ قُرَيْشَ عِدَاوَتِي بِإِيَّاهَا وَغِلْظَتِي عَلَيْهَا، وَلَكِنْ أَذْكَ عَلَى رَجُلٍ أَعَزَّ بِهَا مِنِّي؛ عُثْمَانُ بْنُ عَفَانَ، فَإِنَّ بَنِي عَمِّهِ يَمْنَعُونَهُ.

فَدَعَا عُثْمَانَ، فَبَعَثَهُ إِلَى أَشْرَافِ قُرَيْشٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَ رِجَالاً مُسْلِمِينَ بِمَكَّةَ وَنِسَاءً مُسْلِمَاتٍ، وَيَدْخُلَ عَلَيْهِمْ وَيُخْبِرَهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَرَبَ أَنْ يَظْهَرَ دِينُهُ بِمَكَّةَ حَتَّى لَا يُسْتَخْفَى فِيهَا بِالْإِيمَانِ، فَخَرَجَ

٢. تفسير روح البيان ٩: ٣.

١. يقال: نَزَحَ الْبِئْرُ: قَلَّ مَاوْهَا أَوْ نَقِدَ.

٣. تفسير روح البيان ٩: ٤.

عثمان إلى مكة ومعه عشرة رجال من الصحابة يأذن رسول الله ﷺ ليزوروا أهاليهم هناك، فلتقي عثمان قبل أن يدخل مكة أبان بن سعيد، فأجاره حتى يُبلغ رسالته، وجعله بين يديه، فأتى عُظْمَاء قريش، فبلغهم الرسالة، وهم يقولون: إنَّ محمداً لا يدخل علينا أبداً.

فلما فرغ عثمان من الرسالة، قالوا له: إن شئت فطف بالبيت، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله. وكانت قريش قد احتبست عثمان عندها ثلاثة أيام، فبلغ رسول الله ﷺ أنَّ عثمان ومن معه قُتِلُوا كُلُّهُمْ، فقال: «لا نبرح حتى تُنْجِزَ القوم» فأمره الله بالبيعة، فنادى مناديه: أَيُّهَا النَّاسُ، البيعة البيعة، نزل رُوحُ الْقُدُس، فأخْرَجُوا على اسم الله، فثاروا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة من أشجار السَّمُرِ<sup>١</sup>، فبايعوه على عدم الفرار، وقالوا لها بيعة الرُّضْوَانِ<sup>٢</sup>.

أقول: لعل وجه التسمية أنَّ الله قال: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾<sup>٣</sup>. وأول من بايع سنان بن سنان الأسدي، فقال: يا رسول الله، أبايك على ما في نفسك. قال: «وما في نفسي؟» قال: أضرب بسيفي حتى ينصرك الله أو أقتل، وصار الناس يقولون: تُبايعك على ما بايعك عليه سنان<sup>٤</sup>. وروي أن عثمان رجع بعد ثلاثة أيام، فبايع هو أيضاً.

وكان محمد بن مسلمة على حرس رسول الله ﷺ فبعثت قريش أربعين رجلاً، عليهم مكرز بن حَفْص، ليطوفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليلاً، رجاء أن يُصِيبُوا منهم أحداً، ويجدوا منهم غفلةً، فأخذهم محمد بن مسلمة إلا مكرز فإنه أفلت، وأتى بهم رسول الله ﷺ، فحَسِبُوا، فبلغ قريشاً حبس أصحابهم، فجاء جمعٌ منهم حتى رَمَوْا المسلمين بالنبل والحجارة، وقُتِلَ من المسلمين ابن رَسَم رُمي بسهم، فأسر المسلمون منهم اثني عشر رجلاً.

وعند ذلك بعثت قريش إلى رسول الله جمعاً فيهم سهيل بن عمرو، فلما رآه رسول الله ﷺ تفاءل، وقال لأصحابه: «سَهْلٌ أمركم» فقال سهيل: يا محمد، إنَّ ما كان من حبس أصحابك، وما كان من قتال من قاتل، لم يكن من رأيي ذوي رأينا، بل كُنَّا كارهين له حين بلغنا، وكان من شُفْهَانَا، فابعت إلينا أصحابنا الذين أسروا أولاً وثانياً، فقال ﷺ: «إني لأرسلهم حتى تُرْسِلُوا أصحابي» فقالوا: نفعل فبعث سهيل ومن معه إلى قريش بذلك، فبعثت قريش عثمان والعشرة، فأرسل رسول الله ﷺ أصحابهم.

ولما سَمِعَت قريش بهذه البيعة، كبرت عليهم، وخافوا أن يُحَارِبُوا، وأشار أهل الرأي منهم بالصُّلح

١. السَّمُرُ: ضربٌ من شجر الطَّلح، واحدته سُمرة.

٢. تفسير روح البيان ٩: ٤.

٣. الفتح: ١٨/٤٨.

٤. تفسير روح البيان ٩: ٥.

على أن يرجع ويعود من قابل، ويُقيم ثلاثاً، فبعثوا سهيلاً ومكرزاً أو حويطب بن عبد العزى إلى رسول الله ﷺ للصلح، فلما رآه مقبلاً قال: «أراد القوم الصلح» فلما أراد الرسول ﷺ الصلح لم يرضَ بعض الأصحاب به، وقالوا: علام نُعطي الدنية في ديننا، ونحن المسلمون، وهم مشركون؟ فأشار ﷺ بالرضا ومتابعة الرسول.

ثم دعا علياً عليه السلام، فقال: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل: لا نعرف هذه، ولكن اكتب: باسمك اللهم، فكتبها لأن قريشاً كانت تقولها.

ثم قال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو». فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتك، ولم اصدك عن البيت، ولكن اكتب اسمك وأسم أبيك. فقال علي عليه السلام: «امحُ رسول الله». فقال علي عليه السلام: «والله لا أمحوك». فقال: «أرنيه» فأراه إياه، فمحاه رسول الله ﷺ بيده الشريفة، وقال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو» وقال: «أنا والله رسول الله، وإن كذبتُموني».

وكان الصلح على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، ومن أتى من قريش ممن هو على دين محمد ﷺ بغير إذن وليه ردّه إليه ذكرأ كان أم أنثى، ومن أتى قريشاً ممن كان مع محمداً ذكرأ كان أو أنثى لم ترده إليه، ومن أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأن بيننا وبينكم عيبة مكفوفة<sup>١</sup>، لا إسلال ولا إغلال<sup>٢</sup>، وأن محمداً ﷺ يرجع عامة هذا، فلا يدخل مكة، وإذا كان عام قابل خرج منها قريش ودخلها محمد بأصحابه، وأقاموا بها ثلاثة أيام معهم سلاك الراكب السيوف في القُرب والقوس، لا يدخلونها بغيرهما.

فلما فرغ رسول الله ﷺ من الصلح، وأشهد عليه رجالاً من المسلمين، قام إلى هدية فنحره، وفرق لحمه على الفقراء، فلما رأى المسلمون الصلح وما تحمله رسول الله ﷺ، دخلهم من ذلك أمر عظيم، وكانوا لا يشكون في دخولهم مكة وطوافهم بالبيت ذلك العام للرويا التي رآها النبي ﷺ، وقال عمر: ألم تقل إنك تدخل مكة آمناً؟ قال: بلى، أقلت لكم من عامي هذا؟ قال المسلمون: لا، قال ﷺ: «فهو كما قال جبرئيل، إنكم تأتونونه وتطوفون به»<sup>٣</sup>.

وروي أنه ﷺ لما دخل في العام القابل، وحلق رأسه، قال: «هذا الذي وعدتكم» فلما كان يوم

١. أي صدوراً منطوية على ما فيها لا تبدي عداوة. أو منطوية على الوفاء بالصلح.

٢. أي لا سرقة ولا خيانة.

٣. تفسير روح البيان ٩: ٥.

الفتح وأخذ المفتاح قال: «هذا الذي قلت لكم»<sup>١</sup>.

أقول: يعلم من تلك الرواية حال عمر وحال كثير من الأصحاب وحال بيعتهم هنا من فرار أكثرهم يوم حنين.

قيل: إنه ﷺ أقام بالحديبية تسعة عشر أو عشرين يوماً، ثم انصرف إلى المدينة، فلما بلغ بكراع الغميم<sup>٢</sup> نزلت عليه سورة الفتح، قال بعض الصحابة: ما هو بفتح، لقد صدونا عن البيت، وصدوا هدينا، فلما بلغ النبي ﷺ كلامهم السوء، قال ﷺ: «بل هو أعظم الفتح، لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالبراح<sup>٣</sup> عن بلادهم، وسألوكم الصلح، والتجأوا إليكم في الأمان، ورأوا منكم ما كرهوا، وظفركم الله عليهم، وردكم سالمين مأجورين، فهو أعظم الفتح، أنسيتم يوم أحد، وأنا أدعوكم في أخراكم؟ أنسيتم يوم الأحزاب، إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم؟ وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنونا؟».

فقال المسلمون: صدق الله ورسوله، هو أعظم الفتح، والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه، ولأنت أعلم بالله وبأمره.

ثم أصاب الناس مجاعة شديدة، وهموا أن ينحروا ظهورهم<sup>٤</sup>، فقال ﷺ: «ابسطوا أنطاعكم وعباءكم» ففعلوا ثم قال: «من كان عنده بقية من زادٍ وطعامٍ فلينشئه» ثم دعا لهم، ثم قال: «قربوا أوعيتكم» فأخذوا ما شاءوا، ملأوا أوعيتهم، وأكلوا حتى شبعوا؟ وبقي مثله، وقال ﷺ لرجلٍ من أصحابه: «هل من وضوء؟»<sup>٥</sup> فجاءه بأداة فيها ماء قليل، فأفرغها في قدح، ووضع راحلته الشريفة في ذلك الماء، فتوضأ المسلمون كلهم به<sup>٦</sup>.

وروى القمي رحمه الله عن الصادق عليه السلام، قال: «سبب نزول هذه السورة وهذا الفتح العظيم، أن الله عز وجل أمر رسوله في النوم أن يدخل المسجد الحرام ويطوف، ويحلق مع المحلقين، فأخبر أصحابه وأمرهم بالخروج فخرجوا، فلما نزل ذا الحليفة أحرموا بالعمرة وساقوا البدن، وساق رسول الله ﷺ ستة وستين بدنة، وأشعرها عند إحرامه، أحرموا من ذي الحليفة ثلثين بالعمرة، وقد ساق من ساق منهم الهدى مشعرات مجللات.

فلما بلغ قريشاً ذلك، بعثوا خالد بن الوليد في مائتي فارس كميناً، ليستقبل رسول الله ﷺ، وكان

٢. كراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة.

٤. أي الدواب التي يركبونها أو تحمل أفعالهم.

٦. تفسير روح البيان ٩: ٦ و ٧.

١. تفسير روح البيان ٩: ٧.

٣. البراح: الزوال والمغادرة.

٥. الوضوء - بالفتح -: الماء.

يعارضه على الجبال، فلَمَّا كان في بعض الطريق حضرت صلاة الظهر، فأذَّن بلال، فصلى رسول الله ﷺ بالناس، فقال خالد بن الوليد، لو حملنا عليهم وهم في الصلاة لأصبناهم، فأنهم لا يقطعون صلاتهم، ولكن تجيء لهم صلاة أخرى أحب إليهم من ضياء أبصارهم، فإذا دخلوا في الصلاة أغرنا عليهم، فنزل جبرئيل على رسول الله ﷺ بصلاة الخوف.

فلَمَّا كان في اليوم الثاني نزل رسول الله ﷺ بالحديبية، وهي على طرف الحَرَم، وكان رسول الله ﷺ يستنفر الأعراب في طريقه معه، فلم يتبعه أحدٌ، ويقولون: أيطمع محمد وأصحابه أن يدخلوا الحرم وقد غزتهم قريش في عقر ديارهم فقتلوهم، إنه لا يرجع محمد وأصحابه إلى المدينة أبداً. فلَمَّا نزل رسول الله ﷺ بالحديبية، خرجت قريش يحلفون باللات والعزى لا يدعون رسول الله ﷺ يدخل مكة وفيهم عَيْن تطرف، فبعث إليهم رسول الله ﷺ: أتني لم آت للحرب، وإنما جئت لأقضي مناسكي، وأنحر بُدني، وأخلي بينكم وبين لحمتها.

فبعثوا عروة بن مسعود الثقفي، وكان عاقلاً ليلاً، وهو الذي أنزل الله فيه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ فلَمَّا أقبلوا إلى رسول الله ﷺ عظم ذلك، وقال: يا محمد، تركت قومك وقد ضربوا الأبنية، وأخرجوا العوذ المطافيل<sup>١</sup>، يحلفون باللات والعزى لا يدعوك تدخل مكة وفيهم عين تطرف، أفتريد أن تبهر أهلك وقومك يا محمد؟

فقال رسول الله ﷺ: ما جئت للحرب، وإنما جئت لأقضي مناسكي، وأنحر بُدني، وأخلي بينهم وبين لحمتها. فقال عروة: والله ما رأيت أحداً صدَّ كما صدَّدت.

فرجع إلى قريش، فأخبرهم، فقالت قريش: والله لئن دخل محمد مكة، وتسامعت به العرب، لَنُدَلَّنَ ولتجترن علينا العرب. فبعثوا حفص بن الأحنف وشهيل بن عمرو، فلَمَّا نظر إليهما رسول الله ﷺ قال: ويح قريش، قد نهكتهم الحرب، ألا خلوا بيني وبين العرب، فإن ألك صادقاً فإنما أجر المَلِك إليهم مع النبوة، وإن ألك كاذباً كفتهم دُوبان العرب، لا يسألني اليوم امرؤ من قريش خُطَّةَ لله فيها رضى<sup>٢</sup> إلا أجبتهم إليه.

فلَمَّا وافوا رسول الله ﷺ قالوا: يا محمد، ألا ترجع عامك هذا إلى أن ننظر إلى ما يصير أمرك وأمر العرب، فإن العرب تسامعت بمسيرك، فإذا دخلت بلادنا وحَرَمنا استذلَّتنا العرب واجترأت علينا، وتخلي لك البيت في العام القابل في هذا الشهر ثلاثة أيام حتى تقضي نُسكك وتَنصَرَفَ عَنَّا.

١. العوذ: الحديدة العهد بالتاج من الابل والخيل، والمطافيل: ذوات الطفل.

٢. في المصدر، وتفسير الصافي: سخط.

فأجابهم رسول الله ﷺ إلى ذلك.

وقالوا: تَزِدُّ إلينا كُلَّ من جاءك من رجالنا، ونَزِدُّ إليك كُلَّ من جاءنا من رجالك. فقال رسول الله ﷺ: من جاءكم من رجالنا فلا حاجة لنا فيهم، ولكن على أُنَّ المسلمين بحكمة لا يُؤذون في إظهارهم الاسلام، ولا يُكرهون، ولا يُنكرون عليهم شيئاً يفعلونه من شرائع الاسلام، فقبلوا ذلك. فلما أجاوبهم رسول الله ﷺ إلى الصُّلح أنكر عامة أصحابه، واشدَّ ما كان إنكار عمر، فقال: يا رسول الله، ألسنا على الحقِّ، وعدونا على الباطل؟ قال نعم. قال: فتعطى الدِّلة في ديننا؟ فقال: إن الله عز وجل وعَدني ولن يُخلفني. قال: لو أن معي أربعين رجلاً لخالفته.

ورجع سهيل بن عمرو وحفص بن الأحنف إلى قريش، وأخبراهم بالصُّلح، فقال عمر: يا رسول الله، ألم تقل لنا: إِنَّا ندخلُ المسجد ونُحلق مع المُحلِّقين؟ فقال ﷺ: أَمِنَ عامنا هذا وعدتك؟ قلت لك: إنَّ الله عز وجل قد وعَدني أن أفتح مكة وأطوف وأسعى وأحلق مع المُحلِّقين فلما أكثرُوا عليه قال لهم: إن لم تقبلوا الصُّلح فحاربوهم، فمروا نحو قريش وهم مستعدون للحرب، وحملوا عليهم، فانهزم أصحاب رسول الله ﷺ ثم قال: يا علي، خُذ السيف واستقبل قريشاً، وأخذ أمير المؤمنين عليه السَّيف، وحمل على قريش، فلما نظروا إلى أمير المؤمنين عليه السَّيف تراجعوا، ثم قالوا: يا علي، بدا لمحمد فيما أعطانا. قال: لا.

وتراجع أصحاب رسول الله ﷺ مستحيين، وأقبلوا يعتذرون إلى رسول الله ﷺ، فقال لهم رسول الله ﷺ: أَلستم أصحابي يوم بدر، وأنزل الله عز وجل فيكم ﴿إِذْ تَسْتَفِئُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدَّتُكُمْ بِآلِافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْدَفِينَ﴾؟<sup>١</sup> أَلستم أصحابي يوم أحد ﴿إِذْ تُضْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾؟<sup>٢</sup> أَلستم أصحابي يوم كذا؟ فاعتذروا إلى رسول الله ﷺ ونَدِمُوا على ما كان منهم، وقالوا: الله أعلم ورسوله، فاصنع ما بدا لك.

ورجع سهيل بن عمرو وحفص بن الأحنف إلى رسول الله ﷺ فقالا: يا محمد، قد أجابت قريش إلى ما أشرتُ من إظهار الإسلام، وأن لا يُكره أحدٌ على دينه. فدعا رسول الله ﷺ بالمَكْتَبِ، ودعا أمير المؤمنين عليه السَّيف، قال له: اكتب، فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل بن عمرو: لا نعرف الرحمن، اكتب كما كان يكتب أبَاؤك: باسمك اللهم. فقال رسول الله ﷺ: اكتب باسمك اللهم، فإنه اسمٌ من أسماء الله، ثم كتب: هذا ما تقاضى عليه محمد رسول الله ﷺ والملا من قريش. فقال سهيل بن عمرو: لو عَلِمْنَا أَنَّكَ رسول الله ما حاربناك، أكتب: هذا ما تقاضى عليه محمد بن عبدالله،

أتانف من نسبك يا محمد؟ فقال رسول الله ﷺ: أنا رسول الله، وإن لم تَعْرِوا. ثم قال: يا علي امحُ واكتب: محمد بن عبدالله. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ما أمحو اسمك من النبوة أبداً، فمحاه رسول الله ﷺ بيده، ثم كتب: هذا ما اصطاح عليه محمد بن عبدالله والملا من قريش، وسهيل بن عمرو، اصطاحوا على وضع الحرب بينهم عشر سنين، وعلى أن يكف بعض من بعض، وعلى أنه لا إسلال ولا إغلال، وأن بيننا وبينهم عيبة مكفوفة، وأن من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده فعل، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل، وأنه من أتى محمداً بغير إذن وليه ردّه إليه، وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم تردّه إليه، وأن يكون الاسلام ظاهراً بمكة، ولا يُكره أحد على دينه، ولا يؤذى ولا يُعير، وأن محمداً يرجع عنهم عامه هذا وأصحابه، ثم يدخل عليها في العام القابل مكة، فيقيم فيها ثلاثة أيام، ولا يدخل عليها سلاح إلا سلاح المسافر: السيوف في القرب. وكتب علي بن أبي طالب وشهد على الكتابة المهاجرون والأنصار.

ثم قال رسول الله ﷺ: يا علي، إنك أبيت أن تمحو اسمي من النبوة، فوالذي بعثني بالحق نبياً لتجيب أبناءهم إلى مثلها وأنت مضيض<sup>١</sup> مضطهد، فلما كان يوم صفين ورضوا بالحكمين، كتب: هذا ما اصطاح عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان. فقال عمرو بن العاص: لو عَلِمنا أنك أمير المؤمنين ما حاربناك، ولكن اكتب: هذا ما اصطاح عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: صدق الله وصدق رسوله، أخبرني رسول الله بذلك.

قال: فلما كتبوا الكتاب قامت خِزاعة، فقالت: نحن في عهد محمد رسول الله وعقده، وقامت بنو بكر وقالت: نحن في عهد قريش وعقدها، وكتبوا نسختين: نسخة عند رسول الله ﷺ ونسخة عند سهيل بن عمر، ورجع سهيل بن عمرو وحفص بن الأحنف إلى قريش فأخبراهم. وقال رسول الله ﷺ: انحروا بدينكم، واحلقوا رؤوسكم، فامتنعوا وقالوا: ننحر ونحلق ولم نطف بالبيت، ولم ننع بين الصفا والمروة؟! فاجتمعت رسول الله ﷺ لذلك، وشكا ذلك عند أم سلمة، فقالت: يا رسول الله، انحر أنت واحلق. فنحر رسول الله ﷺ وحلق، فنحر القوم على حيث يقين وشك وارتياح، فقال رسول الله ﷺ: تعظيماً للبدن: رجم الله المحلقين. وقال: قوم لم يسوقوا البدن: يا رسول الله، والمقصرين؟ لأن من يسق هدياً لم يجب عليه الحلق. فقال رسول الله ﷺ ثانياً: رجم الله المحلقين الذين لم يسوقوا البدن. فقالوا: يا رسول الله، والمقصرين؟ فقال رسول الله ﷺ: رجم الله المقصرين.

ثم رحل رسول الله ﷺ نحو المدينة، فرجع إلى التنعيم بمنزل تحت الشجرة، فجاء أصحابه الذين

١. مض فلان من الشيء: أليم من وجع المصيبة، وأمضه الشيء: بلغ من قلبه الحزن به، أي أحرقه وشق عليه.

أنكروا عليه الصُّلح، واعتذروا وأظهروا الندامة على ما كان منهم، وسألوا رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم، فنزلت آية الرِّضوان<sup>١</sup>.

قال جمع من المفسرين: إن المراد بالفتح هو فتح الحُدَيْبية<sup>٢</sup>، كما هو مدلول الروایتين السابقتين العامية والصادقية.

وعن ابن عباس: رَمَوْا المشركين حتى أدخلوهم ديارهم<sup>٣</sup>. وعن الكلبي: ظهرُوا عليهم حتى سألوا الصُّلح<sup>٤</sup>.

وعن الشعبي: أن السورة نزلت بالحُدَيْبية، وأصاب رسول الله ﷺ في تلك العزوة ما لم يُصَب في غزوة، حيث أصاب أن يُوعى بيعة الرِّضوان، وغُفِر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، وبلغ الهدى محلَّه، وظهرت الروم على فارس، ففرَّح به المسلمون<sup>٥</sup>.

وعن مجاهد: أنه ما حصل له في تلك السنة من فتح خيبر<sup>٦</sup>. وقيل: هو جميع الفتوحات التي حصلت له ﷺ<sup>٧</sup>.

وقيل: هو ما فتح من الاسلام والنبوة والدعوة بالحُجَّة والسيف، ولا فتح أبين وأعظم منه، وهو رأس الفتوح كافة، إذ لا فتح من فتوح الاسلام إلا وهو شُعبة من شُعبه وقَرع من قُرُوعه<sup>٨</sup>.

وعن قتادة: أنه بمعنى الحكم والقضاء، والمعنى أنا قضينا لك أن تدخل مكة من قابل<sup>٩</sup>. والأظهر هو الأول، وقد أيد بوجوه تُعدُّ من وجوه النُّظم:

منها: أن فتح مكة كان فيه غنائم كثيرة اضعاف ما أنفقوا، فكان مناسباً لما في آخر السورة السابقة ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ﴾<sup>١٠</sup> لصياح تلك الغنائم الكثيرة عليه وحرمانه منها بسبب بخله عن الانفاق.

ومنها: أنه تعالى قال في السورة السابقة: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾<sup>١١</sup> يعني لا تسألوا الصُّلح، بل اصبروا حتى يسأل المشركون منكم الصُّلح والأمان، كما كان في فتح مكة حيث أن صناديد قريش جاءوا إلى المسلمين مؤمنين أو مستأمنين.

ومنها: أنه تعالى قال في السورة السابقة: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ وقال: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ ويكون فتح مكة

١. تفسير القمي ٢: ٣٠٩، تفسير الصافي ٥: ٣٣.

٢. تفسير الرازي ٢٨: ٧٧.

٣. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٤.

٤. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٣.

٥. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٤.

٦. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٣.

٧. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٤.

٨. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٤.

٩. محمد ﷺ: ٣٥/٤٧.

١٠. محمد ﷺ: ٣٨/٤٧.



شاهداً عليه.

لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا  
مُسْتَقِيمًا \* وَنُصْرَكَ اللَّهُ تَنْصُرًا عَزِيزًا [٢ و ٣]

ثم بين سبحانه غاية الفتح وفائدته المترتبة عليه بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ﴾ يا محمد ﴿آه﴾ العظيم القادر على كل شيء بسبب الفتح الذي فيه إعلاء كلمته وترويج دينه بمكابدة مشائق الحروب واقتحام موارد الخطوب ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ على الفتح ﴿مِنْ ذَنْبِكَ﴾ وما فرط منك من إقبالك إلى عالم الخلق وتوجهك إلى غيره لأداء وظيفة الرسالة، أو من تركك الأولى والأفضل الذي هو ذنب في حقك ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ منه.

وقيل: إن المعنى ليعرف أن الله يغفر لك ذنوبك، فإن الناس كانوا يعتقدون بعد عام الفيل أن الله لا يسلط على مكة عدوه المسخوط عليه، بل لا يفتحها ولا يسلط عليها إلا حبيبه المغفور له<sup>١</sup>.  
وقيل: إن فتح مكة لما صار سبباً لتسهيل الحج عليه وعلى أمته، ويكون الحج سبباً لغفران الذنوب، بين سبحانه أن الفتح سبب لغفران ذنوبك إن كان لك ذنب، حتى يعلم الناس ما في الحج من الثواب<sup>٢</sup>.

قيل: إنه بعد ما ثبت عصمته لأبد من القول بكون المراد ذنب أمته، وخطابه من باب: إياك أعني واسمعي يا جارة<sup>٣</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: أنه سُئِلَ عن هذه الآية فقال عليه السلام: «ما كان له ذنب، ولا هم بذنب، ولكن الله حمّله ذنوب شيعته، ثم غفرها له»<sup>٤</sup>.

وعنه عليه السلام: أنه سُئِلَ عنها. فقال: «والله ما كان له ذنب، ولكن الله تعالى ضَمِنَ له أن يغفر ذنوب شيعته على ما تقدم من ذنبهم وما تأخروا»<sup>٥</sup>.

ثم بين سبحانه فائدته الأخرى بقوله: ﴿وَيُتِمَّ﴾ ويكمل بفضل ﴿نِعْمَتِهِ﴾ التي أعظمها إعلاء كلمة الحق وضم الملك والنبوّة، أو إتمام التكاليف ﴿عَلَيْكَ﴾ فإن جميع ذلك حصل بعد فتح مكة ﴿وَيَهْدِيكَ﴾ في تبليغ الرسالة، وإقامة مراسم الرئاسة ﴿صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾.

١. مجمع البيان ١٦٨: ٩، تفسير الرازي ٢٨: ٨٨.

٢. تفسير الرازي ٢٨: ٨٨.

٣. تفسير الناصبي ٥: ٣٦.

٤. تفسير النعماني ٢: ٣١٤ مجمع البيان ١٦٨: ٩، تفسير الناصبي ٥: ٣٧.

٥. مجمع البيان ١٦٨: ٩، جوامع الجامع ٤٥٢، تفسير الناصبي ٥: ٣٦.

قيل: إنه حصل بعد فتح مكة من انضاح سبيل الحق واستقامة مناهجه ما لم يكن حاصلًا قبله<sup>١</sup> **﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ﴾** يا محمد، بذلك الفتح العظيم، على أعدائك **﴿تَنْصُرُ عَزِيزًا﴾** وقويًا ومنيعًا، أو عزيزًا صاحبه، أو نفيسًا يَمَلُّ مثله، وإنما ذكر سبحانه الاسم الجليل لإظهار كمال العناية بذلك النصر، ولكونه خاتمة الغايات.

قيل: إنه لم يبق بعد الفتح عدو يعتنى به، فإن أغلب العرب صاروا مؤمنين أو مستأمنين<sup>٢</sup>.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَفِيهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا \* لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا [٤ و ٥]

ثم يبين سبحانه ما هو وسيلة نصره في الظاهر بقوله: **﴿هُوَ﴾** المتفضل **﴿الَّذِي أَنْزَلَ﴾** برحمته وفضله **﴿السَّكِينَةَ﴾** والطمأنينة.

وعنها **﴿الْبَقَّة﴾**: «هو الايمان» **﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾**<sup>٣</sup> وجعل فيها بطفه ثباتًا وقرارًا، لا تماج ولا تزلزل من مشاهدة شوكة العدو وقوته وكثرته **﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا﴾** ويقينًا بنصر الله، فكانه صار إيمانهم مقرونًا **﴿مَعَ إِيمَانِهِمْ وَ﴾** يقين مضافًا إلى يقينهم، أو المراد لينضم يقينهم بالأحكام الإلهية بيقينهم بالتوحيد والمعاد، أو يزداد إيمانهم بصدق الرسول على إيمانهم بالتوحيد، أو يزداد إيمانهم الاستدلالي بإيمانهم الفطري، والحال أن **﴿لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** من الملائكة والجن وسائر الحيوانات، بل سائر الموجودات من المياه والرياح والنار والرمود والصواعق والزلازل وغيرها، فلا حاجة له في نصرة نبيه إلى المؤمنين، بل هو قادرٌ على إهلاك أعدائه بإرادته من غير حاجة إلى الجند من خلقه.

ثم يبين علمه وإحاطته بالقلوب القابلة لتزول السكينة فيها، ومقدار إيمان المؤمنين وعدد جنوده من الموجودات بقوله: **﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾** بكل شيء ذاتًا وقابليةً وعددًا و**﴿حَكِيمًا﴾** في تقديره وتدبيره، يوجد كل شيء في محله، ويعامل مع كل شيء بما يستحقه، وإنما أراد ازدياد الايمان في القلوب **﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾** يوم القيامة بإزاء إيمانهم **﴿جَنَّاتٍ﴾** وبساتين ذات أشجار

٢. تفسير نور الثقلين ٥: ٥٦.

١. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٤، تفسير روح البيان ٩: ١٠.

٣. الكافي ٢: ١٢/١، و: ٤/١٣، تفسير الصافي ٥: ٣٩.

كثيرة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة، ليزداد صفاؤها وبهاؤها وطرأوتها<sup>١</sup> ﴿وَيُكَفَّرُ﴾ ويستر عنهم ﴿فِي تِلْكَ الْجَنَّاتِ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ وخطاياهم وزلاتهم، لئلا يذكرونها فينقص عيشهم الخجلة والانفعال من ربهم، وإن صارت مغفورة.

وقيل: يعني يستر عنهم فيها الأذناس الجسمانية كالفضلات، والنفسانية كالغضب والكبر والحسد وغيرها، وسترها بازالتها عنهم<sup>٢</sup>. أو المراد مغفرة ذنوبهم في الآخرة قبل دخول الجنة، وإنما قدم دخولهم في الجنة على تكفير معاصيهم، مع أن وجودهما بالعكس للمسارة إلى بيان الطلب الأعلى<sup>٣</sup>.

قيل: إن الجملتين متعلقان بقوله: ﴿ليغفر لك الله﴾ بناءً على أن المراد من ذنبه ذنب أمته، والمعنى ليغفر لك الله ذنب أمتك، ليُدخل المؤمنين إلى آخره<sup>٤</sup>.

وقيل: إنهما متعلقان بقوله تعالى: ﴿وينصرك الله﴾ والمعنى لينصرك الله بالمؤمنين، ليُدخل المؤمنين والمؤمنات<sup>٥</sup> إلى آخره.

واحتُمِلَ تعلُّقهما بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ حيث روي أن المؤمنين قالوا للنبي ﷺ: هنيئاً لك، إن الله غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخرن فماذا لنا؟ فنزلت هذه الآية، والمعنى: فتحتنا لك ليُدخل المؤمنين<sup>٦</sup>.

ولا يخفى أن الكلَّ في غاية البعد غير الأول، والأبعد من الكلِّ، ما قاله أبو السعود من تعلُّقهما بما يدلُّ عليه قوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من معنى التصرف والتدبير، والمعنى أنه تعالى دبر ما دبر من تسليط المؤمنين، ليعرفوا نعمة الله في ذلك ويشكروها، فيدخلهم الجنة، ويكفر عنهم سيئاتهم<sup>٧</sup>.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ المذكور من دخول الجنة، تكفير السيئات ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وفي علمه ﴿فَوْزاً عَظِيماً﴾ وظفراً كاملاً بأعلى المقاصد.

وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ  
السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَعَصِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ  
وَسَاءَتْ مَصِيرًا [٦]

٢. تفسير الرازي ٢٨: ٨٣.

٤-٦. تفسير الرازي ٢٨: ٨٣.

١. لم يذكر المصنف تفسير قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

٣. تفسير روح البيان ٩: ١٤.

٧. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٥.

ثم بيّن سبحانه غاية أخرى لإنزال السكينة في قلوب المؤمنين وازدياد إيمانهم بقوله: ﴿وَيُعَذِّبُ﴾ الله بسبب إنزال السكينة في قلوبهم وازدياد إيمانهم وقوتهم وكثرتهم ﴿الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ من أهل المدينة ﴿وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ من أهل مكة ﴿الظَّالِمِينَ بِآثِهِ﴾ في حق نبيه ﷺ والمؤمنين به ﴿ظُلَّ السَّوءِ﴾ والحسبان القبيح الفاسد، أو حُساب الأمر سوء والفاسد، وهو ظَنُّهم وحُسابُهم أن الله لا ينصر نبيه ﷺ والمؤمنين، بما قَدَّمهم على المشركين، حيث حَسَبوا أنه لا ينصرهم، وأنه لا يرجع أحدٌ منهم إلى أهله أبداً، ولذا تخلف عنه المنافقون الذين هم أسوأ حالاً من المشركين، وأولى بالعذاب منهم، ولذا قَدَّمهم على المشركين في الذكر.

ثم أكذب الله ظَنُّهم، وقلب ما يَتَوَكَّنونه بالرسول ﷺ والمؤمنين عليهم بقوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ﴾ في الدنيا، وحائق بهم ما يكرهونه من الفساد والخذلان والحرمان عن جميع المطالب. وقيل: إنه دعاء عليهم<sup>١</sup>، كقوله: ﴿قاتلهم الله﴾.

﴿وَعَصِبَ اللَّهُ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أشد الغضب ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ وطردهم عن ساحة رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ وهياً ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ﴾ يَصْلُونَهَا ﴿وَسَاءَتْ﴾ جهنم ﴿مَصيراً﴾ ومرجعاً لهم، وفي عطف اللعن وما بعده بالواو مع اقتضاء كون اللعن مسبباً عن الغضب، وإعداد جهنم لهم مسبباً عن اللعن، عطفهما بإفاء إشعاراً باستقلال كل من الثلاثة في الوعيد.

وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَزِيْرًا حَكِيْمًا \* إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا  
وَمُبَشِّرًا وَنَذِيْرًا [٨٧و٨٨]

ثم إنه تعالى بعد بيان قدرته على نصرة الرسول ﷺ بكون جنود السماوات والأرض له، بيّن قدرته على تعذيب المنافقين والمشركين في الدنيا والآخرة بقوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

قيل: إن المراد بالجنود في الآية الأولى جنود الرحمة، ولذا وصف ذاته المقدسة بالعلم باستحقاق النفوس الزكية، بالحكمة البالغة، والمراد منها في الآية جنود العذاب، ولذا وصف ذاته بالعزة والحكمة<sup>٢</sup>.

﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ أزلاً وأبداً ﴿غَزِيْرًا﴾ وقديراً على كل شيء و ﴿حَكِيْمًا﴾ في أفعاله، لا يُعَذِّبُ أحداً إلا باستحقاقه، ولا يفعل شيئاً إلا على مقتضى الحكمة والصواب، فإن عادته تعالى توصيف ذاته

بالعزة في مقام ذكر العذاب والانتقام.

زُوي أن عبد الله بن أبي بن سلول، قال: هَبْ أَنْ مُحَمَّدًا هَزَمَ الْيَهُودَ وَغَلَبَ عَلَيْهِمْ، فَكَيْفَ اسْتَطَاعَتْهُ بَفَارِسَ وَالرُّومَ؟ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وَهُمْ أَكْثَرُ عِدْدًا وَأَقْوَى مِنْ فَارِسَ وَالرُّومِ<sup>١</sup>.

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَشَارَةِ رَسُولِهِ ﷺ بِالْفَتْحِ، بَيَّنَّ مَنَاصِبَ الْجَلِيلَةِ الْمَوْجِبَةَ لَغَايَةِ الْإِلَافِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ، وَبَعَثْنَاكَ عَلَى أَمْتِكَ لِتَكُونَ ﴿شَهِيدًا﴾ عَلَى تَصْدِيقٍ مِنْ صَدَقَكَ، وَتَكْذِيبٍ مِنْ كَذَبِكَ وَعَصَى مِنْ أَمْتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَوْ شَهِيدًا بَيْنَ النَّاسِ عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ كَمَا فِي آيَةِ ﴿شَهِدَ اللَّهُ<sup>٢</sup>﴾ وَ﴿مُبَشِّرًا﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُطِيعِينَ بِالثَّوَابِ وَ﴿نَذِيرًا﴾ لِلْكَفَّارِ وَالْعَاصِينَ بِالْعَذَابِ.

لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا \* إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِئُتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا [١٠ و ٩]

ثُمَّ وَجَّهَ سُبْحَانَهُ الْخُطَابَ إِلَى النَّاسِ، وَبَيَّنَّ غَايَةَ الْإِرْسَالِ وَالتَّبَشِيرِ بِقَوْلِهِ: ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الَّذِي أَرْسَلَهُ إِلَيْكُمْ، وَتَنْصُرُوا اللَّهَ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُقَوِّهِ بِتَقْوِيَةِ رَسُولِهِ وَتُصِرَّةِ دِينِهِ ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وَتُعْظَمُوهُ بِاطَاعَةِ أَمْرِهِ وَالسُّجُودِ لَهُ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ وَتُزْهِوهُ مِنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ ﴿بُكْرَةً﴾ وَصَبَاحًا ﴿وَأَصِيلًا﴾ وَمَسَاءً وَعُدُوءًا وَعَشِيًّا.

قِيلَ: إِنَّمَا خَصَّ سُبْحَانَهُ الْوَقْتَيْنِ بِالتَّسْبِيحِ، لِشِرَافَتِهِمَا، وَلظَهْورِ أَثَارِ الْقُدْرَةِ فِيهِمَا، وَلِذَا وَرَدَ عَنِ الْأَنْمَةِ الْأَطْهَارِ ﷺ تَأَكُّدَ اسْتِحْبَابِ التَّسْبِيحِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا<sup>٣</sup>.

وَقِيلَ: لِمَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَجْتَمِعُونَ لِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ فِي الْكَعْبَةِ فِي الْوَقْتَيْنِ، أَمَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ بِخِلَافِ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ<sup>٤</sup>.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أُرِيدَ مِنَ التَّسْبِيحِ بُكْرَةً صَلَاةُ الْفَجْرِ، وَبِأَصِيلٍ صَلَاةُ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ<sup>٥</sup>.

وَقِيلَ: أُرِيدَ بِالْبُكْرَةِ صَلَاةُ الْفَجْرِ، وَبِأَصِيلٍ بَقِيَّةُ الصَّلَاةِ<sup>٦</sup>.

وَقِيلَ: إِنَّ ذِكْرَ الْوَقْتَيْنِ كُنَايَةً عَنِ الدَّوَامِ<sup>٧</sup>.

١. تفسير روح البيان ٩: ١٦.

٢. آل عمران: ١٨/٣.

٣. وسائل الشيعة ٧: باب ٢٥ و ٤٧.

٤. تفسير الرازي ٢٨: ٨٦.

٥. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٦، تفسير روح البيان ٩: ١٨.

٦. تفسير روح البيان ٩: ١٨.

٧. تفسير الرازي ٢٨: ٨٦، تفسير روح البيان ٩: ١٨.

وقيل: إِنَّ الضمان كله راجعة إلى الرسول ﷺ وليس بشيء.<sup>١</sup>

ثم لما أعلن سبحانه برسالة محمد ﷺ بَيْنَ أَنْ يده بمنزلة يده، وبيعه بمنزلة بيعته بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ ويُعاهدون ملك يا محمد على أتباعك وطاعتك، وتفدية أنفسهم دونك ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ لأنك نائبة ومظهره، وقصدك من أخذ بيعتهم أخذ بيعتهم لله على طاعته والجهاد في سبيله، فيدك حين البيعة فوق أيديهم، كأنها ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ وفيه غاية التعظيم ليد الرسول. عن ابن عباس: يعني يد الله بالتواب، وما وعدهم على بيعتهم من الجزاء، فوق أيديهم بالصدق والوفاء.<sup>٢</sup>

وقيل: يعني قوة الله في نصرة نبيه ﷺ فوق نصرتهم إياه، والمراد ثِقَ بنصرة الله لا بتصرتهم وإن بايعوك.<sup>٣</sup>

وقيل: يعني نعمة الله عليهم بنبيه ﷺ فوق أيديهم بالطاعة بالمبايعة.<sup>٤</sup>

وقيل: إنه كناية عن حفظ الله تلك البيعة، فإن العرب كانوا إذا تصافقوا للبيع وضع ثالث يده على أيدي المتبايعين، ويَحْفَظُ يديهما إلى أن يَتِمَّ العقد لا يترك أحدهما أن يقبض يده إلى نفسه ويفارق صاحبه قبل اتمام البيع.<sup>٥</sup>

ثم هدد سبحانه ناقضين العهد والبيعة بقوله: ﴿فَمَنْ نَكَثَ﴾ البيعة، ونقض عهده مع النبي ﷺ، وأعرض عن طاعته وأتباعه وفرض الجهاد معه ﴿فَأِنَّمَا يَنْتَكُثُ﴾ بيعته وينقض عهده، وكان ضرره ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾ لا يتخطاه إلى غيره ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ﴾ من الطاعة وضرب السيوف بين يدي نبيه ﷺ حتى يَظْهَرَ الله على عدوه أو يقتلوا، واستقام عليه وثبت ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾ في الآخرة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وثواباً جزيلاً لا يقادر قدره.

قيل: أبقى ضم هاء (عليه) توسلاً إلى تفخيم لام الجلالة.<sup>٦</sup>

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا  
يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ  
بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا [١١]

ثم لما ذكر سبحانه وجوب الثبات على بيعة النبي ﷺ وحرمة ظنّ السوء بالله تعالى، ذكر نقض

٢. مجمع البيان ٩: ١٧٢.

٦. تفسير روح البيان ٩: ٢١.

١. تفسير روح البيان ٩: ١٨.

٣. ٥. تفسير روح البيان ٩: ٢٠.

المنافقين بيعته وظلّهم سوء بالله بقوله: ﴿سَيَقُولُ لَكَ﴾ المنافقون ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ والمتقاعدون عن الخروج مع النبي ﷺ ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ قيل: هم أسلم<sup>١</sup>. وقيل: جُهينة ومُزينة وغِفَار، فإنهم استنفرهم رسول الله ﷺ عام الحُدَيْبِيَّة فتخلفوا، واعتلّوا بعد مراجعة النبي ﷺ إلى المدينة، واعتذروا بأننا<sup>٢</sup> ﴿شَغَلْنَا﴾ ومنعنا عن متابعتك في سفرك ﴿أَمْوَالُنَا﴾ التي تكون بأيدينا، فإنا لو كنّا خرجنا معك تلفت وتشتت وفاتت عنا منافعها، وكذا منعنا عيالاتنا ﴿وَأَهْلُونَا﴾ عن الخروج، فإنه لم يكن لنا من يخلّفنا فيهم، ويقوم بأمورهم ومصالحهم، ويحميهم عن الضياع والهلاك، مع أن حفظهم أهمّ الأمور، وإن كان في القعود عنك ذنب وتقصير منا ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ ربنا ليغفر لنا ذلك الذنب والتقصير. ثم كذب سبحانه اعتذارهم، وطلب استغفارهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ لك ﴿بِالْإِسْتِغْفَارِ﴾ وأفواههم ﴿مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإيمان والعذر والنّدم، بل ما أقعدهم إلا الشكّ والنفاق وسوء الظنّ بالله، حيث كانوا يقولون: إن قريش كانوا يقاتلون عن باب المدينة، فكيف حالهم إذا دخل المسلمون في بلادهم. ثم أمر الله رسوله بإبطال عذرهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم، إن كنتم تخلفتم لحفظ أموالكم وأهلكم ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ﴾ ويقدر لأجلكم ﴿مِنْ﴾ مشيئة ﴿الله﴾ وقضائه ﴿شَيْئاً﴾ يسيراً من النفع ﴿إِنْ أَرَادَ﴾ الله أن يحلّ ﴿بِكُمْ ضَرّاً﴾ من هلاك الأهل والمال وضياعهما حتى تتخلفوا عن رسول الله ﷺ لحفظهما ودفع الضرر الوارد عليكم بتلفهما ﴿أَوْ﴾ من يقدر على إضراركم إن ﴿أَرَادَ﴾ الله أن يوصل ﴿بِكُمْ نَفْعاً﴾ من حفظ أموالكم وأهلكم، فإذا كان الضرر والنفع بارادة الله ومشيتته، فلا ينفع القعود عن متابعة النبي ﷺ في حفظ أموالكم وأهلكم من الضياع، ولا يؤثر خروجكم في هلاكهما، ليس الأمر كما تقولون ﴿بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال التي من جملتها تخلفكم عن النبي ﷺ ﴿خَبيراً﴾ وبصيراً.

بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا سَوْئًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا \* وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا [١٢ و ١٣]

ثم أخبر سبحانه بما في قلوبهم بقوله: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ﴾ وتوهمتم أنّها المتخلفون لعدم إيمانكم ﴿أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ﴾ ولن يرجع ﴿الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ به الذين اتبعوه في الخروج إلى مكة ﴿إِلَى أَهْلِيهِمْ﴾ وعشائرهم الذين كانوا في المدينة ﴿أَبَدًا﴾ وأصلاً، وتخيلتم إن كنتم معهم أن يصيبكم مثل ما

يُصِيبُهُمْ ﴿وَزُرِّيْن﴾ من قبل الشيطان ﴿ذَلِكَ﴾ الظن والتوهم ﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾ حتى قطعتم به.  
ثم قبح سبحانه ذلك الظن بقوله: ﴿وَضَلَلْتُمْ﴾ أيها المخلفون ﴿ظُلَّ السَّوْءُ﴾ وتوهمتم التوهم القبيح  
الفاسد ﴿وَكُنْتُمْ﴾ بذلك الظن، وصرت بهذا التوهم ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ وجمعاً هالكين.  
وقيل: إنه بيان لعلّة ظنهم، وهي كونهم في الأصل قوماً هالكين فاسدين مستوجبين سخط الله  
وعقابه<sup>١</sup>، لخبث ذواتهم ونيّاتهم.

ثم هدّدهم سبحانه بعذاب الآخرة بقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ﴾ إيماناً خالصاً ﴿بِإِلَهِ وَرَسُولِهِ﴾ عن  
صميم القلب، سواء أظهر الكفر كالمشركين، أو أظهر الإيمان كالمنافقين، فهو كافر ﴿فَإِنَّا أَعْتَدْنَا﴾  
وهيئنا ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ مطلقاً في الآخرة ﴿سَعِيرًا﴾ وناراً ملتهبة لا يدرك أحد في الدنيا شدّة حرّها.

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ  
غَفُورًا رَحِيمًا \* سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُوا دُرُومًا  
تَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ  
فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا [١٤ و ١٥]

ثم إنّه تعالى بعد وعد المؤمنين بالمغفرة والجنة، ووعد المنافقين والمشركين بالعذاب، نبّه على  
سعة قدرته تهويلاً للقلوب بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والسّلطنة المطلقة التامة في عالم  
الوجود بحيث يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فهو تعالى ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أن يغفر له ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ  
يَشَاءُ﴾ أن يعذّبه بمقتضى عدله وحكمته، بلا دخل لأحد في شيءٍ منهما إيجاباً وإعداماً.  
ثم أعلن سبحانه بسعة رحمته، لترغيب الناس إلى التوبة والرجوع إليه بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾  
لذنوب التائبين ﴿رَحِيمًا﴾ بمن آمن وأصلح.

قيل: إنّه ﷺ لما تم صلح الحديبية أخبر أصحابه بفتح خيبر، واختصاص غنائمه بالحاضرين في  
الحديبية من المؤمنين<sup>٢</sup>.

ثم رجع ﷺ وأصحابه إلى المدينة في ذي الحجة سنة ست، وأقام بها بقية الشهر من سنة سبع، ثم  
عزم في محرم سنة سبع على الخروج إلى خيبر، فاستدعى المنافقون أن يخرجوا مع المؤمنين،  
فأكذب سبحانه اعتذارهم عن الخروج إلى مكة بقوله: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾ المذكورون لكم: أيها

١. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٧، تفسير روح البيان ٩: ٢٨.

٢. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٨، تفسير روح البيان ٩: ٢٩.



النبي والمؤمنون ﴿إِذَا أَنْطَلَقْتُمْ﴾ وحين ذهبتم ﴿إِلَى مَغَانِمَ﴾ خير ﴿لِتَأْخُذُوا﴾ وَتَحْزَوْهَا ﴿ذُرُوتًا﴾ واتركونا ﴿تَتَّبِعُكُمْ﴾ إلى خير ونشهد معكم قتال أهلها، فإنهم إن كانوا حين خروجهم إلى مكة صادقين في اعتذارهم باشتغالهم بحفظ أموالهم وأهلهم، فما بالهم يسألونكم ذلك مع بقاء عذرهم اليوم أيضاً، فظهر أنهم كانوا كاذبين في اعتذارهم بعد رجوعكم من مكة، وليس غرضهم من سؤالهم ذلك أن يعينوكم في الجهاد مع الكفار بل ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُشَارِكُوكُمْ فِي الْغَنَائِمِ﴾ وَيُغَيِّرُوا ﴿كَلَامَ اللَّهِ﴾ ووعده باختصاص غنائم خير بأهل الحديبية، كما عن ابن عباس<sup>١</sup>. أو أمر الله نبيه ﷺ بأن لا يكون معه إلا أهل الحديبية<sup>٢</sup>، أو قوله تعالى: ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وأنه يعاقبهم، فإنهم لو اتبعوهم كانوا ممن رضى الله عنه.

فأمر نبيه ﷺ بأن ينهاهم عن الخروج معه بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿لَنْ تَتَّبِعُونَا﴾ ولا تكونون معنا في سفرنا إلى خير ﴿كَذَلِكُمْ﴾ القول الذي قلت لكم ﴿قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ عند انصرافي من الحديبية ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ للمؤمنين عند سماع هذا النهي: ليس ذلك النهي حكم الله ﴿بَلْ أَنْتُمْ تَحْسُدُونَنَا﴾ وتريدون منعنا من هذه النعمة التي نستحقها.

بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا \* قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْدَةٌ إِلَى قَوْمِ  
أُولَى بِأَنْسٍ شَدِيدٍ ثِقَاتٌ لَوْ تَهُمَّ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا  
وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا [١٥ و ١٦]

ثم رد الله عليهم كما ردوا على المؤمنين بقوله: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ ولا يفهمون ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهو ظاهر النهي لا حكمته وواقعه، فلذا حملوه على ما أرادوا، وعللوه بالحسد، أو لإفهام قليل، وهو فطنتهم لأمر الدنيا دون أمور الدين ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لِلْمُخَلَّفِينَ﴾ عن متابعتك عند الخروج إلى مكة ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ المنافقين الذين سألو الإذن في متابعتك إلى خير، وإنما ذكر الوصف مقام الضمير إيداناً بغاية ذمهم وشناعة تخلفهم: إن كنتم تشتاقون إلى الجهاد في سبيل الله، فاعلموا أنكم ﴿سِتْدَةٌ﴾ من قبلي ﴿إِلَى﴾ جهاد ﴿قَوْمٍ﴾ من الكفار ﴿أُولَى بِأَنْسٍ شَدِيدٍ﴾ وذوي قوّة وشدّة وشهامة في الحرب. قيل: هم قبيلة هوازن وتقيف<sup>٣</sup>. وقيل: هم بنو حنيفة، كانوا من أهل اليمامة قوم مسيلمة الكذاب<sup>٤</sup>، فإنه كان أول غزوهم في زمان النبي ﷺ، وإن طال إلى زمان أبي بكر.

١. مجمع البيان ٩: ١٧٤.

٢. مجمع البيان ٩: ١٧٤.

٣. مجمع البيان ٩: ١٧٦، تفسير الصافي ٥: ٤١، تفسير روح البيان ٩: ٣١.

٤. تفسير أبي السعود ٨: ١٠٩، تفسير روح البيان ٩: ٣٠.

فسي رد استدلال بعض العامة على إمامة أبي بكر

ثم كأنه قيل: لماذا نُدعى، فأجاب سبحانه بقوله: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ لا يكون إلا أحد الأمرين، إما المقاتلة، وإما الاسلام ﴿فَإِنْ طَعِمُوا﴾ أمر النبي ﷺ، وشجّبوا دعوته ﴿يُؤْتِكُمْ اللَّهُ﴾ على طاعتكم ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ في الدنيا وهو الغنيمة وحسن الذكر، وفي الآخرة وهو الجنة ونعيمها ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن إجابة النبي ﷺ، وتعرضوا عن إطاعته ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن دعوته وتخلّفتُم عن الخروج معه ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في الحديبية كفراً وبنافاً ﴿يُعَذِّبُكُمُ﴾ الله ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا بالجزى والجحيم من كل خير، وفي الآخرة بالنار، فجعل الله لصدقهم في الايمان ودعوى الخلوص علامة، وهي إجابة دعوة النبي ﷺ إلى الجهاد، لا دعوة غيره كأبي بكر كما ادّعاء بعض العامة، فاستدلال بعضهم بالآية على إمامة أبي بكر بتقريب أن الله وعد الأجر الحسن على إطاعة دعوة الداعي إلى الجهاد قوم أولي بأس، وكان الداعي إليه أبو بكر، فكانت إطاعته واجبة، في غاية الوهن والفساد.

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَعدُّهُ عَذَابًا أَلِيمًا \* لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا \* وَسَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا [١٧-١٩]

ثم إنه تعالى بعد إيجاب إجابته دعوة النبي ﷺ إلى الجهاد، رخص للمعذورين التخلّف بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ﴾ وإثم في التخلّف عن الجهاد ﴿وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ﴾ ومن برجله شلل ﴿حَرْجٌ﴾ وضيق وإثم ﴿وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ﴾ الذي يكون به الضعف عن القتال ﴿حَرْجٌ﴾ وإثم لعجز الفرق الثلاث عن الكر والفر في القتال ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في أوامرهما ونواهيهما ﴿يُدْخِلْهُ﴾ الله في الآخرة ﴿جَنَّاتٍ﴾ ذات قصور وأشجار ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة أحكامهما، ويعصي أوامرهما ﴿يَعدُّهُ﴾ الله في الآخرة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لا يمكن وصفه إلا بنهاية الإيلام.

ثم لما ذكر الله غضبه على الكفار والمنافقين، أعلن برضاه عن المؤمنين المخلصين بقوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وشملتهم الرحمة الخاصة ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ وحين يعاهدونك على

طاعتك، وجهاد أعدائك<sup>١</sup>، والضرب بالسيف دونك حتى يُظهر الله على عدوك ﴿تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ المعهودة. قيل: هي شجرة السَّدر<sup>٢</sup>. وقيل: هي شجرة سَمرة، وهي أم غيلان<sup>٣</sup>. روى بعض العامة: أن عمر قَطَعَهَا، وهو من مطاعنه.

﴿فَعَلِمَ﴾ الله ﴿مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الصدق والاخلاص حين مبايعتهم، فصارت هذه البيعة المقرونة بعلم الله بصدقهم سبباً لرضا ربهم عنهم ﴿فَأَنْزَلَ﴾ الله ﴿السَّكِينَةَ﴾ والطمأنينة بالنصر والثبات على الإيمان ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بتقوية إيمانهم حتى بايعوك على الموت.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا أول من بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة»<sup>٤</sup>.

﴿وَأَتَابَهُمْ﴾ الله وجازاهم على بيعتهم عن الصدق والاخلاص ﴿فَتَحَّأُ قَرِيبًا﴾ وهو فتح خيبر الذي حصل لهم بعد انصرافهم من الحُدَيْبِيَّةِ ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ من اليهود ﴿يَأْخُذُونَهَا﴾ ويحوزونها عوضاً ما فات منهم من غنائم مكة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ كامل القدرة لا يحتاج إلى إعانته إياه ﴿حَكِيمًا﴾ حيث جعل إذلالكم أعداءكم بأيديكم لتفوزوا بالثواب، وتنالوا عز الدنيا والآخرة.

وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا [٢٠]

ثم لما كانت العرب كثيرة الطمع في الغنيمة، وكان مجال توهم أن لا تكون لهم إلا غنيمة خيبر، دفع الله سبحانه هذا التوهم مخاطباً لهم بقوله: ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ﴾ أيها المسلمون مضافاً إلى غنيمة خيبر ﴿مَغَانِمَ﴾ أخرى ﴿كَثِيرَةً﴾ من العرب كهوازن وتغيف ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ وتحوزونها في أوقاتها المقدرة لكل منها ﴿فَعَجَلَ﴾ الله ﴿لَكُمْ﴾ يا أهل الحُدَيْبِيَّةِ ﴿هَذِهِ﴾ الغنائم التي تأخذونها من أهل خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ ومنعهم مع كثرتهم من قتالكم إتماماً للمنة عليكم، لتطيب بهذه الغنيمة الباردة نفوسكم من غير مسّ مرّ القتال، لئلا تقولوا إن هذه الغنيمة فائدة قتالنا وتعبنا.

وقيل: إن المراد كف أيدي قبائل أسد وغطفان أن يغيروا على أموال المسلمين وعيالهم بعد خروجهم إلى خيبر بالقاء الرُّعب في قلوبهم<sup>٥</sup>.

﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الغنيمة ﴿آيَةً﴾ وعلامة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ كافة، يعرفون بها صدق الرسول ﷺ في وعده إياهم بخير الدنيا والآخرة، كما صدّق وعده إياكم بفتح خيبر وغنائمه ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ بلفظه

١. في النسخة: والجهاد مع أعدائك.

٢. تفسير أبي السعود ٨: ١١٠، تفسير روح البيان ٩: ٣٣.

٣. تفسير روح البيان ٩: ٣٤.

٤. تفسير روح البيان ٩: ٣٣.

٥. تفسير أبي السعود ٨: ١١٠، تفسير روح البيان ٩: ٣٥.

٥. تفسير القمي ٢: ٢٦٨، تفسير الصافي ٥: ٤٢.

﴿صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ وطريقاً موثقاً إلى قربه ومرضاته، وهو التوكّل عليه والتفويض إليه.

نسي كيفية غزوة قيل: إنّ خير اسم حصن معروف سمي باسم رجلٍ من العمالق نزلها، وكان أخا خير ونحها يثرب الذي سميت المدينة الطيبة باسمه<sup>١</sup>.

وقيل: إنّ خير بلسان اليهود هو الحصن، وكانت مدينة كبيرة بينها وبين المدينة اثنتان وثلاثون فرسخاً، وفيها حصون ومزارع وتخل كثير.

ثم رجع رسول الله ﷺ من الحُدَيْبِيَّة إلى المدينة فأقام بها قريباً من الشهر، ثم استنفر من حوله ممن شهد الحُدَيْبِيَّة، وأمر منادياً ينادي: لا يخرج الضعيف، ولا من له مركب صعب، فخالف واحد من الصحابة، فنفر مركوبه فصرعه فكسر فخذه فمات، وجاء المخلفون عنه في الخروج إلى الحُدَيْبِيَّة، فسألوا الإذن في الخروج معه رجاء الغنيمة، فقال ﷺ: لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد، أما الغنيمة فلا، وأخرج معه من نسائه أم سلمة، فلما أشرف على خير، وكان وقت الصبح، رأى عمّالها وقد خرجوا بمساحيهم وقفّهم، قالوا: محمد وجيشه العظيم! وأدبروا هرباً إلى حصونهم، وكان بها عشرة آلاف مقاتل<sup>٢</sup>. وقيل: سبعون ألفاً، ومعهم حلفاؤهم من بني أسد وعطفان، فقفذ الله في قلوبهم الرعب<sup>٣</sup>.

فقال ﷺ: «الله أكبر، خربت خير، إنّنا إذا نزلنا بساحة قوم ساء صباحهم، وابتدأ من حصونهم بخصون النطاة، وأمر بقطع نخلهما، فقطعوا أربعمائة نخلة، ثم نهاهم عن القطع، فمكث سبعة أيام يقاتل أهل حصون النطاة، فلم يرجع من أعطى له الراية بفتح، ثم قال: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبنا، يفتح الله على يديه» فتطاول لها أبو بكر وعمر وبعض الصحابة من قريش، فدعا علياً عليه السلام وبه رمّد، فتقلّ في عينيه، ثم أعطاه الراية، وكانت بيضاء مكتوب فيها لا إله إلا الله، محمد رسول الله، بالسواد. فقال علي عليه السلام: «على ما أقاتلهم يا رسول الله؟» قال: «على أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد حقنوا دماءهم وأموالهم».

وألبس عليه درعه الحديد، وشدّ سيفه ذا الفقار في وسطه، ووجهه إلى الحصن، وقال: «لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم [أي من الابل النفيسة التي] تصدّق بها في سبيل الله». فخرج علي عليه السلام بالراية يهرول حتى ركّزها تحت حصن الحارث أخي مرحب، وكان معروفاً بالشجاعة، فتضارباً فقلته علي عليه السلام، وانهزم اليهود إلى الحصن، ثم خرج إليه مرحب سيد اليهود، وهو

يرتجز ويقول:

قد عَلِمْتَ خيبر أنِّي مرحب شاكي السلاح البطل المجرب

وارتجز علي عليه السلام، وقال:

أنا الذي سَمَنِي أُمِّي حيدرة ضمر غام أجام وليث قسورة

فضرب علياً عليه السلام فطرح ثَرَسَه من يده، فتناول علي عليه السلام باباً كان عند الحصن، فتنزَّس به عن نفسه، فلم يزل يقاتل وهو في يده حتى قُتِلَ مرحباً، وفتح الله عليه الحصن، وهو حصن ناعم من حصون النطا، وألقى الباب من وراء ظهره ثمانين شبراً.

ثم انتقل النبي صلى الله عليه وآله وسلم من حصن ناعم إلى حصن العصب من حصون النطا، فاقاموا على محاصرته يومين حتى فتحه الله، وما بخيبر حصن أكثر طعاماً منه، كالشعير والسمن والتمر والزيت والشحم والماشية والمتاع.

ثم انتقلوا إلى حصن قلة، وهو حصن منيع، آخر حصون النطا، فقطعوا عنهم ماءهم، ففتح الله. ثم سار المسلمون إلى حصار الشق، ففتحو الحصن الأول من حصونه، ثم حاصروا حصن البراء وهو الحصن الثاني من حصون الشق، فقاتلوا قتالاً شديداً حتى فتحه الله.

ثم حاصروا حصون الكتبية، وهي ثلاثة حصون: القموص، والوطيح، وسالام، وكان أعظم حصون خيبر القموص، وكان منيعاً، فحاصره المسلمون عشرين ليلة، ثم فتحه الله على يد علي عليه السلام، ومنه سُبِّتَ صفية، وأنتهت المسلمون إلى حصار الوطيح وسالام آخر حصون خيبر، ومكثوا على حصارهما أربعة عشر يوماً، فهذان الحصنان فُتِحَا صلحاً، لأنَّ أهلها لما أيقنوا بالهلاك سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصلح على حقن دماء المُقاتلة، وترك الذرية لهم، ويخرُجون من خيبر وأرضها بذرائعهم، وأن لا يصحب أحدٌ منهم إلا ثوباً واحداً على ظهره، فصالحهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ووجدوا في الحصنين المذكورين مائة درع، وأربعمائة سيف، وألف رمح، وخمسمائة قوس عربية بجعابها، وأشياء أخرى غالية القيمة.

في بيان قضية      ثم أرسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى أهل فدك - وهي قرية بخيبر - يدعوهم إلى الاسلام  
فدك

ويُخَرِّفهم، فتصالحوا معه على أن يحقن دماءهم ويُخلِّفهم ويُخلِّلون بينه وبين الأموال، ففعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فصارت فدك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنَّه لم تُؤخذ بمقاتلة، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُنفق منها، ويعود منها على صغار بني هاشم، ويزوج منها أيهم، فلما مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وولي أبو بكر الخلافة أرسل إلى فدك وتصرفها، وسأله فاطمة أن يجعل فدك

لها فأبى، وروى لها أن النبي ﷺ قال: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة»<sup>١</sup>.  
 أقول: ليت شعري كيف يمكن أن يُخفي الرسول ﷺ هذا الحكم عن ابنته فاطمة المعصومة التي  
 أذهب الله عنها الرجس وطهرها تطهيراً، مع أنه متعلق بها، حتى تطلب ما ليس لها فيه حق، وتفتضح  
 بين الأصحاب بجهلها بتكليف نفسها، وتتوقع ملكاً يحرم عليها تصرفها فيه، وعن علي بن أبي  
 طالب عليه السلام الذي هو عيبة علمه، وباب حكمته، وعن سائر الصحابة الذين هم شعاره وذئله وأسرته  
 إلى أبي بكر مع كونه جاهلاً بأغلب الأحكام؟! وأي عاقلٍ يحتمل مع ذلك صدق هذه الرواية؟  
 ثم إن النبي ﷺ أمر بالغانم التي عُثِمَت قبل الصُّلح فجمعت، وأصاب منها سبايا منها صفية بنت  
 حُيَي بن أخطب، من سبط هارون أخي موسى بن عمران، فأسلمت ثم أعتقها رسول الله ﷺ، ثم  
 تزوجها، وكانت رأت في المنام أن القمر وقع في حجرها، فعبرت بذلك، ونهى النبي ﷺ عن إتيان  
 الحبالى وعن غير الحبالى حتى تستبرئ بحیضة.

وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا \* وَلَوْ  
 قَاتَلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا \* سُنَّةَ اللَّهِ  
 الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا [٢١ و ٢٣]

ثم وعد سبحانه المسلمين بغنائم غير تلك الغنيمة بقوله: ﴿وَأُخْرَى﴾ من الغنائم وغير ما ذكرنا ﴿لَمْ  
 تَقْدِرُوا﴾ في حال كفرهم، أو قبل فتح مكة ﴿عَلَيْهَا﴾ ولكن ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ وقدر عليها أو  
 حَفَظَهَا لكم، وهي كما عن ابن عباس غنائم قسطنطينية ورومية وعمورية ومدائن فارس والروم  
 والشام<sup>٢</sup>.

وإنما لم يُقَيَّد غنائم العرب بعدم قدرتهم عليها؛ لأن الغلبة والغارة على العرب كانت عاداتهم  
 القديمة، ولم تكن منهم ببعيد، وأما الاغتنام من الروم وفارس فكان في غاية البعد منهم؛ لأن العرب  
 كانت في ذلك الزمان من أذل الطوائف وأضعفهم على وجه الأرض، وكان كل من الروم والفرس في  
 غاية القوة والشوكة، وكانت غلبة العرب عليهم من المحالات العادية<sup>٣</sup>، ولذا وصف سبحانه الغنيمة

١. تفسير روح البيان ٩: ٣٧.

٢. تفسير روح البيان ٩: ٤١.

٣. هذا الاستنتاج غير صحيح، لأنه يقوم على تعليق عدم القدرة في زمان الجاهلية، وليس هو مراد الآية بانفاق  
 أغلب المفسرين الذين قالوا: إن المراد بالغانم التي لم يقدروا عليها، هي غنائم هوازن، فإنهم لم يقدروا عليها إلى  
 عام الحديبية، وإنما قدروا عليها عقب فتح مكة. كالرازي في تفسيره ٢٨: ٩٧، وأبي السعود في تفسيره ٨: ١١٠،  
 والبروسوي في روح البيان ٩: ٤٠، والزمخشري في الكشاف ٤: ٣٤١ وغيرهم.

منهم بكونها غير مقدورة للمسلمين.

ثم وصف ذاته المقدسة بالقدرة الكاملة بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ بذاته أزلاً وأبداً ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الممكنات ﴿قَدِيرًا﴾.

وقيل: إن المراد من (مغانم كثيرة) في الآية السابقة جميع الغنائم التي تحضّل للمسلمين إلى يوم القيامة<sup>١</sup>، ومن الغنيمة الأخرى غنيمة هوازن<sup>٢</sup>، والأظهر ما ذكرنا.

ثم أكد سبحانه نصرته للمؤمنين بإدخال الرعب في قلوب الكفار من غير حاجة إلى بيعة المؤمنين ونصرتهم بقوله: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جميعهم، أو من أهل مكة، أو حلفاء أهل خيبر من بني أسد وعطفان ﴿لَوَلُّوا أَلْبَابَهُمْ﴾ وانهزموا من قتالكم رعباً منكم ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ﴾ بعد التولي لهم ﴿وَلِيًّا﴾ وصديقاً يخزسهم من الهلاك باللطف ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ومعيناً يدفع عنهم بالعنف.

ثم أعلم أن دفع الكفار عن المؤمنين ونصرة المؤمنين على الكفار ليس مختصاً بكم، بل يكون ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت في الأمم السابقة والأنبياء الماضية ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ ومن بدو الدنيا إلى فنائها ﴿وَلَنْ تَجِدَ﴾ يا محمد ﴿لِسُنَّةِ اللَّهِ﴾ وعادته الجارية القديمة ﴿تَبْدِيلًا﴾ وتغيراً، فلا تحتمل أن يخذلك ولا ينضرك.

هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا [٢٤]

ثم استشهد سبحانه على فرار الكفار إذا قاتلوا المؤمنين بفرارهم يوم الحديبية بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ القادر ﴿الَّذِي﴾ بقدرته أرعب قلوب كفار مكة و﴿كَفَّ﴾ عن قتالكم ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ ومنعهم عن نزالكم، بأن حملهم على الفرار ﴿عَنْكُمْ﴾ مع كثرة عددهم، وكونهم في بلادهم مهتمين للذّب عن أهليهم

→ أمّا قوله: (أذلّ الطوائف وأضعفهم على وجه الأرض) فلم يقل به أحد من المفسرين أو المؤرخين، وليس له ما يزيده من أدلة الشريعة، بل الواقع التاريخي يناقضه ويعارضه، لأنه ثبت بسالهم ونجدهم وشدة بأسهم وإقدامهم، وأنفثهم من الذل والصغار.

وفوله: (من المحالات العادية) غير صحيح، لأن التاريخ يحدثنا عن انتصار قبيلة واحدة، وهي ربيعة، على جيش الفرس الذي أنفذه كسرى لحربهم، في وقعة ذي قار، التي حصلوا فيها على غنائم وفيرة، فضلاً عن قتلوا وأسروا من قادة جيشهم ومقاتليهم، وذلك في أيام جاهليتهم. راجع الكامل في التاريخ ١: ٤٨٢ - ٤٩٠، وتاريخ الطبري ٢: ١٩٣ - ١٩٤.

١. تفسير أبي السعود ٨: ١١٠، تفسير روح البيان ٩: ٣٥.

٢. تفسير أبي السعود ٨: ١١٠، تفسير روح البيان ٩: ٤٠.

وذراهم ﴿و﴾ كف ﴿أَيَّدِيكُمْ عَنْهُمْ﴾ ومنعكم عن قتالهم، بأن حملكم على تركهم والرجوع عنهم ﴿بِطْنِ مَكَّةَ﴾ وفي داخلها ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ مع قوة داعيكم إلى قتلهم واستئصالهم، حيث إن العادة جارية فيمن ظفر بعدوه أن يقتله ويستأصله.

روى بعض العامة: أن جماعة من مشركي مكة خرجوا يوم الحديبية يرثون المسلمين، فرماهم المسلمون بالحجارة حتى أدخلوهم بيوت مكة<sup>١</sup>.

وعن ابن عباس: أن الله أظهر المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت<sup>٢</sup>.

وقيل: إن المراد من بطن مكة أسفل وادها، وهي الحديبية<sup>٣</sup>، حيث إنها في جانب جدة.

قيل: إن جماعة من المشركين خرجوا إلى رسول الله ﷺ من قبل التنعيم<sup>٤</sup> عند صلاة الصبح، ليأخذوه ويقتلوا أصحابه، فأسرهم رسول الله ﷺ ثم خلى سبيلهم<sup>٥</sup>.

وقيل: إن المراد من الكفّين بطن مكة هو ما وقع يوم فتح مكة، والآية إخبار بالغيب، بناءً على نزولها عام الحديبية<sup>٦</sup>.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من طاعة الرسول ﷺ وكفكم عن قتال الكفار ﴿بَصِيرًا﴾ وعالمًا فيجازيكم بذلك أحسن الجزاء.

قيل: إن فتح مكة كان لنقض قريش عهد رسول الله ﷺ، وذلك أن رجلاً من بني بكر هجا رسول الله ﷺ، وكان يتغنى به، فسمعه غلام من خزاعة وكان مسلماً، فضربه وشجّه، فثار الشر بين الحيين فأمدت قريش بني بكر، فبيّتوا على خزاعة، فقتلوا عشرين منهم، فكره ذلك أبو سفيان، وكان رأس قريش، فقال إن زوجتي هند رأت رؤيا كرهتها، رأت دماً أقبل من الحجون - وهو جبل في أعلى مكة - يسيل حتى وقف بخندمة وهو اسم جبل آخر بمكة وقال ليغزونا محمد، فكره القوم ذلك.

ثم جاء عمرو بن سالم الخزاعي إلى رسول الله ﷺ وأخبره بنقض قريش عهدهم، فقال النبي ﷺ: «أُصِرْتُ يا عمرو بن سالم» ودمعت عيناه، وكان يقول: «خزاعة مَنِي، وأنا منهم» وقالت عائشة: أترى قريشاً تجترئ على العهد الذي بينك وبينهم؟ فقال النبي ﷺ: «نقضوا لأمرٍ يُريده الله». فقالت: خير. قال: خير.

فلما ندمت قريش على نقض العهد، أرسلوا أبا سفيان ليشدّ العهد ويزيد في مدّته، فقال النبي ﷺ:

١. تفسير روح البيان ٩: ٤٤.

٢ و ٣. تفسير روح البيان ٩: ٤٤.

٤. التنعيم: موضع بمكة في الحل، وهو بيت مكة وسرف، على فرسخين من مكة.

٥ و ٦. تفسير روح البيان ٩: ٤٤.



«نحن على عهدنا ومدّته» ولم يقبل ذلك من أبي سفيان، فرجع إلى قريش، وأخبرهم بما قال رسول الله ﷺ، وقال: إِنِّي تَبَعْتُ أَصْحَابَهُ، فَمَا رَأَيْتُ قَوْمًا أَطْوَعَ لِمَلِكِهِمْ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ لَه.

ثم أمر النبي ﷺ أصحابه بالجهاز، وأرسل إلى أهل البادية ومن حوله من المسلمين في كل ناحية، يقول لهم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر في شهر رمضان بالمدينة. فلما قَدِمُوا قال ﷺ: «اللهم خُذْ الْعْيُونَ وَالْأَخْبَارَ مِنْ قُرَيْشٍ حَتَّى تَبْلُغَهَا<sup>١</sup> فِي بِلَادِهَا».

ثم خرج من المدينة لعشر خلون من شهر رمضان، وأفطر بالكديد - وهو محلّ بين عسفان وقديد - وأمر أصحابه بالإفطار، وكان عددهم عشرة آلاف، فيهم المهاجرون والأنصار، وعقد ﷺ بالقديد الأولوية والرايات، ودفعها للقبائل، ثم سار ﷺ حتى نزل بِمَرِّ الظُّهْرَانِ وهو على مرحلة من مكة، وقد أعمى الله تعالى أخباره عن قريش إجابةً لدُعائه، وأمر ﷺ أصحابه أن يُوقِدَ كُلَّ أَحَدٍ مِنْهُمْ نَارًا.

فلما سَمِعَتْ قُرَيْشٌ بِتَوَجُّهِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهِمْ أَرْسَلُوا أَبَا سُفْيَانَ لِيَأْخُذَ مِنْهُ الْأَمَانَ لَهُمْ، فَوَصَلَ إِلَى مَرِّ الظُّهْرَانِ لَيْلًا، قَالَ: مَا رَأَيْتُ كَاللَّيْلَةِ نِزَانًا قَطُّ وَلَا عَسْكَرًا، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَبَّاسِ عَمَّ النَّبِيِّ ﷺ صَدَاقَةٌ، فَلَمَّا لَقِيَهِ أَخَذَ الْعَبَّاسُ بِيَدِهِ، وَجَاءَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِيَأْخُذَ مِنْهُ الْأَمَانَ لَهُ، فَقَالَ ﷺ لَهُ: «أَذْهَبْ بِه يَا عَبَّاسُ إِلَى رَحْلِكَ، فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَأْتِنِي بِهِ، فَلَمَّا أَتَى بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ عَرَضَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ فَتَوَقَّفَ، فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ: وَيْحَكَ أَسْلِمَ وَأَشْهَدُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ عُنُقُكَ، فَشَهِدَ الشَّهَادَتَيْنِ وَأَسْلَمَ.

ثم قال: يا رسول الله، إِنْ اعْتَزَلْتَ قُرَيْشٌ فَكَفَّتْ أَيْدِيهَا أَهْمَ مُؤْمِنُونَ؟ قَالَ ﷺ: «نَعَمْ، مِنْ كَفَّ يَدَهُ وَأَغْلَقَ بَابَ دَارِهِ فَهُوَ آمِنٌ» فقال العباس: يا رسول الله، إِنْ أَبَا سُفْيَانَ يُحِبُّ الْفَخْرَ، فَاجْعَلْ لَهُ شَيْئًا. قَالَ: «نَعَمْ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَلْقَى سِلَاحَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَ حَكِيمٍ فَهُوَ آمِنٌ» واستثنى جماعة من الرجال والنساء، وأمر بقتلهم، وَإِنْ وَجِدُوا مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ، مِنْهُمْ ابْنُ خَطْلٍ وَنَحْوُهُ، فَأَنْهُمْ كَانُوا طِفَاةً مَرْدَةً مُؤَذِّينَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَشَدَّ الْأَذَى.

وقال ﷺ للعباس: «احْبِسْ أَبَا سُفْيَانَ فِي مَضِيقِ الْوَادِي حَتَّى تَمُرَّ بِهِ جُنُودُ اللَّهِ فَيَرَاهَا» فأول من مرَّ به خالد بن الوليد في بني سليم، ثم قبيلة بعد قبيلة براياتهم، حتى مرَّ رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون والأنصار، فقال أبو سفيان: سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟ فقال العباس: هذا رسول الله في الأنصار، وكان عليهم سعد بن عبادة ومعه الراية، وكان المهاجرون سبعمائة ومعهم ثلاثمائة فرس، والأنصار

١. في تفسير روح البيان: نبغتها.

٦٣٦ ..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٥

أربعة آلاف ومعهم خمسمائة فرس. فقال أبو سفيان: ما لأحد بهؤلاء من قِبَل ولا طاقة، يا عباس لقد أصبح مُلك ابن أخيك اليوم عظيماً. فقال العباس: إنها النبوة.

ثم أمر ﷺ أن يدخل خالد بن الوليد مع جملة من قبائل العرب من أسفل مكة، وقال: لا تقاتلوا إلا من قاتلكم، وجمع قريش ناساً بالخدمة ليقاتلوا، فلما لقيهم خالد منعه من الدخول ورموه بالنبل، فصاح خالد في أصحابه، فقتل من قُتل، وانهزم من لم يُقتل، فوصل خالد إلى باب المسجد، ودخل ﷺ بمكة وهو راكب على ناقته القصوى مردفاً أسامة بن زيد في صبيحة يوم الجمعة، أو يوم الاثنين، معتمداً بعمامة سوداء، واضعاً رأسه الشريف على راحلته تواضعاً لله تعالى مما رأى من كثرة المسلمين وفتح مكة. ثم قال: «لا عيش إلا عيش الآخرة» وسار وهو يقرأ سورة الفتح، حتى جاء البيت وطاف به أسبوعاً على راحلته، ومحمد بن مسلمة أخذ بزمامها، واستلم الحجر بمنجحن في يده الشريفة، وصلى بالمقام ركعتين.

وكان في داخل الكعبة وخارجها وفوقها ثلاثمائة وستون صنماً، لكل حي من أحياء العرب صنم، وكان هُبَل وهو أعظم الأصنام، وكان من عتيق في جنب البيت من جهة بابه، فجاء ﷺ وفي يده قضيب، فجعل يهوي به إلى كل صنم، فيختر لوجهه، وهو يقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً» وأمر علياً عليه السلام فصعد الكعبة، وكسر ما فوقها.

ثم أرسل ﷺ بلالاً إلى عثمان بن أبي طلحة يأتي بمفتاح الكعبة، فدخلها وصلى فيها ركعتين، ودعا في نواحيها، ثم جلس على الصفا يبايع الناس، فجاء أهل مكة صغارهم وكبارهم، ورجالهم ونسأؤهم، فبايعهم على شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وعلى العمل بأحكام الإسلام، فدخل الناس في دين الله أفواجاً، وعفا عن عاصيتهم، وقال: «أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض ويوم خلق الشمس والقمر، فهي حرام إلى يوم القيامة، فلا يجزى لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا، ولا يعصدها فيها شجرة، لم يجز لأحد قبلي ولا لأحد بعدي، ولا يجز لي إلا هذه الساعة غضباً على أهلها، ألا قد رجعت اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد منكم الغائب»<sup>٢</sup>.

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَنكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ  
مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ

مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ  
كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا [٢٥]

ثم بين سبحانه علة كف يد المسلمين عن قتل كفار مكة مع استحقاقهم القتل والاستئصال بقوله تبارك وتعالى: ﴿هُمْ﴾ الأشقياء ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله واليوم الآخر ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾ ومنعوكم أيها المؤمنون ﴿عَنِ﴾ دخول ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ والصلاة فيه، والطواف بالبيت، ﴿وَمَنْ﴾ ممنوعوا ﴿الْهَدْيِ﴾ والنعم التي جعلتموها لله تقرباً إليه، حال كون الهدى ﴿مَكْفُوفًا﴾ ومحبوساً من ﴿أَنْ يَبْلُغَ مَجَلَّةً﴾ الذي يجب نحره فيه، وهو للمعتمر عند الصفا، فصاروا بتلك الأعمال القبيحة مستحقين للقتل والاستئصال ﴿وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ﴾ في مكة، وأنتم ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ بأعيانهم، ولم تعرفوهم بأشخاصهم، وهم على ما قيل اثنان وسبعون نفس، كانوا يكتُمون إيمانهم<sup>١</sup>، ولولا كراهة ﴿أَنْ تَطَّوُّوهُمْ﴾ وتهلكوهم ﴿فَتُصَيِّبُكُمْ﴾ وتصل إليكم ﴿مِنْهُمْ﴾ ومن جهة إهلاكهم ﴿مَعْرَةٌ﴾ ومشقة ومكروه ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ منكم بهم، لوجوب الدية والكفارة، والأسف عليهم، والإثم بترك الفحص عنهم والتقصير فيه، وتعبير الكفار عليكم بقتلكم إخوانكم في الدين، ومعاملتكم مع أحبابكم معاملتكم مع أعدائكم، لما كف الله أيديكم عنهم، أو لفعل بهم ما أراد، أو لعجل الله في إهلاكهم، وإنما كفها عنهم، أو لم يجعل في إهلاكهم ﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ﴾ بلطفه ﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾ بهذا الكف، أو ترك تعجيل إهلاكهم ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ إدخاله في الرحمة بتوقيفه للدخول في الإسلام، أو لتعلم أحكامه والعمل بها بلاحقة ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ وافترقوا أولئك المؤمنون والكفار وامتازوا ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ بكفرهم وقبائح أعمالهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ من القتل والاستئصال حسب استحقاقهم. وعن الصادق عليه السلام في تأويل الآية: أنه سئل ألم يكن علي عليه السلام قوياً في بدنه، قوياً في أمر الله؟ فقال: «بلى» قيل: فما منعه أن يدفع أو يمتنع؟ قال عليه السلام: «سألت فافهم الجواب، منع علياً من ذلك آية من كتاب الله» فقيل: وأي آية؟ فقرأ ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا...﴾ الآية، إنه كان لله ودائع مؤمنون في أصلاب قوم كافرين ومنافقين، فلم يكن علي عليه السلام ليقتل الآباء حتى تخرج الودائع، فلما خرجت ظهر على من ظهر وقتله، وكذلك قاتلنا أهل البيت، لم يظهر أبداً حتى تخرج ودائع الله، فاذا خرجت ظهر على من ظهر فيقتله<sup>٢</sup>.

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ

عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا  
وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا [٢٦]

ثم يبين سبحانه وقت غاية استحقاق الكفار للتعذيب ونزول العذاب عليهم بقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة وحين مكثوا ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ القاسية ورسخوا فيها ﴿الْحَوِيَّةَ﴾ والعصية والأنفة من الإقرار للنبي ﷺ بالرسالة، واستفتاح كتاب الصلح بيسم الله الرحمن الرحيم أو منعمهم إياكم من دخول مكة، حيث قالوا على ما قيل: إن المسلمين قتلوا أبناءنا وإخواننا، ثم يدخلون علينا، فتحدث العرب أنهم دخلوا علينا على رغم أنفنا، واللآل والعزى لا يدخلون علينا، فكانت هذه الحمية ﴿حَمِيَّةَ﴾ الملة ﴿الْجَاهِلِيَّةِ﴾ التي دخلت في قلوبهم<sup>١</sup>، الحمية الناشئة من الجاهلية التي تمنع من الإذعان للحق<sup>٢</sup>.

وقيل: إن الظرف متعلق بقوله: ﴿وَصُدُّوكُمْ﴾<sup>٣</sup> وقيل: فاذا ذكر المقدّر<sup>٤</sup>.

ثم إنه تعالى بعد ذكر سوء صنيع الكفار، ذكر حسن صنيع الرسول ﷺ والمؤمنين بتوفيق الله بقوله: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ والطمانينة الكائنة من قبله ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ بتبعه، وزاد في ثباتهم على التسليم لأمر الله واتباع مرضاته، أو ألبسهم الوقار حتى تحمّلوا حميتهم وصالحوهم ورضوا أن يكتب كتاب الصلح على ما أرادوا، [و] لم يلحقهم ما لحق الكفار ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ وقول لا إله إلا الله، الذي به يتقى عن الشرك في الدنيا، وعن النار في الآخرة، وثبتهم عليها، والمشركون أبوها منها.

عن النبي ﷺ قال: «أول القول كلمة التقوى»<sup>٥</sup>.

وعن (العلل) عنه عليه السلام أنه قال في تفسير لا إله إلا الله: «وهي كلمة التقوى، تثقل بها الموازين يوم القيامة»<sup>٦</sup>.

وقيل: هي (بسم الله الرحمن الرحيم) و(محمد رسول الله) الذي امتنع المشركون من كتبهما في كتاب الصلح في الحديبية<sup>٧</sup>.

وقيل: هو الوفاء بالعهد، فإن المؤمنين وفوا بعهدهم، والمشركون نقضوه، حيث عاونوا بني بكر على خراعة<sup>٨</sup>.

١ و٢. تفسير روح البيان ٩: ٤٩.

٥. تفسير الفمي ١: ٢٩٠، تفسير الصافي ٥: ٤٤.

٧. تفسير روح البيان ٩: ٥٠.

٣ و٤. تفسير الرازي ٢٨: ١٠١.

٦. علل الشرائع، تفسير الصافي ٥: ٤٤.

٨. تفسير روح البيان ٩: ٥٠.

وعن الصادق عليه السلام، أنه قال: «هو الايمان»<sup>١</sup>.

وعن (المجالس) عن النبي صلى الله عليه وآله، قال: «إن علياً راية الهدى، وإمام أوليائي، ونور من أطاعني، وهو الكلمة التي ألزمتها المتقين»<sup>٢</sup>.

وعن (الخصال) قال عليه السلام: «نحن كلمة التقوى، وسبيل الهدى»<sup>٣</sup>.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «أنا العروة الوثقى وكلمة التقوى»<sup>٤</sup>.

وعن الرضا عليه السلام، قال: «نحن كلمة التقوى والعروة الوثقى»<sup>٥</sup>.

ثم بين سبحانه استحقاق الرسول والمؤمنين لهذه النعمة بقوله: ﴿وَكَاثُوا أَحَقَّ﴾ بكلمة التقوى وأولى ﴿بِهَا﴾ من الكفار الذين خلقوا من سجين ﴿وَوَ﴾ كانوا أهلها، واللائق بها، لحسن فطرتهم وطيب طبيعتهم ﴿وَوَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ من الموجودات واستعداداتها وقابلياتها ﴿عَلِيمًا﴾.

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ  
آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ  
دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا [٢٧]

ثم لما أنزل الله سكينته على الرسول والمؤمنين، ووقع الصلح على الرجوع من الحديبية إلى المدينة، قال المنافقون: كَذَبَ النبي في إخباره بدخول المسلمين مسجد الحرام محلّقين ومُقَصِّرِينَ، فإنما ما دخلنا المسجد الحرام ولا حلقتنا ولا قصرنا، فردَّ الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾ التي أريناه مقروناً ﴿بِالْحَقِّ﴾ والحكمة البالغة، وجعلها مطابقة للواقع، وكأنه لا محالة في الوقت المقدّر لوقوعها، وقد مرّ تفصيل الرؤيا في أول السورة.

وقيل: إن معنى صدق الرؤيا: أتى بما يدلّ على صدق الرؤيا<sup>٦</sup>.

وقيل: إن قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ صفة للرسول، والمعنى: أن الله صدّق رسوله بالحقّ الرؤيا<sup>٧</sup>. وقيل: ففيه تقديم وتأخير<sup>٨</sup>.

وقيل: إن كلمة (بالحق) قسم، فإن الحق اسم من أسمائه تعالى<sup>٩</sup>. والمعنى: أقسم بالحقّ لقد صدق،

٢. أمالي الصدوق: ٧٦٥/٥٦٥، تفسير الصافي ٥: ٤٤.

٤. التوحيد: ٢/١٦٥، تفسير الصافي ٥: ٤٤.

٦. تفسير الرازي ٢٨: ١٠٥.

٨. تفسير الرازي ٢٨: ١٠٤.

١. الكافي ٢: ١٣/٥، تفسير الصافي ٥: ٤٤.

٣. الخصال: ١٤/٤٣٢، تفسير الصافي ٥: ٤٤.

٥. كمال الدين: ٦/٢٠٢، تفسير الصافي ٥: ٤٤.

٧. تفسير الرازي ٢٨: ١٠٥.

٩. تفسير الرازي ٢٨: ١٠٤.

وَاللهُ ﴿تَذْخُلُونَ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فِي الْعَامِ الْقَابِلِ ﴿الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ لَا بِمَشِيَّتِكُمْ وَقُدْرَتِكُمْ، بَلْ ﴿إِنْ شَاءَ﴾ وَأَرَادَ دَخُولَكُمْ فِيهِ، وَفِيهِ تَعْلِيمٌ لِلْعِبَادِ وَتَنْبِيْهُ عَلَى أَنَّ إِرَادَةَ أَهْلِ مَكَّةَ مَنَعَكُمْ مِنْ دَخُولِهِ لَا يَزَاحِمُ إِرَادَةَ اللهِ، وَأَنْتُمْ تَدْخُلُونَهُ حَالِ كَوْنِكُمْ ﴿آمِنِينَ﴾ مِنْ أَعْدَانِكُمْ، وَيَدُومُ أَمْنُكُمْ إِلَى أَنْ تُصْبِرُوا ﴿مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ﴾، وَمَزِيلِينَ جَمِيعَ شَعْرِهَا ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ وَمَزِيلِينَ بَعْضَهُ ﴿وَلَا تَخَافُونَ﴾ مِنْ أَحَدٍ بَعْدَ الْخَلْقِ وَالتَّقْصِيرِ وَإِحْلَالِكُمْ مِنَ الْإِحْرَامِ، مَعَ أَنَّ قَرِيشَ لَا يَحْزَمُونَ مِنْ أَحَلٍّ مِنْ إِحْرَامِهِ.

﴿فَعَلِمَ﴾ اللهُ بَعْدَمَا أَرَى نَبِيَّهِ ﷺ الرُّوْيَا فِي تَأْخِيرِ وَقُوعِ تَعْبِيرِهَا، أَوْ فِي تَقْدِيمِ مَا يَشْهَدُ عَلَى صَدَقِهَا ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْمَصْلَحَةِ ﴿فَجَعَلَ﴾ سَبْحَانَهُ لِأَجْلِ تِلْكَ الْمَصْلَحَةِ وَاسْتِرْوَاخِ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿مِنْ دُونِ﴾ وَقُوعِ ﴿ذَلِكَ﴾ الْمَوْعُودِ مِنْ دَخُولِ مَكَّةَ ﴿فَتَحَا﴾ وَافِرِ الْغَنِيمَةِ ﴿قَرِيبَا﴾ مِنْ صَلْحِ الْحَدِيثِيَّةِ، وَهُوَ فَتْحُ خَبِيرٍ.

قيل: إِنَّهُ كَانَ بَعْدَ خَمْسِ عَشْرَةِ لَيْلَةٍ مِنَ الْحَدِيثِيَّةِ<sup>١</sup>.

وقيل: إِنَّ الْمَرَادَ مِنَ الْفَتْحِ الْقَرِيبِ صَلْحِ الْحَدِيثِيَّةِ<sup>٢</sup>، فَأَنَّهُ أَعْظَمُ الْفَتْوحِ كَمَا مَرَّ.

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً \* مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجْدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ [٢٨ و ٢٩]

ثُمَّ أَكَّدَ سَبْحَانَهُ صَدَقَ رُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ وَعَدَمَ إِمْكَانِ كَذِبِهَا بِقَوْلِهِ: ﴿هُوَ﴾ اللهُ الْحَكِيمُ ﴿الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ مُحَمَّدٌ إِلَى النَّاسِ جَانِباً لَهُمْ ﴿بِالْهُدَى﴾ وَالرُّشَادَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ. وَقِيلَ: يَعْنِي بِالْقُرْآنِ<sup>٣</sup>، أَوْ مَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الرَّسُلُ<sup>٤</sup>، أَوْ بِالْمَعْجَزَاتِ<sup>٥</sup> الْبَاهِرَةِ ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ وَالثَّابِتِ الَّذِي لَا يُنْسَخُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ، فَإِذَا كَانَ إِسْرَالُهُ لِلْهُدَايَةِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُخَيَّرَ النَّاسُ بَوُقُوعِ مَا لَا يَقَعُ، فَيُضِلُّوهُ بِكَذِبِهِ فِي إِخْبَارِهِ.

وقيل: إِنَّ بَاءَ (بِالْهُدَى) لِلْسَّبِيْبَةِ<sup>٦</sup>، وَالْمَعْنَى: أَرْسَلَهُ بِسَبَبِ الْهُدَى وَلِأَجْلِهِ، فَلَا يَصْدُرُ عَنْهُ مَا هُوَ سَبَبُ الضَّلَالِ، وَلَيْسَ فَتْحُ مَكَّةَ مِنْهُ بَبْعِيدٍ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ بِالَّذِينَ الثَّابِتِ ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ وَيُغْلِبَهُ وَيُعْلِيَهُ ﴿عَلَى﴾

١. تفسير روح البيان ٩: ٥٣.

٢. مجمع البيان ٩: ١٩١، جوامع الجامع: ٤٥٥.

٣. تفسير الرازي ٢٨: ١٠٦.

٤. تفسير البيضاوي ٢: ٤١٣، تفسير أبي السعود ٨: ١١٤.

٥. تفسير أبي السعود ٨: ١١٣، تفسير روح البيان ٩: ٥٥.

غيره من ﴿الَّذِينَ كُفُّوا﴾ وبجميع أفراد بني نضلة ما كان منه حقاً من بعض الأحكام المتبدلة بتبديل الأعصار، وإظهار بطلان ما كان باطلاً، أو بتسليط المسلمين على أهل سائر الأديان وقهر ملوكهم وفتح بلادهم، وقد أنجز الله وعده حيث أعطى المسلمين من الفتح والغلبة على ممالك الكفرة ما يستقل إليه فتح مكة، أو بذهاب سائر الأديان من وجه الأرض في زمان ظهور الحجة والإمام الغائب.

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على صدق رسوله ﷺ في وعده بدخول المسلمين المسجد الحرام، أو على صدق محمد ﷺ في دعوى الرسالة، وإن أبت قریش من أن يكتب في كتاب الصلح رسالته. عن ابن عباس: شهد له بالرسالة<sup>١</sup> بقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ إلى كافة الناس إلى القيامة ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ بالآيمان، وأنبهوه عن صميم القلب، وأطاعوه عن خلوص النية، كأمر المؤمنين وسلمان وأصراهما، يكون من أخلاقهم الحميدة أنهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ غلاظ عليهم، لا لغلظة قلوبهم وفطاة خلقهم، بل لما بينهم من التضاد، كتضاد النور والظلمة، والآيمان والكفر ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ متعاطفون بعضهم على بعض كالوالد مع ولده، فهو كقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾<sup>٢</sup>.

قيل: إنهم بلغوا من الشدة على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من أن تلزق ثيابهم بثيابهم، وأن تمس أبدانهم بأبدانهم، ومن ترحمهم بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه<sup>٣</sup>.

أقول: من شدتهم على الكفار أن يتحرزوا من أن يقع نظرهم إلى وجه الكافر، ومن عطفهم على المؤمنين أن اشتاقوا إلى النظر إلى وجوههم، ويحزنون لحزنهم، ويفرحون لفرحهم، ويحيون لهم ما يحيون لأنفسهم، هذا حال المؤمنين مع الناس، وأما حالهم مع الله، فانك ﴿تَرَاهُمْ﴾ أيها الراي ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ لله في حال اشتغالهم بضروريات معاشهم ﴿يَبْتَغُونَ﴾ ويطلبون بركوعهم وسجودهم وسائر عباداتهم ﴿فَضْلًا﴾ وإنعاماً ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ عليهم من النار والدخول في الجنة ﴿وَرِضْوَانًا﴾ وتحناً منه إليهم بالرحمة بخلاف المشركين والمرائين، فإنهم يطلبون بركوعهم وسجودهم رضا غير الله ﴿بِسَيِّمَاهُمَا﴾ وعلامة كونهم من أتباع محمد ﷺ أنك ترى ﴿فِي وُجُوهِهِمْ﴾ وجاههم شيئاً ﴿مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ كثرة البعير، كما كان لزين العابدين عليه السلام، فإنه يقال له ذو الثَّنَاتِ<sup>٤</sup>.

وقيل: هو التراب على الجباه<sup>٥</sup>.

١. تفسير روح البيان ٩: ٥٥.

٢. المائدة: ٥٤/٥.

٣. مجمع البيان ٩: ١٩٢، جوامع الجامع: ٥٦، تفسير روح البيان ٩: ٥٧.

٤. جوامع الجامع: ٥٦، تفسير أبي السعود ٨: ١١٤، تفسير روح البيان ٩: ٥٨.

٥. مجمع البيان ٩: ١٩٢.

٦٤٢ ..... نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج ٥

وعن ابن عباس: سيماهم في القيامة أن تكون مواضع سجودهم أشدَّ بياضاً<sup>١</sup>. قيل: تكون مواضع سجودهم كالقمر ليلة البدر<sup>٢</sup>.

وقيل: أثر السجود بالليل الحسن الظاهر في وجه الساجد بالنهار. روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من كثر صلاته بالليل، حسن وجهه بالنهار»<sup>٣</sup>.

وعن الصادق عليه السلام قال: «هو السهر في الصلاة»<sup>٤</sup>، «ذَلِكَ» المذكور من نعمتهم الجليلة «مَثَلُهُمْ» ووصفهم العجيب الشأن المذكور «فِي التَّوْرَةِ» المُنزلة على موسى «وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ» المنزل على عيسى عليه السلام.

كَزَّرَعَ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ  
بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً  
عَظِيماً [٢٩]

ثم بين سبحانه قوة أصحابه بعد ضعفهم، وكثرتهم بعد قلتهم، بتشبيههم بالزرع بقوله: «كَزَّرَعَ» والتقدير: هم كزرع «أَخْرَجَ» وأنبث «شَطْأَهُ» وفرخه وفرعه النبات من جانبه حال كونه أولاً في غاية الدقة والضعف «فَآزَرَهُ» وقواه ذلك الزرع «فَاسْتَغْلَظَ» وصار شديداً ومستحكماً بعد ما كان ليناً، وغلظاً بعدما كان دقيقاً «فَاسْتَوَى» الشَّطْأُ، واستقام القرع لقوته «عَلَى سُوقِهِ» وأصله بحيث «يُعْجِبُ» ويسر «الزُّرَّاعَ» بقوته وغلظته وحسن منظره.

وعن الحسن البصري: استوى الاسلام بسيف علي<sup>٥</sup>. وحاصل المثل أن أصحاب خاتم النبيين ﷺ قليلون وضعفاء في بدو الاسلام، ثم كثروا وقوا يوماً فيوماً، بحيث أعجب الناس قوتهم وكثرتهم.

وقيل: مكتوب في التوراة يخرج قومٌ يثبتون نبات الزرع، يأثرون بالمعروف، ويتهون عن المنكر<sup>٦</sup>. قيل: إن ذلك إشارة إلى هذا المثل، والمعنى: أن تشبيه أصحاب محمد ﷺ بالزرع مذكور في التوراة والإنجيل<sup>٧</sup>.

١. مجمع البيان ٩: ١٩٢، تفسير روح البيان ٩: ٥٨.

٢. من لا يحضره الفقيه ١: ١٣٧٣/٣٠٠، تفسير أبي السعود ٨: ١١٤، تفسير روح البيان ٩: ٥٨.

٣. من لا يحضره الفقيه ١: ١٣٦٩/٢٩٩، تفسير الصافي ٥: ٤٥.

٤. تفسير أبي السعود ٨: ١١٥، تفسير روح البيان ٩: ٥٩.

٥. تفسير أبي السعود ٨: ١١٥، تفسير روح البيان ٩: ٥٩.



وقيل: إن الكلام قد تم عند قوله: ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ وقوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ مبتدأ خبره (كررع)<sup>١</sup>. وعلى أي تقدير إنما قوى الله أصحاب محمد وكثرهم ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ ويشد غضبهم بإرغام أنوفهم وخزيمهم.

وقيل: هو علة لقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾<sup>٢</sup> بالله ورسوله عن صميم القلب ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ خالصاً ﴿مِنْهُمْ﴾ راجع إلى الكفار، فيكون الوعد للكفار الذين يؤمنون بالرسول، فتكون كلمة (من) للتبيين على الأول، وللتبعض على الثاني<sup>٣</sup>.

روى الصدوق عن النبي ﷺ أنه سئل فيمن نزلت هذه الآية؟ قال: «إذا كان يوم القيامة عقد لواء من نور أنور، ونادى منادٍ ليقم سيد المؤمنين ومعه الذين آمنوا، وقد بعث الله محمداً. فيقوم علي بن أبي طالب، فيعطى الله اللواء من النور الأبيض بيده، تحته جميع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، لا يُخالطهم غيرهم، حتى يجلس علي على منبر من نور رب العزة، ويُعرض الجميع عليه رجلاً بعد رجلٍ، فيعطى أجره ونوره، فإذا أتى على آخرهم قيل لهم: قد عرفتم موقفكم ومنزلكم من الجنة، إن ربكم يقول لكم: عندي لكم مغفرةٌ وأجرٌ عظيمٌ - يعني في الجنة - فيقوم علي بن أبي طالب والقوم تحت لوائه معهم، حتى يدخلهم الجنة، ثم يرجع إلى منبره، ولا يزال يُعرض عليه جميع المؤمنين، فيأخذ نصيبه منهم، ويذهب بهم إلى الجنة، ويترك أقواماً على النار»<sup>٤</sup>.

روي عن النبي ﷺ أنه قال «من قرأ سورة الفتح، [فكانما] كان ممن شهد<sup>٥</sup> [مع محمد] رسول الله فتح مكة»<sup>٦</sup>.

وعن الصادق عليه السلام قال: «حصنوا أموالكم ونساءكم وما ملكت أيمانكم من التلث بقراءة سورة (إننا فتحنا) فإنه إذا كان ممن يدمن قراءتها نادى منادٍ يوم القيامة حتى يسمع الخلائق: أنت من عبادي المخلصين، أحقوه بالصلحين من عبادي، وأسكنوه جنات النعيم، وأسقوه من الرحيق المختوم بمزاج الكافور»<sup>٧</sup>. الحمد لله على التوفيق.

٢. تفسير روح البيان ٩: ٦٠.

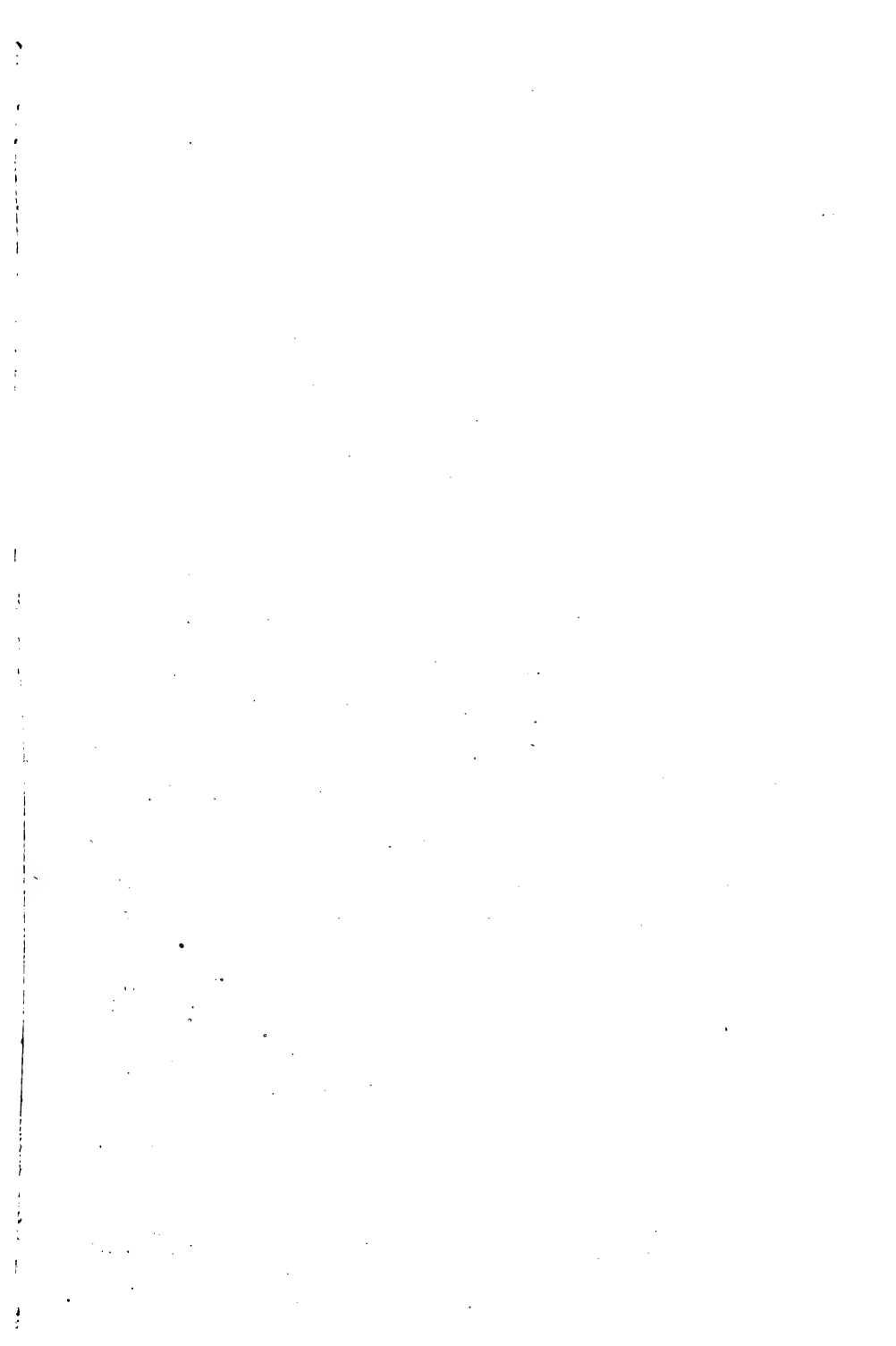
٤. أمالي الطوسي: ٨١٠/٣٧٨، تفسير الصافي ٥: ٤٦.

١. تفسير الرازي ٢٨: ١٠٨.

٣. تفسير الرازي ٢٨: ١٠٩.

٥. في النسخة: يشهد. ٦. تفسير روح البيان ٩: ٦١.

٧. نواب الأعمال: ١١٥، مجمع البيان ٩: ١٦٥، تفسير الصافي ٥: ٤٦.



## فهرس المحتوى

- ٥ ..... في تفسير سورة القصص.
- ٥ ..... [٦-١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طسم \* تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ \* تَتْلُوا عَلَيْهِ مِنْ نَبَاِ
- ٧ ..... [١١-٧] وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا حِفْظٌ عَلَيْهِ فَأَلْقَاهُ فِي الْمِمْ وَلاَ
- ١٠ ..... [١٣ و ١٢] وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلِ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ يَتِيمٍ يَكْفُلُونَهُ
- ١١ ..... [١٦-١٤] وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ \*
- ١٣ ..... [١٧] قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ
- ١٤ ..... [١٨] فَأُصْحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي ائْتَنَصَرَهُ بِالْأَمْسِ يُسْتَنْصَرُحُ
- ١٥ ..... [٢٢-١٩] فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطَلِقَ إِذَا هُوَ عَدُوٌّ لَهَا قَالِ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أُفْخِئُكَ
- ١٧ ..... [٢٥-٢٣] وَلَمَّا وَرَدَ مَاءٌ مَذْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ
- ١٩ ..... [٢٧ و ٢٦] قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ \*
- ٢٠ ..... [٢٩-٢٧] سَنَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ \* قَالَ ذَلِكَ بَنِي إِيمَانَ الْأَعْلَيْنِ
- ٢٣ ..... [٣١-٣٠] فَلَمَّا أَنَا هُوَ يُدْرِي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ
- ٢٤ ..... [٣٥-٣٢] أَتَسْلُكُ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ
- ٢٥ ..... [٣٨-٣٦] فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُقَرَّرٌ وَمَا سَمِعْنَا
- ٢٦ ..... [٤٠-٣٨] وَأَوْفَيْدِ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الصَّخْرِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أُطْعِمُ إِلَىٰ إِلَهٍ مُوسَىٰ
- ٢٨ ..... [٤٢-٤٠] فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ \* وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ
- ٢٩ ..... [٤٤ و ٤٣] وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَافِرٍ لِلنَّاسِ
- ٣٠ ..... [٤٦ و ٤٥] وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ قَائِمًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا
- ٣٢ ..... [٤٨ و ٤٧] وَلَوْلَا أَنْ نُصِيبَهُمْ مُصِيبَةً بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيهِمْ لَفَقَدُوا لَوْلَا أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا
- ٣٢ ..... [٥٠-٤٨] أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ
- ٣٣ ..... [٥١ و ٥٠] وَمَنْ أَضَلُّ مِنْ أَتْبَعَ هَوَاهُ بَعِيرٍ هَدَىٰ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
- ٣٤ ..... [٥٣ و ٥٢] الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ \* وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا
- ٣٥ ..... [٥٥ و ٥٤] أَوَّلِيكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرْتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَبَدَّرُوا بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ وَمِمَّا
- ٣٦ ..... [٥٦] إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ

- [٥٧] زَقَالُوا إِنْ نَشَأِ اللَّهُدَى مَعَكَ تَخَفْ مِنْ أَوْسِنَا أُولَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا ..... ٣٩
- [٥٨-٥٩] وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَلَيْتَ مَا كَانَتْهُمْ لَمْ تُشَكِّرْ مِنْ بَعْدِهِمْ ..... ٤٠
- [٦٠-٦١] وَمَا أُوَيْسَتْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَثَمٌ ..... ٤١
- [٦٢-٦٦] وَذِيَوْمَ نُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ \* قَالَ الَّذِينَ حَقَّ ..... ٤٢
- [٦٧] فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَغَسَّ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ..... ٤٣
- [٦٨-٦٩] وَرَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا ..... ٤٣
- [٧٠-٧٣] ذَهَبَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ ..... ٤٤
- [٧٤-٧٥] وَذِيَوْمَ نُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ \* وَتَرَعْنَا مِنْ كُلِّ ..... ٤٥
- [٧٦] إِنْ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَأَنْتَبَاهُ مِنَ الْكُفْرِ مَا إِنَّ مَفَاحِهِ ..... ٤٦
- [٧٦-٧٧] إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ \* وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ ..... ٤٧
- [٧٨-٨٠] قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أُولَمْ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ ..... ٤٨
- [٨١-٨٢] فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَلْنَاهُ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ ..... ٥٠
- [٨٣] تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ..... ٥٣
- [٨٤-٨٥] مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا ..... ٥٤
- [٨٦-٨٨] وَمَا كُنْتُمْ تَرْجُونَ أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا ..... ٥٥
- في تفسير سورة العنكبوت ..... ٥٩
- [١-٢] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ \* أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ ..... ٥٩
- [٣] وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ..... ٦١
- [٤-٥] أَلَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ \* مَنْ كَانَ ..... ٦٢
- [٦-٧] وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ \* وَالَّذِينَ آمَنُوا ..... ٦٣
- [٨] وَزَيْنًا لِلنَّاسِ يُوَدِّعُ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ..... ٦٤
- [٩-١١] وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ \* وَمِنَ النَّاسِ ..... ٦٤
- [١٢-١٣] وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ ..... ٦٦
- [١٤-١٥] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ..... ٦٦
- [١٦-١٨] وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ \* ..... ٦٧
- [١٩-٢٢] أُولَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ \* قُلْ ..... ٦٨
- [٢٣-٢٤] وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَكُونُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ ..... ٦٩
- [٢٥-٢٧] وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ..... ٧٠
- [٢٨-٣٣] وَلَوْ طَافَ إِذَا قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَنَاتُُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَفَعْتُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ ..... ٧٢
- [٣٤-٣٥] إِنَّا سَنُلْقِيكَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ \* ..... ٧٤

- [٣٩-٣٦] وَإِلَىٰ مَدِينَةٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَأْقُومُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا  
 [٤٠-٤١] [٤١] أَنْكَلَا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ  
 [٤٢-٤٤] [٤٤] إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ \* وَنَكَثَ  
 [٤٥] [٤٥] أَنْتَ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ  
 [٤٦] [٤٦] وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالْبَاطِلِ هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ  
 [٤٧] [٤٧] وَكَذَلِكَ أُنزِلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ  
 [٤٨-٤٩] [٤٩] مَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُنْطَلِقُونَ \*  
 [٥٠-٥٢] [٥٢] وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ  
 [٥٣-٥٥] [٥٥] وَبِمَنْعُجَلُوكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلِيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً  
 [٥٦-٦٠] [٦٠] يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ \* كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ  
 [٦١-٦٣] [٦٣] وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ  
 [٦٤-٦٦] [٦٤] وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُمْ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ  
 [٦٧-٦٩] [٦٩] أُولَئِكَ يَرْوُونَ أَنَّ جَعَلْنَا رَحْمَةً آمِنًا وَيَخْطَفُ النَّاسُ مِنْ حَزَنِهِمْ فَيُنَاطِلُ  
 في تفسير سورة الروم .....  
 [١-٦] [٦-١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ \* عَلِمْتَ أَلَرَأَيْتَ الْوَرْثَ \* فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ  
 [٧-٨] [٨-٧] [٨] يَنْقَلِبُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ \* أُولَئِكَ  
 [٩-١٠] [١٠-٩] أُولَئِكَ يَسْجُدُونَ فِي الْأَرْضِ فَتَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا  
 [١١-١٦] [١٦-١١] اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ \* وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ  
 [١٧-١٩] [١٩-١٧] [١٧-١٩] فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ \* وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ  
 [٢٠-٢٥] [٢٥-٢٠] [٢٠-٢٥] وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ \* وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ  
 [٢٦-٢٧] [٢٦-٢٧] وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَائِمُونَ \* وَهُوَ الَّذِي يُبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ  
 [٢٨] [٢٨] ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي  
 [٢٩-٣٢] [٢٩-٣٢] [٣٢-٢٩] إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَتَّبِعِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَبِعَيْنِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مِنَ أَهْلِ اللَّهِ وَمَا لَهُمْ  
 [٣٣-٣٥] [٣٥-٣٣] [٣٣-٣٥] وَإِذَا مَنَّ النَّاسُ صُرُّ دَعْوَاهُمْ مُبِينٌ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَانُكُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا  
 [٣٦-٣٧] [٣٦-٣٧] [٣٧-٣٦] وَإِذَا آذَنَّا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا  
 [٣٨] [٣٨] قَاتَبَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ  
 [٣٩-٤٠] [٤٠-٣٩] [٣٩-٤٠] وَمَا أَنْتُمْ مِنْ رَبٍّ لِيُؤْتُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَزِيدُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا أَنْتُمْ مِنْ  
 [٤١-٤٣] [٤٣-٤١] [٤١-٤٣] ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي  
 [٤٤-٤٥] [٤٥-٤٤] [٤٤-٤٥] مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ \* لِيُخْرِجَ الَّذِينَ  
 [٤٦] [٤٦] وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتُجَبِّجِيَ الْقُلُوكَ

[٤٧] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنكَرُوا فَأَنقَضْنَا مِنْ..... ١٠٥

[٤٨-٤٩] اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتَنُفِثُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ..... ١٠٦

[٥٠-٥٣] فَأَنزَلْنَاهُ إِلَى آثَارٍ وَخَمَرَةٍ كَيْفَ بَخِيصِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي ..... ١٠٧

[٥٤-٥٧] اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ..... ١٠٨

[٥٨-٦٠] وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَكِنْ جِنَّهُمْ رَبَّنَا بَلَّغُوا ..... ١٠٩

في تفسير سورة لقمان..... ١١١

[٥١-٥١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ يَكُنْ أَوَّلُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ \* هُدًى وَرَحْمَةً ..... ١١١

[٥٢-٥٣] وَرَبِّ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِ لَهْوَ الْخَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَبْغِي عِلْمًا ..... ١١١

[٥٤-٥٥] إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ..... ١١٣

[٥٦-٥٧] وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ آذَنَ لَهُ وَرَضَ يَشْكُرُ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ..... ١١٥

[٥٨-٥٩] وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يُعَلِّمُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ \* ..... ١١٨

[٦٠-٦١] يَا بُنَيَّ إِنَّمَا إِنْكَ نَكَ مِنْ خَدْلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ ..... ١٢١

[٦٢-٦٣] يَا بُنَيَّ أَوْفِ بِالصَّلَاةِ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا ..... ١٢١

[٦٤-٦٥] أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمِمَّا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ ..... ١٢٣

[٦٦-٦٧] وَمَنْ يَشْكُرْ لِنَفْسِهِ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ..... ١٢٤

[٦٨-٦٩] وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ..... ١٢٥

[٧٠-٧١] وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا ..... ١٢٦

[٧٢-٧٣] مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَتُكَلِّمُ إِلَّا مَنْ يَشَاءُ وَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ \* أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ ..... ١٢٧

[٧٤-٧٥] أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَنْصَبُ اللَّهُ لِرَبِّكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ ..... ١٢٨

[٧٦-٧٧] إِنَّمَا اللَّهُ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي ..... ١٢٩

في تفسير سورة السجدة..... ١٣٣

[٧٨-٧٩] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ تَنْزِلْ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ..... ١٣٣

[٨٠-٨١] اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى ..... ١٣٤

[٨٢-٨٣] ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالْهَادِيَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ \* الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ..... ١٣٥

[٨٤-٨٥] وَقَالُوا إِنَّمَا هِيَ إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَتَانَا لَقِيَ خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ ..... ١٣٦

[٨٦-٨٧] وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ..... ١٣٧

[٨٨-٨٩] أَفَذُقُوا مِمَّا نَسَبْنَاهُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّمَا نَسَبْنَاهُمْ وَذُقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا ..... ١٣٨

[٩٠-٩١] أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ \* أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ..... ١٤١

[٩٢-٩٣] وَلَيَذَّاقُنَّ عَذَابَ الْآزْدَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ \* وَمَنْ ..... ١٤٢

- [٢٣-٢٧] وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ..... ١٤٢
- [٢٨-٣٠] وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ..... ١٤٤
- في تفسير سورة الأحزاب ..... ١٤٧
- [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ..... ١٤٧
- [٢-٤] وَأَنْتُمْ مَا يُوْحِي إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا \* وَتَوَكَّلْ عَلَى ..... ١٤٨
- [٥] وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ ..... ١٤٩
- [٦] النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ ..... ١٥٠
- [٧و٨] وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَمْ وَأَوْصَيْنَاهُمْ أَنْ يُؤْتُوا زَكَوَاتٍ ..... ١٥٢
- [٩-١٣] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودُ فَارِسَآءٍ عَلَيْهِمُ ..... ١٥٣
- [١٤و١٥] وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ آفَافِهِمْ أَلْفُنَّةٌ لَأَوتَوْهَا وَمَا تَلَائِيَا بِهَا إِلَّا ..... ١٥٨
- [١٦و١٧] قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ..... ١٥٩
- [١٨-٢٠] قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ ..... ١٥٩
- [٢١-٢٢] لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ..... ١٦٢
- [٢٣و٢٤] مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ..... ١٦٣
- [٢٥-٢٧] وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْثِهِمْ لَمْ يَأْلُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ..... ١٦٥
- [٢٨و٢٩] يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ ..... ١٦٩
- [٣٠و٣١] يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ بَأْتٍ مِنْكُمْ بِمَا حَسَنَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُغَاْفَ لَهَا الْعَدَابُ ضِعْفَيْنِ ..... ١٧١
- [٣٢و٣٣] يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقِفْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ..... ١٧٢
- [٣٣] إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ..... ١٧٣
- [٣٤و٣٥] وَأَذْكُرُونَ مَا يُنْفَىٰ فِي يَوْمِئِذٍ مِنَ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ..... ١٧٦
- [٣٦-٣٩] وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مِؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ..... ١٧٨
- [٤٠] مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ ..... ١٨٢
- [٤١و٤٢] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا \* وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً ..... ١٨٢
- [٤٣-٤٤] هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ ..... ١٨٣
- [٤٥-٤٨] يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَنَبِيرًا وَنَذِيرًا \* وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ..... ١٨٤
- [٤٩] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ ..... ١٨٤
- [٥٠] يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّائِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ ..... ١٨٥
- [٥١] تُزْجَىٰ مِنْ نِسَاءِ مَنْهُنَّ وَتُوْدَىٰ إِلَيْكَ مِنْ نِسَاءٍ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِنْهُنَّ عَزَلْتَ فَلَا ..... ١٨٧
- [٥٢] لَا يَجِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ ..... ١٨٨
- [٥٣] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ ..... ١٨٩

[٥٣] وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ ..... ١٩٠

[٥٤] إِنْ يَبْدُوا شَيْئًا أَنْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ..... ١٩١

[٥٥-٥٦] لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا بُنَاتِهِنَّ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا ..... ١٩٢

[٥٧] إِنْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا ..... ١٩٤

[٥٨] وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا كُنْتُمْ أَنْ تَحْمِلُوهُنَّ مَا كُنْتُمْ ..... ١٩٤

[٥٩] يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِلْأَزْوَاجِ كَمَا لِلنَّسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَ مِنْ ..... ١٩٥

[٦٠-٦١] إِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ..... ١٩٦

[٦٣-٦٨] يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُبْدِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ ..... ١٩٧

[٦٩] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ أَذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ ..... ١٩٨

[٧٠-٧١] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا \* يُضْلِعْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ..... ٢٠٠

[٧٢] إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا ..... ٢٠٠

[٧٣] لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ ..... ٢٠٢

في تفسير سورة سبأ ..... ٢٠٥

[١-٢] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ ..... ٢٠٥

[٣ و ٤] وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا ..... ٢٠٦

[٥ و ٦] وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُجَازِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجْعٍ أَلِيمٍ \* وَيَذَرِ ..... ٢٠٦

[٧ و ٨] وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبَشِّرُكُمْ إِذَا مَرَقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ ..... ٢٠٧

[٩-١٣] أَنْتُمْ يَرَوْنَ إِلَهًا مَا يَبْدَأُ بِهِمْ وَمَا خَلَقَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ ..... ٢٠٨

[١٣ و ١٤] أَفَعَمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الْكُفُورُ \* فَلَمَّا فَصَّيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ..... ٢١٠

[١٥-١٧] أَلَفَّذْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ ..... ٢١٣

[١٨ و ١٩] وَخَجَعْنَا إِلَيْهِمْ وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ أَنْبَاءُ الَّذِي بَارَكْنَا فِيهَا فَمَرَرْنَا فِيهَا الشَّيْرَ ..... ٢١٥

[٢٠ و ٢١] وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ \* وَمَا كَانَ لَهُ ..... ٢١٦

[٢٢ و ٢٣] قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ ..... ٢١٧

[٢٤-٢٦] قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ ..... ٢١٨

[٢٧ و ٢٨] قُلْ أَرَأَيْتُمْ الَّذِينَ اتَّخَفْتُمْ بِهِ تُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ \* وَمَا ..... ٢١٩

[٢٩-٣٣] وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* قُلْ لَكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا ..... ٢٢٠

[٣٤-٣٦] وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَاذِبُونَ \* ..... ٢٢٢

[٣٧-٣٩] وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ ..... ٢٢٢

[٤٠-٤٢] وَنَزِمَ بِحُسْنِهِمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا لَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ \* ..... ٢٢٣

[٤٣-٤٥] إِذَا تَنَادَى عَلَيْهِمْ أَهْلَانَا بُنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَبْذُوكُمْ عَمَّا ..... ٢٢٤



[٤٦] قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيَكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُولُوا لِلَّهِ مِثْنَيْنِ وَتُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا ..... ٢٢٥

[٤٧ و ٤٨] قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرِ فَهَوَ لَكُمْ إِنْ أَجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ..... ٢٢٦

[٤٩ و ٥٠] قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ \* قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ فَأِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى ..... ٢٢٧

[٥١-٥٤] وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ ذُرُّوا فَلَا مَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ \* وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ زَائِلِي ..... ٢٢٧

في تفسير سورة فاطر..... ٢٢٩

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ..... ٢٢٩

[٢-٤] مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُوَسَّلَ لَهُ مِنْ ..... ٢٣١

[٥ و ٦] يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعُودُكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ ..... ٢٣٢

[٧ و ٨] الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ..... ٢٣٣

[٩] وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا تَسْقِيَنَّهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ..... ٢٣٤

[١٠] مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْغُرَّةَ فَلِلَّهِ الْغُرَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ ..... ٢٣٤

[١١] وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ ..... ٢٣٥

[١٢] وَمَا يَشْتَرِي الْبُخْرَانِ هَذَا عَذَبٌ تُرَابٌ سَائِعٌ ذُرَّاهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ ..... ٢٣٧

[١٣ و ١٤] يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ ..... ٢٣٧

[١٥-١٨] يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ \* إِنْ يَشَأْ ..... ٢٣٨

[١٨-٢١] إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا ..... ٢٣٩

[٢٢-٢٦] وَمَا يَشْتَرِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِذَا اللَّهُ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ ..... ٢٤٠

[٢٧ و ٢٨] أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنْ ..... ٢٤١

[٢٨-٣٠] إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ \* إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ ..... ٢٤٢

[٣١ و ٣٢] وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ ..... ٢٤٣

[٣٣-٣٥] جَنَّاتٍ عَذَبٍ يَدْخُلُونَهَا يَحْمِلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ ..... ٢٤٤

[٣٦ و ٣٧] وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ ..... ٢٤٥

[٣٨ و ٣٩] إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ \* هُوَ الَّذِي ..... ٢٤٦ و ٢٤٧

[٤٠ و ٤١] قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ..... ٢٤٧

[٤٢ و ٤٣] وَأَنْتُمْ تَعْبُدُونَهُمْ لَنْ يَنْفَعَهُمْ تَعْبُدُهُمْ إِنَّهُمْ لَمُتُونَ \* إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ ..... ٢٤٨

[٤٤ و ٤٥] أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا ..... ٢٤٩

في تفسير سورة يس..... ٢٥١

[١-٦] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَس \* وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ \* إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ..... ٢٥١

[٧-٩] لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ \* إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْعَامِهِمْ غُلًّا ..... ٢٥٢

[١٠ و ١١] وَنَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَلَمْ نَنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ \* إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ ..... ٢٥٤

- [١٢] إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدُمُوا وَأَنَاءُهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي ..... ٢٥٥
- [١٣-١٥] وَأَضْرَبَ لَهُمْ شَيْئًا أَصْحَابَ النَّفْرِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ \* إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ ..... ٢٥٦
- [١٦-١٧] قَالُوا رَبَّنَا بَعِّثْ لَنَا رَسُولًا مِّنْكُمْ لَنُرِيتَكُمْ آيَاتِهِ \* وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ..... ٢٥٧
- [١٨-٢١] قَالُوا إِنَّا نَعْتَرُكَ بِكُم لِّئِنْ لَمْ تَنْتَهَوْا لَنَرُجِمَنَّكُمْ وَلِنَمَسَّكُمْ بِمَا عَذَبَ أَتَيْم \* ..... ٢٦٠
- [٢٢-٢٤] وَمَا لِي لَا أُعَذِّبُكَ أَلَيْدِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ \* أَتُتِّحَدُّ مِنْ دُونِهِ آلِهَةٌ إِنْ ..... ٢٦١
- [٢٥-٢٧] إِنِّي أَنَسْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ \* قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ فَإِلَّا يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ \* ..... ٢٦٢
- [٢٨-٣٠] وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ..... ٢٦٣
- [٣١] أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يُرْجَعُونَ ..... ٢٦٤
- [٣٢-٣٥] وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَّدُنَّا مُخْضَرُونَ \* وَآتَاهُ اللَّهُ الْأَرْضَ الْمُنِيَّةَ أُحْيَيْنَاهَا ..... ٢٦٥
- [٣٦-٣٨] لِسُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا ..... ٢٦٥
- [٣٩-٤٠] وَالْقَمَرَ قَدْرَ ذُرَّةٍ مِّنَ الذَّرَى حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْوَةِ الْقَدِيمِ \* لَا تَلْمِزُ يَنْبَغِي لَهَا ..... ٢٦٧
- [٤١-٤٢] وَآتَاهُ اللَّهُ إِيَّاكُمْ حَمَلًا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ \* وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا ..... ٢٦٩
- [٤٣-٤٧] وَإِنْ تَشَاءُ نَعْرِضُهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ \* إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى ..... ٢٦٩
- [٤٨-٥٠] وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ..... ٢٧٠
- [٥١-٥٢] وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ \* قَالُوا يَا وَيْلَتَنَا مَنَّ ..... ٢٧١
- [٥٣-٥٥] إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدُنَّا مُخْضَرُونَ \* قَالُوا لِمَ لَا تُنْظَمُ ..... ٢٧٢
- [٥٦-٥٨] هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرْبَابِ مُتَكُونَ \* لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا ..... ٢٧٣
- [٥٩-٦١] وَتَتَنَزَّلُ أَلْفُ مَائَةِ السَّجْدَةِ \* أَلَمْ نُعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا ..... ٢٧٥
- [٦٢-٦٥] وَلَقَدْ أَصَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَفْقَهُونَ \* هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ ..... ٢٧٦
- [٦٦-٦٧] وَلَوْ تَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ \* وَلَوْ تَشَاءُ ..... ٢٧٧
- [٦٨-٧٠] وَمَنْ يُعْمَرْهُ تَنَكَّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ \* وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي ..... ٢٧٨
- [٧١-٧٣] أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ \* ..... ٢٧٩
- [٧٤-٧٦] وَتَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُبْصِرُونَ \* لَا يَسْتَفِيدُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ ..... ٢٧٩
- [٧٧-٧٩] أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ \* وَصَرَبَ لَنَا ..... ٢٨٠
- [٨٠-٨١] الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ \* أَوَلَيْسَ ..... ٢٨٢
- [٨٢-٨٣] إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ \* فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدُو ..... ٢٨٣
- في تفسير سورة الصافات ..... ٢٨٧
- [١-٣] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالصَّافَّاتِ صَفًا \* فَالْإِجْرَابِ رَجْرًا \* فَالْثَّلَاتِ وَكْرًا ..... ٢٨٧
- [٤-١٠] إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ \* رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ \* ..... ٢٨٨
- [١١-١٧] فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنِ خَلَقْنَا إِيَّاكُمْ خَلْقَانَهُمْ مِنْ طِينٍ لِأَرْبِ \* بَلَىٰ ..... ٢٩٠

- [٢٣-١٨] قُلْ نَمَّ وَانْتُمَ دَاخِرُونَ \* فَإِنَّمَا هِيَ زُجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ \* وَقَالُوا ٢٩١
- [٢٦-٢٤] وَفَقَوْهُمْ إِنَّهُمْ مَشْغُولُونَ \* مَا لَكُمْ لَا تَنْتَظِرُونَ \* بَلْ هُمْ الْيَوْمَ ٢٩٢
- [٣٢-٢٧] وَاقْتُلْ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ \* قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ٢٩٣
- [٣٩-٣٣] فَإِنَّمَا يَوْمُئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ \* إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ \* إِنَّهُمْ ٢٩٤
- [٤٢-٤٠] إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلَصِينَ \* أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ \* فَوَاكِهَ وَهُمْ ٢٩٥
- [٤٩-٤٣] فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ \* عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ \* يُصَافُّ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ \* ٢٩٦
- [٥٧-٥٠] وَاقْتُلْ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ \* قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ٢٩٧
- [٦١-٥٨] أَنَّمَا نَحْنُ بِمَبَئِينَ \* إِلَّا مَوْتَتَنَا آلَ الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُتَعَدِّينَ \* إِنَّ هَذَا لَهَوٌ ٢٩٧
- [٦٣ و ٦٢] أُولَئِكَ خَيْرٌ لِّزُلَىٰ أَمْ سَجَرَةُ الْوُكُومِ \* إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلْعَالَمِينَ ٢٩٨
- [٦٨-٦٤] إِنَّمَا سَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ \* طَلْعُهَا كَأَنَّهُ زُرُّوسَ اللَّسَاطِينِ \* ٢٩٩
- [٧٤-٦٩] إِنَّهُمْ الْقَوَادِمُ صَالِينَ \* فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ \* وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ ٣٠٠
- [٨٠-٧٥] وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ \* وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ \* ٣٠١
- [٨٥-٨١] إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ \* ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ \* وَإِنْ مِنْ شَيْعَةٍ لِّإِبْرَاهِيمَ \* ٣٠٢
- [٩٩-٨٦] فَإِنَّا إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تَرِيدُونَ \* فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ \* فَتَنَّا نُفُورَةً فِي ٣٠٣
- [١١١-١٠٠] رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ \* فَتَسَاءَلُونَكَ عَنِ الْغَنَىٰ \* فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ ٣٠٦
- [١٢٢-١١٢] وَتَسَاءَلُونَكَ عَنِ الْإِسْحَاقَ نَبِيًّا وَتَسَاءَلُونَكَ عَنِ الْيَسَّاقَ \* وَتَسَاءَلُونَكَ عَنِ الْيَسَّاقَ ٣١٠
- [١٢٥-١٢٣] وَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَمِنَ الْفَاسِقِينَ \* إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ \* أَتَدْعُونَنَا غُرُورًا ٣١١
- [١٣٢-١٢٦] اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولَىٰ \* فَكَذَّبُوا بِآيَاتِهِمْ لَمُحَضَّرُونَ \* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ ٣١٢
- [١٣٨-١٣٣] وَإِنَّ لَوْ طَائِفًا مِنَ الْمُرْسَلِينَ \* إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ \* إِلَّا عَجُوزًا فِي ٣١٣
- [١٤٨-١٣٩] وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ \* إِذْ أَتَىٰ إِلَىٰ الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ \* فَسَاهَمَ فَكَانَ ٣١٤
- [١٥٠ و ١٤٩] فَاسْتَفْتِهِمْ أُولَئِكَ الْبَنَاتُ \* وَهَلَمْ يَأْتُوا \* أَمْ خَلْقُوا الْمَلَائِكَةَ إِنَّا نَوْمُ ٣١٩
- [١٥٧-١٥١] أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ فِيكُم مَّنْ يَلْقَوْنَ اللَّهَ \* وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الْمُنْظُورُونَ \* أَصْطَلَىٰ الْبَنَاتُ ٣١٩
- [١٦٠-١٥٨] وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَا \* وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الْجَنَّةَ \* إِنَّهُمْ لَمُحَضَّرُونَ \* ٣٢٠
- [١٦٤-١٦١] فَإِنَّا نَحْنُ الْمَوْتُونَ \* مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَائِزِينَ \* إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ \* ٣٢١
- [١٧٠-١٦٥] وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّامُونَ \* وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسْتَجِيبُونَ \* وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ \* لَوْ أَنَّا ٣٢٢
- [١٧٥-١٧١] وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ \* إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ \* وَإِنْ جُنَدُنَا ٣٢٣
- [١٧٦-١٧٩] أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَفْعِلُونَ \* فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْدَرِينَ \* وَتَوَلَّىٰ ٣٢٤
- [١٨٢-١٨٠] سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَوَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ \* وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ \* وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ٣٢٥
- في تفسير سورة ص ٣٢٧
- [٢ و ١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ \* بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عَذَابٍ ٣٢٧

- [٤٠٣] كَمْ أَمْلَكْنَا مِنْ قُلُوبِهِمْ مَنْ قَرَّبُوا قَادُوا وَلَآتِ حِينَ مَنَاصٍ \* وَعَجِبُوا أَنْ ..... ٣٢٨
- [٥-٧] اجْعَلْ لِّآلِهَةٍ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ \* وَاتَّطَلَّعَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ ..... ٣٢٩
- [٨] أَنَاذِلْ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَنْذَرُوكَ ..... ٣٣٠
- [٩ و ١٠] أَمْ عَنْهُمْ خَزَائِرُ رَحْمَةٍ رِكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ \* أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ ..... ٣٣١
- [١١-١٦] اجْنُدْ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَخْرَابِ \* كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ..... ٣٣٢
- [١٧-٢٠] أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْخُرْ عِندَنَا دَارُكَ الْأَيْدِي إِنَّهُ أُوَّابٌ \* إِنَّا سَخَّرْنَا ..... ٣٣٤
- [٢١-٢٥] هَٰؤُلَاءِ أَمْثَالُ الْخُصَمِ إِذْ تَسُوَّرُوا لِلْمُخْرَابِ \* إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ ..... ٣٣٥
- [٢٦] إِنَّا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ..... ٣٣٨
- [٢٧ و ٢٨] وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ ..... ٣٣٨
- [٢٩-٣٣] كِتَابُ أُولَٰئِكَ لِيَذَّكَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ \* وَهَٰؤُلَاءِ ..... ٣٣٩
- [٣٤] وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ..... ٣٤٢
- [٣٥-٤٠] قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِلَيْكَ أَنْتَ ..... ٣٤٤
- [٤١-٤٤] وَأَنذَرْتُ عَبْدًا بُيُوتَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّبُّ أَمْ يَنْبَغِي ..... ٣٤٦
- [٤٥-٤٩] وَأَنذَرْتُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَاسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ \* إِنَّا ..... ٣٤٧
- [٥٠-٥٨] جَنَّاتٍ عِدْنٍ مِّمَّنْ فَتَحْنَاهُمْ لَهَا الْأَبْوَابِ \* مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِغَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ..... ٣٤٩
- [٥٩ و ٦٠] هَٰذَا نُفِجَ مُفْتِحُهُ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ \* قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا ..... ٣٥٠
- [٦١-٦٤] قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَرَدُّهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ \* وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ ..... ٣٥١
- [٦٥-٦٨] قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَإِنِّي إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ \* رَبُّ السَّمَاوَاتِ ..... ٣٥٢
- [٦٩ و ٧٠] مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ \* إِن يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا ..... ٣٥٣
- [٧١-٨٥] إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ \* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ ..... ٣٥٤
- [٨٦-٨٨] قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ \* إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ ..... ٣٥٨
- في تفسير سورة الزمر ..... ٣٦١
- [١-٢] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ \* إِنَّا أَنزَلْنَاهُ وَإِلَيْكَ ..... ٣٦١
- [٣] أَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أُولِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا ..... ٣٦٢
- [٤ و ٥] أُوَّادَ اللَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصِطْفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ ..... ٣٦٣
- [٦] خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ ..... ٣٦٤
- [٧] إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ ..... ٣٦٥
- [٨] وَإِذَا مَنَّ الْإِنْسَانُ صُرَّدَا رَبُّهُ مُبِينًا إِلَيْهِ قَدْ إِذَا حَوْلَهُ نِعْمَةٌ مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ ..... ٣٦٦
- [٩] أَنَّهُ هُوَ قَابَتْ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ ..... ٣٦٧
- [١٠] قُلْ بِإِعَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً ..... ٣٦٨

- [١١-١٣] قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أُعْبِدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ \* وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ..... ٣٦٩
- [١٤-١٦] قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُوا مُخْلِصاً لَهُ دِينِي \* فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ ..... ٣٧٠
- [١٧ و ١٨] وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الصَّالَواتِ أَنْ يُعْبُدُوهَا وَأُتُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمْ النَّارُ قَبْلَهُمْ فَيَسْئَرُونَ ..... ٣٧١
- [١٩ و ٢٠] أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ \* لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا ..... ٣٧٢
- [٢١] أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ ..... ٣٧٣
- [٢٢] أَنْفُسَ شَرَحَ اللَّهُ صُدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلنَّاسِ لِلْفَاسِقَةِ قُلُوبُهُمْ ..... ٣٧٤
- [٢٣] اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَتَابِينَ تَفَسَّرُونَ مِنْهُ جُلُودٌ الَّذِينَ ..... ٣٧٥
- [٢٤-٢٦] أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ ..... ٣٧٦
- [٢٧ و ٢٨] وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ \* قُرْآنًا عَرَبِيًّا ..... ٣٧٧
- [٢٩-٣١] ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ ..... ٣٧٨
- [٣٢-٣٥] أَفَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ ..... ٣٧٩
- [٣٦ و ٣٧] أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّظُكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ ..... ٣٨٠
- [٣٨] وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا ..... ٣٨١
- [٣٩-٤١] قُلْ يَأْقُومُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِلَى غَايَةِ فَسَوْفَ تُعْلَمُونَ \* مَنْ يَأْتِيهِ ..... ٣٨٢
- [٤٢] اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي ..... ٣٨٣
- [٤٣ و ٤٤] أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُعْعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَآ يَفْقَهُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ \* ..... ٣٨٤
- [٤٥ و ٤٦] وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ..... ٣٨٤
- [٤٧ و ٤٨] أُولَئِكَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدُوا بِهِ مِنْ سُوءِ ..... ٣٨٥
- [٤٩-٥١] فَإِذَا مَنَّ الْإِنْسَانُ صُرَّ دَعَانًا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَاهُ نِعْمَةً مِثْلًا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ..... ٣٨٦
- [٥٢-٥٩] أُولَئِكَ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ ..... ٣٨٧
- [٦٠ و ٦١] وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ ..... ٣٩٠
- [٦٢ و ٦٣] اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ \* لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ ..... ٣٩١
- [٦٤ و ٦٥] قُلْ أَتُخَفِّرُونَ ثَمَامًا تُنَادُونَ أَعْبُدْ أَتُجَاهِلُونَ \* وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى ..... ٣٩٢
- [٦٦ و ٦٧] إِلَهِي فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ \* وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً ..... ٣٩٣
- [٦٨-٧٠] وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصُيْعَتْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ..... ٣٩٤
- [٧١ و ٧٢] رَسِيبَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ رُمْرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ ..... ٣٩٧
- [٧٣-٧٥] رَسِيبَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا رِجْهَمُ إِلَى الْآخِرَةِ رُمْرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ..... ٣٩٨

في تفسير سورة غافر..... ٤٠١

[١-٣] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم \* نَزَّلَ الْكِتَابَ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ \* غَافِرٍ ..... ٤٠١

[٤ و ٥] مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبِلَادِ \* ..... ٤٠٢

- [٩-٦] وَكَذَلِكَ خَفَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ \* الَّذِينَ ..... ٤٠٣
- [١٠-١٢] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَادَوْنَ لَمَعْتُ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُمْ إِذَا نَادَوْا إِلَى ..... ٤٠٥
- [١٣-١٥] هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُزِيلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُبِيتُ \* ..... ٤٠٦
- [١٦] يَوْمَ هُمْ بَارُودُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ قَدْ الْوَحِيدُ ..... ٤٠٨
- [١٧ و ١٨] الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ \* ..... ٤٠٩
- [١٩ ر ٢٠] يَلْمِزُكَ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ \* وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ ..... ٤٠٩
- [٢١ و ٢٢] أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ..... ٤١٠
- [٢٣-٢٧] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ \* إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ ..... ٤١١
- [٢٨-٣٣] وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ ..... ٤١٢
- [٣٤ و ٣٥] وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى ..... ٤١٥
- [٣٦-٣٨] وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْثَابِ \* أَسْثَابِ ..... ٤١٦
- [٣٩-٤٢] يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْبَيْتَةُ الَّتِي تَتَاعَوْنَ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ \* مَنْ عَمِلَ ..... ٤١٧
- [٤٣-٤٥] لَا حَرَمَ إِنَّمَا نَدْعُوْنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ ..... ٤١٨
- [٤٦] النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ ..... ٤٢٠
- [٤٧ و ٤٨] وَإِذْ يَتَحَاوَجُونَ فِي النَّارِ يَقُولُ الْأَغْنَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَخْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ..... ٤٢١
- [٤٩ و ٥٠] وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنْ ..... ٤٢١
- [٥١ و ٥٢] إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ \* يَوْمَ ..... ٤٢٢
- [٥٣-٥٥] وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهَدْيَ وَأَوْزَنَّا بَيْنَ إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ \* هَدًى وَذِكْرَى ..... ٤٢٣
- [٥٦] إِنَّ الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي ضُلُوبِهِمْ إِلَّا كِبِيرٌ ..... ٤٢٣
- [٥٧ و ٥٨] الْخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا ..... ٤٢٤
- [٥٩ و ٦٠] إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ \* وَقَالَ رَبُّكُمْ ..... ٤٢٥
- [٦١] اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النَّفْلَ لِتَشْكُرُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ..... ٤٢٦
- [٦٢-٦٥] ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا تَوْكَانَ \* كَذَلِكَ يُؤَفِّكُ ..... ٤٢٧
- [٦٦] قُلْ إِنِّي نَبِيٌّ أَنُعِيتُ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ ..... ٤٢٨
- [٦٧ و ٦٨] هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ ثُمَّ مِنْ عُلُقَةٍ ثُمَّ يَغْرِحُكُمْ وَطْفَلًا ثُمَّ ..... ٤٢٨
- [٦٩-٧٤] أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُمْ يُضِرُّونَ \* الَّذِينَ كَذَّبُوا ..... ٤٢٩
- [٧٥-٧٧] ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ \* ..... ٤٣١
- [٧٨] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَضَيْنَا عَلَيْهِمْ وَبِهِمْ مَنْ لَمْ نَقْضِ ..... ٤٣١
- [٧٩ و ٨٠] اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ \* وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ..... ٤٣٢
- [٨١ و ٨٢] وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ \* أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرُوا ..... ٤٣٣

[٨٣-٨٥] فَلَمَّا جَاءَهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا .....

٤٣٤ ..... في تفسير سورة فصلت

[٥٠-٥١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم \* نَزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ \* كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ .....

٤٣٧ ..... [٧ و ٦] قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاذْكُرُوا لِلَّهِ .....

٤٣٨ ..... [١١-١٢] إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ \* قُلْ ءَالِكُمْ .....

٤٤٠ ..... [١٢] نَفَضَاهُمْ سِنْعَ سَمَازَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَبَّنَا .....

٤٤٢ ..... [١٣ و ١٤] إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ \* وَإِذْ جَاءَهُمْ .....

٤٤٤ ..... [١٥-١٨] فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ .....

٤٤٥ ..... [١٩ و ٢١] وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ \* حَتَّى إِذَا مَا جَاءَهَا مَا .....

٤٤٧ ..... [٢٢-٢٥] مَا كُنْتُمْ تَشْتَرُونَ أَنْ يَسْهَبَ عَلَيْهِمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ .....

٤٤٩ ..... [٢٦-٢٩] وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ \* .....

٤٥٠ ..... [٣٠] إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْهَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَتَخَفُوا وَلَا .....

٤٥٢ ..... [٣١-٣٣] تَخُنْ أُولَئِكَ رُبُّنَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى .....

٤٥٣ ..... [٣٤] وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ .....

٤٥٤ ..... [٣٥-٣٧] وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ \* وَإِذَا يَنْزِعُكَ .....

٤٥٥ ..... [٣٨ و ٣٩] إِنَّا نَسْتَكْبِرُ فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يَسْتَحْسِنُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَوْنَ .....

٤٥٦ ..... [٤٠-٤٣] إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ .....

٤٥٧ ..... [٤٤] وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ .....

٤٥٩ ..... [٤٥ و ٤٦] وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ .....

٤٦٠ ..... [٤٧ و ٤٨] إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى .....

٤٦١ ..... [٤٩ و ٥٠] لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُبْذَرُ قَنُوطٌ \* وَلَئِنْ .....

٤٦١ ..... [٥١ و ٥٢] وَإِذَا نَعَّمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أُغْرِضَ نَأْيُ بَجَائِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذَرْ دَعَاءَ .....

٤٦٢ ..... [٥٣ و ٥٤] سَرَّيْهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ اللَّهَ الْحَقُّ أَوَلَمْ .....

٤٦٣ ..... في تفسير سورة الشورى

٤٦٥ ..... [١-٣] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم \* عَسَى \* كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ .....

٤٦٥ ..... [٤ و ٥] هُوَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ \* تَكَادُ السَّمَاوَاتُ .....

٤٦٦ ..... [٦ و ٧] الَّذِينَ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِيَاءَ اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ \* .....

٤٦٧ ..... [٨ و ٩] وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَبْدُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ .....

٤٦٨ ..... [١٠] وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ .....

٤٦٨ ..... [١١ و ١٢] فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنْ الْأَنْعَامِ .....

٤٦٩ ..... [١١ و ١٢] فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنْ الْأَنْعَامِ .....

- [١٣] نَسَخَ لَكُمْ مِنَ الَّذِينَ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ ..... ٤٧٠
- [١٤ و ١٥] وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بِنِعْمَتِهِمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ ..... ٤٧٢
- [١٦- ١٨] وَالَّذِينَ يَبْخُلُونَ فِي آتِهِ مِنْ بَعْدِ مَا أَسْجَبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ ..... ٤٧٣
- [١٩] اللَّهُ لَئِيلُفٍ بِعِبَادِهِ يُزِيلُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ..... ٤٧٤
- [٢٠] مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا ..... ٤٧٥
- [٢١- ٢٣] أَلَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ ..... ٤٧٦
- [٢٣] قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ..... ٤٧٧
- [٢٣] وَمَنْ يَتَرَفَّ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ..... ٤٨٠
- [٢٤] أَلَمْ يَقُولُوا اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَاءِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ ..... ٤٨١
- [٢٥] وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا ..... ٤٨٢
- [٢٦] وَبَسَّجِبَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ ..... ٤٨٣
- [٢٧] وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الْوَزْنَ لَعَادَهُ لَبِغَا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يَنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ ..... ٤٨٤
- [٢٨ و ٢٩] وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ..... ٤٨٥
- [٣٠ و ٣١] وَأَصَابَكُمْ مِنْ مَصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ \* وَمَا أَنْتُمْ ..... ٤٨٥
- [٣٢- ٣٥] وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ \* إِنْ يَشَاءِ يُسَكِّنِ الرِّيحَ يَبْطُلَنَّ ..... ٤٨٦
- [٣٦- ٣٩] لَمَّا أُوْتِيتُمْ مِنْ رَبِّي فَمَتَّاعِ الْخَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ..... ٤٨٧
- [٤٠] وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ..... ٤٨٩
- [٤١- ٤٣] وَلَمْ يَنْصَرِفْ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ \* إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى ..... ٤٩٠
- [٤٤- ٤٦] وَمَنْ يَضِلِّي اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ ..... ٤٩١
- [٤٧ و ٤٨] أَسْجَبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَنَ يَوْمٌ لَا مَرَدُّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ ..... ٤٩٢
- [٤٨] إِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَبَّ بِهَا وَإِنْ نَصَبْنَاهُمْ سَبِيلَةً بَمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ..... ٤٩٢
- [٤٩ و ٥٠] اللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّا لَهُ نَهَبٌ لِمَنْ ..... ٤٩٣
- [٥١] وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَخْبًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ..... ٤٩٤
- [٥٢ و ٥٣] وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ..... ٤٩٥

في تفسير سورة الزخرف ..... ٤٩٧

- [١- ٣] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم \* وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ \* إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ ..... ٤٩٧
- [٤] وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدُنَّا لَعَلٌّ حَكِيمٌ ..... ٤٩٧
- [٥- ٨] أَنْتَضَرِبَ عَنْكُمْ الدُّكُورُ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُشْرِفِينَ \* وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ ..... ٤٩٨
- [٩- ١٢] وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ \* ..... ٤٩٩
- [١٢- ١٤] وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ \* لَتَسْتَغْوُوا عَلَى ظُهُورِهِمْ ..... ٥٠٠



- [١٥ و ١٦] وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ \* أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ ٥٠٢
- [١٧ و ١٨] وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ \* ٥٠٢
- [١٩ و ٢٠] وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ ٥٠٣
- [٢١-٢٤] أَلَمْ أَتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ \* بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا ٥٠٤
- [٢٥-٢٨] فَاتَّخَفْنَا مِنْهُمْ خِيفَةً قَدْ عَابَنَاهُ الْكُذَّابِينَ \* وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ٥٠٥
- [٢٩ و ٣٠] بَلِّغْهُنَّ هُنَّ لَكَ وَأَبْنَاءُ هُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ \* وَلَمَّا جَاءَهُمْ ٥٠٦
- [٣١] قَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ٥٠٦
- [٣٢] أَهُمْ بِغُسْمُونَ رَبَّ مَا نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ٥٠٧
- [٣٣-٣٥] وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوبِخَهُمْ سُفْهًا ٥٠٩
- [٣٦ و ٣٧] وَمَنْ يَبْغُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفْضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ \* وَإِنَّهُمْ ٥١٠
- [٣٨ و ٣٩] حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ قَالَ يَأْتِلَتُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْبَسُ الْقَرْيُنُ \* ٥١١
- [٤٠-٤٢] فَأَنَّتْ تَسْمَعُ الصَّمْعَ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ \* فَإِنَّمَا ٥١٢
- [٤٣ و ٤٤] فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ \* وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ ٥١٣
- [٤٥] وَأَنَّا لَمِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَلْجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً ٥١٤
- [٤٦-٥٢] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٥١٥
- [٥٣-٥٦] فَلَوْلَا أُلْفِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ \* ٥١٧
- [٥٧] وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُون. ٥١٩
- [٥٨-٦٠] قَالُوا أَلَهِنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ \* إِنْ ٥٢٠
- [٦١ و ٦٢] وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلشَّاعَةِ فَلَا تَمُوتُنَّ فِيهَا وَابْتَغُوا هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ \* وَلَا ٥٢١
- [٦٣-٦٦] وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي ٥٢٢
- [٦٧] الْأَجْلَاءُ يُؤْمِنُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوًّا إِلَّا الْمُتَّقِينَ ٥٢٣
- [٦٨-٧١] يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ \* الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا ٥٢٤
- [٧٢-٧٦] وَرَبُّكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ \* لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا ٥٢٥
- [٧٧ و ٧٨] وَتَادُوا بِأَمْوَالِكُمْ لِيَفْضَ عَلَيْهَا رَبُّكَ قَالِ إِنَّكُمْ تَأْكُلُونَ \* لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ ٥٢٦
- [٧٩-٨١] أَلَمْ يُزَيِّنُوا لَكُمْ فَأَنَّا مُبْرَمُونَ \* أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سُرُوحَهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ ٥٢٦
- [٨٢ و ٨٣] سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ \* فَذَرْهُمْ ٥٢٧
- [٨٤-٨٦] وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ \* وَتَبَارَكَ ٥٢٨
- [٨٧-٨٩] وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَلْفَىٰ يَوْمَئِذٍ كَذِبُونَ \* وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ ٥٢٩
- في تفسير سورة الدخان ٥٣١
- [٩٠-٩١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم \* وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ \* إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا ٥٣١

[٦-٤] فِيهَا يُغْرَقُ كُلُّ أُنْثَىٰ حَكِيمٍ \* أُنْثَىٰ مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ \* رَحْمَةً مِنْ ..... ٥٣٢

[٨ و ٧] رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ \* لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي ..... ٥٣٣

[١٢-٩] بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ \* فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ \* يُغشى ..... ٥٣٣

[١٦-١٣] إِنِّي لَهُمُ اللَّذِيذِيُّ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ \* ثُمَّ تُنَوَّلُ عَنْتُهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ ..... ٥٣٥

[١٩-١٧] وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ \* أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ..... ٥٣٥

[٢٨-١٩] إِنِّي أَنَا إِلَهُكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ \* وَإِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تُرْجِعُون \* وَإِنْ لَمْ ..... ٥٣٦

[٢٩] فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ..... ٥٣٧

[٣٣-٣٠] وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ \* مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنْ ..... ٥٣٨

[٣٧-٣٤] إِنْ هُوَ إِلَّا لَيَقُولُنَّ \* إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ \* فَأَنذَرُوا ..... ٥٣٩

[٤٢-٣٨] وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ \* مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا ..... ٥٤٠

[٥٠-٤٣] إِنْ شَجَرَةُ الْوُحُوشِ \* طَعَامُ الْإِنْسَانِ \* كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُيُوتِ \* كَغَلْيِ ..... ٥٤٠

[٥٥-٥١] إِنْ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ \* فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ \* يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ ..... ٥٤١

[٥٩-٥٦] لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتُ إِلَّا مَوْتُهُ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ \* فَضْلًا ..... ٥٤٢

في تفسير سورة الجاثية ..... ٥٤٥

[٥-١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم \* نَزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ..... ٥٤٥

[٧ و ٦] نَكَاتُكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنَلُّوهُمَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَأَيَاتُهُ يُؤْمِنُونَ \* ..... ٥٤٦

[٨] يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ ..... ٥٤٧

[١١-٩] وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ \* مِنْ ..... ٥٤٧

[١٣ و ١٢] اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِنَجْرِهِ الْفُلْكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِنَسْتَعْمُوا مِنْ فَضْلِهِ ..... ٥٤٨

[١٤] قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَبَاقًا اللَّهُ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا ..... ٥٤٩

[١٨-١٥] مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ \* وَلَقَدْ ..... ٥٥٠

[٢٠ و ١٩] إِلَهُهُمْ لَنْ يَغْفِرُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ ..... ٥٥١

[٢١] ثُمَّ حَسِبَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَنْ يَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ..... ٥٥٢

[٢٣ و ٢٢] وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَتَجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا ..... ٥٥٣

[٢٤] وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم ..... ٥٥٤

[٢٧-٢٥] وَإِذَا تُنْذِرَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا نَبِّئَاتٍ مَا كَانَ حَسْبُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعُوا آبَاءَنَا إِنْ ..... ٥٥٥

[٢٩ و ٢٨] أُنْزِلَ كُلُّ أُنْثَىٰ جَانِيَةً كُلُّ أُنْثَىٰ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ..... ٥٥٦

[٣٥-٣٠] فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ ..... ٥٥٨

[٣٧-٣٥] قَالَتِيزَمَ لَا يُخْرِجُونَنَا مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ \* فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ ..... ٥٦٠

في تفسير سورة الأحقاف ..... ٥٦٣

- [٣-١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم \* نَزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ \* مَا خَلَقْنَا ..... ٥٦٣
- [٤] قُلْ أَتُزَيِّمُونَ مَا نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْ نَبُوءُ مَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَكُمْ ..... ٥٦٤
- [٥-٧] وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ ..... ٥٦٤
- [٨] أَمْ يَقُولُونَ افْعَلْ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنْ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا ..... ٥٦٥
- [٩] قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا ..... ٥٦٦
- [١٠] قُلْ أَتُزَيِّمُونَ إِنْ كُنَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ..... ٥٦٧
- [١١] وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ..... ٥٦٨
- [١٢-١٤] وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ..... ٥٦٩
- [١٥] وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ ..... ٥٧٠
- [١٥-١٦] حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ..... ٥٧١
- [١٧-١٨] وَالَّذِي قَالَ لِيُؤَدِّيهِ أَفْ كَمَا اتَّعَدَّيْنِي أَنْ أَخْرُجَ وَقَدْ خَلْتُ النَّفْرُونَ مِنْ ..... ٥٧٤
- [١٩-٢٠] وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْتِيَهُمْ أَجْرَهُم بِمَا عَمِلُوا \* وَيَوْمَ ..... ٥٧٥
- [٢١-٢٥] وَأَنْذَرْتُ أَخَا عَادَ إِذْ أَنْذَرْتُهُمْ بِالْآخْفَابِ وَقَدْ خَلَّتِ الْمُدْرَارُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ ..... ٥٧٧
- [٢٦-٢٨] وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَبَصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا ..... ٥٧٩
- [٢٩-٣١] وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ..... ٥٨٠
- [٣٢] وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ..... ٥٨٢
- [٣٣-٣٥] أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لَهُمْ ..... ٥٨٣
- في تفسير سورة محمد ..... ٥٨٧
- [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلُّ أَعْمَالَهُمْ ..... ٥٨٧
- [٢-٣] وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ ..... ٥٨٨
- [٤] فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَصَرْبِ الْعِقَابِ حَتَّىٰ إِذَا آخِذْتُمُوهُمْ فَتَشَارُوا ..... ٥٨٩
- [٤-٦] وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِنَبْلُوًا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قِيلُوا فِي ..... ٥٩١
- [٧-٩] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَصَرَّوْا أَنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ وَتُبَيِّنُوا لَهُمُ الْبَيِّنَاتِ \* وَالَّذِينَ ..... ٥٩٢
- [١٠-١٢] أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ ..... ٥٩٢
- [١٣-١٤] وَكَأَيُّنَ مِنْ قَوْمٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَوْمِكِ الْيَوْمِ أَخْرَجْنَاكَ مِنْ مَلِكِنَاهُمْ فَلَا ..... ٥٩٣
- [١٥] مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ ..... ٥٩٤
- [١٦-١٧] وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ..... ٥٩٥
- [١٨] قَهْلُ يُنْظَرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا ..... ٥٩٦
- [١٩] فَأَعْلَمُ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَفْهِمُوا لَذِكْرِ اللَّهِ وَاللَّيْلِ وَالنَّوْمِ وَاللَّيْلِ وَالنَّوْمِ ..... ٥٩٧
- [٢٠-٢٢] وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ..... ٥٩٨

- [٢٣ و ٢٤] أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَأَصْلُهُمْ تَوَّابٌ \* أُولَئِكَ يَتَذَكَّرُونَ ..... ٥٩٩
- [٢٥ و ٢٦] الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الْعَصِیَانُ سَوَّلَ ..... ٦٠٠
- [٢٧ و ٢٨] لَنَجْذِبَنَّ إِذَا تَوَلَّيْتُمْ الْمَلَائِكَةَ بَصَرِيًّا وَجُوهَهُمْ وَذُنُوبُهُمْ \* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ..... ٦٠١
- [٢٩ و ٣١] أَلَمْ حَسِبِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنَّ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْعَافَهُمْ \* وَلَوْ نَشَاءُ ..... ٦٠٢
- [٣٢ و ٣٣] الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ..... ٦٠٤
- [٣٤ و ٣٥] الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ..... ٦٠٥
- [٣٦ و ٣٧] إِنَّمَا الْخِثَاءُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفَنِّمُوا وَتَتَّقُوا يَوْمَ تُؤْخَذُكُمْ وَلَا يُنْصَلَكُكُمْ ..... ٦٠٥
- [٣٨] هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُشْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِمَّنْ مَن يَخْلُ مِنْ يَخْلُ وَمَنْ يَخْلُ ..... ٦٠٦

في تفسير سورة الفتح

- [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ..... ٦٠٩
- [٢ و ٣] لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ ..... ٦١٩
- [٤ و ٥] هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُزْذَكِّرُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَبِهِ ..... ٦٢٠
- [٦] وَيُعَذِّبُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ طَى ..... ٦٢١
- [٧ و ٨] وَبِهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَرِيبًا حَكِيمًا \* إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ ..... ٦٢٢
- [٩ و ١٠] لِلْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُهُ وَتُوَفِّرُهُ وَتَسْخُوهُ بِكُرَّةٍ وَأَصِيلًا \* إِنَّ الَّذِينَ ..... ٦٢٣
- [١١] سَبَقُوا لَكَ الْمُخْلَقُونَ مِنَ الْأَغْرَابِ شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَعْلَوْنَا فاستغفروا لنا ..... ٦٢٤
- [١٢ و ١٣] بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي ..... ٦٢٥
- [١٤ و ١٥] وَبِهِ مَلَكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ ..... ٦٢٦
- [١٥ و ١٦] بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا \* قُلِ لِلْمُخْلَفِينَ مِنَ الْأَغْرَابِ سُدْعَةٌ إِلَىٰ قَوْمٍ ..... ٦٢٧
- [١٧ و ١٩] أَلَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ..... ٦٢٨
- [٢٠] وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَعَانٍ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلْ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ ..... ٦٢٩
- [٢١ و ٢٣] وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا \* ..... ٦٣٢
- [٢٤] وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَرْفِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ ..... ٦٣٣
- [٢٥] هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهُدَىٰ مَعَكُمَا أَنْ يُبَلِّغَ ..... ٦٣٦
- [٢٦] إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ ..... ٦٣٧
- [٢٧] أَلَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْوَدْيَا بِالْحَقِّ لَنُدْخِلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ..... ٦٣٩
- [٢٨ و ٢٩] هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى ..... ٦٤٠
- [٢٩] كَرَجٍ أَخْرَجَ شِقَاقَهُ فَأَرَادَهُ فاستغلظ فاستوىٰ عَلَىٰ سُوْبِهِ يُعْجِبُ الْوَدَّاعَ لِيُغِيظَ ..... ٦٤٢